


مجلة
الطالبة



صورة مجنون ليلي بين الحيوانات في الصحراء . من عمل المصور ميرك في مخطوط من قصائد الشاعر نظامي محفوظ بالمتحف البريطاني ومكتوب بقلم الخطاط الايراني المشهور شاه محمود نيشابوري . وقد بدأه للشاه طهماسب في تبريز سنة ١٥٣٩ وانتهى من كتابته سنة ١٥٤٣

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثالث والتسعين

١ يوليو سنة ١٩٣٨ — ٣ جمادى الاولى سنة ١٣٥٧

تفسير طبائع العناصر

بعدد الكهربات وترتيبها حول النواة

ما السرّ في ليونة الذهب وقساوة الكربون وسير التيّار الكهربائي

للفلزات اوصاف هي قوام شخصيتها على ما نحو ما للناس اوصاف بها يتميز انسان عن آخر. فبعض الفلزات كالذهب والفضة والنحاس ليّن يمدّ اسلاكاً ويطرق رقوقاً لا تزيد سماكة احدها على جزء من الف جزءٍ من البوصة ومع ذلك تظلّ اجزاؤها متصلة مرتبطة بعضها ببعض. هذه الفلزات هي خير موصلات الكهربائية المعروفة. وهناك فلزات اخرى كالتنغستن والفناديوم والكروم والبزموت قاسية لا تلين فاذا طرقت بمطرقة تفرقت اجزاؤها كسراً او تهاوت مسحوقاً. ولكن سلكاً من التنغستن هو خير ما يُرغب فيه للمصابيح الكهربائية المتوهجة، لان هذا الفلز موصل رديء للكهربائية فمقاومته اسريان تيارها فيه يرفع حرارته حتى تبلغ درجة البياض. ومن بواعث الاغتباط ان درجة انصهاره عاليةٍ جدًّا

ولا يخفى ان الفلزات النقية عناصر كيمياوية كالعناصر الاخرى — كالكربون والكبريت والنيون. فهل كشف العلم اسلوباً من الاساليب يمكنهُ من تفسير هذه الخواص التي تميّز شخصية عنصر عن شخصية عنصر آخر او يجب ان نسلّم بانها خواص أغدقتها عليها الطبيعة وكفى. أفي وسع العلم ان يفسّر السرّ في ان الالماس — وهو كربون صرف — اقسى المواد المعروفة على الاطلاق ومانع لسريان التيار الكهربائي فيه. او ان النيون غازٌ والكبريت تصف قابل للتفتت وعازل

جيّد ؟ وهل نستطيع ان نكشف عن السبب في لين النحاس وحسن توصيله للكهربائية ، وقساوة التيتانيوم وكونه موصلاً رديئاً لها ؟

ان السلوك الانساني مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعوامل الوراثة التي تضبط الصفات الوراثية وكذلك تصرف العناصر مرتبط على ما يلوح بالكهيربات (الكهارب او الالكترونات). وقد انقضى اكثر من قرن من الزمان منذ أثبت دلتن ان قوام العناصر ذرات atoms وان ذرات كلّ عنصر متشابهة فاذا اخذنا شذرة من الذهب ونظرنا اليها فانما ننظر الى ملايين الملايين من ذرات الذهب مرتبة على نمط خاص وكل ذرة منها مرتبطة بالذرة الاخرى بطريقة خفية . وفي الالماس كذلك نجد هذا الترتيب ترتيب الذرات وهو أدق نظاماً منهُ في الذهب

فما هو العامل الذي يعين هذا الترتيب ؟

والجواب : هو عدد الكهيربات وترتيبها

نفذ العلم في العصر الحديث الى الذرّة ، فكشف ان الذرّة ليست كرة قاسية بل هي في نظر علمائه نظام معقد البناء . وقد تشبّه كل ذرّة بجماعة من الجنود في حالة المناورة . فالجماعات الكبيرة يقابلها بين الذرّات ذرات العناصر الثقيلة . والجماعات الصغيرة تقابلها ذرات العناصر الخفيفة . وفي قلب الجماعة تتركز القوة يقابلها في الذرة نواتها حيث تتركز الكتلة . وعلى حواشي الجيش الكشافون والحرّاس يقابلهم في الذرة الكهيربات التي تدور في مدارات بعيدة عن النواة . فذرات العناصر الخفيفة تجد فيها عدد الكهيربات الخارجية قليلاً ، على نحو ما تجد الكشافين والحراس الذين يحيطون بجماعة صغيرة من الجيش قلائل . وأما ذرات العناصر الكبيرة فتجد فيها الكهيربات الخارجية كثيرة ولها اكثر من مدار واحد على نحو ما يتحرك الكشافون الكثار حول جيش كبير في مناطق متراكزة متعددة . وكذلك نستطيع ان نتخيل الذرة كتلة مركزية تعرف بالنواة ، صغيرة الحجم كبيرة الكتلة ، تحيط بها على مسافات منها الكهيربات ، وعدد هذه الكهيربات يتفاوت وفقاً لكتلة النواة

الى هذه الكهيربات الخارجية المردُّ في فهم خواص العناصر . فالكشافون في كل جيش منظم ، لهم مواقع معينة يتربصون فيها . وكذلك في ذرات العناصر . فخارج النواة مناطق او كرات مفرغة خيالية تتحرك الكهيربات فيها . وكل منطقة منها لا تتسع لاكثر من ثمانية كهيربات الاَّ المنطقة الاولى فانها تكتفي احياناً بكهيربين . فاذا تمَّ العدد في المنطقة الاولى التي حول النواة ، وكان لتلك الذرة اكثر من كهيربين ، وجب على الكهيربات الباقية ان تنتظم في منطقة تالية خارج المنطقة الاولى . فاذا احتشدت المنطقة الثانية بثمانية كهيربات وكان للذرَّة اكثر من عشرة كهيربات وجب على الكهيربات الباقية ان تنتظم في منطقة ثالثة وهلمَّ جرًّا

على ان بعض العناصر لهُ من الكهيربات ما يؤلف منطقة كاملة او منطقتين كاملتين. فالذرَّة في هذا العنصر كاملة قوى الدفاع . لا تحتاج الى نجدة من غيرها . فتسير في طريقها مستقلة عن رفاقها . واذا كان تركيبها الكهيربي ، يميّزها بهذه الصفة ، فتجمع الذرَّات التي من هذا القبيل ممتنع ، والمادة التي ذرَّاتها على هذا النمط تكون غازات . ومن هذه العناصر الهليوم والنيون والارجون وهي الغازات التي لا تتفاعل تفاعلاً كيماويًّا الاَّ بالقوة. فللهليوم كهيربان يؤلفان منطقتهُ الاولى. وللنيون عشرة كهيربات تؤلفان منطقتين حول نواته أولاهما فيها كهيربان والثانية فيها ثمانية

إن هذه الكهيربات التي خارج النواة ، تقوم بحراسة النواة ، فتثبت في أماكنها ، إلاَّ اذا أصابتها قوة فائقة تبعدها من أماكنها ولكنها لا تلبث حتى تعود اليها. والعالم يفسّر التألق الملوَّن في غاز النيون بحركة هذه الكهيربات وقد ابعدت من اماكنها بقوة التيار الكهربائي ثم عادت اليها

واذا كانت الغازات (النبيلة) كالنيون والارجون متصفة بالاكتفاء الذاتي في ذرَّاتها ، والميل الى العزلة فلا تتجمع هذه الذرات، فان الالماس يخالف هذه الغازات على خط مستقيم ، ذلك ان ذرَّاته لا يسعها ان تعيش وحدها ، بل هي أبداً متشابكة بالذرات الاخرى متعاونة معها

والالماس كما تعلم كربون صرف . ولذرته ستة كهيربات يحيط بالنواة اثنان منها في المنطقة الاولى حول النواة والاربعة الباقية في المنطقة التالية . ولكن منطقة الكهيربات حول النواة لا تستقر الاَّ اذا اصبحت تحتوي على ثمانية كهيربات . واذن فالذرة من الكربون تسعى بطبيعة تركيبها الى ان يصبح حولها ثمانية كهيربات . ولما كانت كل ذرة كربون من هذا القبيل فمن الطبيعي ان تتعاون الذرات معاً على الاشتراك في تحقيق مطالب بعضها بعضاً . وهذا الاشتراك يكون على الطريقة التالية : في الوسط ذرة كربون حول نواتها أربعة كهيربات . فاذا كانت ذرة أخرى على مقربة منها تجاذبت الذرتان فتشتركان في كهيربين . فاذا كانت حول الذرة الاصلية أربع ذرات استطاعت ان تشترك مع كل منها في كهربين فتصبح ومنطقة كهيرباتها كاملة العدد اي فيها ثمانية كهيربات . أما الذرات التي حول ذرتنا الاصلية فتسعى بالطريقة نفسها الى التعاون مع ذرات أخرى وكذلك تتشابك الذرات جميعاً . (أنظر الصورة) ولما كان هذا الفعل لا حدَّ لهُ فحجم بلورة الالماس لا حدَّ لهُ كذلك من الناحية النظرية . فاذا أدركنا هذا التماسك بين ذرات الكربون ، وكيف تشتبك باشتراكها جميعاً بعضها في ذرات بعض فهمنا سرَّ قساوته

الاَّ ان هناك مسألة لا بدَّ من تفسيرها في اشتباك هذه الكهيربات بعضها ببعض في ذرات الكربون . فالمعلوم ان الكهيربات سالبة الكهربائية . والدقائق المشحونة شحنة كهربائية من نوع واحد تتنافر وتتباعد . فكيف تستطيع هذه الكهيربات في ذرات الكربون المختلفة ان تتشابك وتتماسك على نحو ما فسّرنا ووضحنا في الرسم . والرأي ان هذه الكهيربات تدور على

محاورها دوراناً سريعاً جدًّا فتنشيء في دورانها حقلاً مغنطيسيًّا حولها . فاذا كان كهيربان من ذرتين متجاورتين يدوران في اتجاه واحد دفع أحدهما الآخر ، اما اذا كانا يدوران في اتجاهين متناقضين فان الحقلين يشتبكان فيتماسك الكهيربان

أما عنصر السليكون فذرتهُ أثقل من ذرة الكربون وأكبر وفيها ١٤ كهيرباً . فاثنان فثمانية منها تنشيء حول النواة منطقتين مستقرَّتين مكتفيتين ، والاربعة الباقية تكون حول المنطقة الاولى غير مكتفية ولا مستقرَّة ، بل تميل الى إكمال نفسها على نحو ما تفعل ذرة الكربون ولذلك نجد ان صفات الكربون والسليكون متشابهة . وعلى ذلك يستطاع ان ترتبط ذرة من الكربون بذرة من السليكون كما ترتبط ذرتان من الكربون او من السليكون . فاذا ارتبطتا كان لنا كاربيد السليكون (كاربورندوم) وهو يكاد يجاري الالماس قساوة ويستعمل للحك (abrasion) . واذن يصح ان نقول ان العناصر التي تترابط ذراتها هذا النوع من الترابط هي على العموم مواد قاسية قصفة

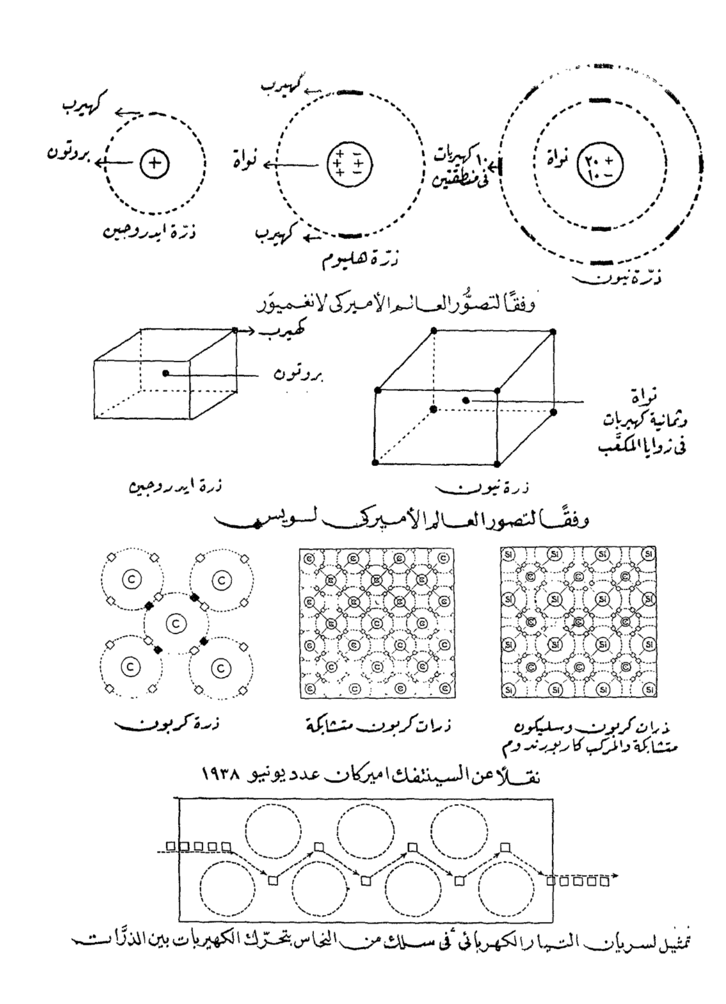
فاذا التفتنا الى الفلزات رأينا ذرة النحاس ولها في منطقتها الخارجية — أي في أبعد مناطق الكهيربات عن النواة — كهيربٌ واحد[1] . فاذا عدنا الى التشبيه العسكري وجدنا ان هذه الجماعة الكبيرة من الجيش (المقابلة لذرة كبيرة) لها حارس واحد . وهذا الحارس يحتاج الى ان يكون سريع التنقل لكي يتمكن من القيام بمهمته . فهو يحرس حيناً ناحيةً من جماعتهِ ثم يسرع في الانتقال الى الناحية الاخرى . وكذلك يتنقل هذا الكهيرب حول ذرَّتهِ فكأنهُ يتنقل بين الذرات. ففي هذه الحالة هذه لا يمكن ان تكون كتلة النحاس كتلة جامدة لان الكهيربات دائمة التنقل للوقوف في مواقع جديدة وفقاً لمقتضيات الحالة . ولكن الحارس في الجيش ، والكهيرب المفرد في ما بين ذرَّات النحاس، يحفظ الصلة بين وحدات الجيش و بين ذرَّات النحاس

ولذلك نجد النحاس مرناً ، يمكن طرقه رقوقاً ومده اسلاكاً من غير ان ينقصف . ولا يخفى ان النحاس موصل جيد للكهربائية والحرارة ، وأما الالماس فلا يوصل احداهما . والحرارة تزيد اهتزاز الذرَّات . فالذرَّات المتحركة تستطيع ان تنقل اهتزازها من ذرَّة الى أخرى حالة ان الذرَّات الجامدة في مكانها لا تستطيع ذلك . وبهذا تفسَّر قدرة النحاس على توصيل الحرارة وعجز الالماس عن ذلك

والعلم الحديث يحسب التيار الكهربائي تياراً من الكهيربات. فعندما يندفع عدد من الكهيربات من بطرية كهربائية الى طرف سلك يحدث تحرك في الكهيربات التي في ذلك السلك من أوله الى آخره . فكأن أمامنا صفًّا من حجارة « الدومينو » (راجع الصورة) فاذا أضفت الى

---

[1] هذا القول للدكتور سدني فرنش استاذ الكيمياء المساعد في جامعة كولجيت الاميركية في السينتفك اميركان ولكن عدد النحاس الذري ٢٩ فله ٢٩ كهيرباً ولا يمكن ترتيبها وفقاً لقاعدة الثمانية بحيث يكون لها في قشرتها الخارجية كهيرب واحد الا اذا اخذنا بالقاعدة المبسوطة في الفقرة الثانية من صفحة ١٣٨ من هذا المقال



تمثيل لسريان التيار الكهربائي في سلك من النحاس بتحرك الكهيربات بين الذرات

احد طرفي هذا الصف حجراً جديداً وحرّكتهُ بحيث يحتل مكان الحجر الاول من ناحيتك حركت كلّ حجر في الصفّ من مكانهِ الى المكان الذي يليه

فاذا لم يكن في المادة كهيربات متحركة — مثل كهيربات النحاس الخارجية — تعذّر الايصال الكهربائي . وسهولة انتقال التيار مرتبطة بقدرة الكهيربات على التحرك وسرعتهِ . ولذلك نجد ان النحاس والذهب والفضة — وفي كل منها كهيرب واحد خارجي — خير المواد الموصلة للكهربائية. واما الالماس فالكهيربات فيهِ جامدة مربوطة بغيرهـا ثابتة في مكانها فهو لذلك لا يصلح موصلاً للكهربائية

***

وصفنا حتى الآن ثلاثة ضروب من القوام الكهيربي ، فثمة اولاً الذرة التي لها ثمانية كهيربات في حلقتها الخارجية فذراتها مستقرة ولا تتجمع . وثانياً الذرة التي بها اربع كهيربات في حلقتها الخارجية فهي تميل الى الاشتباك مع ذرّات من نوعها فيكون العنصر نفسهُ او المركبات التي تركب منهُ جامدة صلبة . وثالثاً الذرة التي لها كهيرب واحد في حلقتها الخارجية فهي ذرة مادة ليّنة تطرق وتمدّ وتوصل الكهربائية والحرارة . فالنوع الاول هو الغازات غير الفعّالة والثاني المواد القاسية القصفة والثالث الفلزات اللينة . فاذا أردنا ان نشبه أوصاف هذه العناصر بأخلاق الناس قلنا ان الاول يمثل خلق الرجل المكتفي بنفسهِ والثاني خلق الرجل الذي يميل الى التعاون والثالث الرجل الكثير التنقل والحركة — وبين هذه الانواع المحدّدة نجد ضروباً من الاخلاق متوسطة بين هذا وذاك او بين ذاك وذلك

ومن الفلزات عناصر لذراتها كهيربان خارجيان . فهي أقسى قليلاً من النحاس وأقل قليلاً منهُ ايصالاً للكهربائية والحرارة . اما الفلزات التي لذرّاتها ثلاثة كهيربات خارجية فهي أقسى من الفلزات الثانية وأقل ايصالاً منها للحرارة والكهربائية

ولكن عنصر التيتانيوم يستوقف نظرنا . فهو قاس قصفٌ وفي الوقت عينه موصل لا بأس بهِ للتيار الكهربائي . وهو فلزّ لا ريب فيهِ . الاّ ان لذرّتهِ في ابعد مناطقها عن النواة اربعة كهيربات . وهذه الصفة يجب ان تجعل خواصهُ قريبة او مشابهة من خواص الكربون . ولكنهُ ليس كذلك

واذاً فعدد الكهيربات في المنطقة الخارجية من الذرّة ليس بحدّ ذاتهِ العامل الحاسم الفرد في الموضوع دائماً . فعدد الكربون الذري ٦ اي لذرتهِ ستة كهيربات اثنان منها يؤلفان المنطقة الاولى المستقرة حول النواة والاربعة الاخرى تؤلف المنطقة الثانية وهي التي تشتبك بكهيربات ذرات اخرى من الكربون او بكهيربات ذرات السليكون . واما ذرة التيتانيوم فأكبر حجماً .

ذلك بان رقمها الذري ٢٢ اي ان لها ٢٢ كهرباً ، منها اثنان يؤلفان المنطقة الاولى حول النواة فيلي ذلك منطقتان كلٌّ منها ٨ كهيربات فثالثة فيها اربعة كهيربات . ولو كان عدد الذرَّات الخارجية وحده العامل الحاسم لشابه التيتانيوم والكربون . ولكن منطقة الكهيربات الاربعة ابعد عن النواة في ذرة التيتانيوم من الكهيربات الاربعة التي في ذرة الكربون . فاذا عدنا الى تشبيه الالكترونات الخارجية بالحرّاس في الجيش وجدنا ان كهيربات التيتانيوم الخارجية يجب ان تكون اسهل تحركاً وتنقلاً لاتساع المساحة التي عليها ان تحرسها . حالة ان صغر حجم الذرة في عنصر الكربون يجعل هذه الكهيربات اكثر استقراراً لضيق المساحة التي عليها ان تحرسها . ولذلك تختلف الخواص وفقاً لبعد الكهيربات الخارجية عن النواة كذلك

ثم هناك عامل آخر يميل بالعناصر الثقيلة الى طبائع الفلزات . فالذرات التي لها ثلاثة كهيربات خارجية او اكثر من ثلاثة ، يميل زوج من هذه الكهيربات الى الهبوط من منطقته الى منطقة اقرب الى النواة ، فيبقى في المنطقة الخارجية كهيرب واحد . وهذا يجعل بعض طبائعه شبيهاً بطبائع الفلزات . فعنصر الالومنيوم له ثلاثة كهيربات خارجية ، ولكنه مع ذلك يشبه الفلزات في لينهِ وايصالهِ للكهربائية . ولذلك يصح ان يوضع بين الفلزات في طبقة النحاس والذهب والفضة . والبزموت على الرغم من خمسة كهيربات خارجية ، وعلى الرغم من انهُ قاس وقصف ، يتصف ببعض اوصاف الفلزات . وطبائعهُ الفلزية تعزى الى كبر ذرتهِ والى ميل زوج من كهيرباته الخارجية الى السقوط من منطقتها الى منطقة أقرب منها الى نواة الذرَّة

فشخصيات العناصر لا تبدو في الكهيربات ، بل ان الكهيربات تعينها ويمكن معرفة خصائص العناصر من عددها وترتيبها حول النواة

ففي ناحية نجد الغازات « النبيلة » ممثلة في عنصر النيون — ذرّاتهُ مكتفية بذاتها لان منطقتها الخارجية من الكهيربات تحتوي على العدد الذهبي — ثمانية . ثم يليها الكربون وصفتهُ الخاصة الاشتراكية والتعاون . فكلّ ذرة من ذرّاتهِ مرتبطة باربع ذرّات أخرى عن طريق كهيرباتها الاربعة . ثم في الطرف الآخر نجد النحاس والفضة والذهب وغيرها وهي ليّنة قابلة للمدّ والطرق وذلك لان مناطقها الخارجية تحتوي على كهيرب او كهيربين او ثلاثة كهيربات فقط ولكن ما تخسرهُ الذرة في عدد كهيرباتها الخارجية تعوضهُ بسرعة حركة هذه الكهيربات وسهولة تنقلها والقاعدة الاساسية في هذا النظام هي قاعدة (الرقم ثمانية)

والبحث في طبائع العناصر ليس بالبحث الحديث . فقد حاول الكيمياوي الفرنسي الشهير لافوازييه من قرن ونصف قرن ان ينفذ الى السر في اختلاف طبائع العناصر فخاب في ما يصبو اليهِ ثم عمد برزيليوس السويدي الى ذلك فلم يكن أكثر توفيقاً من صاحبه الفرنسي . ثم كشف

مندليف الروسي الجدول الدوري وقاعدته انهُ اذا رتبت العناصر ترتيباً أفقيًّا بحسب أوزانها الذرية وجد ان العناصر التي أرقامها ١ و ٨ و ١٥ متشابهة الصفات اي ان العناصر التي تقع في كل خانة ثامنة في الجدول متشابهة فقال ان خواص العناصر صفات دورية لاوزانها الذرية . ثم كشفت النظرية الكهربية (الالكترونية) وتأيدت وأبتدع لوِس الاميركي صورة مكعبة للذرة فقال في قلب كل ذرة نواة وحول هذه النواة مكعبات تحتوي على عدد متباين من الكهيربات في أماكن معينة . وكل ذرة تميل الى ان يكون لها كهيرب واحد في كل زاوية من المكعب او المكعبات التي حولها . ثم جاء لنغميور وحوَّل صورة لوِس الذرية من صورة مكعبة الى صورة كروية

كان لنغميور قد تبين وهو يدرس الغازات عند معالجته فلز التنغستن وصلاحهُ ان يكون سلكاً للمصباح الكهربائي ، ان الهليوم عددهُ الذري ٢ والنيون عدده الذري ١٠ وان هذين العنصرين مستقرَّان من الناحية الكيمياوية لا فعل كيمياوي لهما يذكر . فقال في نفسهِ ان الكهيربات التي خارج النوى في ذرَّات هذين العنصرين يجب ان تكون مركبة تركيباً مستقرًّا يجعل الفعل الكيمياوي للعنصرين ضعيفاً او منتفياً . فتصور ذرَّة الهليوم مركبة من نواة وحولها كهيربان يدوران في كرة مفرغة حول النواة . وان هذا التركيب تركيب مستقر . وكذلك النيون لهُ حول نواتهِ عشرة كهيربات تدور في كرتين حول النواة ، الاولى وهي أقربهما الى النواة فيها كهيربان — مثل كهيربي الهليوم — والثانية فيها ثمانية كهيربات وهو بناء مستقر

اما الايدروجين فلهُ كهيرب واحد في الكرة المفرغة التي حول نواته . فذرتهُ اذاً تميل الى ان تكمل بناءها حتى تصبح مستقرة فتجذب اليها كهيرباً من ذرَّة اخرى . وهذا سرُّ فعل الايدروجين الكيمياوي . فاذا التقت ذرة الايدروجين بذرة اوكسجين في احوال مؤاتية — وذرة الاكسجين لها ٨ كهيربات اثنان في الكرة الاولى حول النواة وهو بناء مستقر والثانية فيها ستة كهيربات فهي تحتاج الى كهيربين لتصبح بناء مستقرًّا — تعاونت ذرتان من الايدروجين على ذرة من الاوكسجين فتأخذان بخناقها وتتحد الثلاث الذرَّات فيتركب جزي الماء وهو مستقرٌّ

وعلى هذا النسق مضى لنغميور في تطبيق هذا الرأي ففسَّر بهِ الالفة الكيمياوية والكفاءة الكيمياوية والنظائر . وعند الرجوع بجدول مندليف الدوري القائم على اساس قاعدة الثمانية الى ميدان الكهيربات نرى كيف يفسّر ترتيبهُ الذي ظهر فيهِ ان العنصر الثامن يشبه العنصر الاول ، ثم ان العنصر الثامن بعد ذلك — اي الخامس عشر في السلسلة الرقمية — يشبه الثامن والاول وهكذا . وقد كان اعتمادنا في كتابة هذا المقال على مجلة السينتفك اميركان على الغالب وكتب حديثة اخرى في الطبيعة والكيمياء

اسكر

للشاعر الفرنسي بودلير

كن دائماً سكران فالسر كله في السكر

اذا شئت ألاَّ تشعر بأعباء الزمان تنقض ظهرك وتميل بك الى الارض

اذا شئت ذلك فاسكر دائماً ولا تقف !

ولكن بمَ تسكر ؟ بالخمر او الشعر او الفضيلة او . . . ولكن اسكر

اذا كنتَ يوماً على درجات قصر او على بساط عشب،

او في عزلة قاطبة في حجرتك ، وتيقظت وقد نقص سكرك او هدأ —

فاسأل الرياح ، والامواج والكواكب والعصافير ،

واسأل الساعة ، وكلما يمرُّ ويقرُّ ، وكل ما يبكي ويئن،

وكل ما يتدحرج ، وكل ما يشدو وكل ما يتكلم .

اسألها عن الساعة . . . .

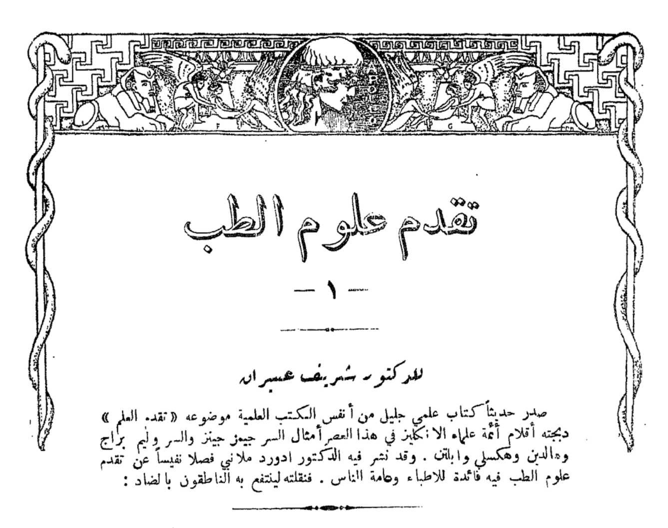
فالرياح والامواج والكواكب والعصافير والساعة ستجيبك :

« الساعة ساعة السكر »

اذا شئت ألاَّ تكون عبداً وضحية للزمان فاسكر واسكر

بدون انقطاع ،بخمر او بشعر او بفضيلة او بما ترغب

[نقلها : خليل هنداوي]



تقدم علوم الطب

— ١ —

للدكتور شريف عسيران

صدر حديثاً كتاب علمي جليل من أنفس الكتب العلمية موضوعه «تقدم العلم» دبجته أقلام أئمة علماء الانكليز في هذا العصر أمثال السر جيمز جينز والسر وليم براج وهالدين وهكسلي وابلتن. وقد نشر فيه الدكتور ادورد ملاني فصلا نفيساً عن تقدم علوم الطب فيه فائدة للاطباء وعامة الناس. فنقلته لينتفع به الناطقون بالضاد :

ان غرضي من هذه المحاضرة تلخيص علوم الطب في جميع العصور وقد اخترت هذا الموضوع لاني صرفت معظم اوقاتي في الاشتغال بالمشكلات الطبية ولاني رأيت ان اعرض موضوعاً لهُ صلة بحياة كل منا يزيد تقديرنا للخطوات الكبرى التي خطاها علم الحياة في العصر الحديث ولاسيما في عهدنا

من الحقائق الطريفة ان الناس كانوا مشغوفين منذ اقدم عصور التاريخ بدرس الامراض والقضاء عليها . ومن الغريب والحالة هذه ان لا تتقدم معرفة الامراض الحقيقية والسيطرة عليها قبل مائة سنة الاَّ تقدماً يسيراً . فما السبب يا ترى ؟ هل كان البشر في ذلك الوقت دوننا ذكاء؟. من المؤكد ليس هذا السبب لان البشر كانوا قديماً يجارونا ذكاء . ومن رأيي ان هناك ثلاثة اسباب للتأخر خلال تلك الحقبة . اولها : ضلال الناس قديماً — او ما يظهر ضلالاً — الطرق المؤدية الى نظرتهم الصحيحة للمشكلات الصحية والامراض . (٢) مضى على الانسان حين من الدهر قبل ان يدرك انهُ لا يستطيع فهم حقيقة الجسم الانساني ما لم يدرسهُ درساً مباشراً في حالتي الصحة والمرض . (٣) لم يقدر الناس الاختبارات العلمية نسبيًّا الاَّ في الازمنة المتأخرة فكان على الانسان ان يتدرب اولاً على قيمة الملاحظة ثم تحقق بعد ذلك ان النظريات لا تكفي

ما لم تكن مقرونة بالتجارب وقد ظلت النظريات مسيطرة عليه حتى حالت بينهُ وبين الملاحظة الجدية في البحث والاستقصاء

وسأشرح الآن اثر هذه العوامل في تقدم الطب : اما بشأن فساد نظر الناس في الصحة والمرض فنعلمهُ من المصريين والاشوريين والبابليين. فعلى الرغم من اهتمامهم بالامراض نظروا اليها نظرة شيء خارق للطبيعة منبعثة من قوة سحرية تسلط الارواح الشريرة على الجسم ولا يمكن القضاء عليها ما لم تخرج تلك الروح . ويمكن الحيلولة دون دخولها او منعها بالتعاويذ والرقى ولكن الصلوات والتضرعات ضرورية لطردها من جسم المريض وبعد طردها يصلح ما فسد من الاعضاء بالعقاقير كالافيون والشوكران والعنصل وزيت الخروع الخ . وكان التنجيم شائعاً جداً في تلك الازمنة كما ان مهنة العرافة كانت مزدهرة . ويلذُ لنا ان نتذكر ان الكبد كانت بيت القصيد في هذه الاهداف فكانوا يتكهنون بالمستقبل بمراقبة دم وحجم وشكل كل جزء من كبد القرابين التي تقدم . ومن الغريب ان حصر عناية الاقدمين آلاف السنين في عضو واحد من الاعضاء الداخلية وهو الكبد وتأثيرها فيهم ذلك التأثير لم يكن حافزاً لهم الى استقصاء غيرها من الاعضاء ولم يحملهم على الاعتقاد بان المرض من طبيعة الحياة ، واعتقادهم بهِ انهُ من خوارق الطبيعة حال دون تقدم معرفتهم اياه ونظرتهم اليهِ نظرة صحيحة

ومن الحقائق الطريفة انهُ رغماً عن ان صناعة الطب كانت منظمة بعض التنظيم في تلك الايام الخالية لم يُقضَ على عهد الصلوات والتضرعات فكان للكهنة النصيب الاوفر من ممارسة هذه الصناعة وفي دستور شريعة حمورابي الذي كشف مؤخراً وهو يعود الى سنة ٢٠٠٠ قبل المسيح على الالواح البابلية دليل على وجود أساس المجاملات الطبية في ذلك العهد وفيهِ كلام على القوانين الدينية والمدنية والطبية لممارسة الطب وتعاليم عديدة للاطباء نذكر منها اثنين :

(١) اذا عالج طبيب جرحاً شديداً لفتى بسكين من شبهان Bronze وشفي ذلك الرجل او فتح خراجاً في عين فتى بسكين من شبهان يتقاضى عشر شكلات [(١)] فضة

(٢) اذا عالج طبيب جرحاً شديداً لفتى بسكين من شبهان وسبب وفاته أو فتح خراجاً في عينه آل الى فقدها فيجب قطع يديهِ

ألم يكن الطب مدعاة للدهشة في تلك الايام ؟

ومن الازمنة التي اتصفت بعقم الطب الناشىء عن جهل الناس حقيقة الجسم الانساني ، الاعصر المتوسطة التي ابتدأت من القرن الخامس الى السادس عشر وجاءت اثر انقراض اليونان والرومان انقراضاً كاملاً بوجه التقريب وكانت غزوات البرابرة من جهة وتوالي الاوبئة المهلكة من

(١) وحدة العملة البابلية

جهة ثانية أقوى من الاولى عاملاً مؤثراً في أفول تلك المدنية . وحيث ان العلم والثقافة كانا في قبضة الكنيسة في تلك العصور فقد ظلّ العقل البشري متأثراً بالنزعة الدينية وكان الناس لايقيمون شأناً في الحياة الاّ للموت والدينونة والسماء وجهنم والنفس الانسانية هي الكل في الكل والجسد لاشيء . وحيث ان الصحة والمرض من مستلزمات الجسد فلم يقم لهما وزن كبير وظلّ العالم المتمدن بأسره متأثراً بالعقائد المسيحية كما يستنتج من كتابة رجال ذلك العصر البارزين أمثال ترتوليان Tertullian الذي قال لا لزوم للبحث العلمي بوجود الانجيل

ومرّ بين هذين الزمنين الطويلين العقيمين زمن الاشوريين والبابليين والمصريين وزمن العصور الوسطى، دور ثقافة عظيم وهي ثقافة اليونان والرومان التي أثرت في الطب مثلما أثرت في حياة العلم العقلية والعملية . وبعد ان مرّت هذه الثقافة في أدوار مختلفة من صعود وهبوط منذ ازدهارها حتى وقتنا الحاضر ظلت محتفظة بتأثيرها في رجال الطب فكل منا يقدر عظمة أبقراط ومدرسته وأرسطاطاليس وجالينوس واضرابهم . فاليونان اول من أوجد الطب الصحيح وقد حاولوا استئصال المعتقدات الراسخة منذ زمن طويل بأن الامراض متولدة من الارواح الشريرة ولأول مرّة في التاريخ عُدّت الامراض من الامور الطبيعية التي لا يمكن التوصل الى معرفتها قبل درسها وملاحظتها . وجعلوا «العقل الصحيح في الجسم الصحيح» أغلى أماني الحياة . وللتوصل الى هذه الغاية يجب ان يعيش المرء أحسن وأقصى العيشة الطبيعية وقدروا تأثير الطبيعة في الشفاء أعظم تقدير . ان مثل أبقراط العليا في الآداب الطبية تعد حتى اليوم من أسمى الصفات التي يجدر ان يتصف بها الطبيب . ولا يستطيع ان ينكر المرء ان نظر اليونان الى الجسم البشري سواء أمن وجهة الملاحظة كان أم من وجهة البحث العلمي، كان أول عامل في تقدم علم الطب. ومع ذلك لم تخل تعاليمهم من الحشو الذي اعترض سير دولاب التقدم . ونذكر على سبيل المثال عقيدتهم ان الدم والبلغم والصفراء والسوداء هي العناصر الاربعة المسيطرة على الجسم وهي مولدة الامزجة الاربعة المزاج الدموي والبلغمي والصفراوي والسوداوي فاذا توازنت هذه الامزجة ظلّ الجسم صحيحاً واذا اختلت اعتلت صحة الانسان . وسنرى فيما بعد ان الطب ظلّ متأثراً بهذه العقيدة حتى بعد انطفاء نور الثقافة اليونانية وبعثها من جديد وكان لا بدّ من تحطيمها ليتسنى لهذا العلم التقدم المنشود

إن السبب الرئيسي الثاني لبطء تقدم الطب الطويل الذي ذكرتهُ في بدء محاضرتي هو تأخر الناس في ادراكهم ان معرفة بنية الجسم البشري ضرورية للتوصل الى كنه الامراض وكان هذا العامل من العوامل التي أخرت سرعة تقدم الطب كما كان ينتظر في إبّان عصر الثقافة اليونانية لان تشريح الجسم الانساني كان محرماً عند الاشوريين والبابليين والمصريين حتى اليونانيين أنفسهم

فكانت معرفة الاعضاء والانساج معرفة حقيقية متعذرة في حالتي الصحة والمرض . وصحيح ان البطالسة بدأوا درس التشريح سنة ٣٠٠ ق . م . بعد استقرار اليونان في الاسكندرية ويجب ان نحسب هذا التاريخ بدء علم التشريح ولكن هذا الاتجاه كان ويا للاسف وقتيًّا وموضعيًّا ورغماً عن حيوية أرسطاطاليس وسعيه المتواصل في هذا السبيل لم يتمكن من تشريح الجسم البشري وقد حاول ان يستعيض عنهُ بتشريح الحيوانات كالقردة والخنازير واعترف أنهُ لم يرَ الكلى الانسانية قط واجتهد فيما بعد جالينوس كثيراً (سنة ١٣٠ — ٢٠٠ ب . م .) في درس التشريح ووظائف الاعضاء (الفسيولوجيا) وهو من أول من قرر حقيقة ان شريانات الجسم تحوي دماً لا بلغماً ولكنهُ أخفق في اكتشاف سر الدورة الدموية وأن نبضات القلب هي التي تدفع الدم في الاوعية الدموية وصار علم التشريح في خبر كان بعد أفول الثقافة اليونانية من الاسكندرية وطرأ الوهن على الاهتمام بالقضايا الطبية في الاعصر المتوسطة . نعم بقيت هذه الروح حية بعض الشيء بعد فتوحات العرب في الاسكندرية سنة ٦٤٠ ب . م . وفي بيزنطه وسالورنه (Salernum) في جنوبي إيطاليا ومع ان جهودهم تستحق الاعجاب فان مكانتها الرئيسية قائمة على أنها حفظت الطب اليوناني من التلف ولكنها لم تؤثر تأثيراً عامًّا في تقدم الطب[١]

لم ينتعش علم التشريح ويصبح فنًّا راقياً الاَّ في عهد البعث (Rennaissance) بعد تأسيس مدرسة بادوى (Padua) الطبية ومن المستحيل ان نذكر بالتفصيل الانقلابات العظيمة التي جرت في ذلك العهد والتأثير الكبير الذي أثرتهُ في الطب ولكننا نستطيع ان نجزم كل الجزم بان أقطاباً كباراً ظهروا وقلبوا علم التشريح رأساً على عقب أمثال : —

Leonardo da vinci [٢] وفساليوس [٣] Vesalius (سنة ١٥٣٧ فما فوق) وفابريكس Fabricus [٤] فتقدَّم التشريح تقدماً عظيماً في ذلك العهد ، أُحيا تعاليم أبقراط وجالينوس وبعث في علم الطب ثقافة جديدة

---

(١) لقد جحد الكاتب فضل العرب في الطب فانهم لم يحافظوا على الطب اليوناني فقط بل زادوا عليه وابتكروا فيه كما يشهد بذلك فضلاء الشرق والغرب وقد شاع فضل العرب على الطب وذاع ولا حاجة الى الدفاع عنهم فآثارهم تدل عليهم [المترجم]

(٢) عالم ايطالي عظيم رسام نحات بناء موسيقي ميكانيكي مهندس وفيلسوف طبيعي وهو أول من أوجد علم التشريح (١٤٥٢ — ١٥١٩) ولكن كان علمه لنفسه لا لغيره في التشريح

(٣) مشرح ايطالي كبير كان يدرس الهياكل العظمية في ظلام الليل خوفاً من الحكومة وسخر الناس وهو يعد بحق أبا علم التشريح وقد هجره لازدراء الناس به فتأخر الطب مائة سنة الى الوراء ودعي هذا الحادث الطبيب الانكليزي الاشهر وليم اوسلر «فاجعة الطب الكبرى» [المترجم]

(٤) مشرح ايطالي واخصائي بعلم الاجنة مهد السبيل لاكتشاف هارفي الدورة الدموية (١٥٣٧ — ١٦١٩) [المترجم]

ذكرنا آنفاً ان عدم تقدير الطرق الاختبارية قدرها كان عاملاً ثالثاً في بطء تقدم علم الطب وقد حان الوقت الآن ان يظهر للعالم فضل هذه الطرق العلمية . كان هارفي تلميذاً في بادوى وقد أثرت فيه تعاليم فابركيس ولاسيما ما يتعلق منها بوجود الصمامات في الاوردة . وشغفهُ هذا هو الذي حمله على ان يعكف على درس الدورة الدموية بعد ان رجع الى انكلترا فكانت نتيجة هذا الدرس مؤلفه النفيس De Matee Cardis سنة ١٦٢٨ شرح فيه الطرق الاختبارية التي تبرهن صحة نظرية دوران الدم في الجسم ولا يعد هذا المؤلف الاول في موضوعه فقط بل من انفس المؤلفات في الطرق الاختبارية وفضلها في كشف الحقائق . ويجب ان نتذكر ان الناس كانوا حتى في بداءة القرن السابع عشر يعتقدون بصحة نظرية جالينوس بأن الدم يجري في الاوعية الدموية بطريقين مختلفين فيعلو ويهبط في كليهما كالمد والجزر ولا يدور دوراناً . ويخال المرء ان نجاح هارفي حمل المشغوفين بهذا البحث على الاهتمام بالطرق التجريبية واتباعها في ابحاثهم ولكن مع الاسف لم يحدث شيء من ذلك الاَّ عقب مائتي سنة من اكتشاف هارفي ولا يعني انه لم تجر اختبارات خلال تلك الفترة بل كلامنا من الوجهة العامة . وكان العالم يجهل جهلاً تامَّا حقائق الصحة والمرض التي يمكن الجزم فيها بالملاحظة المجردة عن الاختبارات . ولم تكن اسس الكيمياء والطبيعيات قد وضعت بعد لتساعد على تقدم العلم تقدماً محسوساً وقد اخذت طلائع الكيمياء تظهر في عهد هارفي فبطء التقدم الذي يصدق على تقدم التجارب الحيوية لا يصدق على الكيمياء والطبيعيات وظهور اسماء كبار الكيميائيين امثال : —

Glauber,(١) Willis,(٢) Mayow,(٣) Agricola(٤) Stahl(٥)

وبعدهم : Robert Boyle,(٦) Cavendish,(٧) Priestley,(٨) Lavoisier,(٩) Dalton(١٠)

دليل قاطع على ان الكيمياء التي نعرفها بدأت ونمت منذ ذلك العهد . ومن المعروف انهُ نشأ في القرن السابع عشر والثامن عشر اخصائيون ممتازون بعلم الطبيعة ولكن كان اهتمامهم من

(١) كيمياوي ألماني اكتشف كيفية تحضير حامض الكلوردريك وسلفات الصودا وغيرها (٢) مشرح انكليزي له اليد الطولى في الكيمياء الاختبارية (٣) كيمياوي انكليزي له مؤلفات نفيسة بهذا الموضوع (٤) عالم الماني مشهور بابحاثه في المعادن (٥) طبيب وكيمياوي الماني (٦) فيلسوف انكليزي في الطبيعيات مكتشف ناموس انتشار الغاز المعروف باسمه (٧) كيمياوي وطبيعي انكليزي اول من أماط اللثام عن حقيقة غاز الهيدروجين (٨) كيمياوي انكليزي اكتشف الاوكسجين وكان يعرف اللغة العربية

(٩) كيمياوي فرنسي أول من بين طبيعة الاحتراق واكتشف مع لابلاس ان الماء مركب من أوكسجين وهيدروجين

(١٠) كيمياوي وطبيعي انكليزي كشف الستار عن تركيب المادة والناموس الذري وله ابحاث ممتعة في النور وهو اول من اكتشف عمى اللون [المترجم]

الوجهة المرضية محصوراً في تاريخ الامراض الطبيعية فكان سيدنهام Sydenham (١٦٢٤—١٦٩٨) خير ممثل للمذاهب الابوقراطية والطبيب النطاسي الهولاندي بورهاف Boerhave اول من استنبط الطرق الصحيحة للملاحظات الدقيقة في درس الطب . ومن مساوي هذا العهد ان ألمع اطبائه عوضاً عن ان يكتفوا على درس الطب وتقدمه انصرفوا الى ابتكار النظريات الصرفة المبنية على الحدس والظن في تعليل الامراض .واحسن طريقتين تمثلان هذا المذهب الجديد طريقة Cullen الذي جعل سبب الامراض اما تشنجاً واما استرخاء و John Brown الذي عزا الامراض الى التهيج Excitability وادت هذه النظرية الى مشاحنات كثيرة بين الاطباء كانت مضيعة للوقت وعقيمة لعلم الطب

***

في هذه الحقبة من القرن التاسع عشر التي كانت عقيماً نسبيًّا لعلم الطب ظهرت بوادر التقدم الباهر من ايطاليا ايضاً بواسطة مورغاني Morgagni سنة ١٧٦٠ ذلك بان دقة فحصه الجثث بعد الموت كانت عاملاً في وضع اسس التشريح المرضي واذا قدرنا قيمة حالة الاعضاء بعد الموت في تشخيص الامراض أدركنا شأن الانقلاب الذي أحدثهُ هذا البحاثة الشهير. وتقدمت الابحاث المرضية فيما بعد بتأثير جون هنتر John Hunter (١٧٢٨—١٧٩٣) وكان هنتر بطبيعتهِ مشغوفاً بالابحاث المرضية Pathology وصرف زهرة حياته في التقريب بين الطب والعلوم الطبيعية وهو الذي كتب الى ادورد جنر حينما كان يظن ان الحلاَّبات اللاتي اصبنَ بجدري البقر اكتسبنَ مناعة ضد جدري البشر فقال : « لا تفكّر بل جرّب »

وكان لهذه الجملة دويٌّ هائلٌ في عالم الطب ادَّى الى اكتشاف التلقيح ضد الجدري والقضاء عليه

وفي هذا الزمن زادت العناية جدًّا بدقة فحص الجسم الطبيعي في حالتي الصحة والمرض ويرجع الفضل الكبير في هذه الدقة الى نخبة من الاطباء الفرنسيين الممتازين فاستنبط لنيك Laennec السماعة سنة ١٨١٩ وصار الاطباء يعولون منذ ذلك الوقت على القرع والتسمع في التشخيص وهذه النخبة هي التي توسعت في أبحاث مورغاني بفحص الرمم بعد الوفاة التي ادت الى الدقة في درس الحوادث المرضية قبل الوفاة وتقدم في ذلك الوقت تشخيص الامراض السريرية تقدماً عظيماً

والحق يقال ان المواد التي ساعدت على الابحاث الطبية كانت تنهال بسرعة في ذلك الوقت على الرغم من ان التجارب الاختبارية كانت راكدة

ونجسر ان نقول ان تاريخ الطب الحديث يعزى الى باستير وكاود برنارد حين صارت الطرق التجريبية هي المعوَّل عليها في الابحاث الطبية . وفي سنة ١٨٥٧ — ١٨٩٠ نشر باستور رسالته العلمية عن حامض اللبن والتخمر الكحولي وقد جعلته هذه الابحاث يتشبع بروح الفكرة التي كانت عاملاً قويًّا في اثبات ان سبب العدوى في الحميات جراثيم حية . وقد تطورت هذه الفكرة لان باستير كان مقتنعاً بالعلاقة بين التخمر والعدوى . وأدَّت تحريات باستير الى لستر الذي أثبت ان منشأ تلوث الجروح جراثيم مختلفة من الاحياء السفلى . وعلى هذا الاساس شيد علم منع عدواها بواسطة المطهرات الكيمياوية وأحدث انقلاباً في الجراحة وصيرها عملية سليمة . ومن نتائج اكتشافات باستير ابحاث كوخ الذي نشر سنة ١٨٧٦ تحرياته عن سبب الجمرة الخبيثة Anthrax . ولنتذكر ان كوخ استنبت جرثومة هذا المرض من الحيوانات المصابة بها ولقح حيوانات اخرى بها فأصيبت بعين المرض . وفي سنة ١٨٨٢ اكتشف ان سبب السل عصية خاصة فكوخ اول من استنبت زرعاً من الجراثيم الصرفة ووضع اساس علم الجراثيم (بكتيريولوجي) ولم يمضِ وقت طويل حتى اكتشفت جراثيم التيفود والخناق والهيضة الاسوية والكزاز والطاعون وذات الرئة والسيلان . وقبيل ابحاث كوخ كان رجل فرنسي شهير اسمهُ كاود برنارد Claude Bernard يستعمل الطرق التجريبية في البحث عن وظائف اعضاء الجسم وهو الذي أماط اللثام عن المفرزات الداخلية باكتشافه وظيفة خزن الكبد للسكر الخام (الكليكوجين) فاذا كان كوخ واضع علم الجراثيم فمن المعقول ان يكون كلود برنارد واضع علم وظائف الاعضاء (فسيولوجيا) الحديث

***

ثم ظهر في الميدان في ذلك العهد موضوع جديد وضعهُ فيرشو Virchow وهو علم تركيب انسجة الجسم (هستولوجي) فبين تحت المجهر حقيقة تركيب مختلف خلايا الجسم وتمكن من معرفة مرض الاعضاء بدرس حالة خلاياها حين المرض . وفي هذا الزمن زمن النشاط اي سنة ١٨٥٠ — ١٨٨٠ صارت الفسيولوجيا والبكتريولوجيا والهستولوجيا المرضية والجراحية دروساً طبية معينة . وقبل ان نأتي على تقدم الطب في القرن الحالي نعيد بايجاز ما ذكرناه آنفاً

رأينا علم الطب يتحرر من تأثير السحر والدين ونحسب الامراض من الامور الطبيعية . وعقب ذلك دور البحث في تركيب الجسم فتوصل الباحثون الى العلامات السريرية والتراكيب التشريحية للاعضاء المعلولة وكان العالم قد وصل الى العصر الحالي الذي كان للتجارب فيه اليد الطولى فتقدمت معرفة وظائف الاعضاء واسباب الامراض تقدماً كبيراً وكان لا يزال في اوائل هذا العصر

امراض مجهولة السبب وطرق معالجتها غير معروفة ومع ان الحالة لاتزال الآن كما كانت قبلاً فان جهود الثلاثين السنة المتأخرة آلت الى املاء كثير من الفراغ . فلنبحث عن سبب تدفق النشاط في اوائل القرن الحالي . وهناك اسباب متعددة اهمها ما يلي :

(١) النجاح يولّد النجاح . ومن المستحيل ان يقف اي شخص على اكتشافات باستير ولستر وكوخ ولا يتأثر بها او لا تكون حافزاً لهُ على التتبع والاستقصاء . ومن المعقول ان تضاف ابحاثهم وتتبعاتهم الى جهود غيرهم ممن يسيرون على الخطة نفسها . ان روح التفاؤل هذه عزّزت ثقة الناس وعقيدتهم بأنهُ ليس من الصعب التغلب على الامراض والمشكلات الصحية وان لاحدّ لنتائج الطرق الاختبارية

(٢) ان التتبعات الحديثة أفضت الى تقدم العلوم الاساسية لدرس الطب كالكيمياء والطبيعيات ووظائف الاعضاء والامراض والعقاقير تقدماً عظيماً فألقت نوراً جديداً على الجسم الصحيح والجسم العليل وكانت سلاحاً جديداً للطب في محاربة الامراض وطرق تشخيصها والوقاية منها ومعالجتها

(٣) السبب الثالث لهذا الاندفاع هو ان العالم المتمدن بأسره اتبع الطريقة اليونانية في النظر الى الحياة وهي ان الصحة تراث عظيم واعتلالها ليس مضرًّا من الوجهة الاقتصادية فقط بل هو السبب الاكبر في آلام البشر وحزنهم وتعذيبهم فكان من الضروري اذاً سواء من الوجهة العملية او العاطفية القضاء على الامراض بالوقاية منها أو شفاءها . واذا كانت البحوث تؤول الى هذه النتيجة فمن الواجب تعزيزها . ان تأثر الناس بهذه العقيدة حمل الحكومة والافراد على تشجيع البحوث الطبية والتوصل الى معرفة الطرق للقضاء على العلل التي كانت تفتك بالناس فانتشرت هذه الحركة في كل العالم . وفي سنة ١٩١٣ أنشأت الحكومة مجلس البحث الطبي Medical Research Council الذي صار في عهد سلفي السير ولز فلتشر من خيرة الطرق لدرس المشكلات المرضية . وقد تضافر هذا المجلس مع كثير من المعاهد الخاصة بتقدم الطب كمعهد ركفلر وباستير للوقاية وغيرها . وعلاوة على اكتشاف طرق جديدة لمعرفة الامراض دعت المصلحة العامة الى تأسيس وزارة الصحة التي تقدمت تقدماً عظيماً في العشرين السنة الاخيرة فزادت بهذه الواسطة الخدمات الطبية العامة وانتشرت في طول البلاد وعرضها ومن الامثلة على ذلك دور العناية بالحوامل ودور الحضانة ومستوصفات السل والامراض الزهرية وغيرها وغاية جميع هذه المؤسسات استخدام الطرق العلمية الحديثة للوقاية من الامراض وشفائها والمحافظة على الصحة العامة

[في العدد التالي : نتائج هذا النشاط الطبي]

أثر الحرب العامة

في الادب العربي السياسي

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

والمتأمل في الشعر العربي السياسي اثناء هذه الحرب يراه على نوعين — حكومي وعمومي . فالاول مقرون بالسلطة القائمة واعمالها الادارية والسياسية ، وهو أدب كان يوحيه الى الاقلام احد العوامل التالية (١) رهبة تدفع الى الممالأة والتقيّة (٢) طمعٌ يبعث على التزلّف والمداهنة (٣ تهوّس ديني يثير في النفوس التعصّب والحماسة

ولو التفتنا الى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق لرأينا ذلك ظاهراً للعيان . فقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا نحبًا بغتةً ذلك التوتر العنصري وكُمّت الافواه والاقلام الاّ عن حمد الدولة وتحبيذ سياستها . على ان تركيا لم تكن غافلةً عن النزعات اللاتركية الناشئة في الاقطار العربية وعن تنشيط الحلفاء لها . فكان اول ما عملتهُ بعد دخولها الحرب انها ألغت الامتيازات الاجنبية فأصبحت المسيطرة المطلقة على مقدّرات البلاد ، ثم قسمت الجبهة العربية الى منطقتين حربيتين الاولى منطقة الجيش الرابع ويدخل فيها سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز — والثانية منطقة الجيش السادس وهي بلاد ما بين النهرين وأقليم شطّ العرب . وقد رأت ان تنظّم الاولى اولاً وان ترعاها رعاية خاصة فعهدت بها الى احمد جمال باشا الذي عرف الجميع ما جرى على يديهِ من بطش وارهاب . وما قاساهُ العرب في عهده من شدّة وضيق

فمن الطبيعي في مثل تلك الاحوال ان لا يكون في البلاد العربية العثمانية أدب سياسي حرّ وان تكبت العواطف الحقيقية في اعماق الصدور . واذا أضفت الى ذلك ان الخلافة الاسلامية كان لا يزال لها تأثير عميق في نفوس المتدينين ، وان المآرب الذاتية كانت تعشّش في صدور الكثيرين فلا تستغرب ان ترى الادب العربي يومئذٍ تلبس اثواب التعصب للسيف التركي او

الخلافة التركية . خذ بيروت مثلاً فقد كانت اهم مركز ادبي في الشرق العربي (خارج مصر) ومستنبتاً خصباً للدعايات الاصلاحية . كان فيها عشرات الصحف والمطابع والمعاهد العلمية . والذي يُلاحظ ان كثيراً من الصحف العربية كان قبل دخول تركيا الحرب يجاهر بميله الى الحلفاء ، فلما دخلت اضطرّ امّا الى التوقّف وإما الى ممالأة السلطة . فلم يبقَ في تلك المدينة اكثر من ست جرائد . وبالطبع لم تكن اخبارها الاّ بلاغات تركية المانية ، ولم تكن مقالاتها الاّ اناشيد مدح لاعمال الدولة العلية . وانهُ لمن المدهش بل المضحك ان تقابل بين ما كانت تكتبهُ طائفة من تلك الجرائد خلال الحرب وما كانت تكتبهُ بعدها ، ولاسيما فيما له علاقة بنهضة العرب ومطالبهم القومية

ومن افضل الامثلة على الادب السياسي الحكومي في تلك الاثناء مجموعة من الخطب والمقالات والقصائد صدرت في بيروت في كتاب خاص بعنوان « البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية »[1] في ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥ نظّمت قيادة الجيش الرابع وفداً من اكثر من ٣٠ رجلاً يمثلون سوريا ولبنان وفلسطين وشمال الجزيرة العراقية وارسلتهم الى عاصمة السلطنة للاغراض التالية [2]

١ — لعرض اخلاص السوريين وشعورهم على سدّة الخلافة الاسلامية

٢ — لمشاهدة عظمة الدولة واستعدادها الحربي

٣ — بث عواطف اهل البلاد الى اخوانهم الغزاة المجاهدين

وبعد ان قضوا نحو شهرين هناك بين مآدب تكريمية ومشاهد حربية ، وحفلات خطابية ومواقف شعرية عادوا الى اوطانهم يقصون على الملإ ما شاهدوا وسمعوا وقد دوّنوا لنا اقوالهم ومشاهداتهم في الكتاب المذكور واليك بعض النماذج منها —

فقرات من خطب القيت في حضرة وزير الداخلية —[3] يا صاحب الدولة والفضل : —

« ان الانقلابات التي وقعت منذ نشرتم واخوانكم احرار العثمانيين القانون الاساسي في السلطنة قد علّمت الناس وولاة امورها تعاليم كثيرة . . فتعلمنا بالحرب البلقانية والحرب الطرابلسية كيف نجمع شملنا ونسير في داخليتنا وخارجيتنا . حتى اذا نشبت الحرب العامة اثبتنا اننا امة لا تزال حية »

« كان اناس قليلون في ديار الشام يهمسون في سرهم في اوائل النفير العام بقولهم : ما لنا وللحرب . ان الحياد ابقى علينا وأسلم لكياننا . ولم تكن الاّ مدة قليلة حتى عرف الخاص والعام بان الحرب مع دول الاستعمار كانت مقررة لحياتنا السياسية والملية »

(١) المطبعة العلمية ١٩١٦ — تأليف الباقر — كرد علي — الجبال — الانسي

(٢) البعثة العلمية ص ٢٥٢ (٣) راجع الكتاب المذكور ص ٤٥ — ٥١

« كانوا يقولون ان في الحرب خراب البلاد ولكن حربنا الحاضرة والحمد لله قد عمرت بلادنا ومحّصت الناس فتبين الخائن المائن من الوطني المخلص ، والخامل من العامل ، والجاهل من العالم . ولو لم توفق الحكومة الى انتداب امثال جمال باشا واخوانه الولاة لسياسة سورية اثناء هذه الازمة لتمّ فيها المضحك المبكي » . ومن الثاني :—

« يا صاحب الدولة — ان قدوم هذا الوفد العلمي المنتخب من خيرة علماء الدين الى دار الخلافة الاسلامية الكبرى والامامة العظمى لاداء فروض العبودية وواجب الاخلاص لعرش الخلافة الاسلامية المقدّس واهداء سلام الشعب السوري الى الابطال المجاهدين في جناق قلعة وساحات القتال واظهار ما يكنّهُ الشعب من عظيم الشكر لاولئك الابطال الذين دافعوا عن حوزة الخلافة وحياض الدين دفاعاً مجيداً خلّده لهم التاريخ بأحرف من نور . . . لهو أنصع برهان على السعي وراء تلك الغاية الشريفة ، وتمكين عرى الرابطة المحمدية والاتحاد الاسلامي ، وتوطيد دعائم الجامعة العثمانية تحت ظلال الهلال المظفر الذي سيخفق ان شاء الله بفضل جهادكم المشكور عن قريب في ربوع قفقاسيا وفوق وادي النيل »

ومما قيل في حضرة ولي عهد السلطنة —[1] « بيت عثمان ياذا الايادي البيضاء على هذه الامة انك جمعت شمل المسلمين تحت لواء الهلال المنصور قروناً وستكون كذلك ابد الدهر ، فكيف لا تتأصل محبة اركانك في قلب كل وليد »

وبعد ان يعرض الخطيب للعلاقات المتينة بين العرب والترك ولفضل العثمانيين في هذه الاخوة المقدّسة يقول — « فكنا امام العادين من دول الغرب في كل وقت نحارب معاً ونعود ظافرين ببركة هذه الاخوة ونحن اليوم كذلك في هذه الحرب الحاضرة وسنكون غداً وبعد غد والتوفيق حليف علَمنا الذي يظلّنا بفضلكم يا بني عثمان وحفَظة بيضة الدين والايمان » . وعلى هذا النسق اكثر الادب السياسي المنثور اوكله في ذلك العهد . ولم يختلف عنهُ الادب المنظوم ، ففي مجموعة « البعثة العلمية » نحو من سبع عشرة قصيدة لبضعة شعراء كعلي الريماوي وعبد الكريم عويضه ، وحسين الحبال ، وبدر الدين النعساني وسواهم وكلها ترمي الى نفس الغرض — واليك أمثلة منها . قال أحدهم من قصيدة :—[2]

يا رجالَ الملك إنا أمـةٌ لا ترى عن آل عثمان بديلْ
حيّها يا وفدُ حيّ جنـدها قاهر الاعداءِ بالسيف الصقيلْ
نصرَ الدينَ وأعلى شأنه فغدا الاسلام في ظلّ ظليلْ

ومنها مشيراً الى تراجع أسطول الحلفاء أمام قلاع الدردنيل

(١) راجع البعثة العلمية ص ٦٦ (٢) البعثة العلمية ٦٨

حيّ قوماً أدهشوا كل الورى بثبات العزم والصبر الجميلْ
قهروا الاسطول في البحر فما أبحر الاسطول ان عاد ذليلْ
دافعوا عن حوزة الملك بما يحفظ التاريخ جيلاً بعد جيلْ
وبنو الشرق الى مصر انبروا « وجمال الدين » للفتح كفيلْ

وينوّه بذلك الى الحملة التي كان يعدّها جمال باشا لعبور ترعة السويس ودخول مصر وللشيخ الريماوي قصيدة خاطب بها جمال باشا عند عودة الوفد وهي نحو ٤٥ بيتاً وفيها يصف ما رآهُ الوفد في الاستانة ومقابلتهم لاركان الدولة هناك فيقول [١]

فجئنا الى دار السعادة والمنى محطّ رحال العزّ والعزُّ يُقصدُ
وزرنا عميد الملك يسمو عماده وزرنا وليّ العهد بالفضل يُمهدُ
تحفّ بنا القوّاد من كل جانبٍ وأقطاب دار الملك تحفى وتحفدُ
ومنها — خطبنا لهم جمًّا وقد خطبوا لنا وأنشد منا القائلون وأنشدوا
مجالس كانت كالربيع بواسماً ذكرناك فيها والحقيقة تشهدُ

***

ومنها — رجعنا وما بالقول شيء ليعربٍ ولا يعربٌ ينسى الجميل ويحقدُ
على أننا أبناء دين محمدٍ يحكّم هـذا الحبّ فينا ويعقدُ

ولهُ قصيدة أخرى مطلعها

تيقظتم حزماً فأيقظتم الدهرا وأعملتمُ عزماً فأدهشتم العصرا

وفيها يقول [٢]

سلامٌ عليكم ما أجلّ فعالكم وأعظم في الايام آياتها الكبرى
سلامٌ على الدستور حلواً مذاقه وان كان بعض الناس قد ذاقهُ مرًّا
حماةَ الهدى والملك لله درّكم على الخصم قد طبّقتم البرَّ والبحرا
ومنها — سعيتم فقرّبتم بني العُرب منكم وقلتم همُ الاخوان في الضُرّ والسرا
فكانوا لكم أزراً على كل خارجٍ عدوٍّ وما كانوا وحقّكم وزرا
يعدّون هـذا الملك فيهم ومنهمُ ولا ينقمون الترك سرًّا ولا جهرا
فكنتم نجاد الملك والعُرب سيفه وكنتم يمين الملك والعرَب اليسرى

ونختم هذه الامثلة ببعض ابيات من قصيدة لبدر الدين النعساني في احمد جمال باشا . قال: [٣]

لئن أكثر المدّاح فيك القصائدا فما بلغوا في الالف من ذاك واحدا

(١) البعثة العلمية ٢٦٠ — ٢٦٥ (٢) البعثة العلمية ٢٠٨ (٣) البعثة العلمية ٢٨٥

ومنها : رمى الله منك الانكليزَ بصارمٍ صقيل يقدُّ الهندوانيَّ غامدا
عتَوا وأبوا الاَّ لقاءك في الوغى أراهم بما راموه منك حصائدا
أقاموا على شط القنال معاقلاً ستبقى لهم يوم اللقاء مصايدا
قطعتَ اليهم بالجيوش مفاوزاً بها الصرصر النكباء تشكو الجلامدا
لقد عزَّ جيشٌ كنتَ فيه رئيسهُ وعزَّت جموعٌ كنت فيهنَّ رائدا
فلم أرَ مثل اليوم أرفع همةً وأعظم آثاراً واكثر حاشدا
وأطهر أخلاقاً وأصفى سريرةً وأنجب مولوداً وأكرم والدا
وقفت على علياك فيضَ يراعتي ونفسي وفكري والقوافي الشواردا

هذا هو الادب الحكومي الذي كان ينشر في سوريا والعراق . وهو ولئن لايجوز اعتباره وصفاً صادقاً لحوادث ذلك العهد ورجالهِ فانه بلا شك صورة غير كاذبة لما كانت تثيره الحالة السياسية في الصدور من رهبة ورغبة او هوَس ديني . واذا عرفنا زمانه ومكانه واستطعنا ان نقرأ ما بين السطور تجلى لنا فيه من المشاهد ما قد يساعدنا على فهم كثير من الحقائق

وما يصدق على سوريا والعراق قد يصدق على مصر ايضاً . الاَّ ان المشهدين يختلفان . فمصر كانت عاطفتها كما وصفها الدكتور محمد حسين هيكل بقوله (١) — «تتجه حتى العصور الاخيرة الى جهتين — تتجه صوب مكة ومكة في بلاد العرب والنبي عربي والقرآن عربي . وهي تتجه او كانت تتجه صوب الاستانة مقر الخلافة الاسلامية والاستانة عاصمة الترك . فكل مسلم تعنيه وحدة المسلمين كان يتجه ببصره — الى حين الغيت الخلافة — نحو مكة والاستانة : يستمد من الاولى المدد الروحي ومن الثانية مدد السيف والمدفع »

ومع كل ذلك لم تحرك مصر ساكناً حين اعلن وزير الخارجية البريطاني في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ « انهُ بالنظر الى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية . وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر الخ (٢)» وما ذلك الاَّ لان السلطة البريطانية اصبحت يومئذ الكل وفي الكل . وصار المصريون يشعرون انهم انما يعيشون في ظل سيفها المصلت . فلم يكن من الغريب ان نرى الشعراء يتبارون في التقرب من السلطان حسين كامل . كاسماعيل صبري.وأحمد شوقي. وحافظ ابراهيم . وولي الدين يكن وسواهم . وهذه قصائدهم فيه تشهد بانقلاب الحال او بالتقية

(١) مقدمة الشوقيات ج ١ — م (بتصرف) (٢) الهلال ٢٣ — ٣٢٦ راجع أيضاً فيه بلاغات الوكالة البريطانية

حتى ان حافظاً الوطني الصميم وصاحب المواقف المشهورة قبل الحرب لم يتورع عن ان يقول في الانكليز مخاطباً السلطان [1]

فعش للنيل سلطاناً ابيّاً له في ملكه عقد وحلٌّ
ووالِ القوم انهم كرامٌ ميامين النقيبة اين حلّوا
لهم مُلكٌ على التاميز[2] اضحت ذراه على المعالي تستهلُّ
وليس كقومهم في الغرب قومٌ من الاخلاق قد نهلوا وعلّوا
فان صادقتهم صدقوك ودّاً وليس لهم اذا فتشت مِثل

اما شوقي شاعر الخديو عباس (خصم الانكليز) فقد كانت قصيدته في السلطان حسين كامل «لعبة» فنية حاول فيها الجمع بين وفائه لاميره السابق والواجب عليه للسلطان الجديد وتجنب سخط الانكليز. وقد توفق الى حدٍّ يذكر له. اذ قال مشيراً الى عباس:

الله يعلم ما كفرتُ صنيعةً في ذا المقام ولا جحدت جميلا

ثم في اعتذاره عن مدح الامير الذي حل محله

أأخون اسماعيل في ابنائه ولقد وُلدت بباب اسماعيلا

ولم يستطع الاّ ان يقول كلمة في الانكليز فقال:

حلفاؤنا الاحـــرار الاّ انهم ارقى الشعوب عواطفاً وميولا
أعلى من الرومان ذكراً في الورى وأعز سلطاناً وأمنع غيلا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحاً في البلاد عُدولا
وأتوا بكابرها[3] وشيخ ملوكها ملِكاً عليها صالحاً مأمولا

على انهُ لا بد من القول ان الشعر المصري الحكومي برغم اضطراره الى مجاراة السلطة لم يبلغ في تلك المجاراة مبلغ الشعر السوري والعراقي، بل ظل اكثر تحفظاً وأقل تطرفاً. واذا كان في مصر يومئذ من غارات ادبية عنيفة على الاتراك فمنشؤها في الاكثر الاوساط اللامصرية تشهد بذلك جرائدهم ونفثات اقلامهم. ولم يكن على ما يظهر مبعثها التملق او التعصب بل الاقتناع (خطأً او صواباً) ان الخلاص من تركيا سيكون فاتحة عصر جديد يحمل الى الاقطار العربية انوار المجد والسعادة.

***

اما الادب السياسي العمومي (اي ما كان خارج دوائر السلطة) فمتشابه في جميع الاقطار اذ هو منبعث عن شعور الناس بوطأة الحرب. ومن الطبيعي ان يكون اثره في مختلف البيئات

(١) الهلال ٢٣ — ٣٣٧ (٢) نهر لندن (٣) اي بالسلطان حسين كامل

بالنسبة الى شدة تلك الوطأة او خفتها ، كما يتضح لنا اذا قابلنا ما نظم منهُ في مصر بما نظم في العراق وسوريا ولاسيما بيروت ولبنان حيث بلغت المحنة أشدها . ومن شواهده تلك القصائد التي قيلت في اهوال الحرب وفظائعها كقصيدة الزهاوي « مشهد من الحرب الكبرى » ومنها [١]

في كل ارضٍ وصقع مدافعٌ ثائراتُ
يقتلن كلَّ فتىً قد تفيد منهُ الحياةُ
وليس يبقين الاَّ ارامــلاً ويتامى

***

هناك بحرٌ خضَمٌّ يجري ليغمر بحرا
هناك بركان نارٍ تسعى لتأكل اخرى
هناك جيش لهامٌ يؤمُّ جيشاً لهُاما

***

من قارعاتٍ صباحاً يهتزُّ منها المكانُ
وبارقاتٍ مساءً يحمرُّ منها الدخان
وناسفاتٍ بليلٍ يبعثنَ موتاً زؤاما

***

القتل قتلٌ ذريع والخطب خطب جُسام
فوق الرغام دماءٌ يحمرُّ منها الرُّغام
والارض تشرب منها ولا تبلُّ أُواما

وكقصيدة أنشدت في بيروت سنة ١٩١٥ موضوعها « متى تضع الحرب أوزارها » ومنها : [٢]

ربوعُ الحضارة أمست محــطّ النسور ومنتجعَ الاضبُعِ
وإنَّ ابن آدم شرُّ الضواري اذا هاجهُ هائج المطمعِ
ففي الحرب سلْ عنهُ نيرانها وحُمر الدماء على اليرمعِ
وأشلاء قتلى أبادهمُ مبيدٌ من السيف والمدفعِ

ولو أردنا ان نعدد القصائد التي تضمنت وصفاً للحرب وبلاياها لضاق بنا المقام ويكثر فيها وصف محن الناس من بؤس وجوع وخوف وترمل نساء وتيتم أطفال وما الى ذلك مما يدخل اكثره في باب العوامل الاجتماعية فنرجىء الاسهاب فيه الى فرصة أخرى

(١) ديوانه (١٩٢٤) ١١٤ (٢) راجعها في جريدة الحقيقة (بيروت) ٧ — ٥٩٨

لراجي الراعي

فكتور هيجو

شاعر الشعراء

كل شعر من أشعار هيجو أصبع من كف السماء ، تشير الى مجده . . . ولسان من نار يندلع في سماء الادب والتاريخ ..

الجبل في روعته والبحر في زبده ودرره وأمواجه والافق في سموه وترامي أطرافه اجتمعوا ذات يوم وتداولوا في من يقيمونهُ محامياً يعبّر عن أسرارهم المستقرّة في أعماقهم فاستقرَّ رأيهم على ان يكون الشاعر ذلك المحامي، ونطق الشاعر فاذا هو هيجو . . .

ولد فكتور وعلى رأسه سربٌ من النسور هبطت من أعالي الفضاء وهي مأخوذة بزميلها الجديد ، مضطربة من مستقبله ومنافسته . .

في ذلك اليوم كان يوم النسور يوماً قاتماً .. أتاها شاعر الشعراء فما هي بعده.. وماذا تفيد حوماتها . . .

ولد فكتور فكان يوم ولادته كيوم نابليون في وحيده فلقد تناوله الشعر في ذلك اليوم وأطلَّ بهِ من شرفة الادب على دولة الادب وصاح : المستقبل لي ..

ولد في مقر الاولمب في ظلّ جوبيتر ، وعلى وجهه نور من أنوار السماء ، وأطلَّ على الحياة تعب الفؤاد لاهث الصدر من وطأة القرون على منكبيه فقدّم لهُ فرجيل كأساً من الخمرة صبَّ فيها البحر من زبده فشرب فلم يُطفىء غليله فشرب من دمعه فلم يُطفىء غليله فالتقط دموع الناس دمعة دمعة فلم يُطفىء غليله فلما ضاق بهِ الامر شرب من قلبه طيلة ليله فلما أطلَّ عليهِ الفجر كان قد أهرق دمه في القراطيس فكان مسيح الشعر . . ولما اشتدَّ ساعده جاءهُ هوميرس وقال لهُ : أنا الضرير رأيتك على الرغم من عماي فقد شقت أشعتك حجاب نظري . . وأقبل عليهِ موسه فجلسا ساعة ، تحت الصفصافة الباكية ، وصعد لامرتين الى قمة الجبل ونفخ في البوق مبشراً الدنيا بقدوم شاعر الشعراء . . .

فكتور هيجو . . ومن لا يعرفهُ . فكتور . . وكفى . .

رأى ابا الهول فقال له: لقد أتيت فاسمع فأنا في صرخاتي العجيبة انت في صمتك العجيب

الصدمة التي تشفي

علاج الخَبَل بالانسولين
وتأثير صدمته في المدمنين

هو ذا طريقة جديدة لعلاج الجنون (insanity) (١) وتاريخها لا يرجع الى ما قبل سنة ١٩٣٠ ففي تلك السنة كان الطبيب النفسي النمسوي الدكتور مانفرد ساكل Sakel معنيًّا بدراسة أحوال مدمني المورفين عندما يمنع المورفين عنهم . فتبيَّن ما تبيَّنهُ غيرهُ من الاطباء ، اي الاضطراب والتهيج بل والجنون الوقتيّ في هؤلاء المدمنين وهم في هذه الحالة . فلم يكتفِ بذلك بل خطر لهُ خاطر جعلهُ أساساً لرأيٍ . ذلك بان تنقُّل المدمن الممنوع عن المخدِّر ، من حالة عقلية الى أخرى ، حملهُ على الظن بان المخدِّر احدث تغييراً في انساج الجسم علاوة على التغيير في أحوال العقل . وذهب الى ان خلايا الدماغ تتأثر بالمورفين — وهو سمٌّ — تأثراً ضارًّا ، فتجذب وهي في هذه الحالة مقادير من المفرزات المهيجة او المثيرة التي تفرزها الغدد ، اكبر مما تجذبهُ في الاحوال السوية

والاطباء يعلمون ان للانسولين فعلاً يميل بأفعال الجسم الحيوية الى الهبوط . والانسولين كما لا يخفى تفرزهُ الغدة الحلوة السليمة فيساعد الجسم على تمثيل السكر . والمصاب (بالديابيطس مليتوس) داء البول السكري لا تفرز حلوتهُ الانسولين فيتجمع السكر في الدم . فاذا حقن المصاب بالقدر الكافي من الانسولين المحضَّر في المعامل فعل فعلَ الانسولين الطبيعي فيهبط مقدار السكر المتجمع في الدم . ولولاه لمات كثيرون ودمهم مكتظ بالسكر . ولكن اذا حقن المصاب بقدر من الانسولين اكبر مما يجب ان يكون هبط مقدار السكر في الدم الى اقل من مستواه اللازم فيصبح المصاب المحقون وكأنهُ ثملٌ او مخدَّرٌ بالكحول وقد يفقد وعيهُ وتستولي عليه غيبوبة . وعلاج هذه الحالة ادخال مقدار اضافي من السكر في الدم ، والغلوكوز هو ما يستعمل على الاكثر في هذه الاحوال

واذاً فلا يستغرب ان يستولي النعاس على اثر الحقن بالانسولين ، مع ان الانسولين ليس

---

(١) اشرنا الى هذه الطريقة اشارة ملخصة في مقتطف يوليو سنة ١٩٠٧ في باب الاخبار العلمية ص ٢٣٣ وقد قرأنا في هذا الموضوع مقالات في « السينتفيك أميركان » و « الفوروم » و « رسالة العلم » فلخصناها جاعلين الاعتماد على مقالة السينتفيك أميركان

مخدراً بحصر المعنى . ولذلك فكر الدكتور ساكل في استعمال الانسولين لتهدئة أعصاب مدمني المورفين الذين حيل بينهم وبينهُ . فأصاب في ذلك قسطاً من النجاح . ومع انهُ استعمل مقادير يسيرة من الانسولين في حقن المدمنين لاحظ تغيُّراً يستوقف النظر في احوالهم العقلية بعد الحقن . فالمدمنون الهائجون أخلدوا الى السكينة ، والمنطوون على انفسهم القاطعون كل صلة لهم بعالم الحقيقة عادوا يدركون الحقيقة والواقع ، والنازعون الى الانزواء والخصام انقلبوا الى المودة والتعاون

وقد كان هذا التغيّر بادياً فيهم حتى في الايام الاولى من انقطاعهم عن المخدّر ، وفي هذه الايام الاولى كان المدمنون اشد ما يكونون عنفاً وهياجاً . فلمع في خاطر الطبيب النمسوي بارق رجاء خطّاف . فالانسولين على ما يبدو من تجاربهِ يجنح بالمرض الى التراخي والسكينة ، اي الى ان يعود المدمن سويًّا فترة طويلة او على الدوام مع ان مقادير يسيرة استعملت في حقنه . فهل يكفي الانسولين لشفاء دماغ المجنون اذا حقن بمقادير كبيرة منهُ . ان الفكرة لجريئة ولكنها جديرة بالامتحان

وكان قد علم هو وغيرهُ من معالجة مصابي البول السكري بالانسولين ان حقنهم بمقادير كبيرة من الانسولين لا يؤذيهم الاَّ في أحوال نادرة وان حقنهم حينئذٍ بالغلوكوس يبطل ما يتعرضون لهُ من خطر . ولكنهُ أراد ان يستوثق لانهُ طبيب ذو ضمير حيّ

ولذلك تقدَّم الى امتحان فكرتهِ هذه خطوة وئيدة أثر خطوة وئيدة وشعارهُ في كل خطوةٍ يخطوها سلامة المصاب . انها في نظره مقدمة على كل شيء آخر . فعلم من تجاربهِ المتعددة ان جميع أنواع الاضطرابات العصبية والعقلية لا تستجيب لعلاج الانسولين هذا . فالخُبلْ Shizophrenics يجنون منهُ فائدة عظيمة وأما المصابون بالجنون السوداوي (مقابل للفظ manic-depression وهي حالة يتداول فيها المصابَ دورُ الجنون فدور السوداء : عن معجم دورلند الطبي) فقلما يجنون فائدة ما

والخُبلْ (shizophrenics) ذوو الشخصية المتهافتة الموزّعة يشملون الذين تنطوي عقولهم على ذواتهم فيعيشون وكأنهم في حلم وينشئون عالماً خاصًّا بهم لا صلة لهُ بالواقع ويتخيلون انهم يعيشون مع ملوك وملكات وأميرات . ويكثر ان يظن الأخبل نفسهُ شخصاً آخر ، وفي هذا التخيُّل منفذ لهُ من حقيقة الواقع . والمصابون بهذا الضرب من الاضطراب العصبي العقلي ، هم السواد بين الذين يؤخذون الى مستشفيات الامراض العقلية كل سنة في أميركا وعددهم يبلغ نحو مائة الف

ولا يعلم عن سبب هذه الحالة شيءٌ واضح فيكتفي الاطباء بقولهم ان مردَّها الى « أسباب وظيفية » وهذان اللفظان لا يعنيان شيئاً

ثم هناك المصابون بالجنون السوداوي وهم على الغالب نهبٌ موزّع بين النشاط والتراخي او الهياج والهبوط . وعلتهم أيضاً تعزى الى « أسباب وظيفية » . وليس ثمة من يعلم هل حالة الاخبل وأحلامهُ الغريبة ، وحالة المجنون السوداوي ، مرضان قائمان بنفسهما او هما عرضان لاصابة

جسمية خفية ، ليست صلتها بالدماغ والجهاز العصبي الاَّ صلة ثانوية. ولذلك يمكن ان تحسب طريقة العلاج بصدمة الانسولين من أعجب الطرائق الطبية الحديثة لانها تعالج مرضاً لا يزال سببهُ سرًّا مغلقاً

قرّر الدكتور ساكل ان خير اسلوب يتبع في العلاج ، ان يحقن المصاب بمقادير متزايدة من الانسولين حتى يبلغ مقدار الحقنة الواحدة المقدار الذي يحدث الصدمة في الجسم . ومقدار « حقنة الصدمة » يختلف باختلاف المصابين ويتفاوت من ١٥ وحدة انسولين الى ٤٥٠ وحدة

ويقصد بحقنة الصدمة ذلك المقدار من الانسولين الذي يلزم لاحداث الغيبوبة في المحقون بعد اربع ساعات او خمس ساعات من حقنها فيه . وبعد بلوغ هذه المرتبة يحقن المصاب بمقدار الانسولين الذي يحدث الصدمة من ثلاث مرات الى ست مرات في الاسبوع حتى يجني اكبر قدر من الفائدة . والغالب ان لا يعطى اكثر من خمسين حقنة اذا لم يستجب لتأثيرها . فاذا استجاب جسمهُ لتأثيرها فقد يعفى من الحقن يومين او ثلاثة ايام بعد كل حقنة ، وعلى كل حالٍ يجب ان يعفى من الحقن يوماً واحداً في الاسبوع على الاقل

وقد كان أصعب ما اعترض سبيل الدكتور ساكل معرفة طول الغيبوبة التي يحفظ فيها المصاب وعدد « حقَن الصدمة » التي يحقن بها . فنهم من تكفيهِ ثماني حقن ومنهم من لا يبدأ جسمهم بالاستجابة لتأثير الحقنة الا بعد خمسين حقنة . ثم يبدأ الطبيب في تقليل مقدار الانسولين تدريجاً حتى يغدو مقدارُ الحقنة الاخيرة مقدارَ الحقنة الاولى

ولا يسمح للمصاب بأن يتناول طعاماً قبل الحقن والغالب ان يحقن في الساعة السادسة صباحاً ثم يبطل فعل الانسولين في الجسم بحقن محلول من السكر في الشريان او بأخذه عن طريق الفم ، وذلك في الساعة العاشرة صباحاً اي بعد انقضاء اربع ساعات على اعطائهِ الحقنة . واذا كانت الحقنة كبيرة وأحدثت صدمة وغيبوبة ، بقي المريض في فراشهِ ويراقب مراقبة دقيقة حتى اذا بدا عليهِ اي عرض من اعراض الضعف او الهبوط أعطي السكر اللازم لتعزيز قواه

وبعد ان يعطى محلول السكَّر يستحمّ ويتناول فطورهُ ويسمح لهُ بالقيام والتجوُّل . ولكن المراقبة الدقيقة لازمة جدًّا ، لان السكر ينقص فجأة احياناً حتى حدود الخطر ولو كان المصاب قد اكل وشبع . وفي هذه الحالة يجب ان يحقن بمحلول السكر ايضاً

وفي سنة ١٩٣٣ أذاع الدكتور ساكل شفاء عليله الاول بهذه الطريقة وتبعهُ كثيرون ، ونشرت نتائج بحوثهِ والحالات التي عالجها ، فدهش علماء الطب النفساني مما قرأوهُ في رسائله ، لان تصديق ما فيها بدا صعباً. ولكن الدكتور ساكل شفى ثمانين في المائة من الخبل الذين عالجهم كذلك . والاقبال على تجربة هذه الطريقة في اميركا كبير والصحف حافلة بانبائها ، ولكن التعميم الآن سابق لاوانهِ والتجارب يجب ان تجرى بحذرٍ عظيم

المذاهب الاشتراكية — ٢

أثر الماركسية

في الادب

لحايم صتري

احب بعد ان طرقت هذه الابواب في الاشتراكية ومذاهبها مما قد يقره العقل الاجتماعي الحديث او لا يقره، أن اعرض للبحث الاساسي المقصود به هذا المقال وهو علاقة الماركسية بالادب. فاذا استعرضنا بعض النتائج التاريخية والحركات الفاصلة في تاريخ الاجتماع وجدنا ان الفكر السياسي في اوربا كان قد تطوّر نحو اتجاهات عديدة في الفترة التي استقرت فيها الحال بعد الحروب الثورية في القرن الثامن عشر. ولقد كانت المدرسة الفلسفية الذائعة الصيت إبان ذلك تلك التي قامت على فلسفة « هيجل » وتزعمها « هيجل » نفسه والتي قامت ايضاً من قبله على اكتاف « كانت » الفيلسوف الكبير ومن قبله أسسها فيلسوف الطبيعة « روسو »

ان كثيراً من تعاليم ماركس بل اشتراكيته نفسها في مظهرها، يعود الى «هيجل». فقد كان نجاح «هيجل» كفيلسوف يعود الى تقديسه « الفكرة » التي اعتبر المادة لها اثراً. واما ماركس فقد أخذ هذه النظرية وقلبها رأساً على عقب وكان باعثه في ذلك النحو من الرأي ان الفكرة في ذاتها لا تقرن الى « محصول المادة » في بناء الجمعية الانسانية، وانشأ على هذا الاساس نظريته الاجتماعية، « Materialist Couception of History » « النظرية المادية للتاريخ »

والآن دعنا نبدأ «بماركس وانجلز» ونرى مدى ما قصد به الادب والفن في مذهب « المادية الجدلية » « Dialectical Materialism » او الفلسفة الجدلية أو المنطقية — اذا صح هذا التعبير —. فقد اعتبر ماركس وانجلز ان وجود المجتمع الانساني في أية مملكة وفي أي جيل موقوف على وسائل الانتاج وقد يتهيأ للمجتمع فضلاً عن ذلك « كفايات عليا » كالسياسة والقانون والدين والفلسفة والادب والفن. ونستطيع في غير تحرج ان نطلق على هذه الكفايات « مظاهر النشاط » وهي لا تتجمع كلها في المعاني الاقتصادية وانما من شأنها أن تكوّن بطرق مباشرة أو غير مباشرة « التناسق الاجتماعي » وهي تمتد الى مختلف المرافق العامة كل منها في

اتجاهه الخاص على انها ترتبط في نظام واحد لانها تعمل متضافرة كما انها ترتكز على الحياة الاقتصادية . وإذن فلا يجوز ان يقال ان الحالة الاقتصادية هي وحدها الاثر الفعال وما عداها فلا يعتد به . فقد يتاح مثلاً لطابع اي عصر من « العصور الفنية » ان تؤثر حيويته في « نظام » ذلك العصر بصفة عامة وفي نواحيه الاقتصادية بصفة خاصة . . . لم يحاول « ماركس » أو « انجلز » إقامة مذاهب اجتماعية اقتصادية لكي يستطيعا بها تحديد « المنزلة الفنية للاجتماع » فقد نشأ كلاهما في مغرب أيام « جيته » الشاعر الالماني العظيم قبل ان ينتهي العصر الذهبي للأدب الالماني . ولقد حاول « ماركس » وانجلز ان يطرقا ابواب الشعر في صدر شبابهما بل لقد اندفعا في غمار الحياة الخيالية واستطاعا ان يبلغا فيها شأواً بعيداً بل استطاعا ان يكونا ناقدين لم تقبل عقليتهما هضم ما كان يكتبهُ « أوجين سو » في مؤلفه « العائلة المقدسة » عن طرق العلاج لبؤس الطبقات المتوسطة في المجتمع . بل لقد نددا « بفردريك فريليجرات » الذي هجر عصبة الاشتراكيين وارتدَّ وطنيًّا في عام ١٨٧٠ وكذلك أنحى ماركس باللائمة على « هنريش هيني » عند ما ظن ان هذا الاخير قد انحنى خوفاً أمام اصحاب السلطة عندما كتب « تعبيرات الزهد » في وصيته . وهذا ثابت من رسالة ماركس الى انجلز في ديسمبر ١٨٦٦ مع ان ابنة ماركس تقرر ان والدها كان يحب « هيني » بقدر ما كان يتغاضى عن إخفاقه السياسي . ولقد كان ماركس يقول ان الشعراء قد يكونون عباقرة اذا ما تركوا في سبيلهم احراراً فليس من المفروض اساساً ان نضعهم في المستوى العادي الذي نضع فيه سواد الناس

لم يكن من مميزات ماركس وانجلز الحكم على الآداب — آداب السموّ والقوة — في حدود اتجاهاتها السياسية . فلقد طالما انذر ماركس روائيي الاشتراكية بما ينجم من خطر عن الآداب الغامضة التي قد تؤدي نتائجها الى اغراض غير صريحة . ولقد كتب الى « مينا كوتسكي » يقول لها عن احد مؤلفاتها ان شخص البطل والبطلة في قصتها قد ذابتا في المبادىء التي يمثلانها ويقول لها لقد اتخذت بعض جوانب تلك القصة لابراز نظرياتك الى المجتمع على أنني أرى ان الاتجاه يجب ان يصدر عن الحوار والحركة دون ان يركزا في مذاهب اجتماعية او نظريات علمية وانهُ ليس على الشاعر ان يطلع على القارىء بحل ما يختتم به نهاية النزاع الذي يسرده »

ولقد أرسل « فرديناند لاسال » مأساته الشعرية « فرانز فون سيكنجن » الى ماركس وانجلز يدعوهما الى نقدها . فكتب اليه ماركس يقول « اذا تركتُ جانباً أي فكرة تعرض لي عن نقد هذا المجهود الأدبي فان قراءتي الاولى لتلك الدرة الثمينة قد أثرت فيَّ التأثير كله وطبيعي ان يثير مثل هذا الادب كل ذي وجدان » . أما انجلز فقد قال انهُ قد قرأها مثنى وثلاث ومن فرط اعجابه بها وضعها جانباً متأملاً في ما عسى ان تمليهُ عليه مواضعها من نقد ...» . ولقد

تحدثا في هذا عند ما كانا يدفعان بنفسيهما الى المحيط الادبي لكي يطلّعا على الانتاج الفكري ويضعان بصدده ما يعن لهما من ملاحظات . ولا عجب ففي عصرهما بلغت « الدراما » مكانة رفيعة ولقد أمكنهما ان يبينا كيف ان مكانة « لاسال » السياسية جعلتهُ يخطيء فهم الدور الذي لعبهُ بطل مأساته . أما « شاكسبير » فقد كان « ماركس » يكلف بآثاره الادبية والشعرية كلفاً شديداً . فكان يحفظ شعره عن ظهر قلب . وكان مشغوفاً بكتابة مذكرات عنهُ . ولكن لم يحاول ان يخرج منها بأية فكرة عن الاشتراكية

ولقد كتب ماركس مبيناً مدى العلاقة بين الفن والنظام الاجتماعي فأشار في مقدمته لنقد « الاقتصاد السياسي » الى ان في بعض العصور التي شارف فيها الفن المثل الاعلى لم يكن لهُ ثمة اتصال بالتقدم الاجتماعي . بل لم يكن لهُ صلة بالقواعد المادية التي يقوم عليها نظام الاجتماع . ولم يكن ماركس او انجلز ممن يتخذون الفن سلاحاً . . « Art as weapon » . بل كانا يتأثران بالمثل الاعلى للعقلية التي تشترك في مناحٍ كثيرة للعلوم والمعرفة فلم يحبذا التخصص في احد العلوم او الفنون بل كانا يقدران شخص ذلك العالم الذي قام في أيام «النهضة الاوربية» Renaissance والذي كان موسوعيَّ الثقافة

وهذا « ليوناردو » كان مصوراً ورياضيًّا وعالماً هندسيًّا . ودونك « ميكافيللي » فقد كان شاعراً ومؤرخاً وسياسيًّا ماهراً . كان هذان الرجلان اذن يمثلان تلك النظرية التثقيفية قبل ان يكون لتقسيم العمل « Division of Labour » هذا التحديد لطبيعة العقل ونموه وقبل ان يُفرض على كل انسان عمل خاص . على اننا اذا ما نظرنا الى « لينين » مثلاً وجدنا أنفسنا أمام شخصية مثقفة مجربة وانما نجد أيضاً ان ماركس خصَّ نفسه بشيئين « التنظيم والكفاح » ولقد كان كمعظم الروسيين — يعشق الموسيقى . ويتحدث عنهُ جوركي فيقول « لقد كان يستمع ألحان بيتهوفن فيؤثر سماعها كل يوم على أي شيء ويعبر عن احساسه نحوها فيقول . تلك هي الموسيقى التي ترتفع عن عواطف البشر واني لأذكر بفخر ما يصل اليه سمو العاطفة وجلال الالهام بل ما يصل اليه العقل — على اني لا أستمريء سماع الموسيقى كثيراً . فهي تؤثر في أعصابك وتجعلك اما متبرماً ساخطاً واما فرحاً راضياً على ان ينتهي هذا التبرم او السخط وذلك الفرح والرضاء الى الاعجاب بأولئك الذين يخرجون الى العالم درراً وفرائد ويعيشون في وادي الجحيم »

ولقد كان لينين مشغوفاً بالقصة والشعر والتمثيل وكان ذا نزعة خاصة في تذوق الفنون الرفيعة ولقد قال ذات مرة في أثناء حديث لهُ في احدى ندوات الشباب : ماذا تقرأون ؟ أتقرأون بوشكين ؟ ؟ — لا . لا . انهُ كان كاتباً من كتّاب العامة . وانما نحن نجل « مايكوفسكي » . فابتسم أحد الموجودين وقال : اني لا أظن ان « بوشكين » يفوقهُ كثيراً

وكان لينين يمجد « تولستوي » وكثيراً ما كان يقرأ كتابه « السلم والحرب » ولقد قال لينين عن تولستوي ان عبقريته منقطعة النظير وانهُ الفنان الذي يجب ان يتخذ مثلاً أعلى . ولقد كان لينين يكتب عنهُ معالجاً نواحي عبقريته كما كان « إنجلز » يحلل نفسية الشاعر الالماني « جيته » وان كان قد عرّض بعدم مقاومته وبتصوفه. وقد كانت فكرة لينين عن جوركي كفكرة ماركس عن « هيني » وكان يقترح في بعض رسائله ان يكون جوركي كاتباً صحافيًّا يدعو للبلشفية . . . على ألاَّ يكون من وراء هذا تحطيم نزعته الادبية العالية . . . وجوركي هذا الذي يعنيه لينين لم يستطع احتمال استبداده ودسائس انصاره فهاجر الى أوربا تاركاً منصبه في حكومة الروسيا وقد كان فيها مديراً للفنون الجميلة

ان لينين يمثل تلك « الطوبى » التي تخيلها « ماركس » عن « الاشتراكي المكافح » فقد كان دائم الجلاد والعمل ليصل بأصحاب « الايدي العاملة » الى مركز الحكم . ولقد كانت نظريات « كارل ماركس » انجيلاً يستنير بهِ في حياتهِ الاجتماعية بل كانت الحافز الذي دفع بلينين الى ان يعتنق تلك الفلسفة الجديدة في الاجتماع حتى أُتيح لهُ ان يصل الى تمزيق النظام (الرأسمالي). ولقد كان لهُ ان يحذق تلك الاساليب المختلفة التي يحتاج اليها الهدم والبناء وكانت نظريتهُ ان المبادىء شيء والاعمال شيء آخر وان القائد يجب ان « يجرب » لكي يصل الى خير الوسائل والطرق وبذلك ينتهي الى ما يطمع في الوصول اليهِ . ومما قرب للينين الطريق ما في خلقهِ من حزم واستهتار وبوهيمية

فقد عرف هذا الرجل كيف يسبر غور النفس الانسانية وكيف يختار الرجال ويدرس أوساطهم وبواعثهم النفسية . واستطاع ان يسخّر المجتمع رجالاً ونساء لخدمة اغراضه التي تنحصر في ان الحكومة يجب ان تسودها الطبقات العاملة (Proletarians) وهذا الرجل الذي كان يعمل بآراء ماركس في الحكم كان يبشر بهذه الآراء ذاتها في الادب والثقافة وكان من رأيه ان يكون الادب خادماً للحياة وان يكون وسيلة فعَّالة من وسائل التقدم الاجتماعي . واذا كانت الحرية غاية في ذاتها فتحرير الفكر من أسر التقاليد هو « الغاية » التي يجب ان يسعى اليها الادب

أما « تروتسكي » فكان أديباً يفضّل على لينين . أخرج عام ١٩٢٤ دراسة مسهبة عن « الادب والثورة » عالج فيها المشاكل التي تعرض لها الكتَّاب الروسيون وعن علاقاتها بالمجتمع الجديد الذي يعتبر وليداً للثورة . ولقد تعرّض في بحثه لاشياء لم يتعرض لها ماركس وأنجلز من موضوعات تختص بالنقد الادبي تحدث فيهِ عن قيمة الادب ورسالته في الحياة . لقد قدر تروتسكي منزلة « شكسبير واليونان » فليس يحق لكائن من كان ان يثير غباراً على هذه الآثار الخالدة الحية . ولقد كان هذا رأيهُ بينما الكتَّاب الروسيون كانوا يتساءلون عن منزلة الادب

والفن في عصور الانحطاط الدكتاتوري او الحرية الاشتراكية . وما هي الثقافة التي للطبقات العامة التي عنهم نشأت الاشتراكية . وهل تكون هنالك آداب شعبية جديدة في أساليب جديدة تمثل عواطف وآراء تلك الدكتاتورية الشعبية ؟ لقد كان في روسيا جماعة أطلقوا على انفسهم « البروليكتلت » رغبت تلك الجماعة في ان تحتكر الاشراف على الآداب السوفيتية . على ان لينين بدأ في معارضة المشروع بحجة ان الآداب الشعبية شيء لا يقوم على قوة السياسة او استغلال الآراء السياسية وانما يقوم على التطور الطبيعي القائم على المعرفة والعلم والتي جاهد من أجلهما الشعب تحت ضغط رأسمالية الاشراف والحكام . ولقد زعم تروتسكي في كتابه « الادب والثورة » ان الآداب الشعبية والثقافة الشعبية تنتهي الى نتيجة خطيرة في التكوين العلمي لعقلية الشعب اذا استمرت ، إذ تجمع خطأ ثقافة المستقبل في الحيز الضيق لحالتنا الاجتماعية الحاضرة . وانا لنفهم من « ماركسيته » اتجاه التأثيرات الخاصة بالادب القومي الذي يدعو الى الحرية والبعد عن تأثيرات اصحاب السلطة . ولقد قدر تروتسكي أولئك الكتاب والشعراء والروائيين الذين الهمتهم الحياة كثيراً من دروسها وعرفوا مدى ما ينتهي اليه تفكيرهم من بحث الأزمات الاقتصادية . . . وهو مع هذا لم يكن يؤمن بالادب الشعبي الذي حل محل الأدب « البرجوازي ».فلقد نما ادب الثورة الفرنسية البرجوازي في كنف العهد القديم ولكن روسيا « الامية » لم يكن لها مثل هذا الحظ من الثقافة وقد لا يحتمل ان تتمتع بهِ في المستقبل لان الدكتاتورية الشعبية لم تكن الاَّ فترة انتقال قصد بها إيجاد فكرة انسانية عظيمة . فالشيوعية لم يكن لها حتى اليوم ثقافة فنية ولكن كان لها ثقافة سياسية ! ! . ويقول تروتسكي — لم يكن من السهل ان تطبق مبادىء ماركس على الصور الفنية كما انهُ من السهل ان نقيس الصور الفنية الى مكانتها من السمو الفني بمقاييس الفن نفسه ! ! . لم يتعود الناس في روسيا ان تشرف الحكومة على الاعمال الادبية والفنية . وكذلك لم تحاول الهيئات الادبية ان تثبت وجودها عن طريق الحكومة . وانما كانت في الروسيا منذ الانقلاب الثوري جماعات أدبية حاولت ان تسيطر على الادب برعاية السلطة حيناً وبدون رعايتها حيناً آخر . ولقد كان تروتسكي بمكانته الرسمية يضاد هذه الاتجاهات وينكرها . وكان محبو الادب الروسي يعتقدون ان هذا النوع من الاستغلال بعيد عن الروح الاشتراكي وانهُ شر محض وان الحكومة لا الادب يفيد كثيراً من هذا الاشراف على الثقافة . وهذا العمل بعيد عن جادة الصواب فقد كان الادب «الرومانتيكي» في عهد القيصر يلعب دوراً لم يتح لمثله ان يلعبه في عهود التاريخ كلها . فقد كان النقد الاجتماعي والسياسي والادبي مقضيًّا عليهِ بالرقابة . وكان أن ألبس النقد يومئذ لباس « الدراما » لكي يظهر في أثواب مسرحية . ولقد تهيأ المسرح يومئذ عهد جليل من عهود التمثيل الفنية في القرن الثامن

عشر بل ان هذا هو السر في قوة تلك القطع الروائية العظيمة التي انتجها عباقرة الكتاب في تلك الفترة منذ عهد بوشكين حتى تولستوي . وكان هذا الادب التمثيلي يتسم بالتعريض art of implication ولقد كان يكفي لان يفلت مؤلف « تورجينيف »من يد الرقيب لكي يطرد الرقيب نفسه بل يسجن وكان هذا الموضوع التمثيلي « A Sportsman's Sketches »

ظلت الآداب كالسياسة منذ الثورة في حالة شديدة من التناقض والارتباك . أما بعد الثورة فقد كان المفكرون انفسهم اصحاب قوة ورأي . وكان اندماج الثقافة بالسياسة يومئذٍ لا يخلو من اخطار وشرور . فعمد لينين وتروتسكي ولوناشارسكي وجوركي الى تحرير الادب من اي دعوة . وكان لهم ان يناهضوا هذا الشعور الفكري الذي وجد في اذهان الشعب منذ عهد القيصر والذي كان يعتبر الفن سلاحاً للدعوة . وكان لينين لهذا يفيد كثيراً من دعاوة الصور المتحركة وكان اول فيلم شاهده الشعب هو « لا ينشيين » و « بتروفكين » وهو قطعة عظيمة في التعريض والنقد الاجتماعي على نسق الروايات التمثيلية التي مثلت في عهد القيصر . على ان البلاشفة قد أخفقوا بعد موت لينين ونفي تروتسكي في النهوض بهذا النوع من الآداب ولان «ستالين » لم يكن على درجة من الثقافة تعدل تلك التي للينين او تروتسكي . ولقد خمدت حركة النقد المسرحي نفسه لان ذلك الشعب الامي لم يكن ليصل الى تلك الذروة من التفكير

كان جوركي مدافعاً عن حرية القلم بل كان قد ارصد نفسه للدفاع عن حرية الفكر فاليه يرجع هدم « الراب » .R. A. P. P آخر مجهود في الاحتكار الثقافي . ولقد فتح الكنائس والمعاهد السوفيتية لاقطاب الكتاب الاجانب وكذلك لكتاب الكلاسيكيين وان كان هذا التصرف قد ادى الى تدعيم المظهر الديمقراطي وهيأ مجالاً واسعاً للاطلاع على الآداب والعلوم والفلسفات . وهذه الفترة تفضل كثيراً عهد « ستالين » حيث لا سبيل الى معارضة سياسية او نقد اجتماعي . وفي روسيا نجد السياسة تقرر المصير الاجتماعي ? . . واذن ما هو على وجه التحديد موقف المفكرين الروسيين . اولئك الذين يهيمون بفلسفة التاريخ او فلسفة الفنون والذين نضعهم في الصدارة اذا ما ذكر ادباء الاجتماع في العالم ! ! ان الموضوعات التي يعرض لها الادب التمثيلي اليوم في الروسيا لا تمت بصلة الى «المليودرام» ذلك التمثيل القوي الذي يصدر عن العاطفة والمعاني الخلقية . وانما نجد اليوم في الروسيا قصصاً تمثيلية هزيلة تتجه نحو الدعاوة الى اسلوب الحكم الذي يقوم به «ستالين»

ان موسيقى «سكوستا كوفتش» التي لم يتذوقها الجنود كانت دليلاً على اهمال الديمقراطية ومبادئها . وطبيعي ان موت «جوركي » وسجن « بوكارين » و «رادك» ازال « الفرملة » التي كانت تحول دون التدهور الفني وبعبارة اخرى التدهور السياسي . ان تمويه الحقائق التاريخية

في عهود ازمات ستالين وتروتسكي قد ادت الى نتائج وهمية حتى ان الحكومة لا تتوانى في ان تضع للناس برناجاً جديداً يمثل تاريخهم القديم ويصف اخلاقهم . ومثل هذا التصرف لا ينتهي الاَّ بأفساد الحياة العقلية التي تقوم عليها مظاهر الاجتماع وتقديره . على ان هذا كله يقابله العالم اجمع في شيء من الهدوء والابتسام . وعلى هذا النحو فقد دفعت «الماركسية» بنفسها في مأزق حرج او كما يقولون قد اسقطت نفسها في بئر . ونحن قد يخيل الينا ان «السوفيتيين» لم يبقَ لهم من ماركسيتهم حتى « الثقافة السياسية » في أعنف صورها . وهكذا فقد بعدنا عن تأثير الحرية طالما قد فقدنا إلهامها . واذن الى اي خاتمة تنتهي قضية «الماركسية والادب» . اننا يجب ان نتذرع في هذا البحث بالمنطق السديد وتحكيم العقل واذن فلا ينبغي ان نغفل تلك الآيات الادبية الخالدة التي اخرجها آباء الماركسية . اننا قد نبعد قليلاً عن «تروتسكي» فيما قد قررناه من أحكام ونصرّح بأن «الماركسية» وحدها لا يمكن ان تدلنا على الطيب أو الرديء من الانتاج الفني . فقد يكون هنالك «ماركسيٌّ» ممتاز ولكنهُ قد فقد ملكة التخيل او الذوق واذن فهو لا يستطيع ان يفرق بين الغث والسمين في الانتاج الادبي وهذه نتيجة «ايديولوجية» خاصة بتكوين ثقافته

ان دراسة الادب وعلاقته بالاجتماع قديمة جدًّا قدم « هردر » وفيكو . ولقد سبق « لكولردج » ان تحدث عن تلك العلاقة التي تقوم بين الادب والمجتمع . فقد تبين « قوة » السلطة اليونانية في عهودها التاريخية في ثنايا التعبيرات الادبية اليونانية . كما قد تستطيع ان تلمس «الفردية» الانجليزية في محاورات « تشوسر » . على ان «البرجوازي» الاكبر في هذا السبيل من النقد هو (تين)

ان الكاتب اذا شاءَ ان يطبق المبادىء والنظريات الماركسية ولا سيَّما نظرية ماركس عن « الفلسفة الجدلية » ينبغي ان يدرس الادب الانساني درساً عميقاً . فالشيء الذي يجب ان يتنبه لهُ الكاتبون يتعلق بالمعاني التي ترمي اليها حقائق الادب . ولعل هذه الحقائق لن يصل اليها العقل في يسر وسهولة فقد لا يستطيع الاديب نفسه اداء هذه المعاني في شيء من التبسط . إما لغموضها وإما لابهامها وإما لرمزيتها . وقد يعاني القارىء شيئاً غير قليل من العسر اذا ما انتهى الى حدّ يخيل اليه انهُ الحقيقة او المعنى الذي اراده الكاتب ، وقد يكتفي بما يعثر عليه من آراء اشتراكية تهذيبية . وقد يخطىء اذا ما عرف معنى من المعاني يخالف تلك التي يرمي اليها الكاتب . فبعض المعاني والالفاظ يصح ان يتخذ فيها اكثر من تفسير واحد او معنى واحد . ولقد كتب (فريدريك انجلز) الى (مارجريت هاركنيس) عن هذا فقال لها . (كلما استطاع الكاتب ان يخفي آراءه او خواطره السياسية كلما كانت اقرب الى الوضع الفني . فبلزاك بآرائه الرجعية يفضل زولا كثيراً رغماً عن آراء الاخير الديموقراطية . فبلزاك كان موضع اعجاب ماركس وانجلز . ولقد كان يرثي لتهدم الطبقة العليا في المجتمع وكأن نقده لم يكن مرًّا واستهزاءه لم يكن

عميقاً عند ما كان يصور الشخصيات الاريستوقراطية المعاصرة . تلك الشخصيات التي كان يحبوها بعطفه . بل التي كان اعجابه بها سافراً . وهؤلاء انفسهم كانوا من معارضيه السياسيين الذين استطاعوا ان يمثلوا مطالب الطبقات الشعبية في الفترة بين عامي ١٨٣٠ — ١٨٣٦ . وعلى هذا فليس من المحتم انهُ ينبغي في الآية الفنية تحديد الاشخاص في معرض النزاع او غيره من شؤون الاجتماع حتى يتهيأ إعداد الصورة الكاملة عن المجتمع . وهذا ما قد يعرض لهُ الادب كما قد تعرض لهُ الموسيقى من وجهة الفن . على انهُ من المفروض تحديد العواطف والانفعالات التي تدفعنا الى الحركات والاعمال ومن هذا نرى ان الذكاء الحقيقي واستشفاف حجب الغيب يدلان على حيوية التفكير في النفس وهذا ما يستطيع الكاتب تبيانه في ادبه اذا كان موهوباً واذا عرف ان يصل الى ما تهيؤهُ لهُ افكاره من صور وما يمليه عليه عقله من آراء علمية متزنة

وليست الماركسية في النقد تعني الهدم وانما هي تعني البناء . فناقد (اليسار) الذي لا يتزود بالكفاية الادبية قد يعمد الى وزن المؤلفات الادبية بموازين ليست مضبوطة . وهذا مصدره قلة التحصيل والاطلاع على متباين النزعات الادبية والخلقية. فالناقد ينبغي ان يعرض للادب باعتباره (وسيلة) لا باعتباره (غاية) فالمثل الاعلى للادب الماركسي مثلاً هو (فائدته) التي تعود على هذا المجتمع الكبير . كأن يقرر الوضع الصحيح للفرد والمجموع وحقوق المرأة ورسالة العلم في الحياة وماهية الفلسفة وتعديل النظم الاقتصادية وتعريف الحقوق والواجبات . والالتزامات الخلقية المفروضة في الكتّاب والادباء . واليوم الذي تصل فيه الماركسية الى هذا هو الفترة التي « تتحجر » فيها وتصير مذهباً فلسفيًّا كالمذاهب المعروفة . أما مميزات المثل الاعلى للادب الماركسي فهي كما ذكرها (جرانفل هيكس) في مقال لهُ عن الأزمات في النقد ما يأتي : —

أولاً : ان تكون وظيفة هذا الادب ان يفهم القارىء من طبقة العمال دوره الذي يقوم به في الكفاح الاجتماعي . ثانياً : ان يظهر ذلك الادب بطريقة مباشرة او غير مباشرة نتائج كفاح الطبقات

ثالثاً : اشعار القارىء ان الكاتب يساهم في هذا الضرب من الحياة الاجتماعية التي يعرض اليها

رابعاً : ان يكون الكاتب نفسه في مقدمة طبقة العمال عطفاً وروحاً

ولقد عقد في اغسطس عام ١٩٣٤ مؤتمر الكتّاب الروسيين ونودي فيه بمذهب (الاشتراكية الواقعية) في الادب ولم يكن هذا غير محاولة لتقرير بعض الموضوعات الادبية عن الحياة . أما « الفرضيون » الذين يتصوّرون الى حدٍّ ما أدب المستقبل فلهم ان « يحكموا على نسبة ما وصل اليه الانتاج الادبي في عصور الامبراطورية » وبين فقر الادب في هذه الايام . واذا كان في عرفهم انهُ لم يظهر هنالك أديب يسمو الى نقدهم او يكون مستحقًّا لهُ فهم من أجل هذا يؤملون كثيراً في المستقبل ويعرفون انهم مقبلون على عصر « مادي » او كفاحي قد يوجد فيه طائفة من « المثاليين ».

«والانسانيون» في عرفهم قد وجدوا خير معين في أدب سوفوكليس وشاكسبير « والاشتراكيون الواقعيون » Realist كان لهم تولستوي وأضرابه. على انهُ من الثابت لو ان تولستوي قد عاش في حيز ما يفرضهُ أو يحدده هؤلاءِ لما كان قد كتب فصلاً واحداً وكذلك لو ان (بايبت) و(مور) قد أمكنهما ان يقيما امام (شكسبير) فروضهما لما كان قد خط حرفاً من قصيدة

لقد بدأ الادب الروسي منذ أول هذا العصر ان يسير في وجهتين مختلفتين الاولى وجهة الادب الواقعي والثانية وجهة الادب البرجوازي الكثير (الرومانتيكيات) وقد انتصر الاول بانتصار الماركسية وتهدم الثاني لبعده عن الحياة وقربهِ من الخيال والصنعة والارستقراطية ولقد ظل هذا الاخير منذ نهاية القرن الثامن عشر يسعى للدخول في الحياة ويحاول لكي يجد لهُ تأثيراً فيها فأخفق بعد ما يقرب من المائة سنة بينما الادب «البروليتاري» التقريري قد عرف كيف ينفذ الى صميم الحياة بعد النصف الاخير من القرن التاسع عشر وهو قد بلغ أوج مجده في السنوات التي اعقبت الحرب الكبرى

وقد يقول قائل وما ادعى الاوقات ملاءمة للانتاج الفني ؟ قد يكون في عصري الثورة وما قبل الثورة انتاج ادبي فيهِ حيوية وتجدد . وهذا ما يخالف وقت الثورة نفسه فلا شك فيهِ ان الصور الادبية العالية يحتاج في صنعها الى فراغ وهدوء والكاتب في غضون الثورة محروم منها. فادب الثورة الفرنسية احتوته خطب (دانتون) ومذكرات (كاميل ديمولان) وقصائد (اندريه شينيه) السياسية القليلة التي كتبت قبل ان تنزع رأسه (الجيلوتين) . أما أدب الثورة الروسية فقد احتوته كتابات لينين وتروتسكي واشعار الكسندر بلوك (الاثنا عشر)

اما ما قبل الثورة فقد كانت العوامل كلها تدعو لاختمار الافكار . ففي القرن الثامن عشر في فرنسا والقرن التاسع عشر في روسيا لم تكن قوة الادب فيهما مستمدة من الثورة المتوقعة ولكن كانت هنالك ظواهر ملموسة للأدب الراقي الذي يسير بخطى واسعة نحو الكمال ولقد كان للمعاهد العلمية الكثيرة وجهابذة الفكر والادب فضل في هذا الصدد لا ينكر واذا عرضنا للادب (البروليتاري) الذي لازم الثورة الاشتراكية فقد نقول ان الكتّاب كانوا يكتبون عن (الواقع) الذي يحيا فيهِ العامل وكانوا كذلك يكتبون عن (البرجوازيه) في أسلوب تميز بالاختصار حتى لكأنهم يطوقون الادب بهذا الغلاف (الرمزي) . لقد كان البؤس والفقر والمظالم السياسية موضوعات تولستوي وديستويفسكي وجوركي والقصص التي كتبها هؤلاء جميعاً تنحو نحو النقد الموضوعي. على ان (القصد) عندهم لم يكن واضحاً وضوح (الفن) وتلك ناحية في الاسلوب قد تطبع أدبهم بطابعها الخاص. على اننا لا ننسى ان جوركي كتب حقًّا عن موضوعات هي كالموضوعات التي عرض لها تولستوي وديستويفسكي واضرابهم وانما كان إيضاح الغاية والقصد ما يحبُّ ان يصل اليهِ دائماً . ولعل من ابعث الاسباب للتجديد في أدبهِ انهُ كثيراً ما عدا الوسط الذي يعيش فيهِ ولذلك فقد كتب عن الاقتصاد وحرية المرأة وعدم المبالاة بالعرف الاجتماعي

٤ — علم الانسان

الانسان المجهول

تلخيص : اسماعيل مظهر

٧ — ضرورة المفاضلة بين المعلومات المتباينة الخاصة بالانسان — بردجمن ومذهبه في التصور الفعال — نبذ المذاهب العلمية والفلسفية — وظيفة الفروض

إنّ جهلنا بأنفسنا لجهل ذو طبيعة خاصة . جهلٌ ليس مصدره صعوبة الوصول إلى المعلومات الضرورية ، ولا خطأ تلك المعلومات ، ولا ندرتها . بل هو على العكس من ذلك ، جهل سببه وفرة المعلومات التي كدّستها الانسانية عن نفسها خلال تتالي القرون ، فتنافرت ولم تتسق . أضف الى ذلك تجزيء الانسان قطعاً وتمزيقه نتفاً من طريق تلك العلوم التي حاولت أن تدرس تركيبهُ الجسماني ووَعيه . غير ان هذه المعرفة الواسعة لم تستخدم لمصلحة الانسان في غالب الامر . والواقع انها معرفة لا يمكن استخدامها ، وبوارُها ظاهر يتجلى في ركاكة التصورات القديمة ، وفي الاسس التي قام عليها الطب وعلم الصحة والتعليم وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي . غير أننا نجد إلى جانب هذا أن هنالك حقيقة حية مفعمة بالقوة تتضمنها تلك الكتلة الهائلة من التعريفات والنظريات والمذاهب والمبادىء والرّغبات والاحلام ، تلك التي تمثل لانظارنا حقيقة تلك الجهود التي بذلها الانسان في سبيل استجماع المعرفة عن ذاته . اضف الى مذاهب العلماء وتأملات الفلاسفة ، تلك النتائج العملية التي بلغها الانسان من طريق التجارب التي مارسها اهل القرون الفوارط ، هذا الى جملة وافرة من المشاهدات كانت روح العلم ، وإن شئت فقل « الفن العلميّ » السبب المباشر في ان ينعم بها الانسان ويستكنه مغلقها . عامة ذا يحفزنا حتماً الى الشعور بضرورة المفاضلة واختيار الاصلح من تلك الاشياء المتباينة المتنافرة

من التصورات العديدة المتعلقة بالانسان ، نذرٌ هو بطبعه مجرّد تأليف منطقي مصدره العقل الصرف . ولو بحثنا لعجزنا عن أن نجد في العالم الخارج عن حيز العقل (كائناً) ينطبق عليه ذلك التأليف المنطقي . أما غير ذلك من التصورات فنتاج للتجربة والاختبار . وهذه هي التي دعاها (بردجمن) (التصورات الفعّالة) فكل المعرفة الايجابية (اليقينية) تتطلب منا استخدام

فنّ مّا ، وبالحري تتطلب بضع عمليات او أفعال طبيعية او عقلية . فاذا قلنا مثلاً ان شيئاً يبلغ من الطول متراً ، فانما نعني بذلك انهُ يبلغ من الطول مبلغ قطعة من الخشب أو المعدن ، امتدادها مساوٍ لامتداد المتر القياسي المحفوظ في المكتب الدولي للمقاييس والموازين . ونستخلص من هذا المثل ان تصور الطول انما يترادف ومقياس المتر الطولي . ومن هنا يقول بردجمن ان التصورات التي تتصل باشياء خارجة عن حيز الاختبار، تصورات مسلوبة المعنى ومن هنا يقال ان سؤالاً ما انما يكون معدوم القيمة والنفع ، اذا كان من غير المستطاع ان يستكشف الانسان «العمليات» التي تؤهل بنا الى الاجابة عنهُ

ان دقة « السؤال » في كل الحالات ، تتوقف على « العمليات » التي تؤدي الى فهمهِ واستيعابهِ . فاذا عرفنا الانسان مثلاً بأنهُ « كائن يتألف من مادة ووعيٍ » فان هذا التعريف يكون ولا شك فاقد المعنى . ذلك بأن العلاقات التي تقوم بين الوعي وعالم المادة لم تدخل بعد منطقة الاختبار حتى الآن . وانما يكون التعريف الذي نضعهُ للانسان « تعريفاً فعّالاً » اذا نحن اعتبرناه كائناً قادراً على ان ينشط نشاطاً تتجلى فيهِ آثار الافعال الطبيعية الكيميائية والوظيفية والنفسية . ذلك بأن التصورات الثابتة الحقيقة الدائمة الماهية ، والتي ينبغي ان تكون على الاستمرار أساس علمي الاحياء والطبيعة ، هي التصورات التي ترتبط بأساليب الاختبار . ولنضرب لذلك مثلاً . فان فكرتنا القائمة الآن عن خلايا القشرة المخيّة ، وشكلها الهرمي ، وزوائدها الجذرية المشعبة ، إنما تعود برمتها الى الوسائل التي كشف عنها (رامون كايال) . هذا « تصوُّر فعال » . ومعنى انهُ فعال انهُ تصوُّر يظل ثابتاً لا يتغيَّر حتى تستكشف وسائل أخرى أدق من الوسائل الاولى وأجدى في كشف حقائق جديدة . أما ان نقول ان خلايا القشرة المخية هي مقر الظواهر العقلية، فلا شكَّ يكون قولاً فاقد القيمة واطلاقاً مسلوب القدر، لاننا لا نستطيع ان نشاهد ظواهر عقلية مندمجة في مادة الخلايا المخية . بهذا نجد ان (التصورات الفعالة) هي الدعائم الثابتة التي يمكننا ان نشيد من فوقها آمنين . واذن ينبغي لنا ان ننظر في قدر المعرفة العظيم الذي استجمعناهُ عن أنفسنا لنختار منهُ القواعد والمعلومات التي لا تلائم ما هو قائم في أذهاننا لا غير ، بل تلائم أيضاً طبيعة الاشياء

وانا لنعلم ان من التصورات ذوات العلاقة بالانسان ما هو مقصور عليهِ وحده ، ومنها ما يتعلق بجميع الاحياء ، وأن هنالك تصورات غير هذه وتلك، كالتصورات المستمدة من علم الكيمياء او الطبيعة او الميكانيكا . وانا لندرك فوق هذا جميعه ان هنالك طوائف من التصورات والمدركات تُكوّن ما يشبه الطبقات المتراكم بعضها فوق بعض حتى اذا بلغت القمة ، فعندها نقع على الانظمة الحية . فأول تلك الطبقات تتكون من تصور الكهربات والجزيئات والذرّات ، وهي أشياء نجدها في أنسجة الانسان العضوية كما نجدها في الاشجار وفي الحجارة وفي السحاب. ثم يأتي بعد ذلك تصور (المكان — الزماني) وتصور الاستمرار والطاقة والقوة والكتلة، ويعقّب على ذلك بتصور القدرة

والتفريغ الكهربي والايونات (الشوارد او الدوالف) والتجمع والتبدد الى غير ذلك . فاذا تجمعت الذرات وأمكنها بذلك التجمع أن تبني خلايا نسيجية، وتألفت الخلايا فكونت أعضاء ومتعضيات، فلا مندوحة من ان نضم الى التصورات السابقة تصورات أخرى كتصور الاجسام الصبغية في الخلية والمورثات genes والوراثة والتهايؤ adaptation والغريزة الى غير ذلك . على ان كل طائفة من هذه التصورات ينبغي ان تستخدم في المجال العلمي التي هي تابعة له فلا تطغى طائفة منها على مجال طائفة أخرى، والا ضللنا السبيل وعجزنا عن ادراك الحقائق ادراكاً يجعلها ذات فائدة عملية

لهذا نقول ان تنافر وجوه المعرفة ذات العلاقة بأنفسنا انما يرجع الى وجود بقايا المذاهب العلمية والفلسفية الدينية متغلغلة في ثنايا الحقائق الايجابية الثابتة . فان العقل اذا أيقن بصحة مذهب من المذاهب أيًّا كان ، فان يقينه هذا لا يمكنه من ادراك الظاهرات الجامدة الواقعة على وجهها الصحيح . ولقد استمرت الانسانية في خلال كل العصور تنظر في ذاتها من خلال مناظير غشيتها المذاهب والمعتقدات والاوهام . وتلك أشياء يجب ان تندثر وتتبدد . ولقد قال (كلود برنار) انهُ من الضروري ان يتخاص الانسان من آصار المذاهب الفلسفية والعلمية اذا هو أراد ان يتخلص من العبودية . على اننا لم نحصل على هذه الحرية بعد . فالاحيائيون — Biologists ومن ورائهم القائمون على شئون التربية والاقتصاديون والاجتماعيون ، عندما تواجههم معضلات مهوشة معقدة ، يستسلمون عادة لاغراء الفكر ويروحون يقيمون نظريات ، ثم لا يلبثون ان يحوطوا هذه النظريات بصور من القداسة فتتبلور ثم تصير عقائد ، حتى لقد نرى ان علومهم قد تبلورت بالفعل حتى بلغ تبلورها من التعقد والشدة مبلغ المذاهب الدينية

نواجه في التاريخ أمثالاً عديدة تبين لنا عن أمثال هذه الاخطاء شائعة في كل مناطق المعرفة . وأجلى مثل على هذا ، العراك القائم بين القائلين بالروحانية والقائلين بالآلية . ان هذا العراك لباقٍ الى يومنا هذا . وهو فوق ذلك عراك سببه خطأ من أشهر الاخطاء التي استغوت الانسان . فالروحانيون يظنون ان الكائن المتعضي ما هو غير آلة تماسك اجزاؤها بفضل عامل مفارق للبدن ، وان هذا العامل لا علاقة له بالقوانين (الطبيعية الكيميائية) . هم يقولون ان تفاصيل الجسم الحي انما تظل متماسكة مترابطة بحكم مبدإ روحاني مستقل عن البدن ، وان مثل هذا المبدأ كمثل المهندس الذي يصمم الآلة ويحكم سيرها . بل قالوا ان هذا العامل المستقل ليس بطاقة ، بل ولا يستحدث طاقة . وانما هو موكل بتدبير شئون الكائن المتعضي . ومن الجلي أن هذا المبدأ الروحي ليس (تصوراً فعالاً) . انهُ في الواقع تأليفاً عقليًّا . وعلى الجملة نقول ان الروحانيين يعتبرون البدن آلة يدبرها مهندس يسمونهُ (الروح) أو (القوة العليا) . هذا ولم يتحققوا يوماً ما من ان ذلك المهندس المدبر ليس شيئاً سوى (ذكاء) الانسان ذاته

وكذلك الحال اذا نظرنا في ما يقول الآليُّون . فهم يعتقدون ان جميع مظاهر النشاط

الوظيفيّ والنفسي يمكن تعليلها بحقائق مستمدة من العلم الطبيعي والكيمياء والميكانيكا . فهم بذلك يشيدون آلة . ولكنهم نسوا ، كما نسي الروحانيون من قبلهم ، انهم هم بذواتهم المهندس الذي أقام هذه الآلة وحبك اطرافها . فهم ، على ما يقول (وودجار) ، قد غفلوا عن حقيقة ذلك المهندس ووجوده . ولا شك في ان هذا التصور بدوره ليس تصوراً فعّالاً

بذلك يظهر لنا ان القول بالروحانية والقول بالآلية قولان ينبغي ان ينبذا ويندثراء شأن كل المذاهب الاخرى ، ولنفس الاسباب التي تدعونا الى القضاء على المذاهب عامة . على انهُ ينبغي لنا الى جانب هذا ان نتحرر من الاوهام ومن الاخطاء ومن الحقائق التي لا تقوم على مشاهدة صادقة ، ومن المسائل التي تناول حلّها علماء اتصفوا بضيق العقل وضعف التفكير ، ومن المستكشفات الزائفة التي يروّجها أدعياء او علماء اكتسبوا شهرتهم بدعاوة الجرائد والصحف الاخرى . ولا ينبغي لنا ان نتحرر من هذا وحده ، بل من اشياء أخرى لا تقل عن تلك أثراً ، كالبحوث غير المثمرة والدراسات الطويلة المملة لاشياء فاقدة المعنى مسلوبة القصد والمغزى

إذا طهّرنا أنفسنا من آثار ذلك جميعاً ، اصبحت نتائج البحث الجدّي في العلوم ذوات العلاقة بالانسان ، والثروة العظيمة التي ترتبت على التجاريب والاختبارات العلمية ، الاساس الصلب الجامد الذي تقوم من فوقه معرفتنا . واذا نظرنا في تاريخ الانسانية لاستطعنا ان ندرك تفاصيل الجهد الجوهري الذي بذلته خلال العصور بلمحة واحدة

غير انهُ يجب علينا ان نعي انه الى جانب المشاهدات اليقينية الايجابية والى جانب الحقائق الثابتة ، توجد اشياء كثيرة ليست إيجابية وليست بعيدة عن مجال الجدل . والواجب ان أمثال هذه الاشياء لا ينبغي ان تنبذ ، بالرغم من ان « التصورات الفعّالة » وحدها هي الاسس التي يقوم من فوقها بناء العلم . ذلك بأن قوة التخيّل ، وهي قوة ابتكارية خلاّقة ، هي وحدها القوة القادرة على بعث تلك الظنون والفروض والاحلام التي سوف تتمخض عن حقائقها عصور المستقبل . علينا ان نستمر نسائل انفسنا ونضع امامها المشكلات التي تلوح من وجهة نظر النقد العلمي لا معنى لها ولا قيمة . وبفرض اننا حاولنا ان نصد عقولنا عن التطلع الى معرفة المستحيلات والمجهولات ، فلا شك في اننا نخفق في ذلك . فان حب الاستطلاع صفة رسيسة في طبائعنا ، بل هو دافع اعمى لا يعرف سنة ولا يطيع قاعدة . ان العقل البشري يمضي باحثاً في كل الاشياء الخارجية ويمضي مخترقاً اعمق اغوار نفوسنا ، وأعمى تفاصيل كياننا على البحث ، بهمة لا يصيبها الكلال ولا ينفذ اليها الملل . ان حب الاستطلاع يحفزنا الى استكشاف الكون واستيعاب ظواهره وحقائقه . انه صفة فطرية تقودنا في ركابها دائماً الى رحاب مجهولة ، الى جبال شامخة صعبة المرتقى وعرة المنحدر . ولكنها جبال على تشامخها ووعورة منحدراتها ، تذوب وتتبدد امام هذه القوة ، تبدد الدخان اذا ما ذرتهُ الرياح

نجم "العنز" العجيب

في صورة ممسك الاعنة
وعناية الفلكيين به

« ممسك الاعنة » او « صاحب العنز » او « العنّاز » وله اسماء اخرى صورة من صور النجوم الشمالية ممثّلة في بعض الاطالس الاوربية للنجوم في صورة رجل قائم خلف فرساوس بين الثريّا والدب الاكبر ممسكٌ اعنة بيده اليسرى وحاملاً جدياً على ذراعه اليمنى . وقد رسم في كتاب الصوفي الفلكي العربي — ومنهُ نسخة خطية مصوّرة بديعة محفوظة في دار الكتب المصرية — بصورة رجل جاثٍ على ركبته اليسرى وعلى رأسه عمامة من الكشمير وباحدى يديه عصاً في اسفلها انشوطة وفي اعلاها خيطان ربط بهما حقتان . واسم هذه الصورة باللغة العلمية Auriga وبالانكليزية The Waggoner or Charioteer اي فارس المركبة

في هذه الصورة ما يزيد على ستين نجماً انورها العيوق Capella وهو من القدر الاول . ولكن النجم الذي يهمنا في هذا المقال من نجوم «ممسك الاعنة» ليس العيوق بل « العنز » المعروف في لغة الفلك العلمية باسم «ابسيلون اوريجي» (راجع « بسائط علم الفلك للدكتور صرّوف » و « المعجم الفلكي » للفريق امين فهد المعلوف) لانهُ من النجوم التي استوقفت انظار الفلكيين في الاشهر الاخيرة بوجهٍ خاص لطبائع خاصة متصف بها كشف العلم عن حقيقتها

***

في مستهلّ القرن السابع عشر (سنة ١٦٠٣) حاول الفلكي الالماني باير Bayer ان يضع اسماء لجميع النجوم التي ترى بالعين المجرّدة وكان من النجوم التي تناولها نجم في « ممسك الاعنة » وسمهُ بالحرف الخامس من الابجدية اليونانية « ابسيلون » فعرف من ذلك العهد باسم «ابسيلون اوريجي » في كتب الفلكيين ومقابله بالعربية على ما جاء في المعجم الفلكي (المعلوف) العنز ولم يكن باير ولا غيرهُ من علماء عصره يحلم بان هذا النجم سيصبح في عصرٍ تالٍ موضوع

بحث دقيق . ففي القبة الزرقاء اكثر من مائة نجم تفوق « العنز » اشراقاً . وخمسة آلاف نجم ترى بالعين المجرَّدة . وفي المجرَّة وحدها عشرة آلاف مليون نجم على اقل تقدير . واذا اخذنا بالظاهر من طبائع « العنز » لم نستطع ان نتبيَّن فيه ما يميزهُ عن غيره من النجوم

الاَّ ان الواعظ الالماني فرتش Fritsch كان اول من ظنَّ ان هذا النجم يختلف عن غيره ذلك بانهُ لاحظ في شتاءِ سنة ١٨٢١ ان اشراق « العنز » قد ضؤل حتى بلغ نصف ما يكون عليه عادة . ولكن هذه الملاحظة نسجت عليها عناكب النسيان خيوطها الدقيقة ، ومضى نحو ربع قرن قبل ان عني أحدٌ بهذا النجم ففي سنة ١٨٤٨ لاحظ الفلكيُّ الالماني شمدت Shmidt ان اشراق العنز كان نصف ما كان عليهِ في ربع القرن السابق . ومنذ تلك السنة ١٨٤٨ مرَّ العنز في ثلاثة أدوار من ضآلة النور وضعف الاشراق ، كالتي لاحظها شمدت سنة ١٨٤٨ وقبلهُ فرتش سنة ١٨٢١ وذلك في سنة ١٨٧٥ ثم في سنة ١٩٠٢ ثم في سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠

ونحن نعلم الآن ان العنز ليس نجماً فرداً بل هو نجم مزدوج قوامهُ نجمان يدور أحدهما حول الآخر في فترة مداها سبع وعشرون سنة . والنجوم المزدوجة ليست نادرة في القبة الفلكية ، ولكن أوصاف العنز تختلف عن أوصافها . فدراسة عناصر هذا النجم المزدوج أفضت الى توقع كسوف فيهِ في ميعاد معين . فتمَّ الكسوف في ميعاده ، ولكن لوحظ ان ضوء الشريك المشرق في هذا النجم المزدوج لم يحتجب عند ما كان الكسوف تامًّا . فعجب الفلكيون وحيِّروا وظلوا محيَّرين حتى ظهر لهم ، ان العنز ليس نجماً مزدوجاً عاديًّا ، وان الشريك الخفيَّ ليس الاَّ كرة عظيمة من الغاز اللطيف حرارتهُ واطية جدًّا ، لم تعهد من قبل في اي نجم آخر درسهُ العلماء

وكان في مقدمة علماء الفلك الذين عنوا بدراسة هذا النجم الخفي الاستاذ كويبر Kuiper أحد علماء مرصد يركيس فبيَّن بالحساب الرياضي ان قطر الشريك الخفي في « العنز » يزيد ثلاثة آلاف ضعف على قطر الشمس . ووجد أيضاً ان الطاقة الاشعاعية التي يطلقها في الفضاء كل من نجميْ العنز تفوق ستين الف ضعف ما تطلقهُ شمسنا من الضوء والحرارة . ولما كانت مساحة سطح النجم الخفيّ في العنز تفوق عشرة ملايين ضعف مساحة سطح الشمس فالحرارة التي تنطلق من كل بوصة مربعة من سطح نجم العنز الخفيّ تقلُّ مائتي ضعف عن الحرارة التي تنطلق من مساحة مماثلة لها على سطح الشمس

فاذا طبقنا القاعدة الطبيعية بأن قدر الطاقة التي يشعها جسم ما وثيقة الصلة بحرارة ذلك الجسم افضى بنا الحساب الرياضي على هذا الاساس الطبيعي الى ان حرارة سطح النجم الخفي في العنز من رتبة ١٣٠٠ درجة مئوية وهي حرارة واطية جدًّا لاي نجم من النجوم، فحرارة سطح الشمس

٦ آلاف درجة مئوية وحرارة سطح الشعرى ١٠ آلاف درجة مئوية . والجسم الذي حرارتهُ نحو ١٣٠٠ درجة مئوية لا يكاد يبلغ درجة الحمرة ولذلك يكون معظم الطاقة التي يشعها من الاشعة التي تحت الاحمر . واذن فنجم العنز الخفي لا يمكن ان يرى بالعين لان الاشعة التي تحت الاحمر لا ترى بالعين وكذلك لا يمكن تصويرها بألواح التصوير الضوئي العادية

ولما كان قطر هذا النجم يفوق قطر الشمس ثلاثة آلاف ضعف فحجم كرتهِ يجب ان يفوق حجم كرة الشمس ثلاثين الف مليون ضعف ، ولكن مقدار المادة في هذا النجم لا تفوق مقدار المادة في الشمس الا ثلاثين ضعفاً واذاً فكثافة المادة فيه اقل من كثافة المادة في الشمس نحو الف مليون مرّة . وأقل من كثافة الهواء نحو مليون مرة . ولذلك يصحُّ ان نقول في نجم العنز الخفي انهُ فراغ تام تقريباً يطلق أشعة تحت الاحمر

وقد عني الاستاذ سترومغرن Stromgren أحد علماء مرصد يركيز بهذه الناحية من البحث فأثبت ان نجماً هذه صفاته لا بدَّ ان يكون شفافاً تقريباً ولذلك يخترقهُ نجم رفيقهِ في أثناء الكسوف كما يخترق الضوء العادي جدار فقاعة من الصابون . وهذا يفسر المفارقة التي حيَّرت العلماء عند رصد كسوف « العنز » وهي ان النجم الخفي لم يحجب ضوء النجم المشرق

***

وكل ما عرف من الحقائق عن الرفيق الخفي في « العنز » انما يعرف بأساليب قائمة على الحيلة العلمية والمداورة لان أحداً لم يستطع ان يراهُ او يصورهُ حتى الآن

من هذه الاساليب ، أسلوب استنبطهُ وأتقنهُ الدكتور شارلس هتسلر Het zler أحد علماء مرصد يركيز . وقوامهُ ألواح دقيقة الاحساس بالضوء الذي تحت الاحمر ، ولكنهُ يضع أمامها ألواحاً تحجب من الضوء الواقع عليها كلَّ أمواج الا الامواج الاشعة التي تحت الاحمر . وبهذه الطريقة تمكن الدكتور هتسلر من كشف نجوم كثيرة لا تطلق الا أشعة تحت الاحمر . ولو كانت عيوننا تتأثر بالاشعة التي تحت الاحمر فقط لكنا نرى القبة الفلكية على غير ما هي عليهِ . فمعظم النجوم التي نراها الآن كانت تختفي لان ما في ضوئها من الاشعاع الذي تحت الاحمر قليل . ولرأينا نجوماً خفية وقد عظم اشراقها لانها لا تطلق الا هذا الضرب من الاشعاع

ثم هناك جهاز آخر يعرف باسم « الترموكبل » . وهو جهاز لقياس الحرارة عن بعد ، وفي قدرة مستعمله ان يتبيَّن حرارة شمعة على بعد مائة ميل . وقوامهُ أنبوب مفرغٌ أدخل في جدارهِ قطبان كهربائيان من فلزين مختلفين . وقد ثبت بالتجربة ان خير الفلزات لهذا الغرض البزموت لاحد السلكين وخليط من البزموت والقصدير (١٠ في المائة) للسلك الآخر. فاذا عرض

أحد السلكين لضوءِ نجم وحرارته بوضع الجهاز في محترق مرقب كبير ، وأبقى السلك الآخر غير معرَّض لها ، تولَّد تيار كهربائي دقيق جداً يمكن قياسهُ بالجلفانومتر . فالنجوم التي تبلغ من الخفاءِ مبلغاً يجعل تصويرها متعذراً قد يكون في اشعاعها قدر يسير من الحرارة لاحداث تيار في سلكي الثرموكپل يمكن قياسهُ (١)

والثرموكپل يقيس ضروب الاشعاع من فوق البنفسجي الى تحت الاحمر . ولقياس ضرب معين من ضروب الاشعاع تستعمل مصافٍ خاصة توضع امام هذا الجهاز فلا يخترقها الاَّ الاشعة التي يراد قياسها . فيقاس مثلاً الاشعاع الكامل لنجم من النجوم ثم يوضع المصفى امام الجهاز ويقاس مقدار ضربٍ خاص من الاشعاع فتعرف النسبة بينهما . وبذلك تعين حرارة النجم

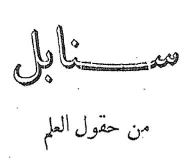
على هذا الاساس العلمي درس علماء مرصد يركيز نجم العنز المزدوج فتبينوا ان النجمين قريب احدهما من الآخر وان معظم الضوء المرئي منهما مصدره النجم المشرق وهو اصغرهما حجماً وأما الآخر فكبير الحجم جداً بحيث يمكن ان توضع الشمس وسياراتها حتى فلك اورانوس فيه

ومن اعجب النتائج التي اسفر عنها البحث في هذا النجم الخفي ، وجود طبقة من الغاز المؤيَّن ionized حولهُ . وهذه الطبقة تابعة بحكم الجذب للنجم وتدور مع كتلته اللطيفة حول محوره كما يدور غلاف الارض الغازي مع الارض حول محورها . ولكن الطبقة الغازية التي حول نجم العنز الخفي ، منارة بالضوء الواقع عليها من نجم «العنز» المشرق . فيؤثر فيها هذا الضوء تأثيراً مشابهاً لتأثير ضوء الشمس في الطبقات العليا من غلاف الارض الغازي . اي انهُ يؤين بعض ذرات الغازات فتنفصل الكهيربات عن النوى فتتكوَّن طبقة كنلي هيفيسيد التي تفعل بالامواج اللاسلكية فعل المرآة بالامواج الضوئية ، فتمنعها من الانطلاق في الفضاء خارج جو الارض وتعكسها الى سطحها ، وبهذا الفعل يفسر انتقال الامواج اللاسلكية حول الارض

الاَّ ان فعل التأين في غلاف النجم الخفي في العنز أشد جداً منهُ في الارض . فيجعل غلاف النجم الخفي كثيفاً غائماً . فيصعب على الضوء ان يخترقهُ بسهولة . وقد تمكن علماء مرصد يركيز من رصد هذا الغلاف الكثيف بمرقبهم البالغ قطر مرآته اربعين بوصة

ثم يجيء ميعاد الكسوف في هذا النجم المزدوج ، مرة كل سبع وعشرين سنة فيقع النجم المشرق في العنز وراء النجم المعتم . ولولا طبقة الغاز المؤينة حول كرة النجم الخفي لتمكن الرصاد على الارض من رؤية ضوء النجم المشرق كاملاً تقريباً للطافة مادته الغازية . ولكن طبقة الغاز تحجب جانباً من هذا الضوء فيبدو للراصد الارضي ان ضوء العنز قد ضعف على نحو ما بدا لباير سنة ١٨٣١ ولفرتش سنة ١٨٤٨ ولعلماءِ هذا العصر في سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠

(١) راجع فتوحات العلم الحديث صفحة ٣٧



سنابل

من حقول العلم

الذهب في مصر : قديماً وحديثاً

ننقل الى قراء المقتطف في ما يلي ملخص جانب من المحاضرة النفيسة التي القاها الدكتور حسن صادق بك مدير المساحة والمناجم والمحاجر ورئيس المجمع المصري للثقافة العلمية في افتتاح مؤتمره السنوي التاسع قال : —

اما في القطر المصري فان ما وجد من الحلى الذهبية في مختلف العصور التاريخية يدل على عظيم اهتمام قدماء المصريين باستعمال هذا المعدن في مختلف الاغراض كما ان ما سطروه على جدران معابدهم وفي بعض اوراق البردي يدل على ان الذهب الذي استعملوه كانوا يحصلون عليه من المناجم المصرية نفسها وقد كانت الممالك المعاصرة لهم تنظر الى مصر على اعتبار انها اكبر بلاد منتجة لهذا المعدن فكان ملوكهم يستجدون فرعون مصر للحصول منهُ على حاجتهم من هذا المعدن الثمين

كذلك استغلت مناجم الذهب المصرية أبان حكم العرب كما حدثنا عن ذلك المقريزي وغيره من مؤرخيهم . على ان ستاراً كثيفاً من النسيان أسدل بعد ذلك على هذه المناجم الى أن أزاحه مجدد عز مصر محمد علي باشا الكبير مؤسس الاسرة العلوية الكريمة بفضل البعوث العلمية التي أوفدها الى الصحارى فأماطت اللثام عما بها من معادن ومناجم على ان استغلال مناجم الذهب المصرية لم يبدأ في العصور الحديثة الاَّ في اواخر القرن الماضي واستمر استغلال بعضها حتى عام ١٩٢٧ فبلغ مجموع انتاجها في تلك الفترة حوالي ٨٦ الف اوقية . على ان احوال العمل وتعذر وجود الماء وصعوبة النقل كل ذلك جعل الغلة اقل من الكلفة فأهملت المناجم

حتى اذا جاء عام ١٩٣٣ واضطرب النظام المالي في اغلب الامم وخرجت معظمها ومعها انكلترا عن عيار الذهب فانخفضت العملات وارتفع سعر الذهب أصبح سعر الاوقية من الذهب الخالص سبعة جنيهات بعد ان كان في اوقاته العادية لا يزيد على أربعة جنيهات ونصف جنيه واذ كانت نفقات الانتاج لم تزد الاَّ قليلاً مع تحسين محسوس في وسائل النقل بما طرأ على صناعة سيارات النقل من اتقان فقد رؤي

ان الاحوال قد تغيرت تغيراً يشجع على التفكير في اعادة فتح بعض هذه المناجم واستغلالها فقامت الحكومة المصرية بالبحث بواسطة شبان من المصريين تخصصوا في هذه العلوم ورؤي ان من الخير استغلال منجم الذهب بجبل السكري على شاطىء البحر الاحمر على مسافة ١٥٠ كيلو متراً جنوبي بلدة القصير وقد أجريت مباحث في استعمال الماء المالح في عمليات الاستنباط والتنقية لاول مرة في هذا المنجم فأسفرت عن نجاح قلل الحد كبير الاثر السيء الذي لندرة وجود الماء العذب في تلك الجهات . وقد جهز المنجم بوحدة استغلال صغيرة وبدأ الانتاج في يوليو سنة ١٩٣٧ وبلغ مجموع انتاجه في الشهور التسعة الماضية حوالي ١٧٥٠ أوقية قيمتها ١٢٠٠٠ جنيه تقريباً

وباستمرار أعمال الفحص بالتعمق في جوف الارض اتضح وجود مقادير من المعدن تسمح بتوسيع عمليات الاستغلال فأضيف جهاز استغلال آخر لمضاعفة الانتاج والمنتظر ان يتم ذلك في غضون الشهر القادم (يونيو) فتتضاعف مقادير الذهب الناتج مع اضافة قليلة للتكاليف "

وقد شجعنا النجاح الذي صادفناه في السكري على توسيع نطاق البحث في مناجم أخرى فاختير لذلك منجم آخر بجبل أم الروس القريب من السكري. والامل معقود على ان تكلل هذه البحوث أيضاً بالنجاح فتبدأ فيه ايضاً عمليات الاستغلال

ولقد تحقق ما كانت تصبو اليه الحكومة من هذه البحوث فاتجهت أنظار بعض الافراد والهيئات من المصريين والاجانب الى بحث بعض مناجم الذهب الاخرى وبدأت الحياة تدب مرة أخرى في مناجم الذهب المصرية وانا لنرجو ان يصادف هذه الجهود جميعاً النجاح الذي تستحقه حتى ليقال بحق ان عصر الفاروق هو عصر ذهبي يدر الخير والبركات على أبناء هذه البلاد

***

يمين العلماء

عندما يتقدم طالب الطب الى نيل شهادته الطبية يقسم يمين أبقراط المشهورة وأساسها رعاية مرضاه خير رعاية يستطيعها والامتناع عن اعطاء عقار مميت او الاشارة به ولو طلب ذلك منه، وعن مساعدة امرأة على الاجهاض او افشاء الاسرار الخاصة بصناعته وغير ذلك من القواعد الادبية التي يحسبها الاطباء دستوراً لهم في صناعتهم الشريفة

وقد تقدم الآن عالم يدعى هوايت Whyte بيمين للعلماء أذاعها في مجلة نايتشر العلمية حاثاً الجماعات والمعاهد والمجلات العلمية على نشرها والحض على اتخاذها رابطة ضد التعصب الجنسي والديني. ففي رأيه ان مبادىء العدل والتسامح وجه اليها تحد صريح في السنوات الاخيرة ، وان الاساس الذي تقوم عليه فكرة الحق Truth — وهي أساس العلم — قد ضرب بمعول الهدم .

لا ريب عنده في ان للحضارة الاوربية مساويها ولكنه يرى كذلك انه يجب علينا إما أن نبذل طاقتنا للاحتفاظ بحسناتها وإما ان نسلم بالانهيار والارتداد الى التوحش والعنف والتعصب . وأعظم ما نتعرض له من خطر هو الاعتقاد الذائع في ان الناس يستطيعون ان ينعموا بتراث الحضارة طويلاً من غير ان يبذلوا في سبيله . واعتقاد المستر هوايت ان الذين لا يريدون ان يخونوا ذلك التراث يجب ان ينزعوا عن اكتافهم التواضع الكاذب ويصرحوا بموقفهم لان الاحتفاظ بثمار الحضارة وتقاليدها العالية متعذر الا اذا أذعنا في غير غموض وأقمنا الدليل في غير تردد على ولائنا لها . وهذه هي اليمين المقترحة : —

« أنا وارث تقاليد الحضارة التي ثبت انها أرسخ أساساً من الامبراطوريات . فعندما استعمل لغة العلم او منتجاته ، فأنا أقدم اجلالي عن غير وعي ، لمئات الرجال الذين لم يضنوا بأية تضحية مهما تعظم في النضال لترقية العقل البشري وتأييد الحق . ان التسامح والحرية هما لباب تلك التقاليد . لان الفكر المستقل ومحبة الحق ليسا بأساس العلم فحسب بل وأساس العدل والحضارة

لذلك أعلن ولائي لتلك التقاليد وايماني بحرية الفرد في انماء ملكاته لتنمية ثروة الجماعة ، ويقيني بأن جماعة الانسان الآن هي الجنس البشري اجمع ، وان على كل شعب داخل في هذا النطاق ان يقوم بنصيبه الخاص به . فالتوازن الطبيعي بين الحرية الفردية وبين مطالب الجماعة ، وهو حياة الحضارة وصحتها ، مهدد الآن من ناحيتين . انه مهدد في بعض الجماعات من ناحية انكار الحرية . وفي البلدان الدمقراطية من ناحية صدوف الافراد عن التبعات الواقعة عليهم

ففي وجه هذا التهديد — اتعهد بانتهاز كل فرصة سانحة لأعلي من شأن تقاليد الحضارة وأحمي كل من يعذب في سبيلها ، وان أورث ذلك الى الاجيال القادمة . ولست اعترف بولاء أعظم من ولائي للعمل على صون الحق والتسامح والعدل في العالم المقبل

***

طماطم بلا بزور

• يعني قسم البساتين بجامعة مسوري الاميركية باستنبات طماطم لا بذور فيه . والطماطم يحتاج الى التلقيح لكي ينعقد الزهر ثمراً ، ولكن التلقيح يعني تكوين بذور في الثمر . لذلك عمد الباحثون الاميركيون الى استئصال اعضاء اللقاح من الزهرة . ولما كان استئصالها يحول دون التلقيح والاثمار وجب عليهم ان يستعيضوا من التلقيح بأساليب كيمياوية او ميكانيكية او كهربائية لحمل الزهرة على الانعقاد ثمراً على نحو ما فعل لوب وغيره في حيوان « الرتسا » (توتياء البحر) فانه حملها على التناسل بمهيج كيمياوي حيناً وبمهيج كهربائي حيناً آخر

وباحثو جامعة مسوري يستعملون مادة باعثة للنمو من قبيل انوار الغدد الصم ، فتنشأ ثمرة الطماطم من الزهرة وتكون بلا بذور . وهذه الثمار اكبر من ثمار الطماطم عادةً وليس فيها فجوات تحتوي على بذور كالفجوات التي في الطماطم عادةً بل كلها شحم

والمادة المستعملة لهذا الغرض هي الحامض « الاندول استيك indoleacetic » - وهو حامض توجد منهُ مقادير يسيرة في البول في حالة مرض القناة الهضمية - محلولاً في اللانولين (وهو دهن من صوف الغنم) بنسبة ١ من الحامض الى ٥٠٠ من الدهن ، ثم تدهن الازهار التي استؤصلت منها اعضاء اللقاح ثلاث مرات في الاسبوع او كل عشرة ايام

اما ثمن هذه المواد فلا يكاد يذكر ولكن معظم النفقة في طريقة العمل اي في استئصال اعضاء اللقاح من الازهار ودهنها . وقد حاول الباحثون ان يحلّوا رش الحامض محلولاً في الماء محلّ الدّهن باليد فأسفر ذلك عن نتائج لا بأس بها ولكنها لا تجاري نتائج الدهن باليد. ويعزون ذلك الى سرعة تبخر الماء تاركاً الحامض في بلورات دقيقة يتعذر على الزهرة امتصاصها. والبحث جارٍ الآن عن مادة دهنية أخرى سهلة الامتصاص غير سريعة التبخر فيحلّ الحامض فيها ويرشّ على الازهار برشاشة ميكانيكية

وينتظر ان يتجه البحث بعد ذلك الى زيادة محصول هذا الطماطم لانهُ من المستطاع حمل الازهار على الانعقاد ثماراً في أشهر الصيف عند ما تجعل الحرارة والرطوبة حبوب اللقاح ضعيفة الفعل

***

علاج جديد للحروق

اذا حرق الجلد وانكشفت الانساج التي تحته فخير علاج عرف حتى الآن هو استعمال « الحامض التنّيك » Tannic Acid وهو مسحوق أبيض يستخرج من جوز العفص ونباتات اخرى ولهُ فعل قابض فيستعمل في وقف النزف . ولكن الطبيبين جونز ودهمارش وهما من اساتذة الكلية الطبية بجامعة نورث وسترن الاميركية اعلنا انهما كشفا مركباً كيمياويّاً يفوق الحامض التنيك فائدة في علاج الحروق . واسم هذا المركب باللغة العلمية « هكساميتا فوصفات الصوديوم » فيحلّ وتدهن بهِ الحروق فيمنع الالتهاب ، وهو يتحد بالمصل السائل من انساج الجسم المكشوفة بحرق الجلد او انسلاخه فينشأ غشاء رطب متين مرن مانع لتكاثر المكروبات

تحت هذا الغشاء ينمو الجلد الجديد ، وتحت الجلد الجديد طبقة من الانساج تكثر فيها الاوعية الدموية الشعرية ، ويزعم الطبيبان جونز ودهمارش ان فحص هذه الطبقة في حالتي استعمال الحامض التنيك والدّهن بمركب الصوديوم المذكور أثبت ان الانساج والاوعية في الحالة الثانية اسلم منها في الاولى

التصوف في الاسلام (١)



للدكتور احمد غلوش

دعا الدكتور مكلانهن عميد كلية العلوم الشرقية بالجامعة الاميركية صديقه الاستاذ احمد غلوش الى القاء محاضرة بالانكليزية على فريق من فضلاء الجاليتين الانكليزية والاميركية بالقاهرة ممن يهتمون بدراسة المسائل الشرقية فاجاب الاستاذ هذه الدعوة فوقف الدكتور مكلانهن وقال ان قاعة الدراسات الشرقية كانت حتى الآن تعقد فيها اجتماعات لدرس تاريخ اعلام الشرقيين ومناقبهم ولكننا في هذه الليلة سنسمع هنا لاول مرة رجلاً مصرياً مسلماً مثقفاً ثقافة اسلامية عالية وحاصلاً على درجات علمية شرفية من الجامعات الاوربية والاميركية وهو الدكتور احمد غلوش فهو سيحاضرنا الآن في موضوع اسلامي بحت يتعلق بالطرق الصوفية في الاسلام ويشرح لنا مراميها وأغراضها ونشأتها فقد آن الاوان ليتبادل سكان هذا الوادي الرأي فيما لديهم من صنوف الثقافة الروحية والعلوم والمعارف الدينية ويقدم كل فريق منهم الى الآخر احسن ما عنده من ذلك حتى يسود التفاهم بين الجميع مع احتفاظ كل منهم بآرائه الخاصة . قال ونحن معاشر الغربيين كثيراً ما سمعنا بوجود الطرق الصوفية بكثرة في هذه البلاد وسمعنا بالمشايخ والفقراء والدراويش ولكننا في الواقع لا نعرف من حقيقة امرهم شيئاً . وقد تكفل صديقنا الدكتور احمد غلوش الذي اعتنق المبادىء الصوفية ومارس رياضاتها الروحية بان يشرح لنا ما يهمنا ان نعرفه منها . ثم دعا المحاضر الى منصة الخطابة فتقدم وبدأ كلامه بشكر الجامعة الاميركية التي اتاحت له هذه الفرصة للتحدث عن موضوع الصوفية في الاسلام ذلك الموضوع الذي كثيراً ما اخطأ فهمه الغربيون والمستشرقون . واسترسل في الشرح حتى وفى الموضوع حقه

(١) ترجمة المحاضرة التي القاها بالانكليزية بقاعة الدراسات الشرقية بالجامعة الاميركية بالقاهرة الدكتور احمد غلوش رئيس جمعية منع المسكرات بالقطر المصري

من البيان. وقد استغرق القاء المحاضرة ساعة كاملة ونحن ننشر هنا ترجمتها لفائدة القراء

***

انهُ لاجل معرفة حقيقة التصوف او اي علم آخر ينبغي عقلاً ان يلجأ في ذلك الى المتصوفين انفسهم او اصحاب ذلك العلم فهم اقدر من سواهم على تجلية الموضوع تجلية صادرة عن خبرة لا يشوبها زيغ ولا تحريف واما نقل العلوم عن غير اهلها فقلما يوصل الى ادراكها على حقيقتها

ولقد قرأت عدة مصنفات لفضلاء المستشرقين من الغربيين فألفيتها في الكثير من مواطنها بعيدة عن محجة الصواب فمن ذلك مثلاً ما يزعمونهُ من ان الصوفية والتصوف دخيلان في الاسلام غريبان عنهُ وانهما انما جاء بهما الاعاجم من الفرس قصداً منهم الى تشويه الدين ويزعمون ايضاً ان اصل التصوف يرجع الى العلوم الآرية من الفارسية والبوذية ونحوها ويقولون غير ذلك من المزاعم التي لا اصل لها

فالتصوف وان كان لبعض الفرس المسلمين شأن كبير في تدوينه وحمل لوائه فهو لا يمت الى المبادئ والمذاهب الآرية او البوذية بأدنى سبب . وشتان ما بين الناسك البوذي الذي يزعم انهُ بسلوك طرق خاصة من الرياضة وتعذيب النفس ينمحي عنهُ في النهاية وصف الآدمية ويصبح بوذا بنفسه أي إلهاً قد انحلت عنهُ صفات البشرية، وبين المسلم المتصوف الذي يعبد الله وحده طبقاً لاحكام الاسلام ومبادئ الدين الحنيف ثم هو يقوم فوق الفروض المقررة بأنواع من الرياضات الروحية المشروعة المسنونة أساسها الزهد والورع والتقوى وغايتها ان يصير بها أهلاً للفوز برضوان ربه والدخول في حضرته وتذوق طعم الايمان بالوجدان

وكثيراً ما خلط المستشرقون بين المتصوفين وبين المشعوذين ممن يأتون بما يشبه السحر وضروب الاحاجي ويعرفون عندهم باسم أصحاب الاسرار الخفية Mysticism وترجع أسباب هذا الخطإ الى ان المتصوفين كانوا ولا يزالون يعرفون بأهل الباطن وأرباب الاسرار الذوقية فظن أولئك المستشرقون ان أسرار الصوفي هي أمور خفية يحرص على حجبها عن أعين الناس كما هو الشأن عند اهل الشعوذة (Mystics) مع ان حقيقة معنى الاسرار عند الصوفيين انما هي الحقائق التي تنطوي عليها ظاهرات الاشياء والحكمة التي يتذوقونها من القيام بالاحكام والشرائع فهذه الاذواق والمواجيد لا يستطيع الصوفي ان يعبر عنها لاحد لا لانهُ يريد اخفاءها عن الناس بل لانها فوق متناول الوصف والبيان إذ هي أمور ذوقية لا تعرف الاَّ بالذوق والوجدان . ومثلها كمثل حلاوة سكر القصب ونحوها مما لا سبيل الى إدراكه بغير التذوق

ولئن كان من السهل على الفقيه والمحدِّث وكل عالم ان يشرح لغيره الفقه والحديث والعلم الذي أصابه فانهُ من العسير المتعذر ان يبين لعامة الناس أسرار الانوار القدسية والفيوضات

الربانية التي تفيض على قلبه ثمرة عبوديته واقباله على ربه ورياضاته الروحية

على انهُ مما يؤسف له جد الاسف وجود طوائف من الناس في الشرق ينسبون انفسهم الى الطرق الصوفية وما هم منها في شيء وهؤلاء قد يأتون بضروب من الهمهمة والتمتمة والايحاء الذاتي ويركنون الى التنجيم والطوالع والجفر وادعاء معرفة الغيب فكانوا بذلك نكبة على المتصوفة وسبباً دعا بعض المستشرقين الى الحملة على طريق التصوف كما دعا آخرين الى القول بان التصوف ليس في شيء من الدين . بيد ان من يدرك سنة النمو لا بدَّ ان يعرف انهُ كثيراً ما يوجد الى جانب النباتات النافعة والاعشاب الصالحة حشائش أخرى تنمو حولها ولا مندوحة من استئصالها حتى لا تعدو على النبات الطيب فتفسد عليه أمره

ولئن كان كل متصوّف لا بدَّ ان يستمد قواعدسلوكه الروحي من مبادىء الاسلام وتعاليمه الصحيحة فهناك فرق كبير بين المسلم الصوفي والمسلم العادي ذلك بأن ايمان الاول إيمان تحقيقي ذوقي في حين ان إيمان الثاني إيمان يغلب ان يكون تقليديًّا وراثيًّا انحدر اليه من الآباء او جاءه من طريق التلقين او التعليم او أصابه بحكم الوسط والبيئة التي يعيش فيها دون ان يعرف السر في ضرورة اعتناقه هذه او تلك من المعتقدات الدينية التي لا بدَّ منها لنجاته في الآخرة . وقد يظل القلب تخامره الشكوك والريب في كثير من هذه المعتقدات ويظل العقل يطالب صاحبه بوضع حدّ لها والتخلص منها . ولهذا كان لا غنى لسالك طريق التصوف عن شيخ خبير بمفاوز الطريق المؤدي الى تذوق حلاوة الايمان والاطمئنان الى صحة السير على ان يكون هذا المرشد او الخبير هو الآخر قد سلك طريق التصوف على يد شيخ آخر سبق له سلوكها وأصبح قادراً على هداية غيره اليها كراكب البحر يريد الوصول الى بلد ناءٍ بعيد فلا مندوحة له من الاسترشاد بربان ماهر يقدر على ان يقود السفينة وركبها الى ذلك البلد في أمن وسلام . ومن ثمَّ نشأت طائفة مشايخ الطرق والمسلكين فيها لارشاد المريدين الى الطريق حتى لا يضلوا السبيل . وكما ان أطباء الاجسام لا بدَّ من الاستعانة بخبرتهم على شفاء العلل والاسقام فكذلك كان لا بدَّ لمرضى القلوب من الاسترشاد بالمشايخ للتخلص من امراض القلوب

ولا بد لمريد الوصول الى الله تعالى عن طريق التصوف من مجاهدة نفسه وتصفية باطنه من ادران الشهوات الحيوانية والملاذ الجسمانية فضلاً عن البعد كل البعد عن الوقوع في الذنوب والخطايا مما نهى عنه الشارع الحكيم وذلك لا يتم له الاَّ بارشاد شيخ عارف بأمراض القلوب وكيفية تطهيرها من بوائق الملاذ والشهوات وبذلك يتم للمريد اكتساب المعارف الربانية التي يهتدي بها قلبه ويطمئن خاطره ويسكن باله اذ يشعر شعوراً باطنيًّا انهُ قريب من حضرة مولاه

ولا يمكن البتة الحصول على شيء من الحكمة الالاهية والاسرار القدسية الاَّ بتصفية القلب

من الحظوظ الدنيوية حتى تنجلي بهذه التصفية مرآته وتصير بحيث تنعكس عليها الانوار الروحية والفتوحات الربانية

وعند المتصوفين ان الانسان لم يخلق في هذه الدنيا عبثاً ولا صدفة وانما خلق لغاية سامية وان جسمه وان كان خسيساً ارضيًّا فان روحه شريفة علوية وان جسمه وان كان سيفنى بموته فان هذه الروح ستبقى بعد الموت خالدة الى الابد فاذا ما تطهر المرء في بوتقة الزهد والتقوى من ادران الشهوة والحظوظ العاجلة الفانية وسلك سبيل الرياضة الروحية الشرعية فانه ليبلغ بذلك اسمى مراتب الرقي الباطني ويصبح وقد تحولت صفاته الى ما يشبه صفات الملائكة فلا يرى سعادة ولا هناءة ولا غبطة الاَّ في عبادة الله والتسبيح بحمده فاذا اعطاه شكر واذا ابتلاه صبر ويصير ولا همَّ له في الدنيا الاَّ طاعة مولاه حتى تصبح هذه الطاعة سجية له وغريزة فيه لا ينفك عنها بأي حال من الاحوال فلا يلبث المريد ان يرى في كل ما امر الدين به حكمة خفية سامية ويرى مثل ذلك في كل ما نهى عنهُ الدين وعند ذلك يدرك السالك معنى قوله تعالى في القرآن الحكيم « واتقوا الله ويعلمكم الله »

وقد تطور التصوف في الاسلام على مدى الاجيال حتى صار علماً قائماً بذاته يسترشد به الخلق الى سبيل الحق وتتحول به صفاتهم البشرية الى صفات شريفة ملائكية ويتذوقون به طعم الايمان بالقلب والوجدان

وقد بدىء بتدوين هذا العلم وتهذبت حواشيه ونظمت مبادئه ورتبت آدابه حوالي النصف الثاني للهجرة النبوية اي نحو عام ٧٦٠ للميلاد . ومع ان ابحاثه واسعة النطاق فيمكن حصرها في ستة موضوعات او مباحث عامة وهي معرفة الانسان نفسه ومعرفة الله تعالى ومعرفة حقيقة الدنيا ومعرفة احوال الآخرة ومراقبة النفس وايثار حب الله على كل ما سواه

ولما كانت هذه الفرصة لا تتسع امامي لشرح هذه المباحث كلها او بعضها فحسبي ان اتحدث عن التصوف الليلة حديثاً مجملاً يجمع بعض ما تفرق من اطرافه الى ان تتهيأ الفرصة لشرح مباحثه تفصيلاً . ولنبدأ بكلمة التصوف ومن اين جاءت فأقول : ان هذه الكلمة دخيلة على اللغة اعني انها ليست عربية الاصل ولم اقف في كتب الصوفية المعتمدة على رأي قاطع في اصل اشتقاقها . ففي المتفرقات للامام الجنيد وقوت القلوب لابي طالب المكي وعوارف المعارف للامام السهروردي والمنقذ من الضلال للامام ابي حامد الغزالي — وهذه امهات كتب الصوفية — نجد ان هؤلاء الائمة جميعاً كانوا في شك من حقيقة تلك الكلمة وقد ذهبوا في امرها مذاهب شتى دون ان يقطعوا بصحة ما ذهبوا اليه . وعندهم انها قد تكون مشتقة من الصفاء لان المتصوفين يدأبون على تصفية بواطنهم من الاهواء والشهوات . واما من التصفية لان الله تعالى تولى تصفية قلوبهم من حظوظ

الدنيا . واما من الصوف لانه كان الغالب في لباسهم لتقشفهم وزهدهم في الناعم من الثياب وأما من الصفة (بضم الصاد وتشديد الفاء) وأصحاب الصفة قوم من اصحاب رسول الله زهدوا في نعيم الدنيا وآثروا الله ورسوله والدار الآخرة وفيهم نزل قرآن في مديحهم واظهار فضلهم . وليس في عدم قطع ائمة الصوفية في امر تسمية طريقتهم ما يطعن في جلال قدرهم فانهم قوم عمليون يعبأون بالاعمال دون الاقوال ويهتمون بتحقيق المسميات دون التعويل على اصل الاسماء

وقد خطر لي بعد طول التفكير ان من الراجح ان تكون كلمة التصوف مشتقة من كلمة تيوصوفية اليونانية التي كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحي يعتنقهُ النساك والزهاد السالفون قبل الاسلام بعدة قرون فكانوا ينأون بجانبهم عن الدنيا ويلجأون الى انواع من الرياضات الروحية والعبادة مما اقتبسوه من انبيائهم ورسلهم حبًّا في التقرب بالروح من خالقهم وتلقي الحكمة والمعارف القدسية منه تعالى . ويؤيد هذا الرأي ما ورد في دائرة المعارف البريطانية من ان التيوصوفيين كانوا معروفين من ازمان بعيدة وكانوا يزهدون في الدنيا وينقطعون الى النسك والعبادة واستنزال الحكمة الالهية على قلوبهم وان هذه الكلمة مركبة من لفظين تركيباً مزجيًّا وهما لفظ ثيو (Theo) ومعناه اله و(Sofia) صوفيا ومعناه الحكمة . اي ان اولئك القوم كانوا بزهدهم وعبادتهم يتطلعون الى اكتساب الحكمة الربانية من الله رأساً فهناك تشابه كثير بينهم وبين المتصوفة من حيث اتحاد الواسطة والغاية

ولكن ما هو التصوف ؟

ومهما يكن من خلاف في امر اشتقاق كلمة التصوف فانهُ لا خلاف البتة بين ائمة الصوفية في حقيقة معنى التصوف فقد اجمعوا على انه الطريق الوحيد السلطاني الذي يؤدي الى اكتساب المعارف الالاهية والفتوحات الربانية والاذواق والمواجيد الباطنية مما يزيل كافة الشكوك والريب والغموض والابهام من دخيلة النفس فيما يتصل بالكثير من المعتقدات الدينية التي لا بد من الايمان بها . ومنها مثلاً عقيدة القضاء والقدر التي تدل على ان الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء مع اعتقاد ان المهتدين يؤجرون بدخول الجنة وان العصاة يدخلون النار فان العقل قد يظل حائراً في سبيل التوفيق بين الامرين . وهناك مسألة الايمان بالبعث والنشور بعد الموت والفناء وهناك الاعتقاد بخلق الملائكة والجان والشياطين وهذه مخلوقات لا مثال لها من المنظورات والمحسوسات . ثم مسألة خلق البشر من طين وتراب وخلق الطين والتراب من لا شيء . وهناك مسألة النبوة والرسالة وان الله تعالى يكلم المصطفين الاخيار من عباده وينزل عليهم الوحي من سمائه . فما هذا الوحي وكيف يكون . وما هي تلك النبوة وكيف تكون . وهناك مسألة المسائل وهي

الاعتقاد بوجود الله تعالى وجوداً ازليًّا وأبديًّا قبل ان يوجد الزمان والمكان فالعقل الراجح والمنطق الصحيح الواضح يوجبان هذا الاعتقاد على كل عاقل والايمان به في غير ما تردد ولكن الايمان بالشيء تتفاوت درجاته فقد ينقص الى حد ان يكون ظنًّا او اقل من الظن تبعاً للمعاصي التي يرتكبها الانسان قلة وكثرة وقد يتزايد الى حد ان يكون عياناً ومشاهدة وهذا تبعاً لمقدار ما يقوم به المرء من طاعة الله والاقبال على عبادته ضعفاً وقوة. وقد دلت سير المتصوفين الاولين السابقين ممن وصلوا الى الله تعالى وصول مشاهدة ومعاينة يجلان عن الوصف ويدقان عن العبارة على ان هذه الطريقة هي الكفيلة حقًّا بالقضاء على كل غموض وابهام في امور الدين وعقائد الايمان كما قال سيد المتصوفين علي ابن ابي طالب لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً وان هي الاَّ رياضة روحية مباركة ورحلة في طريق العبودية موفقة حتى ينبلج امام قلب السائر فيها نور اليقين فعين اليقين فحق اليقين حيث تنهزم من امام بصيرته ظلمات الحيرة والقلق ويمتلىء الباطن عرفاناً وايماناً بكل ما نطق بهِ الرسل الكرام وجاءوا بهِ من عند الله

وعند الصوفية ان دين الله تعالى واحد في جميع العصور والاجيال ولم يكن في اي زمن سبق سوى الاسلام واعني بهِ التسليم المطلق والخضوع التام لاوامر الله تعالى وما جاء بهِ المرسلون من الشرائع والاحكام وان اختلاف الاديان لم يتناول العقائد قط وانما يتناول اعمال العبادات وكيفياتها وطقوسها تبعاً لحاجة العصر وتعاقب الازمان. فالاديان جميعها من حيث اصولها لا تباين بينها ولا خلاف. واساس ذلك الاعتقاد بوجود الله تعالى ووحدانيته واتصافه بكل ما يتصور من صفات الكمال وتنزهه عن كل نقص يخطر على البال والاعتقاد بملائكته وبكتبه المنزلة وبرسله المرسلة وباليوم الآخر وهو يوم الحساب وبالقضاء خيره وشره من الله . وليست العبادات في جميع الاديان مطلوبة لذاتها من صلاة وزكاة وصوم وحج وقربة وانما هي وسائل لا بدَّ منها للمتدين كيما يصل بها الى تطهير قلبه من أدران الشهوات تطهيراً ترقى بهِ الروح الى القرب من الله ودخول الجنة فهي اشبه بالعلاج الذي يتداوى بهِ الجسم من الامراض. وكما ان تعاطي المريض لما يصفهُ له طبيب الاجسام من علاج يهمهُ وحده دون الطبيب الذي يعالجهُ اذ المريض هو الذي سينال بهِ الشفاء دون الطبيب فان الله تعالى غني بذاته عن عبادة عباده فهم الذين سيجنون وحدهم فائدة هذه العبادة

ولما كانت النفوس البشرية بحكم تكوينها وخلقتها الحيوانية بحاجة الى تطهيرها ومداواتها من آثار العلل الشهوانية حتى تصفو وترتقي وتصير اهلاً للعودة الى ربها وخالقها راضية مرضية فان المتصوفين هم اشد عباد الله تمسكاً باحكامه واوامره المقررة في الشريعة كما اتى بها الرسول من عند الله فمن قال ان الصوفيين اهل تفريط في التمسك باهداب الشرائع الالهية فقد ظلمهم

وافترى عليهم فما جاء في كتب المستشرقين من الاوربيين عن تهاون ارباب الطرق الصوفية برسوم الشريعة مخالف للواقع بعيد عن الصواب

والحق ان المتصوف لا يكتفي مثل سائر المسلمين بالقيام بظاهر العبادات المسنونة في الدين بل ينظر بنور البصيرة الى ما تنطوي عليه الرسوم والاحكام من حكمة واسرار فيغوص لالتقاطها واستخراج هذه الاسرار من بواطنها ومكامنها كما يغوص السباح الماهر لالتقاط الاصداف من قيعان البحار لا رغبة في الاصداف ذاتها بل ليستخرج منها الجواهر واللؤلؤ الغالي فالصلاة مثلاً عبادة مطلوبة لانها تنهي عن الفحشاء والمنكر وفيها ذكر الله وذكر الله أجل شأناً واكبر وهي لا تحقق هذا الغرض اذا كان المصلي لا يؤديها وهو حاضر القلب لا يفكر في اثنائها الاً في ادائها على الوجه الاكمل. فالمتصوف يحرص كل الحرص على الفوز باسرار الصلاة على هذا الوجه فلا يصلي وهو شارد الفكر ينصرف بقلبه في خلالها نحو السوق ومصالح الدنيا من مال أو ولد. وكذلك الشأن في سائر العبادات المفروضة فان الصوفي يعرف ما تنطوي عليها من حكمة واسرار فيحرص على بلوغها ويحذر من كل ملابسة تؤدي الى ضياعها . وكم يشفق المتصوفون على عوام المسلمين حين يصلون وهم عن صلاتهم ساهون فلا يفيدهم قيامهم بها على هذا الوجه أجراً فضلاً عن تطهيرهم من الفحشاء والمنكر وهذا الذهول من المسلمين عن اسرار العبادات وعدم الحرص عليها وقلة الحذر من تفويت حكمتها عليهم كان السبب الاكبر في نظر المتصوفين لما أصاب المستوى الروحي في العهود المتأخرة للاسلام من الضعف والانحطاط

التصوف من الناحية التاريخية

وقد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة الى التصوف في صدر الاسلام وعدم ظهور هذه الدعوة الاً بعد عهد الصحابة والتابعين. والجواب عن هذا انهُ لم تكن من حاجة اليها في العصر الاول لان اهل ذلك العصر كانوا اهل ورع وتقوى وأرباب مجاهدة واقبال على العبادة بطبيعتهم وبحكم قرب اتصالهم برسول الله فكانوا يتسابقون ويتبارون في الاقتداء بهِ في ذلك كله فلم يكن ثمة ما يدعو الى تلقينهم علماً يرشدهم الى امر هم قائمون بهِ فعلاً وانما مثلهم في ذلك كمثل العربي القح يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر حتى إنهُ ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون ان يعرف شيئاً من قواعد اللغة والاعراب والنظم والقريض فمثل هذا لا يلزمهُ ان يتعلم النحو ودروس البلاغة ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تبلبل الالسن او لمن يريد من الاجانب ان يتفهمها لينتفع بها او عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي

العصور في أوقاتها المناسبة. فالصحابة والتابعون وان لم يتسموا باسم المتصوفين فانهم كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً . وماذا يراد بالتصوف اكثر من ان يعيش المرء لربه لا لنفسهِ والتحلي بالزهد وملازمة اسباب العبودية والاقبال على الله بالروح والقلب في جميع الاوقات مما وصل بهِ الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي الى أسمى الدرجات فهم لم يكتفوا بالاقرار بعقائد الايمان والقيام بفروض الاسلام بل قرنوا الاقرار بالتذوق والوجدان وزادوا على الفروض الاتيان بكل ما استحبهُ الرسول من نوافل العبادات وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرَّمات حتى استنارت بصائرهم وتفجرت ينابيع الحكمة في قلوبهم وفاضت الاسرار الربانية من جوانحهم. وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الاسلام وخيرها على الاطلاق. وقد جاء عن رسول الله وخاتم الانبياء قوله خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه

فلما تقادم العهد ودخل في حظيرة الاسلام أمم شتى واجناس عديدة واتسعت دائرة الارشاد والتبيين في مختلف ميادين المعرفة والعلوم فمن ثمَّ وجب تقسيم العمل وتوزيعه بين ارباب الاختصاص فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الاول علم الفقه وعلم التوحيد وعلوم الحديث وأصول الدين والتفسير والمنطق ومصطلح الحديث وعلم الاصول والفرائض (الميراث) وغيرها وغيرها . وحدث بعد هذه الفترة ان أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً وأخذ الناس يتناسون ضرورة الاقبال على الله بالعبودية بالقلب والهمة مما دعا أرباب الرياضة والزهد الى ان يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف واثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم. ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الاخرى الى تدوين علومهم كما يظن ذلك خطأً بعض المستشرقين بل كان كما يجب ان يكون سدًّا للنقص واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط مما لا بد منهُ لحصول التعاون على تمهيد اسباب البر والتقوى

وقد بنى ائمة الصوفية الاولون اصول طريقتهم على ما ثبت في تاريخ الاسلام نقلاً عن الثقات الاعلام انهُ حدث في العام الاول للهجرة ان اجتمع بضعة عشر رجلاً من المهاجرين ومثل ذلك من الانصار من اهل المدينة وتقاسموا بينهم ان يزهدوا في الدنيا ونعيمها الزائل ويقبلوا على الله والدار الآخرة ويشغلوا جميع اوقاتهم ولا سيما في اوقات السحر والغسق بصنوف العبادات حبًّا بالله واقتداءً برسوله فكان هذا التقاسم بمنزلة عهد قطعوه على انفسهم لله لا مناص لهم من الوفاء بهِ والاَّ كانوا آثمين وذلك ما يسمى بالعهد بين اهل الطريق الى الآن . وكان أساس زهدهم في الدنيا قول النبي صلى الله عليهِ وسلم « الفقر فخري » ومن هنا جاءت التسمية

التي أطلقوها على أنفسهم ومن دخل في طريقهم وسلك سبيلهم وهي (الفقراء) فالواحد منهم كان ولا يزال يسمى بالفقير ومعنى الفقير عندهم ليس من هو بحاجة الى معونة الغير بل معناها الفقير الى رحمة الله المستغني بهِ عن الخلق جميعاً

كذلك ثبت عندهم ان النبي لقن أصحابه ذكر لا اله الاَّ الله جماعة وفرادى فأما تلقينه لاصحابه جماعة فقد رواه شداد بن أوس في حديث صحيح قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليهِ السلام هل فيكم غريب ? يعني من أهل الكتاب قلنا لا يا رسول الله فأمر رسول الله صلى الله عليهِ وسلم بغلق الباب وقال ارفعوا أيديكم وقولوا لا اله الاَّ الله فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا لا الـه الاَّ الله ثم قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ألا أبشروا فان الله قد غفر لـكم . وأما تلقينه صلى الله عليهِ وسلم لاصحابه فرادى فقد قال عليّ بن ابي طالب كرم الله وجههُ سألت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فقلت يا رسول الله دلني على أقرب الطرق الى الله عزَّ وجلَّ وأسهلها على عبادهِ وأفضلها عند الله فقال يا عليّ عليك بمداومة ذكر الله عزَّ وجلَّ سرًّا وجهراً فقال عليّ كل الناس ذاكرون يا رسول الله وانما اريد ان تخصَّني بشيء فقال رسول الله مَهْ يا عليّ ان افضل ما قلتهُ انا والنبيون من قبلي لا اله الاَّ الله الى آخر الحديث الشريف . فهذا اصل سند القوم في تلقين الذكر الى اليوم وهم يرون من فوائده ارتباط القلوب بعضها ببعض الى رسول الله وان اقل ما يحصل المريد الصادق اذا دخل في سلسلتهم بهذا التلقين ان يكون اذا حرك بهِ حلقة لسانه جاوبتهُ أرواح الاولياء من شيخهِ الى رسول الله فمن لم يدخل في طريقهم بالتلقين فهو غير معدود منهم وقلما يفتح عليهِ بما فُتح بهِ عليهم

ويروى ان أبا بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين كان يتولى قيادة فريق من أولئك الفقراء كما ان عليًّا بن أبي طالب بن عم النبي ورابع الخلفاء كان يقود فريقاً آخر. وبعد وفاة أبي بكر أخلفهُ في طريقتهِ سلمان الفارسي أحد كبار الصحابة من أهل فارس وبعد وفاة عليّ تولى خلافة طريقته الحسنُ البصري وكان كلٌّ منهما يسمى بالخليفة ولهذا صار يطلق اسم الخليفة الى يومنا هذا على كل شيخ من مشايخ الطرق الصوفية

***

ويتمسك المتصوفون في اقبالهم على الله بالهمة وصدق العبودية ، بما جاء في القرآن وهو قولهُ تعالى :

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحبَّ اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين »

ولهذا اوجب الفقراء اي المتصوفون على انفسهم ان يكونوا في جميع الحالات على قدم الاستعداد للتضحية بهذه المصالح الدنيوية كلها في سبيل قيامهم بحق العبودية لله وحده فلا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا اي متاع آخر عن ذكر الله وعبادته واضعين نصب أعينهم الغرض الاسمى من خلقتهم ووجودهم في هذه الحياة الدنيا وهو ما جاء في قول الله تعالى في القرآن وما خلقت الجن والانس الاَّ ليعبدون

وقد دلَّ تاريخ هؤلاء القوم على ان عمدتهم في التقرب الى الله فوق قيامهم بالمفروض عليهم في الاسلام التزامهم اذكاراً واوراداً كل صباح ومساء وأهم هذه الاذكار ذكر لا اله الاَّ الله ثم الصلاة على النبي ومعناها استنزال البركات الديمومية الربانية على روحه صلى الله عليه وسلم

وعندهم كما ثبت بالتجارب والممارسة ان لذكر الله باللسان مع حضور القلب وبالكيفية المخصوصة المتفق عليها لدى شيوخهم وطوائفهم اثراً كبيراً يعجز القلم عن وصفه في تصفية الباطن وتنوير القلب بالانوار والفتوحات الربانية كما ثبت مثل ذلك للصلاة على النبي. والمسلمون مأمورون في القرآن بهذه الصلاة وهي فرض عين على كل مسلم صوفيًّا كان او غير صوفي وانما المتصوفون يكثرون منها جهد الطاقة لما لها من الاثر العظيم في جلاء مرآة القلب وصفاء الروح صفاء عجيباً مظهره الاكبر تملك حب الله ورسوله من صميم نفوسهم

وأما تسميتهم بالمتصوفين فلم تحدث او بالاحرى لم يرد لها ذكر في كتب التصوف المعتمدة الاَّ بعد عصر الخليفة المأمون سابع الخلفاء العباسيين (١٩٨هجرية او ٨١٣ — ٨٣٣ ميلادية) وقد كان ذلك العصر ازهر عصور الادب العربي وفيه توفر العرب على نقل العلوم والفلسفة الاجنبية . والظاهر انهم التقوا فيها بكلمة تيوصوفية اليونانية فعربوها ونحتوا منها اسماً معرَّباً اطلقوه على جماعة الفقراء فكان هذا الاسم هو التصوف لان كلمة الفقراء لم تكن وافية في ذاتها في الابانة عن المعنى الذي يتميز بهِ المتصوفون عن غيرهم من المسلمين وقد المعنا الى بيان ذلك من قبل

وأما كلمة الصوفية وكلمة الصوفي فهما كذلك منحوتتان من نفس كلمة تيوصوفية المتقدم ذكرها وقد اطلقت الاولى اي الصوفية على العلم نفسه والصوفي على من تحقق بهذا العلم وتلبس بهِ. واما كلمة المتصوف والتصوف فقد استعملت الاولى منهما للدلالة على السالك في هذا الطريق الآخذ في اسباب التحقق بهِ واستعملت الثانية (التصوف) على سلوك الطريق

وقد كان تأسيس اول طريقة نظامية من الطرق الصوفية الطريقة العلوانية لمؤسسها الشيخ علوان في سنة ١٤٩ هجرية (٧٦٦ ميلادية) وبعد ذلك توالى انشاء الطرق الاخرى بتوالي القرون وكانت كل واحدة منها تسمى باسم شيخها ومؤسسها . وقد يتعذر اليوم تعداد الطرق الموجودة الآن كلها لكثرتها. فنجتزىء الآن بذكر اشهرها وهي : —

	اسم الطريقة	مؤسسها		تاريخ تأسيسها
١	العلوانية	الشيخ علوان المدفون بجده		١٤٩ هـ — ٧٦٦ م
٢	الادهمية	الزاهد ابرهيم بن ادهم	« بدمشق	١٦١ « — ٧٧٧ م
٣	البسطامية	الامام ابو يزيد البسطامي	« جبل بسطام	٢٦١ « — ٨٧٤ م
٤	السقاطية	الامام سري الدين السقطي	المدفون ببغداد	٢٩٥ « — ٩٠٧ م
٥	الجيلانية	سيدي عبد القادر الجيلاني	«	٥٦١ « — ١١٦٥م
٦	الرفاعية	سيدي السيد احمد الرفاعي	«	٥٧٦ « — ١١٨٢م
٧	السهروردية	الامام شهاب الدين السهروردي	«	٦٠٢ « — ١٢٠٥م
٨	الشاذلية	سيدي ابو الحسن الشاذلي	القصير بالبحر الاحمر	٦٥٦ « — ١٢٥٨م
٩	المولوية	سيدي جلال الدين الرومي	قونيه	٦٧٢ « — ١٢٧٣م
١٠	الاحمدية	سيدي احمد البدوي	طنطا	٦٧٥ « — ١٢٧٦م
١١	النقشبندية	سيدي بير محمد نقشبند	قصر عرفان	٧١٩ « — ١٣١٩م
١٢	السعدية	الامام سعد الدين	دمشق	٧٣٦ « — ١٣٣٥م
١٣	البختاشية	سيدي الحاج بختاش	كيرشر بالبانيا	٧٥٦ « — ١٣٥٧م
١٤	الخلوتية	سيدي عمر الخلوتي	قيصرية	٨٠٠ « — ١٣٩٥م
١٥	البرهامية	سيدي الحاج برهام	انقره	٨٧٦ « — ١٤٧١م
١٦	البكرية	سيدي ابو بكر الوفائي	حلب	٩٠٢ « — ١٤٩٦م
١٧	الجلشانية	سيدي ابرهيم الجلشاني	القاهرة	٩٤٠ « — ١٥٣٣م
١٨	الجمالية	سيدي جمال الدين	اسطامبول	١١٦٤ « — ١٥٧٠م

فهذه الطرق الصوفية المشهورة وكثير غيرها مما لم نذكره ليس من خلاف بينها من حيث الاسس والمبادىء الاصلية وانما الفرق في نوع الاذكار والاوراد التي يواظب عليها المريدون من اتباع كل طريقة منها فقد يفتح الله تعالى على واحد منهم بطريق الالهام ويؤتى حظًّا كبيراً من الانوار القدسية فيكاشف بفائدة ذكر اسم معين من اسماء الله الحسنى فيكون ذلك سبباً او اساساً لانشاء طريقة جديدة مشتقة في الواقع من طريقته الاصلية ومن ثمَّ كان تعدد الطرق الصوفية على تقادم العصور والازمان

وليس في الامكان ان نأتي على تبيان مختلف الاذكار والاوراد وصنوف الرياضات ومدارك السلوك لدى ارباب الطرق المتنوعة وحسبي ان اصف لحضراتكم بالايجاز المراحل التي يقطعها اتباع الطريقة الخلوتية وقد قطعتها بنفسي بتوفيق الله وبارشاد شيخي العارف بالله سيدي عبدالله بن محمد

البناء المدفون في الاسكندرية قدس الله سره وهذا الوصف ينطبق في مجموعه على حال الطرق الاخرى — فأقول:

طريق المتصوف في سلوكه الى الله

يبدأ سلوك هذا الطريق باستشعار رغبة ملحة تستولي على القلب فتبعث بها في باطن المرء داعية قوية نحو تذوق الايمان بالوجدان وعدم الوقوف عند حد التصديق او اليقين الذي حصل عليه بالتوارث او بالاستدلالات المنطقية والعقلية فما أبعد الفرق بين من يعتقد من اهل مصر بوجود لندن في انكلترا وهو لم يشاهدها في حياته وانما آمن بها لتوفر الادلة العقلية على وجودها وبين من رآها رأي العين وعاش فيها زمناً . وتأخذ هذه الرغبة تزداد في القلب تمكناً بمقدار صفاء الروح واستعداد النفس الى الرقي الروحي فيتملكها الحنين والشوق الى معرفة خالقها معرفة ذوقية لا نقلية ولا عقلية ويغلب ان تساور الانسان في هذه الحالة شكوك وظنون وأوهام خفية فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية دون ان يجد من عقله مرشداً كافياً لحل معضلاتها والخروج من ظلمات الحيرة المترتبة على تلك الظنون والشكوك فيلجأ عند ذلك الى احد المرشدين الى طريق الحق من مشايخ الصوفية بشرط ان يكون هذا الشيخ من المحققين العارفين بالله ممن سبق لهم سلوك هذا الطريق بعينه وهو مأذون من شيخه بالتسليك فيه ويطلب اليه ان يدخله في عداد اتباعه الآخذين في السلوك الى الله على يديه . ففي هذه الحالة يسمى الطالب (مريداً) أي يريد السير في الطريق وهذه اولى المنازل وتسمى منزلة الارادة فيتلقاه الشيخ بالفرح والسرور ويأخذ عليه العهد بالتوبة من ذنوبه والتبري من حوله وقوته واخلاص النية في مقصده وغايته القيام بما يفرضه الطريق على السائر فيه من الاذكار والاوراد المشروعة فضلاً عن القيام بما يستوجبه الدين من اتباع أوامره واجتناب نواهيه ويوصيه بملازمة التقوى في السر والعلانية ومراقبة الله في كل حال ثم يلقنه الذكر ويعطيه الاوراد ومن ثمَّ يبدأ سلوك المريد ويسمى عند ذلك (سالكاً) جاعلاً اكبر همه في الدنيا الاشتغال بالعبادة والزهد والرياضة بحسب ما يرسمهُ لهُ الشيخ فيقبل على الله بصدق النية وتصفية القلب عما سوى الله حيث ينتقل بذلك الى مقام يسمى بمقام العبودية ويظل السالك يجاهد في الطريق نفسه وهواه حتى يتغلب عليهما بالاكثار من الضراعة والتذلل والتزلف الى بارئه حتى اذا ما اقبلت عليه العناية الالهية وتقبلت مناجاته وضراعته ارتقت الرغبة في قلبه فصارت عشقاً لله وحباً لذاته العلية وهنا يصل السالك الى مقام في الطريق يسمى (مقام العشق)

ولا يزال هذا العشق يتملك قلب السالك حتى يطرد من باطنه كافة الاماني والحظوظ

والرغبات الدنيوية فيقوده هذا الحال الى مقام ارقى يعرف بمقام (الزهد) حيث تتم فيه تصفية القلب وجلاء مرآته جلاء يجعله بحيث يصير مستعداً لاستقبال ما تنعكس عليها من المعارف القدسية والانوار الالهية بدون واسطة العقل او المخ او اي عمل من اعمال الجسم الفسيولوجية

وهنا يواصل السالك سيره الى الله وهو دائم التفكير في معبوده الاوحد لا يهنأ له عيش ولا يطيب له وقت الاّ اذا اقترن بذكر الله والتسبيح بحمده وعند ذلك تنبثق في قلب السالك انوار تلك المعارف اللدنية اي التي تهبط على القلب بطريق الالهام الباطني بكيفية تجل عن الوصف وبها تحصل لديه اذواق وجدانية يتفهم بها ما لم يكن يفهمه بعقله من معاني النبوة ويعرف هذا المقام عند المتصوفة بمقام (المعرفة)

ويظل السالك بعد ذلك مواظباً على اذكاره وأوراده التي يتلقاها من شيخه آناً بعد آن بحسب ما يبدو للشيخ من استحقاق المريد لزيادة الترقي الروحي فيشغل بها اوقاته مقرناً ذلك بالعزلة والخلوة والاقلال ما امكن من الطعام والشراب والكلام والنوم الاّ ما تستوجبه الضرورة والطبيعة مع ملازمة التهجد وقيام الليل والناس نيام فعند ذلك تتملكه حالة شريفة علوية روحية ينتقل بها الى المقام الذي يسمى مقام (الوجد والهيام) وهو اسمى من مقام العشق اذ يستولى على النفس آثاره من جميع نواحيها

فاذا بلغ الفقير هذا المقام السنيّ تواردت على قلبهِ النفحات الربانية والبركات الالهية تواردا تزداد بهِ معرفته الباطنية بصفات الذات العليّة ما يصل بهِ الى الحقيقة المجردة التي كان ينشدها عندما جاء الى الشيخ وهو اذ ذاك مريد يطلب الوصول اليها . وتسمى هذه المنزلة عند أرباب الطريق بمقام (الحقيقة)

على ان وصول السالك الى هذا المقام لا ينتهي عنده سلوك الطريق بل انهُ يظل بعده يرتقي بالروح الى منازل ثلاث أخرى تعرف بمنزلة (الفناء فاللقاء فالبقاء) . أما الفناء فمعناه فناء العبد عن حظوظهِ وعن نفسهِ في الله بل عن اختياره أيضاً ويكون كما قال سيدي ابو الحسن الشاذلي لبعض مريديه « اذا شئت أن تختار فاختر ان لا تختار وفرَّ من ذلك المختار ومن فرارك هذا ومن كل شيء الى الله تعالى »

في هذا المقام تتجلى عظمة الخالق على قلب السالك فلا يرى الاّ الله حتى نفسه لا يرى لها أثراً ولا يجد في الوجود من الكائنات الاّ واجب الوجود وحده وتمحي آثار جميع الموجودات في وجوده تعالى وتتجلى في فؤاد الفقير معنى قوله عزَّ وجل في القرآن مخاطباً عباده المتقين فأنيبوا الى ربكم وأسلموا لهُ . ويتضح لهُ بعد الافاقة من سكر الوصول الى هذه الحال الرهيبة معنى قول الحلاج ما في الجبة الاّ الله اي ان نفسه تلاشت فلم يعد لوجوده عنده من أثر

وقد وصف الامام جلال الدين الرومي شيخ الطريقة المولوية في أبيات لهُ بالفارسية حالة الفناء هذه أبدع وصف ويلوح لي ان هـذه الابيات لم تترجم الى العربية حتى الآن وهذا مضمون ما قالهُ في ذلك :

«حينما يستولي روح من الجن على لب انسيّ من الناس تضعف صفات الانس فيهِ الى حد التلاشي ويصبح كل ما يصدر منهُ من قول آتياً من وحي ذلك الروح الجني وسلطانه لا من عقل هذا الانسي وتفكيره اذ تتلاشى ذاتيته وقتاً ما يعود في خلالهِ كأنهُ الجنية ذاتها

« وفي تلك الحالة العجيبة تصبح العربية عند التركي لغته ان كانت العربية لغة ذلك الجني المستولى عليهِ فينطق بها دون ان يعرف منها شيئاً وهذا يحدث منهُ في غير إلهام يحسه او وحي يتلقاه ومتى عاد الانسيّ الى نفسه وأفاق ، لم يذكر لفظاً واحداً مما قالهُ وهو تحت ذلك السلطان فاذا صحَّ هذا عن الجنية وسلطان استيلائها على لب انسان ، أفيكون خالق الانسان والجان أقل شأناً وأضعف سلطاناً من الانس والجان ؟ حاشا ان يكون ذلك شأن الاله الواحد القهار »

وفي أبيات لهُ أخرى يقول سيدي جلال الدين بالفارسية ما ترجمتهُ بالعربية :

« لو تكلم امامكم رجل سكران من اثر ما شربه من روح الخمر بكلام غريب قلتم انها الخمر التي تتكلم افيكون لروح الخمر هذا الاثر ولا يكون لروح الله مثله اذا استولى على قلب انسان فيجعله ينطق بكلام ليس بكلامه وعبارات ليست هي عباراته

الاَّ ان القرآن وان جاءنا من بين شفتي النبي محمد فقد كفر من قال انهُ ليس كلام الله

الفناء عند الصوفي

ومقارنته بالفناء لدى البوذيين

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا ان من المستشرقين من الغربيين من ذهب الى حد تشبيه ...... حالة الفناء عند المتصوفين المسلمين بحالة تسمى نيرفانا Nirvana عند البوذيين الوثنيين وهي الحالة التي يتوهم هؤلاء انها نتيجة تعذيبهم انفسهم حتى تتلاشى وتنمحق عنهم فلا تعود النفس الى صاحبها ابداً اذ يزعمون انهُ ينقلب فيصير بوذا بذاته اي إلهاً آخر تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً .

ولست بصدد اظهار ما في هذه المزاعم الوثنية الوهمية من الضلال والمخالفة للتعاليم الدينية الحقة. وانما اقول ان فناء السالك المتصوف غير هذا اذ معناه فناؤه عن نفسه وصفاته الحيوانية الارضية حبًّا في ذات الله بالتزام التهذيب لا التعذيب ومتى تمَّ له هذا الفناء اشرف بهِ على طور لا يشهد معهُ في الوجود الاَّ الله حتى ولا نفسهِ التي بين جنبيه فلا يرى وجوداً إلاَّ لواجب الوجود وحده وأما وجود سواهُ أيًّا ما كان فهو وجود مجازي غير ذاتي لقبوله العدم والفناء اما الوجود الحقيقي الذاتي فهو للذات العلية الابدية الدائمة البقاء وحدها

وتلك المشاهدة لا تحصل بحاسة البصر بل تحصل بعين البصيرة اي بنور ينبعث في القلب انبعاثاً إلهيّاً اذ تكون الحواس الظاهرة كلها في غيب عن نفسها كما يحدث لمن يدخل على ملك ذي شوكة وسلطان فتتملكه الهيبة والجلال الى حد انهُ لا يرى شيئاً قط مما في بيت الملك من رياش وغير رياش ولا يرى أحداً ممن يكون جليساً للملك حين دخوله عليهِ حتى ولا يعلم من أمر نفسه شيئاً حين دخوله على حضرة الملك وذلك لاستيلاء الذهول كله عليه

فهذا الامر مشاهد في امور الخلق فكيف بنا وحديثنا يدور حول الفناء في الخالق . ثم ان السالك بوصوله الى مقام الفناء الذي وصفنا طرفاً منهُ يتحقق له قول النبي عليه السلام لاصحابهِ موتوا قبل ان تموتوا اي موتوا عن رؤية وجودكم واختياركم وإعتمادكم على حولكم وقوتكم لتعلموا ان الوجود والاختيار هما في الحقيقة وقف على الله الواحد المختار وانكم وان زرعتم الزرع بأيديكم فان الزارع هو الله ولكنكم أسباب وقد يخلق الله بسبب ويخلق ايضاً بلا سبب فهو مسبب الاسباب ورب الارباب وهذا ما ترونهُ كشفاً وعياناً بعد انقضاء أجلكم في الدنيا ويكون الحال كما وصفهُ الله في القرآن بقولهِ تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)

وبعد ان يفيق الطالب من سكر الفناء ينتقل توًّا الى مقام يسمى مقام اللقاء ويعرف عند الصوفية أيضاً بمقام (الوصول) او المشاهدة والمكاشفة ومن ذلك قولهم في مواضع كثيرة من كتبهم فلان الواصل الى الله وهذا المقام حالة وراء العقل المجرَّد يعجز القلم عن وصفها وتدق الافهام عن تصور كنهها اذ هي بمعزل عن نطاق المدارك العقلية لانها حالة ذوقية روحية لا تعلق للعقول بها الاَّ بأن تقر بجواز حصولها وعدم استحالتها ومثلها بالنسبة الى المدركات العقلية كمثل ما يؤكل وما يشرب بالنسبة الى حاسة البصر فكما ان هذه الحاسة لا تتعلق الاَّ بالمرئيات دون الاذواق اذ ليس ادراك الاذواق من شأنها ولا من واجباتها بل هو مقصور على حاسة الذوق وحدها فكذلك المواجيد الروحية والاذواق الباطنية القلبية لا تدرك بالعقول والافهام . وانما تدرك بنور البصيرة وطهارة والالباب

وقد تلبث حالة الفناء التي أسلفنا ذكرها مقدار لحظة واحدة او قد تطول اكثر من لحظة وكذلك حالة اللقاء او المكاشفة قد تدوم ساعة او اكثر من ساعة حيث يعود السالك بعدها برضوان الله وفضله الى نفسه ولكن ليس الى نفسه الاولى الامارة بالسوء التي كان يجاهد في تهذيبها وصقلها بمهذبات الشرع ويحاول قهرها وتحاول قهره ويسعى في ضبطها ضمن حدود الشريعة وهي تأبى الاَّ الغلبة عليهِ والخلاص من قهره . بل يعود الى النفس الراضية المرضية المهذبة الكاملة المطمئنة بالايمان الراضخة لاحكام الشرع والدين . يعود الآن الى مقام البقاء بالله اي مقام العزة الانسانية المشروحة الصدر المستنيرة بانوار التقوى والصلاح بعيداً عن

الشوائب الشهوانية والحظوظ النفسية والصفات الدنيئة وأخصها العجب والزهو والكبر والرياء والنفاق والحسد والتطلع الى ما في ايدي الناس وقلة الرضى بما قسمهُ الله من الرزق

يعود ليشهد فيهِ الخلق مثالاً حيًّا على صدق روح الاسلام وتكفله بان يبلغ النفس البشرية اقصى ما تتوق اليهِ من الكمالات والرقي الروحي اذ يصير قلبه مليئاً بالصدق والمروءة والنخوة والطهارة والصفاء والعطف والرأفة والحنوّ على عباد الله بل على الخلائق جميعاً حتى الطير والحيوان الاعجم يعطف عليهِ ويرأف بهِ حتى لقد قال في وصف هذه الحال مولانا العارف بالله سيدي محيي الدين العربي ابياتاً منها قوله قدس الله سره : —

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لنيران وكعبة قاصد وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبهُ فالحب ديني وايماني

وقد أراد سيدي جلال الدين الرومي تصوير حالة الوصول الى الله بعد بلوغ مرتبة الفناء فكتب في كتابه المسنوي شعراً بالفارسية هذا معناه : —

« توهم المحب انه قد فني في محبوبه فلما اهتدى الى بيته بعد طول السير والجهاد وقف بالباب فدقَّ عليه يطلب الاذن في الدخول فسمع من الداخل صوتاً ينادي : من بالباب ؟ فقال المحب انا بالباب. فقال الصوت داخل البيت : كلاَّ. كلاَّ. ان هذا البيت لا يسعني ويسع احداً سواي. وظل الباب مغلقاً كما كان فأطرق المحب مليًّا فأدرك ان ما حجبهُ دون الاذن له بالدخول الاَّ شعوره بوجود نفسه معه فعاد أدراجه وعاود جهاده ثم رجع بعد عام يقرع الباب فعاد الصوت يسأل من بالباب ؟ فقال انت انت الذي هنا وأنت انت الذي هناك وأنت وحدك ملء الوجود ولا موجود سواك. وهنا فتح الباب على مصراعيه فدلف منهُ المحب ليحظى بوصال الحبيب »

وبهذه الصورة الشعرية الطريفة أمكن للعارف جلال الدين ان يصوّر لنا كيف ان سلوك سبيل التصوف الحق ينيل النفس المتعطشة اقصى ما تصبو اليهِ من الرقي الروحي

***

هذا ايها السادة ما وسع المقام ذكره من الالمام ببعض اطراف التصوف في الاسلام اجمالاً وعسى ان تتاح لي فرصة اخرى لازيد الموضوع جلاء وتفصيلاً . واني شاكر لكم حسن استماعكم لي زمناً طويلاً

الى (بتولي) الفاتنة الجمال ذات الروح الاعجب فتنة وجمالاً !!

قبلة الروح !!

هاتِ أدني من فمي شفتَيْ ذا البُرْعُم
يا لثغرٍ عَنْدَمي (١)

أيُّ سحرٍ قطفهُ ذوب شهد وشفهُ
وشهيٌّ وكُفْهُ

أتُراه قد شفاني ؟ أم تراه قد سقاني
وحباني بالاماني ؟

لا . . . فما بلَّ الظَّما أو شفى جُرْحاً همى
كان ثغراً ظالما !!

هات روحاً مُلهمي سلسليه في دمي
تحتويه أعظُمي

ها . . . سرَينا في سما هي لغزٌ أبهما
أتراني حالما ؟!

ها أرانا هائمَينْ في انتشاء ذاهلَينْ
قد غدَونا طائرَينْ كيف طِرنا؟ بل وأينْ؟!
لا وربي ما درينا !!

***

آه من قُبلة صبٍّ يحتسي روح المحبّ
خلَقتْ أكوان حُبّ إنها قبلة . . ربّ !!
إنها يا أختَ روحي قبلة الروح لروحي
هدهدت مني جروحي لا تضنّي بل أبيحي
امنحيها للجريح !!...

محمد فهمي

(١) العندم نبات احمر اللون

حضارة الميتانيين

بقلم قيصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

— ٢ —

﴿ اللغة ﴾ عندما نهضت الآثار الميتانية من جوف الثرى ومسحت عن جفونها غبار الايام حاول علماء الآثار ان يستجلوا معاني تلك السطور العالقة على بعضها فلم يوفقوا في محاولتهم ولبثت كتابات الميتانيين غامضة صامتةً لا تنبس ببنت شفة عما تتضمنهُ من الاسرار ريثما يتسنى العثور على لوحات ميتانية مثل لوحات بوغاز كوي ورأس الشمراء التي تدوَّن فيها النصوص الواحدة مترجمة الى عدة لغات تساعد على تفسير بعضها بعضاً . غير انهُ يلوح من اسماء بعض الملوك الواردة باللغات المصرية والحثية ان لغة الميتانيين كانت مزيجاً من ألفاظ اسيوية وآرية وهي تشبه بذلك لغة القوقاس الخشنة وقد اشارت ألواح بوغاز كوي الحثية الى وجود قصص وقصائد موضوعة باللغة الميتانية اشيد فيها باعمال البطل جيلجماش العجيبة كما ان الكتابات الميتانية التي عثر عليها في حفريات تل العمارنة تدل على ارتقاء الفكر وسعة انتشار ادب المراسلة عند الميتانيين كرسالة الملك توزارطا الموجهة الى امنوفيس الثالث التي تنطوي على ٤٩٤ سطراً وهي مخطوطة بالقلم المسماري وتعد هذه الرسالة المطولة من اهم ما عثر عليه حتى يومنا من الاسانيد التي تمهد لدرس اللغة الميتانية بفضل مقدمتها حيث تيسّر حل مدلول بعض الفاظها التي يخاطب عادةً بمثلها فراعنة مصر على انهُ ينتظر عند اتساع حلقة الحفريات في اراضي الميتانيين ان تتوالى البينات التي تساعد على حل رموز هذه اللغة العويصة حلاً نهائيًّا

﴿ الانظمة والقوانين ﴾ ما برحت لغة الميتانيين مستعصية الحل على علماء الآثار فليست معلوماتنا عن انظمتهم وقوانينهم غير معلومات مقتضبة اخذناها عن كتابات جيرانهم الذين ألمعوا الى هذه الانظمة والقوانين في سياق البحث عن انظمتهم وقوانينهم الخاصة او عن عقود ميتانية محررة بلغة اجنبية

فقد كان العرش وراثيًّا تحرسهُ كوكبة من الجيش يطلق عليها اسم الحرس الماريَاني . اما طراز الحكم فكان اقطاعيًّا ينحصر تولّيه في طبقة من الاعيان تتحدّر من عنصر آري مثل العائلة المالكة نفسها وتكاد تكون قوانين الدولة مستعارة برمتها من قانون حمورابي الذي كان له اعمق تأثير في كل الدول التي قامت فيما بين النهرين . بيد انهُ كان يستثنى من ذلك تشريع التعامل

التجاري عند الميتانيين الذي عرف بميزة خاصة تنطبق على حاجة جماعة معظمهم من الزراع . وقد اشار الاستاذ كوك الى الخاصّات التي تميز العقود الميتانية عن سواها وأهمها وجوب بيان المحل الذي تتم فيه الصفقة ويدوَّن العقد مع ذكر أسماء الشهود الحاضرين مما كان يغفَل في معظم العقود الحثية . زد على ذلك ان المكاييل والاقيسة الوارد ذكرها في العقود الميتانية كانت أقرب الى ما هي عليه في أشور مما هي عليه في بابل . فقد كان الكيل المدعو إمر الشائع عندهم يستوعب من الحبوب مبذر مساحة معينة من الارض ويوازي أربعين لتراً من مكاييلنا

﴿شرائع الزواج﴾ كان الخطيب عند الميتانيين ينقد والد الفتاة مبلغاً من المال يرمز فيه الى عادة مشترى المرأة تلك العادة التي كانت متفشية في بابل . بيد انهُ كان يترتب أدباً على الوالد الميتاني ان يسرع باعادة المبلغ المذكور الى الخطيب بعد قبوله شكلاً ويمهر ابنته بائنة تساعدها على تقديم هدية ثمينة الى بعلها ليلة الزفاف مما لا نرى لهُ مثيلاً في تقاليد الجوار . وقد كان مباحاً للزوج ان يطلق امرأته اذا كانت عاقراً أما اذا كانت ولوداً فلا يحق لهُ ذلك دون ان يعوضها بالمال ويخسر في حال طلاقها حقوق الابوة على أولاده مع بقاء حق الارث محصوراً بعده في أولئك الاولاد دون غيرهم

﴿ شرائع التبني ﴾ ومما كان شائعاً في البلاد الميتانية شريعة التبني وقد عرفت منها ثلاثة أشكال : ففي الشكل الاول المدعو (أنا شمتي) كان يختار المرء قريباً لهُ يتبناه بطريقة غير قابلة النكول فيرعاه بحمايته ويغدق عليه خيراته . أما في الشكل الثاني المعروف باسم (انامروتي) فيصح تبني شخص غريب عن العائلة ويحق للمتبنَّى ان يرث حصة معينة من مال المتبني

ولما كانت أراضي الخراج المقطعة للموظفين او الجنود لقاء خدماتهم غير قابلة الانتقال الى الغير الاَّ بطريقة الارث الشرعي فقد أوجد لها المتشرع الميتاني حيلةً تساعد صاحبها العاجز عن العمل على الانتفاع بها او استغلالها بواسطة الغير . وذلك بأن يتبنى مالكها شخصاً يهبها لهُ لقاء هدية من الفضة او الحبوب تعادل ثمنها وهذا هو الشكل الثالث وقد أطلق عليه الاستاذ سبيزر الذي اكتشف لوحات كركوك اسم البيع بالتبني

﴿ شرائع التعامل التجاري ﴾ تكاد طريقة الاستقراض التي كان يجري عليها الميتانيون تشابه طريقة التعامل المعروفة في أيامنا في كثير من الوجوه ولا سيا فيما يتعلق بتعيين موعد الدفع في عقود الاستقراض التي كانت تدوَّن على لوحات من الآجر يختم في ذيلها المدين وتلي توقيعه توقيعات شهود الحال . بيد ان معدل الفائدة كان يتفاوت بحسب نوع البضاعة المشتراة . فاذا كانت هذه البضاعة من مواد البناء كاللبن مثلاً تبلغ الفائدة نحو ٥٠ بالماية في حين ان شريعة حمورابي لا تجيز تقاضي الفائدة بمعدل يربي على ٢٠ بالماية في قرض النقود و ½ ٣٣ بالماية على قيمة الحبوب . واذا تعدد المدينون كان القانون الميتاني يسوّغ للدائن استيفاء تمام دينه عند الاستحقاق من المدين الاقرب اليه باعتبار المدينين متكافلين متضامنين في وفاء ما عليهم . وقد عثر على عقد

غريب ينص على أن السرية المدينة اذا وضعت خلال مدة الدين يتحتم عليها ان تتخلى عن مولودها الى الدائن أما اذا توفيت اثناء الوضع فلا يكون الدائن ملزماً بدفع ثمنها كما كان مسموحاً للدائن ان ينتفع بما هو مرهون لديه تأميناً على دينه سواء أفضة كان ام تحفة حتى ولو كانت الرهينة انساناً وكان مفروضاً في بعض العقود كفالة شخص ثالث وهذا مأخوذ عن القانون البابلي .
وكان التأجير معروفاً عند البابليين وكثير الرواج فيما يتعلق بمعامل صنع اللبن والآلات الزراعية. أما العقوبات الواجب إنزالها بمن يتخلف عن الدفع فقد كان منصوصاً عليها في العقود نفسها وكانت تسري على المدين من طبعها حين تقصيره في القيام بالشروط الملحوظة وهي على الغالب نقدية ولكنها شديدة في معظم الاحوال لكيما تجعل المدين رادعاً عما قد تسوّل له نفسه من التواني والتقصير . وقد نصت بعض العقود على عقوبة مؤلمة كاللكم على الفم وكسر الاسنان وما شابه ذلك من صنوف التعذيب التي كانوا يسومون المدين إياها عند اول بادرة تنم على سوء نيته

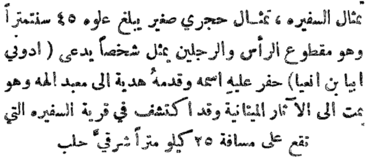
فيستفاد مما تقدم ان معظم الشرائع الميتانية كانت مستعارة من بابل كما ألمعنا اليه آنفاً انما كان يطرأ عليها بعض التعديلات حسبما كانت تقتضيه أحوال البلاد وحاجاتها ولا مرية في ان معلوماتنا هذه ستزداد مع الايام اضعافاً وتتسع حلقة بحثها عندما ندرك معاني تلك الكتابات العديدة التي اخرجها المنقبون من مكامنها الدفينة

﴿ الديانة ﴾ عندما درسنا ديانة الحثيين على ضوء نصوص لوحات بوغازكوي تبينا ان معابدهم كانت تضم عدداً عديداً من الآلهة تجمعت لديهم بنتيجة فتوحهم لانهم كانوا يبقون على آلهة البلاد التي يستعمرونها وتقاليدها ويكرمونها خشيةً من سخطها وموالاةً لعبدتها حتى ضاقت هياكلهم عن استيعابها وأحيطت عقائد ديانتهم بغموض لا مفر منهُ. وكذلك نرى الامر نفسه قد جمّع عند الميتانيين طائفة من الآلهة عندما ضموا تحت لوائهم شتى العشائر التي كانت تقطن سوريا الشمالية وما بين النهرين . وقد أتاحت لنا الظروف ان نتعرّف الى معظم هذه الآلهة التي وردت اسماؤها في ذيل المعاهدة المصرية الميتانية التي وضعت تحت رعايتها . ويدل تعداد تلك الآلهة على مختلف العناصر التي تألفت منها المملكة الميتانية اذ كانت تُعرف الشعوب قديماً من اسماء الآلهة التي تنتسب اليها . وقد وجدنا في طليعة هذه الاسماء آلهة الميتانيين الاصلية اي الاله تحشوب ورفيقته هيبا . ثم تليها آلهة البلاد المجاورة والمنضمة الى المملكة الميتانية او التي كان يسطو عليها نفوذها ويتخللها اسماء بعض آلهة بلاد الهند وسومر وبابل التي استقت من عناصرها الحضارة الميتانية . وكذلك نجد اسماء آلهة جبال زاخو ونهري الدجلة والفرات والسماء والارض والريح والسحاب . ويجدر بنا ايضاً ان نلمع الى ورود ذكر اسماء آلهة عشائر حيبيري التي يذهب البعض الى انها آلهة اليهود نفسهم الذين كانوا على عهد ازدهار تل العمارنة جماعة من المأجورين يحاربون تحت قيادة ايٍّ كان في سبيل الكسب والغزو . اما الاله تحشوب الكبير الذي كان



تمثال مشرفة البرونزي، صغير الحجم مصنوع من البرونز بعلو ١٧٫٥ السنتمتر اكتشف بين انقاض مدينة قطنة القديمة المعروفة اليوم بقرية المشرفة في ضواحي حمص ونقل الى متحف « اللوفر » حيث صُنف بين الآثار الميتانية

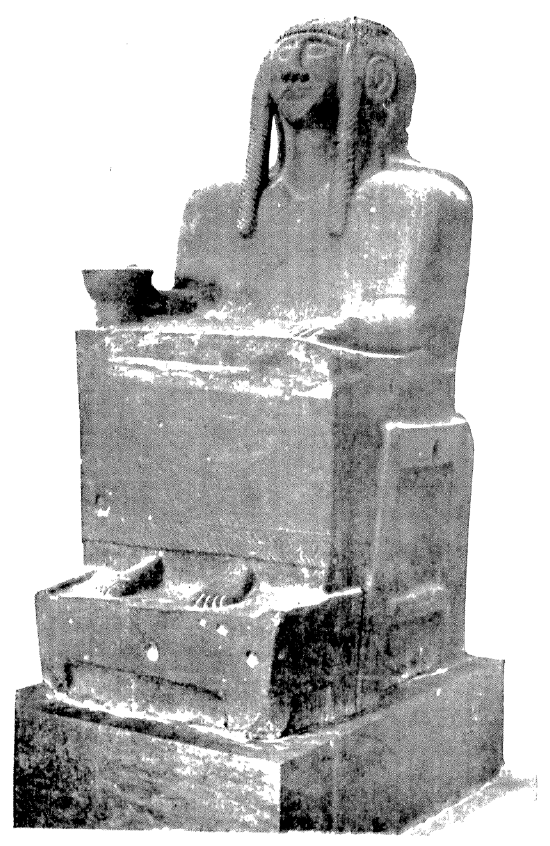




تمثال السفيره ، تمثال حجري صغير يبلغ علوه ٤٥ سنتمتراً وهو مقطوع الرأس والرجلين يمثل شخصاً يدعى (ادوني ايا بن انعيا) حفر عليه اسمه وقدمهُ هدية الى معبد الهه وهو يمت الى الآثار الميتانية وقد اكتشف في قرية السفيره التي تقع على مسافة ٢٥ كيلو متراً شرقيّ حلب



تمثال كبرى المعبودات الميتانية من الحجر البركاني الازرق بحجم (٢٫٧٤ × ٠٫٧٢ × ٠٫٥٠ متراً) اكتشف في تل حلف ونقل الى متحف حلب يمثل الهة واقفة عارية القدمين ممسكة بيدها اليسرى وعاء صغيراً كان يملأ عادة بالماء المطهر واما يدها اليمنى فمنبسطة على الصدر وفي رقبتها عقد ذو ستة صفوف وعلى معصميها وكعبيها أساور وشعرها مسترسل على الظهر



تمثال معبودة ميتانية ، من مكتشفات البارون اوبنهايم في تل حلف تمثل معبودة ميتانية تمسك في يدها اليمنى كأس التقدمة وهي تلبس رداء مزركشاً يغطي الجسم بتمامه ويكشف عن الساعدين وعن قدمين عاريتين حجمه ١٫٨٩ × ٠٫٨٦ × ٠٫٩٧ متراً من الحجر البركاني الازرق نقل الى متحف برلين بعدان سكب عليه نسخة معروضة في متحف حلب



نقش بيسان — يمثل في القسم الاعلى منهُ أسدٌ وكلبٌ منتصبان أحدهما مقابل الآخر وفي القسم الاسفل كلبٌ يعقر أسداً في ردفهِ وهو من الآثار الاشورية الميتانية. وقد اكتشف في قرية بيسان من اعمال فلسطين

يدين به الحثيون ايضاً فقدكان اله العناصر الاربعة والصواعق والانواء والامطار والخصب ويشبه الاله حداد الغربي في كثير من الصفات وتمثله النقوش الميتانية رجلاً مرتدياً لباساً قصيراً مغطى الرأس بتاج اوبخوذة ماسكاً بيده اليمنى فأساً وبيده اليسرى رمز الصاعقة المثلث الشعب (انظر رسمه في الصفحة (٥٢٧) من مقتطف دسمبر ١٩٣٦) ونراه في اكثر مواقفه على ظهر ثور وفي بعضها واقفاً على ذرى الجبال. وهيبا رفيقة تحشوب على شاكلة الالهة عشتار كان يبتهل اليها لاكثار النسل وخصب الارض وقد مثلت في النقوش الميتانية برداء طويل وعلى رأسها تاج. وهذان الالهان هما المثل الاعلى للديانات الوثنية القديمة وعبادتهما كانت اكثر كل العبادات شيوعاً في هذه البلاد منذ اقدم العهود

﴿ الفن الميتاني ﴾ جديرٌ بأن نطلق تسمية الفن الميتاني على الآثار المستخرجة مما بين النهرين ومن سائر الانحاء المجاورة والتي تمتّ الى العهد الذي طغى فيه العنصر الحوري الميتاني على هذه المناطق اي العهد الذي يمتد بعرفنا منذ القرن السادس عشر حتى الرابع عشر ق . م. وتأتي في مقدمة هذه الآثار مجموعة الاسطوانات واللوحات المكتشفة في كركوك والتي تعد من اغنى مجموعات الآثار الحورية الميتانية . وتعتبر صنفاً مهمًّا بين مختلف الصنوف التي تماثلها اذ تمتاز صناعة حفر هذه الاسطوانات بكثرة وجوه الشبه التي تقربها من صناعة الحفر السومرية تلك الصناعة التي تعتبر النواة الاولى لكل صناعات الحفر المعروفة ليومنا هذا في اسيا الصغرى . تدلنا على ذلك النقوش المتشابهة في الصناعتين والافراط في استعمالها عند الشعبين . ويلوح ان الميتانيين كانوا احذق من سائر معاصريهم في استعارة الفن السومري واكسابه طابعاً خاصًّا بهم لانهم كانوا بطبيعتهم الاسيوية اقرب من البابليين وسائر الشعوب السامية الاصل الى فهم خاصة الفن السومري وليد حضارة قريبة من الحضارات الاسيوية . ويبدو ايضاً على بعض الآثار الميتانية انها كانت متأثرة في بعض الاحوال بالطابع المصري وفي بعضها بطابع الايجه وادلتنا على تأثرها بالطابع المصري كثيرة نخص منها بالذكر استعمال قرص الشمس المجنح في بعض النقوش الميتانية . ذلك الرمز الذي يعد بلا جدال ظاهرة مصرية بحتة (راجع الصورة أمام ص ٤٥ من مقتطف يونيو الماضي) كما ان تأثرها بطابع الايجه بارز جليًّا في نقش الشجرة المقدسة التي احتفرها الميتانيون على آثارهم بشكل نخلة مهدلة الاغصان كثيرة الزخرف يحرسها إلهان وفي بعض الاحيان اسدان على نحو ما هي عليه في نقوش الايجه . اما سائر الرموز فتكاد تكون كلها مشتقة من اصل سومري كالضفائر التي تغشي معظم اسطوانات كركوك ومشاهد انتصارات البطل جيلجاش في مصارعة الثيران والاسود التي يوشك ألاّ يخلو منها اثر ميتاني . وقد يحسن بنا ان نلمح في هذا الصدد الى بعض الآثار الكبرى التي تغلب عليها السمة الميتانية

﴿ اله الخصب ﴾ نجد اكثر هذه النقوش بروزاً وأوثقها نسبةً الى صنع الميتانيين نقشاً بارزاً اكتشف في اشور ونقل الى متحف برلين يمثل اله الخصب منحوتاً نحتاً خشناً على الطراز القديم

بلحية طويلة وعينين مجوفتين كانت ترصعهما بعض الحجارة ، يعلو رأسهُ تاج مزين برسوم حراشف السمك وكذلك القسم الاسفل من ثوبه تغشيه رسوم مشابهة وترمز هذه الحراشف في فن ما بين النهرين الى الارض الجبلية فيكون اذاً هذا الاله من آلهة الجبال الاَّ ان بروز جذعي شجرة من جسمه يحملان ثمراً يشبه الصنوبر واتصاب وعلين عند قدميه يقطفان ذاك الثمر يحملنا على الاعتقاد بانهُ اله الخصب الذي جاء في الاساطير القديمة انهُ كان يغذي بنفسه الاوعال التي تحرس الشجرة المقدسة كما ان وجود الهتين صغيرتين بجانبه حاملتين الى صدريهما وعائين تتدفق منها المياه مما يزيد الرمز جلاء ويثبت اشتقاقه من الفن السومري القديم

﴿ رأس الجبول ﴾ يأتي بعد ذلك الرأس الحجري المكتشف في ملاحة الجبول الواقعة على مسافة أربعين كيلو متراً شرقي حلب والمنقول الى متحف اللوفر وهو رأس يزيد عن الحجم الطبيعي قليلاً من الحجر البركاني الازرق وقد نحت نحتاً خشناً عاثل نقش آلـه الخصب الآنف الذكر . بيد ان هذا الرأس تكاد تنبض فيه عروق الحياة اكثر من كل أثر آخر . له جبين ضيق تكللهُ قبعة مخروطية الشكل ذات خطوط طولية متقابلة كانها قرون ترمز الى الالوهة . أما العينان فيلوح ان تجويفي حدقتيهما كانا مرصعين ببعض الحجارة ويعلوهما حاجبان كبيران في وسطها أنف أفطس يحيط به وجه ضعيف التركيب خدّدتهُ غضون ممتدة من المنخرين الى حد الشفتين كما ان الذقن كثيرة الاخاديد . وخلاصة القول ان هذا الرأس تحفة نادرة المثال بين سائر الآثار الميتانية المعروفة ليومنا هذا (صورتهُ بمقتطف يونيو الماضي صفحة ٤٤)

﴿ تمثال مشرفة البرونزي ﴾ ونعني به تمثالاً صغيراً مصنوعاً من البرونز عثر عليه في الحفريات التي أجراها الكونت دي بويسون منذ عشر سنوات في تل المشرفة بالقرب من حمص حيث اكتشف انقاض مدينة قطنة القديمة . وقد صنع هذا التمثال البرونزي على نمط رأس الجبول . أما سائر أعضاء جسمه فلا نتبين منها غير قبضتين مطبقتين وقدمين حافيتين لانهُ جالس على عرش ، وملتحف برداء طويل موشى بالفرو على مثال أصنام سوريا العليا في ذلك العهد وكذلك اكتشف في حفريات مشرفة نفسها رأس حجري ذو لحية قصيرة بعينين مجوفتين تعلوهما قبعة منحوتة نحتاً كثير النتوء وعليه مسحة من الصناعة القديمة

﴿ أسد الشيخ سعد ﴾ عثر في قرية الشيخ سعد بالقرب من دمشق على تمثال أسد ضخم الحجم من الحجر البركاني حفظ مؤقتاً في المعهد الفرنسي للفن الاسلامي في دمشق وهو يمت الى الآثار الميتانية بشبه شديد لا سيما في هذه الخاصة القوية التي تكسبهُ هيأةً تخال معها كأن الحياة نابضة بين جنبيه

﴿ تمثال السفيرة ﴾ اكتشف في قرية السفيرة التي تقع على مسافة ٢٥ كيلو متراً شرقي حلب تمثال حجري صغير مقطوع الرأس والرجلين يبلغ علوه ٤٥ سنتمتراً يدخل في عداد الآثار

الميتانية يمثل شخصاً لابساً رداء لاصقاً بجسمه يشده الى وسطه نطاق عريض وضع في طياته غمد خنجر مزخرف وقد أمسك بكلتا يديه كأساً مقربة من صدره وتعلمنا الكتابة الاشورية القديمة المنقوشة عليه ان صاحب هذا التمثال يدعى أدوني أبا بن انعيا وقد قدم تمثاله هدية الى معبد الآلهة

تعبّر هذه المجموعة القليلة عن الميزة التي اختصت بها الآثار الميتانية ألا وهي متانة التعبير وروعة الصنع وهي تصلح لان تكون خير مقدمة لكثير من الآثار التي ينتظر ان تسفر عنها الحفريات المقبلة في العاصمة واشوكاني وفي سائر نواحيها كما انها تعد حلقةً وثيقة الاتصال بين الآثار السومرية التي استمدت منها أصولها وبين سائر الآثار التي نحتت على مثالها او باتت تحت تأثيرها مثل بعض الآثار الحثية التي يغلب عليها تأثير الفن الميتاني على شاكلة الحجر البارز النقش المكتشف في قلعة حلب سنة ١٩٣٠ وعليه معبودان مجنحان يرفعان على قبضتهما قرص الشمس داخل هلال وقد نشر رسمهُ في مقتطف شهر فبراير ١٩٣٧ وبعض الآثار الاشورية الميتانية مثل نقش بيسان الذي صور في القسم الاعلى منهُ اسدٌ وكلب منتصبان احدهما مقابل الآخر وفي القسم الاسفل كلب يعقر اسداً في ردفه مما يجعلنا ان نلمس فيه امتزاج الفنين الاشوري والميتاني خصوصاً في نحت عضلات الاسد وحركة وثوب الكلب . ويجدر بنا قبل اختتام هذا الموضوع ان نأتي ايضاً على ذكر مجموعة الآثار التي اكتشفها البارون اوبنهايم في تل حلف على مقربة من نهر الخابور وبجانب رأس العين تلك الآثار التي حيّرت العلماء في تعيين عهدها ثم كادوا يجمعون على عقيدة الاستاذ جودس الذي يرى انها تمت الى الميتانيين بأوثق الاسباب بالرغم مما يبدو عليها من تأثير الطابع الاشوري وقد حداهم ذلك الى الاعتقاد بأن هذه الآثار صنعت في اواخر عهد الميتانيين عندما بدأ يخبو نفوذهم تحت سطوة الاشوريين وتفوقهم فجاءت تحمل على وجهها مسحة اشورية كادت تخفي وراءها اصلها الميتاني .اما الكتابة الارامية المحفورة على هذه الاصنام والتي اشكل على العلماء في بادىء الامر تفسيرها فقد اتضح انها ترجع الى عهد ملك ارامي يدعى كاباراكان اقام على هذا التل المهجور منذ نحو الف سنة وعثر بين انقاضه القديمة على كمية كبيرة من الآثار المذكورة فأعاد استعمالها واحتفر عليها الكتابات المذكورة باسمه

نقف اليوم عند هذا الحد من دراسة الحضارة الميتانية على أمل ان نعود اليها بعد حين عندما تواصلنا الاكتشافات الجديدة بمعلومات اوفر من شأنها ان تساعدنا على الوقوف على كثير من الامور التي ما برحت متوارية عنا في جوف الثرى . ولعلنا لا نكون على ضلال اذا عقدنا كبير الامل على النتائج الخطيرة التي قد يؤدي اليها اجراء حفريات واسعة النطاق في واشوكاني المعروفة اليوم برأس العين تلك العاصمة الميتانية التي لم يقيض لها بعد من ينبش اطلالها الدارسة ويخرج كنوزها للنور فعسى ان يوفق في القريب من يكشف لنا القناع عن عظمة تلك الحضارة العريقة في القدم ويشق امامنا طريق الوصول الى كنه الحقائق

وحي انجلترا

قبل ان تسكت الحياة ...

شاعر أصيب في حادثة كتب الله له السلامة منها. وهو لم يزل بعد في ميعة الصبا وعنفوان الشباب. فتمنى لو انها كانت القاضية على حياته. فراراً من اثقال الحياة، وأعباء الدنيا .... فكتبنا اليه هذه الابيات [عبد الغني]

عُمرٌ مُـــدَّهُ لك الله مدّاً ... كيف لم تلق بالسلامة حمدا ؟
كيف تلقى السلامة اليوم نحسا ... ويراها الورى نعيماً وسعدا ؟
كيف تقضي وما تهدمتَ ركنا ... كيف تطوى وما تثلمت حدّا ؟ ؟
كيف تمضي ودين مصر علينا ... لم يسدَّد وحقها لم يؤدَّى ؟ ؟

* * *

عجباً شاعر تغنَّى على الأيـــك ويرجو عن ذلك الايك بعدا
عجباً شاعر تأبَّى على القيــد ويرجو في وحشة القبر قيدا ؟
لم يكد يستريح المهد حتى ... رام في التربة السحيقة لحدا ؟

* * *

غنِّ يا صاحبي على الروض واطرب ... قبل أن تصبح الخمائل جُرْدا ...
غنِّ يا صاحبي على النهر واشرب ... قبل أن تبخر المياه فتصدى
غنِّ يا صاحبي كما شئت والعب ... قبل أن تُملأ المقابر جِدّاً ! !
غنِّ يا صاحبي على العود واضحك ... قبل ان تسكت الحياة وتهدا ....
غنِّ في هذه الحرارة يوماً ... قبل ان تملأ الحديقة بردا ! !
غنِّ والورد في الخميلة غضٌّ ... قبل أن يُذبل الشتاء الوردا ....

* * *

كنتُ يا صاحبي كما أنت ... أبكي ... فرأيت الحفاظ بالدمع أجدى ...
كنتُ لا استسيغ عيشي ... ولكن ... لم أجد يا أخي من العيش بدا ... ! !

* * *

كيف تقضي وما تخطيتَ عمْرا ... كيف تمضي وما بلغتَ الاشُدّا ؟
واذا عفتَ في الحيـــاة مقاماً ... فلمن ذلك المقام أُعدّا ؟ ؟ ؟

المنصورة ... محمد عبد الغني حسن
عضو بعثة سابق

الاسلام

والرفق بالحيوان

للشيخ احمد مصطفى المراغى
استاذ الشريعة الاسلامية بدار العلوم

يرى الناس صنوفاً من اعمال البر والاحسان مسماة بأسماء غير ما عهدوها ولها نظم دون ما ألفوها فيخيل اليهم ان هذه من مبتكرات العصر الحديث عصر المدنية والنور وان مؤسسيها قوم أشربت قلوبهم بروح الفضيلة وتسامت نفوسهم عن ارتكاب الرذيلة لما لأعمالهم من جليل الخطر وعظيم الاثر مما يشاهد عياناً فهي تقيم كل يوم للناس برهاناً وتظهر لهم حسناً واحساناً في تخفيف ويلات الناس من مختلف الشعوب والطوائف مما لا يخص قبيلاً دون قبيل ولا فئة دون فئة اخرى بل نرى آثارها تعدت الانسان الى الحيوان بطلب الرفق بهِ والشفقة عليهِ ووقايته من العلل والادواء وتخفيف آلامه ولاجل هذا أسست (جمعيات الرفق بالحيوان) في انحاء المعمورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وهي تسير في اعمالها قدماً وتلقى معونة من بني الانسان في كل بقاع العالم . وكأن القائلين بمثل هذا القول يؤمنون بان الشرائع السماوية قصرت في طلب الرفق بالحيوان ولم تطلبها من الآحاد او الجماعات او كأن العقول البشرية كشفت انواعاً من اعمال البر والاحسان لم تنبه اليها الشرائع السماوية ، كبرت كلمة تخرج من افواههم — فكنوز الشريعة الاسلامية ملأى بالحض على الشفقة بالحيوان ومواساتهِ بكل ما يكفل له حياة هنيئة ويجلب له خيراً ونفعاً ويخفف عنهُ ألماً ويدفع عنهُ ضيراً والوعيد بالويل والثبور لمن لا يمد يد المساعدة لذلك الحيوان الاعجم . وسيأتي لك بعد من الادلة والبرهانات ما تطمئن اليهِ نفسك وتعلم ان الشريعة لم تفرط في شيء وان كل ما يخطر ببالك من المعاني السامية والاخلاق الفاضلة التي ترفع النفوس الى مستوى العزة والجلال وتسمو بها الى مراتب الكمال وبها يتاح العطف والمحبة للناس جميعاً وينطبق عليها قولة علي لابنهِ الحسن « يا بنيّ أحب لغيرك ما تحب لنفسك واكره لهُ ما تكره لها » فهو مسطور في أسفار الشريعة بأجلى بيان بل أعطت دستوراً للشفقة بالحيوان لما

لهُ من شعور واحساس بالآلام والويلات فأوجبت الحدب عليهِ والشفقة بهِ . وها نحن أولاء نفتح لك أبواب تلك الكنوز لترى جواهرها ولآلئها المكنونة وتعلم انها أتت بما ليس وراءه زيادة لمستزيد وان كل الصيد في جوف الفرا [١] وان المسلمين هم المقصرون في عرض تلك الجواهر على النظارة [٢] وانهم ان فعلوا ذلك بهرهم سناها وراقهم زبرجها [٣] وزخرفها وعلموا ان تلك التحف الثمينة لم يحسن أهلها استعمالها فتراكمت عليها الاصداء فحجبت جمالها عن أعين الناظرين حتى أصبحت في حاجة الى من يعيد اليها رواءها [٤] ويعيدها سيرتها الاولى . ويبرز محاسنها ويعرضها على الجماهير وهي تلبس أثوابها القشب [٥] وتختال في معارضها [٦] من أرباب المذاهب والنحل المختلفة في الشرق والغرب وعندئذٍ تظهر تلك السجاحة [٧] في التشريع ويعلم الناس مقدار ما لاحظتهُ الشريعة الاسلامية من الشفقة والرحمة بالحيوان بله [٨] الانسان

روى البخاري عن أبي هريرة ان رسول الله (صلعم) قال بينا رجل يمشي فاشتد عليهِ العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فاذا هو بكلب يلهث ويأكل الثرى من العطش فقال لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ثم أمسكه بفيهِ ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله لهُ فغفر له. قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً قال في كل كبد رطبة أجر [٩] وجاء هذا المعنى في رواية أخرى لمحمد بن اسحاق عن الزهري بسنده المتصل الى سراقة بن مالك قال — سألت عن الضالة من الابل تغشى حياضي قد لطتها الابل فهل لي من أجر ان سقيتها فقال نعم في كل ذات كبد حرى أجر [١٠] كما جاء الحديث الاول بأسلوب آخر عن ابي هريرة ان النبي صلعم قال ان رجلاً رأى كلباً يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفه فجعل يغرف له بهِ حتى أرواه فشكر الله لهُ حتى أدخله الجنة . وهأنت ذا ترى ان هذا الحديث يكاد يسيل شفقة بالحيوان انساناً كان او غيره لما فيهِ من الجزاء العظيم على من أحسن اليهِ فانهُ (صلعم) اخبر بشكر ان الله تعالى لفاعلي الاحسان اليهِ وثنائه على من أسدى اليهِ خيراً ووعده بالجنة كفاء شفقتهِ ورحمته .وبالضد من هذا ورد الوعيد الشديد لمن قسا قلبه وغلظ كبده ولم يشفق بالحيوان .فقد روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله (صلعم) قال — عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار قال . . فقال (والله أعلم) لا هي اطعمتها ولا سقيتها حين حبستها ولا هي ارسلتها

(١) مثل يضرب لمن يفضل على اقرانه والفرا الحمار الوحشي وجمعه افراء (٢) المتفرجين (٣) الزينة (٤) بهجتها (٥) الجديدة (٦) جمع معرض كمنبذ ثوب تلبسه العروس ليلة الزفاف (٧) السهولة في التشريع (٨) دع واترك (٩) الثرى التراب الندي ولهث الكلب أخرج لسانه من العطش والحر واللهات العطش ورق كصلد وشكر الله له اي قبل عمله . وقول وان لنا في البهائم أجراً اي في سقيها او الاحسان اليها . ورطبة اي برطوبة الحياة (١٠) الضالة هي التي تترك عطفها وتذهب الى جهة أخرى . ولاط الحوض بدره بناه بالحجارة حتى لا يجف ماؤه .

فأكلت من خشاش الارض [11] . اخبر عليه السلام بوحي من ربه بحلول العقوبة بامرأة عذبت قطتها فحبستها الى ان ماتت جوعاً وعطشاً ولم تطعمها من فضلات طعامها او تتركها حتى تطعم من فضل ربها فدخلت بسبب ذلك النار وما اشدها عظة وابلغها نكالاً لمن لا يرعوي ويزدجر من الدهماء [12]

والسوقة الذين يحملون الحيوان مالا يطيق او ينهالون عليه ضرباً وكدماً [13] ولكماً لغير سبب يفهمهُ الحيوان حتى يتقي امثاله فما هي الا الغلظة والفظاظة التي لا تجد لها ما يبررها لدى العقلاء ومثل هذا ما تراه من تركهم الحيوان يسيل من جرحه الدم او يتقيح [14] وهو يألم مما به ثم هو لا يجد له رحيماً منهم بل هم يسومونهُ سوء العذاب فيحملونهُ ثقيل الاحمال فوق جرحه الناغر او يجعلونهُ يدور بالساقية او الطاحونة او نحوها من الاعمال الشاقة التي تصعب على السليم فضلاً عن المريض وقد حكى الغزالي في كتابه (احياء العلوم) ان النبي (صلعم) كان له ديك فرض فكان يقوم بتمريضه بيده الشريفة ويعني بشأنه. وحكي ايضاً انهُ (صلعم) اكل يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فمرّت به شاة فأشار لها بالنوى فجعلت تأكل من كفته اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة. وروى الدارقطني والحاكم وأبو نعيم من حديث عائشة أن النبي (صلعم) كان يصغي [15] الى الهرة الاناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها [16] . وقالت عائشة رضي الله عنها ما ضرب رسول الله (صلعم) شيئاً قط آدمياً او غيره ضرباً مؤذياً الا ان يجاهد في سبيل الله فيضرب . فقد قتل في وقعة أحد ابي بن خلف وما قتل بيده أحداً سواه وما ضرب خادماً ولا امرأة وما أجل تلك الاسوة لاتباعه المؤمنين الذين يهتدون بهديه ويقتدون به في عمل . وان تعجب فعجب ان ترى الشريعة طلبت الينا الرأفة بالحيوان عند ذبحه كما طلبتها لهُ حال حياته فأمرت بذبحه بحد غير مثلوم ليكون الذبح سريعاً والشعور بالألم في مدى قصير فقال عليه السلام : اذا قتلتم فأحسنوا القتلة . وبينت السنة طريق الذبح الشرعية حتى نقوم بأدائها على أكمل وجه فقال عليه السلام: ما أنهر [17] الدم وذكر اسم الله فكل ليس السن والظفر وسأخبركم عنه. اما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة . فأبان (صلعم) ان كل آلة تسيل الدم يصح بها الذبح قصباً [18] كانت او مردة [19] اوحديداً ما خلا السن والظفر. والحكمة في ذلك واضحة فأن السن تجرح ولا تقطع فتزهق الروح ببطء من غير ان تستيقن من الزكاة الشرعية التي لا تكون الا بقطع الحلقوم [20]

---

(١١) في هرة بسبب هرة وخشاش الارض حشراتها (١٢) العامة (١٣) الضرب على الوجه مع بسط الكف ومع قبضها لكم (١٤) تقيح الجرح صارت فيه مدة او سال قيحه (١٥) يميل (١٦) بما بقي بعد شربها (١٧) أسال (١٨) كل نبات أعوج الساق (١٩) حجر أبيض كالسكين (٢٠) مجرى النفس

والمريء [٢١] والودجين [٢٢] كذلك الظفر يدمي فتزهق الروح خنقاً وتعذيباً : وندب احداد الشفرة قبل اجتماع الذبيح كما كره تعذيب الحيوان بلا داع اليه لقطع الرأس والسلخ قبل ان يسكن اضطرابه . ومن اجل هذا حرم اكل الاصناف الآتية لما فيها من الضرر بآكلها والغلظة والقسوة بالحيوان او اشراك المسلم غير ربه في افعاله وتعظيم سواه في اعماله وقد ارشدت الى ذلك الآية الكريمة «حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل [٢٣] لغير الله به والمنخنقة [٢٤] والموقوذة [٢٥] والمتردية [٢٦] والنطيحة [٢٧] وما أكل السبع [٢٨] الاّ ما ذكيتم [٢٩] وما ذبح على النصب [٣٠] وان تستقسموا بالازلام [٣١] ذلكم فسق [٣٢]» . وقد راعى الشارع الحكيم في تحريم ما ذكر المصالح والحكم التي تترتب على تركها والاضرار التي تتولد من فعلها وان السر في كل منها الجلي واضح . اما الميتة فالضرر في اكلها يؤيده الطب وترشد اليه التجربة فأن الحيوان المريض اذا مات يكون مليئاً بالجراثيم والادواء التي كانت السبب في هلاكه فاذا اكل منهُ الانسان أُصيب بأمراض قتالة . وكثيراً ما رأينا وسمعنا عن حوادث في الريف والقرى ذبح فيها ناس حيواناً مريضاً واكلوه فمرضوا وماتوا من ادوائهم او اسعفوا بالعلاج حتى شفوا بعد امد طويل . ولهذا السبب عينه حرّم الدم المسفوح شرباً واكلاً من قبل . ان كثيراً من الحيوان حتى الصحيح منهُ قد يكون في دمه بعض جراثيم قتالة ولأمر ما طلب الينا الطب الاّ نشرب اللبن الاّ بعد غليه خوفاً من وجود جراثيم ضارة في الحيوان الذي حلب لبنه . وانا لنجتزىء بهذا وندع القول لحضرات الاطباء ليقولوا كلتهم ويدلوا برأيهم الشافي في تلك المسألة الطبية . كذلك يقول الطب ان في الخنازير ديداناً وجراثيم لا تموت بالغلي المعتاد بل تبقى حية بعد ذلك . ومن المعروف ان العرب وغيرهم من سكان البلاد الحارة يأكلون اللحم شيئاً على النار أو على الرضف [٣٣] تحت اشعة الشمس وبهذه الوسيلة الهينة في الانضاج لا تقتل الجراثيم وكذلك المنخنقة تبقى دماؤها فيها متجمدة في عروقها وكثيراً ما تكون ملأى بالجراثيم والامراض ومثلها الموقوذة فان دماءها تبقى مكتنزة في عروقها وربما كانت حافلة بشتى الجراثيم وأصناف الادواء وكذلك المتردية والنطيحة فكل اولئك تبقى دماؤها فيها ولا تخرج من اجسادها وقد عرفت ما في ذلك من اخطار وكذلك ما اكل منه السبع والمراد به الحيوان الضاري كالذئب والضبع والثعلب ونحوها اذ ربما تكون مصابة ببعض الامراض فالاكل من فضلاتها يؤذي ويولد في الجسم امراضاً من

(٢١) مجرى الطعام (٢٢) مجرى الدم (٢٣) رفع الصوت لغير الله (٢٤) التي تموت بالخنق (٢٥) ما ضربت بخشب او بحجر (٢٦) التي تردت من علو (٢٧) التي نطحتها أخرى فماتت (٢٨) الحيوان الضاري (٢٩) ذبحتم (٣٠) حجارة عند الكعبة معدة للذبيح عليها والتشريح (٣١) جمع زلم وهو القدح والاستفهام بها طلب معرفة ما لهم قسم بوساطتها (٣٢) خروج عن حدود الدين وقواعده (٣٣) الحجارة المحماة

جنس ما في ذلكم السبع الآكل الاّ اذا ادركنا الحيوان المأكول وفيه بقية من الحياة بها يضطرب عند الذبح ، يخرج منه بعض الدم وعندئذ يخف اضطرابه بقدر المستطاع . اما اذا ذبح على النصب ففي ذبحه على تلك الشاكلة اشراك من المسلم لغير ربه في اعماله وفيه كفران بنعمة الله وتعظيم للأصنام والاوثان ورجوع الى الجاهلية وكذلك ما استقسم بالأزلام فقد كان من عادتهم انهم اذا قصدوا عملاً كغزو او سفر او تجارة او أمر من عظائم الامور ضربوا بثلاثة أقداح مكتوب على احداها امرني ربي . ومكتوب على الثاني نهاني ربي . والثالث غفل [٣٤] فان خرج الآمر مضوا في أعمالهم وان خرج الناهي اجتنبوا العمل وان خرج الغفل أجالوها [٣٥] مرة أخرى . وفي هذا فسق وخروج على الدين ودخول في معرفة علم الغيب وافتراء على الله بقولهم أمرني ونهاني او اشراك بالله ان أريد بالآمر الصنم

فقد اتضح لك مما سلف ان بعضاً من تلك المحرمات انما حرم خوف الضرر وبعضاً حرم لما فيه من الشرك بالله والرجوع الى نزعات الجاهلية والوثنية . وقصارى القول ان محمد بن عبد الله وضع منذ نيف وثلاثة عشر قرناً قوانين للرفق بالحيوان وأتى موادها كاحدث القوانين لتلك الجماعات واذا نحن استخلصنا ذلك من بطون الشريعة ونصوصها يمكن ان نضعها كما يلي : —

١ — تؤسس الشريعة الاسلامية قانوناً للرفق بالحيوان للمسلمين كافة أسودهم وأحمرهم على اختلاف اقليمهم وبلدانهم

٢ — على كل مسلم ان يرفق بالحيوان ويساعده في مطعمه ومشربه في صحته ومرضه فلا يحمله فوق طاقته ولا يضربهُ ضرباً مبرحاً ويداويه اذا مرض بجميع وسائل العلاج حتى يبرأ

٣ — على كل مسلم ان يرفق بالحيوان عند ذبحه فيذبحه بسلاح ماض بتار حتى تزهق روحه بسرعة ولا يطول تعذيبه

٤ — من رفق بالحيوان حيًّا كان او ميتاً كان له الاجر الجزيل على عمله والثواب العظيم عند ربهِ فيدخله فردوس جنانه

٥ — من آذى حيواناً بضربهِ ضرباً مبرحاً او حملهُ ما لا يطيق او حبس عنهُ الطعام كان عقابه عند ربهِ ناراً سعيراً وعذاباً أليماً

٦ — على كل مسلم حراسة هذا القانون وتنفيذه في خاصة نفسه ونصيحة غيره من المسلمين بتنفيذه ولهُ عند ربهِ كفاء ذلك أجر المسلم العامل وهو رضوان ربهِ ورضوان من الله اكبر وذلك هو الفوز العظيم

---

(٣٤) لا كتابة عليه (٣٥) حركوها

كتابان من مصر

يرجع تاريخهما الى القرون الوسطى

مخطوطتان ثمينتان

احداها في استنبول والاخرى في رومة

من ذا الذي كان يخطر بباله أن الامام الغزالي حجة الاسلام والفيلسوف الشهير الذي توفي سنة ١١١١ ميلادية (٥٠٥ هجرية)، سيلقي نوراً أمام علماء النصرانية في القرن العشرين على تاريخ الترجمة العربية للكتاب المقدس!

على ان هذا هو الذي وقع فعلاً. ففي المكتبة التركية تحت قبة أيا صوفيا في استنبول، يرى الناظر مقالتين مخطوطتين احتوتا بعض آثار الامام العلامة الغزالي التي لم تنشر بعد: احداها بعنوان «الرد الجميل لالهيات عيسى بصريح الانجيل». ومن الغريب حقاً أن يبقى هذا الاثر العالم من اجل العلماء، ثماني مائة سنة دون ان ينشر على الملأ! على أننا قد علمنا مع السرور أن طبعة منهُ قد أعدت الآن للنشر في باريس في سلسلة نفيسة للدراسات العليا بجامعة السوربون. ومع شكرنا الجامعة السوربون هذه الخدمة الجليلة للادب العربي، كنا نود ان يصدر هذا الكتاب عن القاهرة، حيث كتبت هذه المخطوطة — المحفوظة الآن في استنبول — في سنة ١٢٧٣ ميلادية (٦٦٧ هجرية). وذلك لان هذه المخطوطة لم تكتب في القاهرة فقط، بل هي تتصل اتصالاً وثيقاً بزيارة الامام لمدينة الاسكندرية، كما سترى، ومن هنا شأنها الخاص لدى العلماء المصريين، من نصارى ومسلمين. ولقد رأى العلماء والباحثون، في تاريخ الكتاب المقدس باللغة العربية، انفسهم امام لغز يستوقف العناية حقاً. فان الامام الغزالي رضي الله عنهُ اقتبس في كتابه «احياء علوم الدين» اقوالاً كثيرة منسوبة الى عيسى بن مريم. وهذه قد جمعها ونشرها المستشرق الأندلسي العظيم «أسين بلثيوس Asin Palacios»، وقد ثبت أنها جميعاً، ما عدا قولين منها، ليست من الانجيل، وهي شديدة النزعة التعبدية التصوفية، ولعلها مستقاة من بعض النساك في بلدان الشرق الادنى. ولم يعثر العلماء حتى اليوم على الكتاب أو الكتب التي نقل عنها الامام هذه الاقوال، ولكنهُ يبدو في جلاء ان الكتاب الذي نقل عنهُ لم يكن العهد الجديد

والآن نجيء الى مثار الدهشة. فان السيد ماسينيون، الاستاذ بكلية فرنسا «كوليج دە فرانس» كان اول من وجّه الانظار الى ان مقالة الغزالي الخطية المحفوظة في استنبول حافلة

مقتبسات مأخوذة عن الترجمة العربية للانجيل ، ولن يمكن ان يقتبسها الكاتب الاَّ اذا كانت أمامه نسخة من هذه الترجمة . فما مصدر هذه المعرفة الجديدة لاقوال السيد المسيح ؟ وكيف ومتى اطلع إمامنا العلاَّمة على الانجيل الكريم ؟ يذهب الاستاذ «ماسينيون» الى ان هذه المعرفة الجديدة قد تهيأت للامام العلاَّمة في غضون زيارته للاسكندرية بعد اعتزاله في بيت المقدس حوالي سنة ١١٠١ م (٤٩٥ هجرية) ومما يؤيد هذا الرأي ان الغزالي اقتبس عبارة من الانجيل القبطي في اللهجة « البحيرية » ومن المستبعد جدًّا ان يتهيأ لهُ هذا في غير مصر

ورغبةً في استقصاء هذا البحث الشائق كان من المتعين ان أتابع البحث والدرس في مقتبسات الغزالي المنقولة عن الانجيل لعلي أتبين الترجمة التي أخذت عنها . ذلك لان ترجمات الانجيل الى اللغة العربية جرت في بلدان شتى نقلاً عن النسخ اليونانية والسريانية والقبطية . وفي لغة خصيبة بالالفاظ كاللغة العربية، كان طبيعيًّا ان تتفاوت هذه الترجمات في اللفظ ، وان اتفقت كلها في المعنى

وقد أتيحت الفرصة لكاتبة هذه السطور لدرس مخطوطة الغزالي المحفوظة في مكتبة استانبول ، رغبةً في العثور على حل لهذا اللغز والوقوف على مصدر مقتبسات الانجيل فيها

توفى الامام الغزالي سنة ١١١١م فلا بد ان يكون قد اقتبس عن ترجمة قبل هذا التاريخ . والمعلوم لدينا ان ترجمات الانجيل الاولى الى العربية قد نقلت عن اليونانية او السريانية، فراحت الكاتبة تقابل مقتبسات الغزالي بنماذج من الترجمات الاولى المدخرة مخطوطاتها في مكاتب رومية وغيرها من الجامعات الاوربية المختلفة او في دير جبل سيناء . ولكن واحدة منها لم تتفق مع الفاظ الغزالي لا في الترجمات المنقولة عن اليونانية ولا في الترجمات المأخوذة عن السريانية

أفلا يكون الامام قد اقتبس عن ترجمة عربية منقولة عن اللغة القبطية ؟ ان في اثبات هذا الرأي لذة وفائدة ، وذلك لانهُ يهيئ لنا الدليل على ان الامام الغزالي صنف كتابه في مصر ، ثم يلقي نوراً على تاريخ ترجمة الكتاب المقدس في هذه البلاد . وان استطعنا العثور على الترجمة العربية المنقولة عن القبطية ، التي تتفق في الفاظها مع مقتبسات الغزالي (وهو اقتبس خمساً وستين آية من الانجيل وحده) ، فبديهي ان تكون هذه الترجمة قد تمت قبل سنة ١١١١م وهي السنة التي توفى فيها الامام . نقول ان استطعنا هذا ، كان لنا بمنزلة فتح جديد في التاريخ . فان اقدم المخطوطات العربية المنقولة عن القبطية، المعروفة لنا ، يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر . ويكون فيلسوفنا المسلم قد أضاف الى تاريخ ترجمة الكتاب المقدس حقيقة تاريخية هامة . ومن محاسن الصدف ان أدت بنا خاتمة البحث والاستقصاء الى العثور على هذه المخطوطة القديمة واثبات هذا الرأي الذي نذهب اليه ، فقد عثرنا في مكتبة الفاتيكان على مخطوطة من الانجيل الكريم بعامودين احدهما باللغة القبطية والآخر باللغة العربية وهذه المخطوطة هي الترجمة عينها التي اقتبس عنها الامام الغزالي اقواله

اذن يكون الامام الغزالي قد استقى معرفته بأقوال الانجيل من اقباط مصر . والمخطوطة

التي تحتوي هذه الآيات هي النسخة القبطية العربية المحفوظة في مكتبة الفاتيكان ، التي كتبت حوالي سنة ١٢٠٤ أو ١٢٠٥ ميلادية ، اي بعد انقضاء قرن من الزمن على التاريخ الذي اقتبس فيه الغزالي من هذه النسخة عينها . أفتكون هناك نسخة خطية اخرى مماثلة لها كتبت قبل هذا التاريخ ونقلت هذه عنها ؟ ان تاريخ المخطوطة الفاتيكانية التي نحن بصددها يجيء لنا الجواب على ذلك لانها تلمّح الى الخطر الذي كان يهدّد نسخ الانجيل في تلك الايام العاصفة

وانك لترى في هذه المخطوطة حاشيتين كتبتا في تاريخ متأخر بعد كتابة نصوصها . الاولى كتبت في كنيسة أبي سيفين التي ما زالت قائمة بمصر القديمة وفيها يسجل غبطة البطريرك القبطي غبريال ان المخطوطة مهداة لتكون وقفاً على دير القديس انطونيوس ، في صحراء العرب . ويأمر غبطة البطريرك الآباء والاخوة النازلين في الدير ان يذكروا الواهب في صلواتهم (وقد كان طبيباً ، هو الشيخ والشماس ميخائيل). ثم ينهي البطريرك بتاتاً اخذ الكتاب من كنيسة الدير . فيقول « إنهُ ليس كسائر الكتب » التي يجوز حملها الى البرج او إخفاؤها (ولعله يقصد بهذا الاغلاق عليها في « خزانة ») بل يجب ان يكون دائماً في الكنيسة مع الكتب الاخرى المعدة للعبادة في أيام الآحاد والاعياد ، يقرأونهُ صباحاً ومساءً . فان أراد أحد الرهبان ان يأخذهُ بصفة مؤقتة الى خلوتهِ للدرس او البحث ، فله ان يفعل ذلك على ان يعيده الى الكنيسة

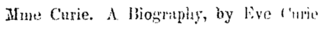
ويخيل الينا ان تلك المخطوطة كانت تعد ثمينة جدًّا ، وان الرهبان قد حرصوا عليها كل الحرص في كنيستهم وراء اسوار موطنهم الصحراوي، الذي كان اشبه بقلعة ضد غارات اعراب البادية

ولكن الحاشية الثانية تبين انه حتى في تلك القلعة لم يكن الكتاب الثمين بمأمن . فان هذه الحاشية قد اضيفت على الكتاب الاصلي بعد قرنين ونصف من تاريخ الحاشية الاولى (في سنة ١٥٠٦م) بيد البطريرك القبطي في ذلك الزمن — واسمه الانبا يوحنا — ويسجل فيها حل قيود الوقف التي خصّت الكتاب بكنيسة القديس انطونيوس ، وذلك لان الدير « كان قد خلا من ساكنيه » وكان أهل البادية قد نهبوه وحملوا بين اسلابهم مخطوطة الانجيل. ولكن اعيدت المخطوطة فيما بعد ، ولم يقل البطريرك في مذكرته ان كانت المخطوطة قد اعيدت في غارة مضادة قام بها بعض الانصار على العرب ، ام ان الناهبين اعادوها من تلقاء انفسهم لعدم حاجتهم اليها

كان هذا حظ المخطوطات القديمة في تعرضها للنهب والسلب . وانّا لنشكر الله أن أبقى لنا على مخطوطتين من مصر ، يرجع تاريخهما إلى القرن الثالث عشر ، إحداهما محفوظة في استنبول مع مقالة للإمام الغزالي والاخرى محفوظة في رومية مع المخطوطة السابقة لها وانا لواجدون في تينك المخطوطتين الثمينتين شعاعاً من النور يسطع على البحث القديم الذي يجد علماء النصرانية والاسلام لإزاحة الحجب عنهُ ، لما فيهِ من لذة وفائدة تاريخية « بنت الحارث »



مدام كوري





مختصر الكتاب الذي ألفته

ايف كوري

كريمة صاحبة الترجمة

نقلته عن مجلة « ريدرز ديجست » : الآنسة مينرفا عبيد

« لو أضفت أقل زخرفة الى قصة والدتي هذه ، التي تشبه الاساطير أتم الشبه ، لكان ذلك اجراماً مني » . هذا ما كتبته ايف كوري في مقدمة كتابها . ثم استطردت قائلة : « اني لم أذكر أي حادث لم أكن مستوثقة منه ، بل لم أخترع من عندي ولا لون فستان . فقد ذكرت الوقائع على حقيقتها وأعدت العبارات المقتبسة كما قيلت »

« واني لارجو ان يشعر القارىء بما كانت تكنّه ماري ، وهو يشأو عملها ، ألا وهو بناء خلقها المتين ، تلك الصفة النفسية التي لم يتمكن من تغيير طهارتها الفذة ، لا الصيت الذائع ولا المعارضة اللاذعة . تلك الصفة التي حملت اينشتين على القول : « ان ماري كوري هي الشخص الوحيد ، بين جميع المشهورين ، الذي لم تفسده شهرته »

مدام كوري

بقلم ايف كوري

قصة حياةٍ فذة

في خريف سنة ١٨٩١ انتظمت فتاة من المهاجرين البولنديين تدعى ماري سكلودفسكا في قسم دراسات العلوم بجامعة السوربون بباريس . وكثيراً ما قابل الشبان هذه الفتاة الحيية العنود المرتدية ملابس تدل على الفقر والخشونة وتساءلوا فيما بينهم « من هي » . الاَّ ان الجواب كان غامضاً : « هي أجنبية يصعب نطق اسمها ، تجلس دائماً في الصف الامامي في فصول علم الطبيعة » . وكانوا يتبعون قوامها الرشيق بنظراتهم ، ويتهامسون « ما أجمل شعرها ! » . وقد ظلَّ شعرها الاشقر ورأسها الصغير السلافي مدة طويلة كل ما يعرف بهِ طلبة السوربون ، زميلتهم الخجول

اما هي فكان اقل ما يسترعي التفاتها هؤلاء الشبان لان دراساتها العلمية استحوذت عليها فكانت تنكبّ على العمل بحرارة كحرارة المحموم ، حاسبة كل دقيقة لا تنفقها على التحصيل وقتاً ضائعاً

ولما لم يسمح لها حياؤها المتناهي بصداقة الفرنسيين لجأت الى الحي الذي سكنهُ مواطنوها وقدكان بذاته جزيرة بولندية مستقلة في وسط الحي اللاتيني بباريس وهناك عاشت عيشة بسيطة منعزلة جعلتها وقفاً على العمل . اما دخلها فكان عبارة عن اربعين « روبلاً » شهريًّا وكان يشمل ما اقتصدتهُ من عملها كمربية في بولندا وكذلك المبالغ اليسيرة التي ارسلها اليها والدها ، وكان معلم رياضة وطبيعة في بولندة . فمن هذا الراتب ، وهو ثلاثة فرنكات يوميًّا ، كانت توفي أجرة غرفتها وثمن اكلها ولبسها ونفقاتها بالجامعة

لم تشترك ماري عمداً في اي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية خارج برنامجها الدراسي حتى امتنعت عن مقابلة الاصدقاء . فعاشت عيشة تقشف سبارطية غريبة عن ميول البشر ، وصلت بها الى عدم الاعتراف بتأثرها بالبرد او الجوع . فكانت تهمل اشعال موقدها حتى لا تضطر الى شراء فحم كما كانت تكتب الارقام والمعادلات دون ان تلاحظ ان اصابعها متجمدة او ان كتفيها ترتعشان . بل لقد كانت الاسابيع تنقضي دون ان تأكل شيئاً غير الخبز والزبدة والشاي ، فاذا ما ارادت ان تنعم بوليمة اشترت بيضتين او قطعة من الشوكولاته او قليلاً من الفاكهة

ولكن سرعان ما اصيبت تلك الفتاة القوية التي تركت وارسو قبل اشهر قليلة بالانيميا ، فكثيراً ما كانت تشعر بالدوار حال قيامها من جانب طاولتها ثم لا تلبث ان تفقد وعيها قبل وصولها الى فراشها . فاذا ما استعادت رشدها وساءلت نفسها عما اصابها ظنَّت انها مريضة فاحتقرت مرضها شأن كل شيء يعترض عملها . الاّ انه لم يخطر ببالها حينئذٍ ان مرضها الوحيد هو افتقارها الى التغذية

بيير كوري

كانت ماري قد حذفت الحب والزواج من برنامج حياتها فاذ استولى عليها حبها للعلم بقيت متمسكة تمسكاً شديداً باستقلالها حتى بلغت السادسة والعشرين

ثم ظهر في الميدان بيير كوري ، وهو عالم فرنسي نابغة وقف روحه وحياته على البحوث العلمية وبقي غير متزوج الى سن الخامسة والثلاثين . كان طويل القامة ، ذا يدين طويلتين عصبيتي الاصابع ، ولحية كثة ، ووجه يعبر عن الذكاء النادر الممتاز

تقابلا اولاً عام ١٨٩٤ في المعمل وسرعان ما قرَّب بينهما تبادل الشعور وتشابه الميول . فلقد وجد بيير كوري في الآنسة سكلودفسكا الصموت شخصية تبعث على الدهشة . ما اغرب الحديث الى فتاة ساحرة بلغة الاصطلاحات العلمية والتراكيب المعقدة ... بل وما احلاه !

تأمل بيير في شعر ماري الاشقر وجبينها العريض المقوس ويديها المتأثرتين بأحماض المعمل فحيره ظرفها الخالي من اي ادعاء . فحاول بلطف وحزم ان يفوز بصداقة تلك الفتاة . وطلب اليها السماح له بزيارتها . فاستقبلته في غرفتها بود ولكن بكل تحفظ . فانقبض قلب بيير مما رآه حوله من دلائل الفقر المدقع ولكنه قدر في الوقت نفسه الانسجام التام بين خلقها ومسكنها . ففي غرفتها الخالية من الاثاث تقريباً وفي ملابسها المتناهية في البساطة وملامحها الغيورة العنيدة، ظهرت ماري اجمل منها في اي وقت آخر . فلم يخلبهُ فقط اخلاصها المتناهي لعملها بل وأيضاً شجاعتها ونبلها . فهذه الفتاة الرقيقة تحلت بأخلاق الرجل العظيم ومواهبه . وبعد اشهر قليلة طلب بيير كوري يد ماري ، فلم تقبل هذه الفتاة العنيدة فكرة الزواج الاَّ بعد مضي عشرة اشهر لانها رأت ان الزواج من فرنسي وترك بلادها المحبوبة المظلومة خيانة شائنة

***

قضى بيير وماري الايام الاولى من حياتهما معاً في التجول في منطقة «ايل دي فرانس» على عجلتين اشتراها بنقود قدمت اليهما هدية عند زواجهما . فتغذيا بالخبز والجبن والفاكهة واستراحا في فنادق لا يعرفانها ، صادفتهما في الطريق . وهكذا نعما بالوحدة اياماً وليالي طويلة لم ينفقا اثناءها الاَّ الطاقة التي تقتضيها العجلتان وقليلاً من الفرنكات بالفنادق القروية . اما

الشقة الصغيرة التي استوطناها اخيراً بشارع جلاسيير رقم ٢٤ فكانت مفتقرة الى جميع وسائل الراحة ، كما انهما رفضا قبول الاثاث الذي قدمه اليهما والد بيير لانهُ لم يكن لماري متسع من الوقت لتنظيفه . فلم تضم تلك الجدران العارية الاَّ بعض الكتب ومقعدين وطاولة من الخشب الابيض عليها رسائل في علم الطبيعة ومصباح يضاء بالغاز وباقة من الازهار . فلم يكن هناك بد لاجسر زائر من ان ينسحب عند ما يرى نفسه امام مقعدين لم يعدّ احدهما له

الاَّ ان ماري تقدمت تدريجيًّا في علم تدبير المنزل فاستنبطت بعض المأكولات التي لا تحتاج الى إعداد يذكر او التي يمكن تركها على النار مدة دون مراقبة حتى تنضج . فقبل خروجها الى عملها كانت تضبط حرارة الموقد ضبطاً علميًّا وتترك الطعام عليهِ لينضج ثم تعدو الى الدور الاسفل لمشاركة زوجها في المعمل وهناك بعد ربع ساعة تضبط حرارة النار المشتعلة وعليها مواد تختلف كل الاختلاف عن المواد التي تركتها في مطبخها

لم تختلف السنة الثانية من زواجهما عن السنة الاولى الاَّ بالنظر الى حالة ماري الصحية التي تأثرت بحملها . ومع ان مدام كوري كانت ترغب كثيراً في ان ترزق بطفل الاَّ انها تضجرت من مرضها وعجزها عن الوقوف في المعمل لمراقبة مغنطيسية الصلب

قد يظن البعض ان حالة ماري الصحية ألانت من حماسة بيير وحملتهُ على قضاء صيف هادىء معها . الاَّ ان الاثنين ، وكأنهما مجنونان في عدم تبصرهما ، قاما برحلة الى بريست على عجلتيهما في أثناء الشهر الثامن من شهور حملها ، فقطعا في رحلتهما مسافات بعيدة كالمعتاد . ولقد صرحت ماري بعد ذلك انها لم تشعر بتعب ما كما تملَّك من بيير شعور غامض بأن زوجه خارقة للطبيعة فلا تخضع للقوانين البشرية . الاَّ انهُ سرعان ما اضطرت الزوجة ان تقطع رحلتها ، على الرغم عن شعورها بان في ذلك اذلالاً لها ، وعادت الى باريس حيث وضعت ابنتها الاولى ايرين، تلك الطفلة الجميلة التي فازت بجائزة نوبل سنة ١٩٣٤ مع زوجها الاستاذ جوليو

لم يخطر ببال ماري موضوع الاختيار بين حياة البيت ومواصلة حياتها العلمية . فمع انها عنيت بأمور المنزل ، وشؤون كريمتها ، وإعداد الطعام ، الاَّ انها في الوقت نفسه واصلت عملها في معملها الحقير ، ذلك المعمل الذي توصلت فيهِ الى أعظم اكتشاف في العلم الحديث

اكتشاف الراديوم

في نهاية عام ١٨٩٧ اظهرت ميزانية اعمال ماري درجتين جامعيتين وزمالة ورسالة في مغنطيسية الفولاذ المسقى .وكان مرماها التالي هو نيل درجة الدكتوراه . وبينما كانت تفكر في موضوع تختص في بحثه استرعت انظرها نشرة حديثة للعالم الفرنسي هنري بيكرل . اما بيكرل فكان

قد اكتشف ان املاح الاورانيوم اطلقت اطلاقاً ذاتيًّا اشعة لم تعرف ماهيتها . فمركّب الاورانيوم متى وضع على لوحة للتصوير الضوئي يحيط بها ورق اسود يترك أثراً على اللوحة بعد اختراق ذلك الورق . فكانت هذه المشاهدة الاولى لتلك الظاهرة التي اسمتها ماري بعد ذلك بالنشاط الاشعاعي Radio-activity . الاَّ ان طبيعة الاشعاع وأصله بقيا سرًّا غامضاً

اخذ آل كوري باكتشاف بيكرل وتساءلا عن مصدر الطاقة المنبعثة من مركبات الاورانيوم في هيئة اشعاع ففتح لها هذا السؤال باباً واسعاً للبحث بل قفز بهما قفزة نحو مملكة مجهولة . الاَّ انهما واجها في الوقت نفسه صعوبة الفوز بمكان موافق للمضي في ابحاثهما فيه . وأخيراً اعطي لماري الحق بفضل مدير مدرسة الطبيعة التي كان بيير مدرّساً فيها ، في استعمال غرفة ارضية رطبة كانت تخزن فيها الماكنات المنبوذة

لم يكن المضي في البحث العلمي في هذا الجحر بالامر الهين . فالحالة الجوية فيه اضرَّت بالآلات الحساسة الدقيقة كما اضرَّت بصحة ماري . غير انها لم تعر هذا الامر اهتماماً ما فكلما شعرت ببرودة الجو انتقمت لنفسها منها بتدوين درجة البرد في جدولها !

وكلما زادت ماري تعمقاً في دراسة كنه اشعة الاورانيوم زادت اعتقاداً انها الاولى من نوعها . وبعد ان قامت بتلك المهمة الشاقة ، مهمة امتحان جميع الاجسام الكيمياوية وجدت ان مركباً من عنصر آخر هو عنصر الثوريوم اطلق اطلاقاً ذاتيًّا ايضاً اشعة تشبه الاشعة التي يطلقها الاورانيوم . هذا فضلاً عن ان النشاط الاشعاعي في كلتا الحالتين كان اقوى مما كان ينتظر متى روعي مقدار الاورانيوم او الثوريوم الذي في الجسم الذي اطلق ذلك الاشعاع

فما مصدر ذلك الاشعاع غير العادي ؟ لم يكن هناك الاَّ جواب واحد . لا بدَّ ان تحوي تلك المواد مقادير صغيرة من عنصر أقوى في نشاطه الاشعاعي من الاورانيوم والثوريوم . ولكن ما هو ذلك العنصر ؟ كانت ماري في اختباراتها قد امتحنت جميع العناصر المعروفة ولم تجد بينها ردًّا على سؤالها . فلا بدَّ للعالِم إذاً أن يجيب بتلك الجسارة الفذة : « إن تلك المواد تحوي عنصراً غير معروف للآن ، وهو يمتاز بهذا النشاط الاشعاعي العجيب »

عنصر جديد ! نظرية خلابة ! ولكن لا بدَّ من كشف القناع عن تلك المادة المجهولة حتى تتمكن ان تعلن وهي واثقة : « ها هي ذي »

وبعد أن تتبع بيير كوري باهتمام كبير تقدم زوجه السريع في تجاربها انضمَّ اليها لمساعدتها صادفاً عن بحوثه الخاصة . فتعاون الآن عقلان واربع أيدٍ في الكشف عن ذلك العنصر المجهول في تلك الغرفة الصغيرة الرطبة ، ثم دام هذا التعاون ثمانية أعوام كاملة ولم ينهه إلاَّ حادث أليم

بدأ بيير وماري بحثهما بقياس النشاط الاشعاعي لكل عنصر من العناصر الداخلة في مادة البتشبلند ،

وهو ركاز الاورانيوم فتوصلا الى أن هناك عنصرين لا عنصر واحد يتصف بالنشاط الاشعاعي، وفي شهر يوليو من عام ١٨٩٨ أعلنا اكتشاف أحد هذين العنصرين. وقد سمّتهُ ماري « بولونيوم » تيمناً باسم بلادها المحبوبة بولندة

وفي ديسمبر من عام ١٨٩٨ أعلن آل كوري اكتشاف العنصر الآخر الذي سمياهُ « الراديوم » وهو يتميز بأن نشاطه الاشعاعي عظيم للغاية

العبقرية في سقيفة

لم تتفق الصفات الخاصة بالراديوم مع كثير من النظريات العلمية التي قبلها العلماء مدى مئات السنين . فلذلك كان موقف علماء الطبيعة نحو الاكتشاف الجديد موصوفاً بالتحفظ الشديد علاوة على أن علماء الكيمياء كانوا أكثر تحفظاً منهم لان الكيمياوي بطبيعته لا يسلّم بوجود عنصر جديد إلاَّ بعد أن يراه ويختبره ويمتحن تأثير الحوامض فيهِ ويقرر وزنه الذري

اما الراديوم فلم يره احد ولم يقرر وزنه الذري بعد . فلكي يبرهن آل كوري على وجود هذين العنصرين ، البولونيوم والراديوم ، تعين عليهما العمل المتواصل مدة اربع سنوات . ومع انهما كانا قد توصلا الى طريقة فصل المعادن بعضها عن بعض الاَّ ان مهمّتهما الجديدة اقتضت الاشتغال بمقادير وافرة من المواد الخام

كان ركاز الاورانيوم الذي يحوي عنصري البولونيوم والراديوم يعالج في مناجم سنت جواشمستال ببوهيميا لتستخرج منه املاح الاورانيوم المستعملة في عمل الزجاج. وقد كان هذا الركاز غالي الثمن ، الاّ ان آل كوري توصلا ببحثهما الى ان استخراج الاورانيوم منهُ يترك عنصري البولونيوم والراديوم كفضلات لا قيمة لها دون ان تتأثر البتة بهذه العملية . فلمَ لا يستخدمان هذه الفضلات التي لا قيمة لها ؟

تحصلا من الحكومة النمساوية على طن من فضلات ركاز الاورانيوم وبدأ عملهما في سقيفة مهجورة بجوار الغرفة التي اجرت فيها ماري تجاربها الاولى . اما هذه السقيفة الجديدة فكانت تستخدمها كلية الطب قديماً حجرة للتشريح الاَّ انها عادت لا تصلح حتى لحفظ الجثث . اذ كانت عارية من البلاط وخالية من الاثاث لولا بضع طاولات مطبخ قديمة وسبورة وموقد غاز قديم من الحديد الصب

كانت هذه السقيفة خانقة في الصيف مثل المستنبتات الحافظة للحرارة ، كما انها كانت في الشتاء مثل المنطقة الثلجية في بردها رغماً عن اشعال الموقد بها . الاَّ انهما لم يستعملاها كثيراً بل

أجريا أغلب تجاربهما في الخلاء لافتقارها الى المداخن الصارفة للغازات الخانقة

وقد كتبت مدام كوري بعد ذلك قائلة : « ان اسعد سني حياتنا وأفضلها هي تلك التي قضيناها في هذه السقيفة التعسة حيث وقفنا كل وقتنا على العمل . فكثيراً ما قضيت اياماً كاملة وأنا احرك بعض المواد ، وهي تغلي ، بهراوة من الحديد يقرب وزنها من وزني . فاذا ما اتى المساء شعرت اني منهوكة القوى تماماً »

وعلى هذا المنوال استمرّ الاستاذ كوري وقرينته في عملهما من عام ١٨٩٨ الى عام ١٩٠٢ وقد كانت ماري وهي تعمل في صحن تلك الدار ، بملابسها الرثّة الملوثة بالاحماض ، وشعرها المنثور تداعبهُ الريح ، يحوطها الدخان الكثيف الخانق ، كانت ماري وحدها عبارة عن معمل كامل

وقد كتبت مرة تقول : «وصل بي الامر ان اشتغلت بمقدار من المواد يبلغ وزنه عشرين كيلو جراماً مما اضطرني الى ملء الحجرة بأوعية السوائل والرواسب . ولقد كان حمل تلك الاوعية وصب السوائل منها وتحريك المواد المغلاة ساعات طويلة ، عملاً مضنياً حقًّا »

وامتدت ايام العمل اشهراً وانعقدت الاشهر سنوات ، غير ان ذلك لم يثبط من همة بيير وماري وكانا أحياناً يتركان اجهزتهما مدى لحظات قليلة فينتقلان في حديثهما عن الراديوم المحبوب من البحث في ناحيته الفائقة الى التحدُّث في الامور الصبيانية المتعلقة به

ففي احد الايام سألت ماري بحماسة وتشوق تقربان من حماسة الطفل الموعود بلعبة جديدة : « يا ترى ما هو شكله ! وبأي هيئة تتصوره يا بيير؟ »

فأجاب العالم بلطف : « لا أدري ولكني اتمنى ان يكون لونه جميلاً » . واذ استمرت ماري في معالجة الطن من ركاز الاورانيوم الذي ارسل اليها من سنت جواشمستال امتلأت الطاولات القديمة في حجرتها بالمواد الحاوية لمقدار من الراديوم اوفر مما حصلت عليه قبلاً . وقد قاربت الدور النهائي ، دور تنقية السوائل ذات النشاط الاشعاعي القوي ، حين عاقها عن العمل افتقارها الى الاجهزة اللازمة والاستعداد الكافي . ففي هذه السقيفة المعرضة للرياح اختلطت ذرات الحديد والفحم الطائرة بالمواد المنقاة وهي المواد التي اقتضت تنقيتها عناءً كبيراً فانقبض قلب ماري من تلك الحوادث اليومية التافهة التي استنفدت كثيراً من وقتها ومجهودها

وهنت عزيمة بيير امام هذه العقبات المستمرة وفكر في اعتزال العمل لوقت ما لعلّ الايام تهيئ لهما أحوالاً اكثر موافقة للبحث العلمي

الاّ انهُ في تفكيره هذا لم يحسب لاخلاق ماري حساباً . فلقد ارادت ماري فصل الراديوم عن المواد الاخرى وانها لفاعلة ذلك، مستخفة بالمتاعب والمشاقّ غير آبهة لما يعوزها من المعارف لاتمام عملها ، تلك الصعوبة التي زادت مهمتها تعقيداً . فما لا يخفى انها كانت عالمة حديثة

العهد بالاساليب العلمية ولذا كثيراً ما صادفتها ظواهر طبيعية وعمليات حسابية لم تعرف عنها الاَّ القليل فاضطرت الى دراستها دراسة عاجلة حتى تتمكن من مجابهتها

وفي عام ١٩٠٢ بعد انقضاءِ خمسة واربعين شهراً على اليوم الذي اعلن فيهِ آل كوري فرض وجود عنصر الراديوم تمكنت ماري من احراز النصر بعزيمة واصرار يفوقان صفات البشر. نعم فلقد توصلت الى اعداد ديسجرام من الراديوم النقي كما تمكنت من تقرير وزنهِ الذري فما كان للكيمياويين مفر من ان يطأطئوا الرأس امام الوقائع ويعترفوا بوجود الراديوم

حياة شاقة

ومما يؤسف لهُ انهُ كان امام آل كوري نضال غير نضالهما مع الطبيعة في معملها . فلقد كان مرتب بيير بمدرسة علم الطبيعة خمسمائة فرنك شهريًّا فقط ولذلك اضطربت الميزانية البيتية حين اضطرا الى استخدام مربية بعد مولد أيرين فكان لا بد من البحث عن موارد اخرى

وفي سنة ١٨٩٨ خلا كرسي أستاذ الكيمياء الطبيعية بجامعة السوربون فقرر بيير ان يطلبهُ . فعلاوة على ان مرتبه كان عشرة آلاف فرنك كانت ساعات التدريس المخصصة لهُ أقل من ساعات التدريس بالمدرسة . إلاَّ أن طلبهُ رفض ، ولم يتمكن من الوصول الى مرتبة أستاذ إلاَّ في سنة ١٩٠٤ بعد ان اعترف العالم كله بمكانته العلمية العالية. أما حينئذٍ فقد اضطر الى قبول منصب أقل درجة من المنصب الشاغر بالسوربون ، حيث كانت الادارة راضية كل الرضى ان تعهد اليهِ بتعليم بعض العلوم ذات المقام الثانوي مما يستغرق كلَّ يومهِ . وفي الوقت نفسهِ حصلت ماري على منصب مدرسة في مدرسة للبنات بالقرب من فرساي

توصل الآن آل كوري الى موازنة ميزانيتها إلاَّ أنهما أثقلا كاهلهما بالعمل المضني في الوقت الذي احتاجا فيهِ الى كل قواها لمواصلة تجاربهما في النشاط الاشعاعي . فحاول اصدقاء بيير جهدهم ان يقربوه من ذلك المقام الذي يصعب الوصول اليهِ ألا وهو منصب أستاذ . فخطر لهم ان عضويته في أكاديمية العلوم لا بدَّ ان ترفع من شأنهِ ولذلك اقترحوا عليهِ أن يرشح نفسه لها في سنة ١٩٠٢ . تردد أولاً ثم سلَّم غير راض ، لانهُ كان يثقل على طبعهِ القيام بالزيارات المعتادة لاعضاء الاكاديمية ، والكلام عما أحرزه من شرف ، وما قام بهِ من جلائل الاعمال ، بل أنهُ وجد انهُ يتعذر عليهِ بتاتاً القيام بهذه المهمة . فنتج عن ذلك انهُ قام بالزيارات ولكنهُ امتدح منافسه المسيو أماجا . . . . فاختار أعضاء الاكاديمية المسيو أماجا

بعد مدة قصيرة رفض بيير قبول وسام اللجيون دونور لانهُ ظهر لهُ أنهمن بواعث السخرية أن يقدم الى عالم ، اوصدت أمامه أبواب العمل ، صليب مغشى بالميناء ومربوط بشريط أحمر من الحرير وذلك على « سبيل التشجيع »

ومضى آل كوري في التعليم بروح طيبة وبدون تذمر باذلين جهدهما في تأدية واجبهما . ولانهما كهما الشديد في عملهما بين تعليم واجراء تجارب علمية نسيا حاجتهما الى الطعام والنوم، بل تماديا في حماقتهما هذه حتى اساءا الى نفسهما والى صحتهما . فكثيراً ما كان يضطر بيير الى الاسراع الى فراشه من جراء ألم شديد في رجليه. اما ماري فتمكنت بصلابة اعصابها من المقاومة، ومع ذلك فقد افزع اصدقاءها شحوب وجهها وهزاله

وكذلك تقدم النشاط الاشعاعي ونما ، بينما كان يضني تدريجيًّا العالمين اللذين وهباه الحياة

قرار « لا قيمة له ! »

هذا الراديوم العجيب! عند ما حضّر كلوريداً ظهر مسحوقاً أبيض عاديًّا يشبه ملح الطعام تمام الشبه . الاَّ ان خواصه مدهشة حقًّا . فاشعاعه فاق في شدته غاية ما يمكن توقعه ، حتى كان اقوى من اشعاع الاورانيوم مليوني مرة فاخترقت أشعته أقسى المواد غير الشفافة ولم تحجبها الاَّ ستارة كثيفة من الرصاص

أما أحدث أعاجيبه وأعمقها أثراً فهي التمكن من الاستعانة بالراديوم في محاربة السرطان . وهكذا ثبت ان الراديوم نافع اي ان اكتشافه لم يقتصر في خطورته على الناحية التجريبية فقط بل تعداها الى انشاء صناعة جديدة

عندما عرفت قيمة الراديوم الطبية نشطت حركة في مختلف البلدان ، ولاسيما في بلجيكا واميركا، لاستغلال الركاز الغني بالنشاط الاشعاعي ، ولكن العلماء لم يتمكنوا من استخراج هذا «المعدن العجيب » منهُ لجهلهم سرّ العمليات الدقيقة اللازمة لذلك

شرح بيير هذه المسألة لزوجه في صباح احد ايام الآحاد عقب قراءته رسالة وصلتهُ من بعض ارباب الصناعات بالولايات المتحدة الاميركية الذين يريدون استخراج الراديوم ويطلبون منهُ تزويدهم بالمعلومات اللازمة

فقال لها بيير : « أمامنا طريقان يمكننا الاختيار بينهما . فأما أن نشرح لهم نتيجة بحثنا دون تحفظ ، بما في ذلك عملية تنقية الراديوم . . . وإما »

وهنا أشارت ماري اشارة ميكانيكية تدل على الموافقة وتمتمت : « نعم . طبعاً . » . ثم مضى بيير في حديثه :

« وأما ان نعتبر أنفسنا مالكي الراديوم او بعبارة أخرى « مخترعيه » ونسجل طريقة معالجة ركاز البتشبلند فنحتفظ لانفسنا بامتياز صناعة الراديوم في كل العالم »

تأملت ماري بضع ثوان ثم قالت : « هذا مستحيل لانهُ يتعارض والروح العلمية »

فانفرجت أسارير وجه بيير . ولكن لكي يريح ضميره استطرد الحديث في الموضوع مكرراً

وهو يضحك ضحكاً لطيفاً، مشيراً الى الامر الوحيد الذي عزَّت عليه تضحيته: « ويمكننا حينئذٍ ان نمتلك معملاً كامل المعدات ». أما نظرة ماري فلم تتغير لأنها ثبتت على رأيها وهي رفض الربح المادي

« إن علماء الطبيعة ينشرون دائماً بحوثهم كاملة. فاذا كان اكتشافنا له فائدة تجارية فهذا عارض يجب ألاَّ نستفيد منهُ وحيث أن الراديوم سيستخدم لمعالجة الامراض فيجب ألاَّ نستغلهُ »

لم تحاول ان تقنع زوجها لانها وثقت بانهُ ذكر أمر ملكية الاكتشاف من سبيل الاحتياط فقط. فالكلمات التي فاهت بها بثقة تامة ماكانت الاَّ لتعبر عن شعورهما كليهما، عن رأيهما الصادق في مكان العالِم في الحياة. ثم اضاف بيير وكأنهُ يقرر أمراً لا قيمة له:

« سأكتب هذه الليلة الى الخبراء الاميركيين وأزوّدهم بالمعلومات التي طلبوها مني »

وبعد ربع ساعة من هذا الحديث القصير في صباح الاحد قام بيير وماري بنزهة على عجلتيهما في الغابات، بعد ان اختارا الى الابد بين الفقر والغنى. وفي المساء رجعا منهوكين وأذرعهما ملأى بأوراق الحقول وأزهارها!

العدو

والآن بدأت مقدمة تلك القطعة الموسيقية الرائعة التي سرعان ما بلغت أوجها. ففي يونيو من سنة ١٩٠٣ دعا المعهد الملكي بلندن بيير لكي يحاضر به في موضوع الراديوم وتبع ذلك سيل من الدعوات لحضور الحفلات والولائم لان لندن بأسرها تاقت الى مشاهدة «والدي الراديوم»

تحمل آل كوري هذه الحفاوة مدة ايام قليلة بشيء من التململ ثم رجعا الى مسكنهما الصغير. ولكن الانكليز السكسونيين متصفون بالولاء لمن يعجبون به. ففي نوفمبر سنة ١٩٠٣ منحت الجمعية الملكية بلندن بيير وماري مدالية دافي وهي من أسمى أوسمتها

وكانت بلاد السويد التالية في تقدير فضلهما. ففي ١٠ دسمبر سنة ١٩٠٣ اعلنت اكاديمية العلوم بستوكهولم ان جائزة نوبل لعلم الكيمياء في تلك السنة قد قسمت مناصفة بين هنري بيكرل من ناحية ومدام كوري وزوجها من الناحية الاخرى لاكتشافهم النشاط الاشعاعي

كانت قيمة جائزة نوبل هذه سبعين الفاً من الفرنكات ولم يكن قبولها « يتعارض والروح العلمية » فكانت فرصة عظيمة الآن لانقاذ بيير من ساعات التدريس الطويلة ورعاية صحته. وحالما قبضا تلك النقود أغدقا الهدايا والقروض على اخي بيير وأخت ماري، والهبات للجمعيات العلمية والعطايا لبعض الطلبة البولانديين ولاحدى صديقات ماري منذ طفولتها. كما ان ماري جهزت حماماً حديثاً في بيتها الصغير وأثثت غرفة بسيطة به. ولكن لم يخطر ببالها قط ان تحتفي بتلك الفرصة بشراء قبعة جديدة. كما انها استمرت في التعليم مع انها اصرَّت على ان يعتزل بيير عمله بمدرسة الطبيعة

واذ ذاع صيتهما تكدَّست طاولتهما بأكوام الرسائل البرقية، ونشرت عنهما آلاف

المقالات بالجرائد ووصلتهما مئات الطلبات للحصول على امضائهما او صورتهما ، وكثير من الخطابات من المخترعين ، والاشعار في مدح الراديوم . حتى وصل الامر بأحد الاميركيين ان طلب السماح له بتسمية فرساً للسباق باسم ماري . ولكن سوء تفاهم مستديم فصل بين آل كوري وبين الجمهور الذي اعارهما التفاته الآن . فلقد وصلا الى لحظة مؤلمة جداً في حياتهما لانهما كانا بحاجة الى التفرغ للعمل ليتما رسالتهما التي لم تنته بعد ، حين لم يحسب الصيت اي حساب لذلك . لان الصيت يطغى على العظماء بحمله الثقيل ويحاول ان يعيق تقدمهم غير عابىء بالمستقبل الذي يجاهدون نحوه

فما انالتهُ جائزة نوبل للنشاط الاشعاعي من الصيت الذائع حمل الملايين على حساب هذا الاكتشاف الذي لم يتجاوز بعد دور الطفولة ضمن الانتصارات المحققة . بل ان الكثيرين شغلوا انفسهم بالتدخل في حياة هذين الزوجين الخاصة التي تقرب من الاساطير فسلبوهما الكنز الوحيد الذي اعتزا بالاحتفاظ به ، ألا وهو التأمل والهدوء

ولقد علقت ماري على ذلك ، بما كتبتهُ في ربيع سنة ١٩٠٤ :

« . . . ضوضاء مستمرة . فالقوم يلهوننا عن عملنا ولذا اعتزمت على التسلّح بالشجاعة ورفض مقابلة الزائرين ولكنهم يصرون على ازعاجنا . لقد أفسد علينا الصيت حياة العمل الهادئة التي كنا نحياها » . ولقد تألمت ماري بنوع خاص من الدور الذي انتظرها العالم أن تمثلهُ لان طبيعتها لم تتفق وتلك المظاهر التي تقتضيها الشهرة من الاندماج في الحياة الاجتماعية ، والصداقة المتكلفة ، والقسوة في المعاملة أحياناً وادعاء التواضع أحياناً أخرى

فالحادثة التالية ، من آلاف الحوادث مثيلاتها ، تبين جليًّا موقف آل كوري تجاه حماسة الجمهور نحوهما . فبينما كانا يتناولان الطعام مرة بقصر الاليزيه مع الرئيس لوبيه وقرينته سألت مدام لوبيه ماري قائلةً : «هل ترغبين في ان أقدمك الى ملك اليونان ؟ »

فأجابت ماري بكل بساطة وأدب واخلاص : « لا أرى جدوى من ذلك »

ولكنها لاحظت حينئذٍ دهشة السيدة التي تكلمها فامتقع وجهها وقالت مستدركةً كلامها :

« ولكن . . . ولكن . . . بالطبع أعمل ما يسرك . اي شيء يسرك »

وقد كان يجب على الصيت الذائع الذي أحل بآل كوري كثيراً من النكبات أن يأتيهما بشيء من البركات مثل مقام الاستاذية ، ومعمل لائق ، وفريق من العلماء للتعاون معهما . ولكن متى تحل هذه النعم يا ترى ؟

الاثنان معاً

لما حلت نهاية حمل ماري الثاني في سنة ١٩٠٤ كانت منهوكة القوى لطول المدة التي لازمت

فيها فراشها وهي في حالة تعب شديد وأخيراً في ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٤ ولدت طفلة سمينة يعلو رأسها شعر كثٌّ أسود وهي إيف [1] . ولكن سرعان ما عادت ماري الى عملها بالمدرسة والمعمل . حاول آل كوري كالمعتاد عدم الظهور كثيراً في المجتمعات ولكنهما لم يجدا بدًّا من حضور الحفلات الرسمية لتكريم العلماء الاجانب. في هذه الحفلات فقط كان بيير يلبس سترته الطويلة الرثّة وماري فستان السهرة الوحيد الذي امتلكته

فهذا الفستان الذي احتفظت به ماري سنين طويلة ، مستعينة باحدى الخياطات من وقت لآخر على تغييره بعض الشيء ليوافق الزي المتبع ، كان من الحرير « الجرينادين » الاسود . ولا غرابة اذا كان موضع احتقار أية سيدة عادية ، أما ماري فقد أوجدت لنفسها بما اتصفت به من الاتزان والتحفظ ، ضرباً خاصًّا ملائماً لملابسها . بل لقد ظهرت بمظهر فاخر حقًّا حين صففت شعرها الاشقر وعقصته فوق رأسها وتحلت بعقد لطيف من الذهب صياغتهُ في غاية الرقة كما كشف جسمها النحيف ووجهها البهيج عما بها من سحر وجمال

وفي احدى هذه الحفلات تمتم بيير قائلاً : « انهُ من المؤسف حقًّا عدم حضورنا الحفلات فملابس السهرة تناسبك جدًّا ولكن يعوزنا الوقت »

وتوصل بيير أخيراً في ٣ يوليو سنة ١٩٠٥ الى الانضمام الى الاكاديمية ولكن مع ذلك نال منافسه اثنين وعشرين صوتاً. وفي السنة نفسها أيضاً عينهُ السوربون في منصب أستاذ للطبيعة. فتحققت جميع آماله ما عدا الحصول على معمل وافر الاستعداد لبحوثهِ وبحوث زوجهِ

بقيت أمام ماري ثماني سنوات كاملة قبل تمكنها من وضع أجهزة النشاط الاشعاعي في معمل لائق بها ، ذلك المعمل الذي لم يسعد الحظ بيير برؤيته . فبقيت طول عمرها منغصة العيش متألمة ، لان زوجها حرم من تحقيق الامنية المفضلة على جميع أمانيهِ

في ١٤ ابريل من سنة ١٩٠٦ كتب بيير يقول : « اننا نعمل معاً أنا ومدام كوري لنقيس بالضبط مقدار الاشعاع الذي يطلقهُ . قد يبدو هذا أمراً هيناً ولكننا قضينا الشهور في بحوثنا والآن فقط بدأنا نصل الى نتائج حاسمة »

« اننا نعمل معاً انا ومدام كوري . . .

تلك الكلمات التي خطها بيير قبل موته بخمسة ايام فقط تعبر احسن تعبير عن ماهية اتحاد جيل قوي، ما كانت لتنال منهُ الحوادث اي منال . فكل تقدم في العمل ، سواء أفوزاً كان ام اخفاقاً، كان مدعاة لتعزيز تلك الرابطة القوية بين الزوجين وزيادتها متانة وقوة ، فبين هذين الذين اللذين أعجب احدهما بالآخر اعجاباً كبيراً نشأت زمالة قوية كانت اسمى تعبير عن حبهما العميق

(١) مؤلفة هذه السيرة

وحيدة

حوالي منتصف الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس ١٩ ابريل سنة ١٩٠٦ ، في يوم قاتم ممطر ، ودع بيير زملاءه اساتذة كلية العلوم بعد ان تغدّى معهم وخرج الى شارع دوفن وحاول عبوره دون ان يلتفت الى عربة نقل قادمة . فلما رآها وقف مذهولاً وحاول الامساك بصدر الجواد الذي يقودها ، فتراجع الجواد الى الوراء . الاّ ان بيير تزحلق على الارض المبتلة ومرت عليه تلك العربة الضخمة المحملة بستة اطنان من البضاعة فسحقت جمجمته ، رغم محاولة السائق ان يوقفها . فرفع رجال البوليس ذلك الجسم الدافئ الذي فارقته الحياة في اسرع من لمح البرق

الآن الساعة السادسة مساء ، وماري ، ملأى بالبهجة والحياة ، واقفة بباب المنزل تستقبل بعض ضيوف وافدين ولكنها لاحظت في نظرتهم وسلوكهم عطفاً خاصاً . فوقفت ماري جامدة ، عديمة الحركة ، بعد ان رووا عليها وقائع الحادث وبعد صمت طويل فاهت بهذه الكلمات :

« أحقاً ان بيير قد مات ؟ مات ؟ مات حقاً ! » . ومنذ اللحظة التي سجل فيها عقلها تلك الكلمات الثلاث « بيير قد مات » غدت ماري امرأة حزينة ، وحيدة ، لا تعزى

وبكلمات قليلة طلبت نقل جثة بيير الى المنزل . ثم طلبت الى احدى صديقاتها ان تأخذ ارين وايف الى بيتها ، وبعثت رسالة برقية الى والدها بوارسو . وبعدئذٍ خرجت الى الحديقة وجلست صامتة ، ساكنة ، محدقة في غير وعي ، ممسكة برأسها بين يديها تنتظر وصول زميلها

ادخلت النقالة ببطء من الباب الضيق الى غرفة بالدور الارضي بالمنزل ، فبقيت ماري بعض الوقت وحدها مع زوجها وهي تقبله ، وما زال جسمه ساخناً ، بقيت هكذا الى ان اخرجت بالقوة من الغرفة حتى لا تشاهد الجثة عند وضعها في الاكفان . اطاعت دون التفات ولكن سرعان ما تنبهت انها بخروجها من الغرفة قد حرمت من تلك الدقائق القليلة الباقية فهرولت الى الداخل الى جانب جثة زوجها . وبعد موت بيير عرضت الحكومة رسمياً على زوجه ان تمنحها هي وطفلتيها معاشاً فأبت ماري مجيبة بشجاعتها المعتادة : « لست بحاجة الى معاش . فاني صغيرة السن ويمكنني العمل لكسب عيشي انا وطفلتي »

وفي ١٣ مايو سنة ١٩٠٦ قرر مجلس كلية العلوم بالسوربون باجماع الاصوات اسناد منصب في التعليم العالي بفرنسا الى امرأة . وبعد ان اصغت ماري بدون اهتمام الى كلام حميها في ان الواجب عليها يقضي بقبول هذا المنصب لتتم رسالتها اجابت بهذه العبارة القصيرة : «سأحاول ذلك»

حل ميعاد محاضرتها الاولى بالسوربون فملأت الجماهير بهو المحاضرات وازدحمت بالدهليز وامتدت الاعناق في انتظار مدام كوري وبدأ القوم يتساءلون : ما تكون اولى كلماتها يا ترى ؟ هل تبدأ بشكر وزير المعارف او الجامعة ، او تذكر شيئاً عن بيير كوري ؟ لا بد ان تذكر شيئاً

عنه فقد جرت العادة ان يبدأ الاستاذ الجديد محاضرته الاولى باطناب سلفه . . . وفي منتصف الساعة الثانية فتح الباب الخلفي وتقدمت ماري كوري الى المنصة في عاصفة من التصفيق . أحنت رأسها لتحيي الجمهور، ولكن حركتها كانت جامدة بعض الشيء. ثم بقيت واقفة حتى هدأت العاصفة

وهنا تطلعت ماري الى الامام وقالت : « متى فكر المرء في التقدم الذي توصل اليه علم الطبيعة في العشر السنوات الاخيرة ، أخذته الدهشة في مبلغ ما طرأ على أفكارنا من التغيير بشأن الكهربائية والمادة.... ». وهكذا واصلت مدام كوري، بهذه العبارة ، الكلام في نفس الموضوع الذي عالجهُ بيير كوري قبيل مصرعه ، فاغرورقت عيون الحاضرين وسالت الدموع على وجوههم. وبعد ان انتهت من محاضرتها خرجت بدون توقف بنفس السرعة التي دخلت بها والجمهور يهتف لها

انتصارات وتجارب

ذاع صيت مدام كوري ومنحت كثيراً من الدبلومات ودرجات الشرف من الأكاديميات الاجنبية . ومع ان أكاديمية العلوم أبت ان تشرفها بعضويتها — اذ أخفقت بالانتخاب بصوت واحد — الآن ان السويد كافأتها بجائزة نوبل لعلم الكيمياء في سنة ١٩١١ ، وهذه هي المرة الوحيدة التي منحت جائزة نوبل مرتين لاي رجل او امرأة في العالم

بعد ذلك اشترك السوربون ومعهد باستير في انشاء معهد للراديوم ، يضم قسمين أحدهما معمل لابحاث النشاط الاشعاعي تحت ادارة مدام كوري ، والآخر معمل للابحاث البيولوجية ودراسة معالجة السرطان تحت ادارة طبيب مشهور . ورغماً عن معارضة آل ماري ، تبرعت الاخيرة للمعمل بجرام الراديوم الذي جهزتهُ هي وبيير بيديهما وكان يساوي أكثر من مليون فرنك ذهب . وقد بقي هذا المعمل محور حياتها الى النهاية

وفي أثناء الحرب خدمت ماري وطنها الثاني بكل تضحية واخلاص فاذ وجدت ان المستشفيات تعوزها الاشعة السينية التي يمكن بواسطتها معرفة موضع الرصاص بالمصابين ، قررت في الحال مهمتها، ألا وهي اعداد مراكز خاصة بالكشف بالاشعة السينية فجمعت أجهزة الاشعة التي تمكنت من الحصول عليها في المصانع ومعامل الجامعات ووزعتها على المستشفيات القريبة من باريس ، كما حشدت عدداً كبيراً من المتطوعين من الاساتذة والمهندسين والعلماء لكي يديروا تلك الآلات

والى جانب ذلك أعدت ماري سيارة خاصة بنقل المصابين من الخطوط الامامية في الحرب الى المستشفيات وكانت تلك السيارة، المعدة بجهاز الرنتجن وبدينامو، الوحيدة المستعملة اثناء واقعة المرن

جاهدت ماري طويلاً حتى تمكنت من الحصول على عشرين سيارة لهذا الغرض جهزتها كسابقتها، فدعيت تلك السيارات « بالكوريات الصغيرة » . ولم تتأخر عن قيادة احداها بنفسها رغماً عما عانتهُ في سبيل ذلك من التعب

أضافت مفخرة اخرى الى تاريخ جهادها وذلك بان تمكنت من اعداد مائتي غرفة بأجهزة الراديوم، حتى بلغ عدد المصابين الذين عولجوا فيها ما يزيد عن المليون . امام كل ما لاقته ماري من المتاعب والصعاب لم تظهر ادنى تململ أو كلل بل لم تعن بتأثير الاشعة السينية فيها او بتعرضها لخطر النيران حولها . ومما هو جدير بالذكر انها لم تنل ازاء جميع خدماتها لفرنسا في اثناء الحرب اي تقدير رسمي ، ولكنها شعرت في الوقت نفسه انها قامت بالواجب على اكمل وجه

أميركا

في سنة ١٩٢٠ اكتتبت نساء اميركا بمبلغ مائة الف دولار لشراء جرام من الراديوم لاهدائه الى ماري كوري وطلبن منها مقابل ذلك زيارتهن فترددت ماري اولاً في اجابة طلبهن ولكنها ازاء كرمهن لم تجد بداً من التغلب على حيائها وانزوائها والتعرض لاول مرة في حياتها ، وذلك في سن الرابعة والخمسين ، لما تفرضه عليها رحلة رسمية عظيمة كتلك الرحلة

وهناك على ميناء نيويورك انتظرتها الجماهير الغفيرة مدة خمس ساعات كاملة فعبرت لها بذلك عن مبلغ اجلالها لها بل كان اخلاصها لها أقرب ما يكون الى شعور ديني عميق منه الى أي شيء آخر . والآن وقد وجدت ماري في وسط تلك الجماهير زاد الاميركيون تفانياً وتقديراً

لن أحاول في هذا المقام ان أعرّف روح أمة ، ولكني أقرر ان الحماسة المتناهية التي قابل بها الاميركيون ماري كوري لها مغزاها العميق . فان الشعوب اللاتينية مع اعترافها بعبقرية الاميركيين ونبوغهم تدعي لنفسها الانفراد بتبجيل المثل العليا . ولكنه ثبت الآن ان الاميركيين ما ساروا في احتفائهم بماري هذا الاحتفاء العظيم الا وراء تلك المثل العليا التي يجلونها . فمن المعقول ان تثير سيدة كهذه بشخصيتها ومكتشفاتها شيئاً من حب الاستطلاع والتعجب ولكن ليس هذا كافياً لوصف ما أظهره الاميركيون من العطف والحب . فانهم ما كانوا حينئذ إلاّ محتفين بالنبل في الحياة ، النبل الممثل في احتقار الارباح المادية ، والتفاني في حب الحياة الفكرية الخالصة ، والرغبة الملحة في خدمة الغير . كانت الجامعات الاميركية جميعها قد دعت مدام كوري لزيارتها وأعدت لها المداليات والدرجات العلمية ولكن مدام كوري وقفت مذهولة حيثما أحاطها القوم بالاعجاب والتبجيل وشعرت بالخجل والحياء كلما تطلعت اليها الجماهير المتشوقة لرؤيتها ، بل ان خوفاً غريباً استولى عليها ألا وهو الخوف من ان تقع تحت أرجل الجماهير . وأخيراً ضعفت صحة ماري فلم تتمكن من اتمام رحلتها واضطرت الى الرجوع الى فرنسا نزولاً على ارادة أطبائها ، رجعت ماري منهوكة ولكنها مسرورة راضية لان حياءها وتواضعها ما كانا ليحجبا عنها الحقيقة وهي أنها قد أدخلت السرور على قلوب ملايين من الاميركيين

وإني اعتقد ان رحلة والدتي الى أميركا قد علمتها ان حياة العزلة التي تحياها تتناقض ومقامها

العالي . فمع ان مدام كوري الباحثة قد تمكنت قبلاً من العزلة عن العالم الاً ان مدام كوري في سن الخمسين لم تكن باحثة وعالمة فحسب بل ان مقامها الاجتماعي هيأ لها النجاح في رسالتها الى العالم فكان لا بدَّ لها ان تحمل تلك الرسالة

كانت الرحلات التي قامت بها ماري مشابهة لسابقتها اذ شملت حضور المؤتمرات العلمية والمحاضرات والاحتفالات الجامعية وزيارة المعامل فكانت حيثما حلت موضع التكريم والتبجيل

وفي ذلك الوقت جمعت وارسو مبلغاً من المال عن طريق الاكتتاب العام وأنشأت به معهداً للراديوم أسمته « معهد ماري سكلودفسكا كوري » كما قامت النساء الاميركيات بالاعجوبة الثانية وهي تبرعهن بجرام آخر من الراديوم لمدام كوري . فأعاد التاريخ نفسه مرة اخرى اذ زارت ماري نيويورك في ١٩٢٩ ، كما زارتها في سنة ١٩٢١ ، لشكر النساء الاميركيات ولكن زيارتها كانت باسم بولندا هذه المرة . فحلت ضيفة على الرئيس هوفر في البيت الابيض

ومما يسترعي الانتباه ان مدام كوري لم تتغير عنها قبلاً فلم تتغلب على خوفها من الجماهير المحتشدة كما ان الشهرة لم تؤثر في اخلاقها . ويخيل إليَّ انها لم تتمكن من الوصول الى اي « اتفاق ودي » مع الصيت بل كان حليفها الاول والاخير هو المعمل حتى كتبت مرة تقول « اني أشك في لو كنت أتمكن من الحياة بدون المعمل » ولفهم هذه العبارة يتعين علينا فهم مدام كوري وتعرف نفسيتها فلقد كان يغمرها السرور والغبطة متى نجحت في اية تجربة تقوم بها حين كانت تنقض عليها صواعق الهم اذا ما أخفقت فيها

خاتمة الرسالة

استمرت ماري في عملها الى النهاية بنشاط فذّ وباهمال فريد ايضاً لراحتها وصحتها . فلم تحترس البتة من خطر الراديوم فتناولته واشتغلت بهِ دون ان تتبع الاحتياطات التي نبهت طلبتها اليها وبعد جهد جهيد أذعنت لان تمتحن دمها في معهد الراديوم . فأظهر الكشف مادة غريبة بهِ. وما هي ؟ ... لقد قضت مدام كوري خمساً وثلاثين سنة وهي تعمل بالراديوم وتتنفس الهواء المشبع به كما تعرضت اثناء سني الحرب الاربع لاشعاع اخطر من الاول وهو اشعاع جهاز رنتجن ولكنها لم تحسب ما اصابها من ألم او حروق الاّ شيئاً يسيراً في مقابل الاخطار التي تعرضت لها

لم تعر ماري اصابتها بالحمى أخيراً التفاتاً كبيراً ولكن في مايو سنة ١٩٣٤ لازمت الفراش لاصابتها بنزلة صدرية حادة . ولما توقف قلبها القوي أخيراً عن النبض أصدر العلم حكمه وهو ان ما أظهره دمها من العوارض الغريبة يرجع الى الراديوم، المجرم الحقيقي . وفي يوم الجمعة في السادس من شهر يوليو سنة ١٩٣٤ أودعت ماري مقرها الاخير بدون أي احتفال رسمي — تلبية لوصيتها — فدفنت بجانب زوجها بيير في مدفن « سو » بحضور أقاربها واصدقائها وزملائها

ايران

مفاخر فنونها

للدكتور زكي حسن

أمين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الاسلامية

نهضتها الحديثة



في الفن الايراني

للدكتور زكي حسن
امين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الاسلامية

توطئة

لسنا نقصد ان نعرض في هذه السطور للفن الايراني بالدرس او الشرح المفصل ، ولكننا في هذه المناسبة السعيدة — التي تجمع بين الامتين اللتين كانت لهما الزعامة في ميدان الفنون الاسلامية — لا يسعنا الآن نذكر تراث الايرانيين في هذه الفنون ، وان نبين ما كان لطبيعتهم ولاستعدادهم الفطري من اثر في تكييف الفنون الاسلامية ، والسير بها الى العظمة التي بلغتها بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر بعد الميلاد

ولا غرو فقد كان لايران منذ العصور القديمة فن ازدهر في عصر الكيانيين ثم الساسانيين من بعدهم . كما ان الاسكندر المقدوني حين اراد ان ينشىء عاهلية تجمع بين الشرق والغرب اتجه نظره الى ايران ليجعلها مركز هذه العاهلية ، ولكن المنية عاجلته ، فلم يفز بتحقيق مطامعه. على انه نجح الى حد كبير في نشر الثقافة الاغريقية في الشرق الادنى . وكانت ايران وافغانستان ، فترة من الزمن ، ميدانا التقت فيه الاساليب الفنية الايرانية القديمة بالاساليب الفنية الاغريقية . وكان لهذه الفترة أثر ملموس في العلاقة بين الاساليب الفنية الايرانية والبيزنطية بعد ذلك ، بل ان أثرها كان ملموساً في مصر نفسها ، حين كانت تتبع رومة وبيزنطة في العصر الاغريقي الروماني ثم في العصر القبطي ، فكانت بيزنطة تنقل عن ايران الموضوعات الزخرفية ثم تهضمها وتستخدمها في منتجاتها الفنية التي تبعث بها الى الاقاليم التابعة لها على شواطىء البحر الابيض ، فتنقل هذه الاقاليم تلك الموضوعات الزخرفية ، كما يتجلى ذلك في زخارف كثير من قطع المنسوجات التي اكتشفت في صعيد مصر ، وكما يبدو في الرسوم المحفورة على بعض احجار العصر القبطي

ومما يستوقف النظر في تاريخ ايران ان سكانها كان لهم في جميع العصور ولعٌ شديد باتقان منتجاتهم الصناعية، وذوق لطيف في اعداد مساكنهم وحدائقهم وحاجياتهم، ومهارة فائقة في الفنون الجميلة . ولم تكن تمنعهم حروبهم الطويلة مع الروم في العصر الساساني من العناية بالفنون الجميلة فكانوا يشيدون العمائر وينتجون التحف الخزفية والمعدنية التي تشهد لهم بعلوّ الكعب كما كانوا يخلدون انتصاراتهم على الروم بنقوش محفورة في الصخور كنقش رستم وطاق بستان وغيرهما . وقد كانت هذه النقوش آية في قوّة التعبير عن انتصار الايرانيين وانكسار الروم وذلتهم

ولما امتدَّ الاسلام الى ايران لم يلبث هذا القطر العظيم ان تزعم العالم الاسلامي في العلم والفنون كما تزعمتهُ مصر في الاحداث السياسية . ويمكننا ان نقول في ثقة واطمئنان ان الطراز الايراني في الفنون الاسلامية ولا سيما في الفنون الفرعية منها ، هو أبدع الطرز الاسلامية على الاطلاق . فهو أكثرها تنوعاً ، وأعظمها في حسن الذوق ، ودقة الزخرفة ، وتناسق اللون وجمال النسب . حقًّا ان العمائر الاسلامية التي تزدان بها القاهرة من عصور الطولونيين والفاطميين والمماليك ثم عمائر الاندلس وعمائر مراكش ولاسيما في عصر بني مرين ، كل هذه قد تفوق العمائر الايرانية دقةً وجمالاً ، ولكننا لا نظن انها تمتاز عنها في الجلال والابهة . بينما منتجات الفنون الفرعية الايرانية من خزف وسجاد وصور ومنسوجات وغير ذلك هي التي لا يتسامى اليها الاَّ النادر من منتجات الامم الاسلامية الاخرى في هذا الميدان

التصوير

فالتصوير الاسلامي مثلاً لا تكاد الزعامة تنعقد فيهِ لغير الايرانيين ، بل انهم أساتذة الهنود والترك في هذا الميدان . وقد قامت في مراكش حركة حديثة على رأسها المصور محمد راسم ومثلها الأعلى هو الرجوع في التصوير الى الاساليب الفارسية

وقد أثبت علماء الآثار الاسلامية في العصر الحديث ان ازدهار التصوير الاسلامي في ايران دون غيرها من الاقطار الاسلامية ، ثم انتشاره منها الى تلك الاقطار على يد فنانين ايرانيين أو على يد تلاميذ لفنانين من ايران ، كل هذا راجع الى طبيعة الايرانيين أنفسهم ، والى التقاليد الفنية التي كانت لهم قبل الاسلام ، والى المهارة التي اكتسبوها في هذا الميدان فجعلتهم يتسامحون في شأن النحت والتصوير ولا يتأثر الفنانون بينهم بكره هذين الفنين في الاسلام ، ذلك الكره الذي ثبت في الامم الاسلامية السامية الاصل ، والذي كان سبباً في انصراف المسلمين عن تصوير المخلوقات الحية واقبالهم على الزخارف الهندسية والنباتية

ومهما يكن من شيء فقد ارتقت صناعة التصوير في إيران وكان ميدانها في أول الامر توضيح

كتب التاريخ والقصص ودواوين الشعر بالصور الصغيرة ذات الالوان الزاهية الجميلة ، شرحاً لمحتوياتها ، او زينة لها . وقد امتازت العصور الثلاثة الكبرى في تاريخ ايران بثلاث مدارس كبرى في التصوير فاشتهر الطراز او المدرسة المغولية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، واشتهرت المدرسة التيمورية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، واشتهرت المدرسة الصفوية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. واما بعد منتصف القرن السادس عشر فقد تأثر المصورون الايرانيون بعض الاساليب الفنية الغربية في التصوير ولا سيما بعد ان أرسل الشاه عباس الثاني (١٦٤٢— ١٦٦٦) بعض البعثات العلمية لتلقي العلم والفن في ايطاليا وبعض البلدان الاوربية الاخرى

وتمتاز الصور الايرانية الاسلامية بألوانها الجميلة الذي يتغلب فيها الازرق والذهبي والاخضر والبنفسجي والاحمر ، كما تتميز ببعض اساليب اصطلاحية اتبعها المصورون،كاهمال الظل وكرسم الاشخاص في أوضاع معينة بغير الاهتمام بقوانين المنظور او بصدق تقليد الطبيعة . وليس في ذلك ما يؤخذ على الصور الفارسية ، لانهُ جزء من طبيعتها ، ولانها حين تقلد الصور الغربية تفقد ذاتيتها ويزول عنها جمالها وسحرها . فضلاً عن أن الفنانين المصريين القدماء والكلدانيين والاشوريين والهنود كانت لهم في ميادين الفن المختلفة أساليب اصطلاحية تميز فنونهم الوطنية . ويعرف المتصلون بالحركات الفنية في العصور الحديثة ان كثيرين من رجال الفن يعملون على التحرر من تقاليدالفن الاغريقي في صدق تمثيل الطبيعة ،ويودون ان ينسجوا على منوال غيره من الفنون في عدم التقيد بالطبيعة . ولا ريب في ان كثيرين من المصورين الغربيين في العصر الحديث يرجعون الى الشرق ولا سيما ايران — فيستلهمونهُ كثيراً من الموضوعات الزخرفية ويستمدون منهُ بعض الاساليب الفنية

وعلى كل حال فان أعاظم المصورين في الاسلام كانوا من الايرانيين او من تلامذتهم في الهند وتركيا — وحسبنا ان نشير هنا الى بهزاد وسلطان محمد وقاسم علي وميرك ومحمدي ومعين مصور وجمال نقاش اصفهاني ورضا عباسي وغيرهم ممن تحدثنا عنهم في كتابنا عن التصوير في الاسلام عند الفرس او ممن نرجو ان نعرض لهم في بحث قريب . وكانت منتجات هؤلاء الفنانين مختلفة النواحي ، ففي بعضها مناظر صيد او قتال عجيبة بأسلوبها القوي وبما فيها من روح وحركة ، بل ان بعضها صور افراد مشهورين تظهر فيها دقة لم يكن يستطيع الوصول اليها في ذلك الوقت الاّ مهرة المصورين في الشرق الاقصى . وفي كثير من الصور الايرانية دعابة ومجون وطرب غير ما نراه في تصوير حوادث الشاهنامة من قتال ومناظر شجاعة واقدام

وقد قام التصوير الاسلامي في الهند وفي تركيا على اكتاف الايرانيين في بادىء الامر ولكنهُ اتخذ في الهند طريقاً آخر متأثراً بالاساليب الفنية الوطنية في الهند نفسها ، حتى اصبح

البون شاسعاً يفطن اليهِ كل من له المام بسيط بالفنون الاسلامية . وقد ذاع صيت المصورين الايرانيين حتى كان السلاطين من العثمانيين ومن الهنود المغول يستدعونهم للعمل في بلاطهم وكان صغار المصورين في ايران والهند يكتبون على منتجاتهم اسماء مشهوري المصورين ، وذلك طمعاً في بيعها بأغلى الاثمان ، حتى ان بعض مصوري الهنود نسبوا منتجاتهم الى بهزاد كبير مصوري الفرس على الاطلاق اوالى ماني زعيم المانوية ، وقد عاش في القرن الثالث الميلادي واشتهر واتباعه بالمهارة في التصوير وباستخدام الصور في شرح عقائدهم الدينية وقد تسمى باسمه مصور صغير في بلاط الشاه عباس . وفي دار الكتب المصرية وفي المكتبة الاهلية بباريس مجموعتان من الصور الهندية في اولاهما صور منسوبة الى بهزاد وماني وفي الثانية صور منسوبة الى بهزاد ولكن امثال هذه النسبة المغرضة سهل كشفه لمن لهم قسط بسيط من الدراية بتاريخ الفنون

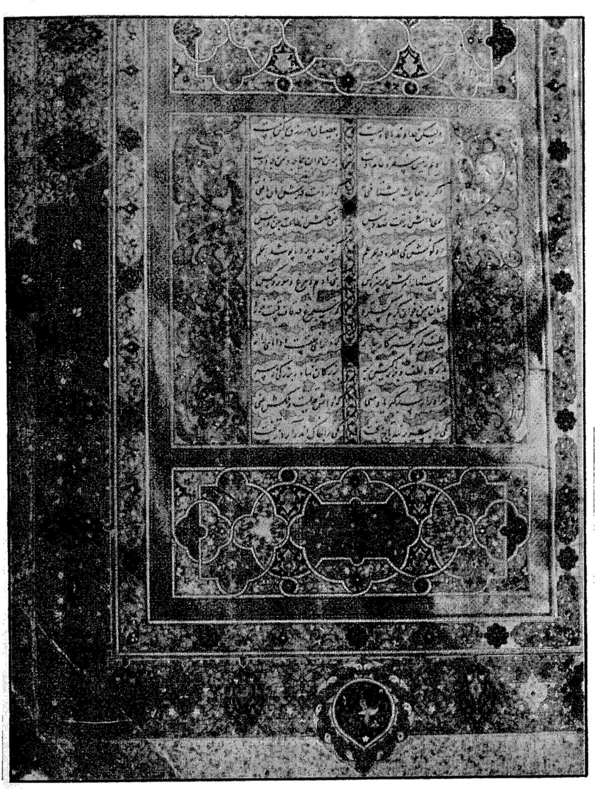
السجاد

على ان اكثر منتجات الفن الايراني انتشاراً في العالم انما هو السجاد . والظاهر ان شهرة ايران في هذا الميدان ترجع الى العصور القديمة فقد كانت تصدر السجاد الى الاغريق ثم الى البيزنطيين والغربيين في العصور الوسطى . ولعل السبب في ازدهار هذه الصناعة في ايران هو تشجيع الملوك والامراء ورجالات الدولة وانفاقهم الاموال الطائلة في انتاج احسن الفرش والابسطة وأفخرها مادة وحسن صناعة على يد كثيرين من العمال ، يشتغلون الشهور الطويلة في صنع سجاجيد تخرج آية في الفن ، لا يدري المرء بأي شيء يعجب فيها أبعظمة الالوان وانسجامها ، ام بجمال الزخارف ودقتها ، ام بمتانة الصناعة واتقانها . بل ان الملوك والامراء كثيراً ما كانوا يطلبون الى مشهوري المصورين والرسامين ان يقوموا باعداد الرسوم التي تزين بها السجاجيد الفاخرة . وفي الحق ان المصورين كان لهم في البلاط وفي الحياة الاجتماعية الايرانية نفوذ كبير بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر ، فلم يكونوا يقومون بتصوير المخطوطات فحسب بل كانوا يشرفون على شتى انواع الزخرفة : في العمائر ، وعلى المنتجات الخزفية ، والمنسوجات والسجاد . واكبر الظن أن أهم من اشتغل من المصورين بعمل زخارف السجاد هم بهزاد وسلطان محمد وسيد علي . وقد وصل الينا أسماء بعض من قاموا على نسج السجاجيد المشهورة ومن أهمهم غياث الدين جامي ومقصود القاشاني في النصف الاول من القرن الخامس عشر ومحمد أمين الكرماني ونعمت الله جوشغاني . واسماؤهم موجودة على سجاجيد محفوظة الآن في متحف ميلان ومتحف فكتوريا والبرت بلندن وفي ضريح الشاه عباس الثاني بمدينة قم

أما اهم المدن التي اشتهرت بصناعة السجاد في إيران فهي اصفهان وكرمان وقاشان وقم وتبريز وكرباغ وهمدان وشستر وهراة (في افغانستان) وطوس ويزد



صورة ضرب بالعصا (فلقة) من رسم المصور الايراني محمد قاسم في بداية القرن السابع عشر



نموذج من الخط الفارسي والصحائف المذهبة في المخطوطات الايرانية

ويرجع جمال السجاد الايراني وشهرته الى ابداع ألوانه وتناسقها وحسن توزيعها ، والى متانة الصناعة والعناية بالصوف (حتى لقد كانت الغنم تربى خصيصاً ويعنى بنظافة صوفها لينسج منهُ السجاد) ، كما ان الحرير وخيوط الذهب والفضة كانت تدخل في صناعة السجاجيد المشهورة . ولا ننسى ان حجم السجادة كان يظهر ابداع الزخارف فيها ويساعد المصور او الرسام على اظهار مهارته

والسجاد الايراني على أنواع مختلفة ، ولكن أكثره يمثل غرام الايرانيين بالحدائق ، حتى نرى ان أهم انواعه يشبه الحديقة بما فيه من أزهار ونباتات . وقد كانت هناك أبسطة وسجاجيد تمثل زخارفها مناظر الصيد ، او القتال بين الحيوانات المختلفة ، غير ان ذلك كلهُ كان على أرضية مملوءة بالازهار والنباتات ، ولكنها ازهار ونباتات لم تكن دائماً تقليداً صادقاً للطبيعة ، بل كانت كما غلب عناصر الزخرفة النباتية في الفنون الاسلامية — مهذبة بعض الشيء . فالمعروف ان المسلمين لم يصوروا النبات او الانسان او الحيوان تصويراً صادقاً ، بل كانوا يتخذونها موضوعات زخرفية ، يكيفونها كيف شاءوا مراعين فيها التناظر والبساطة والانسجام ومن ثمّ فقد كان يسودها في بعض الاحيان شيء من الجمود . ولعل الايرانيين هم اقل الامم الاسلامية اندفاعاً في هذا التيار ، فامتاز الطراز الايراني في الفنون الاسلامية بالزخارف النباتية ولاسيما الازهار وبالاسراف في رسوم الانسان والحيوان والطيور على المنتجات الفنية المختلفة ، وعني الايرانيون اكثر من سائر الامم الاسلامية بصدق تمثيل الطبيعة — الاّ فيما كانت لهم فيه اصطلاحات واساليب موضوعة . وقد كان اتصالهم بفنون الشرق الاقصى منذ العصر المغولي دافعاً لهم على الدقة في رسم النباتات والازهار

ولا يجب ان ننسى ان صناعة السجاد في ايران لم تكن زاهرة بايران في العصر الصفوي فحسب ، بل ان ما نجده في كتب التاريخ من وصف بساط كسرى الذي غنمهُ العرب في المدائن لا كبر دليل على براعة الايرانيين في هذه الصناعة الجميلة منذ العصور القديمة . ومن المحتمل ان يكون اهل الحيرة قد نقلوا عنهم اسرار هذه الصناعة ، فالمعروف ان سجاجيد ذات زخارف حيوانية كانت تصنع في الحيرة قبيل الاسلام

وقد اختلف رجال الفنون في تقسيم السجاجيد الايرانية فبعضهم يقسمها باعتبار زخارفها الى سجاجيد ذات زخارف شجرية ، واخرى ذات زخارف تمثل مناظر الصيد والعراك ، وثالثة ذات زخارف من آنية ومشكاوات وازهار بينما يجتهد باحثون آخرون في تقسيمها تبعاً للبلاد الايرانية المصنوعة فيها ، ولكن الوصول الى هذا التقسيم الاخير ليس سهلاً ميسوراً ، لان المعلومات الصحيحة بهذا الشأن نادرة جداً ، فضلاً عن ان المصانع في البلاد الايرانية المختلفة كانت تقلد أي طراز ينال رواجاً كبيراً ولو كان موطنه في بلد آخر

وقصارى القول انه من الممكن تقسيم السجاجيد الايرانية الى انواع مختلفة بحسب زخارفها كما يمكن نسبة بعض هذه الانواع الى مصانع بعض المدن الايرانية المعروفة ، ولكن بعض المدن الاخرى لا يمكن ان تنسب اليها انواع بالذات ، كما ان بعض الانواع لا نستطيع نسبتها الى اي مدينة بالذات

المنسوجات

اما المنسوجات الايرانية فقد ذاعت شهرتها منذ عصر هيرودوتوس . وكان اهل روما يدفعون فيها الاثمان الباهظة ، ثم أقبل اهل بيزنطة على تقليدها . وبلغت صناعة النسج أوج عزها في العصر الساساني . وقد وصلت الينا بعض قطع من المنسوجات الحريرية الساسانية . والزخارف مكونة في اكثر هذه القطع من مجموعات دوائر او اشكال هندسية اخرى ، فيها رسوم حيوانات او طيور او فرسان في الصيد ، متقابلة او متدابرة ، في ترتيب هندسي جميل ، كما ان بين الحيوانات المتقابلة رسماً تخطيطيًّا مهذباً يمثل شجرة . والمعروف ان الصينيين كانوا يعجبون بهذه المنسوجات الحريرية الساسانية ، وان حكام الاقاليم الصينية الواقعة بين الصين وايران كانوا يقدمون من هذه المنسوجات جزية الى ملوك الصين . والحق ان الايرانيين في ذلك العصر البعيد وفقوا في الوان منسوجاتهم جد التوفيق فكان انسجام هذه الالوان وهدوؤها يبرزان عظمة الزخارف ويكسبان القطعة سحراً وجمالاً

ولما انتشر الاسلام في ايران ، وانقضى دور الزهد والتقشف الذي ساد العالم الاسلامي في نشأته ، واختلط العرب بغيرهم من الامم العريقة في المدنية تقدمت الصناعات والفنون . ولقيت صناعة النسج تشجيعاً خاصًّا في الاقاليم الاسلامية المختلفة ، لما سنهُ الخلفاء والامراء في مكافأة رجالات الدولة بالخلع الثمينة من نفيس المنسوجات الحريرية . على ان القطع الايرانية التي وصلت الينا من صدر الاسلام نادرة جدًّا ، ولعل السر في ذلك هو غزو المغول الذي قضى على الحرث والنسل . ومهما يكن من شيء فقد ظل الايرانيون نحو ثلاثة قرون في صدر الاسلام يتبعون الاساليب الساسانية في زخارف منسوجاتهم ثم كان القرن العاشر فطغت عليها الاساليب الاسلامية في زخرفة المنسوجات بأشرطة من رسوم الحيوانات او بزخارف خطية ونباتية . وكان الايرانيون فضلاً عن ذلك يستوردون من الشرق الاقصى الاقمشة الحريرية المزينة بالزهور والنباتات الدقيقة ، فكانت مدينة مرو تصدرها الى سائر الاقاليم الايرانية فيعمل الصناع على تقليدها في كثير من الاحيان . ومن أهم المدن الايرانية التي اشتهرت بمصانع النسج في العصر الاسلامي نيشابور وتبريز وسلطانية وهراة ويزد وشيراز وكرمان . ومن أبدع ما كانت تخرجهُ المصانع الايرانية الرايات والاعلام تزينها العبارات بالخط الكوفي الجميل . ثم كان عصر

السلاجقة في القرن الثاني عشر الميلادي عصر نهضة شاملة ورقي عام في صناعة النسج ، فتقدمت أساليب الصناعة ، وعمد النسَّاجون الى الزخارف الساسانية القديمة يستمدون منها موضوعاتهم الزخرفية بعد ان يدخلوا فيها ما يناسب العصر وما يتفق وتأثرهم بدقة الصينيين في رسم النباتات والطيور والحيوانات . وقد عثر المنقبون في قبور مدينة الري على قطع من منسوجات هذا العصر تشهد ببراعة النسَّاجين الايرانيين

وزاد تأثر المصانع الايرانية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالاساليب الصينية في زخرفة المنسوجات بسبب ازدياد الوارد من الاقمشة الصينية واتساع تجارة ايران مع الشرق الاقصى وغزوات المغول في ايران

***

أما في نهاية القرن الخامس عشر وفي القرن السادس عشر فقد كانت زخارف المنسوجات متأثرة كل التأثر بصور المخطوطات في ذلك العصر فكثيراً ما نرى عليها صور مجنون ليلى وصور بعض حوادث الشاهنامة اوبعض الاساطير المشهورة في التاريخ الايراني وفي مؤلفات الشعراء والادباء الايرانيين . وكان لمدينتي هراة وتبريز قصب السبق في انتاج الديباج الذي تزينهُ هذه الزخارف . وهنالك بضع قطع من هذا الديباج عليها امضاء صانعها « غياث » وهي محفوظة في ليون وباريس ولندن وفلورنسة

على ان أبدع ما أنتجهُ النسَّاجون الايرانيون هي القطيفة (المخمل) التي امتازت بهدوء ألوانها ورقتها المتناهية . وأهم المدن التي ذاع صيتها في نسج القطيفة هي قاشان

وزادت ثروة ايران في عصر الشاه عباس وزاد الاقبال على المنسوجات الفاخرة ، فزادت المنتجات زيادة أثرت قليلاً على جودة النوع وجمال الزخرفة ، اللهمَّ الاَّ فيما كان يصنع للبلاط ورجالات الدولة . وكان أهم أنواع الزخارف في ذلك العصر رسوم أشخاص ذوي قدود هيفاء وأوضاع فيها كثير من التكلف وفتيات او فتيان يكاد المرء يحسبهنَّ نساء . ونحو ذلك من طراز المصور رضا عباسي . والواقع ان تأثير هذا المصور وذيوع صور فتيانه وفتياته لم يكن في المخطوطات المصورة والمنسوجات فحسب ، بل كان في صور الجدران وفي زخارف القاشاني

ثم عاد الايرانيون الى الولع برسوم الازهار والنباتات فاتخذوها لزخرفة عدد كبير من منسوجات القرنين السابع عشر والثامن عشر ووفقوا فيها توفيقاً كبيراً وساعدهم على ذلك تجار البضائع الصينية الذين كانوا ينزلون مدينة أردبيل والخزفيون الصينيون الذين كانوا ينزلون شتى المدن الايرانية

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل بعض الانواع الجديدة من المنسوجات الايرانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر فحسبنا ان نشير الى منتجات اصفهان وكرمان وقزوين وشيراز ورشت

الخزف

وثمة ميدان آخر من ميادين الفنون الاسلامية كان للايرانيين فيهِ قدم السبق . ذلك هو الخزف . ولا غرو فقد توافرت في ارض ايران عجينة تصلح لصنع الاواني الخزفية ويسهل تشكيلها وتمتاز برقتها وقلة وزنها . وان صح لدى بعض الخبراء ان بلاد الاغريق من ناحية وبلاد الشرق الاقصى من ناحية أخرى قد بلغت في صناعة الخزف درجة من التقدم تفوقت بها على إيران فان بعض الهواة الآخرين يرون في خزف تلك البلاد جموداً ودقة وثقلاً لا يرونهُ في الخزف الايراني

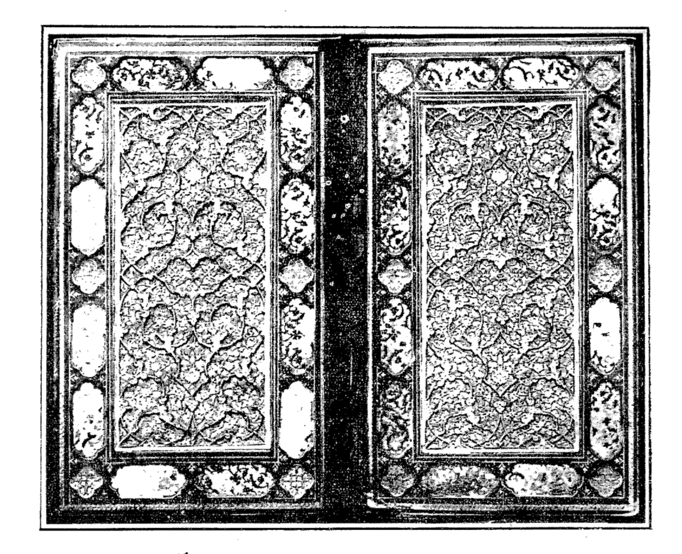
ومهما يكن من شيء فقد امتاز الخزف الايراني في العصر الاسلامي بجمال الاشكال، وتناسق النسب ، وبريق الطبقة الزجاجية المغطية ، وابداع الزخارف وتنوعها . وليس هذا بمستغرب فقد كان لايران تقاليد قديمة في هذه الصناعة منذ عصر قبل التاريخ كما يبدو من القطع الخزفية التي كشفت في نهاوند والتي تزينها زخارف هندسية جميلة. ثم كان عصر الكيانيين وصارت الجدران المصنوعة من الآجر تغطى — كما في قصور مدينة السوس — بطبقة من الميناء ، وتنبيء عن الخزف الذي قدِّر لجدران العمائر الايرانية ان تكسى بهِ في العصر الاسلامي . ثم جاء العصر الساساني الذي ازدهرت فيهِ صناعة الخزف كما ازدهرت الفنون الاخرى . ولما انتشر الاسلام في ايران ظلَّ الخزفيون يتطورون شيئاً فشيئاً حتى تركوا الاساليب الفنية الساسانية ، وطبعت منتجاتهم بطابع يجمع بين العناصر الزخرفية الاسلامية وبين ما ورثوه من أساليب ايرانية

وأقدم أنواع الخزف الايراني في العصر الاسلامي هو النوع الذي يعرف باسم « جابرى » وهو اسم عبدة الشمس في ايران . ويظن انهُ من صناعتهم قبل ان ينتشر في كل انحائهـا الدين الاسلامي بعد الفتح العربي ببضعة قرون . والزخارف في هذا الضرب من الخزف تكون في الغالب من رسوم فرسان في الصيد وطيور اوحيوانات غير دقيقة الرسم ، ولـكنها محفورة حفراً عميقاً في الطبقة البيضاء الرقيقـة التي تكسو السطح بحيث يصل هـذا الحفر الى العجينة الحمراء المصنوع منها الاناء . وتعلو العجينة الحمراء والطبقة البيضاء التي تغطيها مادة زجاجية شفافة ذات لون أصفر او اخضر او اسمر قاتم

على ان بعض القطع الخزفية من هذا النوع قد وجد عليها كتابات بحروف كوفية تجعل من السهل نسبتها الى القرنين العاشر او الحادي عشر . فمن المحتمل ان يكون خزف «جابري» من منتجات ايران في الاربعة القرون الاولى بعد الاسلام ، ولا سيما في زنجان وعامل والري . ولـكن هذه المدينة الاخيرة التي دمرها المغول سنة ١٢٢٠ ميلادية كانت مركزاً عظيماً لصناعة شتى انواع الخزف حتى اننا لننسب اليها نماذج من صناعات خزفية لم توجد الاَّ في اطلالها . ومن

نجمة من القاشاني ذي البريق المعدني . وهي من صناعة قيرامين بايران في سنة ١٢٦٢ ميلادية ومحفوظة الآن بمتحف برلين

صورة صحن من الخزف الايراني المعروف باسم « خزف جابري » ترجع الى القرن الحادي عشر الميلادي ومحفوظة الآن بدار الآثار العربية



جلد كتاب ايراني من القرن السادس عشر من مقتنيات دار الآثار العربية

هذه النماذج بعض الاواني والاطباق ذات الصور الآدمية والصناعة الدقيقة التي ترجع الى القرنين الحادي عشر والثاني عشر وقد نجد في بعض هذه القطع صور البراق او صور بط واوز وطيور اخرى

ومما زاد الخزف الايراني جمالاً ذلك التجديد الذي وصل اليه المسلمون في هذه الصناعة وهو البريق المعدني lustre ، فكانوا يرسمون الزخارف على سطح لامع ثم يثبتونها بتعريضها للنار بطريق تكسبها بريقاً معدنيًّا يختلف لونه بين الاحمر النحاسي والاصفر الضارب الى الخضرة . ويظن بعض علماء الآثار ان هذه الصناعة نشأت في ايران كما يظن آخرون انها بدأت في العراق ويذهب فريق ثالث الى ان مهدها ارض مصر . ولكنها كانت على كل حال خير مخرج للمسلمين من صعوبة الانصراف عن الاواني الذهبية والفضية التي يكرهها رجال الدين لما تدل عليه من ترف واسراف

وكانت هذه الاواني الخزفية ذات البريق المعدني تصنع في كثير من المدن الايرانية ولا سيما في الري وتزينها زخارف متعددة الالوان تمثل بهرام جور وحبيبته في الصيد ، او تمثل السلطان جالساً على عرشه وحوله رجال ونساء من اتباعه ، او تمثل فرساناً في الصيد ، وما الى ذلك مما اعتدنا رؤيته على التحف الايرانية الاخرى ومما كان يزيده التذهيب في الخزف روعة وجمالاً

***

على ان صناعة الخزف ذي البريق المعدني استخدمت على يد الايرانيين في صناعة النجوم والتربيعات التي كانت تكسى بها الجدران ، والتي اصبحت ظاهرة من الظواهر المعمارية في ايران ثم في تركيا وسورية

وبعد ان دمر المغول مدينة الري اصبحت سلطاناباد مركز صناعة الخزف . وصارت تنتج في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ما كانت تنتجهُ الري قبلها ، كما احدثت انواعاً جديدة

ولكن صناعة الخزف لم تكن زاهرة في مدينتي الري وسلطاناباد فحسب ، بل ان مدناً اخرى ، كاصفهان وتبريز وهمدان وفيرامين ومشهد ، كانت لها مكانتها في هذا الميدان . كما ان سلطاناباد كانت تنتج في القرن الخامس عشر خزفاً طريفاً تغلب على زخارفه الفروع النباتية (الارابسك) ورسوم زهور اللوتس . وثمة نوع ينسب الى قرية كوباتشه بداغستان ولكن يظن انهُ كان يصنع على مقربة من تبريز

التحف المعدنية

اما صناعة التحف المعدنية في ايران فقد اتقنها الايرانيون قبل الاسلام . والواقع ان الاواني المعدنية الساسانية عليها مسحة من القوة والعظمة ، قلَّ ان توافرت في تحف معدنية اخرى . ويشهد بذلك ما وصل الينا من الصواني والاطباق الذهبية والفضية ذات الزخارف البارزة ، وما يحتفظ بهِ متحف الهرميتاج بالروسيا والقسم الاسلامي بمتاحف برلين من اباريق

برونزية جميلة ، يظن انها ترجع الى القرن السابع او الثامن بعد الميلاد ، ويغلب على زخارفها رسوم الحيوانات والطيور ومناظر الصيد . كان بعض المتاحف والهواة يحتفظون بتحف معدنية على شكل حيوان او طائر ، ويرجع بعضها الى صدر العصر الاسلامي ، كما يظن ان قطعاً منها ترجع الى العصر الساساني نفسه . ولعلّ اشهر هذه المجموعة بطة في متحف الهرميتاج بالروسيا وببغاء في مجموعة اندجودجيان

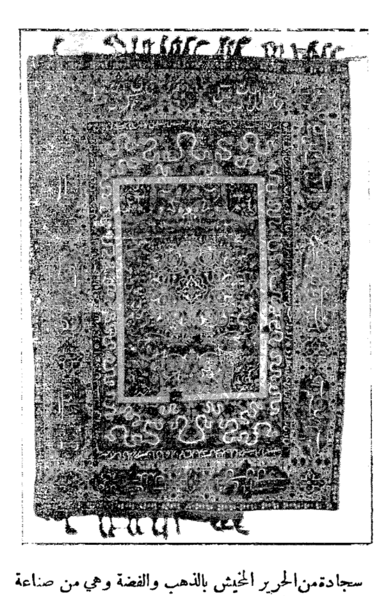
على ان دار الآثار العربية في القاهرة تحتفظ بين مقتنياتها بابريق بديع من البرونز يمت للفن الساساني بأوثق الصلات ، وان كان المرجح انهُ من صناعة القرن السابع او الثامن الميلادي . وقد عثر على هذا الابريق في ابي صير الملق حيث قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، فحمل ذلك بعض العلماء على القول بان مثل هذا الابريق الثمين لا بد ان كان ملكاً لهذا الخليفة وعلى كل حال فان الابريق بديع الشكل ، وجميل بزخارفهِ المحفورة والمخرمة

وثمة تحف برونزية كثيرة يرجح انها من صناعة ايران في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وعلى بعضها زخارف فيها رسوم آدمية . ومن هذه التحف مرايا ذات زخارف بارزة من رسوم تماثلة ، وتقوم على أرضية من فروع نباتية جميلة

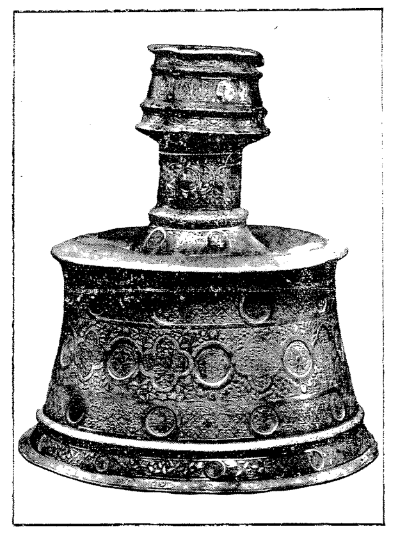
أما في عصر السلاجقة فقد كان للتحف الفنية القوة والجلال اللذين امتازت بهما الصناعة الساسانية ، واللذين كانا يناسبان طبيعة السلاجقة أنفسهم ، كما كان لها في بعض النواحي الاخرى دقة وظرف يناسبان اعتناقهم الاسلام وغرامهم الجديد بالادب والفن الايرانيين . فلا غرابة اذا وجدنا في هذا العصر تحفاً برونزية ساسانية الطراز والى جانبها بعض الاواني والتحف من الذهب والفضة ، ذات زخارف دقيقة مفرغة في الاناء . وفي مجموعة المسيو رالف هراري بك عدد من هذه الاواني والتحف ، فيها كؤوس وأباريق ومباخر وعلب وملعقة ، وعليها زخارف من طيور وحيوانات حقيقية وخرافية محفورة او مفرغة او بارزة

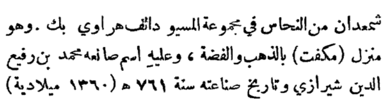
وفي القرن الثاني عشر الميلادي لم يقف بعض الصنّاع عند حفر الزخارف على التحف بل بدأوا في تكفيتها (تنزيلها) بالمعادن النفيسة ، ولا يزال أبدع مثال لهذه الصناعة اناء من مجموعة بوبرنسكي في متحف الهرميتاج ، صنع سنة ١١٦٣ ميلادية في مدينة هراة ، التي اشتهرت بصناعة التحف المعدنية كما اشتهرت بها أيضاً أصفهان وهمدان وشيراز

ومن المرجح ان طراز مدينة الموصل في صناعة التحف المعدنية قد نقل بعض أساليب هذه الصناعة عن ايران . بل الواقع ان الفرق بين الطراز الايراني والطراز الموصلي لا يزال غير واضح كل الوضوح . حقّاً اننا لا نعرف تحفاً معدنية يمكن نسبتها على وجه التحقيق الى ايران وتكون في الوقت نفسه من الابداع ودقة الصناعة بحيث يمكن مقارنتها بالاواني العديدة التي



سجادة من الحرير المخيش بالذهب والفضة وهي من صناعة اصفهان في القرن السادس عشر . وقد وهبها حضرة صاحب السمو الامير يوسف كمال الى دار الآثار العربية





شمعدان من النحاس في مجموعة المسيو دالف هراوي بك . وهو منزل (مكفت) بالذهب والفضة ، وعليه اسم صانعه محمد بن رفيع الدين شيرازي وتاريخ صناعته سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ ميلادية)



صورة قطع من منسوجات حريرية ايرانية ترجع الى القرن السادس عشر ،
ومحفوظة الآن بدار الآثار العربية



صورة أبريق من النحاس ، صنع في ايران سنة ٧٦٣ هـ
(١٢٧٤ ميلادية)

صنعت في الموصل ، وعليها امضاء صانعيها ، ولكن أسماء بعض هؤلاء الصناع تظهر عليها مسحة ايرانية حتى اننا لنتساءل اذا لم يكن هؤلاء الصناع ايرانيين هاجروا من ايران الى بلاد الجزيرة وأتيح لهم ان ينتجوا فيها أبدع التحف المعدنية في الفن الاسلامي

ومهما يكن من شيء فان صناعة التحف المعدنية تقدمت في ايران نفسها ، كما تقدمت في مدرسة الموصل. وكان من اهم مظاهر التطور في الصناعة الايرانية الاناقة والتهذيب في اشكال الاواني وبعض التغيير اللطيف في الزخارف . ثم بلغ هذا التطور اقصاه في عصر الاسرة الصفوية في بداية القرن السادس عشر ، وصارت زينة التحف المعدنية في تكفيتها بزخارف من خطوط او كتابات على ارضية ذات موضوعات زخرفية قوامها فروع نباتية دقيقة

***

ولا يفوتنا ان نذكر ان ايران كانت من اهم اقطار العالم الاسلامي في صناعة نصال السيوف من الصلب والحديد . وكانت هذه النصال تكفت (تنزّل) بالذهب والفضة في بعض الاقاليم الشرقية من ايران . ولا غرو فان اهل ايران كانوا منذ العصور القديمة مغرمين بالاسلحة. على ان ما وصل الينا من الاسلحة الايرانية ليس اقدم من القرن السادس عشر . وربما كانت الاسلحة المرسومة في الصور الفارسية من القرنين الثالث عشر والرابع عشر اكبر عون لنا على دراسة انواعها قبل العصر الصفوي . اما اهم ما نعرفه من اسلحة الصفويين فخوذة باسم السلطان طهماسب في متاحف استامبول وعليها امضاء صانعها : « ابراهيم بن محمد رضا » . وفي المتحف البريطاني خوذات من عصر الشاه عباس ، وعليها كتابات منزلة بالذهب وزخارف نباتية جميلة . ومن مشهوري صناع الاسلحة في عصر الشاه عباس (١٥٨٧—١٦١٩) أسد الله الاصفهاني

***

أما صناعة الزجاج فقديمة في ايران وقد وصل الينا طبق زجاجي من العصر الساساني ومحفور فيه صورة طائر خرافي. كما وجد في مدينة الري تحف زجاجية ترجع الى القرنين العاشر والحادي عشر. ثم ازدهرت صناعة الزجاج في القرون التالية ولا سيما في شيراز وهمدان ونيشابور وسمرقند

وقد كان للحلى والجواهر شأن عظيم في الحياة الاجتماعية الايرانية ولا سيما في البلاط ، وفي ملابس الطبقات العالية فلا عجب ان تخصص في صناعتها مهرة الفنانين في زنجان وأصفهان وتبريز وسلطانية وغيرها من البلدان الصناعية في ايران

تأثير الفن الايراني وانتشاره

ولا يسعنا ان نختم هذه الكلمة عن الفن الايراني بدون ان نشير الى ما كان له من عظيم التأثير على غيره من الفنون الاخرى . والواقع اننا — اذا استثنينا الفن الاغريقي — لا نكاد نجد

فنًّا آخر قدِّر له ان ينعم بمثل نفوذ الفن الايراني وانتشاره. في العصور القديمة كانت الاساليب الفنية الايرانية من أظهر الاساليب الفنية في الشرق الادنى . ويظن كثيرون من العلماء ان اتصال الفن الايراني بالصين يرجع الى العصر الكياني ، حين بدأت الاساليب الفنية في الصين وايران تلتقي في اواسط أسيا وتزحف كل منها الى البلد الآخر . ثم كانت غزوات الفرس في وادي النيل اكبر تعريف لاهل مصر القدماء بهذا الشعب الايراني وبأساليبه الفنية المختلفة التي كان لها بعض التأثير في العمارة وفي زخارف المنسوجات المصرية . كما بدأ اتصال ايران بروما منذ القرن الثالث الميلادي ، حين انتشرت تجارة الحرير مع الصين — واتصلت ايران بعد ذلك ببيزنطة اتصالاً كان لهُ صداهُ في الفنون ، على الرغم من الحروب الطويلة بين هاتين العاهليتين، اللتين كانتا تتنازعان السيادة في العالم المتمدين حينئذٍ

اما في الاسلام فقد أتيح لايران ان تكون في الصف الاول منذ سقطت الدولة الايوبية وتولى العباسيون ، كما صار الفن الايراني أبدع الطرز في الفنون الاسلامية ، وانتشرت التحف الايرانية من حدود الهند الى جبال البرانس ، ومن تركستان وجنوبي الروسيا شمالاً حتى اليمن وزنجبار جنوباً . وكان المهندسون والفنانون الايرانيون يدعون للعمل في سائر الاقاليم الاسلامية . بل ورحلت جالية منهم الى البندقية في القرن الخامس عشر وعلَّمت اهلها الاساليب الايرانية في تكفيت المعادن وتجليد الكتب وصناعة الزجاج ، وانتقل كثير من هذه الاساليب الى سائر الاقطار الغربية على يد البنادقة

***

ولم يكن شأن الايرانيين خطيراً في الفنون الفرعية او التطبيقية فحسب . بل ان العمارة الاسلامية ايضاً مدينة لهم بكثير من الظواهر المعمارية التي أصبحت مميزة لها في العصور الوسطى . وليس هذا بمستغرب من شعب كانت له في العصور القديمة مدن كبرسبوليس وقصور كالقصور الساسانية استطاعوا فيها ان يحلوا كثيراً من مشكلات العمارة كالقباب والاسقف والاقبية والاعمدة والعقود

ومهما يكن من شيء فقد امتازت العمائر الايرانية في العصر الاسلامي بالعقود الايرانية وهي التي ينتهي انحناؤها بخطين مستقيمين ، كما امتازت بكسوتها بألواح القاشاني التي نبغ أهل ايران في صناعتها . والمشاهد ان المساجد الايرانية عظيمة الشكل بوجهاتها المستطيلة التي يحف بها من الجانبين مأذنة أسطوانية الشكل دقيقة الطرف في أعلاها ولها شرفة تجعلها تشبه الفنار

ولكن موضوع العمارة الايرانية واسع وطريف لا يتسع المجال هنا للتطرق اليهِ . فحسبنا الآن هذه الصفحات التي استعرضنا فيها ، استعراضاً سريعاً وموجزاً ، ما وصل اليهِ شعب ايران من مهارة في الفنون بفضل استعداده الفطري ودأبهِ على العمل وسعيهِ الى الكمال

ايران الحديثة

ووجوه نهضتها الباهرة

[ليس الغرض من هذا البحث بسط مفاخر الحضارة الايرانية القديمة في العلم والفن والادب والفتوح الحربية ، فلها في جميع أبواب الحضارة والثقافة آيات عجيبة يرى القارىء طرفاً يسيراً منها في باب الفنون في المقال السابق . ولكننا نريد ان نعنى هنا ، بالنهضة الايرانية الحديثة ، في عهد الزعيم الكبير الشاه رضا بهلوي ، بعد ان كانت الدولة الايرانية قد سقطت في العهد السابق الى دركات التفكك والاضطراب والخضوع للاجانب . فهي تمثل في نهضتها الحديثة أسطورة الفينكس المنبعث حياً جديداً من رماده]

كانت بلاد ايران من نحو قرن من الزمان قانعة راضية ، تنتج ما تحتاج اليه من طعام وتكتفي بما تصنعه أيدي أبنائها من المصنوعات الفنية . ولكنها طمعت في أوائل القرن التاسع عشر باستعادة ولاية جورجيا من روسيا فأخفقت وحملت على عقد معاهدة توركومنشاي سنة ١٨٢٨ ، وهي التي ثبتت فيها قواعد الامتيازات الاجنبية وحتمت عليها القبول برسوم جمركية على الوارد اليها والصادر منها لا تزيد على خمسة في المائة عيناً . وما لبثت الدول الاخرى حتى استندت الى مبدإ « أولى الدول بالمراعاة » في تطبيق القواعد المنطوية في المعاهدة الايرانية الروسية . فكان من اثر ذلك ان زاحمت الواردات الغربية الى ايران ، ما كان يصنع بأيدي ابنائها . وما كان في وسعهم ان يعودوا الى الزراعة ، لان ما تنتجهُ البلاد حينئذٍ كان كافياً بل وفوق الكافي لسكانها . اما التصدير فكان شاقاً لقلة وسائل النقل وبعد المسافات . فلم يبقَ أمام البلاد الا الانصراف عن الصناعات الوطنية الى انتاج المواد الخام التي تحتاج اليها المصانع الاوربية . فأسفر كل ذلك ، في عهد اسرة قاجار الضعيفة ، عن سقوط ايران في مهاوي الانحطاط السياسي والاقتصادي سقوطاً كاد ان يقضي على الطبقة المتوسطة

فلما اهلَّ القرن العشرون كان ميزانها التجاري منحرفاً ضدها بمقدار ٣٠ في المائة وكان كثير من عقاراتها مرهوناً للبنوك الاجنبية . وانحطت زراعتها وصناعتها الوطنية وهبط عدد سكانها . ثم كانت ثورة سنة ١٩٠٦ فأُنشىء مجلس نيابي ولكن الفساد السياسي كان متأصلاً فلم يستأصلهُ الانقلاب الى حكم نيابي ، وكان كثير من رجال الحكم يرتشون من الاجانب (مجلة الشؤون

الخارجية يناير ١٩٤١ ص ٢٩٦ وعليها الاعتماد في معظم هذا المقال) . فلما عقد الاتفاق الروسي البريطاني سنة ١٩٠٧ كان في طياته ما يشير الى احتمال تقسيم ايران على نحو ما قسمت بولندة . وأما اعمال الاصلاح المرتقبة فكانت على الغالب لا تتعدى مرحلتها الاولى على نحو ما تمّ عند ما اخرج مورجان شوستر من البلاد اجابة للمساعي الروسية

فلما نشبت الحرب العامة سنة ١٩١٤ أُنكر على دولة ايران حقوق المحايدين التي ينص عليها القانون الدولي . فلما ارتفع صوت الرئيس ولسن منادياً « بحق تقرير المصير » انبعث رجاء جديد في صدور الايرانيين . ولكن موقعهم الجغرافي ونضال المصالح الاوربية المختلفة في تلك البلاد قضى على هذا الرجاء في مهده . وغدت المسألة الاولى بعد الحرب ، ايُّ الدول تفوز بالنفوذ الفعّال في تلك البلاد بعد خفضها الى مستوى مستعمرة ، أتكون روسيا الشيوعية ام بريطانيا الرأسمالية

والجواب الذي خطَّهُ الشاه رضا بهلوي في سماء بلاده هو هذا — لا روسيا ولا بريطانيا — . والواقع ان التنافس بين الدولتين اسدى خدمة الى قضية الحرية والاستقلال في ايران . ففي ٢٧ يوليو سنة ١٩١٨ اعلنت الحكومة الايرانية الغاء المعاهدات القائمة على غير مبدإ المساواة . وسلّم البولشفيك بانتهاء المعاهدات الروسية الايرانية جميعاً وتخلّوا عن الامتيازات والديون التي كانت لروسيا في ايران قبل عهدهم . اما بريطانيا فكانت اموالها المثمَّرة في تلك البلاد اعظم جداًّ من اموال روسيا فخشيت تقدم روسيا الى الهند عن طريق ايران فحملت ايران على توقيع معاهدة ، لو نفذت لوضعت ايران تحت اشراف لندن . ولكن انقلاباً وقع في ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ فتقلّد جماعة من الوطنيين مقاليد الحكم وندّدوا بالمعاهدة البريطانية . وكان عملهم هذا قرعة مدويّة في بوق الحرية الايرانية . ومنذ ذلك الحين تمكنت حكومة ايران من اتقاء نفوذ روسيا بمقابلته بنفوذ انكلترا وبالعكس . والنجاح في هذه الخطة يعزى الى شخصية رضا خان الذي نشأ من صفوف الجيش الى مقام وزير الحربية فرئيس للوزارة فرئيس موقت للحكومة الموقتة التي اعلنت على اثر اسقاط اسرة قاجار في سنة ١٩٢٥ ثم اعتلى العرش في دسمبر سنة ١٩٢٥ بمشيئة الامة وانشأ اسرة بهلوي الشاهانية في ايران. وقد كان غرض الشاه رضا بهلوي واضحاً لناظريه منذ حمل السيف في خدمة بلاده ، فلما بلغ المقام الذي يؤهله للعمل اتجهُ الى هدفين اساسيين اولهما السيادة التامة داخل البلاد والاستقلال التام في الخارج. ولكنهُ ادرك كذلك انهُ اذا حققت ايران استقلالها المنشود فهي لا تستطيع المحافظة عليهِ الاّ اذا نظمت نفسها وأخذت بأساليب أوربا

ما كاد رضا خان يزيل من طريقه العقبات السياسية الاجنبية حتى اتجه الى تأكيد سلطة الحكومة المركزية ، على جميع انحاء البلاد ، بعد ان كانت المناطق البعيدة عن العاصمة في حالة فوضى منذ منتصف القرن الماضي . وادرك انه لا يستطيع تحقيق هذا الغرض الاّ اذا كان

له قوة عسكرية في وسعه الاعتماد على ولائها ، فيحلها محل الوحدات العسكرية المواربة التي بقيادة الضباط الاجانب . فأنشأ في آخر سنة ١٩٢١ جيشاً ايرانيًا قلباً وقالباً ووضعهُ تحت سلطة وزير الحربية ثم تولى بنفسه قيادة هذا الجيش فأخضع بهِ البلاد كلها . فما اشرقت سنة ١٩٢٥ حتى كانت سلطة الحكومة المركزية مبسوطة على كل ايران . وفي تلك السنة قرر المجلس النيابي وجوب تسجيل المواليد والوفيات وعقود الزواج . وسُنَّ قانون بجعل الخدمة العسكرية اجبارية ومدتها سنتان مستثنياً منها خريجي الجامعات

وقد اطردت الزيادة في عدد رجال الجيش الايراني حتى بلغت في السنة الماضية بحسب ملحق دائرة المعارف البريطانية (١٩٣٨) ١٠٠ الف جندي . وجميع ضباط الجيش ايرانيون وثلثهم تلقى علومه العسكرية في فرنسا والمانيا . وهناك قوة عسكرية لصيانة الامن العام يطلق عليها اسم « الامنية » عدد رجالها نحو ١٢ الف جندي وضابط . وقد روى لنا من سافر الى ايران ان رجالها يرتدون ملابس زرقاً فاتحة وقبعات كقبعات الجنود الفرنسيين وهم يسيرون على الطرق ازواجاً يحرسونها . ولايران علاوة على ذلك اسطول بحري صغير في خليج ايران تلقى ضباطهُ تدريبهم البحري في ايطاليا ، وثمة كذلك نواة لسلاح جوّي . يقدَّر عدد طيّاراتها بمائة وخمسين طيارة حديثة معظمها على ما يقال من طراز « هوكر » و « ده هاڤيلاند »

وقوى الدفاع جميعاً خاضعة لاشراف الشاه المباشر ولا سيطرة للمجلس النيابي عليها . والانتظام في الجيش محبّب للشعب ولا سيما الشبان لما يتاح لرجاله من وسائل التعلّم والتثقف ولما لهُ من مقام واحترام احرزها منذ تولى الشاه اصلاحهُ وتعزيزهُ وجعلهُ « يدهُ اليمنى » في انهاض البلاد

وتلا اصلاح الجيش وتنظيمهُ الاصلاح القضائي . ففي ١٩٢٧ حلّت وزارة العدلية جميع المحاكم القديمة وشرعت في وضع قوانين جديدة واصدارها . فالقانون المدني ينص على حماية الملك والعقود وينظم الزواج والطلاق ويمنع المتعة . والقانون الجنائي ينص على حماية الحريات الخاصة وان كان الحكم أميل الى النوع الدكتاتوري . والقانون التجاري روعي في وضعهِ تنظيم الاعمال الاقتصادية والمالية فهو يقضي مثلاً بفرض نظام عام لامساك الدفاتر ويمنح الشركات « شخصية قضائية »

اما التعليم والادارة فتستمد ايران ارشادها فيهما من فرنسا . ذلك بان التركيز الاداري الذي اشتهرت بهِ فرنسا يلائم احوال ايران والثقافة الفرنسية لها مقام خاص عند الايرانيين . وفي كل سنة يعود طوائف من الشبان الايرانيين الذين تلقوا العلم في فرنسا اما على حسابهم الخاص واما على حساب الحكومة ، للاشتغال بتوسيع نظام التعليم . فعدد المدارس تضاعف منذ سنة ١٩٢٢ والعناية متجهة بوجه خاص الى تعليم الحرف والصناعات والى ربط الخدمة العسكرية بالواجبات الوطنية . وتكثر المدارس الليلية لخفض مستوى الامية في البلاد من ناحية ولتدريب موظفي الحكومة

تدريباً يمكنهم من الترقي في مناصب الحكومة من ناحية أخرى . ولا تزال المعاهد العلمية الاجنبية مثل كلية ستوارت التذكارية في اصفهان وكلية المرسلين الاميركيين في طهران تخرج شباناً مزوّدين بما يلزم من الكفاءة والوطنية لخدمة بلادهم

اما المشكلة الاقتصادية المعقدة التي واجهها الشاه رضا بهلوي في إيران ، فكانت اصلاح الحياة الاقتصادية في البلاد بعد ان أصابها الخلل والاضطراب على أثر دخول البضائع الاوربية الرخيصة اليها ومنافستها للصناعات الوطنية

أما الصناعة فلا تزال في مهدها . فأكبر مصنع في البلاد للنسيج لا يزيد عماله على ٥٠٠ عامل . وصناعة السجاد التي يصدَّر ٩٥ في المائة من منتجاتها اصيبت اصابة شديدة في أثناء الازمة الاقتصادية العالمية ورفع الرسوم الجمركية في مختلف البلدان ولا سيَّما في الولايات المتحدة الاميركية ، التي كانت تبتاع نصف ما تصدرهُ ايران من السجاد . والزراعة لا تزال عمل ٨٠ في المائة من أهل البلاد بما فيهم القبائل الرحَّالة . وفي البلاد مصادر معدنية ثمينة ولكنها لم تستغلّ إلاَّ قليلاً — اذا استثنينا النفط — وأهمها الحديد والفحم والنحاس والرصاص والمنغنيس والرخام والنيكل والكوبلت

وقد بلغ ما استخرجتهُ « شركة الانجلو برشان » من النفط من منطقة امتيازها في سنة ١٩٣٧ تسعة ملايين ونصف مليون من الاطنان

ثم هناك زراعة الخشخاش الذي يستخرج منهُ الافيون . فمن نحو اربعين سنة اضطرت ايران ان تعنى بزرع نبات ينتج محصولاً يسهل نقلهُ فأقبلت على زراعة الخشخاش حتى بلغ ٧٫٥ في المائة من الدخل العام و١٦ في المائة من الصادرات في سنة ١٩٢٦ ، من هذه الزراعة

ولما كانت عصبة الامم معنيَّة بالسيطرة على تجارة الافيون في مصادره ، أوفدت في سنة ١٩٢٧ لجنة الى إيران لدراسة الموضوع فيها . فقالت اللجنة في تقريرها ان محصول الخشخاش محصول يلائم ايران كلَّ الملاءمة . فهو يزرع في الخريف ولذلك يروى بغير عناءٍ عندما يكثر الماء . وقيمة ما يجنى منهُ من الفدَّان الواحد يزيد اربعة اضعاف على ما يجنى من الحنطة ، فلذلك يسهل على أصحابهِ ان يتحملوا نفقات النقل العالية ، ثم انهُ يصدَّر ولذلك يمكن البلاد من استعمال ثمنهِ في توفية ثمن ما تستورده من الخارج . ثم اقترحت اللجنة ان توجه الحكومة الايرانية عنايتها الى شق الطرق وخزن المياه وتحسين الاساليب الزراعية وانعاش الصناعة الكاسدة ، وان يتاح للحكومة الايرانية ثلاث سنوات للبحث عما يصحّ ان يحلَّ محلّ الخشخاش كمحصول زراعي ثم تشرع في نقص المساحة المزروعة منهُ ١٠ في المائة كل سنة بعد ذلك . فأنشأت الحكومة الايرانية « احتكار الافيون الحكومي » وجعلت زراعة الخشخاش خاضعة لرخص خاصة وضرائب خاصة وحظرت زراعتهُ في أراضٍ جديدة ووضعت برنامجاً قضت بواسطتهِ على منع زراعة الخشخاش في

مناطق معينة. ومع ان الحكومة اعفت من الضرائب، تلك الاراضي المحولة من زراعة الخشخاش الى زراعة حاصلات اخرى، لم يكن ثمة بدٌّ من ان يكون هذا التحويل بطيئاً . فليس بالسهل ان يتحول الفلاح من زراعة نبات معين ألفهُ وألف اساليب العناية بهِ الى زراعة نبات جديد ، دع عنك الاستيثاق من الملاءمة المفروضة بين الارض والنبات الجديد . وصادرات الافيون الايرانية آخذة في النقص المطرد حتى ان الجمعية العمومية لعصبة الامم وضعت قراراً خاصاً اعربت فيهِ عن تقديرها لما ابدتهُ الحكومة الايرانية من التعاون وحسن النية في هذا الصدد

والحالة من الناحية المالية خيرٌ منها من الناحية الاقتصادية . فقواعد الاصلاح المالي الذي بدأه الخبير الاميركي الدكتور ملسبو Millspaugh في سنة ١٩٢٢ لا تزال هي هي، قواعد السياسة المالية المتبعة الآن وأهمها السعي سعياً حازماً لتوفية النفقات من الدخل العادي . ويؤخذ من احصاءات سنة ١٩٣٤ ان ٣٠٫٤ في المائة من الميزانية جاء من الرسوم الجمركية و٢٢٫٤ في المائة من شركات الاحتكار (السكر والشاي وعيدان الثقاب والتبغ والافيون والقطن وغيرها) و ١٧٫٦ في المائة من الامتيازات الممنوحة للاجانب . أما النفقات فمنها ٣١٫٤ في المائة للجيش والدفاع الوطني و ٥٧٫٢ في المائة للادارة. وقد بلغت الميزانية في سنة ١٩٣٧ مبلغ ١٥٫٦٢٥٠٠٠ جنيه للدخل و ١٥٫٦٠٠٠٠٠ جنيه للنفقات . ويشهد جميع الكتاب الذين زاروا ايران حديثاً ان موازنة الميزانية من ابواب الدخل العادي لمواجهة النفقات التي تقتضيها مشروعات الحكومة المتعددة، عمل عظيم حقاً

واهمُّ ما تحتاج اليهِ البلاد من الناحية الاقتصادية الآن تمهيد طرق المواصلات . والحكومة الحالية جادة في هذا العمل وهي تنفق على مشروعاتها من مال ايران نفسها بغير ان تلجأ الى عقد قروض اجنبية . ومن اهم هذه الطرق انشاء سكة حديد طولها ١٥٠٠ كيلو متر من خليج ايران الى بحر قزوين طرفاه بندر غازي على بحر قزوين وخور موسى على خليج ايران . والظاهر ان الاعتبارات العسكرية والسياسية مقدمة على الاقتصادية في مد هذه السكة ، ولذلك قد تنقضي سنوات قبل ان تصبح هذه السكة مصدراً للدخل ، ولكنها ستكون ذات شأن عظيم في حفظ الامن العام وتعزيز وسائل الدفاع

ولعلَّ الغاء الامتيازات الاجنبية أشهر مآثر الشاه رضا بهلوي في اصلاح ايران وتعزيز سيادتها واستقلالها . ففي سنة ١٩٢١ كانت الدول الاجنبية في ايران فريقين : فريقاً يتمتع أبناؤه بالامتيازات وآخر خاضع للمحاكم الايرانية كروسيا وتركيا وافغانستان ودول أوربا الجديدة . وكانت دول الفريق الثاني برمة بهذا التمييز . ولذلك جعل الروسيون يسعون الى الفوز بالعودة الى نطاق الامتيازات لان ذلك يسهّل عليهم بث دعايتهم في ايران ومنها الى حدود الهند .

أما بريطانيا فكانت تؤثر الخضوع للمحاكم الايرانية على التسليم بما يمكن روسيا من بث دعايتها على حدود الهند. فلم تقم عقبة ما من ناحيتها، دون رغبة الحكومة الايرانية في الغاء الامتيازات

وقد الغيت الامتيازات فعلاً في ١٠ مايو سنة ١٩٢٨ . فكان ذلك فوزاً سياسيًّا كبيراً لحكومة طهران واحتفل بذلك اليوم احتفالاً قوميًّا . وعقدت بعد ذلك معاهدات مع الدول المختلفة أعترفت فيها جميعاً بمساواة ايران لها. ولكن نصَّ في معظم المعاهدات الجديدة على استثناء الاجانب المقيمين في ايران من مصادرة أملاكهم وحملهم بالقوة على العمل للدولة او الاشترك في قروضها وما أشبه . وبالغاء الامتيازات استعادت ايران حريتها في ما يتعلق بفرض الرسوم الجمركية وللحال شرعت في المفاوضات لعقد معاهدات تجارية جديدة . وانتهت جميع هذه المساعي في ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١ الى سن قانون خاص « باحتكار التجارة الخارجية » ففرضت الحكومة نظاماً من الحصص على الوارد اليها لكي تتمكَّن من تصحيح الميزان التجاري بين الصادر والوارد

ومما يتبع الاصلاح الاقتصادي والمالي ، الاصلاح الاجتماعي ، من حيث بث الروح الوطنية لتكون الرابطة القوية بين ابناء ايران وتحرير النساء والاستغناء عن الموظفين والخبراء الاجانب وما يتعلق بالملابس وغيرها

هذه الاعمال مكَّنت الشاه رضا بهلوي من تعزيز سلطة الحكومة المركزية وكسر شوكة السيطرة الاجنبية على مرافق البلاد . ومع ما أحرزتهُ الحكومة الايرانية من انتصارات باهرة في هذه الميادين لا يزال يتعين عليها ان تتقي الضغط الروسي عليها بمقابلته بالضغط البريطاني ، وان تتقي الضغط البريطاني بمقابلته بالضغط الروسي

وجميع العوامل السياسية الخارجية ، سواء أدولية كانت أم خاصة بها ، تؤاتيها على هذا

فقد كانت خطة روسيا السوفيتية في بادىء الامر ان تحارب الرأسمالية في الغرب ، باضعاف الامبريالزم الاوربي في الشرق . ومع ان شيوعيي روسيا يزعمون انهم راغبون عن التوسع الامبراطوري ويميلون الى الشعوب المستعمرة او التي في حكم المستعمرة ، لا يمكننا ان نعزو سلوكهم في ايران اذ قبلوا الغاء الامتيازات والديون القيصرية السابقة ، الى روح الايثار فقط ، بل ان جانباً منهُ لا بدَّ ان يعزى الى رغبتهم في خضد شوكة بريطانيا في الشرق الاوسط والهند . ثم انهم كانوا يرغبون في ان يجتذبوا اليهم جميع الشعوب المجاورة التي بينها وبين بعض القوميات الداخلة في اتحاد الجمهوريات السوفيتية صلة قرابة. وهذا هداهم الى انشاء كتلة من الدول في الشرق الاوسط اذ عقدوا معاهدات مع تركيا وايران وأفغانستان في سنة ١٩٢١

ولكن الروسيين خسروا في حلبة الاعمال الاقتصادية ما كسبوهُ في ميدان السياسة ذلك بأن اعمال « قسم احتكار التجارة الخارجية الروسية » أثارت مقاومة تجار ايران واحتجاجهم وانهالت

على الحكومة الايرانية في سنة ١٩٣٤ مطالب التجار بأن تتوقف الحكومة عن معاملة روسيا او ان تجعل «قسم احتكار التجارة الخارجية الايرانية» شديداً كصنوه الروسي

ثم جاء النزاع بين ستالين وتروتسكي ففاز ستالين ، وتغلب القول بتطبيق الشيوعية في روسيا أولاً على الدعوة الى الثورة العالمية . ولذلك جعلت حكومة روسيا تكفّ عن مساعيها السياسية في البلدان المجاورة لها وقد انتهى هذا الاتجاه الروسي القائم على « المعيشة بسلام والتعاون مع الدول الرأسمالية » الى انتظام روسيا في عصبة الامم في سنة ١٩٣٤

ولكن على الرغم من ذلك لا تزال عناية روسيا بالشرق عظيمة ، بل لعلّها اعظم الآن مما كانت . ومتتبعو تقدم روسيا الصناعي يؤكدون ان نصف ما انفقته الحكومة الروسية في مشروع السنوات الخمس الثاني أنفق في البلدان الواقعة الى الشرق من جبال الاورال . فانشاء المصانع الكبيرة في تلك المنطقة لا بدّ ان يفضي عاجلاً أم آجلاً الى البحث عن أسواق لمنتجاتها في البلدان المجاورة . إلاّ ان روسيا موجهة الآن معظم عنايتها الى الغرب والشرق الاقصى . فاهتمامها بالشرق الاوسط قليل ، وفي هذا فرصة متاحة لايران لتعزّز مكانتها وتؤيد استقلالها

أما بريطانيا العظمى قد شقّت طريقاً جديداً في علاقاتها بايران بعد ان سوّي الخلاف على مشكلة شركة النفط (الانجلو برشان) في سنة ١٩٣٣ . ويمتدّ صكّ الامتياز الجديد الذي وقع في ابريل من سنة ١٩٣٣ ستين سنة وأقل نصيب تنالهُ الحكومة الايرانية من أرباح الشركة هو ٧٥٠ الف جنيه في السنة — وقد بلغ في السنة الماضية نحو ٣ ملايين من الجنيهات — يضاف اليها مبالغ أخرى مثل مبلغ ١٠ آلاف جنيه لتعليم الايرانيين شؤون صناعة النفط . ثم ان السر جون كادمن المدير المقيم في طهران قام باسم الشركة بأعمال من شأنها أن توثق عُرى التعاون بين الشركة وحكومة طهران . وقد عنيت الشركة باقامة مصنع لتكرير البترول في كرمنشاه يدفع اليه النفط بالضغط من حقل خانقين الواقع على حدود ايران العراقية . وقد كان نفط باكو الروسي محتكراً للسوق في شمال ايران لغلاء أجور النقل من عبادان على خليج ايران الى الشمال . فاتمام مصنع كرمنشاه يمكن الشركة البريطانية من منافسة النفط الروسي في تلك المنطقة. واذا صرفنا النظر عن النزاع بين بريطانيا وايران على السيادة على جزر البحرين ، كان في وسعنا أن نقول أن علاقات الحكومتين متسمة بسمة التفاهم والتعاون. وعلاوة على ذلك فبريطانيا تؤيد توثيق عُرى التعاون بين دول الشرق الاوسط المتمثلة في ميثاق سعد أباد (طهران) الذي عقد في السنة الماضية بين تركيا وايران والعراق وافغانستان

ولعلّ اكبر نصر سياسيّ احرزتهُ ايران الحديثة هو تحويل تركيا عدوتها القديمة الى صديق حميم . فقد كانت العلاقات بينهما على اثر انتهاء الحرب الكبرى مشوبة بالجفاء الشديد فلم تعقد

بينهما معاهدة صداقة حتى سنة ١٩٢٦ ثم تلاها اتفاق على التعاون الاقتصادي في سنة ١٩٢٨ فلما عينت الحدود في سنة ١٩٢٩ بين الدولتين اخذ اقطاب البلادين يتبادلون الزيارات الودية، ولعل اشهرها زيارة الشاه لانقره واستانبول في شهر يونيو من سنة ١٩٣٤

وفي سبتمبر من تلك السنة ، نزلت ايران عن ترشيح نفسها للمقعد الخالي في مجلس العصبة لكي لا تنافس تركيا عليه فردّت تركيا التحية بمثلها في سبتمبر من سنة ١٩٣٧

وليس بين ايران وافغانستان ما يثير مشكلة ما . فقد كان الافغانيون جزءاً من الامبراطورية الفارسية ولا يزالون يتكلمون اللغة الفارسية . نعم ان مسألة الحدود بين الدولتين احدثت شيئاً من الجفاء في سنة ١٩٢١ ولكن الدولتين قبلتا تحكيم تركيا فعينت لجنة لتخطيط الحدود وذهبت الى المنطقة الخاصة في يونيو سنة ١٩٣٤ وتمكنت من حلّ الخلاف وعلى اثر ذلك دخل الفريقان في ميثاق سعد اباد (طهران) سنة ١٩٣٧

أما ايران والعراق فقد كان بينهما فتور نشأ عن توقف حكومة طهران عن الاعتراف بالدولة العراقية الجديدة واشتراطهم لذلك منح الرعايا الايرانيين النازلين في العراق حق التمتع بالامتيازات الاجنبية واباء الحكومة العراقية عليهم ذلك . على ان مسألة الاعتراف قد حلت بعد ذلك في سنة ١٩٣١ عقب زيارة الملك فيصل لطهران في شهر ابريل من تلك السنة فقد اعترفت الحكومة الايرانية بالدولة العراقية وعقدت معها اتفاقاً وقتيًّا وتبادلت معها الممثلين السياسيين

ولما جاء دور البحث في تنظيم العلاقات السياسية والاقتصادية اثار الايرانيون مسألة الحدود مطالبين بتعديل التحديد ومعلنين انهم لا يعترفون باتفاق الحدود الذي عقد في سنة ١٩٢٣ بين ايران والدولة العثمانية بحجة ان برلمانهم لم يقره ، وأصرّ العراقيون على رفض طلب التعديل لان الاتفاق قديم ولانهُ نفذ فعلاً

ولما تمسك الايرانيون بموقفهم وأبوا التساهل مع العراقيين رفع وزير الخارجية العراقية في سنة ١٩٣٣ الامر الى عصبة الامم طالباً منها التوسط لازالة الخلاف وحمل ايران على الاعتراف بعهودها فانتدبت العصبة السنيور الويزي مندوب ايطاليا لدرس الخلاف ثم عاد الفريقان في سنة ١٩٣٥ فسحبا بالاتفاق القضية على ان تحل بينهما باتفاق مباشر وقد تم ذلك فعلاً فعقدت في شهر يوليو سنة ١٩٣٧ سلسلة اتفاقات بينهما حلت بموجبها جميع المشكلات ونظمت العلاقات السياسية والاقتصادية والقضائية بين البلادين على اساس ثابت . ثم دخل الفريقان معاً في الميثاق الشرقي الذي عقد في سعد اباد (طهران) عقب ذلك

واستقبلت علاقات الفريقين بعد هذا الاتفاق دوراً جديداً من الود والاستقرار وهي على افضل ما يرام في الوقت الحاضر

مكتبة المقتطف

الجزء الثامن من الاكليل (١)

ترجمته الانكليزية — بقلم نبيه امين فارس — ثمنها ٥٠ قرشاً — مطبعة جامعة برنستون

نشرنا من أشهر مقالاً بقلم ادورد جرجي موضوعهُ « العلوم العربية في برنستن » أشار فيهِ الى المشروع الذي اخذ بهِ الدكتور فيليب حتي رئيس دائرة العلوم الشرقية في تلك الجامعة العريقة وهو نقل أمهات الكتب العربية الى اللغة الانكليزية وطبعها . وترجمة الجزء الثامن من الاكليل للهمداني من بواكير هذا المشروع العلمي العظيم الشأن

والهمداني من علماء جنوب بلاد العرب المشهورين ولد في صنعاء ولم يعرف تاريخ ميلادهِ وضرب في شبه الجزيرة العربية ثم عاد الى اليمن ونزل في صعدة . ثمَّ سجن في صنعاء وكان سجيناً في عهد الامام الزيدي أحمد الناصر (حوالي ٣١٥هـ ٩٢٧م) ومات في سجنهِ . وأشهر ما اشتهر بهِ الهمداني الجغرافية والاسفار ثم الشعر والنحو والانساب والتاريخ . وكتاب « صفة جزيرة العرب » من أقدم وأتم الكتب التي يعتمد عليها في دراسة بلاد العرب ولا سيَّما جغرافية البلاد وصلة قبائلها بعضها ببعض وبوجهٍ خاص ما كان منها خاصًّا بموطنهِ جنوب بلاد العرب

وجنوب بلاد العرب كان على حضارة راقية ليس لنا من سبيل الى دراستها الاَّ بعض الكتابات الحميرية التي كشفها جوزيف هاليفي (١٨٦٩—١٨٧٠) وادوار جلازر (١٨٨٢—١٨٩٤) إلاَّ ان الهمداني كان من علماء الاسلام الذين عنوا بتلك الحضارة وكتب عنها ومن هنا ما للجزء الثامن من الاكليل من شأن كبير في دراسة احوال تلك البلاد قبل الاسلام

واذا ذكرنا الجزء الثامن من الاكليل فلأنهُ لم يصل الينا من أجزاء ذلك السفر النفيس الاَّ جزآن الثامن والعاشر ، وأما الاجزاء الباقية فقد تطرقت اليها أيدي الحدثان . والثامن الذي يهمنا في هذه الكلمة يكشف لنا « ان قدماء اليمانيين بلغوا اقصى الغاية في الرياضيات وجرّ الاثقال لانهم عرفوا كيف يشيدون قصوراً نفيسة متعددة الطباق حتى بلغت عشرين سقفاً ويقاوم بناؤها مرَّ الايام وطوارئ الحدثان . . . ثم انهُ يبين لنا كيف كانوا ينحتون تماثيل البشر والحيوانات والطيور، ويطلعنا على إحكامهم عمل الآلات المتحركة من نفسها وكذلك الساعات المائية العظيمة المعروفة بالقطارات . . . » (٢)

ولا تزال قصورهم وسدودهم مضرب الامثال في اللغة العربية الى يومنا هذا

---

(١) The Antiquites of South Arabia, VIII Book of Al-Hamadani's Al-Iklil, Nabih Amin Faris, Princeton University Press 1938, $ 2. 50

(٢) راجع ملحق طبعة الكرملي للجزء الثامن من الاكليل

وقد حفظ من الجزء الثامن من الاكليل نسخ متفرقة في المتحف البريطاني نسخة كتبت سنة ١٦٧٦ وفي المكتبة الملكية ببرلين نسخة يرجع تاريخها الى سنة ١٦٧٤ . وكان العلاَّمة مولر D. H. Muller قد اهتم بنسخة المتحف البريطاني فنشر جزءًا منها مع ترجمته باللغة الالمانية في سنة ١٨٧٩ . ولكن احداً لم ينشر نسخة كاملة من الجزء الثامن من الاكليل قبل الاب انستاس ماري الكرملي وذلك في سنة ١٩٣١ (راجع مقتطف ابريل ١٩٣٢ صفحة ٤٨٧)

وكان الدكتور حتي مهتمًّا باصدار نسخة تامة من هذا السفر النفيس بعد مقارنة المخطوطات المختلفة فلما ظهرت نسخة الاب الكرملي عدل عن ذلك ، ولكن مترجم هذا الكتاب لا يزال يرى ان نسخة الكرملي لا تغني عن نسخة اخرى اوفى تحقيقاً وتدقيقاً وشرحاً واسناداً

وكان الباعث على عناية الدكتور حتي في سنة ١٩٢٥ بالاكليل انهُ عثر على نسخة كاملة من الجزء الثامن في مجموعة مراد البارودي بلبنان . ثم بيعت هذه المجموعة الى الثري الاميركي روبرت جاريت واودعها في خزانة جامعة برنستون التي تخرَّج فيها . وعلى نسخة الاب الكرملي المطبوعة ومخطوطة البارودي وما نشره مولر اعتمد نبيه امين فارس في اخراج الترجمة الانكليزية مشيراً في هوامشه الى نسخة الكرملي بالحرف K والى مخطوطة البارودي بالحرف B والى ما نشره مولر بالحرف M

وقد نبَّه في الهوامش على القراءات المختلفة وسعى الى تعريف كل اسم علم ومكان وحيث عجز عن تعريف بعضها أشار الى ذلك في الهوامش أيضاً . كما انهُ اضاف حواشي جغرافية وتاريخية ولغوية حيث رأى لزومها لتوضيح المتن ولم يحجم عن تجاوز ترجمة بعض الاشعار « كمراثي حمير » لاسباب وجيهة ولكنهُ أشار الى كل حذف او تعديل في مكانهِ . وامله ان تسدّ الترجمة الانكليزية الثغرة الى حين ظهور نسخة عربية وافية

فالمتن المترجم في هذا الكتاب هو ما اصطفاهُ المترجم بعد المقابلة بين النسخ الثلاث وتدبُّر سياق المعنى والقرينة ، فاذا اختار قراءة إحدى النسخ أشار الى القراءتين الاخريين في الهامش ، واذا اصطفى قراءة خاصة بهِ أشار الى ذلك أيضاً فيورد قراءات النسخ الثلاث ثم يتبعها بكلمة و« يرجّح انها كذا » . ففي الهامش ٣٥ صفحة ١٤

يقول (الكرملي : ذات خراب — ملر والبارودي : ذات خروب — ويجب ان تكون ذات جروب اي حجارة) وكان هو قد اصطفى في المتن الانكليزي الكلمة التي معناها حجارة

وفي الهامش ٦ صفحة ٢٩ اصطفى قراءة نسخة الكرملي مفضلاً ايَّاها على قراءة البارودي وقراءة مولر وهما واحدة . وفي صفحة ٣٤ سطر ١٩ فضَّل ما ترجمته . العصر القديم على قراءة الكرملي والبارودي وهي القصر القديم وقراءة ملر وهي العصُّ القديم

وعلى هذا النسق من التحقيق اخرجت الترجمة الانكليزية لهذا السفر العربي النفيس

كتاب الشذرات

At Random

تأليف الدكتور أحمد زكي ابو شادي

للدكتور أحمد زكي ابو شادي حيوية فذة نادرة ونشاط لا يكل فهو اذا فوجيء من ناحية بمانع من الموانع تسرَّب من ناحية أخرى فعل الماء المتدفق الذي يتلمس كل منحدر وثغرة . وللدكتور أمل كبير في الانسانية قلما يعدله امل وهو ليس أمل الجاهل لحقائق الحياة فانهُ قد يذكرها بسخط يدل على معرفتهِ مقدار تغلغل النقص في النفس البشرية ولكنك اذا قرأت كتابهُ هذا ولا سيما الاجزاء التي يصف فيها الدكتور الدواء للانسانية السقيمة المعذبة نسيت أنهُ يعرف مقدار النقص وما يقيمهُ من العراقيل والموانع . وخيل اليك خطأً انهُ ساذج لهُ أمل كبير في مستقبل الانسانية لانه لا يدرك العراقيل . ولكن هذا كما قلت من خطإ القارىء فالدكتور قد كان طبيباً للاجسام قبل ان يكون طبيباً للنفوس وللانسانية عامة وهو يعرف ان بين المرضى العنيد الذي لا يطيع الطبيب ولا بد انهُ قد رأى بين مرضاه من لم يفلح معه طب او دواء والطبيب الشاب في اول عهده بالطب قد يكون عالماً كبيراً وخبيراً بمهنتهِ فيأمل ان يتغلب على مقاومة المريض بعلمه وخبرته ولكنهُ لا يضع أمام بصيرتهِ خطة واضحة للتغلب على عناد المريض ومقاومته والدكتور المؤلف طبيب قديم وهو يصف العلاج ولا بدَّ انهُ قد عرف كيف يتغلب على عناد المريض ولكن ليعذرني الدكتور اذا قلت انهُ يخيل اليَّ ان الخطة التي يتخذها الماكرون من دهاة الاطباء في التغلب على عناد المرضى لم يتخذها الدكتور للتغلب على عناد الانسانية . على ان عناد الانسانية اساس حياتها وفيه نفع كبير فان الانسانية تستفيد من عاطفة المحافظة على القديم كما تستفيد من عاطفة التجديد والرغبة في التغير . ولا تنكر انهُ اذا اختل التوازن بين العاطفتين وطغت واحدة على الاخرى كان الخلل الذي تعمل الحياة على محاربتهِ حتى يضمحل . والدكتور المؤلف يعتقد ان عاطفة المحافظة على القديم طاغية على عاطفة الرغبة في التغير والاصلاح وكل راغب في الاصلاح والتغيير يعتقد مثل هذا الاعتقاد كما ان المحافظ على القديم يعتقد عكس ذلك اي يعتقد ان الرغبة في التغيير والتجديد طاغية على الرغبة في المحافظة على القديم وتكاد تغرقها وكل منهما يعتقد ان التوازن قد اختل في حياة الناس في هذا العصر إما بسبب الرغبة في التغيير وإما بسبب المحافظة على القديم . ولنعد الى عناد الانسانية فأقول : اني لا أريد ان ألوم الدكتور وان أحثهُ على اتباع مكر الاطباء الدهاة فاني لا أعرف كيف يكون هذا المكر وربما كان غير لائق بالكماليين (Idealists) أمثال الدكتور أبي شادي بل لعلَّ قوَّة حركة

الاصلاح وشدَّة جهود المصلحين كانت بسبب اندفاعهم فيما هم بسبيله من غير مكر او دهاء. ولعل المكر والدهاء من نقص التفاؤل والايمان بالمستقبل . أما ان الدكتور المؤلف اكثر تفاؤلاً مما تقتضيه حقائق الحياة فمسألة ترجع الى المزاج. ولقد صرت الآن لا أعتقد ان العقل هو السبب الاول في ايجاد المذاهب الفكرية بل أعتقد ان العقل خادم للمزاج والحياة في حاجة الى المفكر الكثير التفاؤل بل لعلَّ الغلبة كانت في كثير من الاحايين للمتفائلين الذين يشكلون حقائق الحياة بتفاؤلهم أشكالاً جديدة وان كانوا في أحايين أخرى كثيرة قد هزموا شرَّ هزيمة بالرغم من تفاؤلهم. وقد أحسن الدكتور صنعاً بذكر المراجع التي يستطيع القارىء ان يرجع اليها للاستزادة من مادة فصول الكتاب ولاستئناف بحثها . ومهما خالف القارىء المؤلف في رأي أو آراء فانهُ لا يستطيع ان ينكر سعة اطلاعهِ وحسن نيته . والكتاب على اي حال ليس لكل قارىء بل هو للقارىء المطلع الذي يستطيع ان ينتقد ما يقرأ من فصول الكتاب وان يناقشها لان كل فصل من فصول الكتاب لو انهُ كتب للقارىء غير المطلع لاحتاج الى تفسير اطول وإسهاب اعظم اذ ان المؤلف قد يكتفي بالاشارة الى الفكرة او المذهب او المبدأ العلمي او المؤلف او الجملة المقتبسة . وقد ذكر المؤلف الاسباب التي حملتهُ على تأليفه باللغة الانجليزية ومنها ان يصل الى جميع القراء المثقفين الذين يستطيعون قراءة اللغة الانجليزية من مصريين وغير مصريين ولكن ليس معنى هذا ان ليس بين قراء اللغة الانجليزية من المصريين من هو شديد التمسك بالقديم كثير المحافظة عليهِ ولا أحسب ان الدكتور المؤلف قد فاتهُ هذا الامر

والمؤلف يدعو الى حسن اختيار النسل الانساني ويرى انهُ أحسن وسيلة لترقية الانسانية ثم يصف الصفات التي تؤدي الى الحضارة العالية ثم يبحث أثر العبقريين في حياة الناس ويؤمن بجليل أثر العبقرية وان اساء الناس احياناً استخدام العبقرية ثم يبحث ايهما اصلح الديموقراطية ام الدكتاتورية وهو ممن يؤمن بالديموقراطية بالرغم من الشكوك التي شرح اسبابها والتي شاعت في هذا العصر . ثم يحث على التسامح الديني وحرية التفكير وعلى المساواة بين الرجل والمرأة ثم يحاول حل مشكلات العالم الاقتصادية واصلاح صلات الامم والاخلاق الدولية وينتهي برجاء وأمل كبير للانسانية . ولا نستطيع في هذه الكلمة الصغيرة الاشارة الى كل رأي من آراء الدكتور وبحثه وبعض مبادىء الدكتور هي مبادىء الحضارة الغربية قبل طغيان النازية والفاشية . ومن أجل ذلك يؤمن بالديموقراطية بالرغم من عيوب القائمين بها ويرفض النازية والفاشية وما كان يستطيع المؤلف مع كثرة موضوعات كتابه ان يفصل الرد على حجج خصومه الفاشية ونظمها الاقتصادية مثلاً . والمؤلف ايمان كبير بالتربية العلمية ويرى أن نشرها في العالم يؤدي الى رقي الانسانية والقضاء على كثير من شرورها فكأنما هي إكسير

الحياة التي طالما بحث عنهُ فلاسفة القرون الوسطى ولـكنهُ مع ذلك يعرف ان الثقافة العالية لا يطالب بها كل آحاد الجماهير وان كان لا بدَّ من غمر أذهانهم في عنصر الثقافة العلمية الحديثة كي يطمئنوا اليها . ولـكن في الكتاب آراء لم يأخذ بها جميع المفكرين بعد على ما أظن ومثل ذلك انهُ في كلامهِ عن الاقتصاد لا يريد ان يكون المال المتداول على قدر رصيد الذهب بل على قدر ثروة الامة حتى الثروة العلمية والمعنوية وليعذرني الدكتور اذا شككت في امكان تطبيق هذا المبدأ فاني قد درست التاريخ وأعرف انهُ كلما حاول الساسة تطبيق هذا المبدأ سببوا فوضى اقتصادية وارتباكاً وفاقة وتعاسة وتدهورت العملة وارتفعت الأثمان وربما كنت شديد المحافظة على القديم ولـكن ربما كان الذنب ذنب دراستي للتاريخ ولمبادىء الاقتصاد القديمة

وبالرغم من نزعة الـكتاب العلمية وغشائهِ العلمي فان القارىء يحس فيهِ عاطفة الشعر ويلمح خياله في اساليب وصفه . ولعل عاطفة الشعر هي التي جعلتهُ في بعض الاحايين لا ينسى خصومه حتى في بعض بحثه العلمي او لعله القلب الذي لـكل انسان والذي يتألم فيتذكر فيكتب متأثراً بألمهِ وذكراه وان كان النسيان أروح وأسعد ان أمكن (**)

فقه اللغة — التذكرة (هامش)

بقلم محمد عبد الجواد (استاذ فقه اللغة بدار العلوم العليا) ١١٢ ص ، قطع المقتطف — مطبعة العلوم ، بشارع الخليج ، القاهرة

قد سبق المؤلف ان نشر كتاباً في اللغة اسماه « التذكرة » (مطبعة المعارف ، ١٩٣٥) ثم صنع له « تكملة » (مطبعة المعارف ، ١٩٣٦) . واليوم يخرج « التذكرة » ، وهي — عندي — أعلى مرتبة وأتمّ نفعاً مما سبقها

« والتذكرة » انما هي تعليق على الالفاظ التي وضعها مجمع اللغة العربية الملكي في مصر . والتعليق تارةً للموافقة والتعزيز واخرى للمجادلة والتفنيد . وقد اضاف المؤلف الى التعليق رسم اشكال الالفاظ الموضوعة . وأحسن بهذا العمل الآخر

وللكتاب مقدّمة لها شأنها ، أحب أن اذكر بعض ما فيها لصحته : ففي رأي المؤلف ان المجمع ينبغي له « ان ينظم محاضرات ودراسات لغوية ، في أبان الدورة او في غيرها ، يجمع اليها العلماء في مصر على الاقل ... ويحمل الناس على مشاركته في بحثه وعمله .. » ، وان يكون لهُ مطبعة خاصة وإلاّ فليطبع مجلته في دار الـكتب ، « وأن يرسل النشرات الى المدارس بما اقره من الالفاظ والمصطلحات العلمية والسائرة » وأن يقلع اعضاء المجمع عن « الاستئثار بعمله وحدهم دون ان يشركوا معهم مراسلين او نحوهم .. » وأن « يكثر المجمع ممن يستشيرهم في المواد الخاصة »

مما راه المؤلف ولا أراه « ان يشغل المجمع الصحف بجلساته واخباره وتفاصيل ما يدور فيها اولاً فأولاً ، حتى لا تأتي قراراته فاترة في المجلة بعد فوات الوقت » ، ذلك ان المجمع لا يندرج في نواحي الحياة العامة ، وإن هو الا لَسحَقٌ لوزارة المعارف . فأنّى له ان يشغل الناس بما يقع الى اعضائه من اسباب العلم والادب

بل قلْ انهُ ينبغي للمجمع ، نهاية كل انعقاد ، ان ينشر شبه بيان لما جرى في جلساته ، حتى يتدبّره المشتغلون باللغة . ولكن هل يُعنى المجمع بآراء الغرباء عنهُ ؟

وأما أعماله فسائرة سير السلحفاة ، للتنازع الذي بين طائفة المجددين فيه وطائفة المقلدين . وأما مجلته فتجمع فيما تجمع قصائد مدح وخطب استقبال الى جانب مقالات تردها ، على غير كلفة ، الى ما سطره الائمة المتقدمون ، وأخرَ مجراة على قواعد لا ترجع الى علم عصري صحيح ، وأخر — وهي نادرة — تشف عن دراية واطلاع وطرافة ، ثم أُخر — وهي المتصلة بالالفاظ والاصطلاحات الموضوعة لا تسكن عطش الكتّاب من ادباء وعلماء ولا عطش الاساتذة والمدرسين

هذا ومن الوجوه التي اصابها المؤلف في تعليقه : ان المجمع ترك « المِسيعَة والمِسجّة مع عربيتها لفظاً واشتقاقاً » ليختار « المالَج وهي فارسية » للدلالة على آلة البنّاء Truelle (ص٣) — وأن المجمع خص لفظة « المِشْجَر » بـ « شمّاعة الدهاليز التي تكون بها مرآة احياناً وبها نتوء تعلق بها المعاطف والقلانس ومكان خاص بالعصي والمظلات » على حين « لفظ المشجر كان احق بـ(الشماعة التي اطلق عليها المجمع كلمة مشجب والتي في شكلها فروع كفروع الشجر) ... لمقاربته للفظ وشكل الشجرة » (ص ٤٥) — وثمة اقوال ساقها المؤلف في التعليق لا تكاد تثبت على النظر فيما اظن . منها :

— تفضيله لفظة « القصر » على لفظة « الطِّزر » للدلالة على « الڤيلا » (ص ٨) لان « القصر » غلب عليه معنى خاص ، وهو يفيد Palace, Palais.

— رأيه انهُ من المستحسن اطلاق لفظ « رب المثوى وربة المثوى » قياساً على « رب البيت وربته » بدلاً مما ذهب اليه المجمع ، اي « أبو المثوى وأم المثوى » على رغم صراحة هذا النص الاخير ووروده في لسان العرب . (ص ٩)

بقي انهُ مما يورث الاسف ان في تضاعيف التذكرة طائفة من الغلطات المطبعية اللاحقة بالالفاظ الافرنجية (مثلاً : ص ٢،س ٢ و١٢ ،ص ٢٣،س١ ،ص ٣٣ ، س ١٦،ص٨٦،س٥) والكتاب في جملته جم الفوائد ب . ف

الاسلام في العالم [(1)]

تأليف الدكتور زكي علي — ٤٢٨ صفحة باللغة الانكليزية — طبع لاهور بالهند

هوذا طبيب مصريٌّ انقلب مؤرخاً واجتماعيًّا . فكان في كتابهِ هـذا صلة بين الشرق والغرب . ذلك بأنهُ قد هالهُ ما رآه في بلدان الغرب من جهلٍ بشؤون الاسلام ومفاخر الحضارة الاسلامية فأخذ على عاتقهِ ان يضع كتاباً مجملاً يستمتع بهِ العامة وترضى عنهُ الخاصة فيكون رسول مودَّة وفهم وعامل استقرار « لان كل خطة أوربية او غربية لا تقيم وزناً للاسلام وما لهُ من قوَّة روحية دافعة نحو الاستقرار لا بدَّ ان تديم الاضطراب والقلق في العالم وهما أصل متاعبهِ » . المقدمة صفحة X

والكتاب قسمان : الاول وهو يشتمل على تسعة فصول تغلب عليهِ النظرة التاريخية المشارفة ، فيها يلخص المؤلف تاريخ الاسلام وقواعده ومفاخر حضارته . فثمة فصل في سيرة النبي العربي الكريم . وآخر في الاسلام : دين ونظام اجتماعي . وآخر في الحضارة الاسلامية وهكذا . والبحث في جميع هذه الفصول آية في الوضوح وحسن السياق . والاسناد متعدد النواحي ، فالمؤلف رجع الى ما كتبهُ المؤلفون باللغات الافرنجية من انكليزية وفرنسية وألمانية ، رجوعه الى أمهات الاصول العربية وما نشر في هذا العصر من الكتب والرسائل في الصحف والمجلات

وأنت تخرج من هـذه الفصول بصورة حيَّة للدين الاسلامي ، وحيويتهِ ومكانتهِ في التاريخ . ففيها تقع على تصحيح لبعض الاخطاء الشائعة في الغرب عن أوامر الاسلام ونواهيهِ ، كما تقع على بسط طريف في وضوحهِ قوي في اسناده لمزايا الاسلام وأثره في الحضارة والاجتماع

والقسم الثاني من الكتاب يعالج حاضر الاسلام ونواحي يقظتهِ وتأثيرها في الحياة الدولية ، في أربعة فصول وملحق ، أما الفصل الاول فعنوانهُ يقظة الاسلام والثاني تحرُّر الاسلام والثالث الاسلام والشؤون الدولية والرابع الاسلام والعالم

ففي فصل « يقظة الاسلام » وهو الفصل العاشر يعرض للنهضة السياسية والاقتصادية والفكرية في بلدان الشرقين الأدنى والاوسط . هنا تقع على ذكر الاعمال والمشروعات الكبيرة في هذه الرقعة التاريخية من سطح الكرة . وعنايتهُ بالسياسة والاقتصاد لم تحجب عن عينيه معالم النهضة الفكرية من ادبية وعلمية وما يبذل من السعي لتوثيق عرى التعاون الادبي والعلمي بين البلدان المختلفة . في هذه الصفحات يطالعك ذكر امراء القلم العربي في الشعر والقصة

(1) Islam in the World, by Zaki Ali, Published by Shaikh Muhammad Ashraf Lahore, India.

والتاريخ والنقد والعلم . ولكن البحث في هذه الناحية ليس قائماً على مجرّد السرد بل على السعي لتبيّن التيارات القوية الخفية من اجتماعية وسياسية ودينية وغيرها .

ولم يقصر المؤلف عنايته على الادب العربي في هذا الفصل بل عرّج على النهضة الحديثة في الادبين التركي والايراني باعتبارهما من الامم الاسلامية . ولم يحصر همّهُ في اعمال الرجال بل خصّ به النهضة النسائية كذلك

وأما الفصل الذي يليهِ وهو فصل « تحرُّر الاسلام » فيحتوي على عرض طيّب للتطورات السياسية الحديثة في « تركيا الكمالية » « ومصر المستقلّة » وسوريا وفلسطين وبلاد العرب والعراق وشمال افريقية وإيران البهلوية وافغانستان والهند والشرق الاقصى

يقول المؤلف ما ترجمتهُ في صفحة ٣٨٠و٣٨١و٣٨٢ : « الاسلام ليس ديناً فحسب بل هو كما بيّنّا حضارة ايضاً ، فهو لا يوجه الشعائر الدينية فقط بل وينشئ المجتمع كذلك ، انهُ طريقة للحياة ، طريقة للتفكير وللعمل ، « نظرة الى العالم » تشمل كلَّ ناحية من النشاط الانساني . . . . ومن الخطاءِ القول ان الاسلام لا يصلح للتقدم ، بمجرد مراقبتهِ في دور معيَّن من الركود او النكوص الظاهر . ذلك بأن الاسلام يحثُّ على البحث ويحضُّ على العلم ، فنظرتهُ الى التقدم نظرة رضىً . والاسلام قاعدتهُ المساواة الاجتماعية والاقتصادية . . . . ان شعار هذا العصر هو الاتحاد وأعظم حاجتهِ الى الاخاءِ العالمي . وكلاهما قد حققا ضمن نطاق الاسلام . فجميع المسلمين اخوان ، وهذه الفكرة الحية تجمع حقيقةً بين المسلمين كأنهم اعضاء أسرة واحدة . ولانتفاءِ فروق الطبقات واللون في الاسلام ، يستطيع مسلمان من بلدين مختلفين ان يتفاهما بأسرع ما يستطيعهُ عضوان في أية هيئة دولية . . . . .

وعلى هذا النمط من بيان مزايا الاسلام كديانة وحضارة ونظام اجتماعي يختم المؤلف كتابهُ بفصل « الاسلام والعالم » . ولكنهُ يلحق بهِ صفحات تحتوي على احصاءات منوّعة خاصة بعدد السكان في الاقطار الاسلامية المختلفة ثم يليه ثبت المراجع وهو يملأ نحو عشر صفحات ويحتوي على اكثر من مائة وخمسين مرجعاً من الكتب ونحو عشرين مجلة وجريدة

والدكتور زكي علي طبيب مصري اشتغل بمستشفى قصر العيني بالقاهرة ثم سافر الى اوربا في بعثة طبية سنة ١٩٣١ فانصرفت عنايتهُ هناك الى تأليف هذا الكتاب النفيس ، بلغة انكليزية تشهد لهُ بطول الباع فيها . وقد أهداهُ الى سمو الخديوي السابق عباس حلمي الثاني ، لان سموهُ رعاهُ واسعفهُ بالمال في أثناء اشتغالهِ بتأليف سفرهِ في أحوال مرهقة

والكتاب بوجهٍ عام ليس دفاعاً عن الاسلام في المقام الاول بل هو عرض تاريخي اجتماعي لمزايا الاسلام ودعوة الى اتخاذ هذه المزايا أساساً لنظام عالمي جديد

مصر والطرق الحديدية

تأليف محمد امين حسونه — صفحاته ٤١٤ قطع وسط

لعلَّ هذا الكتاب الاول من نوعهِ في اللغة العربية — بل في اية لغة على الاطلاق . فهو يتناول تاريخ المواصلات المصرية وبالاخص الطرق الحديدية . فجميع المؤلفات التي دوّن فيها تاريخ مصر الحديث أبى لها مؤلفوها الاَّ ان تكون خالية من البحوث المفصلة في شؤون السكك الحديدية ، وغاية ما احرزتهُ من عناية ان لفَّ هذا الموضوع المتشعّب في سطور معدودة . وكذلك ظل تاريخ السكك الحديدية في مصر اسراراً متناثرة بين جوانح الاوراق الرسمية والتقارير الفنية لا يظهر منها الاَّ النزر اليسير ولا تبدو من احد عناية باستخراج مطويها ولم شتاتها ، الاَّ ان يهتم بهذا الشأن فنيٌّ اجنبيٌّ فينشر بلغتهِ بعض الشيء عنهُ

والسكك الحديدية من مقاييس التقدم الاقتصادي في اي بلاد فهي الشرايين الحيوية التي يجري فيها دم الحياة الاقتصادية من بضائع وركّاب . وقد كانت مصر في مقدمة البلدان التي اخذت بالسكك الحديدية ، وتاريخ سككها مرتبط باسماء اعلام الانكليز الذي استنبطوا هذه الطريقة من طرائق المواصلات ، أمثال جورج ستيفنصن وحفيد تريفنك . فقد كان الاول كبير مهندسي السكة والاشغال والثاني رئيساً لهندسة الوابورات واليهما يرجع الفضل في تحسين وسائل النقل بالبخار في مصر

فالموضوع من اي النواحي طرقتهُ ، موضوع شائق مفيد . ومن العار ان ينشأ الطالب المصري وليس يعرف عن شبكة المواصلات الحديدية في وطنهِ الاَّ امتدادها من القاهرة الى الاسكندرية وبور سعيد شمالاً والى أسوان جنوباً وما قد يكون لها من فروع

فموقع مصر الجغرافي ، وما بذل من الجهد العظيم لمد السكك الحديدية الاولى في البلاد ، وما سبق ذلك من مفاوضات ، وما يرتبط بهِ من انشاء الكباري العظيمة على النيل لمدّ الخطوط الحديدية عليها ، وتطوُّر ذلك وغيره مما يتعلق بهِ من أيام عباس الاول الى عصر جلالة الملك فاروق ، يجب ان يكون قصة تجمع بين نواحي اللذة والفائدة

وقد تكفل بذلك الاستاذ احمد أمين حسونة ، فبعد ان قضى شهوراً يستعد لوضع هذا الكتاب ، بالبحث والتنقيب في المصادر والمراجع الرسمية المتفرقة ، علاوة على الكتب التاريخية لكي يستخرج منها ما كانت عليه أسباب المواصلات قبل مدّ السكك الحديدية ، جمع أمرهُ على كتابة هذه الفصول النفيسة ، وقد أشار الى مراجعهِ العربية والاعجمية ، الرسمية وغير الرسمية ، في ثبت نشر في صدر الكتاب ثم خصَّ بعضها بالذكر في مقدمتهِ

وقد رفع المؤلف كتابهُ الى مقام صاحب الجلالة الملك قائلاً فيما قالهُ « ومن المآثر التي تفخر بها مصر انها اول دولة في الشرق استخدمت القطار ، وهو رسول المدنية ورمز الحضارة ودليل الرقي ومظهر العمران ، يصفر فيبشر الناس بقوة العلم ومجد الانسان ، ويجري فيحمل اليهم شتى الارزاق والخيرات . . . »

ولم يكتف المؤلف بدراسة تاريخ المواصلات في مصر قبل السكك الحديدية ، ثمَّ تاريخ انشائها وتطورها ، بل عالج كذلك في آخر الكتاب موضوع النقل المائي وظهور السيارة والنقل الجوّي ، وجميعها من الموضوعات الكبيرة الشأن من حيث المنافسة بينها وبين السكك الحديدية .

فالكتاب تاريخي من ناحيةٍ ، ومعاصر من ناحية أخرى ، وجميع الذين يهمهم هذا المظهر من النشاط الاقتصادي والاجتماعي في البلاد يجب ان يقتنوهُ

***

ورد الى مكتبة المقتطف الكتب التالية وسنتولى الكتابة عنها في أعداد المقتطف التالية

* ادارة الصفوف — وضعهُ الاستاذ أحمد سامح الخالدي — طبع بالمطبعة التجارية بالقدس الشريف

* الانتداب الفلسطيني باطل ومحال — وضعه الاستاذ وديع البستاني — طبع بالمطبعة الاميركية ببيروت

* تربية الحيوان الزراعي — تأليف الدكتور احمد فاضل الخشن — طبع بمطبعة الاعتماد بمصر

* أصول الطب البيطري — تأليف الدكتور ابراهيم نجيب محمود — طبع بمطبعة الاعتماد بمصر

* مروج الذهب ومعادن الجوهر ٤ أجزاء تصنيف الرحالة ابي الحسن علي المسعودي وقد راجع أصوله ورقمه محيي الدين محمد عبد الحميد وطبع بمطبعة دار الرجا ببغداد ويطلب في مصر من مكتبة الشرق الاسلامية ومطبعتها بشارع محمد علي

* الخواص الطبيعية للاراضي الزراعية — تأليف السيد محمد البحيري وحسن مصطفى كامل — طبع بمطبعة وادي الملوك بمصر

* فن الجرائم الجزء الرابع في تذكرة الجرائيمي في مخبره — تأليف الدكتور أحمد حمدي الخياط — طبع بمطبعة الترقي بدمشق

* أصول المحاكمات الحقوقية ، دروس نظرية وعملية للاستاذ فارس الخوري — طبع بمطبعة الجامعة السورية بدمشق

* التشريح المرضي والجنائي بقلم الدكتور محمد زكي شافعي والدكتور لبيب شحاته — طبع بمطبعة أمين عبد الرحمن بمصر

* احياء النحو لابرهيم مصطفى — طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

* معلومات مدنية — تأليف محمود العابدي — طبع بدار الطباعة والنشر الفلسطينية في صفد — فلسطين

* فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية — تأليف عيسى السفري — طبع في مطبعة مكتبة فلسطين الجديدة بيافا

* تربية الخيول العربية الجزء الثاني — تأليف صاحب السمو الملكي الامير محمد علي — طبع بمطبعة علي عناني بمصر

* على حافة العالم الاثيري — ترجمة الاستاذ احمد فهمي ابو الخير — طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

* البيان والبديع وضع وتصنيف الاسدي م . خير الدين — طبع بمطبعة العصر الجديد — حلب

* شطب العبارات الجارحة من المذكرات والاحكام — لجميل خانكي طبع بالمطبعة العصرية بمصر

* الفؤاديات ديوان شعر المرحوم فؤاد بك محمد جمعهُ الاديب عبد القادر يوسف طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

* ضحايا مصر في السودان وخفايا السياسة الانكليزية طبعت بمطبعة السفير بالاسكندرية

* مطبوعات اتحاد اساتذة الرسم في الفنون الاسلامية للدكتور زكي محمد حسن طبعت بمطبعة الاعتماد بمصر

* البلمنديات ديوان شعر للشيخ حنا اسعد زخريا طبع بمطبعة ابو الهول بالبرازيل

* خطرات الشعور منتخبات من قصائد ومقالات لديمتري بك خلاط طبعت بمطبعة البصير في الاسكندرية

* صور ولمحات من حياة طالب في اوربا تأليف جورج وهبه العفي طبعت بمطبعة المجلة الجديدة

* اسرار الانقلاب وضعهُ السيد عبد الرزاق الحسني طبع بمطبعة العرفان بصيدا

***

مطبوعات مجلة المكشوف

اهدت الينا دار مجلة المكشوف البيروتية طائفة مختارة من مطبوعاتها الادبية والاجتماعية بينها

١ — كان ما كان — بقلم ميخائيل نعيمه
٢ — قميص الصوف — بقلم توفيق يوسف عوّاد
٣ — الباب المرصود — بقلم عمر فاخوري
٤ — عمر افندي — بقلم لطفي حيدر
٥ — الجدلية — بقلم سعيد عقل
٦ — ليلة القدر — بقلم احمد مكي
٧ — ارجوحة القمر — بقلم صلاح لبكي
٨ — الاشتراكية العملية — بقلم ابرهيم حدّاد

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الثالث والتسعين



صورة مجنون ليلي بين الحيوانات في الصحراء . من عمل المصور ميرك في مخطوط من قصائد الشاعر نظامي محفوظ بالمتحف البريطاني ومكتوب بقلم الخطاط الايرانى المشهور شاه محمود نيشابوري . وقد بدأه للشاه طهماسب في تبريز سنة ١٥٣٩ وانتهى من كتابته سنة ١٥٤٣

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثالث والتسعين

١ يوليو سنة ١٩٣٨ — ٣ جمادى الاولى سنة ١٣٥٧

تفسير طبائع العناصر

بعدد الكهيربات وترتيبها حول النواة

ما السرّ في ليونة الذهب وقساوة الكربون وسير التيّار الكهربائي

للفلزات اوصاف هي قوام شخصيتها على ما نحو ما للناس اوصاف بها يتميز انسان عن آخر. فبعض الفلزات كالذهب والفضة والنحاس ليّن يمدّ اسلاكاً ويطرق رقوقاً لا تزيد سماكة احدها على جزء من الف جزء من البوصة ومع ذلك تظلّ اجزاؤها متصلة مرتبطة بعضها ببعض. هذه الفلزات هي خير موصلات الكهربائية المعروفة . وهناك فلزات اخرى كالتنغستن والفناديوم والكروم والبزموت قاسية لا تلين فاذا طرقت بمطرقة تفرقت اجزاؤها كسراً او تهاوت مسحوقاً . ولكن سلكاً من التنغستن هو خير ما يُرغَب فيه للمصابيح الكهربائية المتوهجة، لان هذا الفلز موصل رديء للكهربائية فمقاومتهُ لسريان تيارها فيه يرفع حرارتهُ حتى تبلغ درجة البياض . ومن بواعث الاغتباط ان درجة انصهاره عالية جدًّا

ولا يخفى ان الفلزات النقية عناصر كيمياوية كالعناصر الاخرى — كالكربون والكبريت والنيون . فهل كشف العلم اسلوباً من الاساليب يمكنهُ من تفسير هذه الخواص التي تميّز شخصية عنصر عن شخصية عنصر آخر او يجب ان نسلّم بانها خواص أغدقتها عليها الطبيعة وكفى . أفي وسع العلم ان يفسّر السرّ في ان الالماس — وهو كربون صرف — أقسى المواد المعروفة على الاطلاق ومانع لسريان التيار الكهربائي فيه . او ان النيون غازٌ والكبريت قصف قابل للتفتت وعازل

جيِّد ؟ وهل نستطيع ان نكشف عن السبب في لين النحاس وحسن توصيله للكهربائية ، وقساوة التيتانيوم وكونهِ موصلاً رديئاً لها ؟

ان السلوك الانساني مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعوامل الوراثة التي تضبط الصفات الوراثية وكذلك تصرف العناصر مرتبط على ما يلوح بالكهيربات (الكهارب او الالكترونات). وقد انقضى اكثر من قرن من الزمان منذ أثبت دلتن ان قوام العناصر ذرات atoms وان ذرات كلّ عنصر متشابهة فاذا اخذنا شذرة من الذهب ونظرنا اليها فانما ننظر الى ملايين الملايين من ذرات الذهب مرتبة على نمطٍ خاص وكل ذرة منها مرتبطة بالذرة الاخرى بطريقة خفية . وفي الالماس كذلك نجد هذا الترتيب ترتيب الذرات وهو أدق نظاماً منهُ في الذهب

فما هو العامل الذي يعين هذا الترتيب ؟

والجواب : هو عدد الكهيربات وترتيبها

نفذ العلم في العصر الحديث الى الذرّة ، فكشف ان الذرّة ليست كرة قاسية بل هي في نظر علمائه نظام معقد البناء . وقد تشبّه كل ذرّةٍ بجماعة من الجنود في حالة المناورة . فالجماعات الكبيرة يقابلها بين الذرّات ذرات العناصر الثقيلة . والجماعات الصغيرة تقابلها ذرات العناصر الخفيفة . وفي قلب الجماعة تتركز القوة يقابلها في الذرة نواتها حيث تتركز الكتلة . وعلى حواشي الجيش الكشافون والحرّاس يقابلهم في الذرة الكهيربات التي تدور في مدارات بعيدة عن النواة . فذرات العناصر الخفيفة نجد فيها عدد الكهيربات الخارجية قليلاً ، على نحو ما نجد الكشافين والحراس الذين يحيطون بجماعة صغيرة من الجيش قلائل . وأما ذرات العناصر الكبيرة فتجد فيها الكهيربات الخارجية كثيرة ولها اكثر من مدار واحد على نحو ما يتحرك الكشافون الكثار حول جيش كبير في مناطق متراكزة متعددة . وكذلك نستطيع ان نتخيل الذرة كتلة مركزية تعرف بالنواة ، صغيرة الحجم كبيرة الكتلة ، تحيط بها على مسافات منها الكهيربات ، وعدد هذه الكهيربات يتفاوت وفقاً لكتلة النواة

الى هذه الكهيربات الخارجية المردُّ في فهم خواص العناصر. فالكشافون في كل جيش منظم ، لهم مواقع معينة يتربصون فيها . وكذلك في ذرات العناصر. فخارج النواة مناطق اوكرات مفرغة خيالية تتحرك الكهيربات فيها . وكل منطقة منها لا تتسع لاكثر من ثمانية كهيربات الاَّ المنطقة الاولى فانها تكتفي احياناً بكهيربين . فاذا تمَّ العدد في المنطقة الاولى التي حول النواة ، وكان لتلك الذرة اكثر من كهيربين ، وجب على الكهيربات الباقية ان تنتظم في منطقة تالية خارج المنطقة الاولى . فاذا احتشدت المنطقة الثانية بثمانية كهيربات وكان للذرَّة اكثر من عشرة كهيربات وجب على الكهيربات الباقية ان تنتظم في منطقة ثالثة وهلمَّ جرًّا

على ان بعض العناصر لهُ من الكهيربات ما يؤلف منطقة كاملة او منطقتين كاملتين. فالذرَّة في هذا العنصر كاملة قوى الدفاع. لا تحتاج الى نجدة من غيرها. فتسير في طريقها مستقلة عن رفاقها. واذا كان تركيبها الكهربي يميّزها بهذه الصفة، فتجمع الذرَّات التي من هذا القبيل ممتنع، والمادة التي ذرَّاتها على هذا النمط تكون غازات. ومن هذه العناصر الهليوم والنيون والارجون وهي الغازات التي لا تتفاعل تفاعلاً كيماويًّا الاَّ بالقوة. فللهليوم كهيربان يؤلفان منطقتهُ الاولى. وللنيون عشرة كهيربات تؤلفان منطقتين حول نواته أولاهما فيها كهيربان والثانية فيها ثمانية

إن هذه الكهيربات التي خارج النواة، تقوم بحراسة النواة، فتثبت في أماكنها، إلاَّ اذا أصابتها قوة فائقة تبعدها من أماكنها ولكنها لا تلبث حتى تعود اليها. والعالِم يفسّر التألق الملوّن في غاز النيون بحركة هذه الكهيربات وقد ابعدت من اماكنها بقوة التيار الكهربائي ثم عادت اليها

واذا كانت الغازات (النبيلة) كالنيون والارجون متصفة بالاكتفاء الذاتي في ذرَّاتها، والميل الى العزلة فلا تتجمع هذه الذرات، فان الالماس يخالف هذه الغازات على خط مستقيم، ذلك ان ذرّاته لا يسعها ان تعيش وحدها، بل هي أبداً متشابكة بالذرات الاخرى متعاونة معها

والالماس كما تعلم كربون صرف. ولذرته ستة كهيربات يحيط بالنواة اثنان منها في المنطقة الاولى حول النواة والاربعة الباقية في المنطقة التالية. ولكن منطقة الكهيربات حول النواة لا تستقر الاَّ اذا اصبحت تحتوي على ثمانية كهيربات. واذن فالذرة من الكربون تسعى بطبيعة تركيبها الى أن يصبح حولها ثمانية كهيربات. ولما كانت كل ذرة كربون من هذا القبيل فمن الطبيعي ان تتعاون الذرات معاً على الاشتراك في تحقيق مطالب بعضها بعضاً. وهذا الاشتراك يكون على الطريقة التالية: في الوسط ذرة كربون حول نواتها أربعة كهيربات. فاذا كانت ذرة أخرى على مقربة منها تجاذبت الذرتان فتشتركان في كهيربين. فاذا كانت حول الذرة الاصلية أربع ذرات استطاعت ان تشترك مع كل منها في كهربين فتصبح ومنطقة كهيرباتها كاملة العدد اي فيها ثمانية كهيربات. أما الذرات التي حول ذرتنا الاصلية فتسعى بالطريقة نفسها الى التعاون مع ذرات أخرى وكذلك تتشابك الذرات جميعاً. (أنظر الصورة) ولما كان هذا الفعل لا حدَّ لهُ فحجم بلورة الالماس لاحدَّ لهُ كذلك من الناحية النظرية. فاذا أدركنا هذا التماسك بين ذرات الكربون، وكيف تشتبك باشتراكها جميعاً بعضها في ذرات بعض فهمنا سرَّ قساوته

الاَّ ان هناك مسألة لا بدَّ من تفسيرها في اشتباك هذه الكهيربات بعضها ببعض في ذرات الكربون. فالمعلوم ان الكهيربات سالبة الكهربائية. والدقائق المشحونة شحنة كهربائية من نوع واحد تتنافر وتتباعد. فكيف تستطيع هذه الكهيربات في ذرات الكربون المختلفة ان تتشابك وتتماسك على نحو ما فسّرنا ووضحنا في الرسم. والرأي ان هذه الكهيربات تدور على

محاورها دوراناً سريعاً جدًّا فتنشيء في دورانها حقلاً مغنطيسيًّا حولها . فاذا كان كهيربان من ذرتين متجاورتين يدوران في اتجاه واحد دفع أحدهما الآخر ، اما اذا كانا يدوران في اتجاهين متناقضين فان الحقلين يشتبكان فيتماسك الكهيربان

أما عنصر السليكون فذرتهُ أثقل من ذرة الكربون وأكبر وفيها ١٤ كهيرباً . فاثنان فثمانية منها تنشيء حول النواة منطقتين مستقرّتين مكتفيتين ، والاربعة الباقية تكون حول المنطقة الاولى غير مكتفية ولا مستقرّة ، بل تميل الى إكمال نفسها على نحو ما تفعل ذرة الكربون ولذلك نجد ان صفات الكربون والسليكون متشابهة . وعلى ذلك يستطاع ان ترتبط ذرة من الكربون بذرة من السليكون كما ترتبط ذرتان من الكربون او من السليكون . فاذا ارتبطتا كان لنا كاربيد السليكون (كاربورندوم) وهو يكاد يجاري الالماس قساوة ويستعمل للحك (abrasion) . واذن يصح ان نقول ان العناصر التي تترابط ذراتها هذا النوع من الترابط هي على العموم مواد قاسية قصفة

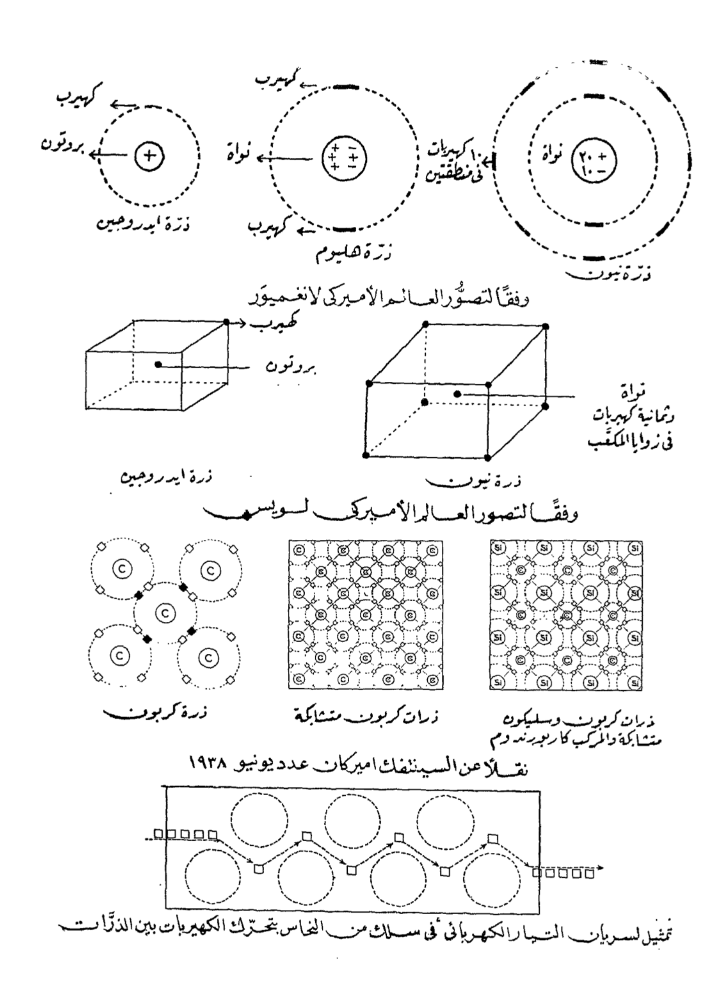
فاذا التفتنا الى الفلزات رأينا ذرة النحاس ولها في منطقتها الخارجية — أي في أبعد مناطق الكهيربات عن النواة — كهيربٌ واحد[1] . فاذا عدنا الى التشبيه العسكري وجدنا ان هذه الجماعة الكبيرة من الجيش (المقابلة لذرة كبيرة) لها حارس واحد . وهذا الحارس يحتاج الى ان يكون سريع التنقل لكي يتمكن من القيام بمهمته . فهو يحرس حيناً ناحيةً من جماعتهِ ثم يسرع في الانتقال الى الناحية الاخرى . وكذلك يتنقل هذا الكهيرب حول ذرّتهِ فكأنهُ يتنقل بين الذرات ، ففي هذه الحالة هذه لا يمكن أن تكون النحاس كتلة جامدة لان الكهيربات دائمة التنقل للوقوف في مواقع جديدة وفقاً لمقتضيات الحالة . ولكن الحارس في الجيش ، والكهيرب المفرد في ما بين ذرّات النحاس ، يحفظ الصلة بين وحدات الجيش وبين ذرّات النحاس

ولذلك نجد النحاس مرناً ، يمكن طرقه رقوقاً ومده اسلاكاً من غير ان ينقصف . ولا يخفى ان النحاس موصل جيد للكهربائية والحرارة ، وأما الالماس فلا يوصل احداهما . والحرارة تزيد اهتزاز الذرّات . فالذرّات المتحركة تستطيع ان تنقل اهتزازها من ذرّة الى أخرى حالة ان الذرّات الجامدة في مكانها لا تستطيع ذلك . وبهذا تفسّر قدرة النحاس على توصيل الحرارة وعجز الالماس عن ذلك

والعلم الحديث يحسب التيار الكهربائي تياراً من الكهيربات . فعندما يندفع عدد من الكهيربات من بطرية كهربائية الى طرف سلك يحدث تحرك في الكهيربات التي في ذلك السلك من أوله الى آخره . فكأن أمامنا صفًّا من حجارة « الدومينو » (راجع الصورة) فاذا أضفت الى

---

(١) هذا القول للدكتور سدني فرنش استاذ الكيمياء المساعد في جامعة كولجيت الاميركية في السينتفك اميركان ولكن عدد النحاس الذري ٢٩ فله ٢٩ كهيرباً ولا يمكن ترتيبها وفقاً لقاعدة الثمانية بحيث يكون لها في قشرتها الخارجية كهيرب واحد الا اذا اخذنا بالقاعدة المبسوطة في الفقرة الثانية من صفحة ١٣٨ من هذا المقال


كهيرب
بروتون
ذرة ايدروجين
كهيرب
نواة
كهيرب
ذرة هليوم
١٠ كهيربات
فى منطقتين
نواة
+ ٢٠
− ١٠
ذرة نيون
وفقاً لتصوُّر العالم الأميركى لانغميوَر
كهيرب
بروتون
نواة
وثمانية كهيربات
فى زوايا المكعّب
ذرة ايدروجين
ذرة نيون
وفقاً لتصور العالم الأميركى لويس
ذرة كربون
ذرات كربون متشابكة
ذرات كربون وسليكون
متشابكة والمركب كاربورندوم
نقلاً عن السينتفك اميركان عدد يونيو ١٩٣٨
تمثيل لسريان التيار الكهربائى فى سلك من النحاس بتحرّك الكهيربات بين الذرّات

احد طرفي هذا الصف حجراً جديداً وحرّكتهُ بحيث يحتل مكان الحجر الاول من ناحيتك حركت كلّ حجر في الصفّ من مكانهِ الى المكان الذي يليه

فاذا لم يكن في المادة كهيربات متحركة — مثل كهيربات النحاس الخارجية — تعذّر الايصال الكهربائي . وسهولة انتقال التيار مرتبطة بقدرة الكهيربات على التحرك وسرعتهِ . ولذلك نجد ان النحاس والذهب والفضة — وفي كل منها كهيرب واحد خارجي — خير المواد الموصلة للكهربائية. واما الالماس فالكهيربات فيهِ جامدة مربوطة بغيرها ثابتة في مكانها فهو لذلك لا يصلح موصلاً للكهربائية

***

وصفنا حتى الآن ثلاثة ضروب من القوام الكهيربي ، فثمة اولاً الذرة التي لها ثمانية كهيربات في حلقتها الخارجية فذراتها مستقرة ولا تتجمع . وثانياً الذرة التي بها اربع كهيربات في حلقتها الخارجية فهي تميل الى الاشتباك مع ذرّات من نوعها فيكون العنصر نفسهُ او المركبات التي تركب منهُ جامدة صلبة . وثالثاً الذرة التي لها كهيرب واحد في حلقتها الخارجية فهي ذرة مادة ليّنة تطرق وتمدّ وتوصل الكهربائية والحرارة . فالنوع الاول هو الغازات غير الفعّالة والثاني المواد القاسية القصفة والثالث الفلزات اللينة . فاذا أردنا ان نشبه أوصاف هذه العناصر بأخلاق الناس قلنا ان الاول يمثل خلق الرجل المكتفي بنفسهِ والثاني خلق الرجل الذي يميل الى التعاون والثالث الرجل الكثير التنقل والحركة — وبين هذه الانواع المحدّدة نجد ضروباً من الاخلاق متوسطة بين هذا وذاك او بين ذاك وذلك

ومن الفلزات عناصر لذراتها كهيربان خارجيان . فهي أقسى قليلاً من النحاس وأقل قليلاً منهُ ايصالاً للكهربائية والحرارة . اما الفلزات التي لذرّاتها ثلاثة كهيربات خارجية فهي أقسى من الفلزات الثانية وأقل ايصالاً منها للحرارة والكهربائية

ولكن عنصر التيتانيوم يستوقف نظرنا . فهو قاس قصفٌ وفي الوقت عينه موصل لا بأس بهِ للتيار الكهربائي . وهو فلزٌ لا ريب فيهِ . الاّ ان لذرّتهِ في ابعد مناطقها عن النواة اربعة كهيربات . وهذه الصفة يجب ان تجعل خواصهُ قريبة او مشابهة من خواص الكربون . ولكنهُ ليس كذلك

واذاً فعدد الكهيربات في المنطقة الخارجية من الذرّة ليس بحدّ ذاتهِ العامل الحاسم الفرد في الموضوع دائماً . فعدد الكربون الذري ٦ اي لذرتهِ ستة كهيربات اثنان منها يؤلفان المنطقة الاولى المستقرة حول النواة والاربعة الاخرى تؤلف المنطقة الثانية وهي التي تشتبك بكهيربات ذرات اخرى من الكربون او بكهيربات ذرات السليكون . واما ذرة التيتانيوم فأكبر حجماً .

ذلك بان رقمها الذري ٢٢ اي ان لها ٢٢ كهربا ، منها اثنان يؤلفان المنطقة الاولى حول النواة فيلي ذلك منطقتان كلٌّ منها ٨ كهيربات فثالثة فيها اربعة كهيربات . ولو كان عدد الذرّات الخارجية وحده العامل الحاسم لِشابه التيتانيوم والكربون. ولكن منطقة الكهيربات الاربعة ابعد عن النواة في ذرة التيتانيوم من الكهيربات الاربعة التي في ذرة الكربون . فاذا عدنا الى تشبيه الالكترونات الخارجية بالحرّاس في الجيش وجدنا ان كهيربات التيتانيوم الخارجية يجب ان تكون اسهل تحركاً وتنقلاً لاتساع المساحة التي عليها ان تحرسها . حالة ان صغر حجم الذرة في عنصر الكربون يجعل هذه الكهيربات اكثر استقراراً لضيق المساحة التي عليها ان تحرسها . ولذلك تختلف الخواص وفقاً لبعد الكهيربات الخارجية عن النواة كذلك

ثم هناك عامل آخر يميل بالعناصر الثقيلة الى طبائع الفلزات . فالذرات التي لها ثلاثة كهيربات خارجية او اكثر من ثلاثة ، يميل زوج من هذه الكهيربات الى الهبوط من منطقته الى منطقة اقرب الى النواة ، فيبقى في المنطقة الخارجية كهيرب واحد . وهذا يجعل بعض طبائعه شبيهاً بطبائع الفلزات . فعنصر الالومنيوم له ثلاثة كهيربات خارجية ، ولكنه مع ذلك يشبه الفلزات في لينهِ وايصالهِ للكهربائية . ولذلك يصح ان يوضع بين الفلزات في طبقة النحاس والذهب والفضة . والبزموت على الرغم من خمسة كهيربات خارجية ، وعلى الرغم من انهُ قاس وقصف ، يتصف ببعض اوصاف الفلزات . وطبائعهُ الفلزية تعزى الى كبر ذرتهِ والى ميل زوج من كهيرباته الخارجية الى السقوط من منطقتها الى منطقة أقرب منها الى نواة الذرّة

فشخصيات العناصر لا تبدو في الكهيربات ، بل ان الكهيربات تعينها ويمكن معرفة خصائص العناصر من عددها وترتيبها حول النواة

ففي ناحية نجد الغازات « النبيلة » ممثلة في عنصر النيون — ذرّاته مكتفية بذاتها لان منطقتها الخارجية من الكهيربات تحتوي على العدد الذهبي — ثمانية . ثم يليها الكربون وصفتهُ الخاصة الاشتراكية والتعاون . فكلّ ذرة من ذرّاتهِ مرتبطة باربع ذرّات أخرى عن طريق كهيرباتها الاربعة . ثم في الطرف الآخر نجد النحاس والفضة والذهب وغيرها وهي ليّنة قابلة للمدّ والطرق وذلك لان مناطقها الخارجية تحتوي على كهيرب او كهيربين او ثلاثة كهيربات فقط ولكن ما تخسرهُ الذرة في عدد كهيرباتها الخارجية تعوضهُ بسرعة حركة هذه الكهيربات وسهولة تنقلها

والقاعدة الاساسية في هذا النظام هي قاعدة (الرقم ثمانية)

والبحث في طبائع العناصر ليس بالبحث الحديث . فقد حاول الكيمياوي الفرنسي الشهير لافوازييه من قرن ونصف قرن ان ينفذ الى السر في اختلاف طبائع العناصر فخاب في ما يصبو اليهِ ثم عمد برزيليوس السويدي الى ذلك فلم يكن أكثر توفيقاً من صاحبهِ الفرنسي . ثم كشف

مندليف الروسي الجدول الدوري وقاعدته انهُ اذا رتبت العناصر ترتيباً أفقيًّا بحسب أوزانها الذرية وجد ان العناصر التي أرقامها ١ و ٨ و ١٥ متشابهة الصفات اي ان العناصر التي تقع في كل خانة ثامنة في الجدول متشابهة فقال ان خواص العناصر صفات دورية لاوزانها الذرية . ثم كشفت النظرية الكهربية (الالكترونية) وتأيدت وأبتدع لوِس الاميركي صورة مكعبة للذرة فقال في قلب كل ذرة نواة وحول هذه النواة مكعبات تحتوي على عدد متباين من الكهيربات في أماكن معينة . وكل ذرة تميل الى ان يكون لها كهيرب واحد في كل زاوية من المكعب او المكعبات التي حولها . ثم جاءَ لنغميور وحوَّل صورة لوِس الذرية من صورة مكعبة الى صورة كروية

كان لنغميور قد تبين وهو يدرس الغازات عند معالجته فلز التنغستن وصلاحهُ ان يكون سلكاً للمصباح الكهربائي ، ان الهليوم عددهُ الذري ٢ والنيون عدده الذري ١٠ وان هذين العنصرين مستقرَّان من الناحية الكيمياوية لا فعل كيمياوي لهما يذكر . فقال في نفسهِ ان الكهيربات التي خارج النوى في ذرَّات هذين العنصرين يجب ان تكون مركبة تركيباً مستقرًّا يجعل الفعل الكيمياوي للعنصرين ضعيفاً او منتفياً . فتصور ذرَّة الهليوم مركبة من نواة وحولها كهيربان يدوران في كرة مفرغة حول النواة . وان هذا التركيب تركيب مستقر . وكذلك النيون لهُ حول نواته عشرة كهيربات تدور في كرتين حول النواة ، الاولى وهي أقربهما الى النواة فيها كهيربان — مثل كهيربي الهليوم — والثانية فيها ثمانية كهيربات وهو بناء مستقر

اما الايدروجين فلهُ كهيرب واحد في الكرة المفرغة التي حول نواته . فذرتهُ اذاً تميل الى ان تكمل بناءَها حتى تصبح مستقرة فتجذب اليها كهيرباً من ذرَّة اخرى . وهذا سرُّ فعل الايدروجين الكيمياوي . فاذا التقت ذرة الايدروجين بذرة اوكسجين في احوال مؤاتية — وذرة الاكسجين لها ٨ كهيربات اثنان في الكرة الاولى حول النواة وهو بناء مستقر والثانية فيها ستة كهيربات فهي تحتاج الى كهيربين لتصبح بناء مستقرًّا — تعاونت ذرتان من الايدروجين على ذرة من الاوكسجين فتأخذان بخناقها وتتحد الثلاث الذرَّات فيتركب جزيء الماء وهو مستقرّ

وعلى هذا النسق مضى لنغميور في تطبيق هذا الرأي ففسَّر بهِ الالفة الكيمياوية والكفاءة الكيمياوية والنظائر . وعند الرجوع بجدول مندليف الدوري القائم على اساس قاعدة الثمانية الى ميدان الكهيربات نرى كيف يفسّر ترتيبهُ الذي ظهر فيهِ ان العنصر الثامن يشبه العنصر الاول ، ثم ان العنصر الثامن بعد ذلك — اي الخامس عشر في السلسلة الرقمية — يشبه الثامن والاول وهكذا . وقد كان اعتمادنا في كتابة هذا المقال على مجلة السينتفك اميركان على الغالب وكتب حديثة اخرى في الطبيعة والكيمياء

-

اسكر

للشاعر الفرنسي بودلير

كن دائماً سكران فالسر كله في السكر

اذا شئت ألاَّ تشعر بأعباء الزمان تنقض ظهرك وتميل بك الى الارض

اذا شئت ذلك فاسكر دائماً ولا تقف !

ولكن بمَ تسكر ؟ بالخمر او الشعر او الفضيلة او . . . ولكن اسكر

اذا كنتَ يوماً على درجات قصر او على بساط عشب،

او في عزلة قاطبة في حجرتك ، وتيقظت وقد نقص سكرك او هدأ —

فاسأل الرياح ، والامواج والكواكب والعصافير ،

واسأل الساعة ، وكل ما يمرُّ ويفرُّ ، وكل ما يبكي ويئن،

وكل ما يتدحرج ، وكل ما يشدو وكل ما يتكلم .

اسألها عن الساعة . . . .

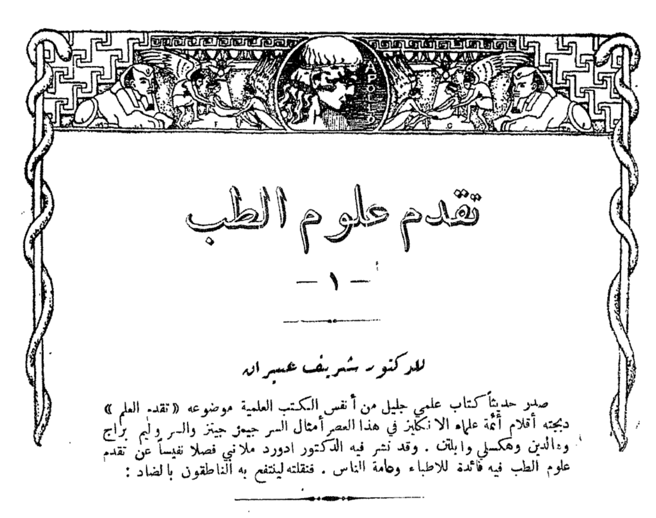
فالرياح والامواج والكواكب والعصافير والساعة ستجيبك :

« الساعة ساعة السكر »

اذا شئت ألاَّ تكون عبداً وضحية للزمان فاسكر واسكر

بدون انقطاع ،بخمر او بشعر او بفضيلة او بما ترغب

[نقلها : خليل هنداوي]



تقدم علوم الطب

— ١ —

للدكتور شريف عسيران

صدر حديثاً كتاب علمي جليل من أنفس الكتب العلمية موضوعه «تقدم العلم» دبجته أقلام أئمة علماء الانكليز في هذا العصر أمثال السر جيمز جينز والسر وليم براج وهالدين وهكسلي وابلتن . وقد نشر فيه الدكتور ادورد ملاني فصلا نفيساً عن تقدم علوم الطب فيه فائدة للاطباء وعامة الناس . فنقلته لينتفع به الناطقون بالضاد :

ان غرضي من هذه المحاضرة تلخيص علوم الطب في جميع العصور وقد اخترت هذا الموضوع لاني صرفت معظم اوقاتي في الاشتغال بالمشكلات الطبية ولاني رأيت ان اعرض موضوعاً لهُ صلة بحياة كل منا يزيد تقديرنا للخطوات الكبرى التي خطاها علم الحياة في العصر الحديث ولاسيما في عهدنا

من الحقائق الطريفة ان الناس كانوا مشغوفين منذ اقدم عصور التاريخ بدرس الامراض والقضاء عليها . ومن الغريب والحالة هذه ان لا تتقدم معرفة الامراض الحقيقية والسيطرة عليها قبل مائة سنة الاَّ تقدماً يسيراً . فما السبب يا ترى ؟ هل كان البشر في ذلك الوقت دوننا ذكاء؟. من المؤكد ليس هذا السبب لان البشر كانوا قديماً يجاروننا ذكاء . ومن رأيي ان هناك ثلاثة اسباب للتأخر خلال تلك الحقبة . اولها : ضلال الناس قديماً — او ما يظهر ضلالاً — الطرق المؤدية الى نظرتهم الصحيحة للمشكلات الصحية والامراض . (٢) مضى على الانسان حين من الدهر قبل ان يدرك انهُ لا يستطيع فهم حقيقة الجسم الانساني ما لم يدرسهُ درساً مباشراً في حالتي الصحة والمرض . (٣) لم يقدر الناس الاختبارات العلمية نسبيًّا الاَّ في الازمنة المتأخرة فكان على الانسان ان يتدرب اولاً على قيمة الملاحظة ثم تحقق بعد ذلك ان النظريات لا تكفي

ما لم تكن مقرونة بالتجارب وقد ظلت النظريات مسيطرة عليهِ حتى حالت بينهُ وبين الملاحظة الجدية في البحث والاستقصاء

وسأشرح الآن اثر هذه العوامل في تقدم الطب : اما بشأن فساد نظر الناس في الصحة والمرض فنعلمهُ من المصريين والاشوريين والبابليين. فعلى الرغم من اهتمامهم بالامراض نظروا اليها نظرة شيء خارق للطبيعة منبعثة من قوة سحرية تسلط الارواح الشريرة على الجسم ولا يمكن القضاء عليها ما لم تخرج تلك الروح . ويمكن الحيلولة دون دخولها او منعها بالتعاويذ والرقى ولكن الصلوات والتضرعات ضرورية لطردها من جسم المريض وبعد طردها يصلح ما فسد من الاعضاء بالعقاقير كالافيون والشوكران والعنصل وزيت الخروع الخ . وكان التنجيم شائعاً جداً في تلك الازمنة كما ان مهنة العرافة كانت مزدهرة . ويلذُّ لنا ان نتذكر ان الكبد كانت بيت القصيد في هذه الاهداف فكانوا يتكهنون بالمستقبل بمراقبة دم وحجم وشكل كل جزء من كبد القرابين التي تقدم . ومن الغريب ان حصر عناية الاقدمين آلاف السنين في عضو واحد من الاعضاء الداخلية وهو الكبد وتأثيرها فيهم ذلك التأثير لم يكن حافزاً لهم الى استقصاء غيرها من الاعضاء ولم يحملهم على الاعتقاد بان المرض من طبيعة الحياة، واعتقادهم بهِ انهُ من خوارق الطبيعة حال دون تقدم معرفتهم اياه ونظرتهم اليهِ نظرة صحيحة

ومن الحقائق الطريفة انهُ رغماً عن ان صناعة الطب كانت منظمة بعض التنظيم في تلك الايام الخالية لم يُقضَ على عهد الصلوات والتضرعات فكان للكهنة النصيب الاوفر من ممارسة هذه الصناعة وفي دستور شريعة حمورابي الذي كشف مؤخراً وهو يعود الى سنة ٢٠٠٠ قبل المسيح على الالواح البابلية دليل على وجود أساس المجاملات الطبية في ذلك العهد وفيهِ كلام على القوانين الدينية والعدلية والطبية لممارسة الطب وتعاليم عديدة للاطباء نذكر منها اثنين :

(١) اذا عالج طبيب جرحاً شديداً لفتى بسكين من شبهان Bronze وشفي ذلك الرجل او فتح خراجاً في عين فتى بسكين من شبهان يتقاضى عشر شكلات [١] فضة

(٢) اذا عالج طبيب جرحاً شديداً لفتى بسكين من شبهان وسبب وفاته أو فتح خراجاً في عينه آل الى فقدها فيجب قطع يديهِ

ألم يكن الطب مدعاة للدهشة في تلك الايام ؟

ومن الازمنة التي اتصفت بعقم الطب الناشيء عن جهل الناس حقيقة الجسم الانساني، الاعصر المتوسطة التي ابتدأت من القرن الخامس الى السادس عشر وجاءت اثر انقراض اليونان والرومان انقراضاً كاملاً بوجه التقريب وكانت غزوات البرابرة من جهة وتوالي الاوبئة المهلكة من

(١) وحدة العملة البابلية

جهة ثانية أقوى من الاولى عاملاً مؤثراً في أُفول تلك المدنية . وحيث ان العلم والثقافة كانا في قبضة الكنيسة في تلك العصور فقد ظلَّ العقل البشري متأثراً بالنزعة الدينية وكان الناس لايقيمون شأناً في الحياة الاَّ للموت والدينونة والسماء وجهنم والنفس الانسانية هي الكل في الكل والجسد لاشيء . وحيث ان الصحة والمرض من مستلزمات الجسد فلم يقم لها وزن كبير وظلَّ العالم المتمدن بأسره متأثراً بالعقائد المسيحية كما يستنتج من كتابة رجال ذلك العصر البارزين أمثال ترتوليان Tertullian الذي قال لا لزوم للبحث العلمي بوجود الانجيل

ومرَّ بين هذين الزمنين الطويلين العقيمين زمن الاشوريين والبابليين والمصريين وزمن العصور الوسطى ، دور ثقافة عظيم وهي ثقافة اليونان والرومان التي أثرت في الطب مثلما أثرت في حياة العلم العقلية والعملية . وبعد ان مرَّت هذه الثقافة في أدوار مختلفة من صعود وهبوط منذ ازدهارها حتى وقتنا الحاضر ظلت محتفظة بتأثيرها في رجال الطب فكل منا يقدر عظمة أبقراط ومدرسته وأرسطاطاليس وجالينوس واضرابهم . فاليونان اول من أوجد الطب الصحيح وقد حاولوا استئصال المعتقدات الراسخة منذ زمن طويل بأن الامراض متولدة من الارواح الشريرة ولأول مرَّة في التاريخ عُدَّت الامراض من الامور الطبيعية التي لا يمكن التوصل الى معرفتها قبل درسها وملاحظتها . وجعلوا «العقل الصحيح في الجسم الصحيح» أغلى أماني الحياة . وللتوصل الى هذه الغاية يجب ان يعيش المرء أحسن وأقصى العيشة الطبيعية وقدروا تأثير الطبيعة في الشفاء أعظم تقدير . ان مثل أبقراط العليا في الآداب الطبية تعد حتى اليوم من أسمى الصفات التي يجدر ان يتصف بها الطبيب . ولا يستطيع ان ينكر المرء ان نظر اليونان الى الجسم البشري سواء أمن وجهة الملاحظة كان ام من وجهة البحث العلمي ، كان أول عامل في تقدم علم الطب . ومع ذلك لم تخل تعاليمهم من الحشو الذي اعترض سير دولاب التقدم . ونذكر على سبيل المثال عقيدتهم ان الدم والبلغم والصفراء والسوداء هي العناصر الاربعة المسيطرة على الجسم وهي مولدة الامزجة الاربعة المزاج الدموي والبلغمي والصفراوي والسوداوي فاذا توازنت هذه الامزجة ظلَّ الجسم صحيحاً واذا اختلت اعتلت صحة الانسان . وسنرى فيما بعد ان الطب ظلَّ متأثراً بهذه العقيدة حتى بعد انطفاء نور الثقافة اليونانية وبعثها من جديد وكان لا بدَّ من تحطيمها ليتسنى لهذا العلم التقدم المنشود

إن السبب الرئيسي الثاني لبطء تقدم الطب الطويل الذي ذكرتهُ في بدء محاضرتي هو تأخر الناس في ادراكهم ان معرفة بنية الجسم البشري ضرورية للتوصل الى كنه الامراض وكان هذا العامل من العوامل التي أخرت سرعة تقدم الطب كما كان ينتظر في إبّان عصر الثقافة اليونانية لان تشريح الجسم الانساني كان محرماً عند الاشوريين والبابليين والمصريين حتى اليونانيين أنفسهم

فكانت معرفة الاعضاء والانساج معرفة حقيقية متعذرة في حالتي الصحة والمرض . وصحيح ان البطالسة بدأوا درس التشريح سنة ٣٠٠ ق . م . بعد استقرار اليونان في الاسكندرية ويجب ان نحسب هذا التاريخ بدء علم التشريح ولكن هذا الاتجاه كان ويا للاسف وقتياً وموضعياً ورغماً عن حيوية أرسطاطاليس وسعيه المتواصل في هذا السبيل لم يتمكن من تشريح الجسم البشري وقد حاول ان يستعيض عنهُ بتشريح الحيوانات كالقردة والخنازير واعترف أنهُ لم يرَ الكلى الانسانية قط واجتهد فيما بعد جالينوس كثيراً (سنة ١٣٠ — ٢٠٠ ب . م .) في درس التشريح ووظائف الاعضاء (الفسيولوجيا) وهو من أول من قرر حقيقة ان شريانات الجسم تحوي دماً لا بلغاً ولكنهُ أخفق في اكتشاف سر الدورة الدموية وأن نبضات القلب هي التي تدفع الدم في الاوعية الدموية وصار علم التشريح في خبر كان بعد أفول الثقافة اليونانية من الاسكندرية وطرأ الوهن على الاهتمام بالقضايا الطبية في الاعصر المتوسطة . نعم بقيت هذه الروح حية بعض الشيء بعد فتوحات العرب في الاسكندرية سنة ٦٤٠ ب . م . وفي بيزنطه وسالورنه (Salernum) في جنوبي إيطاليا ومع ان جهودهم تستحق الاعجاب فان مكانتها الرئيسية قائمة على أنها حفظت الطب اليوناني من التلف ولكنها لم تؤثر تأثيراً عامًّا في تقدم الطب[1]

لم ينتعش علم التشريح ويصبح فنًّا راقياً الاَّ في عهد البعث (Rennaissance) بعد تأسيس مدرسة بادوى (Padua) الطبية ومن المستحيل ان نذكر بالتفصيل الانقلابات العظيمة التي جرت في ذلك العهد والتأثير الكبير الذي أثرتهُ في الطب ولكننا نستطيع ان نجزم كل الجزم بان أقطاباً كباراً ظهروا وقلبوا علم التشريح رأساً على عقب أمثال : —

Leonardo da vinci [2] وفساليوس [3] Vesalius (سنة ١٥٣٧ فما فوق) وفابريكس Fabricus [4] فتقدَّم التشريح تقدماً عظيماً في ذلك العهد ، أحيا تعاليم أبقراط وجالينوس وبعث في علم الطب ثقافة جديدة

(١) لقد جحد الكاتب فضل العرب في الطب فانهم لم يحافظوا على الطب اليوناني فقط بل زادوا عليه وابتكروا فيه كما يشهد بذلك فضلاء الشرق والغرب وقد شاع فضل العرب على الطب وذاع ولا حاجة الى الدفاع عنهم فآثارهم تدل عليهم [المترجم]

(٢) عالم ايطالي عظيم رسام نحات بناء موسيقي ميكانيكي مهندس وفيلسوف طبيعي وهو أول من أوجد علم التشريح (١٤٥٢ — ١٥١٩) ولكن كان علمه لنفسه لا لغيره في التشريح

(٣) مشرح ايطالي كبير كان يدرس الهياكل العظمية في ظلام الليل خوفاً من الحكومة وسخر الناس وهو يعد بحق أبا علم التشريح وقد هجره لازدراء الناس به فتأخر الطب مائة سنة الى الوراء ودعي هذا الحادث الطبيب الانكليزي الاشهر وليم اوسلر «فاجعة الطب الكبرى» [المترجم]

(٤) مشرح ايطالي واخصائي بعلم الاجنة مهد السبيل لاكتشاف هارفي الدورة الدموية (١٥٣٧ — ١٦١٩) [المترجم]

ذكرنا آنفاً ان عدم تقدير الطرق الاختبارية قدرها كان عاملاً ثالثاً في بطء تقدم علم الطب وقد حان الوقت الآن ان يظهر للعالم فضل هذه الطرق العلمية. كان هارفي تلميذاً في بادوى وقد أثرت فيه تعاليم فابركيس ولاسيما ما يتعلق منها بوجود الصمامات في الاوردة. وشغفهُ هذا هو الذي حمله على ان يعكف على درس الدورة الدموية بعد ان رجع الى انكلترا فكانت نتيجة هذا الدرس مؤلفه النفيس De Matee Cardis سنة ١٦٢٨ شرح فيه الطرق الاختبارية التي تبرهن صحة نظرية دوران الدم في الجسم ولا يعد هذا المؤلف الاول في موضوعه فقط بل من انفس المؤلفات في الطرق الاختبارية وفضلها في كشف الحقائق. ويجب ان نتذكر ان الناس كانوا حتى في بداءة القرن السابع عشر يعتقدون بصحة نظرية جالينوس بأن الدم يجري في الاوعية الدموية بطريقين مختلفين فيعلو ويهبط في كليهما كالمد والجزر ولا يدور دوراناً. ويخال للمرء ان نجاح هارفي حمل المشغوفين بهذا البحث على الاهتمام بالطرق التجريبية واتباعها في ابحاثهم ولكن مع الاسف لم يحدث شيء من ذلك الا عقب مائتي سنة من اكتشاف هارفي ولا يعني انه لم تجر اختبارات خلال تلك الفترة بل كلامنا من الوجهة العامة. وكان العالم يجهل جهلاً تامًّا حقائق الصحة والمرض التي يمكن الجزم فيها بالملاحظة المجردة عن الاختبارات. ولم تكن اسس الكيمياء والطبيعيات قد وضعت بعد لتساعد على تقدم العلم تقدماً محسوساً وقد اخذت طلائع الكيمياء تظهر في عهد هارفي فبطء التقدم الذي يصدق على تقدم التجارب الحيوية لا يصدق على الكيمياء والطبيعيات وظهور اسماء كبار الكيمياويين امثال: —

Glauber,(1) Willis,(2) Mayow,(3) Agricola(4) Stahl(5)

وبعدهم: Robert Boyle,(6) Cavendish,(7) Priestley,(8) Lavoisier,(9) Dalton(10)

دليل قاطع على ان الكيمياء التي نعرفها بدأت ونمت منذ ذلك العهد. ومن المعروف انهُ نشأ في القرن السابع عشر والثامن عشر اخصائيون ممتازون بعلم الطبيعة ولكن كان اهتمامهم من

---

(١) كيمياوي ألماني اكتشف كيفية تحضير حامض الكلوردريك وسلفات الصودا وغيرها (٢) مشرح انكليزي له اليد الطولى في الكيمياء الاختبارية (٣) كيمياوي انكليزي له مؤلفات نفيسة بهذا الموضوع

(٤) عالم الماني مشهور بابحاثه في المعادن (٥) طبيب وكيمياوي الماني (٦) فيلسوف انكليزي في الطبيعيات مكتشف ناموس انتشار الغاز المعروف باسمه (٧) كيمياوي وطبيعي انكليزي اول من أماط اللثام عن حقيقة غاز الهيدروجين (٨) كيمياوي انكليزي اكتشف الاوكسجين وكان يعرف اللغة العربية

(٩) كيمياوي فرنسي أول من بين طبيعة الاحتراق واكتشف مع لابلاس ان الماء مركب من أوكسجين وهيدروجين

(١٠) كيمياوي وطبيعي انكليزي كشف الستار عن تركيب المادة والناموس الذري وله ابحاث ممتعة في النور وهو اول من اكتشف عمى الالوان [المترجم]

الوجهة المرضية محصوراً في تاريخ الامراض الطبيعية فكان سيدنهام Sydenham (١٦٢٤—١٦٩٨) خير ممثل للمذاهب الابوقراطية والطبيب النطاسي الهولاندي بورهاف Boerhave اول من استنبط الطرق الصحيحة الملاحظات الدقيقة في درس الطب . ومن مساوي هذا العهد ان ألمع اطبائه عوضاً عن ان يعكفوا على درس الطب وتقدمه انصرفوا الى ابتكار النظريات الصرفة المبنية على الحدس والظن في تعليل الامراض .واحسن طريقتين تمثلان هذا المذهب الجديد طريقة Cullen الذي جعل سبب الامراض اما تشنجاً واما استرخاء و John Brown الذي عزا الامراض الى التهيج Excitability وادت هذه النظرية الى مشاحنات كثيرة بين الاطباء كانت مضيعة للوقت وعقيمة لعلم الطب

***

في هذه الحقبة من القرن التاسع عشر التي كانت عقيماً نسبيًّا لعلم الطب ظهرت بوادر التقدم الباهر من ايطاليا ايضاً بواسطة مورغاني Morgagni سنة ١٧٦٠ ذلك بان دقة فحصه الجثث بعد الموت كانت عاملاً في وضع اسس التشريح المرضي واذا قدرنا قيمة حالة الاعضاء بعد الموت في تشخيص الامراض أدركنا شأن الانقلاب الذي أحدثهُ هذا البحاثة الشهير. وتقدمت الابحاث المرضية فيما بعد بتأثير جون هنتر John Hunter (١٧٢٨—١٧٩٣) وكان هنتر بطبيعته مشغوفاً بالابحاث المرضية Pathology وصرف زهرة حياته في التقريب بين الطب والعلوم الطبيعية وهو الذي كتب الى ادورد جنر حينما كان يظن ان الحلاّبات اللاتي اصبنَ بجدري البقر اكتسبنَ مناعة ضد جدري البشر فقال : « لا تفكّر بل جرّب »

وكان لهذه الجملة دويٌّ هائلٌ في عالم الطب ادّى الى اكتشاف التلقيح ضد الجدري والقضاء عليه

وفي هذا الزمن زادت العناية جدًّا بدقة فحص الجسم الطبيعي في حالتي الصحة والمرض ويرجع الفضل الكبير في هذه الدقة الى نخبة من الاطباء الفرنسيين الممتازين فاستنبط لنيك Laennec السماعة سنة ١٨١٩ وصار الاطباء يعولون منذ ذلك الوقت على القرع والتسمع في التشخيص وهذه النخبة هي التي توسعت في أبحاث مورغاني بفحص الرمم بعد الوفاة التي ادت الى الدقة في درس الحوادث المرضية قبل الوفاة وتقدم في ذلك الوقت تشخيص الامراض السريرية تقدماً عظيماً

والحق يقال ان المواد التي ساعدت على الابحاث الطبية كانت تنهال بسرعة في ذلك الوقت على الرغم من ان التجارب الاختبارية كانت راكدة

ونجسر ان نقول ان تاريخ الطب الحديث يعزى الى باستير وكلود برنارد حين صارت الطرق التجريبية هي المعوّل عليها في الابحاث الطبية . وفي سنة ١٨٥٧ — ١٨٩٠ نشر باستور رسالته العلمية عن حامض اللبن والتخمر الكحولي وقد جعلته هذه الابحاث يتشبع بروح الفكرة التي كانت عاملاً قويًّا في اثبات ان سبب العدوى في الحميات جراثيم حية . وقد تطورت هذه الفكرة لان باستير كان مقتنعاً بالعلاقة بين التخمر والعدوى . وأدّت تحريات باستير الى لستر الذي أثبت ان منشأ تلوث الجروح جراثيم مختلفة من الاحياء السفلى . وعلى هذا الاساس شيد علم منع عدواها بواسطة المطهرات الكيمياوية وأحدث انقلاباً في الجراحة وصيرها عملية سليمة . ومن نتائج اكتشافات باستير ابحاث كوخ الذي نشر سنة ١٨٧٦ تحرياته عن سبب الجمرة الخبيثة Anthrax . ولنتذكر ان كوخ استنبت جرثومة هذا المرض من الحيوانات المصابة بها ولقح حيوانات اخرى بها فأصيبت بعين المرض . وفي سنة ١٨٨٢ اكتشف ان سبب السل عصية خاصة فكوخ اول من استنبت زرعاً من الجراثيم الصرفة ووضع اساس علم الجراثيم (بكتيريولوجي) ولم يمضِ وقت طويل حتى اكتشفت جراثيم التيفود والخناق والهيضة الاسوية والكزاز والطاعون وذات الرئة والسيلان . وقبيل ابحاث كوخ كان رجل فرنسي شهير اسمهُ كلود برنارد Claude Bernard يستعمل الطرق التجريبية في البحث عن وظائف اعضاء الجسم وهو الذي أماط اللثام عن المفرزات الداخلية باكتشافه وظيفة خزن الكبد للسكر الخام (الكليكوجين) فاذا كان كوخ واضع علم الجراثيم فمن المعقول ان يكون كلود برنارد واضع علم وظائف الاعضاء (فسيولوجيا) الحديث

***

ثم ظهر في الميدان في ذلك العهد موضوع جديد وضعهُ فيرشو Virchow وهو علم تركيب انسجة الجسم (هستولوجي) فبين تحت المجهر حقيقة تركيب مختلف خلايا الجسم وتمكن من معرفة مرض الاعضاء بدرس حالة خلاياها حين المرض . وفي هذا الزمن زمن النشاط اي سنة ١٨٥٠ — ١٨٨٠ صارت الفسيولوجيا والبكتريولوجيا والهستولوجيا المرضية والجراحية دروساً طبية معينة . وقبل ان نأتي على تقدم الطب في القرن الحالي نعيد بايجاز ما ذكرناه آنفاً

رأينا علم الطب يتحرر من تأثير السحر والدين ويحسب الامراض من الامور الطبيعية . وعقب ذلك دور البحث في تركيب الجسم فتوصل الباحثون الى العلامات السريرية والتراكيب التشريحية للاعضاء المعلولة وكان العالم قد وصل الى العصر الحالي الذي كان للتجارب فيه اليد الطولى فتقدمت معرفة وظائف الاعضاء واسباب الامراض تقدماً كبيراً وكان لا يزال في اوائل هذا العصر

امراض مجهولة السبب وطرق معالجتها غير معروفة ومع ان الحالة لاتزال الآن كما كانت قبلاً فان جهود الثلاثين السنة المتأخرة آلت الى املاء كثير من الفراغ . فلنبحث عن سبب تدفق النشاط في اوائل القرن الحالي . وهناك اسباب متعددة اهمها ما يلي :

(١) النجاح يولّد النجاح . ومن المستحيل ان يقف اي شخص على اكتشافات باستير ولستر وكوخ ولا يتأثر بها او لا تكون حافزاً لهُ على التتبع والاستقصاء . ومن المعقول ان تضاف ابحاثهم وتتبعاتهم الى جهود غيرهم ممن يسيرون على الخطة نفسها . ان روح التفاؤل هذه عزّزت ثقة الناس وعقيدتهم بأنهُ ليس من الصعب التغلب على الامراض والمشكلات الصحية وان لاحدّ لنتائج الطرق الاختبارية

(٢) ان التتبعات الحديثة أفضت الى تقدم العلوم الاساسية لدرس الطب كالكيمياء والطبيعيات ووظائف الاعضاء والامراض والعقاقير تقدماً عظيماً فألقت نوراً جديداً على الجسم الصحيح والجسم العليل وكانت سلاحاً جديداً للطب في محاربة الامراض وطرق تشخيصها والوقاية منها ومعالجتها

(٣) السبب الثالث لهذا الاندفاع هو ان العالم المتمدن بأسره اتبع الطريقة اليونانية في النظر الى الحياة وهي ان الصحة تراث عظيم واعتلالها ليس مضرًّا من الوجهة الاقتصادية فقط بل هو السبب الاكبر في آلام البشر وحزنهم وتعذيبهم فكان من الضروري اذاً سواء من الوجهة العملية او العاطفية القضاء على الامراض بالوقاية منها أو شفاءها . واذا كانت البحوث تؤول الى هذه النتيجة فمن الواجب تعزيزها . ان تأثر الناس بهذه العقيدة حمل الحكومة والافراد على تشجيع البحوث الطبية والتوصل الى معرفة الطرق للقضاء على العلل التي كانت تفتك بالناس فانتشرت هذه الحركة في كل العالم . وفي سنة ١٩١٣ أنشأت الحكومة مجلس البحث الطبي Medical Research Council الذي صار في عهد سلفي السير ولز فلتشر من خيرة الطرق لدرس المشكلات المرضية . وقد تضافر هذا المجلس مع كثير من المعاهد الخاصة بتقدم الطب كمعهد ركفلر وباستير للوقاية وغيرها . وعلاوة على اكتشاف طرق جديدة لمعرفة الامراض دعت المصلحة العامة الى تأسيس وزارة الصحة التي تقدمت تقدماً عظيماً في العشرين السنة الاخيرة فزادت بهذه الواسطة الخدمات الطبية العامة وانتشرت في طول البلاد وعرضها ومن الامثلة على ذلك دور العناية بالحوامل ودور الحضانة ومستوصفات السل والامراض الزهرية وغيرها وغاية جميع هذه المؤسسات استخدام الطرق العلمية الحديثة للوقاية من الامراض وشفائها والمحافظة على الصحة العامة

[في العدد التالي : نتائج هذا النشاط الطبي]

اثر الحرب العامة

في الادب العربي السياسي

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

والمتأمل في الشعر العربي السياسي اثناء هذه الحرب يراه على نوعين — حكومي وعمومي . فالاول مقرون بالسلطة القائمة واعمالها الادارية والسياسية ، وهو أدب كان يوحيه الى الاقلام احد العوامل التالية (١) رهبة تدفع الى الممالأة والتقيّة (٢) طمعٌ يبعث على التزلّف والمداهنة (٣) تهوّس ديني يثير في النفوس التعصّب والحماسة

ولو التفتنا الى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق لرأينا ذلك ظاهراً للعيان . فقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا فخبا بغتةً ذلك التوتر العنصري وكُمّت الافواه والاقلام الاّ عن حمد الدولة وتحبيذ سياستها . على ان تركيا لم تكن غافلةً عن النزعات اللاتركية الناشئة في الاقطار العربية وعن تنشيط الحلفاء لها . فكان اول ما عملتهُ بعد دخولها الحرب انها ألغت الامتيازات الاجنبية فأصبحت المسيطرة المطلقة على مقدّرات البلاد ، ثم قسمت الجبهة العربية الى منطقتين حربيتين الاولى منطقة الجيش الرابع ويدخل فيها سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز — والثانية منطقة الجيش السادس وهي بلاد ما بين النهرين وأقليم شطّ العرب . وقد رأت ان تنظّم الاولى اولاً وان ترعاها رعاية خاصة فعهدت بها الى احمد جمال باشا الذي عرف الجميع ما جرى على يديهِ من بطش وارهاب . وما قاساهُ العرب في عهده من شدّة وضيق

فمن الطبيعي في مثل تلك الاحوال ان لا يكون في البلاد العربية العثمانية أدب سياسي حرّ وان تكبت العواطف الحقيقية في اعماق الصدور . واذا أضفت الى ذلك ان الخلافة الاسلامية كان لا يزال لها تأثير عميق في نفوس المتدينين ، وان المآرب الذاتية كانت تعشّش في صدور الكثيرين فلا تستغرب ان ترى الادب العربي يومئذٍ تلبس اثواب التعصب للسيف التركي او

الخلافة التركية . خذ بيروت مثلاً فقد كانت اهم مركز ادبي في الشرق العربي (خارج مصر) ومستنبتاً خصباً للدعايات الاصلاحية . كان فيها عشرات الصحف والمطابع والمعاهد العلمية . والذي يُلاحظ ان كثيراً من الصحف العربية كان قبل دخول تركيا الحرب يجاهر بميله الى الحلفاء ، فلما دخلت اضطرّ امّا الى التوقّف وإما الى ممالأة السلطة . فلم يبقَ في تلك المدينة اكثر من ست جرائد . وبالطبع لم تكن اخبارها الاّ بلاغات تركية المانية ، ولم تكن مقالاتها الاّ اناشيد مدح لاعمال الدولة العلية . وانهُ لمن المدهش بل المضحك ان تقابل بين ما كانت تكتبهُ طائفة من تلك الجرائد خلال الحرب وما كانت تكتبهُ بعدها ، ولاسيما فيما له علاقة بنهضة العرب ومطالبهم القومية

ومن افضل الامثلة على الادب السياسي الحكومي في تلك الاثناء مجموعة من الخطب والمقالات والقصائد صدرت في بيروت في كتاب خاص بعنوان « البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية »[1] في ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥ نظّمت قيادة الجيش الرابع وفداً من اكثر من ٣٠ رجلاً يمثلون سوريا ولبنان وفلسطين وشمال الجزيرة العراقية وارسلتهم الى عاصمة السلطنة للاغراض التالية[2]

١ — لعرض اخلاص السوريين وشعورهم على سدّة الخلافة الاسلامية

٢ — لمشاهدة عظمة الدولة واستعدادها الحربي

٣ — بث عواطف اهل البلاد الى اخوانهم الغزاة المجاهدين

وبعد ان قضوا نحو شهرين هناك بين مآدب تكريمية ومشاهد حربية ، وحفلات خطابية ومواقف شعرية عادوا الى اوطانهم يقصون على الملاِ ما شاهدوا وسمعوا وقد دوّنوا لنا اقوالهم ومشاهداتهم في الكتاب المذكور واليك بعض النماذج منها —

فقرات من خطب القيت في حضرة وزير الداخلية —[3] يا صاحب الدولة والفضل : —

« ان الانقلابات التي وقعت منذ نشرتم واخوانكم احرار العثمانيين القانون الاساسي في السلطنة قد علّمت الناس وولاة امورها تعاليم كثيرة . . فتعلمنا بالحرب البلقانية والحرب الطرابلسية كيف نجمع شملنا ونسير في داخليتنا وخارجيتنا . حتى اذا نشبت الحرب العامة اثبتنا اننا امة لا تزال حية »

« كان اناس قليلون في ديار الشام يهمسون في سرهم في اوائل النفير العام بقولهم : ما لنا وللحرب . ان الحياد ابقى علينا وأسلم لكياننا . ولم تكن الاّ مدة قليلة حتى عرف الخاص والعام بان الحرب مع دول الاستعمار كانت مقرونة لحياتنا السياسية والملية »

(١) المطبعة العلمية ١٩١٦ — تأليف الباقر — كرد علي — الحبال — الانسي
(٢) البعثة العلمية ص ٢٥٢ (٣) راجع الكتاب المذكور ص ٤٥ — ٥١

« كانوا يقولون ان في الحرب خراب البلاد ولكن حربنا الحاضرة والحمد لله قد عمرت بلادنا ومحّصت الناس فتبين الخائن المائن من الوطني المخلص ، والخامل من العامل ، والجاهل من العالم . ولو لم توفق الحكومة الى انتداب امثال جمال باشا واخوانه الولاة لسياسة سورية اثناء هذه الازمة لتمّ فيها المضحك المبكي » . ومن الثاني :—

« يا صاحب الدولة — ان قدوم هذا الوفد العلمي المنتخب من خيرة علماء الدين الى دار الخلافة الاسلامية الكبرى والامامة العظمى لاداء فروض العبودية وواجب الاخلاص لعرش الخلافة الاسلامية المقدّس واهداء سلام الشعب السوري الى الابطال المجاهدين في جناق قلعة وساحات القتال واظهار ما يكنّـهُ الشعب من عظيم الشكر لاولئك الابطال الذين دافعوا عن حوزة الخلافة وحياض الدين دفاعاً مجيداً خلّـده لهم التاريخ بأحرف من نور . . . لهو أنصع برهان على السعي وراء تلك الغاية الشريفة ، وتمكين عرى الرابطة المحمدية والاتحاد الاسلامي ، وتوطيد دعائم الجامعة العثمانية تحت ظلال الهلال المظفّر الذي سيخفق ان شاء الله بفضل جهادكم المشكور عن قريب في ربوع قفقاسيا وفوق وادي النيل »

ومما قيل في حضرة ولي عهد السلطنة —[1] « بيت عثمان ياذا الايادي البيضاء على هذه الامة انك جمعت شمل المسلمين تحت لواء الهلال المنصور قروناً وستكون كذلك ابد الدهر ، فكيف لا تتأصل محبة اركانك في قلب كل وليد »

وبعد ان يعرض الخطيب للعلاقات المتينة بين العرب والترك ولفضل العثمانيين في هذه الاخوة المقدّسة يقول — « فكنا امام العادين من دول الغرب في كل وقت نحارب معاً ونعود ظافرين ببركة هذه الاخوة ونحن اليوم كذلك في هذه الحرب الحاضرة وسنكون غداً وبعد غد والتوفيق حليف عَلَمنا الذي يظلّنا بفضلكم يا بني عثمان وحَفَظة بيضة الدين والايمان » . وعلى هذا النسق اكثر الادب السياسي المنثور اوكله في ذلك العهد . ولم يختلف عنهُ الادب المنظوم ، ففي مجموعة « البعثة العلمية » نحو من سبع عشرة قصيدة لبضعة شعراء كعلي الريماوي وعبد الكريم عويضه ، وحسين الحبال ، وبدر الدين النعساني وسواهم وكلها ترمي الى نفس الغرض — واليك أمثلة منها . قال أحدهم من قصيدة : —[2]

يا رجالَ الملك إنا أمـــةٌ لا ترى عن آل عثمان بديلْ
حيِّها يا وفدُ حيّ جنـــدها قاهر الاعداء بالسيف الصقيلْ
نصرَ الدينَ وأعلى شأنه فغدا الاسلام في ظلٍّ ظليلْ

ومنها مشيراً الى تراجع أسطول الحلفاء أمام قلاع الدردنيل

(١) راجع البعثة العلمية ص ٦٦ (٢) البعثة العلمية ٦٨

حيِّ قوماً أدهشوا كل الورى بثبات العزم والصبر الجميلْ
قهروا الاسطول في البحر فما أبحر الاسطول انْ عاد ذليلْ
دافعوا عن حوزة الملك بما يحفظ التاريخ جيلاً بعد جيلْ
وبنو الشرق الى مصر انبروا «وجمال الدين» للفتح كفيلْ

وينوّه بذلك الى الحملة التي كان يعدّها جمال باشا لعبور ترعة السويس ودخول مصر وللشيخ الرعاوي قصيدة خاطب بها جمال باشا عند عودة الوفد وهي نحو ٤٥ بيتاً وفيها يصف ما رآهُ الوفد في الاستانة ومقابلتهم لاركان الدولة هناك فيقول [١]

فجئنا الى دار السعادة والمنى محطّ رحال العزّ والعزُّ يُقصدُ
وزرنا عميد الملك يسمو عماده وزرنا وليّ العهد بالفضل يُعهدُ
تحفّ بنا القوّاد من كل جانبٍ وأقطاب دار الملك تحفى وتحفدُ
ومنها — خطبنا لهم جمًّا وقد خطبوا لنا وأنشد منا القائلون وأنشدوا
مجالس كانت كالربيع بواسماً ذكرناك فيها والحقيقة تشهدُ

***

ومنها — رجعنا وما بالقول شيء ليعربٍ ولا يعربٌ ينسى الجميل ويحقدُ
على أننا أبناء دين محمدٍ يحكّم هذا الحبّ فينا ويعقدُ

ولهُ قصيدة أخرى مطلعها

تيقظتم حزماً فأيقظتم الدهرا وأعملتمُ عزماً فأدهشتم العصرا

وفيها يقول [٢]

سلامٌ عليكم ما أجلّ فعالكم وأعظم في الايام آياتها الكبرى
سلامٌ على الدستور حلواً مذاقه وان كان بعض الناس قد ذاقهُ مرًّا
حماةَ الهدى والملك لله درّكم على الخصم قد طبّقتم البرّ والبحرا
ومنها — سعيتم فقرّبتم بني العُرب منكم وقلتم همُ الاخوان في الضُرّ والسرا
فكانوا لكم أزراً على كل خارجٍ عدوٍّ وما كانوا وحقّكم وزرا
يعدّون هذا الملك فيهم ومنهمُ ولا ينقمون الترك سرًّا ولا جهرا
فكنتم نجاد الملك والعُرب سيفه وكنتم يمين الملك والعرَب اليسرى

ونختم هذه الامثلة ببعض ابيات من قصيدة لبدر الدين النعساني في احمد جمال باشا. قال: [٣]

لئن أكثر المدّاح فيك القصائدا فما بلغوا في الالف من ذاك واحدا

(١) البعثة العلمية ٢٦٠ — ٢٦٥ (٢) البعثة العلمية ٢٠٨ (٣) البعثة العلمية ٢٨٥

ومنها : رمى الله منك الانكليز بصارمٍ صقيل يقدُّ الهندوانيَّ غامدا
عتَوا وأبوا الاَّ لقاءك في الوغى أراهم بما راموه منك حصائدا
أقاموا على شط القنال معاقلاً ستبقى لهم يوم اللقاء مصايدا
قطعتَ اليهم بالجيوش مفاوزاً بها الصرصر النكباء تشكو الجلامدا
لقد عزَّ جيشٌ كنتَ فيه رئيسهُ وعزّت جموعٌ كنت فيهنَّ رائدا
فلم أرَ مثل اليوم أرفع همةً وأعظم آثاراً واكثر حاشدا
وأطهر أخلاقاً وأصفى سريرةً وأنجب مولوداً وأكرم والدا
وقفت على علياك فيضَ يراعتي ونفسي وفكري والقوافي الشواردا

هذا هو الادب الحكومي الذي كان ينشر في سوريا والعراق . وهو وائن لايجوز اعتباره وصفاً صادقاً لحوادث ذلك العهد ورجالهِ فانه بلا شك صورة غير كاذبة لما كانت تثيره الحالة السياسية في الصدور من رهبة ورغبة او هوَس ديني . واذا عرفنا زمانه ومكانه واستطعنا ان نقرأ ما بين السطور تجلى لنا فيه من المشاهد ما قد يساعدنا على فهم كثير من الحقائق

وما يصدق على سوريا والعراق قد يصدق على مصر ايضاً . الاَّ ان المشهدين يختلفان . فمصر كانت عاطفتها كما وصفها الدكتور محمد حسين هيكل بقوله (١) — « تتجه حتى العصور الاخيرة الى جهتين — تتجه صوب مكة ومكة في بلاد العرب والنبي عربي والقرآن عربي . وهي تتجه او كانت تتجه صوب الاستانة مقر الخلافة الاسلامية والاستانة عاصمة الترك . فكل مسلم تعنيه وحدة المسلمين كان يتجه ببصره — الى حين الغيت الخلافة — نحو مكة والاستانة : يستمد من الاولى المدد الروحي ومن الثانية مدد السيف والمدفع »

ومع كل ذلك لم تحرك مصر ساكناً حين اعلن وزير الخارجية البريطاني في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ « انهُ بالنظر الى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية . وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر الخ (٢) » وما ذلك الاَّ لان السلطة البريطانية اصبحت يومئذ الكل وفي الكل . وصار المصريون يشعرون انهم انما يعيشون في ظل سيفها المصلت . فلم يكن من الغريب ان نرى الشعراء يتبارون في التقرب من السلطان حسين كامل . كاسماعيل صبري. وأحمد شوقي. وحافظ ابراهيم . وولي الدين يكن وسواهم . وهذه قصائدهم فيه تشهد بانقلاب الحال او بالتقية

(١) مقدمة الشوقيات ج ١ — م (بتصرف) (٢) الهلال ٢٣ — ٣٢٦ راجع أيضاً فيه بلاغات الوكالة البريطانية

حتى ان حافظاً الوطني الصميم وصاحب المواقف المشهورة قبل الحرب لم يتورع عن ان يقول في الانكليز مخاطباً السلطان [١]

فعش للنيل سلطاناً ابيّاً له في ملكه عقد وحلُّ
ووالِ القوم انهم كرامٌ ميامين النقيبة اين حلّوا
لهم مُلكٌ على التاميز[٢] اضحت ذراه على المعالي تستهلُّ
وليس كقومهم في الغرب قومٌ من الاخلاق قد نهلوا وعلّوا
فان صادقتهم صدقوك ودّاً وليس لهم اذا فتشت مِثل

اما شوقي شاعر الخديو عباس (خصم الانكليز) فقد كانت قصيدته في السلطان حسين كامل « لعبة » فنية حاول فيها الجمع بين وفائه لاميره السابق والواجب عليهِ للسلطان الجديد وتجنب سخط الانكليز . وقد توفق الى حدٍّ يذكر له . اذ قال مشيراً الى عباس :

الله يعلم ما كفرتُ صنيعةً في ذا المقام ولا جحدت جميلا

ثم في اعتذاره عن مدح الامير الذي حل محله

أأخون اسماعيل في ابنائه ولقد وُلدت بباب اسماعيلا

ولم يستطع الاّ ان يقول كلمة في الانكليز فقال :

حلفاؤنا الاحرار الاّ انهم ارقى الشعوب عواطفاً وميولا
أعلى من الرومان ذكراً في الورى وأعز سلطاناً وأمنع غيلا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحاً في البلاد عُدولا
وأتوا بكابرها [٣] وشيخ ملوكها مَلِكاً عليها صالحاً مأمولا

على انهُ لا بد من القول ان الشعر المصري الحكومي برغم اضطراره الى مجاراة السلطة لم يبلغ في تلك المجاراة مبلغ الشعر السوري والعراقي ، بل ظل اكثر تحفظاً وأقل تطرفاً . واذا كان في مصر يومئذ من غارات ادبية عنيفة على الاتراك فنشوءها في الاكثر الاوساط اللامصرية تشهد بذلك جرائدهم ونفثات اقلامهم . ولم يكن على ما يظهر مبعثها التملق او التعصب بل الاقتناع (خطأً او صواباً) ان الخلاص من تركيا سيكون فاتحة عصر جديد يحمل الى الاقطار العربية انوار المجد والسعادة

***

اما الادب السياسي العمومي (اي ما كان خارج دوائر السلطة) فمتشابه في جميع الاقطار اذ هو منبعث عن شعور الناس بوطأة الحرب . ومن الطبيعي ان يكون اثره في مختلف البيئات

(١) الهلال ٢٣ — ٣٣٧ (٢) نهر لندن (٣) اي بالسلطان حسين كامل

بالنسبة الى شدة تلك الوطأة او خفتها ، كما يتضح لنا اذا قابلنا ما نظم منهُ في مصر بما نظم في العراق وسوريا ولاسيما بيروت ولبنان حيث بلغت المحنة أشدها . ومن شواهده تلك القصائد التي قيلت في اهوال الحرب وفظائعها كقصيدة الزهاوي « مشهد من الحرب الكبرى » ومنها [١]

في كل ارضٍ وصقع مدافعٌ ثائراتُ
يقتلنَ كلَّ فتىً قد تفيد منهُ الحياةُ
وليس يبقين الاَّ ارامــلاً ويتامى

***

هناك بحرٌ خِضَمٌ يجري ليغمر بحرا
هناك بركان نار تسعى لتأكل اخرى
هناك جيش لهامٌ يؤمُّ جيشاً لهُـاما

***

من قارعاتٍ صباحاً يهتزُّ منها المكانُ
وبارقاتٍ مساءً يحمرُّ منها الدخان
وناسفاتٍ بليلٍ يبعثنَ موتاً زؤاما

***

القتل قتلٌ ذريع والخطب خطبٌ جُسام
فوق الرغام دماءٌ يحمرُّ منها الرُّغام
والارض تشرب منها ولا تبلُّ أُواما

وكقصيدة أنشدت في بيروت سنة ١٩١٥ موضوعها «متى تضع الحرب أوزارها» ومنها : [٢]

ربوعُ الحضارة أمست محـــطَّ النسور ومنتجعَ الاضبُعِ
وإنَّ ابن آدم شرُّ الضواري اذا هاجهُ هائج المطمعِ
ففي الحرب سلْ عنهُ نيرانها وحُمر الدماء على اليرمعِ
وأشلاء قتلى أبادهمُ مبيدٌ من السيف والمدفعِ

ولو أردنا ان نعدد القصائد التي تضمنت وصفاً للحرب وبلاياها لضاق بنا المقام ويكثر فيها وصف محن الناس من بؤس وجوع وخوف وترمل نساء وتيتم أطفال وما الى ذلك مما يدخل اكثره في باب العوامل الاجتماعية فنرجىء الاسهاب فيه الى فرصة أخرى

---

(١) ديوانه (١٩٢٤) ١١٤ (٢) راجعها في جريدة الحقيقة (بيروت) ٧ — ٥٩٨

لراجي الراعي

فكتور هيجو

شاعر الشعراء

كل شعر من أشعار هيجو أصبع من كف السماء ، تشير الى مجده . . . . ولسان من نار يندلع في سماء الادب والتاريخ ..

الجبل في روعته والبحر في زبده ودرره وأمواجه والافق في سموه وترامي أطرافه اجتمعوا ذات يوم وتداولوا في من يقيمونهُ محامياً يعبِّر عن أسرارهم المستقرّة في أعماقهم فاستقرَّ رأيهم على ان يكون الشاعر ذلك المحامي، ونطق الشاعر فاذا هو هيجو . . .

ولد فكتور وعلى رأسه سربٌ من النسور هبطت من أعالي الفضاء وهي مأخوذة بزميلها الجديد ، مضطربة من مستقبله ومنافسته . .

في ذلك اليوم كان يوم النسور يوماً قاتماً .. أتاها شاعر الشعراء فما هي بعده.. وماذا تفيد حوماتها . . .

ولد فكتور فكان يوم ولادته كيوم نابليون في وحيده فلقد تناوله الشعر في ذلك اليوم وأطلَّ بهِ من شرفة الادب على دولة الادب وصاح : المستقبل لي ..

ولد في مقر الاولمب في ظلّ جوبيتر ، وعلى وجهه نو[illegible]ن أنوار السماء ، وأطلَّ على الحياة تعب الفؤاد لاهث الصدر من وطأة [illegible] على منكبيه فقدّم لهُ فرجيل كأساً من الخمرة صبَّ فيها البحر من زبده فشرب فلم يُطفىء غليله فشرب من دمعه فلم يُطفىء غليله فالتقط دموع الناس دمعة دمعة فلم يُطفىء غليله فلما ضاق بهِ الامر شرب من قلبه طيلة ليله فلما أطلَّ عليهِ الفجر كان قد أهرق دمه في القراطيس فكان مسيح الشعر . . ولما اشتدَّ ساعده جاءهُ هوميرس وقال لهُ : أنا الضرير رأيتك على الرغم من عماي فقد شقت أشعتك حجاب نظري . . وأقبل عليهِ موسه فجلسا ساعة ، تحت الصفصافة الباكية ، وصعد لامرتين الى قمة الجبل ونفخ في البوق مبشراً الدنيا بقدوم شاعر الشعراء . . .

فكتور هيجو . . ومن لا يعرفهُ . فكتور . . وكفى . .

رأى ابا الهول فقال له: لقد أتيت فاسمع فأنا في صرخاتي العجيبة انت في صمتك العجيب

الصدمة التي تشفي

علاج الخَبَل بالانسولين
وتأثير صدمته في المدمنين

هو ذا طريقة جديدة لعلاج الجنون (insanity) [1] وتاريخها لا يرجع الى ما قبل سنة ١٩٣٠ ففي تلك السنة كان الطبيب النفسي النمسوي الدكتور مانفرد ساكل Sakel معنيًّا بدراسة أحوال مدمني المورفين عندما يمنع المورفين عنهم . فتبيَّن ما تبيَّنهُ غيرهُ من الاطباء ، اي الاضطراب والتهيج بل والجنون الوقتيّ في هؤلاء المدمنين وهم في هذه الحالة . فلم يكتف بذلك بل خطر لهُ خاطر جعلهُ أساساً لرأيٍ . ذلك بان تنقُّل المدمن الممنوع عن المخدِّر ، من حالة عقلية الى أخرى ، حملهُ على الظن بان المخدِّر احدث تغييراً في انساج الجسم علاوة على التغيير في أحوال العقل . وذهب الى ان خلايا الدماغ تتأثر بالمورفين — وهو سمّ — تأثراً ضارًّا ، فتجذب وهي في هذه الحالة مقادير من المفرزات المهيجة او المثيرة التي تفرزها الغدد ، اكبر مما تجذبهُ في الاحوال السوية

والاطباء يعلمون ان للانسولين فعلاً يميل بأفعال الجسم الحيوية الى الهبوط . والانسولين كما لا يخفى تفرزهُ الغدة الحلوة السليمة فيساعد الجسم على تمثيل السكر . والمصاب (بالديابيطس مليتوس) داء البول السكري لا تفرز حلوتهُ الانسولين فيتجمع السكر في الدم . فاذا حقن المصاب بالقدر الكافي من الانسولين المحضَّر في المعامل فعل فعل الانسولين الطبيعي فيهبط مقدار السكر المتجمع في الدم . ولولاه لمات كثيرون ودمهم مكتظ بالسكر . ولكن اذا حقن المصاب بقدر من الانسولين اكبر مما يجب ان يكون هبط مقدار السكر في الدم الى اقل من مستواه اللازم فيصبح المصاب المحقون وكأنهُ ثملٌ او مخدَّرٌ بالكحول وقد يفقد وعيهُ وتستولي عليه غيبوبة . وعلاج هذه الحالة ادخال مقدار اضافي من السكر في الدم ، والغلوكوز هو ما يستعمل على الاكثر في هذه الاحوال

واذاً فلا يستغرب ان يستولي النعاس على اثر الحقن بالانسولين ، مع ان الانسولين ليس

---

(١) اشرنا الى هذه الطريقة اشارة ملخصة في مقتطف يوليو سنة ١٩٣٧ في باب الاخبار العلمية ص ٢٣٣ وقد قرأنا في هذا الموضوع مقالات في «السينتفيك أميركان» و« الفوروم » و«رسالة العلم» فلخصناها جاعلين الاعتماد على مقالة السينتفيك أميركان

مخدراً بحصر المعنى . ولذلك فكر الدكتور ساكل في استعمال الانسولين لتهدئة أعصاب مدمني المورفين الذين حيل بينهم وبينهُ . فأصاب في ذلك قسطاً من النجاح . ومع انهُ استعمل مقادير يسيرة من الانسولين في حقن المدمنين لاحظ تغيُّراً يستوقف النظر في احوالهم العقلية بعد الحقن . فالمدمنون الهائجون أخلدوا الى السكينة ، والمنطوون على انفسهم القاطعون كل صلة لهم بعالم الحقيقة عادوا يدركون الحقيقة والواقع ، والنازعون الى الانزواء والخصام انقلبوا الى المودة والتعاون

وقد كان هذا التغيُّر بادياً فيهم حتى في الايام الاولى من انقطاعهم عن الخدّر ، وفي هذه الايام الاولى كان المدمنون اشد ما يكونون عنفاً وهياجاً . فلمع في خاطر الطبيب النمسوي بارق رجاء خطّاف . فالانسولين على ما يبدو من تجاربه ، يجنح بالمرض الى التراخي والسكينة ، اي الى ان يعود المدمن سويًّا فترة طويلة او على الدوام مع أن مقادير يسيرة استعملت في حقنه . فهل يكفي الانسولين لشفاء دماغ المجنون اذا حقن بمقادير كبيرة منهُ . ان الفكرة لجريئة ولكنها جديرة بالامتحان

وكان قد علم هو وغيرهُ من معالجة مصابي البول السكري بالانسولين ان حقنهم بمقادير كبيرة من الانسولين لا يؤذيهم الاَّ في أحوال نادرة وان حقنهم حينئذٍ بالغلوكوس يبطل ما يتعرضون لهُ من خطر . ولكنهُ أراد ان يستوثق لانهُ طبيب ذو ضمير حيّ

ولذلك تقدَّم الى امتحان فكرته هذه خطوةً وئيدة أثر خطوة وئيدة وشعارهُ في كل خطوةٍ يخطوها سلامة المصاب . انها في نظره مقدمة على كل شيء آخر . فعلم من تجاربه المتعددة ان جميع أنواع الاضطرابات العصبية والعقلية لا تستجيب لعلاج الانسولين هذا . فالخُبل Shizophrenics يجنون منهُ فائدة عظيمة وأما المصابون بالجنون السوداوي (مقابل للفظ manic-depression وهي حالة يتداول فيها المصابَ دورُ الجنون فدور السوداء : عن معجم دورلند الطبي) فقلما يجنون فائدة ما

والخُبلْ (shizophrenics) ذوو الشخصية المتهافتة الموزّعة يشملون الذين تنطوي عقولهم على ذواتهم فيعيشون وكأنهم في حلم وينشئون عالماً خاصًّا بهم لا صلة لهُ بالواقع ويتخيلون انهم يعيشون مع ملوك وملكات وأميرات . ويكثر ان يظن الاخبل نفسهُ شخصاً آخر ، وفي هذا التخيُّل منفذ لهُ من حقيقة الواقع . والمصابون بهذا الضرب من الاضطراب العصبي العقلي ، هم السواد بين الذين يؤخذون الى مستشفيات الامراض العقلية كل سنة في أميركا وعددهم يبلغ نحو مائة الف

ولا يعلم عن سبب هذه الحالة شيء واضح فيكتفي الاطباء بقولهم ان مردَّها الى « أسباب وظيفية » وهذان اللفظان لا يعنيان شيئاً

ثم هناك المصابون بالجنون السوداوي وهم على الغالب نهبٌ موزّع بين النشاط والتراخي او الهياج والهبوط . وعلتهم أيضاً تعزى الى « أسباب وظيفية » . وليس ثمة من يعلم هل حالة الاخبل وأحلامهُ الغريبة ، وحالة المجنون السوداوي ، مرضان قائمان بنفسهما او هما عرضان لاصابة

جسمية خفية ، ليست صلتها بالدماغ والجهاز العصبي الا صلة ثانوية . ولذلك يمكن ان تحسب طريقة العلاج بصدمة الانسولين من أعجب الطرائق الطبية الحديثة لانها تعالج مرضاً لا يزال سببهُ سرًّا مغلقاً

قرَّر الدكتور ساكل ان خير اسلوب يتبع في العلاج ، ان يحقن المصاب بمقادير متزايدة من الانسولين حتى يبلغ مقدار الحقنة الواحدة المقدار الذي يحدث الصدمة في الجسم . ومقدار « حقنة الصدمة » يختلف باختلاف المصابين ويتفاوت من ١٥ وحدة انسولين الى ٤٥٠ وحدة

ويقصد بحقنة الصدمة ذلك المقدار من الانسولين الذي يلزم لاحداث الغيبوبة في المحقون بعد اربع ساعات او خمس ساعات من حقنها فيه . وبعد بلوغ هذه المرتبة يحقن المصاب بمقدار الانسولين الذي يحدث الصدمة من ثلاث مرات الى ست مرات في الاسبوع حتى يجني اكبر قدر من الفائدة . والغالب ان لا يعطى اكثر من خمسين حقنة اذا لم يستجب لتأثيرها . فاذا استجاب جسمهُ لتأثيرها فقد يعفى من الحقن يومين او ثلاثة ايام بعد كل حقنة ، وعلى كل حالٍ يجب ان يعفى من الحقن يوماً واحداً في الاسبوع على الاقل

وقد كان أصعب ما اعترض سبيل الدكتور ساكل معرفة طول الغيبوبة التي يحفظ فيها المصاب وعدد « حقن الصدمة » التي يحقن بها . فمنهم من تكفيهِ ثماني حقن ومنهم من لا يبدأ جسمهم بالاستجابة لتأثير الحقنة الا بعد خمسين حقنة . ثم يبدأ الطبيب في تقليل مقدار الانسولين تدريجاً حتى يغدو مقدارُ الحقنة الاخيرة مقدارَ الحقنة الاولى

ولا يسمح للمصاب بأن يتناول طعاماً قبل الحقن والغالب ان يحقن في الساعة السادسة صباحاً ثم يبطل فعل الانسولين في الجسم بحقن محلول من السكر في الشريان او بأخذه عن طريق الفم ، وذلك في الساعة العاشرة صباحاً اي بعد انقضاء اربع ساعات على اعطائه الحقنة . واذا كانت الحقنة كبيرة وأحدثت صدمة وغيبوبة ، بقي المريض في فراشهِ ويراقب مراقبة دقيقة حتى اذا بدا عليهِ اي عرض من اعراض الضعف او الهبوط اعطي السكر اللازم لتعزيز قواه

وبعد ان يعطى محلول السكر يستحم ويتناول فطورهُ ويسمح لهُ بالقيام والتجوُّل . ولكن المراقبة الدقيقة لازمة جدًّا ، لان السكر ينقص فجأة احياناً حتى حدود الخطر ولو كان المصاب قد اكل وشبع . وفي هذه الحالة يجب ان يحقن بمحلول السكر ايضاً

وفي سنة ١٩٣٣ أذاع الدكتور ساكل شفاء عليله الاول بهذه الطريقة وتبعهُ كثيرون ، ونشرت نتائج بحوثهِ والحالات التي عالجها ، فدهش علماء الطب النفساني مما قرأوهُ في رسائله ، لان تصديق ما فيها بدا صعباً . ولكن الدكتور ساكل شفى ثمانين في المائة من الخبل الذين عالجهم كذلك . والاقبال على تجربة هذه الطريقة في اميركا كبير والصحف حافلة بانبائها ، ولكن التعميم الآن سابق لاوانهِ والتجارب يجب ان تجرى بحذرٍ عظيم

المذاهب الاشتراكية — ٢

أثر الماركسية

في الادب

لحليم صبري

احب بعد ان طرقت هذه الابواب في الاشتراكية ومذاهبها مما قد يقره العقل الاجتماعي الحديث او لا يقره ، أن اعرض للبحث الاساسي المقصود به هذا المقال وهو علاقة الماركسية بالادب . فاذا استعرضنا بعض النتائج التاريخية والحركات الفاصلة في تاريخ الاجتماع وجدنا ان الفكر السياسي في اوربا كان قد تطور نحو اتجاهات عديدة في الفترة التي استقرت فيها الحال بعد الحروب الثورية في القرن الثامن عشر . ولقد كانت المدرسة الفلسفية الذائعة الصيت إبان ذلك تلك التي قامت على فلسفة « هيجل » وتزعمها « هيجل » نفسه والتي قامت ايضاً من قبله على اكتاف « كانت » الفيلسوف الكبير ومن قبله أسسها فيلسوف الطبيعة « روسو »

ان كثيراً من تعاليم ماركس بل اشتراكيته نفسها في مظهرها ، يعود الى « هيجل ». فقد كان نجاح « هيجل » كفيلسوف يعود الى تقديسه « الفكرة » التي اعتبر المادة لها اثراً . واما ماركس فقد أخذ هذه النظرية وقلبها رأساً على عقب وكان باعثه في ذلك النحو من الرأي ان الفكرة في ذاتها لا تقرن الى « محصول المادة » في بناء الجمعية الانسانية ، وانشأ على هذا الاساس نظريته الاجتماعية ، « النظرية المادية للتاريخ » « Materialist Couception of History »

والآن دعنا نبدأ « بماركس وانجلز » ونرى مدى ما قصد به الادب والفن في مذهب « المادية الجدلية » « Dialectical Materialism » او الفلسفة الجدلية أو المنطقية — اذا صح هذا التعبير — . فقد اعتبر ماركس وانجلز ان وجود المجتمع الانساني في أية مملكة وفي أي جيل موقوف على وسائل الانتاج وقد يتهيأ للمجتمع فضلاً عن ذلك « كفايات عليا » كالسياسة والقانون والدين والفلسفة والادب والفن . ونستطيع في غير تحرج ان نطلق على هذه الكفايات « مظاهر النشاط » وهي لا تتجمع كلها في المعاني الاقتصادية وانما من شأنها أن تكوّن بطرق مباشرة أو غير مباشرة « التناسق الاجتماعي » وهي تمتد الى مختلف المرافق العامة كل منها في

اتجاهه الخاص على انها ترتبط في نظام واحد لانها تعمل متضافرة كما انها ترتكز على الحياة الاقتصادية . وإذن فلا يجوز ان يقال ان الحالة الاقتصادية هي وحدها الاثر الفعال وما عداها فلا يعتد به . فقد يتاح مثلاً لطابع اي عصر من « العصور الفنية » أن تؤثر حيويته في « نظام » ذلك العصر بصفة عامة وفي نواحيه الاقتصادية بصفة خاصة . . . لم يحاول « ماركس » أو « أنجلز » إقامة مذاهب اجتماعية اقتصادية لكي يستطيعا بها تحديد « المنزلة الفنية للاجتماع » فقد نشأ كلاهما في مغرب أيام « جيته » الشاعر الالماني العظيم قبل ان ينتهي العصر الذهبي للأدب الالماني . ولقد حاول « ماركس » وانجلز ان يطرقا ابواب الشعر في صدر شبابهما بل لقد اندفعا في غمار الحياة الخيالية واستطاعا ان يبلغا فيها شأواً بعيداً بل استطاعا ان يكونا ناقدين لم تقبل عقليتهما هضم ما كان يكتبهُ « أوجين سو » في مؤلفه « العائلة المقدسة » عن طرق العلاج لبؤس الطبقات المتوسطة في المجتمع . بل لقد نددا « بفردريك فريليجرات » الذي هجر عصبة الاشتراكيين وارتدَّ وطنيًّا في عام ١٨٧٠ وكذلك أنحى ماركس باللائمة على « هنريش هيني » عند ما ظن ان هذا الاخير قد انحنى خوفاً أمام اصحاب السلطة عندما كتب « تعبيرات الزهد » في وصيته . وهذا ثابت من رسالة ماركس الى انجلز في ديسمبر ١٨٦٦ مع ان ابنة ماركس تقرر ان والدها كان يحب « هيني » بقدر ما كان يتغاضى عن إخفاقه السياسي . ولقد كان ماركس يقول ان الشعراء قد يكونون عباقرة اذا ما تركوا في سبيلهم احراراً فليس من المفروض اساساً ان نضعهم في المستوى العادي الذي نضع فيه سواد الناس

لم يكن من مميزات ماركس وانجلز الحكم على الآداب — آداب السموّ والقوة — في حدود اتجاهاتها السياسية . فلقد طالما انذر ماركس روائيي الاشتراكية بما ينجم من خطر عن الآداب الغامضة التي قد تؤدي نتائجها الى اغراض غير صريحة . ولقد كتب الى « مينا كوتسكي » يقول لها عن احد مؤلفاتها ان شخص البطل والبطلة في قصتها قد ذابتا في المبادىء التي يمثلانها ويقول لها لقد اتخذتِ بعض جوانب تلك القصة لابراز نظرياتك الى المجتمع على أنني أرى ان الاتجاه يجب ان يصدر عن الحوار والحركة دون ان يركّزا في مذاهب اجتماعية او نظريات علمية وانهُ ليس على الشاعر ان يطلع على القارىء بحل ما يختتم به نهاية النزاع الذي يسرده »

ولقد أرسل « فرديناند لاسال » مأساته الشعرية « فرانز فون سيكنجن » الى ماركس وانجلز يدعوهما الى نقدها . فكتب اليه ماركس يقول « اذا تركتُ جانباً أي فكرة تعرض لي عن نقد هذا المجهود الأدبي فان قراءتي الاولى لتلك الدرة الثمينة قد أثرت فيَّ التأثير كله وطبيعي ان يثير مثل هذا الادب كل ذي وجدان » . أما انجلز فقد قال انهُ قد قرأها مثنى وثلاث ومن فرط اعجابه بها وضعها جانباً متأملاً في ما عسى ان تمليهُ عليه مواضعها من نقد ...» . ولقد

تحدثا في هذا عند ما كانا يدفعان بنفسيهما الى المحيط الادبي لكي يطلّعا على الانتاج الفكري ويضعان بصدده ما يعن لهما من ملاحظات . ولا عجب في عصرهما بلغت « الدراما » مكانة رفيعة ولقد أمكنهما ان يبينا كيف ان مكانة « لاسال » السياسية جعلتهُ يخطىء فهم الدور الذي لعبهُ بطل مأساته . أما « شاكسبير » فقد كان « ماركس » يكلف بآثاره الادبية والشعرية كلفاً شديداً . فكان يحفظ شعره عن ظهر قلب . وكان مشغوفاً بكتابة مذكرات عنهُ . ولكن لم يحاول ان يخرج منها بأية فكرة عن الاشتراكية

ولقد كتب ماركس مبيناً مدى العلاقة بين الفن والنظام الاجتماعي فأشار في مقدمته لنقد « الاقتصاد السياسي » الى ان في بعض العصور التي شارف فيها الفن المثل الاعلى لم يكن لهُ ثمة اتصال بالتقدم الاجتماعي . بل لم يكن لهُ صلة بالقواعد المادية التي يقوم عليها نظام الاجتماع . ولم يكن ماركس او انجلز ممن يتخذون الفن سلاحاً . « Art as weapon » . بل كانا يتأثران بالمثل الاعلى للعقلية التي تشترك في مناحٍ كثيرة للعلوم والمعرفة فلم يحبذا التخصص في احد العلوم او الفنون بل كانا يقدران شخص ذلك العالم الذي قام في أيام «النهضة الاوربية» Renaissance والذي كان موسوعيّ الثقافة

وهذا « ليوناردو » كان مصوراً ورياضيًّا وعالماً هندسيًّا . ودونك « ميكافيللي » فقد كان شاعراً ومؤرخاً وسياسيًّا ماهراً . كان هذان الرجلان اذن يمثلان تلك النظرية التثقيفية قبل ان يكون لتقسيم العمل « Division of Labour » هذا التحديد لطبيعة العقل ونموه وقبل ان يُفرض على كل انسان عمل خاص . على اننا اذا ما نظرنا الى « لينين » مثلاً وجدنا أنفسنا أمام شخصية مثقفة مجربة وانما نجد أيضاً ان ماركس خصّ نفسه بشيئين « التنظيم والكفاح » ولقد كان كمعظم الروسيين — يعشق الموسيقى . ويتحدث عنهُ جوركي فيقول « لقد كان يستمع ألحان بيتهوفن فيؤثر سماعها كل يوم على أي شيء ويعبر عن احساسه نحوها فيقول . تلك هي الموسيقى التي ترتفع عن عواطف البشر واني لأذكر بفخر ما يصل اليه سمو العاطفة وجلال الالهام بل ما يصل اليه العقل ... على اني لا أستمرىء سماع الموسيقى كثيراً . فهي تؤثر في أعصابك وتجعلك اما متبرماً ساخطاً واما فرحاً راضياً على ان ينتهي هذا التبرم او السخط وذلك الفرح والرضاء الى الاعجاب بأولئك الذين يخرجون الى العالم درراً وفرائد ويعيشون في وادي الجحيم »

ولقد كان لينين مشغوفاً بالقصة والشعر والتمثيل وكان ذا نزعة خاصة في تذوق الفنون الرفيعة ولقد قال ذات مرة في أثناء حديث لهُ في احدى ندوات الشباب : ماذا تقرأون ؟ أتقرأون بوشكين ؟ ؟ — لا . لا . انهُ كان كاتباً من كتّاب العامة . وانما نحن نجل « مايكوفسكي » . فابتسم أحد الموجودين وقال : اني لا أظن ان « بوشكين » يفوقهُ كثيراً

وكان لينين يمجد « تولستوي » وكثيراً ما كان يقرأ كتابه « السلم والحرب » ولقد قال لينين عن تولستوي ان عبقريته منقطعة النظير وانهُ الفنان الذي يجب ان يتخذ مثلاً أعلى . ولقد كان لينين يكتب عنهُ معالجاً نواحي عبقريته كما كان « إنجلز » يحلل نفسية الشاعر الالماني « جيته » وان كان قد عرّض بعدم مقاومته وبتصوفه. وقد كانت فكرة لينين عن جوركي كفكرة ماركس عن « هيني » وكان يقترح في بعض رسائله ان يكون جوركي كاتباً صحافيًّا يدعو للبلشفية . . . على ألاَّ يكون من وراء هذا تحطيم نزعته الادبية العالية . . . وجوركي هذا الذي يعنيه لينين لم يستطع احتمال استبداده ودسائس انصاره فهاجر الى أوربا تاركاً منصبه في حكومة الروسيا وقد كان فيه مديراً للفنون الجميلة

ان لينين يمثل تلك « الطوبى » التي تخيلها « ماركس » عن « الاشتراكي المكافح » فقد كان دائم الجلاد والعمل ليصل بأصحاب « الايدي العاملة » الى مركز الحكم . ولقد كانت نظريات « كارل ماركس » انجيلاً يستنير بهِ في حياتهِ الاجتماعية بل كانت الحافز الذي دفع بلينين الى ان يعتنق تلك الفلسفة الجديدة في الاجتماع حتى أتيح لهُ ان يصل الى تمزيق النظام (الرأسمالي). ولقدكان لهُ ان يحذق تلك الاساليب المختلفة التي يحتاج اليها الهدم والبناء وكانت نظريتهُ ان المبادىء شيء والاعمال شيء آخر وان القائد يجب أن « يجرب » لكي يصل الى خير الوسائل والطرق وبذلك ينتهي الى ما يطمع في الوصول اليهِ . ومما قرب للينين الطريق ما في خلقهِ من حزم واستهتار وبوهيمية

فقد عرف هذا الرجل كيف يسبر غور النفس الانسانية وكيف يختار الرجال ويدرس أوساطهم وبواعثهم النفسية . واستطاع ان يسخّر المجتمع رجالاً ونساء لخدمة اغراضه التي تنحصر في ان الحكومة يجب ان تسودها الطبقات العاملة (Proletarians) وهذا الرجل الذي كان يعمل بآراء ماركس في الحكم كان يبشر بهذه الآراء ذاتها في الادب والثقافة وكان من رأيه ان يكون الادب خادماً للحياة وان يكون وسيلة فعَّالة من وسائل التقدم الاجتماعي . واذا كانت الحرية غاية في ذاتها فتحرير الفكر من أسر التقاليد هو « الغاية » التي يجب ان يسعى اليها الادب

أما « تروتسكي » فكان أديباً يفضّل على لينين . أخرج عام ١٩٢٤ دراسة مسهبة عن « الادب والثورة » عالج فيها المشاكل التي تعرض لها الكتَّاب الروسيون وعن علاقاتها بالمجتمع الجديد الذي يعتبر وليداً للثورة . ولقد تعرّض في بحثه لاشياء لم يتعرض لها ماركس وأنجلز من موضوعات تختص بالنقد الادبي تحدث فيهِ عن قيمة الادب ورسالته في الحياة . لقد قدر تروتسكي منزلة « شكسبير واليونان » فليس يحق لكائن من كان أن يثير غباراً على هذه الآثار الخالدة الحية . ولقد كان هذا رأيهُ بينما الكتَّاب الروسيون كانوا يتساءلون عن منزلة الادب

والفن في عصور الانحطاط الدكتاتوري او الحرية الاشتراكية . وما هي الثقافة التي للطبقات العامة التي عنهم نشأت الاشتراكية . وهل تكون هنالك آداب شعبية جديدة في أساليب جديدة تمثل عواطف وآراء تلك الدكتاتورية الشعبية ؟ لقد كان في روسيا جماعة أطلقوا على انفسهم « البروليكتات » رغبت تلك الجماعة في ان تحتكر الاشراف على الآداب السوفيتية . على ان لينين بدأ في معارضة المشروع بحجة ان الآداب الشعبية شيء لا يقوم على قوة السياسة او استغلال الآراء السياسية وانما يقوم على التطور الطبيعي القائم على المعرفة والعلم والتي جاهد من أجلهما الشعب تحت ضغط رأسمالية الاشراف والحكام . ولقد زعم تروتسكي في كتابه « الادب والثورة » ان الآداب الشعبية والثقافة الشعبية تنتهي الى نتيجة خطيرة في التكوين العلمي لعقلية الشعب اذا استمرت ، إذ تجمع خطأ ثقافة المستقبل في الحيز الضيق لحالتنا الاجتماعية الحاضرة . وانما لنفهم من « ماركسيته » اتجاه التأثيرات الخاصة بالادب القومي الذي يدعو الى الحرية والبعد عن تأثيرات اصحاب السلطة . ولقد قدر تروتسكي أولئك الكتاب والشعراء والروائيين الذين الهمتهم الحياة كثيراً من دروسها وعرفوا مدى ما ينتهي اليه تفكيرهم من بحث الأزمات الاقتصادية . . . وهو مع هذا لم يكن يؤمن بالادب الشعبي الذي حل محل الادب « البرجوازي » .فلقد نما ادب الثورة الفرنسية البرجوازي في كنف العهد القديم ولكن روسيا « الامية » لم يكن لها مثل هذا الحظ من الثقافة وقد لا يحتمل ان تمتع به في المستقبل لان الدكتاتورية الشعبية لم تكن الا فترة انتقال قصد بها إيجاد فكرة انسانية عظيمة . فالشيوعية لم يكن لها حتى اليوم ثقافة فنية ولكن كان لها ثقافة سياسية ! ! . ويقول تروتسكي — لم يكن من السهل ان تطبق مبادىء ماركس على الصور الفنية كما انهُ من السهل ان نقيس الصور الفنية الى مكانتها من السمو الفني بمقاييس الفن نفسه ! ! . لم يتعود الناس في روسيا ان تشرف الحكومة على الاعمال الادبية والفنية . وكذلك لم تحاول الهيئات الادبية ان تثبت وجودها عن طريق الحكومة . وانما كانت في الروسيا منذ الانقلاب الثوري جماعات أدبية حاولت ان تسيطر على الادب برعاية السلطة حيناً وبدون رعايتها حيناً آخر . ولقد كان تروتسكي بمكانته الرسمية يضاد هذه الاتجاهات وينكرها . وكان محبو الادب الروسي يعتقدون ان هذا النوع من الاستغلال بعيد عن الروح الاشتراكي وانهُ شر محض وان الحكومة لا الادب يفيد كثيراً من هذا الاشراف على الثقافة . وهذا العمل بعيد عن جادة الصواب فقد كان الادب « الرومانتيكي » في عهد القيصر يلعب دوراً لم يتح لمثله ان يلعبه في عهود التاريخ كلها . فقد كان النقد الاجتماعي والسياسي والادبي مقضيًّا عليهِ بالرقابة . وكان أن ألبس النقد يومئذ لباس « الدراما » لكي يظهر في أثواب مسرحية . ولقد تهيأ للمسرح يومئذ عهد جليل من عهود التمثيل الفنية في القرن الثامن

عشر بل ان هذا هو السر في قوة تلك القطع الروائية العظيمة التي انتجها عباقرة الكتاب في تلك الفترة منذ عهد بوشكين حتى تولستوي . وكان هذا الادب التمثيلي يتسم بالتعريض art of implication ولقد كان يكفي لان يفلت مؤلف «تورجينيف» من يد الرقيب لكي يطرد الرقيب نفسه بل يسجن وكان هذا الموضوع التمثيلي « A Sportsman's Sketches »

ظلت الآداب كالسياسة منذ الثورة في حالة شديدة من التناقض والارتباك . أما بعد الثورة فقد كان المفكرون انفسهم اصحاب قوة ورأي . وكان اندماج الثقافة بالسياسة يومئذٍ لا يخلو من اخطار وشرور . فعمد لينين وتروتسكي ولوناشارسكي وجوركي الى تحرير الادب من اي دعوة . وكان لهم ان يناهضوا هذا الشعور الفكري الذي وجد في اذهان الشعب منذ عهد القيصر والذي كان يعتبر الفن سلاحاً للدعوة . وكان لينين لهذا يفيد كثيراً من دعاوة الصور المتحركة وكان اول فيلم شاهده الشعب هو « لاينشيين » و « بتروفكين » وهو قطعة عظيمة في التعريض والنقد الاجتماعي على نسق الروايات التمثيلية التي مثلت في عهد القيصر . على ان البلاشفة قد أخفقوا بعد موت لينين ونفي تروتسكي في النهوض بهذا النوع من الآداب ولان «ستالين» لم يكن على درجة من الثقافة تعدل تلك التي للينين او تروتسكي . ولقد خمدت حركة النقد المسرحي نفسه لان ذلك الشعب الامي لم يكن ليصل الى تلك الذروة من التفكير

كان جوركي مدافعاً عن حرية القلم بل كان قد ارصد نفسه للدفاع عن حرية الفكر فاليه يرجع هدم «الراب» R. A. P. P. آخر مجهود في الاحتكار الثقافي. ولقد فتح الكنائس والمعاهد السوفيتية لاقطاب الكتّاب الاجانب وكذلك لكتّاب الكلاسيكيين وان كان هذا التصرف قد ادى الى تدعيم المظهر الديمقراطي وهيأ مجالاً واسعاً للاطلاع على الآداب والعلوم والفلسفات . وهذه الفترة تفضل كثيراً عهد « ستالين » حيث لا سبيل الى معارضة سياسية او نقد اجتماعي . وفي روسيا نجد السياسة تقرر المصير الاجتماعي ؟ . . واذن ما هو على وجه التحديد موقف المفكرين الروسيين . اولئك الذين يهيمون بفلسفة التاريخ او فلسفة الفنون والذين نضعهم في الصدارة اذا ما ذكر ادباء الاجتماع في العالم ! ! ان الموضوعات التي يعرض لها الادب التمثيلي اليوم في الروسيا لا تمت بصلة الى «الميلودرام» ذلك التمثيل القوي الذي يصدر عن العاطفة والمعاني الخلقية . وانما نجد اليوم في الروسيا قصصاً تمثيلية هزيلة تتجه نحو الدعاوة الى اسلوب الحكم الذي يقوم به «ستالين»

ان موسيقى «سكوستا كوفتش» التي لم يتذوقها الجنود كانت دليلاً على اهمال الديمقراطية ومبادئها . وطبيعي ان موت «جوركي» وسجن « بوكارين» و «رادك» ازال « الفرملة » التي كانت تحول دون التدهور الفني وبعبارة اخرى التدهور السياسي . ان تمويه الحقائق التاريخية

في عهود ازمات ستالين وتروتسكي قد ادت الى نتائج وهمية حتى أن الحكومة لا تتوانى في ان تضع للناس برنامجاً جديداً يمثل تاريخهم القديم ويصف اخلاقهم . ومثل هذا التصرف لا ينتهي الاَّ بأفساد الحياة العقلية التي تقوم عليها مظاهر الاجتماع وتقديره . على ان هذا كله يقابله العالم اجمع في شيء من الهدوء والابتسام . وعلى هذا النحو فقد دفعت «الماركسية» بنفسها في مأزق حرج او كما يقولون قد اسقطت نفسها في بئر . ونحن قد يخيل الينا ان «السوفيتيين» لم يبقَ لهم من ماركسيتهم حتى « الثقافة السياسية » في أعنف صورها . وهكذا فقد بعدنا عن تأثير الحرية طالما قد فقدنا إلهامها . واذن الى اي خاتمة تنتهي قضية «الماركسية والادب» . انما يجب ان نتذرع في هذا البحث بالمنطق السديد وتحكيم العقل واذن فلا ينبغي ان نغفل تلك الآيات الادبية الخالدة التي اخرجها آباء الماركسية . انما قد نبعد قليلاً عن «تروتسكي» فيما قد قررناه من أحكام ونصرّح بأن «الماركسية» وحدها لا يمكن ان تدلنا على الطيب أو الرديء من الانتاج الفني . فقد يكون هنالك «ماركسيٌّ» ممتاز ولكنهُ قد فقد ملكة التخيل او الذوق واذن فهو لا يستطيع ان يفرق بين الغث والسمين في الانتاج الادبي وهذه نتيجة «ايديولوجية» خاصة بتكوين ثقافته

ان دراسة الادب وعلاقته بالاجتماع قديمة جدًّا قدم « هردر » وفيكو . ولقد سبق « لكولردج » ان تحدث عن تلك العلاقة التي تقوم بين الادب والمجتمع . فقد تبين « قوة » السلطة اليونانية في عهودها التاريخية في ثنايا التعبيرات الادبية اليونانية . كما قد تستطيع ان تلمس «الفردية» الانجليزية في محاورات « تشوسر » . على ان «البرجوازي» الاكبر في هذا السبيل من النقد هو (تين)

ان الكاتب اذا شاءَ ان يطبق المبادىء والنظريات الماركسية ولا سيَّما نظرية ماركس عن « الفلسفة الجدلية » ينبغي ان يدرس الادب الانساني درساً عميقاً . فالشيء الذي يجب ان يتنبه لهُ الكاتبون يتعلق بالمعاني التي ترمي اليها حقائق الادب . ولعل هذه الحقائق لن يصل اليها العقل في يسر وسهولة فقد لا يستطيع الاديب نفسه اداء هذه المعاني في شيء من التبسط . إما لغموضها وإما لابهامها وإما لرمزيتها . وقد يعاني القارىء شيئاً غير قليل من العسر اذا ما انتهى الى حدّ يخيل اليه انهُ الحقيقة او المعنى الذي اراده الكاتب ، وقد يكتفي بما يعثر عليه من آراء اشتراكية تهذيبية . وقد يخطىء اذا ما عرف معنى من المعاني يخالف تلك التي يرمي اليها الكاتب. فبعض المعاني والالفاظ يصح ان يتخذ فيها اكثر من تفسير واحد او معنى واحد . ولقد كتب (فريدريك انجلز) الى (مارجريت هاركنيس) عن هذا فقال لها . (كلما استطاع الكاتب ان يخفي آراءه او خواطره السياسية كلما كانت اقرب الى الوضع الفني . فبلزاك بآرائه الرجعية يفضل زولا كثيراً رغماً عن آراء الاخير الديموقراطية . فبلزاك كان موضع اعجاب ماركس وانجلز . ولقد كان يرثي لتهدم الطبقة العليا في المجتمع وكأن نقده لم يكن مرًّا واستهزاءه لم يكن

عميقاً عند ما كان يصور الشخصيات الاريستوقراطية المعاصرة . تلك الشخصيات التي كان يحبوها بعطفه . بل التي كان اعجابه بها سافراً . وهؤلاء انفسهم كانوا من معارضيه السياسيين الذين استطاعوا ان يمثلوا مطالب الطبقات الشعبية في الفترة بين عامي ١٨٣٠ — ١٨٣٦ . وعلى هذا فليس من المحتم انهُ ينبغي في الآية الفنية تحديد الاشخاص في معرض النزاع او غيره من شؤون الاجتماع حتى يتهيأ إعداد الصورة الكاملة عن المجتمع . وهذا ما قد يعرض لهُ الادب كما قد تعرض لهُ الموسيقى من وجهة الفن . على انهُ من المفروض تحديد العواطف والانفعالات التي تدفعنا الى الحركات والاعمال ومن هذا نرى ان الذكاء الحقيقي واستشفاف حجب الغيب يدلان على حيوية التفكير في النفس وهذا ما يستطيع الكاتب تبيانه في ادبه اذا كان موهوباً واذا عرف ان يصل الى ما تهيؤهُ لهُ افكاره من صور وما يمليه عليه عقله من آراء علمية متزنة

وليست الماركسية في النقد تعني الهدم وانما هي تعني البناء . فناقد (اليسار) الذي لا يتزود بالكفاية الادبية قد يعمد الى وزن المؤلفات الادبية بموازين ليست مضبوطة . وهذا مصدره قلة التحصيل والاطلاع على متباين النزعات الادبية والخلقية . فالناقد ينبغي ان يعرض للادب باعتباره (وسيلة) لا باعتباره (غاية) فالمثل الاعلى للادب الماركسي مثلاً هو (فائدته) التي تعود على هذا المجتمع الكبير . كأن يقرر الوضع الصحيح للفرد والمجموع وحقوق المرأة ورسالة العلم في الحياة وماهية الفلسفة وتعديل النظم الاقتصادية وتعريف الحقوق والواجبات . والالتزامات الخلقية المفروضة في الكتّاب والادباء . واليوم الذي تصل فيه الماركسية الى هذا هو الفترة التي « تتحجر » فيها وتصير مذهباً فلسفيًّا كالمذاهب المعروفة . أما مميزات المثل الاعلى للادب الماركسي فهي كما ذكرها (جرانفل هيكس) في مقال لهُ عن الأزمات في النقد ما يأتي : —

أولاً : ان تكون وظيفة هذا الادب ان يفهم القارىء من طبقة العمال دوره الذي يقوم به في الكفاح الاجتماعي . ثانياً : ان يظهر ذلك الادب بطريقة مباشرة او غير مباشرة نتائج كفاح الطبقات

ثالثاً : اشعار القارىء ان الكاتب يساهم في هذا الضرب من الحياة الاجتماعية التي يعرض اليها

رابعاً : ان يكون الكاتب نفسه في مقدمة طبقة العمال عطفاً وروحاً

ولقد عقد في اغسطس عام ١٩٣٤ مؤتمر الكتّاب الروسيين ونودي فيه بمذهب (الاشتراكية الواقعية) في الادب ولم يكن هذا غير محاولة لتقرير بعض الموضوعات الادبية عن الحياة . أما « الفرضيون » الذين يتصوّرون الى حدٍّ ما أدب المستقبل فلهم ان « يحكموا على نسبة ما وصل اليه الانتاج الادبي في عصور الامبراطورية » وبين فقر الادب في هذه الايام . واذا كان في عرفهم انهُ لم يظهر هنالك أديب يسمو الى نقدهم او يكون مستحقًّا لهُ فهم من أجل هذا يؤملون كثيراً في المستقبل ويعرفون انهم مقبلون على عصر « مادي » او كفاحي قد يوجد فيه طائفة من « المثاليين ».

«والانسانيون» في عرفهم قد وجدوا خير معين في أدب سوفوكليس وشاكسبير « والاشتراكيون الواقعيون » Realist كان لهم تولستوي وأضرابه. على انهُ من الثابت لو ان تولستوي قد عاش في حين ما يفرضهُ او يحدده هؤلاء لما كان قد كتب فصلاً واحداً وكذلك لو ان (بابيت) و(مور) قد أمكنهما ان يقيما امام (شكسبير) فروضهما لما كان قد خط حرفاً من قصيدة

لقد بدأ الادب الروسي منذ أول هذا العصر ان يسير في وجهتين مختلفتين الاولى وجهة الادب الواقعي والثانية وجهة الادب البرجوازي الكثير (الرومانتيكيات) وقد انتصر الاول بانتصار الماركسية وتهدم الثاني لبعده عن الحياة وقربهِ من الخيال والصنعة والارستقراطية ولقد ظلَّ هذا الاخير منذ نهاية القرن الثامن عشر يسعى للدخول في الحياة ويحاول لكي يجد لهُ تأثيراً فيها فأخفق بعد ما يقرب من المائة سنة بينما الادب «البروليتاري» التقريري قد عرف كيف ينفذ الى صميم الحياة بعد النصف الاخير من القرن التاسع عشر وهو قد بلغ أوج مجده في السنوات التي اعقبت الحرب الكبرى

وقد يقول قائل وما ادعى الاوقات ملاءمة للانتاج الفني ؟ قد يكون في عصري الثورة وما قبل الثورة انتاج ادبي فيهِ حيوية وتجدد . وهذا ما يخالف وقت الثورة نفسه فما لا شك فيهِ ان الصور الادبية العالية يحتاج في صنعها الى فراغ وهدوء والكاتب في غضون الثورة محروم منها. فادب الثورة الفرنسية احتوته خطب (دانتون) ومذكرات (كاميل ديمولان) وقصائد (اندريه شينيه) السياسية القليلة التي كتبت قبل ان تنزع رأسه (الجيلوتين) . أما أدب الثورة الروسية فقد احتوته كتابات لينين وتروتسكي واشعار الكسندر بلوك (الاثنا عشر)

اما ما قبل الثورة فقد كانت العوامل كلها تدعو لاختمار الافكار . ففي القرن الثامن عشر في فرنسا والقرن التاسع عشر في روسيا لم تكن قوة الادب فيهما مستمدة من الثورة المتوقعة ولكن كانت هنالك ظواهر ملموسة للأدب الراقي الذي يسير بخطى واسعة نحو الكمال ولقد كان للمعاهد العلمية الكثيرة وجهابذة الفكر والادب فضل في هذا الصدد لا ينكر واذا عرضنا للادب (البروليتاري) الذي لازم الثورة الاشتراكية فقد نقول ان الكتَّاب كانوا يكتبون عن (الواقع) الذي يحيا فيهِ العامل وكانوا كذلك يكتبون عن (البرجوازيه) في أسلوب تميز بالاختصار حتى لكأنهم يطوقون الادب بهذا الغلاف (الرمزي) . لقد كان البؤس والفقر والمظالم السياسية موضوعات تولستوي ودستويفسكي وجوركي والقصص التي كتبها هؤلاء جميعاً تنحو نحو النقد الموضوعي. على ان (القصد) عندهم لم يكن واضحاً وضوح (الفن) وتلك ناحية في الاسلوب قد تطبع أدبهم بطابعها الخاص. على اننا لا ننسى ان جوركي كتب حقًّا عن موضوعات هي كالموضوعات التي عرض لها تولستوي ودستويفسكي واضرابهم وانما كان إيضاح الغاية والقصد ما يجبُ ان يصل اليه دائماً . ولعل من ابعث الاسباب للتجديد في أدبهِ انهُ كثيراً ما عدا الوسط الذي يعيش فيهِ ولذلك فقد كتب عن الاقتصاد وحرية المرأة وعدم المبالاة بالعرف الاجتماعي

٤ — علم الانسان

الانسان المجهول

تلخيص : اسماعيل مظهر

٧ — ضرورة المفاضلة بين المعلومات المتباينة الخاصة بالانسان — بردجمن ومذهبه في التصور الفعال — نبذ المذاهب العلمية والفلسفية — وظيفة الفروض

إنّ جهلنا بأنفسنا لجهل ذو طبيعة خاصة . جهلٌ ليس مصدره صعوبة الوصول إلى المعلومات الضرورية ، ولا خطأ تلك المعلومات ، ولا ندرتها . بل هو على العكس من ذلك ، جهل سببه وفرة المعلومات التي كدّستها الانسانية عن نفسها خلال تتالي القرون ، فتنافرت ولم تتسق . أضف الى ذلك تجزيء الانسان قطعاً وتمزيقه نتفاً من طريق تلك العلوم التي حاولت ان تدرس تركيبهُ الجسماني وَوَعيه . غير ان هذه المعرفة الواسعة لم تستخدم لمصلحة الانسان في غالب الامر . والواقع انها معرفة لا يمكن استخدامها ، وبوارُها ظاهر يتجلى في ركاكة التصورات القديمة ، وفي الاسس التي قام عليها الطب وعلم الصحة والتعليم وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي . غير أننا نجد إلى جانب هذا أن هنالك حقيقة حية مفعمة بالقوة تتضمنها تلك الكتلة الهائلة من التعريفات والنظريات والمذاهب والمبادىء والرّغبات والاحلام ، تلك التي تمثل لانظارنا حقيقة تلك الجهود التي بذلها الانسان في سبيل استجماع المعرفة عن ذاته . اضف الى مذاهب العلماء وتأملات الفلاسفة ، تلك النتائج العملية التي بلغها الانسان من طريق التجارب التي مارسها اهل القرون الفوارط ، هذا الى جملة وافرة من المشاهدات كانت روح العلم ، وإن شئت فقل «الفن العلميّ» السبب المباشر في ان ينعم بها الانسان ويستكنه مغلقها . عامة ذا يحفزنا حتماً الى الشعور بضرورة المفاضلة واختيار الاصلح من تلك الاشياء المتباينة المتنافرة

من التصورات العديدة المتعلقة بالانسان ، نذرٌ هو بطبعه مجرّد تأليف منطقي مصدره العقل الصرف . ولو بحثنا لعجزنا عن أن نجد في العالم الخارج عن حيز العقل (كائناً) ينطبق عليهِ ذلك التأليف المنطقي . أما غير ذلك من التصورات فنتاج للتجربة والاختبار . وهذه هي التي دعاها (بردجمن) (التصورات الفعّالة) فكل المعرفة الايجابية (اليقينية) تتطلب منا استخدام

فنّ ما ، وبالحري تتطلب بضع عمليات او أفعال طبيعية او عقلية . فاذا قلنا مثلاً ان شيئاً يبلغ من الطول متراً ، فانما نعني بذلك انهُ يبلغ من الطول مبلغ قطعة من الخشب أو المعدن ، امتدادها مساوٍ لامتداد المتر القياسي المحفوظ في المكتب الدولي للمقاييس والموازين . ونستخلص من هذا المثل ان تصور الطول انما يترادف ومقياس المتر الطولي . ومن هنا يقول بردجمن ان التصورات التي تتصل باشياء خارجة عن حيز الاختبار ، تصورات مسلوبة المعنى ومن هنا يقال ان سؤالاً ما انما يكون معدوم القيمة والنفع ، اذا كان من غير المستطاع ان يستكشف الانسان « العمليات » التي تؤهل بنا الى الاجابة عنهُ

ان دقة « السؤال » في كل الحالات ، تتوقف على « العمليات » التي تؤدي الى فهمهِ واستيعابهِ . فاذا عرفنا الانسان مثلاً بأنهُ « كائن يتألف من مادة ووعيٍ » فان هذا التعريف يكون ولا شك فاقد المعنى . ذلك بأن العلاقات التي تقوم بين الوعي وعالم المادة لم تدخل بعد منطقة الاختبار حتى الآن . وانما يكون التعريف الذي نضعهُ للانسان « تعريفاً فعّالاً » اذا نحن اعتبرناه كائناً قادراً على ان ينشط نشاطاً تتجلى فيهِ آثار الافعال الطبيعية الكيميائية والوظيفية والنفسية . ذلك بأن التصورات الثابتة الحقيقة الدائمة الماهية ، والتي ينبغي ان تكون على الاستمرار أساس علمي الاحياء والطبيعة ، هي التصورات التي ترتبط بأساليب الاختبار . ولنضرب لذلك مثلاً . فان فكرتنا القائمة الآن عن خلايا القشرة المخيّة ، وشكلها الهرمي ، وزوائدها الجذرية المشعبة ، إنما تعود برمتها الى الوسائل التي كشف عنها (رامون كايال) . هذا « تصوُّر فعال » . ومعنى انهُ فعال انهُ تصوُّر يظل ثابتاً لا يتغيَّر حتى تستكشف وسائل أخرى أدق من الوسائل الاولى وأجدى في كشف حقائق جديدة . أما ان نقول ان خلايا القشرة المخية هي مقر الظواهر العقلية ، فلا شكَّ يكون قولاً فاقد القيمة واطلاقاً مسلوب القدر ، لاننا لا نستطيع ان نشاهد ظواهر عقلية مندمجة في مادة الخلايا المخية . بهذا نجد ان (التصورات الفعالة) هي الدعائم الثابتة التي يمكننا ان نشيد من فوقها آمنين . واذن ينبغي لنا ان ننظر في قدر المعرفة العظيم الذي استجمعناهُ عن أنفسنا لنختار منهُ القواعد والمعلومات التي لا تلائم ما هو قائم في أذهاننا لا غير ، بل تلائم أيضاً طبيعة الاشياء

وانا لنعلم ان من التصورات ذوات العلاقة بالانسان ما هو مقصور عليهِ وحده ، ومنها ما يتعلق بجميع الاحياء ، وأن هنالك تصورات غير هذه وتلك ، كالتصورات المستمدة من علم الكيمياء او الطبيعة او الميكانيكا . وانا لندرك فوق هذا جميعه ان هنالك طوائف من التصورات والمدركات تكوّن ما يشبه الطبقات المتراكم بعضها فوق بعض حتى اذا بلغت القمة ، فعندها نقع على الانظمة الحية . فأول تلك الطبقات تتكون من تصور الكهيربات والجزيئات والذرّات ، وهي أشياء نجدها في أنسجة الانسان العضوية كما نجدها في الاشجار وفي الحجارة وفي السحاب . ثم يأتي بعد ذلك تصور (المكان — الزماني) وتصور الاستمرار والطاقة والقوة والكتلة ، ويعقّب على ذلك بتصور القدرة

والتفريغ الكهربي والايونات (الشوارد او الدوالف) والتجمع والتبدُّد الى غير ذلك . فاذا تجمعت الذرات وأمكنها بذلك التجمع ان تبني خلايا نسيجية، وتألفت الخلايا فكونت أعضاء ومتعضّيات، فلا مندوحة من ان نضم الى التصورات السابقة تصورات أخرى كتصور الاجسام الصبغية في الخلية والمورّثات genes والوراثة والتهايؤ adaptation والغريزة الى غير ذلك . على ان كل طائفة من هذه التصورات ينبغي ان تستخدم في المجال العلمي التي هي تابعة لهُ فلا تطغى طائفة منها على مجال طائفة أخرى ، والاَّ ضللنا السبيل وعجزنا عن ادراك الحقائق ادراكاً يجعلها ذات فائدة عملية

لهذا نقول ان تنافر وجوه المعرفة ذات العلاقة بأنفسنا انما يرجع الى وجود بقايا المذاهب العلمية والفلسفية الدينية متغلغلة في ثنايا الحقائق الايجابية الثابتة . فان العقل اذا أيقن بصحة مذهب من المذاهب أيًّا كان ، فان يقينهُ هذا لا يمكنهُ من ادراك الظاهرات الجامدة الواقعة على وجهها الصحيح . ولقد استمرت الانسانية في خلال كل العصور تنظر في ذاتها من خلال مناظير غشيتها المذاهب والمعتقدات والاوهام . وتلك أشياء يجب ان تندثر وتتبدَّد . ولقد قال (كلود برنار) انهُ من الضروري ان يتخلص الانسان من آصار المذاهب الفلسفية والعلمية اذا هو أراد ان يتخلص من العبودية . على اننا لم نحصل على هذه الحرية بعد . فالاحيائيون — Biologists ومن ورائهم القائمون على شئون التربية والاقتصاديون والاجتماعيون ، عندما تواجههم معضلات مهوشة معقدة ، يستسلمون عادة لاغراء الفكر ويروحون يقيمون نظريات ، ثم لا يلبثون ان يحوطوا هذه النظريات بصور من القداسة فتتبلور ثم تصير عقائد ، حتى لقد نرى ان علومهم قد تبلورت بالفعل حتى بلغ تبلورها من التعقد والشدة مبلغ المذاهب الدينية

نواجه في التاريخ أمثالاً عديدة تبين لنا عن أمثال هذه الاخطاء شائعة في كل مناطق المعرفة . وأجلى مثل على هذا ، العراك القائم بين القائلين بالروحانية والقائلين بالآلية . ان هذا العراك لباقٍ الى يومنا هذا . وهو فوق ذلك عراك سببه خطأ من أشهر الاخطاء التي استغوت الانسان . فالروحانيون يظنون ان الكائن المتعضّي ما هو غير آلة تتماسك اجزاؤها بفضل عامل مفارق للبدن ، وان هذا العامل لا علاقة له بالقوانين (الطبيعية الكيميائية) . هم يقولون ان تفاصيل الجسم الحي انما تظل متماسكة مترابطة بحكم مبدإٍ روحاني مستقل عن البدن ، وان مثل هذا المبدأ كمثل المهندس الذي يصمم الآلة ويحكم سيرها . بل قالوا ان هذا العامل المستقل ليس بطاقة ، بل ولا يستحدث طاقة . وانما هو مُوكل بتدبير شئون الكائن المتعضّي . ومن الجليّ أن هذا المبدأ الروحي ليس (تصوراً فعالاً) . انهُ في الواقع تأليفاً عقليًّا . وعلى الجملة نقول ان الروحانيين يعتبرون البدن آلة يدبِّرها مهندس يسمونهُ (الروح) أو (القوة العليا) . هذا ولم يتحققوا يوماً ما من ان ذلك المهندس المدبِّر ليس شيئاً سوى (ذكاء) الانسان ذاته

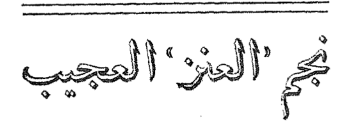
وكذلك الحال اذا نظرنا في ما يقول الآليُّون ، فهم يعتقدون ان جميع مظاهر النشاط

الوظيفيّ والنفسي يمكن تعليلها بحقائق مستمدة من العلم الطبيعي والكيمياء والميكانيكا . فهم بذلك يشيدون آلة . ولكنهم نسوا ، كما نسي الروحانيون من قبلهم ، انهم هم بذواتهم المهندس الذي أقام هذه الآلة وحبك اطرافها . فهم ، على ما يقول (وودجار) ، قد غفلوا عن حقيقة ذلك المهندس ووجوده . ولا شك في ان هذا التصور بدوره ليس تصوراً فعّالاً

بذلك يظهر لنا ان القول بالروحانية والقول بالآلية قولان ينبغي ان ينبذا ويندثرا، شأن كل المذاهب الاخرى ، ولنفس الاسباب التي تدعونا الى القضاء على المذاهب عامة . على انهُ ينبغي لنا الى جانب هذا ان نتحرر من الاوهام ومن الاخطاء ومن الحقائق التي لا تقوم على مشاهدة صادقة ، ومن المسائل التي تناول حلّها علماء اتصفوا بضيق العقل وضعف التفكير ، ومن المستكشفات الزائفة التي يروّجها أدعياء او علماء اكتسبوا شهرتهم بدعاوة الجرائد والصحف الاخرى . ولا ينبغي لنا ان نتحرر من هذا وحده ، بل من اشياء أخرى لا تقل عن تلك أثراً ، كالبحوث غير المثمرة والدراسات الطويلة المملة لاشياء فاقدة المعنى مسلوبة القصد والمغزى

إذا طهّرنا أنفسنا من آثار ذلك جميعاً ، اصبحت نتائج البحث الجدّي في العلوم ذوات العلاقة بالانسان ، والثروة العظيمة التي ترتبت على التجاريب والاختبارات العلمية ، الاساس الصلب الجامد الذي تقوم من فوقه معرفتنا . واذا نظرنا في تاريخ الانسانية لاستطعنا ان ندرك تفاصيل الجهد الجوهري الذي بذلته خلال العصور بصحة واحدة

غير انهُ يجب علينا ان نعي انه الى جانب المشاهدات اليقينية الايجابية والى جانب الحقائق الثابتة ، توجد اشياء كثيرة ليست إيجابية وليست بعيدة عن مجال الجدل . والواجب ان أمثال هذه الاشياء لا ينبغي ان تنبذ ، بالرغم من ان « التصورات الفعّالة » وحدها هي الاسس التي يقوم من فوقها بناء العلم . ذلك بأن قوة التخيّل ، وهي قوة ابتكارية خلاّقة ، هي وحدها القوة القادرة على بعث تلك الظنون والفروض والاحلام التي سوف تتمخض عن حقائقها عصور المستقبل. علينا ان نستمر نسائل انفسنا ونضع امامها المشكلات التي تلوح من وجهة نظر النقد العلمي لا معنى لها ولا قيمة . وبفرض اننا حاولنا ان نصد عقولنا عن التطلع الى معرفة المستحيلات والمجهولات ، فلا شك في اننا نخفق في ذلك . فان حب الاستطلاع صفة رسيسة في طبائعنا ، بل هو دافع اعمى لا يعرف سنة ولا يطيع قاعدة . ان العقل البشري يمضي باحثاً في كل الاشياء الخارجية ويمضي مخترقاً اعمق اغوار نفوسنا ، وأعصى تفاصيل كياننا على البحث ، بهمة لا يصيبها الكلال ولا ينفذ اليها الملل . ان حب الاستطلاع يحفزنا الى استكشاف الكون واستيعاب ظواهره وحقائقه . انه صفة فطرية تقودنا في ركابها دائماً الى رحاب مجهولة ، الى جبال شامخة صعبة المرتقى وعِرَة المنحدر . ولكنها جبال على تشامخها ووُعورة منحدراتها ، تذوب وتتبدد امام هذه القوة ، تبدد الدخان اذا ما ذرتهُ الرياح



في صورة ممسك الاعنة
وعناية الفلكيين به

« ممسك الاعنة » او « صاحب العنز » او « العنّاز » وله اسماء اخرى صورة من صور النجوم الشمالية ممثّلة في بعض الاطالس الاوربية للنجوم في صورة رجل قائم خلف فرساوس بين الثريّا والدب الاكبر ممسكٌ اعنة بيده اليسرى وحاملاً جدياً على ذراعه اليمنى . وقد رسم في كتاب الصوفي الفلكي العربي — ومنهُ نسخة خطية مصوّرة بديعة محفوظة في دار الكتب المصرية — بصورة رجلٍ جاثٍ على ركبته اليسرى وعلى رأسه عمامة من الكشمير وباحدى يديه عصاً في اسفلها انشوطة وفي اعلاها خيطان ربط بهما حقتان . واسم هذه الصورة باللغة العلمية Auriga وبالانكليزية The Waggoner or Charioteer اي فارس المركبة

في هذه الصورة ما يزيد على ستين نجماً انورها العيوق Capella وهو من القدر الاول . ولكن النجم الذي يهمنا في هذا المقال من نجوم «ممسك الاعنة» ليس العيوق بل « العنز » المعروف في لغة الفلك العلمية باسم «ابسيلون اوريجي» (راجع « بسائط علم الفلك للدكتور صرّوف » و « المعجم الفلكي » للفريق امين فهد المعلوف) لانهُ من النجوم التي استوقفت انظار الفلكيين في الاشهر الاخيرة بوجهٍ خاص لطبائع خاصة متصفٍ بها كشف العلم عن حقيقتها

***

في مستهلّ القرن السابع عشر (سنة ١٦٠٣) حاول الفلكي الالماني باير Bayer ان يضع اسماء لجميع النجوم التي ترى بالعين المجرّدة وكان من النجوم التي تناولها نجم في « ممسك الاعنة » وسمهُ بالحرف الخامس من الابجدية اليونانية « ابسيلون » فعرف من ذلك العهد باسم «ابسيلون اوريجي » في كتب الفلكيين ومقابلهُ بالعربية على ما جاء في المعجم الفلكي (المعلوف) العنز ولم يكن باير ولا غيرهُ من علماء عصره يحلم بان هذا النجم سيصبح في عصرٍ تالٍ موضوع

بحث دقيق . ففي القبة الزرقاء اكثر من مائة نجم تفوق « العنز » اشراقاً . وخمسة آلاف نجم ترى بالعين المجرَّدة . وفي المجرَّة وحدها عشرة آلاف مليون نجم على اقل تقدير . واذا اخذنا بالظاهر من طبائع « العنز » لم نستطع ان نتبيَّن فيهِ ما يميزهُ عن غيرهِ من النجوم

الاَّ ان الواعظ الالماني فرتش Fritsch كان اول من ظنَّ ان هذا النجم يختلف عن غيرهِ ذلك بانهُ لاحظ في شتاء سنة ١٨٢١ ان اشراق « العنز » قد ضؤل حتى بلغ نصف ما يكون عليهِ عادة . ولكن هذه الملاحظة نسجت عليها عناكب النسيان خيوطها الدقيقة ، ومضى نحو ربع قرن قبل ان عني أحدٌ بهذا النجم ففي سنة ١٨٤٨ لاحظ الفلكيُّ الالماني شمدت Shmidt ان اشراق العنز كان نصف ما كان عليهِ في ربع القرن السابق . ومنذ تلك السنة ١٨٤٨ مرَّ العنز في ثلاثة أدوار من ضآلة النور وضعف الاشراق ، كالتي لاحظها شمدت سنة ١٨٤٨ وقبلهُ فرتش سنة ١٨٢١ وذلك في سنة ١٨٧٥ ثم في سنة ١٩٠٢ ثم في سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠

ونحن نعلم الآن ان العنز ليس نجماً فرداً بل هو نجم مزدوج قوامهُ نجمان يدور أحدهما حول الآخر في فترة مداها سبع وعشرون سنة . والنجوم المزدوجة ليست نادرة في القبة الفلكية ، ولكن أوصاف العنز تختلف عن أوصافها . فدراسة عناصر هذا النجم المزدوج أفضت الى توقع كسوف فيهِ في ميعاد معين . فتمَّ الكسوف في ميعاده ، ولكن لوحظ ان ضوء الشريك المشرق في هذا النجم المزدوج لم يحتجب عند ما كان الكسوف تامًّا . فعجب الفلكيون وحيِّروا وظلوا محيَّرين حتى ظهر لهم ، ان العنز ليس نجماً مزدوجاً عاديًّا ، وان الشريك الخفيَّ ليس الاَّ كرة عظيمة من الغاز اللطيف حرارتهُ واطية جدًّا ، لم تعهد من قبل في اي نجم آخر درسهُ العلماء

وكان في مقدمة علماء الفلك الذين عنوا بدراسة هذا النجم الخفي الاستاذ كويبر Kuiper أحد علماء مرصد يركيس فبيَّن بالحساب الرياضي ان قطر الشريك الخفي في « العنز » يزيد ثلاثة آلاف ضعف على قطر الشمس . ووجد أيضاً ان الطاقة الاشعاعية التي يطلقها في الفضاء كل من نجمي العنز تفوق ستين الف ضعف ما تطلقهُ شمسنا من الضوء والحرارة . ولما كانت مساحة سطح النجم الخفيّ في العنز تفوق عشرة ملايين ضعف مساحة سطح الشمس فالحرارة التي تنطلق من كل بوصة مربعة من سطح نجم العنز الخفيّ تقلُّ مائتي ضعف عن الحرارة التي تنطلق من مساحة مماثلة لها على سطح الشمس

فاذا طبقنا القاعدة الطبيعية بأن قدر الطاقة التي يشعها جسم ما وثيقة الصلة بحرارة ذلك الجسم افضى بنا الحساب الرياضي على هذا الاساس الطبيعي الى ان حرارة سطح النجم الخفي في العنز من رتبة ١٣٠٠ درجة مئوية وهي حرارة واطية جدًّا لاي نجم من النجوم. فحرارة سطح الشمس

٦ آلاف درجة مئوية وحرارة سطح الشعرى ١٠ آلاف درجة مئوية . والجسم الذي حرارتهُ نحو ١٣٠٠ درجة مئوية لا يكاد يبلغ درجة الحمرة ولذلك يكون معظم الطاقة التي يشعها من الاشعة التي تحت الاحمر . واذن فنجم العنز الخفي لا يمكن ان يرى بالعين لان الاشعة التي تحت الاحمر لا ترى بالعين وكذلك لا يمكن تصويرها بألواح التصوير الضوئي العادية

ولما كان قطر هذا النجم يفوق قطر الشمس ثلاثة آلاف ضعف فحجم كرته يجب ان يفوق حجم كرة الشمس ثلاثين الف مليون ضعف ، ولكن مقدار المادة في هذا النجم لا تفوق مقدار المادة في الشمس الاَّ ثلاثين ضعفاً واذاً فكثافة المادة فيه اقل من كثافة المادة في الشمس نحو الف مليون مرَّة . وأقل من كثافة الهواء نحو مليون مرة . ولذلك يصحُّ ان نقول في نجم العنز الخفي انهُ فراغ تام تقريباً يطلق أشعة تحت الاحمر

وقد عني الاستاذ سترومغرن Stromgren أحد علماء مرصد يركيز بهذه الناحية من البحث فأثبت ان نجماً هذه صفاته لا بدَّ ان يكون شفافاً تقريباً ولذلك يخترقهُ نجم رفيقهِ في أثناء الكسوف كما يخترق الضوء العادي جدار فقاعة من الصابون . وهذا يفسر المفارقة التي حيَّرت العلماء عند رصد كسوف « العنز » وهي ان النجم الخفي لم يحجب ضوء النجم المشرق

***

وكل ما عرف من الحقائق عن الرفيق الخفي في « العنز » انما يعرف بأساليب قائمة على الحيلة العلمية والمداورة لان أحداً لم يستطع ان يراهُ او يصورهُ حتى الآن

من هذه الاساليب ، أسلوب استنبطهُ وأتقنهُ الدكتور شارلس هتسلر Het zler أحد علماء مرصد يركيز . وقوامهُ ألواح دقيقة الاحساس بالضوءِ الذي تحت الاحمر ، ولكنهُ يضع أمامها ألواحاً تحجب من الضوء الواقع عليها كلَّ أمواج الاَّ الامواج الاشعة التي تحت الاحمر . وبهذه الطريقة تمكن الدكتور هتسلر من كشف نجوم كثيرة لا تطلق الاَّ أشعة تحت الاحمر . ولو كانت عيوننا تتأثر بالاشعة التي تحت الاحمر فقط لكنا نرى القبة الفلكية على غير ما هي عليهِ. فمعظم النجوم التي نراها الآن كانت تختفي لان ما في ضوئها من الاشعاع الذي تحت الاحمر قليل . ولرأينا نجوماً خفية وقد عظم اشراقها لانها لا تطلق الاَّ هذا الضرب من الاشعاع

ثم هناك جهاز آخر يعرف باسم « الترموكبل » . وهو جهاز لقياس الحرارة عن بعد ، وفي قدرة مستعمله ان يتبيَّن حرارة شمعة على بعد مائة ميل . وقوامهُ أنبوب مفرغٌ أدخل في جدارهِ قطبان كهربائيان من فلزين مختلفين . وقد ثبت بالتجربة ان خير الفلزات لهذا الغرض البزموت لاحد السلكين وخليط من البزموت والقصدير (١٠ في المائة) للسلك الآخر. فاذا عرض

أحد السلكين لضوء نجم وحرارته بوضع الجهاز في محترق مرقب كبير ، وأبقي السلك الآخر غير معرَّض لها ، تولَّد تيار كهربائي دقيق جدًّا يمكن قياسهُ بالجلفانومتر . فالنجوم التي تبلغ من الخفاء مبلغاً يجعل تصويرها متعذراً قد يكون في اشعاعها قدر يسير من الحرارة لاحداث تيار في سلكي الثرموكپل يمكن قياسهُ (١)

والثرموكپل يقيس ضروب الاشعاع من فوق البنفسجي الى تحت الاحمر . ولقياس ضرب معين من ضروب الاشعاع تستعمل مصافٍ خاصة توضع امام هذا الجهاز فلا يخترقها الاَّ الاشعة التي يراد قياسها . فيقاس مثلاً الاشعاع الكامل لنجم من النجوم ثم يوضع المصفى امام الجهاز ويقاس مقدار ضربٍ خاص من الاشعاع فتعرف النسبة بينهما . وبذلك تعين حرارة النجم

على هذا الاساس العلمي درس علماء مرصد يركيز نجم العنز المزدوج فتبينوا ان النجمين قريب احدهما من الآخر وان معظم الضوء المرئي منهما مصدره النجم المشرق وهو اصغرهما حجماً وأما الآخر فكبير الحجم جدًّا بحيث يمكن ان توضع الشمس وسياراتها حتى فلك اورانوس فيه

ومن اعجب النتائج التي اسفر عنها البحث في هذا النجم الخفي ، وجود طبقة من الغاز المؤيَّن ionized حولهُ . وهذه الطبقة تابعة بحكم الجذب للنجم وتدور مع كتلته اللطيفة حول محوره كما يدور غلاف الارض الغازي مع الارض حول محورها . ولكن الطبقة الغازية التي حول نجم العنز الخفي ، منارة بالضوء الواقع عليها من نجم «العنز» المشرق . فيؤثر فيها هذا الضوء تأثيراً مشابهاً لتأثير ضوء الشمس في الطبقات العليا من غلاف الارض الغازي . اي انهُ يؤين بعض ذرات الغازات فتنفصل الكهيربات عن النوى فتتكوَّن طبقة كنلي هيفيسيد التي تفعل بالامواج اللاسلكية فعل المرآة بالامواج الضوئية ، فتمنعها من الانطلاق في الفضاء خارج جو الارض وتعكسها الى سطحها ، وبهذا الفعل يفسر انتقال الامواج اللاسلكية حول الارض

الاَّ ان فعل التأين في غلاف النجم الخفي في العنز أشد جدًّا منهُ في الارض . فيجعل غلاف النجم الخفي كثيفاً غائماً . فيصعب على الضوء ان يخترقهُ بسهولة . وقد تمكن علماء مرصد يركيز من رصد هذا الغلاف الكثيف بمرقبهم البالغ قطر مرآته اربعين بوصة

ثم يجيء ميعاد الكسوف في هذا النجم المزدوج ، مرة كل سبع وعشرين سنة فيقع النجم المشرق في العنز وراء النجم المعتم . ولولا طبقة الغاز المؤينة حول كرة النجم الخفي لتمكن الرصاد على الارض من رؤية ضوء النجم المشرق كاملاً تقريباً للطافة مادته الغازية . ولكن طبقة الغاز تحجب جانباً من هذا الضوء فيبدو للراصد الارضي ان ضوء العنز قد ضعف على نحو ما بدا لباير سنة ١٨٢١ ولفرتش سنة ١٨٤٨ ولعلماء هذا العصر في سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠

---

(١) راجع فتوحات العلم الحديث صفحة ٣٧ :

سنابل

من حقول العلم

الذهب في مصر : قديماً وحديثاً

ننقل الى قراء المقتطف في ما يلي ملخص جانب من المحاضرة النفيسة التي القاها الدكتور حسن صادق بك مدير المساحة والمناجم والمحاجر ورئيس المجمع المصري للثقافة العلمية في افتتاح مؤتمره السنوي التاسع قال : —

اما في القطر المصري فان ما وجد من الحلى الذهبية في مختلف العصور التاريخية يدل على عظيم اهتمام قدماء المصريين باستعمال هذا المعدن في مختلف الاغراض كما ان ما سطروه على جدران معابدهم وفي بعض اوراق البردي يدل على ان الذهب الذي استعملوه كانوا يحصلون عليه من المناجم المصرية نفسها وقد كانت الممالك المعاصرة لهم تنظر الى مصر على اعتبار انها اكبر بلاد منتجة لهذا المعدن فكان ملوكهم يستجدون فرعون مصر للحصول منهُ على حاجتهم من هذا المعدن الثمين

كذلك استغلت مناجم الذهب المصرية أبان حكم العرب كما حدثنا عن ذلك المقريزي وغيره من مؤرخيهم . على ان ستاراً كثيفاً من النسيان أسدل بعد ذلك على هذه المناجم الى أن أزاحه مجدد عز مصر محمد علي باشا الكبير مؤسس الاسرة العلوية الكريمة بفضل البعوث العلمية التي أوفدها الى الصحارى فأماطت اللثام عما بها من معادن ومناجم على ان استغلال مناجم الذهب المصرية لم يبدأ في العصور الحديثة الاَّ في اواخر القرن الماضي واستمر استغلال بعضها حتى عام ١٩٢٧ فبلغ مجموع انتاجها في تلك الفترة حوالي ٨٦ الف اوقية . على ان احوال العمل وتعذر وجود الماء وصعوبة النقل كل ذلك جعل الغلة اقل من الكلفة فأهملت المناجم

حتى اذا جاء عام ١٩٣٣ واضطرب النظام المالي في اغلب الامم وخرجت معظمها ومعها انكلترا عن عيار الذهب فانخفضت العملات وارتفع سعر الذهب أصبح سعر الاوقية من الذهب الخالص سبعة جنيهات بعد ان كان في اوقاته العادية لا يزيد على أربعة جنيهات ونصف جنيه واذ كانت نفقات الانتاج لم تزد الاَّ قليلاً مع تحسين محسوس في وسائل النقل بما طرأ على صناعة سيارات النقل من اتقان فقد رؤي

ان الاحوال قد تغيرت تغيراً يشجع على التفكير في اعادة فتح بعض هذه المناجم واستغلالها فقامت الحكومة المصرية بالبحث بواسطة شبان من المصريين تخصصوا في هذه العلوم ورؤي ان من الخير استغلال منجم الذهب بجبل السكري على شاطىء البحر الاحمر على مسافة ١٥٠ كيلو متراً جنوبي بلدة القصير وقد أجريت مباحث في استعمال الماء المالح في عمليات الاستنباط والتنقية لاول مرّة في هذا المنجم فأسفرت عن نجاح قلل لحدٍّ كبير الاثر السيء الذي لندرة وجود الماء العذب في تلك الجهات . وقد جهز المنجم بوحدة استغلال صغيرة وبدأ الانتاج في يوليو سنة ١٩٣٧ وبلغ مجموع انتاجه في الشهور التسعة الماضية حوالي ١٧٥٠ أوقية قيمتها ١٢٠٠٠ جنيه تقريباً

وباستمرار أعمال الفحص بالتعمق في جوف الارض اتضح وجود مقادير من المعدن تسمح بتوسيع عمليات الاستغلال فأضيف جهاز استغلال آخر لمضاعفة الانتاج والمنتظر ان يتم ذلك في غضون الشهر القادم (يونيو) فتتضاعف مقادير الذهب الناتج مع اضافة قليلة للتكاليف .

وقد شجعنا النجاح الذي صادفناه في السكري على توسيع نطاق البحث في مناجم أخرى فاختير لذلك منجم آخر بجبل أم الروس القريب من السكري . والامل معقود على ان تكلل هذه البحوث أيضاً بالنجاح فتبدأ فيه ايضاً عمليات الاستغلال

ولقد تحقق ما كانت تصبو اليه الحكومة من هذه البحوث فاتجهت أنظار بعض الافراد والهيئات من المصريين والاجانب الى بحث بعض مناجم الذهب الاخرى وبدأت الحياة تدب مرّة أخرى في مناجم الذهب المصرية وانا لنرجو ان يصادف هذه الجهود جميعاً النجاح الذي تستحقهُ حتى ليقال بحق ان عصر الفاروق هو عصر ذهبي يدر الخير والبركات على أبناء هذه البلاد

***

يمين العلماء

عندما يتقدم طالب الطب الى نيل شهادته الطبية يقسم يمين أبقراط المشهورة وأساسها رعاية مرضاه خير رعاية يستطيعها والامتناع عن اعطاء عقار مميت او الاشارة به ولو طلب ذلك منهُ ، وعن مساعدة امرأة على الاجهاض او افشاء الاسرار الخاصة بصناعته وغير ذلك من القواعد الادبية التي يحسبها الاطباء دستوراً لهم في صناعتهم الشريفة

وقد تقدَّم الآن عالم يدعى هوايت Whyte بيمين للعلماء أذاعها في مجلة نايتشر العلمية حاثًّا الجماعات والمعاهد والمجلات العلمية على نشرها والحضّ على اتخاذها رابطة ضدّ التعصب الجنسي والديني . ففي رأيهِ ان مبادىء العدل والتسامح وجّه اليها تحدٍّ صريح في السنوات الاخيرة ، وان الاساس الذي تقوم عليهِ فكرةُ الحق Truth — وهي أساس العلم — قد ضرب بمعول الهدم .

لا ريب عنده في ان للحضارة الاوربية مساويها ولكنهُ يرى كذلك انهُ يجب علينا إما أن نبذل طاقتنا للاحتفاظ بحسناتها وإما ان نسلم بالانهيار والارتداد الى التوحش والعنف والتعصب . وأعظم ما نتعرض لهُ من خطر هو الاعتقاد الذائع في ان الناس يستطيعون ان ينعموا بتراث الحضارة طويلاً من غير ان يبذلوا في سبيلهِ . واعتقاد المستر هوايت ان الذين لا يريدون ان يخونوا ذلك التراث يجب ان ينزعوا عن اكتافهم التواضع الكاذب ويصرحوا بموقفهم لان الاحتفاظ بثمار الحضارة وتقاليدها العالية متعذّر الاّ اذا أذعنا في غير غموض وأقمنا الدليل في غير تردُّد على ولائنا لها . وهذه هي اليمين المقترحة : —

« أنا وارث تقاليد الحضارة التي ثبت انها أرسخ أساساً من الامبراطوريات . فعندما استعمل لغة العلم او منتجاتهِ ، فأنا أقدم اجلالي عن غير وعي ، لمثات الرجال الذين لم يضنوا بأية تضحية مهما تعظم في النضال لترقية العقل البشري وتأييد الحق . ان التسامح والحرية هما لباب تلك التقاليد . لان الفكر المستقلّ ومحبة الحق ليسا بأساس العلم فحسب بل وأساس العدل والحضارة

لذلك أعلن ولائي لتلك التقاليد وإيماني بحرية الفرد في انماء ملكاتهِ لتنمية ثروة الجماعة ، ويقيني بأن جماعة الانسان الآن هي الجنس البشري اجمع ، وان على كل شعب داخل في هذا النطاق ان يقوم بنصيبهِ الخاص بهِ . فالتوازن الطبيعي بين الحرية الفردية وبين مطالب الجماعة ، وهو حياة الحضارة وصحتها ، مهدّد الآن من ناحيتين . انهُ مهدّد في بعض الجماعات من ناحية انكار الحرية . وفي البلدان الدمقراطية من ناحية صدوف الافراد عن التبعات الواقعة عليهم

ففي وجه هذا التهديد — اتعهد بانتهاز كل فرصة سانحة لأعلي من شأن تقاليد الحضارة وأحمي كل من يعذب في سبيلها ، وان أورث ذلك الى الاجيال القادمة . ولست اعترف بولاء أعظم من ولائي للعمل على صون الحق والتسامح والعدل في العالم المقبل

***

طماطم بلا بذور

يعني قسم البساتين بجامعة مسوري الاميركية باستنبات طماطم لا بذور فيهِ . والطماطم يحتاج الى التلقيح لكي ينعقد الزهر ثمراً ، ولكن التلقيح يعني تكوين بذور في الثمر . لذلك عمد الباحثون الاميركيون الى استئصال اعضاء اللقاح من الزهرة . ولما كان استئصالها يحول دون التلقيح والاثمار وجب عليهم ان يستعيضوا من التلقيح بأساليب كيمياوية او ميكانيكية او كهربائية لحمل الزهرة على الانعقاد ثمراً على نحو ما فعل لوب وغيره في حيوان « الرتسا » (توتياء البحر) فانهُ حملها على التناسل بمهيج كيمياوي حيناً وبمهيج كهربائيّ حيناً آخر

وباحثو جامعة مسوري يستعملون مادة باعثة للنمو من قبيل اتوار الغدد الصم ، فتنشا ثمرة الطاطم من الزهرة وتكون بلا بذور . وهذه الثمار اكبر من ثمار الطاطم عادةً وليس فيها فجوات تحتوي على بذور كالفجوات التي في الطاطم عادةً بل كلها شحم

والمادة المستعملة لهذا الغرض هي الحامض « الاندول استيك indoleacetic » - وهو حامض توجد منهُ مقادير يسيرة في البول في حالة مرض القناة الهضمية — محلولاً في اللانولين (وهو دهن من صوف الغنم) بنسبة ١ من الحامض الى ٥٠٠ من الدهن ، ثم تدهن الازهار التي استؤصلت منها اعضاء اللقاح ثلاث مرات في الاسبوع او كل عشرة ايام

اما ثمن هذه المواد فلا يكاد يذكر ولكن معظم النفقة في طريقة العمل اي في استئصال اعضاء اللقاح من الازهار ودهنها . وقد حاول الباحثون ان يحلّوا رش الحامض محلولاً في الماء محلّ الدّهن باليد فأسفر ذلك عن نتائج لا بأس بها ولكنها لا تجاري نتائج الدهن باليد . ويعزون ذلك الى سرعة تبخر الماء تاركاً الحامض في بلورات دقيقة يتعذر على الزهرة امتصاصها . والبحث جارٍ الآن عن مادة دهنية أخرى سهلة الامتصاص غير سريعة التبخر فيحلّ الحامض فيها ويرشّ على الازهار برشاشة ميكانيكية

وينتظر ان يتجه البحث بعد ذلك الى زيادة محصول هذا الطاطم لانهُ من المستطاع حمل الازهار على الانعقاد ثماراً في أشهر الصيف عند ما تجعل الحرارة والرطوبة حبوب اللقاح ضعيفة الفعل

***

علاج جديد للحروق

اذا حرق الجلد وانكشفت الانسجة التي تحته فخير علاج عرف حتى الآن هو استعمال « الحامض التنّيك » Tannic Acid وهو مسحوق أبيض يستخرج من جوز العفص ونباتات اخرى ولهُ فعل قابض فيستعمل في وقف النزف . ولكن الطبيبين جونز وده مارش وهما من اساتذة الكلية الطبية بجامعة نورث وسترن الاميركية اعلنا انهما كشفا مركباً كيماويًّا يفوق الحامض التنيك فائدة في علاج الحروق . واسم هذا المركب باللغة العلمية « هكساميتا فوصفات الصوديوم » فيحلّ وتدهن بهِ الحروق فيمنع الالتهاب ، وهو يتحد بالمصل السائل من انساج الجسم المكشوفة بحرق الجلد او انسلاخه فينشأ غشاء رطب متين مرن مانع لتكاثر المكروبات

تحت هذا الغشاء ينمو الجلد الجديد ، وتحت الجلد الجديد طبقة من الانساج تكثر فيها الاوعية الدموية الشعرية ، ويزعم الطبيبان جونز وده مارش ان فحص هذه الطبقة في حالتي استعمال الحامض التنيك والدّهن بمركب الصوديوم المذكور أثبت ان الانساج والاوعية في الحالة الثانية اسلم منها في الاولى

التصوف في الاسلام [1]



للدكتور احمد غلوش

دعا الدكتور مكلانهن عميد كلية العلوم الشرقية بالجامعة الاميركية صديقه الاستاذ احمد غلوش الى القاء محاضرة بالانكليزية على فريق من فضلاء الجاليتين الانكليزية والاميركية بالقاهرة ممن يهتمون بدراسة المسائل الشرقية فاجاب الاستاذ هذه الدعوة فوقف الدكتور مكلانهن وقال ان قاعة الدراسات الشرقية كانت حتى الآن تعقد فيها اجتماعات لدرس تاريخ اعلام الشرقيين ومناقبهم ولكننا في هذه الليلة سنسمع هنا لاول مرة رجلاً مصريًّا مسلماً مثقفاً ثقافة اسلامية عالية وحاصلاً على درجات علمية شرفية من الجامعات الاوربية والاميركية وهو الدكتور احمد غلوش فهو سيحاضرنا الآن في موضوع اسلامي بحت يتعلق بالطرق الصوفية في الاسلام ويشرح لنا مراميها وأغراضها ونشأتها فقد آن الاوان ليتبادل سكان هذا الوادي الرأي فيما لديهم من صنوف الثقافة الروحية والعلوم والمعارف الدينية ويقدم كل فريق منهم الى الآخر احسن ما عندهُ من ذلك حتى يسود التفاهم بين الجميع مع احتفاظ كل منهم بآرائهِ الخاصة . قال ونحن معاشر الغربيين كثيراً ما سمعنا بوجود الطرق الصوفية بكثرة في هذه البلاد وسمعنا بالمشايخ والفقراء والدراويش ولكننا في الواقع لا نعرف من حقيقة امرهم شيئاً . وقد تكفل صديقنا الدكتور احمد غلوش الذي اعتنق المبادىء الصوفية ومارس رياضاتها الروحية بان يشرح لنا ما يهمنا ان نعرفه منها . ثم دعا المحاضر الى منصة الخطابة فتقدم وبدأ كلامه بشكر الجامعة الاميركية التي اتاحت لهُ هذه الفرصة للتحدث عن موضوع الصوفية في الاسلام ذلك الموضوع الذي كثيراً ما اخطأ فهمه الغربيون والمستشرقون . واسترسل في الشرح حتى وفى الموضوع حقه

---

(١) ترجمة المحاضرة التي القاها بالانكليزية بقاعة الدراسات الشرقية بالجامعة الاميركية بالقاهرة الدكتور احمد غلوش رئيس جمعية منع المسكرات بالقطر المصري

من البيان. وقد استغرق القاء المحاضرة ساعة كاملة ونحن ننشر هنا ترجمتها لفائدة القراء

***

انهُ لاجل معرفة حقيقة التصوف او اي علم آخر ينبغي عقلاً ان يلجأ في ذلك الى المتصوفين انفسهم او اصحاب ذلك العلم فهم اقدر من سواهم على تجلية الموضوع تجلية صادرة عن خبرة لا يشوبها زيغ ولا تحريف واما نقل العلوم عن غير اهلها فقلما يوصل الى ادراكها على حقيقتها

ولقد قرأت عدة مصنفات لفضلاء المستشرقين من الغربيين فألفيتها في الكثير من مواطنها بعيدة عن محجة الصواب فمن ذلك مثلاً ما يزعمونهُ من ان الصوفية والتصوف دخيلان في الاسلام غريبان عنهُ وانهما انما جاء بهما الاعاجم من الفرس قصداً منهم الى تشويه الدين ويزعمون ايضاً ان اصل التصوف يرجع الى العلوم الآرية من الفارسية والبوذية ونحوها ويقولون غير ذلك من المزاعم التي لا اصل لها

فالتصوف وان كان لبعض الفرس المسلمين شأن كبير في تدوينه وحمل لوائه فهو لا يمت الى المبادئ والمذاهب الآرية او البوذية بأدنى سبب . وشتان ما بين الناسك البوذي الذي يزعم انهُ بسلوك طرق خاصة من الرياضة وتعذيب النفس ينمحي عنهُ في النهاية وصف الآدمية ويصبح بوذا بنفسه أي إلٰهاً قد انحلت عنهُ صفات البشرية؛ وبين المسلم المتصوف الذي يعبد الله وحده طبقاً لاحكام الاسلام ومبادئ الدين الحنيف ثم هو يقوم فوق الفروض المقررة بأنواع من الرياضات الروحية المشروعة المسنونة أساسها الزهد والورع والتقوى وغايتها ان يصير بها أهلاً للفوز برضوان ربه والدخول في حضرته وتذوق طعم الايمان بالوجدان

وكثيراً ما خلط المستشرقون بين المتصوفين وبين المشعوذين ممن يأتون بما يشبه السحر وضروب الاحاجي ويعرفون عندهم باسم أصحاب الاسرار الخفية Mysticism وترجع أسباب هذا الخطإِ الى ان المتصوفين كانوا ولا يزالون يعرفون بأهل الباطن وأرباب الاسرار الذوقية فظن أولئك المستشرقون ان أسرار الصوفي هي أمور خفية يحرص على حجبها عن أعين الناس كما هو الشأن عند اهل الشعوذة (Mystics) مع ان حقيقة معنى الاسرار عند الصوفيين انما هي الحقائق التي تنطوي عليها ظاهرات الاشياء والحكمة التي يتذوقونها من القيام بالاحكام والشرائع فهذه الاذواق والمواجيد لا يستطيع الصوفي ان يعبر عنها لاحد لا لانهُ يريد اخفاءها عن الناس بل لانها فوق متناول الوصف والبيان إذ هي أمور ذوقية لا تعرف الاَّ بالذوق والوجدان . ومثلها كمثل حلاوة سكر القصب ونحوها مما لا سبيل الى إدراكه بغير التذوق

ولئن كان من السهل على الفقيه والمحدِّث وكل عالم ان يشرح لغيره الفقه والحديث والعلم الذي أصابه فانهُ من العسير المتعذر ان يبين لعامة الناس أسرار الانوار القدسية والفيوضات

الربانية التي تفيض على قلبه ثمرة عبوديته واقباله على ربه ورياضاته الروحية

على انهُ مما يؤسف له جد الاسف وجود طوائف من الناس في الشرق ينسبون انفسهم الى الطرق الصوفية وما هم منها في شيء وهؤلاء قد يأتون بضروب من الهمهمة والتمتمة والايحاء الذاتي ويركنون الى التنجيم والطوالع والجفر وادعاء معرفة الغيب فكانوا بذلك نكبة على المتصوفة وسبباً دعا بعض المستشرقين الى الحملة على طريق التصوف كما دعا آخرين الى القول بان التصوف ليس في شيء من الدين . بيد ان من يدرك سنة النمو لا بدَّ ان يعرف انهُ كثيراً ما يوجد الى جانب النباتات النافعة والاعشاب الصالحة حشائش أخرى تنمو حولها ولا مندوحة من استئصالها حتى لا تعدو على النبات الطيب فتفسد عليه أمره

والئن كان كل متصوّف لا بدَّ ان يستمد قواعد سلوكه الروحي من مبادىء الاسلام وتعاليمه الصحيحة فهناك فرق كبير بين المسلم الصوفي والمسلم العادي ذلك بأن ايمان الاول إيمان تحقيقي ذوقي في حين ان إيمان الثاني إيمان يغلب ان يكون تقليديًّا وراثيًّا انحدر اليه من الآباء او جاءه من طريق التلقين او التعليم او أصابه بحكم الوسط والبيئة التي يعيش فيها دون ان يعرف السر في ضرورة اعتناقه لهذه او تلك من المعتقدات الدينية التي لا بدَّ منها لنجاته في الآخرة . وقد يظل القلب تخامره الشكوك والريب في كثير من هذه المعتقدات ويظل العقل يطالب صاحبه بوضع حدّ لها والتخلص منها . ولهذا كان لا غنى لسالك طريق التصوف عن شيخ خبير بمفاوز الطريق المؤدي الى تذوق حلاوة الايمان والاطمئنان الى صحة السير على ان يكون هذا المرشد او الخبير هو الآخر قد سلك طريق التصوف على يد شيخ آخر سبق له سلوكها وأصبح قادراً على هداية غيره اليها كراكب البحر يريد الوصول الى بلد ناءٍ بعيد فلا مندوحة له من الاسترشاد بربان ماهر يقدر على ان يقود السفينة وركبها الى ذلك البلد في أمن وسلام . ومن ثمَّ نشأت طائفة مشايخ الطرق والمسلكين فيها لارشاد المريدين الى الطريق حتى لا يضلوا السبيل. وكما ان أطباء الاجسام لا بدَّ من الاستعانة بخبرتهم على شفاء العلل والاسقام فكذلك كان لا بدَّ لمرضى القلوب من الاسترشاد بالمشايخ للتخلص من امراض القلوب

ولا بد لمريد الوصول الى الله تعالى عن طريق التصوف من مجاهدة نفسه وتصفية باطنه من ادران الشهوات الحيوانية والملاذ الجسمانية فضلاً عن البعد كل البعد عن الوقوع في الذنوب والخطايا مما نهى عنه الشارع الحكيم وذلك لا يتم له الاَّ بارشاد شيخ عارف بأمراض القلوب وكيفية تطهيرها من بوائق الملاذ والشهوات وبذلك يتم للمريد اكتساب المعارف الربانية التي يهتدي بها قلبه ويطمئن خاطره ويسكن باله اذ يشعر شعوراً باطنيًّا انهُ قريب من حضرة مولاه ولا يمكن البتة الحصول على شيء من الحكمة الالاهية والاسرار القدسية الاَّ بتصفية القلب

من الحظوظ الدنيوية حتى تنجلي بهذه التصفية مرآته وتصير بحيث تنعكس عليها الانوار الروحية والفتوحات الربانية

وعند المتصوفين ان الانسان لم يخلق في هذه الدنيا عبثاً ولا صدفة وانما خلق لغاية سامية وان جسمه وان كان خسيساً ارضيًّا فان روحه شريفة علوية وان جسمه وان كان سيفنى بموته فان هذه الروح ستبقى بعد الموت خالدة الى الابد فاذا ما تطهر المرء في بوتقة الزهد والتقوى من ادران الشهوة والحظوظ العاجلة الفانية وسلك سبيل الرياضة الروحية الشرعية فانه ليبلغ بذلك اسمى مراتب الرقي الباطني ويصبح وقد تحولت صفاته الى ما يشبه صفات الملائكة فلا يرى سعادة ولا هناءة ولا غبطة الاَّ في عبادة الله والتسبيح بحمده فاذا اعطاه شكر واذا ابتلاه صبر ويصير ولا همَّ له في الدنيا الاَّ طاعة مولاه حتى تصبح هذه الطاعة سجية له وغريزة فيه لا ينفك عنها بأي حال من الاحوال فلا يلبث المريد ان يرى في كل ما امر الدين بهِ حكمة خفية سامية ويرى مثل ذلك في كل ما نهى عنهُ الدين وعند ذلك يدرك السالك معنى قوله تعالى في القرآن الحكيم « واتقوا الله ويعلمكم الله »

وقد تطور التصوف في الاسلام على مدى الاجيال حتى صار علماً قائماً بذاته يسترشد به الخلق الى سبيل الحق وتتحول به صفاتهم البشرية الى صفات شريفة ملائكية ويتذوقون به طعم الايمان بالقلب والوجدان

وقد بدىء بتدوين هذا العلم وتهذبت حواشيه ونظمت مبادئه ورتبت آدابه حوالي النصف الثاني للهجرة النبوية اي نحو عام ٧٦٠ للميلاد . ومع ان ابحاثه واسعة النطاق فيمكن حصرها في ستة موضوعات او مباحث عامة وهي معرفة الانسان نفسه ومعرفة الله تعالى ومعرفة حقيقة الدنيا ومعرفة احوال الآخرة ومراقبة النفس وايثار حب الله على كل ما سواه

ولما كانت هذه الفرصة لا تتسع امامي لشرح هذه المباحث كلها او بعضها فحسبي ان اتحدث عن التصوف الليلة حديثاً مجملاً يجمع بعض ما تفرق من اطرافه الى ان تتهيأ الفرصة لشرح مباحثه تفصيلاً . ولنبدأ بكلمة التصوف ومن اين جاءت فأقول : ان هذه الكلمة دخيلة على اللغة اعني انها ليست عربية الاصل ولم اقف في كتب الصوفية المعتمدة على رأي قاطع في اصل اشتقاقها. ففي المتفرقات للامام الجنيد وقوت القلوب لابي طالب المكي وعوارف المعارف للامام السهروردي والمنقذ من الضلال للامام ابي حامد الغزالي — وهذه امهات كتب الصوفية — نجد ان هؤلاء الائمة جميعاً كانوا في شك من حقيقة تلك الكلمة وقد ذهبوا في امرها مذاهب شتى دون ان يقطعوا بصحة ما ذهبوا اليه . وعندهم انها قد تكون مشتقة من الصفاء لان المتصوفين يدأبون على تصفية بواطنهم من الاهواء والشهوات . واما من التصفية لان الله تعالى تولى تصفية قلوبهم من حظوظ

الدنيا . واما من الصوف لانه كان الغالب في لباسهم لتقشفهم وزهدهم في الناعم من الثياب وأما من الصفة (بضم الصاد وتشديد الفاء) وأصحاب الصفة قوم من اصحاب رسول الله زهدوا في نعيم الدنيا وآثروا الله ورسوله والدار الآخرة وفيهم نزل قرآن في مديحهم واظهار فضلهم . وليس في عدم قطع ائمة الصوفية في امر تسمية طريقتهم ما يطعن في جلال قدرهم فانهم قوم عمليون يعبأون بالاعمال دون الاقوال ويهتمون بتحقيق المسميات دون التعويل على اصل الاسماء

وقد خطر لي بعد طول التفكير ان من الراجح ان تكون كلة التصوف مشتقة من كلة تيوصوفية اليونانية التي كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحي يعتنقهُ النساك والزهاد السالفون قبل الاسلام بعدة قرون فكانوا ينأون بجانبهم عن الدنيا ويلجأون الى انواع من الرياضات الروحية والعبادة مما اقتبسوه من انبيائهم ورسلهم حبًّا في التقرب بالروح من خالقهم وتلقي الحكمة والمعارف القدسية منه تعالى . ويؤيد هذا الرأي ما ورد في دائرة المعارف البريطانية من ان التيوصوفيين كانوا معروفين من ازمان بعيدة وكانوا يزهدون في الدنيا وينقطعون الى النسك والعبادة واستنزال الحكمة الالهية على قلوبهم وان هذه الكلمة مركبة من لفظين تركيباً مزجيًّا وهما لفظ تيو (Theo) ومعناه اله و(Sofia) صوفيا ومعناه الحكمة . اي ان اولئك القوم كانوا بزهدهم وعبادتهم يتطلعون الى اكتساب الحكمة الربانية من الله رأساً فهناك تشابه كثير بينهم وبين المتصوفة من حيث اتحاد الواسطة والغاية

ولكن ما هو التصوف ؟

ومهما يكن من خلاف في امر اشتقاق كلة التصوف فانهُ لا خلاف البتة بين ائمة الصوفية في حقيقة معنى التصوف فقد اجمعوا على انه الطريق الوحيد السلطاني الذي يؤدي الى اكتساب المعارف الالاهية والفتوحات الربانية والاذواق والمواجيد الباطنية مما يزيل كافة الشكوك والريب والغموض والابهام من دخيلة النفس فيما يتصل بالكثير من المعتقدات الدينية التي لا بد من الايمان بها . ومنها مثلاً عقيدة القضاء والقدر التي تدل على ان الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء مع اعتقاد ان المهتدين يؤجرون بدخول الجنة وان العصاة يدخلون النار فان العقل قد يظل حائراً في سبيل التوفيق بين الامرين . وهناك مسألة الايمان بالبعث والنشور بعد الموت والفناء وهناك الاعتقاد بخلق الملائكة والجان والشياطين وهذه مخلوقات لا مثال لها من المنظورات والمحسوسات . ثم مسألة خلق البشر من طين وتراب وخلق الطين والتراب من لا شيء . وهناك مسألة النبوة والرسالة وان الله تعالى يكلم المصطفين الاخيار من عباده وينزل عليهم الوحي من سمائه . فما هذا الوحي وكيف يكون . وما هي تلك النبوة وكيف تكون . وهناك مسألة المسائل وهي

الاعتقاد بوجود الله تعالى وجوداً ازليًّا وأبديًّا قبل ان يوجد الزمان والمكان فالعقل الراجح والمنطق الصحيح الواضح يوجبان هذا الاعتقاد على كل عاقل والايمان به في غير ما تردد ولكن الايمان بالشيء تتفاوت درجاته فقد ينقص الى حد ان يكون ظنًّا او اقل من الظن تبعاً للمعاصي التي يرتكبها الانسان قلة وكثرة وقد يتزايد الى حد ان يكون عياناً ومشاهدة وهذا تبعاً لمقدار ما يقوم به المرء من طاعة الله والاقبال على عبادته ضعفاً وقوة. وقد دلت سير المتصوفين الاولين السابقين ممن وصلوا الى الله تعالى وصول مشاهدة ومعاينة يجلان عن الوصف ويدقان عن العبارة على ان هذه الطريقة هي الكفيلة حقًّا بالقضاء على كل غموض وابهام في امور الدين وعقائد الايمان كما قال سيد المتصوفين علي ابن ابي طالب لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً وان هي الا رياضة روحية مباركة ورحلة في طريق العبودية موفقة حتى ينبلج امام قلب السائر فيها نور اليقين فعين اليقين فحق اليقين حيث تنهزم من امام بصيرته ظلمات الحيرة والقلق ويمتلىء الباطن عرفاناً وايماناً بكل ما نطق به الرسل الكرام وجاءوا به من عند الله

وعند الصوفية ان دين الله تعالى واحد في جميع العصور والاجيال ولم يكن في اي زمن سبق سوى الاسلام واعني به التسليم المطلق والخضوع التام لاوامر الله تعالى وما جاء به المرسلون من الشرائع والاحكام وان اختلاف الاديان لم يتناول العقائد قط وانما يتناول اعمال العبادات وكيفياتها وطقوسها تبعاً لحاجة العصر وتعاقب الازمان. فالاديان جميعها من حيث اصولها لا تباين بينها ولا خلاف. واساس ذلك الاعتقاد بوجود الله تعالى ووحدانيته واتصافه بكل ما يتصور من صفات الكمال وتنزهه عن كل نقص يخطر على البال والاعتقاد بملائكته وبكتبه المنزلة وبرسله المرسلة وباليوم الآخر وهو يوم الحساب وبالقضاء خيره وشره من الله . وليست العبادات في جميع الاديان مطلوبة لذاتها من صلاة وزكاة وصوم وحج وقربة وانما هي وسائل لا بدَّ منها المتدين كيما يصل بها الى تطهير قلبه من أدران الشهوات تطهيراً ترقى به الروح الى القرب من الله ودخول الجنة فهي اشبه بالعلاج الذي يتداوى به الجسم من الامراض. وكما ان تعاطي المريض لما يصفهُ له طبيب الاجسام من علاج يهمهُ وحده دون الطبيب الذي يعالجهُ اذ المريض هو الذي سينال به الشفاء دون الطبيب فان الله تعالى غني بذاته عن عبادة عباده فهم الذين سيجنون وحدهم فائدة هذه العبادة

ولما كانت النفوس البشرية بحكم تكوينها وخلقها الحيوانية بحاجة الى تطهيرها ومداواتها من آثار العلل الشهوانية حتى تصفو وترتقي وتصير اهلاً للعودة الى ربها وخالقها راضية مرضية فان المتصوفين هم اشد عباد الله تمسكاً باحكامه واوامره المقررة في الشريعة كما اتى بها الرسول من عند الله فمن قال ان الصوفيين اهل تفريط في التمسك باهداب الشرائع الالهية فقد ظلمهم

وافترى عليهم فما جاء في كتب المستشرقين من الاوربيين عن تهاون ارباب الطرق الصوفية برسوم الشريعة مخالف للواقع بعيد عن الصواب

والحق ان المتصوف لا يكتفي مثل سائر المسلمين بالقيام بظاهر العبادات المسنونة في الدين بل ينظر بنور البصيرة الى ما تنطوي عليه الرسوم والاحكام من حكمة واسرار فيغوص لا لتقاطها واستخراج هذه الاسرار من بواطنها ومكامنها كما يغوص السباح الماهر لالتقاط الاصداف من قيعان البحار لا رغبة في الاصداف ذاتها بل ليستخرج منها الجواهر واللؤلؤ الغالي فالصلاة مثلاً عبادة مطلوبة لانها تنهي عن الفحشاء والمنكر وفيها ذكر الله وذكر الله أجل شأناً واكبر وهي لا تحقق هذا الغرض اذا كان المصلي لا يؤديها وهو حاضر القلب لا يفكر في اثنائها الا في ادائها على الوجه الاكمل. فالمتصوف يحرص كل الحرص على الفوز باسرار الصلاة على هذا الوجه فلا يصلي وهو شارد الفكر ينصرف بقلبه في خلالها نحو السوق ومصالح الدنيا من مال أو ولد. وكذلك الشأن في سائر العبادات المفروضة فان الصوفي يعرف ما تنطوي عليها من حكمة واسرار فيحرص على بلوغها ويحذر من كل ملابسة تؤدي الى ضياعها . وكم يشفق المتصوفون على عوام المسلمين حين يصلون وهم عن صلاتهم ساهون فلا يفيدهم قيامهم بها على هذا الوجه أجراً فضلاً عن تطهيرهم من الفحشاء والمنكر وهذا الذهول من المسلمين عن اسرار العبادات وعدم الحرص عليها وقلة الحذر من تفويت حكمتها عليهم كان السبب الاكبر في نظر المتصوفين لما أصاب المستوى الروحي في العهود المتأخرة للاسلام من الضعف والانحطاط

التصوف من الناحية التاريخية

وقد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة الى التصوف في صدر الاسلام وعدم ظهور هذه الدعوة الا بعد عهد الصحابة والتابعين. والجواب عن هذا انهُ لم تكن من حاجة اليها في العصر الاول لان اهل ذلك العصر كانوا اهل ورع وتقوى وأرباب مجاهدة واقبال على العبادة بطبيعتهم وبحكم قرب اتصالهم برسول الله فكانوا يتسابقون ويتبارون في الاقتداء بهِ في ذلك كله فلم يكن ثمة ما يدعو الى تلقينهم علماً يرشدهم الى امر هم قائمون بهِ فعلاً وانما مثلهم في ذلك كمثل العربي القح يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر حتى إنهُ ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون ان يعرف شيئاً من قواعد اللغة والاعراب والنظم والقريض فمثل هذا لا يلزمهُ ان يتعلم النحو ودروس البلاغة ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تبلبل الالسن او لمن يريد من الاجانب ان يتفهمها لينتفع بها او عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي

العصور في أوقاتها المناسبة. فالصحابة والتابعون وان لم يتسموا باسم المتصوفين فانهم كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً . وماذا يراد بالتصوف اكثر من ان يعيش المرء لربه لا لنفسه والتحلي بالزهد وملازمة اسباب العبودية والاقبال على الله بالروح والقلب في جميع الاوقات مما وصل بهِ الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي الى أسمى الدرجات فهم لم يكتفوا بالاقرار بعقائد الايمان والقيام بفروض الاسلام بل قرنوا الاقرار بالتذوق والوجدان وزادوا على الفروض الاتيان بكل ما استحبهُ الرسول من نوافل العبادات وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرَّمات حتى استنارت بصائرهم وتفجرت ينابيع الحكمة في قلوبهم وفاضت الاسرار الربانية من جوانحهم. وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الاسلام وخيرها على الاطلاق. وقد جاء عن رسول الله وخاتم الانبياء قوله خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه

فلما تقادم العهد ودخل في حظيرة الاسلام أمم شتى واجناس عديدة واتسعت دائرة الارشاد والتبيين في مختلف ميادين المعرفة والعلوم فمن ثمَّ وجب تقسيم العمل وتوزيعه بين ارباب الاختصاص فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الاول علم الفقه وعلم التوحيد وعلوم الحديث وأصول الدين والتفسير والمنطق ومصطلح الحديث وعلم الاصول والفرائض (الميراث) وغيرها وغيرها . وحدث بعد هذه الفترة ان أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً وأخذ الناس يتناسون ضرورة الاقبال على الله بالعبودية بالقلب والهمة مما دعا أرباب الرياضة والزهد الى ان يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف واثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم. ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الاخرى الى تدوين علومهم كما يظن ذلك خطأً بعض المستشرقين بل كان كما يجب ان يكون سدًّا للنقص واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط مما لا بد منهُ لحصول التعاون على تمهيد اسباب البر والتقوى

وقد بنى ائمة الصوفية الاولون اصول طريقتهم على ما ثبت في تاريخ الاسلام نقلاً عن الثقات الاعلام انهُ حدث في العام الاول للهجرة ان اجتمع بضعة عشر رجلاً من المهاجرين ومثل ذلك من الانصار من اهل المدينة وتقاسموا بينهم ان يزهدوا في الدنيا ونعيمها الزائل ويقبلوا على الله والدار الآخرة ويشغلوا جميع اوقاتهم ولا سيما في اوقات السحر والغسق بصنوف العبادات حبًّا بالله واقتداءً برسوله فكان هذا التقاسم بمنزلة عهد قطعوه على انفسهم لله لا مناص لهم من الوفاء بهِ والاَّ كانوا آثمين وذلك ما يسمى بالعهد بين اهل الطريق الى الآن . وكان أساس زهدهم في الدنيا قول النبي صلى الله عليهِ وسلم « الفقر فخري » ومن هنا جاءت التسمية

التي أطلقوها على أنفسهم ومن دخل في طريقهم وسلك سبيلهم وهي (الفقراء) فالواحد منهم كان ولا يزال يسمى بالفقير ومعنى الفقير عندهم ليس من هو بحاجة الى معونة الغير بل معناها الفقير الى رحمة الله المستغني بهِ عن الخلق جميعاً

كذلك ثبت عندهم ان النبي لقن أصحابه ذكر لا اله الاّ الله جماعة وفرادى فأما تلقينه لاصحابه جماعة فقد رواه شداد بن أوس في حديث صحيح قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليهِ السلام هل فيكم غريب ؟ يعني من أهل الكتاب قلنا لا يا رسول الله فأمر رسول الله صلى الله عليهِ وسلم بغلق الباب وقال ارفعوا أيديكم وقولوا لا اله الاّ الله فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا لا الـه الاّ الله ثم قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ألا أبشروا فان الله قد غفر لكم . وأما تلقينه صلى الله عليهِ وسلم لاصحابه فرادى فقد قال عليّ بن ابي طالب كرم الله وجههُ سألت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فقلت يا رسول الله دلني على أقرب الطرق الى الله عزَّ وجلَّ وأسهلها على عبادهِ وأفضلها عند الله فقال يا عليّ عليك بمداومة ذكر الله عزَّ وجلَّ سرًّا وجهراً فقال عليّ كل الناس ذاكرون يا رسول الله وانما اريد ان تخصَّني بشيء فقال رسول الله مَهْ يا عليّ ان افضل ما قلتهُ انا والنبيون من قبلي لا اله الاّ الله الى آخر الحديث الشريف . فهذا اصل سند القوم في تلقين الذكر الى اليوم وهم يرون من فوائده ارتباط القلوب بعضها ببعض الى رسول الله وان اقل ما يحصل للمريد الصادق اذا دخل في سلسلتهم بهذا التلقين ان يكون اذا حرك بهِ حلقة لسانه جاوبتهُ أرواح الاولياء من شيخهِ الى رسول الله فمن لم يدخل في طريقهم بالتلقين فهو غير معدود منهم وقلما يفتح عليهِ بما فتح بهِ عليهم

ويروى ان أبا بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين كان يتولى قيادة فريق من أولئك الفقراء كما ان عليًّا بن ابي طالب ابن عم النبي ورابع الخلفاء كان يقود فريقاً آخر. وبعد وفاة أبي بكر أخلفهُ في طريقته سلمان الفارسي أحد كبار الصحابة من أهل فارس وبعد وفاة عليّ تولى خلافة طريقته الحسنُ البصري وكان كلٌّ منهما يسمى بالخليفة ولهذا صار يطلق اسم الخليفة الى يومنا هذا على كل شيخ من مشايخ الطرق الصوفية

***

ويتمسك المتصوفون في اقبالهم على الله بالهمة وصدق العبودية ، بما جاء في القرآن وهو قولهُ تعالى :

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحبَّ اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين »

ولهذا اوجب الفقراء اي المتصوفون على انفسهم ان يكونوا في جميع الحالات على قدم الاستعداد للتضحية بهذه المصالح الدنيوية كلها في سبيل قيامهم بحق العبودية لله وحده فلا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا اي متاع آخر عن ذكر الله وعبادته واضعين نصب اعينهم الغرض الاسمى من خلقتهم ووجودهم في هذه الحياة الدنيا وهو ما جاء في قول الله تعالى في القرآن وما خلقت الجن والانس الاّ ليعبدون

وقد دلّ تاريخ هؤلاء القوم على ان عمدتهم في التقرب الى الله فوق قيامهم بالمفروض عليهم في الاسلام التزامهم اذكاراً واوراداً كل صباح ومساء وأهم هذه الاذكار ذكر لا اله الاّ الله ثم الصلاة على النبي ومعناها استنزال البركات الديمومية الربانية على روحه صلى الله عليه وسلم

وعندهم كما ثبت بالتجارب والممارسة ان لذكر الله باللسان مع حضور القلب وبالكيفية المخصوصة المتفق عليها لدى شيوخهم وطوائفهم اثراً كبيراً يعجز القلم عن وصفه في تصفية الباطن وتنوير القلب بالانوار والفتوحات الربانية كما ثبت مثل ذلك للصلاة على النبي. والمسلمون مأمورون في القرآن بهذه الصلاة وهي فرض عين على كل مسلم صوفيًّا كان او غير صوفي وانما المتصوفون يكثرون منها جهد الطاقة لما لها من الاثر العظيم في جلاء مرآة القلب وصفاء الروح صفاء عجيباً مظهره الاكبر تملك حب الله ورسوله من صميم نفوسهم

وأما تسميتهم بالمتصوفين فلم تحدث او بالاحرى لم يرد لها ذكر في كتب التصوف المعتمدة الاّ بعد عصر الخليفة المأمون سابع الخلفاء العباسيين (١٩٨هجرية او ٨١٣ — ٨٣٣ ميلادية) وقد كان ذلك العصر ازهر عصور الادب العربي وفيه توفر العرب على نقل العلوم والفلسفة الاجنبية . والظاهر انهم التقوا فيها بكلمة تيوصوفية اليونانية فعربوها ونحتوا منها اسماً معرَّباً اطلقوه على جماعة الفقراء فكان هذا الاسم هو التصوف لان كلمة الفقراء لم تكن وافية في ذاتها في الابانة عن المعنى الذي يتميز به المتصوفون عن غيرهم من المسلمين وقد المعنا الى بيان ذلك من قبل

وأما كلمة الصوفية وكلمة الصوفي فهما كذلك منحوتتان من نفس كلمة تيوصوفية المتقدم ذكرها وقد اطلقت الاولى اي الصوفية على العلم نفسه والصوفي على من تحقق بهذا العلم وتلبس به. واما كلمة المتصوف والتصوف فقد استعملت الاولى منهما للدلالة على السالك في هذا الطريق الآخذ في اسباب التحقق به واستعملت الثانية (التصوف) على سلوك الطريق

وقد كان تأسيس اول طريقة نظامية من الطرق الصوفية الطريقة العلوانية لمؤسسها الشيخ علوان في سنة ١٤٩ هجرية (٧٦٦ ميلادية) وبعد ذلك توالى انشاء الطرق الاخرى بتوالي القرون وكانت كل واحدة منها تسمى باسم شيخها ومؤسسها . وقد يتعذر اليوم تعداد الطرق الموجودة الآن كلها لكثرتها . فنجتزىء الآن بذكر اشهرها وهي : —

	اسم الطريقة	مؤسسها		تاريخ تأسيسها
١	العلوانية	الشيخ علوان المدفون بجده		١٤٩ هـ — ٧٦٦ م
٢	الادهمية	الزاهد ابرهيم بن ادهم	« بدمشق	١٦١ « — ٧٧٧ م
٣	البسطامية	الامام ابو يزيد البسطامي	« جبل بسطام	٢٦١ « — ٨٧٤ م
٤	السقاطية	الامام سري الدين السقطي المدفون بغداد		٢٩٥ « — ٩٠٧ م
٥	الجيلانية	سيدي عبد القادر الجيلاني	«	٥٦١ « — ١١٦٥م
٦	الرفاعية	سيدي السيد احمد الرفاعي	«	٥٧٦ « — ١١٨٢م
٧	السهروردية	الامام شهاب الدين السهروردي	«	٦٠٢ « — ١٢٠٥م
٨	الشاذلية	سيدي ابو الحسن الشاذلي القصير بالبحر الاحمر		٦٥٦ « — ١٢٥٨م
٩	المولوية	سيدي جلال الدين الرومي	قونيه	٦٧٢ « — ١٢٧٣م
١٠	الاحمدية	سيدي احمد البدوي	طنطا	٦٧٥ « — ١٢٧٦م
١١	النقشبندية	سيدي بير محمد نقشبند	قصر عرفان	٧١٩ « — ١٣١٩م
١٢	السعدية	الامام سعد الدين	دمشق	٧٣٦ « — ١٣٣٥م
١٣	البكتاشية	سيدي الحاج بكتاش	كيرشر بالبانيا	٧٥٦ « — ١٣٥٧م
١٤	الخلوتية	سيدي عمر الخلوتي	قيصرية	٨٠٠ « — ١٣٩٥م
١٥	البرهامية	سيدي الحاج برهام	انقره	٨٧٦ « — ١٤٧١م
١٦	البكرية	سيدي ابو بكر الوفائي	حلب	٩٠٢ « — ١٤٩٦م
١٧	الجلشانية	سيدي ابرهيم الجلشاني	القاهرة	٩٤٠ « — ١٥٣٣م
١٨	الجمالية	سيدي جمال الدين	اسطامبول	١١٦٤ « — ١٥٧٠م

فهذه الطرق الصوفية المشهورة وكثير غيرها مما لم نذكره ليس من خلاف بينها من حيث الاسس والمبادىء الاصلية وانما الفرق في نوع الاذكار والاوراد التي يواظب عليها المريدون من اتباع كل طريقة منها فقد يفتح الله تعالى على واحد منهم بطريق الالهام ويؤتى حظًا كبيراً من الانوار القدسية فيكاشف بفائدة ذكر اسم معين من اسماء الله الحسنى فيكون ذلك سبباً او اساساً لانشاء طريقة جديدة مشتقة في الواقع من طريقته الاصلية ومن ثمَّ كان تعدد الطرق الصوفية على تقادم العصور والازمان

وليس في الامكان ان نأتي على تبيان مختلف الاذكار والاوراد وصنوف الرياضات ومدارك السلوك لدى ارباب الطرق المتنوعة وحسبي ان اصف لحضراتكم بالايجاز المراحل التي يقطعها اتباع الطريقة الخلوتية وقد قطعتها بنفسي بتوفيق الله وبارشاد شيخي العارف بالله سيدي عبدالله بن محمد

البناء المدفون في الاسكندرية قدس الله سره وهذا الوصف ينطبق في مجموعه على حال الطرق الاخرى — فأقول:

طريق المتصوف فى سلوكه الى الله

يبدأ سلوك هذا الطريق باستشعار رغبة ملحة تستولي على القلب فتبعث بها في باطن المرء داعية قوية نحو تذوق الايمان بالوجدان وعدم الوقوف عند حد التصديق او اليقين الذي حصل عليه بالتوارث او بالاستدلالات المنطقية والعقلية فما أبعد الفرق بين من يعتقد من اهل مصر بوجود لندن في انكلترا وهو لم يشاهدها في حياته وانما آمن بها لتوفر الادلة العقلية على وجودها وبين من رآها رأي العين وعاش فيها زمناً . وتأخذ هذه الرغبة تزداد في القلب تمكناً بمقدار صفاء الروح واستعداد النفس الى الرقي الروحي فيتملكها الحنين والشوق الى معرفة خالقها معرفة ذوقية لا نقلية ولا عقلية ويغلب ان تساور الانسان في هذه الحالة شكوك وظنون وأوهام خفية فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية دون ان يجد من عقله مرشداً كافياً لحل معضلاتها والخروج من ظلمات الحيرة المترتبة على تلك الظنون والشكوك فيلجأ عند ذلك الى احد المرشدين الى طريق الحق من مشايخ الصوفية بشرط ان يكون هذا الشيخ من المحققين العارفين بالله ممن سبق لهم سلوك هذا الطريق بعينه وهو مأذون من شيخه بالتسليك فيه ويطلب اليه ان يدخله في عداد اتباعه الآخذين في السلوك الى الله على يديه . ففي هذه الحالة يسمى الطالب (مريداً) أي يريد السير في الطريق وهذه اولى المنازل وتسمى منزلة الارادة فيتلقاه الشيخ بالفرح والسرور ويأخذ عليه العهد بالتوبة من ذنوبه والتبري من حوله وقوته واخلاص النية في مقصده وغايته القيام بما يفرضه الطريق على السائر فيه من الاذكار والاوراد المشروعة فضلاً عن القيام بما يستوجبه الدين من اتباع أوامره واجتناب نواهيه ويوصيه بملازمة التقوى في السر والعلانية ومراقبة الله في كل حال ثم يلقنه الذكر ويعطيه الاوراد ومن ثم يبدأ سلوك المريد ويسمى عند ذلك (سالكاً) جاعلاً اكبر همه في الدنيا الاشتغال بالعبادة والزهد والرياضة بحسب ما يرسمهُ لهُ الشيخ فيقبل على الله بصدق النية وتصفية القلب عما سوى الله حيث ينتقل بذلك الى مقام يسمى بمقام العبودية ويظل السالك يجاهد في الطريق نفسه وهواه حتى يتغلب عليهما بالاكثار من الضراعة والتذلل والتزلف الى بارئه حتى اذا ما اقبلت عليه العناية الالهية وتقبلت مناجاته وضراعته ارتقت الرغبة في قلبه فصارت عشقاً لله وحبًّا لذاته العلية وهنا يصل السالك الى مقام في الطريق يسمى (مقام العشق)

ولا يزال هذا العشق يتملك قلب السالك حتى يطرد من باطنه كافة الاماني والحظوظ

والرغبات الدنيوية فيقوده هذا الحال الى مقام ارقى يعرف بمقام (الزهد) حيث تم فيه تصفية القلب وجلاء مرآته جلاء يجعله بحيث يصير مستعداً لاستقبال ما تنعكس عليها من المعارف القدسية والانوار الالهية بدون واسطة العقل او المخ او اي عمل من اعمال الجسم الفسيولوجية

وهنا يواصل السالك سيره الى الله وهو دائم التفكير في معبوده الاوحد لا يهنأ له عيش ولا يطيب له وقت الا اذا اقترن بذكر الله والتسبيح بحمده وعند ذلك تنبثق في قلب السالك انوار تلك المعارف اللدنية اي التي تهبط على القلب بطريق الالهام الباطني بكيفية تجل عن الوصف وبها تحصل لديه اذواق وجدانية يتفهم بها ما لم يكن يفهمه بعقله من معاني النبوة ويعرف هذا المقام عند المتصوفة بمقام (المعرفة)

ويظل السالك بعد ذلك مواظباً على اذكاره وأوراده التي يتلقاها من شيخه آناً بعد آن بحسب ما يبدو للشيخ من استحقاق المريد لزيادة الترقي الروحي فيشغل بها اوقاته مقرناً ذلك بالعزلة والخلوة والاقلال ما امكن من الطعام والشراب والكلام والنوم الا ما تستوجبه الضرورة والطبيعة مع ملازمة التهجد وقيام الليل والناس نيام فعند ذلك تتملكه حالة شريفة علوية روحية ينتقل بها الى المقام الذي يسمى مقام (الوجد والهيام) وهو اسمى من مقام العشق اذ يستولى على النفس آثاره من جميع نواحيها

فاذا بلغ الفقير هذا المقام السني تواردت على قلبه النفحات الربانية والبركات الالهية توارداً تزداد به معرفته الباطنية بصفات الذات العليَّة ما يصل به الى الحقيقة المجردة التي كان ينشدها عندما جاء الى الشيخ وهو اذ ذاك مريد يطلب الوصول اليها . وتسمى هذه المنزلة عند أرباب الطريق بمقام (الحقيقة)

على ان وصول السالك الى هذا المقام لا ينتهي عنده سلوك الطريق بل انهُ يظل بعده يرتقي بالروح الى منازل ثلاث أخرى تعرف بمنزلة (الفناء فاللقاء فالبقاء) . أما الفناء فمعناه فناء العبد عن حظوظه وعن نفسه في الله بل عن اختياره أيضاً ويكون كما قال سيدي ابو الحسن الشاذلي لبعض مريديه « اذا شئت أن تختار فاختر ان لا تختار وفرَّ من ذلك المختار ومن فرارك هذا ومن كل شيء الى الله تعالى »

ففي هذا المقام تتجلى عظمة الخالق على قلب السالك فلا يرى الا الله حتى نفسه لا يرى لها أثراً ولا يجد في الوجود من الكائنات الا واجب الوجود وحده وتمحي آثار جميع الموجودات في وجوده تعالى وتنجلي في فؤاد الفقير معنى قوله عزَّ وجل في القرآن مخاطباً عباده المتقين فأنيبوا الى ربكم وأسلموا لهُ . ويتضح لهُ بعد الافاقة من سكر الوصول الى هذه الحال الرهيبة معنى قول الحلاج ما في الجبة الا الله اي ان نفسه تلاشت فلم يعد لوجوده عنده من أثر

وقد وصف الامام جلال الدين الرومي شيخ الطريقة المولوية في أبيات لهُ بالفارسية حالة الفناء هذه أبدع وصف. ويلوح لي ان هـذه الابيات لم تترجم الى العربية حتى الآن وهذا مضمون ما قالهُ في ذلك :

«حينما يستولي روح من الجن على لب انسيّ من الناس تضعف صفات الانس فيه الى حد التلاشي ويصبح كل ما يصدر منهُ من قول آتياً من وحي ذلك الروح الجني وسلطانه لا من عقل هذا الانسي وتفكيره اذ تتلاشى ذاتيته وقتاً ما يعود في خلاله كأنهُ الجنية ذاتها

« وفي تلك الحالة العجيبة تصبح العربية عند التركي لغته ان كانت العربية لغة ذلك الجني المستولي عليهِ فينطق بها دون ان يعرف منها شيئاً وهذا يحدث منهُ في غير إلهام يحسه او وحي يتلقاه ومتى عاد الانسيّ الى نفسه وأفاق ، لم يذكر لفظاً واحداً مما قالهُ وهو تحت ذلك السلطان فاذا صحَّ هذا عن الجنية وسلطان استيلائها على لب انسان ، أفيكون خالق الانسان والجان أقل شأناً وأضعف سلطاناً من الانس والجان ؟ حاشا ان يكون ذلك شأن الاله الواحد القهار »

وفي أبيات لهُ أخرى يقول سيدي جلال الدين بالفارسية ما ترجمتهُ بالعربية :

« لو تكلم امامكم رجل سكران من اثر ما شربه من روح الخمر بكلام غريب قلتم انها الخمر التي تتكلم افيكون لروح الخمر هذا الاثر ولا يكون لروح الله مثله اذا استولى على قلب انسان فيجعله ينطق بكلام ليس بكلامه وعبارات ليست هي عباراته

الاَّ ان القرآن وان جاءنا من بين شفتي النبي محمد فقد كفر من قال انهُ ليس كلام الله

الفناء عند الصوفي

ومقارنته بالفناء لدى البوذيين

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا ان من المستشرقين من الغربيين من ذهب الى حد تشبيه ...... حالة الفناء عند المتصوفين المسلمين بحالة تسمى نيرفانا Nirvana عند البوذيين الوثنيين وهي الحالة التي يتوهم هؤلاء انها نتيجة تعذيبهم انفسهم حتى تتلاشى وتنمحق عنهم فلا تعود النفس الى صاحبها ابداً اذ يزعمون انهُ ينقلب فيصير بوذا بذاته اي إلهاً آخر تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً .

ولست بصدد اظهار ما في هذه المزاعم الوثنية الوهمية من الضلال والمخالفة للتعاليم الدينية الحقة. وانما اقول ان فناء السالك المتصوف غير هذا اذ معناه فناؤه عن نفسه وصفاته الحيوانية الارضية حبًّا في ذات الله بالتزام التهذيب لا التعذيب ومتى تمَّ له هذا الفناء اشرف بهِ على طور لا يشهد معهُ في الوجود الاَّ الله حتى ولا نفسهِ التي بين جنبيه فلا يرى وجوداً إلاَّ لواجب الوجود وحده وأما وجود سواهُ أيًّا ما كان فهو وجود مجازي غير ذاتي لقبوله العدم والفناء اما الوجود الحقيقي الذاتي فهو للذات العلية الابدية الدائمة البقاء وحدها

وتلك المشاهدة لا تحصل بحاسة البصر بل تحصل بعين البصيرة أي بنور ينبعث في القلب انبعاثاً إلهيًّا اذ تكون الحواس الظاهرة كلها في غيب عن نفسها كما يحدث لمن يدخل على ملك ذي شوكة وسلطان فتتملكه الهيبة والجلال الى حد انهُ لا يرى شيئاً قط مما في بيت الملك من رياش وغير رياش ولا يرى أحداً ممن يكون جليساً للملك حين دخوله عليهِ حتى ولا يعلم من أمر نفسه شيئاً حين دخوله على حضرة الملك وذلك لاستيلاء الذهول كله عليه

فهذا الامر مشاهد في امور الخلق فكيف بنا وحديثنا يدور حول الفناء في الخالق . ثم ان السالك بوصوله الى مقام الفناء الذي وصفنا طرفاً منهُ يتحقق له قول النبي عليه السلام لاصحابهِ موتوا قبل أن تموتوا اي موتوا عن رؤية وجودكم واختياركم وإعتمادكم على حولكم وقوتكم لتعلموا ان الوجود والاختيار هما في الحقيقة وقف على الله الواحد المختار وانكم وان زرعتم الزرع بأيديكم فان الزارع هو الله ولكنكم أسباب وقد يخلق الله بسبب ويخلق ايضاً بلا سبب فهو مسبب الاسباب ورب الارباب وهذا ما ترونهُ كشفاً وعياناً بعد انقضاء أجلكم في الدنيا ويكون الحال كما وصفهُ الله في القرآن بقولهِ تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)

وبعد ان يفيق الطالب من سكر الفناء ينتقل توًّا الى مقام يسمى مقام اللقاء ويعرف عند الصوفية أيضاً بمقام (الوصول) او المشاهدة والمكاشفة ومن ذلك قولهم في مواضع كثيرة من كتبهم فلان الواصل الى الله وهذا المقام حالة وراء العقل المجرَّد يعجز القلم عن وصفها وتدق الافهام عن تصور كنهها اذ هي بمعزل عن نطاق المدارك العقلية لانها حالة ذوقية روحية لا تعلق للعقول بها الاَّ بأن تقر بجواز حصولها وعدم استحالتها ومثلها بالنسبة الى المدركات العقلية كمثل ما يؤكل وما يشرب بالنسبة الى حاسة البصر فكما ان هذه الحاسة لا تتعلق الاَّ بالمرئيات دون الاذواق اذ ليس ادراك الاذواق من شأنها ولا من واجباتها بل هو مقصور على حاسة الذوق وحدها فكذلك المواجيد الروحيـة والاذواق الباطنية القلبية لا تدرك بالعقول والافهام . وانما تدرك بنور البصيرة وطهارة والالباب

وقد تلبث حالة الفناء التي أسلفنا ذكرها مقدار لحظة واحدة او قد تطول اكثر من لحظة وكذلك حالة اللقاء او المكاشفة قد تدوم ساعة او اكثر من ساعة حيث يعود السالك بعدها برضوان الله وفضله الى نفسه ولكن ليس الى نفسه الاولى الامارة بالسوء التي كان يجاهد في تهذيبها وصقلها بمهذبات الشرع ويحاول قهرها ويحاول قهره ويسعى في ضبطها ضمن حدود الشريعة وهي تأبى الاَّ الغلبة عليهِ والخلاص من قهره . بل يعود الى النفس الراضية المرضية المهذبة الكاملة المطمئنة بالايمان الراضخة لاحكام الشرع والدين . يعود الآن الى مقام البقاء بالله اي مقام العزة الانسانية المشروحة الصدر المستنيرة بانوار التقوى والصلاح بعيداً عن

الشوائب الشهوانية والحظوظ النفسية والصفات الدنيئة وأخصها العجب والزهو والكبر والرياء والنفاق والحسد والتطلع الى ما في ايدي الناس وقلة الرضى بما قسمهُ الله من الرزق

يعود ليشهد فيهِ الخلق مثالاً حيًّا على صدق روح الاسلام وتكفله بان يبلغ النفس البشرية اقصى ما تتوق اليهِ من الكمالات والرقي الروحي اذ يصير قلبه مليئاً بالصدق والمروءة والنخوة والطهارة والصفاء والعطف والرأفة والحنوّ على عباد الله بل على الخلائق جميعاً حتى الطير والحيوان الاعجم يعطف عليهِ ويرأف بهِ حتى لقد قال في وصف هذه الحال مولانا العارف بالله سيدي محي الدين العربي ابياتاً منها قوله قدس الله سره : —

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لنيران وكعبة قاصد وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبهُ فالحب ديني وايماني

وقد أراد سيدي جلال الدين الرومي تصوير حالة الوصول الى الله بعد بلوغ مرتبة الفناء فكتب في كتابه المسنوي شعراً بالفارسية هذا معناه : —

« توهم المحب انه قد فني في محبوبه فلما اهتدى الى بيته بعد طول السير والجهاد وقف بالباب فدقَّ عليه يطلب الاذن في الدخول فسمع من الداخل صوتاً ينادي : من بالباب ؟ فقال المحب انا بالباب. فقال الصوت داخل البيت : كلاَّ. كلاَّ. ان هذا البيت لا يسعني ويسع احداً سواي. وظل الباب مغلقاً كما كان فأطرق المحب مليًّا فأدرك ان ما حجبهُ دون الاذن له بالدخول الاَّ شعوره بوجود نفسه معه فعاد ادراجه وعاود جهاده ثم رجع بعد عام يقرع الباب فعاد الصوت يسأل من بالباب ؟ فقال انت انت الذي هنا وأنت انت الذي هناك وأنت وحدك ملء الوجود ولا موجود سواك. وهنا فتح الباب على مصراعيه فدلف منهُ المحب ليحظى بوصال الحبيب »

وبهذه الصورة الشعرية الطريفة أمكن للعارف جلال الدين ان يصوّر لنا كيف ان سلوك سبيل التصوف الحق ينيل النفس المتعطشة اقصى ما تصبو اليهِ من الرقي الروحي

***

هذا ايها السادة ما وسع المقام ذكره من الالمام ببعض اطراف التصوف في الاسلام اجمالاً وعسى ان تتاح لي فرصة اخرى لازيد الموضوع جلاءً وتفصيلاً . واني شاكر لكم حسن استماعكم لي زمناً طويلاً

الى (بتولي) الفاتنة الجمال ذات الروح الاعجب فتنة وجمالاً !!

قبلة الروح !!

هاتِ أدني من فمي شفتَيْ ذا البُرْعُمِ
يا لثغرِ عَنْدَمي (١)

أيُّ سحرٍ قطفهُ ذوب شهد رشفهُ
وشهيٌّ وكْفُهُ

أتُراه قد شفاني ؟ أم تراه قد سقاني
وحباني بالاماني ؟

لا . . . فما بلَّ الظَّما أو شفى جُرْحاً همى
كان ثغراً ظالما !!

هات . روحاً مُلهمي سلسليه في دمي
تحتويه أعظُمي

ها . . . سرَينا في سما هي لغزٌ أبْهِما
أتراني حالما ؟ !

ها أرانا هائمَينْ في انتشاء ذاهلَينْ
قد غدَونا طائرَينْ كيف طِرنا؟ بل وأينْ؟!
لا وربي ما درينا !!

***

آه من قُبلة صبٍّ يحتسي روح المحبّ
خَلَقتْ أكوان حُبٍّ إنها قبلة . . ربٍّ !!

إنها يا أختَ روحي قبلة الروح لروحي
هدهدت مني جروحي لا تضنّي بل أبيحي
امنحيها للجريح !!...

محمد فهمي

(١) العندم نبات احمر اللون

حضارة الميتانيين

بقلم قيصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

— ٢ —

﴿ اللغة ﴾ عندما نهضت الآثار الميتانية من جوف الثرى ومسحت عن جفونها غبار الايام حاول علماء الآثار ان يستجلوا معاني تلك السطور العالقة على بعضها فلم يوفقوا في محاولتهم ولبثت كتابات الميتانيين غامضة صامتةً لا تنبس ببنت شفة عما تتضمنهُ من الاسرار ريثما يتسنى العثور على لوحات ميتانية مثل لوحات بوغاز كوي ورأس الشمراء التي تدوَّن فيها النصوص الواحدة مترجمة الى عدة لغات تساعد على تفسير بعضها بعضاً . غير انهُ يلوح من اسماء بعض الملوك الواردة باللغات المصرية والحثية ان لغة الميتانيين كانت مزيجاً من ألفاظ اسيوية وآرية وهي تشبه بذلك لغة القوقاس الخشنة وقد اشارت ألواح بوغاز كوي الحثية الى وجود قصص وقصائد موضوعة باللغة الميتانية اشيد فيها باعمال البطل جيلجماش العجيبة كما ان الكتابات الميتانية التي عثر عليها في حفريات تل العمارنة تدل على ارتقاء الفكر وسعة انتشار ادب المراسلة عند الميتانيين كرسالة الملك توزارطا الموجهة الى امنوفيس الثالث التي تنطوي على ٤٩٤ سطراً وهي مخطوطة بالقلم المسماري وتعد هذه الرسالة المطولة من اهم ما عثر عليهِ حتى يومنا من الاسانيد التي تمهد لدرس اللغة الميتانية بفضل مقدمتها حيث تيسّر حل مدلول بعض الفاظها التي يخاطب عادةً بمثلها فراعنة مصر على انهُ ينتظر عند اتساع حلقة الحفريات في اراضي الميتانيين ان تتوالى البينات التي تساعد على حل رموز هذه اللغة العويصة حلاً نهائيًّا

﴿ الانظمة والقوانين ﴾ ما برحت لغة الميتانيين مستعصية الحل على علماء الآثار فليست معلوماتنا عن انظمتهم وقوانينهم غير معلومات مقتضبة اخذناها عن كتابات جيرانهم الذين ألمعوا الى هذه الانظمة والقوانين في سياق البحث عن انظمتهم وقوانينهم الخاصة او عن عقود ميتانية محررة بلغة اجنبية

فقد كان العرش وراثيًّا تحرسهُ كوكبة من الجيش يطلق عليها اسم الحرس الماريانى . اما طراز الحكم فكان اقطاعيًّا ينحصر تولّيهِ في طبقة من الاعيان تتحدّر من عنصر آري مثل العائلة المالكة نفسها وتكاد تكون قوانين الدولة مستعارة برمتها من قانون حمورابي الذي كان له اعمق تأثير في كل الدول التي قامت فيما بين النهرين . بيد انهُ كان يستثنى من ذلك تشريع التعامل

التجاري عند الميتانيين الذي عرف بميزة خاصة تنطبق على حاجة جماعة معظمهم من الزراع . وقد اشار الاستاذ كوك الى الخاصّات التي تميز العقود الميتانية عن سواها وأهمها وجوب بيان المحل الذي تم فيهِ الصفقة ويدوَّن العقد مع ذكر أسماء الشهود الحاضرين مما كان يغفَل في معظم العقود الحثية . زد على ذلك ان المكاييل والاقيسة الوارد ذكرها في العقود الميتانية كانت أقرب الى ما هي عليهِ في أشور مما هي عليهِ في بابل . فقد كان الكيل المدعو إمر الشائع عندهم يستوعب من الحبوب مبذر مساحة معينة من الارض ويوازي أربعين لتراً من مكاييلنا

﴿شرائع الزواج﴾ كان الخطيب عند الميتانيين ينقد والد الفتاة مبلغاً من المال يرمز فيه الى عادة مشترى المرأة تلك العادة التي كانت متفشية في بابل. بيد انهُ كان يترتب أدباً على الوالد الميتاني ان يسرع باعادة المبلغ المذكور الى الخطيب بعد قبوله شكلاً ويمهر ابنته ببائنة تساعدها على تقديم هدية ثمينة الى بعلها ليلة الزفاف مما لا نرى لهُ مثيلاً في تقاليد الجوار. وقد كان مباحاً للزوج ان يطلق امرأته اذا كانت عاقراً أما اذا كانت ولوداً فلا يحق لهُ ذلك دون ان يعوضها بالمال ويخسر في حال طلاقها حقوق الابوة على أولاده مع بقاء حق الارث محصوراً بعده في أولئك الاولاد دون غيرهم

﴿شرائع التبني﴾ ومما كان شائعاً في البلاد الميتانية شريعة التبني وقد عرفت منها ثلاثة أشكال : ففي الشكل الاول المدعو (أنا شمتي) كان يختار المرء قريباً لهُ يتبناه بطريقة غير قابلة النكول فيرعاه بحمايتهِ ويغدق عليهِ خيراته . أما في الشكل الثاني المعروف باسم (انامعروتي) فيصح تبني شخص غريب عن العائلة ويحق للمتبنَّى ان يرث حصة معينة من مال المتبني

ولما كانت أراضي الخراج المقطعة للموظفين او الجنود لقاء خدماتهم غير قابلة الانتقال الى الغير الاَّ بطريقة الارث الشرعي فقد أوجد لها المتشرع الميتاني حيلةً تساعد صاحبها العاجز عن العمل على الانتفاع بها او استغلالها بواسطة الغير. وذلك بأن يتبنى مالكها شخصاً يهبها لهُ لقاء هدية من الفضة او الحبوب تعادل ثمنها وهذا هو الشكل الثالث وقد أطلق عليهِ الاستاذ سبيزر الذي اكتشف لوحات كركوك اسم البيع بالتبني

﴿شرائع التعامل التجاري﴾ تكاد طريقة الاستقراض التي كان يجري عليها الميتانيون تشابه طريقة التعامل المعروفة في أيامنا في كثير من الوجوه ولا سيما فيما يتعلق بتعيين موعد الدفع في عقود الاستقراض التي كانت تدوَّن على لوحات من الآجر يختم في ذيلها المدين وتلي توقيعه توقيعات شهود الحال . بيد ان معدل الفائدة كان يتفاوت بحسب نوع البضاعة المشتراة . فاذا كانت هذه البضاعة من مواد البناء كاللبن مثلاً تبلغ الفائدة نحو ٥٠ بالماية في حين ان شريعة حمورابي لاتجيز تقاضي الفائدة بمعدل يربي على ٢٠ بالماية في قرض النقود و ⅓ ٣٣ بالماية على قيمة الحبوب. واذا تعدد المدينون كان القانون الميتاني يسوّغ للدائن استيفاء تمام دينه عند الاستحقاق من المدين الاقرب اليهِ باعتبار المدينين متكافلين متضامنين في وفاء ما عليهم . وقد عثر على عقد

غريب ينص على أن السرية المدينة اذا وضعت خلال مدة الدين يتحتم عليها ان تتخلى عن مولودها الى الدائن أما اذا توفيت اثناء الوضع فلا يكون الدائن ملزماً بدفع ثمنها كما كان مسموحاً للدائن ان ينتفع بما هو مرهون لديه تأميناً على دينه سواء أفضة كان ام تحفةً حتى ولو كانت الرهينة انساناً وكان مفروضاً في بعض العقود كفالة شخص ثالث وهذا مأخوذ عن القانون البابلي .

وكان التأجير معروفاً عند البابليين وكثير الرواج فيما يتعلق بمعامل صنع اللبن والآلات الزراعية. أما العقوبات الواجب إنزالها بمن يتخلف عن الدفع فقد كان منصوصاً عليها في العقود نفسها وكانت تسري على المدين من طبعها حين تقصيره في القيام بالشروط الملحوظة وهي على الغالب نقدية ولكنها شديدة في معظم الاحوال لكيما تجعل للمدين رادعاً عما قد تسوّل له نفسه من التواني والتقصير . وقد نصت بعض العقود على عقوبة مؤلمة كاللكم على الفم وكسر الاسنان وما شابه ذلك من صنوف التعذيب التي كانوا يسومون المدين إياها عند اول بادرة تنم على سوء نيته

فيستفاد مما تقدم ان معظم الشرائع الميتانية كانت مستعارة من بابل كما ألمعنا اليه آنفاً انما كان يطرأ عليها بعض التعديلات حسبما كانت تقتضيه أحوال البلاد وحاجاتها ولا مرية في ان معلوماتنا هذه ستزداد مع الايام اضعافاً وتتسع حلقة بحثها عندما ندرك معاني تلك الكتابات العديدة التي اخرجها المنقبون من مكامنها الدفينة

﴿ الديانة ﴾ عندما درسنا ديانة الحثيين على ضوء نصوص لوحات بوغازكوي تبينا ان معابدهم كانت تضم عدداً عديداً من الآلهة تجمعت لديهم بنتيجة فتوحهم لانهم كانوا يبقون على آلهة البلاد التي يستعمرونها وتقاليدها ويكرمونها خشيةً من سخطها وموالاةً لعبدتها حتى ضاقت هياكلهم عن استيعابها وأحيطت عقائد ديانتهم بغموض لا مفر منهُ. وكذلك نرى الامر نفسه قد جمَّع عند الميتانيين طائفة من الآلهة عندما ضموا تحت لوائهم شتى العشائر التي كانت تقطن سوريا الشمالية وما بين النهرين . وقد أتاحت لنا الظروف ان نتعرّف الى معظم هذه الآلهة التي وردت اسماؤها في ذيل المعاهدة المصرية الميتانية التي وضعت تحت رعايتها . ويدل تعداد تلك الآلهة على مختلف العناصر التي تألفت منها المملكة الميتانية اذ كانت تُعرف الشعوب قديماً من اسماء الآلهة التي تنتسب اليها . وقد وجدنا في طليعة هذه الاسماء آلهة الميتانيين الاصلية اي الاله تحشوب ورفيقته هيبا . ثم تليها آلهة البلاد المجاورة والمنضمة الى المملكة الميتانية او التي كان يسطو عليها نفوذها ويتخللها اسماء بعض آلهة بلاد الهند وسوس وبابل التي استقت من عناصرها الحضارة الميتانية . وكذلك نجد اسماء آلهة جبال زاخو ونهري الدجلة والفرات والسماء والارض والريح والسحاب . ويجدر بنا ايضاً ان نلمع الى ورود ذكر اسماء آلهة عشائر حيبري التي يذهب البعض الى انها آلهة اليهود نفسهم الذين كانوا على عهد ازدهار تل العمارنة جماعة من المأجورين يحاربون تحت قيادة ايٍّ كان في سبيل الكسب والغزو . اما الاله تحشوب الكبير الذي كان



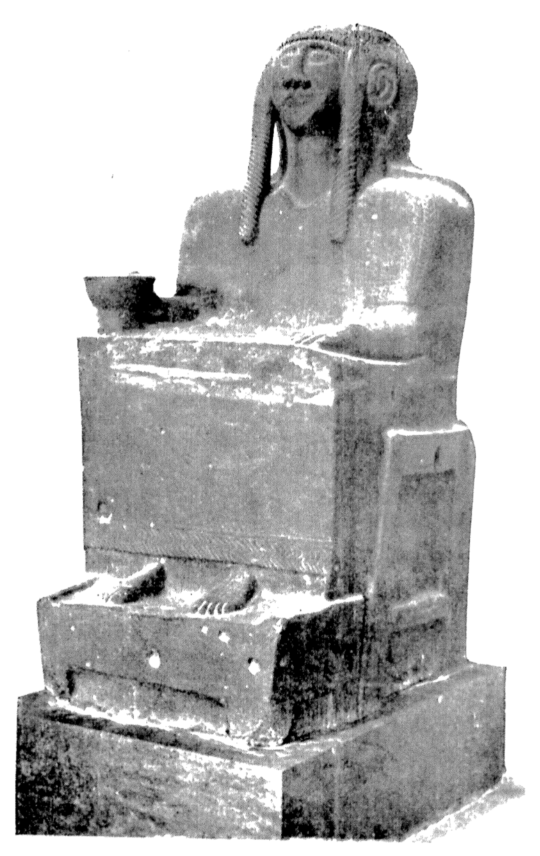
تمثال مشرفة البرونزي، صغير الحجم مصنوع من البرونز بعلو ١٧٫٥ السنتمتر اكتشف بين انقاض مدينة قطنة القديمة المعروفة اليوم بقرية المشرفة في ضواحي حمص ونقل الى متحف « اللوفر » حيث صُنّف بين الآثار الميتانية



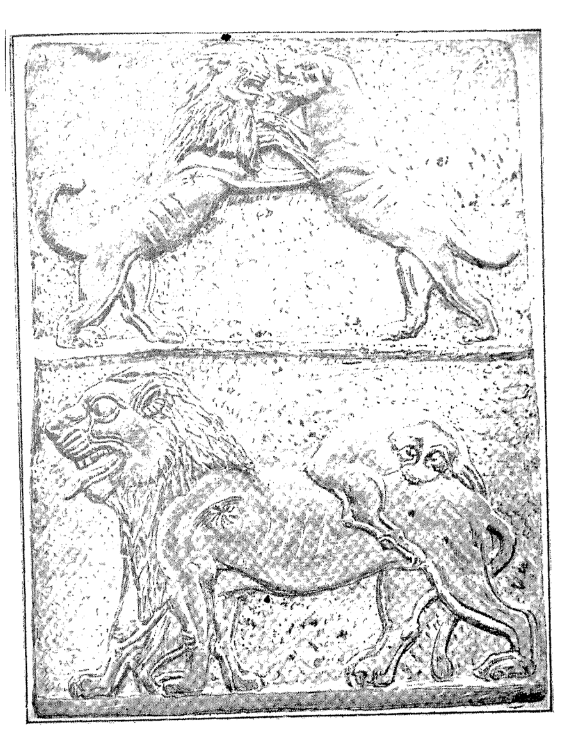
تمثال السفيره ، تمثال حجري صغير يبلغ علوه ٤٥ سنتمتراً وهو مقطوع الرأس والرجلين يمثل شخصاً يدعى (ادوني ايا بن انعيا) حفر عليه اسمه وقدمهُ هدية الى معبد الهه وهو يمت الى الآثار الميتانية وقد اكتشف في قرية السفيره التي تقع على مسافة ٢٥ كيلو متراً شرقيّ حلب



تمثال كبرى المعبودات الميتانية من الحجر البركاني الازرق بحجم (٢٫٧٤ × ٠٫٧٢ × ٠٫٥٠ متراً) اكتشف في تل حلف ونقل الى متحف حلب يمثل الهة واقفة عارية القدمين ممسكة بيدها اليسرى وعاء صغيراً كان يملأ عادة بالماء المطهر واما يدها اليمنى فمنبسطة على الصدر وفي رقبتها عقد ذو ستة صفوف وعلى معصميها وكعبيها أساور وشعرها مسترسل على الظهر



تمثال معبودة ميتانية ، من مكتشفات البارون اوبنهايم في تل حلف تمثل معبودة ميتانية تمسك في يدها اليمنى كأس التقدمة وهي تلبس رداءً مزركشاً يغطي الجسم بتمامه ويكشف عن الساعدين وعن قدمين عاريتين حجمه ١ر٨٩ × ٠ر٨٦ × ٠ر٩٧ متراً من الحجر البركاني الازرق نقل الى متحف برلين بعدان سكب عليه نسخة معروضة في متحف حلب



نقش بيسان — يمثل في القسم الاعلى منهُ أسدٌ وكلبٌ منتصبان أحدهما مقابل الآخر وفي القسم الاسفل كلبٌ يعقر أسداً في ردفهِ وهو من الآثار الاشورية الميتانية. وقد اكتشف في قرية بيسان من اعمال فلسطين

يدين به الحثيون ايضاً فقدكان اله العناصر الاربعة والصواعق والانواء والامطار والخصب ويشبه الاله حداد الغربي في كثير من الصفات وتمثله النقوش الميتانية رجلاً مرتدياً لباساً قصيراً مغطى الرأس بتاج اوبخوذة ماسكاً بيده اليمنى فأساً وبيده اليسرى رمز الصاعقة المثلث الشعب (انظر رسمه في الصفحة (٥٢٧) من مقتطف دسمبر ١٩٣٦) ونراه في اكثر مواقفه على ظهر ثور وفي بعضها واقفاً على ذرى الجبال. وهيبا رفيقة تحشوب على شاكلة الالهة عشتار كان يبتهل اليها لاكثار النسل وخصب الارض وقد مثلت في النقوش الميتانية برداء طويل وعلى رأسها تاج. وهذان الالهان هما المثل الاعلى للديانات الوثنية القديمة وعبادتهما كانت اكثر كل العبادات شيوعاً في هذه البلاد منذ اقدم العهود

﴿ الفن الميتاني ﴾ جدير بأن نطلق تسمية الفن الميتاني على الآثار المستخرجة مما بين النهرين ومن سائر الانحاء المجاورة والتي تمت الى العهد الذي طغى فيه العنصر الحوري الميتاني على هذه المناطق اي العهد الذي يمتد بعرفنا منذ القرن السادس عشر حتى الرابع عشر ق . م. وتأتي في مقدمة هذه الآثار مجموعة الاسطوانات واللوحات المكتشفة في كركوك والتي تعد من اغنى مجموعات الآثار الحورية الميتانية . وتعتبر صنفاً مهماً بين مختلف الصنوف التي تماثلها اذ تمتاز صناعة حفر هذه الاسطوانات بكثرة وجوه الشبه التي تقربها من صناعة الحفر السومرية تلك الصناعة التي تعتبر النواة الاولى لكل صناعات الحفر المعروفة ليومنا هذا في اسيا الصغرى . تدلنا على ذلك النقوش المتشابهة في الصناعتين والافراط في استعمالها عند الشعبين . ويلوح ان الميتانيين كانوا احذق من سائر معاصريهم في استعارة الفن السومري واكسابه طابعاً خاصاً بهم لانهم كانوا بطبيعتهم الاسيوية اقرب من البابليين وسائر الشعوب السامية الاصل الى فهم خاصة الفن السومري وليد حضارة قريبة من الحضارات الاسيوية . ويبدو ايضاً على بعض الآثار الميتانية انها كانت متأثرة في بعض الاحوال بالطابع المصري وفي بعضها بطابع الايجه وادلتنا على تأثرها بالطابع المصري كثيرة نخص منها بالذكر استعمال قرص الشمس المجنح في بعض النقوش الميتانية . ذاك الرمز الذي يعد بلا جدال ظاهرة مصرية بحتة (راجع الصورة أمام ص ٤٥ من مقتطف يونيو الماضي) كما ان تأثرها بطابع الايجه باوز جلياً في نقش الشجرة المقدسة التي احتفرها الميتانيون على آثارهم بشكل نخلة مهدلة الاغصان كثيرة الزخرف يحرسها إلهان وفي بعض الاحيان اسدان على نحو ما هي عليه في نقوش الايجه . اما سائر الرموز فتكاد تكون كلها مشتقة من اصل سومري كالضفائر التي تغشي معظم اسطوانات كركوك ومشاهد انتصارات البطل جيلجاش في مصارعة الثيران والاسود التي يوشك ألاَّ يخلو منها اثر ميتاني . وقد يحسن بنا ان نلمح في هذا الصدد الى بعض الآثار الكبرى التي تغلب عليها السمة الميتانية

﴿ اله الخصب ﴾ نجد اكثر هذه النقوش بروزاً وأوثقها نسبةً الى صنع الميتانيين نقشاً بارزاً اكتشف في اشور ونقل الى متحف برلين يمثل اله الخصب منحوتاً نحتاً خشناً على الطراز القديم

بلحية طويلة وعينين مجوفتين كانت ترصعها بعض الحجارة ، يعلو رأسهُ تاج مزين برسوم حراشف السمك وكذلك القسم الاسفل من ثوبه تغشيه رسوم مشابهة وترمز هذه الحراشف في فن ما بين النهرين الى الارض الجبلية فيكون اذاً هذا الاله من آلهة الجبال الاّ ان بروز جذعي شجرة من جسمه يحملان ثمراً يشبه الصنوبر وانتصاب وعلين عند قدميه يقطان ذاك الثمر يحملنا على الاعتقاد بانهُ اله الخصب الذي جاء في الاساطير القديمة انهُ كان يغذي بنفسه الاوعال التي تحرس الشجرة المقدسة كما ان وجود الهتين صغيرتين بجانبه حاملتين الى صدريهما وعائين تتدفق منهما المياه مما يزيد الرمز جلاء ويثبت اشتقاقه من الفن السومري القديم

﴿ رأس الجبول ﴾ يأتي بعد ذلك الرأس الحجري المكتشف في ملاحة الجبول الواقعة على مسافة أربعين كيلو متراً شرقي حلب والمنقول الى متحف اللوفر وهو رأس يزيد عن الحجم الطبيعي قليلاً من الحجر البركاني الازرق وقد نحت نحتاً خشناً يماثل نقش الـه الخصب الآنف الذكر . بيد ان هذا الرأس تكاد تنبض فيه عروق الحياة اكثر من كل أثر آخر . له جبين ضيق تكللهُ قبعة مخروطية الشكل ذات خطوط طولية متقابلة كانها قرون ترمز الى الالوهة . أما العينان فيلوح ان تجويفي حدقتيهما كانا مرصعين ببعض الحجارة ويعلوهما حاجبان كبيران في وسطهما أنف أفطس يحيط به وجه ضعيف التركيب خددتهُ غضون ممتدة من المنخرين الى حد الشفتين كما ان الذقن كثيرة الاخاديد . وخلاصة القول ان هذا الرأس تحفة نادرة المثال بين سائر الآثار الميتانية المعروفة ليومنا هذا (صورتهُ بمقتطف يونيو الماضي صفحة ٤٤)

﴿ تمثال مشرفة البرونزي ﴾ ونعني به تمثالاً صغيراً مصنوعاً من البرونز عثر عليه في الحفريات التي أجراها الكونت دي بويسون منذ عشر سنوات في تل المشرفة بالقرب من حمص حيث اكتشف انقاض مدينة قطنة القديمة . وقد صنع هذا التمثال البرونزي على نمط رأس الجبول . أما سائر أعضاء جسمه فلا نتبين منها غير قبضتين مطبقتين وقدمين حافيتين لانهُ جالس على عرش وملتحف برداء طويل موشى بالفرو على مثال أصنام سوريا العليا في ذلك العهد وكذلك اكتشف في حفريات مشرفة نفسها رأس حجري ذو لحية قصيرة بعينين مجوفتين تعلوهما قبعة منحوتة نحتاً كثير النتوء وعليه مسحة من الصناعة القديمة

﴿ أسد الشيخ سعد ﴾ عثر في قرية الشيخ سعد بالقرب من دمشق على تمثال أسد ضخم الحجم من الحجر البركاني حفظ مؤقتاً في المعهد الفرنسي للفن الاسلامي في دمشق وهو يمت الى الآثار الميتانية بشبه شديد لا سيما في هذه الخاصة القوية التي تكسبهُ هيأةً تخال معها كأن الحياة نابضة بين جنبيه

﴿ تمثال السفيرة ﴾ اكتشف في قرية السفيرة التي تقع على مسافة ٢٥ كيلو متراً شرقي حلب تمثال حجري صغير مقطوع الرأس والرجلين يبلغ علوه ٤٥ سنتمتراً يدخل في عداد الآثار

الميتانية يمثل شخصاً لابساً رداء لاصقاً بجسمه يشده الى وسطه نطاق عريض وضع في طياته غمد خنجر مزخرف وقد أمسك بكلتا يديه كأساً مقربة من صدره وتعلمنا الكتابة الاشورية القديمة المنقوشة عليه ان صاحب هذا التمثال يدعى أدوني أبا بن انيا وقد قدم تمثاله هدية الى معبد الآلهة

تعبّر هذه المجموعة القليلة عن الميزة التي اختصت بها الآثار الميتانية ألا وهي متانة التعبير وروعة الصنع وهي تصلح لان تكون خير مقدمة لكثير من الآثار التي ينتظر ان تسفر عنها الحفريات المقبلة في العاصمة واشوكاني وفي سائر نواحيها كما انها تعد حلقة وثيقة الاتصال بين الآثار السومرية التي استمدت منها أصولها وبين سائر الآثار التي نحتت على مثالها او باتت تحت تأثيرها مثل بعض الآثار الحثية التي يغلب عليها تأثير الفن الميتاني على شاكلة الحجر البارز النقش المكتشف في قلعة حلب سنة ١٩٣٠ وعليه معبودان مجنحان يرفعان على قبضتهما قرص الشمس داخل هلال وقد نشر رسمهُ في مقتطف شهر فبراير ١٩٣٧ وبعض الآثار الاشورية الميتانية مثل نقش بيسان الذي صور في القسم الاعلى منهُ اسدٌ وكلب منتصبان احدهما مقابل الآخر وفي القسم الاسفل كلب يعقر اسداً في ردفه مما يجعلنا ان نلمس فيه امتزاج الفنين الاشوري والميتاني خصوصاً في نحت عضلات الاسد وحركة وثوب الكلب. ويجدر بنا قبل اختتام هذا الموضوع ان نأتي ايضاً على ذكر مجموعة الآثار التي اكتشفها البارون اوبنهايم في تل حلف على مقربة من نهر الخابور وبجانب رأس العين تلك الآثار التي حيّرت العلماء في تعيين عهدها ثم كادوا يجمعون على عقيدة الاستاذ جودس الذي يرى انها تمت الى الميتانيين بأوثق الاسباب بالرغم مما يبدو عليها من تأثير الطابع الاشوري وقد حداهم ذلك الى الاعتقاد بأن هذه الآثار صنعت في اواخر عهد الميتانيين عندما بدأ يخبو نفوذهم تحت سطوة الاشوريين وتفوقهم فجاءت تحمل على وجهها مسحة اشورية كادت تخفي وراءها اصلها الميتاني. اما الكتابة الارامية المحفورة على هذه الاصنام والتي اشكل على العلماء في بادىء الامر تفسيرها فقد اتضح انها ترجع الى عهد ملك ارامي يدعى كابارا كان اقام على هذا التل المهجور منذ نحو الف سنة وعثر بين انقاضه القديمة على كمية كبيرة من الآثار المذكورة فأعاد استعمالها واحتفر عليها الكتابات المذكورة باسمه

نقف اليوم عند هذا الحد من دراسة الحضارة الميتانية على أمل ان نعود اليها بعد حين عندما تواصلنا الاكتشافات الجديدة بمعلومات اوفر من شأنها ان تساعدنا على الوقوف على كثير من الامور التي ما برحت متوارية عنا في جوف الثرى. ولعلنا لا نكون على ضلال اذا عقدنا كبير الامل على النتائج الخطيرة التي قد يؤدي اليها اجراء حفريات واسعة النطاق في واشوكاني المعروفة اليوم برأس العين تلك العاصمة الميتانية التي لم يقيض لها بعد من ينبش اطلالها الدارسة ويخرج كنوزها للنور فعسى ان يوفق في القريب من يكشف لنا القناع عن عظمة تلك الحضارة العريقة في القدم ويشق امامنا طريق الوصول الى كنه الحقائق

قبل ان تسكت الحياة ...

شاعر أصيب في حادثة كتب الله له السلامة منها . وهو لم يزل بعد في ميعة الصبا وعنفوان الشباب . فتمنى لو انها كانت القاضية على حياته . فراراً من اثقال الحياة ، وأعباء الدنيا .... فكتبنا اليه هذه الابيات [عبد الغني]

عُمرٌ مدَّه لك الله مدًّا   كيف لم تلق بالسلامة حمدا ؟
كيف تلقى السلامة اليوم نحسا   ويراها الورى نعيماً وسعدا ؟
كيف تقضي وما تهدمتَ ركنا   كيف تطوى وما تثلمت حدًّا ؟ ؟
كيف تمضي ودين مصر علينا   لم يسدَّد . وحقها لم يؤدَّى ؟ ؟

* * *

عجباً شاعر تغنَّى على الأيك ويرجو عن ذلك الايك بعدا
عجباً شاعر تأبَّى على القيد ويرجو في وحشة القبر قيدا ؟
لم يكد يستريح للمهد حتى   رام في التربة السحيقة لحدا ؟ !

* * *

غنِّ يا صاحبي على الروض واطرب   قبل أن تصبح الخمائل جُرْدا ...
غنِّ يا صاحبي على النهر واشرب   قبل أن تبخر المياه فتصدى
غنِّ يا صاحبي كما شئت والعب   قبل أن تُملأ المقابر رِجدًا ! !
غنِّ يا صاحبي على العود واضحك   قبل ان تسكت الحياة وتهدا ....
غنِّ في هذه الحرارة يوماً   قبل ان تملأ الحديقة بردا ! !
غنِّ والورد في الخميلة غضٌّ   قبل أن يُذبل الشتاء الوردا ....

* * *

كنتُ يا صاحبي كما أنت ... أبكي   فرأيت الحفاظ بالدمع أجدى ...
كنتُ لا استسيغ عيشي ... ولكن   لم أجد يا أخي من العيش بدا ... ! !

* * *

كيف تقضي وما تخطيتَ عمْرا   كيف تمضي وما بلغتَ الاشُدَّا ؟
واذا عفتَ في الحياة مقاماً   فلمن ذلك المقام أُعدَّا ؟ ؟ ؟

المنصورة — محمد عبد الغني حسن
عضو بعثة سابق

الاسلام

والرفق بالحيوان

للشيخ احمد مصطفى المراغى
استاذ الشريعة الاسلامية بدار العلوم

يرى الناس صنوفاً من اعمال البر والاحسان مسماة بأسماء غير ما عهدوها ولها نظم دون ما ألفوها فيخيل اليهم ان هذه من مبتكرات العصر الحديث عصر المدنية والنور وان مؤسسيها قوم أشربت قلوبهم بروح الفضيلة وتسامت نفوسهم عن ارتكاب الرذيلة لما لأعمالهم من جليل الخطر وعظيم الاثر مما يشاهد عياناً فهي تقيم كل يوم للناس برهاناً وتظهر لهم حسناً واحساناً في تخفيف ويلات الناس من مختلف الشعوب والطوائف مما لا يخص قبيلاً دون قبيل ولا فئة دون فئة اخرى بل نرى آثارها تعدت الانسان الى الحيوان بطلب الرفق به والشفقة عليه ووقايته من العلل والادواء وتخفيف آلامه ولاجل هذا أسست (جمعيات الرفق بالحيوان) في انحاء المعمورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وهي تسير في اعمالها قدماً وتتلقى معونة من بني الانسان في كل بقاع العالم. وكأن القائلين بمثل هذا القول يؤمنون بان الشرائع السماوية قصرت في طلب الرفق بالحيوان ولم تطلبها من الآحاد او الجماعات او كأن العقول البشرية كشفت انواعاً من اعمال البر والاحسان لم تنبه اليها الشرائع السماوية، كبرت كلمة تخرج من افواههم — فكنوز الشريعة الاسلامية ملأى بالحض على الشفقة بالحيوان ومواساته بكل ما يكفل له حياة هنيئة ويجلب له خيراً ونفعاً ويخفف عنهُ ألماً ويدفع عنهُ ضيراً والوعيد بالويل والثبور لمن لا يمد يد المساعدة لذلكم الحيوان الاعجم. وسيأتي لك بعد من الادلة والبرهانات ما تطمئن اليه نفسك وتعلم ان الشريعة لم تفرط في شيء وان كل ما يخطر ببالك من المعاني السامية والاخلاق الفاضلة التي ترفع النفوس الى مستوى العزة والجلال وتسمو بها الى مراتب الكمال وبها يتاح العطف والمحبة للناس جميعاً وينطبق عليها قولة علي لابنه الحسن «يا بنيَّ أحب لغيرك ما تحب لنفسك واكره لهُ ما تكره لها» فهو مسطور في أسفار الشريعة بأجلى بيان بل أعطت دستوراً للشفقة بالحيوان لما

لهُ من شعور واحساس بالآلام والويلات فأوجبت الحدب عليهِ والشفقة بهِ . وها نحن أولاء نفتح لك أبواب تلك الكنوز لترى جواهرها ولألئها المكنونة وتعلم انها أتت بما ليس وراءه زيادة لمستزيد وان كل الصيد في جوف الفرا (١) وان المسلمين هم المقصرون في عرض تلك الجواهر على النظارة (٢) وانهم ان فعلوا ذلك بهرهم سناها وراقهم زبرجها (٣) وزخرفها وعلموا ان تلك التحف الثمينة لم يحسن أهلها استعمالها فتراكمت عليها الاصداء فحجبت جمالها عن أعين الناظرين حتى أصبحت في حاجة الى من يعيد اليها رواءها (٤) ويعيدها سيرتها الاولى . ويبرز محاسنها ويعرضها على الجماهير وهي تلبس أثوابها القشب (٥) وتختال في معارضها (٦) من أرباب المذاهب والنحل المختلفة في الشرق والغرب وعندئذٍ تظهر تلك السجاحة (٧) في التشريع ويعلم الناس مقدار ما لا حظتهُ الشريعة الاسلامية من الشفقة والرحمة بالحيوان بله (٨) الانسان

روى البخاري عن أبي هريرة ان رسول الله (صلعم) قال بينا رجل يمشي فاشتد عليهِ العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فاذا هو بكلب يلهث ويأكل الثرى من العطش فقال لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ثم أمسكه بفيهِ ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله لهُ فغفر له. قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً قال في كل كبد رطبة أجر (٩) وجاء هذا المعنى في رواية أخرى لمحمد بن اسحاق عن الزهري بسنده المتصل الى سراقة بن مالك قال — سألت عن الضالة من الابل تغشى حياضي قد لطتها الابل فهل لي من أجر ان سقيتها فقال نعم في كل ذات كبد حرى أجر (١٠) كما جاء الحديث الاول بأسلوب آخر عن ابي هريرة ان النبي صلعم قال ان رجلاً رأى كلباً يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفه فجعل يغرف له بهِ حتى أرواه فشكر الله لهُ حتى أدخله الجنة . وهأنت ذا ترى ان هذا الحديث يكاد يسيل شفقة بالحيوان انساناً كان او غيره لما فيهِ من الجزاء العظيم على من أحسن اليهِ فانهُ (صلعم) اخبر بشكران الله تعالى لفاعلي الاحسان اليهِ وثنائه على من أسدى اليهِ خيراً ووعده بالجنة كفاء شفقتهِ ورحمته . وبالضد من هذا ورد الوعيد الشديد لمن قسا قلبه وغلظ كبده ولم يشفق بالحيوان. فقد روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله (صلعم) قال — عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار قال . فقال (والله أعلم) لا هي اطعمتها ولا سقيتها حين حبستها ولا هي ارسلتها

(١) مثل يضرب لمن يفضل على اقرانه والفرا الحمار الوحشي وجمعه افراء (٢) المتفرجين (٣) الزينة (٤) بهجتها (٥) الجديدة (٦) جمع معرض كمنبذ ثوب تلبسه العروس ليلة الزفاف (٧) السهولة في التشريع (٨) دع واترك (٩) الثرى التراب الندي ولهث الكلب أخرج لسانه من العطش والحر واللهاث العطش ورقى كصلد وشكر الله له اي قبل عمله . وقول وان لنا في البهائم أجراً اي في سقيها او الاحسان اليها . ورطبة اي برطوبة الحياة (١٠) الضالة هي التي تترك عطفها وتذهب الى جهة أخرى . ولاط الحوض بدره بناه بالحجارة حتى لا يجف ماؤه

فأكلت من خشاش الارض [١١] . اخبر عليهِ السلام بوحي من ربه بحلول العقوبة بامرأة عذبت قطتها فحبستها الى ان ماتت جوعاً وعطشاً ولم تطعمها من فضلات طعامها او تتركها حتى تطعم من فضل ربها فدخلت بسبب ذلك النار وما اشدها عظة وابلغها نكالاً لمن لا يرعوي ويزدجر من الدهماء [١٢]

والسوقة الذين يحملون الحيوان مالا يطيق او ينهالون عليه ضرباً وكدماً [١٣] ولكماً لغير سبب يفهمهُ الحيوان حتى يتقي امثاله فما هي الاَّ الغلظة والفظاظة التي لا تجد لها ما يبررها لدى العقلاء ومثل هذا ما تراه من تركهم الحيوان يسيل من جرحه الدم او يتقيح [١٤] وهو يألم مما بهِ ثم هو لا يجد له رحيماً منهم بل هم يسومونهُ سوء العذاب فيحملونهُ ثقيل الاحمال فوق جرحه الناغر او يجعلونهُ يدور بالساقية او الطاحونة او نحوهما من الاعمال الشاقة التي تصعب على السليم فضلاً عن المريض وقد حكى الغزالي في كتابه (احياء العلوم) ان النبي (صلعم) كان له ديك فمرض فكان يقوم بتمريضه بيده الشريفة ويعني بشأنه. وحكي ايضاً انهُ (صلعم) اكل يوماً الرطب في يمينهِ وكان يحفظ النوى في يساره فمرَّت بهِ شاة فأشار لها بالنوى فجعلت تأكل من كفهِ اليسرى وهو يأكل بيمينهِ حتى فرغ وانصرفت الشاة. وروى الدارقطني والحاكم وأبو نعيم من حديث عائشة ان النبي (صلعم) كان يصغي [١٥] الى الهرة الاناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها [١٦] . وقالت عائشة رضي الله عنها ما ضرب رسول الله (صلعم) شيئاً قط آدمياً او غيره ضرباً مؤذياً الاَّ ان يجاهد في سبيل الله فيضرب . فقد قتل في وقعة أحد ابي بن خلف وما قتل بيده أحداً سواه وما ضرب خادماً ولا امرأة وما أجل تلك الاسوة لاتباعهِ المؤمنين الذين يهتدون بهديهِ ويقتدون بهِ في عمل . وان تعجب فعجب ان ترى الشريعة طلبت الينا الرأفة بالحيوان عند ذبحهِ كما طلبتها لهُ حال حياته فأمرت بذبحه بمحدد غير مثلوم ليكون الذبح سريعاً والشعور بالألم في مدى قصير فقال عليهِ السلام : اذا قتلتم فأحسنوا القتلة . وبينت السنة طريق الذبح الشرعية حتى نقوم بأدائها على أكمل وجه فقال عليهِ السلام: ما أنهر [١٧] الدم وذكر اسم الله فكل ليس السن والظفر وسأخبركم عنه. اما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة . فأبان (صلعم) ان كل آلة تسيل الدم يصح بها الذبح قصباً [١٨] كانت او مردة [١٩] اوحديداً ما خلا السن والظفر. والحكمة في ذلك واضحة فأن السن تجرح ولا تقطع فتزهق الروح ببطءٍ من غير ان تستيقن من الزكاة الشرعية التي لا تكون الاَّ بقطع الحلقوم [٢٠]

---

(١١) في هرة بسبب هرة وخشاش الارض حشراتها (١٢) العامة (١٣) الضرب على الوجه مع بسط الكف ومع قبضها لكم (١٤) تقيح الجرح صارت فيه مدة او سال قيحه (١٥) يميل (١٦) بما بقي بعد شربها (١٧) أسال (١٨) كل نبات أعوج الساق (١٩) حجر أبيض كالسكين (٢٠) مجرى النفس

والمريء [٢١] والودجين [٢٢] كذلك الظفر يدمي فتزهق الروح خنقاً وتعذيباً : وندب احداد الشفرة قبل اجتماع الذبيح كما كره تعذيب الحيوان بلا داع اليه لقطع الرأس والسلخ قبل ان يسكن اضطرابه . ومن اجل هذا حرم اكل الاصناف الآتية لما فيها من الضرر بآكلها والغلظة والقسوة بالحيوان او اشراك المسلم غير ربه في افعاله وتعظيم سواه في اعماله وقد ارشدت الى ذلك الآية الكريمة «حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ [٢٣] لغير الله به والمنخنقة [٢٤] والموقوذة [٢٥] والمتردية [٢٦] والنطيحة [٢٧] وما أكل السبع [٢٨] الاّ ما ذكيتم [٢٩] وما ذبح على النصب [٣٠] وان تستقسموا بالازلام [٣١] ذلكم فسق [٣٢]» . وقد راعى الشارع الحكيم في تحريم ما ذكر المصالح والحكم التي تترتب على تركها والاضرار التي تتولد من فعلها وان السر في كل منها جلي واضح . اما الميتة فالضرر في اكلها يؤيده الطب وترشد اليه التجربة فأن الحيوان المريض اذا مات يكون مليئاً بالجراثيم والادواء التي كانت السبب في هلاكه فاذا اكل منهُ الانسان أُصيب بأمراض قتالة . وكثيراً ما رأينا وسمعنا عن حوادث في الريف والقرى ذبح فيها ناس حيواناً مريضاً واكلوه فمرضوا وماتوا من ادوائهم او اسعفوا بالعلاج حتى شفوا بعد امد طويل . ولهذا السبب عينه حرّم الدم المسفوح شرباً واكلاً من قبل . ان كثيراً من الحيوان حتى الصحيح منهُ قد يكون في دمه بعض جراثيم قتالة ولأمر ما طلب الينا الطب الاّ نشرب اللبن الاّ بعد غليه خوفاً من وجود جراثيم ضارة في الحيوان الذي حلب لبنه . وانا لنجتزىء بهذا وندع القول لحضرات الاطباء ليقولوا كلمتهم ويدلوا برأيهم الشافي في تلك المسألة الطبية . كذلك يقول الطب ان في الخنازير ديداناً وجراثيم لا تموت بالغلي المعتاد بل تبقى حية بعد ذلك . ومن المعروف ان العرب وغيرهم من سكان البلاد الحارة يأكلون اللحم شيئاً على النار أو على الرضف [٣٣] تحت اشعة الشمس وبهذه الوسيلة الهينة في الانضاج لا تقتل الجراثيم وكذلك المنخنقة تبقى دماؤها فيها متجمدة في عروقها وكثيراً ما تكون ملأى بالجراثيم والامراض ومثلها الموقوذة فان دماءها تبقى مكتنزة في عروقها وربما كانت حافلة بشتى الجراثيم وأصناف الادواء وكذلك المتردية والنطيحة فكل اولئك تبقى دماؤها فيها ولا تخرج من اجسادها وقد عرفت ما في ذلك من اخطار وكذلك ما اكل منه السبع والمراد به الحيوان الضاري كالذئب والضبع والثعلب ونحوها اذ ربما تكون مصابة ببعض الامراض فالاكل من فضلاتها يؤذي ويولد في الجسم امراضاً من

(٢١) مجرى الطعام (٢٢) مجرى الدم (٢٣) رفع الصوت لغير الله (٢٤) التي تموت بالخنق (٢٥) ما ضربت بخشب او بحجر (٢٦) التي تردت من علو (٢٧) التي نطحتها أخرى فماتت (٢٨) الحيوان الضاري (٢٩) ذبحتم (٣٠) حجارة عند الكعبة معدة للذبح عليها والتشريح (٣١) جمع زلم وهو القدح والاستفهام بها طلب معرفة ما لهم قسم بوساطتها (٣٢) خروج عن حدود الدين وقواعده (٣٣) الحجارة المحماة

جنس ما في ذلكم السبع الآكل الا اذا ادركنا الحيوان المأكول وفيه بقية من الحياة بها يضطرب عند الذبح ويخرج منه بعض الدم وعندئذ تخف اضراره بقدر المستطاع . اما اذا ذبح على النصب ففي ذبحه على تلك الشاكلة اشراك من المسلم لغير ربه في اعماله وفيه كفران بنعمة الله وتعظيم للأصنام والاوثان ورجوع الى الجاهلية وكذلك ما استقسم بالأزلام فقد كان من عادتهم انهم اذا قصدوا عملاً كغزو او سفر او تجارة او أمر من عظائم الامور ضربوا بثلاثة أقداح مكتوب على احداها امرني ربي . ومكتوب على الثاني نهاني ربي . والثالث غفل [٣٤] فان خرج الآمر مضوا في أعمالهم وان خرج الناهي اجتنبوا العمل وان خرج الغفل أجالوها [٣٥] مرة أخرى . وفي هذا فسق وخروج على الدين ودخول في معرفة علم الغيب وافتراء على الله بقولهم أمرني ونهاني او اشراك بالله ان أريد بالآمر الصنم

فقد اتضح لك مما سلف ان بعضاً من تلك المحرمات انما حرم خوف الضرر وبعضاً حرم لما فيه من الشرك بالله والرجوع الى نزعات الجاهلية والوثنية . وقصار القول ان محمد بن عبد الله وضع منذ نيف وثلاثة عشر قرناً قوانين للرفق بالحيوان وألف موادها كاحدث القوانين لتلك الجماعات واذا نحن استخلصنا ذلك من بطون الشريعة ونصوصها يمكن ان نضعها كما يلي : —

١ — تؤسس الشريعة الاسلامية قانوناً للرفق بالحيوان للمسلمين كافة أسودهم وأحمرهم على اختلاف اقليمهم وبلدانهم

٢ — على كل مسلم ان يرفق بالحيوان ويساعده في مطعمه ومشربه في صحته ومرضه فلا يحمله فوق طاقته ولا يضربه ضرباً مبرحاً ويداويه اذا مرض بجميع وسائل العلاج حتى يبرأ

٣ — على كل مسلم ان يرفق بالحيوان عند ذبحه فيذبحه بسلاح ماض بتار حتى تزهق روحه بسرعة ولا يطول تعذيبه

٤ — من رفق بالحيوان حيًّا كان او ميتاً كان له الاجر الجزيل على عمله والثواب العظيم عند ربه فيدخله فردوس جنانه

٥ — من آذى حيواناً بضربه ضرباً مبرحاً او حمله ما لا يطيق او حبس عنه الطعام كان عقابه عند ربه ناراً سعيراً وعذاباً أليماً

٦ — على كل مسلم حراسة هذا القانون وتنفيذه في خاصة نفسه ونصيحة غيره من المسلمين بتنفيذه وله عند ربه كفاء ذلك أجر المسلم العامل وهو رضوان ربه ورضوان من الله اكبر وذلك هو الفوز العظيم

---

(٣٤) لا كتابة عليه (٣٥) حركوها

كتابان من مصر

يرجع تاريخهما الى القرون الوسطى

مخطوطتان ثمينتان

احداهما في استنبول والاخرى في رومة

من ذا الذي كان يخطر بباله أن الامام الغزالي حجة الاسلام والفيلسوف الشهير الذي توفي سنة ١١١١ ميلادية (٥٠٥ هجرية)، سيلقي نوراً أمام علماء النصرانية في القرن العشرين على تاريخ الترجمة العربية للكتاب المقدس!

على ان هذا هو الذي وقع فعلاً. ففي المكتبة التركية تحت قبة أيا صوفيا في استنبول، يرى الناظر مقالتين مخطوطتين احتوتا بعض آثار الامام العلامة الغزالي التي لم تنشر بعد: احداهما بعنوان «الرد الجميل لالهيات عيسى بصريح الانجيل». ومن الغريب حقاً أن يبقى هذا الاثر لعالم من اجل العلماء، ثماني مائة سنة دون ان ينشر على الملأ! على أننا قد علمنا مع السرور أن طبعة منه قد أعدت الآن للنشر في باريس في سلسلة نفيسة للدراسات العليا بجامعة السوربون.

ومع شكرنا لجامعة السوربون هذه الخدمة الجليلة للادب العربي، كنا نود ان يصدر هذا الكتاب عن القاهرة، حيث كتبت هذه المخطوطة — المحفوظة الآن في استنبول — في سنة ١٢٧٣ ميلادية (٦٦٧ هجرية). وذلك لان هذه المخطوطة لم تكتب في القاهرة فقط، بل هي تتصل اتصالاً وثيقاً بزيارة الامام لمدينة الاسكندرية، كما سترى، ومن هنا شأنها الخاص لدى العلماء المصريين، من نصارى ومسلمين. ولقد رأى العلماء والباحثون، في تاريخ الكتاب المقدس باللغة العربية، انفسهم امام لغز يستوقف العناية حقاً. فان الامام الغزالي رضي الله عنه اقتبس في كتابه «احياء علوم الدين» اقوالاً كثيرة منسوبة الى عيسى بن مريم. وهذه قد جمعها ونشرها المستشرق الأندلسي العظيم «أسين بلثيوس Asin Palacios»، وقد ثبت أنها جميعاً، ما عدا قولين منها، ليست من الانجيل، وهي شديدة النزعة التعبدية التصوفية، ولعلها مستقاة من بعض النساك في بلدان الشرق الادنى. ولم يعثر العلماء حتى اليوم على الكتاب أو الكتب التي نقل عنها الامام هذه الاقوال، ولكنه يبدو في جلاء ان الكتاب الذي نقل عنه لم يكن العهد الجديد.

والآن نجيء الى مثار الدهشة. فان السيد ماسينيون، الاستاذ بكلية فرنسا «كوليج ده فرانس» كان اول من وجه الانظار الى ان مقالة الغزالي الخطية المحفوظة في استنبول حافلة

مقتبسات مأخوذة عن الترجمة العربية للانجيل ، ولن يمكن ان يقتبسها الكاتب الاّ اذا كانت أمامه نسخة من هذه الترجمة . فما مصدر هذه المعرفة الجديدة لاقوال السيد المسيح ؟ وكيف ومتى اطلع إمامنا العلاّمة على الانجيل الكريم ؟ يذهب الاستاذ «ماسينيون» الى ان هذه المعرفة الجديدة قد تهيأت للامام العلاّمة في غضون زيارته للاسكندرية بعد اعتزاله في بيت المقدس حوالي سنة ١١٠١ م (٤٩٥ هجرية) ومما يؤيد هذا الرأي ان الغزالي اقتبس عبارة من الانجيل القبطي في اللهجة « البحيرية » ومن المستبعد جدًّا ان يتهيأ لهُ هذا في غير مصر

ورغبةً في استقصاء هذا البحث الشائق كان من المتعين ان أتابع البحث والدرس في مقتبسات الغزالي المنقولة عن الانجيل لعلي أتبين الترجمة التي أخذت عنها . ذلك لان ترجمات الانجيل الى اللغة العربية جرت في بلدان شتى نقلاً عن النسخ اليونانية والسريانية والقبطية . وفي لغة خصيبة بالالفاظ كاللغة العربية ، كان طبيعيًّا ان تتفاوت هذه الترجمات في اللفظ ، وان اتفقت كلها في المعنى

وقد أتيحت الفرصة لكاتبة هذه السطور لدرس مخطوطة الغزالي المحفوظة في مكتبة استانبول ، رغبةً في العثور على حل لهذا اللغز والوقوف على مصدر مقتبسات الانجيل فيها

توفى الامام الغزالي سنة ١١١١م فلا بد ان يكون قد اقتبس عن ترجمة قبل هذا التاريخ . والمعلوم لدينا ان ترجمات الانجيل الاولى الى العربية قد نقلت عن اليونانية او السريانية ، فراحت الكاتبة تقابل مقتبسات الغزالي بنماذج من الترجمات الاولى المدخرة مخطوطاتها في مكاتب رومية وغيرها من الجامعات الاوربية المختلفة او في دير جبل سيناء . ولكن واحدة منها لم تتفق مع الفاظ الغزالي لا في الترجمات المنقولة عن اليونانية ولا في الترجمات المأخوذة عن السريانية

أفلا يكون الامام قد اقتبس عن ترجمة عربية منقولة عن اللغة القبطية ؟ ان في اثبات هذا الرأي لذة وفائدة ، وذلك لانهُ يجيء لنا الدليل على ان الامام الغزالي صنف كتابه في مصر ، ثم يلقي نوراً على تاريخ ترجمة الكتاب المقدس في هذه البلاد . وان استطعنا العثور على الترجمة العربية المنقولة عن القبطية ، التي تتفق في الفاظها مع مقتبسات الغزالي (وهو اقتبس خمساً وستين آية من الانجيل وحده) ، فبديهي ان تكون هذه الترجمة قد تمت قبل سنة ١١١١م وهي السنة التي توفى فيها الامام . نقول ان استطعنا هذا ، كان لنا بمنزلة فتح جديد في التاريخ . فان اقدم المخطوطات العربية المنقولة عن القبطية ، المعروفة لنا ، يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر . ويكون فيلسوفنا المسلم قد أضاف الى تاريخ ترجمة الكتاب المقدس حقيقة تاريخية هامة . ومن محاسن الصدف ان أدت بنا خاتمة البحث والاستقصاء الى العثور على هذه المخطوطة القديمة واثبات هذا الرأي الذي نذهب اليه ، فقد عثرنا في مكتبة الفاتيكان على مخطوطة من الانجيل الكريم بعامودين احدهما باللغة القبطية والآخر باللغة العربية وهذه المخطوطة هي الترجمة عينها التي اقتبس عنها الامام الغزالي اقواله

اذن يكون الامام الغزالي قد استقى معرفته بأقوال الانجيل من اقباط مصر . والمخطوطة

التي تحتوي هذه الآيات هي النسخة القبطية العربية المحفوظة في مكتبة الفاتيكان ، التي كتبت حوالي سنة ١٢٠٤ أو ١٢٠٥ ميلادية ، اي بعد انقضاء قرن من الزمن على التاريخ الذي اقتبس فيه الغزالي من هذه النسخة عينها . أفتكون هناك نسخة خطية اخرى مماثلة لها كتبت قبل هذا التاريخ ونقلت هذه عنها ؟ ان تاريخ المخطوطة الفاتيكانية التي نحن بصددها يهيء لنا الجواب على ذلك لانها تلمّح الى الخطر الذي كان يهدّد نسخ الانجيل في تلك الايام العاصفة

وانك لترى في هذه المخطوطة حاشيتين كتبتا في تاريخ متأخر بعد كتابة نصوصها . الاولى كتبت في كنيسة أبي سيفين التي ما زالت قائمة بمصر القديمة وفيها يسجل غبطة البطريرك القبطي غبريال ان المخطوطة مهداة لتكون وقفاً على دير القديس انطونيوس ، في صحراء العرب . ويأمر غبطة البطريرك الآباء والاخوة النازلين في الدير ان يذكروا الواهب في صلواتهم (وقد كان طبيباً ، هو الشيخ والشماس ميخائيل). ثم ينهي البطريرك بتاتاً اخذ الكتاب من كنيسة الدير . فيقول « إنهُ ليس كسائر الكتب » التي يجوز حملها الى البرج او إخفاؤها (ولعله يقصد بهذا الاغلاق عليها في « خزانة ») بل يجب ان يكون دائماً في الكنيسة مع الكتب الاخرى المعدة للعبادة في أيام الآحاد والاعياد ، يقرأونهُ صباحاً ومساءً . فان أراد أحد الرهبان ان يأخذهُ بصفة مؤقتة الى خلوتهِ للدرس او البحث ، فله أن يفعل ذلك على ان يعيده الى الكنيسة

ويخيل الينا ان تلك المخطوطة كانت تعد ثمينة جدًّا ، وان الرهبان قد حرصوا عليها كل الحرص في كنيستهم وراء اسوار موطنهم الصحراوي ، الذي كان اشبه بقلعة ضد غارات اعراب البادية

ولكن الحاشية الثانية تبين انه حتى في تلك القلعة لم يكن الكتاب الثمين بمأمن . فان هذه الحاشية قد اضيفت على الكتاب الاصلي بعد قرنين ونصف من تاريخ الحاشية الاولى (في سنة ١٥٠٦م) بيد البطريرك القبطي في ذلك الزمن — واسمه الانبا يوحنا — ويسجل فيها حل قيود الوقف التي خصَّت الكتاب بكنيسة القديس انطونيوس ، وذلك لان الدير «كان قد خلا من ساكنيه » وكان أهل البادية قد نهبوه وحملوا بين اسلابهم مخطوطة الانجيل . ولكن اعيدت المخطوطة فيما بعد ، ولم يقل البطريرك في مذكرته ان كانت المخطوطة قد اعيدت في غارة مضادة قام بها بعض الانصار على العرب ، ام ان الناهبين اعادوها من تلقاء انفسهم لعدم حاجتهم اليها

كان هذا حظ المخطوطات القديمة في تعرضها للنهب والسلب . وانَّا لنشكر الله أن أبقى لنا على مخطوطتين من مصر ، يرجع تاريخهما إلى القرن الثالث عشر ، إحداهما محفوظة في استنبول مع مقالة للإمام الغزالي والاخرى محفوظة في رومية مع المخطوطة السابقة لها وانا لواجدون في تينك المخطوطتين الثمينتين شعاعاً من النور يسطع على البحث القديم الذي يجد علماء النصرانية والاسلام لإزاحة الحجب عنهُ ، لما فيهِ من لذة وفائدة تاريخية « بنت الحارث »



مدام كوري

Mme Curie. A Biography, by Eve Curie



مختصر الكتاب الذي ألفته

ايف كوري

كريمة صاحبة الترجمة

نقلته عن مجلة « ريدرز ديجست » : الآنسة مينرفا عبيد

« لو أضفت أقل زخرفة الى قصة والدتي هذه ، التي تشبه الاساطير أتم الشبه ، لكان ذلك اجراماً مني » . هذا ما كتبته ايف كوري في مقدمة كتابها . ثم استطردت قائلة : « اني لم أذكر أي حادث لم أكن مستوثقة منه ، بل لم أخترع من عندي ولا لون فستان . فقد ذكرت الوقائع على حقيقتها وأعدت العبارات المقتبسة كما قيلت »

« واني لارجو ان يشعر القارىء بما كانت تكنه ماري ، وهو يشأو عملها ، ألا وهو بناء خلقها المتين ، تلك الصفة النفسية التي لم يتمكن من تغيير طهارتها الفذة ، لا الصيت الذائع ولا المعارضة اللاذعة . تلك الصفة التي حملت اينشتين على القول : « ان ماري كوري هي الشخص الوحيد ، بين جميع المشهورين ، الذي لم تفسده شهرته »

مدام كوري

بقلم ايف كوري

قصة حياة فذة

في خريف سنة ١٨٩١ انتظمت فتاة من المهاجرين البولنديين تدعى ماري سكلودفسكا في قسم دراسات العلوم بجامعة السوربون بباريس . وكثيراً ما قابل الشبان هذه الفتاة الحيية العنود المرتدية ملابس تدل على الفقر والخشونة وتساءلوا فيما بينهم « من هي» . الاّ ان الجواب كان غامضاً : « هي أجنبية يصعب نطق اسمها ،تجلس دائماً في الصف الامامي في فصول علم الطبيعة». وكانوا يتبعون قوامها الرشيق بنظراتهم ، ويتهامسون « ما أجمل شعرها ! » . وقد ظلّ شعرها الاشقر ورأسها الصغير السلافي مدة طويلة كل ما يعرف بهِ طلبة السوربون ، زميلتهم الخجول

اما هي فكان اقل ما يسترعي التفاتها هؤلاء الشبان لان دراساتها العلمية استحوذت عليها فكانت تنكبّ على العمل بحرارة كحرارة المحموم ، حاسبة كل دقيقة لا تنفقها على التحصيل وقتاً ضائعاً

ولما لم يسمح لها حياؤها المتناهي بصداقة الفرنسيين لجأت الى الحي الذي سكنهُ مواطنوها وقدكان بذاته جزيرة بولندية مستقلة في وسط الحي اللاتيني بباريس وهناك عاشت عيشة بسيطة منعزلة جعلتها وقفاً على العمل . اما دخلها فكان عبارة عن اربعين «روبلاً » شهريًّا وكان يشمل ما اقتصدتهُ من عملها كمربية في بولندا وكذلك المبالغ اليسيرة التي ارسلها اليها والدها ، وكان معلم رياضة وطبيعة في بولندة . فمن هذا الراتب ، وهو ثلاثة فرنكات يوميًّا ،كانت توفي أجرة غرفتها وثمن اكلها ولبسها ونفقاتها بالجامعة

لم تشترك ماري عمداً في اي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية خارج برنامجها الدراسي حتى امتنعت عن مقابلة الاصدقاء . فعاشت عيشة تقشف سبارطية غريبة عن ميول البشر ، وصلت بها الى عدم الاعتراف بتأثرها بالبرد او الجوع . فكانت تهمل اشعال موقدها حتى لا تضطر الى شراء فحم كما كانت تكتب الارقام والمعادلات دون ان تلاحظ ان اصابعها متجمدة او ان كتفيها ترتعشان . بل لقد كانت الاسابيع تنقضي دون ان تأكل شيئاً غير الخبز والزبدة والشاي ،فاذا ما ارادت ان تنعم بوليمة اشترت بيضتين او قطعة من الشوكولاته او قليلاً من الفاكهة

ولكن سرعان ما اصيبت تلك الفتاة القوية التي تركت وارسو قبل اشهر قليلة بالانيميا ، فكثيراً ما كانت تشعر بالدوار حال قيامها من جانب طاولتها ثم لا تلبث ان تفقد وعيها قبل وصولها الى فراشها . فاذا ما استعادت رشدها وساءلت نفسها عما اصابها ظنّت انها مريضة فاحتقرت مرضها شأن كل شيء يعترض عملها . الاّ انه لم يخطر ببالها حينئذٍ ان مرضها الوحيد هو افتقارها الى التغذية

بيير كوري

كانت ماري قد حذفت الحب والزواج من برنامج حياتها فاذ استولى عليها حبها للعلم بقيت متمسكة تمسكاً شديداً باستقلالها حتى بلغت السادسة والعشرين

ثم ظهر في الميدان بيير كوري ، وهو عالم فرنسي نابغة وقف روحه وحياته على البحوث العلمية وبقي غير متزوج الى سن الخامسة والثلاثين . كان طويل القامة ، ذا يدين طويلتين عصبيتي الاصابع ، ولحية كثة ، ووجه يعبر عن الذكاء النادر الممتاز

تقابلا اولاً عام ١٨٩٤ في المعمل وسرعان ما قرَّب بينهما تبادل الشعور وتشابه الميول . فلقد وجد بيير كوري في الآنسة سكلودفسكا الصموت شخصية تبعث على الدهشة . ما اغرب الحديث الى فتاة ساحرة بلغة الاصطلاحات العلمية والتراكيب المعقدة ... بل وما احلاه !

تأمل بيير في شعر ماري الاشقر وجبينها العريض المقوس ويديها المتأثرتين بأحماض المعمل فحيره ظرفها الخالي من اي ادعاء . فحاول بلطف وحزم ان يفوز بصداقة تلك الفتاة . وطلب اليها السماح له بزيارتها . فاستقبلته في غرفتها بود ولكن بكل تحفظ . فانقبض قلب بيير مما رآه حوله من دلائل الفقر المدقع ولكنه قدر في الوقت نفسه الانسجام التام بين خلقها ومسكنها . ففي غرفتها الخالية من الاثاث تقريباً وفي ملابسها المتناهية في البساطة وملامحها الغيورة العنيدة ، ظهرت ماري اجمل منها في اي وقت آخر . فلم يخلبهُ فقط اخلاصها المتناهي لعملها بل وأيضاً شجاعتها ونبلها . فهذه الفتاة الرقيقة تحلت بأخلاق الرجل العظيم ومواهبه . وبعد اشهر قليلة طلب بيير كوري يد ماري ، فلم تقبل هذه الفتاة العنيدة فكرة الزواج الاّ بعد مضي عشرة اشهر لانها رأت ان الزواج من فرنسي وترك بلادها المحبوبة المظلومة خيانة شائنة

***

قضى بيير وماري الايام الاولى من حياتهما معاً في التجول في منطقة «ايل دي فرانس» على عجلتين اشتراها بنقود قدمت اليهما هدية عند زواجهما . فتغذيا بالخبز والجبن والفاكهة واستراحا في فنادق لا يعرفانها ، صادفتهما في الطريق . وهكذا نعما بالوحدة اياماً وليالي طويلة لم ينفقا اثناءها الاّ الطاقة التي تقتضيها العجلتان وقليلاً من الفرنكات بالفنادق القروية . اما

الشقة الصغيرة التي استوطناها اخيراً بشارع جلاسيير رقم ٢٤ فكانت مفتقرة الى جميع وسائل الراحة ، كما انهما رفضا قبول الاثاث الذي قدمه اليهما والد بيير لانهُ لم يكن لماري متسع من الوقت لتنظيفه . فلم تضم تلك الجدران العارية الاَّ بعض الكتب ومقعدين وطاولة من الخشب الابيض عليها رسائل في علم الطبيعة ومصباح يضاء بالغاز وباقة من الازهار . فلم يكن هناك بد لاجسر زائر من ان ينسحب عند ما يرى نفسه امام مقعدين لم يعدّ احدهما له

الاَّ ان ماري تقدمت تدريجيًّا في علم تدبير المنزل فاستنبطت بعض المأكولات التي لا تحتاج الى إعداد يذكر او التي يمكن تركها على النار مدة دون مراقبة حتى تنضج . فقبل خروجها الى عملها كانت تضبط حرارة الموقد ضبطاً علميًّا وتترك الطعام عليهِ لينضج ثم تعدو الى الدور الاسفل لمشاركة زوجها في المعمل وهناك بعد ربع ساعة تضبط حرارة النار المشتعلة وعليها مواد تختلف كل الاختلاف عن المواد التي تركتها في مطبخها

لم تختلف السنة الثانية من زواجهما عن السنة الاولى الاَّ بالنظر الى حالة ماري الصحية التي تأثرت بحملها . ومع ان مدام كوري كانت ترغب كثيراً في ان ترزق بطفل الاَّ انها تضجرت من مرضها وعجزها عن الوقوف في المعمل لمراقبة مغنطيسية الصلب

قد يظن البعض ان حالة ماري الصحية ألانت من حماسة بيير وحملتهُ على قضاء صيف هادىء معها . الاَّ ان الاثنين ، وكأنهما مجنونان في عدم تبصرهما ، قاما برحلة الى بريست على عجلتيهما في أثناء الشهر الثامن من شهور حملها ، فقطعا في رحلتهما مسافات بعيدة كالمعتاد . ولقد صرحت ماري بعد ذلك انها لم تشعر بتعبٍ ما كما تملَّك من بيير شعور غامض بأن زوجه خارقة للطبيعة فلا تخضع للقوانين البشرية . الاَّ انهُ سرعان ما اضطرت الزوجة ان تقطع رحلتها ، على الرغم عن شعورها بان في ذلك اذلالاً لها ، وعادت الى باريس حيث وضعت ابنتها الاولى ايرين ، تلك الطفلة الجميلة التي فازت بجائزة نوبل سنة ١٩٣٤ مع زوجها الاستاذ جوليو

لم يخطر ببال ماري موضوع الاختيار بين حياة البيت ومواصلة حياتها العلمية . فمع انها عنيت بأمور المنزل ، وشؤون كريمتها ، وإعداد الطعام ، الاَّ انها في الوقت نفسه واصلت عملها في معملها الحقير ، ذلك المعمل الذي توصلت فيهِ الى أعظم اكتشاف في العلم الحديث

اكتشاف الراديوم

في نهاية عام ١٨٩٧ اظهرت ميزانية اعمال ماري درجتين جامعيتين وزمالة ورسالة في مغنطيسية الفولاذ المسقى . وكان مرماها التالي هو نيل درجة الدكتوراه . وبينما كانت تفكر في موضوع تختص في بحثه استرعت نظرها نشرة حديثة للعالم الفرنسي هنري بيكرل . اما بيكرل فكان

قد اكتشف ان املاح الاورانيوم اطلقت اطلاقاً ذاتيًّا اشعة لم تعرف ماهيتها . فمركب الاورانيوم متى وضع على لوحة للتصوير الضوئي يحيط بها ورق اسود يترك أثراً على اللوحة بعد اختراق ذلك الورق . فكانت هذه المشاهدة الاولى لتلك الظاهرة التي اسمتها ماري بعد ذلك بالنشاط الاشعاعي Radio-activity . الاَّ ان طبيعة الاشعاع وأصله بقيا سرًّا غامضاً

اخذ آل كوري باكتشاف بيكرل وتساءلا عن مصدر الطاقة المنبعثة من مركبات الاورانيوم في هيئة اشعاع ففتح لهما هذا السؤال باباً واسعاً للبحث بل قفز بهما قفزة نحو مملكة مجهولة . الاَّ انهما واجها في الوقت نفسه صعوبة الفوز بمكان موافق للمضي في ابحاثهما فيه . وأخيراً اعطى لماري الحق بفضل مدير مدرسة الطبيعة التي كان بيير مدرّساً فيها ، في استعمال غرفة ارضية رطبة كانت تخزن فيها الماكنات المنبوذة

لم يكن المضي في البحث العلمي في هذا الجحر بالامر الهين . فالحالة الجوية فيه اضرّت بالآلات الحساسة الدقيقة كما اضرّت بصحة ماري . غير انها لم تعر هذا الامر اهتماماً ما فكلما شعرت ببرودة الجو انتقمت لنفسها منها بتدوين درجة البرد في جدولها !

وكلما زادت ماري تعمقاً في دراسة كنه اشعة الاورانيوم زادت اعتقاداً انها الاولى من نوعها . وبعد ان قامت بتلك المهمة الشاقة ، مهمة امتحان جميع الاجسام الكيمياوية وجدت ان مركباً من عنصر آخر هو عنصر الثوريوم اطلق اطلاقاً ذاتيًّا ايضاً اشعة تشبه الاشعة التي يطلقها الاورانيوم . هذا فضلاً عن ان النشاط الاشعاعي في كلتا الحالتين كان اقوى مما كان ينتظر متى روعي مقدار الاورانيوم او الثوريوم الذي في الجسم الذي اطلق ذلك الاشعاع

فما مصدر ذلك الاشعاع غير العادي ؟ لم يكن هناك الاَّ جواب واحد . لا بدَّ ان تحوي تلك المواد مقادير صغيرة من عنصر أقوى في نشاطهِ الاشعاعي من الاورانيوم والثوريوم . ولكن ما هو ذلك العنصر ؟ كانت ماري في اختباراتها قد امتحنت جميع العناصر المعروفة ولم تجد بينها ردًّا على سؤالها . فلا بدَّ للعالِم إذاً أن يجيب بتلك الجسارة الفذة : « إن تلك المواد تحوي عنصراً غير معروف للآن ، وهو يمتاز بهذا النشاط الاشعاعي العجيب »

عنصر جديد ! نظرية خلابة ! ولكن لا بدَّ من كشف القناع عن تلك المادة المجهولة حتى تتمكن ان تعلن وهي واثقة : « ها هي ذي »

وبعد أن تتبع بيير كوري باهتمام كبير تقدم زوجه السريع في تجاربها انضمَّ اليها لمساعدتها صادفاً عن بحوثهِ الخاصة . فتعاون الآن عقلان واربع أيدٍ في الكشف عن ذلك العنصر المجهول في تلك الغرفة الصغيرة الرطبة ، ثم دام هذا التعاون ثمانية أعوام كاملة ولم ينهه إلاَّ حادث أليم

بدأ بيير وماري بحثهما بقياس النشاط الاشعاعي لكل عنصر من العناصر الداخلة في مادة البتشبلند ،

وهو ركاز الاورانيوم فتوصلا الى أن هناك عنصرين لا عنصر واحد يتصف بالنشاط الاشعاعي، وفي شهر يوليو من عام ١٨٩٨ أعلنا اكتشاف أحد هذين العنصرين. وقد سمّتهُ ماري «بولونيوم» تيمناً باسم بلادها المحبوبة بولندة

وفي ديسمبر من عام ١٨٩٨ أعلن آل كوري اكتشاف العنصر الآخر الذي سمّياهُ «الراديوم» وهو يتميز بأن نشاطه الاشعاعي عظيم للغاية

العبقرية في سقيفة

لم تتفق الصفات الخاصة بالراديوم مع كثير من النظريات العلمية التي قبلها العلماء مدى مئات السنين . فلذلك كان موقف علماء الطبيعة نحو الاكتشاف الجديد موصوفاً بالتحفظ الشديد علاوة على أن علماء الكيمياء كانوا أكثر تحفظاً منهم لان الكيمياوي بطبيعته لا يسلّم بوجود عنصر جديد إلاَّ بعد أن يراه ويختبره ويمتحن تأثير الحوامض فيه ويقرر وزنه الذري

اما الراديوم فلم يره احد ولم يقرر وزنه الذري بعد . فلكي يبرهن آل كوري على وجود هذين العنصرين ، البولونيوم والراديوم ، تعين عليهما العمل المتواصل مدة اربع سنوات . ومع انهما كانا قد توصلا الى طريقة فصل المعادن بعضها عن بعض الاَّ ان مهمّتهما الجديدة اقتضت الاشتغال بمقادير وافرة من المواد الخام

كان ركاز الاورانيوم الذي يحوي عنصري البولونيوم والراديوم يعالج في مناجم سنت جواشمستال ببوهيميا لتستخرج منه املاح الاورانيوم المستعملة في عمل الزجاج. وقد كان هذا الركاز غالي الثمن ، الاّ ان آل كوري توصلا ببحثهما الى ان استخراج الاورانيوم منهُ يترك عنصري البولونيوم والراديوم كفضلات لا قيمة لها دون ان تتأثر البتة بهذه العملية . فلمَ لا يستخدمان هذه الفضلات التي لا قيمة لها ؟

تحصلا من الحكومة النمساوية على طن من فضلات ركاز الاورانيوم وبدآ عملهما في سقيفة مهجورة بجوار الغرفة التي اجرت فيها ماري تجاربها الاولى . اما هذه السقيفة الجديدة فكانت تستخدمها كلية الطب قديماً حجرة للتشريح الاَّ انها عادت لا تصلح حتى لحفظ الجثث . اذ كانت عارية من البلاط وخالية من الاثاث لولا بضع طاولات مطبخ قديمة وسبورة وموقد غاز قديم من الحديد الصب

كانت هذه السقيفة خانقة في الصيف مثل المستنبتات الحافظة للحرارة ، كما انها كانت في الشتاء مثل المنطقة الثلجية في بردها رغماً عن اشعال الموقد بها . الاَّ انهما لم يستعملاها كثيراً بل

أجريا أغلب تجاربهما في الخلاء لافتقارها الى المداخن الصارفة للغازات الخانقة

وقد كتبت مدام كوري بعد ذلك قائلة : « ان اسعد سني حياتنا وأفضلها هي تلك التي قضيناها في هذه السقيفة التعسة حيث وقفنا كل وقتنا على العمل . فكثيراً ما قضيت اياماً كاملة وأنا احرك بعض المواد ، وهي تغلي ، بمراوة من الحديد يقرب وزنها من وزني . فاذا ما اتى المساء شعرت اني منهوكة القوى تماماً »

وعلى هذا المنوال استمرَّ الاستاذ كوري وقرينته في عملهما من عام ١٨٩٨ الى عام ١٩٠٢ وقد كانت ماري وهي تعمل في صحن تلك الدار ، بملابسها الرثّة الملوثة بالاحماض ، وشعرها المنثور تداعبهُ الريح ، يحوطها الدخان الكثيف الخانق ، كانت ماري وحدها عبارة عن معمل كامل

وقد كتبت مرة تقول : «وصل بي الامر ان اشتغلت بمقدار من المواد يبلغ وزنه عشرين كيلو جراماً مما اضطرني الى ملء الحجرة بأوعية السوائل والرواسب . ولقد كان حمل تلك الاوعية وصب السوائل منها وتحريك المواد المغلاة ساعات طويلة ، عملاً مضنياً حقّـا »

وامتدت ايام العمل اشهراً وانعقدت الاشهر سنوات ، غير ان ذلك لم يثبط من همة بيير وماري وكانا أحياناً يتركان اجهزتهما مدى لحظات قليلة فينتقلان في حديثهما عن الراديوم المحبوب من البحث في ناحيته الفائقة الى التحدُّث في الامور الصبيانية المتعلقة به

ففي احد الايام سألت ماري بحماسة وتشوق تقربان من حماسة الطفل الموعود بلعبة جديدة : « يا ترى ما هو شكله ! وبأي هيئة تتصوره يا بيير؟ »

فأجاب العالم بلطف : « لا أدري ولكني اتمنى ان يكون لونه جميلاً » . واذ استمرت ماري في معالجة الطين من ركاز الاورانيوم الذي ارسل اليها من سنت جواشمستال امتلأت الطاولات القديمة في حجرتها بالمواد الحاوية لمقدار من الراديوم اوفر مما حصلت عليه قبلاً . وقد قاربت الدور النهائي ، دور تنقية السوائل ذات النشاط الاشعاعي القوي ، حين عاقها عن العمل افتقارها الى الاجهزة اللازمة والاستعداد الكافي . ففي هذه السقيفة المعرضة للرياح اختلطت ذرات الحديد والفحم الطائرة بالمواد المنقاة وهي المواد التي اقتضت تنقيتها عناءً كبيراً فانقبض قلب ماري من تلك الحوادث اليومية التافهة التي استنفدت كثيراً من وقتها ومجهودها

وهنت عزيمة بيير أمام هذه العقبات المستمرة وفكر في اعتزال العمل لوقت ما لعلَّ الايام تهيء لهما أحوالاً اكثر موافقة للبحث العلمي

الاَّ انهُ في تفكيره هذا لم يحسب لاخلاق ماري حساباً . فلقد ارادت ماري فصل الراديوم عن المواد الاخرى وانها لفاعلة ذلك ، مستخفة بالمتاعب والمشاقّ غير آبهة لما يعوزها من المعارف لاتمام عملها ، تلك الصعوبة التي زادت مهمتها تعقيداً . فما لا يخفى انها كانت عالمة حديثة

العهد بالاساليب العلمية ولذا كثيراً ما صادفتها ظواهر طبيعية وعمليات حسابية لم تعرف عنها الاَّ القليل فاضطرت الى دراستها دراسة عاجلة حتى تتمكن من مجابهتها

وفي عام ١٩٠٢ بعد انقضاء خمسة واربعين شهراً على اليوم الذي اعلن فيهِ آل كوري فرض وجود عنصر الراديوم تمكنت ماري من احراز النصر بعزيمة واصرار يفوقان صفات البشر . ثم فلقد توصلت الى اعداد ديسجرام من الراديوم النقي كما تمكنت من تقرير وزنهِ الذري فما كان للكيمياويين مفر من ان يطأطئوا الرأس امام الوقائع ويعترفوا بوجود الراديوم

حياة شاقة

ومما يؤسف لهُ انهُ كان امام آل كوري نضال غير نضالهما مع الطبيعة في معملها . فلقد كان مرتب بيير بمدرسة علم الطبيعة خمسمائة فرنك شهريًّا فقط ولذلك اضطربت الميزانية البيتية حين اضطرا الى استخدام مربية بعد مولد أيرين فكان لا بد من البحث عن موارد اخرى

وفي سنة ١٨٩٨ خلا كرسي أستاذ الكيمياء الطبيعية بجامعة السوربون فقرر بيير ان يطلبهُ . فعلاوة على ان مرتبه كان عشرة آلاف فرنك كانت ساعات التدريس المخصصة لهُ أقل من ساعات التدريس بالمدرسة . إلاَّ أن طلبهُ رفض ، ولم يتمكن من الوصول الى مرتبة أستاذ إلاَّ في سنة ١٩٠٤ بعد ان اعترف العالم كله بمكانته العلمية العالية . أما حينئذٍ فقد اضطر الى قبول منصب أقل درجة من المنصب الشاغر بالسوربون ، حيث كانت الادارة راضية كل الرضى ان تعهد اليهِ بتعليم بعض العلوم ذات المقام الثانوي مما يستغرق كلَّ يومهِ . وفي الوقت نفسهِ حصلت ماري على منصب مدرسة في مدرسة للبنات بالقرب من فرساي

توصل الآن آل كوري الى موازنة ميزانيتهما إلاَّ أنهما أثقلا كاهلهما بالعمل المضني في الوقت الذي احتاجا فيهِ الى كل قواهما لمواصلة تجاربهما في النشاط الاشعاعي . فحاول اصدقاء بيير جهدهم أن يقربوه من ذلك المقام الذي يصعب الوصول اليهِ ألا وهو منصب أستاذ . فخطر لهم ان عضويته في أكاديمية العلوم لا بدَّ ان ترفع من شأنهِ ولذلك اقترحوا عليهِ أن يرشح نفسه لها في سنة ١٩٠٢ . تردد أولاً ثم سلَّم غير راض ، لانهُ كان يثقل على طبعهِ القيام بالزيارات المعتادة لاعضاء الاكاديمية ، والكلام عما أحرزه من شرف ، وما قام بهِ من جلائل الاعمال ، بل أنهُ وجد انهُ يتعذر عليهِ بتاتاً القيام بهذه المهمة . فنتج عن ذلك انهُ قام بالزيارات ولكنهُ امتدح منافسه المسيو أماجا . . . فاختار أعضاء الأكاديمية المسيو أماجا

بعد مدة قصيرة رفض بيير قبول وسام اللجيون دونور لانهُ ظهر لهُ أنهُ من بواعث السخرية أن يقدم الى عالم ، اوصدت أمامه أبواب العمل ، صليب مغشى بالميناء ومربوط بشريط أحمر من الحرير وذلك على « سبيل التشجيع »

ومضى آل كوري في التعليم بروح طيبة وبدون تذمر باذلين جهدهما في تأدية واجبهما . ولانهما كهما الشديد في عملها بين تعليم واجراء تجارب علمية نسيا حاجتهما الى الطعام والنوم، بل تماديا في حماقتهما هذه حتى اساءا الى نفسهما والى صحتهما . فكثيراً ما كان يضطر بيير الى الاسراع الى فراشه من جراء ألم شديد في رجليه. اما ماري فتمكنت بصلابة اعصابها من المقاومة، ومع ذلك فقد أفزع اصدقاءها شحوب وجهها وهزاله

وكذلك تقدم النشاط الاشعاعي ونما ، بينما كان يضني تدريجياً العالمين اللذين وهباه الحياة

قرار « لا قيمة له ! »

هذا الراديوم العجيب! عند ما حضّر كلوريداً ظهر مسحوقاً أبيض عادياً يشبه ملح الطعام تمام الشبه . الا ان خواصه مدهشة حقاً . فاشعاعه فاق في شدته غاية ما يمكن توقعه ، حتى كان اقوى من اشعاع الاورانيوم مليوني مرة فاخترقت أشعته أقسى المواد غير الشفافة ولم تحجبها الا ستارة كثيفة من الرصاص

أما أحدث أعاجيبه وأعمقها أثراً فهي التمكن من الاستعانة بالراديوم في محاربة السرطان . وهكذا ثبت ان الراديوم نافع اي ان اكتشافه لم يقتصر في خطورته على الناحية التجريبية فقط بل تعداها الى انشاء صناعة جديدة

عندما عرفت قيمة الراديوم الطبية نشطت حركة في مختلف البلدان ، ولاسيما في بلجيكا واميركا، لاستغلال الركاز الغني بالنشاط الاشعاعي ، ولكن العلماء لم يتمكنوا من استخراج هذا « المعدن العجيب » منهُ لجهلهم سرّ العمليات الدقيقة اللازمة لذلك

شرح بيير هذه المسألة لزوجه في صباح احد ايام الآحاد عقب قراءته رسالة وصلتهُ من بعض ارباب الصناعات بالولايات المتحدة الاميركية الذين يريدون استخراج الراديوم ويطلبون منهُ تزويدهم بالمعلومات اللازمة

فقال لها بيير : « أمامنا طريقان يمكننا الاختيار بينهما . فأما أن نشرح لهم نتيجة بحثنا دون تحفظ ، بما في ذلك عملية تنقية الراديوم . . . وإما »

وهنا أشارت ماري اشارة ميكانيكية تدل على الموافقة وتمتمت : « نعم . طبعاً . » . ثم مضى بيير في حديثه :

« وأما ان نعتبر أنفسنا مالكي الراديوم او بعبارة أخرى « مخترعيه » ونسجل طريقة معالجة ركاز البتشبلند فنحتفظ لانفسنا بامتياز صناعة الراديوم في كل العالم »

تأملت ماري بضع ثوان ثم قالت : « هذا مستحيل لانهُ يتعارض والروح العلمية »

فانفرجت أسارير وجه بيير . ولكن لكي يريح ضميره استطرد الحديث في الموضوع مكرراً

وهو يضحك ضحكاً لطيفاً مشيراً الى الامر الوحيد الذي عزّت عليه تضحيته: «ويمكننا حينئذٍ ان نمتلك معملاً كامل المعدات». أما نظرة ماري فلم تتغير لأنها ثبتت على رأيها وهي رفض الربح المادي

«إن علماء الطبيعة ينشرون دائماً بحوثهم كاملة. فاذا كان اكتشافنا له فائدة تجارية فهذا عارض يجب ألاَّ نستفيد منهُ وحيث أن الراديوم سيستخدم لمعالجة الامراض فيجب ألاَّ نستغله»

لم تحاول ان تقنع زوجها لانها وثقت بانهُ ذكر أمر ملكية الاكتشاف من سبيل الاحتياط فقط. فالكلمات التي فاهت بها بثقة تامة ما كانت الاَّ لتعبر عن شعورهما كليهما، عن رأيهما الصادق في مكان العالِم في الحياة. ثم اضاف بيير وكأنهُ يقرر أمراً لا قيمة له:

«سأكتب هذه الليلة الى الخبراء الاميركيين وأزودهم بالمعلومات التي طلبوها مني»

وبعد ربع ساعة من هذا الحديث القصير في صباح الاحد قام بيير وماري بنزهة على عجلتيهما في الغابات، بعد ان اختارا الى الابد بين الفقر والغنى. وفي المساء رجعا منهوكين وأذرعهما ملأى بأوراق الحقول وأزهارها!

الغرو

والآن بدأت مقدمة تلك القطعة الموسيقية الرائعة التي سرعان ما بلغت أوجها. ففي يونيو من سنة ١٩٠٣ دعا المعهد الملكي بلندن بيير لكي يحاضر به في موضوع الراديوم وتبع ذلك سيل من الدعوات لحضور الحفلات والولائم لان لندن بأسرها تاقت الى مشاهدة «والدي الراديوم»

تحمل آل كوري هذه الحفاوة مدة ايام قليلة بشيء من التململ ثم رجعا الى مسكنهما الصغير. ولكن الانكليز السكسونيين متصفون بالولاء لمن يعجبون به. ففي نوفمبر سنة ١٩٠٣ منحت الجمعية الملكية بلندن بيير وماري مدالية دافي وهي من أسمى أوسمتها

وكانت بلاد السويد التالية في تقدير فضلهما. ففي ١٠ دسمبر سنة ١٩٠٣ اعلنت اكاديمية العلوم بستوكهولم ان جائزة نوبل لعلم الكيمياء في تلك السنة قد قسمت مناصفة بين هنري بيكرل من ناحية ومدام كوري وزوجها من الناحية الاخرى لاكتشافهم النشاط الاشعاعي

كانت قيمة جائزة نوبل هذه سبعين ألفاً من الفرنكات ولم يكن قبولها «يتعارض والروح العلمية» فكانت فرصة عظيمة الآن لانقاذ بيير من ساعات التدريس الطويلة ورعاية صحته. وحالما قبضا تلك النقود أغدقا الهدايا والقروض على اخي بيير وأخت ماري، والهبات للجمعيات العلمية والعطايا لبعض الطلبة البولانديين ولاحدى صديقات ماري منذ طفولتها. كما ان ماري جهزت حماماً حديثاً في بيتها الصغير وأثثت غرفة بسيطة به. ولكن لم يخطر ببالها قط ان تحتفي بتلك الفرصة بشراء قبعة جديدة. كما انها استمرت في التعليم مع انها اصرّت على ان يعتزل بيير عمله بمدرسة الطبيعة

واذ ذاع صيتهما تكدّست طاولتهما بأكوام الرسائل البرقية، ونشرت عنهما آلاف

المقالات بالجرائد ووصلتهما مئات الطلبات للحصول على امضائهما او صورتهما ، وكثير من الخطابات من المخترعين ، والاشعار في مدح الراديوم . حتى وصل الامر بأحد الاميركيين ان طلب السماح له بتسمية فرساً للسباق باسم ماري . ولكن سوء تفاهم مستديم فصل بين آل كوري وبين الجمهور الذي اعارها التفاته الآن . فلقد وصلا الى لحظة مؤلمة جداً في حياتهما لانهما كانا بحاجة الى التفرغ للعمل ليتما رسالتهما التي لم تنته بعد ، حين لم يحسب الصيت اي حساب لذلك . لان الصيت يطغى على العظماء بحمله الثقيل ويحاول ان يعيق تقدمهم غير عابىء بالمستقبل الذي يجاهدون نحوه

فما انالتهُ جائزة نوبل للنشاط الاشعاعي من الصيت الذائع حمل الملايين على حساب هذا الاكتشاف الذي لم يتجاوز بعد دور الطفولة ضمن الانتصارات المحققة . بل ان الكثيرين شغلوا انفسهم بالتدخل في حياة هذين الزوجين الخاصة التي تقرب من الاساطير فسلبوها الكنز الوحيد الذي اعتزا بالاحتفاظ به ، ألا وهو التأمل والهدوء

ولقد علقت ماري على ذلك ، بما كتبتهُ في ربيع سنة ١٩٠٤ :

« . . . ضوضاء مستمرة . فالقوم يلهوننا عن عملنا ولذا اعتزمت على التسلّح بالشجاعة ورفض مقابلة الزائرين ولكنهم يصرون على ازعاجنا . لقد أفسد علينا الصيت حياة العمل الهادئة التي كنا نحياها » . ولقد تألمت ماري بنوع خاص من الدور الذي انتظرها العالم أن تمثلهُ لان طبيعتها لم تتفق وتلك المظاهر التي تقتضيها الشهرة من الاندماج في الحياة الاجتماعية ، والصداقة المتكلفة ، والقسوة في المعاملة أحياناً وادعاء التواضع أحياناً أخرى

فالحادثة التالية ، من آلاف الحوادث مثيلاتها ، تبين جلياً موقف آل كوري تجاه حماسة الجمهور نحوهما . فبينما كانا يتناولان الطعام مرة بقصر الاليزيه مع الرئيس لوبيه وقرينته سألت مدام لوبيه ماري قائلةً : « هل ترغبين في ان أقدمك الى ملك اليونان ؟ »

فأجابت ماري بكل بساطة وأدب واخلاص : « لا أرى جدوى من ذلك »

ولكنها لاحظت حينئذٍ دهشة السيدة التي تكلمها فامتقع وجهها وقالت مستدركةً كلامها :

« ولكن . . . ولكن . . . بالطبع أعمل ما يسرك . اي شيء يسرك »

وقد كان يجب على الصيت الذائع الذي أحل بآل كوري كثيراً من النكبات أن يأتيهما بشيء من البركات مثل مقام الاستاذية ، ومعمل لائق ، وفريق من العلماء للتعاون معهما . ولكن متى تحل هذه النعم يا ترى ؟

الاثنان معاً

لما حلت نهاية حمل ماري الثاني في سنة ١٩٠٤ كانت منهوكة القوى لطول المدة التي لازمت

فيها فراشها وهي في حالة تعب شديد وأخيراً في ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٤ ولدت طفلة سمينة يعلو رأسها شعر كثٌّ أسود وهي إيف [١] . ولكن سرعان ما عادت ماري الى عملها بالمدرسة والمعمل . حاول آل كوري كالمعتاد عدم الظهور كثيراً في المجتمعات ولكنهما لم يجدا بدًّا من حضور الحفلات الرسمية لتكريم العلماء الاجانب. في هذه الحفلات فقط كان بيير يلبس سترته الطويلة الرثَّة وماري فستان السهرة الوحيد الذي امتلكتهُ

فهذا الفستان الذي احتفظت بهِ ماري سنين طويلة ، مستعينة باحدى الخياطات من وقت لآخر على تغييره بعض الشيء ليوافق الزي المتبع ، كان من الحرير « الجرينادين » الاسود . ولا غرابة اذا كان موضع احتقار أية سيدة عادية ، أما ماري فقد أوجدت لنفسها بما اتصفت بهِ من الاتزان والتحفظ ، ضرباً خاصًّا ملائماً لملابسها . بل لقد ظهرت بمظهر فاخر حقًّا حين صففت شعرها الاشقر وعقصته فوق رأسها وتحلت بعقد لطيف من الذهب صياغتهُ في غاية الرقة كما كشف جسمها النحيف ووجهها البهيج عما بها من سحر وجمال

وفي احدى هذه الحفلات تمتم بيير قائلاً : « انهُ من المؤسف حقًّا عدم حضورنا الحفلات فملابس السهرة تناسبك جدًّا ولكن يعوزنا الوقت »

وتوصل بيير أخيراً في ٣ يوليو سنة ١٩٠٥ الى الانضمام الى الاكاديمية ولكن مع ذلك نال منافسه اثنين وعشرين صوتاً . وفي السنة نفسها أيضاً عينهُ السوربون في منصب أستاذ للطبيعة . فتحققت جميع آماله ما عدا الحصول على معمل وافر الاستعداد لبحوثهِ وبحوث زوجهِ

بقيت أمام ماري ثماني سنوات كاملة قبل تمكنها من وضع أجهزة النشاط الاشعاعي في معمل لائق بها ، ذلك المعمل الذي لم يسعد الحظ بيير برؤيته . فبقيت طول عمرها منغصة العيش متألمة ، لان زوجها حرم من تحقيق الامنية المفضلة على جميع أمانيهِ

في ١٤ ابريل من سنة ١٩٠٦ كتب بيير يقول : « اننا نعمل معاً أنا ومدام كوري لنقيس بالضبط مقدار الاشعاع الذي يطلقهُ . قد يبدو هذا أمراً هيناً ولكننا قضينا الشهور في بحوثنا والآن فقط بدأنا نصل الى نتائج حاسمة »

« اننا نعمل معاً انا ومدام كوري . . .

تلك الكلمات التي خطها بيير قبل موته بخمسة ايام فقط تعبر احسن تعبير عن ماهية اتحاد جميل قوي ، ما كانت لتنال منهُ الحوادث اي منال . فكل تقدم في العمل ، سواء أفوزاً كان ام اخفاقاً ، كان مدعاة لتعزيز تلك الرابطة القوية بين الزوجين وزيادتها متانة وقوة ، فبين هذين اللذين اللذين أعجب احدهما بالآخر اعجاباً كبيراً نشأت زمالة قوية كانت اسمى تعبير عن حبهما العميق

(١) مؤلفة هذه السيرة

وحيدة

حوالي منتصف الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس ١٩ ابريل سنة ١٩٠٦، في يوم قاتم ممطر، ودع بيير زملاءه اساتذة كلية العلوم بعد ان تغدّى معهم وخرج الى شارع دوفن وحاول عبوره دون ان يلتفت الى عربة نقل قادمة. فلما رآها وقف مذهولاً وحاول الامساك بصدر الجواد الذي يقودها، فتراجع الجواد الى الوراء. الاّ ان بيير تزحلق على الارض المبتلة ومرت عليه تلك العربة الضخمة المحملة بستة اطنان من البضاعة فسحقت جمجمته، رغم محاولة السائق ان يوقفها. فرفع رجال البوليس ذلك الجسم الدافئ الذي فارقته الحياة في اسرع من لمح البرق

الآن الساعة السادسة مساء، وماري، ملأى بالبهجة والحياة، واقفة بباب المنزل تستقبل بعض ضيوف وافدين ولكنها لاحظت في نظراتهم وسلوكهم عطفاً خاصًّا. فوقفت ماري جامدة، عديمة الحركة، بعد ان رووا عليها وقائع الحادث وبعد صمت طويل فاهت بهذه الكلمات: « أحقًّا ان بيير قد مات؟ مات؟ مات حقًّا!». ومنذ اللحظة التي سجل فيها عقلها تلك الكلمات الثلاث « بيير قد مات» غدت ماري امرأة حزينة، وحيدة، لا تعزى

وبكلمات قليلة طلبت نقل جثة بيير الى المنزل. ثم طلبت الى احدى صديقاتها ان تأخذ ايرين وايف الى بيتها، وبعثت رسالة برقية الى والدها بوارسو. وبعدئذٍ خرجت الى الحديقة وجلست صامتة، ساكنة، محدقة في غير وعي، ممسكة برأسها بين يديها تنتظر وصول زميلها

ادخلت النقالة ببطء من الباب الضيق الى غرفة بالدور الارضي بالمنزل، فبقيت ماري بعض الوقت وحدها مع زوجها وهي تقبله، وما زال جسمه ساخناً، بقيت هكذا الى ان اخرجت بالقوة من الغرفة حتى لا تشاهد الجثة عند وضعها في الاكفان. اطاعت دون التفات ولكن سرعان ما تنبهت انها بخروجها من الغرفة قد حرمت من تلك الدقائق القليلة الباقية فهرولت الى الداخل الى جانب جثة زوجها. وبعد موت بيير عرضت الحكومة رسميًّا على زوجه ان تمنحها هي وطفلتيها معاشاً فأبت ماري مجيبة بشجاعتها المعتادة: « لست بحاجة الى معاش. فاني صغيرة السن ويمكنني العمل لكسب عيشي انا وطفلتي »

وفي ١٣ مايو سنة ١٩٠٦ قرر مجلس كلية العلوم بالسوربون باجماع الاصوات اسناد منصب في التعليم العالي بفرنسا الى امرأة. وبعد ان اصغت ماري بدون اهتمام الى كلام حميها في ان الواجب عليها يقضي بقبول هذا المنصب لتتم رسالتها اجابت بهذه العبارة القصيرة: «سأحاول ذلك»

حل ميعاد محاضرتها الاولى بالسوربون فملأت الجماهير بهو المحاضرات وازدحمت بالدهليز وامتدت الاعناق في انتظار مدام كوري وبدأ القوم يتساءلون: ما تكون اولى كلماتها يا ترى؟ هل تبدأ بشكر وزير المعارف او الجامعة، او تذكر شيئاً عن بيير كوري؟ لا بد ان تذكر شيئاً

عنه فقد جرت العادة ان يبدأ الاستاذ الجديد محاضرته الاولى باطناب سلفه . . . وفي منتصف الساعة الثانية فتح الباب الخلفي وتقدمت ماري كوري الى المنصة في عاصفة من التصفيق . أحنت رأسها لتحيي الجمهور، ولكن حركتها كانت جامدة بعض الشيء. ثم بقيت واقفة حتى هدأت العاصفة

وهنا تطلعت ماري الى الامام وقالت : « متى فكر المرء في التقدم الذي توصل اليه علم الطبيعة في العشر السنوات الاخيرة ، أخذته الدهشة في مبلغ ما طرأ على أفكارنا من التغيير بشأن الكهربائية والمادة.... » . وهكذا واصلت مدام كوري، بهذه العبارة ، الكلام في نفس الموضوع الذي عالجهُ بيير كوري قبيل مصرعه ، فاغرورقت عيون الحاضرين وسالت الدموع على وجوههم. وبعد ان انتهت من محاضرتها خرجت بدون توقف بنفس السرعة التي دخلت بها والجمهور يهتف لها

انتصارات وتجارب

ذاع صيت مدام كوري ومنحت كثيراً من الدبلومات ودرجات الشرف من الأكاديميات الاجنبية . ومع ان أكاديمية العلوم أبت ان تشرفها بعضويتها — اذ أخفقت بالانتخاب بصوت واحد — الاّ ان السويد كافأتها بجائزة نوبل لعلم الكيمياء في سنة ١٩١١ ، وهذه هي المرة الوحيدة التي منحت جائزة نوبل مرتين لاي رجل او امرأة في العالم

بعد ذلك اشترك السوربون ومعهد باستير في انشاء معهد للراديوم ، يضم قسمين أحدهما معمل لابحاث النشاط الاشعاعي تحت ادارة مدام كوري ، والآخر معمل للابحاث البيولوجية ودراسة معالجة السرطان تحت ادارة طبيب مشهور . ورغماً عن معارضة آل ماري ، تبرعت الاخيرة للمعمل بجرام الراديوم الذي جهزتهُ هي وبيير بيديهما وكان يساوي أكثر من مليون فرنك ذهب . وقد بقي هذا المعمل محور حياتها الى النهاية

وفي أثناء الحرب خدمت ماري وطنها الثاني بكل تضحية واخلاص فاذ وجدت ان المستشفيات تعوزها الاشعة السينية التي يمكن بواسطتها معرفة موضع الرصاص بالمصابين ، قررت في الحال مهمتها، ألا وهي اعداد مراكز خاصة بالكشف بالاشعة السينية فجمعت أجهزة الاشعة التي تمكنت من الحصول عليها في المصانع ومعامل الجامعات ووزعتها على المستشفيات القريبة من باريس ، كما حشدت عدداً كبيراً من المتطوعين من الاساتذة والمهندسين والعلماء لكي يديروا تلك الآلات

والى جانب ذلك أعدّت ماري سيارة خاصة بنقل المصابين من الخطوط الامامية في الحرب الى المستشفيات وكانت تلك السيارة، المعدة بجهاز الرنتجن وبدينامو، الوحيدة المستعملة اثناء واقعة المرن

جاهدت ماري طويلاً حتى تمكنت من الحصول على عشرين سيارة لهذا الغرض جهزتها كسابقتها، فدعيت تلك السيارات « بالكوريات الصغيرة » . ولم تتأخر عن قيادة احداها بنفسها رغماً عما عانتهُ في سبيل ذلك من التعب

أضافت مفخرة اخرى الى تاريخ جهادها وذلك بان تمكنت من اعداد مائتي غرفة بأجهزة الراديوم، حتى بلغ عدد المصابين الذين عولجوا فيها ما يزيد عن المليون . امام كل ما لاقتهُ ماري من المتاعب والصعاب لم تظهر ادنى تململ أو كلل بل لم تعن بتأثير الاشعة السينية فيها او بتعرضها لخطر النيران حولها . ومما هو جديرٌ بالذكر انها لم تنل ازاء جميع خدماتها لفرنسا في اثناء الحرب اي تقدير رسمي ، ولكنها شعرت في الوقت نفسه انها قامت بالواجب على اكمل وجه

أميركا

في سنة ١٩٢٠ اكتتبت نساء اميركا بمبلغ مائة الف دولار لشراء جرام من الراديوم لاهدائه الى ماري كوري وطلبنَ منها مقابل ذلك زيارتهنّ فترددت ماري اولاً في اجابة طلبهنَّ ولكنها ازاء كرمهنَّ لم تجد بدًّا من التغلب على حيائها وانزوائها والتعرض لاول مرة في حياتها ، وذلك في سن الرابعة والخمسين ، لما تفرضهُ عليها رحلة رسمية عظيمة كتلك الرحلة

وهناك على ميناء نيويورك انتظرتها الجماهير الغفيرة مدة خمس ساعات كاملة فعبرت لها بذلك عن مبلغ اجلالها لها بل كان اخلاصها لها أقرب ما يكون الى شعور ديني عميق منهُ الى أي شيء آخر . والآن وقد وجدت ماري في وسط تلك الجماهير زاد الاميركيون تفانياً وتقديراً

لن أحاول في هذا المقام ان أعرّف روح أمة ، ولكني أقرر ان الحماسة المتناهية التي قابل بها الاميركيون ماري كوري لها مغزاها العميق . فان الشعوب اللاتينية مع اعترافها بعبقرية الاميركيين ونبوغهم تدّعي لنفسها الانفراد بتبجيل المثل العليا . ولكنهُ ثبت الآن ان الاميركيين ما ساروا في احتفائهم بماري هذا الاحتفاء العظيم الاّ وراء تلك المثل العليا التي يجلونها . فمن المعقول ان تثير سيدة كهذه بشخصيتها ومكتشفاتها شيئاً من حب الاستطلاع والتعجب ولكن ليس هذا كافياً لوصف ما أظهره الاميركيون من العطف والحب . فانهم ما كانوا حينئذ إلاّ محتفين بالنبل في الحياة ، النبل الممثل في احتقار الارباح المادية ، والتفاني في حب الحياة الفكرية الخالصة ، والرغبة الملحة في خدمة الغير . كانت الجامعات الاميركية جميعها قد دعت مدام كوري لزيارتها وأعدت لها المداليات والدرجات العلمية ولكن مدام كوري وقفت مذهولة حيثما أحاطها القوم بالاعجاب والتبجيل وشعرت بالخجل والحياء كلما تطلعت اليها الجماهير المتشوقة لرؤيتها ، بل ان خوفاً غريباً استولى عليها ألا وهو الخوف من ان تقع تحت أرجل الجماهير . وأخيراً ضعفت صحة ماري فلم تتمكن من اتمام رحلتها واضطرت الى الرجوع الى فرنسا نزولاً على ارادة أطبائها ، رجعت ماري منهوكة ولكنها مسرورة راضية لان حياءها وتواضعها ما كانا ليحجبا عنها الحقيقة وهي أنها قد أدخلت السرور على قلوب ملايين من الاميركيين

وإني اعتقد ان رحلة والدتي الى أميركا قد علمتها ان حياة العزلة التي تحياها تتناقض ومقامها

العالي . فمع ان مدام كوري الباحثة قد تمكنت قبلاً من العزلة عن العالم الاَّ ان مدام كوري في سن الخمسين لم تكن باحثة وعالمة فحسب بل ان مقامها الاجتماعي هيأ لها النجاح في رسالتها الى العالم فكان لا بدَّ لها ان تحمل تلك الرسالة

كانت الرحلات التي قامت بها ماري مشابهة لسابقتها اذ شملت حضور المؤتمرات العلمية والمحاضرات والاحتفالات الجامعية وزيارة المعامل فكانت حيثما حلت موضع التكريم والتبجيل

وفي ذلك الوقت جمعت وارسو مبلغاً من المال عن طريق الاكتتاب العام وأنشأت به معهداً للراديوم أسمتهُ « معهد ماري سكلودفسكا كوري » كما قامت النساء الاميركيات بالاعجوبة الثانية وهي تبرعهن بجرام آخر من الراديوم لمدام كوري . فأعاد التاريخ نفسه مرة اخرى اذ زارت ماري نيويورك في ١٩٢٩ ، كما زارتها في سنة ١٩٢١ ، لشكر النساء الاميركيات ولكن زيارتها كانت باسم بولندا هذه المرة . فحلت ضيفة على الرئيس هوفر في البيت الابيض

ومما يسترعي الانتباه ان مدام كوري لم تتغير عنها قبلاً فلم تتغلب على خوفها من الجماهير المحتشدة كما ان الشهرة لم تؤثر في اخلاقها . ويخيل إليَّ انها لم تتمكن من الوصول الى اي « اتفاق ودي » مع الصيت بل كان حليفها الاول والاخير هو المعمل حتى كتبت مرة تقول « اني أشك في لو كنت أتمكن من الحياة بدون المعمل » ولفهم هذه العبارة يتعين علينا فهم مدام كوري وتعرف نفسيتها فلقد كان يغمرها السرور والغبطة متى نجحت في اية تجربة تقوم بها حين كانت تنقض عليها صواعق الهم اذا ما أخفقت فيها

خاتمة الرسالة

استمرت ماري في عملها الى النهاية بنشاط فذٍّ وباهمال فريد ايضاً لراحتها وصحتها . فلم تحترس البتة من خطر الراديوم فتناولتهُ واشتغلت بهِ دون ان تتبع الاحتياطات التي نبهت طلبتها اليها وبعد جهد جهيد أذعنت لان تمتحن دمها في معهد الراديوم . فأظهر الكشف مادة غريبة بهِ. وما هي ؟ ... لقد قضت مدام كوري خمساً وثلاثين سنة وهي تعمل بالراديوم وتتنفس الهواء المشبع به كما تعرضت اثناء سني الحرب الاربع لاشعاع اخطر من الاول وهو اشعاع جهاز رنتجن ولكنها لم تحسب ما اصابها من ألم او حروق الاَّ شيئاً يسيراً في مقابل الاخطار التي تعرضت لها

لم تعر ماري اصابتها بالحمى أخيراً التفاتاً كبيراً ولكن في مايو سنة ١٩٣٤ لازمت الفراش لاصابتها بنزلة صدرية حادة . ولما توقف قلبها القوي أخيراً عن النبض أصدر العلم حكمه وهو ان ما أظهره دمها من العوارض الغريبة يرجع الى الراديوم، المجرم الحقيقي . وفي يوم الجمعة في السادس من شهر يوليو سنة ١٩٣٤ أودعت ماري مقرها الاخير بدون أي احتفال رسمي — تلبية لوصيتها — فدفنت بجانب زوجها بيير في مدفن « سو » بحضور أقاربها واصدقائها وزملائها

ايران

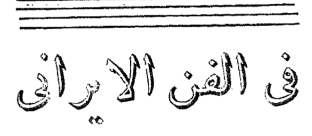
مفاخر فنونها

للدكتور زكى حسن

أمين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الاسلامية

نهضتها الحديثة





للدكتور زكي حسن

امين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الاسلامية

توطئة

لسنا نقصد ان نعرض في هذه السطور للفن الايراني بالدرس او الشرح المفصل ، ولكننا في هذه المناسبة السعيدة — التي تجمع بين الامتين اللتين كانت لهما الزعامة في ميدان الفنون الاسلامية — لا يسعنا الآن نذكر تراث الايرانيين في هذه الفنون ، وان نبين ما كان لطبيعتهم ولاستعدادهم الفطري من اثر في تكييف الفنون الاسلامية ، والسير بها الى العظمة التي بلغتها بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر بعد الميلاد

ولا غرو فقد كان لايران منذ العصور القديمة فن ازدهر في عصر الكيانيين ثم الساسانيين من بعدهم . كما ان الاسكندر المقدوني حين اراد ان ينشيء عاهلية تجمع بين الشرق والغرب اتجه نظره الى ايران ليجعلها مركز هذه العاهلية ، ولكن المنية عاجلته ، فلم يفز بتحقيق مطامعه . على انهُ نجح الى حدٍّ كبير في نشر الثقافة الاغريقية في الشرق الادنى . وكانت ايران وافغانستان ، فترة من الزمن ، ميداناً التقت فيه الاساليب الفنية الايرانية القديمة بالاساليب الفنية الاغريقية . وكان لهذه الفترة أثر ملموس في العلاقة بين الاساليب الفنية الايرانية والبيزنطية بعد ذلك ، بل ان أثرها كان ملموساً في مصر نفسها ، حين كانت تتبع رومة وبيزنطة في العصر الاغريقي الروماني ثم في العصر القبطي ، فكانت بيزنطة تنقل عن ايران الموضوعات الزخرفية ثم تهضمها وتستخدمها في منتجاتها الفنية التي تبعث بها الى الاقاليم التابعة لها على شواطيء البحر الابيض ، فتنقل هذه الاقاليم تلك الموضوعات الزخرفية ، كما يتجلى ذلك في زخارف كثير من قطع المنسوجات التي اكتشفت في صعيد مصر ، وكما يبدو في الرسوم المحفورة على بعض احجار العصر القبطي

ومما يستوقف النظر في تاريخ ايران ان سكانها كان لهم في جميع العصور ولعٌ شديد باتقان منتجاتهم الصناعية، وذوق لطيف في اعداد مساكنهم وحدائقهم وحاجياتهم، ومهارة فائقة في الفنون الجميلة . ولم تكن تمنعهم حروبهم الطويلة مع الروم في العصر الساساني من العناية بالفنون الجميلة فكانوا يشيدون العمائر وينتجون التحف الخزفية والمعدنية التي تشهد لهم بعلوّ الكعب كما كانوا يخلدون انتصاراتهم على الروم بنقوش محفورة في الصخور كنقش رستم وطاق بستان وغيرها . وقد كانت هذه النقوش آية في قوّة التعبير عن انتصار الايرانيين وانكسار الروم وذلتهم

ولما امتدّ الاسلام الى ايران لم يلبث هذا القطر العظيم ان تزعم العالم الاسلامي في العلم والفنون كما تزعمتهُ مصر في الاحداث السياسية . ويمكننا ان نقول في ثقة واطمئنان ان الطراز الايراني في الفنون الاسلامية ولا سيما في الفنون الفرعية منها ، هو أبدع الطرز الاسلامية على الاطلاق . فهو أكثرها تنوعاً ، وأعظمها في حسن الذوق ، ودقة الزخرفة ، وتناسق اللون وجمال النسب . حقًّا ان العمائر الاسلامية التي تزدان بها القاهرة من عصور الطولونيين والفاطميين والمماليك ثم عمائر الاندلس وعمائر مراكش ولاسيما في عصر بني مرين ، كل هذه قد تفوق العمائر الايرانية دقةً وجمالاً ، ولكننا لا نظن انها تمتاز عنها في الجلال والابهة . بينما منتجات الفنون الفرعية الايرانية من خزف وسجاد وصور ومنسوجات وغير ذلك هي التي لا يتسامى اليها الاَّ النادر من منتجات الامم الاسلامية الاخرى في هذا الميدان

التصوير

فالتصوير الاسلامي مثلاً لا تكاد الزعامة تنعقد فيه لغير الايرانيين ، بل انهم أساتذة الهنود والترك في هذا الميدان . وقد قامت في مراكش حركة حديثة على رأسها المصور محمد راسم ومثلها الأعلى هو الرجوع في التصوير الى الاساليب الفارسية

وقد أثبت علماء الآثار الاسلامية في العصر الحديث ان ازدهار التصوير الاسلامي في ايران دون غيرها من الاقطار الاسلامية ، ثم انتشاره منها الى تلك الاقطار على يد فنانين ايرانيين أو على يد تلاميذ لفنانين من ايران ، كل هذا راجع الى طبيعة الايرانيين أنفسهم ، والى التقاليد الفنية التي كانت لهم قبل الاسلام ، والى المهارة التي اكتسبوها في هذا الميدان فجعلتهم يتسامحون في شأن النحت والتصوير ولا يتأثر الفنانون بينهم بكره هذين الفنين في الاسلام ، ذلك الكره الذي ثبت في الامم الاسلامية السامية الاصل ، والذي كان سبباً في انصراف المسلمين عن تصوير المخلوقات الحية واقبالهم على الزخارف الهندسية والنباتية

ومهما يكن من شيءٍ فقد ارتقت صناعة التصوير في إيران وكان ميدانها في أول الامر توضيح

كتب التاريخ والقصص ودواوين الشعر بالصور الصغيرة ذات الالوان الزاهية الجميلة ، شرحاً لمحتوياتها ، او زينة لها . وقد امتازت العصور الثلاثة الكبرى في تاريخ ايران بثلاث مدارس كبرى في التصوير فاشتهر الطراز او المدرسة المغولية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، واشتهرت المدرسة التيمورية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، واشتهرت المدرسة الصفوية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. واما بعد منتصف القرن السادس عشر فقد تأثر المصورون الايرانيون ببعض الاساليب الفنية الغربية في التصوير ولا سيما بعد ان أرسل الشاه عباس الثاني (١٦٤٢ — ١٦٦٦) بعض البعثات العلمية لتلقي العلم والفن في ايطاليا وبعض البلدان الاوربية الاخرى

وتمتاز الصور الايرانية الاسلامية بألوانها الجميلة الذي يتغلب فيها الازرق والذهبي والاخضر والبنفسجي والاحمر ، كما تتميز ببعض اساليب اصطلاحية اتبعها المصورون، كاهمال الظل وكرسم الاشخاص في أوضاع معينة بغير الاهتمام بقوانين المنظور او بصدق تقليد الطبيعة . وليس في ذلك ما يؤخذ على الصور الفارسية ، لانهُ جزء من طبيعتها ، ولانها حين تقلد الصور الغربية تفقد ذاتيتها ويزول عنها جمالها وسحرها . فضلاً عن ان الفنانين المصريين القدماء والكلدانيين والاشوريين والهنود كانت لهم في ميادين الفن المختلفة أساليب اصطلاحية تميز فنونهم الوطنية . ويعرف المتصلون بالحركات الفنية في العصور الحديثة ان كثيرين من رجال الفن يعملون على التحرر من تقاليد الفن الاغريقي في صدق تمثيل الطبيعة ، ويودون ان ينسجوا على منوال غيره من الفنون في عدم التقيد بالطبيعة . ولا ريب في ان كثيرين من المصورين الغربيين في العصر الحديث يرجعون الى الشرق ولا سيما ايران — فيستلهمونهُ كثيراً من الموضوعات الزخرفية ويستمدون منهُ بعض الاساليب الفنية

وعلى كل حال فان أعاظم المصورين في الاسلام كانوا من الايرانيين او من تلاميذهم في الهند وتركيا — وحسبنا ان نشير هنا الى بهزاد وسلطان محمد وقاسم علي وميرك ومحمدي ومعين مصور وجمال نقاش اصفهاني ورضا عباسي وغيرهم ممن تحدثنا عنهم في كتابنا عن التصوير في الاسلام عند الفرس او ممن نرجو ان نعرض لهم في بحث قريب . وكانت منتجات هؤلاء الفنانين مختلفة النواحي ، ففي بعضها مناظر صيد او قتال عجيبة بأسلوبها القوي وبما فيها من روح وحركة ، بل ان بعضها صور افراد مشهورين تظهر فيها دقة لم يكن يستطيع الوصول اليها في ذلك الوقت الا مهرة المصورين في الشرق الاقصى . وفي كثير من الصور الايرانية دعابة ومجون وطرب غير ما نراه في تصوير حوادث الشاهنامة من قتال ومناظر شجاعة واقدام

وقد قام التصوير الاسلامي في الهند وفي تركيا على اكتاف الايرانيين في بادىء الامر ولكنهُ اتخذ في الهند طريقاً آخر متأثراً بالاساليب الفنية الوطنية في الهند نفسها ، حتى اصبح

البون شاسعاً يفطن اليهِ كل من له المام بسيط بالفنون الاسلامية . وقد ذاع صيت المصورين الايرانيين حتى كان السلاطين من العثمانيين ومن الهنود المغول يستدعونهم للعمل في بلاطهم وكان صغار المصورين في ايران والهند يكتبون على منتجاتهم اسماء مشهوري المصورين ، وذلك طمعاً في بيعها بأغلى الاثمان ، حتى ان بعض مصوري الهنود نسبوا منتجاتهم الى بهزاد كبير مصوري الفرس على الاطلاق اوالى ماني زعيم المانوية ، وقد عاش في القرن الثالث الميلادي واشتهر واتباعه بالمهارة في التصوير وباستخدام الصور في شرح عقائدهم الدينية وقد تسمى باسمه مصور صغير في بلاط الشاه عباس . وفي دار الكتب المصرية وفي المكتبة الاهلية بباريس مجموعتان من الصور الهندية في اولاها صور منسوبة الى بهزاد وماني وفي الثانية صور منسوبة الى بهزاد ولكن امثال هذه النسبة المغرضة سهل كشفه لمن لهم قسط بسيط من الدراية بتاريخ الفنون

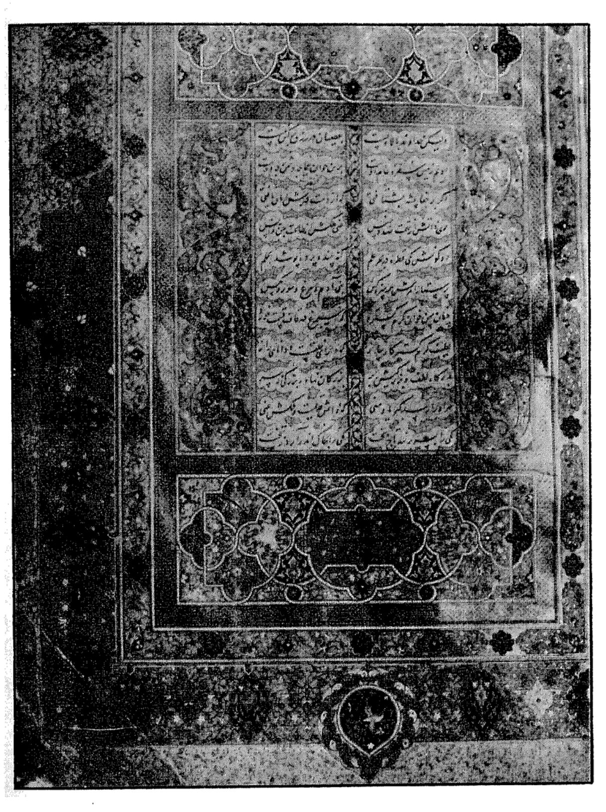
السجاد

على ان اكثر منتجات الفن الايراني انتشاراً في العالم انما هو السجاد . والظاهر ان شهرة ايران في هذا الميدان ترجع الى العصور القديمة فقد كانت تصدر السجاد الى الاغريق ثم الى البيزنطيين والغربيين في العصور الوسطى . ولعل السبب في ازدهار هذه الصناعة في ايران هو تشجيع الملوك والامراء ورجالات الدولة وانفاقهم الاموال الطائلة في انتاج احسن الفرش والابسطة وأفخرها مادة وحسن صناعة على يد كثيرين من العمال ، يشتغلون الشهور الطويلة في صنع سجاجيد تخرج آية في الفن ، لا يدري المرء بأي شيء يعجب فيها أ بعظمة الالوان وانسجامها ، ام بجمال الزخارف ودقتها، ام بمتانة الصناعة واتقانها . بل ان الملوك والامراء كثيراً ما كانوا يطلبون الى مشهوري المصورين والرسامين ان يقوموا باعداد الرسوم التي تزين بها السجاجيد الفاخرة . وفي الحق ان المصورين كان لهم في البلاط وفي الحياة الاجتماعية الايرانية نفوذ كبير بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، فلم يكونوا يقومون بتصوير المخطوطات فحسب بل كانوا يشرفون على شتى انواع الزخرفة : في العمائر ، وعلى المنتجات الخزفية ، والمنسوجات والسجاد . واكبر الظن ان أهم من اشتغل من المصورين بعمل زخارف السجاد هم بهزاد وسلطان محمد وسيد علي . وقد وصل الينا أسماء بعض من قاموا على نسج السجاجيد المشهورة ومن أهمهم غياث الدين جامي ومقصود القاشاني في النصف الاول من القرن الخامس عشر ومحمد أمين الكرماني ونعمت الله جوشغاني . واسماؤهم موجودة على سجاجيد محفوظة الآن في متحف ميلان ومتحف فكتوريا والبرت بلندن وفي ضريح الشاه عباس الثاني بمدينة قم

أما اهم المدن التي اشتهرت بصناعة السجاد في إيران فهي اصفهان وكرمان وقاشان وقم وتبريز وكرباغ وهمدان وشستر وهراة (في افغانستان) وطوس ويزد



صورة ضرب بالعصا (فلقة) من رسم المصور الايراني محمد قاسم في بداية
القرن السابع عشر



نموذج من الخط الفارسي والصحائف المذهبة في المخطوطات الايرانية

ويرجع جمال السجاد الايراني وشهرته الى ابداع ألوانه وتناسقها وحسن توزيعها ، والى متانة الصناعة والعناية بالصوف (حتى لقد كانت الغنم تربى خصيصاً ويعنى بنظافة صوفها لينسج منهُ السجاد) ، كما ان الحرير وخيوط الذهب والفضة كانت تدخل في صناعة السجاجيد المشهورة . ولا ننسى ان حجم السجادة كان يظهر ابداع الزخارف فيها ويساعد المصور او الرسام على اظهار مهارته

والسجاد الايراني على أنواع مختلفة ، ولكن أكثره يمثل غرام الايرانيين بالحدائق ، حتى نرى ان أهم انواعه يشبه الحديقة بما فيها من أزهار ونباتات . وقد كانت هناك أبسطة وسجاجيد تمثل زخارفها مناظر الصيد ، او القتال بين الحيوانات المختلفة ، غير ان ذلك كلهُ كان على أرضية مملوءة بالازهار والنباتات ، ولكنها ازهار ونباتات لم تكن دائماً تقليداً صادقاً للطبيعة ، بل كانت كما غلب عناصر الزخرفة النباتية في الفنون الاسلامية — مهذبة بعض الشيء . فالمعروف ان المسلمين لم يصوروا النبات او الانسان او الحيوان تصويراً صادقاً ، بل كانوا يتخذونها موضوعات زخرفية ، يكيفونها كيف شاءوا مراعين فيها التناظر والبساطة والانسجام ومن ثمَّ فقد كان يسودها في بعض الاحيان شيء من الجمود . ولعل الايرانيين هم اقل الامم الاسلامية اندفاعاً في هذا التيار ، فامتاز الطراز الايراني في الفنون الاسلامية بالزخارف النباتية ولاسيما الازهار وبالاسراف في رسوم الانسان والحيوان والطيور على المنتجات الفنية المختلفة ، وعني الايرانيون اكثر من سائر الامم الاسلامية بصدق تمثيل الطبيعة — الاَّ فيما كانت لهم فيه اصطلاحات واساليب موضوعة . وقد كان اتصالهم بفنون الشرق الاقصى منذ العصر المغولي دافعاً لهم على الدقة في رسم النباتات والازهار

ولا يجب ان ننسى ان صناعة السجاد في ايران لم تكن زاهرة بايران في العصر الصفوي فحسب ، بل ان ما نجده في كتب التاريخ من وصف بساط كسرى الذي غنمهُ العرب في المدائن لاكبر دليل على براعة الايرانيين في هذه الصناعة الجميلة منذ العصور القديمة . ومن المحتمل ان يكون اهل الحيرة قد نقلوا عنهم اسرار هذه الصناعة ، فالمعروف ان سجاجيد ذات زخارف حيوانية كانت تصنع في الحيرة قبيل الاسلام

وقد اختلف رجال الفنون في تقسيم السجاجيد الايرانية فبعضهم يقسمها باعتبار زخارفها الى سجاجيد ذات زخارف شجرية ، واخرى ذات زخارف تمثل مناظر الصيد والعراك ، وثالثة ذات زخارف من آنية ومشكاوات وازهار بينما يجتهد باحثون آخرون في تقسيمها تبعاً للبلاد الايرانية المصنوعة فيها ، ولكن الوصول الى هذا التقسيم الاخير ليس سهلاً ميسوراً ، لان المعلومات الصحيحة بهذا الشأن نادرة جدًّا ، فضلاً عن ان المصانع في البلاد الايرانية المختلفة كانت تقلد أي طراز ينال رواجاً كبيراً ولو كان موطنه في بلد آخر

وقصارى القول انه من الممكن تقسيم السجاجيد الايرانية الى انواع مختلفة بحسب زخارفها كما يمكن نسبة بعض هذه الانواع الى مصانع بعض المدن الايرانية المعروفة ، ولكن بعض المدن الاخرى لا يمكن ان تنسب اليها انواع بالذات ، كما ان بعض الانواع لا نستطيع نسبتها الى اي مدينة بالذات

المنسوجات

اما المنسوجات الايرانية فقد ذاعت شهرتها منذ عصر هيرودوتوس . وكان اهل روما يدفعون فيها الاثمان الباهظة ، ثم أقبل اهل بيزنطة على تقليدها . وبلغت صناعة النسج أوج عزها في العصر الساساني . وقد وصلت الينا بعض قطع من المنسوجات الحريرية الساسانية . والزخارف مكونة في اكثر هذه القطع من مجموعات دوائر او اشكال هندسية اخرى ، فيها رسوم حيوانات او طيور او فرسان في الصيد ، متقابلة او متدابرة ، في ترتيب هندسي جميل ، كما ان بين الحيوانات المتقابلة رسماً تخطيطيًّا مهذباً يمثل شجرة . والمعروف ان الصينيين كانوا يعجبون بهذه المنسوجات الحريرية الساسانية ، وان حكام الاقاليم الصينية الواقعة بين الصين وايران كانوا يقدمون من هذه المنسوجات جزية الى ملوك الصين . والحق ان الايرانيين في ذلك العصر البعيد وفقوا في الوان منسوجاتهم جد التوفيق فكان انسجام هذه الالوان وهدوؤها يبرزان عظمة الزخارف ويكسبان القطعة سحراً وجمالاً

ولما انتشر الاسلام في ايران ، وانقضى دور الزهد والتقشف الذي ساد العالم الاسلامي في نشأته ، واختلط العرب بغيرهم من الامم العريقة في المدنية تقدمت الصناعات والفنون . ولقيت صناعة النسج تشجيعاً خاصًّا في الاقاليم الاسلامية المختلفة ، لما سنهُ الخلفاء والامراء في مكافأة رجالات الدولة بالخلع الثمينة من نفيس المنسوجات الحريرية . على ان القطع الايرانية التي وصلت الينا من صدر الاسلام نادرة جدًّا ، ولعل السر في ذلك هو غزو المغول الذي قضى على الحرث والنسل . ومهما يكن من شيء فقد ظل الايرانيون نحو ثلاثة قرون في صدر الاسلام يتبعون الاساليب الساسانية في زخارف منسوجاتهم ثم كان القرن العاشر فطغت عليها الاساليب الاسلامية في زخرفة المنسوجات بأشرطة من رسوم الحيوانات او بزخارف خطية ونباتية . وكان الايرانيون فضلاً عن ذلك يستوردون من الشرق الاقصى الاقمشة الحريرية المزينة بالزهور والنباتات الدقيقة ، فكانت مدينة مرو تصدرها الى سائر الاقاليم الايرانية فيعمل الصناع على تقليدها في كثير من الاحيان . ومن أهم المدن الايرانية التي اشتهرت بمصانع النسج في العصر الاسلامي نيشابور وتبريز وسلطانية وهراة ويزد وشيراز وكرمان . ومن أبدع ما كانت تخرجهُ المصانع الايرانية الرايات والاعلام تزينها العبارات بالخط الكوفي الجميل . ثم كان عصر

السلاجقة في القرن الثاني عشر الميلادي عصر نهضة شاملة ورقي عام في صناعة النسج ، فتقدمت أساليب الصناعة ، وعمد النسّاجون الى الزخارف الساسانية القديمة يستمدون منها موضوعاتهم الزخرفية بعد ان يدخلوا فيها ما يناسب العصر وما يتفق وتأثرهم بدقة الصينيين في رسم النباتات والطيور والحيوانات . وقد عثر المنقبون في قبور مدينة الري على قطع من منسوجات هذا العصر تشهد ببراعة النسّاجين الايرانيين

وزاد تأثر المصانع الايرانية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالاساليب الصينية في زخرفة المنسوجات بسبب ازدياد الوارد من الاقمشة الصينية واتساع تجارة ايران مع الشرق الاقصى وغزوات المغول في ايران

***

أما في نهاية القرن الخامس عشر وفي القرن السادس عشر فقد كانت زخارف المنسوجات متأثرة كل التأثر بصور المخطوطات في ذلك العصر فكثيراً ما نرى عليها صور مجنون ليلى وصور بعض حوادث الشاهنامة او بعض الاساطير المشهورة في التاريخ الايراني وفي مؤلفات الشعراء والادباء الايرانيين . وكان لمدينتي هراة وتبريز قصب السبق في انتاج الديباج الذي تزينهُ هذه الزخارف . وهناك بضع قطع من هذا الديباج عليها امضاء صانعها « غياث » وهي محفوظة في ليون وباريس ولندن وفلورنسة

على ان أبدع ما أنتجهُ النسّاجون الايرانيون هي القطيفة (المخمل) التي امتازت بهدوء ألوانها وبرقّها المتناهية . وأهم المدن التي ذاع صيتها في نسج القطيفة هي قاشان

وزادت ثروة ايران في عصر الشاه عباس وزاد الاقبال على المنسوجات الفاخرة ، فزادت المنتجات زيادة أثرت قليلاً على جودة النوع وجمال الزخرفة ، اللهمَّ الاَّ فيما كان يصنع للبلاط ورجالات الدولة . وكان أهم أنواع الزخارف في ذلك العصر رسوم أشخاص ذوي قدود هيفاء وأوضاع فيها كثير من التكلف وفتيات او فتيان يكاد المرء يحسبهنَّ نساء . ونحو ذلك من طراز المصور رضا عباسي . والواقع ان تأثير هذا المصور وذيوع صور فتيانه وفتياته لم يكن في المخطوطات المصورة والمنسوجات فحسب ، بل كان في صور الجدران وفي زخارف القاشاني

ثم عاد الايرانيون الى الولع برسوم الازهار والنباتات فاتخذوها لزخرفة عدد كبير من منسوجات القرنين السابع عشر والثامن عشر ووفقوا فيها توفيقاً كبيراً وساعدهم على ذلك تجار البضائع الصينية الذين كانوا ينزلون مدينة أردبيل والخزفيون الصينيون الذين كانوا ينزلون شتى المدن الايرانية

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل بعض الانواع الجديدة من المنسوجات الايرانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر فحسبنا ان نشير الى منتجات اصفهان وكرمان وقزوين وشيراز ورشت

الخزف

وثمة ميدان آخر من ميادين الفنون الاسلامية كان للايرانيين فيهِ قدم السبق . ذلك هو الخزف . ولا غرو فقد توافرت في ارض ايران عجينة تصلح لصنع الاواني الخزفية ويسهل تشكيلها وتمتاز برقتها وقلة وزنها . وان صح لدى بعض الخبراء ان بلاد الاغريق من ناحية وبلاد الشرق الاقصى من ناحية أخرى قد بلغت في صناعة الخزف درجة من التقدم تفوقت بها على إيران فان بعض الهواة الآخرين يرون في خزف تلك البلاد جموداً ودقة وثقلاً لا يرونهُ في الخزف الايراني

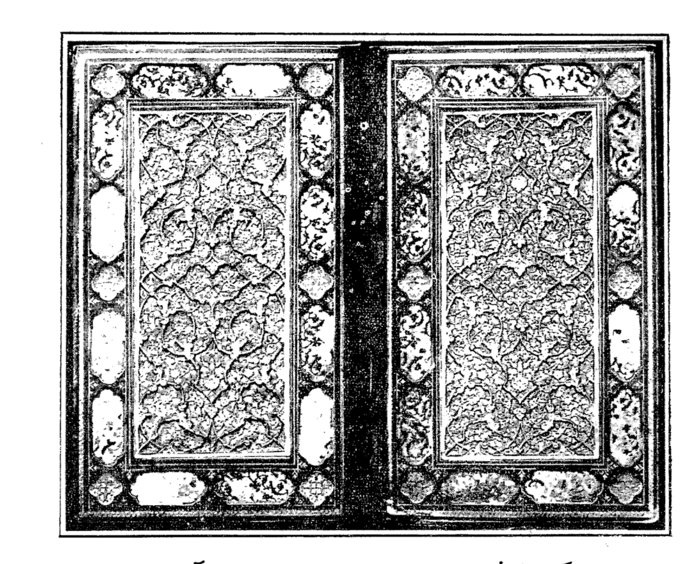
ومهما يكن من شيء فقد امتاز الخزف الايراني في العصر الاسلامي بجمال الاشكال، وتناسق النسب، وبريق الطبقة الزجاجية المغطية، وابداع الزخارف وتنوعها . وليس هذا بمستغرب فقد كان لايران تقاليد قديمة في هذه الصناعة منذ عصر قبل التاريخ كما يبدو من القطع الخزفية التي كشفت في نهاوند والتي تزينها زخارف هندسية جميلة. ثم كان عصر الكيانيين وصارت الجدران المصنوعة من الآجر تغطى — كما في قصور مدينة السوس — بطبقة من المينا، وتنبيء عن الخزف الذي قُدّر لجدران العمائر الايرانية ان تكسى بهِ في العصر الاسلامي . ثم جاء العصر الساساني الذي ازدهرت فيهِ صناعة الخزف كما ازدهرت الفنون الاخرى . ولما انتشر الاسلام في ايران ظلَّ الخزفيون يتطورون شيئاً فشيئاً حتى تركوا الاساليب الفنية الساسانية، وطبعت منتجاتهم بطابع يجمع بين العناصر الزخرفية الاسلامية وبين ما ورثوه من أساليب ايرانية

وأقدم أنواع الخزف الايراني في العصر الاسلامي هو النوع الذي يعرف باسم « جابرى » وهو اسم عبدة الشمس في ايران . ويظن انهُ من صناعتهم قبل ان ينتشر في كل انحائها الدين الاسلامي بعد الفتح العربي ببضعة قرون . والزخارف في هذا الضرب من الخزف تكون في الغالب من رسوم فرسان في الصيد وطيور اوحيوانات غير دقيقة الرسم، ولكنها محفورة حفراً عميقاً في الطبقة البيضاء الرقيقة التي تكسو السطح بحيث يصل هذا الحفر الى العجينة الحمراء المصنوع منها الاناء . وتعلو العجينة الحمراء والطبقة البيضاء التي تغطيها مادة زجاجية شفافة ذات لون أصفر او اخضر او اسمر قاتم

على ان بعض القطع الخزفية من هذا النوع قد وجد عليها كتابات بحروف كوفية تجعل من السهل نسبتها الى القرنين العاشر او الحادي عشر . فمن المحتمل ان يكون خزف «جابري» من منتجات ايران في الاربعة القرون الاولى بعد الاسلام، ولا سيما في زنجان وعامل والري . ولكن هذه المدينة الاخيرة التي دمرها المغول سنة ١٢٢٠ ميلادية كانت مركزاً عظيماً لصناعة شتى انواع الخزف حتى اننا لننسب اليها نماذج من صناعات خزفية لم توجد الاَّ في اطلالها . ومن

نجمة من القاشاني ذي البريق المعدني . وهي من صناعة قيرامين بايران في سنة ١٢٦٢ ميلادية ومحفوظة الآن بمتحف برلين

صورة صحن من الخزف الايراني المعروف باسم « خزف جابري » ترجع الى القرن الحادي عشر الميلادي ومحفوظة الآن بدار الآثار العربية



جلد كتاب ايراني من القرن السادس عشر من مقتنيات دار الآثار العربية

هذه النماذج بعض الاواني والاطباق ذات الصور الآدمية والصناعة الدقيقة التي ترجع الى القرنين الحادي عشر والثاني عشر وقد نجد في بعض هذه القطع صور البراق او صور بط واوز وطيور اخرى

ومما زاد الخزف الايراني جمالاً ذلك التجديد الذي وصل اليه المسلمون في هذه الصناعة وهو البريق المعدني lustre ، فكانوا يرسمون الزخارف على سطح لامع ثم يثبتونها بتعريضها للنار بطريق تكسبها بريقاً معدنيًّا يختلف لونه بين الاحمر النحاسي والاصفر الضارب الى الخضرة . ويظن بعض علماء الآثار ان هذه الصناعة نشأت في ايران كما يظن آخرون انها بدأت في العراق ويذهب فريق ثالث الى ان مهدها ارض مصر . ولكنها كانت على كل حال خير مخرج للمسلمين من صعوبة الانصراف عن الاواني الذهبية والفضية التي يكرهها رجال الدين لما تدل عليه من ترف واسراف

وكانت هذه الاواني الخزفية ذات البريق المعدني تصنع في كثير من المدن الايرانية ولا سيما في الري وتزينها زخارف متعددة الالوان تمثل بهرام جور وحبيبته في الصيد ، او تمثل السلطان جالساً على عرشه وحوله رجال ونساء من اتباعه ، او تمثل فرساناً في الصيد ، وما الى ذلك مما اعتدنا رؤيته على التحف الايرانية الاخرى ومما كان يزيده التذهيب في الخزف روعة وجمالاً

***

على ان صناعة الخزف ذي البريق المعدني استخدمت على يد الايرانيين في صناعة النجوم والتربيعات التي كانت تكسى بها الجدران ، والتي اصبحت ظاهرة من الظواهر المعمارية في ايران ثم في تركيا وسورية

وبعد ان دمر المغول مدينة الري اصبحت سلطاناباد مركز صناعة الخزف . وصارت تنتج في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ما كانت تنتجهُ الري قبلها ، كما احدثت انواعاً جديدة

ولكن صناعة الخزف لم تكن زاهرة في مدينتي الري وسلطاناباد فحسب ، بل ان مدناً اخرى ، كاصفهان وتبريز وهمدان وفيرامين ومشهد ، كانت لها مكانتها في هذا الميدان . كما ان سلطاناباد كانت تنتج في القرن الخامس عشر خزفاً طريفاً تغلب على زخارفه الفروع النباتية (الارابسك) ورسوم زهور اللوتس . وثمة نوع ينسب الى قرية كوباتشه بداغستان ولكن يظن انهُ كان يصنع على مقربة من تبريز

التحف المعدنية

اما صناعة التحف المعدنية في ايران فقد اتقنها الايرانيون قبل الاسلام . والواقع ان الاواني المعدنية الساسانية عليها مسحة من القوة والعظمة ، قلَّ ان توافرت في تحف معدنية اخرى . ويشهد بذلك ما وصل الينا من الصواني والاطباق الذهبية والفضية ذات الزخارف البارزة ، وما يحتفظ بهِ متحف الهرميتاج بالروسيا والقسم الاسلامي بمتاحف برلين من اباريق

برونزية جميلة ، يظن انها ترجع الى القرن السابع او الثامن بعد الميلاد ، ويغلب على زخارفها رسوم الحيوانات والطيور ومناظر الصيد .كما ان بعض المتاحف والهواة يحتفظون بتحف معدنية على شكل حيوان او طائر ، ويرجع بعضها الى صدر العصر الاسلامي ، كما يظن ان قطعاً منها ترجع الى العصر الساساني نفسه . ولعلَّ اشهر هذه المجموعة بطة في متحف الهرميتاج بالروسيا وببغاء في مجموعة اندجودجيان

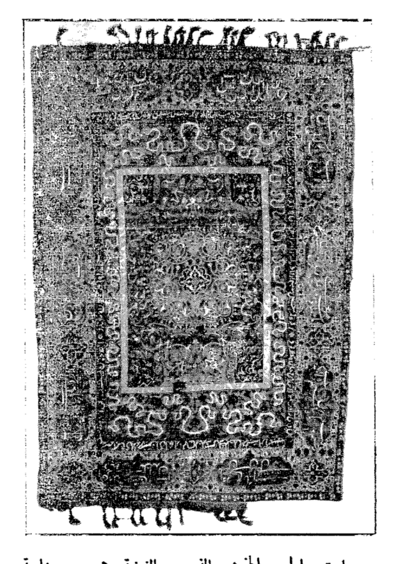
على ان دار الآثار العربية في القاهرة تحتفظ بين مقتنياتها بابريق بديع من البرونز يمت للفن الساساني بأوثق الصلات ، وان كان المرجح انهُ من صناعة القرن السابع او الثامن الميلادي . وقد عثر على هذا الابريق في ابي صير الملق حيث قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، فحمل ذلك بعض العلماء على القول بان مثل هذا الابريق الثمين لا بد ان كان ملكاً لهذا الخليفة وعلى كل حال فان الابريق بديع الشكل ، وجميل بزخارفه المحفورة والمخرمة

وثمة تحف برونزية كثيرة يرجح انها من صناعة ايران في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وعلى بعضها زخارف فيها رسوم آدمية . ومن هذه التحف مرايا ذات زخارف بارزة من رسوم مماثلة ، وتقوم على أرضية من فروع نباتية جميلة

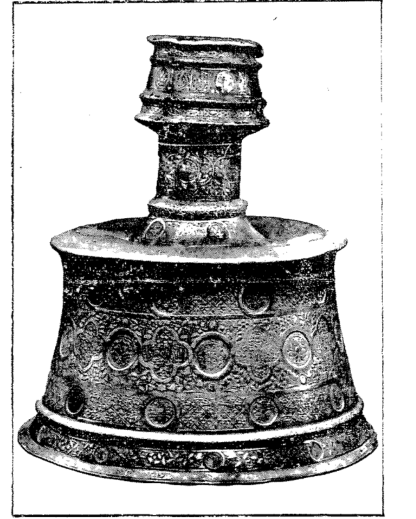
أما في عصر السلاجقة فقد كان للتحف الفنية القوة والجلال اللذين امتازت بهما الصناعة الساسانية ، واللذين كانا يناسبان طبيعية السلاجقة أنفسهم، كما كان لها في بعض النواحي الاخرى دقة وظرف يناسبان اعتناقهم الاسلام وغرامهم الجديد بالادب والفن الايرانيين . فلا غرابة اذا وجدنا في هذا العصر تحفاً برونزية ساسانية الطراز والى جانبها بعض الاواني والتحف من الذهب والفضة ، ذات زخارف دقيقة مفرغة في الاناء . وفي مجموعة المسيو زالف هراري بك عدد من هذه الاواني والتحف ، فيها كؤوس وأباريق ومباخر وعلب وملعقة ، وعليها زخارف من طيور وحيوانات حقيقية وخرافية محفورة او مفرغة او بارزة

وفي القرن الثاني عشر الميلادي لم يقف بعض الصنَّاع عند حفر الزخارف على التحف بل بدأوا في تكفيتها (تنزيلها) بالمعادن النفيسة ، ولا يزال أبدع مثال لهذه الصناعة اناء من مجموعة بوبرنسكي في متحف الهرميتاج ، صنع سنة ١١٦٣ ميلادية في مدينة هراة ، التي اشتهرت بصناعة التحف المعدنية كما اشتهرت بها أيضاً اصفهان وهمذان وشيراز

ومن المرجح ان طراز مدينة الموصل في صناعة التحف المعدنية قد نقل بعض أساليب هذه الصناعة عن ايران . بل الواقع ان الفرق بين الطراز الايراني والطراز الموصلي لا يزال غير واضح كل الوضوح . حقًّا اننا لا نعرف تحفاً معدنية يمكن نسبتها على وجه التحقيق الى ايران وتكون في الوقت نفسه من الابداع ودقة الصناعة بحيث يمكن مقارنتها بالاواني العديدة التي



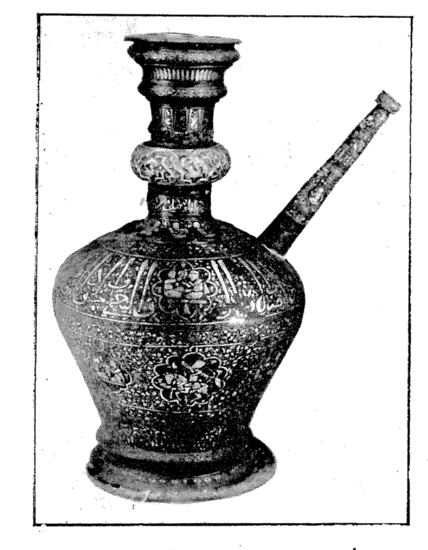
سجادة من الحرير المخيش بالذهب والفضة وهي من صناعة اصفهان في القرن السادس عشر . وقد وهبها حضرة صاحب السمو الامير يوسف كمال الى دار الآثار العربية



شمعدان من النحاس في مجموعة المسيو دالف هراوي بك . وهو منزل (مكفت) بالذهب والفضة ، وعليه اسم صانعه محمد بن رفيع الدين شيرازي وتاريخ صناعته سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ ميلادية)



صورة قطع من منسوجات حريرية ايرانية ترجع الى القرن السادس عشر ، ومحفوظة الآن بدار الآثار العربية



صورة ابريق من النحاس ، صنع في ايران سنة ٧٦٣ هـ (١٢٧٤ ميلادية)

صنعت في الموصل ، وعليها امضاء صانعيها ، ولـكن أسماء بعض هؤلاء الصناع تظهر عليها مسحة ايرانية حتى اننا لنتساءل اذا لم يكن هؤلاء الصناع ايرانيين هاجروا من ايران الى بلاد الجزيرة وأتيح لهم ان ينتجوا فيها أبدع التحف المعدنية في الفن الاسلامي

ومهما يكن من شيء فان صناعة التحف المعدنية تقدمت في ايران نفسها ، كما تقدمت في مدرسة الموصل . وكان من اهم مظاهر التطور في الصناعة الايرانية الاناقة والتهذيب في اشكال الاواني وبعض التغيير اللطيف في الزخارف . ثم بلغ هذا التطور اقصاه في عصر الاسرة الصفوية في بداية القرن السادس عشر ، وصارت زينة التحف المعدنية في تكفيتها بزخارف من خطوط او كتابات على ارضية ذات موضوعات زخرفية قوامها فروع نباتية دقيقة

***

ولا يفوتنا ان نذكر ان ايران كانت من اهم اقطار العالم الاسلامي في صناعة نصال السيوف من الصلب والحديد . وكانت هذه النصال تكفت (تنزّل) بالذهب والفضة في بعض الاقاليم الشرقية من ايران . ولا غرو فان اهل ايران كانوا منذ العصور القديمة مغرمين بالاسلحة . على ان ما وصل الينا من الاسلحة الايرانية ليس اقدم من القرن السادس عشر . وربما كانت الاسلحة المرسومة في الصور الفارسية من القرنين الثالث عشر والرابع عشر اكبر عون لنا على دراسة انواعها قبل العصر الصفوي . اما اهم ما نعرفه من اسلحة الصفويين فخوذة باسم السلطان طهماسب في متاحف استامبول وعليها امضاء صانعها : « ابراهيم بن محمد رضا » . وفي المتحف البريطاني خوذات من عصر الشاه عباس ، وعليها كتابات منزلة بالذهب وزخارف نباتية جميلة . ومن مشهوري صناع الاسلحة في عصر الشاه عباس (١٥٨٧—١٦١٩) أسد الله الاصفهاني

***

أما صناعة الزجاج فقديمة في ايران وقد وصل الينا طبق زجاجي من العصر الساساني ومحفور فيه صورة طائر خرافي . كما وجد في مدينة الري تحف زجاجية ترجع الى القرنين العاشر والحادي عشر . ثم ازدهرت صناعة الزجاج في القرون التالية ولاسيما في شيراز وهمدان ونيشابور وسمرقند

وقد كان للحلى والجواهر شأن عظيم في الحياة الاجتماعية الايرانية ولا سيما في البلاط ، وفي ملابس الطبقات العالية فلا عجب ان تخصص في صناعتها مهرة الفنانين في زنجان وأصفهان وتبريز وسلطانية وغيرها من البلدان الصناعية في ايران

تأثير الفن الايراني وانتشاره

ولا يسعنا ان نختم هذه الكلمة عن الفن الايراني بدون ان نشير الى ما كان له من عظيم التأثير على غيره من الفنون الاخرى . والواقع اننا — اذا استثنينا الفن الاغريقي — لا نكاد نجد

فنًّا آخر قدِّر له ان ينعم بمثل نفوذ الفن الايراني وانتشاره. ففي العصور القديمة كانت الاساليب الفنية الايرانية من أظهر الاساليب الفنية في الشرق الادنى . ويظن كثيرون من العلماء ان اتصال الفن الايراني بالصين يرجع الى العصر الكياني ، حين بدأت الاساليب الفنية في الصين وايران تلتقي في اواسط آسيا وتزحف كل منها الى البلد الآخر . ثم كانت غزوات الفرس في وادي النيل اكبر تعريف لاهل مصر القدماء بهذا الشعب الايراني وبأساليبه الفنية المختلفة التي كان لها بعض التأثير في العمارة وفي زخارف المنسوجات المصرية . كما بدأ اتصال ايران بروما منذ القرن الثالث الميلادي ، حين انتشرت تجارة الحرير مع الصين — واتصلت ايران بعد ذلك ببيزنطة اتصالاً كان لهُ صداهُ في الفنون ، على الرغم من الحروب الطويلة بين هاتين العاهلتين، اللتين كانتا تتنازعان السيادة في العالم المتمدين حينئذٍ

اما في الاسلام فقد أتيح لايران ان تكون في الصف الاول منذ سقطت الدولة الايوبية وتولى العباسيون ، كما صار الفن الايراني أبدع الطرز في الفنون الاسلامية ، وانتشرت التحف الايرانية من حدود الهند الى جبال البرانس ، ومن تركستان وجنوبي الروسيا شمالاً حتى اليمن وزنجبار جنوباً . وكان المهندسون والفنانون الايرانيون يدعون للعمل في سائر الاقاليم الاسلامية . بل ورحلت جالية منهم الى البندقية في القرن الخامس عشر وعلّمت اهلها الاساليب الايرانية في تكفيت المعادن وتجليد الكتب وصناعة الزجاج ، وانتقل كثير من هذه الاساليب الى سائر الاقطار الغربية على يد البنادقة

***

ولم يكن شأن الايرانيين خطيراً في الفنون الفرعية او التطبيقية فحسب . بل ان العمارة الاسلامية ايضاً مدينة لهم بكثير من الظواهر المعمارية التي أصبحت مميزة لها في العصور الوسطى . وليس هذا بمستغرب من شعب كانت له في العصور القديمة مدن كبرسبوليس وقصور كالقصور الساسانية استطاعوا فيها ان يحلوا كثيراً من مشكلات العمارة كالقباب والاسقف والاقبية والاعمدة والعقود

ومهما يكن من شيء فقد امتازت العمائر الايرانية في العصر الاسلامي بالعقود الايرانية وهي التي ينتهي انحناؤها بخطين مستقيمين ، كما امتازت بكسوتها بألواح القاشاني التي نبغ أهل ايران في صناعتها . والمشاهد ان المساجد الايرانية عظيمة الشكل بوجهاتها المستطيلة التي يحف بها من الجانبين مأذنة أسطوانية الشكل دقيقة الطرف في أعلاها ولها شرفة تجعلها تشبه الفنار

ولكن موضوع العمارة الايرانية واسع وطريف لا يتسع المجال هنا للتطرق اليهِ . فحسبنا الآن هذه الصفحات التي استعرضنا فيها ، استعراضاً سريعاً وموجزاً ، ما وصل اليهِ شعب ايران من مهارة في الفنون بفضل استعداده الفطري ودأبهِ على العمل وسعيهِ الى الكمال

ايران الحديثة

ووجوه نهضتها الباهرة

[ليس الغرض من هذا البحث بسط مفاخر الحضارة الايرانية القديمة في العلم والفن والادب والفتوح الحربية ، فلها في جميع أبواب الحضارة والثقافة آيات عجيبة يرى القارىء طرفاً يسيراً منها في باب الفنون في المقال السابق . ولـكننا نريد ان نعنى هنا ، بالنهضة الايرانية الحديثة ، في عهد الزعيم الكبير الشاه رضا بهلوي ، بعد ان كانت الدولة الايرانية قد سقطت في العهد السابق الى دركات التفكك والاضطراب والخضوع للاجانب . فهي تمثل في نهضتها الحديثة أسطورة الفينكس المنبعث حياً جديداً من رماده]

كانت بلاد ايران من نحو قرن من الزمان قانعة راضية ، تنتج ما تحتاج اليه من طعام وتكتفي بما تصنعه أيدي أبنائها من المصنوعات الفنية . ولـكنها طمعت في أوائل القرن التاسع عشر باستعادة ولاية جورجيا من روسيا فأخفقت وحملت على عقد معاهدة توركومنشاي سنة ١٨٢٨ وهي التي ثبتت فيها قواعد الامتيازات الاجنبية وحتّمت عليها القبول برسوم جمركية على الوارد اليها والصادر منها لا تزيد على خمسة في المائة عيناً . وما لبثت الدول الاخرى حتى استندت الى مبدإ « أولى الدول بالمراعاة » في تطبيق القواعد المنطوية في المعاهدة الايرانية الروسية . فكان من اثر ذلك ان زاحمت الواردات الغربية الى ايران ، ما كان يصنع بأيدي ابنائها . وما كان في وسعهم ان يعودوا الى الزراعة ، لان ما تنتجهُ البلاد حينئذٍ كان كافياً بل وفوق الكافي لسكانها . اما التصدير فكان شاقّاً لقلة وسائل النقل وبعد المسافات . فلم يبقَ أمام البلاد الاّ الانصراف عن الصناعات الوطنية الى انتاج المواد الخام التي تحتاج اليها المصانع الاوربية . فأسفر كل ذلك ، في عهد اسرة قاجار الضعيفة ، عن سقوط ايران في مهاوي الانحطاط السياسي والاقتصادي سقوطاً كاد ان يقضي على الطبقة المتوسطة

فلما أهلَّ القرن العشرون كان ميزانها التجاري منحرفاً ضدها بمقدار ٣٠ في المائة وكان كثير من عقاراتها مرهوناً للبنوك الاجنبية . وانحطت زراعتها وصناعتها الوطنية وهبط عدد سكانها . ثم كانت ثورة سنة ١٩٠٦ فأُنشىء مجلس نيابي ولـكن الفساد السياسي كان متأصلاً فلم يستأصلهُ الانقلاب الى حكم نيابي . وكان كثير من رجال الحكم يرتشون من الاجانب (مجلة الشؤون

الخارجية يناير ١٩٤١ ص٢٩٦ وعليها الاعتماد في معظم هذا المقال) . فلما عقد الاتفاق الروسي البريطاني سنة ١٩٠٧ كان في طياته ما يشير الى احتمال تقسيم ايران على نحو ما قسمت بولندة . وأما اعمال الاصلاح المرتقبة فكانت على الغالب لا تتعدى مرحلتها الاولى على نحو ما تمّ عند ما اخرج مورجان شوستر من البلاد اجابة للمساعي الروسية

فلما نشبت الحرب العامة سنة ١٩١٤ أُنكر على دولة ايران حقوق المحايدين التي ينص عليها القانون الدولي . فلما ارتفع صوت الرئيس ولسن منادياً « بحق تقرير المصير » انبعث رجاء جديد في صدور الايرانيين . ولكن موقعهم الجغرافي ونضال المصالح الاوربية المختلفة في تلك البلاد قضى على هذا الرجاء في مهده . وغدت المسألة الاولى بعد الحرب ، ايّ الدول تفوز بالنفوذ الفعّال في تلك البلاد بعد خفضها الى مستوى مستعمرة ، أتكون روسيا الشيوعية ام بريطانيا الرأسمالية

والجواب الذي خطّهُ الشاه رضا بهلوي في سماء بلاده هو هذا — لا روسيا ولا بريطانيا — . والواقع ان التنافس بين الدولتين اسدى خدمة الى قضية الحرية والاستقلال في ايران . ففي ٢٧ يوليو سنة ١٩١٨ اعلنت الحكومة الايرانية الغاء المعاهدات القائمة على غير مبدإ المساواة . وسلّم البولشفيك بانتهاء المعاهدات الروسية الايرانية جميعاً وتخلّوا عن الامتيازات والديون التي كانت لروسيا في ايران قبل عهدهم . اما بريطانيا فكانت اموالها المثمّرة في تلك البلاد اعظم جدّاً من اموال روسيا فخشيت تقدم روسيا الى الهند عن طريق ايران فحملت ايران على توقيع معاهدة ، لو نفذت لوضعت ايران تحت اشراف لندن . ولكن انقلاباً وقع في ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ فتقلّد جماعة من الوطنيين مقاليد الحكم وندّدوا بالمعاهدة البريطانية . وكان عملهم هذا قرعة مدوّية في بوق الحرية الايرانية . ومنذ ذلك الحين تمكنت حكومة ايران من اتقاء نفوذ روسيا بمقابلته بنفوذ انكلترا وبالعكس . والنجاح في هذه الخطة يعزى الى شخصية رضا خان الذي نشأ من صفوف الجيش الى مقام وزير الحربية فرئيس للوزارة فرئيس موقت للحكومة الموقتة التي اعلنت على اثر اسقاط اسرة قاجار في سنة ١٩٢٥ ثم اعتلى العرش في دسمبر سنة ١٩٢٥ بمشيئة الامة وانشأ اسرة بهلوي الشاهانية في ايران. وقد كان غرض الشاه رضا بهلوي واضحاً لناظريه منذ حمل السيف في خدمة بلاده ، فلما بلغ المقام الذي يؤهله للعمل اتجهَ الى هدفين اساسيين اولهما السيادة التامة داخل البلاد والاستقلال التام في الخارج. ولكنهُ ادرك كذلك انهُ اذا حققت ايران استقلالها المنشود فهي لا تستطيع المحافظة عليه الاّ اذا نظمت نفسها وأخذت بأساليب أوربا

ما كاد رضا خان يزيل من طريقه العقبات السياسية الاجنبية حتى اتجه الى تأكيد سلطة الحكومة المركزية ، على جميع انحاء البلاد ، بعد ان كانت المناطق البعيدة عن العاصمة في حالة فوضى منذ منتصف القرن الماضي . وادرك انه لا يستطيع تحقيق هذا الغرض الاّ اذا كان

له قوة عسكرية في وسعه الاعتماد على ولائها ، فيحلّها محلّ الوحدات العسكرية المواربة التي بقيادة الضباط الاجانب . فأنشأ في آخر سنة ١٩٢١ جيشاً ايرانيًّا قلباً وقالباً ووضعهُ تحت سلطة وزير الحربية ثم تولى بنفسه قيادة هذا الجيش فأخضع بهِ البلاد كلها . فما اشرقت سنة ١٩٢٥ حتى كانت سلطة الحكومة المركزية مبسوطة على كل ايران . وفي تلك السنة قرر المجلس النيابي وجوب تسجيل المواليد والوفيات وعقود الزواج . وسُنّ قانون بجعل الخدمة العسكرية اجبارية ومدتها سنتان مستثنياً منها خريجي الجامعات

وقد اطردت الزيادة في عدد رجال الجيش الايراني حتى بلغت في السنة الماضية بحسب ملحق دائرة المعارف البريطانية (١٩٣٨) ١٠٠ الف جندي . وجميع ضباط الجيش ايرانيون وثلثهم تلقى علومه العسكرية في فرنسا والمانيا . وهناك قوة عسكرية لصيانة الامن العام يطلق عليها اسم « الامنية » عدد رجالها نحو ١٢ الف جندي وضابط . وقد روى لنا من سافر الى ايران ان رجالها يرتدون ملابس زرقاً فاتحة وقبعات كقبعات الجنود الفرنسيين وهم يسيرون على الطرق ازواجاً يحرسونها . ولايران علاوة على ذلك اسطول بحري صغير في خليج ايران تلقى ضباطهُ تدريبهم البحري في ايطاليا ، وثمة كذلك نواة لسلاح جوّي . يقدَّر عدد طيّاراتها بمائة وخمسين طيارة حديثة معظمها على ما يقال من طراز « هوكر » و « ده هافيلاند »

وقوى الدفاع جميعاً خاضعة لاشراف الشاه المباشر ولا سيطرة للمجلس النيابي عليها . والانتظام في الجيش محبَّب للشعب ولا سيما الشبان لما يتاح لرجاله من وسائل التعلّم والتثقف ولما لهُ من مقام واحترام احرزها منذ تولّى الشاه اصلاحهُ وتعزيزهُ وجعلهُ « يدهُ اليمنى » في انهاض البلاد

وتلا اصلاح الجيش وتنظيمهُ الاصلاح القضائي . ففي ١٩٢٧ حلّت وزارة العدلية جميع المحاكم القديمة وشرعت في وضع قوانين جديدة واصدارها . فالقانون المدني ينصّ على حماية الملك والعقود وينظم الزواج والطلاق ويمنع المتعة . والقانون الجنائي ينصّ على حماية الحريات الخاصة وان كان الحكم أميل الى النوع الدكتاتوري . والقانون التجاري روعي في وضعهِ تنظيم الاعمال الاقتصادية والمالية فهو يقضي مثلاً بفرض نظام عام لامساك الدفاتر ويمنح الشركات « شخصية قضائية »

اما التعليم والادارة فتستمد ايران ارشادها فيهما من فرنسا . ذلك بان التركيز الاداري الذي اشتهرت بهِ فرنسا يلائم احوال ايران والثقافة الفرنسية لها مقام خاص عند الايرانيين . وفي كل سنة يعود طوائف من الشبان الايرانيين الذين تلقوا العلم في فرنسا اما على حسابهم الخاص واما على حساب الحكومة ، للاشتغال بتوسيع نظام التعليم . فعدد المدارس تضاعف منذ سنة ١٩٢٢ والعناية متجهة بوجه خاص الى تعليم الحرف والصناعات والى ربط الخدمة العسكرية بالواجبات الوطنية . وتكثر المدارس الليلية لخفض مستوى الامية في البلاد من ناحية ولتدريب موظفي الحكومة

تدريباً يمكنهم من الترقي في مناصب الحكومة من ناحية أخرى . ولا تزال المعاهد العلمية الاجنبية مثل كلية ستوارت التذكارية في اصفهان وكلية المرسلين الاميركيين في طهران تخرج شباناً مزوّدين بما يلزم من الكفاءة والوطنية لخدمة بلادهم

اما المشكلة الاقتصادية المعقدة التي واجهها الشاه رضا بهلوي في إيران ، فكانت اصلاح الحياة الاقتصادية في البلاد بعد ان أصابها الخلل والاضطراب على أثر دخول البضائع الاوربية الرخيصة اليها ومنافستها للصناعات الوطنية

أما الصناعة فلا تزال في مهدها . فأكبر مصنع في البلاد للنسيج لا يزيد عماله على ٥٠٠ عامل. وصناعة السجاد التي يصدَّر ٩٥ في المائة من منتجاتها اصيبت اصابة شديدة في اثناء الازمة الاقتصادية العالمية ورفع الرسوم الجمركية في مختلف البلدان ولا سيَّما في الولايات المتحدة الاميركية ، التي كانت تبتاع نصف ما تصدرهُ ايران من السجاد . والزراعة لا تزال عمل ٨٠ في المائة من أهل البلاد بما فيهم القبائل الرحَّالة. وفي البلاد مصادر معدنية ثمينة ولكنها لم تستغلّ إلاَّ قليلاً — اذا استثنينا النفط — وأهمها الحديد والفحم والنحاس والرصاص والمنغنيس والرخام والنيكل والكوبلت

وقد بلغ ما استخرجتهُ « شركة الانجلو برشان » من النفط من منطقة امتيازها في سنة ١٩٣٧ تسعة ملايين ونصف مليون من الاطنان

ثم هناك زراعة الخشخاش الذي يستخرج منهُ الافيون . فمن نحو اربعين سنة اضطرت ايران ان تعنى بزرع نبات ينتج محصولاً يسهل نقلهُ فأقبلت على زراعة الخشخاش حتى بلغ ٧ر٥ في المائة من الدخل العام و١٦ في المائة من الصادرات في سنة ١٩٢٦ ، من هذه الزراعة

ولما كانت عصبة الامم معنيّة بالسيطرة على تجارة الافيون في مصادره ، أوفدت في سنة ١٩٢٧ لجنة الى إيران لدراسة الموضوع فيها . فقالت اللجنة في تقريرها ان محصول الخشخاش محصول يلائم ايران كلَّ الملاءمة . فهو يزرع في الخريف ولذلك يروى بغير عناءٍ عندما يكثر الماء . وقيمة ما يجنى منهُ من الفدَّان الواحد يزيد اربعة اضعاف على ما يجنى من الحنطة ، فلذلك يسهل على أصحابهِ ان يتحملوا نفقات النقل العالية ، ثم انهُ يصدَّر ولذلك يمكن البلاد من استعمال ثمنهِ في توفية ثمن ما تستورده من الخارج . ثم اقترحت اللجنة ان توجه الحكومة الايرانية عنايتها الى شق الطرق وخزن المياه وتحسين الاساليب الزراعية وانعاش الصناعة الكاسدة، وان يتاح للحكومة الايرانية ثلاث سنوات للبحث عما يصحّ ان يحلَّ محلّ الخشخاش كمحصول زراعي ثم تشرع في نقص المساحة المزروعة منهُ ١٠ في المائة كل سنة بعد ذلك . فأنشأت الحكومة الايرانية « احتكار الافيون الحكومي » وجعلت زراعة الخشخاش خاضعة لرخص خاصة وضرائب خاصة وحظرت زراعتهُ في أراضٍ جديدة ووضعت برنامجاً قضت بواسطتهِ على منع زراعة الخشخاش في

مناطق معينة. ومع ان الحكومة اعفت من الضرائب، تلك الاراضي المحولة من زراعة الخشخاش الى زراعة حاصلات اخرى، لم يكن ثمة بدٌّ من ان يكون هذا التحويل بطيئاً . فليس بالسهل ان يتحول الفلاح من زراعة نبات معين ألفهُ وألف اساليب العناية به الى زراعة نبات جديد ، دع عنك الاستيثاق من الملاءمة المفروضة بين الارض والنبات الجديد . وصادرات الافيون الايرانية آخذة في النقص المطرد حتى ان الجمعية العمومية لعصبة الامم وضعت قراراً خاصًّا اعربت فيه عن تقديرها لما ابدتهُ الحكومة الايرانية من التعاون وحسن النية في هذا الصدد

والحالة من الناحية المالية خيرٌ منها من الناحية الاقتصادية . فقواعد الاصلاح المالي الذي بدأه الخبير الاميركي الدكتور ملسبو Millspaugh في سنة ١٩٢٢ لا تزال هي هي، قواعد السياسة المالية المتبعة الآن وأهمها السعي سعياً حازماً لتوفية النفقات من الدخل العادي . ويؤخذ من احصاءات سنة ١٩٣٤ ان ٢٠٫٤ في المائة من الميزانية جاء من الرسوم الجمركية و٢٢٫٤ في المائة من شركات الاحتكار (السكر والشاي وعيدان الثقاب والتبغ والافيون والقطن وغيرها) و ١٧٫٦ في المائة من الامتيازات الممنوحة للاجانب . اما النفقات فمنها ٣١٫٤ في المائة للجيش والدفاع الوطني و ٥٧٫٢ في المائة للادارة. وقد بلغت الميزانية في سنة ١٩٣٧ مبلغ ١٥٫٦٢٥٠٠٠ جنيه للدخل و ١٥٫٦٠٠٠٠٠ جنيه للنفقات . ويشهد جميع الكتاب الذين زاروا ايران حديثاً ان موازنة الميزانية من ابواب الدخل العادي لمواجهة النفقات التي تقتضيها مشروعات الحكومة المتعددة، عمل عظيم حقًّا

واهمُّ ما تحتاج اليهِ البلاد من الناحية الاقتصادية الآن تمهيد طرق المواصلات . والحكومة الحالية جادة في هذا العمل وهي تنفق على مشروعاتها من مال ايران نفسها بغير ان تلجأ الى عقد قروض اجنبية . ومن اهم هذه الطرق انشاء سكة حديد طولها ١٥٠٠ كيلو متر من خليج ايران الى بحر قزوين طرفاه بندر غازي على بحر قزوين وخور موسى على خليج ايران . والظاهر ان الاعتبارات العسكرية والسياسية مقدمة على الاقتصادية في مد هذه السكة ، ولذلك قد تنقضي سنوات قبل ان تصبح هذه السكة مصدراً للدخل ، ولكنها ستكون ذات شأن عظيم في حفظ الامن العام وتعزيز وسائل الدفاع

ولعلَّ الغاء الامتيازات الاجنبية أشهر مآثر الشاه رضا بهلوي في اصلاح ايران وتعزيز سيادتها واستقلالها . ففي سنة ١٩٢١ كانت الدول الاجنبية في ايران فريقين : فريقاً يتمتع أبناؤه بالامتيازات وآخر خاضع للمحاكم الايرانية كروسيا وتركيا وافغانستان ودول أوربا الجديدة . وكانت دول الفريق الثاني برمة بهذا التمييز . ولذلك جعل الروسيون يسعون الى الفوز بالعودة الى نطاق الامتيازات لان ذلك يسهِّل عليهم بث دعايتهم في ايران ومنها الى حدود الهند .

أما بريطانيا فكانت تؤثر الخضوع المحاكم الايرانية على التسليم بما يمكن روسيا من بث دعايتها على حدود الهند. فلم تقم عقبة ما من ناحيتها، دون رغبة الحكومة الايرانية في الغاء الامتيازات

وقد الغيت الامتيازات فعلاً في ١٠ مايو سنة ١٩٢٨ . فكان ذلك فوزاً سياسيًّا كبيراً لحكومة طهران واحتفل بذلك اليوم احتفالاً قوميًّا . وعقدت بعد ذلك معاهدات مع الدول المختلفة أعترفت فيها جميعاً بمساواة ايران لها. ولكن نصَّ في معظم المعاهدات الجديدة على استثناء الاجانب المقيمين في ايران من مصادرة أملاكهم وحملهم بالقوة على العمل للدولة او الاشترك في قروضها وما أشبه . وبالغاء الامتيازات استعادت ايران حريتها في ما يتعلق بفرض الرسوم الجمركية وللحال شرعت في المفاوضات لعقد معاهدات تجارية جديدة . وانتهت جميع هذه المساعي في ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١ الى سن قانون خاص « باحتكار التجارة الخارجية » ففرضت الحكومة نظاماً من الحصص على الوارد اليها لكي تتمكّن من تصحيح الميزان التجاري بين الصادر والوارد

ومما يتبع الاصلاح الاقتصادي والمالي ، الاصلاح الاجتماعي ، من حيث بث الروح الوطنية لتكون الرابطة القوية بين ابناء ايران وتحرير النساء والاستغناء عن الموظفين والخبراء الاجانب وما يتعلق بالملابس وغيرها

هذه الاعمال مكَّنت الشاه رضا بهلوي من تعزيز سلطة الحكومة المركزية وكسر شوكة السيطرة الاجنبية على مرافق البلاد . ومع ما أحرزتهُ الحكومةُ الايرانية من انتصارات باهرة في هذه الميادين لا يزال يتعين عليها ان تتقي الضغط الروسي عليها بمقابلته بالضغط البريطاني ، وان تتقي الضغط البريطاني بمقابلته بالضغط الروسي

وجميع العوامل السياسية الخارجية ، سواء أدولية كانت أم خاصة بها ، تؤاتيها على هذا

فقد كانت خطة روسيا السوفيتية في بادىء الامر ان تحارب الرأسمالية في الغرب ، باضعاف الامبريالزم الاوربي في الشرق . ومع ان شيوعيي روسيا يزعمون انهم راغبون عن التوسع الامبراطوري ويميلون الى الشعوب المستعمرة او التي في حكم المستعمرة ، لا يمكننا ان نعزو سلوكهم في ايران اذ قبلوا الغاء الامتيازات والديون القيصرية السابقة ، الى روح الايثار فقط ، بل ان جانباً منهُ لا بدَّ ان يعزى الى رغبتهم في خضد شوكة بريطانيا في الشرق الاوسط والهند . ثم انهم كانوا يرغبون في ان يجتذبوا اليهم جميع الشعوب المجاورة التي بينها وبين بعض القوميات الداخلة في اتحاد الجمهوريات السوفيتية صلة قرابة . وهذا هداهم الى انشاء كتلة من الدول في الشرق الاوسط اذ عقدوا معاهدات مع تركيا وايران وأفغانستان في سنة ١٩٢١

ولكن الروسيين خسروا في حلبة الاعمال الاقتصادية ما كسبوهُ في ميدان السياسة ذلك بأن اعمال « قسم احتكار التجارة الخارجية الروسية » أثارت مقاومة تجار ايران واحتجاجهم وانهالت

على الحكومة الايرانية في سنة ١٩٣٤ مطالب التجار بأن تتوقف الحكومة عن معاملة روسيا او ان تجعل «قسم احتكار التجارة الخارجية الايرانية» شديداً كصنوه الروسي

ثم جاء النزاع بين ستالين وتروتسكي ففاز ستالين ، وتغلب القول بتطبيق الشيوعية في روسيا أولاً على الدعوة الى الثورة العالمية . ولذلك جعلت حكومة روسيا تكفّ عن مساعيها السياسية في البلدان المجاورة لها وقد انتهى هذا الاتجاه الروسي القائم على « المعيشة بسلام والتعاون مع الدول الرأسمالية » الى انتظام روسيا في عصبة الامم في سنة ١٩٣٤

ولكن على الرغم من ذلك لا تزال عناية روسيا بالشرق عظيمة ، بل لعلها اعظم الآن مما كانت . ومتتبعو تقدم روسيا الصناعي يؤكدون ان نصف ما انفقته الحكومة الروسية في مشروع السنوات الخمس الثاني أنفق في البلدان الواقعة الى الشرق من جبال الاورال . فانشاء المصانع الكبيرة في تلك المنطقة لا بدّ ان يفضي عاجلاً أم آجلاً الى البحث عن أسواق لمنتجاتها في البلدان المجاورة . إلاّ ان روسيا موجهة الآن معظم عنايتها الى الغرب والشرق الاقصى . فاهتمامها بالشرق الاوسط قليل ، وفي هذا فرصة متاحة لايران لتعزّز مكانتها وتؤيد استقلالها

أما بريطانيا العظمى قد شقّت طريقاً جديداً في علاقاتها بايران بعد ان سوّي الخلاف على مشكلة شركة النفط (الانجلوبرشان) في سنة ١٩٣٣ . ويمتدّ صكّ الامتياز الجديد الذي وقع في ابريل من سنة ١٩٣٣ ستين سنة وأقل نصيب تناله الحكومة الايرانية من أرباح الشركة هو ٧٥٠ الف جنيه في السنة — وقد بلغ في السنة الماضية نحو ٣ ملايين من الجنيهات — يضاف اليها مبالغ أخرى مثل مبلغ ١٠ آلاف جنيه لتعليم الايرانيين شؤون صناعة النفط . ثم ان السر جون كادمن المدير المقيم في طهران قام باسم الشركة بأعمال من شأنها أن توثق عُرى التعاون بين الشركة وحكومة طهران . وقد عنيت الشركة باقامة مصنع لتكرير البترول في كرمنشاه يدفع اليه النفط بالضغط من حقل خانقين الواقع على حدود ايران العراقية . وقد كان نفط باكو الروسي محتكراً للسوق في شمال ايران لغلاء أجور النقل من عبادان على خليج ايران الى الشمال . فاتمام مصنع كرمنشاه يمكن الشركة البريطانية من منافسة النفط الروسي في تلك المنطقة. واذا صرفنا النظر عن النزاع بين بريطانيا وايران على السيادة على جزر البحرين ، كان في وسعنا ان نقول ان علاقات الحكومتين متسمة بسمة التفاهم والتعاون. وعلاوة على ذلك فبريطانيا تؤيد توثيق عرى التعاون بين دول الشرق الاوسط المتمثلة في ميثاق سعد أباد (طهران) الذي عقد في السنة الماضية بين تركيا وايران والعراق وافغانستان

ولعلّ أكبر نصر سياسيّ احرزته ايران الحديثة هو تحويل تركيا عدوتها القديمة الى صديق حميم . فقد كانت العلاقات بينهما على اثر انتهاء الحرب الكبرى مشوبة بالجفاء الشديد فلم تعقد

بينهما معاهدة صداقة حتى سنة ١٩٢٦ ثم تلاها اتفاق على التعاون الاقتصادي في سنة ١٩٢٨ فلما عينت الحدود في سنة ١٩٢٩ بين الدولتين اخذ اقطاب البلادين يتبادلون الزيارات الودية . ولعل اشهرها زيارة الشاه لانقره واستانبول في شهر يونيو من سنة ١٩٣٤

وفي سبتمبر من تلك السنة ، نزلت ايران عن ترشيح نفسها المقعد الخالي في مجلس العصبة لكي لا تنافس تركيا عليه فردَّت تركيا التحية بمثلها في سبتمبر من سنة ١٩٣٧

وليس بين ايران وافغانستان ما يثير مشكلة ما . فقد كان الافغانيون جزءًا من الامبراطورية الفارسية ولا يزالون يتكلمون اللغة الفارسية . نعم ان مسألة الحدود بين الدولتين احدثت شيئاً من الجفاء في سنة ١٩٢١ ولكن الدولتين قبلتا تحكيم تركيا فعينت لجنة لتخطيط الحدود وذهبت الى المنطقة الخاصة في يونيو سنة ١٩٣٤ وتمكنت من حلّ الخلاف وعلى اثر ذلك دخل الفريقان في ميثاق سعد اباد (طهران) سنة ١٩٣٧

أما ايران والعراق فقد كان بينهما فتور نشأ عن توقف حكومة طهران عن الاعتراف بالدولة العراقية الجديدة واشتراطهم لذلك منح الرعايا الايرانيين النازلين في العراق حق التمتع بالامتيازات الاجنبية واباء الحكومة العراقية عليهم ذلك . على ان مسألة الاعتراف قد حلت بعد ذلك في سنة ١٩٣١ عقب زيارة الملك فيصل لطهران في شهر ابريل من تلك السنة فقد اعترفت الحكومة الايرانية بالدولة العراقية وعقدت معها اتفاقاً وقتيًّا وتبادلت معها الممثلين السياسيين

ولما جاء دور البحث في تنظيم العلاقات السياسية والاقتصادية اثار الايرانيون مسألة الحدود مطالبين بتعديل التحديد ومعلنين انهم لا يعترفون باتفاق الحدود الذي عقد في سنة ١٩٢٣ بين ايران والدولة العثمانية بحجة ان برلمانهم لم يقره ، وأصرَّ العراقيون على رفض طلب التعديل لان الاتفاق قديم ولانهُ نفذ فعلاً

ولما تمسك الايرانيون بموقفهم وأبوا التساهل مع العراقيين رفع وزير الخارجية العراقية في سنة ١٩٣٣ الامر الى عصبة الامم طالباً منها التوسط لازالة الخلاف وحمل ايران على الاعتراف بعهودها فانتدبت العصبة السنيور الويزي مندوب ايطاليا لدرس الخلاف ثم عاد الفريقان في سنة ١٩٣٥ فسحبا بالاتفاق القضية على ان تحل بينهما باتفاق مباشر وقد تم ذلك فعلاً فعقدت في شهر يوليو سنة ١٩٣٧ سلسلة اتفاقات بينهما حلت بموجبها جميع المشكلات ونظمت العلاقات السياسية والاقتصادية والقضائية بين البلادين على اساس ثابت . ثم دخل الفريقان معاً في الميثاق الشرقي الذي عقد في سعد اباد (طهران) عقب ذلك

واستقبلت علاقات الفريقين بعد هذا الاتفاق دوراً جديداً من الود والاستقرار وهي على افضل ما يرام في الوقت الحاضر

مكتبة المقتطف

الجزء الثامن من الاكليل (١)

ترجمته الانكليزية — بقلم نبيه امين فارس — ثمنها ٥٠ قرشاً — مطبعة جامعة برنستون

نشرنا من أشهر مقالاً بقلم ادورد جرجي موضوعهُ « العلوم العربية في برنستن » أشار فيه الى المشروع الذي اخذ بهِ الدكتور فيليب حتي رئيس دائرة العلوم الشرقية في تلك الجامعة العريقة وهو نقل أمهات الكتب العربية الى اللغة الانكليزية وطبعها . وترجمة الجزء الثامن من الاكليل للهمداني من بواكير هذا المشروع العلمي العظيم الشأن

والهمداني من علماءِ جنوب بلاد العرب المشهورين ولد في صنعاء ولم يعرف تاريخ ميلادهِ وضرب في شبه الجزيرة العربية ثم عاد الى اليمن ونزل في صعدة . ثمَّ سجن في صنعاء وكان سجيناً في عهد الامام الزيدي أحمد الناصر (حوالي ٣١٥هـ ٩٢٧م) ومات في سجنهِ . وأشهر ما اشتهر بهِ الهمداني الجغرافية والاسفار ثم الشعر والنحو والانساب والتاريخ . وكتاب « صفة جزيرة العرب » من أقدم وأهم الكتب التي يعتمد عليها في دراسة بلاد العرب ولا سيَّما جغرافية البلاد وصلة قبائلها بعضها ببعض وبوجهٍ خاص ما كان منها خاصًّا بموطنهِ جنوب بلاد العرب

وجنوب بلاد العرب كان على حضارة راقية ليس لنا من سبيل الى دراستها الاَّ بعض الكتابات الحميرية التي كشفها جوزيف هاليفي (١٨٦٩ — ١٨٧٠) وادوار جلازر (١٨٨٢ — ١٨٩٤) إلاَّ ان الهمداني كان من علماء الاسلام الذين عنوا بتلك الحضارة وكتب عنها ومن هنا ما للجزء الثامن من الاكليل من شأن كبير في دراسة احوال تلك البلاد قبل الاسلام

واذا ذكرنا الجزء الثامن من الاكليل فلأنهُ لم يصل الينا من أجزاء ذلك السفر النفيس الاَّ جزآن الثامن والعاشر ، وأما الاجزاء الباقية فقد تطرقت اليها أيدي الحدثان . والثامن الذي يهمنا في هذه الكلمة يكشف لنا « ان قدماءَ اليمانيين بلغوا اقصى الغاية في الرياضيات وجرّ الاثقال لانهم عرفوا كيف يشيدون قصوراً نفيسة متعددة الطباق حتى بلغت عشرين سقفاً ويقاوم بناؤها مرَّ الايام وطوارىء الحدثان . . . ثم انهُ يبين لنا كيف كانوا ينحتون تماثيل البشر والحيوانات والطيور ، ويطلعنا على إحكامهم عمل الآلات المتحركة من نفسها وكذلك الساعات المائية العظيمة المعروفة بالقطارات . . . » (٢)

ولا تزال قصورهم وسدودهم مضرب الامثال في اللغة العربية الى يومنا هذا

---

(١) The Antiquites of South Arabia, VIII Book of Al-Hamadani's Al-Iklil, Nabih Amin Faris, Princeton University Press 1938, $ 2. 50

(٢) راجع ملحق طبعة الكرملي للجزء الثامن من الاكليل

وقد حفظ من الجزء الثامن من الاكليل نسخ متفرقة ففي المتحف البريطاني نسخة كتبت سنة ١٦٧٦ وفي المكتبة الملكية ببرلين نسخة يرجع تاريخها الى سنة ١٦٧٤ . وكان العلاّمة مولر D. H. Muller قد اهتم بنسخة المتحف البريطاني فنشر جزءاً منها مع ترجمته باللغة الالمانية في سنة ١٨٧٩ . ولكن احداً لم ينشر نسخة كاملة من الجزء الثامن من الاكليل قبل الاب انستاس ماري الكرملي وذلك في سنة ١٩٣١ (راجع مقتطف ابريل ١٩٣٢ صفحة ٤٨٧)

وكان الدكتور حتي مهتمًّا باصدار نسخة تامة من هذا السفر النفيس بعد مقارنة المخطوطات المختلفة فلما ظهرت نسخة الاب الكرملي عدل عن ذلك ، ولكن مترجم هذا الكتاب لايزال يرى ان نسخة الكرملي لا تغني عن نسخة اخرى اوفى تحقيقاً وتدقيقاً وشرحاً واسناداً

وكان الباعث على عناية الدكتور حتي في سنة ١٩٢٥ بالاكليل انهُ عثر على نسخة كاملة من الجزء الثامن في مجموعة مراد البارودي بلبنان . ثم بيعت هذه المجموعة الى الثري الاميركي روبرت جاريت واودعها في خزانة جامعة برنستون التي تخرَّج فيها. وعلى نسخة الاب الكرملي المطبوعة ومخطوطة البارودي وما نشرهُ مولر اعتمد نبيه امين فارس في اخراج الترجمة الانكليزية مشيراً في هوامشه الى نسخة الكرملي بالحرف K والى مخطوطة البارودي بالحرف B والى ما نشره مولر بالحرف M

وقد نبَّه في الهوامش على القراءات المختلفة وسعى الى تعريف كل اسم علم ومكان وحيث عجز عن تعريف بعضها أشار الى ذلك في الهوامش أيضاً . كما انهُ اضاف حواشي جغرافية وتاريخية ولغوية حيث رأى لزومها لتوضيح المتن ولم يحجم عن تجاوز ترجمة بعض الاشعار « كمراثي حمير » لاسباب وجيهة ولكنهُ أشار الى كل حذف او تعديل في مكانه . وامله ان تسدّ الترجمة الانكليزية الثغرة الى حين ظهور نسخة عربية وافية

فالمتن المترجم في هذا الكتاب هو ما اصطفاهُ المترجم بعد المقابلة بين النسخ الثلاث وتدبُّر سياق المعنى والقرينة ، فاذا اختار قراءة إحدى النسخ أشار الى القراءتين الاخريين في الهامش ، واذا اصطفى قراءة خاصة به أشار الى ذلك أيضاً فيورد قراءات النسخ الثلاث ثم يتبعها بكلمة و« يرجّح انها كذا » . ففي الهامش ٣٥ صفحة ١٤

يقول (الكرملي : ذات خراب — ملر والبارودي : ذات خروب — ويجب ان تكون ذات جروب اي حجارة) وكان هو قد اصطفى في المتن الانكليزي الكلمة التي معناها حجارة

وفي الهامش ٦ صفحة ٢٩ اصطفى قراءة نسخة الكرملي مفضلاً ايَّاها على قراءة البارودي وقراءة مولر وهما واحدة . وفي صفحة ٣٤ سطر ١٩ فضَّل ما ترجمته . العصر القديم على قراءة الكرملي والبارودي وهي القصر القديم وقراءة ملر وهي العصّ القديم

وعلى هذا النسق من التحقيق اخرجت الترجمة الانكليزية لهذا السفر العربي النفيس

كتاب الشذرات

At Random

تأليف الدكتور أحمد زكي ابو شادي

للدكتور أحمد زكي ابو شادي حيوية فذة نادرة ونشاط لا يكل فهو اذا فوجيء من ناحية بمانع من الموانع تسرَّب من ناحية أخرى فعل الماء المتدفق الذي يتلمس كل منحدر وثغرة . وللدكتور أمل كبير في الانسانية قلما يعدله امل وهو ليس أمل الجاهل لحقائق الحياة فانهُ قد يذكرها بسخط يدل على معرفتهِ مقدار تغلغل النقص في النفس البشرية ولكنك اذا قرأت كتابهُ هذا ولا سيما الاجزاء التي يصف فيها الدكتور الدواء للانسانية السقيمة المعذبة نسيت أنهُ يعرف مقدار النقص وما يقيمهُ من العراقيل والموانع . وخيل اليك خطأ انهُ ساذج لهُ أمل كبير في مستقبل الانسانية لانه لا يدرك العراقيل . ولكن هذا كما قلت من خطاٍ القاريء فالدكتور قد كان طبيباً للاجسام قبل ان يكون طبيباً للنفوس وللانسانية عامة وهو يعرف ان بين المرضى العنيد الذي لا يطيع الطبيب ولا بد انهُ قد رأى بين مرضاه من لم يفلح معه طب او دواء والطبيب الشاب في اول عهده بالطب قد يكون عالماً كبيراً وخبيراً بمهنتهِ فيأمل ان يتغلب على مقاومة المريض بعلمه وخبرته ولكنهُ لا يضع أمام بصيرتهِ خطة واضحة للتغلب على عناد المريض ومقاومته والدكتور المؤلف طبيب قديم وهو يصف العلاج ولا بدَّ انهُ قد عرف كيف يتغلب على عناد المريض ولكن ليعذرني الدكتور اذا قلت انهُ يخيل اليَّ ان الخطة التي يتخذها الماكرون من دهاة الاطباء في التغلب على عناد المرضى لم يتخذها الدكتور للتغلب على عناد الانسانية . على ان عناد الانسانية اساس حياتها وفيه نفع كبير فان الانسانية تستفيد من عاطفة المحافظة على القديم كما تستفيد من عاطفة التجديد والرغبة في التغير . ولا تنكر انهُ اذا اختل التوازن بين العاطفتين وطغت واحدة على الاخرى كان الخلل الذي تعمل الحياة على محاربتهِ حتى يضمحل . والدكتور المؤلف يعتقد ان عاطفة المحافظة على القديم طاغية على عاطفة الرغبة في التغير والاصلاح وكل راغب في الاصلاح والتغيير يعتقد مثل هذا الاعتقاد كما ان المحافظ على القديم يعتقد عكس ذلك اي يعتقد ان الرغبة في التغيير والتجديد طاغية على الرغبة في المحافظة على القديم وتكاد تغرقها وكل منهما يعتقد ان التوازن قد اختل في حياة الناس في هذا العصر إما بسبب الرغبة في التغيير وإما بسبب المحافظة على القديم . ولنعد الى عناد الانسانية فأقول : اني لا أريد ان ألوم الدكتور وان أحثهُ على اتباع مكر الاطباء الدهاة فاني لا أعرف كيف يكون هذا المكر وربما كان غير لائق بالكماليين (Idealists) أمثال الدكتور أبي شادي بل لعلَّ قوَّة حركة

الاصلاح وشدة جهود المصلحين كانت بسبب اندفاعهم فيما هم بسبيله من غير مكر او دهاء. ولعل المكر والدهاء من نقص التفاؤل والايمان بالمستقبل . أما ان الدكتور المؤلف اكثر تفاؤلاً مما تقتضيه حقائق الحياة فمسألة ترجع الى المزاج. ولقد صرت الآن لا أعتقد ان العقل هو السبب الاول في ايجاد المذاهب الفكرية بل أعتقد ان العقل خادم للمزاج والحياة في حاجة الى المفكر الكثير التفاؤل بل لعل الغلبة كانت في كثير من الاحايين للمتفائلين الذين يشكلون حقائق الحياة بتفاؤلهم أشكالاً جديدة وان كانوا في أحايين أخرى كثيرة قد هزموا شر هزيمة بالرغم من تفاؤلهم. وقد أحسن الدكتور صنعاً بذكر المراجع التي يستطيع القارىء ان يرجع اليها للاستزادة من مادة فصول الكتاب ولاستئناف بحثها . ومهما خالف القارىء المؤلف في رأي أو آراء فانه لا يستطيع ان ينكر سعة اطلاعه وحسن نيته . والكتاب على اي حال ليس لكل قارىء بل هو للقارىء المطلع الذي يستطيع ان ينتقد ما يقرأ من فصول الكتاب وان يناقشها لان كل فصل من فصول الكتاب لو انه كتب للقارىء غير المطلع لاحتاج الى تفسير اطول وإسهاب اعظم اذ ان المؤلف قد يكتفي بالاشارة الى الفكرة او المذهب او المبدأ العلمي او المؤلف او الجملة المقتبسة . وقد ذكر المؤلف الاسباب التي حملته على تأليفه باللغة الانجليزية ومنها ان يصل الى جميع القراء المثقفين الذين يستطيعون قراءة اللغة الانجليزية من مصريين وغير مصريين ولكن ليس معنى هذا ان ليس بين قراء اللغة الانجليزية من المصريين من هو شديد التمسك بالقديم كثير المحافظة عليه ولا أحسب أن الدكتور المؤلف قد فاته هذا الامر

والمؤلف يدعو الى حسن اختيار النسل الانساني ويرى انه أحسن وسيلة لترقية الانسانية ثم يصف الصفات التي تؤدي الى الحضارة العالية ثم يبحث أثر العبقريين في حياة الناس ويؤمن بجليل أثر العبقرية وان اساء الناس احياناً استخدام العبقرية ثم يبحث ايهما اصلح الديموقراطية ام الدكتاتورية وهو ممن يؤمن بالديموقراطية بالرغم من الشكوك التي شرح اسبابها والتي شاعت في هذا العصر . ثم يحث على التسامح الديني وحرية التفكير وعلى المساواة بين الرجل والمرأة ثم يحاول حل مشكلات العالم الاقتصادية واصلاح صلات الامم والاخلاق الدولية وينتهي برجاء وأمل كبير للانسانية . ولا استطيع في هذه الكلمة الصغيرة الاشارة الى كل رأي من آراء الدكتور وبحثه وبعض مبادىء الدكتور هي مبادىء الحضارة الغربية قبل طغيان النازية والفاشية . ومن أجل ذلك يؤمن بالديموقراطية بالرغم من عيوب القائمين بها ويرفض النازية والفاشية وما كان يستطيع المؤلف مع كثرة موضوعات كتابه أن يفصل الرد على حجج خصومه الفاشية ونظمها الاقتصادية مثلاً . وللمؤلف ايمان كبير بالتربية العلمية ويرى ان نشرها في العالم يؤدي الى رقي الانسانية والقضاء على كثير من شرورها فكأنما هي إكسير

الحياة التي طالما بحث عنهُ فلاسفة القرون الوسطى ولكنهُ مع ذلك يعرف ان الثقافة العالية لا يطالب بها كل آحاد الجماهير وان كان لا بدَّ من غمر أذهانهم في عنصر الثقافة العلمية الحديثة كي يطمئنوا اليها . ولكن في الكتاب آراء لم يأخذ بها جميع المفكرين بعد على ما أظن ومثل ذلك انهُ في كلامهِ عن الاقتصاد لا يريد ان يكون المال المتداول على قدر رصيد الذهب بل على قدر ثروة الامة حتى الثروة العلمية والمعنوية وليعذرني الدكتور اذا شككت في امكان تطبيق هذا المبدأ فاني قد درست التاريخ وأعرف انهُ كلما حاول الساسة تطبيق هذا المبدأ سببوا فوضى اقتصادية وارتباكاً وفاقة وتعاسة وتدهورت العملة وارتفعت الاثمان وربما كنت شديد المحافظة على القديم ولكن ربما كان الذنب ذنب دراستي للتاريخ ولمبادىء الاقتصاد القديمة

وبالرغم من نزعة الكتاب العلمية وغشائهِ العلمي فان القارىء يحس فيهِ عاطفة الشعر ويلمح خياله في اساليب وصفه . ولعل عاطفة الشعر هي التي جعلتهُ في بعض الاحايين لا ينسى خصومه حتى في بعض بحثه العلمي او لعله القلب الذي لكل انسان والذي يتألم فيتذكر فيكتب متأثراً بألمهِ وذكراه وان كان النسيان أروح وأسعد ان أمكن (**)

فقه اللغة — التذكرة (هامش)

بقلم محمد عبد الجواد (استاذ فقه اللغة بدار العلوم العليا) ١١٢ ص ، قطع المقتطف — مطبعة العلوم ، بشارع الخليج ، القاهرة

قد سبق للمؤلف ان نشر كتاباً في اللغة اسماه « التذكرة » (مطبعة المعارف ، ١٩٣٥) ثم صنع له « تكملة » (مطبعة المعارف ، ١٩٣٦) . واليوم يخرج « التذكرة » ، وهي — عندي — أعلى مرتبة وأتمّ نفعاً مما سبقها

« والتذكرة » انما هي تعليق على الالفاظ التي وضعها مجمع اللغة العربية الملكي في مصر . والتعليق تارةً للموافقة والتعزيز واخرى للمجادلة والتفنيد . وقد اضاف المؤلف الى التعليق رسم اشكال الالفاظ الموضوعة . وأحسن بهذا العمل الآخر

وللكتاب مقدّمة لها شأنها ، أحب أن اذكر بعض ما فيها لصحته : ففي رأي المؤلف ان المجمع ينبغي له « ان ينظم محاضرات ودراسات لغوية ، في أبان الدورة او في غيرها ، يجمع اليها العلماء في مصر على الاقل ... ويحمل الناس على مشاركته في بحثه وعمله .. » ، وان يكون لهُ مطبعة خاصة وإلاَّ فليطبع مجلته في دار الكتب ، « وأن يرسل النشرات الى المدارس بما اقره من الالفاظ والمصطلحات العلمية والسائرة » وأن يقلع اعضاء المجمع عن « الاستئثار بعمله وحدهم دون ان يشركوا معهم مراسلين او نحوهم .. » وأن « يكثر المجمع ممن يستشيرهم في المواد الخاصة »

مما يراه المؤلف ولا أراه « ان يشغل المجمع الصحف بجلساته واخباره وتفاصيل ما يدور فيها اولاً فأولاً ، حتى لا تأتي قراراته فاترة في المجلة بعد فوات الوقت » ، ذلك ان المجمع لا يندرج في نواحي الحياة العامة ، وإن هو الاَّ لَـحَقٌ لوزارة المعارف . فأنّى له ان يشغل الناس بما يقع الى اعضائه من اسباب العلم والادب

بل قـلْ انهُ ينبغي للمجمع ، نهاية كل انعقاد ، ان ينشر شبه بيان لما جرى في جلساته ، حتى يتدبّـره المشتغلون باللغة . ولـكن هل يُعنى المجمع بآراء الغرباء عنهُ ؟

وأما أعماله فسائرة سير السلحفاة ، للتنازع الذي بين طائفة المجددين فيه وطائفة المقلدين . وأما مجلته فتجمع فيما تجمع قصائد مدح وخطب استقبال الى جانب مقالات تردها ، على غير كلفة ، الى ما سطره الائمة المتقدمون ، وأخرَ مجراة على قواعد لا ترجع الى علم عصري صحيح ، وأخر — وهي نادرة — تشف عن دراية واطلاع وطرافة ، ثم أُخر — وهي المتصلة بالالفاظ والاصطلاحات الموضوعة لا تسكن عطش الـكتّـاب من ادباء وعلماء ولا عطش الاساتذة والمدرسين

هذا ومن الوجوه التي اصابها المؤلف في تعليقه : ان المجمع ترك «المِسيَـعَـة والمِسجّـة مع عربيتها لفظاً واشتقاقاً» ليختار« المالَج وهي فارسية » للدلالة على آلة البَـنّـاء Truelle (ص ٣) — وأن المجمع خص لفظة « المِشْجَـرْ » بـ « شمّاعة الدهالبز التي تكون بها مرآة احياناً وبها تنوء تعلق بها المعاطف والقلانس ومكان خاص بالعصي والمظلات » على حين « لفظ المشجر كان احق بـ (الشماعة التي اطلق عليها المجمع كلمة مشجب والتي في شكلها فروع كفروع الشجر) ... لمقاربتهِ للفظ وشكل الشجرة » (ص ٤٥) — وثمة اقوال ساقها المؤلف في التعليق لا تكاد تثبت على النظر فيما اظن . منها :

— تفضيلهُ لفظة «القصر» على لفظة « الطِّـزر » للدلالة على « الڤيلا » (ص ٨) لان « القصر » غلب عليهِ معنى خاص ، وهو يفيد Palace, Palais.

— رأيه انهُ من المستحسن اطلاق لفظ « رب المثوى وربة المثوى » قياساً على « رب البيت وربته» بدلاً مما ذهب اليهِ المجمع ، اي « أبو المثوى وأم المثوى » على رغم صراحة هذا النص الاخير وروده في لسان العرب . (ص ٩)

بقي انهُ مما يورث الاسف ان في تضاعيف التذكرة طائفة من الغلطات المطبعية اللاحقة بالالفاظ الافرنجية (مثلاً : ص ٢،س ٢ و١٢ ،ص ٢٣،س١ ،ص ٣٣ ، س ١٦،ص٨٦،س٥) والـكتاب في جملتهِ جم الفوائد ب . ف

الاسلام في العالم (١)

تأليف الدكتور زكي علي — ٤٢٨ صفحة باللغة الانكليزية — طبع لاهور بالهند

هوذا طبيب مصريٌّ انقلب مؤرخاً واجتماعيًّا . فكان في كتابهِ هـذا صلة بين الشرق والغرب . ذلك بأنهُ قد هالهُ ما رآه في بلدان الغرب من جهلٍ بشؤون الاسلام ومفاخر الحضارة الاسلامية فأخذ على عاتقهِ ان يضع كتاباً مجملاً يستمتع بهِ العامة وترضى عنهُ الخاصة فيكون رسول مودَّة وفهم وعامل استقرار « لان كل خطة أوربية او غربية لا تقيم وزناً للاسلام وما لهُ من قوَّة روحية دافعة نحو الاستقرار لا بدَّ ان تديم الاضطراب والقلق في العالم وهما أصل متاعبهِ » . المقدمة صفحة X

والكتاب قسمان : الاول وهو يشتمل على تسعة فصول تغلب عليهِ النظرة التاريخية المشارفة ، فيها يلخص المؤلف تاريخ الاسلام وقواعده ومفاخر حضارتهِ . فثمة فصل في سيرة النبي العربي الكريم . وآخر في الاسلام : دين ونظام اجتماعي . وآخر في الحضارة الاسلامية وهكذا . والبحث في جميع هذه الفصول آية في الوضوح وحسن السياق . والاسناد متعدد النواحي ، فالمؤلف رجع الى ما كتبهُ المؤلفون باللغات الافرنجية من انكليزية وفرنسية وألمانية ، رجوعه الى أمهات الاصول العربية وما نشر في هذا العصر من الكتب والرسائل في الصحف والمجلات

وأنت تخرج من هـذه الفصول بصورة حيَّة للدين الاسلامي ، وحيويتهِ ومكانتهِ في التاريخ . ففيها تقع على تصحيح لبعض الاخطاء الشائعة في الغرب عن أوامر الاسلام ونواهيهِ ، كما تقع على بسط طريف في وضوحهِ قوي في اسناده لمزايا الاسلام وأثره في الحضارة والاجتماع

والقسم الثاني من الكتاب يعالج حاضر الاسلام ونواحي يقظتهِ وتأثيرها في الحياة الدولية ، في أربعة فصول وملحق ، أما الفصل الاول فعنوانهُ يقظة الاسلام والثاني تحرُّر الاسلام والثالث الاسلام والشؤون الدولية والرابع الاسلام والعالم

ففي فصل « يقظة الاسلام » وهو الفصل العاشر يعرض للنهضة السياسية والاقتصادية والفكرية في بلدان الشرقين الأدنى والاوسط . هنا تقع على ذكر الاعمال والمشروعات الكبيرة في هذه الرقعة التاريخية من سطح الكرة . وعنايتهُ بالسياسة والاقتصاد لم تحجب عن عينيهِ معالم النهضة الفكرية من ادبية وعلمية وما يبذل من السعي لتوثيق عرى التعاون الادبي والعلمي بين البلدان المختلفة . في هذه الصفحات يطالعك ذكر امراء القلم العربي في الشعر والقصة

(١) Islam in the World, by Zaki Ali, Published by Shaikh Muhammad Ashraf Lahore, India.

والتاريخ والنقد والعلم . ولكن البحث في هذه الناحية ليس قائماً على مجرَّد السرد بل على السعي لتبيّن التيارات القوية الخفية من اجتماعية وسياسية ودينية وغيرها

ولم يقصر المؤلف عنايته على الادب العربي في هذا الفصل بل عرَّج على النهضة الحديثة في الادبين التركي والايراني باعتبارها من الامم الاسلامية . ولم يحصر همَّهُ في اعمال الرجال بل خصَّ بهِ النهضة النسائية كذلك

وأما الفصل الذي يليهِ وهو فصل « تحرُّر الاسلام » فيحتوي على عرض طيّب للتطورات السياسية الحديثة في « تركيا الكمالية » « ومصر المستقلَّة » وسوريا وفلسطين وبلاد العرب والعراق وشمال افريقية وإيران البهلوية وافغانستان والهند والشرق الاقصى

يقول المؤلف ما ترجمتهُ في صفحة ٣٨٠و٣٨١و٣٨٢ : « الاسلام ليس ديناً فحسب بل هو كما بيَّنا حضارة ايضاً ، فهو لا يوجه الشعائر الدينية فقط بل وينشئ المجتمع كذلك ، انهُ طريقة للحياة ، طريقة للتفكير والعمل ، « نظرة الى العالم » تشمل كلَّ ناحية من النشاط الانساني . . . . ومن الخطإِ القول ان الاسلام لا يصلح للتقدم ، بمجرد مراقبتهِ في دور معيَّن من الركود او النكوص الظاهر . ذلك بأن الاسلام يحثُّ على البحث ويحضُّ على العلم ، فنظرتهُ الى التقدم نظرة رضىً . والاسلام قاعدتهُ المساواة الاجتماعية والاقتصادية . . . . ان شعار هذا العصر هو الاتحاد وأعظم حاجتهِ الى الاخاءِ العالمي . وكلاهما قد حققا ضمن نطاق الاسلام . فجميع المسلمين اخوان ، وهذه الفكرة الحية تجمع حقيقةً بين المسلمين كانهم اعضاء أسرة واحدة . ولا نتفاءِ فروق الطبقات واللون في الاسلام ، يستطيع مسلمان من بلدين مختلفين ان يتفاهما بأسرع ما يستطيعهُ عضوان في أية هيئة دولية . . . . .

وعلى هذا النمط من بيان مزايا الاسلام كديانة وحضارة ونظام اجتماعي يختم المؤلف كتابهُ بفصل « الاسلام والعالم » . ولكنهُ يلحق بهِ صفحات تحتوي على احصاءات منوَّعة خاصة بعدد السكان في الاقطار الاسلامية المختلفة ثم يليهِ ثبت المراجع وهو يملأ نحو عشر صفحات ويحتوي على اكثر من مائة وخمسين مرجعاً من الكتب ونحو عشرين مجلة وجريدة

والدكتور زكي علي طبيب مصري اشتغل بمستشفى قصر العيني بالقاهرة ثم سافر الى اوربا في بعثة طبية سنة ١٩٣١ فانصرفت عنايتهُ هناك الى تأليف هذا الكتاب النفيس ، بلغة انكليزية تشهد لهُ بطول الباع فيها . وقد أهداهُ الى سمو الخديوي السابق عباس حلمي الثاني ، لان سموهُ رعاهُ واسعفهُ بالمال في أثناء اشتغالهِ بتأليف سفرهِ في أحوال مرهقة

والكتاب بوجهٍ عام ليس دفاعاً عن الاسلام في المقام الاول بل هو عرض تاريخي اجتماعي لمزايا الاسلام ودعوة الى اتخاذ هذه المزايا أساساً لنظام عالمي جديد

مصر والطرق الحديدية

تأليف محمد امين حسونه — صفحاته ٤١٤ قطع وسط

لعلَّ هذا الكتاب الاول من نوعهِ في اللغة العربية — بل في اية لغة على الاطلاق . فهو يتناول تاريخ المواصلات المصرية وبالاخص الطرق الحديدية . فجميع المؤلفات التي دوّن فيها تاريخ مصر الحديث ابى لها مؤلفوها الاَّ ان تكون خالية من البحوث المفصلة في شؤون السكك الحديدية ، وغاية ما احرزتهُ من عناية ان لفَّ هذا الموضوع المتشعِّب في سطور معدودة . وكذلك ظل تاريخ السكك الحديدية في مصر اسراراً متناثرة بين جوانح الاوراق الرسمية والتقارير الفنية لا يظهر منها الاَّ النزر اليسير ولا تبدو من احد عناية باستخراج مطويها ولم شتاتها ، الاَّ ان يهتم بهذا الشأن فنيٌّ اجنبيٌّ فينشر بلغتهِ بعض الشيء عنهُ

والسكك الحديدية من مقاييس التقدم الاقتصادي في اي بلاد فهي الشرايين الحيوية التي يجري فيها دم الحياة الاقتصادية من بضائع وركّاب . وقد كانت مصر في مقدمة البلدان التي اخذت بالسكك الحديدية ، وتاريخ سككها مرتبط باسماء اعلام الانكليز الذي استنبطوا هذه الطريقة من طرائق المواصلات ، أمثال جورج ستيفنصن وحفيد تريفثك . فقد كان الاول كبير مهندسي السكة والاشغال والثاني رئيساً لهندسة الوابورات واليهما يرجع الفضل في تحسين وسائل النقل بالبخار في مصر

فالموضوع من اي النواحي طرقتهُ ، موضوع شائق مفيد . ومن العار ان ينشأ الطالب المصري وليس يعرف عن شبكة المواصلات الحديدية في وطنهِ الاَّ امتدادها من القاهرة الى الاسكندرية وبور سعيد شمالاً والى أسوان جنوباً وما قد يكون لها من فروع

فموقع مصر الجغرافي ، وما بذل من الجهد العظيم لمد السكك الحديدية الاولى في البلاد ، وما سبق ذلك من مفاوضات ، وما يرتبط بهِ من انشاء الكباري العظيمة على النيل لمدّ الخطوط الحديدية عليها ، وتطوُّر ذلك وغيره مما يتعلق بهِ من أيام عباس الاول الى عصر جلالة الملك فاروق ، يجب ان يكون قصة تجمع بين نواحي اللذة والفائدة

وقد تكفل بذلك الاستاذ احمد أمين حسونة ، فبعد ان قضى شهوراً يستعد لوضع هذا الكتاب ، بالبحث والتنقيب في المصادر والمراجع الرسمية المتفرقة ، علاوة على الكتب التاريخية لكي يستخرج منها ما كانت عليهِ أسباب المواصلات قبل مدّ السكك الحديدية ، جمع أمرهُ على كتابة هذه الفصول النفيسة ، وقد أشار الى مراجعهِ العربية والاعجمية ، الرسمية وغير الرسمية ، في ثبت نشر في صدر الكتاب ثم خصَّ بعضها بالذكر في مقدمتهِ

وقد رفع المؤلف كتابهُ الى مقام صاحب الجلالة الملك قائلاً فيما قالهُ « ومن المآثر التي تفخر بها مصر انها اول دولة في الشرق استخدمت القطار ، وهو رسول المدنية ورمز الحضارة ودليل الرقي ومظهر العمران ، يصفر فيبشر الناس بقوة العلم ومجد الانسان ، ويجري فيحمل اليهم شتى الارزاق والخيرات . . . »

ولم يكتف المؤلف بدراسة تاريخ المواصلات في مصر قبل السكك الحديدية ، ثمَّ تاريخ انشائها وتطورها ، بل عالج كذلك في آخر الكتاب موضوع النقل المائي وظهور السيارة والنقل الجوّي ، وجميعها من الموضوعات الكبيرة الشأن من حيث المنافسة بينها وبين السكك الحديدية

فالكتاب تاريخي من ناحيةٍ ، ومعاصر من ناحية أخرى ، وجميع الذين يهمهم هذا المظهر من النشاط الاقتصادي والاجتماعي في البلاد يجب ان يقتنوهُ

***

ورد الى مكتبة المقتطف الكتب التالية وسنتولى الكتابة عنها في أعداد المقتطف التالية

* ادارة الصفوف — وضعهُ الاستاذ أحمد سامح الخالدي — طبع بالمطبعة التجارية بالقدس الشريف

* الانتداب الفلسطيني باطل ومحال — وضعه الاستاذ وديع البستاني — طبع بالمطبعة الاميركية ببيروت

* تربية الحيوان الزراعي — تأليف الدكتور احمد فاضل الخشن — طبع بمطبعة الاعتماد بمصر

* أصول الطب البيطري — تأليف الدكتور ابراهيم نجيب محمود — طبع بمطبعة الاعتماد بمصر

* مروج الذهب ومعادن الجوهر ٤ أجزاء تصنيف الرحالة ابي الحسن علي المسعودي وقد راجع أصوله ورقمه محيي الدين محمد عبد الحميد وطبع بمطبعة دار الرجا ببغداد ويطلب في مصر من مكتبة الشرق الاسلامية ومطبعتها بشارع محمد علي

* الخواص الطبيعية للاراضي الزراعية — تأليف السيد محمد البحيري وحسن مصطفى كامل — طبع بمطبعة وادي الملوك بمصر

* فن الجرائيم الجزء الرابع في تذكرة الجرائيمي في مخبره — تأليف الدكتور أحمد حمدي الخياط — طبع بمطبعة الترقي بدمشق

* أصول المحاكمات الحقوقية ، دروس نظرية وعملية للاستاذ فارس الخوري — طبع بمطبعة الجامعة السورية بدمشق

* التشريح المرضي والجنائي بقلم الدكتور محمد زكي شافعي والدكتور لبيب شحاتة — طبع بمطبعة أمين عبد الرحمن بمصر

* احياء النحو لابرهيم مصطفى — طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

* معلومات مدنية — تأليف محمود العابدي — طبع بدار الطباعة والنشر الفلسطينية في صفد — فلسطين

* فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية — تأليف عيسى السفري — طبع في مطبعة مكتبة فلسطين الجديدة بيافا

* تربية الخيول العربية الجزء الثاني — تأليف صاحب السمو الملكي الامير محمد علي — طبع بمطبعة علي عناني بمصر

* على حافة العالم الاثيري — ترجمة الاستاذ احمد فهمي ابو الخير — طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

* البيان والبديع وضع وتصنيف الاسدي م. خير الدين — طبع بمطبعة العصر الجديد — حلب

* شطب العبارات الجارحة من المذكرات والاحكام — لجميل خانكي طبع بالمطبعة العصرية بمصر

* الفؤاديات ديوان شعر للمرحوم فؤاد بك محمد جمعهُ الاديب عبد القادر يوسف طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

* ضحايا مصر في السودان وخفايا السياسة الانكليزية طبعت بمطبعة السفير بالاسكندرية

* مطبوعات اتحاد اساتذة الرسم في الفنون الاسلامية للدكتور زكي محمد حسن طبعت بمطبعة الاعتماد بمصر

* البلمنديات ديوان شعر للشيخ حنا اسعد زخريا طبع بمطبعة ابو الهول بالبرازيل

* خطرات الشعور منتخبات من قصائد ومقالات لديمتري بك خلاط طبعت بمطبعة البصير في الاسكندرية

* صور ولمحات من حياة طالب في اوربا تأليف جورج وهبه العفي طبعت بمطبعة المجلة الجديدة

* اسرار الانقلاب وضعهُ السيد عبد الرزاق الحسني طبع بمطبعة العرفان بصيدا

***

مطبوعات مجلة المكشوف

اهدت الينا دار مجلة المكشوف البيروتية طائفة مختارة من مطبوعاتها الادبية والاجتماعية بينها

١ — كان ما كان — بقلم ميخائيل نعيمه
٢ — قميص الصوف — بقلم توفيق يوسف عوّاد
٣ — الباب المرصود — بقلم عمر فاخوري
٤ — عمر افندي — بقلم لطفي حيدر
٥ — الجدلية — بقلم سعيد عقل
٦ — ليلة القدر — بقلم احمد مكي
٧ — ارجوحة القمر — بقلم صلاح لبكي
٨ — الاشتراكية العملية — بقلم ابرهيم حدّاد

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الثالث والتسعين

ذكرى الدكتور صروف

أحد مؤسسي المقتطف

أشارت لجنة التحكيم التي تألفت من معالي الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق بك وزير الاوقاف والاستاذ المستشرق « جب » والاستاذ احمد امين والاستاذ اسماعيل مظهر بأن ينفق مبلغ المائة الجنيه الذي تبرَّع بهِ حضرة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا لذكرى الدكتور صرُّوف، في اعداد هدية المقتطف السنوية وتوزيعها على المشتركين الكرام موسومة بالعبارة التالية «هدية اسعد باسيلي باشا الى ذكرى الدكتور صرُّوف»

وقد تكرَّم اسعد باشا فنزل على رأي اللجنة وارسل الينا المبلغ لنكافىء بهِ الكتّاب فلسعادتهِ ولحضرات اعضاء اللجنة الكرام خالص التحية وجزيل الشكر

وقد اعدَّت ادارة المقتطف كتابين على هذا الاساس وهي تعنى الآن باخراجهما وسيرسلان في اواخر شهر سبتمبر الى المشتركين الذين وفّوا ما عليهم الى آخر سنة ١٩٣٨ ويتوقف المقتطف عن الصدور في اول شهر سبتمبر واول شهر اكتوبر ثم يعود الى الظهور في اول شهر نوفمبر سنة ١٩٣٨ . وهو حافل بكل جديد وطريف ومفيد في العلم والادب والاجتماع ، اما الكتابان فهما :

١ — صقر قريش

سيرة تاريخية على الاسلوب الحديث لعبد الرحمن الداخل : بقلم الاستاذ علي ادهم

٢ — نواح مجيدة من الحضارة الاسلامية

وهو أربعة فصول

١ — تأثير الفرس في الادب العربي : للاستاذ عبد الوهاب عزام
٢ — تأثير الاغريق في التفكير الاسلامي : للاستاذ اسماعيل مظهر
٣ — التصوير الاسلامي ومدارسهُ : للدكتور محمد زكي حسن
٤ — الاثر العلمي للحضارة الاسلامية وأعظم علمائها : للاستاذ قدري حافظ طوقان

فنوجه انظار القرَّاء الى هذين الكتابين النفيسين ونحثّ حضرات المشتركين على تسديد ما عليهم لادارة المقتطف حتى لا يتأخر وصول هذين السفرين الكريمين اليهم



الشفق القطبي

نقلاً عن كتاب Outline of Science

راجع مقال الكهف والاشعة الكهربائية صفحة ٢٧٤ من هذا العدد

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثالث والتسعين

١ اغسطس سنة ١٩٣٨ — ٥ جمادى الثانية سنة ١٣٥٧





يقال ان تاريخ الجنس انما هو تاريخ الفرد مكتوباً بحروف عريضة . وهذا القول ينطبق انطباقاً خاصًّا على مسألة الكون وحجمهِ . فالطفل الوليد يعجز عن تصوُّر حجم الكون لان مهدَهُ ومرباهُ وحدة مقياسهِ . وكذلك كان الجنس البشري في مهدهِ . فقد سلَّم بان الارض — وهي مقرُّهُ ودنياهُ — هي اهم جزء في الكون بل ومركزهُ وانها في حجمها هي الكون

ولكننا عندما نتغلغل في منابع العلم الاولى ، نرى دلائل انهيار هذا الرأي رويداً رويداً . في القرن السادس قبل المسيح قال فيثاغوراس ان الارض كروية . وفي القرن الرابع ق.م. ذهب هيراقليطوس النبطي الى ان ما يبدو من دوران السماوات ناشئ عن دوران الارض الكروية . وكان من شأن هذه الاقوال ان حملت الناس على تنقيح آرائهم في حجم الارض ومقامها بالقياس الى اجزاء الكون . ثم قام ارسترخس الصاميّ في القرن الثالث ق . م . وحاول ان يتبين حجم الكون بطريقة القياس العلمي الدقيق . فقد لاحظ انهُ عند ما يكون القمر نصفاً يكون الخط الوهمي الواصل بين القمر والشمس عمودياً على الخط الواصل بين القمر والارض . واذن فالمثلث الذي قوامهُ الخطوط الواصلة بين الشمس والارض والقمر تحتوي على زاوية قائمة عند القمر والثانية

(١) بحث مبني على محاضرة حديثة للسير جيمز جينز وكتابيهِ « الكون الذي حولنا » وكتاب «جبهة العلم »

التي عند الارض يمكن قياسها بالرصد . والثالثة تعرف بالاستنتاج الهندسي . وبهذه الطريقة حاول ارسترخس ان يعرف النسبة بين الاضلاع الثلاث في هـذه الزاوية اي النسبة بين ابعاد هذه الاجرام الثلاثة ، احدها عن الآخر . وقد كانت نظريتهُ سليمة ولكن ارصادهُ كانت خاطئة . والواقع ان الزاوية عند الارض تختلف عن الزاوية القائمة بمقدار تسع دقائق من القوس . ولكن ارسترخس حسب الفرق ثلاث درجات . وكذلك استنتج ان الشمس تبعد عن الارض عشرين ضعفاً بُعدَ القمر عنها حالة ان الشمس تبعد عن الارض ٤٠٠ ضعف بُعد القمر عنها

ولم يكتفِ ارسترخس بتقدير الابعاد النسبية ، بل سعى كذلك الى تقدير الابعاد الحقيقية. فبفضل انكساغوراس فهمت طبيعة الخسوف . فكان معروفاً حينئذٍ ان الظل الذي ينتشر على وجه القمر وقت الخسوف هو ظل الارض . ولما كان ارسترخس يعلم ان الشمس أبعد كثيراً من القمر عن الارض ، فانهُ ذهب الى ان مساحة الظل قريبة من حجم الارض اي ان الظلّ الواقع على القمر دائرة من حجم الارض تقريباً ، كما ترى على بُعدٍ هو بعد القمر عن الارض . ولما كان يعرف حجم الارض فقد كان من السهل عليهِ ان يحسب بُعد القمر عنها

وفي هذه الناحية ايضاً كانت طريقة ارسترخس سليمة وأرصاده خاطئة . فقد قدَّر ان ظل الارض يفوق قطر القمر ضعفين . والواقع انهُ يفوقهُ ثلاثة أضعاف . وحسب ان القمر يشغل في الفضاء قطعة من القوس قدرها درجتان. والحقيقة ان قدرها نصف درجة . فكانت النتيجة انهُ أخطأ في حساب بُعد القمر وحجمه . والواقع ان القياس الفلكي الدقيق لم يكن من مزاياه ، ولكنهُ كان أول باحث وجه النظر الى عظم الابعاد الفلكية

ثم ان ارسترخس أضاف الى ناحية الابعاد العظيمة في علم الفلك رأياً قد يفوق آراءهُ السابقة شأناً اذ أثبت بتدليل يذكرنا بتدليل كوبرنيكوس في القرن السادس عشر ب . م . ان الارض تدور في فلك دائري حول الشمس . ثم بنى على ذلك قولهُ بأنهُ ما زالت النجوم تبدو ثابتة في مكانها على الرغم من دوران الارض فيجب ان تكون بعيدة جدًّا عن الارض . ومن أقوالهِ ان النسبة بين ابعاد هـذه النجوم الى فلك الارض كالنسبة بين نصف محيط كرة ومركزها . اي ان النظام الشمسي لم يكن الاَّ بمنزلة نقطة في الفضاء

وغني عن البيان ان بطليوس الاسكندري تحدَّى هذه الآراء في القرن الثاني ب . م . وغلَّب آراءه عليها . فقال انهُ لو كانت الارض تدور لتناثرت في الفضاء الاجسام التي في منطقتها الاستوائية . وخلص من ذلك الى انهُ لو صحَّ رأي ارسترخس في دوران الارض لتبدَّدت مادة الارض هباء في الفضاء ، وهذا في رأيهِ من المضحكات . ومن أقوالهِ في هذا الصدد انهُ لو صحَّ ان الارض تدور وألقيتَ بحجر من علٍ لما وصل الى هدفهِ لان الارض بحركتها تبعد الهدف

في أثناءِ السقوط . وظلَّت آراء بطلميوس سائدة حتى منتصف القرن السادس عشر عندما ردَّها كوبرنيكوس بالحجة البيِّنة . وليس هنا مجال للتبسط في هذه المعركة الحاسمة في تاريخ العلم

وقد كان مصير آراء كوبرنيكوس خيراً من مصير آراء ارسترخس . ذلك لان الطباعة والمرقب كانا قد استنبطا . فما انقضى ثلثا قرن على نشر كتاب كوبرنيكوس حتى أثبت غليليو بالمرقب اي بالمشاهدة صحة اقوال هذا القس البولندي العالِم. وقبل ان ينظر غليليو من خلال مرقبهِ الى الفضاء بعشر سنوات ، كان جوردانو برونو يقول بأن النجوم أجسام تشبه الارض والقمر والسيارات ، وهو قول فيثاغوراس قبل الفي سنة . وما انقضت عشر سنوات على مشاهدات غليليو الاولى بمرقبهِ ، حتى كان كبلر قد أذاع رأيهُ بأن النجوم تشبه الشمس . وهذا القول كان أول باعث حمل الناس على ادراك سعة الكون العظيمة . لانهُ اذا كان اشراق النجوم شبيهاً باشراق الشمس فيجب ان تكون على أبعادٍ عظيمة عنا لكي تبدو صغيرة كما تبدو . فنحن نتلقى ضوءًا من الشمس يفوق مائة الف مليون ضعف ما نتلقاهُ من نجم من القدر الاول كالنسر الطائر أو يد الجوزاء او الدبران . فاذا كانت هذه النجوم من مرتبة الشمس اشراقاً فيجب ان يفوق بُعدها عنا ٣٢٠ الف ضعف بُعدَ الشمس عنا . فاذا حولنا هذا القول الى أسلوب الكلام العلمي الحديث، قلنا ان نجوم القدر الاول يجب ان تبعد عنا على هذا القياس خمس سنوات ضوئية

ونحن نعلم الآن ان هذا الاسلوب من البحث لا يفضي الى نتائج دقيقة لان القول بان النجوم تماثل الشمس اشراقاً بعيد عن الحقيقة اذ منها ما يفوق الشمس عشرة آلاف ضعفٍ ومنها مالا يبلغ اشراقهُ جزءًا من الف جزء من اشراقها . ولكن الاسلوب نفسهُ سليم اذا اتقن وقد اتقن في العصر الحديث وأضيفت اليهِ اضافات متعددة فغدا قياس ابعاد النجوم من أمتع ما يتناوله الفلكي في بحثهِ

أبعاد النجوم وقياسها

من الواضح ان في الامكان تقسيم النجوم طوائف . فهي تختلف اشراقاً اختلافاً عظيماً ، ولكن النجوم التابعة لطائفةٍ معينة تتشابه اشراقاً ، ولذلك يستطيع الباحث الفلكي ان ينفذ الى بُعد النجم برصد اشراقهِ البادي بالقياس الى اشراق الطائفة التي ينتمي اليها. وتقسيم طوائف النجوم يبنى عادة على دراسة طيوفها

خذ مثلاً على ذلك نجم الشعرى اليمانية . الذي يبدو لنا أبهر النجوم ضوءًا في الفضاء . هذا النجم ، من النجوم القريبة الى الارض ويمكن تعيين بعدهِ بطريقة اختلاف الزاوية ، وهي الطريقة التي يستعملها المهندس عند مسح الارض لتعيين بعد جبل وذلك برصدهِ من مكانين مختلفين بينهما ميل مثلاً او نصف ميل او ميلان ثم يرسم مثلثاً يستخرج منهُ بطريقة علم المثلثات بُعد

الجبل . والشعرى بهذا القياس تبعد عنا ٥١ مليون مليون ميل اي ٨٫٦٥ سنة ضوئية . ثم يتخذ بعد الشعرى مقياساً لبعد النجوم التي من طائفتها . فنجم من طائفتها يقل اشراقهُ البادي عنها ١٠٠ ضعف أبعد منها عنا عشرة اضعاف ، لان قوة الضوء تقل كمربع المسافة

ثم هناك النجوم المعروفة بالمتغيرات القيفاوية والاعتماد عليها في معرفة ابعاد النجوم أدق وهذا الاسلوب من اهم المكتشفات الفلكية الحديثة . والى القارىء وصفهُ موجزاً [1]

من انواع النجوم التي ترصّع القبة الفلكية نوع يعرف باسم « المتغيرات القيفاوية » وقد دعيت هذه النجوم كذلك نسبة الى نجم « ذلتا قيفاوس » . هذه النجوم يتغير اشراقها تغيراً دوريًّا فاذ تكون خافية الضياء تراها وقد اخذت تزداد اشراقاً ثم تأخذ بعد ذلك بالخمود حتى ترجع الى حالها الاولى . وقد شبهها جينز بنارَ الموقد الخامدة وقد القي فيها قدر من الفحم فما لبثت حتى اشتدَّ سعيرها . وقد وصفناها في مقتطف دسمبر ١٩٣٥ فقلنا « هذه النجوم قد تكون حمراً او مبياضَّة او صُفراء ، ولكنها على اختلاف ألوانها تنبض نبضاً منتظماً كأن كلاً منها قلب كبير ينقبض وينبسط او كأنها شعلة من الغاز تمدها حنفية تفتح وتقفل في فترات منتظمة فاذا فتحت كبرت الشعلة واذا أقفلت ضؤلت الشعلة حتى تكاد تنطفىء » . اما فترة التغير هذه فتختلف باختلاف النجوم من بضعة أيام الى شهر او اكثر

والفضل في كشف هذه الطريقة الجديدة لقياس ابعاد النجوم يرجع الى اميركية تدعى المس لفيت Leavitt . كانت هذه السيدة تشتغل في مرصد جامعة هارفرد سنة ١٩١٢ .وكان قد مضى عليها سنوات وهي تدرس الالواح المصورة لنواح مختلفة من السموات بغية ان تكشف ما تنطوي عليهِ هذه الالواح من حقائق جديدة عن النجوم مفردة ومجتمعة . واذ كانت مكبَّة على صورة لاحد القنوان النجمية التي على حدود المجرَّة ، تبيَّنت فيها شيئاً جديداً . ذلك ان طائفة من المتغيرات القيفاوية كانت قد ظهرت في تلك المجموعة النجمية . فلاح لها من دراسة الصورة ان المتغيرات القيفاوية الكبيرة المشرقة كانت أبطأ تغيُّراً من المتغيرات القيفاوية الصغيرة الخافية . فالفترة التي تنقضي بين خفاء القيفاويات الكبيرة وبلوغها ذروة اشراقها ثم رجوعها الى ما كانت عليهِ كانت اطول من فترة التغيُّر في القيفاويات الصغيرة . فأسرَّت ذلك الخاطر وعمدت الى ما يجمع من الصور الضوئية للسدم الاخرى التي صورت منذ استعمل تلك الطريقة الفلكيَّ درايبر في سنة ١٨٨٠ وخرجت من بحثها الدقيق المستفيض بأن طول فترة التغيُّر متصلة صلة وثيقة بقوة الاشراق . فأعلنت هذه القاعدة الجديدة في علم الفلك

(١) راجع مقتطف ابريل ١٩٣٨ مقال « المجرات » صفحة ٣٥٥ ومقتطف دسمبر ١٩٣٥ مقال « ذرع الفضاء » صفحة ٥٢٥

ولكن الاشراق البادي لنجم من النجوم يختلف عن اشراقهِ الحقيقي . لان ما يبدو من اشراق أحد النجوم يتوقف على بعده . فقد يكون نجمٌ عظيم الاشراق ولكنهُ عظيم البعد في الوقت نفسهِ فيبدو للراصد الارضي نجماً غاراً . فاذا كان هناك نجمان قيفاويان على بعد واحد من الارض وكانت فترة التغيُّر في احدهما اقصر من فترة التغير في الثاني . فالاول أقلّ اشراقاً من صاحبهِ . فلما وضعت هذه القاعدة هذا الوضع ظهرت فائدتها في قياس ابعاد النجوم . ولنفرض ان أمامنا نجمين قيفاويين فترة تغيرها واحدة . ثم لنفرض ان اشراق أحدها البادي يفوق اشراق الآخر مائة ضعف . فالنتيجة الحتمية التي نخرج منها — اذا صحت قاعدة المس لڤيت — ان أقلهما اشراقاً يجب ان يكون أبعد من الآخر عشرة اضعاف لان الضياء الصادر من جسم مضيءٍ يقل كمربع المسافة . ثم لنفرض ان أحد هذين القيفاويين واقع في مجموعة من النجوم عرف بُعدها عن الارض . ففي هذه الحالة يمكن استخراج بعد الآخر استخراجاً دقيقاً وكذلك تمَّ للعلماء أسلوب جديد بارع لذرع الفضاء

ثم عني شابلي وهبل بتطبيق قاعدة المس لڤيت على السُدُم . فاهتمَّ شابلي اولاً بالبحث عن المتغيِّرات القيفارية في القنوان الكروية ، ليتمكن من قياس بعد هذه القنوان بقياس بعد المتغيرات القيفارية التي فيها . وبعد بحث رياضي دقيق استخرج طريقة سهلة تمكن الباحث من معرفة ابعاد هذه النجوم الحقيقية بدلاً من معرفة ابعادها النسبية واعتمد على هذه الطريقة في قياس بعد قنو هرقل فوجدهُ ٣٦ الف سنة ضوئية . ثم اعتمد عليها في قياس ابعاد مائة من هذه القنوان فوجد أن بعدها وهو الموسوم NGC 7006 يبعد ٢٢٠ الف سنة ضوئية من الارض

اما هبل فصرف عنايتهُ الى قياس السدم بهذه الطريقة فوجَّه نظره اولاً الى السديم المرقوم Messier 31 وهو سديم حلزوني في صورة المرأة المسلسلة ثم الى السديم Messier 33 في صورة المثلث فوجد ان في الاول متغيرات قيفاوية تبلغ العشرة او اكثر قليلاً وان فترة التغيُّر في اشراقها تماثل فترة التغيُّر في بعض القيفاويات التي في المجرَّة . فاستند الى قاعدة المس لڤيت كما افرغها شابلي فتبيَّن ان هذا السديم يبعد عنا ٩٠٠ الف سنة ضوئية . واذن فهو خارج المجرَّة حتماً . ثم التفت الى الثاني وبالطريقة نفسها أثبت انهُ يبعد عنا مليون سنة ضوئية

وقد ظهر من بحوث هبل واعوانه ان اخفى السدم التي تتبينها عين المرقب وتسجلها لوحة التصوير الضوئي الحساسة يبعد ٢٤٠ مليون سنة ضوئية

فلنحاول الآن ان نرسم صورة للكون المنظور كما يرى لو كنا مشرفين عليهِ من بعيد . ولنجعل هذه الصورة كرة قطرها عشرون قدماً ، وكل بوصة فيها تمثل المسافة التي يجتازها الضوء في مليوني سنة ضوئية . واذن فمجرَّتنا (قطرها نحو ١٠٠ الف سنة ضوئية) تمثّل داخل

هذه الكرة برأس دبوس قطره عُشر بوصة . اما النجوم التي ترى بالعين المجرَّدة فتشغل داخل هذا الرأس كرة نصف قطرها ١/٦٠٠ بوصة . اما شمسنا فلا تزيد على حجم كهيرب — على هذا القياس — واما الارض فلا تزيد على جزء من مليون جزء من الكهيرب . وليس ثمة ما يحملنا على الظن بان كرة نصف قطرها ٢٤٠ مليون سنة ضوئية تشتمل على الكون كله . وانما هي ذلك الجزء من الكون الذي نستطيع ان نراه مباشرة او بالواسطة . ولا ريب في ان المرقب الكبير المنتظر البالغ قطر مرآته ٢٠٠ بوصة سيكشف لنا آفاقاً كونية جديدة وراء هذه الآفاق القصية

واذن فلا نستطيع ان نعتمد على الرصد وحده في تقدير حجم الكون، بل يجب الاستناد الى أساليب أخرى . وهذه الاساليب قائمة على قاعدة من نظرية النسبية . ولكن الارصاد الفلكية ليست بكافية لبناء حكم صحيح عليها ، ولذلك يقول السر جيمز جينز ان كل ما نستطيع ان نقوله ونحن واثقون بما نقول ان أبعاد الكون أعظم جدًّا من مسافة ٢٤٠ مليون سنة ضوئية وهو بعد أبعد السدم التي نتبيَّنها بأجهزة الرصد الحديث . أما مدى هذه الابعاد وهل هي ألفا مليون سنة ضوئية كما يقول بعضهم او عشرة آلاف سنة ضوئية كما يقول البعض الآخر او أكثر او أقل فلا يملك علماء العصر سنداً علميًّا كافياً للحكم فيه

عمر النجوم

نلتفت الآن الى موضوع عمر الكون . وهو موضوع يختلف في أركانه عن موضوع حجمه وسعته . وهناك طرائق مختلفة لتقدير هذا العمر ولكن ليس بينها طريقة يصح الاعتماد عليها كل الاعتماد . وهي تفضي الى نتائج متضاربة . والمسألة تدور في أبسط اشكالها على قدرتنا على ان ننفذ بأساليبنا العلمية الى ما كان عليه الكون في الماضي السحيق . وليس بالعجيب ان تقل دقتنا كلما تغلغلنا في الماضي

أن مرقب مرصد جبل ولسن الكبير يمكننا من تبين سدم تبعد عنا ٢٤٠ مليون سنة ضوئية. فعند ما يوجَّه المرقب الى هذه الاجرام الكونية ، نشاهد إما مباشرة وإما بالواسطة ، ما كانت عليه قبل ٢٤٠ مليون سنة لان هذا الضوء الذي نراها به غادرها عندئذٍ مجتازاً رحاب الفضاء . واذن فهذه الاجرام كانت موجودة قبل ٢٤٠ مليون سنة ولذلك يصح لنا ان نقول ان عمر الكون يزيد على ٢٤٠ مليون سنة . ثم ان هذه الاجرام القصية لا تختلف في أركانها وأوصافها الاساسية عن أجزاء أخرى من الكون أقرب الينا منها . واذن يصح ان نستنتج من هذا ان الكون لم يصبهُ تغير عظيم في أثناء ٢٤٠ مليون سنة . اي ان هذه المدة ليست الا فترة قصيرة في حياة الكون ونشوئه . واذن فعمر الكون يجب ان يكون أضعاف ٢٤٠ مليون سنة ودراسة الارض من ناحية عمرها تؤيد هذا الرأي . ففي وسع العلماء ان يسترشدوا بقواعد

علم الجولوجيا ليتصوروا ما كانت عليه الارض من ٢٤٠ مليون سنة، فيجدوا انها لم تكن تختلف كثيراً عمّا هي عليه اليوم . وهذا لا يبين فقط ان عمر الارض يزيد على ٢٤٠ مليون سنة بل يبين كذلك ان الشمس لم تتغير كثيراً خلال تلك المدة . ولذلك لا بدَّ ان يكون عمر الشمس وكذلك عمر الكون الذي هي احد شموسه ، اضعاف ٢٤٠ مليون سنة . وإذا حلّلت الصخور المحتوية على مواد مشعة عرف العلماء المدة التي انقضت منذ تجمدت تلك الصخور . وقد تبينوا بهذه الطريقة ان اقدم الصخور التي درست على هذه الطريقة يرتدُّ تاريخ تجمدها الى ١٧٥٠ مليون سنة . ولذلك يصحُّ ان نقول ان عمر الكون على الاقل ١٧٥٠ مليون سنة

وهناك وسيلة أخرى نستطيع ان نتوسل بها لتقدير عمر الكون . وهي القائمة على فكرة تمدُّد الكون . فالسدم التي خارج المجرَّة تبدو — اذا أخذنا بحيود الخط الاحمر — وكأنها تتفرق مبتعدة عنا وبعضها عن بعض . وقد قاس هيوماسون وهبل سرعة تفرقها وابتعادها فاذا أسرع ما قيس منها سائر بسرعة ٤٢ الف كيلو متر في الثانية . وهي سبع سرعة الضوء . والقاعدة المسلّم بها بوجهٍ عام الآن ان أبعد السدم أسرعها . وان السرعة تختلف باختلاف البعد . فاذا صحَّ ان الكون — اي الفضاء — آخذ في التمدُّد وان السدم وهي أجزاء منهُ لا بدَّ ان تبتعد بعضها عن بعض ، فالابعاد الكونية المعلومة لدينا الآن ، تتضاعف بعد الفي مليون سنة اذا استمرَّت الاجرام مغذة في سيرها بالسرعة التي تسند اليها الآن

الاَّ ان نظرية النسبية تذهب الى ان الكون لا يمكن ان يمضي في تمدده بمعدل واحدٍ من السرعة، بل في الوسع القول بناء على بعض قواعد النسبية، ان السرعة تزداد بنسبة هندسية ولذلك يقال ان ابعاد الكون تتضاعف بعد ١٤٠٠ مليون سنة على هذا الاساس . وهذا يعني ان ابعاد الكون كانت من ١٤٠٠ مليون سنة نصف ما هي عليه الآن وانها كانت قبل ٢٨٠٠ مليون سنة ربع ما هي عليه الآن . الاَّ انهُ لا نستطيع ان نرتدَّ في الزمن على هذا المنوال الى ما لا نهاية له حتى يصبح الكون نقطة مستقرة قبل ان بدأت تتمدد . ويقول جينز ان عمليات رياضية معقدة تحمله على الاعتقاد بأن التمدد الكوني لم يبدأ قبل ١٠٠ الف مليون سنة على الغالب . ولكن الرقم المذكور ليس الاَّ رقماً تقريبيًّا ولا يعتمد عليه . وليس فيه دليل حاسم على عمر الكون . وذلك لان عمليات رياضية اخرى تشير الى انهُ من المحتمل ان تكون فترة من التقلص الكوني قد سبقت فترة التمدد التي نشهدها الآن

ثم هناك فكرة جديدة قد يكون لها من الاثر في دراسة عمر الكون كأثر « المتغيرات القيفاوية » في دراسة ابعاده . وهذه الفكرة تقوم على مبدإ « توزع الطاقة المتعادل » بين الذرات في الغاز او بين النجوم في السماء . وهذا موضوع في حاجة الى مقال قائم بنفسه لبسطه .

ولكن لا بدَّ من ايجازه هنا . فالاتجاهُ في ذرات غاز ما الى ان تخسر الذرات التي فيها طاقة تفوق طاقة غيرها وان تكسب هذا ما فقدته تلك حتى يصل الغاز الى حالة من توزع الطاقة المتعادل فيصبح من هذه الناحية في حالة استقرار . والغالب ان يتم هذا التوزع عن طريق الاصطدام بين الذرات

ولكن المسافات الشاسعة بين كواكب السماء تحول دون حدوث اصطدامات كافية لتحقيق هذا التوزع ولذلك فهو يسند الى التفاعل التجاذبي بين النجوم . والمشاهد من رصد النجوم انها على اختلاف كتلها وسرعتها ، تكاد تكون بلغت حالة من التكافؤ في توزّع الطاقة بينها ، واذن فحساب عمر النجوم قائم على طول المدّة التي لا بدَّ منها لقوى التفاعل التجاذبي ، لكي تحوّل النجوم من تباين عظيم بينها في مقادير طاقتها الى حالة قريبة من التوزع المتكافىء او المتعادل. والنتيجة التي يخرج بها العلماء من هذا البحث ان عمر الكون من رتبة خمسة ملايين مليون الى عشرة ملايين مليون سنة

فما كانت حالة الكون من خمسة ملايين مليون سنة ؟ ان المشاهدة والرصد في عهدنا يدلان على ان الشمس تشع من الطاقة ما متوسطه ٢٥٠ مليون طن في الدقيقة . فقد كانت تزن امس في الساعة السابعة صباحاً — وهي ساعة كتابة هذه السطور — ٣٦٠ الف مليون طن اكثر مما تزن الآن . فمن مليون مليون سنة كان وزنها يفوق وزنها الآن كثيراً ومعرفة الفرق ممكنة بالحساب وهو يدل على ان ما فقدتهُ من وزنها خلال ذلك ليس الاَّ ٦ في المائة من كتلتها . ولذلك كانت أعظم اشراقاً مما هي الآن وكانت تشع كل دقيقة ٣٠٠ مليون طن في الدقيقة بدلاً من ٢٥٠ مليوناً . فبعد تصحيح الحساب نتبين ان الشمس حينئذٍ كانت تفوق ما هي عليه الآن كتلةً واشراقاً . وقد كان من المتعذّر من سنوات ان اصدّق ان الشمس تستطيع ان تولد طاقتها بملاشاة مادتها . ولكن علماء الطبيعة كشفوا خلال هذه السنوات الكهيرب الموجب (البوزيترون) في المعمل . وهذا حمل الباحثين على الاعتقاد بان تحوُّل المادة الى اشعاع عمل قائم في المادة الارضية علاوة على تحوُّل طاقة الاشعاع الى مادة . وما زلنا قد توصلنا الى معرفة مصدر للطاقة كهذا المصدر فليس ثمة اعتراض على عدّ عمر النجوم بملايين الملايين من السنين

لم يكن تصور رحابة الكون وسعته العظيمة بالامر السهل . واشقُّ من ذلك على العقل تصوُّر سعة الزمن الفلكي وامتدادهُ العظيم . فالكتاب اذا احتوى على مائتي الف كلمة عدَّ كتاباً فوق المتوسط حجماً . ولنقل انَّ كل كلمة متوسطها خمسة احرف . ثم لنأخذ هذا الكتاب وسيلة لتمثيل عمر الارض . ان الحضارة البشرية تمثل فيه بكلمتيه الاخيرتين . والعهد المسيحي بحرفه الاخير او اقل قليلاً . وحياة المتوسط من الناس تمثلها النقطة الاخيرة . هذا هو عمر الارض بالقياس الى عمرنا . وعمر الكون اذا مثل التمثيل نفسهُ اقتضى مجلدات متعددة . واذا صحَّ الرأي الاخير في عمر الكون وجب ان تملأ هذه المجلدات رفوف مكتبة تتسع لالوفٍ منها

العشاق الثلاثة

لعلي محمود طه

« الى ادعياء الحكمة والمعرفة
« الى المتطلعين للسماء في انتظار المعجزة
« الى القابضين على الريح

سرى القمرُ الوضّاح بين الكواكب ... يُفكّرُ فيما تحته من غياهب
فناداه من وادي الخليّين هاتفٌ ... بصوت محبٍّ في الحياةِ مقارب
يقول له : يا روعة الحسن والصِّبا ... وأجملَ أحلام الليالي الكواعب
أنا العاشقُ الوافي إذا جنَّنى الدُّجَى ... وراعيكَ بين النيِّرات الشواقب
ألا ليتني حُرٌّ كضوئك أرتقي ... عوالمكَ الملأَى بشتَّى العجائب
ويا ليتَ لي كنزَ ابتساماتكَ التي ... تُبعثرها في الكونِ من غير حاسب !

***

فأصغى إليه الضوء في صفوِ جذلان ... وأضفى على الوادي شعاعَ حنان
وجاسَ خلال السُّحْب والماءِ والثرى ... فلم يرَ في أنحائها وجهَ إنسان
فنادى به : يا صاحبي ضلَّ ناظري ... فأين تُرى ألقاكَ أم كيف تلقاني
فأوما له إني هنا تحت شرفتي ... وراءَ زجاجيها أخذتُ مكاني
أبى البردُ أنْ استقبلَ الليلَ قائماً ... وأن أنزلَ الوادي بحيث تراني
وحسبُ الهوى من عاشقٍ لك وامقٍ ... تزَوَّدُ عيني من سنا ضوئك الحاني !

***

فألقى عليه الضوء نظرةَ حائر ... وأعرضَ عنهُ بابتسامةِ ساخر

وقال له : يا صاحبي قد جهلتني ويا رُبَّ شعرٍ ساقهُ غيرُ شاعر
انا الموثَقُ المكدود طالت طريقه طريقُ اسيرٍ في رعاية آسر
تجاذبني طاحونةُ الشمس كلما وقفتُ . وتمضي بي سِياطُ المقادر
وما بسمتي إلاَّ دموعٌ من اللظى قد التمعتْ في وجهِ سهمانَ حاسر
فدعْ عنك يا أعجوبة الحبِّ عالمي فقبلكَ لم يَدرِ الاعاجيبَ ناظري !

***

وأمعنَ في تفكيرهِ القمرُ الزاهي فمرَّ بأرضٍ ذاتِ عُشْبٍ وأمواه
يناجيه منها عاشقٌ ذو ضراعةٍ مناجاةَ صوفيٍّ لِطَيْفِ إلـه
يقول له : يا مُشهدي كلَّ ليلةٍ جمالَ محُيًّا رائعِ الحسنِ تَيّاهِ
شبيهٌ بهذا الضوء نورُ جبينهِ على أنَّهُ في الناس من غير أشباهِ
وترسمُ لي الاشباحُ طيفَ خياله فأدنو لضمٍّ او للثمِ شفاهِ
تَمنَّيْتُ لو وسَّدْتُ خدَّك راحتي وصدرُك خفّاقٌ وجفنُك ساهي

***

فرفَّ على الوادي الشعاعُ طروبا وناداهُ من بين الظلالِ مُجيبا
أزِحْ هذه الاغصانَ عنك لعلني أصافحُ وجهاً من هواكَ حبيبا
فجاوبهُ : يا قُرَّة العين إنني قد اخترتُ من شطِّ الغدير كثيبا
اذا أتعبتْ عيني السماء تَطلُّعاً وخالستُ لحظاً للنجوم مُريبا
ففي صفحاتِ الماء نُهزةُ عاشقٍ يراكَ على بُعْدِ المزار قريبا
خلوتُ بهِ أرعاكَ أوفى قسامةً وأوفرَ من سحرِ الجمالِ نصيبا !

***

فغاضَ ابتسامُ الضوءِ من فرط حيرةٍ وصاح نجيِّي أنت حقَّرتَ سيرتي

هو الـكونُ مرآتي ومجلى مفاتني وما لغديرٍ ان يـمثِّلَ صورتي
وما نَـظرَ العشّاقُ إلاَّ بأعينٍ تُـعَـظِّـمُ في المعشوق كلَّ صغيرة
أعيـــذُ الذي شبَّـهتَـني بجماله أديمَ مُـحيًّا مثلَ صمَّاء صخرتي
أنا الفحمةُ البيضاء ان جنَّني الدُّجى انا الحمَّـةُ السوداء رأد الظهيرة
فَـدَعْ عالمَ الافلاكِ واقنع بلجَّـةٍ وغازلْ من الاسماك كلَّ غريرة!

***

وبينا يهيمُ الضوء في سبحاتهِ وقد غطَّ هذا الـكونُ في سخرياتهِ
رأى شبحاً في قـــرب نارٍ كأنَّما يودِّع طيفاً غابَ عن نظراته
يمدُّ ذراعيـه ، ويُرسلُ صـوته بلوعـــةِ قلبٍ ذابَ في نبراته
الى القمر الساري مُـحيَّاه شاخصٌ كصاحبِ نُـسْكٍ غارق في صلاته
فحام عليه الضوء واستمهلَ الخُـطى وأجرى سناه الطلْـقَ في قسماته
وصاح به : يا شيخُ ما أنت قائلٌ تـكلَّـمْ : فانَّ الليل في أخرياته

***

فقال له : يا باعث الحبِّ والمنى سلمتَ وحيَّـتْـك العوالمُ والدُّنى
شفيتَ جوى شيخٍ أحبك يافعاً وعاش بهذا الحبِّ جذلان مُـؤمنا
وأفنيتُ عمري أرتقي عاليَ الذرى إلى انْ بلغتُ اليوم مثواي ههنا
وأوقدُ ناري كي تَراني وأنثني لأُطلق ألحاني وأدعـــوك موهنا
وقيلَ ضنينٌ لا يجـودُ بوصله فهأنذا ألقاك يا ضَـوء محسنا
تساوتْ كلابٌ تنبح البدرَ سارياً ونوَّامُ ليلٍ أنكروا آية السنا!

***

فحدّقَ فيه الضوء وارتدّ مغضبا
وقال له أفنيتَ في سخفك الصبا
ولمّا تُرِحْ جفناً من السهدِ متعبا
وسخريةٌ بالنار أن تتقربا
كأنّ شعاعي في جفونك قد خبا
ومن عبث مثواك في هذه الرُّبى
على حين لم تبلغْ من النور مرقبا
وما كنتَ إلاّ الواهم المترقبا
وثالثَ عشاقٍ بهم ضقتُ مذهبا
وكانوا لأمثال الخليّين مضربا
فوآسفا، ما كنتُ في الدهر مذنبا
فأجزى بنجوى من تعشّق أو صبا
وساقَ على حبي الدليل المكذّبا
سَلِ العاصيَ الهاوي من الخلد هل نبا
به الليلُ لمّا آثر الأرضَ واجتبى ؟
أأبصر قبلي في الدجنّة كوكبا
أضاء له الدربَ السحيق المشعّبا
وهل في سنا غيري تملّى وشبّبا
بحواء واهتاج اليراعَ المثقبا
حويتُهما روحاً طريداً معذّبا
فذابَ حياتي منهما وتصبّبا

وأورثني هـذا الشحوبَ وأعقبا
رأيت فماً يدنو ووجهاً تخضبا
وجسمين ذابا شهـوةً وتلهبا
وصدراً خفوقاً فـوق صـدرٍ توثبا
غرائزُ فيهـا الغيُّ والنقصُ رُكِّبا
تَـلمَّسُ في ضـوئي الأثامَ المُحببا
فيا شيخ دَعْ هذا الوشاحَ المذهّبا
تراحمأ المسنونَ في الكأس ذُوِّبا
طفا الراح فيـه والـتراب ترسَّبا
وإنَّ كلابَ الأرض أشرف مأربا
ينـيرُ لها ضوئي الظلامَ لتجنبا
خُطى اللصِّ يستار الطريقَ المحجَّبا
فان نبحت ضوئي تسمَّعتُ معجبا
بأرخم لحنٍ رنَّ في الليل مطربا
تحيَّةَ مُثنٍ بي أهـلٌ مرحَّبا
بي آدم إن لم يكن آدم الأبا
رجوتُ لكم من عالم الرجس مهربا
وآثرتـكم بالـكلبِ جِـدًّا مهذَّبا
وأجمِلْ بالانسان ان يتكلبا

***

ومالَ عن الارضِ الشعاعُ وغرَّبا ووسوسَ في صدرِ الدُّجى فتألبا

الـكلف

والاشعة الكونية

الـكلف التي تبدو على وجه الشمس والاشعة الـكونية والعواصف المغنطيسية ظاهرات طبيعية متباينة ، ولـكنها تتباين كأن بينها اتفاقاً على الاتساق في تباينها . وقد كانت هذه الحقيقة لغزاً يحير العقل حتى عهد قريب الا ان العلماء شرعوا ينفذون الى حقيقته

ففي ٢٥ يناير سنة ١٩٣٨ حدثت اعظم العواصف المغنطيسية التي رصدها العلماء في السنين الاخيرة فتأثر بها الراديو حتى كأن قوة خفية جمّدت امواجهُ في الفضاء ، واضطربت بوصلات السفن ، وعجزت اسلاك البرق عن نقل رسائله لتولد تيارات متأثرة قوية فيها ، واشتد ظهور الانوار القطبية. وفي الوقت نفسه اذاعت المراصد وجود كلفة على وجه الشمس تفوق في حجمها الكلف المألوفة. وكانت هذه الـكلفة — بحسب الرأي الحديث — إعصاراً من الغاز المتوهج يتسع لعشر كرات كلٌّ منها بحجم الارض . اما الاشعة الكونية التي قلما يبدو تغيّر ما في قوتها ، فبدا للباحثين انها اضعف في تلك الفترة من مستهل هذه السنة مما هي عادةً . وكان الباحثون قد أثبتوا ان لاصلة بين الشمس وهذه الاشعة فماذا حدث حتى اثر فيها الاضطراب المجتاح قرص الشمس ؟

ان الـكلف الشمسية في رأي الفلـكيين اعاصير تنتاب سطح الشمس ، ويكون اتجاه المادة فيها الى الخارج . والغازات المتجهة من قلب الشمس الى خارجها تتمدد فتبرد . وقد يكون الغاز في هذه الفوهة المفتوحة في الشمس أبرد من الغازات التي تحيط بها نحو الف درجة . ولـكن ذلك لا يمنع ان يكون غاز الـكلفة شديد الحرارة وان تكون حرارتهُ كافية لفصل بروتونات الذرّات عن كهيرباتها فتنطلق البروتونات والـكهيربات في الفضاء بقوة عظيمة

وقد يعلو كلفَ الشمسِ ألسنةٌ تندلع من سطحها الى الفضاء المحيط بها ، وليس بالنادر ان يبلغ ارتفاعها عن سطح الشمس ٢٥٠ الف ميل اي مقدار بعد القمر عن الارض تقريباً . وهذه الالسنة الغازية المندلعة من الشمس تلطف مادتها رويداً رويداً كلما بعدت عن مصدرها حتى تصبح هباءً خفيفاً لا يرى. الا ان الذرات واجزاء الذرات المنطلقة من أعاصير الشمس تبقى سائرة في الفضاء بين النجوم

وقد تبقى الـكلفة ثلاثة اسابيع او أربعة بغير ان تندلع منها هذه الالسنة النارية وقد تندلع الالسنة ولـكنها لا تكون متجهة صوبَ الارض اذ لا يخفى ان الارض لا تزيد على نقطة صغيرة

في الفضاء اذا رصدت من الشمس . وعلى الرغم من صغر الارض بالقياس الى الشمس وبعدها عنها ، يصيبها أحياناً رذاذ من هذه التيارات المنطلقة في الفضاء

ان الدقائق المشحونة في هذه التيارات — وهي كهيربات على الغالب — تخضع لنواميس الكهربائية والمغنطيسية من حيث الجذب والدفع . ولذلك تراها تتجمع متجهة الى قطبي الارض المغنطيسيين عند اقترابها من الارض. وقد أثبت ملكن من عهد قريب ان تأثير الارض المغنطيسي — او حقل الارض المغنطيسي كما يقال باللغة الانكليزية — يمتدُّ الى ما وراء غلافها الغازي اي جوّها ، وعلى بعد ألوف من الاميال عن سطح الارض يؤثر هذا الحقل المغنطيسي في الكهيربات المنطلقة في الفضاء صوبَ الارض ، فيحرفها الى القطبين المغنطيسيين ، ولا يمتنع الانحراف الاَّ عن الاشعة الشديدة النفوذ ، ولكن معظم الاشعة الكونية ينحرف كذلك

وعند ما تصبح تيارات الكهربائية المنطلقة من الشمس على بضع مئات من الاميال من سطح الارض تبدأ تصطدم في سيرها بدقائق الهواء فينتقل الى هذه الدقائق جانبٌ من طاقة الكهيربات فتصبح هذه الدقائق في حالة « تهيج » فتتحول طاقة الاصطدام فيها الى « تألق » . وهذا التألق هو ما يطلق عليه اسم الشفق القطبي او الانوار القطبية. وفي الوسع الرجوع بشكل هذه الاضواء ولونها الى الكهيربات الواصلة الى جوّ الارض من الفضاء وتباين طاقاتها

وقد عمد العالم النرويجي ستورمر الى تصوير ألوفٍ من هذه الاضواء ثم بيَّن كيف يرجع كل شكل من أشكالها الى طائفة من دقائق ذات طاقة معينة منحرفة في حقل الارض المغنطيسي

ولا يخفى ان من القواعد الطبيعية المسلَّم بها ان الفعل وردّ الفعل متساويان . فاذا انحرفت طائفة كبيرة من الدقائق المكهربة بتأثير حقل الارض المغنطيسي واتجهت في انحرافها صوب القطب فأحدثت الاضواء القطبية الباهرة ، فالطاقة التي أنفقت في حرفها أخذت من حقل الارض المغناطيسي فأصاب هذا الحقل شيءٌ من التغيير. ولما كانت هذه الدقائق المكهربة ليست قادمة من جميع الجهات على السواء ، فالتغيير لا يصيب حقل الارض المغنطيسي في جميع جهاته على السواء. فيتجه الحقل المغنطيسي من تلقاء نفسه الى المساواة، وهذا الاتجاه يدوّن اضطراباً في بوصلة الملاَّح

ولا يخفى ان علماء الطبيعة أثبتوا من عهد فراداي ان سلكاً متحركاً في حقل مغنطيسي مستقر ، يولَّد فيه تيار كهربائي . وان سلكاً مستقرّاً في حقل مغنطيسي متحرّك يولَّد فيه تيار كهربائي كذلك . وكذلك يولّد التغيُّر في حقل الارض المغنطيسي — سعياً وراء العودة الى الاتساق — تيارات كهربائية في أسلاك الشركات البرقية . فاذا بلغت هذه التيارات المؤثرة درجة معينة اضطرب نظام ارسال الاشارات البرقية أيما اضطراب . ويطلق على الاضطرابات التي تقع في حقل الارض المغنطيسي اسم « عواصف مغنطيسية » والعواصف الكبيرة التي من هذا القبيل

نادرة . ولكنها سواء أصغيرة كانت أم كبيرة تدل على وصول تيارات من الدقائق المكهربة من الشمس الى الارض

وقد نسأل ما مصير هذه الدقائق ؟ عندما تصطدم هذه الدقائق بدقائق الهواء يتصها الهواء فتؤثر فيه فوق الطبقة المعروفة بطبقة كنلي هيفيسيد . وهذه الطبقة أشبه ما يكون بدثار كهربائي يحيط بالارض على ارتفاع معين وقوامها ذرّات اصابتها الاشعة التي فوق البنفسجي فأيّنتها . ولذلك يصيب هذه الطبقة تغيير يوميّ بين الليل والنهار . ففي اثناء الليل تعود شظايا الذرّات المؤينة الى التجمع فتبنى منها ذرّات كاملة ثانية . فاذا اتصل بجوّ الارض تيار من الدقائق المكهربة تعاونت مع الاشعة التي فوق البنفسجي في فعل التأيين فيزداد عدد الذرات المؤينة في تلك الطبقة . ومن خصائص الغازات المؤينة انها تعكس الامواج الكهرطيسية اي أمواج الراديو كما لا يخفى . ومن الطبيعي ان يصيب فعل الانعكاس تغييرٌ اذا أصاب الطبقة العاكسة تغيير في بنائها

فلما حدثت « العاصفة المغنطيسية » أخيراً لم يدهش مهندسو الراديو ان يجدوا تلاشياً في أشعة الراديو القصيرة التي تجتاز المحيط الاطلنطي فاضطروا ان يغيروا طول الامواج التي يذيعون بها لكي يتمكنوا من الاحتفاظ بالاتصال اللاسلكي . وذلك لانه عندما تتأثر طبقة كنلي هيفيسيد باشعاع الكاف الشمسية تصبح وهي أحسن عكساً لامواج لاسلكية معيّنة دون غيرها

والاشعة الكونية تصل الى الارض من رحاب الفضاء . ولو أنها كانت تصدر من الشمس لكانت اقوى في النهار منها في الليل . ولكن ذلك لا يقع . فالتغيير في الاشعة الكونية بين الليل والنهار لا يزيد على خمس واحد في المائة حالة ان التغيير في ضوء الشمس يهبط الى صفر تقريباً على جانب الارض المظلم . واذا كان هذا كذلك فلماذا تضعف الاشعة الكونية في اثناء العواصف المغنطيسية ؟ ان الجواب عن ذلك منطوٍ في طبيعة هذه الاشعة نفسها

ان جانباً من الاشعة الكونية على الاقل دقائق مكهربة . تأتينا من مصادر مجهولة في رحاب الفضاء وطاقتها تتباين من ملايين الى عشرات البلايين من الفولطات . فدقائق هذه طاقتها قلما يؤثر حقل الارض المغناطيسي في حرفها . ولكنها تنحرف قليلاً فتبدو وهي قرب القطبين اشد مما هي عند خط الاستواء بمقدار عشرة في المائة . فاذا تغير الحقل المغنطيسي الذي يحرفها تغيرت شدتها . واذن فالاشعة الكونية التي لا تتأثر بالشمس عادة تتأثر بما تطلقهُ الكاف الشمسية من دقائق مكهربة تؤثر في حقل الارض المغنطيسي

الاّ ان التغير في الاشعة الكونية ليس كبيراً ولم يكن قياسه بالمستطاع الاّ في العهد الاخير وبعد اتقان اساليب القياس الدقيقة . وقد اعلنت هذه الاساليب اولاً في ٢٥ ابريل ١٩٣٧ ثم حدثت العاصفة المغنطيسية في يناير ١٩٣٨ فظهر الاثر في الاشعة الكونية كما كان متوقعاً

النهضة العربية

القومية وأثرها الادبي

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

﴿ توطئة ﴾ للعرب في تاريخهم القديم ثلاث نهضات بارزة . الاولى دينية مهدها الحجاز وقد بلغت اوجها بظهور الاسلام وانتشاره في قسم كبير من المعمور . والثانية قومية . وليس بالهيّن فصلها عن الاولى ، على انها تبرز بشكل خاص في العهد الأموي ففيه كان للعرب سلطنة عظيمة الشأن تمتد من حدود الهند الى الاندلس . وكان العرب فيها اهل الادارة والسلطان ، بسيوفهم تحاط الدولة والى خزائنهم تجبى الاموال . واما النهضة الثالثة فعلمية لغوية ، وقد بدأت بالنموّ منذ ظهور الاسلام وما زالت حتى بلغت عصرها الذهبي في بغداد وبعض الحواضر الاخرى. ويراد بها ما قامت بهِ اللغة العربية يومئذٍ من نقل العلوم القديمة والتوسع فيها وما عُرف من ازدهار معارفها وآدابها

ومن المعلوم ان العرب فقدوا بعد الامويين مقامهم السياسي الممتاز في الشرق واخذوا بعد العصر العباسي الاول بالتراجع امام سائر العناصر . ولم يلبثوا في الشرق عقب انحلال الخلافتين العباسية والفاطمية، ان دخلوا في حكم الدول الاعجمية وآخر هذه الدول السلطنة العثمانية التي يمتد حكمها عليهم من سنة ١٥١٦ م الى نهاية الحرب الكبرى ١٩١٨

ولا نرى قبل القرن التاسع عشر ما يشير الى يقظة قومية للعرب ، فقد كانت قوميتهم في سبات عميق . واول من حاول ايقاظها لاغراض سياسية محمد علي الكبير (مؤسس البيت المالك المصري) او قل ابنه ابرهيم باشا ، وكان ينوي انشاء دولة عربية مركزها القاهرة.[١] لكن مشروعه لم يتمّ . ولا يظهر أن البلدان العربية التي نؤرخ ادبها الحديث (مصر وسوريا والعراق) تأثرت يومئذٍ

(١) راجع ما ذكرناه في مستهل الفصل الاول (مقتطف فبراير الماضي) وكذلك تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي (طبع ١٩٣٠) ص ٢٣٣ و٢٦١

تأثراً جدّيًّا بهذا المشروع او سعت لتحقيقه، على ان البذرة وضعت في الارض وترك للزمان إنباتها
بقي الحال كذلك الى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر، وكانت مصر قد استقلت بشؤونها الداخلية عن الدولة العثمانية، والنهضة العلمية قد بدأت في سوريا ولبنان بتنشيط بعض اعلام الحكّام كراشد باشا ومدحت باشا [١] واضرابهما، فتهيأ من كل ذلك بواعث لحركة ادبية تعبّر عن احلام العرب وخوالجهم القومية. ومن هذا القبيل جملة من القصائد والخطب الوطنية التي كان لها اثر يذكر في تخمير الافكار واذكاء الروح القومية وسنذكر شيئاً منها بعد

ومن ظواهر تلك اليقظة القومية نشوء جمعيات غايتها المطالبة بحقوق العرب في السلطنة العثمانية والحضّ على إنهاضهم، كالجمعية التي تأسست سنة ١٨٨١ باسم «جمعية حفظ حقوق الملّة العربية» وقد نشرت نداء الى العرب من مسلمين ومسيحيين تحت عنوان «يا نامه الامة العربية» تدعوهم فيه الى الاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية [٢] ويبدأ هذا النداء بمخاطبة المسلمين فيلفت نظارهم الى ظلم تركيا ويختم ذلك بقوله —

«فأين انتم واين هم؟ من منكم اليوم امير ومن منكم اليوم وزير ومن فيكم اليوم مدير؟ بل كل واحد منكم فقير، وكبيركم مثل صغيركم حقير، والمال والآمال بأيدي الترك الخ» ثم يلتفت الى المسيحيين فيقول لهم —

«اتحدوا مع المسلمين واستعدوا لنوال حريتكم من المعتدين فان الترك يخشون بأسكم فلا يمسّونكم ولا ينتهكون حرمتكم خوفاً من القناصل. فاتحدوا بقلب مع اخوانكم المسلمين فان مرجع مصالحكم الى واحد»

ويظهر ان بعض ذوي المصالح من الاتراك كانوا يظاهرون العرب، فقد ذكرت جريدة المشير ان جماعة من شبان العرب والاتراك اجتمعوا في باريس لتأسيس جمعية عربية وغاياتها [٣]

١ — ان يدافعوا عن حقوق العرب جميعاً مهما تباينت مذاهبهم
٢ — حفظ الامة العربية تحت ظلّ الراية العثمانية في وضع قانون اساسي للخلافة
٣ — ان يساوى بين العرب والترك في كل شيء
٤ — اجراء الاصلاحات الواجبة بالطريقة الواقعة (اي بالفعل)
٥ — استقلال كل ولاية من الولايات (العربية) بماليتها وتخصيص ولايتها بوالٍ عربي او معاون عربي. (وهو كالنظام اللامركزي الذي كان يسعى اليه الاصلاحيون قبيل الحرب الكبرى كما سنرى بعد)

ويلوح لنا ان هذه الجمعية هي نفس الجمعية التي يذكرها سيميونسكو في جريدة الجورنال

(١) راشد باشا كان والياً على سوريا سنة ١٨٦٣ — ٦٨ ومدحت بعده بقليل (٢) جريدة المشير ٢٩ مايو ١٨٩٥ (٣) المشير ١٩ ديسمبر ١٨٩٦

الفرنسية اذ يقول [١] « في العام ١٨٩٥ بدأت حمّى الاسلام بالارتفاع عند ما تأسست في باريس عصبة الوطن العربي وكان لهذه العصبة قاعدتان جوهريتان هما التحرّر من الاجانب واتحاد البلدان العربية تحت سلطة موحّدة وزمنية »

ولعلّ عصبة الوطن العربي هي الجمعية الوطنية العربية التي يذكرها الاعظمي في كتابه « القضية العربية »[٢] وسواء صح ذلك ام لم يصح فالواقع ان العرب اخذوا منذ ايام السلطان عبد العزيز يتنبهون الى حقوقهم ويطالب احرارهم بها ، وقد تركوا لنا من آثارهم الادبية في العهد السابق لدستور ١٩٠٨ ما لا يترك مجالاً للشك في ذلك

على ان هذا التنبه لم يبلغ بهم يومئذٍ مبلغ الرغبة الجدية في الانفصال عن تركيا وجل ما كانوا يطلبونهُ ان ينالوا حقوقهم في الدولة . وعلى ذلك يقول المقطم سنة ١٨٩٤ بعد ان يذكر النسبة العددية بين العرب والاتراك [٣] — « ان العرب مظلومون من حيث الادارة والمناصب وان جلالة السلطان لو علم الحقيقة لانصف العرب ونحن لا نشك بحسن نية السلطان ولكننا نشك في ان هذه الحقائق تصل اليه » . وأوضح من هذا القول تصريح خليل غانم ، مبعوث سوريا في المجلس العثماني الاول (ايام مدحت) وأحد مؤسسي جمعية تركيا الفتاة في باريس ، اذ قال [٤] — « ولا نطلب انفصال العرب عن الاتراك لان ذلك يؤول الى الخراب والاندثار . بل نطالب ونتمنى من صميم الفؤاد انضمام الملتين بل ادغامهما الواحدة بالاخرى بحيث تكونان امة واحدة ، ولكن على شرط المساواة في الحقوق والواجبات »

وهذه الروح المسالمة تتجلى في اقوال جمهرة العثمانيين من ابناء العربية . على ان منهم من لم يقف هذا الموقف المسالم بل نراه يتطرف الى درجة التهجم على الدولة ونعتها بشتى النعوت الذميمة . ويغلب ذلك في الصحافة الخارجة عن دائرة النفوذ التركي . او في بعض الاوساط الخاصة المشبعة بروح العداء للادارة الحميدية . واكثره من قبيل الانفعالات النفسية التي كانت تثور في نفوس الشبيبة . وهي عادة عنيفة متطرفة . قلما تنظر في الامور من كل وجهاتها لتميز بين الغث والسمين وتعرف الصحيح من الفاسد . ولكنها على كل حال صادقة . وبرغم تطرفها ، ورغم تعسفها ترسم لمؤرخ الادب صورة جلية لناحية من نواحي تلك البيئة السياسية

﴿ البوادر القومية الاولى في الادب العربي ﴾ ظهر في اصيل القرن التاسع عشر نخبة من احرار الكتبة والشعراء ، وأكثرهم كما ذكرنا في فصل سابق ، من دعاة الاصلاح العام للدولة العثمانية . على ان الذي يهمنا هنا هو ذلك الادب القومي المتصل مباشرة بالحركة العربية او بالاسباب

(١) عن صوت الاحرار (بيروت) ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٧ (٢) طبع ١٩٣١ ص ٤٨ (٣) المقطم عدد ١٧٢٨ (٤) المشير ٢٥ يناير (ك ٢) ١٨٩٥ (راجع سيرته في تاريخ الصحافة لطرازي ج ٢)

التمهيدية لها . ويلوح لنا من رجاله ثلاثة نرى في نفثاتهم اصدق مثال لتلك الحركة . وهم ابراهيم اليازجي . وعبد الرحمن الكواكبي . وأديب اسحق . فلننظر في كل منهم وفي الدور الذي قام به

« اليازجي ١٨٤٧—١٩٠٦ » ولقد يعجب البعض لزجنا ابراهيم اليازجي في هذا المقام وهو المعروف بالتنقيب اللغوي والبعد عن تيار السياسة . على ان الذي يطالع شعره في ابان شبابه يرى فيه عربيًّا شديد النزعة القومية . ودليلنا على ذلك بعض قصائده التي نظمها (وهو في نحو العشرين او بعدها بقليل) فأحدثت في نفوس الناس هزة لا يزال اثرها الى الآن .

ومنها ثلاث قصائد أولاها قصيدة انشدها سنة ١٨٦٨ في الجمعية السورية ومطلعها [1] —

سلامٌ ايها العربُ الكرامُ وجاد ربوع قطركم الغمامُ
لقد ذكر الزمان لكم عهوداً مضتْ قدماً فلم يضع الذمام

ويتقدم الى وصف مجالس العلم وأربابها ثم يعود الى ذكر العرب فيقول مفاخراً : —

وما العُرب الكرام سوى نصال لها في أجفن العَليا مقامُ
لعمرك نحن مصدر كل فضلٍ وعن آثارنا أخذ الانامُ
ونحن اولو المآثر من قديم وإن جحدت مآثرنا اللئامُ

ويأخذ من هنا بتعداد امجاد العرب الأُول في العراق والشام والحجاز واليمن والاندلس ويختم ذلك بقوله —

ولسنا القانعين بكل هذا وليس لنا بعروته اعتصامُ
ولكنا سنجهد للمعالي الى ان يستقيم لنا قوامُ

والقصيدة الثانية بائية وهي تلتهب حماسة ومطلعها [2] —

تنبهوا واستفيقوا ايها العربُ فقد طمى السيل حتى غاصت الرُكبُ
فيمَ التعلُّل بالآمال تخدعكم وانتمُ بين راحات القنا سُلُبُ
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

ومنها

فشمِّروا وانهضوا للامر وابتدروا من دهركم فرصةً ضنَّت بها الحقب
لأنتمُ الكثرى وكم فئةٍ قليلةٍ تمَّ إذ ضُمَّت لها الغلب

ثم يشير الى الاتراك فيقول : —

سلاحهم في وجوه القوم مكرهمُ وخير جندهم التدليس والكذبُ

---

(١) راجع الآداب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو ٢ — ٣٧ (٢) راجع نصها في المشرق ٢٥ ابريل ١٨٩٦ وفي مجلة الاصلاح (بونس ايرس) ٤—٤ وفي القضية العربية للاعظمي ١ — ٤٣ . ولا يذكر المشرق اسم ناظمها . وتعزى في سر مملكة ٧٣ الى أحد مشائخ المسلمين. أما سائر المصادر ومنها زيدان في تراجم مشاهير الشرق ٢—١١٩ فتتفق على ان صاحبها اليازجي

لا يستقيم لهم عهدٌ اذا عقدوا ولا يصحُّ لهم وعدٌ اذا ضربوا

وتأخذه الحماسة القومية فيصيح :

بالله يا قومنا هبّوا لشأنكمُ فكم تناديكم الاسفار والخطبُ

ألستم من سطوا في الارض واقتحموا شرقاً وغرباً وعزوا أينما ذهبوا

فما لكم ويحكم أصبحتم هَمَلاً ووجه عزّكم بالهون منتقب

لا دولةٌ لكمُ يشتدُّ أزركمُ بها ولا ناصرٌ للخطب ينتدب

أقداركم في عيون الترك نازلةٌ وحقّكم بين أيدي الترك مغتصب

وكلّها على هذا النمط من اثارة الحفائظ والعصبية الجنسيّة

أما الثالثة فهي السينية المشهورة . قال سليم سركيس : « ان الذي تولى نشرها في دمشق جمعية نظمت ايام مدحت باشا . وقد كان لنشرها رنّة في البلاد فارسلت التلغرافات الى الاستانة وازداد عدد البوليس السرّي والقت الحكومة القبض على كثيرين » [1]. ولما كانت قد نشرت كاخواتها البائية غفلاً من التوقيع فقد اختلف في ناظمها على ان أكثر المصادر تعزوها الى اليازجي وهي قصيدة طويلة قد تزيد على الستين بيتاً وهاك بعضها [2]

دعْ مجلس الغيد الاوانسْ وهوى لواحظها النواعسْ

ومنها أي النعيم لمن يبيت على بساط الذلّ جالسْ

ولمن تراهُ بائساً أبداً لذيل الترك « بائس »

ولمن أزمّته بكفّ عداه يُظلمُ وهو آيسْ

ولمن تباع حقوقه ودماؤه بيع الخسائسْ

ولمن يرى أوطانه خرباً كاطلالٍ دوارسْ

وهنا يقف الشاعر على طلول البلاد ويعدد امجادها الغابرة ثم يقول : —

فالتركُ قومٌ لا يفوز لديهم الاّ المُشاكسْ

أولستم العربَ الكرام ومن هم الشمّ المعاطسْ

فاستوقدوا لقتالهم ناراً تروّع كل قابسْ

ويدعو العرب الى الاتحاد منددّاً بالشقاق والتعصب الديني ومثيريه في نفوس العامة ثم يقول :

ساد الفساد بهم فسادَ الترك فيه بلا معاكسْ

كم تأملون صلاحهم ولهم فساد الطبع مائسْ

ويغركم برق المنى جهلاً وليل اليأس دامسْ

(١) سر مملكة ٦٧ (٢) راجع نصها في سر مملكة ٦٤

عمّت قبائحهم فأضحت لا تحيق بها الفهارسْ
حالٌ بها طاب التبسم للـوغى والموتُ عابسْ
وحلا بها سفك الدماء فسفكها للجور حابسْ

ولم تكن هذه النفثات الشعرية نسيج وحدها في تلك العهود بل ظهر مثلها كثير في البلاد العثمانية والمهاجر . وكلها تنم على تخمير قومي أحدثته الاحوال الجديدة في نفوس الشبيبة لذلك العهد

﴿ عبد الرحمن الكواكبي ١٨٤٩ — ١٩٠٢ ﴾ كان هذا الاديب الحلبي اصلاحيًّا حرًّا. وقد اوصلتهُ نزعته الحرة الى السجن . ثم الى هجرة تركيا والطواف في افريقيا وبلاد العرب والهند [١] . وله كتابان معروفان هما « طبائع الاستبداد » و «أم القرى» والاول دعوة جريئة الى الحرية والتخلص من قيود العادات الاجتماعية المضرة . اما الثاني ، وهو الذي يهمنا هنا ، فمن العوامل الفعالة في ايقاظ الشعور القومي بين العرب ، اذ هو يدعو الى خلافة عربية مركزها الجزيرة العربية [٢] ويسرد لذلك اسباباً كثيرة نذكر منها ما يلي [٣] :—

(١) عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الاسلامية لظهور الدين فيهم

(٢) عرب الجزيرة اقوى المسلمين عصبية وأشدهم أنفة لما فيهم من الخصائص البدوية

(٣) لغتهم اغنى لغات المسلمين في المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من ان تموت وهي اللغة العمومية بين كافة المسلمين

(٤) والعرب أعرف الامم في أصول الشورى وفي الشؤون العمومية

وليس من شأننا في هذا المقام ان نشرح نظرياته اثباتاً او تجريحاً وانما نحن نعرضها تدليلاً على ما كان يختلج في بعض النفوس يومئذٍ واشارة الى تلك الحوافز القومية التي تركت اثرها في الادب العربي

وقد اجمع العلماء والادباء على وصفه بمكارم الاخلاق والشغف بالحرية والاصلاح والجرأة على الجهر بما يراهُ مفيداً لبلاده . وذهب بعضهم الى نقد عنفه ومرارة لهجته قال الطباخ [٤] « ولعلّ غليان دم الشباب في فؤاده وقتئذٍ ، وتلك النفس المفطورة على الإباء المتعشقة منذ الطفولية لمحاسن الاصلاح المتطلعة اليهِ تطلّع الاسد الى فريسته هي التي أهابت بهِ ان يطلق لجواد قلمه العنان في هذا الميدان ، وحال حبّه الشديد لاوطانه وشغفهُ العظيم بانتظام احوال بلاده بينهُ وبين التطلع الى امامه ، والالتفات الى ما كان حوله فكبا يراعه ، ولكل جواد كبوة وكان ما كان ، والامور مرهونة بأوقاتها »

وكيفما كان الامر فان الكواكبي كما قال المقتطف [٥] « من كبار رجال النهضة الحديثة .

(١) راجع سيرته في الجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق لزيدان — وفي اعلام النبلاء للطباخ ج ٧ . ومجلتي المقتطف والمنار (سنة ١٩٠٢) (٢) ام القرى ١٧٢ (٣) ام القرى ١٦٠ (٤) اعلام النبلاء (حلب ١٩٢٦) ٧ ص ٥٢٤ (٥) مج ٢٧ — ٦٢٤

في هذه الديار الاّ ان المحيط لم يساعده والاجل لم يمهله حتى يتمم مقاصده السياسية والدينية . على ان النغمة التي ضرب عليها قد اسمعت بعض الناس . ولو لم يهبط مصر لكان دفن مع من دفن في تلك البلاد (اي العثمانية) ولم يُعرف عقله ولا فضله »

فالكواكبي ، كما يتبين لنا من اقواله واعماله ومن آراء اهل الثقافة فيه ، عامل قويّ من تلك العوامل التي حرّكت نفوس الناطقين بالعربية ووجّهت انظارهم الى اصلاح حياتهم القومية وتعزيز منزلتهم السياسية

﴿ اديب اسحق ١٨٥٦ — ١٨٨٥ ﴾ ولم يكن اديب من المناوئين للعثمانية ، وليس في ادبه ما يشتمّ منهُ روح الثورة على نظامهم السياسي . على ان فيه تلك الجراثيم القومية المخمّرة التي تغلب على ادب الاحرار لذلك العهد . واذا كان لا يهاجم الحكومة العثمانية كاليازجي والكواكبي فهو يجاريهما في الدعوة للقومية العربية والكرامة الوطنية . والذي يبرز في ادبه دأبه على تحريك الروح الشرقية وتعزيزها . فهو يناضل عنها في مصر وسوريا ، وهو في طليعة المناصرين للاحزاب الوطنية الرافعين للواء الحرية . ومن الطبيعي ان يكون في رسالته الشرقية ما يهيب بمواطنيه الى احترام انفسهم باحترام لغتهم وتاريخهم . ومن أمثلة ذلك قوله من خطاب مشهور موضوعه دولة العرب(١)

« شعلة سرتْ من الحجاز فأنارت الشام والعراقين ومصر والمغرب والهند واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً . فهي بنورها تستضيء ومن نارها تقتبس » وبعد ان يذكر فتوح العرب يقول على طريقته الخطابية : —

« فسارت اسود رجالها على طيور خيولها تطوي الصحارى وتقطع الفدافد ، حتى نطحت بِرَوقيَ عزمها شرفات الايوان ، ونسرت من الشرق نسر الرومان ، ونشرت على مصر اعلامها وضربت في الاندلس خيامها »

ويأخذ من هنا بمقابلة العرب الأُوَل بعرب اليوم مهيباً بهؤلاء الى الاتحاد ، داعياً اياهم الى تلافي حالهم قبل فوات الاوان . ويقترح لهذه الغاية اجتماعاً عربيًّا يتذاكرون فيه شؤونهم ويطالبون بحقوقهم . وكأنهُ شعر بتشاؤم البعض او حذرهم من مثل هذا الاجتماع فقال منشطاً ومثيراً للهمم

« أيحسبون ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يحسبون أن يذهب ذلك الاجتماع سدى . أوَ لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزّهاً عن المقاصد الدينية ، منحصراً في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من اكثر النِّحل العربية ، يزلزل الدنيا اضطراباً ويستميل الدول جذباً وارهاباً ، فتعود للعرب الضالة التي ينشدون والحقوق التي يطلبون »

(١) راجعه في مجموعته (الدرر) ص ٢٠٠ — ٢٠٣

وليس هذا الكلام اول ما اداه من الرسالة العربية وآخره بل في تضاعيف اقواله كثير مما يوقظ النفوس ويثير النخوة القومية

ومن الخطأ ان نحصر هذا العمل التخميري في اولئك الثلاثة فقد كان مثلهم كثيرون، كالشيخ يوسف النبهاني، ونجيب العازوري اللبناني، وقد اصدر هذا الاخير سنة ١٩٠٥ كتاباً سماه يقظة الامة العربية استحث فيه العرب على استرداد حقوقهم المهضومة [١] وكالشاعر المشهور الشيخ نجيب الحداد وهو القائل من قصيدة [٢] —

آن الاوان لان اخاطر بالدم ... من لم يخاطر بالدما لم يسلمِ
أجزيرة العرب التي احببتها ... كم من اكفٍّ قد رمتك بأسهم
لعبت أكف الترك فيك فغادروا ... في كل قطر فيك نهراً من دم
قتلوا رجالك واستذلوا من بقي ... فبقيت صرعى لليدين وللفم
وغدا العراق مع الحجاز غنيمة ... وبلاد نجدَ سبيّــة المتقسّم
فلينقذ الله العلي جنوده ... وليحفظ العرب التي لم تأثم

وقد ادرك هذه الطبقة طبقة متأخرة كان لها يد كبيرة في ايقاظ الروح القومية وسيرد ذكرهم في غير هذا المقام

بمثل هؤلاء الرواد القوميين من كتبة وشعراء اخذت النفسية العربية تستيقظ من سباتها العميق. فلم يكد فجر القرن العشرين ينبثق حتى كانت العاطفة القومية قد اخذت تحرك القلوب والاقلام. وكان لها في الادب اتجاهات ظاهرة اظهرها تلك المفاخرة بالامجاد السالفة. وتلك الغيرة الملتهبة على اللغة الوطنية والتشكي من اهمالها. كقصيدة حافظ ابراهيم «رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي». ومنها ما جاء على لسان اللغة شاكية مما المَّ بها —

انا البحر في احشائه الدر كامنٌ ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي
ارى لرجال الغـــرب عزّاً ومنعةً ... وكم عزَّ اقوام بعزِّ لغات
سقى الله في بطن الجزيرة اعظماً ... يعز عليها ان تلين قناتي
حفظنَ ودادي في البلى وحفظتهُ ... لهنَّ بقلبٍ دائم الحسرات
وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الاعظم النخـــرات
ارى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير اناة

(١) القضية العربية للاعظمي ١—٤٨ (٢) اوردها الاعظمي في كتابه ١—٤٣ ولم نجدها في ديوانه ولعلها من جملة ما كان ضائعاً من آثاره يوم نشر الديوان

ايهجرني قومي عفا الله عنهم الى لغة لم تتصل برواةِ
سرت لوثة الأعجام فيها كما سرى لعاب الافاعي في مسيل فراتِ

والقصيدة كلها على هذا المنوال من تعظيم العربية وذمّ المعرضين عنها الراغبين في اللغات الافرنجية (١)

ومثلها قصيدة لمصطفى صادق الرافعي موضوعها اللغة العربية والشرق وفيها يقول

امٌّ يكيد لها من نسلها العقبُ ولا نقيصة الاّ ما جنى النّسبُ
كانت لهم سبباً في كل مكرمةٍ وهم لنكبتها من دهرها سببُ

ومنها في تقلّب الايام على هذه اللغة :

أتى عليها طوال الدهر ناصعةً كطلعة الشمس لم تعلق بها الرّيبُ
ثمّ استفاضت دياجٍ في جوانبها كالبدر قد طمست من نوره السّحبُ
ثمّ استضاءت فقالوا الفجر يعقبهُ صبحٌ فكان ولكن فجرها كذبُ
ثمّ اختفت وعلينا الشمس شاهدةٌ كأنها لعنة في الجوّ تلتهبُ
كان الزمان لنا واللّسن جامعة فقد غدونا له والامر ينقلبُ

ثم يلتفت الى طلاب الادب الاجنبي فيقول مؤنباً

انترك الغرب يلهونا بزخرفه ومشرق الشمس يبكينا وينتحبُ
وعندنا نَهَرٌ عذبٌ لشاربهِ فكيف نتركه في البحرَ ينسربُ
فهل نضيّع ما ابقى الزمان لنا وننفض الكفّ لا مجدٌ ولا حسبُ
إنّا اذن سبّةٌ في الشرق فاضحة والشرق منّا وان كنا به خَرِبُ

ويختم القصيدة بنشوة فخر فيقول

اذا اللغات ازدهت يوماً فقد ضمنت للعُرب ايَّ فخار بينها الكُتُبُ
وفي المعادن ما تمضي برونقه يدُ الصّدا غير انْ لا يصدأُ الذهبُ

وامثال هاتين القصيدتين كثيرة في الادب العربي ومصدرها كما ذكرنا غيرة لغوية نشأت على أثر اليقظة القومية في النصف الاخير من القرن الماضي ولا تزال الى الآن . ويقترن بالغيرة على اللغة ما نظم في ابطال العرب الاقدمين ووقائعهم احياءً لسالف المجد وانهاضاً لمائت الهمم . كقول الرصافي من قصيدة مقابلاً بين العرب اليوم والعرب قديماً

لهفي على العرب امست من جمودهمِ حتى الجمادات تشكو وهي في ضجَرِ

(١) ديوانه (١٩٣٧) ج ١ ص ٢٥٣

اين الجحاجح ممن ينتمون الى ذؤابة الشرف الوضّاح من مُضر
قومٌ هم الشمس كانوا والورى قمر ولا كرامة لولا الشمس والقمر
راحوا وقد أعقبوا من بعدهم عقباً ناموا عن الامر تفويضاً الى القدر

وقد اتصلت هذه الروح بالجمعيات الادبية في المعاهد العلمية وخارجها فالتهبت بها نفوس الناشئة وأخذوا في بدء القرن الحالي يتغنون بالاناشيد الحماسية . وهاك مثالاً منها نظم ١٩٠٦ في بيروت لاحدى الجمعيات العربية : —

لغة العرب اذكرينا واذكري ما فات
كيف ننساك وفينا نفحة الحياة

***

يا بني الشام ومصر وبني العراق
هل نسيتم ذكر عصر طبّق الآفاق

***

كنتمُ فيها تمضّى بهجة الازمان
فلماذا اليوم نرضى حالة الهوان

ولشيوع هذه الغيرة اللغوية والتاريخية واتقادها في الادب يومئذٍ اسباب شتى منها — (١) اطراد الانتظام السياسي بمصر وظهورها بمظهر دولة عربية متقدمة (٢) اطراد التقدم العلمي والصحافي في الاقطار السورية والعراقية (٣) أن الاتراك برغم تشديدهم النكير على طلاّب الاصلاح كانوا لا يزالون يعتبرون العربية لغة الدين والثقافة الشرقية القديمة ويعدون انفسهم من حماتها ومناصريها فلم يظهر منهم في ذلك العهد ما يرغب المتحمسين لها او يثبط عزائمهم

على ان من الانصاف التاريخي ان نعيد هنا القول ان هذا العمل التخميري الذي سرى في الاوساط الادبية قبل ١٩٠٨ لم يبلغ درجة النضج . ولم يصل الى نفوس السواد من الامة . فكانت العواطف العمومية لا تزال غير منظّمة . وكان الادب العربي بين هذه الروح القومية الآخذة في الاستيقاظ ، وما ألفهُ من الجامعة العثمانية المرتبطة بالخلافة، حيران لا يدري كيف يسير. فهو من جهة قومي ومن جهة عثماني — تارة يتغنى بامجاد العرب ، وطوراً يتغنى بامجاد العرش العثماني . وما زال في هذا الموقف الغريب حتى فوجيء بالدستور فذهبت حيرته ومرت عليه مدة كانت العثمانية الحرّة فيها غايته المنشودة [(١)]

(١) وقد بسطنا ذلك في كلامنا على « الشعلة الدستورية »

جسم الانسان

بين الحرارة والبرد

لماذا نعرق[1]

كلكم يعلم ان جسم الانسان دافئ ، والغالب ان كلكم يكرهُ ان يصافح راحة كفٍّ باردة رطبة ، ويحاول ان يتغلّب على كرههِ هذا بقولهِ ان صاحب « اليد الباردة دافئ القلب » على حدّ المثل الفرنجي السائر . كذلك اذا وضعنا يدنا على عنق بقرةٍ او جوادٍ ، او اخذنا فيها عصفوراً حيًّا ، أحسسنا بدفء البقرة والجواد والعصفور ، إحساساً هو في نظرنا مرادفٌ للحياة نفسها . ولكنَّ من الحيوانات ما ليس دافئاً . فأكل النحل مثلاً لا تزيد حرارتهُ على ٣٠ درجة مئوية ، اي انها تقلُّ سبع درجات عن حرارة اجسامنا نحن ، ولكن اذا اخذ الى غرفة دافئة ارتفعت حرارتهُ بسرعة ، حالة ان الانسان ، تبقى حرارتهُ ، اذا بقي سليماً من المرض حوالي ٣٧ درجة مئوية سواء كان في غرفةٍ على جانبٍ من الدفء او على جانبٍ من البرد

فما هي هذه الحرارة في جسم الانسان ؟ وما معناها ؟ ان الحرارة في الحيوانات العليا ، سببها تفاعلات الاحتراق التي تتمُّ في الجسم ، باتحاد ما نأخذه من مواد الغذاء ، بعنصر الاكسجين الذي نتنفسهُ عن طريق الرئتين . وموادّ الغذاءِ ترجع في اصلها الى النبات ، والنبات يخزن في خلاياهُ ، طاقة الشمس ، بأسلوب عجيب ، سنفسرهُ لكم في حديث قادم . واذن فحرارة الجسم ، سببها ، اطلاق طاقة الشمس المخزونة في الطعام . وليس في وسع اي جسم حيّ ان يخلق طاقة ، وانما يستطيع ان يحوّلها من شكل الى شكل . ففي هذه الحالة ، كانت الطاقة كامنة في الطعام ، فحوّلها الى حرارة ، بالتفاعل الكيمياوي

وفائدة الحرارة في جسم الحيوان ، مزدوجة . فهي تساعد على ان تكون افعال الجسم وتفاعلاتهُ الكيمياوية سريعة . وثانياً على ان تكون منتظمة . ولذلك نرى الحيوانات المعروفة

(١) من احاديث العلوم المبسطة التي يذيعها رئيس تحرير المقتطف من محطة الاذاعة الحكومية

بالحيوانات الدافئة الدم كالطيور والفقريات ، في مكانة أعلى ومقام أسمى في عالم الحياة من الحيوانات المعروفة بالحيوانات الباردة الدم ، كالزواحف والاسماك وغيرها

فالقسم الاول من الحيوانات يوصف بانهُ دافىء الدم ، اي ان جسمهُ يبقى على حرارة واحدة . فاذا وضع الانسان في مكان بارد ، أبرد من جسمهِ ، وأخذ يبرد بفقد حرارتهِ وتشعُّعها الى المحيط البارد الذي يحيط بهِ ، يتنبَّه الدماغ ، فيحفز العضلات الى زيادة التفاعل فيزيد ما تولدهُ من الحرارة ، والى أوعية الدم فتنقبض ، حرصاً على حرارة الدم من ان تشعَّ منها الى الخارج . أما اذا كان الانسان او أي حيوان فقري آخر غير الانسان في محيط حارّ ، فماذا يفعل حتى لا ترتفع حرارتهُ عن المتوسط السويّ ؟ انهُ يخلد الى السكون ، لكي لا تكون الحركة ، باعثاً على زيادة الحرارة بزيادة التفاعل في الجسم ، او يعمد الى تصبُّب العرق من جسمهِ ، والعرق عند تبخّره يخفض حرارة الجسم ، او تزيد حركة تنفسهِ كما يفعل الكلب في يوم حارّ فيزيد ما يقذفهُ من الحرارة الى الخارج بزيادة الهواء الذي يزفره من الرئتين

هذه الوسائل ، تحفظ جسم الحيوان الدافىء الدم ، على متوسط واحد ، اذا كان الحيوان سليماً من المرض . واذن فملاءمتهُ لمحيطهِ أتم من ملاءمة الحيوانات التي لا تستطيع كل هذا وهو لذلك أوفى منها عدةً في نزاع الحياة

***

ولكننا اذا أخذنا فرخاً من الطير ، ووضعناه في مكان بارد ، رأينا ان حرارة جسمهِ تأخذ في الهبوط رويداً رويداً حتى يموت برداً ، أخيراً ، ذلك لان الاجهزة التي تمكن جسم الطائر من الملاءمة بين حرارة الجسم ، وحرارة المحيط ، لم يتمَّ نموها بعد فيهِ ، فيروح ضحية هذا النقص

***

ومن الحيوانات الفقرية ، حيوانات لم يتم في جسمها نشوء هذه الاساليب ، التي تمكنها من مغالبة حرارة البيئة او بردها ، والاحتفاظ بحرارة الجسم على مستوىً واحد ، فتعمد في أيام البرد ، الى ما يعرف باسم «التشتية» او « الاستكنان » اي انها تبحث عن مكان تقارب حرارتهُ حرارة جسمها ، وتقبع فيهِ ، ممتنعة عن كل حركة ، لكي تحتفظ بحرارة جسمها ، ما أمكنها الى ذلك سبيلاً

فقلبها في هذه الاحوال ينبض نبضاً ضعيفاً ، والدم يجري في عروقها جرياناً بطيئاً ، ثم انها في خلال ذلك لا تأكل ولا تتبرَّز ، والتنفس يكاد يقف ، وما خزن في جسمها من الشحم يستنفد قليلاً قليلاً ، وكل ذلك ، لانها لا تستطيع ان تولد من الحرارة في جسمها ، الاَّ جانباً مما تخسرهُ لو تعرَّضت لبرد بيئتها ، فتكتفي من الكفاح ، الى القيلولة والصبر والاستكنان

وهذه الحيوانات التي تشتي او تستكن على المنوال المتقدم ، او « تنام نوم الشتاء » كما يصفونها في اللغات الفرنجية ، تختلف من حيث ثقل نومها

فالقنفذ النائم هذا النوم الشتوي ، قد تغطسهُ مدَّة عشرين دقيقة في الماء ، او تعرّضهُ لغازات تكاد تكون خانقة من دون ان يستيقظ . فكأنهُ والميت سواء ، ولكنهُ ليس بميت ، وانما جميع الافعال الحيوية في جسمهِ قد بطؤت بطئاً عظيماً

يقابل هذا من حيث ثقل النوم وخفته حيوان يعرف باسم الزغبة Dormouse وهو من القوارض كالفأر يقيم في الشجر ويبني عشاً يستكنُّ فيهِ في الشتاء . فنوم الزغبة الشتوي خفيف جداً ، ومثلها الخفافيش فانها تستيقظ ، اذا تخلَّل أيام البرد والمطر يوم صحوٌ دافىء

وعندما تستيقظ الحيوانات التي من هذا القبيل ، اي الحيوانات التي تستكنُّ في الشتاء ، ترتدُّ اليها حرارة جسمها كاملة ، وقد ذكر الدكتور هبري ان زغبة مستكنَّة ، او مشتية ، تستطيع عند استيقاظها ان ترفع حرارة جسمها ١٩ درجة في ٤٢ دقيقة

***

هنا قد يخطر لبعضكم ان يسألني لو استطاع ، لماذا يشتي القنفذ ، ولكن الخلد ، وهو الحيوان الذي يحفر انفاقاً في الارض لا يشتي اي لا يستكنّ ولا يمتنع عن الحركة ، في فصل البرد . وتفسير ذلك ان الخلد ، وهو حافر الانفاق في بطن الارض يستطيع ان يجد الخراطين ، أي ديدان الارض ، على عمقٍ كاف بعيد عن طبقة الارض المجلدة حتى في منتصف فصل الشتاء فيأكلها فتجهزهُ بالمادة اللازمة لتوليد الطاقة . واذا سألتموني لماذا تستكنُّ الخفافيش ولكن الطيور لا تستكنُّ قلت لكم ان الطيور التي لا تستطيع ان تحتمل برد منطقة ما ، فتقطع او تهاجر اي تنتقل من بلاد باردة الى بلاد دافئة وهي الطيور القواطع ، وفي كل سنة تمرّ طوائف كثيرة منها بالبلاد المصرية . واذا سألتموني ، لماذا يستكنّ اليربوع ، وهو فأر طويل الرجلين قصير اليدين ولهُ ذنب كذنب الجرذ ، ولكن القرقذان لا يستكنُّ قلت لكم ، ان القرقذان يستطيع ان يخزن الطعام ، فيأكلهُ في الشتاء ويهضمهُ وهذا الطعام يجهز جسمهُ بالحرارة اللازمة لهُ

واذاً ففي وسعنا ان نقول ان الحيوانات التي لا تستكنُّ في الشتاء مجهزة بوسائل تمكنها من الاحتفاظ بحرارة أجسامها في فصل الشتاء البارد

***

على أن لحرارة الجسم ناحية أخرى . فقد حكم على الانسان على ما جاء في التوراة « بعرق جبينك تأكل خبزك » . فما هو العرق ؟ ولماذا نعرق ؟

تعلمون ان على سطح الجلد مسامّ كثيرة . وهذه المسام ، هي في الواقع نهاية غدد صغيرة في الجلد ، هي عبارة عن أنابيب لولبية او حلزونية تأخذ من الدم الذي يجري حواليها الماء وبعض الاملاح ، وتفرزها من هذه المسام التي على سطح الجلد . ويقول علماء التشريح والفسيولوجية ، أن كل بوصةٍ مربعة من سطح الجلد ، تحتوي على نحو ثلاثة آلاف من هذه المسامّ

فاذا كان الجوّ معتدلاً والهواء على جانبٍ وافر من الجفاف تبخر العرق بسرعة. ولكن اذا كان الجو شديد الحرارة ، شديد الرطوبة ، صعب على العرق ان يتبخر بالسرعة التي يفرز بها ، فتتكون منه قطرات كبيرة على الجبهة مثلاً تسقط على الوجه كما تسقط الدموع المنهمرة . ففي مثل هذه الحالة قد تتغطى البشرة (الجلد) بقطيرات من العرق ، حيث لا تمتصها الملابس وتصبح راحتا الكفين ، وهما غالباً على جانب من الجفاف في معظم الناس رطبتين

***

ومعظم العرق ماء ، اذ لا يخفى عليكم ان الجانب الاكبر من المادة الحية ماء ، بل ان الماء يبلغ في بعض الانساج والخلايا تسعين في المائة من المواد التي تتكون منها او اكثر . فالماء الذي يخرج في العرق يؤخذ من الدم ، والدم يمتصهُ من اعضاء الهضم وسائر انساج الجسم . ويقال ان مقدار ما يفرز في يومٍ معتدل الحرارة والرطوبة ، قد يبلغ ثلاث كوبات من العرق ، ولذلك يمكن ان يقال ان من وظائف العرق مساعدة دورة الماء في داخل الجسم

ومع ماء العرق تخرج مواد اخرى ، مقادير يسيرة من الاحماض الدهنية الطيارة ، والزلال والاملاح غير العضوية ، وغيرها من نفايا الجسم . ومن المعروف ان بعض ما نأكلهُ ونشربهُ تظهر آثاره في العرق الذي نفرزهُ . ولذلك قيل ان من وظائف العرق ترشيح بعض المواد التي يتناولها الجسم ، فيخرج بهِ او يفرز بهِ ما لا حاجة بهِ اليهِ

ولكن اذا صحّ هذا ، بعض الشيء ، فانهُ لا يكفي للجواب عن السؤال الذي وجهناه ، وهو لماذا نعرق؟

ان الجواب عن هذا السؤال لا يفهم على صحته ، الاّ اذا لاحظنا زيادة العرق في الجو الحار او عند العمل الشاق . فالعامل الذي يعمل امام الموقد في المصانع او السفن ، يفرز نحو ثلاث كوبات ونصف كوبة من العرق في ثلاثة ارباع الساعة . ونحو خمس كوبات من العرق في ساعة وعشر دقائق . وهذا المقدار لا يكاد يصدَّق لولا ما نعلمهُ عن عدد غدد العرق اللولبية الصغيرة التي وصفناها

فقد قال الفسيولوجي الدكتور رونلد كمبل ماكفي ان عددها على سطح جسم الانسان

يبلغ مليونين ونصف مليون غدة . ولما كانت كل غدة انبوباً حلزونيًّا ، فان طول هذه الانابيب اذا وضعت طرفاً الى طرف يبلغ من ٢٠ ميلاً الى ٣٠ ميلاً فتأملوا

ففي الجو الحار ، وفي خلال العمل الشاق ، يتعرض الجسم لخطر كبير وهو زيادة متوسط حرارته عن المتوسط الطبيعي اي ٣٧ درجة بمقياس سنتغراد

فلكي لا يزيد هذا المتوسط ، ويبقى الجسم على حالته الطبيعية من حيث الحرارة — وقد بيّنت لكم في ما تقدَّم فائدة بقاء حرارة الجسم على مستوًى واحد في تنازع البقاء — جهَّزته الطبيعة بوسيلة العرق لخفض الحرارة الناشئة عن الجوّ الحارّ والعمل الشاق . ذلك ان العرق عندما يفرز يميل الى التبخر ، وفي تبخُّره يحتاج الى حرارة ، فيأخذها من الجسم فتهبط حرارة الجسم الى متوسطها الطبيعي

فتصبُّب العرق من الجسم ، هو اسلوب من اساليب الطبيعة لانقاذ الجسم الحيّ من تأثير ارتفاع الحرارة فيه

ولكن احدكم قد يسأل لماذا لا تعرق الطيور ، وهي من الحيوانات الدافئة الدم . او لماذا لا تعرق الكلاب الاَّ قليلاً جدًّا ، وهي من الحيوانات الدافئة الدم كذلك . والجواب عن ذلك ان للطبيعة وسائل اخرى لتبريد الجسم الحارّ . فالطير تطلب ظلَّ الشجر وهذا يساعدها قليلاً وأوعيتها الدموية تتمدَّد فيتعرَّض مقدار كبير من دمها لفقد جانب من حرارته . ثم ان لها اكياساً من الهواء متصلة برئتي الطائر . فعندما يدور الدم في اوعية الرئتين يتبرد باتصاله بهواء هذه الاكياس . اما الكلب ، فجميعنا يعلم انهُ يربض في يوم حار على ارض باردة وهو يلهث . واللهث ، يعني زيادة التنفس . اي زيادة مقدار الدم الجاري في عروق الرئتين . أي زيادة مقدار الدم المتصل بالهواء الذي في الرئتين ، وبذلك تخفف حرارة جسمه . ثم إن لسان الكلب المندلع من بين شدقيه في يوم حار ، يمكنهُ من تبخير اللعاب الذي تفرزهُ غدد اللعاب في فيه ، وهذا يمكنهُ من تبريد الدم الجاري في اللسان وحواليه ويساعد الرئتين في عملهما على تبريد الدم الجاري في أوعيتهما

***

واذن فالرد على السؤال الذي سألناهُ وهو لماذا نعرق ، هو هذا : انما نعرق ، لاننا بهذا الاسلوب تمكننا الطبيعة من التغلُّب على ميل الجسم الى ارتفاع حرارته في الجو الحار او العمل الشاقّ ، عن المتوسط الطبيعي الذي يصلح لهُ . وهذا الاسلوب ، على بساطته بعد فهمه ، من العجائب في دقته وحسن نظامه . وياما في الطبيعة والمخلوقات الحية من البدائع والعجائب !

العامية والفصحى

عود الى الموضوع

بقلم انيس فريحه
دكتور فلسفة في اللغات السامية

عهد اليَّ مرة ان اساهم في وضع كتاب في اسماء الكتب والمقالات والتقارير التي كُتبت بعد الحرب العظمى في العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية عن الشرق الادنى العربي[1]. وكان نصيبي ان ادوّن المصادر العربية . وشدّ ما كان عجبي لكثرة ما كُتب في موضوع « العامية والفصحى » في الجرائد والمجلات . وكنت اقرأ الردود بانتباه خاص لاقف على وجهة نظر المحافظين ، وشعرت اذ ذاك ان المحافظين سيربحون المعركة لتذرعهم بمنطق — مع انهُ كان ناقصاً — كان يثير في الناس حماسة . سكتت المجلات والجرائد وخفت الصوت وخيّل للناس ان الموضوع قد اصبح في سلّة المهملات . ولكني كنت ابداً على يقينٍ من ان القضية ستُبعث بعد حينٍ ولاسيما بعد ان يشعر الناس بالاستقرار السياسي وبعد ان يصبح التهذيب والمصالح الاقتصادية من جملة الروابط القوية التي تربط اجزاء العالم العربي . لان القارىء المتتبع لتطور النهضة العربية يسلّم معي بان القائمين على تغذية الحركة كانوا ولا يزالون يقولون بان الروابط المقدسة التي تربطنا هي اللغة والدين ، فيجب ان لا نُمسَّا ولذا قضي على البحث قبل ان يسفر عن رأي ناضج

ولكني سررت اذ تحقق يقيني وأثير الموضوع ثانية . وسروري مضاعف — شأن كثيرين من امثالي — لان الذي اثار الموضوع رجل ذو مكانة سياسية ادبية سامية ولان مساعيه ستكون مثمرة ان شاء الله ، هذا اذا اعدّت الصحافة التربة لنموّ البذرة . نعم ان الموضوع الآن يدور حول اصلاح الخط العربي وتسهيل القواعد واعداد كتب مدرسية مفيدة ، ولكني ارى ان للموضوع هذا صلة بمشكلة اعمق واهم ألا وهي مشكلة وجود لغتين لغة البيت والسوق ولغة الكتب ، وانا ارى في اثارة الموضوع بادرة جديدة سوف يرى الباحثون انفسهم معها منهمكين

(١) واسم الكتاب بالضبط « مراجع ما نشر بعد الحرب العظمى عن بلدان الانتداب في الشرق الادنى » مطبوعات الجامعة الاميركية في بيروت

بدرس المسألة من جذورها . والذي يودّ ان يقف على ما قيل للآن في الموضوع ، والذي يريد ان يقف على وجهة نظر بعض المفكرين ، يستطيع ان يُلمّ بفكرة عامة اذا طالع عدد ابريل لمجلة التربية الحديثة التي يصدرها الدكتور امير بقطر في الجامعة الاميركية في القاهرة

وحيث ان الموضوع قد بعث مرة اخرى فعندي ان البحث يجب ان لا ينحصر في فئة من الناس بل يجب ان تسمع اصوات صغار الناس وصغار المعلمين فهؤلاء لديهم كنوز من الاختبارات التي أملتها عليهم الحياة وهم بصعوبة اللغة وتعليمها ادرى لانهم ان تكلموا فانما يتكلمون عن خبرة ويقين . وها انا اجرؤ واصرّح برأي طالما درسته ورددته في خلواتي وترددت كثيراً في نشره أما الآن فلي من رحابة صدر المجتمع مشجع ولي في اثارة الموضوع مسوّغ

وقبل الامعان في الموضوع اقول اني من جملة الذين يقولون بانهُ ان كان هنالك من مشكلات في تعليم العربية وتعلمها فانها جميعها تُنحَلُّ من تلقاء ذاتها اذا كانت برامجنا التعليمية تسعى لاحلال الفصحى محل العامية وهذا لا يتوفر الاَّ اذا (اولاً) قضينا قضاء مبرماً على الكتب القديمة البالية — رغم ان بعضها طبع سنة ١٩٣٨ — التي نستعين بها على تعليم اللغة ، واستعنا بعلماء علم النفس الحديث وبعلماء التربية الاخصائيين لوضع اساليب عصرية تتمشى وروح العلم (وثانياً) — وهنا يخالفني الكثير — اذا خففنا من حدة الفصحى وتصلبها ، والافضل ان يقال من تصلب القائمين على امرها لان العربية مشهورة بالمرونة والاشتقاق واتباع القياس . ويوم نوفَّق الى هذا نجد ان ليس هنالك مشكلة خط او مشكلة قواعد او مشكلة اساليب في التعليم

﴿ حقيقة اللغة ﴾ هل اللغة من صنع الآلهة ام نتيجة تطور العقل والفكر ! قد يقول قائل ولماذا نسأل هذا السؤال في القرن العشرين وقد كان هذا من مباحث القدماء ؟ المؤسف انهُ لا يزال بين ظهرانينا من يعتقد ان اللغة ملهمة منزلة فهؤلاءِ يخضعون العقل لاساليب اللغة لا كما يفعل الذين يرون في اللغة عبدةً للعقل والفكر ، فان هؤلاء يخضعون اللغة للعقل . عند ما نبحث اللغة يجب ان نبتعد عن فكرة قدسيتها بمعنى انها لغة الآلهة

وهنالك حقيقة اخرى ننساها أو نتناساها عند بحثنا اللغة . ذلك ان حقيقة اللغة هي النطق اعني ان اللغة هي المحكية لا المكتوبة . لان الكلمة المكتوبة ليست سوى هيكلٍ عظميّ ميتٍ جافٍّ يكسبهُ النطق حياةً . فان مجرد شكل « قتل » يعيد الى الذاكرة مجموعة اصوات وهذه المجموعة يفسرها العقل بصورةٍ ذات معنى هي صورة القتل . ودرس اللغة في الغرب يدور حول اللغة المحكية ، اللغة التي ينطق بها ولا يهتم بالكتابة الاَّ بقدر انها رموز تشير الى اصوات معروفة تنتقل من جيل الى آخر شفهياً . لا يوجد لغة تحت السماء تعبر كتابتها عن منطوقها بالضبط التام . وحقيقة اخرى ، وهي ان الفيلولوجي لا يعتبر وحدةَ اللغة الكلمة المفردة المستقلة بل وحدات اللغة جمل مفيدة . ونحن اذا فحصنا كتب الصرف بالاخص وكثيراً من ابواب النحو نقصر همنا

على مفردات الكلم بيد انهُ يجب علينا ان ننظر الى اللغة كجمل،كل جملة تفيد معنىً . اللغة ظاهرة سيكولوجية لا ظاهرة اركيولوجية

﴿ ما الداعي لطلب الاصلاح ؟ ﴾ لا شك ان بعض الرجعيين يرون في طلب الاصلاح ناحية من نواحي هذه الطفرة الجديدة التي طفرها الشرق الادنى بعد الحرب ، ويرون فيها فذلك المدّعين بان تفكيرهم متأثر بالطابع العلمي الحديث . ويرى البعض ان طلب الاصلاح ليس سوى محاولة سياسية خفية تديرها يد الاستعمار للقضاء على الروابط التي تربط الشرق العربي . وهنالك المتطرفون في رجعيتهم الذين يرون في هذا افتراء على اللغة والدين . اننا لا نوافق على هذه المعترضات . قد يكون بعضها على جانب من الصحة ولكن الدوافع ترجع الى ما هو أعمق وأعمّ . اننا نرى في الحركة رغبة الناس المخلصة في البساطة في التعبير والطلاقة في الكلام . الانسان ، وهو جزءٌ من الطبيعة ، يتمشى مع القانون الطبيعي الازلي : أتباع اقلّ السُبُل مقاومة . الانسان يكره التفكير في لغة والكلام بأخرى . وقد بدأنا نشعر بتلك الصعوبة غير الطبيعية في تعلم الفصحى . هذا العصر عصر اقتصاد والاقتصاد شعار الفرد كما هو شعار الامة ، الاقتصاد في كل شيء الاقتصاد في الكلام والتفكير والمال

﴿ النزاع بين لغتين ﴾ نلاحظ في تاريخ تطور اللغة نوعين من التنازع ، الاول نزاع بين لغتين مستقلتين تمام الاستقلال يتكلّم بهما في القطر الواحد كما كان الحال بين الالمانية والبوهيمية، بين الالمانية والمجرية ، بين الفرنسية والفلمنكية ، بين العربية والسريانية والفارسية الخ . وهذا النزاع لهُ اسبابه السياسية البحتة . وأما الثاني فنزاع بين العامية المحكية واللغة الكتابية الادبية. وقد يخطيء من يظن ان هذه مشكلة العرب فقط . كلاّ . هذا النزاع عامٌّ مرّت في أدواره جميع الشعوب المتمدنة وفريق كبير منها حلّ المشكل . اما نحن فلا نزال من جملة الحائرين . هذا النوع الاخير من النزاع بين العامية والفصحى لا يعود الى أسباب سياسية بل بالعكس ، هو نتيجة لتطور طبيعي ، نتيجة لحب الناس للغة السلسة البسيطة التي تعبر عن أفكارهم وشعورهم بدون أدنى تكلّف او اجهاد فكر . اللغة الكتابية أبطأ في مجاراة الحياة من لغة العامة . لغة الناس اليومية تتقدم وتتطورّ بتطور الحياة وأساليبها . وأما اللغة الكتابية مع حماتها، فتتباطأ في سيرها

قلنا ان كثيراً من الدول مرّت في هذا الصراع . اما فرنسا فحلّت المشكلة في القرن الثالث عشر ، وايطاليا بظهور دانتي ، والمانيا بترجمة لوثر للتوراة بلهجة المانية محلية ، وانكلترا بظهور تشوسر وشكسبير . وقاست اليونان الامرّين وسفكت دماء بين اتباع اليونانية القديمة ، لغة أرسطو وافلاطون ، واليونانية الحديثة ، لغة الحياة . والحقيقة ان المحكية كانت تخرج من المعمعة ظافرة

﴿ نشوء اللغة الادبية ﴾ ينبغ عبقريٌ فذٌّ في أمةٍ ما فيكتب أدبه او ينشد اشعاره بلهجة خاصة ربما تختلف عن لغة السوقة وهذا أمرٌ طبيعي ، وإلاّ فما هو الفرق بين الخاصة والعامة ،

فتستسيغ الناس هذا النوع الجديد من الفن ويروقهم فيحاول الفنان الناشيء حديثاً ان يقتفي أثر من هو ابرز منهُ وبعد زمن نجد ان في كلّ أمة مقياساً ادبيًّا يسعى الناس لتقليده . وتصبح اللهجة التي كتب بها ذاك الادب مقياساً للغة الادب والشعر

لنرجع الى العربية أيُّ لغة هي مقياسنا الادبي ؟ القرآن الكريم وهذا أمر نجمع عليه لانها الحقيقة بعينها . فالصرف والنحو والبلاغة والفصاحة قوانينها وأساليبها مستمدّة من القرآن ومبنية عليهِ

ولكن السؤال الذي لم يجب عنهُ للآن هو هل كانت لغة القرآن الكريم تمثل عامية ذلك العصر أو كانت تمثّل لغة الادب والشعر الراقي؟ سؤال مهم جدًّا ، وقد انبرى للاجابة عليهِ مستشرقون وشرقيون ورغم الجهود الجبارة لا أظن ان لدينا رأياً نتثبت من صحتهِ . المسألة لا تزال قيد التخمين والترجيح وانت اذا راجعت الدراسات الدقيقة التي قام بها العلماء تبيّنت خطر الموضوع . فمنهم من قال ان الطريقة المثلى لحل هذه المشكلة هي درس اللهجات المحكية الحالية في الحجاز ونجد والعراق وسوريا. وحقًّا ان كثيراً من هذه اللهجات قد درس درساً وافياً ولدينا المعلومات الكافية عنها . ومنهم من ظنّ ان في الادب بعض بقايا مبعثرات هنا وهناك قد تُلقي ولو بعض النور على المسألة . ومنهم من انبرى لدرس القرآن نفسه والقراءات المختلفة علّهُ يهتدي الى السبيل كما فعل ڤولز . ومنهم من حاول ان يجد في الشعر الجاهلي القديم بعض آثار للهجات المحكية . والغريب ان الادلة التي يمكن ان يبنى عليها رأي ناضج قليلة ، لان الادب العربي عدا ديوان ابن قزمان الاندلسي وجانب من مقدمة ابن خلدون ، تقريباً صامت وليس فيهِ ما يرينا بوضوح لغة القوم المحكية سوى اشارات الى ان العرب كانت تتكلم بلهجات . أما ما هي هذه اللهجات وكم كانت تختلف عن لغة القرآن وهل كانت خالية من الاعراب ، جميع هذه المسائل لا تزال اموراً نودّ كثيراً ان يميط البحث عنها اللثام

المهمّ ان اللهجات كانت موجودة . وان لغة القرآن كانت لغة أدبية راقية يتكلم بها الخاصة فقط في مجامع خاصة وهذا أمرٌ مرجحٌ لا بل يقبله الكثيرون لما يجدونهُ في الفصحى من تعقيد يجعلها غير سلسلة لتكون لغة البيت والسوق . ومن اراد مزيداً فليراجع ما قاله شيخ المستشرقين نولدكه الذي لم يرَ في الفصحى لا صعوبة ولا تكلف ، وڤولز الذي يقول بعكسهِ [1]

« الاعراب » وهو العقبة الكؤود في اللغة . ويحق لنا ان نسأل عن قيمته الفعلية في اللغة كما سأل غيرنا من قبل . فهذا ابن قزمان في مقدمة ديوانهِ الزجلي يحمل حملة شعواء على الاعراب ويقول انهُ عبء ثقيل على اللغة وان لا فائدة منهُ البتة . وابن خلدون في كلامهِ عن « اللسان

(١) لڤولز كتاب في درس لغة القرآن لتبيان وجود اللهجات حتى في القرآن . موضوعه « اللغة العربية » والكتاب بالالمانية . وقد رد عليه نولدكه مراراً . راجع احدى مقالاته في
Neue Beitrage zur semitischen Sprachwissenschaft.

العربي لهذا العهد » يقول « وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم (ص ٥٥٨ طبعت بيروت) ويقول أيضاً (ص ٥٨٣) والاَّ فالاعراب لا مدخل لهُ في البلاغة

ولكن لندع الاستشهاد بالقدماء جانباً ولنبحث الموضوع على ضوء الحقائق الفيلولوجية. لنعتبر الاعراب في تاريخ اللغات السامية نجد ان جميع اللغات السامية كانت تعرف الاعراب ولكن منذ بدأ عصر الكتابة والتدوين بدأ الاعراب بالتلاشي كالبابلية والسبئية والارامية والعبرية وفي أدب هذه اللغات نجد بقايا للاعراب هي أشبه بالمتحجرات التي ليس لها الاَّ قيمة تاريخية . أما العربية وهي أحدثهنَّ من حيث التدوين والكتابة فقد حافظت على الاعراب أشد محافظة . السؤال الوجيه لماذا لم تحافظ عليهِ الحكية؟ أما جواب الرجعيين قديماً وحديثاً فهو ان فقدان الاعراب من علامات الانحطاط والتأخر ومخالطة الاعاجم ، والعامية هي الفصحى في انحطاطها . لماذا لم تحافظ عليهِ اخوات العربية ؟ هل لانها انحطت ؟ أوَ يسلم بهذا الرأي حماة الثورات ؟ أو كتبة الادب السرياني ؟

منشأ علامات الاعراب وقيمتها في اللغة أمر لا يزال موضع البحث . ولكن لنا في منشأه رأي لا ضرر في ايجازهِ هنا . من المسلم بهِ انهُ كلما بعدت اللغة في القدم ازداد التعقيد خلافاً لما كان يُظن سابقاً ولا يزال يظن الكثيرون منا . المعتقد القديم هو ان اللغة في اطوارها الاولى كانت بسيطة للغاية تتألف من كلمات ذات مقطع او مقطعين ومن جملٍ غاية في البساطة والافصاح . هذا خطأ محض، عقل القدماء لم يكن على اتزان ومنطق يمكن ان تكون معهما اللغة في هذه البساطة . لغة القدماء كانت لغة مجازية صورية معقدة للغاية ونزعة الناس كانت منذ فجر التاريخ ولا تزال نحو البساطة والسلاسة ، وأدب لغات كثيرة يريك هذا الاتجاه [1]. فالاعراب من جملة المزركشات والمحسنات . ثم هنالك الشعر والغناء ، وهما من أقدم فنون الادب ، يتطلبان وزناً وايقاعاً ورنةً . أليس عندنا نون الربابة ؟ أضف الى هذا عاملين آخرين اولاً حب التفرُّد والظهور عند جماعة المغنين والمنشدين والقصاصين . كيف يتفرّدون ، او كيف يتميزون عن عامة الناس ان لم يكن لكلامهم وقع خاص ونبرة خاصة ونغم خاص ؟ والعامل الآخر ، وهو حديث العهد ، مماحكات اللغويين الذين اشتغلوا بوضع قوانين اللغة من صرف ونحو وتعسفهم في كثير من الاحيان . جميع هذه العوامل عملت معاً وساعدت على ظهور الاعراب .

ولكن هل هذا الاعراب ضروري للبلاغة ؟ الاكثرية الساحقة اليوم تقول طبعاً ضروري والغريب ان أدلتهم أوهى من خيط العنكبوت . فقد وقع نظري فقط على حجة واحدة يدللون بها على ضرورة الاعراب وهي جملة « ضرب زيدٌ عمرو » — وتأمل في هذه الواو « الكسيفة » في آخر عمرو ! — فيسألونك من الضارب ومن المضروب ؟ كأن الحكية لا تميز بين الفاعل

(١) نرجع المستزيد الى كتابات Otto Jesperson فانه في طليعة الثقات في تطور اللغات وأهم كتبه "Philosophy of Grammar„ و "Language„

والمفعول . ألا نقول في العامية زيد ضرب عمرو أي الفاعل يقدم. وفي لبنان حيث أثر السريانية ظاهر يقولون « زيد ضربه لعمرو » وهو تركيب سرياني فصيح . وهل لمجرد وجود عدة جمل قد تدعو الى الارتباك نبرر وجود نظام للاعراب مضن متعب ؟؟

اسمع ما يقول ابن خلدون رداً على هذا السؤال (ص ٥٥٧) « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه تكون قوانين تخصها ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر ... »

اننا لا نعتقد ان للاعراب قيمة في ذاته والا كانت المحكية حافظت عليه . أنا لا أجد فرقاً في المعنى بين «كان زيد غني» و «كان زيد غنيًا » — «إنّ زيد غني» و «ان زيداً غني» — « واشتريت عشرين رطل زيت » و « اشتريت عشرين رطلاً زيتاً » واربع — رجال واربع نساء . المعنى واضح جداً بغير الالتجاء الى قواعد الصرف والنحو الصارمة

﴿ هل تحل العامية محل الفصحى ؟ ﴾ كلاً . والاعتراضات التي يوجهها الرجعيون وجيهة لا يمكن لمنصف ان يرفضها . فالشرق العربي في اشد الحاجة الى التقرب والتآلف واللغة من الاواصر التي تربطنا فاذا اصبحت العامية اللغة الادبية اصبح لكل قطر لغة خاصة لان لهجاتنا متعددة ومختلفة . والمشاهد ان العراقي لا يفهم اللبناني والمصري لا يفهم العراقي اذا كل منهم تكلم بلغة العوام واصطلاحهم . هنالك اعتراض اوجه وهو ان العامية ينقصها تراث ادبي فأين الشعر فيها وأين القصص وأين الانشاء الرفيع . هذا كله نجده في الفصحى بيد ان العامية من هذه الناحية معدمة مبتذلة

﴿ هل هنالك طريق وسط ؟ ﴾ نعم . وهذه لغة التخاطب عند المتأدبين . ولا ينكر ان في الاقطار العربية اليوم لغة وسطاً لا هي بالعامية المبتذلة ولا هي بالفصحى التامة الاعراب . ألا يأتي المصري ربوع لبنان فيتفاهم مع المتعلمين في لبنان بكل سهولة . ألا يأتي المدرّس المصري العراق فيفهمهُ الطلبة ويصغي اليه المثقفون ويفهمون كل ما يقول . وكاتب المقال له مع خادمه في النجف الاشرف ما يضحك ويبكي فلا هو يفهمني ولا انا افهمهُ . ولكني لا اقول أني جلست مرة الى رفاقي واصحابي العراقيين وقلت لاحدهم « ارجوك أعد ما قلت » إلاّ اذا استعمل اصطلاحاً غريباً محليًّا . وهذا شائع في لغات اخرى فليس من الضروري ان يفهم ابن لندن جميع مصطلحات اهل شيكاغو . ثم أليس هذا ما يجري ايضاً في المانيا وفرنسا ؟ الالماني البافاري يصعب عليه فهم ابن برلين اذا كلٌّ منهما تكلم بلهجته الخاصة . ولكن من الملايين العديدة في المانيا قلّ وقلّ جداً ان تجد فيهم من لا يجيد التكلم باللغة العامة لغة المتأدبين ويسمونها Hochdeutsch . وما قولك في Patois ؟ ولكن هل هنالك فرنسيون لا يمكن ان يتفاهموا بلغة واحدة ؟

ونحن نعتقد ان الاقطار العربية في سعيها للقضاء على الامية ستجد نفسها مرتبطة الواحدة بالاخرى

بلغة وسط لغة لا عامية ولا فصحى بالمعنى التام . ما هي مزايا هذه اللغة ؟ يمكن ان نختصر الجواب بقولنا : تتصف هذه اللغة بتجنبها جميع ما من شأنه ان يجعل الفصحى غير سلسة للتخاطب . اذاً ما الذي يجعل الفصحى لغة صعبة ؟ (١) الاعراب (٢) التثنية (٣) قوانين العدد . ولنبحث كلاًّ على حدة

《 الاعراب 》 وقد مرَّ الكلام عنه . نعتقد ان الاعراب ليس ضرورياً لتأدية المعنى فالمعنى واضح تماماً في هاتين الجملتين : « جاءَ المعلمين . ورأيت المعلمين ». أنا لا أنكر ان هنالك بعض الجمل الواردة في الادب ، وكثيراً من أبيات الشعر التي لا يظهر فيها المعنى واضحاً الاَّ اذا ظهرت علامات الاعراب ولكن لماذا لا ننظر الى هذه على انها أقلية ، انها عارضة ، أنها بعيدة عن البساطة ؟ لماذا لا يكون هدفنا في الانشاء البساطة والافصاح وعدم افساح المجال للظنّ او الشك ؟ هل هذا بالعسير وفي العربية ما فيها من ضروب التعبير والافهام ؟

《 التثنية 》 اللغات السامية جميعها كانت تعرف المثنى وفي العبرية والسريانية آثار تدل على وجود التثنية . ولكن لسبب ما — ونظن السبب عدم وجود مبرّر للتثنية — انقرضت . حتى ان بعض اللغات الآرية كانت تعرف التثنية ولكنها سقطت من اللغة عند فجر التاريخ . ومما لا شك فيه هو ان التثنية من بقايا عصر عريق جداً في القدم ، عندما كان الانسان لا يتعدَّى في حساباته رقم ٢ وانت اذا اعتبرت حذف التثنية في العربية وجدت ان الضمائر ، وعددها ١٤ ، تنقص الى ١٠

《 العدد 》 ومن يجيد قواعده غير الذين يعلمون قواعد النحو ؟ فوالله اني اردد قواعده كل مرة اريد كتابة الاعداد . ونعتقد ايضاً ان هذه ظاهرة عريقة في القدم ، نعني بها ظاهرة التضادد . عقل الانسان القديم يفهم الشيء بضده أليس في الطبيعة تضادد ؟ نهارٌ فليل ، شتاء فصيف ، شروق فغروب ، حياة فموت وقس على هذا . وفي تطور العربية مظاهر عديدة لهذه العقلية . اعتبر الجموع المكسرة ، كبير كبار لحرف i ضده a . أسود سود حذفت الهمزة للتضادد . والتضادد هذا كما قلنا ، له اثر كبير في اللغة لا يمكننا خوض بحثه الآن . وتأنيث العدد مع المذكر هو من هذا القبيل . يقول مينهوف الذي درس لغات الحاميين انه وُجد عند بعض القبائل ان في حفلات ادخال المراهقين في عداد البالغين كانوا يلبسون الفتاة ثياب الفتى والفتى ثياب فتاة . الضدّ مستحبٌّ والضدّ يظهر حسنهُ الضدُّ . فرحمةً بابناء القرن العشرين علينا ان نهجر اساليب القرن المائة قبل فجر التاريخ

《 خلاصة 》 يشعر العرب اليوم ان الوقت من ذهب ، وان الطفل يبذل جهداً كبيراً لتعلم اللغة ، واحياناً يُسفر هذا المجهود عن خيبةٍ . ومفكرو العرب يشكلون اللجان لدرس قضية اللغة من جديد ، وحيث ان الرأي العام متهيّء لمجابهة الموضوع أشعر كما يشعرّ غيري ، ان القضية عامة وان القضية تعود الى أعمق من بعض الصعوبات السطحية . المشكلة هي مشكلة وجود لغتين . فهل آن الاوان لدرس امكان الاتفاق على اقرار لغة واحدة هي لغة التخاطب عند المتأدبين ؟

رسالة المنبر

الى الشرق

من امين الريحاني الى فليكس فارس

عن طريق المقتطف

سبقني « الصيرفي » في تقريظ « رسالة المنبر الى الشرق العربي » (١) تأليف صديقي الاستاذ فليكس فارس « ولكنهُ وقف عند الاشارة الى ما هو في نظره — ونظري — « أمتع الفصول » في الكتاب « وأولاها بالمناقشة » . فجئت أكمل عمله

ان اهم ما في كتاب الاستاذ فليكس « منابت الاطفال » — ذلك الفصل الحافل بتنوع العلوم السياسية والاجتماعية والدينية ، المتأجج بنيران الغضب والتفجّع ، المتلألىء بانوار متقطعة من انوار التصوف . وان فيه كذلك حملات على العلوم الحديثة ، والنزعات الحرة في اصلاح شؤون الانسان ، واستمرار رقيّه في هذه الحياة الدنيا

في هذا البحث المستفيض علماً وشعوراً ، يعالج المؤلف « مشكلة من اهم مشكلاتنا الاجتماعية هي اصلاح الاسرة » . والبحث ذو شجون ، وذو فسحات للجدل والمناقشة . فهل يجوز ان يقف عنده المقرظون ساكتين واجفين ؟ هل يكتفون بتقديم الورد للاستاذ فليكس ، ولسان حالهم يقول : لغيرنا ان يقدم الاشواك — اشواك الحقيقة !

فلو قلنا كلنا هذا القول فماذا يحل بالحقيقة ؟ وهَبْكَ أننا اختلفنا في أمرها فاننا لَمُضيِّعوها في اهمالنا البحث عنها . هذا من الوجهة العلمية العامة . اما من الوجهة الخاصة الشخصية فاني أبوح بسرها . وهو ان للحقيقة هذه صلةً عقليةً بصداقةٍ قديمة ، ومنّةً روحيةً على قلبين متجاورين متحابين

ألا ان فليكس لصديق عزيز قديم . وقد طالما ترافقنا في جادات العقل والروح ، واتفقنا بل كنا دوماً في طليعة الحملات ، حملات الحرية والعلم ، على معاقل الظلم والضلال

---

(١) راجع مكتبة المقتطف عدد يونيو ١٩٣٨

واني لارى فليكس اليوم في غير تلك الطلائع والحملات . اني اراه اليوم واقفاً في المؤخرة وهو يتلفت الى الوراء ويجنح بعض الاحايين الى جادات لا أثر فيها للعلم الحديث ، وللنزعات الفكرية الحرة . فكأني به يقول : اني في هذه الغمرات الاجتماعية ، والمفاسد البشرية ، أؤثر الرجوع الى الشرائع الالهية

فهل أصلحت الشرائع « الالهية » ما فسد من المجتمع الانساني في غابر الازمان ؟ وهل هذا الفساد الذي يعتري العالم اليوم هو الاول من نوعه في تاريخ الانسان ؟ وهل يجوز — وهل يليق بنا — ان نرجع القهقرى كلما « بعبعت » الايام علينا ، وكلما اكفهرت السبل أمامنا والآفاق ؟

***

ليست الظلمات التي نتعثر بها اليوم بظلمات جديدة . وليس فيها ، على تكاثرها ، ما يبرر التفجع والتلوع من أولي الفكر والحجى . ان ظلمات هذا الزمان لمثل ما تقدمها ، ولا تختلف بغير مقدارها وانتشارها . هي كثيفة كالحة . نعم . هي عالمية ، ولا ريب . ولكن في قلبها ، وعلى جوانبها ، يكمن فيض من النور الازلي ، وتشع منه ، هنا وهناك ، أشعة العلم والخير والحق الاعلى

وما تاريخ الانسان في نشوئه وارتقائه غير ظلمات تخللتها أشعة من النور . في دوائر الزمان يتثقف الانسان . وان كانت كل دائرة أشد هولاً مما تقدمها ، فالانسان كذلك هو أشد عزماً ، وأكثر علماً ، في مقاومتها والتغلب عليها

هي الظلمات تغشى العلم حقباً من الدهر ، فيتبعها ، بفضل العلم الدائم النمو والازدهار ، أحقابٌ من النور . بل ان الفيض النوري ليتسع ، بعد كل ظلمة ، ويزداد حرارة وتألقاً . كذلك كان ، وكذلك سيكون . هو الناموس الدائم للرقي البشري . هو روح التاريخ في هذا العالم عالمنا . واني ، مع عدد كبير من العلماء والمفكرين ، لمؤمن به كما يؤمن الناس بالكتب المقدسة

أما الرفيق القديم ، الاستاذ فليكس ، فهو على ما أرى من غير المؤمنين إيماننا . هو من المؤمنين الاقدمين . أو انهُ عاد اليهم ، وهو ينفخ في الصور الذي نفخ فيه قديماً أشعيا وإرميا . فهل يداوي الانسان مرض يومه بما داوى اجداده امراض ايامهم ؟ هل يحبس المقروح خبسة ايوب ، ويصيح مثله وينوح ؟ أفي الكتب القديمة — المقدسة — ننشد الدواء لامراضنا الحديثة — لكل امراضنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؟ لست ممن يرون ذلك . لست من اصحاب العودات والردات . حسبنا ان نعود الى التاريخ لنرى ما فعلتهُ الاديان في أبنائها .

ومع ذلك فقد أدى كل دين رسالته في فترة من الدهر مقدارها الف سنة ، او ألفان من السنين. وبات بعد ذلك جافـّا يابساً عقيماً ، لا يقوّم معوجّا ، ولا يصلح فاسداً ، حتى ولا يسد فراغاً في العقل ، او في القلب ، او في الروح

ومن العبث ان نلجأ اليوم الى مهابط الوحي القديمة ، نحاول الاستنارة بنورها الضئيل — بشمسها الغاربة . لكل أجل كتاب ، ولكل كتاب أجل ، وعلى الاخص في ما يتعلق بالانسان الحر ، وبأسرته ، ووطنه ، ونزعاته العاطفية والوجدانية والفكرية . والانسان الحر رائد الناس

أما كتاب اليوم فهو كتاب العلم . ومن فروع العلم الحديث ، ان كان في تحسين النسل البشري eugenics او في تقييده birth-control فروعٌ صالحةٌ مفيدة ، هي آخذة بالانتشار يوماً فيوماً ، ولا حؤول في انتشارها . فان كان في انطلاق الغريزة الجنسية من قيودها مآسٍ تهلع لها القلوب ، فان في مجرد الانطلاق شيئاً من الخير . وسيكثر هذا الخير ، وستقل تلك المآسي ، رويداً رويداً ، كلما ازدادت فيوض النور التي تتبع الظلمات التاريخية

وهاك مثالُ زماننا من هذه الظلمات ، او من تلك الفيوض النورية — كما تشاء . تقوم اليوم في بلاد السوفيات الروسية تجربة اجتماعية سياسية اقتصادية منقطعة النظير في تاريخ الانسان . ويجب علينا ان نصبر لنرى نتائجها . ليس من الحق ، ولا من العدل ، ولا من الحكمة ، ان نسارع الى شجبها ، او نحكم اعتباطاً عليها . فقد تكون في نتائجها أفظع التجربات ، وقد تكون أكثرها خيراً ونعمة . علينا ان نصبر . والصبر في مثل هذه الانقلابات الاجتماعية لا يحسب صبراً اذا قيس بالسنوات التي لا تتجاوز العشرين او الثلاثين عدًّا

على ان هناك ما يدعو للتفاؤل والاطمئنان ، وخصوصاً في ما يتعلق بشؤون الاسرة وتطورها فاذا قرأنا تشريع السوفيات في الزواج والطلاق ، وفي الامومة ورعاية الاطفال ، تيقنا ان أولئك المتشرعين ليسوا من الشياطين او من الجن ، بل هم مثلك ، أيها القارىء الكريم ومثلي ، إنسٌ عقلاء بصراء ، ذوو مثل أعلى ، محبون للجنس الانساني ، غيورون — او غُيُرٌ باللغة التي لا قياس لها — على خيره ، ومثابرون على العمل الذي يستقيم فيه ويدوم ناموس النشوء والارتقاء

***

أجل انهم ينشدون المثل الاعلى لخير الانسان في هذه الدنيا ، مثلك يا أخي فليكس ومثلي ، ويعملون لتحقيقه الاعمال الجبارة ، مهما يكن من خلل فيها او شذوذ . وليس من الحق ان نشجب تلك الاعمال قبل ان نرى ونذوق ثمارها الناضجة . فلا تسرف ، حرسك الله ، في التلوع والتفجُّع . اننا سائرون الى الامام على الدوام ، على الرغم من كل ما في حاضرنا من الفساد وعوامله ، ومن الردّات السياسية والدينية والاجتماعية

الاوبئة والتاريخ(١)

عند اليونان القدماء
وفي القرون الوسطى والعصر الحديث

للاوبئة تأثيرعظيم في التاريخ . فظهورها فجأة وعنفها وفتكها الذريع وما تتركهُ في نفوس الناس من شعور العجز ، كل ذلك يجعلها عاملاً من عوامل التفكك المعنوي وباعثاً من بواعث الانهيار في القانون والنظام

ومن المعروف ان قدماء المصريين والهنود والصينيين كانوا عرضة لبلايا الاوبئة . ولكن من بواعث الاسف اننا لا نستطيع ان نعيّن الامراض التي كانوا يبلون بها . اما الوثائق العبرانية فأدق . وفيها نستطيع ان نتبيَّن طائفة من الامراض كانت تصيبهم ولا تزال تصيبنا . وقد اشار جاريسون Garrison في كتابهِ « تاريخ الطب » الى ان الجذام كان بينها ومن المحتمل السلّ

واول وباء جارف دوّن ذكرهُ في التاريخ هو الوباء الذي وصفهُ المؤرخ الاغريقي ثوسيديديس في كتابهِ «حرب بلوبونيقة » . كانت الحرب ناشبة بين اثينا وإسبارطة وكان قد انقضى عليها سنتان . وكان الجيش الاسبارطي قد اكتسح البلاد حول اثينا فلجأ السكان الى داخل اسوارها فاشتدّ بهم الزحام فتفشى بينهم وباء شديد وعجز الاطباء عن مكافحة داء جديد لا يدرون من طبائعهِ شيئاً فضاعت مساعيهم هباء وسلَّم الاثينيون مصيرهم الى الاقدار

وكان المرض عندما يصيب احدهم يبدأ بشعور الحمَّى في الرأس . ثم تحمرّ العينان وتلتهبان ويتبع ذلك عطاس متكرر ثم يخشن الصوت ويصبح صاحبهُ أجشّ . بعد ذلك يسقط المرض على الصدر فتأخذ المريض نوبات من السعال العنيف ثم الى المعدة فيصاب بالغثيان ، وكان معظم المرضى يصاب بالفواق او بالتشنج العنيف ، وكان التشنج قصير المدى في بعضهم وطويلهُ في البعض الآخر . وكانت درجة الحرارة ترتفع كثيراً حتى يعسر على المصاب ان يتحمل الملابس عليهِ او التدثر بدثار ما . وكان لا بدّ من استعمال وسائل المنع للحيلولة بينهم وبين الغوص في الماء البارد . وعلاوة على كل هذا كان الارق يصيبهم فلا يخلدون لا الى راحة ولا الى نوم

---

(١) موجز كتاب فرنسي بهذا العنوان تأليف البير كونا Albert Conat عن مجلة « ملخص العلم »

واذا استطاع المصاب ان يغالب هذه الاعراض ، انتقل المرض حينئذٍ الى اطرافهِ فتصاب الاصابع واليدان والقدمان والعينان بالغنغرين . فاذا شفي احدهم كان يشفى وقد فقد نعمة الذاكرة . ولما كان السكان يجهلون سبب تفشي المرض واسلوب انتقاله ، كانوا يجتنبون بعضهم بعضاً ويمتنعون عن اسعاف المصابين حتى الطيور من أكَلة الجيف كانت لاتقارب جثث الموتى

إن اطباء العصر الحديث غير مجمعين على صفة مرض هذه اعراضهُ . ولعلَّهُ مرض زال الآن ، او لعلَّهُ حمى التيفوس تصحبها امراض أخرى او قد يكون الحمى الشوكية او الحمى القرمزية او الحمى الصفراء او الجدري . وقد بحث الاطباء جميع هذه الآراء . ثم أضاف اليها الدكتور بيتو Betau حديثاً رأيهُ في ان هذه الاصابة كانت حمى الدنج وقد ضاعفتها الاصابة بالحمراء

***

أما صفحات تاريخ القرون الوسطى فحافلة بذكر الالم واليأس . فالمجاعات المخيفة والامراض الخفية كانت تصيب الناس فتبدّد شملهم وتنزل بهم الى وهدة القبر . وكانت أوبئة الحصبة والجدري تنتابهم . بل ان الجذام تحوّل وبائيًّا فأصيب بهِ ألوف من المساكين . وجاءت غزوة العرب لاوربا الجنوبية الغربية معواناً على اثارة هذا الداءِ الذي اكتسح جنوب غرب اوربا خاصة ، بل لقد كان الجـذام يعرف في تلك المنطقة من أوربا باسم « الداء العربي » . وكانت الصلات التجارية في البحر المتوسط وسيلة من الوسائل المتعددة لنقل العدوى

وهناك مرض آخر كان ينتشر حيناً بعد حين فيترك في أثره الموت والخراب والقنوط وكان يوصف بلفظي « النار المقدسة » او « نار الجحيم » . ظهر وانتشر في أوربا في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، ففتك بالناس فتكاً ذريعاً . وكان المصابون بهِ ، تأخذهم حرارة داخلية لا تنطفىء . ثم كان بعض الاعضاء يسودُّ وينفصل عن باقي الجسم ، فاذا ظلَّ المصاب حيًّا عاش بقية حياتهِ عيشة ويل ويأس

وقد روى أحد المؤرخين ان هذا الداء حصد ٤٠ الفاً في بضعة أيام في اربع من الولايات الفرنسية

***

أما الحروب الصليبية فقد فتحت أبواب أوربا للجرذ . فعلى الرغم من البحث المدقق في آداب اليونان والرومان القديمة لم يعثر الباحثون فيها على اشارة واحدة الى الجرذ ، ولعلَّهُ كان يعيش بريًّا في صحاري مصر وبلاد العرب . وبهذا يفسَّر عدم اتصالهِ بأوربا عن طريق السفن التجارية ، او عن طريق غزاة العرب لاوربا

وكان الجرذ الاول الذي وصل الى أوربا هو الجرذ الاسود . فهو حيوان يجيد التسلُّق

ولذلك كان يسهل عليهِ ان يتسلق الحبال الى السفن الراسية. وقد شوهد في اوربا اولاً في القرن الثاني عشر، فما اقبل القرن الثالث عشر على ختامه حتى كان قد انتشر في ارجاء اوربا. ولم يكن معروفاً حينئذ انهُ من نقلة مرضٍ معدٍ، ولكن سطوه على الحقول في ايام الحصاد وعلى الاهراءات جعلتهُ شرًّا ونكبة على الاهلين فكانوا يعمدون الى الصلاة والضراعة للتخلص منهُ ونشأت بينهم حرفة جديدة هي حرفة «صائد الجرذان». ولكن الضراعة عجزت عن ردّ شرّه، وكذلك محترفو صيده

ولكن ماعجز عنهُ الانسان حققهُ حيوان آخر هو الجرذ الاسمر. فهو أصلب بنية وأشد شرهاً من زميله الاسود، جاء على ما يلوح من قلب آسيا وأخذ ينتشر في اوربا في القرن الثامن عشر. ففي سنة ١٧٢٧ اجتازت طوائف كبيرة من الجرذ الاسمر نهر الفولجا بروسيا، ووصلت اميركا حوالي سنة ١٧٧٥ وانتشرت فيها. وفي اقل من قرنين كانت هذه الجرذان قد طوقت الكرة الارضية، الاَّ المناطق القطبية. وكان من نتائج انتشارها انقراض الجرذ الاسود الاَّ جماعات صغيرة منه ظلَّت مقيمة في اماكن لم يبلغها الجرذ الاسمر

وخطر الجرذ في نقل الامراض المعدية، أعظم جدًّا من خطره في السطو على الغلال. ومن الامراض التي تنقل بواسطة الجرذان الطاعون الدمّلي (الذي وصف في القرون الوسطى باسم «الموت الاسود») وحمى التيفوس والكلب وبعض الامراض الناشئة عن ميكروبات لولبية (spirochetes). ولعلها تنقل «التريخينوسيس» كذلك

ويذهب المؤرخون الى ان وباء الطاعون الذي تفشّى في القرن الرابع عشر كان أعظم الاوبئة في التاريخ وأشدّها هولاً. وهو هذا الوباء الذي يشار اليهِ في كتب التاريخ والادب باسم «الطاعون الاسود» و «الوباء الكبير» و «الموت الاسود». فقد بدأ في شمال الصين في سنة ١٣٤٦ حيث فتك بثلاثة عشر مليوناً من الناس في أقل من سنة. ثم أخذ ينتشر متجهاً الى اوربا — مسايراً طرق التجارة. فحصد سكان البلدان الواقعة على مسيره حصداً. ويقال انهُ فتك بالسواد من الناس في المنطقة الواقعة حول دمشق وأورشليم. والمرجح ان عدد ضحاياه في آسيا كلها ما عدا الصين، بلغ أربعة وعشرين مليوناً. وأصيبت بهِ جميع جزائر البحر المتوسط، ولم يبقَ من فتكه في جزيرتي كورسيكا وسردينيا سوى ثلث السكان. ومات بهِ أربعون الفاً في جنوى. ومائة الف في البندقية. وثلث سكان بادوى. وكان يموت بهِ الفان كل يوم في بولونا وفرارا. ثم غزا المانيا فبلغ ضحاياه فيها مليوناً وربع مليون. وفقدت بهِ بولندة نصف سكانها

وتفشى في فرنسا تفشياً ذريعاً. فمات بهِ في مدينة افينيون وجوارها مائة وخمسون ألفاً في سبعة أشهر. وخسرت مدينة آرل نصف أهلها ومرسيليا ثلثيهم، ثم تخطى البحر مع الجرذان

والسفن الى انجلترا فبلغ في عنفهِ درجة لم يسمع بمثلها حتى ليزعم بعضهم ان عشر سكانها فقط نجا من فتكه . ثم انتقل الى النرويج حيث حصد ثلثي السكان . وأما اسلندا فكاد ان يفتك بجميع سكانها ، وما زالت اسلندا عاجزة عن استرداد ما فقدتهُ بهِ من اقبال ورخاء

نسوق هذه الارقام على وجه التقريب . ولكن جميع المؤرخين مجمعون على ان وباء الطاعون الكبير فتك بثلاثين الى أربعين مليوناً من سكان أوربا . فاذا أضيف الى ذلك عدد ضحاياه في الصين وسائر القارة الاسيوية بلغ عددهم من ٧٠ الى ٨٠ مليوناً . كان بينهم الغني والفقير ، والنبيل والفلاح — وقد كان من ضحاياه ملكة نافار شقيقة امبراطور المانيا ودوق برغندي وملكة فرنسا وملكة اراجون وملك قشتالة

وصحب الطاعون الاسود ، وتلاه انحلال اجتماعي اضيفت آثاره الى ويلات المرض والموت . فقد كانت الجماهير تلاحق الاطباء الذين يعنون بالمرضى وترجمهم بالحجارة ، خشية ان تتصل بهم العدوى من الاطباء . وليس بالنادر ان نجد الوباء عاملاً حاسماً في حروب ذلك العهد . ففي انكلترا خلَّف آثاراً من الاضطراب والقلق دامت سنين كثيرة وبلغ من كثرة الماثتين بهِ ان قلَّت اليد العاملة وارتفعت الاجور ارتفاعاً فاحشاً . اما عند صغار الفلاحين فقد كان الوباء مرادفاً للخراب علاوة على الموت . وبتجدد ظهور الوباء في سنة ١٣٦١ و ١٣٦٩ و ١٣٧٣ زاد الاضطراب الاجتماعي وتفاقم

***

وقد صحب رحلات الريادة في القرن الخامس عشر ، تفشي اوبئة كثيرة . فقد ظهرت الحمى الصفراء في عهد رحلة كولومبوس الثالثة ، فأصيبت بها الجاليات التي انزلها لاستعمار جزائر بحر كريب وفتكت بها . وكان اللون الشاحب الذي يبدو على وجوه المصابين ، يبعث الرعب في قلوب الاسبان عند رجوع المصابين الى وطنهم . ولم ترحم هذه الحمى سكان البلاد الاصليين . ولكن الامراض التي انتقلت اليهم مع الاوربيين كانت اخطر شأناً واشدَّ فتكاً . فالسلُّ حوَّل تلك الجزائر قفاراً وحمَّى التيفوس كانت تحصد الهنود الحمر بالالوف

وكأن المرض والوباء كانا يسيران في اثر الروَّاد الاسبان واتباعهم من المستعمرين فأصيبت جميع المستعمرات بأوبئة مختلفة . وبلغ عدد الماثتين في جزيرة هايتي مبلغاً جعل دفنهم متعذراً . فقد حصدت الجدري منهم نحو ثلاثمائة الف في بضع سنوات. وانتقلت الجدري مع الفاتح كورتيز الى المكسيك ففتكت فتكاً ذريعاً حتى لم يبق من الفلاحين من يكفي لحرث الارض وزرعها فمات كثيرون جوعاً وغدت امبراطورية « الازتيك » مقبرة واسعة . اما وباء الجدري الكبير الذي تفشى سنة ١٥٢٠ فقد قضى على ثلاثة ملايين ونصف مليون اي نصف السكان

ومع ذلك لم يكن هذا الوباء اعظم مصائبهم . ذلك بان مرضاً جديداً ظهر سنة ١٥٣١ منقولاً مع الغزاة . وهو مرض الحصبة . ثم في سنة ١٥٤٥ ظهر مرض دعاهُ اهل البلاد « ماتلازهوات » . ويقال انهُ حصد ٨٠٠ الف والغالب على الظن انهُ الجدري . ثم تفشى وباء الجدري ثانية في سنة ١٥٧٦ فمات بهِ ما لا يقل عن مليونين

***

وقد كانت رحلة كولمبوس الاولى ذات شأنٍ كبير في تاريخ أوربا . فهي لم تفتح بلداناً جديدة فيها حيوانات ونباتات غريبة فحسب، بل كانت سبيلاً الى نقل جراثيم الزهري (الحلق: السفلس) من العالم الجديد الى العالم القديم . ويقال ان انتشار الزهري في أوربا يرتدّ الى بحارة كولمبوس الذين أصيبوا به خلال اقامتهم بين الهنود الحمر في هايتي . وكانت غزوة الملك شارل الثامن الفرنسي لايطاليا سبيلاً من سبل نشر هذا المرض. ففي اثناء حصار جيشهِ لمدينة نابولي ظهرت بوادر ذلك المرض الذي أرعب أوربا

وكان مرض الزهري حينئذٍ على جانب من العنف والحدَّة لا يقرن بهما الآن . فكان المصاب تغطيهِ القروح . وكان المرض شديد العدوى . وبعد ما أُخذت مدينة نابولي تفرَّق الجيش الفرنسي ناشراً عدوى الزهري في ايطاليا ومنها انتقلت الى فرنسا فالمانيا وانكلترا . وكان الاطباء عاجزين عن وقفهِ ، فوصفهُ الفرنسيون حنقاً منهم بقولهم انهُ « مرض نابولي » حالة ان الاسبان والايطاليين وسموهُ « بالمرض الفرنسي » (١)

وانتشر الزهري بسرعة عظيمة ، فعزيت طريقة انتقالهِ الى الهواء والماءِ والنَّفَس (٢) . وعمد الناس الى العطور للتغلّب على الروائح الكريهة التي تنبعث من قروح المصابين . وأُقفلت الحمامات العامة . وكان من آثاره الاجتماعية انَّ تأثير الزهري في احداث الصلع حدا بالناس الى ارسال شعر الرأس واللحى والشوارب ، فغدا كل من يظهر في المجتمعات العامة وشعره غير مرسل تحوم حولهُ الريب في انهُ من المصابين

(١) جاء في كتاب الشياطين والعقاقير والاطباء Devils Drugs and Doctors تأليف هجارد صفحة ٢٤٠ ما يلي : وكان الاسبان يدعونه مرض اسبانيولا والايطاليون المرض الفرنسي والفرنسيون المرض الايطالي والانكليز أسندوه الى الفرنسيين وكذلك الترك . واما الروسيون فسموه المرض البولندي والهنود واليابانيون المرض البرتوغالي

(٢) يقول هجارد . واتهم الكاردينال ولسي بأنه نقل عدوى الزهري الى الملك هنري الثامن بهمسه في أذنه . ومن المؤكد ان هنري الثامن كان مصاباً به والغالب ان عدواه به ترجع الى مصادر غير كلمات الكردينال . وفي سنة ١٤٩٧ صدر قانون في فرنسا يحظر على المصابين به التحدث مع الناس تحت عقاب الاعدام

والكوليرا مرض قديم الانتشار في الهند . ولكنهُ امتدَّ في سنة ١٨٣٤ الى أوربا وسقطت اولى ضحاياه في باريس في ٢٢ مارس من تلك السنة . ثم ظهرت اصاباتها فجأة في مناطق مختلفة من العاصمة الفرنسية ثم انتشرت انتشاراً سريعاً في أوربا فمات بها نحو مليون نسمة — ٤٠٠ الف في روسيا و٣٤٠ الفاً في النمسا و١٠٠ الفاً في أسبانيا و٩٥ الفاً في فرنسا . ثم تفشى وباء الكوليرا في أوربا في سنة ١٨٤٧ وسنة ١٨٥٦ وكان صرعاها اكثر من صرعى وباء سنة ١٨٣٢ وكان آخر وباء كوليرا تفشى في أوربا وباء سنة ١٨٩٢ . وكذلك ظل هذا المرض خلال قرنٍ كامل تقريباً يثير الرعب في نفوس الناس حتى نسوا ويلات الطاعون الدملي لشدة ما بلوا بهِ منهُ

وقد كان الخوف من الكوليرا الباعث الذي حمل الناس على المطالبة بانشاء المجاري العامة وشتى الاعمال الصحية . فأعمال الصحة العامة في اوربا وأميركا هي وليدة هذا الخوف . ولا ريب في انها أثرت تأثيراً لا يعرف مداه في اساليب معيشتنا وطرائق عمارتنا وأفضت الى انشاء صناعات جديدة . ونشبت الحرب الكبرى على اثر فترة من السلام رانت على اوربا ، كان اهم سماتها التقدم العلمي العظيم . وغلب الظن بأن العلم قضى على الاوبئة التي تنبئنا بها صفحات التاريخ . ولكنَّ وباء الانفلونزا تفشَّى في بدء سنة ١٩١٨ في الولايات المتحدة والصين ثم اتصل بفرنسا بعد اشهر فانتشر اولاً بين الجنود ثم بين عامة الشعب . وقد بلغ عدد صرعاهُ في موجاتهِ الثلاث المتوالية نحو عشرين مليوناً من الناس

***

وفي أثناء الحروب البلقانية عادت الحمى التيفوسية الى الظهور . ثم انقضت تلك الحروب ولكن شأفة المرض لم تستؤصل من النمسا والمجر وبولندة وروسيا فلما نشبت الحرب الكبرى وعبئت الجيوش الكبيرة عادت التيفوس الى الانتشار وكان اول مراتب انتشارها أسر الصربيين لستين الفاً من جنوبي النمسا فظهرت الحوادث الاولى في احد معتقلات الاسرى ثم انتشرت في الشعب . وعندما كان المرض على أحدّه كان يموت بهِ سبعون في المائة من المصابين. ثم بدأ انتشار المرض في الانحطاط في صيف ١٩١٥ ومع ذلك فالذين أصيبوا بهِ بين يوليو ودسمبر من تلك السنة كانوا ٥٠٠ الف مات منهم خمساهم (٢٠٠٫٠٠٠)

وظهرت حمى التيفوس في رومانيا في سنة ١٩١٧ فمات بها مائة الف بحسب الاحصاءات . ولكن اشدَّ فتكها كان في روسيا حيث اجتمعت مع الملاريا والدوسنطاريا وحمى التيفود والحمى القرمزية والجوع وسوء الحالة الصحية في نشر شياطين المرض والموت : وقد صدر تقرير في سنة ١٩٢٢ جاء فيهِ ان ٢٥ مليون اصابة بالتيفوس سجّلت في روسيا في السنوات الاربع السابقة مات من اصحابها ثلاثة ملايين

آلية الفن

اتجاهات العصر في الآداب والفنون

لزهري الناجي الفاروقي

مرفوعة الى استاذي صاحب «العصور» : اسماعيل مظهر

١ — توطئة

أصبح الايمان بالنشوء والارتقاء في عصر المدنية الحاضرة ، من المبادىء العميقة التأصل ، التي تخضع لسننها جميع الكفاءات العقلية بما شيدته من الحضارات منذ بداياتها الفطرية الاولى ، التي خرج منها الانسان حيواناً منحط الصفات ، دنيء النشأة ، ماضياً في سبل الارتقاء ومدارج النشوء ، الى ان بلغ الى هذه المدنية التي توشك ان تكون عصر انقلاب وثورة لم تبلغ بعد منتهاها . انتقل فيها الانسان من وداعة القرون الوسطى ، التي كانت آخر حلقة من حلقات الحياة الهادئة ، الى هذه الخليات من المدن حشدت فيها النفوس حشداً ، وتنازعت جوها نواطح السحاب المنتصبة كمردة ثائرة من الجن وسط دخان المعامل القاتم !

تعتبر مدنية الآلة عصر انقلاب في تاريخ البشر ، لما يلابس هذه الفترة التاريخية من ظواهر تجمع بين الحياة الهادئة ، الخالية من ضجيج المعامل ، المنبثة في تضاعيف عقليتها غرارة الفطرة الاولى ، الى الحياة في اميركا وغرب اوربا ، وأصل ثقافتها العلم اليقيني ، وقوام حضارتها الآلة

وقد تناول عامل التطور في هذه الربوع التي اثمرت فيها المدنية جميع نواحي الحياة السابقة ، فنشأت الى جانب حضارة الآلة ثقافة تساير في ماديتها ما ينزع اليه عصر المادة من الصور

فان كان للناس قبل أن يخلقوا الانسان الثالث[1] موسيقى ، فلهم اليوم موسيقى ، وان كان لهم أدب فلهم اليوم أدب ، وإن خلفت قرائحهم على مر العصور ثروة فنية في لوحات رفائيل وميكل انجلو وأضرابهما ، فللعصر الحاضر رسوماته ولوحاته التي رقصت عليها أيد تود من السرعة لو تنطلق في حركة آلية صماء

(١) الانسان الصناعي « روبوت »

—٢—

إن في الثقافة الاشتراكية الحديثة أوضح مثال للفن الآلي ، المنبثة في تضاعيفه روح المذهب المادي . نتبين هذا واضحاً في الموسيقى والرقص والأدب والرسم والنقش جميعاً

في روسيا السوفياتية مُحيت جميع صور الثقافة الاوربية ، لتحل محلها صور اخرى تستمد روحها من روح الآلة ، التي يُرمز اليها كأبعد مدى وصلت اليه عوامل الرقي البشري منذ العصور المظلمة . وتعتبر كأساس لمدنية المستقبل المثالية ، التي تراود عقول العلماء كحلم غامض في حياة يسودها السلام ، ويتخلص فيها الانسان من أوشاب الفطرة وغرارة الوحشية الاولى ، ليشيّد صروح مدنيته الخالدة على أساس علمي، يلوح عصرنا ومدنيتنا الى جانبها كما تلوح غرارة الانسانية الاولى الى جانب مدنيتنا الحديثة

يرجع أساتذة الثقافة الاشتراكية في روسيا إلى أن الفن السائد في الغرب ، إنما له صبغة رأسمالية تعزز الفردية الاستقلالية وهذا يناقض في جوهره فلسفة الاشتراكية من حيث فناء الفردية الذاتية في الضمامية التي يمثلها « الكائن الاجتماعي »

ويرون ان ألحان الموسيقى التي تتناوح بين جدران الرأسمالية البرجوازية ، تُستقطر من أدوات تساعد على تكوين الشخصية الفردية ، او ترمز اليها . إذ أن موسيقيًّا فرداً يستطيع أن يستوحي «البيان» مثلاً نغمات عذبة دون الاشتراك مع عصبة لا يتم عمل فرد فيها وحده . ثم ان حلقات الموسيقى في المسارح والاندية ، وبيوتات الاقلية الحاكمة تغري المرء بالترف ، وتساعد على رفاهية « الطالحين اجتماعيًّا » ! لذلك ابتدع مجمع موسكو للموسيقى أسلوباً حديثاً يساير روح الاشتراكية ، ولا يناقض نظرية « الكائن الاجتماعي » . وذلك بأن أُلّفت أنغام الوحدة الموسيقية من أصوات اشبه شيء بصفير البخار ، ودحرجة العجلات ، وطنين المعادن في معمل من المعامل التي ترصع انحاء المدينة

وبوجهة النظر نفسها الى أساليب الرقص ، استنتج الثقات انهُ لا يجب ان يشذ عن قاعدة الآلة ، او تتميز به الروح الفردية . ولدى وضع خطوات الرقص وحركاته ، روعيت في ذلك حركات مختلف أجزاء الآلة الميكانيكية ، التي ان تحركت فيها قطعة منفردة لم تأت بنتيجة ما . فهذه حلقة الرقص ، وهنا رمز المكبس ، وتمثيل للعجلة ، واشارة للدفاع ، وتقليد للمِنسف وهكذا[1]

وبهذا تفادى أولو الامر وجود أي عنصر برجوازي نبيل ، وانما هو جو يلائم ما ينطبع في عقل العامل من صور الآلة والمعمل اللذين يحملان طيهما بذور العصر الذهبي

هذه بدعة جديدة لها ما يبررها من تطور الموسيقى والرقص في سائر مدن أوربا وأميركا .

(١) René Fülöp Miller : The Mind and Face of Bolshevism, New-York City. Alfred. A. Knopf. 1928

إذ ان كلا الفنين قد بلغ من التطور درجة أصبحت فيها صورها أسرع وأبعد عن هدوء الطبيعة الذي تطالعهُ في ألحان شوبير وموزارت وبيتهوفن مثلاً . يقول الفيلسوف عمناؤيل كانت : « ان أوجه التقدُّم كلما ازدادت سرعة قصرت صورها »[1] وهذا صحيح بالنسبة للتغاير الذي طغى على فنيِّ الموسيقى والرقص في الغرب . ونعتقد ان مصير هذين الفنين قد توجههُ خطا التطوُّر على مر العصور — اذا توغَّل الانسان في أغوار هذه المدنية الآلية الغربية — الى نفس التوجيه الذي يحاول علماء روسيا التكهن بهِ في صورة عملية قبل أوانه ، سابقين في ذلك عوامل النشوء الطبيعية ، شأنهم في اصلاحاتهم جميعاً

غير انهُ لا يغرب عن بالنا أثر السياسة في هـذا التوجيه . فمن الواضح الجلي ان زعماء الاشتراكية الحديثة في روسيا قد طغوا على الفن يتخذونهُ ذريعة للدعاية ، وأسلوباً يمهدون بهِ للثورة العالمية التي يعتبرونها خير وسيلة لاحداث الانقلاب الصناعي في تاريخ البشر ، والوصول الى عصر تسود الاشتراكية فيهِ بني الانسان وتسدد خطاهم الى آفاق العصر الذهبي ، وتحقق الجنة الدنيوية على الارض ، تلك التي وعدتنا بها شرائع السماء في الحياة الاخرى !

فلندع الآن إصلاحات ثقات الفن وأساتذته في الروسيا في كل من النقش والرسم والبناء اذ انها وثبات أولية لم تؤت القوة التي تستطيع بها ان تنهض الى جانب ما شيده الانسان منذ فجر التاريخ في هذا الحقل . أما أثر السياسة في هذه الحقول فبيِّـن الغرض منهُ عزل روسيا عن مدن العالم ، وتغذية العامل بلون واحد من ألوان الطعام . ولا يخفى ما ينتج هذا التحديد في آفاق الحياة العامة من تعصب وضيق في وجهة النظر قد يرجع بالاتحاد السوفياتي الحر الى تمثيل نفس الدور الذي لعبته محاكم التفتيش والسلطات الكنسية في القرون الوسطى ، أو اعادة مظالم القيصرية التي لم يمض على محاربتها ربع قرن

ولنتوجه الآن شطر الغرب قليلاً ، لنقف على وجهة القوم في الادب

— ٣ —

يقال في تعريف فن الادب انه ضرب من ضروب التعبير عما يجيش في صدر المؤلف من شعور مبهم ، ونداءات يستجيب لها حين يلجأ الى الادب يعبر به عما يجد من شعور . وهذا التعريف يقودنا الى العنصر الذاتي « Subjectivism » الذي نشأ منهُ المذهب الابتداعي « Romantic » وعكس ذلك ان يقال في هذا الفن انه وسيلة لتأدية فكرة الى القارىء . وهذا هو الجانب الموضوعي من الادب « Objectivism » الذي نشأ منهُ الاسلوب الواقعي « Realism »[2] وهو المذهب الذي طغى على رومانتيكية القرن الثامن عشر ، متسلحاً بمبادىء العلم اليقيني ، خاضعاً

(١) معضلات المدنية الحديثة : لاسماعيل مظهر صفحة ١ (٢) Lascelles Abercrombie : Criticism

لقواسر الرقي والنشوء، متخذاً صبغة علمية خالصة عندما ظهر في أفق المعارف العامة علم النفس الحديث في مستهل هذا القرن. وسنرى في هذا البحث تطور الادب في الغرب ومركزه في هذه المدارس الاسلوبية في بعض أوكار الفن في اميركا وأوربا

يعرف علماء النفس اللغة بأنها أصوات حيوانية تصدرها الحنجرة اذا ما تأثر المتعضي (١) بأي مؤثر جسدي كالالم واللذة، والخوف والغضب، والحب والكراهية (٢) ويعدون استكشاف طرق التفاهم بالكلام تطوراً كبيراً، وحادثة من الحوادث التي وضعت حداً فاصلاً بين عهدين متباينين، مر بهما الانسان في سرى تطورات الفطرة الرسيسة في أعماقه

والانسان انما يسجل فيما ينتج من الأدب أفكاره بالنسبة الى حالات جسمه، وصفاته الطبيعية، وليس في مقدوره ان ينظر في ظواهر الكون ونظامه نظرة موضوعية خارجة عن خواص الذات البشرية . اذ ان كل تعريف تنتجه قرائح المفكرين، انما يعرف أصدق تعريف ذاتيتهم التي لن يستطيعوا ان يتنكبوا سبيلها، لانها متغلغلة في تضاعيف كيانهم البشري

بهذه النظرة الموضوعية (٣) أجرى العلماء عدة تجارب على الحيوانات وانتهوا الى ان كل بادرة عقلية، انما هي انعكاس ذاتي، ورد فعل لتأثر الحواس باحدى المؤثرات الخارجية (٤)

وهكذا تهدم هذه النتائج العلمية العقائد السائدة حول الوحي والالهام، وتردها الى حظيرة التفسير المادي، التي يدخل ضمنها كل تهييج روحي او وحي مما فوق العقل، قد يكون سببهُ وضع خاص يتخذه الجسم أو حالة معينة يتأثر بها الجهاز العصبي، وتعيها الحواس. وينبئنا العلم بأنهُ في الامكان أن تعاد هذه الحالة الروحية، التي يعتقد السواد الاعظم انها هبة تخضع لمشيئة الآلهة، أو عوامل المصادفة بواسطة هذه المؤثرات التي يصبها عالم « الموضوع » على عالم « الذات » ! (٥)

فان كان هذا حقاً، فالادب لم يعد وحياً تلهمهُ السماء بضعة نفر من الناس، وانما هو — الى حدٍ ما — علم له قواعد ومهيجات يُلقاها الطالب في دراسته كأسس تستمد عناصرها من « الفسلجة » Physiology . فما هي الا أن يعي الطرق التي يسيطر بها على حالات جسمه، لينبه بهذا

(١) المتعضي هي الكلمة التي وضعها المجمع اللغوي لمعنى عضوي

(٢) The Mind and Face of Bolshevism. P. 221. New—York 1928. Published by Harper & Brothers N. Y. & London.

(٣) نستعمل كلمة « موضوعي » هنا استعمالاً فلسفيا نعني به العالم الخارجي، دون ان يكون لذات الانسان او ميوله علاقة به . ومن الواضح ان استقراء الحقائق الموضوعية ممكن في التجربة والمشاهدة، وقد قلنا انه عسير الى حد الاستحالة في الاستنتاج والتفكير المجرد

(٤) لا يكاد يخلو كتاب في علم النفس من أمثلة التجارب على الحيوانات وخاصة الكلاب . أما صاحب هذه التجارب فهو بافلوف غالبا . وهو عالم روسي توفي منذ سنتين تقريبا

(٥) Ways of Behaviorism. John. B. Watson. Ch. 3.

التفاعل المادي الصفيق ، وحي الشاعر الكامن في اعماق روحه الماجعة . فينتج أنى شاء وكما يشاء !

قد تلوح هذه النظرة المادية في الادب حقيقة علمية لا سبيل الى نقضها ، ورغم انها لا تزال بعيدة عن حيز التجربة الموضوعية المتقنة — شأن كثير من نظريات علم النفس الحديث — الاَّ ان كثيراً من التجارب الطبية الحديثة تعزز وجهة نظر أصحاب هذا المذهب المادي مثل السلوكيين Behaviorists الذين ينكرون وجود العقل والارادة واللاشعور وغيرها مما عجز العلم بوسائله المعروفة عن إثبات وجودها ، فاعتبرها فرضاً ضروريًّا . وهم يفسرون التفكير مثلاً بأنهُ اهتزاز دقائق المخ المادية ، يشترك فيه المجموع المتعضي كلهُ ، كعضلات الحلق والصدر والرجلين [1] وهذا حقيقي بالمشاهدة والاختبار

في هذا الوقت الذي يكتسح فيهِ تيار العلم حظائر الادب ويكشف بأعاصيره الستائر عن الشعور وحقيقة الالهام ، نجد ان الكثرة المطلقة من الشعراء لا تزال تعتقد بالوحي الشعري ، وتناضل عن هذا الرأي ، ولا تجد الغضاضة الذليلة بأن ترضى قانعة بمشيئة المصادفة والوحي

على ان الادلة قد توافرت وأثبتت التجارب بأن الشعر الذي يبلغ المنزلة الرفيعة من الجودة الفنية ، التي تملي على القارىء أثر الاحساس النفسي ، انما هو في الحقيقة من جهد التفكير العميق ، والإرادة الدائبة ، فنحن نخطىء كثيراً إن حسبنا أن الشعر وحدة تخضع لشياطين الشعراء ، وموهبة لا تسيِّرها مؤثرات العقل والجسد

ولقد يكون من الخير أن نلزم الصمت ، لننقل رأي كاتب فرنسا الكبير بول فاليرى ، عضو المجمع الفرنسي ، في فقرات من احدى محاضراته النفيسة . قال شاعر فرنسا الكبير : —

« ينظم الشاعر حين يفيض قلبه ، ويمتلىء صدره ، فينطلق لسانهُ ويقول شعراً . ولكم وددت أن يكون هذا الرأي الفطير صحيحاً سديداً . إذن لتحمَّل الشاعر تكاليف الحياة ، ورضي المبين بميسور الشقاء . ولكن القريحة الفنية قد تتبلد وتظلم حتى لا تعي امراً ولا تنطق حرفاً . فمن يقول بهذا الرأي الغرير يخضع الشاعر لسلطان القدر العابث . وكذلك يغدو الانتاج الشعري مرهوناً بالمصادفة المواتية واللمحة المشرقة ، أو متصلاً بالوحي العالي والموهبة الخارقة . ولست اعلم افتئاتاً على حرية الشاعر وامتهاناً لكرامته كهذا الرأي العاثر ، يجعله منفعلاً لا فاعلاً ، وحاكياً اميناً يقول ما يلقى اليهِ من الكلام ، فما كان شرًّا قالوا هذا من عنده ، وما كان خيراً قالوا هذا من عند الله !

« لقد يمتاز الشاعر من بين الناس كافة بلحظات مشرقة خاطفة تعصف بذاته وكيانه عصف الريح بفروع الشجر ، فتتفتح لديه مغاليق نفسه ويطل على دنياه الكامنة ، ويلمح عجائب الروح .

[1] Ways of Behaviorism Ch. 2.

تلك لحظات ثمينة تضيء ما اختبأ بين اللحم والدم ، وتبعث من المعاني والصور ما لا يفهمها او يقدرها الا الشاعر وحده ، لانها مختلطة بأوضار المادة ، صادرة عن اسرار الظلام . وهي معان وصور لا تثبت للمنطق الظاهر ، ولا تلين للبيان الشعري . وكل ما في الامر انها قطع تنتثر من أعماقنا على حالها الطبيعي ، كما تنتثر الاحجار الكريمة من جوف البركان . ولقد ينبغي ان نطرح الاوشاب ، ونحتفظ بالعنصر الصالح ، لنذيبهُ في قالب جديد ، ونقدمهُ جوهرة خالصة للناس .

« فالذين يؤمنون بالوحي الشعري يقتلون العمل والابداع ، ويرضون بالشاعر وسيطاً تملي عليه القدرة ما تشاء من ضروب القول ، وألوان المطالعة . وما لمثل هذا يُسخَّر الفن . . . ويخلق الشعراء ! » اهـ (١)

— ٤ —

يبني العلماء على النظرية المادية السابقة في الادب ، نتائج لها خطورتها وقيمتها الادبية . فإن تجاوزنا عما يتولد من اصطدام هذه النظرية بالدين ! . . ألفينا العلم على الضفة الاخرى ، ينبئنا بأنهُ يحسن بالانسان المتمدن — حين نشوء صور جديدة من الحضارة — ان يجدد اللغة التي يفسدها كرُّ العصور ، ليساير موكب التطور والارتقاء ، السائر بخطى سهلة خفيفة ، وليسهل نشوء وحدة ثقافية تتناصر مع صور الحضارة المادية في بناء مدنية كاملة باقية (٢) . وقد يلمس هذه الحاجة الاقوام الذين يعيشون في مجتمعات تختلف اختلافاً كليًّا عن بيئات أجدادهم الذين ورثوا منهم اللغة فيما ورثوا من اسباب الرقي

وتجديد اللغة انما يكون بطرح الالفاظ الميتة ، التي كانت تعني شيئاً لدى اجدادنا بحسب مقتضيات مدنيتهم ، واستبدالها بألفاظ تنحت بمقتضى حاجات العصر ، وتعني لاهله شيئاً بحسب ما يشعرون . ولا نذهب في تعديد الطرق لنحت الكلمات او وضعها وترجمة المصطلحات العلمية ، فهذا من شأن المتخصصين . وانما يشعر بهذا النقص في مستهل نهضة الشرق الحديثة ، كل من حاول ان يترجم عن إحدى اللغات الاوربية الحية كتاباً في الفلسفة او علم النفس او علم النبات او علم الحياة ، الى غير ذلك من فروع المعرفة الانسانية ، التي يعتبرها العلماء وحدات عضوية تخضع لناموس النشوء والارتقاء بمعنى نشوء فروع جديدة من المعرفة على مرِّ الزمن ، وتطورها الى حالات من التنافر والتغاير الجزئي ضمن نطاقها المتحد . اما بقاء اللغة بمفرداتها على سير الزمن ، فشكل من اشكال الثبات الذي لا يتفق مع طبيعة الحياة المتحولة ابداً

فـكل نظرة لا تعتبر اللغة كائناً حيًّا قد ينحل ويذبل اذا لم نمده على الدوام بدم تقي جديد انما هي عامل تقهقر رجعي يعوق سير الرقي ، ويذر اللغة كالمرآة الصدئة قد خط عليها الزمن

(١) مجلة الرسالة عدد ٩٤ (٢) The Mind and Face of Bolshevism, Ch. 6.

أشباح الماضي الجامدة ، فهي مرتسمة عليها لا تريم ، لتعكس في كل عصور التقدم صورة واحدة للعصر الذي نشأت فيه . فكأنما تكبلت أطرافها وغاضت حيويتها

وقد أدرك علماء الغرب هذه المبادىء الاولية لازدهار الثقافة . فتناولوا بالتأليف والتصنيف والترجمة معاجم اللغة في العلوم والآداب والفنون،واستطاعوا ان يجاروا بثقافتهم ثورة الانقلاب الصناعي . وكوّنوا مع بدايات العصر الآليّ ، وحدة أدبية تعبر عن روح هذه المدنية الغربية، وتسمها بسمة لها روعتها .وسنحاول فيما يلي ان نقدم صورة من الشعر الاميركي الحديث لتعطي للقارىء لمحة سريعة عن تطور الآداب ، وتأثرها بحضارة القرن العشرين الآلية[١]

— ٥ —

الشعر قطعة من روح العصر ، وهو مجموع تراكيب كيماوية منسجمة الالوان متحدة العناصر ، تتذوقها الأذن الموسيقية بقدر ما في الشعر من عذوبة الجرس ، ويعيها الوجدان فيتأثر بما تبعثهُ من ضروب المعاني ، وما توصله من صور التعبير . والعاطفة الشعرية انما هي الاحساس بهذا العالم الذي يجرده الشاعر من نفسهِ، فيعيش فيهِ لحظات طوالاً او قصاراً ، يتجه فيها الى ما يملأُ خياله من الرؤى ، عارضاً ما أولتهُ الطبيعة من حس وادراك للانفعال بالمؤثرات الخارجية والاستجابة لها . فاذا استطاع ان ينقل الى ذهن القارىء او السامع ما يملأُ ساحة شعوره المبهم ، أو يجسم في حدود اللغة هـذه الاشباح والرؤى التي تبعثها في نفسهِ مؤثرات الطبيعة او مجالي الحياة « كان بذلك أديباً مِفنّاً يمتاز باستجابتهِ لداعي الاحساس اللفظي . وهي الخطوة الايجابية التي تميز الشاعر المنتج عن القارىء العادي [٢]

فهل تشعر اذا قرأت « الشعر الحديث » بأن المبين يوصل اليك في هذه العبارات القصيرة واللمحات السريعة ما يجول في خياله من الصور ? قد تمضي وقتاً قصيراً او طويلاً في شيكاغو ، فتنساب في تيار البشرية الجائشة ، وتتأملها كالبحر الخضم المائج ، المسرع على أرجله وعجلاته

وقد تتقاذفك أباليسها فتسلبك فراغك وشخصيتك ، وتدمجك في ضامية كثيفة من البشر . وتصرفك عما تحرص عليهِ من هدوء البال وسحر الخيال ! فهل تشعر اذا رقصت مع الشاعر على توقيع قصيدة ، أنك في شيكاغو حقّاً . . . يزعجك ضجيج دواليبها بقدر ما يروقك أسلوب الشاعر في التعبير ? هل تعيش ولو لحظات خاطفة في هذا الجو الفني الذي يتولد في أعماق الشاعر من تقلبهِ بين ضروريات حياته ومظاهر مدنيته ? !

قد تقرأ قصيدة لاعرابي يعيش في البادية . فيسحرك فيها انسجام الموسيقى في البحر الذي يختاره لقصيدته ، وفي الـكلمات التي ينتقيها ليوصل اليك الصورة التي تراود عقله ، وفي الاسلوب الذي يفهم به الامور والاشياء لينقلها اليك ، كانما هي لوحة فنية قد اكتملت قبل ان يعيها وجدان

(١) اقرأ هذه المختارات في «حديقة المقتطف» في هذا العدد (٢) Lascelles Abercrombie : Criticism

الشاعر ، وتجري على لسانه . ولكنك ترى في الشعر الحديث انهُ لا يتقيد بوزن او قافية ، وأنّى لشعر القرن العشرين ان يوضع في رداء خيط قبل إن تنشأ المدنية الحاضرة ، واقتصر على وضعه متخلفاً عن موكب النشوء والارتقاء . وانما هو كلام ينحدر من قلم الشاعر كما تنحط الجنادل من القمم الشاهقة ، يستمد صلابته من العلم . ويبلغ دقة الوصف في عبارات موجزة سريعة الصورة ، متوثبة المعنى ، حتى لكأن الشاعر ينظم حين ينظم مسرعاً ، حريصاً على ان لا يمنح لقصيدة من الوقت فوق ما ينبغي ! . . . وأنت حين تقرأ لشاعر حديث ، تجد الشعور الذي يهيء لك ان الشاعر يكابد في انتزاع الكلمات التي يعبر بواسطتها عما يتوثب في عقله من المعاني ، ويجد غير قليل من الجهد حين يبحث بين اوضاع اللغة المتوارثة عن رداء يضع فيه بنات افكاره وبكارى معانيه . ولو قد اطلقنا لهُ حرية القول ، لتحرر من القيود التي يتواضع عليها الناس ، ولا تنثر لديه عقد اللغة ، ولأنشأ أوضاعاً جديدة من الكلام بحسب ما تاتي في روعه مظاهر حياته ومدنيته . وأنت تطالع في هذا الشعر التغني بالآلة غناء قد يجد حيناً حتى يبين كأنهُ كلمات مرصوفة لا تمتُّ الى الشعر بسبب،وقد يسمو أحياناً فياتي في روعك ما في روع الشاعر من الاحلام،ويروعك ما يتبعثر فيه من صور فنية يستلهمها الشاعر من دوي المعمل او دخانه!

ونجد في هذا الشعر ايضاً قرب غور معانيه ، وندرة البديع اللغوي ، أو التعقيد في المعنى ، وانما الشاعر يتسلسل مما يحوطهُ من الماديات الى آفاق بعيدة من الخيال الشعري . ولكنك واجد فيه على كل حال ثورة صناعية على أمنا الطبيعة ، التي تقدم لنا اروع صور الفن في دوح من البان يهزه النسيم فيترنح من الهواء كأنما فيه نشوة من الطرب ! أو ترنيمة غدير ينساب بين الصخور فكأنما تتردد في خريره معاني الطبيعة الهادئة او وحي التاريخ السحيق . فنثور عليها طالبين وحي المادة ، وما تبعثهُ من آفاق محدودة ، أو أنغام جامدة . غير ان الجمال الفني في الشعر كما يكون وليد الطبيعة أو كما يكون في سبر أعماق النفوس وحصد ثمرات حقل الشعوب ، فانهُ يكون في الشعر الحديث في كل عصر ، وهو رهن نشوء صور جديدة من ألوان الحضارة المادية. إذن فنحن لا نجد، حين نقرأ هذا الشعر، صورة النفس البشرية الخالصة من أوضار المادة وضرورات الحياة بل نجد النفس التي طغت عليها قواسر العيش ، فتغنت بهذا الكلام عبوديتها للآلة وذلها للمادة الصفيقة ، بعد أن كانت صفحات الطبيعة هي المصدر الغالب لكل ما انتج العقل البشري من شعر

وقد لا نستطيع لاول وهلة أن نتذوق مقاطع الشعر الحديث ومعانيه لاعتبارات كثيرة أهمها اختلاف البيئة وجدة هذا التوجيه ، وقد نراه خالياً من الانسجام الموسيقي ، غثًّا بارداً . لاننا تعودنا ان نتلو الشعر لفظاً جميلاً ، يستعان في اتساق متشابه قوي رائع ، ونحتفظ به في الذاكرة ونعيده لفظاً جميلاً أبداً ، تمضمهُ النفس الواعية ، ثم لا تبالي ان هي نمت ،أو حزنت ، او ثارت ، ما دام في انشادها رنة الفرح ، او أنّة الالم ، او نزوة الهوى !

ابن سينا (١)

ليس بين ما نظمهُ الاقدمون قصيدة أدنى الى معتقدي وأقرب الى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس

في هذه القصيدة النبيلة قد وضع الشيخ الرئيس أبعد ما يراودُ فكرة الانسان، وأعمق ما يلازمُ خياله من الاماني التي تولدها المعرفة ، والسؤالات التي يثمرها الرجاء ، والنظريات التي لا تصدر الاّ عن التفكر المستمر والتأملات الطويلة

وليس من الغرائب صدور هذه القصيدة عن وجدان ابن سينا وهو نابغة زمانه ، ولكن من الغرائب ان تكون مظهراً لرجل صرف عمره مستقصياً أسرار الاجسام ومزايا الهيولى . فكأني بهِ قد بلغ خفايا الروح عن طريق المادة وأدرك مكنونات المعقولات بواسطة المرئيات فجاءت قصيدته هذه برهاناً نيراً على ان العلم هو حياة العقل يتدرج بصاحبهِ من الاختبارات العلمية — الى النظريات العقلية — الى الشعور الروحي — الى الله

قد يجد المطالع في ما نظمهُ كبار شعراء الغربيين مقاطع متفرقة تذكره بهذه القصيدة السامية . ففي روايات شكسبير الخالدة أبيات لاتختلف بمعانيها عن قول ابن سينا

وصلت على كرهٍ اليك وربما   كرهت فراقك وهي ذات تفجّعِ

وفي اقوال شلي ما يماثل

سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت   ما ليس يدرك بالعيون الهجّعِ

وفي تأملات غوتي ما يضارع

وتعود عالمة بكل خفية   في العالمين فخرقها لم يرقعِ

وفي ما قاله براوننغ ما يضاهي

فكأنها برق تألق بالحمى   ثم انطوى فكأنه لم يلمعِ

ولكن الشيخ الرئيس قد تقدَّم جميع هؤلاء بقرون عديدة . فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة . وهذا ما يجعلهُ نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده ، ويجعل قصيدته في النفس أبعد وأشرف ما نظم في اشرف وأبدع موضوع

---

(١) ننشر هذه القطعة من آثار جبران خليل جبران بمناسبة نشرنا للفصل الاخير من البحث المسهب في سيرة ابن سينا ومؤلفاته



تقدم علوم الطب

— ٢ —

للدكتور شريف عسيران

صدر حديثاً كتاب علمي جليل من أنفس الكتب العلمية موضوعه «تقدم العلم» دبجته أقلام أئمة علماء الانكليز في هذا العصر أمثال السر جيمز جينز والسر وليم براج وهالدين وهكسلي وابلتن . وقد نشر فيه الدكتور ادورد ملانبي فصلا نفيساً عن تقدم علوم الطب فيه فائدة للاطباء وعامة الناس . فنقلته لينتفع به الناطقون بالضاد :

ولنستعرض الآن بعض نتائج انفجار هذا النشاط الطبي الذي تدل عليه زيادة التتبعات الطبية وانتشار المؤسسات الكثيرة . وخير طريقة لذلك مقابلة معدل الولادات والوفيات الناشئة عن الامراض النوعية . بلغت وفيات الاطفال دون السنة من العمر بين سنة ١٨٩٦ — ١٩٠٠ ١٥٦ بالالف بينما سقطت سنة ١٩٣٤ الى ٥٩ بالالف وبلغ معدل وفيات الرجال بسن ٤٥ — ٥٠ (٢٠ر٣) بالالف سنة ١٨٧٠ — ١٨٧٥ وهبط سنة ١٩٢٦ — ١٩٣٠ الى ١١ر٧ بالالف وهبطت وفيات السل الرئوي من ٣٤٧٨ بالمليون بين سنة ١٨٥١ — ١٨٦٠ الى ٧٤٠ بالمليون سنة ١٩٣٤ ونقصت وفيات السعال الديكي من ٥١٠ بالمليون سنة ١٨٧١ — ١٨٨٠ الى ٥١ بالمليون سنة ١٩٣٤ والحصبة من ٣٨٠ الى ٩٣ بالمليون والتيفوئيد من ٣٢٠ الى ٤ بالمليون. وقد هبط معدل اكثر الوفيات المذكورة في القرن الحاضر . أما السل فقد بدأت تتناقص وفياته منذ ما يقرب من مائة سنة . فاذا اتخذنا هذه الارقام مقياساً أدركنا المدى الواسع الذي تقدمت فيه الصحة العامة خاصة في الثلاثين السنة المتأخرة

وهناك طرق أخرى غير المذكورة تؤدي الى نفس النتيجة اي تحسين الصحة العامة. صحيح اننا خطونا خطوات كبرى في تشخيص الامراض والوقاية منها وطرق معالجتها ولكن مما لاريب

فيه ان طائفة من الامراض تلاشت لاسباب لا علاقة لها بالطرق المذكورة ونذكر على سبيل المثال ان وطأة الامراض خفت لاسباب لم تخرج عن حدّ الظن كداء النقرس (gout) الذي كان كثير الانتشار منذ مائة سنة فأصبح الآن نادراً ولا يعلم احد سبب قلته . ويظن البعض ان سبب ذلك هبوط التسمم بالرصاص. ومن الامراض التي قلت في الثلاثين السنة المرض الاخضر Chlorosis [١] وهو ضرب من فقر الدم يصيب النساء . فمنذ ٢٥ سنة كانت المستوصفات تعج بالفتيات المصابات بهذه العلّة . أما اليوم فقلّ من يعرفها من الاطباء لندرتها . ويزعم البعض ان سبب تلاشيها اقلاع النساء عن لبس المشدات ولكن هذا الرأي مجرد ظن . ومن الامراض القتالة التي كانت منتشرة انتشاراً فظيعاً بشكل وبائي اسهال الاطفال الصيفي فكان يقضي على ألوف الاطفال وقد تناقص الآن كثيراً . ويعزو البعض نقصانه الى تلاشي الذباب من المدن (في بلادهم لا بلادنا) بعد ان حلت السيارات محل الخيل ولكن لم يبت في السبب بعد . ومن الاسباب المهمة لتحسن الصحة نقصان تعاطي المسكرات . وفي هذا النقصان اسرار اكثر مما ندرك في الوقت الحاضر ولكن نستطيع حتى الآن ان نجزم بأن بعض الامراض الناشئة عنهُ قد قلت كثيراً بعد ان نجحت لجنة الاشراف على المشروبات في حمل الشعب على الاعتدال في تعاطيه فغدا الهذيان الرعشي الناشيء عن الكحول نادراً ومن المرجح ان شطراً من اسباب قلة سحق الاطفال في الفراش [٢] يعزى الى هذا العامل مع ان حوادثه كانت كثيرة

والسبب الثالث لتلاشي بعض الامراض التحسن الكبير في التنظيم الصحي (Sanitation) والنظافة الشخصية . والفضل الاكبر لانكلترا في قيادة حركة سن الشرائع المتعلقة بالصحة العامة ويجب ان لا تنسى هذه البلاد (يقصد انكلترا) ما لبعض الشخصيات البارزة من الفضل العظيم في حمل المجلس النيابي على تصديق شرائع كهذه رغماً عن شدة المعارضة . ولا نسمع الاَّ القليل عن هذه الشخصيات امثال Chadwick, Murchison, Simon, Alcband, Buchanan and Benjamin مع ان جهودهم الجبارة هي التي أدت في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر الى هبوط الامراض هبوطاً هائلاً . ان انتشار اوبئة الهيضة الآسوية ساعد كثيراً في حمل المجلس النيابي على سن تشريع الصحة العامة لسنة ١٨٤٨ الذي كان حافزاً لتشريع التنظيم الصحي لسنة ١٨٦٦ . ومع ان التنظيم الصحي ابتدأ عدة سنوات قبل اكتشاف كوخ وكان العمل فيه من الامور المسلّم بها في ذلك الوقت فانه ازداد زيادة عظيمة حينما تبين ان الجراثيم هي مصدر كثير من الامراض وان أغلبها ينتقل بواسطة الماء واللبن الحليب. ومما لا جدال فيه ان بعض الامراض

(١) نوع من فقر الدم يصيب النساء وعلى الاخص حديثات السن
(٢) يقصد سحق الامهات لاطفالهن ليلاً وهم نائمون بجانبهن

قد زال تقريباً بسبب تحسن التنظيم الصحي كالهيضة الآسوية والبرداء والطاعون والحمى النمشية والتيفوئيد [١] وآخر الحميات التي تلاشت هي الحمى التيفوئيدية وصارت الوفيات بها صدفة في بريطانيا وتبلغ ٤ بالمليون سنوياً ولا عذر لنا في هذا الوقت حتى على هذا العدد اليسير من الوفيات بها

ولنلتفت الآن الى ناحية اخرى من هذا الموضوع وهي عدد كبير من الامراض تقدمت معرفتنا بتشخيصها ومعالجتها والوقاية منها تقدماً عظيماً بفضل البحوث الطبية الحديثة . وقد تقدمت هذه المعرفة من ثلاث جهات بصورة تقريبية . فالفئة الاولى تشمل الامراض المتولدة من الحيوانات الاحادية الخلية Protozoa والبكتيريا والفيروس فنشأ من درسها فرع من فروع البكتيريولوجي يعرف بالمناعة وآلت معرفة الاطباء المناعة الفعلية والواسطية الى تخفيف وطأة بعض الامراض الجرثومية بعض الشيء كالخناق والحمى الدماغية الشوكية والحصبة والحمى القرمزية. وقد رأينا ان الجدري تلاشت او قلت من عهد جنر بواسطة التطعيم الذي يولد مناعة ضدها وتبين حديثاً ان المصل المُمنِّع (المولّدة فيه المناعة) المأخوذ من دم ولد شفي حديثاً من الحصبة اذا حقن به ولد معرض للعدوى بهذا المرض فاما ان لا يصاب وإما ان تكون الاصابة خفيفة. وما لم يكن الولد دون الثلاث سنوات عمراً او لسبب آخر خاص فان الطبيب لا يرغب في منع الحصبة بل يفضل اصابة خفيفة بها تولد مناعة فعلية . ونستطيع الحكم على نتائج هذه الطريقة الباهرة من تجارب أحد باحثي لندن فقد استعمل المصل المُمنِّع في ٣٩٩ ولداً بعد تعرضهم للحصبة فلم يمت منهم احد بينما مات ٥ بالمائة من الاولاد الذين اتخذوا ضابطاً فلم يلقحوا بالمصل الواقي . وآلت النتائج الحديثة في استعمال مضاد سموم الحمى القرمزية الى تقليل معدل الوفيات بها وتخفيف وطأة عواقبها الوخيمة

ان لتخفيف وطأة الحمى القرمزية والحصبة شأناً كبيراً في تقليل حوادث اصابات امراض الاذن الوسطى الناشئة عقب الحصبة والحمى القرمزية لان عدداً كبيراً من اصابات الصمم في هذه البلاد [٢] ناشيء من مرض الاذن الوسطى واذا لم يقمع هذا الداء العضال فان مشكلة الصمم ستبقى . وقد استنبطت الطرق الآن لتخفيف تأثير هذين المرضين والسير عليهما يؤدي الى النتائج الحسنة

وقد اكتشفوا ضرباً آخر من المعالجة لمعالجة الامراض المتولدة من الحيوانات الوحيدة الخلية وهو المعروف بالمعالجة الكيمياوية Chemotherapy كالسلفرسان ومشتقاته الادوية النوعية في معالجة الزهري التي لا تقلل هذا المرض فقط بل تأثيراته العصبية كشلل المجانين العام وأشباهه وقد حلّ محل الكينين الذي يعدّ دواء نوعياً للبرداء لدرجة ما ، مستحضر الاتبرين [٣]

---

(١) هذا في بلادهم نعسى ان تكون سائرين على الدرب (٢) وفي بلادنا ايضاً ينشأ من الحصبة (المعرب)
(٣) لم يذكر البلازموكين بجانب الاتبرين ونعتقد انه لا يزال للكينين منزلته السامية (المعرب)

ومستحضر باير ٢٠٥ في بدء الاصابات بمرض النوم

ان فئة الامراض الثانية الكبرى هي المتولدة من اضطرابات المفرزات الداخلية فالفَدْم and Myxeodema(٢) Cretinism (١) يشفى باعطاء الثيروكسين وهو خلاصة الغدة الدرقية والسكري بالانسولين وهزة الحائط بالـ Parathrombone خلاصة الغدد المحاذية للدرقية ومرض ادسن بخلاصة الجزء القشري من الكظر وفقر الدم الخبيث بخلاصة الكبد . وبما اننا لا نستطيع الافاضة في انتصارات الطب الباهرة في هذه الناحية نرى ان لا بدَّ لنا من توجيه النظر الى اكتشاف حديث عظيم الشأن فان Dakin وزميله استخرجا خلاصة الكبد بصورة صرفة او ما يقرب من ذلك وفعل هذه الخلاصة عجيب فان حقن ٠،١ او ٠،٢ منها اسبوعيًّا يجعل الضعيف الشاحب اللون قويًّا نشيطاً وتصيره في أسابيع قليلة مورَّد الخدين يحيي حياة طبيعية كغيره من الاصحاء . ولا يزال هذا الفرع في تقدم مستمر وله مستقبل كبير وكل من له المام بخلاصات الغدد الجنسية كال asterin, progestin, and androsterone يدرك امكان تقدم هذا الفرع غير المحدود

ان فئة الامراض الثالثة القابلة المعالجة هي الامراض الغذائية . وقد عثروا اثناء البحث في هذا الموضوع على الفيتامين الذي هو من العوامل الاساسية في منفعة الغذاء فعزلت مواده وعرف تركيبها وصرنا نعرف بفضل هذه النتائج كثيراً عن بعض الامراض كالكساح ونخر الاسنان وقابلية العدوى ومرض الاسكربوط والبري بري وغيرها من الاضطرابات الجسدية كالتسمم بالترمس والرعشة الناشئة عن التسمم بالجؤدر (Erpot) ومن نتائج هذا الفرع المهمة اننا صرنا نعلم ان ليست الجراثيم فقط تسبب الامراض بل ان سبب بعضها نقص او زيادة في بعض المواد الكيمياوية الضرورية للجسم . ومع ان هذا السبب يعد حديثاً فالمطلعون على تاريخ الطب يعلمون ان هذه الفكرة ليست حديثة . ففي سنة ١٨٥٠ أدلى شاتان بنظرية خلاصتها ان مرض الجواتر (الجحوظ) متولد من نقص اليود وذكر حججاً بينة في تأييدها . ومن صفحات الطب السوداء المؤلمة ان المجمع العلمي الفرنسي رفض نظرية شاتان بعد ان دققتها لجنة من قبل المجمع واعادت النظر فيها عدة مرات واعتبرتها خطأ لان اعضاءها لم يصدقوا بأن لهذا القدر اليسير من اليود ذلك التأثير العظيم في احداث المرض او منعه . ولم تتحقق نظرية شاتان ويصر لها شأن يذكر الاَّ سنة ١٨٩٥ حينما بين بومان ان في الغدة الدرقية معدن اليود . والفائدة الوقائية أعلى شأناً من العلاج . صحيح اننا نستطيع شفاء داء الاسكربوط والبري بري بوصف الغذاء الملائم ولكننا نستطيع في الوقت عينه الوقاية منهما بالمداومة على استعمال

---

(١) في الصغار (٢) في الكبار

الغذاء المناسب لعدم الاصابة بهما. والشيء نفسه يصدق على مرض الكساح. وأودان اقول هنا كلمة عن موضوع الادوية الواقية والشافية فان الاطباء وعامة الناس لا يفقهون حقيقتها وأهميتها. ان الدواء الشافي عجيب في فعله لانه يزيل الداء حالاً ولا يستطيع المرء ان ينسى مدى تأثيره اذا كان مصاباً بمرض ما. اما المعالجة الوقائية الفعالة فانها تمنع حدوث المرض بتاتاً ولاسيما اذا صارت متداولة وشتان بينها وبين الطريقة الاولى. فالثانية تمحو المرض بينما الاولى إما ان تطيل الحياة وإما ان تخفف علامات المرض ولكنها لا تزيله فيجب ان يكون هدفنا الوقاية من الامراض او القضاء عليها لا معالجتها ويتوقف نجاحنا في هذه الناحية على مدى معرفتنا اصل الداء ومنشأه. ومن العقبات التي تعترض الاستقصاء العلمي لدرجة ما عدم توصلنا الى كنه حقيقة الامراض فاذا تمكنا من معرفة سببها سهلت الوقاية وسهل الشفاء وان لم يكن باستطاعتنا ذلك فقد نتمكن من تخفيف الالم ولا نعرف او نعرف قليلاً عن سببه او قد نعرف الشيء الكثير عن مرض ما ونجهل طرق الوقاية منه او شفائه. فمثلاً قليلة هي الامراض التي نعلم عنها اكثر مما نعرف عن السرطان ومع ذلك لا نعرف الاّ اليسير عن طرق الوقاية منهُ. اما معرفتنا عن شفائه فصفر. وعكس ذلك السكري وفقر الدم الخبيث فاننا نستطيع اتقاء ضررهما بالانسولين وخلاصة الكبد فتتحسن حالة المصاب مع اننا نجهل او نعلم القليل عن سببهما

وأود ان اقول الآن بضع كلمات عن مباحث طبية خاصة لأُبين كيفية كشف الستار عن سبب الامراض ومعالجتها ولان معرفتها هي التي ادت في هذه البلاد (يقصد انكلترا) حيث المواد الغذائية متوفرة الى ضلال الناس في حقيقة فهم الغذاء وتأثيره في الصحة. فقد ظل داء الكساح في انكلترا وسائر العالم المتمدن قروناً ضربة قاضية ومع ان شدته صارت نسبيًّا نادرة في لندن فلا يزال منتشراً في كثير من البلدان الصناعية في الشمال وسببه كما هو معروف نقص في كلس العظام يعرضها لمختلف التشوهات. وحتى سنة ١٩١٤ او ما يقرب من ذلك كانت النظريات مختلفة في سبب هذا المرض وعزوه الى أسباب صحية او معدية او افرازية اوغير ذلك. فدائرة المعارف البريطانية مثلاً عزتهُ في طبعة سنة ١٩١١ الى سموم تتولد في القناة الهضمية واذا أراد اي شخص الآن ان يعرف سبب داء كهذا يتساءل هل كانت الحيوانات تصاب به فاذا كان من الممكن احداثهُ فيها فيمكننا اجراء التجارب اللازمة والتوصل الى معرفة السبب ولكننا لا نتمكن طبعاً من اجراء تجارب كهذه على الانسان وأول ما يجب عمله في معرفة السبب ان نلم بالطريقة التي تمكننا من احداثه على الدوام في جراء الكلاب بمحض اختيارنا. وبمثل هذه التجارب عرفوا ان بعض الاغذية تسببهُ وان تغييراً طفيفاً فيها يمنعهُ. ومواد الغذاء الاختباري كما يلي: —

لبن حليب منزوعة قشدته : ١٥٠ — ٢٥٠ س. م يوميًّا

دهن : (زبدة زيت الزيتون او شحم او زيت كبد الحوت) ١٠ غرامات
عصير البرتقال : ٥ س ٢٠ خمير : ٥ — ٧ س ٢٠
حبوب : (كالدقيق والارز والاذرة و...) . .—٢٥٠ غرام لحم : ١٠ — ٢٠ غراماً

وقد وجدوا ان الكساح يحدث او لا يحدث وفقاً للدهن الذي في الغذاء فاذا كان فيهِ دهن حيواني كالزبد او زيت كبد الحوت فلا يتولد الكساح . واذا اطعمنا جراء غيرها نفس الغذاء وفيهِ زيت الزيتون او زيت بزر الكتان او شحم تولد فيها هذا الداء . واستنتجوا من هذه الاختبارات ان الضابط هو الدهن فبعض انواعه تسبب تصلباً في العظام كالزبدة وزيت كبد الحوت وبعضها ولا سيما الزيوت النباتية تسبب رخاوة فيها فدعوا المادة التي هي العامل في الصلابة والرخاوة (فيتامين) وتسمى الآن فيتامين D فهي التي تسبب صلابة العظام بترسيب فوصفات الكلس فيها ولا تتصلب العظام اذا كانت هذه المادة مفقودة رغماً عن وفرة المواد الكلسية والفصفورية فيها . فهذه المادة هي التي تثبت الكلس . ونستطيع تغيير نوع الحبوب لتجربة تأثيرها باحداث الكساح او عدم إحداثه بنفس الطريقة فاذا أطعمنا جراء كلاب كل عناصر الغذاء الاساسية بشرط ان نطعم بعضها دقيقاً أبيض وغيرها شوفاناً oatmeal والبعض الآخر أرزاً الخ يظهر الكساح بدرجات وفقاً لنوع الحبوب ومقدار الفيتامين D الذي فيها فالغنية بهِ لا تسبب الكساح والتي تحوي قليلاً منهُ تجعل الاصابة خفيفة وهلم جرًّا. فالاذرة البيضاء مثلاً تولدهُ بصورة شديدة والدقيق والارز بدرجة اخف . فهذه التجارب تدل على ان ظهور الكساح لا يتوقف على نقص الفيتامين D فقط بل على نوع الحبوب التي تؤكل . ومن الحقائق الغريبة ان الحبوب التي فيها كلس وفصفور أكثر من غيرها كالاذرة البيضاء والشوفان oatmeal هي التي تولد أردأ انواع الكساح بصورة أشد من المواد المحتوية على مقدار أقل منهما كالارز والدقيق الخ

ان هذه النتائج تدلنا على ان لا نكتفي بالنظريات بل على المرء ان يجرب بنفسهِ ليصل الى الحقيقة . وقد طبقوا هذه التجارب على الاسنان فظهر ان لنخرها علاقة بالغذاء لان المواد التي تجعل العظم قويًّا هي التي تثبت الاسنان السليمة . فيتضح لنا من هذه الدروس ان الحليب وصفار البيض والجبن وزيت كبد الحوت والزبد هي العامل في توليد الاسنان الصحيحة بينما الحبوب كالاذرة والشعير والخبز والارز وكل فئة الحبوب تنبت الاسنان المعيبة . وبما ان الرواضع (أسنان الحليب) تظهر في كثير من الحيوانات في الدور الجنيني او بعد الولادة بقليل فمن البديهي ان تنمو صحيحة اذا أطعمناها المواد الغنية بالكلس والفصفور والعكس بالعكس والثوابت (الاسنان الدائمة) تظهر من بعد الولادة حتى سن البلوغ وتتوقف سلامتها ايضاً على نوع الغذاء . ومن المعلوم ان اسنان اهل هذه البلاد (انكلترا) ليست صحيحة ومعناه ان غذاء الاولاد حتى

الحوامل ناقص بصورة عامة من وجهة صحة الاسنان. ونستطيع ان نتنبأ على وجهٍ يقرب من الجزم ان نخر الاسنان وتجييج الاسنان Pyorrhea سيظلان ضربة على الامة مالم يتغير نوع الغذاء ولا يمكن القضاء عليهما الاَّ باعطاء الحليب والزبد وصفار البيض والجبن والخضر والفواكه الخاصة للاولاد. لقد أتيت على ناحيتين فقط من أهمية الغذاء مع ان مجال القول ذو سعة في هذا الموضوع. وقد أصبح من المعروف ان كثيراً من العيوب الجسدية والعقلية في هذه البلاد وغيرها يمكن تقليلها جداً بالتقيد بمبادىء الغذاء المذكورة وسيكون لهذه الوجهة من الطب الحديث الواقي تأثيرها في رفع مستوى صحة العالم

لقد اكملت مهمتي الآن واستعرضت تقدم الطب في مختلف العصور خاصة سرعتها في الخمسين السنة المتأخرة. وانتقدت الاقدمين في محاضرتي لبطئهم في الاهتمام بالامراض والاخطاء التي ارتكبوها اما عمداً وإما سهواً. ومن الطريف ان نعرف نظر الناس فينا بعد آلاف السنين وحكمهم على ما توصلنا اليه. وعلى الارجح انهم سوف لا يفكرون بقضية الامراض اذ من المحقق انها تصبح نادرة جداً لدرجة ما ويصير المرء يجهد فكره ليتذكر انتشار المرض الفلاني ولا بد ان يقوم منقب يبحث في سير الاولين وآدابهم فيرى اننا تأخرنا في تقدير الطرق التجريبية ويسخر من بطئنا كما نسخر من الذين قبلنا. لقد حاولت ان ارد بعض أسباب بطء الاقدمين في التوصل الى الحقائق التي توصلنا اليها اليوم. ومن الخطأ ان نتقبلها كما نراها اليوم ولا نلتفت الى الجهود التي بذلها البشر في التوصل اليها فعلينا ان لا نتمسك بالنظريات مطلقاً دون التجارب. وسيعثر فيلسوف الغد المنقب عن آثارنا على كثير من الامور المستغربة. ومما لا شك فيه انهُ سيقص على اصدقائه كيف كان الاطباء سواء عن اقتناعهم الشخصي او بناء على طلب المريض يصفون سلسلة من الادوية كالمحاليل والغرغرات والمساحيق. واذا كان سيسخر من هذه الامور فما احراه ان يسخر من هذه البلاد المتوفرة فيها المواد الغذائية الصحية ومع ذلك يحرم الكثيرون من أبنائها منها واعني بصورة خاصة اللبن (الحليب). ويعجب حينما يعلم ان مصدِّر مقابض المظلات يستطيع مثلاً الحصول على مقادير كبيرة منهُ بسعر الغالون الواحد بخمس بنسات بينا لا نستطيع الحصول على نفس المقدار لتغذية الاطفال بأقل من شلنين وخمس بنسات. ومما لا ريب فيه ان هذه الحالة مؤقتة ومتى عرفنا قيمة الغذاء الصحيح اصبحت أسسهُ راسخة رسوخ التنظيمات الصحية والنظافة اليوم. فالاكتشافات الصحية تترى في الوقت الحاضر وهي تتقدم بخطوات سريعة والحقائق الطبية تتراكم يوماً فيوماً ولا حدَّ لهذا التقدم حتى ان الموظف في الشؤون الصحية يصعب عليه تتبع الطب الواقي — ويجدر بنا ان نعلم اننا في عصر الطب الذهبي وان نعترف بالنعم التي نتمتع بها اليوم

دائرة الحياة

« كل يوم هو في شان »
« وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب »
(قرآن كريم)

شاعر أطرب الاله طويلاً   بمقاطيع عذبة الألحان
اسكر الله لحنهُ فدعاه   ليرى خطب ذلك الانسان

قيل: يا شاعر الآلـه تخيّرْ !   لك من هذه الدنا ما أردته
قال : هاتوا الخلود يا جند ربي   فأجابوا بئس الذي قد طلبته

أرأيت الاملاك هاجت وماجت   تملأ الارض والسماء دويّا
ما لدود التراب يرجو خلوداً ؟   ان هذا قد جاء شيئاً فريّا

رعشة في قلوبهم قد تمشت   ولوجه الإله خروا سجودا
قيل: أعطوا عبدي الذي يبتغيه   يطلب الخلد فامنحوه الخلودا

نفحة الخلد في حناياه قرّت   إنما الخـــلد للإله العليّ
ألبسوه ثوب الخلود وآبوا   واحتفى الخلد بالفتى السرمديّ

خيّروه بين المواطن فاختـــار على شاهقٍ رفيع مقامهْ
تركض الارض حوله وهو ثاوٍ   ينظر الارض والشموسُ أمامه

كم عروش هوت على صاحبيها   وتماثيل حطّمتها الصروف
وتهاويل قدّسوها رآها   تتلاشى كما تلاشى طيوف

كم آلـه على التراب صريع   وإلـه عن عرشه قد تهاوى
يصرع البعض بعضهم فيخرّ الـــكلُّ من سكرة الصراع نشاوى

نظر الارض والتطور فيها   عامل في الجماد والأحياء
وهو لا يأتلي يطل عليـــهِ   ابداً وجه هذه الزرقاء

جاء دهر عليهِ وهو مجيـلٌ   طرفه كالكئيب في الكائنات
فاذا بالرجاء قد مات فيهِ   وبه ملٌّ من سكون الحياة

أنا وحدي في الارض تذهب نفسي   إثر من أهوى، ثم يرحل عني
ما ابتغائي من الخلود وحيداً؟   وجميع الآمال تذهب مني

أيها الغادي للتراب رويداً!   عاد جسمي حنينه للتراب
افتح الباب للردى وانتظرني   انني ذاهب لأطوي ثيابي

كل حين أستطلع الركب منهم   فأرى الراكبين بعض رفاقي
ينزعون الجلود ثم يعودو   ن بروح جديدة الاشواق

هذه من عشقتُ تفنى وتحيا   لم تزل روحها تطوف بداري
وجه ليلى، وروح ليلى، وليلى   لم يبدّل منها سوى الأطمار

جهلتني وليت تذكر يوماً   انها في حيــاتها عرفتني
مصَّ من روحها الثرى كل وعي   فلها عذرها اذا أنكرتني

سمع الله عبده وهو يشكو   قال: ما تبتغي فقال الفناء
سأم عادني وأضعف نفسي   ماهي الارض ان خوت والسماء؟

قال رب السماء آمن بأني   قد خلقت الوجود أحسن خلق
ملأ الناس بالشكاوى سمائي   وهمُ يشتكون من غير حق

يطلبون البقاء في الارض دهراً   فارو ماذا رأيتهُ في البقاء
لا تلوموا على الفناء وجودي   يشفع الكون نفسه بالفناء

كل يوم ترى الالٓه بشانٍ!   كل يوم ترى الالٓه بحال
ما خلودي دوماً بمغنٍ شيئاً   أنا لولا تبدلي وانتقالي

لذة الارض هل تخاف انطفاء؟   انما أنت جمرة في رماد
أفنِ جسماً والبس سواه جديداً   فيك مجموعة من الاجساد

كن كمثل الزمان يوصل ماضيــه بآتٍ، وعش كشيء جديد
فيك شيء من الفناء، وشيء   قد قبسناه من صميم الخلود!

خليل هنداوي

وزارة المعارف

نشاطها في دراسة
مشكلات التربية وتشجيع الثقافة العامة

— ١ —

ظلَّت وزارة المعارف بمصر ردحاً من الزمن طويلاً تعمل في دائرة لا تتعدَّى الحدود التي ترسمها حاجة الحكومة الى موظفين يقومون بالاعمال الكتابية . ولم تتخطّ الوزارة هذه الحدود الاّ في ناحيتين اضطرتها الظروف القاهرة الى تخطيها : الاولى حاجة البلاد الى قضاة ومحامين يقيمون هيكل العدل بعد اعادة تنظيم المحاكم الاهلية فأنشئت مدرسة الحقوق ، والثانية حاجة البلاد الى مهندسين يشرفون على مشروعات الري والصرف وتوزيع مياه النيل فأنشئت مدرسة الهندسة . وفيما عدا هاتين الناحيتين لم يشعر المصريون بأن للوزارة أثراً في توجيه الثقافة العامة وجهة ما . ولقد نقول بيقين ثابت ان هذه السياسة ظلت مهيمنة على وزارة المعارف حتى عام الثورة سنة ١٩١٩، فكان هذا حدّاً فاصلاً بين عهدين من حياة وزارة المعارف . فان اتجاه الافكار الى المثل والغايات العليا وتحويل أنظار الامة الى الاستقلال والى الحرية قد نال وزارة المعارف منهُ نصيب وافر تطلعت بعدهُ الميول الى التوسع في شئون التعليم توسُّعاً لو قسناه في مدى عشرين سنة بما كانت عليهِ حال التعليم قرناً بتمامهِ ، لما استطعنا ان نمثل لهذا القياس الاّ بحركة الكهرباء مقيسة الى مشي السلحفاة . هذا اذا اعتبرنا النتائج العملية التي عادت على البلاد من تلك الاستيقاظة الاخيرة

ولقد تدرجت الوزارة في الاخذ بأسباب الاصلاح ، غير ان اعظم وجوه الاصلاح في نظرنا ذلك الميل الجديد الذي بدا أخيراً في أفق وزارة التربية والتعليم من حيث الاتصال بالحركات الثقافية التي تتكوَّن خارج جدرانها . وفي الحق ان انبتات الصلة بين الوزارة وبين أوجه التثقيف التي كان يقوم بها أفراد عاملون في خارج الوزارة كان سبباً رئيساً عاق التثقيف العام زمناً ما . ولا شك في ان الوزارة باتّخاذها هذه الخطوة الموفقة سوف تحقق جزءاً كبيراً من مهمتها الشاقة باعتبارها المهيمنة على الثقافة وعلى التربية العامة . ولا شك في ان الخطوات التي اتّخذت في هذه السبيل حتى الآن خطوات ثابتة سوف تتبعها خطوات اكثر توفيقاً باذن الله . فان تأسيس مجمع اللغة العربية الملكي والعمل على تأسيس المجمع الادبي وتنشيط الحياة الفكرية تكفي للدلالة على صحة ما نقول



ضرة صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير
عارف وهو خارج من بهو الجامعة المصرية حيث ألقى خطبته
التي نشرنا مختارات منها في صفحة ٣٣٠

— ٢ —

في الوسع تقسيم اعمال وزارة المعارف في خلال الاشهر الاخيرة، الخاصة بتشجيع الثقافة العامة قسمين عامين أولهما القسم الخاص بالمباريات حثاً للهمم وحفزاً للقرائح وقد صدر امر الوزير الدكتور محمد حسين هيكل باشا ، بتنظيم ثلاث مباريات كلّ سنة يمنح الفائزون فيها جوائز مالية نفيسة

١ — المباراة الاولى خاصة باحياء الادب العربي في مصر الاسلامية. وقد جاء في قرار الوزارة: « تعقد وزارة المعارف العمومية كل عام مسابقة في احياء الادب العربي في مصر الاسلامية على ان يقدم كلّ من المستبقين كتاباً لا يقل عن مائتي صفحة يتناول فيه اية ناحية من نواحي هذا الادب في اي عصر من العصور وعلى ان يكون الكتاب مثالاً حسناً للعمل الجدّي والبحث الشخصي والابتكار الذي يفيد العلم فائدة محققة » . وقد عينت الوزارة « مبلغ ٥٠٠ جنيه تمنح منهُ ثلاث جوائز لاحسن الكتب التي تقدم في هذه المسابقة » وآخر موعد لتقديم الرسائل للمباراة الاولى هو أول يونيو سنة ١٩٣٩

٢ — والمباراة الثانية خاصة بالمدرسين عامة في الموضوعات التي تقترح معالجتها وقد جعل عنوانها « مباريات تشجيع الانتاج الفكري » وجاء في قرار الوزارة « بما اننا نرى ضرورة العمل على تشجيع الانتاج الفكري بين المدرسين بمدارس الوزارة والمدارس الحرة من طريق حفزهم الى البحث والتأليف في موضوعات اختصاصهم والموضوعات المتصلة بها بما يؤدي الى تقوية شخصيتهم وزيادة حيوية دروسهم وتكوين ذخيرة من الرسائل العلمية والادبية تدعو الى نشاط التفكير العام اذ ينتفع بها الطلاّب والجمهور المثقف على السواء وتكون بعيدة عن التقيد بالمناهج وان اتصلت بموضوعاتها، وبما ان المدرسين والاساتذة في جميع البلاد المتحضرة مصدر التجديد العلمي والفكري والعملي في توجيه الحياة الاجتماعية الى أحدث المبادىء وأدق الآراء العلمية والادبية والفنية» قررت الوزارة رصد جوائز سنوية للمدرسين الذين يضعون رسائل علمية وأدبية تمنح في مباريات تعقد كل عام للتأليف بين المدرسين تخصص لها جوائز ثمانٍ قيمة كل منها مائة جنيه تمنح للمتبارين الذين ترى لجان التحكيم ان رسائلهم جديرة بالمنح » وتخصص جائزة لكل من الموضوعات التالية وهي:

الادبية — الاجتماعية — الفلسفية — التاريخية — الجغرافية — الطبيعية — الرياضية — المتصلة بالتربية وعلم النفس — التجارية — الصناعية — الزراعية

وقد اشترطت الوزارة في الرسائل التي يتقدَّم بها واضعوها لنيل الجائزة ان تكون باللغة العربية وان تكون موضوعاتها بعيدة عن التقيد بالمناهج وان اتصلت بموضوعاتها بعيدة عن طبيعة الكتب المدرسية وان تبدو فيها روح الابتكار في طريقة معالجة الموضوع على الاقل وان يكون لها اتصال بحياة البلاد العلمية والادبية او تاريخها القومي وان تصطبغ بالصبغة القومية في الامثلة

والتطبيق وان يراعى في التأليف التبسيط واستيفاء البحث من جميع أطرافه ، والامانة العلمية في ايراد الآراء والنظريات وان يتبع واضع الرسالة أساليب البحث الحديث وطرائق النقد الحديثة في ايراد نظرياته ومناقشتها كما يشترط ان تكون الرسائل قد وضعت خصيصاً لهذه المباريات ولم يكن قد سبق طبعها ونشرها . وألاَّ تقل عن مائتي صفحة من القطع المتوسط . وتتولى الوزارة نفقة طبع الرسائل التي تنال الجوائز ونشرها وتحفظ للمؤلف قسطاً من ارباحها

وقررت الوزارة ان «تحدد لهذه المباريات في كل عام مدة غايتها ستة اشهر تبتدىء من اول يونيو وتنتهي في آخر نوفمبر يتقدم فيها المتبارون برسائلهم للوزارة غير مطبوعة»

٣ — والمباراة الثالثة خاصة «بالفنانين المصريين لاظهار بعض النواحي القومية في قالب فني» وان «يعرض كل ما يقدم من الآثار الفنية في معرض عام يقام في شهر نوفمبر من كل سنة وتؤلف لجنة محلية من ذوي الاختصاص لفحص ما يقدم من هذه الاعمال الفنية وتقرير الصالح منها للعرض واختيار الاعمال الممتازة لشرائها وضمّها الي مقتنيات وزارة المعارف لتكون نواة لمتحف للموضوعات القومية وتوزيع جوائز على المتفوقين» . والمبلغ المرصود للجوائز ٥٠٠ جنيه وهي تتفاوت من ٥٠ جنيهاً (جائزتان) الى ٣٠ جنيهاً (٤ جوائز) الى ١٥ جنيهاً (ثمان جوائز) الى ٨ جنيهات (١٠ جوائز) الى ٥ جنيهات (ست عشرة جائزة) ولما كانت المذكرة التي وضعها مراقب الفنون الجميلة تُعَدُّ برنامجاً للناحية القومية في النشاط الفني فاننا ننشر ما يلي منها :

لما كانت الفنون الجميلة تساهم في نهضات الشعوب بنصيب وافر لا يقل بحال عن نصيب قادة الفكر ودعاة الاصلاح وهداة الوطنية بما لها من أثر في ارهاف الحس وتحريك العواطف بحيث كانت ولا تزال من أبلغ الوسائل وأقدر العوامل على حفز الهمم واذكاء جذوة الحياة في الامم اذا توجهت هذه الوجهة بدافع صدق من اشتراك اصحابها الفنانين مع ابناء وطنهم في البواعث والشعور وبخاصة انها أقرب من غيرها من وسائل التعبير الى مخاطبة الامة جمعاء بحكم انها تصويرية تتمثل للعيان وتقع تحت الحواس الظاهرة

ولما كان فنانو مصر الحديثة حريصين الحرص كله على المساهمة في نهضتها كأسلافهم فناني مصر القديمة الذين خلدوا على الصخر مفاخرها الغراء الباقية على الدهر . فتتشرف المراقبة باقتراح ما يأتي :

أولاً — دعوة الفنانين المصريين — وبلادنا في أبان نهضتها واستئناف عزتها — الى ان يستبقوا لتعزيز الروح القومي بفنهم مع الحرص على رسالة الجمال التي هي رسالتهم . وذلك بمعالجة الموضوعات الآتية وما يجري مجراها : —

﴿التاريخ المصري﴾ يعد التاريخ المصري في أحقابه المتطاولة ، وما تداول أثناءه من دول وما تخللهُ من احداث جسام، من أحفل التواريخ قديماً وحديثاً بالمواقع الحاسمة والمواقف الرائعة .



حضرة صاحب السعادة الاستاذ محمد العشماوي بك
وكيل وزارة المعارف

فهو يتحدث عن وقائع حربية برًّا وبحراً وعما كان فيها من هجوم ودفاع ، وحصار واستيلاء على الحصون والقلاع واشتباك بين العمائر البحرية وعما كان من توديع للجيش المسافر واستقباله في عودته استقبال الظافر ، وعما يصحب ذلك من معارض الاسلاب ومواكب الاسرى ، وكذلك مداولات القواد والتقاء أمراء العسكريين واجتماعات التحكيم والمصالحة وما اليها . ولا جرم ان مثل هذه الصور تحتاج الى دراسات تاريخية عميقة للعصر وأزيائهِ ونوع ادواتهِ وأساليبه المعاشية وملامح الوجوه وسماتها وعلى الاخص في الصور التي تلتقي فيها أجناس عدة بالمصريين كالحثيين والاحباش والنوبيين والاشوريين والاغريق والفرس في التاريخ القديم ، وكالعرب والصليبيين من مختلف الممالك في القرون الوسطى ، وكالاتراك والمماليك في العصور الحديثة . على ان هذا الجهد الذي يتكلفهُ الفنان يسفر عن اروع الصور والتماثيل وأوفاها بالمتعة والفائدة . ومع أن الغرض من هذه الصور تقوية الروح القومية في الامة وتعويدها الافتخار بتاريخها وتوكيد ثقتها بنفسها فليس معنى ذلك قصر آثار الفنانين على الانتصارات بل يصح تصوير الوقائع التي منيت فيها الجيوش المصرية بالهزيمة لتألب الاعداء عليهم او لغير ذلك من الاسباب الخارجة عن ارادتهم مع ابراز ما اظهروه من معاني الاستبسال والاقدام على التضحية وبذل النفس الغالية في ميدان الشرف

﴿ الآثار التاريخية ﴾ من شأن الفن الالتفات الى الآثار التاريخية ولا يكون ذلك بنقلها نقلاً فوتوغرافيًّا بل بالاعتماد على هذه الاطلال الدوارس يعيد الفنان بخياله بناءها كما كانت في في عهد ازدهارها ويعمرها باهلها سواء أمعابد كانت ام قصوراً . ويسري هذا على الآثار الفرعونية كما يسري على الدور العربية وجميع الآثار الاسلامية

﴿ الموضوعات الدينية ﴾ في تاريخنا الديني كثيرون دعوا الى الحق وآثروه على حطام الدنيا وزخرف الحياة ، وما زالت سيرتهم العاطرة تخفف من سلطان المادة على النفوس وتلطف من كثافتها . ولهؤلاء في مصر أضرحة ومقامات وسبل ماء لاستقاء السابلة كما ان فيها فضلاً عن المساجد والجوامع زوايا لعبادة الله ليس لها ضخامة تلك وفخامتها ولكن عليها مسحة من القدسية تخشع لها النفس . والفنانون يجدون في سيرة هؤلاء وآثارهم معيناً طاهراً يستوحون منهُ موضوعات تشعر بطعم الحياة الروحية ومتعة الاشتغال بما فيهِ صلاح الناس ورضى الله

﴿ المناظر الطبيعية ﴾ بعض المواقع الطبيعية المألوفة في مصر تتعلق بها ذكريات قديمة فاذا تشبع الفنانون بهذه الذكريات وجلوها على مسرح هذا المنظر كان المنظر الطبيعي بما أضيف اليهِ من المعاني وما غمره من خيالات الماضي أملأَ للعين وأوقع في النفس

﴿ الاساطير والقصص الشعبية ﴾ لدينا من هذه الاساطير والقصص الشعبية ما لا يقل عما لدى الامم الاخرى بل ما يزيد عليها تنوعاً وغنى . وفي امكان الفنانين الايحاء بما فيها من المعاني

الرمزية من غير اخلال بسذاجتها الاولية كما هو الحال في تفسير الخرافات الاغريقية مثلاً . ولا شبهة في ان أمثال هذه الموضوعات تلذ الخاصة كما تستهوي العامة وليس أجدى على النهضة من اشتراك طبقات الامة جميعاً في قوة الشعور بها

« المرأة » . كذلك لا يصح اهمال المرأة وهي عروس الفنون وصاحبة وحيها على ان يختار الفنانون المرأة في أوج سموها وعظمتها النفسية لا لمجرد فتنتها الجسدية . والتاريخ المصري حافل بالنساء العظيمات ممن جلسنَ على عرش مصر وغيرهنَّ ممن اشتركنَ في الذود عن الدين وحماية ذمار الوطن وكنَّ مثالاً للخير والفضيلة

ومما يتبع المباريات في تنشيط الحركة الفكرية والفنية في البلاد قرار أصدرهُ وزير المعارف بانشاء لجنة برآسة معاليهِ وعضوية الشيخ مصطفى عبد الرازق بك والدكتور طه حسين بك والاساتذة احمد امين وخليل مطران وعباس محمود العقاد وابرهيم عبد القادر المازني وتوفيق الحكيم « لبحث وسائل تنظيم الحركة الادبية في مصر » لانهُ قد تبين « ان الحركة الادبية في مصر وان كانت قد نشطت وأصبح بها أثر ظاهر في تثقيف الجمهور وتوجيههِ الاَّ انها لا تزال يعوزها التنظيم الذي يكفل لها اطراد التقدم وحسن التوجيه وبما انهُ قد نبتت فكرة الدعوة الى انشاء مجمع أدبي مصري يقصد بهِ على الاخص الى تنظيم الحياة الادبية في مصر وايجاد صلة منظمة تربط الادب والادباء والجهود التي تبذلها وزارة المعارف في تنشيط هذه الناحية وتعاون على تنمية الثروة الادبية في البلاد على غرار ما هو متبع في البلاد ذات النهضات الادبية الكبيرة » [1]

— ٣ —

هذا وقد ألقى معالي وزير المعارف خطبتين نفيستين في شؤون التربية والتعليم احداها في اجتماع المدرسين في بهو الاحتفالات بالجامعة المصرية والثانية في اجتماع رجال التعليم الالزامي ومن بواعث الاسف ان المجال لا يتسع لنشرهما كاملتين فاخترنا مقتطفات استوقفت نظرنا بما فيها من الحكمة العالية وصدق النظر قال :—

«على ان الامر في التربية والتعليم وضرورة تأثرهما بالفكرة القومية وبالتضامن القومي على الاجيال لا حاجة للانتفاع بهِ الى هذه الموازنة بين العلم والعالم [2] ، والانسانية والانسان . بل الامر

(١) أما القسم الثاني من اعمال وزارة المعارف في العهد الاخير فنصرف الى دراسة مشكلات التربية وفي مقدمتها مشكلة اللغة العربية وتسهيل تعليمها وأساليب تلقينها بحيث يخرج الطلاب وهم مالكون لناصيتها . ومشكلة المركزية واللامركزية في تنظيم الوزارة الاداري . وقد وضعت لجنة قوامها الدكتور طه حسين بك والاساتذة احمد أمين وعلي الجارم بك ومحمد ابو بكر ابراهيم وابراهيم مصطفى وعبد المجيد الشافعي تقريراً شاملاً في الاولى . وأعد سعادة الاستاذ محمد العشماوي بك وكيل الوزارة مذكرة نفيسة خاصة بالثانية . وسنعالج الموضوعين في عدد تال

(٢) اشارة من الوزير الى القول بأن العلم لا وطن له والقول الآخر بأنه اذا لم يكن للعلم وطن فللعالم وطن وقول الوزير ان العلم له وطن كذلك وانه يتأقلم

فيهما أيسر من ذلك بكثير . فكلنا متفقون على ان انجع وسائل التربية والتعليم بالنسبة للناشئة ما كان المثل الحي اساسه وما وقع عليه الحس او استطاع ان يتصل به . فما استطاع المتعلم ان يلمسه بيده ويراه بعينه ويسمعهُ بأذنه هو الذي يمثل الحقيقة في ذهنه ، وهو الذي يترك الأثر الباقي في نفسه . الناشىء الذي يرى الجبل ترسم صورته في ذهنه ولا يسهل ان يغيب تعريفه الجغرافي عن ذاكرته . والناشىء الذي يرى صورة موقعة حربية منقوشة على لوحة من اللوحات او ممثلة امامه في السينما يبقى ذاكراً لما رأى من ذلك اضعاف ما يذكره من حفظ عن ظهر قلب ماجرى في هذه الواقعة مما مثلتهُ الصورة او استظهرتهُ الشاشة البيضاء . واذا كانت قواعد العلم الحديث تستلهم سنن الكون من المشاهدة والملاحظة ، ثم من المقارنة والتبويب ، ثم من استقراء ذلك وترتيب النتائج عليه ، كذلك يفعل الناشىء ، وكذلك يجب ان يعوده المعلم ان يفعل ، فيما يقع عليه حسه من المرئيات والمسموعات وغيرها من سائر المحسوسات»

* * *

«التعليم الذي يعتمد على البيئة القومية لهُ — فضلاً عما سبق — أثر في الحياة لاسبيل الى دركه من طريق آخر . لقد قدمت ان عمل الاجيال يجب ان يفضل متضامناً لزيادة الثروة القومية ، معنوية كانت هذه الثروة أم مادية ، ولا يمكن ان تزيد هذه الثروة الاَّ اذا عرف الابناء ما عمل الآباء في أمرها . فاذا لم نقف على تاريخ صناعتنا وفننا وأدبنا وعلمنا وكل مظهر من مظاهر حياتنا وجعلنا همنا الى استعارة معارفنا من غيرنا ، كان ما يتركه كل جيل مختلفاً عما يتركه الجيل الذي سبقهُ ، غير قابل للالتئام معهُ الاَّ بمجهود يحتاج الى زمن والى رجوع الى المقومات القومية التي تعاون على النجاح فيه . فاما اتصال التعليم بالحياة القومية على الاجيال فيعفينا من هذا المجهود الذي يذهب الكثير منهُ سدى ، ولا يؤول الى النتيجة التي نرجوها من اتصال المزيد في ثروتنا »

* * *

«وأقف قليلاً لاقول ان الحرية التي يفهمها المذهب ليست الفوضى ، وانما هي النظام . فالحرية القائمة على أساس من التربية العقلية السليمة تجعلنا نزيد خطواتنا لنسير في السبيل المستقيم الذي يبلغ بنا الى الغاية التي نبتغيها

«الرجل الذي يقدر الحرية على انها النظام ، ويقدر ذلك عن علم ، يؤمن بأن واجبهُ الاول ان يحترم حرية غيره ، وان يؤدي بذلك للغير واجبهُ ، وان يتعاون مع الغير مقابل تعاون الغير معهُ ، وان يقوم بواجباته لذلك طائعاً مختاراً مؤمناً بأن في ذلك الخير لهُ ولامثاله جميعاً ، مطالباً اياهم بأن يؤدوا واجبهم كما يؤدي هو واجبه »

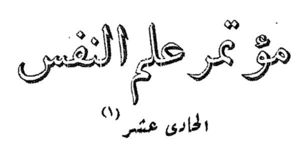
« وحسبكم لتقدروا جلال هذه المهمة ان تذكروا ان المعلم الالزامي يحل من الاطفال الذين يعهد اليهِ بتربيتهم محل الاب والام ، وان عليهِ في هذا الدور من أدوار حياتنا القومية واجبات نحو هؤلاءِ الابناء اكبر من واجبات آبائهم وأمهاتهم . فهو يتولى أمر هؤلاء الاطفال من اطفال اليوم ورجال الغد ، وهم لا يزالون في السابعة من عمرهم . ويتولى أمرهم وقليلٌ منهم من عني أهله بتربيته في السنوات السبع الاولى من حياته ، لان هؤلاء الاهلين جهلاء ، ولأنهم فوق ذلك مأخوذون عن تربية ابنائهم بالسعي للحياة والكدح فيها . فواجب على هذا المعلم ان يتم النقص في الطفل وان يقوم على تربيته وتهذيبه ليكون من بعد مصريًّا فاضلاً نافعاً في حياته الجماعة وان يعده ليكون في مستقبل أيامه شابًّا صالحاً وأباً يعنى من شئون ابنائه بما لا يعني الآباء اليوم بهِ من شئون ابنائهم ، لانهم لم يجدوا المعلم الذي يوجههم في الحياة التوجيه الصالح ومن يؤدبهم فيحسن تأديبهم »

* * *

«وكما ان محبة المعلم لتلميذه تحرك في نفس التلميذ محبة أستاذه ، فهي بذلك أسوة حسنة ، كذلك الاسوة هي المحرك الاول للفضائل في نفس الناشىء ، وعلى محورها تقوم التربية الصالحة . والمعلم الذي يحسب ان التربية الخلقية او النفسية تقوم على التعاليم او على النصيحة التي يقرأها الاطفال او يحفظونها عن ظهر قلب دون ان يروا مثلها واضحة امام أعينهم معلم غير ناجح بل معلم مفسد للناشئة ، مفسد لزملائهِ اذا لم يكونوا أقوى منهُ نفساً وأكثر بقواعد التربية الصحيحة إيماناً »

« إخواني : انكم تعلمون ما لكم من أثر في البيئة التي تكونون فيها . وأنتم اليوم اعظم أثراً لانكم أنتم في اكثر البيئات القارئون الكاتبون الذين ينظر اليهم الناس على انهم أولو العلم والفضل ، ومصدر الهداية وحسن التقدير . فاذا رأوا فيكم المثل الخلقي الكريم ، ورأوا منكم الاحتفاظ بالكرامة ، وباستقلال الرأي ، والحرص على الخير العام كنتم لهم الائمة الصالحين ، وكنتم بذلك قد مهدتم لبلادكم طريق الرفعة والرقي السريع »

«ياحضرات المعلمين : اذا قامت التربية على أساس من عاطفة المحبة ومن الاسوة الحسنة اتجه الجميع الى معرفة بلادهم وما فيها مدفوعين لذلك بعاطفة من الحب يزيدها ما يجدونهُ في هذا الوطن من أسباب الخير والنعمة ، وما يجدونهُ في تاريخهِ من دواعي الفخر والمجد . وحسبكم انتم رجال التعليم الالزامي ان تعلموا اهل كل اقليم ما ينطوي عليهِ من خير أفاءه الله عليهِ ، وما كان لهُ على التاريخ من اثر في العصور المختلفة ، وان تعلموهم ذلك بلغة قصصية سهلة يفهمونها ويحبون لذلك من أجلها اقليمهم ، لتكونوا قد بلغتموهم رسالة المعلم الالزامي بعد ان تكونوا قد قمتم بدوركم الجليل في تربيتهم وتعليمهم »



مؤتمر علم النفس

الحادي عشر (١)

للدكتور مظهر سعيد

عقد مؤتمر علم النفس الدولي الحادي عشر بباريس في ٢٤ يوليه الماضي (١٩٣٧) وظلَّ منعقداً ثمانية ايام متتالية بالسربون . وافتتحهُ المسيو دلبوس وزير الخارجية وختمهُ وزير المعارف المسيو جان زاي . وقد مثل فيهِ نحو ثلاثين دولة وعشرين جامعة ومعهداً علميًّا كبيراً وحضره نحو ثلثمائة عالم اخصائي في علم النفس كاعضاء عاملين ومائتي اخصائي في العلوم الاخرى المتصلة بعلم النفس وغيرهم من المستمعين كاعضاء منتسبين . ومثلت فيهِ من البلاد الشرقية اليابان والصين والهند ثم مصر لاول مرة في العام الماضي . وقد بلغ من اهتمام الحكومة الفرنسية بهِ دون سائر المؤتمرات الدولية التي عقدت بباريس وهي بالمئات — أن أقام رئيس الجمهورية بقصر الاليزه ووزيرا الخارجية والمعارف ومدير الجامعة ومدير البلدية وعمدة باريس ومكتب المعرض الدولي مآدب متعددة كان الاعضاء فيها موضع الحفاوة والتكريم . ونظمت لهم شركات السكك الحديدية وأقسام المباحث الجنائية وشركات الاجهزة السيكولوجية ورآسة اركان حرب الجيش — زيارات خاصة للمعامل وكذلك مستشفيات الامراض العقلية والعصبية . وفتح لهم اللوفر مساء ليروه بأنواره المتجلية وألقى العلماء الاخصائيون محاضرات في سيكولوجية التاريخ والفن والديانات . واعدت لهم حفلات تمثيلية خاصة بمسارح الشاتليه وسانت انطوان ومدينة الجامعة مثلت فيها روايات سيكولوجية هامة متصلة بدراسة علم النفس مثل أوديب الملك وهاملت وماكبث وقطع ممتازة من موليير . ودعاهم المعرض لحفلة ساهرة على السين . ولهذا كله أثره الكبير في تعريف علماء النفس بعضهم ببعض واطلاعهم على ما يقومون بهِ من مباحث لم تقدم بعد للمؤتمر وعرض ما تقوم بهِ بلادهم في هذا الشأن . فهو في الواقع يهيىء اطيب الفرص للدعاية القومية بطريقة علمية

ولهذا المؤتمر شأن خاص في ميدان البحث العلمي فهو يعقد مرة كل خمس سنوات ليعرض

(١) المقتطف : اتفق لاحد اصدقاء المقتطف ان كان يزور الدكتور مظهر سعيد فدار الحديث على بعض وجوه التقدم في علم النفس فحدثه الدكتور مظهر عن مؤتمر علم النفس الدولي الحادي عشر الذي عقد في باريس في يوليو سنة ١٩٣٧ فطلب اليه ان يتحف المقتطف بحديث هذا المؤتمر فلبي . فنمحضهما خالص الشكر

فيهِ العلماء آخر ما جدَّ في العلم من بحوث ونظريات وما ابتكر من اجهزة وطرائق وبالجملة كل جديد ظهر خلال تلك السنوات . وقد قدم له نحو اربعة آلاف بحث من مختلف أنحاء العالم لاساطين هذا العلم والاساتذة المشتغلين بهِ وهذا العدد على كثرته لا يمثل الانتاج العظيم في علم النفس وفروعه المتعددة لان المؤتمر يلزم العلماء ألاَّ يقدم الواحد منهم أكثر من بحث واحد ذي صورة مختصرة . وقد أخذ المكتب الدائم للمؤتمر وهو مؤلف من خمسة عشر عالماً مختلفي الجنسيات أمثال ثورندايك في أميركا وسبيرمان ومايرز وفالنتين في انجلترا وبيرون في فرنسا وجانيت وكلاباريد في سويسرا وكفكا وكوهلر في المانيا وبونزو في ايطاليا وغير ذلك من الاسماء العالمية المعروفة — أخذ في دراسة ما قدم لهُ من بحوث زهاء شهرين فأقرَّ منهما مائة وثمانية وعشرين فقط طبعت خلاصتها ووزعت على الاعضاء قبل انعقاد المؤتمر لدراستها ومناقشتها . ويخصص لصاحب كل بحث مقبول عشرون دقيقة يشرح فيها بحثه ونظرياته على الاعضاء ثم يناقشونهُ عشرين دقيقة أخرى وبعدئذٍ تبدي اللجنة الدائمة قرارها في البحث بالقبول او الرفض او الاشارة بالتعديل واعادة العرض في المؤتمر الثاني عشر الذي سيعقد بفينا سنة ١٩٤١ هذا عدا بحوث اللجان المشكلة من قبل والمناظرات بين العلماء أصحاب النظريات المتعارضة . ولذلك تجد هذا المؤتمر علميًّا بحتاً وجديًّا ومرهقاً لان المؤتمر ينعقد في كل يوم ثماني ساعات كاملة كلها بحوث ومناقشات فلا يتسع فيهِ الوقت لكلمات الترحيب أو عبارات الشكر وخطب ممثلي الدول عن بلادهم وجهودهم ومبلغ تفوقهم كما يحدث عادة في المؤتمرات الاخرى . بل ان المؤتمر ليبدأ بحوثه العلمية بعد خطبة الافتتاح مباشرةً . وكانت البحوث تاتي في معظم الاحيان في قاعات المحاضرات الكبرى الاربع بالسوربون في وقت واحد لكثرتها . ففي الاول تعرض النظريات الجديدة البحتة وفي الثانية النظريات المعدلة والتطبيق والثالثة للبحوث الدولية والاجتماعية والرابعة للبحوث الطبية . وأدهشني في هذا المؤتمر شيء لم أعهد لهُ مثيلاً من قبل . ذلك ان المقاعد ركبت فيها سماعات كهربائية تتصل بقرص متحرك يشير الى اللغات الست المستعملة في المؤتمر . فبتحريك القرص على لغة خاصة يستطيع العضو ان يسمع بها كل ما يقال في نفس الوقت الذي يتكلم فيهِ المحاضر مع انهُ يتكلم بلغة أخرى . ولا يتسع المقام هنا لذكر كل البحوث الهامة التي قدمت فوضعها كتاب خاص سأقوم بوضعهِ فيما بعد ولذلك أكتفي بسرد بعضها

(١) مشكلة المصطلحات العلمية واختلافها في اللغات المختلفة وضرورة تأليف لجان دولية للبحث في توحيدها . وقد عرضت على اللجنة نماذج من بحوثي في تعريب مصطلحات علم النفس والمعجم الذي أقوم بوضعهِ بالعربية وأبديت وجهة نظر البلاد العربية فوافقت اللجنة على ضمي اليها وسأرفع تقريري في مؤتمر فينا المقبل . (٢) تعديل قوانين ثورندايك في ضوء مباحث مدرسة الجشتالت . (٣) تعديل بعض الطرق والمعادلات الرياضية المستعملة . (٤) مقاييس جديدة للذكاء

والشخصية والامزجة والكفاية الصناعية . (٥) أجهزة جديدة في مختلف الفروع . (٦) كشف بعض الامور المعقدة في الاضطرابات العقلية وطرق تشخيصها بالاجهزة وعلاجها . (٧) وضع مناهج جديدة لدراسة علم النفس واعادة ترتيب فروع العلم وتدرج مباحثه على أساس جديد

وغير هذا كثير مما يهم كل أستاذ مصري لعلم النفس والفروع المتصلة به . وأرى من الواجب ان تحرص وزارة المعارف المصرية على الاشتراك في هذا المؤتمر وارسال الاساتذة الذين يستطيعون ان يقدموا بحوثاً جديدة هامة يكون في قبولها واقرارها من أكبر هيئة علمية في العالم شرف عظيم لمصر

وقد شرفتني وزارة المعارف بانتدابي لحضور هذا المؤتمر فعرضت النظريات الجديدة التي تضمنها واحد من البحوث الواسعة التي قمت بها في مصر وانجلترا . ومن فضل الله أني وجدت بحثي مطبوعاً وموزعاً مع البحوث المائة والعشرين التي قبلت مبدئيًّا وازداد سروري عند ما تقرر ان يكون بحثي الرابع بين جميع البحوث وان ألقيه في اليوم الاول بقاعة ريشيليو وبعد عرضه والمناقشة فيه قررت اللجنة الدائمة هذا القرار الذي يشرفني ويشرف مصر : « ان هذا البحث مستوف لجميع الشروط العلمية ونظرياته مقبولة برمتها وفي ضوئه يتضح بالبرهان القاطع ان البحوث السابقة التي عالجت هذا الموضوع خاطئة ولا يركن اليها » . وسينشر البحث في الكتاب الرسمي للمؤتمر . ولهذه المناسبة أشكر لمعالي وزيرنا المفوض في باريس تهنئته الرقيقة وتشجيعه العظيم وكذلك مندوبي الصحف المصرية الذين بادروا باعلان هذه النتيجة لصحفهم في مصر وجميع الذين عاونوني في البحث بانكلترا ومصر من أساتذة وزملاء ونظار وطلاب فلهم الفضل كل الفضل في نجاحه

ولا يتسع المقام لذكر تاريخ هذا البحث والتجارب التي أجريت والطرائق التي اتبعت فسأضمن كل ذلك كتاباً بالانكليزية وآخر بالعربية ارجو ان تساعدني الوزارة بطبعها على نفقتها

ولذلك أكتفي الآن بسرد النظريات والنتائج التي توصلت اليها : —

١ — أثبت بالبرهان القاطع وجود استعدادين طبيعيين موروثين مستقلين : أحدهما الاستعداد اللوني ويشمل كافة العمليات العقلية التي تتناول الالوان كالتعرف والتذكر والتصور والتقدير والمقارنة والحكم . والثاني الشكلي للاشكال وقد وضعت لهما رمزين خاصين

٢ — لكل استعداد عامل عام يتناول كل الالوان ومجموعتها او الاشكال على اختلاف أنواعها . وهذا العامل ليس له أي ارتباط بالذكاء العام . فسرعة تذكر الالوان او تمييزها مثلاً ليس دليلاً على الذكاء العام بأي حال من الاحوال كما افترض العلماء والفنانون السابقون حتى العالم الفرنسي بينيا واضع اول أساس لقياس الذكاء أخطأ لجعله تمييز الالوان الاربعة المشهورة مقياساً للذكاء في سن معينة عند الاطفال

٣ — ومع هذا فالاستعداد اللوني بدوره تتبعه ستة استعدادات خاصة مستقلة لكل لون من الالوان الرئيسية . فيكون الانسان قويًّا في تمييز الالوان الحمراء وضعيفاً في الزرقاء . كذلك

أربعة عوامل أخرى خاصة بدرجات الالوان

٤ — وفي الاشكال كشفت خمسة عوامل مستقلة خاصة للاشكال المنتظمة وغير المنتظمة وذات الخطوط المستقيمة وذات الخطوط المنحنية والاشكال المؤلفة من الاثنين ووضعت لها هذه الرموز

٥ — التمرين على الالوان في التربية الفنية لا ينتقل اثره الى الاشكال واكثر من هذا ان التحسن في مجموعة ألوان لا ينتج تحسناً في مجموعة اخرى ولا التمرين على رسم الاشكال المنتظمة يفيد في رسم الاشكال غير المنتظمة

٦ — الاستعدادات اللونية لا تظهر في الطفل دفعة واحدة وانما لكل منها سن خاصة ينمو فيها ويظهر على أتمه والبنات على العموم اقدر من الاولاد ويصلن الى سن النضوج اللوني قبل الاولاد بسنين طويلة

٧ — لكل من الجنسين ألوان خاصة يكون استعداده فيها قويًّا عن الجنس الآخر وغير ذلك من النتائج الفرعية . وسيكون لتطبيق هذه النظريات أثر عظيم لا في علم النفس فحسب وانما في التربية الفنية وتشخيص الامراض العصبية وتحليل انواع الشخصية

ويكفيني فخراً وتشجيعاً ان العلماء في اوربا قد اعترفوا بهذه النظريات من سنة ١٩٣١ وأقروها في بحوثهم ومؤلفاتهم واتخذوها اساساً لبحوثهم الجديدة منذ اطلاعهم على النسخ القليلة التي طبعتها بانجلترا سنة ١٩٢٩ وان كان اثر هذا لم يصل لمصر بعد

فهذا الاستاذ الياش يقول في مجلة علم النفس الالمانية سنة ١٩٣٤ ان هذه النتائج تثبت ان البحوث السابقة للعلماء (كاتز ريفيز . فولكلت . كوينبرج) كلها خاطئة في طريقة البحث وان أساس تحليل الشخصية الذي وضعهُ (جانيش وكريتشمر) يجب تعديله في ضوئها. وقال الدكتور (اويسر) استاذ علم النفس العملي بكامبردج في مجلة علم النفس البريطانية سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٣٤ وفي مقالة في مجلة (بسيكي) بالنص : «ان هذه النظريات التي قدمها سعيد في بحثه القيم هي اصلح اساس لتحليل الشخصية الى نوعيها المنكمش والممتد وانها اصل من طريقة نيمان وكوهلشتت . وقد أقرَّ الرموز التي وضعتها والتجارب التي قمت بها فاستعملها وأعادها ووسعها فوصل الى نفس النتائج . وأوصت مدرسة (فورتمبرج) بتعميم استعمال هذه المقاييس على مقياس جمعي واسع وخصوصاً من الناحية الاجتماعية

وأقر الدكتور (زنجويل) الاستاذ بكامبردج النتائج التي وصلت اليها والعوامل التي كشفتها . وذكرها في كتابه «التذكر والتعرف» وقدم للمؤتمر بحثاً جديداً مبنيًّا عليها . ورأى الدكتور (مايرز) رئيس معهد علم النفس الصناعي البريطاني ان تعمم الطريقة التي ابتكرتها لتمرين ذاكرة الالوان والاشكال على جميع مدارس الفنون . وسيقوم المعهد (وأنا من اعضائه) بطبعها

ويسرني بعد كل هذا اني استطعت ان أقدم لبلادي شيئاً يشرفها وموعدنا مؤتمر فينا سنة ١٩٤١ للبحث الآخر باذن الله

اعلام الطب العربي

ابن البيطار

لفؤاد عيناني

برع العرب في مختلف فروع الثقافة والعلم ولاسيما في الطب والفلك وكانوا قدوة للعلماء والاطباء في اوربا فأخذ هؤلاء عنهم مدنية الشرق واليونان . وكان للعرب نصيب وافر في انشاء الحضارة الاسلامية وبعث النهضة الفكرية وعتق الفكر من قيود الماضي والنهوض به الى اسمى مراتب الثقافة والتفكير الحر. وممن كان لهم أثر حميد في هذه النهضة العلمية الطبيب العربي الماهر والعشاب المدقق ضياء الدين بن البيطار الذي ساح في اقطار عديدة باحثاً متنقلاً فصادف كثيراً من المشاق والصعاب في سبيل جمع النباتات النادرة الغريبة وترتيبها وتصنيفها ومعرفة فوائدها للاستفادة منها واستعمالها في الطب. وهو من اشهر من خدموا المدنية الاسلامية من ارباب العلم والفن فلم يسبقه احد في علم النبات فكان اشهر العشابين وهو اللقب الذي كان يطلق على علماء النبات في تلك العصور الزاهرة (وكان ذكيا فطناً ثقة فيما ينقله وكان حجة واليه انتهت معرفة النبات وتحقيقه وصفاته واسمائه واماكنه لايجارى في ذلك)[1]

هو ضياء الدين ابو محمد عبدالله بن احمد المالقي النباتي المشهور ويعرف بابن البيطار . ولد في مدينة مالقة بالاندلس في اواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ويرجع بنسبه على الاكثر الى اسرة ابن البيطار التي استوطنت مالقة . درس علم النبات وفنونه على اكابر علماء عصره وكان استاذه في علم النبات ابو العباس النباتي [2] وجمع واياه نباتات كثيرة في ضواحي اشبيلية . ولما بلغ حوالي العشرين من عمره ورغب في زيادة الخبرة والمعرفة قصد الى شمالي افريقية ومراكش والجزائر وتونس فكان يبحث عن نباتات هذه البلاد ويعتني بجمعها ودرسها ويختار النباتات والاعشاب ويحققها ويبحث عن مواضع نباتها ونعت اسمائها على اختلافها وتنوعها . ورحل الى بلاد الاغارقة واقصى بلاد الروم واجتمع بجماعة كثيرة من الذين يعانون هذا الفن واخذ عنهم معرفة نبات كثير وعاينه في مواضعه واجتمع في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات وعاين منابته وتحقق ماهيته . وظل مدة طويلة في ايطاليا وبلاد اليونان فاجتمع بعلماء الافرنج وباحثهم في النباتات والاعشاب وقد راجع كتاب (ديسقوريدس) العالم

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠٤ (٢) هو ابو العباس احمد بن محمد بن مفرج النباتي المعروف بابن الرومية وهو من اهل اشبيلية راجع ترجمته في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٨١

المعروف النباتي اليوناني وحقق اسماء النباتات وصحّح الاسماء العربية وبحثها بحثاً فنيّاً [٣]

ولما عاد من أسفاره رحل الى مصر وكان حينئذٍ ملكها الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب فأعزّه وأكرم وفادتهُ ومثواه . وكان يعتمد عليهِ في المسائل الطبية والادوية المفردة والحشائش وجعله في الديار المصرية رئيساً على سائر العشابين وأصحاب البسطات . وهذا مما يدلنا على مكانتهِ الرفيعة في علم النبات وما حازه من ثقة وطيدة لدى الملك. ثم رافق الملك الكامل في رحلتهِ الى الديار الشامية وهناك التقى بابن ابي اصيبعة صاحب كتاب (عيون الانباء في طبقات الاطباء) فأدهشهُ وأعجب بهِ اعجاباً عظيماً. وهذا حديث ابن ابي اصيبعة عنهُ وعن مقابلتهِ لابن البيطار قال :

« أتقن (ابن البيطار) دراية كتاب ديسقوريدس اتقاناً بلغ فيهِ الى ان لا يكاد من يجاريهِ فيما هو فيهِ وذلك اني وجدت عنده من الذكاء والفطنة والدراية في النبات وفي نقل ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس فيهِ ما يتعجب منهُ . وأول اجتماعي بهِ كان بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ورأيت ايضاً من حسن عشرتهِ وكمال مروءتهِ وطيب اعراقهِ وجودة أخلاقهِ وكرم نفسهِ ما يفوق الوصف ويتعجب منهُ ولقد شاهدت معهُ في ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعهِ وقرأت عليهِ ايضاً تفسيره لاسماء أدوية كتاب ديسقوريدس فكنت أجد من غزارة علمهِ ودرايتهِ وفهمهِ شيئاً كثيراً جدًّا وكنت أحضِرُ لدينا عدةً من الكتب المؤلفة في الادوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي وامثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن فكان يذكر أولاً ما قالهُ ديسقوريدس في كتابهِ باللفظ اليوناني على ما قد سمعهُ في بلاد الروم ثم يذكر جملاً مما قالهُ ديسقوريدس من نعتهِ وصفتهِ وأفعالهِ ويذكر ايضاً ما قالهُ جالينوس فيهِ من نعتهِ ومزاجهِ وأفعالهِ وما يتعلق بذلك ويذكر ايضاً جملاً من أقوال المتأخرين وما اختلفوا فيهِ ومواضع الغلط والاشتباه الذي وقع لبعضهم في نعتهِ فكنت أراجع تلك الكتب معهُ ولا أجده يغادر شيئاً مما فيها وأعجب من ذلك ايضاً انهُ كان ما يذكر دواء الا ويعين في اي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس وفي اي عدد هو من جملة الادوية المذكورة في تلك المقالة » [٤]

كان ابن أبي اصيبعة تلميذاً لابن البيطار وقد رافقهُ في رحلاتهِ وتتبعاتهِ النباتية في ضواحي دمشق . ولما توفي الملك الكامل بدمشق وتولى المُلك خلَفهُ ابنهُ الملك الصالح نجم الدين ايوب ، عاد ابن البيطار الى مصر ودخل في خدمة الملك الجديد فأكرمه (وكان حظياً عنده متقدماً في أيامهِ) [٥]. وكانت وفاة ضياء الدين بن البيطار فجأة بدمشق في شهر شعبان سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨م)

﴿ مؤلفاته ﴾ لما خرج ابن البيطار في رحلتهِ العلمية يجول في أنحاء سوريا وآسيا الصغرى (بلاد الروم) باحثاً منقباً عن النباتات والاعشاب كان يقوم برحلتهِ هذه كطبيب نباتي فجمع

(٣) قاموس الاعلام - ش . سامي م ١ ص ٦٠٩   (٤) طبقات الاطباء — ج ٢ ص ١٣٣
(٥) طبقات الاطباء ج ٢ ص (١٣٣)

كثيراً من النباتات والعقاقير وأتحف العالم بكتابه المشهور « الجامع في الادوية المفردة » (٦) التي صنفهُ للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل (٧) بعد رحلتهِ الى مصر وبلاد اليونان وآسيا الصغرى (٨) . وهو كتاب فريد في بابه جليل الاثر عظيم الفائدة ، وهو أهم ما كتب عن الادوية المفردة وهو عبارة عن معجم طبي او مجموعة مرتبة على الاحرف الهجائية، يشمل النبات والحيوان والمعادن وقد اعتمد في تأليفه على مؤلفي الروم والعرب وعلى تجاربه هو نفسه (٩) . (ووصف فيهِ اكثر من ١٤٠٠ دواء وعقار مما يستعمل في الطب وقابل ذلك مع تآليف ومصنفات اكثر من ١٥٠ من المؤلفين القدماء والعرب . والكتاب المذكور يتضمن ملاحظات دقيقة ويدل على براعة فائقة ومعرفة واسعة في هذا العلم . وهو اعظم كتاب عربي في علم النبات .) (١٠) (وقد استقصى فيهِ ذكر الادوية المفردة واسمها وتحريرها وقواها ومنافعها وبين الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيهِ ، ولم يوجد في الادوية المفردة كتاب أجل ولا أجود منهُ (١١)) . وهذا ما يقوله عنهُ ابن سعيد (١٢) في كتابهِ المغرب (حشر فيهِ ما سمع بهِ فقدر عليه من تصانيف الادوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الادريسي الصقلي وغيرها وضبطهُ على حروف المعجم وهو النهاية في مقصده .) (١٣)

وقد ترجم (لوكلير) (١٤) هذا الكتاب الى اللغة الفرنسية وضمنه في المجموعة المسماة Notices & Extraits التي تولى نشرها مجمع المخطوطات والآداب . وكان غلان Galland قد ترجمهُ الى اللاتينية ولكنهُ لم يطبع ولا يزال محفوظاً في (المكتبة الوطنية) في باريس. وكانت مدارس الاندلس، كما يقول «لوكلير» تمتاز بصورة خاصة بدروس التاريخ الطبيعي ولا سيما ما يتعلق بالنباتات والعقاقير (١٥) . وله ايضاً (كتاب المغني في الادوية المفردة) — ويعرف بمفردات ابن البيطار — وهو بحث مختصر في الادوية ومرتب بحسب مداواة الاعضاء المريضة ، ومؤلف بالنظر لاستعمالها في الطب . وقد طبعت بعض اجزاء مفردات ابن البيطار باللغة اللاتينية في سنة ١٧٥٨ في مدينة قرمونة Cremona بايطاليا (١٦) . ومن اشهر مؤلفاته — (كتاب الابانة والاعلام بما في المنهاج من الخلل والاوهام) و (شرح ادوية كتاب ديسقوريدس) و (كتاب الافعال الغريبة والخواص العجيبة)

---

(٦) طبع في سنة ١٢٩١ هـ تحت عنوان (الكتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية) (٧) قاموس الاعلام م ١ ص ٦١٠ (٨) نيكلسون — تاريخ العرب الادبي ص ٤٣٤ (٩) دائرة المعارف الاسلامية (النسخة الفرنسية) الكراس ٢٤ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ (١٠) تراث الاسلام ص ٣٣٩
(١١) طبقات الاطباء م ٢ ص ١٣٣ (١٢) هو ابن سعيد المغربي — ابو الحسن نور الدين علي بن موسى (٦١٠ — ٦٨٥ هـ) من اعاظم أدباء الاندلس وشعرائها مؤلف (المغرب في حلى المغرب) و (المشرق في حلى المشرق)
(١٣) راجع نفح الطيب م ٢ ص ٤٤ (١٤) Jean Leclerc بحاثة فرنسي — سويسري (١٦٥٧ — ١٧٣٦) وناشر المكتبة العمومية والتاريخية Bibliotheque universelle & historique في مدينة امستردام في ٢٥ مجلدا (١٦٨٦ — ١٦٩٣) (١٥) مفكرو الاسلام ج ٢ ص ٢٩١ Les Penseurs de l'Islam
(١٦) تراث الاسلام ٣٥٣

الحلم الحالم

لحسن كامل الصيرفي

في ايِّ اوديةِ الخيالِ . بأيِّ افلاكِ الجلالِ

طوَّفتِ يا حُلماً يطوفُ عليَّ في ساعِ ابتهالِ ؟

***

يا ليتَ للقلبِ المَشُوقِ جناحَ رُوحي او خيالي

لبسطتُ فوق جفونكِ السَّكْرَى وريفاً من ظلالي

ونَعِمْتُ بالطيفِ الجميلِ يرُودُ أوديةَ الجمالِ

لكنَّ لي أسْراً من الرَّغَباتِ فوَّارَ النضالِ

أنا فيهِ مشدودُ الوَثاقِ . فهل تفكِّين اعتقالي ؟



الشيخ ابو علي بن سينا — ٣

مؤلفاته

بقلم منوشهر مؤدب زاده
صاحب جهره نما الايرانية

١ — مؤلفاته الفارسية

(ا) كتابه المسمى (دانشنامه أو حكمت علائي) وقد سمّاه بعضهم (دانش مايه) وظنه جزءاً من الكتاب المسمّى (حكمت علائي) والاصح أنهما اسمان لكتاب واحد والاختلاف الذي أوقع البعض في الخطأ هو من انتساب الكتاب الى علاء الدولة كاكويه المتقدم ذكره والاسم الذي سمّي بهِ الكتاب . وقد أراد الشيخ بتأليف هذا الكتاب أن يجعل جميع الاجزاء والمباحث الفلسفية بالفارسية ولكنهُ لم يؤلف منهُ سوى قسم المنطق والالهيات والطبيعيات ويُعَدُّ هذا الكتاب من أحسن تآليفه ولا يختلف كثيراً عن كتاب النجاة المؤلف بالعربية . وكان أهم ما يومىء اليهِ الشيخ في هذا الكتاب محاولة جعل المصطلحات الفلسفية العربية بالفارسية وبذلك أصبح الكتاب أحد المنابع العلمية اللغوية ولاحد تلامذة الشيخ المسمّى (بَهْمَنْيَار) شرح على هذا الكتاب وقد ضمّنهُ الاعتراضات التي كانوا اوردوها على استاذه وقد أجاب هو عليها وسمّى كتابه هذا « بالتحصيل ».ولدانشنامه انسجام وفصاحة معجبة بالقياس الى الفارسية المستعملة في ذلك العصر وأضف الى سلاسة البيان انهُ أول كتاب في الفلسفة كتب باللغة الفارسية ولكن اذا قسنا هذا الكتاب بالكتب الفارسية الاخرى التي كتبت بالفارسية بعد ذلك ككتب افضل الدين القاشاني مثلاً وجدناه يقلُّ عنها في الانسجام والسبك

وقد ألف الشيخ كتابه هذا لعلاء الدولة بن كاكويه وقد اثنى في المقدمة على حسن اصطناعه اياه واشفاقه عليهِ وشكره لهُ ما اولاه إياه وقال في حقه : (اني وجدت كل آمالي عنده). وقد ظنّ بعض الناس ان كتاب « دانشنامه » هو آخر كتاب ألّفهُ الشيخ لانهُ لم يمكّن من إتمام تأليفه فأتمهُ أبو عبيد الجوزجاني وكتب مبحث الرياضيات منهُ وليس هذا بالدليل القاطع اذ يمكن ان يشغل المؤلف مشاغل عن اتمام ما يؤلفهُ ويعوقهُ ردحاً من الزمن وفضلاً عن هذا فان هذا القول

بخالف ما قاله المؤرخون حيث انهم اتفقوا على ان آخر تأليف للشيخ هو كتاب الاشارات

(ب) الرسالة المسماة بالمعراجية وقد ألف الشيخ هذه الرسالة لابي جعفر بن كاكويه وهي تشتمل على تأويل للاصطلاحات الشرعية وتفسيرها ومعنى ما ورد منها كروح القدس والوحي وكلام الله والنبوة والرسالة والشريعة . وبعد ذكره القوى الانسانية في المقدمة وبيانه أن وجهة الحركة تجب ان تكون متناسبة مع المتحرك والحركة يبرهن في النتيجة على ان المراد بالمعراج هو معراج الروح وبالعلو علو شرفي ويؤوّل مسألة المعراج على طريقة الحكماء . والظاهر ان جلال الدين الرومي قد استفاد من هذه الرسالة حيث يقول بالفارسية :

گفت پيغمبر كه معراج مرا نيست بر معراج يونس اجتبا
آن ما والاوآن اوبشيب زآنكه قرب حق برون است از حسيب
نى چو معراج زميني تا سما بل چو معراج جنيني تا نهى

والمعنى : قال النبي ليس لمعراجي فضل على معراج يونس (النبي) عرجتُ الى فوق وعرج الى تحت لان قرب الله خارج عمَّا نتصوره . ليس هذا كالعروج من الارض الى السماء بل هو كعروج الجنين الى النهى والعقل . وقد أوصى الشيخ في مقدمة هذا الكتاب أن لا يبوحوا بهذه الرموز والاسرار لأحد . وهو يقول « لم أكن من هذه الافكار قبل اتصالي بمجلس علاء الدولة في شيء خوفاً على نفسي واحترازاً من الخطر »

(ج) رسالة النبوة وهي رسالة صغيرة في معنى النبوة والوحي والالهام وتأويلها وهي بالفارسية وأكثرها يطابق مقدمات رسالته المعراجية ولا تختلف عباراتها عن ذلك اختلافاً كلياً

(د) الرسالة النبضية وقد ألفها لعضد الدين علاء الدولة كاكويه وقد بيَّن فيها أنواع النبض وشرح أقسامه

الكتب العربية (١)

(١) كتاب الشفاء — وهو كتاب كبير يشتمل على جميع علوم الفلسفة من المنطق والرياضيات والطبيعيات والالهيات ويعدُّ من أهم التآليف الاسلامية وقد شرع أبو علي بتأليفه كما يقول أبو عبيد في همذان وكان ذلك اجابةً لرجاء ابي عبيد فكتب الشيخ ٢٠ صحيفة في مبحث الطبيعيات ثم شغلتهُ الامور الديوانية والحوادث عن إتمام تأليفه . ولما اعتزل وزارة شمس الدولة عاد على بدء وألف كتاب الالهيات والطبيعيات سوى النبات والحيوان في ٢٠ يوماً ولم يراجع

(١) ولا عجب اذا خلف لنا أبو علي وهو من أعاظم علماء ايران وأكابرهم كتباً كثيرة وآثاراً خالدة بالعربية لان البحث والدرس يكشفان لنا أن غيره من علماء الامة الايرانية أيضاً قد الفوا وصنفوا كتباً ورسائل في جميع الفنون والعلوم بالعربية وقد خدموا هذه اللغة أية خدمة وأبقوا لها أي أثر فقد قلدتها آثارهم بقلائد لا تثمن وأبقت لها عزاً ومجداً لا يندثران مدى الدهر

أي كتاب . ثم شرع في تأليف منطق الشفاء ولكن طالت مدّة تأليفه ولم يفرغ منهُ الاّ في إصفهان وكذلك أتم بحث النبات والحيوان في تلك المدينة

ويزعم أبو عبيد ان عمر الشيخ كان في ذلك الوقت ٤٠ عاماً وليس هذا بصحيح لانهُ كما قدمنا قال كان عمر أبي علي في سنة ٤٠٤ هجرية ٣٢ سنة فإن صحّ ما يقول وجب ان يكون الفراغ من تأليف الكتاب سنة ٤١٢ اي ان يكون الشيخ في هذا التأريخ في مدينة إصفهان ولكن لا شك انهُ كان عند ذاك في همذان وكان سفره الى اصفهان بعد هذا التاريخ فلا يصح والحالة هذه ان نجعل سنة ٤١٢ السنة التي أتمّ فيها الشيخ كتابه . وكان الشيخ قد اختصر الفنون الرياضية قبل تأليفه للشفاء ثم ألحقها بعد تأليفه بهِ . وكان المقصود من تأليفه هو تقرير آراء الفلاسفة المشائين وتفسير معتقدهم ولذلك نراه قد اقتصر على الاخذ بترجمة كتب أرسطاطاليس وكتبها في كتاب الشفاء بعد ان هذّبها ونقحها وأصلحها الى حدٍّ ما ولكنهُ مع ذلك لم يغفل عن تدوين آرائه وتجاربه في المنطق والطبيعيات وكذلك دوّن قسم الموسيقى من الشفاء طبقاً لآرائهِ التي حصل عليها بعد فحص دقيق وتجارب صرف فيها ردحاً من الزمن

وكان أبو علي يؤلف شرحاً على الشفاء سمّاه باللواحق وكان يؤرخ ما يؤلفهُ في كل سنة والظاهر انهُ أكبر مؤلف له شرح فيهِ الآراء والاقوال الفلسفية وأطنب في هذا الشرح ولم يثبت انهُ فرغ من اتمامه ونعلم حقّاً ان واحداً من العلماء لم يرَ هذا الكتاب ولا نقل عنه

ويظهر من مقدمته على منطق الشفاء ان الغرض من تأليف الكتاب هو جمع خلاصة من أصول علوم الاقدمين وذكر ما أورد على كل من هذه الاصول وايضاح ما أشكل منها وان يدوّن الفروع واصولها مع الايجاز في الالفاظ وعدم تكرار المطالب وان يدوّن ما صحّ بطلانه من آراء المتقدمين وعقائدهم

والظاهر مما يقوله أبو علي ان كتابه هذا قد حوى كل ما هو مدوّن في كتب الاقدمين غير انهُ قد غيّر مواضع الاقوال وجعل كلاًّ منها في المحل الذي يراه يليق بهِ . وقد حذف مطالب فلسفية كان الاقدمون يدوّنونها في المبادئ المنطقية وقال انهُ دوّن المنطق أولاً ثم الطبيعيات ثم الرياضيات ثم شرع في تدوين علم الالهيات بعد ذلك. ولكن أبا عبيد — كما أشرنا سالفاً — يقول أن الشيخ ابتدأ بتأليف الطبيعيات واذا صحّ ما قال ابو عبيد يجب ان نحمل قول الشيخ على التدوين لا الجمع والتأليف فاذا حملناه على هذا لم يكن بينه وبين أبي عبيد اختلاف في القول

وقد وضع المتأخرون شروحاً على الهيات الشفاء ومنها حاشية آقا حسين الخونساري وملاّ (الشيخ) أولياء وملاّ سليمان وتعليقات صدر الدين الشيرازي والاخيرة من أهم الحواشي على الهيات الشفاء . ولا نعرف حاشية للمتأخرين على طبيعيات الشفاء اللهم الاّ حاشية وجيزة وضعها آقا جمال

الخونساري على القسم الاول منهُ أي على كتاب السماع الطبيعي ولم يشرح باقي الكتاب ولم يوضح ذلك وليس لهُ حاشية . والظاهر ان السبب في ذلك هو عدم اهتمامهم بعلم النباتات والحيوان والعلوم الطبيعية كلية

وكتاب طبيعيات الشفاء هو المصدر الوحيد للعلماء الطبيعيين في الاسلام وربما لم نتجاوز الحقيقة اذا قلنا انهم لم يزيدوا عليهِ شيئاً ولم تتعدَّ مباحثهم وتحقيقاتهم كتاب السماع الطبيعي ولم يضيفوا الى كائنات الجو والسماء والعالم والنبات والحيوان اي شيء بل اسقطوها من كتبهم

ولم تشتهر وتظهر الالهيات الشفاء كما ظهرت طبيعياته ومنطقه ولم يكن لها ذلك النفوذ وذلك لظهور الفلسفة الاشراقية والحكمة المتعالية . وكتاب منطق الشفاء أسهب منطق اسلامي وقد أقبل عليهِ الفلاسفة واعتمدوا عليهِ ولم يشرح مباحث الصناعات الخمس ولم يستوف البحث فيها كتابٌ مثله . وقد اقتبس المتأخرون مطالبهم من هذا الكتاب أو ترجموها عنهُ وكذلك مباحثه الاخرى فان المتأخرين وان كانوا قد أطنبوا في شرح مباحث القضايا والكليات الخمس وتجاوزوا الحد ولكنهم مع ذلك لم يصلوا الى ما وصل اليهِ هذا الكتاب ولم يبلغوا الدرس ولا الغاية فان كل ما قالوه لا يتجاوز حواشي وتفاصيل وضعت على جوانب المطالب والاصل . وقد استفاد الخواجه نصير الدين الطوسي من كتاب منطق الشفاء في كتابهِ المسمى بأساس الاقتباس الذي ألفهُ بالفارسية بل يمكن ان يقال عنهُ انهُ ترجمة لكتاب الشفاء

(ب) كتاب النجاة — كتاب متوسط صغير الحجم يشتمل على مباحث في المنطق والطبيعيات والالهيات وأهم مباحثهِ في تقريره عقائد المشائين وآرائهم على وجه الاختصار ولما لم يكن بينهُ وبين كتب أبي علي الاخرى خصوصاً الشفاء فرق يذكر فقد ظنَّ بعض المعاصرين ان كتاب النجاة مختصر لكتاب الشفاء وتبعهم على هذا جمٌّ من المعاصرين ولكن الامر على غير ما ظنوا فان تأليف منطق النجاة متقدم على تأليف كتاب الشفاء لان أبا علي ألفهُ في جرجان وسماه بالمختصر الاوسط وكذلك سائر مباحثه فانها لا تتفق مع الشفاء من حيث الترتيب

وقد كان يحتوي كتاب النجاة على قسم آخر في تقرير أصول العلم الرياضي ولكنهُ فقد وضاع . وأما منطق النجاة فهو على جانبٍ عظيم من حسن العبارة وسلاستها وسهولة بيانها ولذلك يعدُّ من معجزات ابي علي

(ج) كتاب الاشارات والتنبيهات — وهو كتاب صغير في فن المنطق والعلم الطبيعي والالهي ويظهر انه آخر تأليف لابن سينا وهو يحتوي على خلاصة آرائه ومعتقداته وقد اوصى في آخر الكتاب بأن لا يراه ويطلع عليهِ إلاَّ من كان اهلاً وقد تجلت في هذا الكتاب روح ابي علي العرفانية وقد تكلم في آخر كتاب الالهيات عن المقامات والدرجات العرفانية وتمتاز جمله

وعباراته عن سائر كتب ابي علي لان الشيخ قد ألبسها صبغة ادبية لم يراعها في سائر تآليفه. وترى الانفة تتجلى من خلال عباراتها (فكأن الشيخ قد خلع عليها ثوباً من كبريائه وانانيته) وقد استخفّ ابو علي في كتابه هذا ببعض رؤساء المشائين واحتقرهم ولاجل صعوبة مطالبه واندماجها ولانهُ تأليف اظهرتهُ قريحة هذا الرجل النابغة العظيم فقد أقبل عليهِ العلماء والفضلاء والفلاسفة من المتأخرين وصار مطمح انظارهم فوضعوا عليهِ شروحاً كثيرة بالفارسية والعربية وترجموه الى الفارسية ايضاً. ومن الذين شرحوه بالفارسية الامام شهاب الدين السهروردي وتوجد الآن ترجمة فارسية لكتاب الاشارات تنسب الى الانوري (الشاعر الفارسي الذي عاش معاصراً للسلطان سنجر السلجوقي المتوفى سنة ٥٨٣) ولكن لم يحصل ما يثبت ذلك الى الآن . ومن الذين شرحوا الاشارات بالعربية الامام فخر الدين الرازي وقد عارض آراء أبي علي وعنده انهُ ردَّ على اكثرها . وشرح الخواجه نصير الدين الاشارات وكان متحزباً لابي علي ومشايعاً لهُ فردَّ اكثر آراء الامام الرازي وقد أجاد في النقد والرد وقام بهذه المهمة خير قيام . ثم بذل كل وسعهِ في تقرير آراءِ ابي علي وبيان عقائده ولم يشكل عليهِ شيء منها ولم يعترض على أية مسألة من مسائله الاَّ في مسألة العلم حيث يقول : « ولما وصل بي البحث الى هنا لم أتمالك من المخالفة » وشرح نصير الدين على الاشارات أشهر من شرح الامام الرازي وقد عرفهُ طالبو العلم وأخذوا في دراسته

(د) كتاب الحكمة المشرقية او حكمة المشرقيين — هذا الكتاب الذي ورد ذكره في كتب ابي علي كان يشتمل على نخبة آراء أبي علي ومعتقداته الشخصية وقد فقد على ما يظهر ولم يبق منه سوى مباحث في المنطق قد طبعت . وكان مراد ابي علي من تأليفه هذا الكتاب ان يدون المطالب الفلسفية حالة كونهِ خلواً من كل تعصب وتحيز لارسطاطاليس واتباعه . ومع ان الشيخ بعد الفراغ من كتاب الشفاء وروايةِ كلام ارسطاطاليس وما ترجاه من الناس حيث يقول « من أمكنهُ ان يضيف أصلاً على المنطق فليضفهُ ولا يتوقف عن إلحاقه بهذا الفن » أطنب في مدح أرسطاطاليس وغالى في التحزب له اذ قال : «ولم يضف أحد حرفاً واحداً الى اصول ارسطاطاليس ولم يتمكن من رد قواعده» . ثم نراه يعترف في كتابه هذا باضافات الى المنطق ويصرح برأيه في اول الكتاب

يختلف كتاب منطق المشرقيين الذي هو في متناولنا اليوم اختلافاً عظيماً عن كتب ابي علي الاخرى ويتجلى هذا الفرق بصورة عظيمة في مباحث القضايا حيث اظهر الشيخ فيها آراءه وحقق فيها أدق تحقيق وكذلك نراه قد اسهب في مباحث الحد والتعريف وذكر قضايا هي اقرب الى الحقيقة وأكثر تشابهاً لمطالب هذا العصر وهي لا توجد في اي كتاب من كتب المنطق

(هـ) كتاب القانون — وهو اعظم كتاب في الطب الاسلامي ويشتمل على خمسة اقسام :

القسم الاول في كليات الطب والصحة وقسم من علم التشريح والعلامات الكلية للامراض . والقسم الثاني يبحث في تركيب الادوية ويسمَّى بأقراباذين. والقسم الثالث يختص بالامراض التي يمكن ان يصاب بها جميع الاعضاء. والقسم الرابع في امراض تخص كل عضو بنفسه. والقسم الخامس في مفردات الادوية . وقد حصل الشيخ على تجارب كتبها في مذكراته ولكن — كما ذكرنا سالفاً — وقد ضاع اكثر هذه التجارب ولو بقيت لاستفاد منها الطب . ويمتاز كتاب القانون من الوجهة العلمية على سائر كتب الطب بأن ابا علي يحاول فيه ان يؤدي الالفاظ الطبيعية بالطرق المنطقية ويجعل التقاسيم منقطية ايضاً ولذلك صار كتاب القانون من الكتب المشكلة فأقبل عليه العلماء والفضلاء يتفهمونهُ ويشرحون ما اشكل منهُ وهكذا ألفوا للقانون شروحاً كثيرة . ولم يجد كل العلماء والفضلاء انفسهم اهلاً لتدريس القانون فلم يترشحوا لقراءته عليهم ولم يحضر طالبو العلم على كل احد ايضاً . ومع هذا كله فان اكثر مدرسيه لم يمكنهم تدريس كل القانون على الاكثر . وممن درس القانون قطب الدين الشيرازي فقد حضره جملة من الاساتذة ومع ذلك كله لم يتمكن من فهم مطالبه كلها وايضاح ما أشكل منها فقصد نصير الدين الطوسي ولكنهُ على ما يقول لم يكن للطوسي تلك القدرة على تدريس القانون لانهُ لم يحترف الطب ولم يعالج صناعته . واخيراً سافر قطب الدين هذا الى مصر وزار هناك احد الاطباء المصريين وكان رجلاً فاضلاً عالماً بالطب وحصل ايضاً على شروح للقانون وبعد هذا كله تمكن من فهم مطالب هذا الكتاب وحل ما اشكل عليه من المسائل العويصة

وبعد هذا الجهد والنصب العظيم وضع على كليات القانون شرحاً هو أهم واعظم شرح لهذا الكتاب . وكتب غيره للكتاب شروحاً مفصلة ومنها شرح ابن قف المسيحي وشرح مُلاَّ علي الجيلاني وأول من شرحهُ الايلاقي ثم الامام الرازي . ونرى ان اصول القانون لا تختلف كثيراً عن اصول المطالب في كتاب كامل الصناعة . والظاهر ان اباعلي كان يستفيد من كامل الصناعة حينما كان يؤلف كتاب القانون

(و) كتاب التعليقات — وهو كتاب يطابق اسمه مسماهُ فانه يحتوي على جميع المطالب الفلسفية وقد كتبها الشيخ تعليقاً

(ز) كتاب المبدأ والمعاد — كتبه لابي احمد محمد بن ابراهيم الفارسي وهو يشتمل على ثمرة علمين (علم ما بعد الطبيعة وعلم ما في الطبيعة) وكان غرضه من تأليف هذا الكتاب كما يقول أن يكشف الغطاء عما اخفاه المشاؤون ويوضح ما اشكل منه ويسهب فيما اوجزوا . والكتاب يحتوي على المباحث الطبيعية والالهيات كلها ولكن بصورة مختصرة . ويمتاز هذا الكتاب بحسن

التعبير الذي قلما يوجد مثله في اكثر تآليف الشيخ . وقد الف الشيخ لابي الحسين السهيلي كتاباً آخر سماه بهذا الاسم غير أنا لم نعثر عليه حتى الآن

(ح) رسالة الفيض الالهي — وموضوع هذه الرسالة التحقيق في مبداء الوحي والاعجاز والسحر وأنواعه الاخرى . وقد ميز في هذه الرسالة بين الوحي والاعجاز والسحر . وقد ذكر نبذة من تأثير الروح بأرواح اخرى وأجسام خارجة عنها . ويعتقد ان الانسان بعد تقوية كمال الروح والارادة يمكنهُ ان يكون منبعاً لتأثيرات خارجية كثيرة

(ط) رسالة سلامان وابسال — وقد أشار اليها في كتاب الاشارات . وقد روى نصير الدين حكايتها بطرق كثيرة ونظمها الجامي (الشاعر الفارسي الذي عاش في القرن التاسع وتوفى سنة ٨٩٨)

(ي) رسالة الطير — وهي تبحث في كمال النفس وعود الارواح الجزئية الى النفس الكلية وقد استفاد منها العطّار في رسالة سمّاها (منطق الطير) — والعطار شاعر فارسي عاش في القرن السادس وقتلهُ التتر في اوائل القرن السابع

(يا) رسالة حي بن يقظان — وقد قرأه بعضهم بالطاء المهملة (يقطان) ويظهر لنا ان كلمة يقظان (بالظاء) المعجمة هي الاصح

(يب) كتاب عيون الحكمة — وقد شرحهُ الامام الفخر الرازي ويظهر لنا ان الانوري الشاعر — وقد مرَّ ذكره — يقول فيه : —

« كتابتى است مثمن بخط من خادم چو أشك وچهرهٔ من جلدش أز درون وبرون »
« سه گونه در او كرده بو على تقرير . . . . »

والمعنى : كتابة مثمنة كتبها العبد ودفتاها من الظاهر والباطن كدمعي ووجنتي وقد ألف فيها أبو علي ثلاثة من العلوم

وقد نسبوا الى الشيخ أبي علي أشعاراً فارسية وعربية والظاهر أن بعضها منحول . وله القصيدة العينية في النفس التي مطلعها

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزُّز وتمنُّعِ (١)

وقد ألّف أبو علي كتاباً في اللغة ولكنهُ لم يصل الينا وقد ضاع قبل الاستنساخ . وكانت له رسائل بالفارسية والعربية ولا يزال بعضها باقياً . وله غير ذلك كتب كثيرة أعرضنا عن ذكرها خوف الإطالة . آه

(١) راجع في صفحة ٣١٦ من هذا العدد من المقتطف رأي جبران خليل جبران في هذه القصيدة

حيوانات مشهورة

وصحة اسمائها

لافريو الدكتور امين المعلوف

الصقور والبزاة　　Falcons & Hawks

الصقر كل طائر يصيد ما خلا النسر والعقاب وهو يشمل البازي والباشق والبيدق والزرّق واليؤيؤ والحر والشرق والشاهين والعوسق والزمّج وغيرها . والصقر عند البزادرة من اهل الشرق كالعرب والفرس والهنود كما هي عند الافرنج اي صقور وبزاة فالصقور على الغالب سود العيون محددة الرؤوس طوال الاجنحة قصار الارجل والبزاة على الغالب صفر العيون مدورة الرؤوس قصار الاجنحة طوال الارجل . وفي ما يلي بعض ما يعلم من الصقور وما لا يعلم منها

باز . جنس من الجوارح يصاد بهِ　　Accipiter. Hawk

باز وبازيّ . (ابن سينا والدميري عن سافيني ٢٣: ٢٦٩)　　A. gentilis. or Astur palumbarius, Goshawk

اُسويحق وابو لاحق (عرب الشام عن سافيني) صقر باز (الاسكندرية عن سافيني) شاه باز (الف ليلة وليلة لبرتن ٢ : ١٦٠) وقد حذفت الزمّج لانهُ ليس بهِ

باز اشهب　　A. albidus. White goshawk

باشق　　A. nisus. Sparrow hawk

(الدميري وهو كذلك في مصر والشام : سافيني) بَيْدق (الدميري عن سافيني) ولعل البيدق هو النوع الآتي ذكره ولم يكن معروفاً بهذا الاسم في عهد سافيني . ومن اسماء الباشق الطوط والعلاّم

بَيْدق او عفصيّ وهذا عن الاب انستاس　　A. badius brevipes

زُرّق . كوهي (فارسية)　　Elanus caeruleus. Black-winged kite

صقر ابيض في مصر . طائر يصاد بهِ في حجم الباشق او اكبر قليلاً أسود الظهر ابيض البطن احمر العينين اصفر الرجلين عدّه الدميري صنفاً من البزاة لانهُ اصفر العينين او احمرها ومنهُ قول أبو نواس من ابيات اوردها الدميري

كأنَّ عينيه لحسن الحدقة　　نرجسة نابتة في ورقة

وقال صاحب كتاب انس الملا ان الزُرَّق ذكر البازيَ في كل جنس من اجناسهِ وان الكوهية خطأ وصوابه كوهي . ولم أعثر على الكوهي ولا الكوهية في كتب اللغة ولعلَّ اللفظة فارسية بمعنى الجبلي

أما تسمية هذا الطائر بالزُرَّق والكوهي فمن سافيني قال هو الكوهية عند أهل المنزلة ودمياط وفارسكور والزُرَّق عند بعض مؤلفي العرب (٢٣:٣٧٦) . وهو الزُرَّق عند هوغان ودرسر . وصقر ابيض عند غرني

صقر Falco. True falcon

جنس من الجوارح مجدول البدن مستدير المنخرين طويل الجناحين والذنب عاري الساقين حاد المخالب قصير المنسر معقفه لهُ سن في كل من شدقيهِ

يُـؤيُؤ . جلم ؛ أبو رياح F. aesalon aesalon. Merlin

صقر جميل هو أصغر الصقور في الشرق يفرخ في أواسط آسية ويشتو في العراق والشام ومصر اسمهُ عند عامة المصريين الجرادية وصقر الجراد

واليؤيؤ في حياة الحيوان « طائر كنيتهُ ابو رياح وهو الجلم من جوارح الطير يشبه الباشق » وفي باب الصقر « اليؤيؤ ويسميهِ أهل الشام الجلم لخفة جناحيهِ وسرعتهما ولان الجلم هو الذي يجزُّ بهِ وهو المقص . وهو طائر صغير قصير الذنب قال الناشئ في وصفه

ويؤيؤ مهذب رشيقِ كأنَّ عينيهِ لدى التحقيقِ
فصان مخروطان من عقيق

وقد عوَّلت في تحقيق هذا الطائر على ما ذكره سافيني ودرسر وهوغان (المؤلف في المقتطف ٣٥:١٠٧٣)

حُـرّ F. biamarcus langypterus. Lanner

طائر من الجوارح أصغر من الشرق والشاهين أصقع اي في رأسهِ بياض أسفع الظهر أغبر البطن رجحت في المقتطف ٣٥ : ١٠٧٢ ان الحر هذا الطائر واللفظة شائعة في العراق والشام ومصر . يطلقها بعضهم على الشرق ويسمونهُ الصقر الحر والبعض الآخر على هذا الطائر كما في معجم دوزي وحيوانات فلسطين لترسترام

شرق . صقر F. cherrug cherrug or F. sacer Saker falcon

صقر الغزال (مصر) . وهو المشهور بالصقر في المؤلفات العربية والبلاد العربية ولما كان الصقر يشمل الصقور الاخرى قدمت لفظة الشرق وهي فصيحة وواردة في اللغة وهو الاسم النوعي الذي سماه بهِ غراي سنة ١٨٣٣ واللفظة شائعة في الهند وفارس (درسر وكتاب التاريخ الطبيعي الملوكي) وقد قدَّم مؤلف طيور مصر الاسم الاول الذي ذكرتهُ الآن على الاسم الثاني مع ان الثاني وهو الذي وضعهُ غملن أقدم من الاول الذي وضعهُ غراي لذلك قدمت الشرق على الصقر لـكي

لا يقع التباس . وقد ذكرت الصقر في المقتطف ٣٥ : ٩٦٧ ولم أذكر الشرق وهو الطائر الذي كان عند السيد محمد النقيب في باب الشيخ فذكرته هذه المرة وكلاهما فصيح كما تقدم ووارد في اللغة

صقر بريم F. concolor. The sooty falcon

مترجمة وهو صقر أسود يسمونهُ صقر الغروب في مصر لانهُ يخرج عند الغروب

شاهين الهند F. peregrinator. Shahin or Royal falcon

شاهين F. peregrinus peregrinus. Peregrine falcon

شاهين العراق او يوصّى F. peregrinus babylonicus. Babylonian peregrine falcon

شاهين سيبيرية F. peregrinus calibus. Siberian peregrine falcon

شاهين المغرب F. P. peregrinoides. Barbary falcon

طائر من الجوارح بين الصقر والحرّ طويل الجناحين لون رأسه وذنبه اسود ضارب الى الزرقة اما صدره فأبيض ضارب الى التوشيم

ويصعب معرفة الشاهين من وصفهِ في الدميري والقزويني وكتب اللغة واحسن وصف لهُ وجدتهُ في كتاب أنس الملا للسيد محمد المنكلي قال الشاهين قصير الساقين قصير الفخذين . . . . واذا كان فرخاً تكون خطوط صدره عريضة كبيرة قصير الرقبة بغلظ عريض الهامة غائر العينين محدب الظهر قصير الذنب . . . . اخضر الكفين طويل الاصابع زائد سواد الخدين طويل الجناحين وهي صفة الطائر المسمى F. peregrinus عند علماء الحيوان وهو يختلف باختلاف البلاد

وقال سافيني في الكلام على طيور مصر والشام في وصف مصر مجلد ٢٣ ان الشاهين في المؤلفات العربية هو هذا الطائر وذكر ان فورسكال سماه الشاهين ايضاً . وهو الشاهين في كتاب طيور شمال افريقية الشرقي لفون هوغلن وهؤلاء الثلاثة ثقات يعول عليهم . وقد سألت جماعة من المصريين لقيتهم في حديقة الجيزة (في تاريخ كتابة ذلك المقتطف اي في خريف سنة ١٩٠٩) عن الشاهين فأروني هذا الطائر وقالوا انهُ يسمى عندهم صقر شاهين فالصقر عند المصريين كل طائر يصيد ما خلا النسر والعقاب اي كما هو في كتب اللغة ويميزون الصقور بعضها عن بعض بقولهم صقر باز وصقر شاهين وصقر الجراد وصقر الغزال الخ وهذا الاخير هو المعروف بالصقر عند بزادرة العرب والافرنج كما مرّ

أما الشاهين في الهند فهو الطائر الذي سميتهُ شاهين الهند ويظهر ان الشاهين هو هذا الطائر اي كما سماه بزادرة الفرس ثم اطلق العرب اسم الشاهين على الصقور الاخرى القريبة منهُ . ذكر ان اسمهُ الشاهين في الهند جماعة من الثقات منهم السر رتشارد برتن في الف ليلة وليلة ٢ : ١٦ وصاحب كتاب التاريخ الطبيعي الانكليزي في وصف الصقور وغيرها

عاسوق وعوسق F. tinnunculus. Kestrel or windhover

عويسق وعُوَيسقة F. naumanni. Lesser Kestrel

طائر في حجم الباشق احمر اللون منقط بسواد يسمى في مصر صقر بلدي وصقر الجراد وابو سرقة . ولم يرد ذكر العوسق والعاسوق والعويسق في كتب اللغة ولا في معجم دوزي بل ذكر العوسق الامير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار صفحة ١٦٢ ولم يصفهُ بل قال انهُ من الجوارح وذكر العاسوق الدكتور بوست في كتاب نظام الحلقات ٢ : ١٦ وذكر العويسقة داود الانطاكي في الباب الرابع فصل البزدرة قال « الباشق وهو أخف الطير وأسرعها نهوضاً والانثى منهُ تسمى الفويسقة او هي صغاره » كذا وردت بالفاء في النسخة المطبوعة التي وقفت عليها وهي مطبوعة طبعاً سقيماً جدًّا وصوابها العويسقة كما هي في نسخةمخطوطة في دار الكتب الملكية في القاهرة . والعويسق يعرف في جبل لبنان بهذا الاسم وقد اريتهذا الطائر الى صديق يعرفهُ فقال هو بعينهِ . وعلى كل فقد اطلقت العوسق والعاسوق على الكبير منهُ والعويسق والعويسقة على الصغير . (المؤلف في المقتطف ٣٥ : ١٠٧٣)

كَوبَج . زُمَّج . دوبردران F. subbuteo. Hobby

لم اتمكن من تحقيق اسم هذا الطائر بالعربية وكنت ذكرت قبلاً انهُ البيدق او السقاوة ولكنني كنت مخطئاً وربما هو الكوبج قال الدميري في باب الصقر «الصنف الثاني من الصقور الكوبج ونسبته من الصقور كنسبة الزُرَّق الى البازي الاَّ انه احرُّ منهُ ولذلك هو اخف منهُ جناحاً وأقل بخراً ويصيد اشياء من صيد الماء ويعجز عن الغزال الصغير وفي معجم فولرس الكوبج باللغة الهندية طائر ولم يصفه وفي معجم ستينجس هو Falcon وضبطها هكذا كوبج وفي معجم ريتشارد سن كَوبج وقال اسمه Falcon, sparrow-hawk

وللاب انستاس نظر في معجم الحيوان مقتطف ٣٩ : ٣٨٥ يقول فيهِ ان هذا الطائر هو Astur وهو اللويحق وأبو لاحق اي الباز وقد سألته وأنا في بغداد كيف عرف انه هذا الطائر قال انهُ رأى صورته في كتاب في الحيوان قلت ان الصورة لا تكفي للتحقيق العلمي بل يجب معرفة الصقور والبزاة ومعرفة الفرق بينهما.والذي أراه الآن انهُ هذا الطائر لانهُ من الصقور لا من البزاة كذلك الزمج لذلك اخرجت الزمج من صفحة ٢و١٠٢ . ولا شبهة ان الزمّج كما قال الاب المحترم فاننا نعتمد قوله كما قال انهُ الزمج والزماج بالمعجمة او الزماح بالمهملة فاننا نعتمد قول الاب في حركة او كسرة او فتحة . أما في تحقيق الحيوانات فلا نعتمده

ثم ان وبستر في مطوله ذكر هذا الطائر وقال Soar not with the hobbie lest you fall with the lark لا ترتفع كالزمج لئلاَّ تسقط مع القنبرة ، فالزمج من الصقور لا من البزاة فالزمج في العراق هو الكوبج كما في معجم الحيوان اي ان كلمة كوبج هي مثل زمج تماماً

لُزيق F. vespertinus· Red-legged falcon

طائر من الجوارح في حجم الباشق احمر المنسر والرجلين جفون عينيهِ حمر

ولم يذكر اللزيق بهذا المعنى في كتب اللغة وانما ذكره الامير اسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار صفحة ٢٦٢ قال «فجاء جارح مثل الوسق احمر المنسر والرجلين جفون عينيه حمر فقالوا هذا اللزيق» وهو وصف في غاية الدقة ينطبق تماماً على هذا الطائر (المؤلف في المقتطف ٣٥ : ١٠٧٤)

سُنْقر Gerfalcon, Gyrfalcon. Hierofalco or Falco

وسُنقور. وشُنْقار وشنغار وشُنقور .شاهين بحري . طائر من الجوارح اعظم من الصقر واجمل منهُ صورة يؤتى بهِ من البلاد الشمالية لذلك سموا السناقر احياناً الشواهين البحرية لانهُ كان يؤتى بها عن طريق البحر

وقد اخذت السنقر ومرادفاته وذكرته في ص ١١٤ من معجم الحيوان. وسنقر اسم سلطان من سلاطين المماليك والبعض يكتبون اسمه بالجيم اي سنجر وحقهُ ان يكتب بالقاف لا بالجيم فلو سألنا صعيديّاً كيف يلفظ هذا الاسم لقال سنقر والعامة هنا تلفظ كما يلفظ اهل القاهرة الجيم فليس جميع اهل مصر من القاهرة

حميق Buzzard and allied genera

في حياة الحيوان الحميق طائر يصيد القطا والجنادب وسمعت بعض اهل العلم يقول هو الباشق ويفسر بهِ قول ابي الوليد الازرقي في تاريخ مكة وهو: قال ابن جريج: قلت لعطاء اذا كنت محرماً فاقتل العقاب قال اقتل قلت والصقر والحميق فانهما يأخذان حمام المسلمين قال اقتل واقتل البعوض واقتل الذئب فانهُ عدو ذكره في تعظيم الحرم . وفي مستدرك التاج حميق عن ابي حاتم طائر ولم يزد على ذلك . وقد اعتمدت قول حياة الحيوان لانهُ موافق قول فلور وهس كما سيجيء

حميق معروف Common buzzard. Buteo Vulgaris

حميق Long-egged buzzard. Buteo ferox

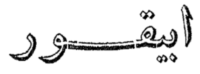
حميق (جزيرة العرب عن الماجور فلور عن الاستاذ هس) . صقر حوّام (حلمي السماع) سقاوة (حلمي السماع عن عرب الواحات) . صقر جراح (غرني) وارى الاقتصار على الحميق لفصاحتهِ ولأن اللذين ذكراه من علماء الحيوان وقد رأيت الكتاب المذكورة فيهِ في حديقة الحيوان والاسماء التي فيهِ مكتوبة بالعربية ولعلّ الكتاب لا يزال في مكتبة الحديقة .

حميق مسرول Rough legged buzzard. Buteo lagopus

حميق النحل Honey buzzard. Pernis apivorus

يقال لهُ في الحديقة حوّام النحل والحميق أفصح

هذا ما قدرت على تحقيقه من أسماء الجوارح مما ورد في معجم الحيوان وكتب اللغة وقد انتهيت من كتابة هذا البحث



بقلم سليم خياطه

> وأرسطبس له في اللذة مقالة تباين مقالة أنتيثينس . ومقالة أبيقورس تباينهما معاً
> عن « بيرهون »

ليس في الوسع الحديث الطويل عن أبيقور الإلهي ، وهو ذلك الحكيم العميق العقل الذي أنشد لوقريطيوس الشاعر لمجده أغنية ملحمية بحجم سفرٍ عادي في سبيل حقيقة الطبيعة والانسان . فما عندي له سوى خطراتٍ من وحي اسمه وفكره وما ظُلما بهِ من سوء النسبة . والحق ان الكلام عنهُ ، رغم قلّة ما أبقت عليهِ القرون من آثاره نفسه ، ليمتدُّ ويتشعّب ويلذ جدًّا . أليس ان واحداً من أنجب تلامذته المتأخرين ، الراهب « غسندي » ذاته ، لم يستطع ان يكتفي الرغبة في تعليم مبادئه إلاّ بأن يدعو كصاحب مدرسة اختصاصية فريدة في بابها ، تحت ظلال جدران « الكوليج دي فرانس » في باريس ، حيث تخرّج على فكره النيّر كوكبة من النجوم اللامعة فيهم أنصع نفسين أبيقوريين ظهرا في وقتيهما : موليير الروائي وفولتير الاديب ؟

وأليس ان «برنيه» ، وهو تلميذ التلميذ ، لم يستطع ان يشرح حتى غسندي ذاك إلاّ كما قال فرانس في « الحياة الادبية » : « برنيه هذا الذي كان يلقّب بالفيلسوف الظريف ، الذي جاب سوريا ومصر والهند وفارس ، وخدم كطبيب عند اورانغ زيب ، والذي كما ذهب الى كل مكان رجع من الكلّ ، فكان عنده كثير ما يقول ، وكان يدرس من غير انقطاع ، وكان لا يؤمن البتة ، صنّف «لمدام دي لاسابليير» موجزاً لنظام استاذه غسندي ، وهذا الموجز لم يكن أقلّ من ثمانية مجلدات » ؟ فانظر ! هل سمعت ؟ ثمانية مجلدات هي موجز في تلميذ التلميذ ! . .

إذن ، فلنفتش عمّا هو بعد اوجز من ذلك . ولمن أراد شيئاً اقلّ كتمهيدٍ أوليّ يتعرّف بهِ الى فيلسوفنا ، عليهِ بالكتاب الصغير البديع الذي ألّفهُ الاسقف « فينيلون » عن فلاسفة اليونان لتربية الناشئة عليهِ في زمن لويس الرابع عشر [١] . ففي سلسبيل هذه التحفة الادبية

(١) Fénelon-Abrégé de la Vie Des Plus Illustres Philosophes de L'Antiquité.

النقيَّة يتاح للقارىء العادي ان يُلمَّ بشيء مقتضب سهل عن شخص ابيقور الكريم ، وبشيء من التماعات الآراء والنظريات العقلية العبقرية التي ظهرت لهُ فيما وصلت اليه مدرسته «اللَيسيبوسية» « الديموقريطية » ، تلك الآراء والنظريات التي لا تزال منذ أطلَّت أعمدة آثينا الرخاميَّة الذهبية على الفين واربعماية سنة مقبلة من تطوُّر فكر الانسان ومجتمعه حتى هذه الساعة : يثبت بعضها بتقريرات ومذاهب وتفسيرات علمية مقبولة ، وبعضها يُكتشف لها حقائق ما لاح له من أسرارها ، وبعضها الآخر ايضاً يتجه اليها البحث بكلّ قواه لشدة دلائل الصحة فيها وصعوبة قبول التفكير الفلسفي الجدلي (الدياليكتيكي) والمادي العلمي لسواها من النظريات والمعقولات التفسيرية لحركة الوجود وتشكلاته . من الامثلة على كل هذه الالتماعات الرائعة بضعة التالية : الذرَّة والجوهر الفرد ، الكهرباء وتفسيرها ، عمر الارض ونظرية طبقاتها ، التطوُّر والارتقاء في ميداني تنازع البقاء والتعاون ، حركة المادة الدياليكتيكية ، الاحلام كظاهرة نفسية ومظهر عقلي ، نشوء فكرة الالوهية وتطوُّرها ، نشوء المدنية وظهور المجتمع ، الخ . الخ . . .

بيد ان كتاب فينيلون ، لسوء الحظ ، غير متيسر لابناء العربية الاَّ في طبعةٍ مندثرة صدرت منذ مائة سنةٍ ونيِّف . إذ لا أظن أحداً ترجمه الى العربية حتى اليوم غير كاتبٍ اسمهُ عبد الله بن حسين ، كان من « عدة » ارسلهم محمد علي باشا — على حد تعبيره — « الى الديار الفرنجية » . « شاع أمرهم في الأنام ، فحصَّلوا قدراً جسيماً من اللغات والفنون ، وجلب لهم (محمد علي باشا) كتب العلوم الخ . . . » وقد تمَّ طبع هذا الكتاب في سنة ١٢٥٢ هـ . تحت اسم « مختصر ترجمة مشاهير قدماء الفلاسفة » ، بالتنويه الى تعريبه ، لكن من دون ذكر مؤلفه ، وذلك في دار الطباعة التي أنشأها محمد علي ببولاق . على أننا نكتفي الآن بما يلزمنا من كتاب فنيلون هذا في فصله عن « أبيقور » ، وهو لا يتعدى عبارته التالية التي تترقرق في لغة صاحبها الفرنسية عذوبة الماء الزلال في ساقية الواحة او نبع الجبل . قال :

> « ابتاع أبيقور حديقةً جميلة ، وأخذ يثقِّفها بنفسهِ . فيها أنشأ مدرسته وعاش مع تلامذته حياةً حلوةً ورضيَّة ، فكان يعلمهم وهو يتنزَّه أو وهو يشتغل . . . لقد كان حُلوَ الطبع مُحبَّباً الى كل الناس . . . وكان يعتقد بأنهُ ليس ما هو أشرف للانسان من أن يزاول الفلسفة . »

ثم مع هذا القول الجميل لا يسعني الاَّ ان أورد ايضاً حكم القديس اغسطينوس على أبيقور ،

حيث قال في « اعترافاته » وهو يتكلم على تفتيشهِ عن المبادىء والتعاليم التي ترتاح اليها نفسه (وهي المرة الوحيدة التي يذكره فيها) ، قال « : كنت أتحدَّث مع صديقيَّ « آليپيو » و « نيبريديو » عن حدِّ الخير وحدِّ الشر . وفي نفسي ان أبيقور هو الذي كنت أقلده غصنَ النخيل[1] لو لم أكن أعتقد بديمومة حياة النفس (يقصد خلودها بعد الموت) وبالعقوبات (يقصد الأخروية) على أفعالنا ، وهو الاعتقاد الذي رفضهُ أبيقور » [2]

إقرأ ايضاً ، بعد رجلي الكنيسة هذين ، قول المؤلف الاندلسي ، القاضي ابي القاسم بن صاعد في كتابه الظريف « طبقات الامم » . فان هذا الكاتب الذكي ، على قلة ورود المضبوط المستقى من ينبوعهِ في مواضيع الفلسفة اليونانية عند كتابنا الاقدمين ، قد أعطانا هو عبارة فيها من الصحة عن أبيقور بقدر ما فيها تماماً من نصوع صفحته . قال : « وأما الفرقة المسماة من الآراء التي كان يراها أصحابها في الغرض الذي كان يقصد اليهِ في تعلم الفلسفة ، فشيعة افيغورس [3] ، ويسمون اصحاب اللذة لانهم يرون الغرض المقصود اليهم في تعلم الفلسفة اللذة التابعة لمعرفتها » [4]

تأمل ، الآن في تينك الشهادتين الوضاءتين بحق فيلسوفنا تصدران عن رجلين صادقين من آباء الكنيسة ، وتأمل فيما وصل الى القاضي بن صاعد من خلال ركام القرون الوسطى من ناحيةٍ حقيقيةٍ عن أبيقور المجهول : هي أن « شيعته » على لغتهِ ولغة اغلب الكتّاب السابقين حتى « مونتاين » ، رأت اللذةَ في اللذةِ التابعة الى معرفة الفلسفة . ثم انظر فيما اشتهر عنهُ ووصم بهِ عند جهلاء الادعياء ومحرِّفي المعرفة وسخفاء التفلسف من سوءِ الصيت وشهوانية الدعوى ، حتى صار أبيقور منسوباً اليهِ عدواناً وتجنياً كل رقيعٍ من مجانين متطرفي اللذات عند الرومانيين ، اولئك الذين قصَّر حتى « هوراس » الشاعر في هجوهم وتهزيئهم ، وان كان هو من جهلهِ قد تبعهم أيضاً في إساءة فهم ذلك المعلم الكريم ، فلاك اسمه بغير حقٍّ ومرَّغهُ في حظائر الخنازير

طبعاً لم يؤثر هذا الصيت المشوَّه في تحريف حكم المفكرين الانسانيين الثقات الأُصلاء وتقديرهم . ففرنسيس بايكون ، مثلاً ، إذ يمر بذكر أبيقور في مقالته « عن الالحاد » ومقالته الاخرى « عن الوحدة في الدين » ، لا يبدي نحوه الاَّ انكاره « السنّيّ » الصبغة لشهرتهِ الفلسفية عنده ، ولا يحفظ عنهُ انطباعةَ الشهرة الانغماسية المشوَّهة ، بل يبدو عليهِ الميل المكتوم بتحذُّر محافظٍ الى رأي أبيقور وتعقيله ، ويعلن بجرأة اعجابه العالي بقوله البديع : « ليس الكفر في رفض الاعتقاد بآلهة السواد ، بل الكفر في الاعتقاد بالآلهة ما يعتقده السواد فيها »

(١) الجائزة ، او دليل الاسبقية والاولية (٢) الاعترافات — نهاية الكتاب السادس (AI—XVI—26)
(٣) « أفيغورس » ، اي أبيقور (٤) طبقات الامم — نسخة اليسوعيين ونشرلويس شيخو — بيروت ١٩١٢

غير اننا ، من جهةٍ اخرى ، نجد ان السمعة الرديئة التي لصقت بالابيقورية أثَّرت حتى في مفكر مرتابٍ حرّ مثل مونتاين . فمع انهُ ، مثلاً ، يطرأ عليهِ ذكر ابيقور ، في فصله الكبير « الاعتذار عن رايمون سيبون » كصاحب تأملة فلسفية تحققت صحتها في اكتشاف جُزُر الهند الغربية ، فانهُ ، على جري عادته في تمايلات افكاره السائحة مع كل ريح قد تصل بهِ مكاناً او قد لا تصل ، يعود في مقاله « عن بعض ابياتٍ لفرجيل » — في معرض الكلام عن بهيميَّة الشهوات ، وحديث الامبراطور الذي افتضَّ عشر فتياتٍ في ليلة واحدة والامبراطورة التي بزَّتهُ في استبدال خمس وعشرين رجلاً في ليلة واحدة ايضاً — الى ذكر ما سمَّاها « فرقة أبيقور » كشيء من القباحة في هذا الباب مثل كلّ ما عدَّد غير ذلك من كتابات وافعال !

انما نحن نعلم اليوم بأنهُ يحدث في التاريخ ان المنتسبين الى معلم انساني كبير ، او قل من ينسبون انفسهم اليهِ ، كثيراً ما يبدلون ويمسخون ويقلبون مبادئهِ ومنطق تعاليمه بحسب الهوى والمصلحة او نوع الضغط والاتجاه المادي والمعنوي والنفسي ، من عامٍّ بيئيٍّ وخاصٍّ شخصيٍّ حتى ليصبح هؤلاءِ المنتسبون بما يخرجون بهِ احياناً سُبَّةَ كلّ عقلٍ صافٍ وحكمةٍ ناضجة ، وحتى ليتجلبب ذلك المعلم الكبير — وهذا ما يؤسف — في نظر الكثرة التي تجهله ويصعب عليها فهم مستعصيات الفروقات والتطورات والاستنتاجات ، بجلباب خزيهم وعارهم . لقد اشار لينين الى ظاهرة كهذه بشأن ماركس والحركة الاشتراكية من بعده في كتاب من آخر كتبهِ . ومن الامثلة أيضاً على حالة كهذه يسوع المسيح و « المسيحيات » التي انتسبت اليهِ ، ثم كذلك أبيقور وعديد ممن سموا انفسهم أو سمَّاهم سواهم « أبيقوريين »

ومن الملاحظ أيضاً بخصوص أمثال هؤلاء المعلمين الكبار ان من ينتسبون اليهم ، ومن يشرحونهم ويتلاحقون عليهم ، يختلفون ويتباينون في أمرهم اكثر من تباين الحق والباطل ! بل قد تكون فسحة تباينهم كالفسحة بينهم وبين من لا يطيقون حتى سماع رنة أسمائهم . وقد يفترقون الى فرق وملل ونحل تتباغض وتتعادى وتثير — لا أقول الثورات : اي حقبات الاصلاحيات الاجتماعية والاقتصادية ، والانشاءاتِ الشعبية والعلمية الكبيرة ، والتطوُّر الانساني الارتقائي في العلاقات والتفكير والشعور والعادات — بل تثير مذابح الفتن والحروب والعصبيات الفائرة الحادة ، وانواع النفاق والتنافس السياسي والاغتصابي (والاغتنامي) وهذه الظاهرة كانت قوية جدًّا وطويلة التاريخ في المسيحية، وفي المذاهب «الروحية» التي انتشرت كمنظات مدنية عموماً . ثم هي اصغر من ذلك ، ولكن أبلغ انضغاطاً وأسرع انفجاراً وأفضل ، على الاقل ، نتيجة انسانية ومدنية ، في الاختلافات الاشتراكية التي حصلت من حول اسم ماركس . فالاولى تسببت وعاشت بالحرب والقتال ، والثانية رافقها ما في حياة

الاستعمار وكيانه من حربٍ وقتال . بيد ان من انتسبوا الى أبيقور ، ومن لم ينتسبوا ، ومن بعثت فيهم الرجفة حتى رنة اسمه ،اختلف في هذه الظاهرة حالهم . فهم لم يتنابذوا فيما بينهم مصطدمين حول انشقاقات فهمهم لأبيقور ، ولم يشتهروا بشيء من ذلك . انهم لم يتحاربوا ولم يتقاتلوا أبداً !

سبب ذلك ان جماهير الناس ما سمعت قط حتى باسم أبيقور ، كما انهُ لم يكن لا في الحقيقة ولا في الفكرة المشوَّهة التي نُسبت الى اسمه ذا قابليةٍ على انتشار التأثير والمكانة في كل بيئةٍ كانت ما تكون . فأبيقور على حقيقتهِ وصفاء فلسفتهِ يصعب ان يجد لهُ مقعداً في بيئةٍ أقل رقيًّا من جمهورية آثينا الخالدة في وقتهِ . والا بيقورية المشوَّهة كعبادةٍ بهيمية لا يعلو لها صوت الاَّ في حلقات ضيقة، كحلقات المتخمين حتى التيء ، الفارغي الرؤوس والقلوب، ومن كانوا على عقليتهم، في دور كدور انحطاط روما الامبراطورية او بغداد العباسيين وممالك الطوائف . لذلك كان اصحاب الهوى والهوس في ابيقور ضعافاً قليلين ، على الاكثر المعروف من « المتعاظمين » المتكلِّفين . لم يأخذوا عنهُ الفلسفة ، بل رأوا فيها تلطَّخ بهِ اسمه عنوان رذيلتهم وتسويغاً مبتذلاً لنفوسهم بقدر ما كانوا عليهِ من ابتذال

وعلى هذا ، فانَّ اثراً لم يتضخَّم وينتفخ لا لأبيقور ولا لهم في صلب حياتنا الماضية أو الحاضرة ، في عقل بشرية متجمهرة ، مجيَّشة ، مسخَّفة ، متعاركةٍ بالناب المُزبدِ والظفر الدامي على صولجان سلطتها ورغيف اطفالها . فحظ ابيقور في خمول الصوت وغلبة الانحراف عليهِ عائد، إذن ، إلى ان الاعجاب بهِ هو الاعجاب الفلسفي والاخلاقي السلوكي السامي، الهادىء ، المتسامح ، الذي لم يكن الاَّ من نصيب قليلين فهموه وأحبوه ، من فوق الاجيال والاكاذيب ، حُبَّ صداقةٍ شخصية ، لا الاعجاب الطَّموح ، الملتهب بنيران وجهالاتِ الرغباتِ « المثالية » ، ولا توجُّه وتكريم التفكير « العقائدي »[1] او « التعليمي »[2] الجامد ، التعصبي ، المطلَّس الوجه بتلوينات مثالية ، المبطَّن القلب في الواقع بنوع تكالبيَّةٍ وآنيَّةٍ في الغرض (لنسمها : غائيَّة آنية Teleologisme ! ..)

لهذه العوامل فُقدت حقيقة أبيقور أكثر مما ضاعت حقيقة ماركس . ولو انهُ كانت لفلسفة أبيقور ونظرياته ما كان لافكار ماركس الفلسفية الكبرى ونظرياته الاستنتاجية الاخرى من علاقة وثيقة صارخة بمصالح الناس الآنية والمباشرة ، ولو انهُ كان لها ما لهذه من منطقية سريعة التفتح في صلب الحياة الاجتماعية (بل الماركسية أسرع حتى من منطقية الحياة الاجتماعية لانها مبنية

(١) ترجمة استنبتها للفظة Dogmatic (٢) ترجمة استعملتها للفظة Doctrinaire و« التعليمي » في التفكير الحديث « كالعقائدي » في التفكير العتيق

على حركتها — او بالاحرى على ما في الامكان تبينه من الخطوط العامة واتجاهها في حركتها ، إذ تهبط وتتغلغل الى اعماق العيش اليومي بمختلف الاشكال والمجاري التي تتصادم حتى كتصادم الحياة بعضها ببعض ، والتي تصبح في احتكاكها بحالة الجماهير ونفسيتها ذات قابلية على توليد عواطف اهتياجية شديدة —) اذن لكانت هرعت طوائف الناس ايضاً الى ابيقور كما هرعوا الى ماركس، ولتعلقوا به كل طرف وجماعة على وحي ما بهم ونوع حماستهم دفعاً وجذباً ، وشداً ولفتاً ، وتقبيلاً وتخبيطاً !

لكن ماركس ، فيلسوف الثورة الصناعية والتحول الاشتراكي ، قد حظي بعصر ألصق بهِ جمهوراً وأوسع وأكثر اشتباكاً من كل عصر ، مع ان ابيقور كان في زمنه شخصية تستوقف عناية الجماهير أيضاً (في أثناء حياته فقط) اكثر من كل فيلسوف يوناني آخر الا « بيرهون ». ثم ان ماركس قد حظي أيضاً من الاتباع المدركين ، والمحيين المكملين له في قلب حياة زمنهم ، من لم يكن لهم من الجهل ولا من الطمع بهِ كمبرِرٍ شخصيٍ مثل الذين بلي بهم أبيقور. وأبيقور ، وان كان قد نال قسطاً من أرقى الذكاء البشري لدفع ظلامته وتجلية حقيقته ، إلاَّ انهُ لم يدفع عنهُ أحد بمثل ما دفع هؤلاءِ عن ماركس ، وبمثل ما رفعوا من نبراس حقيقته من خلال ظلمات الدخان الدامي وعماء الحمق المتفشي

هذا ، وقد يستغرب ان يزعم زاعم بأن فلسفة أبيقور تعيش في الماركسية . لكنها حقيقة واضحة لكل من يفهم شيئاً من الفلسفة غير الشهرة والاسماء . وان فلسفة أبيقور تعيش فيها من وجهتي الاعتماد في النظر والتعليل على المادية وعلى « الدياليكتيكية » . وتعيش فيها ، أيضاً ، بالطبع ، بما يتجه التفكير اليه ، على هذا الاساس المزدوج عندكليهما ، من نفس النتائج والآراء والمبادىء في نفس القضايا ، وان كانت قضايا الثانية ومسائلها الفرعية تختلف أغلبها وتزيد وتتعقد كثيراً عن قضايا الاولى ومسائلها . وذلك لان العصرين مختلفان ، لان مادة البحث والمعلومات الحاصلة والمتيسرة تزيد وتترتب وتتباين في ثانيهما عنها في الاول منهما ، فتنزل الماركسية لهذا السبب من ميدان التفكير الفلسفي الى أقصى ميادين الاحتكاك الواقعي بالمجتمع ، ومن ثمَّ الى التحوُّل الدياليكتيكي الحركة بحسب ما تحكم مجاري تلك الميادين ومناقشاتها في مجرى صحة النظريات وسلامة الآراء والتصورات . أما فلسفة أبيقور، وان كان هذا الاسلوب والتعقيل هو أسلوبها وتعقيلها بالطبع والامتياز ، الاَّ انها ، لما بيَّنا من أسباب ، تكاد تقبع في حقل التعليل والتفسير الكوني والطبيعي ، وفي مبدئيةٍ أخلاقيةٍ إنسانيةٍ عامة

لكنها على كل حال أصدق ما يأتلف ويتساوى من الاساس (اذا لم تكن الوحيدة التي تأتلف وتتساوى) من بين فلسفات جميع العصور السابقة مع أساس فلسفة الاشتراكية الحديثة

العلمية في المنطق والاسلوب ، ثم في الحدود الموضوعية التي تصل اليها معها في التعقيل والاستنتاج وأخيراً في اعتبار أخلاقية الفرد الاجتماعية . أما الوجهة الاخلاقية السلوكية هذه عند أبيقور ، فلا أتصوّر الماركسية وجدت أو يسهل عليها ان تجد للفرد سلوكاً أخلاقيًّا عمليًّا عيشيًّا في مجتمعه أفضل وأعذب وأبلغ استقامةً اجتماعية مما نلقى في أبيقورية أبيقور ، تلك الحكمة الجميلة المعتدلة في العيش والاجتهاد والرفق بالذات والانسان ، تلك المبادىء والاعتبارات في الخير والشر التي ما أمكن الاّ ان تفوز باطراء أي رجل صالح عادل كان ، حتى من وُجد في مخيّم معاكسي أبيقور المذهبيين ، سواءٌ في ذلك مخيّم أعلام التقوى والنظر المسيحي او كبار المفكرين المخلصي الضمير . ومن بين كبار المفكرين هؤلاء واحد احب ابيقور بعقله وقلبه ، واحب انا أن اتحدَّث عنهُ قليلاً كتلميذٍ حقّ لذلك المعلم. هو اناتول فرانس ، الذي ترك في ميراث عالم الادب الرفيع بين اكاليل بدائعه كتاباً معجزاً صغيراً لقبه « حديقة أبيقور »

لم يرد في هذا الكتاب اسم للفيلسوف الاغريقي أو إشارة مباشرة الى أفكاره ، فيما عدا عناوين الصفحات ، غير مرتين او ثلاث . فما ذكره بهِ في هذين المرتين او الثلاث ما جاء له في جملة من قوله : « ... في اسمى العقول ، واصفاها ، وأعذبها : في ديموقريطٍ ، في أبيقورٍ ، في غسنديٍّ »[1] ، ثم ما وضعهُ على لسانهِ في مساجلةٍ تخيلها بين الفلاسفة تجري وسط العَبْهَرُون والآس على ضفة نهر في « هاديس » ، عالم ظلال الاموات عند اليونان ، إذ جعله يخاطب ارسطو بمعرض آراء متواردة عن خلود النفس ونفس الحيوان ، قائلاً :

— إيه ارسطو ! هذه النفس فيها (اي الحيوانات) هي مثلها عندنا فانية خاضعة للموت ، وفي ذلك سعادتها . أيتها الظلال العزيزة ! إصطبري منتظرةً في هذه الجنائن مجيءَ الزمن الذي تفقدين فيهِ تماماً ، مع فقدان الرغبة القاسية في الحياة ، الحياة نفسها هي واوصابها . ألا فارقدي مقدماً في السلام الذي لا يعكره شيء »

وهكذا ليس هذا الكتاب سيرةً لابيقور ، ولا شرحاً ، ولا مجادلةً ولا نقاشاً ، ولم يأت فيهِ صاحبه حتى على لفظ اسمه إلاّ كما رأيت . وهو ، إن أردت الصحيح ، ليس الاّ حديقة أفكار لفرانس ذاته وردت عليهِ بروح التعقيل الابيقوري وأسلوبهِ من غيرشك ، إذ الكتاب بجملتهِ يعبق برائحةٍ جميلة لجو « دياليكتيك » ابيقوريٍّ ماديٍّ ينتج منهُ للمؤلف منطق متناسق وحلقة آراء تستقيم في مجموعها مع وزن (او قل : دوزنة) الابيقورية الفلسفية ، اي ابيقورية ابيقور لا غيره

صحيح ان حلقة آراء فرانس هذه ، وجوها العابق بديالكتيك ابيقور ، ملوّنة بأصباغٍ

(١) تجوزت في تنوين هذه الاسماء لجاب معنى الافراد على سبيل المثل من جمع من نوع الاسم

شتى متناسقة ومتعارضة ، وفيها مزيج من نكهات كثيرة مما رؤي وظن ، وحق وبطل واختلف فيه من معاني الابيقورية : من حقيقة ما جاء منها لا بيقور وعنهُ ، وما ائتلف وتناسق حقيقةً مع منطق فلسفته ، في التعابير والنظرات التي يصدرها فرانس مباشرة ، او مما تستخلصهُ او تراه بنفسك في اثناء محاورات تدور فيها الآراء معروضة يوشك ان يتجلى فيها صحيحها الابيقوري من غير تسمية او تنويه الى ما يشبه كلاماً ودعوةً ابيقورية كالعبارة المنقولة فوق والتي وضعها فرانس ، وكانهُ يتهكم ويخلط بأبيقور «زينونيا» رومانيا او شوبنهوراً « ماكس نورداويا» في فم ابيقور ذاته ، واخيراً الى الحس ما تصوّر في الابيقورية وما ألبسته من دعوى المحبة المغرقة المنحلة للمشتهيات البدنية ، واستعمال الملذات مطلقاً كأعقل وأفضل مصرف للعيش ، وذلك فيما وضعهُ من اعترافات على لسان « قدموس » الفينيقي الخرافي ، رمز اختراع حروف الهجاء ومثال مدنية الصناعة والتجارة والزراعة الاعلى في حضارة البحر المتوسط القديمة ومطلب جبابرتها في السلطة المطلقة والانحلال برفاه تنعميّ صفيق ، كل هذا وارد وصحيح من أمر هذا الكتاب ، ولكنهُ يتألف من تلك المجموعة الملوّنة ، كما أشرنا ، مخرج واحد لونهُ صفاء النور ، صفاء منطق أبيقوريّ سليم لا يحتمل ضوءه اظهاراً رائعاً أصلياً لما ليس من الآراء والتعليلات مستقيماً مع مجرى شعاعه

غير ان في الكتاب ، عدا هذا وذاك ، محاورةً تعرض النقيض الابيقوري تماماً بمهارة فنّ فرانسيّ ساحر . هي آخر قطعة منهُ ، وكأنما الاديب الانساني أراد ان يرينا فلسفة معلمه القديم من معرفة صورةٍ عن عكسها . ذلك انهُ يعرّفنا بإيجاز وتهكم رحيم الى انسان رومانتيكي النزعة ، « روسويّ » ، ونوعاً ما شعريّ « برناردين دي سان بييريّ » ، لا أبيقوري على طول الخط . هو نتاج فكري لاواخر القرن الثامن عشر الفرنسي ، لكنهُ ظهر في أواخر التاسع عشر الفرنسي ، متأخراً بذلك في حساسية نفسه عن سير الزمان وعن معدّل حساسية التفكير في سبق سير الزمان لا أقل من مائة سنة . وسبب ذلك ان فلسفة هذا الانسان أكثر ما تشكلت بتأثير أحوالٍ خاصة معينة ، متأخرة فيه عن وقتها شذوذاً ، فأحاطت بحياته الشخصية بحيث ظهر اثر تغيرات قرن الثورة الصناعية عليه بمظهر أفكار الهدم والانكار في قرن الثورة الديموقراطية السياسية سابقه . وبكلمة أخرى من استعمال التعبير الماركسي : هو بقية باقية من الطبقة الوسطى الصغيرة الثامن عشرية الفرنسية ، او التاسع عشرية الالمانية ، او الاوائل العشرينيّة في سوريا ومصر العربيتين ، لكنهُ يتأثر في تمزّق نفسه بحياة متغيرة في فرنسا التاسع عشرية ، فرنسة الدنيا « البالزاكية » وبيئة « مدام بوفاري » و« التربية العاطفية » الفلوبيرية

وعلى هذا فانسان محاورة فرانس ، الذي هو فيلسوف لم ينجح بين الناس ، قد ضجر من

حياة المدنية ، مدنية زحف وتغيرات الثورة الصناعية واستفحالها ونوع الحياة الرأسمالية العاجّة التي خلقتها ، الحياة المدخنة الكئيبة ، يذوب فيها نوع الفرد الذي لا يشعر بنفسه الا في ظهوره وضآلة محيطه كما تضيع النملة بين قبيلتها

كره صاحبنا بيتاً بليداً في صفٍّ في شارع من العاصمة ، فهجرها الى الريف . في الريف اشترى ديراً خرباً وسط عرصة تابعة له . وفي الدير عاش مع ذاته ، ناسياً كل عمل وعيش بين الناس . لا يقرأ عنهم الا بالصدفة ، لا يكتب ، لا يثقّف حتى قطعة ارضه او حديقته ، يتسلى ويقاوم الوقت بالكسل والنظر الطويل في معالم الهواء وغيوم السماء ، ويغذي نفسه بآراء كأنها نصائح التعزية ! فكلها تسفيه وتسخيف لكل ما يدعى او يترادف او يقرب من اسماء مدنية وفن وثقافة وعلم وأدب ورفاه . لقد اصبح عنوان طلب البساطة في البقاء . لايخدم شيئاً ، ولايخدمهُ سوى فتاة حسناء ، منفوخة الخدين ، فارغة الرأس والقلب . عنها وعن نفسه يقول لزائره :

— هي سعيدة ، ومهما تعمل فطاهرة . فان العلم والمدنية هما قد خلقا الشر الجسدي رافقهُ الشر الاخلاقي . اني لأكاد اكون من السعادة مثلها ، اذ اني اكاد اكون من البلاهة مثلها . واذ اصبحتُ لا افكر في شيء ، فاني لم اعد أعذب نفسي . وإذ صرت لا آتي حركة ، فانني لا أخاف ان اسيء عملاً . حتى حديقتي لا اثقفها ، اشفاقاً من ان أتم فعلاً لا استطيع ان احسب نتائجه . وفي هذه الحالة اراني على تمام الاطمئنان »

فهذا الشخص ، كما ترى ، « روسو الجديد » يتكلم ، وان كان اصح كثيراً من روسو العتيق . واقع هو في نفس الحالة التي يهرب ويظن نفسه بمنجىً منها كما سترى من خبث دعابة فرانس . واذا قابلنا مثاله بأبيقور وجدنا ابيقور رجلاً واقعيًّا متمدناً لا ينكر الجمعية ويتحنط كالمومياء . هو يثقف عقله وحديقته يوميًّا ، ويبارز الفلاسفة ، ويعلم الناس . يعلمهم وربما بدون اجرة ، ويقدم حتى نفسه مثلاً . يعلم بأن على الانسان — لا قدرة فقط ، بل حتى شاء ام ابى وبالرغم مما في فكره — ان يعتني بحديقته . والاَّ ، فالنتيجة الطبيعية : من اين يأكل ؟ ومن بعض فرط ألم الانسان هل يخلص ؟ عادياً متعادلاً ، حسَّاساً ممتازاً ، ولد هذا المخلوق . ومن غابات الهمجية وكهوف السباع فقيراً خرج ، لا طعام على مائدته ولا حائط يقيه العاصفة . وليس كل من جاءت به امه في مدينة مكروهة بصاحب ثروة ، موروثة او « مرسملة » او متعوب عليها ، فيشتري بشيء منها ولو ديراً مهجوراً بعرصةٍ مُهملة ، ويكتري ولو فتاةً بلهاء تطبخ لهُ الزاد وتُريه وجهَ المرأة

وهكذا ترى . فصاحبنا الذي سيعكس فرانس أفكاره هو عن أفكاره ، كنوع مبالغةٍ في عقلية الرهبنة الاعتزالية التي تتوارى في وكرها إما لفوضى الحياة وخرابها ، كما أشار فرانس في

« حديقة أبيقور » الى حدوث ذلك في سبب ازدهار الرهبنة بانهيار امبراطورية روما ومعها جميع بنيان مدنية العالم القديم وأمن الحياة فيه ، وإما لنفس منهوكة ، مخيبة ، شاذة ، متقززة مغرقة في توتراتها العصبية مما يحيط بها ، كما يظهر في اتجاه الافكار الروسوية ، وإما أخيراً بتأثير نواحٍ معتدلةٍ من كلتي هاتين الحالتين معاً كما هو ظاهر في متفلسف فرانس هذا ، الذي مثاله الهرب من المخلوق البشري ، التخاذل عن كل عمل ، الكسل الابدي اللذيذ ، روحه ذات آصرةٍ — على وهن خيطها — بالروح العدمية المقتولة في بعض متشردي قصص مكسيم غوركي ، برغم الفرق الكبير بينهم وبينهُ ، انهم في حركة أبدية قاتمة محزنة ، وهو في سكون أبديٍّ مخدِّر

على ان فرانس قد خرق منطق صاحبه هذا بطمأنينته التجلاء ، فبدّد ما اوردت لهُ من كلماته فوق كما تبدّد نفحة نسيم بحري من ارخبيل الاغريق شتات غيوم قطنية مندوفة في سماء صائفة . وذلك حيث يردُّ عليه ، في محادثتهما التالية ، بقوله :

— لو كنت في محلّك لما شعرت بطمأنينة . من قال لك ، يا صديقي ، بأن سكونك الى هذا الدير المغطى بالطحلب واللبلاب ليس هو عملاً ذا شأنٍ في مجرى الانسانية اعظم من مكتشفات جميع العلماء ، وذا تأثير حقيقة في المستقبل ؟ — ليس هذا بالمحتمل

— بل ليس بالمستحيل ! فأنت تعيش حياةً فريدة . انت تتحدّث بكلماتٍ غريبة قد يمكن ان تجمع وتطبع للنشر . وفي بعض الظروف لا يلزم اكثر من ذلك لكي تصبح ، بالرغم منك وحتى من دون ان يكون لك اي علم بالامر ، مؤسس دينٍ يصبح إيمان ملايين من الناس ، فيجعلهم تعساء واردياء ، ويذبحون باسمك الوفاً من خلقٍ آخرين ! . .

— إذن على الانسان ان يموت كي يطمئن ويكون بريئاً

— حذار من هذا ايضاً : ففي عملية الموت اتمام فعل ذي نتيجة لا يمكن حسبان مداها ! »

هكذا جعل هذا المداعب الكبير فرانس ، هذا الابيقوري الأصيل ، المتسربلُ بجُبَّةٍ موروثةٍ في نفس الانسان عن عبقرية اخرى من اليونانيين ، عبقرية « بيرهون » ، ذلك الكاهن الاعلى في هيكل الشكوكيين ، ذلك الذي « كان ابيقورس ، في لغة معرب فينيلون ، يحب محادثته ومكالمتهُ ويلتذ بسماع قصة معيشته واحواله » — اقول : هكذا جعل اناتول فرانس الابيقوري البيرهوني في نفس الرجل الساذج محدّثه « سرساباً » بعد اكثر مما كان قد بلغ بهِ . ما ابدع وارقّ نكتة فلسفته ! ألا ان عبيراً حلواً من نفس ابيقور يفوح عليها !

ولا غرو ، فان هذا الشيخ الاشتراكي الرحيم قد كان ، فيما نعلم ، آخر وابدع كاتبٍ لمع في عصرنا ولا يضير سمعة ابيقور انتسابه اليه ، ولا حديقته تثقيفه فيها وتعليمه بين شكول ازهارها ، تحت فواكه غصونها وهيهات ظلالها الوئيدة الميول

حديقة المقتطف

الآخر !

للشاعر الالماني الشهير آرثر شنيتزلر

Arthur Schnitzler

نقلها : ايزاك شموش

شيكاغو

للشـاعر كارل ساندبرغ

نقلها : زهدي التاجي الفاروقي





آرثر شنتزلر

كاتب نمسوي الماني من اشهر كتاب العصر الحديث . وُلِدَ
سنة ١٨٦٢ وتوفي في سنة ١٩٣٣

من روائع الادب الالماني

الآخر !

للكاتب الالماني الشهير آرثر شنيتزلر

Arthur Schnitzler

وحدي !... وحدي !...

انا جالس الى منضدتي ، والمصابيح مشعلة ، الباب المؤدي الى غرفتها مفتوح ، نظري يسبح في ظلام الغرفة ، . . . الاضواء المشعشعة المنبعثة من الدور المقابلة تنعكس على زجاج نافذتي ... يا لله لقد تبدّل كل شيء !... كانت تسبل بعناية ستائر مكتبي ، وتدنيها بعضها من بعض لتمنع عن تقاربنا ، في غيرة قوية ، ضوضاء الشارع والاضواء المجاورة ....

الساعات تمر ، طفت في غرفتي ، ثم أخذت أطوف في غرفتها ، تمددت على كرسيها الطويل ، تمددت عليه بدون حراك ، وطفقت أصوّب نظري نحو النافذة التي تكشف لي عن عالم أصبح بعدها ولا شأن له . . . ثم وقفت الى منضدتها ، وأخذت بيدي اقلامها الحبرية والرصاصية التي لما تزل تعبق بأريج اصابعها . . . انحنيت بعد ذلك على موقد مدفأتها المطفأ ، وشرعت احرّك الاوراق والفحم ، فكأن كل ذلك ، وقد استحال الى رماد ، يصر صريراً حزيناً ، عند ملامسة المحرك الفظ .

***

اذهب كل صباح الى المقبرة . الخريف المتأخر تنيره شمس وقحة ، باردة... لا اكاد اشاهد الجدار الابيض عن بعد ، حتى اشعر بحرقة في عيني ... اطوف بين صفوف الاضرحة اراقب الذين يصلون ويبكون ، اصبحت اعرف بعضهم ، وما يدهشني هذه الطريقة المتشابهة التي تكاد تكون هي هي عند الجميع ، وتلك الحركات التي يكررها كل منهم ، في كل مرة ، بدقة فائقة ... اصبحت اعرف هذه

الغادة التي تتهالك على اقدام ضريح يعلوه صليب ، تجهش في البكاء ، وتذرف ذات الدموع ، وتضع ذات ازاهير البنفسج على الارض المبللة ، ثم تنهض وقد راق لون محياها نوعاً ما ، وتشرع تبتعد عن المقبرة بخطوات سريعة وثابتة ...هي تبكي شاباً في الرابعة والعشرين ، خطيبها بدون شك ... كيف تقوى على النهوض ؟ ومن اي ينبوع تستقي ذلك العزاء الذي يلمع في نظراتها كلما عمدت الى النهوض ؟ . . . اريد ان اتبعها ، وان اصرخ في وجهها : « لا عزاء ايتها المجنونة المسكينة ! » ولكن ... وأنا ؟ ... انا وقد اعتدت ان آتي كل يوم الى هنا ... عما ابحث اذن ؟

اولئك النسوة ذوات البراقع الحريرية ، والقفازات السود ، يضايقنني كثيراً ... لاشك أني مثلهن ، شاحب اللون ، منتفخ الاجفان ، ولكني وأنا ألم بشيء سام منقطع النظير ، لا احمل هذا التأثر الذي يرتسم على وجوه الآخرين ، فانظر في شيء من الحسد الى ذلك الانسان الذي تهزه ذات الرجفة التي تهزني

والآن ، فان ثائرتي تثور لمجرد الافتكار بأن جميع هؤلاء الذين يتيهون بين الاضرحة يلتهمهم نفس الالم الذي يلتهمني ، ذلك الالم الخالد الذي نعجز عن التعبير عنه ! اوه ! يا للرحمة ! جميعهم يتألمون ألمي والايام تمضي ، فتجلب افكاراً جديدة ... وتبعث آمالاً جديدة ... وتعيد بصورة اكيدة ربيعاً ينشر خضرته الصفيقة امام انظارنا ... سيعود الهواء فاتراً ... وستعود الازهار تعطر الجو بأريجها ... وستعود النساء تبتسم كما كانت تبتسم من قبل ... وسنخدع عن انفسنا مرة اخرى ... سنخدع عن انفسنا وننسى حزننا ! ....

***

أقف دائماً على بعد بضع خطوات من النجف الذي يواريها ، عندما يوضع الحجر ، استطيع ان اتكيء على درجات الضريح الباردة . وأستطيع ان انحني ، وأن أجثو على قبرها . . . لا أجرؤ الآن على الاقتراب خشية ان تنهال بعض الحصوات على نعشها ... ومع ذلك تنتابني احياناً رغبة لا تقاوم للارتماء على ذلك النجف ونبشه بأصابعي . . . ألمي لا يعرف الصبر ، هو ألم وحشي ، تصطك له أسناني ... أصبحت أبغض كل شيء ، وجميع الناس ، وعلى الاخص اولئك الذين يتألمون مثلي ....

جميع هؤلاءِ الرجال ، والنساء ، والاطفال ، الذين أصادفهم كل يوم ، يثيرون حفيظتي . . . أتمنى لو أستطيع ان أطردهم . . . وأي حزن ينتابني ، بصورة خاصة ، عندما أفكر ان احدهم جاء البارحة المرَّة الاخيرة ، اذ أحسُّ بسكون المرء ألمهِ ولاحظ انهُ يخف من يوم لآخر ، وهو يعود من المقبرة . . . انهُ عاد لا يتألم . . . لقد استيقظ ذات صباح باسماً . . . آه . . . كم أبغض اولئك الذين يستعيدون ابتسامهم !

هل يأتي يوم أستعيد فيهِ انا ايضاً ابتسامي ؟ . . . وأنسى ؟ . . . لا تكاد ذكرى شبابي تفارقني : اني لأرى نفسي أجتاز الغابة الى جانب محبوبتي . . . كان عليَّ ان أكون سعيداً جدًّا ، وقد كنت سعيداً جدًّا . . . ولكن هنالك بعض لحظات نلتهم في أحشائها كل شيء ، تلتهم المستقبل والماضي لانهما الخلود نفسه ! لم أكن قط من اولئك المتنزهين الهادئين الذين يعبرون الطريق الكبيرة ، ويتوغلون في الحقول ، ويتمددون بلطف في ظلال الغابة ليتذوقوا النسمات البليلة التي ينعشهم بها صباح منوَّر . . . كلاَّ ! لم أكن من هؤلاء ، وانما كنت أتسلق الاشجار ، لاستكشف آفاقاً أوسع ، وكنت أشاهد الطريق اذ ذاك تتلطف في السهول البعيدة حيث يحتضر الربيع . . .

في هذه الغرفة ، وازاء هذه النافذة ذاتها ، التصقت بي ذات يوم امرأة وأخذت تعانقني وتقبلني . . . رجفة باردة هزتني . . . الدقائق ، الساعات ، الايام السنون ، كل ذلك أخذ يهرب ، مسرعاً ، مسرعاً . . . انتهى عهدنا . . . دبَّ الينا الهرم . . . أدركنا النهاية . . . هكذا كنت أدنّس حبنا ، باعترافي بقابليتهِ للزوال ، وهكذا أدنّس ألمي الآن لتفكيري بأنهُ سيأتي يوم أبتسم فيهِ !

من هو هذا الرجل ذو الشعور الشقر والعيون الحزينة ؟ من يبكي ؟ الضريح الذي يزوره كل يوم كائن على بعد بضع خطوات من ضريح امرأتي . . . لقد استوقف نظري هذا الرجل لاني لم أستطع ان أبغض كالآخرين . . . هو يأتي قبلي ويبقى حتى بعد ذهابي . . . ومن المحتمل انني كنت لا أشعر بوجوده لو لم أشعر ذات يوم بنظراتهِ ترمقني في كثير من الحنان أزعجني . . . تفرست في وجههِ ، فحوَّلهُ عني شيئاً فشيئاً ، ثم أخذ يبتعد وهو محاذٍ للجدار . . . لا بدَّ اني عرفتهُ قبل اليوم . . . ان وجههُ ليس غريباً عني ! . . .

أين رأيتهُ اذن ؟ . . . في سفر ؟ . . . في مسرح من المسارح او شارع من الشوارع ؟ انهُ يشعر بحزني بصورة غريزية . . . ربما كان بعضهُ حزن كحزني . . . لعلَّ هذا الغرض يفسّر نظراتهِ ، التي لن أنساها قط ! انهُ شاب وجميل !

***

ها قد جلست مرَّة أخرى الى منضدتي ، أزهار ذابلة تحيط برسم المرأة التي كانت قرينتي ، بل سعادتي ، بل دنياي ! . . . بدأت افهم الاشياء وأقدّرها . . . الايام التي عشتها أخيراً غشبت على عقلي . . . أخيراً وجدت نفسي . . .

للمرَّة الاولى منذ شهر . عزمت على ان أشغل نفسي ، ان أفتح مكتبتي ، ان أطالع ، ان انظر في بعض الاوراق ، ان افكر . . . .

لم افعل شيئاً من ذلك . . . عدت الى المقبرة ... كان الليل قد شرع ينشر اجنحته السود . . . ليس في المقبرة احد . . . للمرة الاولى جثوت على ضريحها وطفقت أقبل الارض التي حنت عليها فوارتها تحتها ... ثم اخذت ابكي : نعم بكيت . . . لا صوت . . . لا نأمة . . . صمت رهيب . . . هواء ساكن ، بارد ... نهضت التمس الخروج بين صفوف الاضرحة من جهة الكنيسة ... لا احد ... كان القمر يسكب ضوءه على صليب ، وعلى الاحجار ، بصورة لا يمكن ان يفوتني معها وجود شخص ما . . . فلما هممت بالذهاب صادفت امرأة ، ملفحة في نقاب الحزن ، وفي يدها منديل ... اني اعرف النساء ... كانت الطريق العريضة المؤدية الى المدينة بيضاء تحت اشعة القمر ، وكنت اسمع وقع خطواتي ، لم يكن هنالك من يتبعني ، وهكذا بلغت منفرداً اطراف المدينة حيث استقبلتني بيوت الضواحي والفنادق ، وترددت في اذني اصداء الجلبة والضوضاء ...

اشعر بتحسن حالي ... الآن وقد عدت احس برغبة ملحة كنت قد نسيتها منذ زمن طويل ، احس برغبة قوية لفتح نافذتي ، لاسمع جلبة الشارع ، لاسمع اصواتاً بشرية ... ولكن الليل هرم وخرس ... تكاد اصابعي تجمد من البرد وانا اكتب ، والضوء يضطرب رغم سكون الهواء ....

كنت مستنداً الى جدار المقبرة ، وكانت صفصافة ضخمة تحجبني عنهُ . . بكّرت كثيراً لاكون الاول ، وصلت وفي غرفة الحفار مصباح يضيء ... جاء بعدي

كثيرون ، نساء على الاخص ... وفجأة ... هو ! ... اقترب بهدوء من المكان المعتاد ، اقترب بهدوء بعينيه الواسعتين الحزينتين ، ثم جثا على اقدامه ... بذلت قصارى جهدي لاراه جيداً ... فرأيته يجثو على ضريح امرأتي !!!

انقطعت عن كل حركة ... اخذت انفاسي تتردد لاهفة متقطعة ... تشنجت اصابعي وهي تشدّ على اغصان الصفصافة ... مرت دقائق ... لم يكن يصلي ... لم يكن يبكي ... واخيراً نهض وشرع يطوف بدون وجهة معينة ، كما كان من عادته ان يفعل ... فاقتربت من الضريح ، ووقفت على بعد منهُ ، مستنداً الى حاجز حديدي يكتنف ضريحاً آخر ، واذا بهِ يعود من ناحيتي وينظر اليَّ بهدوء ... ويستأنف سيره ... ويمر ... اردت ان اسأله ، ولكني لم افعل ... شيّعتهُ زمناً طويلاً بأنظاري ، الى ان اختفى وراء الكنيسة !

لا اعرف بماذا كنت اشعر ، ولا اعرف بماذا اشعر الآن ! ... ولكن سيأتي يوم ... ربما كان غداً ، اراه فيهِ ، واسأله ، واعرف كل شيءٍ !

* * *

آه يا لها من ليلة ! لا أستطيع ان أرقد ! لم تبلغ الساعة الواحدةَ ... فلماذا لا اعود الى المقبرة ؟ .... ماذا استطيع ان افعل هنا ؟ ... هيا بضع ساعات صبر ، بضع ساعات فقط ، وجنوني يعرف لهُ حدًّا ... يتضح كل شيء ولكن الى ان يتضح ؟ ... صبراً ! ... بضع ساعات وتنقضي !

* * *

أجل على ضريح إمرأتي ! ... هنالك رأيتهُ مرة ثانية !!! كنت على بعد عشر خطوات منهُ ، لماذا لم انقض عليهِ ؟ ولماذا لم أقطع عليهِ الطريق ؟ عندما شاهدتهُ يبتعد ؟ أليس من حقي ان أسأله عن اسمهِ ؟ وممن أستطيع ان استفهم اذا لم استفهم منهُ ؟

حين أراد تخطي الباب تبعتهُ ، ولكن يظهر انهُ أحسّ بي ، أجل لست مخطئاً ، لقد أحسّ بي ، ولذلك حثّ خطاه مسرعاً ، وأنا بدوري حثثت خطاي ، حتى اذا بلغت الباب ضاع عن عيني لحظة ، ثم ابصرته يمتطي سيارة ، اندفعت تعدو بهِ مسرعة ... لم تكن هناك سيارة أخرى ، فطاردته راجلاً ، ولكنهُ لم يلبث ان ابتعد عني كثيراً ... مدة طويلة ، طويلة جدًّا ، وقفت أشيّعهُ بنظراتي كانت

الطريق مستقيمة ، فما زلت أراقبهُ عن بعد حتى اختفت السيارة عن بصري ، فلبثت في ذلك المكان كما أنا الآن لا أبث أمام هذه الورقة في حالة قريبة من الجنون ! من هو هذا الرجل ؟ الذي يتجرأ على ان يجثو على ضريح امرأتي ؟ من يكون لها؟ كيف أعرف ذلك ؟ كيف أراه ثانية ؟ . . . آه ! ان ماضي بأسره يتفكك ! إن ماضي بأجمعه تعبث بهِ يد التشويه ! هل انا مجنون ؟ . . . أمن الممكن ان لا تكون قد احبتني ؟ . . . ألم تكن تقف وراء هذا الكرسي ؟ ألم تكن تضع شفاهها على جبيني وتلف ذراعيها حول عنقي ؟ . . . ألم نكن سعيدين ؟ . . . ولكن من يكون اذن هذا الشاب الاشقر الجميل ؟ . . . ولماذا بدا لي محياه غير غريب عني ؟ . . . انهُ ليخيل إليَّ الآن انني شاهدته مراراً في المسارح وفي المغاني ، جالساً تجاهنا وعيونه مسدَّدة الى امرأتي ، لا تكاد تحيد عنها ! . . . ألم يكن هو الذي وقف ذات يوم عند مرور سيارتنا ، وتبعنا زمناً طويلاً بنظراته ؟ من هو ؟ من ؟ من ؟ أيكون عاشقاً افلاطونيًّا ؟ لم تعرفهُ ؟ ولم تتجه انظارها اليه قط ؟ . . . لولم يكن الامر كذلك لعرفتهُ أنا أيضاً ، إذ كان لا بدَّ لهُ أن يبحث عن وسائل ليرانا في المجتمعات وليتحدث الينا . . . ولكن كلاّ ! . . . ربما كان يحذرني . . . انهُ تعرَّف على امرأتي ولم يتعرَّف عليَّ ، فتبعها في الشارع وتجرأ على توقيفها . . . كلاّ . . . لو كان شيء من ذلك لأعلمتني به . . . ولكن هل كانت تعلمني بهِ ؟ واذا كانت تحبهُ ؟ . . . ولكنها كانت تحبني ! . . . كانت تحبني ؟ من أين لي هذه الثقة ؟ ألأنها كانت تقول لي ذلك ؟ جميع النساء يقلنَ ذلك ! . . . والخبيثات يسرفنَ فيهِ أكثر من الطاهرات . . . أوه ! سأجده وسأسأله ! . . . وهو ، على فرض أنها أحبتهُ ، بماذا يجيبني ؟ . . . أزور ضريحها لاني كنت أحبها ، ولكنها لم تعرف ذلك قطّ ! . . . هل استطيع ان اضطره الى قول الحقيقة ؟ . . . ما العمل ؟ . . . هل أستطيع ان استمر احيا هكذا ؟ ؟ ؟ ؟

* * *

ثلاثة ايام لم اشاهده خلالها ، كنت اذهب كل يوم ، ولكنهُ لم يعد ثانية . . . الحفارون يجهلون اسمه ! ربما كان قد سافر . . . ولكنهُ سيعود ! . . . سيعود ؟ واذا كان قد توفي ؟ . . . اذا كان قد توفي لانهُ لا يستطيع ان يحيا بدونها ؟ آه ! ان المسألة تبعث على الضحك : أيكون هنالك رجل آخر لا يستطيع ان يحيا بدونها ؟

لن تكون لي سوى رغبة واحدة ، وهي ان اقول له : «سيدي المحترم . لا تذهب في تفجعك عليها الى هذا الحد ، اذ من المحقق انها احبتني انا ايضاً » اريد ان اجعله غيوراً ... قذفت برسمها تحت منضدتي ، هوذا في وسط الغرفة ، على الارض بين رسائلها ، بين رسائلها التي كانت تحفظها في خزائنها وأدراجها ، فتحتها كلها ونبشت فيها ... ماذا وجدت ؟... رسائل كنت ارسلتها اليها ازهاراً كنت اعطيتها اياها ، وشرائط حريرية ، وتذكارات ... ربما كانت بين كل ذلك زهرة مقدمة من قبله ... كيف اعرف ذلك؟ وماذا كنت ابغي العثور عليه ؟ او هل تحتفظ المرأة بشيء يمكن ان يخونها ذات يوم ؟ افرغت جيوبها ، وقلبت اثوابها ، باحثاً عن ورقة، ورقة غرامية ، تكون قد نسيتها سهواً ... لكنها لم تنس شيئاً !!!

لم اعد بعد ذلك الى المقبرة ، اني ارتجف لمجرد التفكير برؤية ذلك الضريح ! احيا الآن ساعات اخف من قبل ، لان الايام الاولى قد عبرت دون ان يصاب عقلي بخلل ، وعليّ ان اقنع بعدم معرفة الحقيقة ابداً ... كم احسد الرجال الذين يعرفون ان نساءهم تخونهم ، اذ انهم متأكدون من مصيبتهم ! وكم احسد اولئك الذين اذا امضهم الشك فاستطاعوا ان يراقبوا نساءهم، على امل ان تخونهنّ كلمة ، او نظرة ، او حركة !!! اما انا فقد قضى عليّ الهلاك ! لان الضريح اخرس لا يجيب! ويتفق لي احياناً ان انتفض في الليل مذعوراً من كابوس مخافة ان اكون قد دنست ذكرى امرأة طاهرة !!! آه ! لو استطيع ان احب ذكرى تلك المرأة التي منحتني ذلك المقدار العظيم من السعادة !!! لو استطيع ان ابغض تلك المرأة التي خانتني وعبثت بكرامتي ؟...

اعدت رسمها الى منضدتي ... لمتهُ من الارض وأعدتهُ الى مكانه ... لماذا لا استطيع ان اعبدها ؟ و ...ان اجثو امام رسمها كما اجثو امام رسم قديسة وأبكي؟

لماذا لا استطيع ان احتقرها؟...ان امزّق هذا الرسم وأن ادوسهُ بأقدامي؟؟؟

طيلة ليالٍ كثيرة ... بكاملها ... لبث نظري عالقاً بهاتين العينين ، الصامتتين ، الباسمتين ، المحاطتين بالالغاز !!!

ازاك شموش
استاذ اللغة والآداب العربية
في الجامعة العبرية بالقدس



شيكاغو

Chicago

للشاعر كارل ساندبرغ

يطالع القارىء في هذا العدد من المقتطف مقالاً نفيساً جداً في « آلية الفن » ص ٣٠٨ . وقد أشار كاتبه في آخر فصله الرابع الى أمثلة من الشعر الاميركي تمكن القارىء من استلماح تطور الآداب وتأثرها بحضارة القرن العشرين الآلية . وقد أرفق بمقاله قطعتين مختارتين اكتفينا الآن باحداها — وهي التي عنوانها شيكاغو — على ان ننشر الثانية وعنوانها التربين Turbine في عدد تال . والشاعر صاحب « شيكاغو » ولد في أميركا سنة ١٨٧٨ من أصل سويدي وقد عالج الاعمال اليدوية في حداثته وحارب في جانب أسبانيا في بورتوريكو وهو في العشرين ثم انصرف الى الادب والصحافة

يا جزارة الخنازير للعالم ...

يا خالقة الآلة ... مكدسة الحنطة ...

اللاهية بخطوط القطارات .. القابضة وسق [(١)] الشعوب .

إنك عاصفة .. أجشة الصوت .. مكافحة .. مدمدمة ..

يا مدينة ذوي الاكتاف العريضة :

يحدثونني بأنك فاجرة ، وأنا أومن بما يحدثون ...

لأني رأيت نساءك ذوات الاصباغ ...

يغرين — على ضوء مصابيح الطرق — شباب الريف

وينبؤنني بأنك معوجة ... ملتوية الخلق ..

فأجيبهم : أجل ! حقًّا ما تقولون ..

فقد شاهدت المجرم يزهق الارواح ببندقيته ...

ثم ينطلق حرًّا ليقتل ثانية

ويخبرونني بأنك وحشية ... أما جوابي فهو : —

---

(١) الوسق هو أجرة الشحن

على أوجه النساء والاطفال ... قد طالعت علائم الجوع الشرس ...
وعند ما القيت اجابتي ...
التفت الى من استهزأ بي ، وعيرني ببلدتي ...
فرددت اليهِ هزءًا بسخرية ، وقلت : —
أروني بلداً آخر .....
يشمخ برأسهِ ... وينشد بكبريائه ...
ليكون حيًّا ... فظًّا ... قويًّا ... داهية ... !
« أنظر اليهِ يرشق الاعمال المكدسة المنهكة باللعنات الحارة ...
هذا العملاق الجريء القمده !
الذي يواجه المدن الصغيرة متجلّياً في الفضاء » (١)
انهُ ضار كالكلب ، يلغ بلسانه وراء العمل ...
محتال كالوحش الذي يهيم في الفلاه .
انهُ عاري الرأس ... يجرف ، يدمر ، يخطط ...
يبني ... فيهدم ... ليبني ثانية ...
وسط الدخان ، يكلل الغبار فمه ، يضحك عن أسنان بيض ،
تحت عبء القدر المرعب ، يضحك كما يضحك الصبي الغرير ...
يضحك كأنما هو محارب ساذج لم يخسر معركة واحدة .
يضحك لان تحت معصمه يضرب النبض ... وبين ضلوعه قلب الشعب .
يضحك ضحكات الشباب العاصف ، الاجش الصوت ، المكافح .
نصف عريان ... ينضب عرقاً ...
فخور لانهُ جزار الخنازير
خالق الآلة ... مكدس الحنطة ...
العابث بخطوط القطارات ... القابض وسق الشعوب
[ترجمة : زهدي التاجي الفاروقي]

---

(١) في الاصل : —

"Hinging magnetic curses
Amid the toil of piling job on job,
Here is a tall bald slugger
Set vivid against the little soft cities.

باب الاخبار العلمية

العلم واذاعته وفوائدها (١)

عند ما شرّفني حضرة مستشار الاذاعة الاستاذ محمد سعيد لطفي بأن اجعل «العلوم المبسطة» الموضوع العام الذي تدور من حوله احاديثي المذاعة لبّيت عن طيبة خاطر . لبيتُ لانني موقن ان نواحي متعددة من المباحث العلمية تنطوي على كثير مما لا يبلغهُ الخيال احياناً من المتعة الذهنية الخالصة ولانني اعتقد ان تحبيب العلم الى الناس انما هو توطئة لا بدَّ منها لخلق بيئة روحية تُعزُّ العلم والمشتغلين بهِ فتنجب العلماء . ولست اعرف امة واحدة في هذا العصر ، استطاعت ان تبلغ شأواً بعيداً فيهِ الاَّ بعد ان خلقت هذه البيئة . وأنجبت هؤلاءِ الرجال . وعلاوة على ذلك وذاك ، أنني أرى بالاختبار ان العلم الصحيح ، يطبع طالبهُ بالصفات الروحية المثلى ، بالصبر والصدق والانصاف والاخاء ، فاذا ساورهُ الغرور وفاخر بما ادرك من علم وقوة ، فلينقلب الى كتاب من كتب الفلك الحديث ، او ليرسل طرفهُ في هذه العوالم المنثورة في رحاب الفضاء وفي ذهنه شيء من تلك الكتب ، يعرف عندئذٍ مدى جهلهِ ومبلغ ضعفهِ فتدركهُ سجية التواضع والدعة . ان العلم يثقف العقول فيدنيها من قدس الحق لانهُ يجهزها بوسائل للبحث عن الحق . ويعلمنا ألاَّ نقنط حين تحدق بنا المصاعب لان العلم لا يتقدم ، وهذه المخترعات العظيمة لا تتمُّ ، الاَّ بالبحث الدقيق والصبر الجميل والمثابرة التي لا ينقطع حبلها . ثم أن كلَّ خطوة يخطوها العالم الى الامام توقظ فيهِ ذلك الحبور الروحي الذي كان ينسب الى الحكماء الاقدمين عند ما تأخذهم نشوة الفكر الاعلى

يضاف الى هذا ان غرض العلم الأَبعد غرض روحاني : هو تحرير الناس من ربقة الاستعباد للقوى الطبيعية بتوفير الراحة والرفاهة للجسم فيتحرر العقل ويتسع امام النفس افق المعرفة والفهم . ولقد صدق من قال ان المعرفة تحرِّر المستعبدين لا الثورة

على ان هذا لا يعني : سيداتي وسادتي ، ان العلم خير محضٌ . ضلَّ من يحسب ذلك ومجرَّد الاشارة الى معدات الحروب الحديثة وما يصحبها من ألم وويل يكفي . ثم ان الحضارة الحديثة مصابة بالتواء في اجتماعها وعرج بما تخلقهُ الآلات الجديدة من تعطيل العمال عن العمل وإقامة شبح الفاقة والعسر جنباً الى جنبٍ ووجهاً الى وجهٍ مع تمثال الثروة والمتعة

الاَّ مردَّ هذا وذاك ليس الى العلم نفسه . فهو يعطينا الاسمدة بيد والمفرقعات بأخرى ،

---

(١) كلمة أذاعها رئيس تحرير المقتطف في العيد الرابع لمحطة الاذاعة المصرية في ٣١ مايو ١٩٣٨

والاشعة السينية والمخدرات الطبية بيد، والمدافع الرشاشة والغاز الخانق والمغيبات بأخرى ، والمفرقعات نفسها تستعمل لشق الترع وفتح المحاجر كما تستعمل للهدم والقتل . والصلب لا يحصر استعماله في صنع الأسنة وسك السيوف بل هو يستعمل ايضاً في صنع المحاريث والسيارات والحصادات وسكك الحديد. فالعلم بحد نفسه لا يخدم اله الحرب دون اله السلم ، وانما يعود الفرق بين احسان الاستعمال واساءته الى نفوسنا وشهواتها وأغراضها الادبية . هنا السر مكشوف. ذلك بأن قوة الانسان قد سبقت حكمتهُ في احكام استعمالها . فالعلم لا يغير رغبات الانسان الاصلية وانما يمهد له سبيل تحقيقها . هنا نخرج من ميدان العلم الى ميدان التعليم . بل هنا نخرج من العلم الى الاجتماع . فلو ان العلماء كانوا أنفذ بصيرةً ورجال السياسة أبعد فهماً ورجال الاعمال أقل عناية بالكسب الفادح ورجال الحكومات اعظم اقداماً وأبعد بصراً، ورجال التعليم أشد انطباعاً بمبادىء الاسلوب العلمي ، لكان في المستطاع ، ان يوقى المجتمع الحديث جانباً غير يسير من الرجة والقلق اللذين أصاباه من ارتقاء العلم في العصر الحديث

هذه البيئة الروحية العالية التي يتجب فيها العالم الصحيح ويكرم — هي على مدى فهمي — الغرض الذي تبغيه ادارة الاذاعة العربية المصرية ، من نشر الاحاديث العلمية المبسطة ، على اختلاف مذيعيها وموضوعاتهم . وفي وسعي ان اقول متواضعاً ان مستواها في الطبقة العالية مادة وبياناً . والفضل في ذلك عائد الى مستشار المحطة وأعوانه الافاضل . فأنا اذ اشترك في هذا العيد ، اشارك بوجهٍ خاص في الاحتفال بتقدم الفكرة العلمية في البلاد ، وتشجيعها باذاعتها على اجنحة الاثير

* * *

تجاور النبات وتأثيره في نموها

كثيراً ما تفضي المكتشفات العلمية الى ارتقاء العلم المحض . ومن أحدث الادلة على ذلك نفوذ باحث الماني يدعى الدكتور هانس موليش Molisch الى حقيقة جديدة عن نمو النبات ، بالاستناد الى اكتشاف عملي في انضاج الثمار

فقد ذاعت في السنوات الاخيرة طريقة لانضاج الثمار بتعريضها لغاز الاثيلين. وقد أشرنا الى ذلك في حينه في المقتطف . ومن الامثلة على ذلك ان تعريض الليمون والموز لغاز الاثيلين مدةً قصيرة ينضجهما طعماً ويحوّل لونهما الى الاصفر خلال بضعة أيام . ثم تبيَّن بعض الباحثين انهُ اذا وضعت ثمار نضجت مبكرة قرب ثمار متأخرة النضج ، أثرت الاولى في الثانية فيسرُع نضجها

هذه الحقائق والمشاهدات حملت فريقاً

من الباحثين ، بينهم الدكتور موليش ، على اجراء تجارب بغية الوصول الى سر ذلك . فأسفرت التجارب عن اشياء تستوقف النظر بل وتبعث على الدهشة

***

وقد دارت احدى هذه التجارب على فروخ نبات من فصيلة الفول وفروع شجرة تفاح

أخذ الدكتور موليش أولاً بزور النبات الذي من فصيلة الفول وبزور الحمص وزرعها في حوجلات تحتوي على رمل ومحفوظة في الظلام . وعدَّد الحوجلات التي على هذا المنوال ولكنهُ وضع في ثلاث منها تفاحاً ناضجاً . وما لبث حتى تبين فروقاً تستوقف النظر في فروخ البذور بعد انتاشها . فبعد خمسة أيام تبين ان سوق الفروخ في الحوجلة التي لا تحتوي على التفاح يبلغ طولها ٨٥ مليمتراً حالة انها لا تزيد في الحوجلات المحتوية على التفاح على أكثر من أربعة مليمترات . هذا في ما يخصُّ نبات الفول . أما سوق الحمص فكانت المقاييس ٧٥ مليمتراً و ٥ مليمترات على التوالي . ففروخ الفول كانت أبطأ نموًّا حيث كانت الحوجلة حافلة بالابخرة الصاعدة من التفاح الناضج . وكذلك فروخ الحمص . وكانت الجذوع في الحوجلات النقية الهواء مستقيمة حالة انها كانت معوجة في الحوجلات التي فيها التفاح

وقد مكنتهُ هذه التجربة بعد تنويعها من ان يثبت ان التفاح لا يبطيء نمو النبات بل يزيدهُ اذا كان مدى تأثيره في النبات قصيراً . وهذا القول يستقيم مع ما يعرف عن تأثير السموم والمواد المهيجة في الجسم فانها اذا كانت مركزة أضرت بهِ ولكنها اذا كانت مخففة كانت ذات فائدة

وتأثير التفاح في النبات المجاور لهُ ناشيء عن الغازات المنطلقة من التفاح . هذا الغاز هو غاز الاثيلين وهو ينطلق في جوّ الحوجلة فتتناولهُ النباتات المنتشة فيؤثر فيها التأثير المتقدم ذكرهُ

ثم جربت تجارب أخرى ظهر منها ان ثماراً أخرى كالكمثرى والخوخ والدرّاقن تؤثر تأثيراً قويًّا في الفول وغيرهِ من الخضراوات . وللبرتقال والبرتقال اليوسفي والليمون والموز والمشمش تأثير من هذا القبيل ولكنهُ أضعف من تأثير الثمار الاولى

ثم نوعت التجربة فبدلاً من ان يوضع التفاح كاملاً في بعض الحوجلات وضع قشره في بعضها ولبهُ في البعض الآخر ، فظهر ان تأثير القشر ضعيف وتأثير اللُّب قوي . وامتحن تأثير الجذور فظهر ان الغازات التي تطلقها تؤثر أيضاً تأثيراً متفاوتاً في نمو النباتات المجاورة لها

***

ومن النتائج التي أسفرت عنها هذه التجارب ان الغاز المنطلق من التفاح يعجل سقوط الاوراق من الغصون

أكبر جزيء في الجسم

كشف الدكتور سترن Stern والدكتور ويكوف Wyckoff وهما من اساتذة جامعة يايل الاميركية صبغاً جديداً احمر في الكبد وفصلاهُ مستقلاً باستعمال جهاز جديد من اجهزة القوة الطاردة ، فاذا الجزيء يفوق جزيء الحمر (الهيموجلوبين) خمسين ضعفاً حجماً . وقد تسنىَّ لهما هذا الكشف خلال بحثهما في كبد الفرس عن انزيم enzyme كبير الشأن يدعى كاتالاز Catalase

قال الدكتور سترن عند قراءة رسالته في هذا الموضوع أمام الجمعية الكيمياوية الاميركية في فرعها النيويوركي ما يلي : « وهذا الصبغ الاحمر يختلف على مدى ما نعلم عن أية مادة أخرى في الكبد او غيرها » ولم يعلم من خواصهِ بعد ما يمكن كاشفيه من وضعهِ في طبقة معيَّنة من المواد الكيمياوية المعروفة . ولكن وزنهُ الجزيئي يختلف من ٣٠٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠٠ ولا تعرف مادة أخرى في اجسام الحيوانات العليا يمكن ان يبلغ جزيئها هذا الحجم . الاَّ ان جزيء « الهيموسيانين » وهو صبغ يوجد في دم الحيوانات غير الفقرية ويحتوي على النحاس قد يقاربه

ولا يزال العمل البيولوجي الذي يقوم به هذا الصبغ الاحمر الذي كشفه سترن وويكوف غامضاً ولكنهما يريان ان له صلةً باستعمال الاوكسجين في جسم الحيوان

* * *

أتغشى بلوطو طبقة من الهواء السائل ؟

لا يخفى على قراء المقتطف أن « بلوطو » هو اسم السيار التاسع في النظام الشمسي الذي كشف في شهر فبراير من سنة ١٩٣٠ في مرصد فلاغستاف بولاية اريزونا الاميركية وكان لمرصد حلوان شأن كبير في تعيين عناصرهِ

ومن رأي السر جيمز جينز العالم الانكليزي ان هذا السيار تغشاهُ طبقة من الهواء السائل لشدة بردهِ الناشىء عن بعده عن الشمس . وان هذه الطبقة تفعل فعل المرآة ، فلا يرى الضوء منعكساً الى مراقبنا الاَّ من وسطها أما الضوء المنعكس عن أطرافها فلا يصل الارض . ولذلك يتعذَّر ان يتخذ اشراق السيار البادي لمراقبنا أساساً لحجمهِ ، فهو اكبر مما نظن

فاذا اخذ العلماء بهذا الرأي ، استطاعوا ان يفسروا تأثير هذا السيار في حركة السيارين اللذين قبلهُ وهما نبتون وأورانوس . وهذا الاضطراب في فلكها هو ما حمل الاستاذ بكرنج على القول بوجود سيار وراء نبتون قبل عشرين سنة او أكثر ، فلما كشف « بلوطو » تعذَّر على العلماءِ ان يوفقوا بين صغر حجمهِ البادي وتأثيره في فلكي نبتون واورانوس فتحيَّروا

تاريخ كلية الجراحين الملكية بلندن

انتخب الدكتور محمود بيومي الجرّاح المصري والاستاذ بكلية الطب المصرية زميلاً في كلية الجراحين الملكية بلندن وهو اول مصري انتخب زميلاً وأول اجنبي من ثلاثين جرّاحاً انتخبوا للزمالة فيها في الاربع والستين السنة الماضية

كانت الجراحة في العصور الوسطى يمارسها الحلاّقون، وفي سنة ١٥٤٠ اصدر البرلمان الانكليزي قانوناً يقضي باتحاد هيئتين مختلفتين كانتا قائمتين في ذلك الوقت احداها تعرف باسم حلاّقي لندن، والاخرى باسم جرّاحي لندن. وكان لا بد من تعيين اربعة رؤساء سنويًّا: اثنين من الحلاّقين، واثنين من الجراحين وقد حظر على الحلاّقين ان يقوموا بعمليات جراحية فيما عدا خلع الاسنان كما حظر على الجراحين ان يمارسوا مهنة قص الشعر والحلاقة ...

وفي خلال القرن التالي تقدمت الجراحة تقدماً كبيراً ولم يأت عام ١٦٨٤ حتى وجد الجرّاحون ان اشتراكهم مع الحلاقين لا يلائمهم ويسبب لهم مضايقة كبيرة . وأخيراً أصدر البرلمان في سنة ١٧٤٥ قانوناً آخر يقضي بحل الاتحاد وانشاء هيئتين مختلفتين . فتألفت هيئة الجرّاحين باسم أساتذة فن الجراحين بلندن وهذه الهيئة تطورت مع الزمن حتى صارت كلية الجراحين الملكية بانجلترا وهي تضم اليوم ٢٠٤١٦ عضواً

والكلية الملكية ذات شهرة عالمية وهي تضع قواعد الامتحانات وقبول الاعضاء وتنظر في جميع المسائل الخاصة بسوء سلوك الزملاء والاعضاء ولها سلطات مطلقة . وكل عضو او زميل يعزل بقرار من المجلس ، يفقد جميع حقوقه وامتيازاته وتصبح شهاداته (دبلوم) او شهاداته العلمية ملغاة

وزمالة كلية الجراحين الملكية امتياز تصبو اليه النفوس كثيراً ، وفي الامكان الفوز به بتأدية امتحان صعب دقيق ينقسم الى قسمين : الاول في التشريح والفيسيولوجيا ، والثاني في البثولوجيا وفن جراحة العظام والجراحة عامة وغيرها من العلوم التي يرى المجلس من وقت الى آخر انها لازمة

وفي لندن الآن خمسة عشر جراحاً مصريًّا يعملون لتأدية هذا الامتحان في المستشفيات التي يعترف بها المجلس للتعليم . ويبلغ عدد الذين نالوا لقب زميل بعد الامتحان ٢٣٣٣

ويمنح المجلس من وقت الى آخر الزمالة الفخرية لاشخاص عظماء ممتازين. وقد نال المغفور له الملك فؤاد الاول هذا اللقب في أغسطس سنة ١٩٢٩ ويحمل الدكتور علي باشا ابراهيم هذا اللقب الفخري ايضاً وقد ناله في نوفمبر سنة ١٩٢٨

أما شرف الزمالة بالانتخاب فيندر ان يمنح لطبيب . ولم ينتخب في الاربع والستين السنة

الاخيرة سوى ثلاثين زميلاً وهم يشملون اشهر الجراحين البريطانيين ، والدكتور بيومي هو أول جراح اجنبي أنتخب زميلاً لهم

وتقضي لوائح المجلس بان يكون التفوق في الجراحة او في العلوم التي لها علاقة بالجراحة ، أهم المزايا التي تبرر التوصية بقبول المرشح زميلاً ولا يجوز تقديم طلب شخصي الى المجلس ولا يقبل ترشيح مباشر ولكن يجوز ان يعرض على المجلس اقتراح بقبول عضو مضى عليه عشرون عاماً على ان يوقعهُ ستة من أعضاء المجلس يجاهرون بأنهم يرون ان الشخص المرشح يصلح للقبول في زمالة الكلية . وبعد ذلك يقترع المجلس على قبول شخص يرشح بهذه الطريقة في الاجتماع الذي يعقده كل ثلاثة أشهر . وعلى كل عضو في الكلية يقبل بهذه الوسيلة في زمالتهم ان يتعهد امام المجلس بما يلي فيقول:

« أنا فلان العضو بالكلية الملكية للجراحين بانكلترا : اعلن باخلاص وصدق انني سأراعي ، ما دمت زميلاً في الكلية المذكورة، قوانينها وان اطيع كل نداء مشروع يصدر بامر مجلس الكلية ما دام ليس لديَّ عذر معقول يحول دون ذلك »

* * *

اكبر ألسنة الشمس

في المقال « الكلف والاشعة الكونية » —راجع صفحة ٢٧٤ من هذا العدد — يجد القارىء اشارة الى الالسنة التي تندلع احياناً من سطح الشمس ويبلغ ارتفاعها عنهُ ٢٥٠ الفاً من الاميال احياناً

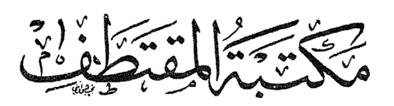
وقد اطلعنا ونحن نكتب هذه السطور على ان علماء مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا رصدوا اكبر لسانٍ من هذه الالسنة النارية سجلتهُ الآلات الفلكية على ما يعلم، اذ بلغ ارتفاعهُ عن سطح الشمس بحسب القياس الذي قام بهِ الدكتور بتيت Pettit ٩٧٠ الف ميل وكان لايزال آخذاً في الارتفاع عندما اخذت الصورة التي بني عليها هذا القياس. واعظم ارتفاع سابق لاحد هذه الالسنة كان ٦٧٠ الف ميل، رصد وقيس في ١٧ سبتمبر ١٩٣٧

الطيران حول الارض

في خلال شهر يوليو الماضي تمكن الشاب الثري الاميركي رتشرد هيوز من الطيران حول الارض في اقل من اربعة ايام فتخطى بذلك الرقم القياسي الذي ضربهُ ويلي بوست اذ طار حول الارض في سبعة أيام . ولكن بوست كان يطير وحدهُ بطيارة قديمة. واما هيوز فاستقلَّ طيارة من احدث طراز وكان معهُ رفيقان . ولكلتا الرحلتين فائدتها في شق الطرق الجوية فالاولى مهدت الطريق والثانية اثبتت امكان زيادة السرعة واستعمال طيارة كبيرة تتسع لاكثر من واحد

***

— هل تعلم ان من الدائرة القطبية الشمالية ينابيع حارَّة تبلغ درجة حرارتها ٩٠ درجة مئوية ؟



النزعة العلمية في الادب الحديث

كما لمستها في ثلاثة كتب

الحياة في عصرنا تفهم على ضوء العلم الحديث ، ومن لم يتزوَّد من الثقافة العلمية استغلقت عليه اسرارها وضلَّ في تيهها سواء السبيل

تعقدت الحياة عما كانت عليه في القرون الوسطى ، حين كان العلم وليداً وكلما اتسع افقهُ وبعدت اغواره ازدادت تعقيداً ، فكيف بثقافة القرون الوسطى وما نحا نحوها وتفرع عليه نفهم هذه الحياة الراهنة ؟ وأحب ان لا يفهم من الحياة معناها الشائع وصورها المبذولة للجميع ، وانما اريد الحياة الكبرى ، حياة الاحياء والجمادات والعوالم المنظورة وغير المنظورة ، قبل ان يخلق الانسان وبعد ان عاش متسامياً من الكوخ وسط الغابة الى ناطحات السحاب في المدينة العصرية

هذه الحياة التي أعنيها هي قصة في اجزاء لا عدد لها ، ورواية شهد الزمن فصولها فوق مسرح لانهائي . ووعى التاريخ قليلاً من مشاهدها لعلهُ أتفهها . وما كان التاريخ ليعي هذا النزر اليسير من رواية الحياة ، لو لم يرسل العلم اشعته الكاشفة على اشلاء الحضارات المطمورة وينبش طبقات الارض عن هياكل المخلوقات البائدة ويجوس جهابذته خلال الادغال والمجاهل بحثاً عن القبائل البدائية والجماعات الفطرية التي تمثل الانسانية في اوائل نشأتها ، دع عنك كشف العلم أسرارَ النفس والطبيعة — او ان شئت الدقة فقل بعض هذه الاسرار

فاذا طالبنا اديب اليوم وكتّاب هذا العصر — فضلاً عن المستنيرين — بالتوفر على الثقافة العلمية ، لم نكن مغالين او متجنين . فهكذا كان دأب الاديب والكاتب والمفكر في سائر العصور . ومن قراءة السير ، يتضح ان الجاحظ وأرازموس وفولتير وجيتا وبرنارد شو وألدوس هكسلي — وهم يمثلون الكاتب والاديب والفنان في مراحل ثقافية اجتازها العلم الحديث — استوعبوا ما وجدوه من زاد المعرفة في رفاتهم

***

مهدت بهذه المقدمة للكلام عن ثلاثة من كتّابنا اعتقد انهم في طليعة المجددين على النمط المتقدم ، هم الاستاذ فؤاد صرّوف والدكتور بشر فارس والدكتور حسين فوزي — اتصلت

بالاول عن طريق صديقي العلامة العصامي في تحصيل الثقافة العلمية اسماعيل مظهر ، وعن طريق إنتاجه الغزير الذي قلما يشذ عن دائرة العلم — واتصلت بالثاني عن طريق المرحوم الاستاذ جورج طنوس الصحافي الذي ينسب اليه فضل ادخال العنصر الاستفزازي في اخبار الصحف اليومية ، وكان ذلك قبيل سفره الى باريس للحصول على الدكتوراه في الادب — واتصلت بالثالث عن طريق مدرسة الطب ، فقد انتظم طالباً فيها وأنا على وشك الرحيل عنها ، وتعاونّا — هو وأنا ومحمود تيمور ومحمود طاهر لاشين على خلق القصة المصرية ، وانشأنا لها « مجلة الفجر » في سنة ١٩٢٥ —

الاستاذ فؤاد صرّوف ، اكبر منافس لي ، بحكم عملي الصحفي الرئيسي ، فقد حذق تبسيط الثقافة العلمية وجعلها سائغة للجميع ، وأنا ارتزق من هذا الوجه. والوضع الطبيعي ، أن لا أرضى عنهُ — الوضع الطبيعي بين أهل هذا الزمن وكل زمان — لكنني شاذ ، وأحمد الله على هذا الشذوذ ، لانني لا أعيش لآكل الخبز ، وليس تبسيط العلم بالسبيل الوحيد لملء البطن والجيب ، والخير موفور والرزق الحلال كثير ، فلا داعي لاجتواء الفضلاء وبخس الناس أشياءهم

وذهب الاستاذ صرّوف بفضل آخر عظيم ، لاغنى للنهضة العربية الشرقية عنهُ ، وأعني بهِ نقل العلوم الى لغة الضاد نقلاً صحيحاً ، ولقد وفق — بمفرده — إلى وضع مصطلحات عديدة تعطيه حق المطالبة بحشده في زمرة اعضاء المجمع اللغوي الملكي

وهذا الذي أسلفت لا يقاس بقدرة الاستاذ صرّوف على القصص ، فأني والله دهشت حينما طالعت كتابه « أساطين العلم الحديث » في جلسة واحدة استغرقت ليلة كاملة من غروب الشمس الى شروقها

هؤلاء هم أبطال الانسانية حقًّا ، لا فريق السفّاحين . . . هؤلاء شيدوا الحضارة الراهنة. الآخرون هدموا في أسسها واذا وجدتهم بنوا وشيدوا فبأيدي العلماء وبمادة العلم أقاموا الصروح ، بأنكار الذات وحب الحقيقة والتجرد عن شهوات الحياة والتسامي عن مغرياتها ومشاغلها وأطماعها ، فكرة واحدة عظيمة استولت عليهم واستنزفت جهودهم هي الكشف عن أسرار الطبيعة وقوانين الوجود بما فيه من صامت وناطق وحي وميت

تلك قصص أعجب من حكايات الغيلان والشطار والسحرة والمردة ، وهي مع ذلك حقائق لم ينسجها خيال « أمنا العجوز »

مغامرات وقعت ، لا ريب فيها ، وصراع مع الفناء ، واستنباط للرفاهية من الادقاع او العدم ، واستدرار للخير من ينابيع المحنة ، وبركات تفيض نوراً ، كل هذا قرأته ، فكأني طالعت الجزء الخامس من قصص الف ليلة وليلة

هذا من جهة اللذة الفنية والاستهواء الروائي ، أما المعلومات العلمية الصحيحة ، فقد حشد الاستاذ صرّوف — بطريقة دس الترياق في الدسم — في كتابهِ ما يغنيك عن الانتساب الى كلية العلوم

ليس فيا قدمت مبالغة ، وانهُ مما يجب ازجاؤه للاستاذ صرّوف . فلأنتقل الى الدكتور بشر فارس معتذراً عن إفلاسي بضيق المقام

هذا الاديب الممتاز ، والشاعر المبدع قد عبَّ من فلسفة برجسون التي تعتبر وليدة التزاوج بين الفلسفة بمعناها العريان وبين العلم الحديث ثم هو قد حذق طريقة البحث العلمي في اللغات ، لا سيما العربية ، تلك التي تردّ اللفظة الواحدة الى منابتها في مجاهل الماضي ، وانها لرحلة عجيبة مضنية يسافر فيها الباحث دهوراً في طرق تعرج على صنوف الثقافات واجناس الشعوب . ويظهر ان الدكتور الفاضل ، قد درس «فرويد» الى جانب دراساته الشعرية والفنية . وأعرف انهُ يندس في تضاعيف الحياة هنا وفي أوربا وفي الشرق الشقيق ، فاحصاً ملاحظاً . وقد نضج في العام الاخير عن قصة « رمزية » هي الاولى من نوعها في الادب العربي ، صدَّرها بمقدمة جاءت بذاتها عملاً أدبيًّا رائعاً . ومهما يكن رأي النقاد فيها ، فأني اعتبرها ثمرة لثقافتهِ العلمية — هي شرارة انبعثت من قلب فنَّان جعلهُ واعياً وجعلهُ الفن منتجاً ، ومثل هذا العمل الفني لا يبدعه فنّان متخلف عن عصرنا ثقافة ونظراً الى الاشياء واستشفافاً للمستور من خلال الظاهر المرئي

ويقيني ان الدكتور بشر فارس لم يتحفنا بعد بأشهى منتجاته الفنية ، كالدكتور حسين فوزي حذوك الفذ بالفذ . فقد زاملت الدكتور فوزي في مدرسة الطب وصاحبتهُ في حياتي الادبية ، أو ناضلنا معاً في سبيل مثل أعلى نشدناه هو : خلق أدب مصري صميم ، وتحرير العقلية المصرية من العبودية للماضي والحاضر ، وبالطبع أدب مصر وعقلية مصر هما أدب العروبة وعقلية العروبة

كتاب « سندباد عصري » هو صرخة العقل المتحرر مرتاعاً من جمود الشرق الهندي واحتجاج المفكر العصري على خرافات أزمنت ومدها الطغيان والجهل بأسباب الحياة فعاشت سخرية الفهماء أجمعين

هذا الكتاب ، حديث نفس برمة وثَّابة ساخرة ، وجدت في الهند للفكاهة — الفكاهة حتى تسمو فتعود بكاء وعويلاً ، لكني مع اغتباطي بنجاحهِ ، اطلب المزيد وأغلب الظن اني سأهنىء نفسي مرة اخرى وزيادة بنجاح زميلي مدير معهد الابحاث المائية

***

ايها الاخوان الثلاثة لقد هجوتكم بذلك المديح الاعرج فاغفروا لي ما تقدم من ذنبي

احمد خيري سعيد

مجلة الدراسات الاسلامية

Revue des Etudes Islamiques. Ed. Geuthner, Paris

صدر الجزء الرابع لسنة ١٩٣٧ من مجلة « الدراسات الاسلامية » التي يصدرها المستشرق المعروف الاستاذ لويس ماسينيون من أعضاء مجمع اللغة العربية الملكي في مصر . ومضمون هذا الجزء أربع مقالات مسهبة . الأولى في أمثال وطلاسم كردية بقلم المسيو لِسكو — والثانية عن المسلمين في سورنام (الجويان الهولندية) وهم خليط من الجاويين والهنود ويبلغ عددهم نحواً من ٤٢٠٠٠ ، ولهم تشريع جديد خاص بهم يساير حدود الدين الاسلامي ، وتاريخ هذا التشريع ٣٠ مارس ١٩٣٧ ، وهذه المقالة بقلم المسيو بوسكيه الاستاذ في جامعة الجزائر — والمقالة الثالثة كشاف للصحافة الوطنية في تونس ، وفيه أربعة أجزاء : الصحافة العربية باللغة العربية، والصحافة العربية باللغة الفرنسية، والصحافة العربية — اليهودية، والعناوين الثانوية للصحف العربية واليهودية . وفي خاتمة هذه الاجزاء جدول يبين عدد الصحف التي ظهرت في تونس من ١٨٦١ حتى ١٩٣٧ والمقالة بقلم المسيو زفادوفسكي — وأما المقالة الرابعة فبيان منطقي مفصل للحوادث الجارية في ايران وافغانستان والشرق الاقصى ، بقلم السيد حمزه محفوظ . وهذه الحوادث تنبسط على الشؤون الاجتماعية مثل الحركة النسائية ، والاقتصادية مثل تقدم الصناعات ، والثقافية مثل التعليم الجامعي

وخلاصة هذا الوصف ان « مجلة الدراسات الاسلامية » لا تزال تسير في الطريق التي خطتها لنفسها وهي الالمام بما يجري في الشرق العربي والبلدان الاسلامية لهذا العهد . والمجلة اذن خير معين لتعقب ارتقاء الامم الاسلامية وتتبع تحول الذهنية العربية ب .

قصص وشعر

١ — ﴿كان ما كان﴾ عرفت الاستاذ ميخائيل نعيمه القصصي بعد ان عرفت فيه الاديب الناقد، وقبل ان أعرف فيه المفكر الفيلسوف. وكان اول ما قرأت له منذ سنوات قصة « العاقر » ثم رواية « الآباء والبنون » فقدرت في قصصه ذلك الضرب من الفن القصصي القائم على التحليل النفسي والتصوير الدقيق للبيئات وهو الضرب الذي برّز فيه كتّاب الروس. ولعلّ لاقامة كاتبنا في الروسيا ودراسته لآدابها أثرها في خلق هذا الروح وبثه في أدبه . وهو أرقى الوان هذا الفن

وفي الشرق ، في نفوس أبنائه، ثروات لهذا النوع من القصة لان في الحياة الساذجة التي يحيونها وفي العواطف والاحساسات والاستسلام للقدرية التي تستولى على هذه النفوس ما يساعد

الكاتب على التناول والدرس . لهذا كان تقدير أدباء العربية لادب التحليل النفسي لا يقل عن تقدير أدباء الغرب للقصة الروسية واستقبالها الاستقبال الممتاز

فلما أخرج الاستاذ نعيمة للناس مجموعة « كان ما كان » لمست فيها كل عناصر هذه الحيوية التي تضمن لهذا الضرب من القصة خلوده . وفي قصتيه « ساعة الكوكو » و « سنتها الجديدة » بساطة في الموضوع فلا تهويل ولا حوادث مفاجئة الاَّ ما يضرب القدر بهِ في سخريته غير ان المؤلف خلق لريشتهِ ميدانها الفسيح في تصوير هاتين الشخصيتين « خطار » و « ابو ناصيف » وقد تجاذبتهما خواطر واحساسات تهبط الى اعمق الاغوار ثم تعلو فترق حتى تشف عن كل بساطتها تصويراً بارعاً

وفي القصة الاولى بنوع خاص أدقّ تصوير للمدنية الغربية في اصطدامها بالروح الشرقي . ولعلّ هذه الفكرة العابرة في القصة القديمة هي الاساس الاول الذي بنى عليهِ الاستاذ ميخائيل صورتهُ الرائعة للمدنية الاميركية فيما بعد من كتابه عن جبران تحت عنوان « تمخضت الفأرة فولدت جبلاً »

واذا كانت قصص هذه المجموعة من مواليد سني الحرب وليس فيها ما تجاوز هذا الحدّ فعسى ان لا يضن المؤلف على قرّائه المعجبين بأدبهِ، وبآثاره بعد تلك السنين في الناحية القصصية

***

٢ — « المجدلية » ان اروع ميدان للشعر هو القائم على التفكير القصص الديني فإن في هذه الناحية صوراً للشاعر البعيد الخيال ومجالاً لخواطره ، ولا يعنينا في ذلك شطط الشاعر او اعتداله وانما يعنينا من اثره قدرته على تناول موضوعهِ واداؤه واتجاه فكرته ومرمى غايته ودقة تصويره

وقد تناول الاستاذ سعيد عقل قصة مريم المجدلية تناول الشاعر البعيد الغور فصوَّر لنا هذه المرأة الخالدة خلود اسم يسوع اجمل صورة كما رسم ظلالاً للمسيح هي غاية في الفتنة والسحر . وقد وفق الشاعر الى المساوقة بين جرس الفاظه وبين الفكرة التي يسوقها فكل لفظة تعطى دورها وتعبر طريقها في نغم منسجم وبذلك خُلق للقصيدة جوٌّ من الخشوع والتأمل ، فانبعثت في ثنايا سطورها خيالات عابرة من قرون غابرة تتلمس النهوض فيغمرها هذا الرنين المتدفق

وللدلالة على توفيق الشاعر في صوره أنقل عنهُ هذه الظلال التي تعكس لنا صورة المسيح

كان ، في ذلك الزمان ، على تــــلٍّ صغير ، مخضوضر الجنباتِ
شاعر رقّهَ الرضى شفتيه ينثر الياسمين في الكلماتِ
قام بين الامواج من نظر النـــــاس ومن مسمع الذرى الواجماتِ

يغدق الآي في الانام، ويرمي للزمان الحادي بعيد صداه
نغمات يموج فيها : يسوع هيهات يرفض عنها : الله

***

تتكى وجهة العلى بين جفنيــــه اتكاء السنى بحضن البريه
ويجول السلام في شفتيه حلماً ابيضاً وأفقاً ظليلا
يلتوي نقلة الطفالى نحيلا ينثني مشية الملوك جليلا
الرياحين في يديه تعرّت وارتمت حول كفه اكاليلا
سربلته أطيابهـا ، سربلته سحب النور ، سربلته الهيولى

فاما الصورة التي رسمها للمجدلية ، واما الصورة التي رسمها للقائها بالمسيح فأروع ما سيخلد في الشعر من صور

والقصيدة في مجموعها فيض من إلهام أعني دوام هبوطه على شاعرنا .وقد قدم الشاعر لهذه القصيدة ببحث فلسفي في الشعر لولا ضيق المقام لعرضنا للقراء منهُ بعض آثاره

***

٣ — « ارجوحة القمر » قرأت للاستاذ صلاح لبكي قطعاً متفرقة في بعض المجلات فاطمأنت روحي الى روحه الوديعة واحسست في رقة خياله وعذوبة لفظه ما يحس القلب الصادق الاحساس اذ يستمع الى انبعاثات قلب صادق التعبير مخلص في ابراز مشاعره

لهذا أرى ان ابرز صفات هذا الشاعر الصدق· وهو اقوى جناح لاحلال الشعر محله من القبول والتقدير فلا تجد بهرجة في اللفظ وتلاعباً فيه ولا زيفاً في التصوير

يرسم لك المشهد من مشاهد الطبيعة فلا ترى أمامك إلاَّ ما رآه هو بعينه لم يزد عليه الا الخيال الرفيق الذي يرفّ بأجنحته الرقيقة فينفض من ألوانه السحرية ما يشيع فيه السحر فتخرج القصيدة وفيها حياة وحركة كما في قصيدته « مساء » التي يقول فيها :

مات لون النهار في الاحداقِ واستراح الدجى على الآفاقِ
وتعالت هناك أغنية الرا عي يسوق القطعان حول السواقي
وأضاءت على السفوح قرى لبــنان ، يا للقرى الملاح العتاقِ!
فالاساطير في خيال الروابي الــسهل أطياف ذكرياتٍ رقاقِ

تتعرّى ملء الزمان تروّيه فيهوى الزمان وهي بواقي
ايه يا أخت نهل الناعم الـدافىء من غمرة الليالي العماقِ
علّنا ننتهي على نغم حلـوٍ كلحين من رؤى العشاقِ
أو كرجع الصدى تغلغل في الـثغور وموت الطيوب في الاوراقِ

وبهذه الريشة الخفّاقة نلمس ألواناً شتى من الشعر الصادق في قصائده « سفر تكوين » و « هفا الليل » و « الانتظار » و « احلام المساء » و « حلم عذراء » وغيرها . ولعلّ أروعها قطعة « الليل » . واستمع معي الى هذه الابيات من قصيدة « لامرتين » اذ يناجيه بمناسبة ذكرى انقضاء مائة عام على زيارته للبنان فترى في لمحة خاطفة :

نَم قرير الطرف في ظل الفناء وأرح نفسك من وقر العناء
وأنشق الراحة من كف الثرى فالثرى راحة أبناء الشقاء
وظلام الرمس للعين متى تعبت أرحم من وهج الضياء
ضجعة الشاعر في أكفانه ضجعة توجع غير الشعراء

قصائد صلاح لبكي نسمات رقيقة تحمل أصداء عذبة من فؤادِ شاعرٍ فيّاض بما في الحياة من جمال وسحر

حسن كامل الصيرفي

المقتطف : « كان ما كان » و « أرجوحة القمر » من منشورات مجلة «المكشوف» البيروتية ويطلبان منها . وأما « المجدلية » فقد نشرها يوسف غصوب ببيروت

ثلاثة كتب قرأتها

١ — مم

قصة تأليف شكيب الجابري دكتور في العلوم — ٢٠٧ صفحات بقطع كبير — المطبعة العلمية بحلب

عندما فرغت من القراءة الثانية لهذه القصة ، سألت نفسي أصحيح ان مؤلفها هو شكيب الجابري السوري العربي ، ام هو شخص آخر من صميم اهالي شمال اوربا او من قطان قلب الجزر البريطانية ؟ ثم عدت فقلت سيان عندي أمن عنصر سامي كان كاتبها ام من عنصر آري ، او كان الدكتور الجابري يقص قصة اختبارات شبابه على ضوء كهولته [1] فالتزم الحياد التقليدي فاسبغ على بطل قصته عدة اسماء تترنّح بين الروسية والجركسية والالمانية ، او قصها اديب غربي

(١) عرفت أن المؤلف في شرح شبابه انما صور حالات الكهولة تصويراً حملني على الظن بأنه كهل

لا يقيم للتقاليد حرمات بغية جعل قصته عالمية يحسّ بها كل انسان في كل قطر وعصر ، وزمان ومكان بصرف النظر عن عنصره وجنسه سواء ، اكان هذا او ذاك ، ففي قصته « نهم » قوة قادرة على انتزاعنا من صميم ذاتيتنا لتقصينا عن فوضى الحياة ، وتسمو بنا الى عوالم تجعلنا نشعر بالطمأنينة فيها الى النظام الذي سنه عقل الانسان متحدياً الحياة في فوضى نظمها المشوشة ، ولمؤلفها طرائقه الخاصة ، لا في تصوير لمحات من صور الحياة كما هي فحسب ، بل في ما وسعهُ من هز شعورنا واستثارة احاسيسنا فجعلنا نقاسمه إنفعالات نفسه في الحالات السارة والمكدرة، ونستطيب عرض هذه الصور ، لا كما هي في الاصل ، بل كما يمكن ان تكون في عرف الفنان وقد ضمنها كثيراً من احتمالات ما في الطبيعة ، فاذهلنا عن الحواشي الفنية التي لا تستمسك كثيراً بالحقائق ولا تتشبث بها ، فأيقنا ان في تبسيطه وسهولته وبساطته انهُ يقول الصدق الذي لا يشوبه ريب ! !

« نهم » قصة قلب فنان ، اصبحت له شخصيته المترفعة الطموح — بعد جدب وقحولة — لا تهب الحب الاّ المرأة المجهولة البعيدة ، المرأة القدسية التي احاطها في مخيلتهِ الخصبة بهالة من المحاسن النادرة العلوية ، قلب شاب يودّ ألاّ يسلم مقاليده الاّ الى امرأة يتخيلها كاملة في كل شيء ، حتى اذا لم يجد ، عمد الى امرأة ممن حولهُ ، وأسبل عليها من مخيلتهِ الكساء الذي يروقهُ ثم وضع قلبهُ الثمل بخمرة خياله على مذبح هواها

عشرات من النساء طفنَ حول قلب الفنان وتنازعنه ، هجر الاولى لانها أغرقته بفيض نسويتها فلاذت بالدر ، وفشلت الثانية لانها ولجت طريقاً أضلها عن قلبه ، وهكذا الثالثة والرابعة الى آخر ما لا يحصى من عدد الطُلعات المفتونات بالشاب الاديب الذائع الصيت الذي أُتقن فن الاستهواء والاستغواء وصار كصيّاد هرم يعرف الطريدة ويعرف بأي طعم تؤخذ ، يفعل كل ذلك طمعاً في استلهام موضوع لقصتهِ أو إضافة خبرة جديدة الى معرفته

واذ يدور قلب الفنان دورتهُ ليتقبل سرّ الكون في الحب ، او يحين الحين الشاذ لايقاظ العواطف الهاجعة ، يجد قلبه قد ذوى ، ويلفي حيويته غاضت او نضبت ، فترده الفتاة التي صدمها بضعفه خائباً مرذولاً في حين انها فتحت لهُ جوارحها وفتح لها قلبه بصدق ، فيتحول الى متفلسف مستقدس ، ويصير رسّاماً وموسيقيًّا يرسم الدموع والاحزان ، وينشد الآهات والتوجعات

ليست قيمة القصة في الوقائع التي تتألف منها ، ولا في كيفية ترتيبها ، بل قيمتها في الكيفية التي تؤدى بها ، ولقد استطاع هذا الاديب المختمر المتمكن ان يكيّف التأدية على أكمل وجه ، وأدق معنى ومبنى ، وقد نحا نحو كبار القصصيين المجددين في رسم هواجس النفس وتردد الخاطر ، ومحاسبة الضمير — او ما يسمونهُ ضميراً — وسلك مسلكاً فريداً في الحوار هو سمة القصة الممتازة ، بلغة عربية نقية سلسة ، واجتذب كل قارىء وقارئة من وعاة الذهن ويقظى

القلب ، وقسرهم على الاعترافات الفردية المخنوقة عن نزوات النفس ، ورغبات الجسد ، ومغالبة العاطفة ، وشجار العقل ، فصارت كل طـلعة من السيدات ومغامرة من الفتيات ، وصار ايضاً كل أديب يقول ، هذه هي قصتي

في وسعي ان أقول ، لو ترجمت قصة «نهم» الى اللغات الاوروبية للقي مؤلفها الاديب الاريب خيرما يلقاه القصصي الموهوب ، ولرحب بها النقاد أحسن ما يرحبون بالعمل الـكامل

هو ذا نجم أشرق في سورية يشير الى ميلاد قصصي

***

٢ — عمر افندي

قصة تأليف لطفي حيدر — ١٦٧ صفحة من القطع المتوسط — منشورات جريدة المكشوف

بين اكثر الاشياء واضدادها برازخ متدانية متقاربة ، ومن غرائب الصدف ان أكتب عن قصتين متناقضتين في وقت واحد ، وأعالج دراسة مؤلفين متضادين كأنهما تعاقدا على ان يقف الاول على أعلا الدرج وينكفىء الثاني على بسطة العتبة الاولى

أعدَّ الاول ، مؤلف قصة « نهم » جميع معدات القصة من موضوع ، وعقدة ووحدة ، وخاتمة ، وفن وصناعة ، وتوجيه وإيحاء ، وتدليل وتحليل ، واستلماح وغنى في الالفاظ ، ومقدرة على الاداء السليم ببساطة ، الى آخر ما هنالك من خصائص يذكرها الناقد بالذات ، وينساق معها الـكاتب الموهوب بالسليقة ، ويماشيها المتمكن المـكتسب وهو يقدر المصير منذ خطا الخطوة الاولى ولا يغفل اسباب الفراغ في المسافات بين الخطوة والخطوة . في حين ان الثاني مؤلف قصة « عمر افندي » أهمل جميع هذه المعدّات التي لا علم له بها ولا أبه لها والتي لا غنى للقصصي عنها ، وارتكن على قدح ذهنه ، وبقية باقية من انفعالات نفسهِ من جراء حب نبت عند مشرق الشمس ، وازهر عند الظهر ، وذوى وقت الغروب

يؤسفني ان أقول ان لا فائدة من الوقوف مع المؤلف الناشىء ولا محاسبتهِ على فصول قصته التي تصلح لان تكون « رؤوس مواضيع » لصحيفة مدرسية لا رقابة على تحريرها ، ويسرني ان أنصحه بأن لا يأخذ نفسه بما كتب له كاتب في المقدمة

***

٣ — قميص الصوف

مجموعة قصص تأليف يوسف عواد — ١٣٢ صفحة من القطع المتوسط — منشورات جريدة المكشوف

للاقصوصة شأن آخر يختلف عن شأن القصة ، فبين هذه تجول في ميادين واسعة ، وتقتحم

أجواء فسيحة ، وهي تظل وتستظل ، نرى الفكرة الواحدة في تلك ترتكز على محور واحد يدور المؤلف حولها بلباقة وبساطة

لمؤلف هذه المجموعة القصصية قدرة على استخلاص عناصر القصة من الواقع ، وحرفة في أخذ الحدث الشائع يتذرع بهِ للتقرب من أفهام الناس ، ليدلـهم من بعيد على بعض لمحات من شخوص الحياة ، ولـكنهُ كسول لا يكلف نفسهُ مشقة التوضيح ، او الايحاء والتوجيه ، ولا يعنى بعقد العقدة ولا بتجريش ذهن القارىء على حلها ، لان لا رسالة له في كتابة القصة ولا غرض وهو يكتفي بالحكاية وحدها ، وللحكايات سواء أكانت خرافية ام حقيقية ، موضوعية ام ذاتية ، او كانت بين هذا وذاك ، طرف وملح مستحسنة مستحبة عند بعض الناس

فحكاية « الوسام » الذي منحه الحاكم الى « ابونا القسيس » مستثمر جهود العميان ومستغل اعمالهم ، وحكاية « توها » ذلك الجندي الجلف الذي خنق ابنته لانها ازعجته حين رقاده وخاصم زوجته لانها لم تلد ولداً ذكراً ، وحكاية « الرفيق كامل » ذلك الرجل الذي اعتنق المبادىء الشيوعية عن اعتقاد فانتهى به المطاف الى السجن ، وحكاية « بهية » الراقصة المتعطشة الى كنف رجل يحبها بصدق لتنجو من كذبها وأكاذيب عشاقها الوقتيين ، انما هي « حواديت » ينقصها النشاط الفني ، وإكسير الحياة ، يكسبان الافكار التي تمثلها حقيقة وروعة

وللمؤلف ولع خاص في التغالي بالاستمساك بالتعابير السائرة على ألسنة الناس من ابناء محلته وهذه الخاصة ، وان تكن مشكورة ، الاّ انني لا استطيبها اصلاً لنبوها عن اللغة الفصحى ، ولتعمل الكاتب العامية تعملاً صارخاً ، ولاستبعاثه كلمات حوشية ماتت منذ حقب او اكثر

كل شيء في نهضتنا يدعو الى التجديد والاخذ بأسباب الرقي ، وأساليب العصر ، فالبائع الجوال في شوارع القاهرة ينادي على سلعته « عندنا نفتالين يمنع العتّ من الملابس » اما الطبقة المتعلمة من الجنسين فتكاد تتحدث بلغة تقرب من لغة الجرائد ، لذلك اخالف من يدعو الادباء الى مخاطبة الدهماء بلهجتهم ومصطلحاتهم وتعابيرهم ، لانني اعتقد ان هذه الطبقة تتأثر كثيراً بمن هم اعلى منها وتقتبس عنهم كل شيء حتى الكلام والتعابير فما ضرَّ كتاب القصص لو كتبوا بلغة الحديث الشائعة بين طبقة المثقفين

***

لا ريب ان الدأب في كتابة القصة ، والنشاط في مطالعة ما يكتبه أقطابها سيقوي الملكة الفنية ، ويصقل الاستعداد القصصي عند اضراب مؤلف « قميص الصوف »

القاهرة — حبيب الزحلاوي

فهرس الجزء الثالث

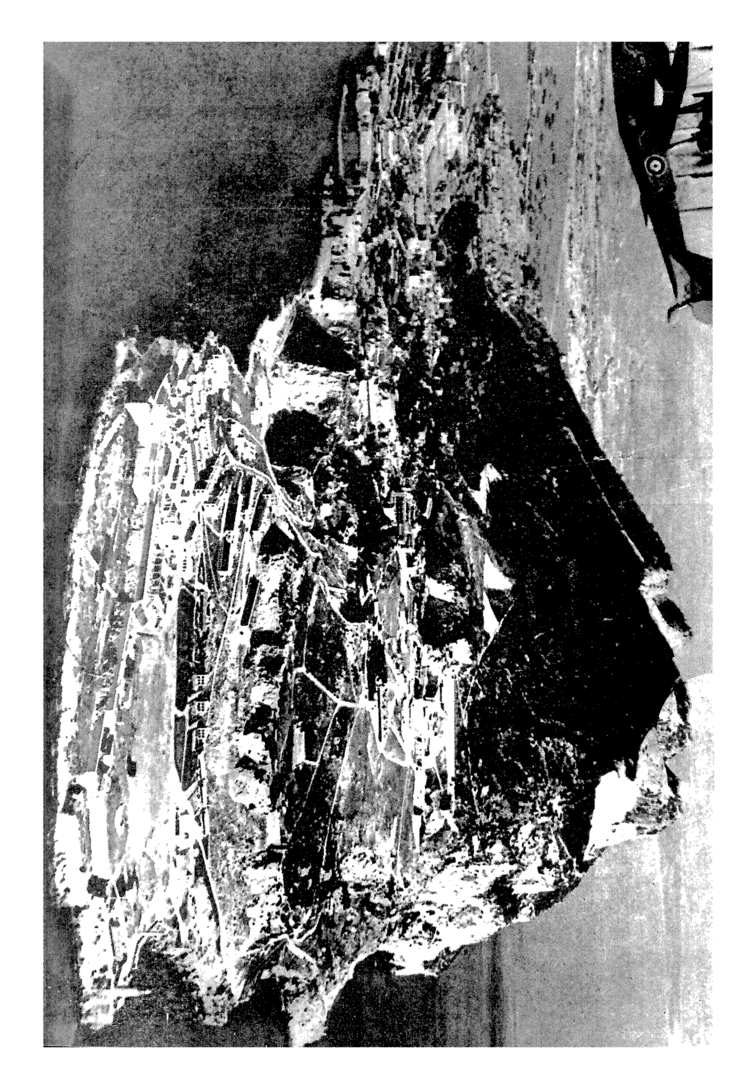
من المجلد الثالث والتسعين

«صورة من الجو لحصن «جبل

«طارق». راجع في باب سير »

« الزمان مقال « توازن القوى »

« البحرية في البحر المتوسط »





الجزء الرابع من المجلد الثالث والتسعين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٨ — ٩ رمضان سنة ١٣٥٧

حصاد الصيف

في حقول العلم

١ — رؤية ما لا يرى

مجهر جديد عجيب يفتح آفاقاً علمية واسعة

ما أكثر الاجسام الدقيقة التي يتمنى العالم ان يراها ! الذرة والجزيء وكيف تتركب الذرَّات جزيئات وكيف تنتظم الذرَّات والجزيئات بلورات ، وما شكل « الفيروس » الذي تسند اليه أمراض لا يعلم لها سبب ظاهر او جرثومة ترى ، والمورِّثات genes المنظمة حبيبات في سبحات الصبغيات Chromosomes وكيف يطرأ عليها التحوُّل العضوي فتحدث التغاير في الصفات الوراثية ؟ هذا قليل من كثير يتمنى العلماء ان يروهُ بأم العين ، لعلهم ينفذون من رؤيتهِ الى فهم بعض هذه الاسرار التي تحيط بنا في المادة والحياة ، وحجابها لا يزداد الاَّ عمقاً وكثافة كلَّما أمعنَّا في البحث والتنقيب

كان الرأي أن تكبير الدقائق لا يمكن ان يتعدَّى حدوداً معيَّنة . أثبت ذلك علماء الرياضة كما أثبتوا أن الامواج اللاسلكية لا يمكن ان تدور حول الارض لأنها اذا كانت مشتقة من معدن امواج الضوء الكهرطيسية ، فلن تلبث حتى تنطلق في الفضاء في خطٍ مماسٍّ لكرة الارض

الاَّ ان القول باستحالة شيء حافز للعالم المطبوع . وكذلك أثبت مركوني على الرغم من أقوال العلماء بالتجربة البسيطة الحاسمة التي جرَّبها في شهر دسمبر من سنة ١٩٠١ خطأ العلماء إذ أطلق الاشارات اللاسلكية من جنوب انكلترا وتلقاها فعلاً في جزيرة نيوفوندلند . وكذلك تمكن الآن الدكتور غراتون أحد اساتذة جامعة هارفرد، من ان يصنع مجهراً يكبر قطر الجسم الدقيق ستة آلاف ضعف، بدلاً من يقف التكبير عند حدّ عينهُ العلماء وهو ١٥٠٠ ضعف

فقد ذهب الدكتور ارنست آبيه Abbé خبير المجاهر المشهور في محلات زيس Zeiss المختصة بصنع الآلات البصرية ان تكبير قطر الجسم الدقيق بالمكرسكوب ١٥٠٠ قطر هو الحدّ الاعلى للتكبير الآن . أما الدكتور غراتون فقد تمكن من تكبيره ستة آلاف ضعف ويرى ان ليس هناك حدّ نظري للتكبير اذا استطاع الانسان الصنّاع ان يتقن الاجهزة اللازمة لذلك . وليدرك القارىء معنى هذا التكبير نضرب لهُ مثلاً بصورة سلبية صورت بمصوّرة ضوئية صغيرة . طول هذه الصورة بوصة ونصف بوصة وعرضها بوصة واحدة . فبحسب رأي الدكتور آبيه يمكن تكبير هذه الصورة تكبيراً يحتفظ بجميع خطوطها جلية غير مشعثةٍ حتى يصبح طولها ١٨٧ قدماً وعرضها ١٢٥ قدماً . (وهذا بصرف النظر عن العوامل الاخرى الداخلة في الموضوع من حيث صنع فلم هذه مساحتهُ) . ولكنها تكبر بحسب أسلوب الدكتور غراتون حتى يصبح طولها ٧٥٠ قدماً وعرضها ٥٠٠ قدم . فكأنك تكبر طابعاً من طوابع البريد الجوّي حتى تغدو مساحته فدانين تقريباً . اما النظرية القديمة فكانت تحتِّم انهُ من المتعذر جعله اكثر من نصف فدان بعد اقصى التكبير

اما مجهر الدكتور غراتون فلا يشبه المجهر العادي الذي نراهُ في مختبرات الاطباء ومعامل الكليات . ذلك ان جهازاً يكبِّر قطر الجسم ستة آلاف ضعف لا بدَّ يكبِّر كذلك كلَّ خدش صغيرٍ ناشىء من اضعف الهزّات . ثم ان الهزَّة مهما تكن ضعيفة لا بدَّ ان تؤثر في الجهاز بتحريك الجسم المرئيّ فتكبِّر الحركة ويغدو الجسم الذي كان واضحاً جليًّا وهو مشعَّث خفيّ . او ينتقل من مجال النظر الجلي ويحلُّ محلَّهُ جسم آخر لا يعنى بهِ الباحث

ولذلك بُني هذا المجهر العجيب على نمط المراقب الكبيرة بحيث لا يهتزُّ ولا يرتجُّ . وهو قائم على قواعد راسخة من الصلب مغروزة في الارض تعلوها مصطبة من الاسمنت المسلح، وهذا يجعل المجهر القائم عليها بعيداً عن الاهتزاز والارتجاج الاَّ اذا نسفت الارض على مقربة منهُ بالديناميت او اصابها زلزال

ثم ان التروس التي يضبط بها قربُ العدسة الى شريحة المجهر الحاملة للجسم الدقيق او بُعدها عنها حتى يرى ذلك الجسم وهو اوضح ما يكون، لا تدار باليد . بل صنع لها الدكتور غراتون جهازاً يضبطها ضبطاً آليًّا بالضغط على زرٍّ . ولو ان باحثاً اراد ان يضبط العدسة بيديه دون

هذا الجهاز الآلي لاستغرقت سبع دقائق وهو يدير التروس فلا ترتفع العدسة او تنخفض عن الشريحة اكثر من جزءٍ واحد من مائة جزء من البوصة ، اي مقدار سماكة الورقة التي تقرأ عليها هذا الكلام ، وهذه الحركة لا تستغرق اكثر من بضع ثوان اذا اعتمد الباحث على الزر وجهاز الضبط الآلي

وكذلك ترى ان هذا المجهر العجيب يجمع بين الضخامة والدقة . فهو والقاعدة القائم عليها ضخم كالقاطرة دقيق كالساعة . وهما صفتان لا بدَّ منهما لان كلَّ خطإٍ يكبر ٦٠٠٠ ضعف فيه

ومما لا ريب فيهِ ان صنع هذا المجهر سيكشف عن آفاق جديدة في مختلف العلوم ، لان كشف وسائل جديدة للبحث واتقانها من اهم الاساليب التي تدفع بالعلوم الى الامام . فالمطياف خلق علماً جديداً جمع بين الارض والسماء . ولولا « غرفة ولسن الغائمة » لما شهدنا التقدم العظيم الذي شهدناه في الثلاثين السنة الاخيرة في فهم المادة وتركيبها . وكذلك شأن مجهر جراتون . فقد اثبت غراتون وصحبهُ ان هذا المجهر على حداثة العهد بهِ سيكون وسيلة جليلة الشأن في الكشوف العلمية . وقد بلغ من عناية الحكومة الكندية بهِ ان اوصت حالاً بصنع مجهر على مثاله لكي تستعمله في دراسة معادنها المختلفة وتركيبها البلوري

خذ مثلاً على ذلك حبيبات من الذهب كان من المتعذر رؤيتها وتصورها قبلاً . فجاء الدكتور غراتون بمجهره وجعل دراستها مكبرة من أيسر الامور . وهذه الدراسة تيسر للباحث في شؤون المعادن والمناجم ان يعرف مبلغ الذهب في عرق ما ولو كانت حبيباته خفية عن الباحث الذي لا يستعين بمجهره . فاذا عرف مقدار الذهب الخفي والظاهر في عرق ما فلا يتعذر على البحاث ان يبتدعوا الوسائل لاستنباطه منه . وغني عن البيان انه اذا كان استخراج الذهب يقتضي نفقة اكبر من ثمن الذهب المستخرج فلا مجهر صاحبنا يجدي ولا غيره

وكما يفيد المجهر الجديد علماء التعدين يفيد كذلك في الصناعة لانه يمكن الباحثين في الصناعات المختلفة من دراسة الفلزات من ناحية تركيبها البلوري اذ ثبت في العهد الحديث بالاشعة السينية وغيرها ان بين التركيب البلوري وقوة الفلز صلة وثيقة . ولعلهم ينفذون حينئذٍ الى فهم ما اغلق عليهم حتى الآن مما تصاب به الفلزات من « الاعياء » او « التعب » فترى البناء الشامخ والجسر الموطد ثم لا تلبث ان ترى تصدعاً وانهياراً عجز العلماء عن تفسيرها الاَّ بقولهم ان الفلزات تتعب فيضعف تماسك بلوراتها وتنهار

ثم ان علماء الطب يرقبون بفارغ الصبر وسيلة تمكنهم من فهم سرّ « الفيروس » الذي يجتاز أدق مسام المرشحات وهم يسندون الى اصناف متباينة منه امراضاً عجزوا عن معرفة سبب ظاهر لها او جرثومة تشاهد وتزرع . وقد ذهب الدكتور وندل ستانلي الاميركي حديثاً الى ان

« فيروس » داء التبغ جزيء بروتيني كبير واقع على حدود الحياة والجماد . فهل يكون مجهر غراتون سبيل العلماء الى رؤية هذا الجزيء وفهمه

نعم ان هذا المجهر لا يزال في حالته الحاضرة عاجزاً عن جلو الذرة لعيوننا القاصرة . ولكنه سيتيح ولا ريب فرصاً نادرة للعلماء فلعلهم ينفذون من طريقه الى فهم الظاهرات الكيمياوية وذلك لانه يتيح للباحث رؤية اجسام تزيد حجمها مائة ضعف عن حجم الذرة . واذن فالجزيئات البروتينية الكبيرة — من قبيل جزيئات الفيروس على رأي وندل ستانلي — ستكون في متناوله ومن هذا القبيل دراسة البلورات وكيف تبدأ في التكون ثم كيف تمضي في النمو . فالبلورات لها شأن عظيم في علم الكيمياء الحديثة ، لا يتسع المجال الآن للتوسع فيه

يضاف الى ما تقدم ان هذا المجهر سيسدي خدمة عظيمة الى عالم الآثار المتحجرة (Paleontologist) الباحث عن هياكل الحيوانات البائدة في صخور يرجع تاريخها الى ملايين السنين . ومن هذه الحيوانات ما كان دقيقاً الدقة كلها فلا تراه العين ، ولكن وجوده في صخر ما في منطقة ما او انتفاء وجوده فيها قد يكون سبيلاً الى العثور على ثروة قومية من النفط في تلك المنطقة او الى التوفير على الباحثين عن النفط عناء البحث ونفقاته. وهذا علاوة على ما يمكن ان يضاف من هذا الطريق من حقائق جديدة تزيدنا معرفةً باحوال الارض في العصور المتغلغلة في القدم . أو لعله يكشف لنا في هذه الصخور القديمة أحياء دقيقة ما كنا نعلم انها كانت تعيش على سطح الارض في ذلك الزمان. ومن المتوقع ان يكون لهذا المجهر شأن كبير في تصنيف البكتيريا ، وقد كان الاعتماد حتى الآن في تصنيفها على شكلها . فلعلّ المجهر الجديد يكشف عن خواص في تركيبها وتطوّرها تكون أصلح أساساً للتصنيف من شكلها الخارجي

٢ — الاشعة السينية في الحوادث

امتحان المواد الغذائية بها لنبذ المعيب منها

اقتصر استعمال الاشعة السينية (X Rays) بعيد كشفها او كاد على الاطباء ، فاستعملت لاستطلاع كسر في العظم أو رصاصة في الجسم او علة خفية في سن أو ضرس . ثم استعملت أيضاً لمعالجة بعض النواحي السرطانية

الاّ ان كاشفها رنتجن أدرك عند كشفها انها قد تستعمل في الصناعة فوصف في رسالته الاولى التي نشرها في سنة ١٨٩٥ بعض الاجسام التي صوَّرها بهذه الاشعة وبينها « قطعة من المعدن نستطيع ان نتبين عدم تجانسها بالاشعة السينية » . وقد تحقق ما تنبأ به رنتجن قبل أربعين سنة أو تزيد . ودخلت الاشعة السينية ميدان الصناعة فتستعمل الآن في امتحان الاعمدة

والعوارض المصنوعة من الصلب او غيره من الفلزات ليعرف هل فيها شرخ داخلي او موطن ضعف او ثقب حفر خطأً في غير محله ثم ملىء فلا يُرى. وبذلك يجتنب اصحاب المصانع الكوارث التي قد تنشأ عن ضعف في بناء الاجهزة التي يصنعونها والمباني والجسور والطيارات التي تدخل الاعمدة والعوارض في صنعها . والخشب يمكن فحصهُ بها كذلك فتدل فيه على شقوق او عقد أو جيوب صمغية خفية او ثقوب تنقرها الحشرات . كل ذلك تبديه عين الاشعة السينية فانهُ لا يخفى على بصرها الناقد . والحوادث التي تثبت فائدة الاشعة السينية من هذه الناحية كثيرة لا تحصى

ثم دخلت هذه الاشعة ميدان الفن ففي مؤتمر خبراء الفن الذي عقد في رومية سنة ١٩٣٠ تحت رعاية جامعة الامم صرّح الدكتور پول جانتز انهُ كشف بالاشعة السينية صورة نفيسة لهولبين تحت صورة سخيفة لا قيمة لها . وهذه الوسيلة في امتحان الصور معتمدة الآن مع غيرها من الاساليب الفنية المحضة بين مديري دور الصور المشهورة وكبار المعنيين ببيعها وشرائها . ذلك ان أعلام المصورين القدماء كانوا يستعملون أصباغاً معدنية وهي أكثف من الاصباغ النباتية التي تستعمل الآن فاذا أخذت صورة قديمة ورسم فوقها صورة محدثة أو غيرت بعض معالمها اضافة وتحويلاً كان في الوسع معرفة ذلك كله بالاشعة السينية

وأحدث الميادين التي دخلتها الاشعة السينية هو ميدان حوانيت البدّالين أو بالحري الشركات المختلفة التي تجهز حوانيت البدالين بالفواكه والخضر والجبن وغيرها

في وسع السيدات والطهاة في أغلب الاحيان ان يتبينوا بلمحة او بلمسة او بشمّةٍ هل ما يشترونهُ من البطاطس والبرتقال واليوسفي والليمون الهندي والتفاح واللحم وغيره من مواد الغذاء ، سليم من العيوب أو لا . ولكن هذه المواد الغذائية وغيرها قد تصاب بعيوب لا تستطيع عين السيدة الناقدة ولا خبرة الطاهي ان تتبينها .وكثيراً ما يؤتى بالليمون اليوسفي الى المائدة فاذا هو في مظهرهِ الخارجي فاخر ريّان فاذا قشر ثبت انهُ جاف يكاد يكون والخشب سواء . وليس بالنادر ان تبتاع السيدة رؤوس بطاطس تبدو قشرتها ملساء غير مشققة فاذا جيء بها الى المطبخ وسلقت ثم قدمت على المائدة وقطعت ظهر ان فيها تجاويف او جيوباً لها طعم كريه . فيقع اللوم على البدّال الذي أبتيعت منهُ . ولكنهُ ليس بالملوم ولا التاجر الذي باعهُ ولا الزارع الذي باع التاجر . لان جميع هؤلاءِ يرغبون أشدَّ الرغبة في تقديم خير ما تجود بهِ الارض ليكفلوا اطراد العمل والربح

ولذلك خطر للاستاذ هارفي R. B. Harvey أحد علماء جامعة مينسوتا الاميركية ان يستعمل الاشعة السينية في استطلاع طلع المواد الغذائية قبل عرضها للبيع على نحو ما تستعمل في استشفاف ما في الجسم الانساني او في أعمدة الصلب او صور المصورين

عندما يذهب مريض الى طبيب طالباً اليهِ ان يفحص قناتهُ الهضمية بالاشعة السينية يعطيهِ الطبيب سائلاً فيهِ احد مركبات البزموت ليشربهُ ثم يوقفهُ أمام لوحٍ مفلورة (تتألق بوقع الاشعة عليها) ويوجه اليهِ من جانبهِ الآخر الاشعة السينية فتخترق الجسم مستشفة ويبدو الجسم على اللوحة وقد اخترقت الاشعة بعض اجزائهِ فبدا شفافاً ولم تخترق الآخر فبدا قاتماً . هذه هي القاعدة المتبعة في الشؤون الطبية والصناعية على السواء . فقال الاستاذ هارفي ولماذا لا نجري عليها في فحص البطاطس والبرتقال وغيرهما

وبعد ما أجرى تجارب متعددة وضع رسالة علمية بسط فيها طريقتهُ ونتائجها وتلاها في اجتماعات علمية متعددة حضرها زملاؤهُ من العلماء ، وهو يعلم فائدتها المطبّقة . وفعلاً عني أصحاب الشركات المختلفة التي توزع مواد الغذاء بصنع الاجهزة اللازمة لذلك. والاجهزة تختلف شكلاً وتتشابه قاعدةً . فهي تحتوي على مصباح يولد الاشعة السينية في قلب الجهاز وعلى جانبيهِ سيران نقالان توضع عليها المادة التي يرغب في امتحانها . ثم يقف على الجانبين المراقبات وأمام عيونهم اللوحان المفلوران . وتمرّ ثمار التفاح او رؤوس البطاطس أمام المصباح السيني فتخترق أشعتهُ كل تفاحة ، والفتيات يراقبنَ اللوحة المفلورة فاذا رأت احداهنّ عليها صورة تفاحة غير سليمة كبست على زرّ أمامها فتتحرك ذراع تقذف تلك التفاحة الى صندوق تحت السير فتنبذ من المجموعة التي توضع في الصندوق المُعَدّ للبيع

وكما يفحص التفاح وغيرهُ يفحص كذلك لحم البط فيعرف موقع رشاش البندقية الذي اصابه بدلاً من ان يترك ذلك لاسنان الآكلين واضراسهم. وليس ماتقدم غير مثل واحد او مثلين على فائدة الاشعة السينية في امتحان المواد الغذائية قبل عرضها في السوق . ولا تكفي صفحة او صفحتان لتعديد نواحي استعمالها في هذا السبيل

والعمل بهذه الاجهزة سريع جداً . فقد يتناول الجهاز الواحد — في شركة فود ماشينري كوربوريشن بكاليفورنيا — من مائة صندوق الى مائة وخمسين صندوقاً من البرتقال في الساعة الواحدة . او من ١٥٠ صندوقاً الى ٢٠٠ صندوق من الليمون الهندي . وغني عن البيان ان مراقبة الثمار وهي تمر امام جهاز الاشعة السينية عمل يحتاج الى يقظة دائمة وخبرة واسعة

اما العيوب التي تصاب بها الفواكه والثمار والخضر فليس اكثرها مكروبيًّا . فالجيوب او الفجوات في رؤوس البطاطس ترتد على الغالب الى سرعة غير عادية في نموها في احوال شاذة من الحرارة والرطوبة . ولكن القشرة تبقى سليمة ملساء فلا يستطيع أحدٌ كائناً من كان ان يتبين بالنظر المجرد وجود هذه الفجوات . او قد تصاب بساتين البرتقال بالصقيع فيفتك بجانب كبير من ثماره ولكن بعضه لا يموت وانما يؤثر الصقيع في الاكياس الصغيرة المحتوية على

العصارة في داخله فتنشق فيتسرب العصير منها وتنمو الثرة ولكنها تخرج جافة لا عصير فيها ويصاب التفاح والليمون الهندي وغيرها بآفات خاصة تترك الثمر سليماً عادياً في مظهره الخارجي ولكن الاشعة السينية تكشف العيب في داخله

٣ — تأثير الضغط العالي

في خواص المادّة

أثبتت المباحث الطبيعية الحديثة ان لا قبل للعلم بفهم المادة فهماً صحيحاً الاَّ اذا عرف تأثير الضغط العالي في ذراتها وجزيئاتها . ذلك ان ٩٩٫٨ في المائة من مادة الارض و٩٩٫٩٩٧٥ في المائة من مادة الشمس خاضعة لضغط يزيد كثيراً على الف ضغط جوِّي على البوصة المربعة ويبلغ نحو ١٥ الف جوي

وبحوث الضغط ليست بالشيء الجديد في علم الطبيعة . فالاكاديمية الفلورنسية في عهد غاليليو حاولت ان تعرف هل الماء قابل للانضغاط . فاستعمل مجربوها لتلك التجربة إناءً من الرصاص لايحتمل ان يكون الضغط فيه قد زاد على الف جوي . وخرجوا من تلك التجربة بان الماء غير قابل للانضغاط . ثم جرّب كاندون Candon بين سنة ١٧٦٢ و١٧٦٤ بضع تجارب ليقيم الدليل على ان الماء قابل للانضغاط فنجح في ما سعى اليه . ومع ان الماء يوصف بانهُ لا يضغط فمن المعروف ان بعض العلماء جرّب تجارب مكّنتهُ من ضغط الماءِ حتى نقص حجمهُ ٥٠ في المائة

وقد عني علماء العصر الحديث بدراسة موضوع الضغط وتأثيرهِ في خواص المادّة ولكنهم لم يتمكنوا من التمادي فيهِ قبل ان حلّوا مشكلة صنع الاجهزة التي تتحمَّل الضغوط العالية التي يبغونها . وفي مقدمة هؤلاء الباحثين الاستاذ بردجمن استاذ الطبيعة في جامعة هارفرد . فقد كتب في مجلة السينتفك اميركان يقول ان اعلى ضغط تمكن العلماء من إخضاعهِ لقيود التجربة العلمية في المختبر هو ٥٠ الف ضغط جوّي . ووجه الشأن في ذلك ان مادة الارض على عمق مائة ميل تحت سطحها معرّضة لمثل هذا الضغط . ولما كان ٩٢٫٥ في المائة في مادة الارض داخل هذه القشرة التي سمكها مائة ميل ، حيث الضغط اعظم جدًّا من ٥٠ الف ضغط جوّي، فجهلنا باحوال تلك المادة وخواصِّها جهل عميق حقًّا

فكيف يؤثر الضغط العالي الذي يستطيع العلماء توليده ، في خواص المادة ودراسة تلك الخواص والمادة خاضعة لهُ ؟

هناك درجات من الحرارة تذوب عند بلوغها ضروب المادة المختلفة او تنصهر . والضغط يؤثر في هذه الدرجة Melting Point فيغيرها

في أواخر القرن التاسع عشر ذهب جيمز طمسن شقيق لورد كلفن الى انهُ اذا كان هناك مادة ما من المواد التي تتمدَّد عند الانصهار او الذوبان فدرجة الانصهار او الذوبان يجب ان ترتفع بازدياد الضغط . أما اذا كانت من المواد القليلة التي تتقلص عند الذوبان او الانصهار — كالماء او البزموت او الغاليوم — فدرجة الذوبان او الانصهار يجب ان تنخفض بازدياد الضغط . وجرَّب لورد كلفن تجربة استوقفت الانظار لتأييد رأي شقيقهِ . أما اعترضت كلفن حينئذٍ صعوبة كبيرة وهي ان ضعف الضغط المتاح لهُ لم يمكنهُ من تغيير درجة انصهار او ذوبان المواد التي جرَّب بها تجربتهُ الاَّ تغييراً يسيراً لا يزيد عن جزءٍ من الدرجة . أما الآن وقد غدا في وسع العلماء ان يعرضوا المواد لضغط أعلى جدًّا من الضغط الذي كان في متناول لورد كلفن ففي مكنتهم ان يغيروا درجة الانصهار أو الذوبان مئات من الدرجات المئوية . حتى ليستطيعوا ان يجعلوا الزئبق ان يتجمد على درجة من الحرارة هي درجة الماء الغالي عند ما يعرضونهُ — أي الزئبق — لضغط ٢٨ الف جو

أما حالة الماء عند تعريضهِ لضغط عال فتستوقف النظر خاصة . ما يكون تأثير الضغط فيهِ اذا مضينا في زيادتهِ زيادة لا حدَّ لها ؟ أتنخفض درجة الذوبان انخفاضاً لا حدَّ لهُ الى ان يصيبهُ تغيير آخر . وهذا الموضوع كان محل نظر وعناية من العلماء بعد اذاعة رأي طمسن وتجربة شقيقهِ لورد كلفن . الاَّ ان زكن علماء الطبيعة لم يكن كافياً حينئذٍ ليمكنهم من النفوذ الى الحقيقة . وكان عالمٌ يدعى تامان Tammann أول من استعمل ضغطاً قدره ثلاثة آلاف جو في دراسة موضوعات من هذا القبيل . فوجد شيئاً يثير الدهشة . ذلك انهُ وجد ان درجة ذوبان الجمد توالي الهبوط تحت الضغط المتزايد حتى يبلغ الضغط ٢٢٠٠ جوٍّ فتصير ٢٢ درجة تحت الصفر بميزان سنتغراد وهي درجة أبرد قليلاً من برد مزيج الجمد والملح المستعمل عند عمل المثلجات (دندورمة)

ولكن اذا عرّض الجمد لضغط أكبر من ٢٢٠٠ جوٍّ وحرارة دون ٢٢ تحت الصفر تهاوت بلوراتهُ ونقص حجمهُ ٢٠ في المائة وانتظمت جزيئاتهُ في بلورات تختلف عن بلوراتهِ المألوفة. وهذا التحوُّل في نظام بلوراتهِ قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيهِ بواسطة الاشعة السينية التي أصبحت في السنوات الاخيرة وسيلة فعَّالة لدراسة بناء المادة البلوري . ولا يخفى ان الجمد أقل كثافة من الماء ولذلك فهو يطفو عليهِ . ولكن اذا عرض الجمد لضغط عال كما قدمنا فان ما يصيبه من نقص الحجم وتحول في تركيبه البلوري يجعله اكثف من الماء السائل . فاذا صح قول جيمز طمسن فهذا الجمد الجديد — الذي يزداد حجمه عند الذوبان وهو على نقيض الجمد العادي الذي ينقص حجمهُ عند الذوبان — يجب ان ترتفع درجة ذوبانهُ اذا عرض لضغط عال بدلاً من ان تنقص درجة ذوبانهِ كالجمد العادي . والتجربة تؤيد هذا القول . الاَّ ان الجمد الجديد يتحوَّل الى

جمد من ضرب آخر اذا زاد الضغط الواقع عليه على ٣٥٠٠ جوّ . وقد وجد العلماء انهم يستطيعون ان يصنعوا سبعة اضعاف من الجمد بموالاة زيادة الضغط على كل جديد منها ، وآخرها ترتفع درجة ذوبانه الى ١٩٠ درجة مئوية عندما يكون معرَّضاً لضغط اربعين الف جو . وهي حرارة كافية على ما نعلم لصهر اللحام

فاذا صحّ هذا على الماء فيجب ان يصحّ كذلك على البزموت والغاليوم وهما عنصران ينقص حجمهما عند الانصهار كالماء العادي عند الذوبان . فهل يتحولان الى صنفين جديدين من البزموت والغاليوم بزيادة الضغط عليهما حتى يصبحا موادّ ترتفع درجة انصهارها بدلاً من ان تنخفض اي هل يطرأ عليهما التحوُّل الذي يطرأ على الماء ؟ والجواب بالايجاب ولكن هذا التحوُّل فيهما لا يتمُّ الاَّ بعد تعريض البزموت لضغط قدرهُ ٢٨ الف جوّ والغاليوم لضغط قدره ١٣ الف جوّ

فيلوح من هذه التجارب ان ما نراه من تمدّد الماء عند تجمده ليس الاَّ ظاهرة تصحّ ما زال الضغط عاديًّا فقط . والغالب عند الاستاذ بردجمن ان جميع المواد تتقلّص عند تجمدها اذا كان الضغط على درجة وافية من الارتفاع

قلنا ان رفع درجة الضغط والمضي في رفعها تدريجاً افضت الى صنع سبعة اصناف من الجمد وما يصحُّ على الماء يصحُّ على مواد كثيرة . فالبزموت له اربعة اصناف والغاليوم ثلاثة والكافور تسعة ولا يبعد ان تكون احد عشر صنفاً

هذا التحوُّل لا بدَّ من حدوثه في المواد التي في قلب الارض حيث درجات الحرارة والضغط عالية جدًّا ولا بدَّ ان يكون لها خواص غير الخواص التي نسندها اليها على سطح الارض وهي في حالتها المألوفة . وهذا يعني اننا لا نستطيع ان نتكهن بأحوال المادة في قلب الارض الاَّ بعد دراسة وافية للمادة وهي معرَّضة لدرجات عالية من الضغط والحرارة على سطح الارض وكيف تتحوَّل

هذه التحوُّلات في المادة وهي معرضة للضغط العالي تزول عند رفع الضغط عنها وترتد المادة الى أصلها . ولكن العلماء وجدوا مادة واحدة يحدث الضغط العالي فيها تحولاً دائماً وتلك المادة هي الفصفور الابيض . فالفصفور الابيض كما يعلم القارىء مادة غير مستقرة تلتهب من ذاتها عند تعريضها للهواء ولكنها تتحول تحولاً دائماً بعد تعريضها لدرجة عالية من الضغط فتصبح سوداء بدلاً من ان تكون بيضاء ثم انها لا تلتهب وتوصل الكهربائية بدلاً من ان تقاومها

فتغيير من هذا القبيل يذكي الخيال . ذلك بأنهُ اذا استطعنا ان نغير الفصفور تغييراً دائماً ونحولهُ الى مادة جديدة لها خواص مناقضة لخواصها الاصلية ، أفليس في الوسع تحويل غيره من المواد بتعريضها للضغط العالي فنصنع بذلك مواد جديدة لها خواصُّ مرغوب فيها ؟

ثم كيف يؤثر الضغط في حجم المواد ؟ الغاز على ما نعلم يعنو بسهولة للضغط فتستطيع ان

تضغط ما يملأُ حجرة كبيرة من الهواء في أنبوب عجلة السيَّارة . أما الماء فقد قلنا في مستهل الكلام انهُ قابل للانضغاط وان كانت كتب الطبيعة تقول انهُ ليس كذلك وذلك لان التجارب القديمة الى منتصف القرن الثامن عشر عجزت عن ضغطهِ بما لديها من الوسائل . ثم هناك الجوامد وهي أقل قابلية للانضغاط من الماء ولكنها تنضغط. فالحديد أقل قابلية للانضغاط من الماء مائة ضعف . ولكن اذا استعمل ضغط قدره ألوف من الأجواء أمكن ضغط السوائل والجوامد ضغطاً يسهل قياسهُ. فالسوائل تقلُّ حجماً تحت الضغوط العالية من ٣٠ الى ٤٠ في المائة . وكل سائل لا بدَّ ان يتجمد بزيادة الضغط الذي يوقَّع عليهِ وعندئذٍ يصبح وهو متجمد شأنهُ شأن المواد الجامدة أصلاً من حيث تأثير الضغط العالي فيها . فالجمد العادي اذا عرض لضغط قدره ٥٠ الف جو نقص حجمهُ ٤٠ في المائة عن حجم الماء الذي صنع منهُ أولاً . والفلزات أقل قابلية للضغط من السوائل ولكن التفاوت بينها كبير . فعنصر الكبزيوم مثلاً وهو أشد الفلزات قابلية للضغط أسهل انضغاطاً من الماء وينقص الى ٥٠ في المائة من حجمهِ الاصلي اذا عرِّض لضغط ٥٠ الف جو

ثم ان المقاومة لسريان التيار الكهربائي تقل بارتفاع الضغط الذي تعرَّض لهُ المواد حتى لقد تتحول المادة غير الموصلة للتيار الى مادة موصلة فالتلوريوم وكبريتور الفضة ليسا موصلين جيدين في الاحوال العادية ولكنهما يصبحان تحت الضغط الشديد وايصالها للتيار الكهربائي ألوف الاضعاف أقوى مما كان . ومن المواد ما قد تشتد مقاومته للتيار بارتفاع الضغط

ومن اغرب ما يروى عن تأثير الضغط العالي خاص باختراق الماء الواح الصلب القاسي والزجاج فقد روى العالم بولتر في مجلة «الطبيعة المطبَّقة» انه اذا ارتفع الضغط ارتفاعاً كافياً ففي الوسع ان يخترق الماء سطحاً صقيلاً من الصلب ، او طبقة سماكتها بضعة مليمترات من لوح زجاجي في بضع دقائق . واختراق الكحول والاثير تحت الضغط اقل من اختراق الماء . اما الغليسرين والزيوت فيندر ان يكون لها قدرة على هذا الضرب من الاختراق . وأغرب من هذا انه اذا رفع الضغط رفعاً فجائيًّا فخرج الماء الذي كان قد تخلل سطح الصلب تفتت السطح . واذا اخذ قضيب من الزجاج وأحيط بالماء وعرض الماء لضغط كافٍ هنيهة ثم رفع الضغط فجأة فالزجاج لا يتأثر. ولكن اذا طال الضغط خمس دقائق ثم رفع فجأة فقضيب الزجاج ينقصم حينئذٍ الى اقراص زجاجية واذا زاد التعرض للضغط الى عشرين دقيقة ورفع فجأة تهاوى القضيب شظايا زجاجية صغيرة

٤ — صنع فيتامين الخصب والعقم

بالتركيب الكيمياوي وامتحان فعلهِ

كان الباحث الاميركي هربرت افانس Evans يبحث في سنة ١٩٢٢ في تناسل الجرذان من حيث علاقتهُ باتوار (هرمونات) الغدد . الاَّ انهُ لم يكن كيمياويًّا وانما كان فسيولوجيًّا يهتم

بالعوامل التي تؤثر في التناسل . وكان غذاء الجرذان احد هذه العوامل . فغذّى جرذانهُ بغذاء يكثر فيهِ فيتامين A وB فلاحظ هو ومساعدتهُ ان الجرذان تتزاوج وان اناثها تحمل في مواعيدها السوية ولكنها لا تلد بل تسقط حملها . وفي كل حادثة من الحوادث التي شاهداها كان الجنين يموت قبل ميعاد الولادة . وعجز الفيتامينان اللذان تقدّم ذكرهما عن منع هذه الحالة الشاذة

فشرعا يبحثان عن مواد غذائية تحتوي على عنصر غذائي مجهول من شأنهِ ان يساعد على الحمل والولادة السويين . فوجدا ان ورق الخس فعّال وكذلك جنين حبة الحنطة بل وجدا انهما اذا استقطرا زيتاً من اجنة الحنطة واضافا منهُ مقادير يسيرة جداً الى غذاء هذه الجرذان تمكنت الاناث من حمل الجنين مدة الحمل السوية ثم من ولادتهِ حيًّا سليماً . فلما استوثق افانس من ان نقص هذا العامل الغذائي المجهول يفضي الى عقم ذكور الجرذان والى موت الاجنة في ارحام الاناث اذاع انهُ كشف فيتامينًا جديداً وسمهُ بالحرف X ثم وسمهُ آخر بالحرف E بعد ان حقق النتائج التي توصل اليها افانس

وقد طبق كشف افانس على البقر اولاً ثم على النساء فأسفر التطبيق عن نجاح يفوق ما كان متوقعاً له . ذلك ان افانس لم يزعم شأن الباحث العلمي الحذر ان ما يصح على الجرذان يصح على البشر . ولكن الدكتور فوخت مولر الطبيب بمستشفى اوراانس ببلاد الدنمارك عالج طائفة من البقر كان مشهوراً عنها اسقاطها اجنتها فأضاف الى غذائها مواد تحتوي على فيتامين E فنجحت تجربته نجاحاً كبيراً . وفي ٢٥ يوليو سنة ١٩٣١ اذاع عن طريق مجلة « اللانست » الطبية نتائج هذا الاسلوب من العلاج في النساء المجهضات . ففي الحادثة الاولى كانت المرأة في الرابعة والعشرين من عمرها وكانت قد حملت اربع مرات واسقطت الجنين في كل منها فناولها الزيت المستخرج من اجنة الحنطة عن طريق الفم . فكان حملها التالي سويًّا وولدت في الميعاد السوي طفلاً سليماً . وفي الحادثة الثانية كانت المرأة في التاسعة والعشرين من عمرها وكانت بعد وليدها الاول قد حملت اربع مرات واسقطت الجنين في كل منها فأعطيت مقدار ملعقتي شاي من زيت اجنة الحنطة فكانت النتيجة كنتيجة الحادثة الاولى . ومع ذلك أذاع افانس بياناً في سنة ١٩٣٥ حذّر فيهِ من عواقب استعمال هذا الفيتامين اطلاقاً لشفاء العقم لان العقم قد ينشأ عن اسباب متعددة

هذا موجز ما يعرف عن تاريخ هذا الفيتامين . ولكن مجلة العلم الاسبوعية الاميركية اذاعت في عددها الصادر في ٨ يوليو الماضي ان هذا الفيتامين قد صنع بالتركيب الكيماوي في المعمل وعرفت عناصرهُ وانتظام ذرّاتها في جزيئاتهِ ، وهو مسحوق ابيض يدعى « الفا توكوفيرول » Alpha Tocopherol وضع في غذاء اناث الجرذان البيض بعد ان ثبت عقمها فحملت وولدت سويًّا . وقد اشترك سبعة من العلماء الاميركيين في هذا العمل فاختصّ فريق منهم بناحية تركيبهِ

الكيمياوي ، وفريق آخر بالناحية الحيوية من جهة اجراء التجارب على الجرذان ومراقبتها واستخلاص النتائج منها. وهناك مركَّب آخر يدعى « دوروهيدروكينون » durohydroquinone يقال انهُ اذا استعملت مقادير كبيرة منهُ كان له فعل شبيه بفعل فيتامين E

والظاهر ان السابق الى تركيب مادة « الفا توكوفيرول » وهي وفيتامين E سواءٌ ، هو العالم السويسري الدكتور كارر Karrer ومساعدوه فريتش ورنجبيه وسالومون ، ثم تلاهم العلماء الاميركيون فركَّبوهُ وامتحنوا فعلهُ في الجرذان

٥ — شجرة الصابون (١)

قرأنا في السينتفك اميركان وصفاً مسهباً لشجرة الصابون. فقد جاء فيها ان المستر كدنر قنصل اميركا في الجزائر وصف هذه الشجرة في تقريره فقال ان اصلها من بلاد الصين وهي جميلة المنظر ويبلغ ارتفاعها خمسين قدماً وتبتدىء تحمل ثمراً حينما يصير عمرها ست سنوات . وخشبها محشوك الدقائق يصقل جيداً ويصلح لعمل الاثاث . وتبلغ غلة الشجرة البالغة ٢٠٠ رطل (ليبرة) من الاثمار تباع بجنيهين الى اربعة جنيهات وفي كل ثمرة بزرة حولها قشر والمادة الصابونية في القشر وهي من ٣٠ الى ٤٠ في المائة منه . ويقطع القشر ويفرك بالماء فيرغي كالصابون تماماً وينظف مثل الصابون الجيد بل لا يوجد صابون صناعي اجود من هذا الصابون الطبيعي او يقاربه في جودته ولا سيما لغسل اليدين والوجه . ويمكن سحق القشور وعمل اقراص من مسحوقها فتستعمل كألواح الصابون تماماً ويمكن نقعها بالماء واستعمال نقاعتها لغسل الشعر . وكيفما استعملت فهي أجود من الصابون وأرخص

وفي البزرة نواة فيها زيت أجود من زيت الزيتون من كل وجه سواءٌ استعمل في الطعام او في الصناعة . ومقدار الزيت فيها كثير جداً اكثر مما في حبوب الزيتون . واذا كثر البزر حتى صار يمكن استخدام الآلات لعصر الزيت منهُ صار ثمنه رخيصاً أرخص من زيت بذر القطن وطعمهُ نيئاً أطيب من طعم اي زيت آخر . ويبقى من البذر كسب يأكلهُ الفراخ والمواشي وهو علف جيد جداً لها . وورق الشجرة علف للمواشي لامثيل لهُ . ويمكن استعمال الثمر دواءً في منع فيضان اللعاب والصرع . ويستعمل أيضاً منفثاً ويقال ان بزره اذا سحق وجبل بالماء أوقف نوبات الصرع . ويوصف ربُّ الثمر دواءً للمصابين بالمرض الاخضر او فقر الدم . انتهى

هذا ويليق بالجمعية الزراعية الخديوية (الملكية الآن) ان تجلب بذور هذه الشجرة من بلاد الجزائر وتزرعها في القطر المصري لانها اذا كانت لها جميع هذه الخواص ووافقها هواءُ القطر المصري وتربتهُ كانت من أكبر النعم من حيث صابونها وزيتها وخشبها

(١) من ثلاثين سنة في المقتطف ج ٣٣ صفحة ٤٤٨

تيسير قواعد

النحو والصرف والبلاغة

خلاصة تقرير اللجنة

لا شكّ ان اللغة العربية من أصعب اللغات تعلماً وتعليماً . ونحوها وصرفها مليئان بالخلافات الكثيرة التي تجعل دراسة اللغة أمراً إدًّا . وقد شكلت في وزارة المعارف لجنة من الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب والاساتذة الاجلاء احمد أمين وعلي الجارم بك ومحمد ابو بكر ابراهيم وابراهيم مصطفى وعبد المجيد الشافعي لاقتراح مشروع لتبسيط قواعد النحو والصرف والبلاغة

ولا ريب ان هذه خطوة من الوزارة تحمد عليها لاننا نرى بعيوننا الصعوبة التي يلقاها طلبة المدارس في تعلم اللغة العربية . ونرى أيضاً طغيان العامية على العربية فيما يجري بين الناس من محادثات . حتى لتكاد العامية تكون لساناً قائماً بذاته

وقد اجتمعت اللجنة المذكورة وأصدرت عدّة مقترحات ، مهدت لها بمقدمة في ضرورة تعلم اللغة العربية الصحيحة . وفي انتشار العامية حتى في حجر الدراسة . . . وفي كون العامية هي لغة التخاطب في البيت وخارج البيت

ولم تغال اللجنة في حسن الظن بأن تكون العربية الآن لغة البيت والبيئة . وانما رأت ان يكون من الواجب جعل العربية الصحيحة أداة التعبير والكلام في المدارس . وحتمت ان يكون شرح مواد الدراسة بلسان عربي صحيح فالتاريخ والجغرافيا والطبيعة وغيرها تشرح للطلبة بالعربية لا بالعامية كما هو متبع الآن في المدارس

وترى اللجنة ألاّ يترك للغات الاخرى فرصة تزاحم بها اللغة العربية . فأعفت صبية التعليم الابتدائي من دراسة لغة غير العربية حتى اذا اجتمع للتلميذ الذوق العربي أمكن بعد ذلك — في مرحلة التعليم الثانوي — ان يدرس اللغة الاجنبية المراد دراستها

وقد لاحظت اللجنة انصراف الطلبة عن القراءة المنتجة ورغبتهم عنها . فهم لا يقرءون الاّ الكتاب المدرسي المقرر للنجاح ، في الامتحان . . . ولاحظت ايضاً فقر أدبنا الحديث

من كتب مفيدة لطوري الصبا والشباب . واقترحت على الوزارة تشجيع المؤلفين الذين سيكونون طلائع هذا النوع من التأليف او الترجمة

وجمعت اللجنة أسباب صعوبة اللغة العربية في ثلاث مسائل : —

(١) اسراف القدماء من النحاة في فلسفة الافتراض والتعليل

(٢) اسراف في القواعد

(٣) اسراف في التعمق العلمي باعد بين النحو والادب

وحاولت بعد ذلك تخليص النحو من هذه العيوب . فباعدت — في اقتراحاتها — بينهُ وبين الفلسفة . ولم تجعل للافتراض والتعليل سبيلاً الى دراسة القواعد . وتجنبت التعمق وقاربت بين الاصول والقواعد

ولم تقترح اللجنة حذف دراسة البلاغة كما يريد بعض غلاة المفكرين . وانما اقترحت حذف ما لا صلة له بحياتنا اليوم . وقد كان الاعتدال والاناة وحب هذه اللغة رائد اللجنة ودليلها . فلم تسرف في الانقلاب لعلمها بخطورته . وانما ناشدت الوزارة أن تتأنى في الاخذ بالاصلاح المقترح وتهيء له أسبابه

وأهم مقترحات اللجنة في النحو والصرف وجوب الاستغناء عن الاعراب التقديري والمحلي ووجوب إلغاء العلامات الاصلية والفرعية للاعراب . فيقسم الاسم الى ما يظهر عليه الحركات مع مدها وهو الاسماء الخمسة. والى ما يظهر فيه حركتان ضم وفتح وهو الممنوع من الصرف وهكذا

وترى اللجنة أن يكون لكل حركة لقب واحد في الاعراب والبناء . بدلاً من ألقاب الاعراب والبناء

وقسمت الجملة الى قسمين أساسيين . اختارت لهما اصطلاح المناطقة : الموضوع والمحمول . وبنت الاعراب على هذا الاساس . فالموضوع هو المحدث عنه في الجملة وهو مضموم دائماً الا اذا وقع بعد إن واخواتها . والمحمول هو الحديث ويكون اسماً فيضم او ظرفاً فيفتح او فعلاً او جملة او مع حرف من حروف الاضافة . وتجب المطابقة بين الموضوع والمحمول في التأنيث والعدد

وعلى هذا النحو يسرت اللجنة الاعراب . وجمعت القواعد الكثيرة في مسألة صغيرة

وترى اللجنة الغاء الضمير المستتر جوازاً او وجوباً . فمثل (زيد قام) لا ضمير فيه . وزيد الموضوع والفعل المحمول ، ومثل (الرجال قاموا) الرجال الموضوع والفعل قام هو المحمول . والواو والالف علامة للجمع

هذه هي اهم مقترحات اللجنة لخصناها في هذه الكلمة . وانا لنرجو مخلصين ان يتاح للغة العربية فرصة سعيدة تتخلص فيها من المشكلات النحوية والخلافات الجدلية ، وعوامل الضعف

الكثيرة الطارئة عليها حتى تطابق مقتضيات العصر من غير مباعدة بينها وبين الاصول . وحتى تحيا كما نرجو لها . فاننا يعزُّ علينا ان نراها غير ذلك كما قال أحد شعراء المهجر المعاصرين

لغة يهون على بنيهـا ان يروا يوم القيامة قبل يوم مماتهـا

*

بعد الفراغ من تلخيص تقرير اللجنة اطلعنا بطريق المصادفة السعيدة بينما كنا نراجع مجلدات المقتطف على مقال في المجلد التاسع والعشرين مقتطف ابريل سنة ١٩٠٤ لحضرة العالم الفاضل الاستاذ جرجس الخوري المقدسي أحد أساتذة اللغة العربية بجامعة بيروت الاميركية . وعنوان المقال « العربية وتسهيل قواعدها »

ولحضرة الكاتب الفاضل رأيهُ في تسهيل قواعد العربية نجمله في المسائل الآتية :

(١) يرى حضرتهُ اتحاد ضميري جمع المؤنث والمذكر . فيقال الرجال قاموا والنساء قاموا . من غير حاجة الى استعمال نون النسوة

(٢) ويرى أيضاً حذف باب الممنوع من الصرف . فتجري الكلمات كلها على حال واحدة من التنوين

(٣) ويرى ايضاً حذف الخلافات النحوية في اعراب بعض الكلمات . ولا يرى ضرراً في اعراب (اي) في جميع حالاتها . ولا حاجة الى القول ببنائها متى اضيفت وحذف صدر صلتها

(٤) ويرى رفع الاسم والخبر في جميع الحالات . مهما يختلف عليهما من الافعال الناقصة وان وأخواتها فيقال « محمد قائم » « كان محمد قائم » « ان محمد قائم »

والغرض من مقاله كما يقول هو في كلماته (تسهيل قواعد اللغة حتى لا يجد اولادنا ما يجدونهُ الآن من العناء في دروسها واضاعة الوقت الثمين على غير جدوى)

وهذا المقال الذي كتب ونشر في المقتطف من اربعة وثلاثين عاماً يدل على رغبة قديمة في اصلاح اللغة العربية وتيسير قواعدها وجعلها سائغة للطلاّب . هـذه الرغبة التي نادى بها المصلحون أخيراً والتي عنيت بها وزارة المعارف في هذه الايام عناية عملية

واذا كان في مقترحات الاستاذ جرجس المقدسي بعض الخطر على القواعد المقررة في علم النحو ، لان فيها هدماً للاصول . فأن المقال نفسه يدلنا على روح قديمة تميل الى تبسيط اللغة العربية واصلاحها

فهذه الرغبة الجديدة من وزارة المعارف هي في الواقع رغبة جاشت في صدور المصلحين منذ اكثر من ربع قرن . ونرجو لها التوفيق في تنفيذ هذه الامنية . فتيسير العربية هو أجل خدمة تسدى لهذا التراث القديم

***

ملتقى الشعر

والفلسفة

حول شاعرية المعري وفلسفته

لعلي الدهم

من أصدق كلمات هيجل قوله « الرجل العظيم يجشم الدنيا مشقة فهمه » فان الدنيا قد تنصف العظيم وتجل شأنه وتذيع ذكره وتنشر مزاياه ونضائله وتقذفه بالورود والازهار وترفع له القباب وتقيم التماثيل وتغمره بآيات التبجيل والتقدير ، وقد تسيء اليه وتمقهُ وتجازيه شر الجزاء وتفعل به الافاعيل فتغمطه حقه وتنكر عليه فضله وتحصبهُ بالاحجار او تجرعه السم الذعاف وتصلبه على الاخشاب وجذوع النخل وتمثل بهِ اقبح تمثيل ، ولكنها على الحالين لا تألو جهداً بعد مماته في استقصاء اخباره واستئناف النظر في حياته وتدبر أقواله وأفعاله ، وتستعز بما يقع في يدها من آثاره وتحرص عليهِ الحرص كلهُ ويظل كل جيل يبدأ النظر من جديد في حياته ويرسل رواده ليطوفوا في عالمه ويضعوا المصور الجغرافي الذي يعين مواقع الافكار ومواطن الاحساسات، ويصف هؤلاء الرواد عند عودتهم تأثراتهم ويكثرون من الحديث عما رأوه من المشاهد فيحفز ذلك غيرهم الى معاناة السفر والضرب في المجاهل

وباعث هـذه العناية بحياة العظماء التي لا يعتورها الفتور والتي لا تفتأ تتجدد مع تراخي الاحقاب وتوالي الاجيال هو ان نفوس العظماء مركبة عالمية متصلة الاسباب بسر الوجود الخفي الذي تتوق الانسانية الى اجتلائه ويستحثها اليه ميل لا يغالب ، فلا يقعد بها الطلب مهما تصدتها الحوائل وعرضت لها الشواغل ، وكل جيل يفهم العظيم على طريقته ويقدر قيمته بمعياره ،ولكل عصر من العصور طابعه الخاص ومزيته المتفرد بها ، والعصور في ذلك كالافراد لها ملامحها وطبائعها وطرائق تفكيرها وأساليب معرفتها ، ولكل عصر فكرته البارزة ونزعته المهيمنة على نفوس اهله ، وانما يتأثر العصر من العظيم بمقدار اقترابه من هذه النزعة السائدة ، ولقد كانت جمهرة أدباء القرن الثامن عشر وعلى رأسهم فولتير تزدري عبقرية شكسبير وترخص قدرها ،

وكان الشاعر بوب يقول وهو يظن نفسه قد اهتدى الى سر أسرار شكسبير ووقف على الدافع المستغلق الخفي لـكتابة رواياته بعد طول البحث والتعمق في النظر « لا بد للانسان ان يطعم » وذلك لغلبة النزعة العقلية على مفكري ذلك العصر عصر الاستنارة وزمان المستنيرين،وكان الثعالبي صاحب اليتيمة يرى ان ملاك شعر المتنبي قوله

أزورهم وظـلام الليل يشفع لي   وانثني وبياض الصبح يغري بي

لانهُ طابق بين الزيارة والانثناء وظلام الليل وبياض الصبح ، والشفاعة له والاغراء بهِ وكل هذا جميعاً في بيت واحد ؟ فأية معجزة باهرة وقدرة خارقة للعادة ! ولست أحاول ان أستطيل على الثعالبي وأتناوله من وراءِ مشارف النقد الحديث واشتد في تعنيفه لهذا الرأي القائل فهو رجل يمثل عصره أحسن تمثيل وله عذره المقبول ، والثعالبي على فضله وكثرة تواليفه لم يرزق من العبقرية ونفاذ النظر وسلامة الفطرة ما يرفعه قليلاً فوق مستوى عصره الفكري ويصونه عن الغوص الى الاعماق في أوهامه وتلبيساته ، وان للمتنبي أبياتاً سائرة كثيرة أحق بهذه المكانة وأجدر بحسن التقدير من هذا الزخرف المموه والطلاء الـكاذب الذي راق الثعالبي . والذي يبهرنا في العصر الحاضر من المتنبي جمال أصدق من محسنات البديع ويشرق علينا من ناحيته ضوءٌ لم تبصره عيون الـكثيرين من النقاد السالفين ومن بينهم الثعالبي

ومن هؤلاء العظماء الذين تتفاوت في تقديرهم الاجيال وتتشعب الآراء وتتجدد الرغبة في دراستهم بتجدد الازمان أبو العلاء المعري ، فاننا في العصر الحاضر نفهمه على أسلوب يغاير أسلوب معاصريه في فهمه ونسلك اليهِ طريقاً يخالف طريقهم ونرى فيهِ غير رأيهم ، فما كانوا ينقمونهُ منهُ ويكرهونهُ من أجله نراه نحن موضعاً للعطف والرحمة والتأمل والتفكير ، وما كانوا ينظرون اليهِ منه بعين التصغير والتجهيل ننظر نحن اليه منهُ بعين الاكبار والتبجيل ، وأهل العصور المتأخرة على وجه الاجمال أحسن تقديراً للعظماء لأنهم لا يعبدون العظيم ولا يرجمونهُ بالاحجار ، وانما يعملون على فهمه ولسنا نتخذ العظماء وسيلة لمعرفة عصورهم ومرآة يتمثل فيها اصطفاق النزعات وتباين الآراءِ في زمانهم فحسب ، بل نستعين بهم على فهم اسرار نفوسنا واستجلاءِ غوامضنا ومعرفة خفايا الـكون التي تحف بنا من كل النواحي ، وكأننا نقترب من فهم الـكون الـكبير غير المحدود بتأمل هذه الافلاك النيرة السابحة في جو التاريخ والاكوان الصغيرة المليئة بالاسرار والغرائب والتي ينطوي فيها العالم الاكبر

ومن أغرب غرائب العظماء الجديرة بالنظر والاعتبار والتي قد تظهر لاول وهلة عادية مألوفة جمعهم بين أشياء مختلفة الاعراق متناقضة كل التناقض ، ومن قبيل ذلك التئام النزعة الفلسفية بالسليقة الشعرية في ابي العلاء ، والتئام النزعة العلمية بالموهبة الفنية في مثل جيتي

وابسن، وذلك لان الفلسفة غير الشعر ، والشعر نقيض الفلسفة ، وكلاهما قائم على استعدادات في النفس متغايرة ، وقل مثل ذلك في الملكة الفنية والاستعداد العلمي ، فان الفن الذي دأبه ان ينظر الى الاشياء مجتمعة في كليتها غير العلم الذي يعمد الى التحليل وصدع ألفة الاشياء ومجراها في طبيعة الانسان تختلف

وليس ابو العلاء فيلسوفاً من باب التوسع والمجاز أو لانهُ أخذ بطرف من الفلسفة ، بل هو فيلسوف بالمعنى الشامل الحديث للكلمة الذي يفهمهُ منها امثال الاساتذة وندلباند وهفدنج وفوييه وغيرهم من كبار مؤرخي الفلسفة في العصور الحديثة ، وهو يدخل الى حظيرة الفلاسفة بمثل البطاقة التي دخل بها أمثال نيتشه وكارلايل وكولردج وغيرهم من عظماء الكتّاب والمؤرخين والشعراء الذين تغلبت عليهم أفكار خاصة ظاهرة المعالم في مناحي تفكيرهم وان لم يقيموا على أساسها مذهباً فلسفيًّا منتظماً محبوك الاطراف متجاوب الاقسام مثل مذهب شوبنهاور وهجل وغيرها من أصحاب الأبنية الفلسفية الضخمة . ولأبي العلاء أفكار خاصة مبتكرة عن الآداب والاخلاق وآراء في المرأة والتاريخ والاجتماع والحياة وكلها ظاهرة الحدود مطردة الاحكام لا يني يرددها ترديد العابد تسبيحاته ، ووراء هذه المجموعة من الخواطر المنثورة المنظومة فكرة عامة يفزع اليها ويحف برايتها ، وهذه الفكرة العامة خفاقة في كل ربوعه الفكرية ، ويصح ان نسميها مذهباً فلسفيًّا وموقفاً خاصًّا تجاه الحياة ، ونستطيع ان ننظر الى هذه الطوائف من الخواطر والافكار التي تموج بها صفحات دواوين أبي العلاء منفصلة عن الصورة الفنية والقوالب الشعرية ، وقد تجاوز المعري منطقة الشاعر الى منطقة الفيلسوف ، فهو من الحين الى الحين يصارع مشكلات الفكر الابدية ويجاهد معضلات الحياة المستعصية بجأش ربيط من غير ونية ولا فتور ، ويحاول ان يفض اغلاقها وينزع النقاب عن سرها ، وتكاد تشعر بلهفة نفسه وتصلصل جوفه من شدة الظماء الى جرعة من المورد الذي يرد كل المفكرين ظمأى متقلصي الشفاه لا ينقع لهم غليلاً ولا يشفي لهم نفساً ، ولم تبرد من لوعته المشبوبة في هذا الجهاد الشاق أضاليل الاماني وكواذب الاحلام ، ولم تصرفهُ عن مطلبه العسير صوارف الحياة ومشاغل العيش ، وهو يحتال في رياضة هذه المشكلات ببراعة فنية مدهشة جديرة بأساتذة الفن وأعلام الأدب ، ويكاد يذهلك في شعره التفكير الفلسفي عن الوحي الشعري لولا ما يتألق خلال أشعاره من بارقات الخيال الملون القوي وما يدفئها من حرارة المشاعر الحادة المستيقظة وما يتطاير فيها من تلك الكلمات المجنحة التي لا تثب الاَّ من مقول كبار الشعراء ، ولم يتحدث شاعر من شعراء الحضارة الاسلامية عن سر الوجود وغرائب الحياة والموت ولغز الخلود بلغة تشف عن الاهتمام العظيم مثل أبي العلاء ، ولم يجعلها أحد منهم قطب حياته وكعبة خواطره كما

جعلها أبو العلاء ، فطريقه في الشعر العربي طريق مبتكر لم يسلكه أحد قبله وقليل من طرقهُ وسار في موحش دروبه بعده ، ولقد صار الحق على يده جمالاً شعريًّا قبل ان يصير الجمال حقًّا فنيًّا فهو شاعر تهزه الافكار وتميل بنفسه كل مميل كما تحركه العواطف وتستهويه الخيالات ، ولهُ مكانة محترمة بين الشعراء ومنزله عالية عند الفلاسفة ، وهو من سكان المنطقة الحارة الشعرية ولهُ أيضاً قصور رحيبة وضياع فسيحة في المنطقة المتجمدة الفلسفية

وبين الشعر والفلسفة حرب قائمة من قديم الزمان ، وما نود ان تضع هذه الحرب أوزارها ولا أن تنقشع غبرتها ، بل يحلو لنا ان ننفخ في نيرانها المستعرة لتتسع دائرتها وتظل معقودة الغبار الى ما شاء الله ، لو استطعنا الى ذلك سبيلاً ، وقد بدأت هذه الحرب قبل ان يطرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته الخيالية خشية ان يفسدوا عليه انسانه الخيالي ، وانما نود دوام هذه الحروب لانهُ ليس مما يسر ان يفنى الشعر في الفلسفة فيستحيل صوراً ذهنية قليلة الجدوى ولا ان تندمج الفلسفة في الشعر فيخف وقارها وتحول خيالات لا طائل تحتها ، ويحسن بكليهما ان يعمل في دائرته ويسير في طريقه وان كان هناك مستوى أسمى يلتقيان في أعاليه ويتصافحان ويطلع كل منهما الآخر على نفيس مدخراته وغالي كنوزه ، ولذا ترانا عند ما نقف حيال شاعر كبير نتساءل عن فلسفته وطريقة نقده للحياة ، كما جرت العادة ان يرصع الفيلسوف كتاباته بشواهد مستمدة من الشعر يدعم بها حجته ويبرر موقفه ، فالشاعر يقتبس من أنوار الفيلسوف والفيلسوف يختلس من أشعة الشاعر ، وهما لا ينسيان هـذا النسب العالي والاخاء الروحي في أشد أوقات الخلاف والعداء

وليست وظيفة الشاعر ان يتناول الحق مباشرةً ، وانما وظيفته ان يتناوله من الجانب الحسي وينفحهُ بالجمال ويمزجهُ بحياة الانسان وعواطفه وأهوائه ومراغبه ، وليست المكانة الاولى في الشعر لما قالهُ الشاعر في ذاته وانما لكيفية قوله وأسلوب ادائه ، وهناك جماعة من نقاد الادب يغالون في ذلك فلا يعنيهم من الشعر الاَّ الصورة التي عبر بها الشاعر وتقدير نصيبها من الجمال والاتقان الفني ، ولست أشك في ان الصورة والتعبير لهما في الشعر المكان الاول ، فلقد تؤثر فينا خمرية من خمريات أبي نواس او قطعة من مجونه تأثيراً أبلغ مما يحدثهُ نظم أعمق الحكم وأقدس الكتب ، ولكننا بعد ان نفرغ من أمر الصورة لا نقف عند هذا الحد بل ننتقل الى ما وراء ذلك فلا نمنح لقب الشاعر الكبير الاّ الشاعر الذي يعبر عن أعمق الحقائق ويلمس خفايا القلوب ويطوف بنا في مشارق النفس ومغاورها ليرشدنا الى آفاق فكرية فسيحة ويركز أعلامه فوق مطالعها وثنياتها

وليس الشاعر هو الرصاص الوزان الذي يرصف الالفاظ رصفاً وينحت التراكيب ويوقع

التفاعيل ويتخير القوافي الرنانة ، فهذا وزان نظام لا أكثر ولا أقل مهما تسامى أو أسف ، وانما الشاعر الحق هو من كان بطبيعته أكثر استيعاباً لمؤثرات الكون المحيطة به وبخاصة تلك المؤثرات التي يرتضي تصويرها الفن وهو يجمع الى ذلك موهبة الموسيقية والتنغيم والسيطرة على اللغة وتسخيرها في اداء اغراضه والترجمة عما يقوم بنفسه من التأثيرات وما يدور فيها من شتى الخوالج وهو بذلك يستطيع ان يضمن عواطفه ونوازعه وخواطره عبارة موسيقية منسجمة ويقولها في شعر متسق جميل ، فهو مثل مزهر خفاق توقع عليه الطبيعة ألحانها وتعزف أناشيدها، وهو يفطن بحدة مشاعره الى جمال في الطبيعة يغيب عن عيوننا ويسمع منها انغاماً لا تصل الى آذاننا ويروي لنا عن عالم بعيد وان كان جد قريب منا ويحدثنا عن ارض مسحورة هي التي نعيش فيها ونسعى في مناكبها غير عالمين بما فيها من مفاتن الحسن وروائع الجلال لنبو الشعور وكلالة الحواس

***

على ان توافر هذه المزايا الشريفة والمواهب العالية لا يكفي لانشاء شاعر كبير يعبر عن روح العصر ويصف شتى جوانب النفس الانسانية وتلتقي في نفسه البواعث المختلفة والتيارات المتناوحة، وانما هي تكون شاعراً وسطاً يطربنا شعره ولكنهُ لا يملأ نفوسنا ونتخذه صديقاً مسلياً لا استاذاً نسترشد بحكمته ونعنو لآرائهِ ، والشاعر الكبير يلزم لهُ مجهود من الطبيعة اكثر من ذلك وعليها ان تجزل لهُ المواهب السنية ولا مفر من ان يزاد الى تلك الحساسية اللطيفة والطبيعة المذودة بالانغام عقل كبير يضيء الظلمات ويكشف المخبآت تشد من قوائمه في اكثر الاحايين ثقافة عالية وعلم وافر ، وأمثال هؤلاء الشعراء قلائل في كل الامم بخيل بهم الزمن وأبو العلاء من هؤلاء النوادر القلائل

ولعل النزعة الفلسفية جارت في ابي العلاء على السليقة الشعرية ، وفي المعركة التي نشبت بين عقله وعواطفه تغلب العقل في كثير من المواقف واستعلى على العاطفة ، وقد دفع ابو العلاء ثمناً غالياً لذلك ، ولولا انتهاجه هذه الخطة واسرافه على نفسه فيها اسرافاً أساء الى شاعريته لكان شعره أجرى الى مسالك النفس وأشد حوكاً في الطباع ، ولقد اجاب ابو العلاء داعي الفلسفة ولم يلب داعي الشعر لما قطع الاتصال المباشر بينهُ وبين الحياة والمجتمع وظل في عقر داره يحلل افكاره ويشرح عواطفه ولا يتعرض لحلو التجارب ومرها ولا يعاني مد الحياة وجزرها ، والوقوف على الشاطئ وعدم المغامرة في اللجج والتقلب في ادوار الامل والخيبة والارتفاع والهبوط مسلك قد يلائم طبيعة الفلاسفة المتنسكين والعباد الزاهدين ولكنهُ مفسدة اي مفسدة للشاعر ابن الطبيعة المدلل وصفيها المحبب ، وقد غض هذا المسلك من روعة خيال المعري وشوه

من جمال شعره ، وثأرت شاعريته الاصيلة لنفسها من نزعة التجريد والانطلاق وراء الحق الفلسفي فصار أطول الناس مصابرة وأشدهم جلداً على القراءة لا يستطيع ان يمضي في قراءة صفحات معدودة من اللزوميات دون ان يحمل على نفسه ويعنتها

***

وحسب ابو العلاء انهُ قد أماط الكذب عن شاعريته لانهُ نزهها عن الخيال وحبسها على تقرير الحق العاري من التمويه والطلاء ، وجاراه في ذلك الدكتور طه حسين فقال في ذكرى ابي العلاء عندما عقد الموازنة بين المتنبي وابي العلاء « المتنبي حكيم ينتحل الحكمة ويتكلف الفلسفة وابو العلاء حكيم حقاً وفيلسوف لا يعرف التكلف ولا الانتحال ؛ وحب المال والتماسه من الملوك والامراء اندفع بالمتنبي الى الكذب والمين وجعل حكمته صنعة وفلسفته شركاً لاصطياد المال ، والاستهانة بامر الدنيا جعلت ابا العلاء شديد الحرص على الصدق عظيم الحذر من انتحال الزور فكانت حكمته صادقة وفلسفته فطرية ، ومن هنا استجاب المتنبي الى الخيال وامتنع ابو العلاء عليه» وواضح من رأي الدكتور ان الخيال شديد العلاقة بالكذب وان ابا العلاء حرص على الصدق فنبذ الخيال ، وليس الامر كذلك ، وأرى ان مصدر هذا الوهم هو الخلط بين الحق الفلسفي والحق الفني ، وليس الخيال هو الكذب وانما هو منظار الحقائق ومصور خفايا النفس ، وهو عتاد الشاعر وركنه الركين ، واذا كان الشاعر طائراً فان الخيال جناحه ، وقد يظن ان الخيال كذب وذلك لان الفن نفسه قائم على اكذوبة عريقة النسب في الصدق اذ يخلق عالماً غير العالم ويعمره بالموجودات والاحياء ، والخيال هو عامل الانشاء في بناء هذا العالم وخالق احيائه ومبدع موجوداته ، والفن لا يجاري الواقع ولا يحتذيه لا لانهُ يجافيه ويتعمد ان يقلب نظامه ويعكس سننه وانما لانهُ يحاول ان يكمل نقصه ويسد فجواته ويصفيه ويهذبهُ ، قال شوبنهور « ان وظيفة الخيال هي أن يتم ما تبغي الطبيعة ظلابه فيعجزها » وانما المهم في الخيال ان يقوم على صدق الاحساس ، وقد يصف لنا كاتب من الكتاب جزائر واق الواق او جبل قاف وبلاد بليت وهو مع ذلك أصدق حديثاً ممن يصف لك مشهداً عادياً معروفاً ، وقد وصف هومر حرب طروادة وصفاً قد يختلف في ظاهره وتفاصيله عن وصف المؤرخين لها ولكن هومر يعطيك لباب الحادثة ويطلعك على روحها ويترك القشور ويلغي الحشو . والخيال على نوعين : الخيال المنشىء مثل خيال شكسبير ودانتي وجيتي لانهُ يجسم الاحساسات ويخلق الشخصيات ، والخيال النافذ مثل خيال كارلايل وريتان ، وهذا النوع من الخيال هو الذي يعين صاحبه على استحضار

طيوف الماضي وتصوير الشخصيات التي طواها الموت ولولا الخيال لحرمت الانسانية من أروع طرف الادب وأنفس مبتكرات الفن ، وأرجح ان الدكتور عدل رأيه في هذا الموضوع بعض التعديل فقد شدَّد النكير على الاستاذ العقاد لانهُ رمى المعري بضعف الخيال في رسالة الغفران وعدها كبيرة من الكبائر وذلك في المقال الذي كتبهُ في نقد كتاب « المطالعات » ، والمتنبي أقوم بحقوق الشاعرية من أبي العلاء وأوفى بعهودها وحكمته فيض الطبع وثمرة التجربة ، وهو لا يعتسف الحكمة ولا يسوقها لك كالسواق الحطم ولا يؤديها بطريقة تعليمية جافة او على أسلوب المتحذلقين وثرثرة المعرفة الذين شحنت غرائزهم بالبديهيات ورخيص الحكم ومبتذل الامثال ، وانما يأتي بالحكمة في سياق وصف حادثة او تصوير موقف باعتبارها جزءًا عضويًّا من الوصف وقطعة من الصورة ، وهذا الايراد الفني للحكم حسب مقتضى الحال وفي المناسبات السانحة هو الذي أثبت حكمة المتنبي على كواهل الدهور وطبعها في النفوس وأجراها على عذبات الالسنة

***

ولقد ظهر جيتي في المانيا في عصر نهضة حافلة ، وكان الجو الفكري يمور بالافكار الفلسفية فعبَّ جيتي من الفلسفة ولكن بمقدار صونًا لشاعريته ، وذهابًا بنفسهِ عن الانغماس في التجريدات ومجافاة عالم الحقائق المعينة والواقع الملموس فلم تذبل شاعريته ولم يُـهَـضْ خياله بل ازداد قوةً على قوة ، وقد تأثر جيتي بالفيلسوفين اسبنوزا وأفلاطون وهو مدين لهما بالكثير « ولكنهُ كما يقول الاستاذ ادورد كيرد في مقالهِ البديع عن « جيتي والفلسفة » ظلَّ طول حياتهِ على أهبتهِ لا يسمح للفلسفة ان تستأثر بنفسهِ ولا يقبل منها الاَّ ما يماشي نوازعهُ ويلائم طبيعته ، وكان يستثمر نتائجها دون ان يضرب في تيهها او يأخذ في مسالكها الملتوية اذ كان يعلم ان قوتهُ الركينة قائمة على وحي الخيال الشعري » وقد أرضى جيتي غريزة حب الاستطلاع القوية في العبقريين دون ان يسيء الى شاعريته ففتح أبوابه لتأثيرات مختلفة وشارك في أكثر الحركات الفكرية ولكنهُ لم يمكنها من اجتياح طبيعته واستئصال غرائزه ، وظلَّ ثبتًا في مهاب رياحها ، وكان يعلم ان الافراط في طلب الحق الفلسفي يطفىء حماسة طلب الحق الفني ، ومن الاستهانة بحقوق الفن ان يسخر الشاعر ملكته لاجل فكره أو ان يقفها للنضح عن عقيدة ، لان الشاعر فنان قبل كل شيء ، ولا يكون الفن فنًّا خالصًا الاَّ اذا كان مالكًا حريته مطلق السيادة في عالمهِ لا شريك لهُ في ملكه ولا مدافع لهُ عن مكانته ، والدين والفلسفة والادب كلٌّ منهم سيدٌ في عالمهِ ، والشعر لا يكون شعرًا الاَّ اذا كان حرًّا طليقًا غير خاضع لسلطان الدين او للفلسفة او

الآداب ، والاشعار التي تتضمن الوعظ والنصائح وتستنفر الناس للفضيلة وتزعهم عن الرذيلة هي نوع من الوعظ وضرب من التبشير ، وأصحابها الصالحون يحاولون انقاذنا من حبائل الشيطان ومهاوي السوء فلهم ثواب عند الله وأجر عظيم في مستقر رحمته لحسن المقصد وسلامة النية ، ولكن الفن لا يجازيهم على مجهودهم لانهم لم يلتمسوا بها وجه الفن ، وأمثال هذه الاشعار شواهد في السلوك ومتون في الاخلاق كما ان ألفية ابن مالك متن في النحو وان كانت منظومة شعراً ، وللفن وجوده الخاص وشخصيته المستقلة ، والفنان الذي يحاول ان يستدرجنا على غرة ليسمعنا دروسه الاخلاقية ومحاضراته عن الفضائل والرذائل نسميه واعظاً ، وليست الفنون والآداب منابر للوعظ ولا أندية للتبشير ، ومن العبث ان ينازع الشعراء رجال الوعظ وظيفتهم ويضيقوا عليهم سبلهم . ومن المشاهد ان الكتّاب الذين تتغلب عليهم نزعة الانتصار لناحية خاصة من نواحي الاخلاق يمسخون الطبيعة البشرية ويشوّهون تصويرها ، والفنّان الصادق تنأى به طبيعته عن مثل ذلك فلا يغالي في نزعة من النزعات ولا ينتصر لجانب من الجوانب

***

وتختلف وظيفة الشاعر عن وظيفة الفيلسوف ، فوظيفة الفيلسوف هي ان يتناول بالتحليل التيارات الفكرية الغالبة على جيل من الاجيال والتي تشكل افكار هذا الجيل وتقوم على اساسها ثقافته ومعرفته ، ويقيس أبعادها ويسبر أغوارها ، أما مجال الشعر فهو اظهار الجمال ، ولقد قال كيتس الشاعر « ان الجمال حق والحق جمال » ولكن مع ذلك فان التفسير الفلسفي للحياة غير التفسير الشعري ، وقد بسط الفيلسوف النقادة الايطالي بندتو كروتشه الفرق بين الفلسفة والشعر في هذه الكلمات القوية « قبل ان يصل الانسان الى درجة تكوين الافكار عن العام كوّن افكاراً خيالية ، وقبل ان يفكر تفكيراً واضحاً كان يفهم الاشياء فهماً غائماً مختلطاً ، وقبل أن يتكلم ترنم ، ولم ينطق بالنثر الاّ بعد أن عبر بالشعر ، وقبل ان ينحت الاصطلاحات استعمل المجازات ، فالشعر ليس وسيلة لشرح الفلسفة وانما هو نقيض لها ، فالفلسفة تحرر الذهن من الحواس ، اما الشعر فانهُ يغرقهُ في عالم الحواس ، والفلسفة تصل الى الكمال بنسبة تساميها الى العام ، أما الشعر فيعظم ويكمل بمقدار انحصاره في الخاص ، والفلسفة تضعف الخيال وتكبله والشعر يقويه ويطلقهُ ، والفلسفة تحذرنا من استحالة العقل الى جسم والشعر يحاربهُ ان يجسم العقل ، وأحكام الشعر مشتقة من الحواس والعواطف ، وأحكام الفلسفة قائمة على التفكير الذي لو تسرب الى الشعر جعله فاتراً ، ولم يعرف في سير التاريخ احد كان شاعراً كبيراً وفيلسوفاً كبيراً معاً » ونستخلص من كلام كروتشه ان الانسان لا يعبد الهين ، وان التفوق في الشعر والنبوغ في الفلسفة لا يجتمعان في صعيد واحد

وان الانسان صدح بالشعر في بواكير الحياة الاجتماعية وفجر التاريخ قبل ان يتكلم نثراً ، ولج في عالم الاحلام وسدر في غلواء الخيالات والاوهام قبل ان يستكثر من الصور المجردة ويعيش على الفروض والنظريات ، فالخيال جاء قبل المنطق والخرافة سبقت التاريخ والغناء تقدم الكلام والشعر أقدم من النثر . ومازال ذلك يتكرر في حياة الامم ويشاهد في دروجها من مهد الطفولة وملاعبها وغضارة الفطرة وبساطتها الى شباب الحضارة وكهولتها وتكلفها وتعقيدها ، وكل نهضة تبدأ بالشعر ثم تنتقل الى الفلسفة في ابان نضجها وهكذا ينتقل المصباح من يد الشاعر فتتلقفهُ يد الفيلسوف

***

ولا أجد مثلاً أبلغ في شرح رأي كروتشه من الموازنة بين رجلين أحدهما يمثل الشاعرية في أتم معانيها والآخر يمثل الفلسفة في صورة من أكمل صورها ، وهما شكسبير وشوبنهاور ، فشكسبير يصور لك كل خالجة من خوالج النفس ويكسو نزعات الاهواء صورة اللحم والدم ، ووظيفته أن يريك الحياة بأجزائها وألوانها ، وهو يصور عواطف الحب والبغضاء والانتقام والحسد والغيرة والندم والخوف والجشع والطموح وعدم المبالاة ، ويمثل لك حالة الملك الهمام والقائد الرهيب والعابد المتنسك والمارق الفاجر والبطل الأبي والمتسوّل الوضيع والجبان النكس والعفيفة الطاهرة والداعرة الفاجرة الى سائر تلك الصور العديدة من الاحياء التي تفتن الطبيعة في اخراجها ، أما شوبنهور فهو يشاهد في الحياة أمثال هذه الصور المعينة ولكن ينفذ من خلالها الى الفكرة العامة المستقرّة خلفها ويبني عليها آراءه في الاخلاق ويقيم مذهبهُ الفلسفي ، ويتناول بالتحليل هذه المظاهر ويجردها من أثوابها ويردها في النهاية الى مصدر واحد هو الرغبة في الحياة التي تبدو في صور متعددة

فشكسبير وظيفته ان يمثل ويصور ، أما شوبنهاور فطريقته أن يشرح ويفسر وقد تظفر في روايات شكسبير بالحكم العميقة والنظرات النافذة وضروب الفلسفة العالية ولكنها ليست هناك لذاتها وانما هي جزء من البناء الفني وقطعة من الصورة اقتضتها ضرورة التصوير ، وقد تقرأ لشوبنهاور الروائع الادبية والخيالات الشعرية ولكنها ليست واردة في كتاباته لغرض فني وانما هي هناك مدرجة للتجريد وسلم يرتقي بهِ للفكرة العامة ، وموجز القول ان الشاعر هو احساس الانسانية والفيلسوف هو عقلها ولا انسانية بغير احساس او عقل

« وعقل » الفتى نصف ونصف فؤاده فلم تبق الاّ صورة اللحم والدم



ابو العلاء المعري

حديثكَ عن بحرٍ اذا هاج أرعبا … فحقك عند الخوض أن تتهيَّبا

ولـكنهُ البحرُ الذي لا تهزه … عواصفُ تذري الراسيات لتلعبا

وخلجانهُ درٌّ تنضده الضحى … وشطآنه تبرٌ تبعثره الصَّبا

ويقصده الصادي فيلفيه كالندى … وأطهرَ من دمع الصباح وأعذبا

سلامٌ على شيخ المعرّة أنَّهُ … أفاض على الاجيال سحراً مركَّبا

سلافةُ شعرٍ في اباريق حكمةٍ … يطوف بها عانٍ اذا افترَّ قطَّبا

رمتهُ يدُ الاقدار باليتم والعمى … فكان له العقلُ الهدى والهدى الأبا

وغادرهُ الجدري صبيًّا مشوَّهاً … حكى جلدُهُ اللدنُ الطريقَ المحصَّبا

فما فيهِ ما يرضي العيونَ وانما … بهِ كلُّ ما يرضي الشعورَ المهذَّبا

ترى وجههُ كالقفر حرَّانَ مجدباً … وما خلفهُ كالروض ريَّانَ مخصبا

فيا لكَ قفراً لا ترى غيرَ شوكهِ … ويا لك شوكاً يبعثُ العرفَ طيِّبا

ويا لكِ دنيا بين حينٍ وآخرٍ … تمتعُ محروماً بما عزَّ مطلبا

***

تعمَّدتِ الاقدار إرهاقَ احمدٍ … فأسمعها آياً من الهزءِ مُعربا

وحاكت لهُ ثوباً قشيباً من الأذى … فحاكَ لها ثوباً من السخط أقشبا

وأدَّبت الدنيا بنيها فهالهـا … فتىً هالهُ ان لا يكونَ المؤدِّبا

وما عـرفـت نفساً اعزَّ ولا نهىً … أصحَّ ولا عوداً أشدَّ وأصلبا

رأت في صباها شيبةً فتعجبت … وشبَّ لدُنْ شابت فزادت تعجبا

خلودٌ لو انَّ الشمس تحظى بمثلهِ … لما جاء في التنجيم عن موتها نبا

فقد يطفىء الموتُ الكواكب تاركاً … على رغمهِ فوق السماكين كوكبا

ويمحو جميعَ القول الاَّ حقيقةً تجوب فجاج الارض شرقاً ومغربا
ليعربَ هذا المجد يا وُلدَ يعرب فأيّ كريمٍ لا يمجّد يعربا
وللشام هذا الارثُ يا آل جلَّقٍ ألا فليتِهِ لبنانُ ولتشمخ الربى !
ولو شاءت الدنيا الى الحقّ عودةً لسارت الى ارض المعرّة موكبا
وحجّ ضريح الشيخ طلاّبُ علمهِ كما حجّ طلاّبُ التبركِ يثربا

***

ألا ايها الاعمى البصير الذي رأى بفطنتهِ قلبَ الورى المتقلبا
وأبصر بالعقل الخفيات كاشفاً وراء التقى والبرّ مكراً ومأربا
ولم يرَ في الاديان إلاّ حبائلاً يصيد بها الداعي اليها التكسّبا
حنانيكَ إنّ الالفَ مرّت ولم نزل نداري من الانسان صلاً وعقربا
توخّيتَ إصلاحَ ابن آدمَ غيرةً وقد كان إصلاح السراحين أقربا
وحاولتَ إطفاءَ الشرور ولم يكن على الشيخ إطفاء البراكين أصعبا
ومن رام تقويم الطباع التي التوَت قضى يائساً منها كما عاش متعبا
فإنّ الذي فارقتهُ متعصباً لقد زادهُ مرّ الليالي تعصّبا
وما خفتت في اللاذقية ضجّةٌ وما زال ذيّاك الصحيحُ محجّبا
فما الناس الاّ اثنان ضارٍ مدجّجٌ ومستضعفٌ لم يُعطَ ناباً ومخلبا
وإنّا لنخشى ان نصاحبَ ضيغماً وإنا لنأبى ان نصاحبَ ثعلبا
وما عزّ من يسطو على حقّ جاره ولو مدّ بين الارض والشمس كوكبا
وما ذلّ حقّ في عراكٍ لباطلٍ وكم ربّ حقّ قد أُذِلّ وخُيّبا
وليس يفيد الحقّ في الحرب ربّهُ اذا فُلّ في الكفّ المهنّدُ أو نبا
وفيمَ اقتتالُ الناس والموتُ قصدُهم سيبلغهُ من هفّ منهم ومن حبا
فلو أنفقوا بعضَ الذي ينفقونهُ على الشرّ من جهدٍ على الخير ما كبا
قد اختلفوا روحاً وعقلاً وفطرةً كما اختلفوا داراً وديناً ومذهبا
لهم مجلسٌ للسلم عندٌ فوقهُ سحائبُ نقعٍ تجعل النور غيهبا

اذا اجتمعوا فيه لترتيب خطة توقعت الاعزالُ شراً مرتبا
وإن أنصفوا شعباً ضعيفاً بقولهم رأى نصفهم بالفعل ظلماً مشعبا
ولو وصلت أبحاثهم في اجتماعهم الى الشيخ — وهو الجهم — في الضحك أغربا

***

فيا من رأى في الدين قيداً لعقله فأعمل فيه مبردَ النقد مغضبا
فلم يرَ في اللماع من حلقاته وفي قفله الاَّ حديداً مذهبا
فأعلن للغاوين لا متهيباً ولا طامعاً ما كان عنهم مغيبا
« أفيقوا أفيقوا يا غواةُ فانما دياناتكم مكرٌ » وأحلامكم هبا
فما عملوا الاَّ بوحي قلوبهم فأعرض عنهم مشفقاً متعتبا
وآثر ان يحيا بقية عمره سجيناً اذا جاءوا يؤاسونهُ أبى
على انهم لا مهربٌ من مجيئهم كما جاء ظمآنٌ غديراً ليشربا
عطاشاً الى ما يُسكر النفس حولهُ جياعاً الى ما يُشبع العقل سغبا
صبا بهم شعرٌ وعلمٌ وانهُ خزانة اشعارٍ وعلمٍ لمن صبا
يقول لهم عودوا الى العقل كلما دعيتم الى تصديق ما العقل كذبا
من اشتار ما كدَّت لهُ النحلة اعتدى ومن قتلَ الشاةَ البريئة أذنبا
ومن سرح البرغوثَ من اسر كفّهِ أعدَّ لهُ في دولة الفضل منصبا
تعاليم احسانٍ وعطفٍ ورأفةٍ وليدة فكرٍ نورهُ قط ما خبا
ولكنها ما دام للشرّ عزّةٌ فتابعها يقضي شقياً معذَّبا
وما دام نابُ الليثِ يوليه حرمةً فأهلاً وسهلاً بالنيوب ومرحبا !

***

سلامٌ امامَ العاقلين على حجًى من الشمس يحكي قرصها المتلهبا
ألوفٌ وراء الالف تمضي وذكره يظلُّ لامثال الخليقة مضربا

برازيل — الياس فرحات

الانتروبولوجيا والبحث الجنائي

الهيكل العظمي

يدل على سلالة صاحبه
وجنسهِ وقامتهِ وعمره

من البواعث على اغتباط كاتب هذه السطور ان أُتيح لهُ في رحلات مختلفة الى بلدان أوربا واميركا زيارة دور للآثار القديمة فيها خلاصة ما عثر عليهِ العلماء والمنقبون من بقايا الحيوانات البائدة في العصور المتغلغلة في القدم . من هذه البقايا عظام اوكسر عظام ، أخذها العلماء وبنوا على أساسها هياكل عظمية تامة . منها ما هو خاص بحيوانات مختلفة النوع ومتفاوتة الحجم ومنها ما هو لأُناس أو لسلالات من الناس قاموا وبادوا في بقاع متباينة من سطح الارض . وقد تكون العظمة عظمة الفخذ او عظمة العضد او قطعة من عظام الجمجمة او فكاً ، ولكن العلماء المختصين يستطيعون على ما يظهر ان يتبيَّنوا من دراسة هذه العظام اوصافاً دقيقة وحقائق منوعة عن صاحبها ، فيبنوا على هذه الاوصاف والحقائق صورة كاملة لصاحب العظمة سواء أحيواناً كان أم انساناً وقد يستطيعون اذا فازوا ببضع عظام ان يعيدوا بناء الهيكل العظمي كاملاً . وكثيراً ما سأل نفسهُ محيراً كيف يفعلون ذلك ؟

والعلم بآثار الاحياء البائدة جليل الشأن من نواحٍ متعددة . فهو ذو صلة بفهم التطوُّر العضوي في الاحياء ونشوئها . وهو ذو صلة كذلك بدراسة الاحوال الجوية والارضية التي كانت تسود المنطقة التي عاشت فيها تلك الاحياء وما طرأ عليها من تبدُّل . ولكنهُ بحث يتصل بالماضي السحيق ، اذا وجد فيهِ ذهن العامي متعة وذهن العالم فائدة كبيرة الشأن في استكمال العلوم المتصلة به ، فانهُ من الصعب ان تستشف لهُ فائدة عملية تتصل بحياتنا اليوم

إلاَّ ان قراء المقتطف اصبحوا يعلمون مما يطالعون في فصوله ، ان البحث العلمي لا يمكن حصره في حدود النظر مهما يكن الموضوع نظريًّا ، ولا ان تقسَّم المباحث العلمية تقسيماً حاسماً

بين النظريّ والعمليّ . وهذا يقيننا ويقين كلٍّ من تتبع تاريخ العلوم وتقدمها

ولذلك ما زال هذا الكاتب يترقب ان تسفر المباحث العلمية الحديثة عن تطبيق عملي لما يعرفهُ علماء الآثار البائدة عن عظام الهيكل الحيواني وما يتبينونهُ فيها من الصفات وما يستخلصونهُ من دراستها من الحقائق . وقد تمَّ لهُ ما كان يتوقع عندما قرأ في إحدى المجلاَّت العلمية الاميركية، عن تطبيق هذا العلم على البحث الجنائي مما يسهل على رجال البوليس والتحرّي استكشاف بعض الجرائم والجنايات الغامضة

فقد حدث في احد الايام ان جماعة من الاطفال كانت تلعب في حفرة قريبة من حدود قريةٍ كبيرة بأميركا فعثر الاولاد في أثناء لعبهم على مجموعة من العظام ظهر لاولي الامر بعد بحثها أنها عظام بشرية . فعهد الى عالم أنثروبولوجي — وهو وصف هذا الضرب من العلم — بدراستها ففعل وبعدما استوفى دراستهُ وضع أوصافاً دقيقة للانسان الذي كانت هذه العظام عظامهُ . قال ان صاحب هذه العظام امرأة خلاسية اي سليلة سلالتين مختلفتين وقد كانت في هذه الحالة زنجية الام بيضاء الاب، في الثالثة والثلاثين من عمرها طولها خمس اقدام وست بوصات ونصف بوصة ووزنها ١٢٠ رطلاً . فلما إتصلت هذه الحقائق بدائرة الامن العام تمكن رجالها من التعرُّف على سيدة ضاعت ولم يعثر لها على اثر . وكانت أوصاف هذه السيدة محفوظة في دائرة الامن العام ولدى مقابلتها بالاوصاف التي استخرجها العالم الانثربولوجي من دراسة العظام فقط ظهرت مطابقة عجيبة . عمرها ½ ٣٣ — مقابل ٣٣ في اوصاف العالم. طولها ٥ أقدام و٧ بوصات — مقابل ٥ اقدام و ½ ٦ بوصة في أوصاف العالم . وزنها ١٢٥ رطلاً مقابل ١٢٠ رطلاً في أوصاف العالم . لون بشرتها بين الزنجي والابيض في الاثنين

وليس هذا الوصف الدقيق بفلتةٍ اومن قبيل الحزر والاحتمال . وذلك لانَّ الهيكل العظميَّ في الانسان — على قول استاذ التشريح والانثروبولوجيا الطبيعية في جامعة وسترن ريزرف الاميركية — يبين التاريخ الطبيعي لصاحبه بلا خطاء ويبقى قادراً على تبيانهِ بعد انقضاء قرون وصاحبهُ دفين في أطباق الثرى

السلالة تستبين منه والجنس والعمر والقامة . وقد يمكن ان يستخلص من بعض عظامهِ بعض الامراض الخطيرة التي أصيب بها في اثناء الحياة لما تتركه من اثرٍ في العظام

وقد بلغ من تقدم هذه الطريقة انها أصبحت معواناً لا بدَّ منه للباحث الجنائي وللباحث الأثري والمؤرخ بل انها تطبق أحياناً على الاحيـاء فتفحص عظامهم بواسطة الاشعة السينية لاستخلاص ما يمكن ان يكون ذا فائدة في معرفة شؤون لها صلة بالنموّ والصحة

والهيكل العظميّ يبيح اسراره للعلماء والباحثين عن طريق القياس المقابل . فالاوصاف الخاصة بالسلالة مثلاً تمكّن معرفتها من النسبة التي بين عظام الجمجمة وعناصرها . فجمجمة الزنجي مستطيلة مسطحة . ومحجرا العينين بعيد احدهما عن الآخر . ومستوى عظام الوجه منحرف انحرافاً شديداً . ثم ان الحوض ضيق وعظام الذراعين طويلة بالقياس الى طول عظام الفخذين هذه النسبة المختلفة متباينة عما تراه مما يقابلها في هيكل رجل من الجنس الابيض

وليس في وسع الانثربولوجي ان يميز فقط هيكل رجل من سلالة معينة عن هيكل رجل من سلالة أخرى بل يستطيع كذلك ان يميز هيكل رجل خلاسي أي خليط من سلالتين ودرجة ذلك

ثم ان الجنس او الشق أي هل صاحب الهيكل ذكر او أنثى يمكن استخلاصهُ من دراسة الهيكل العظمي وفي ٩٨ في المائة من الحوادث يمكن الاعتماد في ذلك على دراسة عظام الحوض وهي العظام التي تحمل في المرأة الرحِم اي بيت الولد . فاذا درس الحوض وأضيفت اليهِ دراسة الجمجمة أمكن الجزم في هل صاحب الهيكل ذكرٌ او أنثى . ومن الحقائق التي أثبتتها البحوث والتجارب التي يمكن الاعتماد عليها في هـذا الصدد ان سعة الجمجمة تقلُّ في الانثى نحو ٢٠٠ سنتيمتر مكعب عنها في الذكر . وهناك عظمة معينة هي أقل بروزاً في جمجمة الانثى منها في جمجمة الذكر . أما عظمة الحوض في المرأة فأوسع بحكم الطبع منها في الرجل . وهيكلها بوجهٍ عام أدق وأرشق . حالة ان هيكل الرجل أضخم وأقوى

فلنفرض الآن ان سلالة صاحب الهيكل قد تعيَّنت . وان جنسهُ قد عرف . فلننظر الآن في الاسلوب الذي يعتمد عليهِ الباحث في تعيين قامتهِ. انَّ ذلك يعتمد على معادلات رياضية استخرجها الباحثون من دراستهم المسهبة للصلة بين القامة وطول العظام في الذراعين والفخذين . وعظمة الفخذ خاصةً من أهم ما يعتمد عليهِ في هذه الناحية . فقد أثبت الاحصائيون ان طول الرجل يبلغ نحو ضعفي طول هذه العظمة زائد ٨١٣ ملمتراً و ٦ في المائة من الملمتر . قلنا « نحو ضعفين » والواقع ان النسبة الدقيقة هي واحد و٨٨ في المائة . أما النسبة في المرأة فهي ١و٩٤ من طول

عظمة الفخذ زائد ٤ ٤ر٧٢٨ من الملمتر . ثم هناك نسب أخرى معروفة للعلاقة بين طول القامة وطول عظمة الذراع العليا المعروفة باسم عظمة العضد والنتائج المعروفة تثبت ان الاعتماد على هذه المقاييس واستخلاص طول القامة استناداً اليها لا يحتمل خطأ أكثر من واحد في المائة

ومن أظرف ما يروى من الحوادث التي كان الحكم فيها للبحث في العظام ان هنديًّا أميركيًّا كان لهُ ولد يملك قطعة من الارض . وغادر الولد البيت ولم يرجع . ثم ظهر ان في هذه الارض بترولاً . فطالب الوالد بحقهِ . فتعذَّر الحكم لهُ لانهُ لم يثبت ان ابنهُ ليس على قيد الحياة . ثم علم من سجلات البوليس في ولاية مجاورة ان شابًّا يشبه في أوصافهِ العامة ابن هذا الهندي قتل وهو ممتطٍ جواداً ودفن . فأمرت المحكمة بأن تنبش الجثة ويعهد بفحص عظامها الى أحد الباحثين المختصين . وبعد دراسة دامت ثلاثة أيام ثبت ان الجثة جثة ابن ذلك الرجل فنال حقهُ في الارث عن طريق البحث الانثروبولوجي

أما عمر صاحب الهيكل العظمي فيمكن استخلاصهُ بدقة عظيمة من دراسة نسيجهِ العظمي اذ في العظام مراكز تعرف باسم مراكز التعظُّم أي التحوُّل الى عظام . وقد درست هذه المراكز درساً دقيقاً وعرفت حالتها في كل سنة من وقت الولادة الى السنة الحادية والعشرين من العمر . فبدراسة هذه المراكز في عظام هيكل ما ، يمكن تعيين العمر اذا كان تحت الحادية والعشرين تعييناً دقيقاً لا يحتمل من الخطاء أكثر من شهرين او ثلاثة أشهر . أما اذاكان فوق الحادية والعشرين فعلى الباحث الاستعانة بتحولات عظمية أخرى ولا سيما في ملتقى عظام الجمجمة نفسها . فأطراف هذه العظام مسنَّنة وتكون غير متداخلة او ملتحمة في بدء العمر ثم تزيد تداخلاً والتحاماً بتقدُّم العمر ، فدراسة حالتها في جمجمة ما ومدى تداخلها والتحامها من العوامل التي تقرن بدراسة مراكز التعظُّم لتعيين العمر . ثم ان حالة المادة العظمية نفسها في العظام تتحول بالتقدم في السن ودرجات تحوُّلها معروفة . فدراسة هذه المادة عامل ثابت من العوامل التي تساعد على تعيين السن

هذه الخواص لا تتغير بعد الموت وتبقى على ما هي مئاتٍ بل ألوفاً من السنين . وقد عيِّن عمر الملك توت عنخ امون من دراسة عظامهِ فاذا هو ١٨ سنة وعيِّن عمر حميهِ الذي كان مدفوناً على قرب فاذا هو ثلاثون سنة . ثم ان دراسة عظامهما بينت ان صلة القرابة بين الرجلين كانت

قريبة جدًّا علاوة على المصاهرة . وكانت هذه الحقائق مما ساعد الباحث الاثري والمؤرخ في عملهما

أما الوزن فلا يمكن تحديده الاَّ بوجهٍ عام ، لان السمنة لا علاقة لها بطول الهيكل وعرضه فقد تدلُّ مقاييس هيكلٍ من الهياكل على أن صاحبهُ من وزن معتدل . ولكن من المحتمل ان صاحبهُ في الواقع كان نهماً قليل الرياضة فكان شديد السمنة ووزنهُ فوق المعدل كثيراً

بقي أن نروي حادثة او حادثتين طبقت فيها هذه القواعد علاوة على ما تقدم

عثر في أحد الايام على بقايا سيارة محترقة وعثر في هذه البقايا على هيكل عظمي لرجل . وعند البحث ظهر ان اللوحة التي تحمل رقم السيارة مفقودة . فاتجه الفكر الى حدوث جناية . وكان من المعلوم ان رجلاً في تلك المنطقة قد ضاع أثرهُ . وانهُ كان قبل ذلك قد تلقى رسائل تنطوي على تهديدٍ . الاَّ ان الهيكل الذي وجد كان ينقصهُ أحد الفخذين . أي انهُ كان هيكل رجل بترت فخذه . ثم علم ان في تلك المنطقة كان يوجد رجل مبتور احدى الساقين ولهُ ساق من خشب وانهُ كان يهدد بالانتحار . فهل الحادثة حادثة قتل او حادثة انتحار ؟ فلما فحصت عظام الهيكل ظهر ان الاوصاف التي بنيت على الدراسة تنطبق على كلا الرجلين . واذاً فالحل المرتقب متصل بتلك الفخذ الضائعة . فكيف السبيل الى معرفة ذلك

فقال العالم في نفسهِ ، اذا كان هذا الهيكل هيكل الرجل المبتور الساق ، واذا كانت ساقهُ قد بترت قبل سنوات كما هي الحال في احد الرجلين فيجب ان تكون عظمة الحوض التي كانت متصلة بتلك الساق قد ضمرت وتغير نسيجها عن العظمة التي تقابلها في الجهة الاخرى . ففحص عظمة الحوض فحصاً مدققاً فظهر انها كذلك وثبت ان الهيكل هيكل الرجل المبتور الساق . فتغلبت نظرية الانتحار على نظرية القتل

وعثر من بضع سنوات على هيكلين طفلين في تلة تابعة للهنود الحمر في ولاية مسوري الاميركية وفحصا فدل الفحص على انهما طفلان أبيضان واستدل بالاشياء التي كانت تحيط بهما على انهما دفنا دفناً تامَّ الشعائر قبل مائة سنة تقريباً فلماذا دفنا هناك في بلاد تابعة للهنود الحمر وهم خصوم البيض في ذلك العهد . فدرس العالم نسيج عظامهما فتبين انهما كان ضحية سوء التغذية . فبنى على ذلك نظرية لا بأس بها وهي ان أسرة من مقاديم البيض كانت آخذة في النزوح الى غرب اميركا من مائة سنة فوصلت منطقة يقل فيها الطعام والماء وتعسر فيها أحوال العيش فمات الطفل فدفن حيث لا يحتمل ان يتجه اليه نظر الهنود فينبشوهُ

الحركات العربية

المنظمة وأثرها الادبي

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

ذكرنا انهُ في الثلث الاخير من القرن الماضي ظهر في سوريا والعراق صيحات أدبية تُهيب بأبناء العربية في السلطنة العثمانية ان ينهضوا من رقادهم ويسعوا لاعلاء شأنهم. وقد كان لتلك الصيحات أثر يذكر في تنبيه الشعور ونفض غبار الخمول الذي تراكم عليه قروناً عديدة. على ان الامم العربية لم تكن قد وصلت في حياتها الاجتماعية والسياسية الى درجة التعاون المنظم. فلم تتجاوز تلك الصيحات حدّ اثارة الشعور، بل لم يكن لها اثر بيّن الاَّ في حلقات خاصة من اهل الثقافة. وظلّ الامر كذلك حتى أعلن دستور ١٩٠٨ فغمر البلاد العربية بموجة من الاخلاص والحماسة للوطنية العثمانية. لكن تلك الموجة لم تلبث كما بسطنا في غير هذا المقام ان تراجعت وضعف أثرها في النفوس

وقد دلّت العربَ التجاربُ على ان القانون النظري شيء وتنفيذه شيء آخر ولعلهم ذكروا يومئذٍ خط كلخانة الذي اصدره السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩ ثم الفرمانات والعهود الصادرة بعد ذلك كفرمان ١٨٥٦، وفرمان ١٨٧٤، والمادة التاسعة من معاهدة باريس، ودستور مدحت سنة ١٨٧٦. وفي كلها كانت تركيا تعترف قانونيًّا بالتساوي بين جميع الاجناس والاديان في السلطنة. على ان ذلك التساوي لم يتمّ فعليًّا

فلما ذهبت النشوة الدستورية الجديدة فتح العرب عيونهم فاذا هم والاتراك وجهاً لوجه، واذا بينهم اختلاف مريب يثير الشكوك بنيات الاتحاديين — وهم حماة الدستور ومنفذو احكامه. فتملَّكهم التشاؤم ورأوا ان العهد الجديد لا يختلف عما سبقهُ وانهُ لا بدّ لهم من العمل. وكانوا في مطلع القرن العشرين وقد خطوا خطوات واسعة في سبيل الرقيّ، وتهيأ لهم من اسباب النهضة

ما لم يتهيأ من قبل ، فأخذ السياسيون منهم ينظمون الجمعيات والدعايات توصلاً الى نيل حقوقهم وصدًّا للتيار التركي من الطغيان عليهم

وغير نكير ان موقف الاتحاديين من الدستور لم يكن سهلاً . فهم الذين أعلنوه ، وهم الذين كان عليهم أن يحموه ويطبّقوه . فلم يكن غريباً ان يحصروا معظم السلطة في ايديهم وان يكون جلّ تعويلهم على العنصر التركي

وبذلك فتحوا باباً لتذمر غير الاتراك . وسرعان ما أحدث هذا التذمر تعكيراً في صفوف الدستوريين من ملكيين وعسكريين ، فبدرت بين العناصر المختلفة ، كما رأينا ، بوادر سوء الظن . ولم يكن بين الشبيبة المتحمسة من يتلافى الامر بالتي هي أحسن ، فكان ما كان من تلك المشادّة العنصرية التي فرّقت قلوب العرب عن الترك وحوّلت أنظارهم الى العصبية القومية

وطبعاً لم يكن عقلاء الطرفين راضين عن هذه الحالة التي أقلّ ما يقال فيها انها توهن قوى الدستوريين وتحرج مركزهم . فقام مفكروهم يدعون الى التساهل وإزالة سوء التفاهم . ومنهم الدكتور رضا توفيق [1] . فقد صرّح سنة ١٩١٠ لمحرّر جريدة (بروجره دي سلانيك) بقوله — [2] « أنا على اتفاق تام مع الجمعية على ان البلاد في حاجة الى حكومة قوية ، ولكنني أخالفها في استخدام القوة . واذا كان وجودي في المجلس قد قضى عليّ بأن أحمل على طلعت بك الممثل الاكبر للجمعية في الوزارة وصديقي ورفيقي منذ الساعة الاولى في جمعية الاتحاد والترقي فذلك لاعتقادي بأن الواجب عليّ ان أفعل ما فعلت . ولو سكتُّ كغيري لكان ذلك خيانة لا يغتفرها الوطن لي . أن الدستور لا يكون الا كلمة لا معنى لها اذا لم نحترم الحرية السياسية والحقوق الاساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، واذا لم تعامل العناصر كلُّها معاملة واحدة بمقتضى أحكام الدستور »

ففي كلام هذا التركي الحرّ ما يشير الى سياسة الاتحاديين التي حملت العرب يومئذ على التبرُّم وسوء الظن

وكما كان بين مفكري الاتراك متساهلون يدعون الى الوئام كذلك كان بين مفكري العرب فقد ذكرت جريدة الاهرام ان جمهوراً من العثمانيين في مصر اجتمعوا سنة ١٩١٠ لوداع سليمان البستاني نائب بيروت . فجرى في ذلك الاجتماع من الكلام ما يشفّ عمّا كان بين العنصرين التركي والعربي من توترٍ في العلاقات . وها نحن ننقل بعضه بتصرف عن مجلة النبراس البيروتية — [3] قال رفيق بك العظم « ان العرب مهضومة حقوقهم ولغتهم ممتهنة مضطهدة » .

(١) هو عالم تركي كبير وكان من صميم الاتحاديين (٢) ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ص ٥١
(٣) مج ٢ ص ٣٣٣

وهو يعزو هذا لا الى الامة التركية فهي صديقة العرب ولكن الى بعض ذوي المناصب في الاستانة . ثم يقول متحمساً . « فالواجب ان يفهموا اننا لا نصبر على هذا الضيم لانهُ يهمنا ان تحيا الدولة . إن الترك بلا العرب تزول دولتهم ، والعرب بلا الترك يؤكلون ، يهضمون ، فحياة الدولة تهمنا وتهمهم على حدٍّ سواء »

وممن تكلموا في ذلك الاجتماع الدكتور يعقوب صرُّوف فقال — « ان معتقدي كان كمعتقد أخينا رفيق بك حتى قابلت اليوم العلاَّمة البستاني ففهمت منهُ الحقائق ، وأنا واثق انهُ لم ينقل اليَّ غير الحق . فاذا كان العرب قد حرموا الوظائف فلأنهم لم يسيروا في سلك التوظيف. وان كان قد بدر من بعض كتَّاب الاتراك ما آلم العرب فذلك ليس رأي القابضين على أزمَّة الامور « بل ان رأيهم عكس ذلك تماماً » . . . الى ان يقول . . « فالواجب ان نعاونهم بالنصيحة ومحو سوء التفاهم ونساعدهم على ادماج جميع العناصر والطوائف حتى تصحّ الجامعة العثمانية »

وأخذ السيد رشيد رضا يثبت ان هناك سوء تفاهم بين العرب والترك لا يجوز انكاره ، على انهُ كان يحاول ان يحصره في فئة معينة . ومما قالهُ « لا ننكر ان بعض ذوي الاغراض في الاستانة هم سبب هذا الشر »

أما البستاني فكان ينزع منزع السياسي العثماني الصميم . وقد شرع يبيّن ان هذه المشادة مبنية على الاوهام ، وان الدولة مفتوحة للعرب كما هي للترك . وفي كلامه — « أقول لكم عن ثقة وعن يقين ان قولهم ان بين رجال الحكومة من الاتراك قوماً يكرهون العرب او يضطهدونهم وهمٌ باطل اختلقهُ بعض أصحاب الاغراض والمفاسد . فالاتراك عموماً ورجال الحكومة منهم خصوصاً يحبون العرب ويجلونهم ويعتمدون عليهم في تأييد الدولة . ولا يضطهدون اللغة العربية بل هم على عكس ذلك يؤيدونها »

فيؤخذ مما ورد في هذا الاجتماع الذي كان يضم نخبة من مفكري العرب ان العرب كانوا يتهمون الاتراك بهضم حقوقهم والاستبداد بالامر دونهم واضطهاد لغتهم . وقد تناول جرجي زيدان ذلك في مجلة الهلال فنشر مقالاً موضوعه العرب والترك حاول فيه الاعتذار عن الاتحاديين وحمل العرب على التؤدة وحسن الظن . ومما جاء فيه [١] — « لا ننكر استخدام جمعية الترقي نفوذها في الانتخابات حتى جعلت الاكثرية من حزبها ، وانها تلكأت في اسناد الوظائف الكبرى الى العرب . ولكننا لا نحمل ذلك على رغبتها في الاستئثار بالسيادة دون العرب او غيرهم ، ولكن فعلت ذلك على ما نظن رغبةً في سلامة الدولة ، وصيانة للدستور الذي نالتهُ بعد شق

(١) الهلال مج ١٧ ص ٤١٥

الانفس من ان تعبث به الايدي اذا تولاه غير اهله» ولشدة رغبة زيدان في المسالمة وعطفه على القائمين بأمر الدستور اخذ يلوم بعض مواطنيه على وقوفهم موقف العداء من اخوانهم الاتراك فيقول — «لما اعلن الدستور وجاهر الاتراك انهم يتنازلون عن جنسيتهم وامتيازاتهم رغبة في الوفاق ما كان من العرب الاَّ السعي في تأييد الجامعة العربية . فألفوا جمعية التآخي العربي بالاستانة وأنشأوا الصحف للدفاع عن العرب والتنديد بالاتراك والتفاخر بمجد العرب ودول العرب وعلوم العرب»

وفي كلام زيدان شيء من الحقيقة لا الحقيقة كلها ، فان الذي يراجع تاريخ هذه الحركة يرى كما بينا مراراً ان العرب لم يكونوا عند اعلان الدستور اقل غيرة من الاتراك على الجامعة وان تبعة الشقاق الذي نجم بعدئذ واقعة على الطرفين ولا سيما على الاتراك . فزيدان نفسه يصرح باستئثارهم بالمناصب ولكنه يأخذه بحسن الظن وروح التفاؤل ولا ينتظر من كل واحد ان تكون له تلك الروح فيغضي عما كان يراه من استبداد جنسي

وقد عقد رشيد رضا في مجلة المنار مقالاً ضافياً [1] تناول فيه ما كان من سوء تفاهم بين العنصرين ففصل اسبابه وشرح كلياته وجزئياته ثم قال متحفظاً «لا اقول ان كل ما روي من ذلك صحيح المتن والسند . ولا اقول ان ما صح منها كان بسوء النية وتعمد هضم حقوق العرب . ولكنني لااستطيع ان انكر قول من يقول انها في مجموعها تفيد التواتر المعنوي الدال على انه يوجد في رجال الدولة ورجال الصحافة التركية أناس يسيئون الظن بالعرب ولا يعطونهم حقوقهم ولا يعرفون قيمة اتحادهم بالترك واتحاد الترك بهم »

وسواء كان الاتراك الملومين او كان العرب فالذي يهمنا هنا ان ذلك النفور العنصري يومئذٍ حقيقة لا مراء فيها وانه قد شغل الافكار والاقلام زمناً غير يسير ، وقد أصاب رشيد رضا اذ قال في المقال السابق الذكر «هذا ما كانت عليه البلاد في العام الماضي (١٩٠٩) . وكانت قد نجمت قرون الخلاف ولكن لم يشعر بها الجمهور فلما كثرت وكبرت تنكَّر الناس في سورية ومصر وخاضت في المسألة الجرائد العربية حتى في اميركا ، وتبارت فيها قرائح الشعراء ، وتجاوبت فيها الاصوات حتى عمت البلاد والجهات . فاهتزت بذلك النعرة العربية اهتزازاً شديداً

ومن دلائل هذا الاهتزاز انهُ في الجلسة التي عقدتها اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩١٠ قام عضو عربي منها هو عمر منصور باشا مبعوث طرابلس الغرب والقى خطاباً بالغاً منتهى الجرأة ، وفيه يحمل على الاتراك ويعزو اليهم سبب الخلاف الناشب بينهم وبين العرب فيقول متألماً [2] — «لماذا لا تتعدّون على حقوق الارمن والروم والبلغار العثمانيين . اتعرفون

---

(١) العرب والترك مجلة المنار مج ١٢ ص ٩١٣—٩٣٢ (٢) جريدة البرق (بيروت) سنة ٣ عدد ١٢٢

لماذا ؟ لانّ عند الارمن قنابل ، وللروم اليونان، وللبلغار بلغاريا . اما نحن فلا يشدّ ازرنا احد ولكن ثقوا انّ لنا الله ورسوله . اذا قال لكم مبعوث عربيّ ان ابناء العرب ممتنون منكم فلا تثقوا بهذا القول ولا تصدقوهُ . اقول لكم هذا على مسمع منكم جميعاً »

ولم يكن اندفاع هذا النائب الجرىء في عاصمة الاتراك ومركز قوتهم الاّ لما كان يراه او يسمعهُ من اقوال غلاتهم حطًّا من كرامة العربية وابنائها . ويكفي ان نذكر من ذلك على سبيل المثال كتاب « قوم جديد » لكاتب تركي اسمهُ عبيدالله . فقد ذهب في الغلوّ كلّ مذهب حتى طلب من الاتراك ان ينزعوا اسماء كبار العرب من الصحابة والتابعين عن قباب المساجد ويضعوا محلها اسماء عظام الترك [1]

ومن اقوال غلاتهم قول احدهم [2] — « ما هي العثمانية ؟ ولماذا لا نقول التركية . إن الحقيقة تغلب الخيال ، ومن المحال العقلي ان تظل هذه الشعوب المتباينة مرتبطة بعضها ببعض وراء ستار وهمي . وتحت اسم بالٍ خلق . يجب علينا ما دام في استطاعتنا الحياة ان نعمد الى الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغهُ بالصبغة التركية المحضة »

وقد طلب احمد جودت محرر جريدة إقدام ان تنقح اللغة التركية من الكلمات العربيّة . وعلى وتره وتر أضرابه من الغلاة كان يضرب جماعة من أولي الامر ومثيري شعور الجمهور . وقد تغلبت اصواتهم على أصوات المعتدلين ، وهذا ما دفع العرب الى مقابلتهم بالمثل والكيل لهم بنفس المكيال

والظاهر ان العرب أحسوا بهذا التنكر منذ أوائل العهد الدستوري فعمدوا الى توحيد دفاعهم بتأليف الجمعيات السياسية وهاك أهمّها [3] :—

المنتدى العربي سنة ١٩٠٩ — أسس في الاستانة على ان يكون مثابة للشبان العرب في تلك العاصمة

جمعية الفتاة (الاستانة) — وهي للعرب بمنزلة الاتحاد والترقي للترك

الجمعية القحطانية ١٩٠٩ (مصر) — جمعية سرّية غايتها بث المبادىء الصحيحة بين ابناء الامة العربية وتوحيد صفوفها

الجامعة العربية ١٩١٠ (مصر) غايتها السعي لاتحاد حلفي بين أمراء الجزيرة العربية ثمّ التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وإنشاء صلة بين الجمعيات العربية في سورية والعراق وغيرها

حزب اللامركزية ١٩١٢ (مصر) غايته تبيان محسنات الادارة اللامركزية في السلطنة العثمانية

(١) القضية العربية (الاعظمي) ١ — ١٠١ (٢) القضية العربية ١ — ٩٥ (٣) تلخيصاً عن كتاب الثورة العربية لامين سعيد ١ ص ٧ — ٤٩

الجمعية الاصلاحية ١٩١٢ (بيروت) وهي أشبه بفرع من حزب اللامركزية وينحصر عملها في تنفيذ الاصلاح اللامركزي في ولاية بيروت

جمعية العهد ١٩١٣ (الاستانة) وهي تضم نخبة من ضباط العرب في الجيش وغايتها السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب ، على ان تظلَّ متحدةً مع حكومة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا (قبل الحرب)

على ان أول جمعية عربية نشأت في ذلك العهد هي جمعية الاخاء العربي . تأسست في الاستانة سنة ١٩٠٨ . ومن غاياتها جمع كلمة الملل العثمانية المختلفة والسعي لاعلاء شأن الامة العربية وصيانة حقوق ابناء العرب وتأييد الحرية والعدل والمساواة بين عناصر الامة العثمانية وإزالة الضغائن وسوء التفاهم من بينهم » الخ الخ

وكان التجانس مفقوداً بين اعضائها فلم تعش طويلاً

ولا ننسى في هذا المقام المؤتمر العربي العام الذي عُقد في باريس (١٩١٣) وضم وفوداً من اكثر الاقطار والمهاجر العربية. وكانت غايته مصارحة الدولة العثمانية بتطبيق نظام اللامركزية في بلاد العرب مع المحافظة على الرابطة العثمانية

***

فالجو العربي الادبي كان في ذلك العهد مشبعاً بالاماني والحركات القومية وملائماً كل الملاءمة لانتشار الدعايات ضد حكومة الاستانة . وقد كانت تلك الدعايات تنبعث عن مصدرين مختلفي الغرض هما — (١) الجمعيات العربية (٢) الايادي الاستعمارية . فالاولى لم تكن غايتها على ما يستدل من نظمها . وتصريحات رجالها الا خدمة القضية العربية باعتبارها مسألة من مسائل السلطنة العثمانية الداخلية . وذلك ما يعنيه رشيد رضا بقوله عن النهضة العربية وتوجهها الى الاصلاح الديني والاجتماعي والمدني [1] — « وهي جديرة بذلك بدليل اتفاقها في سورية والعراق والجزيرة على بناء هذا الاصلاح على اساس اللامركزية الادارية اذ بذلك تحفظ حقوق الدولة العثمانية ويتمكن الارتباط بها، وبه يعطى كل قطر حقه بحسب استعداده ومذاهب اهله» بل ذلك ما كان يعنيه اولو الامر في كل جمعية سياسية

اما الثانية (الايادي الاستعمارية) فلها غرض آخر — كانت ترمي الى تفكيك عرى الدولة العثمانية وفصل الاقطار العربية لاغراض استعمارية . ولا نشك انها سعت في تنشيط الجمعيات وحمايتها اذ رأت فيها او في بعضها ما قد يوصلها الى هدفها المنشود

(١) المنار ١٦ ص ٧٧٠

ولا نستطيع ان نتثبت هنا المدى الذي بلغتهُ علاقات اوربا بالجمعيات العربية ، بل لا ندري هل حصل قبل الحرب الكبرى تفاهم بين الاستعمار ودعاة القومية . فان هؤلاء كانوا متمسكين بصلاتهم العثمانية يتجنبون الوقوع في أحابيل الاستعمار . على اننا ندري ان اوربا كانت تمدّ يداً حريرية الملمس الى طلاب الاصلاح ، وان النفسية العربية كانت في العهد الدستوري (ما بين ١٩٠٩ — ١٩١٤) ظاهرة الاضطراب بدليل ما نراه من نفثاتها الشعرية المعبرة عن خوالجها والمطالبة بتحقيق أمانيها . ومن أمثلة ذلك قصيدة للشيخ سليمان التاجي الفاروقي (فلسطين) تزيد على السبعين بيتاً يخاطب فيها السلطان ويلتمس منهُ النظر في حقوق العرب . وهاك بعضاً منها — :

العُربُ لا شقيتْ في عهدك العَربُ سيوف ملكك والاقلام والكتبُ
همُ الجبال فما حمّلتهم حملوا لكن اذا سمتهم ضيم النفوس أبوا

ومنها مشيراً الى خيبة آمال العرب

كنا نعلّل بالدستور أنفسنا بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقبُ
حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثاً ولا استجيب لنا في مطلبٍ طلبُ

ولهُ قصيدة أخرى قيلت استفزازاً لنواب العرب . وقد نشرت في جريدة المفيد « بلسان الامة العربية تخاطب أبناءها » وبتوقيع بدوي فلسطين . ومطلعها

بيُمنِ نواصيكم عقدتُ الامانيا ورجّيت ان أعلو لكم من علانيا

ومنها : بنيّ انهضوا واحيوا حياةً عزيزةً حياةً تعيد المجد للعُرب ثانيا

وبعد ان يحدّثنا عن أمجاد العرب يلتفت ثانيةً الى النواب فيقول : —

ألا نهضةً شرقيةً عربيّةً تزلزل أقواماً وتوهي رواسيا
وتقضي على كل امتيازٍ واثرةٍ ويصبح كل الناس فيها سواسيا
ألا رجلاً ذا مِرّةٍ فيلمّكم ويرأب صدعاً فيكم بات واهيا
يقوم فلا يرتدُّ او يبلغ المنى ويقضي ولكن يبعث السيف قاضيا

وللفاروقي كثير من مثل هذه النفثات القومية . على انها مبعثرة في الجرائد اليومية السورية والمصرية . ولم نقف لهُ على مجموعة خاصة [١]

***

وأشد من أقواله وأعنف نفثات عبد الحميد الرافعي (طرابلس) وقد كان قبل الدستور

(١) ما نشرناه للفاروقي أعلاه هو من بعض ما تكرم علينا به صديقنا الاستاذ ابراهيم طوقان الاديب الفلسطيني المعروف

من مريدي ابي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد . فلما حدث الانقلاب وحدثت على اثره تلك المشادّة العنصرية ثار ثائره على الاتحاديين ، فنظم عدّة قصائد نارية مظهراً فيها فسادهم ومهيباً بالعرب الى النهوض والتقدم ومنها قصيدة مطلعها (١)

ما تصلح الدنيا ولا ناسها ما لم يلِ الاقوامَ أجناسُها

ومنها

داركْ امير العُرب جرثومةً للعرب قد ادركها ياسُها
تجاوز الترك على حقّها والترك قوم ضاع إحساسُها

ومنها

هبوا بني العُرب إلامَ الكرى وقد دها الآمال دهّاسُها
طلبتمُ الاصلاح من عصبةٍ تُوتَرُ بالإفساد اقواسُها
فكم تقيمون على ذلّةٍ وروضة الصبر ذوى آسُها
ألستمُ نسلَ القروم الأُلى تنتعل الهامات افراسُها
فجرّدوا العزم الذي طالما شقّ صدوراً طال وسواسُها

ويجري في ذلك ثم يقول مشيراً الى الدولة العثمانية وعواطف المسلمين قبلاً نحوها :—

كنّا نرى طاعتها عصرَ ما تملي الاحكامَ اقداسُها

اما اليوم فقد تغيرت الحال عنده وها هي تقف من العرب موقف العداء ومن الدين ولغة القرآن موقف الرياء —

تحسب ان العرب اعداؤها وهم مدى الايام حرّاسُها
عونٌ على السلم وان حاربتْ فهم مواضيها واتراسها
تزعم حبَّ الدين لكنْ كما يروّج السلعة دلاسها
لو تألف القرآن ما حاربت لسانه حتى التوى فاسها

وهكذا ينحي باللذع الاليم على اولي السلطة من الاتحاديين فينعتهم بالكفر والتخنث والسفالة والظلم ، ويطلب من العرب الاتحاد والتضامن دفعاً لعادية هؤلاء القوم المارقين الذين لشدة ظلمهم دفعوا البلاد الى هوة الخراب

من عظم ما جارت بأحداثنا أنحى على الامة إفلاسها
ما همّها في دُور حكامها الاّ بأن تملأ اكياسها
فلنتحد فعلاً عسى همةٌ تهتاج بالتوحيد اقباسها
وتنعش الانفس من امة تلهبت بالذل أنفاسها

وقس على هذه القصيدة كثيراً من اقواله

(١) راجعها في ذكرى يوبيله ص ٨٨١

وقد أشرنا سابقاً الى ما أثار الخنائط من اقوال جريدتي طنين واقدام وما حاوله بعض كتّاب الاتراك الاغرار من الوقيعة بالعرب والحط من لغتهم . وكيف حرّك ذلك الشعر العربي فزخرت لججه وتلاطمت امواجه حتى كنت تراه في العراق كما تراه في سوريا والمهاجر ثائراً بالنخوة القومية مزبداً بالغيرة الجنسية . ومن هـذا الشعر القومي الثائر قصيدة ليوسف حيدر البعلبكي يذكر فيها أمجاد العرب ثم يقول مشيراً الى جريدة اقدام التركية (١)

فقل لجهولٍ راح يثلم عرضهم ولم يدر ان الويل من جهلهم طرّا
خلافتكم كانت بقايا فخارهم ونلتم هدى الايمان من فضلهم طرّا
فلا حرب ذي قارٍ صليتم سعيرها ولا صنتمُ عن فارس عرضكم قهرا
فدع عنك يا هذا مباراة معشر اذا ذكروا فالكون يذكو بهم بشرا

ومن هنا يأخذ بوصف العرب وشرف نفوسهم ونخوتهم الجاهلية ويختم ذلك بقوله : —

مناقب في صدر التواريخ أثبتت متى نشرت فاحت بذكرهم نشرا
لقد أقسموا أن لا يقروا على أذى وقد خاب يوماً من على الذل قد قرّا

ويصل هذا الوصف بذكر الاتراك وسوء سياستهم فيقول : —

يريدون منا ان تموت نفوسنا ونرحب في أفعال طيشهم صدرا
يريدون منا ان تطيش حلومنا وان نخفض الاصوات في مجلس الشورى

ثم يلتفت الى قومه مستفزّاً حماستهم : —

اليكم بني الاعراب أرفع قصتي لأبلغ فيها من لدن قومنا عذرا
لعلي أرى من عزمكم ما يسرني ومن جدكم ما تعظمون به قدرا
عليكم سلام الله ما دام عرضكم مصوناً لديكم لا يُباع ولا يشرى

***

ويجاريه في هذه العصبية والدفاع عن الامة العربية عبد الحميد الرافعي فيقول في قصيدة نظمت ردّاً على تنديد الاتحاديين باللغة العربية (٢) ومطلعها : —

شنّف بذكر مفاخر العربان سمعي وأنعش خاطري وجناني
فحديث آباء الفتى يُنشى به عزماً لنفخ الروح في الجثمان
ولربّ آثار لهم تذكارها يهب الضمائر قوة الايمان
تتفاخر الاجيال في اخبارهم والشمس لا تحتاج للبرهان
أهل الشجاعة والبراعة والوفا والصدق والايثار والاحسان
جعلوا الممالك تحت ظلّ سيوفهم متظللين ذوائب المرّان

(١) راجع القصيدة في القضية العربية للاعظمي ١—١٠٦ (٢) ذكرى يوبيل الرافعي ص ١٨٠

وعلى هذا النمط يستمرّ في مدح العرب وذكر مفاخرهم ، ثم يتناول لغتهم ويبيّن فضلها ورفيع شأنها كقوله : —

لغة بفضل جمالها وجلالها شهدت شواهدُ محكمَ الفرقانِ
لغة اذا أدركت سحر بيانها أدركت معنى السحر في الاجفانِ

وبعد ان يصفها في عدة ابيات يلتفت الى مناوئيها فيقول : —

قل للأُلى جهلوا مكانتها وقد كادوا لها في السرّ والإعلانِ
عاديتمو ما تجهلون ولم يَعِب قدر الورود كراهة الجعلانِ
والله يأبى ان تهان فبشروا من رام ذلّتها بكل هوانِ

اما ابناؤها الذين انصرفوا عنها الى اللغات الاجنبية فيعاتبهم بقوله : —

كل اللغات لديكِ يا لغة الهدى خدَمٌ وأنت مليكة الايوانِ
ظلموك أهلُك بالجفاء فأصبحوا والكلُّ يمشي مشية السرطانِ
لم يحفظوا لك ذمّة وتعلّقوا بهوى السّوى ورموك بالهجرانِ
لكنهم غُرّوا بغيرك حقبةً من دهرهم والدهر ذو ألوانِ
حتى اذا انكشف الغطاء وأيقظت مُقلَ الرجال حوادثُ الازمانِ
نهضوا وكلٌّ يستعيذ بربّهِ مما انتشى ويسبُّ بنت الحانِ

ومثل ما تقدّم قصيدة لامين ناصر الدين (لبنان) نظمها سنة ١٩٢٠ وفيها يقول[1] : —

أنسيتِ قدر العرب يا إقدامُ ولهم على هام النجوم مقامُ
أجهلتِ ما نالوه من شرفٍ به يسمو الزمان وتفخر الايامُ
لولاهمُ لم تجرِ فوق مهارقٍ يوماً بذكر مفاخرٍ أقلامُ

وبعد ان يعدّد مناقبهم ومفاخرهم التاريخية يقول : —

ان أسرف الحسّاد تنديداً بنا فلطالما ذمَّ الكرامَ لئامُ
نحن الأُلى بَنَتِ النبوّةُ بيننا ذاك البناء فأزهر الاسلامُ
نحن الأُلى بلسانهم قد أنزلت آي الكتاب وذلك الالهامُ

ثم يلتفت الى الجريدة التركية مؤنباً ومعاتباً : —

أرسلتِ يا إقدام سهم وقيعةٍ لكن أُعيدَ اليك وهو سهامُ
أكذا يقوم بخدمة الاوطان ذو قلمٍ ويطلبُ الرقيَّ همامُ

(١) ديوان صدى الخاطر ١٩١٣) ٩٣

أيظنّ أنّا نرتقي الاّ إذا ضمّ العناصر ألفةٌ ووئامُ

***

ويظهر هذا التفاخر الجنسي في قصيدة « ألواح الحقائق » لمحمد حبيب العبيدي الموصلي سنة ١٩١٣ وفيها يقول :(١)

يا بني الضاد إن للضاد حقّـا	ناطحت دون حقه الآباء
ان رضينا غير الكرامة ورداً	غصّ منّـا بشاربيه الماء
ليت شعري ما ينقم القوم منّـا	أم على أبصارٍ هناك غشاء
يشهد الله انّ أول بيتٍ	للعلى فينـا شاده البنّاء
خيرة الله نحن في الخلق ممّـا	ولدت من أنسالها حوّاء
نحن شيء وغيرنا بعض شيءٍ	نحن نورٌ وغيرنا الظلماء
انما ينكر الحقيقة غرٌّ	أو اثيمٌ او حاسدٌ مستاء
نحن في الحي مهبط الوحي قدماً	والينا المصير والانتهاء

ولو أردنا ان نذكر كل ما قيل في هذا الباب لضاقت بهِ الصفحات الكثيرة . فقد كانت الاقطار العربية جميعاً تلهج بهِ ، بل قد ردّد صداه الناطقون بالضاد في كل صقع من اصقاع المعمور . فمن الهند يبعث عبد الحق الاعظمي البغدادي سنة ١٩١٣ رسالة الى المنار يقول فيها(٢) « ان لديه علاجاً لاصلاح حال المسلمين واصلاح البشر اجمعين . وهو وصفة مؤلفة من جزئين اوّلها تعميم اللغة العربية في العالم الاسلامي كله وجعلها لغة التكلم والتعلم والتعامل دون سواها ». واما الجزء الثاني فهو تعزيز العنصر العربي « الذي اعزّ الله بهِ الاسلام ورفع مقامه فوق كل مقام » . قال — « فاذا غلب الاجانب العرب على امرهم وانشبوا براثنهم في احشاء بلادهم فلا عاصم للامة بعد ذلك من امر الله ولا ملجأ ولا منجاة لها من نوائب الدهر وغوائله » . الى ان يقول .. « نعم ان العنصر العربي جار عليهِ الظالمون ونهك قواه العادون ومزّق وحدته المارقون . لكنهُ مع كل ذلك لا يزال أصلح العناصر الاسلامية للقيام بامر الاسلام واعادة مجد الانام »

وهو يدعو المسلمين الى تهيئة اسباب الوثوب للعرب لينهضوا ويتحدوا ويقودوا المسلمين اجمعين كما قادهم أسلافهم الاولون . « فان البذل لمساعدة العرب على احياء مجدهم هو عين البذل لاعادة مجد الاسلام الذي ما تأسس بناؤه من قبل الاّ بايدي العرب ونفوس العرب وأرواح العرب وقلوب العرب »

(١) راجعها في الادب العربي في العراق (لبطي) ١ — ١٥٢ وقد مر ذكرها في فصل سابق
(٢) المنار ١٦ ص ٧٥٣

ومن المهاجر الاميركية المسيحية تسمع مالا يقلّ عن ذلك حماسة في الدفاع عن العرب وأمجادهم. يقول رشيد أيوب (الولايات المتحدة) من قصيدة يعارض فيها القصيدة الناهقية التركية[1]

فنحن بنو الاعراب كنا ولم نزل ... بما خصّنا المولى نفوق الاجانبا

وبعد ان يذكر فضل النبي والصحابة وقوّاد الفتوح الاولى يقول مفاخراً

ألسنا الأُلى سادوا البلاد ودوّخوا البلاد وأبدوا في الحروب عجائبا

وقصر عن ادراكهم كلُّ لاحقٍ ... غداة امتطوا ظهر العلى والمناكبا

فكم دولةٍ سدنا وشدنا بهمّةٍ ... احدّ من البيض الرقاق مضاربا

وتتعاظم حميته القومية حتى تبلغ به الى قوله —

كذاك بنينا للعلوم معاهداً ... وشدنا لاهل الارض فيها مكاتبا

فما روت الايام من عهد آدمٍ ... الى اليوم عن شعب يفوق الاعاربا

فيا وطني لا زلت اول بقعةٍ ... من الارض أبدت للبرايا عجائبا

طويت من الآثار مالو نشرته ... لضاقت به الدنيا حجىً ومواهبا

واذ انتقلنا الى أميركا الجنوبية نرى النخوة العصبية في مهاجرها أبرز وأشد اتقاداً . ولا نبعد عن الحقيقة ان التحمس الجنسي هو صفة أكثر أدبائها . ولولا ضيق المقام لأثبتنا أمثلة عديدة من نفثاتهم ، على أننا نجتزىء بنماذج لبعضهم — فمن ذلك قول « أبي الفضل الوليد » [2]

ولما رأيت الناس يبنون مجدهم ... بكيت على آثارنا العربيةِ

نما زهرهم في روضهم متجدّداً ... وقد يبست أزهارنا بعد نضرةِ

لئن كان في الحرية الحلوة الردى ... فياحبذا موتي لتحرير أمتي

بني أمّ هل من نهضةٍ عربيةٍ ... لصيحاتها يهتز ركن البريةِ

وقولهُ من قصيدة مذكراً العرب بماضي أمجادهم [3]

سلامٌ على العرب الخالدين ... سلام العلى وسلام الكرمْ

واني لأقرأ تاريخهم ... وقد كتبوه بحبرٍ ودمْ

فبين السطور ضياء الهدى ... وبين الجفون دموع الندمْ

بني أم هل من نهوض لنا ... وهل من هيام بتلك الشيمْ

وهل من رجوعٍ الى عزنا ... فبين عظام العظام عظمْ

لقد فقد العرب أخلاقهم ... فسادت زماناً جموع العجمْ

(١) ديوانه الايوبيات (١٩١٦) ٣٧ (٢) ديوانه اقاريد في عواصف (الطبعة الرابعة) ١٥

(٣) ديوانه الانفاس الملتهبة (الطبعة الثانية) ١٠٢ ولهذا الشاعر دواوين أخرى وكلها تلتهب بالغيرة والعصبية

فقل يا أخي العربيّ اذا مشيتَ معي قدماً لقدمْ
أحب بلادي واصبو الى رمال القفار وثلج القممْ

وللشاعر القروي قصائد رائعة في هذا الباب ولا سيما في « أعاصيره » وسنعود اليها بعد .
وكذلك سنذكر من آثار زملائه الجنوبيين ما يرسم لنا رسماً جليًّا روح الأدب القومي في تلك الاصقاع

***

ومن الانصاف ان نقول ان الشعر العربي القومي لم يكن كلهُ في ذلك العهد دفاعاً عن محارم العرب وردًّا لسهام أعدائهم في الدولة . بل منهُ ما نشأ عن طبيعة الحال فكانت غايتهُ اصلاحية لا سياسية — الاعتبار بالماضي والحاضر ، وتوجيه النظر الى أسباب الرقيّ الصحيح كقصيدة أنشدت سنة ١٩٠٩ في احدى حفلات بيروت ومطلعها [١] —

كفوا البكاء على الطلول الهمد ليس القضاء على البلاد بمعتدي

وهي ترمي الى إيقاظ العرب للجري في سبيل التقدم الاجتماعي والقومي فتحضهم أولاً على توحيد الكلمة تحت راية اللغة : —

أبني العراق ومصر إنّا امةٌ قعدت بها الايامُ أسوأ مقعدِ
إن فرّق الاديان بين جموعنا فلساننا العربيُّ خير موحّدِ
قربتْ بهِ الاقطار وهي بعيدة وتوحدت من بعد فتّ في اليدِ

ومن هنا تجري القصيدة في وصف هذا التقارب الادبي ثم تتطرق الى النظر في الدين وانهُ اختبار شخصي لا علاقة له بالجامعة القومية المنشودة

دعني وشأني والذي أنا عابد وكما يشا ايمان قلبك فاعبدِ
إني أخوك وان يكن ايماننا في البعد ما بين الثرى والفرقد

ومنها في خطاب الطائفة الكبرى في البلاد

قد كنتم اهل البلاد واننا كنا كذلك في الزمان الأبعد
كنتم وكنا والبلاد بلادكم وبـلادنا فعلام لم نتوحّد
وإلامَ يقتلنا التعصب عن عمىً ويتيه فينا الجهل تيه السيد

(١) راجعها في مجلة الكلية (بيروت) مج ١ ص ١٥٩ .

واذا كان لا بدَّ لرقي الشرق العربي من اتحاد لغوي لا ديني فإنما يتوصل الى ذلك بترقية الشعور القومي وتربية النشء على محبة بلادهم وتكريم رابطتهم الوطنية

ربّوا البنين على احترام بلادهم فهم المرجّى للحوادث في الغدِ
قولوا لهم إنَّ البلاد جميلة شهدتْ لها الاعداء أم لم تشهد
حتامَ نصغر في عيون نفوسنا والامَ نسعى كالسوَّام الشرَّد
ونحقّر الشرق العزيز لانهُ شرق و . . . .

اذا فعلنا فيه والاَّ فباطل دستورنا وباطلة مساعينا نحو العلى

ان تفعلوا فلقد يتم صلاحنا أو لا فما دستورنا بالمسعد
المجد للفعَّال في هذا الورى والارض ملك الفارس المستأسد

ومثلها قصيدة للرصافي نظمها في الاستانة سنة ١٩١٠ وموضوعها «الى الامة العربية». سداها ولحمتها اسف على مجد العرب الغابر وحض لهم على نفض الخمول والجري في سنن الحضارة والتقدم. والشاعر فيها وان يكن كما قال «الى اليأس احياناً أكاد أميل»، لا يتمالك ان يختمها متحمساً (١) : —

ألستم من القوم الأُلى كان علمهم له كلُّ جهلٍ في الانام قتيل
له همة ليس الظباة تفلها وان كان منها في الظباة فلول
ألا نهضة علمية عربية فتنعَش ارواح لنا وعقول
ويشجع رعديد ويعتز صاغر وينشط للسعي الحثيث كسول

***

ولو دققنا النظر في روح الشعر العربي في العهد الدستوري لوجدنا انه مع شدة تحمسه للعصبية العربية، ومفاخرته بأمجاد العرب الاقدمين كان لا يزال عطوفاً على الجامعة العثمانية، نفوراً من صلف المستعمرين الاوربيين واطماعهم. يدلك على ذلك انه كان في اول الامر ينصر الخطة اللامركزية التي كان ينشدها الاصلاحيون اعتقاداً منه انها ترمي الى تعزيز العرب ضمن السلطنة العثمانية. فلما اشيع بواسطة الدعايات التركية ان للحركة الاصلاحية ولا سيما للمؤتمر العربي في باريس علاقة بالاستعمار، وانها لذلك صدع للجامعة العثمانية (٢)، رأينا الشعر يقف موقف المرتاب. بل رأينا بعض المتحمسين يتراجعون على الاعقاب — كمعروف الرصافي فانه

(١) ديوانه (١٩٣١) ٣٧١ (٢) راجع وصف هذه الدعايات في المنار ١٦ ص ٦٣٤، ٦٣٥

نظم بضع قصائد في ذلك . ومنها قصيدة موضوعها « ما هكذا » يحمل فيها على الاصلاحيين فيقول : —[١]

أصبحت أوسعهم لوماً وتثريباً لما امتطوا غارب الافراط مركوبا
راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحة خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبا
لو كان في غير باريز تألبهم ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا

فاجتماعهم في باريس كان عنده مدعاة الى الاستعمار او توطئة له . وهو لذلك يتطير منهُ فيقول : —

هل يأمن القوم ان يحتلّ ساحتهم جيشٌ يدك من الشآم الاهاضيبا
يا أيها القوم لا يغرركم نفر ضجّوا بباريز افساداً وتشغيبا
فسوف يقرع كلٌّ سنه ندماً ويسبل الدمع في الخدين مسكوبا

ولم يسكت الاصلاحيون عن حملات الرصافي فردوا عليه ردًّا عنيفاً وأجابهم بالمثل . بل بلغ به الحال ان نظم فيهم قصيدته « ليلة نابغة » فملأها بما يجب ان يتنزه الشعر عنه من هجو وتشنيع[٢]

***

وقد اتهم الرصافي يومئذ بمشايعة الاتراك تزلفاً . او انه اخذ بالدعايات التركية فكان في حكمه متسرعاً . والذي يلوح لنا ان هذا الشاعر العربي لم يكن الوحيد في حذره من الحركة الاصلاحية وغيرته على الجامعة العثمانية . فقد ظهر في انحاء مختلفة من البلاد العربية ما يشير الى حذر المخلصين وخشيتهم من امتداد ايدي الاستعمار وتصديع جامعة الوطنية العثمانية

ومن ذلك هذه القصيدة التي أنشدت في بيروت ١٩١٣ وموضوعها « حديث خطير » وهاك بعض ابياتها[٣]

حلك السياسة حولنا متكاثف تقذى العيون به فليس بصير
في المشرق الادنى لظى متطايرٌ وسعير نار بالوبال نذير
علقت بأطراف الشآم شرارة منه فجاشت أنفس وصدور

وبعدوصف الحالة السياسية عموماً وحال البلاد السورية خصوصاً يقول الشاعر للاصلاحيين

أحسبتم الاصلاح أمراً هيّناً يكفيكم منهُ لحاً وقشور

(١) ديوانه ٣٨١ (٢) ديوانه ٣٨٥ (٣) المورد الصافي مج ٤ ص ٣١٦

فصراخكم عبثٌ اذن وضجيجكم ووعود اوربا لكم تغرير
ما مثل عاصمة العواصم ملجأ كلاّ وخير الابحر البوسفور

وكانهُ يعتذر عن هذه الحركة ويحاول تفسير أسبابها فيقول —

عرش الخلافة ما البلاد بثورةٍ مهما علا فوق الطروس صرير
ما زال يجمع اهلها تحت الهلال بظلّه التوحيدُ والتكبيرُ

وانما السبب الحقيقي في طلب الاصلاح ان الدستور لم يطبّق كما يجب وان الحكام لا يحكمون طبقاً للارادة السنية . فكانت النتيجة تشويش الاحكام وفقد الامن واضطراب الاحوال الاجتماعية والاقتصادية : —

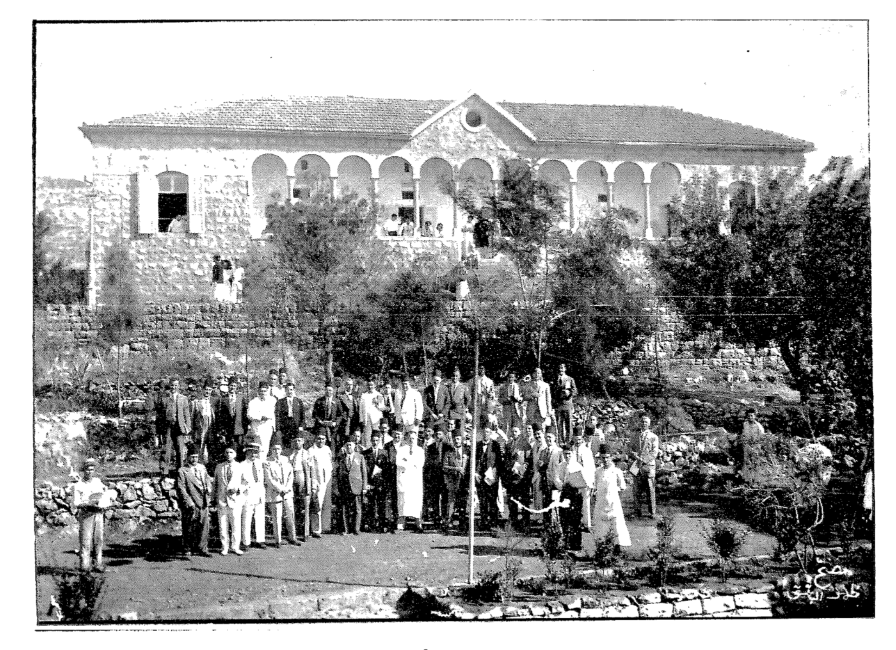
إن يشتكوا ألماً فليس لنقمةٍ في النفس حرّكها هوًى وغرورُ
او يرفعوا صوتاً فسلْ حكامهم هل يحكمون كما قضى الدستورُ

***

ومثل ذلك قصيدة لشبلي الملاّط انشدها سنة ١٩١٣ بمصر في حفلة تكريم خليل مطران . وفيها يذكر حرب البلقان وما طرأ على الدولة العثمانية من طوارىء . ثم يشير الى ما كان قد أشيع عن شماتة بعض العناصر العثمانية باضطراب الدولة وضعفها فيقول دفعاً لتلك الشوائع وتبياناً لموقفهم من العرش العثماني : —

أخطا الأُلى نسبوا لبعض عناصرٍ منها شعور شماتةٍ وتحامي
فلنحن نعلم ان عرش محمدٍ خير لنا من سائر الحكام
بل نحن نفهم انهُ برٌّ بنا من كل محتكم من الآنام

والشاهد في هذه الابيات وما تقدمها ان الشعر كان لايزال يرى في العرش العثماني موئلاً للشرقيين وان الاصلاح لا يعني الانفصال عنهُ والالتجاء الى أمم الغرب . على ان ذلك لم يقف دون انتشار الدعوة للقومية العربية والمطالبة بحقوقها في السلطنة . وقد أعلنت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وتلك هي العواطف السائدة في البلدان العربية . وقد علمنا في فصل سابق كيف زُجَّت تركيا في أوارها وكيف عم الاقطار السورية والعراقية الارهاب العسكري فصمت فيها كل لسان حر وخبت كل نزعة قومية



وفد من المؤتمر الطبي المصري الملتئم في بيروت يزور المصح

مصح ضهر الباشق

عمل انساني وقومي جليل

[اتيح لرئيس تحرير هذه المجلة ان يزور مصح ضهر الباشق في لبنان خلال الصيف الماضي فأعجب بالعمل من حيث هو منشأة صحية من الطراز الاول ومن حيث هو نتيجة للتضامن القومي في سبيل الانسانية فطلب الى المشرفين عليه ان يتحفوا المقتطف بوصف نشأته وتقدمه وطرق المعالجة فيه]

نبتت فكرة مصح ضهر الباشق في السنوات الاخيرة قبل الحرب العالمية وظهرت الى حيز الوجود بان أوقف المرحوم الدكتور بشاره منسى قطعة ارض من املاكه الخاصة في ضهر الباشق وبنى عليها بعض المحسنين غرفاً ولكن قبل ان يتم البناء ويغدو معدًّا لقبول المرضى نشبت الحرب العالمية فوقف العمل شأنها في كثير من هذا النوع من الاعمال

وبعد الحرب العالمية تألفت في بيروت جمعية مقاومة السل وكانت في اول امرها مستقلة عن لجنة مصح ضهر الباشق كل الاستقلال الى ان كانت سنة ١٩٢٣ فاتفق الفريقان واتحدا غيرةً وعملاً وتألفت جمعية جديدة تحت اسم جمعية الملجأ الصحي التدرني ومقاومة السل في سوريا ولبنان. والقصد ادارة مصح ضهر الباشق والسعي الى توسيع نطاقه لتعظم الخدمة التي يسديها الى الانسانية

والجمعية هذه وطنية ظاهراً وباطناً تعمل بثقة مثلثة النواحي ثقة الجمعية بصحة المشروع وفائدته ونتائجه الحسنة، وثقتها بغيرة ابناء البلاد واندفاعهم لمساعدتها، وفي الاخير ثقة ابناء البلاد بالقائمين بالعمل والمشرفين على ادارته

﴿ موقع المصح ﴾ ضهر الباشق رابية من روابي جبل لبنان تعلو عن سطح البحر ما يزيد عن ستمائة متر تقرب من بلدة برمانا وتطل على منظر خلاّب تتفاوت فيه المبهجات الفاتنة بين بحر الروم الواسع الارجاء وما يظهر على اقسام لبنان من آكام رمادية اللون وغيرها مكسوة بالاخضر الدائم وغيرها متشحة بالالوان المتعدّدة وكل منها بلون خاص بها تبدو لمن في المصح جذّابة خلاّبة عند غروب الشمس. وبالاجمال انها مناظر فاتنة تختلف باختلاف الفصول والايام ولكنها

في كل حال تبعث في النفس بهجة وأملاً وتنثر على العقل ازهار التصور والخيال فينسى ساكن هذه البقعة ما هو فيه ويطلق العنان للتأمل في جمال الطبيعة وقدرة الله فيهـا . وموقع المصح من جهة الهواء غاية في الملاءمة فلا هو بارد قارس في الشتاء ولا هو حارٌّ مرهقٌ في الصيف . بل الاعتدال فيه على أتمه في الفصلين. والمصح قرية صغيرة قائمة بذاتها أبنيتها تزيد على العشرة في كل منها جميع أسباب الراحة وهي مختلفة الهندسة والحجم ولـكنها كلها موقَّعة بحيث تصل أشعة الشمس الى كل ناحية من نواحيها والى كل زاوية في غرفها . وعين الشمس قد لا تغمض عن واحدة منها كل النهار

ومن ينظر الى المصح يخالهُ لاول وهلة قرية من قرى الاصطياف الحديثة الجميلة

ويحيط بالمصح حراج من الاشجار الشائعة في آكام لبنان وهي تزيد الموقع جمالاً ولا تمنع أشعة الشمس عن الغرف

﴿ ادارة المصح ﴾ يقوم بادارة المصح لجنة من سيدات بيروت ورجالها يمثلون الطوائف المتعددة في البلاد وطبقات خاصة من عائلات بيروت العلميـة والادبية والتجارية على رأسها السري حبيب بك طراد وينوب عنهُ الوجيه عبد الله بك بيهم فهذا التشكيل في الادارة حبّب العمل الى أهل البلاد وضمن للمصح عطف طبقات البلاد بأجمعها وجعل لـكل منها حصة فيهِ

﴿ مال المصح ﴾ لـكل نوع من النفقة مورد خاص من المال فالقسم الكبير من الابنية أنشيء بوقفٍ خاص من المحسنين يجد الزائر على عتبة كل بناءٍ منها اسم من أنفق على تشييدهِ

أما نفقة التطبيب ومعالجة المرضى وما يقتضيهِ الامر من إعاشة وتمريض وادارة وخدمة فتقوم بهِ الجمعية بما تمنحهُ من أموال المحسنين واشتراكات الاعضاء ورسوم المرضى

وقد خصصت جمعية اغاثة سوريا في بوسطن من أعمال الولايات المتحدة القسم الوافر من جهودها اذا كنا لا نقول كلهُ لمساعدة هذا العمل

وقام منذ مدَّة بعض اخواننا المهاجرين في أميركا الجنوبية ونظموا جمعية تعمل كجمعية اغاثة سوريا في بوسطن والجمعية هذه توقفت عن العمل من عهد قريب بعد ان جاهدت سنوات عديدة

﴿ مرضى المصح ﴾ يأتون من بلدان الشرق الأدنى جميعها وهم من طوائف عديدة وبدرجات اقتصادية مختلفة فمنهم من يدفع الرسم الـكامل للدرجة الاولى ومنهم من يحل ضيفاً على المصح وبين الدرجتين سلسلة من الدرجات المعروفة في جميع المستشفيات . وقد خصصت الحـكومة اللبنانية باباً في ميزانيتها لتطبيب خمسة عشر مريضاً في المصح

﴿ التطبيب والتمريض في المصح ﴾ والامران يتمان على أحدث الطرق وأشدّها اتقاناً . يتولى أمر الطبابة لجنة من الاطباء على رأسها الدكتور نعمة نخو الاختصاصي المعروف. وفي المصح طبيب

بناية وقف السيدة ايزابل بشرى في مصح ضهر الباشق

احدى غرف المصح

مقيم هو الدكتور احمد سلامة . ثم في المصح عيادة خاصة لطب الاسنان يتولاها احد أطباء بيروت المشهورين

وقد اعترفت الجامعة الاميركية بمقام المصح العلمي ولذلك جعلتهُ من عداد المستشفيات التي تفرض على طلبتها التمرن فيها قبل نيلهم الشهادة الرسمية . ويتولى التمريض ممرضتان قانونيتان يعاونهما عدد من الممرضات اللواتي كسبنَ بالخبرة والمرانة مقدرة في العمل كافية لمزاولتهِ واتقانه

﴿ مكتبة المصح ﴾ وفي المصح مكتبة جمعت كتبها من رجال الادب المحسنين وهي موضوع تسلية للمرضى وقد نظم المرضى أمرها بحيث يتسنى لكل مريض الانتفاع بها وفي الوقت نفسه المحافظة على الكتب . غير ان المكتبة صغيرة بعدد كتبها فالمجال واسع لارباب الادب الذين يشعرون بالمسؤولية نحو اخوانهم في البشرية لاهداء مؤلفاتهم اليها . والكتب العربية أكثر الكتب طلباً وشيوعاً في المصح ولا سيما ما كان منها يبحث في تاريخ بلدان الشرق الادنى . وعدد كبير من المرضى على درجة كافية من العلم فيلذ لهم مطالعة الكتب الاجتماعية والجرائد السياسية الى ما هنالك من نتائج الحركة الادبية في البلدان العربية

كان معدَّل عدد المرضى في سنة ١٩٢٤ ما يقارب العشرات الثلاث الاولى أما اليوم فيزيد عددهم عن العشرات الثلاث الاولى بعد المائة ومعدَّل الشفاء يقرب من العشرين في المائة والتحسن الاجمالي ما يعادل ٥٣ في المائة والوفيات لا تزيد عن ١٠ في المائة وهذا بحسب احصاء يتناول الاربع عشرة سنة الاخيرة

وقد دخل المصح هذه السنة ولد في الخمس الاولى من حياته مقوس الظهر معوج الفخذين لسلّ قوي في عظامه فاستعان الطبيب بالمعالجة المصحية وبأشعة الشمس وها هو ذا اليوم وقد استقام ظهره وكادت فخذاهُ أن تستقيما

طرق المعالجة [1]

يسهل جدًّا شفاء حوادث التدرن الرئوي اذا اتبع المريض الامور البسيطة التالية :— في الدرجة الاولى على المريض ألاَّ يتعب رئتيه بامتناعه عن الكلام بصوت عالٍ والضحك والمشي بسرعة وتسلق الجبال وصعود السلالم وكل ما من شأنهِ ان يزيد عمل الرئتين . والاكثار من الطعام لا يقل عن هذه ضرراً ولو كان الاعتقاد السائد عكس ما ذكرناه اعلاه . والحاجة الى استعمال الادوية واستخدام العقاقير قليلة جدًّا ولا يلجأ اليها الاَّ في حالات خاصة

اما الطرق المتبعة في المصحات ومنها مصح ضهر الباشق فهي المعروفة بالمعالجة المصحية

(١) كلمة موجزة بقلم طبيب المصح الدكتور نحو

Sanatorial Treatment وهي مبنية على ما جاء اعلاه من الوسائط المتبعة لاراحة المريض راحة تامة وما أبسط هذه المعالجة وأسهلها

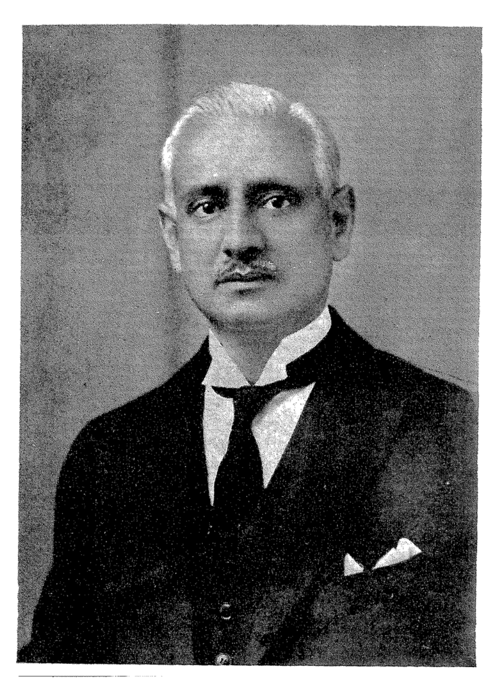
ولتكون هذه المعالجة فعالة يشترط بأن تكون حالة المريض في بدء المرض بحيث يكون انتشار الكهوف والتجاويف في الرئة الواحدة او الرئتين قليلاً ولكن من الامور المقررة ان المرضى لا يلجأون الى المصحات الاَّ بعد ان يتجاوز المرض الدرجة الاولى حيث المعالجة الصحية المار ذكرها لا تكفي لشفاء العليل ويجب أن يضاف اليها بعض المعالجات الجراحية وهي المعروفة عند الاخصائيين في العالم أجمع . أما الالتجاء الى الجراحة فلا يمكن القول بهِ الاَّ بعد مراقبة المريض ومتابعة سير المرض شهراً او أقل وهذا للحكم في هل تمكن اراحة الرئة بالجراحة راحة تامة . والأمر الاول الذي نجريهِ هو المعروف بالابرة الهوائية Artificial Pneumothorax والعملية هذه كناية عن ادخال مقادير معينة من الهواء الى التجويف البيلوري في أوقات معينة بقصد التخفيف على الرئة في عملها او توقيفه مؤقتاً . وهذه الطريقة متبعة في جميع المصحات وفي أحيان كثيرة نجري العملية على الرئتين لاراحتهما اما في وقت واحد واما لاراحة كلٍّ منهما في وقت غير وقت راحة الاخرى . وكثيراً ما تساعد هذه الطريقة على شفاء المريض وقد صارت من العمليات السهلة البسيطة بفضل تقدم الفن في اجراء العملية وفي صنع الآلات المختصة بها

وقد يحول دون اتمام هذه العملية عوائق أهمها التصاقات بيلورية تمنع ادخال الهواء ودخوله ولهذا يضطر الطبيب الى الاعتماد على وسائط اخرى خارجية كوضع اكياس رمل على صدر العليل لتضغط هذه على اضلاعه فيصغر حجم الصدر وتقلل حركة الرئة

وهنالك وسائط جراحية كاستئصال عصب الحجاب الحاجز او قطعه فقط او توقيفه مؤقتاً عن العمل بحقنهِ بالكحول . وقد يضطر الطبيب الى استئصال عصب الحجاب الحاجز في الرئتين معاً وهذا الامر قليل الانتشار ولا يلجأ اليهِ الاَّ عند نفاد الحيل جميعها واخفاقها

***

أما في الحالات التي يكون فيها المرض قد تقدم في درجته وتكون الكهوف والتجاويف قد صارت كبيرة جداً لا تكفي معها الوسائط التي تقدم ذكرها فنلتجيء الى عمليات اكبر واكثر خطراً وهي قطع الاضلاع . وقد مهر الاخصائيون بهذه العمليات فصاروا يجرونها بلباقة ورشاقة على المريض بحسب حاجته . وهذه العملية الآن منتشرة في عالم المصحات وهي معروفة عندنا وقد أجريناها في حالات صعبة وكانت نتائجها حسنة جداً . وكثيراً ما تساعد هذه العملية على شفاء المريض الامر الذي قد يكون مستحيلاً بدونها



العالم الهندي الدكتور السر شاه محمد سليمان

متحدي اينشتين

في الهند

الدكتور السر شاه محمد سليمان

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

— ١ —

ليس اهل الشرق ممن لم يفض عليهم القدر سجال عرفه من عبقرية وذكاء وحصافة وبصيرة كما أفاض على الغرب . بل تجد كثيرين بينهم أوفر حظًا وأعلى مكانة فيها من امثالهم في الغرب. غير انهُ ينقصهم التربية الصالحة والظروف الموفقة . فكم عبقري فيهم ملكت عليهِ التربية الغير الصالحة مذاهبها، وكم نابتة صالحة من الذكاء المتوقد بينهم قتلتها الظروف قبل ان تنضر وتثمر وكم برعوم وضيء من الحذق الحاد أذبلتهُ عواصف الحال قبل ان يتفتح ويفوح

على ان الشرق مع ذهاب التربية الصالحة وفقدان الظروف الموفقة ، ومع ما حلّ بساحتهِ من مكروه الرق ، وتكاثف لديهِ من مضض العبودية ، فاصطلحت عليهِ أعاصير الحياة ونزلت بهِ آلام البؤس ، فأصبحت الفوضى الفكرية والاقتصادية فيهِ ضاربة الاطناب محتلة الجوانب ، مع كل هذه العوائق الصارفة والعراقيل الرادعة استطاع ان ينجب غير واحد من العبقري والذكي والحصيف والبصير ، سبّاقي الغايات مدركي النهايات ، حازوا شأو السبق في حلبات العلم والادب ، وأحرزوا فوز النضال في شؤون الاجتماع والسياسة ، فبلغوا في قلوب الشعوب بهِ مكانة لا يستباح ذمارها ، ونالوا في محافل العلم عزة لا يهضم جانبها

لسنا بصدد ان نستقصي لك مناقب هؤلاءِ فخر الشرق وذخره جميعاً ، ولا ان ندلك على موضعهم من حدة الذكاء واحداً واحداً ، ولا ان ننبهك على موقعهم من سعة العلم فرداً فرداً ، ولا ان نُعلمك بمشهدهم من قوة البصيرة أُحاد أُحاد . فانهُ امر بعيد المتناول منيع المطلب يعوزه المجلدات الضخمة ، اذ كل جزء من الشرق قد أنجب غير واحد من هؤلاءِ الرجال العظام ، والشرق واسع الارجاء مترامي الاطراف أتى بالطم والرم منهم من الزمن الغابر الى العصر الحاضر غير اننا سنتحدث اليك اليوم عن عبقرية برزت اخيراً في اتعس اجزاء الشرق وأبأسها الذي رماه

الزمان بسهامه وصدمه بكلكله، فنابته خطوب العبودية وتخرمته بوائق الرق، فغشيه غشم المستعبد واحفاه حيف المستعمر، فدس على ابنائه عقاربه، وأرسل بينهم نياربه، فأفسد ذات بينهم وزرع البؤس فيهم فزادت احزانه، وكثرت اشجانه، وتتابعت همومه وتراكمت غمومه، ألا وهو الهند

لقد استطاعت الهند، بصرف النظر عن ماضيها الزاهر، ان تنجب في العصر الحاضر وفي مثل تلك الاحوال السيئة شخصيات بارزة عديدة في ميدان الاجتماع والسياسة، وفي حلبة العلم والادب. فلا نحسبك تحتاج الى ان نحادثك عن غاندي، وطاغور، واقبال، وبوز، ورامان، ونهرو، ومحمد علي، واجمل خان، والانصاري، وشبلي، وراي، وسروجيني نائيدو وبيكم شاه نواز اذا كنت من متتبعي الحركات العلمية والادبية والاجتماعية والسياسية في الشرق، وممن يغشون أندية العلم والادب، ومحافل الاجتماع والسياسة فيه ويلقون سمعهم وهم شهداء الى ما يطاب فيها نشره ويجمل ذكره. وعليه فقد تكون بلغت تلك الاسماء مسامعك غير مرة لانها مفخرة الهند ونجوم لامعة في سماء الشرق ولكننا نظن ان ليس ابو الكلام احمد، وشاه محمد سليمان الى الآن سمع أذنيك

اما الاول فهو من كبار حملة العلم وأهم دعائم الوطنية في الهند وأرسخهم في العلوم القديمة الاسلامية والحديثة الاجتماعية وأرجحهم سداداً وأفضلهم ذكاءً، وأبرعهم كتابةً وأصقعهم خطابةً باللغة الاردية. لسانه أرق من ورقة وألين من سرَقة [(1)]. اذا كتب وضع الهناء مواضعَ النقب، واذا خطب فلّ الحزّ وأصاب المفصِل. ونحن سنحسر عن مآثره في العلم والادب ومعالمه في السعي لتحرير الوطن في فرصة أخرى اذا وفقنا الله تعالى لذلك

أما الثاني وهو الذي نحن بصدده فهو امام في علوم القوانين لا يدرك شأوه وحجة في علوم الرياضة لا يشق غباره. وما يهجم من مظاهر عبقريته دفعة، ويأتي من نشاطه ما يملأ العين غرابة هو انهُ مع كثرة واجباته ووفرة اشغاله، إذ يتقلد مناصب حكومية واجتماعية وعلمية عديدة كما ستعلم فيما بعد، استطاع ان يشتغل بأهم العلوم دقةً وأكثرها صعوبةً اشتغالاً علميًّا حقيقيًّا لا يقدح فيه اخلاصه ولا يطعن عليه صدقه. فأنتج به انتاجاً وأبدع فيه ابداعاً حيث أتى في عالم العلم بنظرية شهدت لهُ بالذهن المتوقد والبصيرة النافذة، ودلت على منزلته من سعة الذرع وقوة الحجى، إذ أخفقت نظرية العلامة اينشتين في النسبة ونقضتها فاستوقفت انظار كبار العلماء الرياضيين والطبيعيين في العالم وملكت أفكارهم وتناولت خواطرهم ونالت اعجابهم. وقبل أن نتحدث اليك عن تلك النظرية يجدر بنا ان نزف اليك ترجمة حياة صاحبها بالايجاز لتحيط بمكانه من حدة الذكاء، وموضعه من بسطة العلم، ومبلغه من علو الثقافة خبراً

انحدر صديقنا المفضال الدكتور السر شاه محمد سليمان عن سلالة كريمة، لها المجد المؤثل

(1) أي من الحرير

والشرف الموروث ، لان رئيسها الاعلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ولذلك فبيته في الهند شهير الاثر علماً ومعلوم المفاخر أدباً ، هجر احد رؤسائه بلاد العرب وتوطن دهلي — حاضرة الهند الاسلامية — في عهد السلطان علاء الدين الخلجي [٢] . فلما أغار تيمورلنك على الهند ونهب دهلي في سنة ١٣٩٨ م انتقلت الاسرة من دهلي الى بلدة جونفور . ومن جونفور برزت شخصية احد أجداده القريبين له في العلوم والمعارف وهو النابغة العلامة مُلا محمود الجونفوري المتوفي سنة ١٠٦٢ ه الذي كان حاد الذهن متضلعاً من العلوم العقلية والرياضية والفلسفية ومن جهابذة اهل النظر فيها في عصره حيث أشير اليه بالبنان وشدت اليه الرحال وله في الفلسفة والحكمة والعلم والادب كتب نفيسة عديدة أهمها واشهرها « الشمس البازغة » . وعلى هذا فنبوغ صديقنا الفاضل شاه محمد سليمان في الحقيقة مثال للنبوغ الوراثي

ولد شاه محمد سليمان في سنة ١٨٨٦ ميلادية في جونفور وكان والده شاه محمد عثمان رحمهُ الله من المحامين الاذكياء الشهيرين فيها وعالماً بارعاً وشاعراً فوطن على تربية اولاده وتعليمهم بنفسه وقام بهِ أتم قيام . كان شاه محمد سليمان من نعومة اظفاره مرهف الذهن حاد الذكاء فاجتاز مرحلة التعليم الابتدائي والثانوي في أقل مدة ونال شهادة Matriculation في سنة ١٩٠٢ من جامعة الله آباد [٣] فكان رابعاً في الجامعة على حسب ترتيب الجدارة بين الناجحين في الدرجة الاولى . ثم انتظم في الكلية للتعليم العالي ونجح في امتحان Intermediate في سنة ١٩٠٤ فكان ثانياً في الجامعة على حسب ترتيب الجدارة بين الناجحين في الدرجة الاولى . ثم نال شهادة .B.A في العلوم الرياضية في سنة ١٩٠٦ فكان اولاً في الجامعة قاطبة على حسب ترتيب الجدارة بين الناجحين في درجة الشرف . فاستحق به مدالية «اقبال» الذهبية من الجامعة ومساعدة من الحكومة للاستزادة في العلوم وتيسير المراد منها وولاء البحث فيها بجامعة كمبردج

في سنة ١٩٠٧ سافر شاه محمد سليمان الى انجلترا ودخل جامعة كمبردج ونال منها في سنة ١٩٠٩ شهادة .M. A في العلوم الرياضية العليا بدرجة الشرف ، وفي سنة ١٩١٠ شهادة .L.L.B في علوم القوانين بدرجة الشرف من نفس الجامعة . وفي ١٩١٠ ايضاً حاز شهادة المحاماة Barrister at Law من جامعة لندن . وفي سنة ١٩١١ شهادة الدكتوراه في الحقوق من جامعة دبلين . والله قد أضفى عليهِ ذكاء حاداً يغوص أعمق الامور بسهولة ، وفكراً ثاقباً يخترق أسجف الستور بسرعة حيث أصبحت لهُ أصعب العلوم كالرياضيات أطوع من بنانه فما شابهها مثل

---

(١) تولى الامر في الهند من سنة ١٢٩٥ الى سنة ١٣١٦ ميلادية (٢) لايخفى أن اقامة الامتحانات لجميع الشهادات المختلفة في الهند من حق الجامعات ، ولا علاقة لها بالحكومة أو وزارة المعارف كما توجد في مصر

الالعاب الرياضية طبعاً لم تعص له أمراً . وعليهِ فشاه محمد سليمان من أمهر لاعبي الشطرنج لذلك كانت جامعة كمبردج حين دراسته فيها قد أنابتهُ عنها للمباراة في لعب الشطرنج مع جامعة اكسفورد فناب عنها أحسن مناب

رجع شاه محمد سليمان في سنة ١٩١١ الى الهند مزوداً بالعلوم والمعارف ومستعدًّا لخدمة الوطن فبدأ يمارس صناعة المحاماة أولاً في مقاطعة جونفور ثم لدى المحكمة العليا في الله آباد في سنة ١٩١٢ . وفي مدَّة قليلة نال شهرة واسعة لبراعتهِ في القانون ، وسمعة حسنة لاخلاصهِ في العمل ، فعين في سنة ١٩٢٠ قاضياً منتدباً وهو شاب يناهز ٣٤ . وهذا أمر لم يسبق لهُ نظير فان ذلك السن أقل من المعتاد لتقلد القاضي منصبه في الهند . ثم عين قاضياً مستديماً في سنة ١٩٣٢. وبعده عين رئيساً منتدباً للمحكمة العليا في الله آباد في سنة ١٩٣٠ ثم رئيساً مستديماً في سنة ١٩٣٢ وفي ١٩٣٧ انتخب قاضياً ممتازاً لمحكمة الاتحاد الهندية Federal Court of India التي أنشئت أخيراً في دهلي عاصمة الهند طبقاً للاصلاحات الجديدة وهي الآن أعلى المحاكم في الهند بأسرها

ما عدا منصب القضاء العالي الدائم هذا وما لهُ من الشأن من جهة اشغاله المتواصلة وواجباته المتتابعة التي تفترس صاحبه غُفلَةً وتقتنصهُ نهزةً وتختطفهُ نهبةً استطاع شاه محمد سليمان ان ينهض في نفس الوقت بأعباء عدَّة مناصب حكومية علمية اجتماعية هامة أخرى لا يشوبهُ خلل ولا يعتريه أوَد ولا يخالطهُ وهن ولا أمت . فقام بمهمة العضوية من قبل الحكومة في لجنة التحقيق في شغب بشاور في سنة ١٩٣٠ ، وفي محكمة الضرائب بلندن في ٣ — ١٩٣٢ كما قام بمهمة الرياسة في اللجان الاقليمية العديدة أحسن قيام

أما مناصبه وأعماله العلمية فهو أحد مؤسسي المدرسة الاسلامية الثانوية في الله آباد وكان رئيساً لها . واشتغل سنين سكرتير القسم الداخلي الاسلامي بجامعة الله آباد ، وهو اليوم وكيل الرئيس فيهِ . وهو عضو هام في المجالس التنفيذية بالجامعة الاسلامية عليقره وبجامعة الله آباد وبمجمع العلماء الهندستاني في اقليم أوَدَه . اشتغل منصب المدير بالجامعة الاسلامية بعليقره منتدباً في سنة ٣٠ — ١٩٢٩ . ومنحهُ الاتحاد الجامعي في تلك الجامعة منصب العضو الدائم لطول مدة حياته في سنة ١٩٣٠ . وفي سنة ١٩٣٤ منحتهُ نفس الجامعة شهادة الدكتوراه الفخرية في الحقوق اعترافاً بفضله وتكريماً لهُ . وفي أوائل السنة الجارية انتخبهُ المجلس التنفيذي في تلك الجامعة مديراً لها . وعلاوة على كونهِ اليوم مديراً للجامعة الاسلامية بعليقره هو أيضاً رئيس كلية كروسويت للبنات في الله آباد ، وراعي نقابة العلوم الرياضية في الله آباد ، ونائب الرئيس في جمعية العلوم الرياضية بكلكته ورئيس مدرسة مصباح العلوم العربية في الله آباد . ومع ذلك لا يجد فرصة الاَّ وينتهزها ولا نهزة الاَّ ويغتنمها لالقاء المحاضرات العلمية لعامة الناس في المراكز

العلمية مثل جامعة الله آباد وجامعة لكهنؤ ، وجامعة عليقره ، وجامعة بنارس

ومن مناصبه واعماله الاجتماعية العلمية انه يتقلد اليوم منصب الرئيس بصحة الملك ادوار السابع التذكارية في بوپالى . وقد رأس مؤتمر مسلمي الهند الاجتماعي في مدراس في سنة ١٩٢٧ ورأس مؤتمر مسلمي الهند التعليمي في اجمير في سنة ١٩٢٨ وكذلك رأس حفلة توزيع الشهادات بجامعة دكا في سنة ١٩٢٩ ، وبالجامعة الاسلامية بعليقره في سنة ١٩٣٤ ، وبالجامعة العثمانية بحيدر آباد في سنة ١٩٣٧ . ورأس ايضاً حفلة اكاديمية العلوم في سنة ١٩٣٤ وحفلة نقابة العلوم الرياضية في سنة ١٩٣٦ وحفلة جمعية علوم الفلسفة بجامعة الله آباد في سنة ١٩٣٧ . والقى في كل حفلة من تلك الحفلات خطبة علمية بليغة ناسبت مقتضى الحال ، ودلت على رحب المجال ، فأبانت فصاحة لهجته وجزالة منطقه وبرهنت على طول باعه في العلوم ورسوخ قدمه في الفنون

على انه ليس مجرد تقلد المناصب العديدة مما يقاس به عظمة الرجل ، ولا بلوغ المراتب السنية مكيال لرفعة قدر الانسان وعلو كعبه . بل كفاءته التي تضطلع بأعباء المناصب ولا تنوء وهمته التي تقوم بالواجبات ولا تأودَ ، وحصافته التي تصل الحق في اعماق الامور ولا تكد ، ودهاءه الذي يشق الطريق بين الخطوب ولا ترزح ، ولن تجدي هذه المزايا نفعاً اذا لم تكن مصحوبة بالاخلاق السامية في الاعمال والمعاملات ، فان الاخلاق أساس كل فضيلة ورذيلة في العالم ومصدر كل فوز وخيبة في الحياة . فالاخلاق العالية هي التي تبني من تلك المزايا لعظمة الرجل مناراً لا ينهدم وترفع لها راية لا تنتكس ، فتوضح به للناس سبيلاً لا يخفى ، وتبين لهم منهجاً لا يبلى

وعليه فشاه محمد سليمان ليس ممن بلغوا تلك المناصب العالية ، فصعروا خدودهم للناس عجباً ، ومشوا في الارض مرحاً ، وعَلوا من دونهم بالعصا ، فخاطوهم القصاء ، بل هو طيب العشرة محمود الملابسة للغني والفقير ، والرفيع والوضيع ، والمشهور والمغمور ، والخطير والحقير ، لين العريكة دمث الطبع رحب الصدر كريم السجايا لا يخيب آمله ولا يُعدم آمله ولا يحرم سائله . كما هو ذكي لوذعي وبصير ألمعي ، أسبقهم جدارة بتلك المناصب غير مدافع وأفضلهم كفاءة لها غير معارض ، صادق العزيمة ماضي الصريمة ، داهية في تصريف الامور الصعبة الانقياد والشديدة الالتواء ، ذو ذوق علمي سليم دقيق النظر يستجلي غوامض العلوم ويستبطن دخائل الفنون ، واسع الاطلاع ، غزير المادة ، حصيف العُقدة بحر في العلوم الرياضية لا يسبر غوره ، سند في علوم القوانين قلَّ ان يوجد مثيله . وقصارى الكلام انه ذو اوصاف وعبقرية يحق لصاحبها ان يكون مفخرة الارض التي نبت عنها كما هي ايضاً قمينة بأن تفتخر به وتتباهى

هذا ما عنَّ لنا الآن من سيرة الدكتور السر شاه محمد سليمان صاحب النظرية النسبية الجديدة التي تحدّى بها العلامة آينشتين بايجاز . وموعدنا للحديث عن تلك النظرية المستقبل

مجالي الفكر

الحديث

في الفلسفة والعلم والسياسة

١ — مرشد لفلسفة الاخلاق والسياسات[1]

الاستاذ جود عميد قسم الفلسفة وعلم النفس بكلية بيركبك بجامعة لندن كاتب قدير ومفكر ممتاز وفي الرعيل الثاني من ممثلي الفلسفة الانجليزية في العصر الحديث ولعله أقدرهم جميعاً على ترويض الجموح وتذليل الصعب من المشكلات الفلسفية ، وللرجل نزعة كريمة ترمي الى اذاعة الفلسفة وتقريبها الى الافهام وجعل الاهتمام بها عامًّا شاملاً غير مقصور على فئة قليلة من أساتذة الجامعات وطلاب العلم ، وقد وفق الى حد كبير في ادراك غايته وتحقيق برنامجه واعانهُ على ذلك بلاغة أدائه وبراعة أسلوبه ومقدرته الفائقة على التبسيط والتيسير ، وهو لا يلتزم في كتاباته الجد الصارم والوقار المتزمت الذي يصطنعهُ بعض كتّاب الفلسفة وانما يسبغ على كتبه بطريف ملاحظاته مسحة ادبية تجعل قراءتها رحلة هانئة ومتعة مستحبة

وآخر كتاب أصدره هو « المرشد لفلسفة الاخلاق والسياسات » وأخص ما يسترعي النظر في هذا الكتاب الجديد هو نزاهة الاستاذ جود في عرضه للمبادىء والنظريات التي تنافر مذهبه الفلسفي الخاص وتنقض افكاره من اساسها ، ومعظم اصحاب النظريات عندما يتصدون لعرض الآراء والمبادىء والتعاليم المخالفة لمذهبهم يمسخونها — ولو عن غير قصد — ويظهرونها في صورة تبعث في كثير من الاحيان على النفور والخلاف . وقد تجلت مقدرة جود على الاعتدال وضبط النفس عند عرض الافكار التي لا يدين بها في هذا الكتاب كما ظهرت في كتابه السابق « مرشد الفلسفة » . ولجود اطلاع واسع دقيق على تاريخ الفلسفة وهو يتتبعها الى مراحلها

(1) Guide to the Philosophy of Moral & Politics. By C.E.M. Joad. (Gollancz)

الاخيرة وصورها المستحدثة ويحسن العرض ويجيد التنسيق ويعرف كيف يخرج لك من المادة المتكاثرة كلاًّ حيًّا متصل الحلقات جيد التسلسل

وكتابه الجديد مقسم الى اربعة اجزاء ، وقد كسر كل جزء على جملة فصول تتناول شتى نواحيه ، وقد تناول في الجزء الاول الفلسفة السياسية والاخلاقية عند اليونان واسماه السياسة والاخلاق لان اليونان في تفكيرهم الفلسفي ، كانوا ينظرون الى الاخلاق والسياسة من حيث هما شيء واحد ، فمشكلة البحث عن طبيعة الحياة الصالحة للفرد ومشكلة معرفة طبيعة المبادىء التي تسيطر على اجتماع الافراد او يجب ان تسيطر على الافراد في المجتمعات كانتا عند اليونان وجهين لمسألة واحدة ، وكانوا يرون انك لا تستطيع ان توفق في علاج احدى هاتين المشكلتين دون أن تبحث الاخرى وتهتدي الى موقف خاص حيالها ، وليس في وسع انسان ان يقرر ما هو أحسن نظام للمجتمع دون أن يفكر في حياة الافراد وسبل اسعادهم،وآراء أفلاطون في هذا الصدد تطابق آراء ارسطو

وتناول في الجزء الثاني الاخلاقيات منفصلة عن السياسيات وذلك لانهُ منذ عهد احياء العلوم قطعت الصلة بين التفكير السياسي والتفكير الاخلاقي وصار ما كان يراه اليونان وحدة لا تنفصم عروتها فرعين مختلفين من فروع التفكير ، وقد حرص التفكير اليوناني على استدامة العلاقة بين الاخلاق والسياسة وحاول الابقاء عليها ولكن مجيء المسيحية وجعلها أساس الحياة في الحياة الاخرى وذهابها الى ان مدينة الله هي منزل القدس وموئل الروح وتهوينها أمر المدينة السياسية مهد السبيل لهذا الانفصال ، ثم ظهرت البروتستنتية فأتمتهُ ، وتوفرت الفلسفة الاخلاقية على بحث معنى الخير والشر ومقياس السلوك الحسن والخلق الفاضل وأصل الواجب الأدبي وهل الحق والباطل من المبادىء الاساسية المستقلة بذاتها في الكون او هما مجرد أسماء يلقيها الانسان على الاشياء التي يقرها او التي لا يقرها بحسب أهوائه واتجاه مصالحه ، وهل الحق هو العمل الذي يرضي الحاسة الاخلاقية او هو الذي ينبعث من ارادة حرة او مجرد العمل الذي يسفر عن نتيجة محمودة وأثر طيب ؟ واذا كان هو الذي يسفر عن النتيجة المحمودة والاثر المبرور فما هو ذلك الاثر وما معناه ؟ وواضح انهُ من الصعب أن نجاوب عن مسألة معنى الخير دون ان نبحث مسألة معيار العمل الصالح لانهُ اذا كان للخير معنى فان العمل الصالح اذن هو الذي يزيد هذا الخير وينميه وذلك بطبيعة الحال لا يستلزم الخوض في السياسة ومعالجة مسائلها ، ومن الممكن البحث في طبيعة الواجبات والالتزامات الاخلاقية وأصلها ومصدر سلطتها دون الاشارة الى المبادىء القائم عليها الاجتماع الانساني الذي نسميه « المجتمع » وكثيرٌ من كتّاب الاخلاق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد أشبعوا البحث في الفلسفة الاخلاقية دون ان يدعموا آراءهم

بتوضيح تأثير آرائهم الاخلاقية من الناحية السياسية او الاجتماعية

والقارىء قمين ان يلمح من ذلك ان المسيحية انما مهدت السبيل لفصل الاخلاق عن السياسة لانها جعلت حياة الانسان الحقيقية ليست في هذه الدنيا وانما في العالم الآخر ، فالحياة الدنيا زائلة فانية والحياة الأُخرى هي الخالدة الباقية ، وحياة الانسان الدنيوية هي بمثابة اعداد وتجربة وقيمتها رهن بالعناية التي يتم بها هذا الاعداد والتهيؤ ، والصالح في هذه الدنيا انما هو صالح لانهُ مدرجة الى نيل السعادة في العالم الآخر ، فليس الصالح للانسان هو الصالح للحكومة كما يعتقد فلاسفة اليونان وانما الصالح هو ما اعان على خلاص الروح واستنقاذها وهو يتحقق في أبهر صوره وأشرق مجاليه في ملكوت الله لا في مملكة قيصر وعالم الارض ، والحكومة لا تلعب دوراً هاماً في تقريب ذلك العالم السماوي وربط اسبابنا باسبابه ، وكانت الحكومة من الناحية العملية تستلزم من الفرد بعض العناية والالتفات والمجهود الذي يحرص الفرد على بذله في سبيل الله والدنو من ملكوته ، وولاء الفرد لله كان في العصور الوسطى شديد الصلة بولائه للكنيسة ومن ثمَّ كانت هناك نظرية سياسية في العصور الوسطى تحاول التفريق بين مطالب الحكومة ومطالب الكنيسة ونشأت تبعاً لذلك فكرة السلطة الروحية والسلطة الزمنية وكان يمثل الاولى البابا ويمثل الثانية الملوك والحكام

واوقف المستر جود الجزء الثالث من كتابه للكلام عن السياسة وذلك لانهُ منذ انتهاء عصر احياء العلوم لمع في آفاق التفكير كثير من الكتَّاب تناولوا بحث السياسة منفصلة عن الاخلاق وكان مدار بحثهم اصل المجتمع والحاجات الانسانية التي نشأ منها والاهتداء الى المبادىء المسيطرة عليه ، والبحث في ضوء تلك المبادىء عن احسن صورة للمجتمع الانساني وهل الاوفق للانسان الحكم الفردي (الاوتوقراطية) او حكم الاقلية (الارستقراطية) او حكم الجميع (الديمقراطية) ؟ واذا كان الحكم الارستقراطي هو أحسن الانظمة فما هي المؤهلات التي يجب أن تتوفر في الفئة القليلة المختارة ؟ واذا كان حكم الاكثرية هو أحسن صور الحكم فما هي الاساليب التي يحسن اتباعها في انتخاب ممثلي تلك الاكثرية ؟ وما مدى السلطة التي يمنحها الناخب للنائب ؟ والنائب ان لم يزود بالسلطة الكافية فان الحكومة النيابية لا تستطيع المضي في اعمالها ، ولكن اذا منح سلطة اكثر مما ينبغي فما هو الضمان الذي يمنع من اساءة استعمال هذه السلطة ؟ وما هي حقوق الفرد في علاقته بالحكومة ؟ وما هي حدود سلطة الحكومة ؟ وهل للحكومة سلطة اكثر من السلطة المستمدة من الافراد الذين تتكون منهم ؟ لقد بحث هذه المسائل هوبز ولوك وروسو وهجل وماركس وسبنسر ولم ينظروا الى علاقتها بالاخلاق

وفي الجزء الرابع يرينا المستر جود كيف عاد الفرعان الى الالتقاء في المذاهب السياسية السائدة

وهو يرى ان عودة الاتصال بين الاخلاق والسياسة من ملامح القرن العشرين البارزة وسماته الكثيرة الدلالة ، والحقيقة عنده ان السياسة متصلة بالاخلاق اتصالاً وثيقاً . والقرن العشرين على حق في الرجوع الى توحيدها ولكنه في الوقت نفسه يصارحنا بأن رجعة القرن العشرين الى فكرة ربط الاخلاق بالسياسة لم تخل من قلب للوضع الاصلي ولم تسلم من تشويه للفكرة القديمة وحقيقة ان الحياة الصالحة للانسان لا يمكن تحقيقها بمعزل عن المجتمع ولكن النظرة الحديثة تعتبر حياة الفرد الصالحة مجرد جزء من صلاح المجتمع وقد أدى ذلك الى مبالغات والتواءات في التفكير الحديث الذي يعتبر الفرد من ناحية كونه واسطة لخير المجتمع ، وقد المستر جود هذا الاتجاه بتوضيح نظريته التي سبق له ان شرحها في مختلف مؤلفاته وهي ان الفرد غاية في نفسه وان وظيفة الحكومة هي ان تفسح له المجال وتعد من اجله الفرصة

وخلاصة القول ان كتاب المستر جود فضلاً عن قيمته الثمينة لدارسي الفلسفة من احسن المراجع وأوثقها لفهم النظريات السياسية الحديثة التي تعمل وراء حوادث هذا العصر المضطرب الجائش ولا مفر لمن اراد ان يفهم العصر على الوجه المرضي ويدرك لب حوادثه وخفايا انقلاباته من الاطلاع عليه وانعام النظر واطالة الفكر فيما بين سطوره ***

٢ — العلم والمجتمع (١)

في الاجتماع السنوي الذي عقده مجمع تقدم العلوم البريطاني في خريف سنة ١٩٣٦ ألقى رئيسهُ السر يوشيا ستامب خطبة جعل مدارها العلم والاجتماع . ومما قالهُ فيها ان العالم او المخترع كان الى الثلث الاول من القرن الماضي ، ينتظر بعد الفوز بكشف او مخترع تأييد أمير عظيم أو ثري كبير . ولكن رجال الحكومات واقطاب المال والاعمال غدوا وهم أشد ميلاً الآن الى تشجيع الباحثين على البحث واجازتهم بغير وسيلة واحدة على ما يكشفون او يستنبطون بغية استغلال مكتشفاتهم ومستنبطاتهم . فكانت النتيجة ان الفترة التي كانت تنقضي بين الكشف والاستنباط من ناحية ، ووصولها الى مرتبة التطبيق الصناعي الواسع النطاق ، اصبحت قصيرة الآن وهذا أبعث على احداث انقلابات فجائية في احوال المجتمع لضيق الوقت المتسع للتمثيل الاجتماعي والملاءمة الاقتصادية . ثم انتقل الخطيب الى بيان الهوّة التي مابرحت قائمة بين العالم والاقتصادي والسياسي . فالعالم قلما يعني بنتائج كشفهِ واستنباطه مع ان ثمارها من أفعل العوامل

(1) Science for the Citizen, by Lancelot Hogben. Published by Allen and Unwin Ltd, London. 12/6

في احداث التحوّل الاجتماعي ، واذا عني بها ، فعنايتهُ تحصر في الغالب في تعديد الفوائد التي تغدقها مكتشفاته ومخترعاته على الناس ، ولا تتعداها الى تبيُّن الهزّات الاجتماعية والرجّات الاقتصادية التي تحدثها . فكأنَّ المنطقة التي تحصل فيها الهزة والرجة ، وكيف يجب ان تتقيا ، كانت منطقة حراماً على الباحثين . فالعالم كان يحسبها خارجة عن نطاقه الخاص . والاقتصادي قلما اعترف بأن الواجب عليه يقضي بدراسة هذه الناحية من الموضوع . والحكومات كانت تقف بمعزلٍ عما هو حادث الى ان تتفاقم العواقب . فتربية العالم كانت لا تشتمل على تبصيره بعواقب عمله من الناحية الاجتماعية . وتربية السياسي والاداري كان يعوزها تدريبهما على فهم تقدم العلم وما يقتضيه من ملاءمة الكيان السياسي والاجتماعي لهُ . فلما وقع الاصطدام انكر كلٌّ من يهمهُ الامر ان الامر من شأنه

هذا بيان الاصل الذي ترتدُّ اليهِ مشكلة الحضارة الحديثة مشكلة الفاقة والقلق حذاء الثروة التي يغدقها العلم ، وشبح التقتيل والتدمير ازاء ما يبدعهُ العلم للسيطرة على قوى الطبيعة المتمردة. وقد اقترحت عدة مقترحات لعلاج الداء وردم الهوّة بين العلم والاجتماع كاقتراح السر يوشيا ستامب ان تكون العلاقة بين العلم والاجتماع ، وتأثير العلم في المجتمع ، مجالاً لبحث علمي منظم . وقد قام الاستاذ جوليان هكسلي حفيد هكسلي الكبير ببحث رائدٍ في هذا الموضوع ضمنهُ كتاباً نفيساً . الاَّ ان الاستاذ لونسيلوت هوغبن ، مؤلف كتاب « العلم والمجتمع » رأى ان يتغلغل في ماهو أعرق من ذلك في دراسة هذا الموضوع ، فكتب ملخصاً للعلم غلَّب عليهِ في بحث تطوره التاريخي تأثير العلم الاجتماعي في مختلف العصور. فاذا قرأهُ القارىء افاد منه فائدتين الاولى حقائق العلم مبسطة تبسيطاً يرضي الخاصة ويلذ العامة، والثانية نظرة اجتماعية شاملة لتأثير العلم في تطور الاجتماع البشري

ان الشأن الاول في نظر الاستاذ هوغبن ، هو لذلك القلق الذي يساوره من ناحية جمهور كبير آخذ في الازدياد من الشبان والشابات الذين يعلمون انهم سيكونون الضحايا الاولى لقوى التدمير الناشئة عن سوء تطبيق العلم . فالعلم كان من افعل العوامل في نشوء هذا المجتمع المضطرب والعلم وحده هو الذي يملك وسيلة العلاج . فليعلم الشاب والشابة ان اقطاب العلوم اكتسحتهم التيارات الاجتماعية التي كانت سائدة في العصور المختلفة . بسِّط لهما جهدك قواعد العلوم المختلفة . وفسر لهما اسلوب البحث العلمي . ثم أجلُ لهما ان العلم ليس « الفطنة المنظمة » بل « العمل المنظم » وعندئذٍ يدرك هؤلاء الشبان والشابات السبيل الى انقاذ انفسهم وانقاذ العالم

يقول الاستاذ هوغبن ما ملخصهُ : أَطلق العلم في القرن الماضي قوى جديدة للتنظيم الاجتماعي تقصر عن ادراكها وفهمها التربية السياسية التي تعودناها . فمن سبعين سنة كان في مكنتنا ان نبحث مشكلة الفاقة وهل هي مما يساغ من الوجهة الاخلاقية او مما يجتنب من الناحية المادية.

ولكن ذلك قد تغير. فالفاقة اليوم ليست شيئاً يتعذر اجتنابه من الناحية المادية. والحرب ليست نزهة اخلاقية. انها تهدد بناء الحضارة بالانهيار، اذ نحن لم نستأصل شأفتها بنفس السرعة والشدة اللتين استأصلنا بهما الجدري والملاريا والحمى الصفراء

ومن الواضح ان الهدف الذي يتوخاه الاستاذ هوغبن، وهو تعليم الناس وطبع العلماء بشعور التبعة الاجتماعية، عمل عظيم الشأن وعر المسلك ولكنهُ من افراد العلماء الذين في وسعهم ان ينهضوا بهذا العمل. فقد نشأ ورسخ في دراسة علم الاحياء من الناحية الاجتماعية. وهو يعتقد ان معاهدنا العلمية لا تدرس العلم كما يجب ان يدرَّس. ثم انه علاوة على هذا وذاك بارع البراعة كلها في تبسيط العلوم واذا كان قد ادخل على فصوله بعض المعادلات الرياضية فلأنهُ يحترم ذهن القارىء ولانهُ يسوقهُ الى المعادلة برفق وعناية فلا يشعر القارىء عند بلوغها انهُ امام شيءٍ إدٍّ في رواية أخاذة. ولذلك لا يخالجنا شك في ان كتابهُ هذا سيترك الاثر المتوخى في جمهور القراء، بل وفي جمهور اساتيذ العلوم وهو اهمُّ. لانهُ متى ادرك اساتيذ العلوم — على نحو ما بين السر يوشياستامب — انهم اعضاء في جماعة تتنازعها عوامل الانتقال والانقلاب، فلعلهم يتحولون الى تخريج الوف من الطلاَّب كلَّ سنة ينطلقون في العالم حاملين رسالة العلم على انهُ « قوة اجتماعية ». ولا استبعد بعد النجاح المرتقب لمثل هذا المؤلف ان يصبح نموذجاً لمؤلفات اخرى تنسج الى منواله

كان الغالب على الظن حتى الآن، من دراسة سير العلماء، ان الرغبة في اقتحام المجهول، واستطلاع الخفي، كان المحرِّك الاول لهم على البحث والكشف. ولكن الاستاذ هوغبن لا يرى كيف يمكن ان نفسر بهذا الرأي اختراع المضخة البخارية في الوقت الذي كانت انكلترا في أشد الحاجة الى جهاز من قبيلها لنزح المياه من مناجمها. ولا كيف قامت صناعة قطران الفحم الحجري ومركباته في المانيا، وهي البلاد التي تحتاج أشد الحاجة الى المواد الاولية مما حتم عليها ان تجني من القليل الذي لديها أعظم ما تستطيعهُ من الفائدة. والرأي عندهُ ان الضرورة الاجتماعية هي التي تملي على العالم الموضوع الذي يجب ان يتجه اليه وينفق فيه وقتهُ وجهده، وهذا لا يمنع ان يكون اندفاع العالم في هذا السبيل على غير وعي منهُ لانهُ ابن عصره متأثر بأحواله وتياراته

والاستاذ هوغبن ليس أول من ذهب هذا المذهب ولكنهُ حتماً اول عالم وضع كتاباً على هذا الاساس، كتاباً هو في الوقت نفسه تاريخ للعلم ومدخلٌ الى تفسير العلم تفسيراً اجتماعيًّا

والعلم عنده يتقدَّم عند ما تبدو في عصر ما حاجة اجتماعية لا بدَّ من الاستجابة لها، ولان ذلك العصر يكون قد جمع بين أسلوب وافٍ للبحث والاستكشاف والباعث عليهما

قال: — ان قصة العلم، سواء أبالمحض وصفناه أم بالمطبَّق، ليست منفصلة عن حياة

الانسان . فما ندعوه علماً محضاً لا يعيش الاّ في نظام اجتماعي يخلق للعالِم مشكلات يجب حلها ويجهزه بوسائل وأجهزة لذلك الحل . فلولا الطباعة لما شعرنا بالحاجة الى المناظر (النظارات) ولولا المناظر لما كان لنا المجهر ولا المرقب . ولولاهما لما أدركنا حقيقة سرعة الضوء المطلقة وبعد النجوم باختلاف الزاوية والحيوانات الدقيقة والاختمار والاسباب الجرثومية للامراض . ولولا الساعة ذات الرقّاص والقذيفة لما كان علم الحيل (ديناميكس) ولا نظرية الصوت . ولولا علم الحيل الناشىء من الرقاص والقذيفة لما كان كتاب المبادىء (برنسيبيا الذي وضعهُ نيوتن) . ولولا التعدين تحت أطباق الارض لما شعرنا بالحاجة الى دراسة ضغط الهواء والتهوية والانفجار

ويمكن ان يقال بوجه عام ان كتب العلم العامة تحتوي على فصول لا رابط بينها — فصل في الطبيعة وآخر في الفلك وثالث في الكيمياء ورابع في الاحياء وهكذا ، كأن كلاًّ منها علم نشأ على حدة نشوءًا مستقلاً . ولكن ذهن الاستاذ هوغبن ذهن فيلسوف يهوى التركيب . وهو يميل الى الاخذ بالصور الذهنية العامة التي توجّه الموضوع . ولاسيما الصور والمبادىء الاجتماعية . فاقبالهُ على كتابة مؤلف في العلم، من الناحية الاجتماعية ، يسبغ على فصول كتابهِ وحدة واتساقاً فترى العلوم المختلفة فيهِ وهي سائرة في طريق الارتقاء جنباً الى جنبٍ

والكتاب خمسة اقسام اولها القسم الذي عنوانهُ « غزو التوقيت والقياس » وفيهِ يتناول الساعات والتقاويم والفلك والهندسة والملاحة والميكانيكا من الناحيتين التاريخية والفنية . ويليهِ « غزو المواد » وهو يتناول نشأة الكيمياء الحديثة وردّ اصولها الى حاجات المعدنين والنساجين . ثم القسم الثالث وعنوانهُ « غزو القوة » وهو بحث في نشأة الطاقة الميكانيكية والكهربائية ولكنهُ بحث مرتبط باحوال الاجتماع الرأسمالي والثورة الصناعية التي أحدثها المحرّك البخاري. ثم القسم الخاص بغزو « الجوع والمرض » ولعلهُ خير الفصول جميعاً لان الاستاذ هوغبن احيائي في نشأتهِ واحيائيٌّ اجتماعي في نزعتهِ وعملهِ . هنا فصول متتالية محبوكة تشمل علوم الاحياء والطب والتطوّر العضوي من الوجهتين العلمية الفنية والاجتماعية. ثم اخيراً القسم الخاص بغزو « السلوك » وفيهِ يعالج الجهاز العصبي المركزي وعلم النفس ويشرح سلوكنا الانساني وبواعثهُ. ويختم الكتاب بفصل يجمل فيهِ المؤلف فلسفته الاجتماعية ونتائج بحوثهِ

وليس ببعيد ان يكون أثر هذا الكتاب وما ينسج على منوالهِ كأثر « الانسكلوبيذي » التي قام ديدرو على وضعها في القرن الثامن عشر . فلقد ضمّنهُ الاستاذ هوغبن زبدة المعارف العلمية التي جمعها الناس وحققوها خلال قرون طويلة ثم هو فسرها على ضوءِ الحاجات الاجتماعية القديمة والمعاصرة ثم قدمها لابناءِ العصر الحديث أداة للاصلاح الاجتماعي

٣ — الساسة الغبر (١)

للورد نلسن أمير البحر البريطاني وبطل معركة الطرف الاغر قول مأثور في تاريخ الاسطول البريطاني وهو «ان أسطولاً من السفن الحربية البريطانية خير المفاوضين في أوربا» . ومن هذا القول المأثور — الذي وضعهُ مؤلف هذا الكتاب على صفحة على حدة امام فصله الاول — استخرج المؤلف عنوان كتابه . وغرضه من فصوله ان يصف ماكان للاسطول البريطاني في البحر المتوسط من شأن في حوادث البلدان الواقعة على ضفاف هذا البحر من لدن عقدت الهدنة مع تركيا في أواخر الحرب الكبرى واحتل الحلفاء الاستانة الى نشوب الحرب الاهلية الاسبانية وما لازمها من اعمال الرقابة على سواحل اسبانيا وحماية طرق المواصلات البحرية من جبل طارق الى قناة السويس

والمؤلف كان ضابطاً بحريًّا في الاسطول من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٣٢ فلما خرج من الاسطول برتبة «لفتننت كوماندر» اتخذ الكتابة والتأليف صناعة له فكان المكاتب البحري لجريدة المورننج بوست مدى اربع سنوات قبل اندماجها في الديلي تلغراف. وهو الآن المكاتب البحري لجريدة «الصندي تيمس» ومقالاته في الموضوعات البحرية تنشر في أهم المجلات العالمية

تتجلى لك معرفته بشؤون الاسطول في التفصيلات الممتعة التي يطالعك بها في كل صفحة من صفحاته : أسماء السفن الحربية المنوعة التي اشتركت في مختلف الحوادث وتنقلها من قاعدة بحرية الى أخرى واسماء القواد والضباط واحوال السفن نفسها والروح المعنوية التي تسود رجالها واستعماله المصطلحات البحرية الفنية في المواقف الخاصة. ومع انهُ لا يشير ولا ناشر الكتاب يشير الى انهُ كان ضابطاً في أسطول البحر المتوسط وشهد بنفسه معظم الحوادث التي يصفها فانك لا تكاد تسير قليلاً في مطالعة الكتاب حتى يلوح لك انهُ كان ضابطاً فيه وذلك لدقة الوصف حتى تحس كأنك مما يصف بمشهد

***

الفكرة الاساسية التي يقوم عليها الكتاب هي كما قلنا وصف اعمال الاسطول البريطاني في حوادث البلدان الواقعة على ضفات البحر المتوسط من احتلال اسطنبول الى حريق ازمير الى حادثة كورفو الى ثورة فلسطين (١٩٣٦) الى حوادث النزاع الخطير الذى لازم المشكلة الحبشية

(1) The Grey Diplomatists, by Lt-Comdr. Kenneth Edwards, Rich & Cowan London 15/-

الايطالية الى الحرب الاهلية في أسبانيا ومسائل عدم التدخل والرقابة وحماية المواصلات البحرية بعد مؤتمر نيون

وعند المؤلف ان حادثة جزيرة كورفو كانت حدًّا فاصلاً بين الزمن الذي كان فيه للاسطول البريطاني في البحر المتوسط من الهيبة والمقام ما جعله سيد مياهه ، والزمن الذي بدأت فيه ايطاليا تظهر كدولة بحرية قوية تنازع بريطانيا سيادة البحر المتوسط وتطمح الى ان تخلفها فيه. ويذكر القراء ان سبب تلك الحادثة اغتيال لجنة الحدود الايطالية في جانينا باليونان (٢٨ اغسطس سنة ١٩٢٣) وان السنيور موسوليني بعث ببلاغ نهائي شديد الى حكومة اثينا وبعظم الاسطول الايطالي الى مياه جزيرة كورفو فضرب الجزيرة بقنابله . وعندما سلمت السلطات اليونانية في كورفو أنزل فصيلة من البحارة الى البر. فلما احتجت اليونان الى عصبة الامم تنكّر موسوليني للعصبة ولم يقم لها وزناً وأصرَّ على ان يمحو عار الاغتيال بعمل حاسم فكان له ما أراد عندما نقلت جثث القتلى على احدى المدرعات الايطالية إذ حُيِّيت السفن الحربية اليونانية في مرفأ فاليرون بكورفو على رفع العلم الايطالي تحيةً وتكفيراً . وتلا ذلك انسحاب القوات الايطالية من الجزيرة

ويلوح مما جاء في كتاب « الساسة الغبر » ان ضباط الاسطول البريطاني في البحر المتوسط أدركوا مغزى هذه الحادثة ولكن رجال السياسة البريطانية في لندن — البعيدين عن حوادث البحر المتوسط المنهمكين بالمشكلات المعقدة التي أورثتهم ايَّاها الحرب الكبرى — لم يدركوا ذلك المغزى او انهم أدركوه ولكنهم شغلوا عنهُ بما بدا لهم أخطر شأناً منه . وكذلك والت الحكومات البريطانية المتتالية نقص الاسطول البريطاني بالمعاهدات البحرية المختلفة وفرضت على رجال الاسطول ممارسة سياسة الاقتصاد والتوفير في كل باب من الابواب

هذه الخطة التي جرت عليها الحكومة البريطانية أضعفت الاسطول وحدَّت من كفاءة رجاله . وللكوماندر كنيث أدوردز فصلان هما السابع والثامن من كتابه بسط فيهما هذه الناحية من الانحطاط في قوَّة بريطانيا البحرية وهو انحطاط استمرَّ نحو اثنتي عشرة سنة من بعد تصفية حادثة كورفو في سنة ١٩٢٣ الى النزاع الحبشي الايطالي في سنة ١٩٣٥

فجرياً على خطة الاقتصاد المفروضة على الاسطول أصبحت السفن تقضي في المرفأ وقتاً أطول مما تقضي في عرض البحر وأصبحت المناورات تجري والسفن تسير بسرعة ١٢ عقدة في الساعة بدلاً من أن تسير بسرعة ٢٠ او ٢٣ عقدة في الساعة وهي السرعة المتوقعة في أية معركة بحرية. وغني عن البيان ان الضابط الذي يقود سفينة حربية في معركة ما بسرعة ٢٠ او ٢٣ عقدة في الساعة لا يستطيع ان يتدرب على حسن ادارتها في مناورات تسير فيها بسرعة ١٢ عقدة فقط.

ومن هنا احتمال نشوء خطأ في تنفيذ الخطط البحرية واحتمال حدوث الاصطدام وهو ماوقع فعلاً في بعض المناورات . نعم ان رجال الاسطول حافظوا على مستوى النظافة العالي الذي جرت عليه تقاليدهم ولكنهم حافظوا عليه محافظة سلبية لا ايجابية أي انهم امتنعوا عن كل ما يلطخ لانهُ فرض على كل سفينة — في هذه الفترة — ان تصنع بنفسها الدهان المستعمل لتنظيف النحاس والخشب وغيرها

ومن هذا القبيل النقص في رجال الاسطول وفي الذخيرة والعتاد الحربي ومن أبلغ الامثلة على ذلك انهُ لما نشبت الازمة الحبشية واضطرت الامبرالية البريطانية ان تخرج من الاستيداع سفناً لتجهيزها واستعمالها كانت لا تجد ما يكفيها من البحارة المدربين في بعض الاحيان . أما الذخيرة فقد روى مؤلف هذا الكتاب ان الاسطول المرابط في مالطة في أغسطس ١٩٣٥ كان لا يملك من الذخيرة الاَّ ما يكفيه لمعركة واحدة — لو اضطرَّ الى الحرب — وبعد ذلك تصبح وحداته سفناً جوفاء (صفحة ١٦٨) . ومما يدلك على حقيقة هذه الحالة ان المؤلف جعل عنواني هذين الفصلين « تقهقر » ثمَّ « ثورة وفتنة » !

الاَّ ان حوادث الحبشة والتحدي الذي وجّه الى الامبراطورية البريطانية الذي كان منطوياً في تلك الحوادث ، أيقظ في الشعب البريطاني غريزة الدفاع عن النفس فبذلت الحكومة البريطانية جهداً جباراً لمواجهة الحالة — اذا اقتضى الامر — بأكبر قوَّة بحرية تستطيع ان تحشدها في البحر المتوسط ولو جردت القواعد الاخرى من القوات اللازمة لها

هذه الفصول أمتع ما في كتاب كله ممتع لأنها تتصل بحوادث كان لمصر فيها شأن كبير من حيث الاستعداد الحربي الذي تمَّ في هذه البلاد لمواجهة الطوارىء ومن حيث اتخاذ مرفأ الاسكندرية مقرًّا لاكبر جانب من الاسطول البريطاني بعد خروجه من مالطة ومن حيث ما قيل عن امكان الهجوم على مصر والسودان من لوبيا والاريتره

ثم انها تحتوي على حادثة الطيارة الايطالية التي سقطت على مقربة من المالطة وهي في طريقها الى الاريتره وما قيل عن « صندوق اسود » كان فيها ، يحتوي على أوراق ووثائق خطيرة الشأن . فقد روى المؤلف ان هذا الصندوق نقل الى دار المفوض السامي البريطاني (السفارة البريطانية الآن) فرؤي ان الاوراق التي فيه يجب ان تصل الى لندن حالاً وبطريقة مأمونة . ثم روت الصحف في اليوم التالي ان الكابتن بلاك أحد مشهوري الطيارين الانكليز قام من لندن الى القاهرة بغية التفوق في سرعة الطيران الى جنوب افريقية . فلما وصل مطار المالطة قيل ان عطلاً أصاب طيارتهُ فلا يمضي في رحلته . فعاد الى لندن بدون توقف في اليوم التالي — وكان يحمل معهُ الصندوق الاسود ! ثم هناك تفصيلات الرواية التي رويت عن نية السنيور

موسوليني ان يضرب الاسطول البريطاني ضربة قاضية وهو محتشد في مالطة يوم ٣٠ اغسطس سنة ١٩٣٥ وكيف عرفت الحكومة البريطانية بذلك فلم تظهر انها عارفة ولكنها أصدرت الأمر بخروج الاسطول الى عرض البحر في ٢٩ أغسطس وما روي عن غضب السنيور موسوليني عند ما علم بذلك . هذه الحوادث والروايات وعشرات غيرها تجعل الكتاب أخاذاً كالرواية ، بل من المتعذر ان تحتوي أية رواية يخلقها الخيال من معنى النضال والدرامة أكثر مما تنطوي عليه هذه الدرامة الواقعية

بعد ذلك جاءت ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ فكان للاسطول فيها شأن فصله المؤلف ثم نشبت الحرب الاهلية الاسبانية فتعين على الاسطول البريطاني القيام بأعمال الرقابة على سواحل أسبانيا تنفيذاً لخطة عدم التدخل بالاشتراك مع أساطيل ايطاليا وفرنسا والمانيا وحماية السفن التجارية البريطانية من سفن الفريقين المتنازعين وطياراتهما ، ثم استفحل خطر الغواصات وعقد مؤتمر نيون فحمل الاسطول البريطاني في البحر المتوسط جانباً كبيراً من تبعة حماية المواصلات البحرية فيه

وقد فصل المؤلف في هذه الفصول حادثة الاعتداء على الطراد الالماني «دويتشلند» وهو الاعتداء الذي أفضى الى ضرب ثغر المرية بأسبانيا ، ثم بسط ما قيل عن اعتداء قصد به إغراق الطراد الالماني «ليبستش» وهو الذي أفضى الى انسحاب المانيا وإيطاليا من مشروع الرقابة على سواحل أسبانيا . ويلي هذا تفصيل حوادث مختلفة مما قرأناه في الصحف ولم نعرف ما كان يجري بشأنه في الوزارات والسفارات

واذا كان من المتعذر على كاتب هذه السطور ان يجمل في مقال ما فصله الكاتب في ٣٢١ صفحة فانهُ مقتنع بأن ما تقدَّم يكفي للدلالة على محتويات الكتاب واتجاهه العام

وعند الكاتب ان برنامج الدفاع القومي الذي هبت بريطانيا الى تنفيذه بعد حوادث الحبشة على أثر الانتخاب العام الذي تمَّ في نوفمبر سنة ١٩٣٥ قد أخذ يعيد الى الاسطول البريطاني سطوته الماضية وكفاءته التاريخية وهو لذلك يختم كتابه بفصل وازن فيه بين العوامل المختلفة في الموقف البحري في البحر المتوسط وخلص منهُ الى القول بأن موقف بريطانيا فيه قويٌّ ويزداد قوّة رويداً رويداً . فقد بني للاسطول البريطاني في سنة ١٩٣٧ من الطرادات أكثر مما بني لهُ في أية سنة تلت انتهاء الحرب الكبرى وسيتم في سنة ١٩٣٨ صنع أكبر عدد من المدمرات صنع في سنة واحدة بعد سنة ١٩١٨ وستشهد سنة ١٩٤٠ انجاز المدرعات الضخمة

وعنده كذلك ان فتح ايطاليا للحبشة وكون بريطانيا لا تريد الاَّ تأمين مواصلاتها الامبراطورية في البحر المتوسط يجعلان مصالح بريطانيا متممة لمصالح ايطاليا وأن موسوليني أدرك ذلك والامل معقود على التفاهم التام بين الدولتين

٤ — بريطانيا والحاكمون بأمرهم [1]

يكاد الباحث في شؤون اوربا الدولية يكون كالسائر في تيه لكثرة ما يواجههُ من المعاهدات والمحالفات والعهود وما يصطدم بهِ من تيارات السياسة الظاهرة والخفية وما يطالعهُ من حقائق تتعلق بالشعوب وتوزيعها والخطط الاقتصادية وتشابكها ووجوه الخلاف في القواعد السياسية والاجتماعية والفلسفية التي تقوم عليها نظم الحكم وتستند اليها مرامي الحكام

فالباحث في حاجة الى دليل في هذا التيه . وكأن كتاب الفرنجة أدركوا هذه الحاجة فهبَّ المؤلفون الى التأليف ودور النشر الى النشر فنفحنا الاستاذ كول بكتابين وسمهما باسم الدليل احدهما لحالة اوربا الاقتصادية والآخر لحالتها السياسية . وطلع الصحافي الاميركي جون غنثر على العالم بكتابهِ « داخل اوربا » وهو الكتاب الذي نال شهرة عالمية واعيد طبعه مراراً كان مؤلفه في كل مرة يضيف اليهِ ما جدَّ في حلبة النضال الدولي . ومن قبيل هذه الكتب كتب اخرى تختلف أسلوباً واتجاهاً ولكنها تتماثل في الغرض الاساسي

ولعله يصعب على الباحث ان يجد مرشداً له في تيه السياسة الاوربية بعد الحرب الكبرى خيراً من الاستاذ سيتون وطسون استاذ تاريخ أوربا المتوسطة في جامعة لندن . فمنذ ما تخرَّج في جامعة اكسفورد ودرس في برلين وباريس وفينا اكب خاصة على التوفر على شؤون اوربا المتوسطة وشرقها الجنوبي وله في ذلك مؤلفات نفيسة في تاريخ النمسا وهنغاريا والبلقان علاوة على اشتراكه في اصدار مجلة « اوربا الجديدة » و« المجلة السلافونية » . ثم انهُ عاون ماساريك وبنيش في السعي الى تحقيق استقلال تشيكوسلوفاكيا وتربطهُ باقطاب يوغوسلافيا ورومانيا اواصر صداقة متينة

واذا كان الاستاذ كول قد جعل كتابيه عرضاً تاريخيًّا لشؤون اوربا الاقتصادية والسياسية أصلهُ في القرن التاسع عشر وفروعه في العشرين واخرجهُ متسماً بسمة عقيدته الاشتراكية ، واذا كان الصحافي غنثر قد أدار فصول كتابه من حول اقطاب اوربا القابضين على ازمتها المتصرفين بمقدراتها وخصائصهم النفسية ، فان الاستاذ سيتون وطسون جعل كتابه بحثاً تاريخيًّا معاصراً يتناول الفترة التي تلت معاهدات الصلح . بل ان معظم فصول الكتاب يدور على الظاهرات السياسية التي طالعت الجمهور في العشر السنوات الاخيرة من مثل قيام النظام النازي في المانيا والفاشستي — ولاسيما حوادث الحبشة — في ايطاليا وتطور النظام السوفيتي في روسيا

والكتاب تغلب عليهِ وجهة نظر خاصة وهي بيان حالة هذه الدول الدكتاتورية الكبيرة وصلتها بالسياسة البريطانية . فالمؤلف بطبعهِ ونشأتهِ يمقت الدكتاتورية نظراً وتطبيقاً ولكنهُ يعترف

(1) Britain and The Dictators, by R. W. Seton-Watson, Cambridge University Press. 12/6

بما فيها مما يستهوي الجماهير ولا سيما في دول غلبت على امرها وقيدت بقيود ثقيلة كالمانيا اوظفرت ولكن حرمت مما وعدت به كايطاليا او بلغ فيها مستوى الحياة الاجتماعية ادنى دركات الانحطاط كروسيا . فما تعثر عليه من الصراحة في بعض صفحاته مما يجعله أقرب الى الكاتب الصحافي منهُ الى الاستاذ المؤرخ ناشيء عن اعتقاده بأن مصير جامعة الامم البريطانية ومعها مصير المنشآت الاجتماعية الحرة في العالم معاق الآن في ميزان القدر . ولكن ذلك لا يمنعهُ عن بحث تسوية الحرب الكبرى بحثاً وافياً لبيان ما ارتكبتهُ الحكومة البريطانية وسائر الدول المنتصرة من الاخطاء ولا عن التساؤل عما يمكن القيام به لاصلاح الحال واجتناب الكارثة

والاستاذ سيتون وطسون دقيق الاستقصاء لا تفوته شاردة ولا واردة من اقوال الزعماء ولا من كتابات الصحف المسؤولة في مختلف بلدان اوربا . الاَّ ان علمهُ الواسع واحاطته التامة لا تضجرك فصورة الدرامة واضحة في ذهنه والقلم سيال تعينهُ قريحة متوقدة وتسعفهُ طبيعة الحوادث الخطيرة نفسها

الجزء الاول من الكتاب في منزلة توطئة لفصوله الرئيسية فهو يعالج اولاً الخطط السياسية البريطانية قبل الحرب الكبرى وقواعدها ثم خطة بريطانيا في أثناء النضال العالمي . ويلي ذلك تحليل دقيق لتسوية الحرب الكبرى

وفي بحثه تسوية الحرب الكبرى يدفع عنها بعض ما وجه اليها من التهم ثم يأخذ عليها مآخذ خمسة هي رفض الحلفاء ان يناقشوا الالمان في قواعد التسوية مما وسم معاهدة فرساي بسمة الاملاء . ثم انهُ يأخذ عليها ربط ميثاق العصبة بمعاهدات الصلح ، وتحميل المانيا وحدها تبعة الحرب ، والقول بان المانيا لا تصلح لادارة شؤون المستعمرات ، والشدة المتناهية في نصوص التسوية الاقتصادية

ومما يستوقف النظر ان المؤلف المؤرخ لا يأخذ على تلك التسوية الحدود الجغرافية الجديدة التي وضعت بمقتضاها لانهُ يحسب انها حققت مبادىء « الاثنولوجيا » على قدر ما يمكن تحقيقها

وعند الاستاذ سيتون وطسن ان بريطانيا لا تحمل تبعة هذه الاخطاء وحدها . ولكنها تحمل وحدها تبعة خطأ آخر هو في نظره خطأ كبير . ذلك انهُ لما أبت الولايات المتحدة الاميركية الانتظام في معاهدة الضمان الثلاثية لضمان سلامة فرنسا صرفت بريطانيا نظرها عنها كذلك فأنشأت في فرنسا شعوراً بالقلق على سلامتها مما حملها على السعي للفوز بحلفاء آخرين في أوربا وجعلها تبدو في مظهر الراغب في السيطرة على أوربا والاحداق بألمانيا . وهذا سلب بريطانيا جانباً كبيراً من النفوذ في مجامع فرنسا كانت تستطيع — لو قبلت معاهدة الضمان — ان تستعمله وتصرفه الى ما تراه خيراً

وليس في وسع الكاتب ان يلخص في فصل موجز أهم ما في الكتاب فكل صفحة من صفحاته تفصل شؤوناً تتصل بحياتنا اليومية من سياسية واقتصادية سواء في أوربا كنا أم في مصر . الاّ ان الكتاب يتناول في مجمله الدول الدكتاتورية الكبيرة في اوربا وهي المانيا وايطاليا وروسيا . ولكلٍّ منها فصل مسهب . وأطولها الفصل الخاص بألمانيا لانهُ عرج فيهِ على تحليل المبادىء الايديولوجية التي يستند اليها النظام النازي وشيعته المتحكمة

تطالع هذه الفصول فتخرج منها بأن المؤلف دمقراطي النزعة يكره الاستبداد والتحكم سواء أمن اليمين كان أم من اليسار . وهذا الرأي يلون بعض ما يكتب ولا سيما نهاية الفصول عند ما يريد الخلوص الى نتيجة عامة . أما العرض الذي تشتمل عليهِ أكثر صفحات هذه الفصول فنزَّهٌ الى حد بعيد عن نزعة المؤلف الخاصة

الاَّ انهُ مع كرههِ للنظام الدكتاتوري في روسيا يرى ان روسيا لا تهدد السلام العالمي ويدافع عن عقد الميثاق الفرنسوي السوفييتي في سنة ١٩٣٥ لانهُ يرى انهُ اذا عزلت روسيا عزلاً فعالاً عن أوربا فتسلح المانيا والريبة التي تحيط بموقف ايطاليا يجعلان فرنسا في موقف شديد الخطر وهو يقول « ان الغرض من الميثاق المحافظة على توازن القوى في أوربا وهو ما يزعم هتلر انهُ يبغيه . . . »

أما فصله عن ايطاليا فأشد لهجة من سائر الفصول وعنده على ما جاء في آخر الفصل انهُ في الاتصال بموسوليني ومعاملته يجب ان نحيد عن التأثر بالشعور وان ندرس مكيافللي وان نعلم ان موسوليني يحتقر الساسة البريطانيين ويعتقد بأن النزعة السلمية قد أضعفت الشعب البريطاني وان الامبراطورية آخذة في الانحلال وأنهُ يأمل ان ينشىء ما يحل محلها في البحر المتوسط وإفريقية والشرق الاوسط وانهُ معادٍ للنظم النيابية الحرة وفكرة الحرية الفردية والسياسة الشعبية ونظام السلامة الاجماعية الممثل في جنيف

وفي الكتاب بحث وافٍ في مشكلة الاقليات في أوربا وما تشكو منهُ وعنده ان الاقليات الالمانية في تشيكوسلوفاكيا كانت أحسن حالاً من سائر الاقليات الاوربية المختلفة

وقد أُلحق بالكتاب فصلان احدهما خاص بأسبانيا وسياسة بريطانيا فيها والآخر بالنمسا وحادث ضمها الى الريخ الثالث في شهر مارس الماضي

***

والخلاصة ان الكتاب جدير بأن يكون على مكتب كل متتبع لشؤون أوربا لما يزخر بهِ من الحقائق المرتبة المنظمة في فصوله. انما يجب على من يطالع النتائج التي يخلص اليها المؤلف من عرضه للحوادث والحقائق ان يفعل ذلك وهو عالم بوجهة نظره الدمقراطية

موت سوسو

« سو-سو » هرّ أليف ظريف انطفأت
فيه شعلة الحياة المقدسة بين يديّ وهذه
مرثيته ، أو مرثية الشعلة الخابية فيه !

لقد همدت في الضلوع الحياة   فما يرجف القلب أو يخفق
وقد غاب لألاؤها في العيون   فما ترمق الكون أو تبرق
وقد سكنت نأمة في حشاه   فما عاد يقفز أو يعرق
فيا قربها لحظة في الزمان   ويا بعـــد آثارها تنطق
وتنقل من عالم صاخب   إلى عالم صمته مطبق

***

تقيم الحياة هنا مأتماً   وما إن تني جزعاً تفرق
وإن الحياة لمجنونة   بأبنائها الكل لا تفرق
فجيعتها في صغار الفراش   كموت الفتى حادث مرهق
هو الموت في كنهه واحد   ويزهق من بعد من يزهق
قد اندحرت في صراع الردى   فحق لها كل ما تحنق !

***

وترجف في كل حي إذا   أصاب سواه الردى المزهق
أشعتها في جميع النفوس   يرقرقها مصدر يألق
فإن مسّه ما يغض الضياء   تذبذب لألاؤها المشرق (١)
فيا دمعة رقرقت في العيون   لأنت الحياة همت تدفق
يعز على النفس فقد الحياة   فتجزع للموت إذ يطرق

حلوان   سيد قطب

---

(١) الحياة وحدة في جميع الاحياء كمستودع الطاقة يمد فروعه المتفرقة ومتى مسه ما يغض من طاقته تذبذبت جميع الفروع . وكذلك يرجف الاحياء لموته

الاسرات الحاكمة

وبعض الاحداث السياسية الخطيرة الشأن
في العالم الاسلامي منذ قيام الاسلام حتى القرن السابع عشر الميلادي

للدكتور زكي محمد حسن

امين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الاسلامية

يعنى الطلاب في مصر بدراسة التاريخ الاسلامي . ويبذل الاساتذة جهوداً مشكورة في هذا السبيل ، ولكنهم يلاحظون في الطلاب انصرافاً الى العناية بمراحل التاريخ الاسلامي مرحلة مرحلة ، غير عاملين على ربطها بعضها ببعض ليسهل عليهم الافادة مما يتلقونهُ ، والمقارنة بين الاقاليم الاسلامية المختلفة ، ومعرفة الروابط بينها ، والاحداث الخطيرة الشأن في تاريخها . وقد سمعت من بعض الاساتذة الاجانب ، ممن يشتغلون بتدريس الآثار الاسلامية شكوى من عجز الطلاب عن تصور حال العالم الاسلامي كله في اي عصر من العصور ، فدفعني ذلك كله الى كتابة البيانات الآتية ، جمعت فيها أخطر الاحداث السياسية شأناً في التاريخ الاسلامي ، واستعرضت فيها الاقاليم الاسلامية في القرون المختلفة لبيان الاسرات التي كانت تحكمها ، ثم ختمت الكلام على كل قرن باشارة وجيزة الى حالة الفنون فيه . وغاية ما أتمنى ان يكون في هذا البيان ما أرجوه من نفع للطلاب والقراء وان يبعثهم على النظر فيما بلغهُ الاسلام من مجدٍ وما له من شأن خطير في العالم : —

القرن السابع الميلادي

ا — بعث النبي عليه السلام
وكانت الهجرة في سنة ٦٢٢
وبدأ حكم الخلفاء الراشدين في سنة ٦٣٢

ب — تمَّ فتح الشام في سنة ٦٣٨ وظلَّ يحكمها ولاة من قبل الخلفاء حتى صارت مقر الحكم في عهد بني أمية ابتداء من سنة ٦٦١

ج — وتمّ فتح ايران في سنة ٦٤٣ وبدأ يحكمها ولاة من قبل الخلفاء

د — وتمّ فتح مصر في سنة ٦٤١ وبدأ يحكمها ولاة من قبل الخلفاء

ه — وفي النصف الثاني من القرن السابع بلغ جنود المسلمين حدود الهند بعد ان اجتاحوا افغانستان في سنة ٦٦١ ، وكذلك غزوا بلاد التركستان (ما وراء النهر) واستولوا على بخارى وسمرقند في سنة (٦٧٤ و ٦٧٦) ولكنهم لم يستعمروها استعماراً منظماً الاّ في أوائل القرن الثامن

و — وتقدّم العرب في شمال افريقيا بعد اخضاعهم مصر ولكن مقاومة البربر كانت شديدة فلم يتم اخضاع افريقيا وتؤسس القيروان الاّ في سنة ٦٧٠ ثم سقطت بعدها قرطاجنة وبلغ العرب شواطىء المحيط الاطلسي

ز — أما في شمال الدولة الاسلامية فقد غزا المسلمون ارمينيا واستولوا عليها في آخر القرن السابع او بداية القرن الثامن . كما انهم استولوا على قبرص في سنة ٩٤٩ وحاصروا القسطنطينية عدّة مرات منذ سنة ٦٧٠

ح — وأهم الآثار التي تنسب الى نهاية هذا القرن قبة الصخرة في بيت المقدس وقصر المشتى في بادية الشام

القرن الثامن

ا — سقطت الدولة الاموية في سنة ٧٥٠ وقامت على أنقاضها الدولة العباسية

ب — كانت الشام مقر الخلافة حتى قيام بني العباس الذين شيدوا بغداد في سنة ٧٦٢ بسبب اخلاص الشام لبني أمية وبعد دمشق عن وسط الدولة الاسلامية وقربها من حدود بيزنطة . وازدهرت بغداد في نهاية هذا القرن على يد هارون الرشيد

ج — مصر كان يحكمها ولاة من قبل الخلفاء الامويين فالعباسيين

د — فتح العرب الاندلس سنة ٧١١ وظلّ يحكمها ولاة من قبل بني أمية حتى سنة ٧٥٦ حين أسس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الدولة الاموية في الاندلس مستقلاً عن الخلافة العباسية . وحدث ان توغل المسلمون في جنوب فرنسا وأخضعوا قسماً منها حتى صدّهم شارل مارتل

في واقعة بلاط الشهداء بين مدينتي تور وبواتيية سنة ٧٣٢

هـ — تبدأ الدولة الادريسية في مراكش سنة ٧٨٨ على أثر ثورة قام بها العلويون في المدينة وأخضعها العباسيون ففرّ ادريس بن عبد الله (من نسل علي بن أبي طالب) الى مصر فراكش حيث أسس الدولة الادريسية

وأما بقية شمالي افريقية فلم يبق خاضعاً منهُ للخلافة الاّ الاقليم الذي يعرف الآن باسم تونس . اذ ان أسرتين من الخوارج ظهرتا ايضاً في شمالي افريقية هما بنو رستم وبنو مدرار

و — ومن أهم الآثار الفنية في هذا القرن الجامع الاموي بدمشق وقصير عمرا في بادية الشام ويمتاز هذا القصر الاخير بما على جدرانه من صور جميلة يظهر فيها تأثير الاساليب الفنية البيزنطية والساسانية

القرن التاسع

ا — في بلاد العرب تحكم الدولة العباسية غير ان دخول العناصر الاجنبية من فرس وترك ثم اتساع أطراف القيصرية الاسلامية جعل الخلفاء العباسيين يفقدون سلطانهم الفعلي ولا سيما على الولايات النائية

ب — بلاد الاندلس تحكمها الدولة الاموية من عاصمتها قرطبة

ج — مراكش تحكمها الدولة الادريسية وكذلك يحكم بنو رستم جنوبي غربي تونس . وفي سنة ٨٠٠ يتخلى هارون الرشيد عن حكم افريقية (تونس) ويمنحها أسرة الاغالبة ، تحكمها تحت سيادته الاسمية

د — يفتح المسلمون جزيرة صقلية

هـ — مصر يحكمها ولاة من قبل الدولة العباسية حتى سنة ٨٦٨ حين يستقل بها أحمد بن طولون ويغزو الشام

و — بدأ ظهور الاسرات المستقلة في بلاد العرب نفسها فقام بنو زياد في تهامة وجزء من بلاد اليمن سنة (٨١٩) وقامت ايضاً عدة أسرات صغيرة أخرى

ز — في ايران قام بنو طاهر (٨٢٠ — ٨٧٢) وبنو الصفار (٨٦٧ — ٩٠٣) ثم بنو سامان (٨٧٤ — ٩٩٩)

هـ — وأهم ما امتاز بهِ القرن التاسع من الوجهة الفنية تأسيس المعتصم مدينة سامرا التي ظلت عاصمة الدولة الاسلامية من سنة ٨٣٨ الى سنة ٨٨٣ كما ازدهرت فيهِ صناعة الخزف ذي البريق المعدني وصناعة تزيين الجدران بالزخارف الجصية ومن أهم آثاره جامع ابن طولون بالقاهرة وأطلال مدينة سامرّا في العراق بما فيها من زخارف جصية وصور

القرن العاشر

ا — بلاد الاندلس تحكمها الدولة الاموية في قرطبة ويتخذ عبد الرحمن الثالث لنفسه لقب خليفة سنة ٩٢٩

ب — في مراكش تحكم الدولة الادريسية حتى سنة ٩٨٥

ج — في شمالي افريقية يسقط بنو الاغلب سنة (٩٠٩) وبنو رستم سنة (٩٠٨) وذلك بسبب قيام الدولة الفاطمية

د — في مصر تسقط الدولة الطولونية سنة ٩٠٥ ويحكم مصر ولاة من قبل الخلافة حتى تقوم الدولة الاخشيدية سنة ٩٣٥ وتسقط سنة ٩٦٩ حين يفتح الفاطميون مصر

اما الفاطميون فقد قاموا في شمالي افريقيا وهزموا الاغالبة سنة ٩٠٩ وبسطوا سلطانهم على مصر وشمالي افريقية الا مراكش — ثم استولوا على الشام . على ان نقلهم مقر الحكم الى القاهرة أفقدهم اجزاء امبراطوريتهم في شمالي افريقية بسبب ضعف مراقبتهم لها فقامت على انقاضها دول صغيرة مستقلة او شبه مستقلة قضى عليها المرابطون في منتصف القرن الحادي عشر كما قضوا على الاسرات الصغيرة التي قامت على أنقاض الدولة الادريسية بعد سقوطها سنة ٩٨٥

هـ — في ايران تسقط الدولة الصفارية في سنة ٩٠٣ وتظل الدولة السامانية تحكم حتى آخر القرن (٩٩٩) وتظهر دولة الايلخان وكذلك دولة بني بويه في العراق وجنوبي بلاد الفرس ويزول كل نفوذ فعلي للخلفاء العباسيين حين يستولي بنو بويه على الاملاك الباقية لهم ويفلحون في



احتلال بغداد سنة ٩٤٥ ويظل خلفاء العباسيين بعد ذلك لا مظهر لهم الا بلاطهم الخاص حتى يقضي عليهم المغول سنة ١٢٥٨

و — وانشأت في افغانستان الدولة الغزنوية المستقلة سنة ٩٦٢ . وكانت الدولة الصفارية اول الدول الاسلامية التي استعمرت افغانستان استعماراً منظماً وخلفها في كابل حكام من قبل الدولة السامانية ثم افلح البتكين احد قواد السامانيين في انشاء الدولة الغزنوية

ز — قامت في الموصل وحلب الدولة الحمدانية (٩٢٩ — ١٠٠٣)

ح — اما من الناحية الفنية فان أجل ما امتاز به القرن العاشر تشييد الفاطميين مدينة القاهرة في مصر وازدهار الفنون الزخرفية ازدهاراً يتجلى في اكثر منتجاتهم الفنية من خزف ومنسوجات وتحف معدنية وخشبية وزجاجية مما يشهد بعظم الثروة التي جمعها المصريون في ذلك العصر والتي وصفها الرحالة الايراني ناصر خسرو وصفاً مسهباً

القرن الحادي عشر

ا — في الاندلس تسقط الدولة الاموية سنة ١٠٣١ وتقوم الدويلات الصغيرة المعروفة باسم ملوك الطوائف وأهمهم بنو عباد في اشبيلية (١٠٢٣ — ١٠٩١) الذين يستغيثون بالمرابطين لمعاونتهم في حروبهم مع المسيحيين ويلبي المرابطون النداء مرتين ولكنهم في المرة الثانية (سنة ١٠٩٠) يضمون الاندلس الاسلامية الى املاكهم

ب — في شمالي افريقية كان التنافس بين الدويلات الصغيرة وكان نجاح بيزا والبندقية في استرجاع قورسقة وسردينية من العرب سبباً في ضعف النفوذ الاسلامي حتى قامت دولة المرابطين بين البربر سنة ١٠٥٦ واعترفت بسلطان اسمي ديني للخلافة العباسية

ج — في مصر والشام كان الحكم للفاطميين . وقد أفلح الصليبيون في الاستيلاء على بيت المقدس سنة ١٠٩٩

د — في بلاد ايران وتركستان تحكم دولة الايلخان كما يحكم بنو بويه (وهم من الشيعة) في العراق وجنوبي ايران حتى سنة ١٠٥٥

ه — وظهر السلاجقة في سنة ١٠٣٧ وقد استطاعوا توحيد العالم الاسلامي من حدود افغانستان الغربية الى البحر الابيض المتوسط واليهم يرجع الفضل في فشل الصليبيين

و — اما في افغانستان فكانت تحكم الدولة الغزنوية التي مدّ سلطانها على اقليم البنجاب في الهند

ز — وقد تقدمت في القرن الحادي عشر صناعات الخزف والنسيج والنحاس المنزل بالفضة ويرجع الفضل في ذلك الى السلاجقة والفاطميين

القرن الثاني عشر

ا — في الاندلس ينتهي حكم المرابطين ويبدأ حكم الموحدين سنة ١١٤٥

ب — في شمالي افريقية تظهر دولة الموحدين وتقضي على سلطان المرابطين سنة ١١٤٦

ج — في مصر تسقط الدولة الفاطمية سنة ١١٧١ ويبدأ حكم الدولة الايوبية التي انشأها صلاح الدين حين كان في خدمة نور الدين محمود بن زنكي الذي كان قد أعلن نفسه سلطاناً على جزء كبير من سورية

د — اما في الشام فقد كان الخلاف بين المسلمين والصليبيين على أشده واتيح لصلاح الدين في الجزء الاخير من هذا القرن ان يبسط سلطانه على قسم كبير من الشام وان يسترد بيت المقدس سنة ١١٨٧

ه — وكان النفوذ في غربي اسيا للسلاجقة ثم انقسمت دولتهم الى فروع عديدة فقامت على أنقاضها دويلات كوّنها ضباط السلاجقة المسمون الاتابكة ولكن دولة السلاجقة ظلت في الجزء الغربي حتى اول القرن الرابع عشر

و — ظهر الاتابكة فكان منهم اسرة زنكي في الجزيرة وسورية وكان منهم اتابكة الموصل

ز — اما في افغانستان فقد سقطت الدولة الغزنوية سنة ١١٨٦

ح — ويرجع الى هذا القرن بدء ازدهار صناعة التصوير في المخطوطات بالعراق وايران كما أينع الفن المغربي الاسباني على يد الموحدين في الاندلس ونبغ الايرانيون في انتاج ضروب شتى من الخزف الفني الجميل

القرن الثالث عشر

ا — في الاندلس يضمحل نفوذ الموحدين حتى تسقط دولتهم ويطردون من شبه الجزيرة سنة ١٢٣٥ — وتسقط الدويلات الاسلامية الصغيرة واحدة بعد الاخرى اللهمّ الاّ دولة بني نصر في غرناطة الذين تقوم أسرتهم في سنة ١٢٣٢ وتبقى حتى نهاية القرن الخامس عشر

ب — في شمال افريقية تسقط دولة الموحدين وتقوم على أنقاضها دولة بني حفص في تونس (١٢٢٨ — ١٥٣٤) ودولة بني زيان في الجزائر (١٢٣٥ — ١٣٩٣) ودولة بني مرين في مراكش (١١٩٥ — ١٤٧٠)

ج — في مصر وسورية سقطت الدولة الايوبية وقامت دولة المماليك البحرية سنة ١٢٥٠ بعد ان هزم الصليبيون في نفس السنة على أيدي السلطان الايوبي طوران شاه في واقعة المنصورة حيث أسر لويس التاسع ملك الصليبيين وسجن في دار ابن لقمان التي لا تزال قائمة في المنصورة الى الآن، ثم فدى نفسه وجنده بعشرة آلاف الف فرنك . وقد نجح بيبرس البندقداري في صد التتار عن مصر بعد ان هزمهم في واقعة عين الجالوت بفلسطين سنة ١٢٥٩

د — أما اليمن فقد كان الايوبيون قد غزوها سنة ١١٧٣ وسارت لهم السيطرة عليها حتى سنة ١٢٢٩ حين خلفهم في حكمها أسرة الرسوليين (١٢٢٩ — ١٤٥٤)

ه — في آسيا الصغرى يحكم السلاجقة الروم

و — وفي سورية والجزيرة تحكم أسرة الاتابك عماد الدين زنكي حتى سنة

١٢٥٠ وفي ديار بكر تحكم الاسرة الارتقية (١١٠١ — ١٣١٢)

ز — ويبدأ سلطان المغول في ايران من سنة ١٢٥٦ . وتسقط بغداد على يد هولاكو سنة ١٢٥٨

ح — وفي الهند يبدأ نفوذ سلاطين دلهي سنة ١٢٠٦

ط — ومن المميزات الفنية في هذا القرن نشأة الطراز المغربي الاندلسي الذي ينسب في بعض الاحيان الى قصر الحمراء والذي يمتاز بوفرة زخارفه كما يتجلى في هذا القصر . واتقن المصريون صناعة الحفر الدقيق في الخشب وصناعة التحف المعدنية المنزلة بالفضة والذهب على النحو الذي ازدهر على يد السلاجقة في بلاد الجزيرة ولا سيما الموصل. وظهرت في نهاية هذا القرن صناعة الزجاج المموه بالمينا في سورية ومصر ومن أبدع منتجاتها مشكاوات المساجد التي تفخر دار الآثار العربية بحيازة عدد كبير منها

القرن الرابع عشر

ا — في الاندلس كان بنو نصر يحكمون بغرناطة

ب — كان شمالي افريقيا مقسماً بين دولة بني حفص ودولة بني زيان ودولة بني مرين

ج — كانت دولة المماليك البحرية تحكم مصر وسورية حتى سنة ١٣٩٠ وظهرت دولة المماليك البرجية او الشراكسة سنة ١٣٨٢

د — سقطت الدولة الارتقية في ديار بكر سنة ١٣١٢

ه — قامت في آسيا الصغرى سنة ١٣٩٩ وفي بداية القرن الرابع عشر دولة آل عثمان وعبر هؤلاء الاتراك الدردنيل سنة ١٣٥٨ وبدأوا فتح الاقاليم البيزنطية في أوربا حتى خضع لهم في القرن الرابع عشر جزء كبير من شبه جزيرة البلقان

و — كان المغول يحكمون في ايران

ز — بدأ حكم التيموريين في بلاد ما وراء النهر وامتد الى ايران وخضع لهم جزء من الهند في نهاية القرن

ح — ازدهرت العمارة والفنون الفرعية على يد المماليك في مصر كما أينع فن تصوير المخطوطات برعاية التيموريين في هراة وشيراز وتقدمت في ايران صناعة بلاطات القاشاني والفسيفساء من الخزف

القرن الخامس عشر

ا — كان بنو نصر يحكمون في غرناطة حتى سقطت في يد المسيحيين وانتهى سلطان المسلمين في اسبانيا سنة ١٤٩٢ وهي نفس السنة التي كشفت فيها اميركا

ب — كان بنوحفص يحكمون في تونس وبنو مرين في مراكش والجزائر

ج — كانت دولة المماليك البرجية تحكم في مصر وسورية

د — اتسعت فتوحات الدولة العثمانية في آسيا الصغرى والبلقان وأفلح العثمانيون في الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فزال أثر الدولة البيزنطية وأصبح البلقان كله من املاك الترك

ه — حكم المغول في ايران ثم خلفتهم الدولة التيمورية

و — قامت في بعض اجزاء الهند أسرات اسلامية محلية

ز — ظل حكم التيموريين في بلاد ما وراء النهر بعد ان غزا تيمور الاقاليم المختلفة في الشرق الادنى وأخضع سورية واستولى على دمشق سنة ١٤٠١

ح — بلغ فن التصوير أوج عظمته في نهاية هذا القرن على يد بهزاد في ايران كما تقدمت صناعة الخزف في مصر وايران وأتقن المصريون صناعة الزجاج المموّه بالمينا وانتقل الى البندقية فنانون من المسلمين فنقل عنهم الفنانون البنادقة كثيراً من الاساليب الفنية في زخرفة التحف المعدنية والزجاجية وفي صناعه التجليد

القرن السادس عشر

ا — انتهى حكم المماليك في مصر وسورية سنة ١٥١٧ وأصبحت البلاد ولاية عثمانية

ب — أخضع العثمانيون الجزائر وتونس وطرابلس بعد ان كان السلطان في أغلب انحائها للقراصنة

ج — كان شمالي الجزيرة وما يجاوره من الولايات الواقعة في ايران وآسيا الصغرى خاضعاً لاسرات صغيرة من خلفاء السلاجقة

د — اتسعت فتوحات الدولة العثمانية فهزم السلطان سليم الفرس وضمّ كردستان وديار بكر لدولته وكذلك استولى على سورية ومصر وبلاد العرب من المماليك ووصل سليمان القانوني الى فينا

ه — قامت الاسرة الصفوية في ايران سنة ١٥٠٢

و — سقطت الاسرة التيمورية في بلاد ما وراء النهر سنة ١٥٠٠

ز — بدأت امبراطورية المغول في الهند سنة ١٥٢٦

ح — ازدهرت الفنون عامة والتصوير خاصة على يد الصفويين في إيران (الشاه عباس الاكبر ١٥٨١ — ١٦٢١) وقد عمل في بلاطهم بهزاد في بداية القرن (حين نبغ في ايطاليا ليوناردو دافنشي وميشيل انجلو ورفائيل) وبلغت صناعة السجاد أوج عظمتها كما أينع الطراز العثماني في الفن الاسلامي وذاع صيت العثمانيين بما كانوا ينتجونهُ من منسوجات حريرية وسجاد ومن خزف في أسنيك وكوتاهية وغيرها وبما شيده المهندس سنان من مساجد غاية في العظمة والجمال — كما ازدهر الطراز الهندي في الفن الاسلامي على يد قياصرة المغول في الهند وذاع صيت العمائر الهندية وماكان ينتجهُ الفنانون الهنود من سجاد وصور واسلحة

القرن السابع عشر

أ — كانت مصر وسورية وشمالي افريقية وآسيا الصغرى تابعة للدولة العثمانية

ب — كانت الدولة الصفوية تحكم في ايران وجزء من العراق

ج — امراء خيوه وبخارى يحكمون في تركستان العربية

د — كان قياصرة المغول يحكمون في الهند وبلغ سلطانهم أوج عظمته على يد أورنجزيب (١٦٥٩ — ١٧٠٧)

ه — بدأت الفنون الاسلامية في الضعف والتدهور متأثرة بالاساليب الغربية التي تسرّبت اليها في القسطنطينية وفي ايران والهند ومن أجمل العمائر الاسلامية في هذا القرن تاج محل بمدينة اجرا في الهند

دار الآثار العربية — زكي محمد حسن

الميكانيكا

الكلاسيكية

للدكتور اسماعيل احمد أدهم

١ — توطئة

ان تدقيق العلم يوصلنا الى أن صبغة التعليل النهائي لظاهرات الكون كانت ميكانيكية منذ نشأة العلم الى اواخر القرن التاسع عشر، يزيدنا يقيناً في هذا، أننا لو أخذنا على عاتقنا أن ندرس كل ما أخرجته المعرفة البشرية — في هذه الفترة — من نظريات وفرضيات مصبوبة في قالب العلم — لألفيناها في جوهرها القصي ذات صبغة ميكانيكية دفعت لتصور حادثات الكون في عالمي الزمان والمكان ذات نهج آلي خاضعة لنواميس وسنن مادية. ونحن لو أردنا أن نلمس بدء هذه النظرة في التاريخ، فسنضطر الى الرجوع بالزمان الى الوراء أربعة قرون فنلقي أنفسنا في أواسط القرن السادس عشر حين تمخض العقل الانساني عن أعظم انقلاب شمله في أساليب التفكير

لقد كان الانسان منذ عهد سقراط الحكيم (٤٦٩ — ٣٩٩ ق م) يرى غاية التفكير في ادراك الماهية، وذلك بمعنى تكوين معانٍ تامة الحد. وكان معين التفكير طوال هذه العهود منحصراً في الاستقراء حيث يتدرج العقل من الجزئيات الى الماهية المشتركة بينها، رادّاً كل جدل إلى الحدّ والماهية. وهذا المتجه في التفكير دفع الانسان من مقولة الكم حيث وقف بالفكر الانساني عندها بالفيثاغوريين الى مقولة الكيف وكان نتيجة هذا المتجه في التفكير أن ظهرت فلسفة المعاني التي ابتدعها أفلاطون الالهي (٤٢٧ — ٣٤٧ ق م) وأرسطوطاليس المعلم الاول (٣٨٤ — ٣٢٢ ق م) والتي ملكت ناصية العقل البشري طوال القرون الوسطى وكانت سبباً لانصرافه الى الغيبيات. وفي اوائل القرن السادس عشر أخذت جماعات قليلة من المفكرين الغربيين تشكُّ في قدرة الأسلوب التجريدي وإمكان الوصول بهِ الى نتائج تطبيقية وأخذوا يعملون على ادماج النتائج التي تسفر عنها التجارب والمشاهدات في نظام مادي تربطهُ مبادىء وقوانين عامة، ذلك بعد ان شعروا بمقدار ما في أساليب القدماء من البعد عن الواقع المحسوس وكان مبعث تفكيرهم الايمان بتجانس عالم الطبيعة ووحدته

وقد ساق هذا الاعتقاد هؤلاءِ المفكرين الى تعميم النتيجة المستخلصة من ظاهرة على ما يماثلها

من ظاهرات وهذا الأسلوب تمخض عن اكتشاف قوانين عامة للطبيعة . ولقد نجحت هذه النظرة يوم أخرج جوهان كپلر (١٥٧١ — ١٦٣٠ م) للناس حركة السيارات ، ويوم كشف السر اسحق نيوتن (١٦٤٢ — ١٧٢٧م) قانون الجاذبية العامة . ولقد بلغ هذا النجاح غايته على يد بيير سيمون مركيز دي لابلاس (١٧٤٩—١٨٢٧م) عندما أخرج للناس كتابه « نظام العالم » وفيه أقام بناء الكون على أساس مادي . ولقد قومت اكتشاف غاليليو غاليليه (١٥٦٤ — ١٦٤٢م) لسنة القصور الذاتي واكتشاف السر اسحاق نيوتن لقوانين الميكانيكا الثلاثة التي بثها كتابه الخالد «المبادىء» هذه النظرة الميكانيكية للكون . وكان ذلك كله مقدمات لعمل فاصل بين دورتين في تاريخ الفكر الانساني ، وأصبح العالم كله لا يخرج في كنهه عن كونه مجرد حادثات تنظم من حدوثها تفاعلات المادة والقوة

ولما كانت فكرة القوانين الطبيعية لم تخرج في أبسط صورها عن انها تعميم للقيمة التقديرية الرياضية المستخلصة من ظاهرة من الظاهرات على غيرها ، ولما كانت ابسط اختباراتنا التي ترجع اليها الموجودات ترجع للحادثات ، كانت القيمة التقديرية الرياضية للقانون الطبيعي للحادثة عبارة عن تعيين سلوك الحادثة ونهج تصرفها ، وهذا يتطلب تعيين مكانها وزمانها ازاء المقادير الاخرى . ومن جانب آخر نحن نعرف ان النظر الكلاسيكي للزمان والمكان يقرر مطلقية كل منهما لكونهما راجعين لموضوع الحادثة بدون ان تعمل حساباً لعلاقة الحادثة بالمشاهد من حيث تتراءى له ولا لآلاته ومقاييسه الذي يعين بها زمان الحادثة ومكانها ، فكل تبدل يطرأ على الراصد او المشاهد ولا لآلاته ومقاييسه الذي يعين بها زمان الحادثة ومكانها لا تغير من نتيجة الرصد لأنها راجعة للحادثة لا علاقة لها بالمشاهد ولا آلاته ومقاييسه من حيث يرتبط به موضوع الحادثة

هذه هي قرارة النظر الكلاسيكي للحادثات فهي تلقي دائماً في روعنا ان عالم الطبيعة الزاخر بالحادثات والذي ينظم من حدوثها فواصل الزمان والمكان ، اشياء ثابتة لا تتغير ولا تتحول ، فلو شبهنا ساحل نهر بالمكان وجريانه بالزمان والزورق الحامل للركاب والذي يدفعهُ تيار النهر بالحادثات، لكان في وسعنا القول بأن الزمان اشبه بالتيار الدافق الذي يدفع الحادثات والمكان كالساحل ازاءه . ومن البدهي انه اذا لم يكن الزورق فالنهر جارٍ ، كذلك اذا لم تكن الحادثات فالزمان ماض في حركاته التعاقبية، والاجسام الباقية على الشاطىء ساكنة في أماكنها. ومعرفة حركة الزورق في النهر يستلزم مبدئيًّا تحديد بعدها عن الساحل مع تحديد قوة جريان النهر وهذا معناه أنهُ لتعيين حادثة في الكون لا بد لذلك من معرفة فاصلتها المكانية وكذا الزمانية . هذه الصورة تحيزت في عقل السر اسحاق نيوتون وجميع علماء الفيزيقا النظرية حتى اواخر القرن التاسع عشر، وهذه الفكرة تحوي مبدأيْ مطلقية الزمان والمكان ، وتجعل انتشار الحوادث في العالم مطلقاً وانتشار حادثتين مطلقتين في الكون يذهب بنا عن طريق مفهوم الاقتران الى التطابق في الزمان

أعني التواقت. فلو فرضنا ان حادثة ما طابقت في زمان حدوثها ، زمان حدوث حادثة، أخرى فذلك يحدث مطلقاً في العالم، ومدى المدة والمسافة الفاصلة بين حادثتين مطلق لانهُ يرجع لموضوع الحادثتين

وتقوم فكرة مطلقية الحوادث في عالمي الزمان والمكان بمفهوم انتشار الاجسام الصلبة في رحاب الخلاء ، فالاشكال والخطوط الهندسية ليست الاّ وحدات ثابتة ، وشكل جسم ما : هو مجموعة الاوضاع الفراغية التي تستقر فيها النقط التي تشكل ذلك الجسم ، وعليه يمكننا ان نقول ان أساس العلم الكلاسيكي قائم على الرجوع مباشرة للحادثات بدون النظر لحركة الاكوان التي تشملها ، وبذا تكون الهندسة الكلاسيكية مستمدة مفهوماتها الاولية من تساوي الفواصل المكانية

وعلى هذا الاساس يبدو لنا ان أشكال الهندسة مطلقة، وان هذا الاطلاق يكون معنا موضوع الهندسة الكلاسيكية القائمة على مبدأ مطلقية المكان ، وبذا تتحقق النظرة الاقليدية التي تولد معنا قوانين العلاقات بين مبدإ السببية ومبدإ الزمان المطلق

٢ — المبادئ الكلاسيكية
في علمي الميكانيكا والسينماتيكا

لا يخرج مفهوم الزمان الكلاسيكي عن كونه مجرد ملاحظة فلسفية . وهو لا يعدو اعتبارَ الزمان حالة شعورية مطلقة مبهمة غامضة، فلكي يتخلص مفهوم الزمان من ابهامها وغموضها يجب ان يأخذ صورة رياضية تقديرية ، ولما كان العلم الكلاسيكي ينساق تحت حقائق التجربة الى تصوير زمانين ، موضوعي وذاتي ، الاول في عالم الحادثات وهو نسبي، والثاني في عالم النفس وهو مطلق ، وهذا الانشطار الحادث في مفهوم الزمان كان احدى نقط الضعف في النظرة الكلاسيكية ، غير انهُ كان يتغلب على ذلك بواسطة علم الحركيات — السينماتيكا — القائم على مفهوم الزمان الموضوعي الذي هو صورة تقديرية للزمان الذاتي . ويقوم هذا العلم على أساس يستمده من ادماج مبدإ الزمان في الهندسة الكلاسيكية المستندة الى مفهوم انتشار الاجسام الصلبة ، اذ هو يدقق النظر في الاجسام بالنسبة للزمان والمكان . فهو في منزلة حلقة الوصل بين الهندسة والفيزيقا ، فالنقطة المادية المتحركة حلقة وصل النقطة الهندسية بالذرة

ولما كان مفهوم كل من الزمان والمكان مستقلاً ومطلقاً في نظر علم الحركات ، فان تغيير الاجسام لمواضعها في المكان يستفاد منهُ بتقدير الزمان . غير ان هذا لا يدل على ان الزمان يتبع المكان في اي حالة من الحالات ، لانهُ ان كانت قيمة الزمان القياسية تتبع تغيير الاجسام لمواضعها خلال المكان، فمفهوم الزمان مستقل لانهُ مطلق لا يتبع حركة القياس ، مثال ذلك حركة الرقاص فاننا نتخذها أساساً لقياس الزمان الاّ ان حركة الرقاص غير الزمان ! وهي ان كانت توحي بفكرة الزمن التقديرية الاّ انها تعجز عن مدّنا بمفهوم الزمان المطلق واذن يمكننا

ان نقول ان فكرة الزمن التقديرية لا المطلقة هي موضوع علم الحركات ، الذي يستوجب قبل كل شيء تعيين حركة النقطة المادية ، وهذا يستلزم معرفة نسبة النقطة المادية أولاً في النظام الذي يحتويها وهذه الحالة شبيهة بحالة تعيين محاور الفصل والوصل أعني الكميات التي تحدد من وضع نقطة ما cöordinates في الهندسة التحليلية ، والنتائج التي تسفر عنها التجارب في تعاقب حركات النقطة تكوّن معنا معادلات الحركة

تتقوّم حركة الاجسام ومعادلات الحركة بقوانين الميكانيكا الكلاسيكية التي نشأت بجهود غاليليو ونيوتن وانصبت في مبدأ عام هو مبدأ النسبية الكلاسيكية ، وهذه القوانين تردّ الى خمسة مبادىء :

الأول : مبدأ غاليليو أو قانون القصور الذاتي (الاستمرار) وهو يقرر ان في الاجسام استعداداً للمحافظة على حالتها الطبيعية ، فاذا كانت ساكنة فانها تظل ساكنة ما لم يؤثر فيها مؤثر يخرجها للحركة . وان كانت متحركة فانها تظل متحركة حركة منتظمة مستقيمة ما لم يطرأ عليها طارىء يغير من انتظام حركتها او اتجاهها . فاذا أثرت قوة في جسم اكتسب ذلك الجسم عجلة ، وقانون التعجيل يعرف بالمبدأ الثاني من مبادىء الميكانيكا

الثاني : مبدأ نيوتن الأول او قانون التعجيل : وهو يقرر ان مقدار التعجيل الذي يكتسبهُ الجسم تحت تأثير قوة تحوز نفس الاستقامة مع محصلة القوى المؤثرة في ذلك الجسم ، وهي تساوي نتيجة خارج قسمة المحصلة على كتلة الجسم ، فكأن العجلة التي يكتسبها الجسم تحت تأثير القوة تولد الكتلة . وكتلة جزيء من المادة تحسب بمقدار خطوط القوة التي فيها . وهذا المقدار ثابت لا يتغير . والقوة ليست الا النسبة بين الكتلة وبين مقدار عجلتها أعني الشعاع المساوي للكتلة ومعادلتها : القوة تساوي الكتلة في العجلة . وهي تريك جميع النسب والعلاقات الممكنة بين الكتلة والعجلة والقوة في شكلها الشعاعي المستقل عن نسبتها لمحاور الوضعية . ولما كانت القوى التي تؤثر في نقطة مادية نتيجة لتأثير نقط مادية أُخرى ، فهذا التأثير يتبع من جهة الوضع النسبي لهذه النقط . ومن جهة أُخرى السرعة النسبية لهاته النقط المادية . ومن هنا لنا ان نخلص بقانون الحركة النسبية الذي يقرر ان النظم المادية سيان كانت ثابتة بالنسبة لمحاورها الوضعية أم كانت متحركة حركة منتظمة مستقيمة ، فان القوانين التي تتبعها واحدة . ذلك لان مقدار تعجيل هذه النظم يتبع القيمة المطلقة لحركة هذه النظم ومعنى هذا في لغة رياضية ان القيمة التفاضلية بين هذه السرع تتبع القيم التفاضلية بين المحاور الوضعية . ومعنى هذا أن هذا المبدأ يشمل ساحة مقدار التعجيل النسبي أو بتعبير أصح ساحة القيم التفاضلية بين مقادير التعجيل فانهُ من الممكن اشتمالهُ على ساحة مبدأ ردّ الفعل

الثالث : مبدأ نيوتن الثاني أو قانون مساواة ردّ الفعل للفعل وبيانه أننا لو أتينا بجسم

ووضعناه على حامل فهذا الوضع لا يمنع تأثير المؤثرات فيه ومنها الجاذبية ، إذ تجذبهُ الارض بقوة تساوي زنته على الحامل ، فاذا لم يكن الحامل متيناً أنكسر بتأثير قوة الجذب . والجسم المحمول على الحامل يتولد فيه قوة من فوق الى تحت تساوي زنته وهذه القوة التي تتولد هي الفعل لقوة الجذب . فلو كان الجسم على يد انسان فلكي يمنعهُ من السقوط يجب أن يدفعهُ من تحت الى فوق ليتغلب على قوة جذب الارض له وأعني القوة الدافعة من فوق الى تحت، وللتغلب على هذه القوة يجب أن يدفعهُ على الاقل بقوة موازية لقوة الجذب . وهذا الدفع يتولد دائماً متى وضع الجسم على أي حامل فلو فرض انهُ علق بخيط مشدود لحامل ، فالخيط يتوتر ويكون شدة توتره مساوياً لزنته ، وفي هذه الحالة ينتج أن يدفع الخيط الجسم بقوة تساوي توتره أعني وزن الجسم . وهكذا يكون ردّ الفعل مساوياً لوزن الجسم أعني الفعل . هذه القاعدة عامة ففي حالة اذا لم تحدث القوى المؤثرة حركة في جسم تولد عن ذلك قوة مساوية له وتكون هذه القوة في اتجاه مضاد وهذا ما يعرف بردّ الفعل

واشتمال مبدأ الحركة النسبية على ساحة ردّ الفعل تعود لصحة شموله لساحة القيم التفاضلية بين مقادير التعجيل . ولما كانت مقادير التعجيل تتبع مقدار القوى المؤثرة فان هذا يسوقنا الى مبدأ الجاذبية العامة وفرضية القوى المركزية معاً وهي التي تقرر ان قوة الجاذبية بين جسمين تتناسب مع كتلتيهما حيث ان الاجسام تنجذب بعضها لبعض بقوة تساوي حاصل ضرب كتلتيهما مقسوماً على مربع المسافة بينهما ، وهو الشيء الذي يعرف بقانون الجاذبية او مبدأ نيوتن الثالث

ومن المهم ان نلاحظ ان المقدار الذي يحسب مسافة في قانون الجاذبية ليس تناسبهُ مع الكتلة التي هي النسبة بين القوة ومقدار التعجيل انما مع الكتلة الجاذبة وبتعبير أدق ليس مع مقدار قصور ذاتية الجسم انما مع مقدار قابلية الجذب لانهُ يصح ان تكون الجاذبية متناسبة مع عكس مربع المسافة ولا تكون متناسبة مع بسط حاصل ضرب الكتلة . وهذه النظرة تسوقنا الى فرضية القوى المركزية التي تعتبر قوى الدفع والجذب بين الجزيئات المادية راجعة لاعتبار القوى تتوجه مع استقامة الخط المستقيم الواصل بين الجزيئات المادية وتتحول منحصرة في المسافة التي بينها . وهذه الفرضية ان لم يكن قانونها عين قانون الجاذبية النيوتونية فهي على كل حال مشابهة لها

وتركب السرع في هذه الساحة الخاضعة لقانون عام فرضية القوى المركزية تعود لمبدأ تركيب السرع الذي يرى من وجهة نظره ان محصلة السرع المركبة ترجع لطريقة التحصيل من قاعدة متوازي أضلاع القوى التي تجعل المحصلة مساوية لمجموع المركبتين لها اذا كانت الحركتين على استقامة واتجاه واحد ، فاذا اختلف الاتجاه دون الاستقامة كانت المحصلة مساوية الفرق بين المركبتين . وهذا المبدأ يعتبر المبدأ الخامس من قوانين الميكانيكا الكلاسيكية

وهذه القوانين الخمسة تنصب في مبدأ عام هو : مبدأ النسبية الكلاسيكية [لها تتمة]

الكيمياء الصناعية

الكيمائيون العصريون
وكيف ينتجون النضار من الفضلات

لعوض جندي

كان مطمح كيميائي العصور الوسطى ، تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب ، متذرعين الى بغيتهم تلك بما كانوا يسمونهُ « حجر الفلاسفة » وهو السرّ الدفين الذي لم يكونوا يبوحون بهِ لاحدٍ ، اذ كان اولئك المجربون الاولون يركبون مواد ذات روائح كريهة ثم يطبخونها على درجات مختلفة من الحرارة عسى أن يظفروا بتحقيق تلك الاحلام العقيمة ، التي كانوا يظنونها تدرُّ عليهم النضار . فكانت مساعيهم تذهب ادراج الرياح

اما الآن فاننا نشاهد العلماء مرتدين ميدعاتهم (١) الكتانية البيضاء في معامل التحاليل الكيميائية حيث يستعملون الدماء الجسيدة (٢) وريش الطيور وبذور نبات عباد الشمس والجبنة الخالية من الملح والهلام وقصاصات الشعر التي ينبذها الحلاقون من حوانيتهم ، وذلك لانتاج بلّورات تساوي ضعفي وزنها ذهباً . وتعرف تلك البلّورات الدقيقة التي تضارع الجواهر باحماض الأمينو Amino acids (٣) وهي غالية جداً بحيث يبلغ ثمن الرطل الواحد من بعض اصنافها الف ريال

واذا تأملت تلك الاحماض بعينك المجرَّدة تجلت لك شبيهة باملاح الحمام العديمة اللون أو مثل مسحوق الطلق الابيض . واذا فحصتها بالمجهر ، استطعت رؤية بلّوراتها الرائعة

ومن المحال القليلة في الولايات المتحدة الاميركية التي يتاح لك ان تبتاع منها احماض الامينو قسم الكيمياء بجامعة كليفورنيا في لوس انجيليس حيث يقوم الدكتور مكس ضَن Dr. Max Dunn احد سحَرة الكيمياء في القرن العشرين ، بالاشراف على صنع هاتيك الاحماض لتباع للجامعات والمستشفيات والمختبرات في آفاق المسكونة كافة . واحماض الامينو من المواد الكيميائية النادرة التي قلما توجد خالصة . ولم يكتشف العلماء منها الاّ ٢٢ صنفاً فسموها باسماء مختلفة وهي

(١) الميدع والميدعة والميداعة — ما يصان به الثوب وغيره (٢) الجسد الدم اليابس كالجاسد والجسيد
(٣) وقد اشرنا الى هذه الاحماض وذلك في مقالنا على (البسلة الصينية ومنافعها الغذائية) في مقتطف يونيه سنة ١٩٣٨

تؤلف البروتين الذي هو من اعظم عناصر الـكائنات الحية . وتكون على شكل خيوط طويلة كأنها سموط الجواهر . وقد تسمع الطبيب النطاسي ينصح للسيدات الشابات السمينات باجتناب المواد الدهنية والكربوهيدراتية في غذائهن ، ويبيح لهن الافراط في الاغذية البروتينية ، فيصف لهن الهبر والسمك والبيض والخضراوات الغضة والفواكه

ولما كان البروتين يؤلف جانباً جوهريًّا من غذائنا ، صار من الطبيعي أن يتحول ويشغل حيزاً خطيراً من اجسامنا . فاذا نظرت الى يديك كلتيهما . فكل ما تستطيع رؤيته فيهما — هو البروتين ، ممثلاً في جلدهما واظفارهما وشعرهما لان جل تركيبنا العضلي البشري ، من البروتين

وبلغ من تعقد التركيب الـكيميائي للبروتين ، ان عجز العلماء جميعاً عن تركيب صنف منه ، بيد انهم قد تمكنوا من تحليله فتبين لهم انهُ مؤلف من احماض الامينو المختلفة

وكان أول مجهود بذله الدكتور ضَنْ نفسهُ لشراء احماض الامينو من مخازن العقاقير الطبية التجارية عقيماً ، إذ لم يكن يباع فيها من اصنافه الاثنين والعشرين الاّ بعضها وذلك للمباحث العلمية ، وكانت أسعاره باهظة ، وقد بلغت ثمن البلاتين تقريباً . ولذلك توفَّر الدكتور ضن على صناعة أحماض الامينو ليتسنى له ادراك المعلومات الثمينة جدًّا الخاصة بمزاياها الطبيعية وتركيبها وقابليتها للذوبان فشرع في تأسيس المصانع المعروفة الآن باسم مصانع احماض الامينو

فكان مشروعه هذا من المشروعات الدالة على الجرأة ، غير الرابحة ، من مشروعات جامعة كليفورنيا التي افتتحت أعمالها التجارية من سنة ١٩٣٥ اذ جعلت تصنع هاتيك الاحماض واحداً فواحداً ودوّنت أسماءها في قوائم بعثت بها الى الجامعات والمستوصفات والمعامل الـكيميائية في العالم قاطبة ، فجاءتها الطلبات تترى

وأصبح الآن ستة عشر نوعاً من احماض الامينو الاثنين والعشرين ، معروضة للبيع مع ان مشروع البيع قائم على اساس اجتناب الربح . وبلغ من صعوبة انتاج بعض تلك الانواع ان الرطل منها يباع بأكثر من الف ريال ، بينما يتفاوت ثمن الرطل من بعضها الآخر ، بين خمسة ريالات و ٨٠٠ ريال . وبعض أنواع احماض الامينو يصنع مباشرة من العناصر الـكيميائية وذلك بطرق التركيب الصناعي . وغيرها تؤخذ من بروتينات الحيوانات والنباتات

أما الطريقة التي تصنع بها تلك البروتينات فجديرة بالذكر . وذلك بحسب صنف حمض الأمينو المطلوب ، اذ يؤخذ الدم الجسيد والجبن الخالي من الملح وبذور عبّاد الشمس والحنطة والهلام وقصاصات الشعر ، فتوضع في وعاء كبير حيث تمزج بالحامض الـكبريتيك الثقيل او بالحامض الهيدروكلوريك الثقيل أيضاً ثم تغلى أربعاً وعشرين ساعة او اكثر وتضاف اليها مواد كيميائية أخرى ثم تستخرج بالتبخر والتقطير وذلك مع مراعاة قصارى التؤدة والضبط إذ تستخرج

منها مواد غزيرة حتى تصير البقايا مثل مسحوق نفيس او بلورات دقيقة ، وهذه هي أحماض الأمينو فتحلل تحليلاً كيميائياً متقناً ثم توضع في القوارير وتلصق عليها بطاقاتها

وقال الدكتور ضن انهُ قد استجدت لاستخلاص احماض الأمينو طرق أخرى ، ولأول مرة في تاريخ الكيمياء استحالت تلك الاحماض ، بلورات شفافة رائعة كأنها الجواهر الفريدة والتبلور في عرف العلماء دليل على منتهى النقاوة . وهذا أمر جد خطير عند العالم الباحث .

واحماض الأمينو نافعة جداً للناس بوسائل شتى بحيث اذا حرم منها امرؤ حرماناً تاماً ، وهي في منزلة بروتينات ، هلك . اذ لا بدَّ للانسان من الاعتماد على النباتات أو على الحيوانات الآكلة النباتات التي تتغذى بتلك الاحماض . والنباتات هي الكائنات الحية الوحيدة في الكون التي تستطيع امتصاص الاملاح الكيميائية من التربة . وبواسطة الطاقة الشمسية تتمكن النباتات من ضم تلك الاملاح الى الحامض الكربونيك والماء لتوليد البروتينات

ومتى أكلتَ لحماً او اسفاناخاً ، قامت السوائل الهاضمة التي في معدتك ، من فورها ، بالعمل في البروتينات اذ تجزئها الى أحماض الامينو ، وتولى مجرى الدم توزيعها على أعضاء جسمك جميعها حيث تستعمل موادَّ أولية لاعادة تكوين النُسج التي بليت من الشغل والرياضة

وتساعد أحماض الأمينو أيضاً على تنظيم وظائف الجسم ، فتؤثر في حجمهِ وسرعة نموه ومقدار الشحم الذي يدخره وكذلك في لون العينين والشعر . وقد تؤثر أيضاً في شخصية المرء

وقدَّر الخبيرون ان مليجراماً من أحماض الامينو المعروفة باسم تيروكسين ، المودعة في الغدَّة الدرقية يتوقف عليهِ احدى الحالات الثلاث وهي السعادة الطبيعية والحياة والمات والبلاهة

ومن أحماض الامينو ضرب يعرف باسم الحمض الجلوماتيك [١] glumatic acid يصنع ويباع كتوابل للطعام وهو ذو طعم مدهش يشبه طعم اللحوم الطبيعية

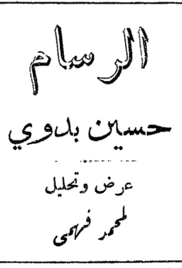
ومنهُ صنف آخر يعرف باسم سيستين [٢] cystine ويتوافر في الشعر البشري . ويوقن بعض العلماء ان التجارب الدائرة في أحماض الامينو ستحل معضلة الصلع

ومن أحماض الامينو أيضاً ما يسمى جليسن [٣] glycine وقد تبين نفعهُ في علاج الامراض العضلية وآخر يسمى هيستدين Histidine يستعمل في علاج القرح المعدية المستعصية

ويتوسل علماء جامعة كليفورنيا بأحماض الامينو الى حل معضلة السرطان

---

(١) عرضت هذا الاسم على صديقنا الاستاذ نقولا حداد الصيدلي الكيميائي والكاتب العامي المشهور المعروف لقراء المقتطف مستوضحاً اياه عما يعلمه بشأنه فقرر ان هـذه التسمية حديثة وقد تكون مركبة تركيبا يدل على خصائص ذلك الحامض ويظهر ان المكتشف الدكتور ضن قد نحت هذا الاسم من المادة البروتينية التي استخرج الحامض منها وقد اطلع الاستاذ حداد ايضا على النص الانكليزي الخاص بهذا المقال فأوضح لي بعض نقطه الغامضة (٢) السيستين — مادة توجد في البول — معجم شرف (٣) الجليسين — ويسمى ايضا سكر جلاتين — معجم شرف



أتيح لي ان اكون في « باريس » في شهر اغسطس من هذا العام (١٩٣٨) حين افتتح الفنان «حسين بدوي» معرض رسومه بالمكتب المصري للسياحة بالشانزليزيه تحت رعاية معالي فخري باشا وزير مصر المفوض والمسيو بيتري رئيس جماعة «فرنسا — مصر» فأمكنني ان اشاهد عن كثب تقدير رجال الفنون وكبار المتذوقين للفن من فرنسيين وأجانب لرسوم هذا الفنان وطابعه المتميز بقوة الشخصية وعمق الفكرة وما له من قدرة على توزيع اللون وتحليله الى درجات متعددة لكل درجة تعبيرها الخاص وكأنما يخاطب روحك بلغة من الالوان معبراً عن فكرة منتزعة من اعماق نفسه لا تلبث ان تحسها تتغلغل في اطواء نفسك وإذا بك امام لوحاته تحس وترى وتسمع ! واذا بالذي امامك ليس بمعرض رسوم بل معرض حياة !

يرتكز فن بدوي على دعائم ثلاث : الفكرة . طريقة التعبير . اللون . كل منها تشعرك بوجودها في قوة ووضوح كأنما تحاول اجتذابك اليها خاصة ولكنها جميعاً تحقق «الكل» المتسق في انسجام تام

﴿ الفكرة ﴾ — فالفكرة هي الاساس الذي نحكم به على مدى عمق الفنان واتساع رحاب روحه ومقدار ثروته من الاحساس الفني وقدرته على النفوذ الى أسرار الموضوع الذي يعرض له حتى يخلق منهُ عالماً حافلاً بجميع خصائص العالم الحيّ من ظواهر واسرار !

وان الفكرة لتنبت في اعماق نفس بدوي ثم تنمو وتنمو حتى تملأ رحاب نفسه كلها فتخرج للوجود وقد حفلت بكل ما في نفسه من خصائص : قوة شخصية وعمق وابتداع !

وهنا يحق لنا ان نقف قليلاً ثم نطوي السنين القهقرى ربع قرن او يزيد لنخلص الى طفولة بدوي ونشأته حيث نتأمل خصائص المحيط الذي في جوفه تبعث « الفكرة » اول ما تبعث في شكلها السديمي وهي في طريقها الى الكمال الانشائي (الخلاق) ذلك هو عالم اللاشعور حيث استقرت في أعماقه الخصائص الوراثية وانطبعت في حناياه صور البيئة وشتيت الذكريات التي أثرت فيه بل حيث مصدر جميع الانفعالات والمشاعر الغامضة التي يعانيها الفنان « في

عقله الباطن » فيحاول الافصاح عنها بأسلوبه الخاص وطريقته في التعبير وبالجملة حيث المادة الخام التي يصوغ منها الفنان فنه !

فبدوي نشأ نشأة مصرية بحتة في ريف مصر وبين حقولها الخضراء الباسمة ربيعاً وشتاء والصفراء الواجمة في الصيف ثم تغذى بتاريخ مصر منذ عهد الفراعين ولمس بروحه روح الفن الفرعوني ووعى جمال الفن الاسلامي ثم هو بحكم نشأته العائلية مؤمن عميق الايمان فيه طهارة المؤمن وصفاء قلبه وثقته! ثم تمثل تقاليد هذا الشعب الموروثة وحياته الحافلة بالآلام والمسرات والاحلام

هذه الخصائص متغلغلة في اعماق نفس بدوي مضافاً اليها مزاجه الخاص وطابعه المتفرّد بالغموض الذي كأنما يشير الى مجاهل وفجوات في اعماق روحه لا ينفذ اليها النور تموج بالانفعالات الغامضة والاشباح والاطياف ! فمن هذه جميعاً ممتزجة متفاعلة تتكون طبيعة الفكرة عند بدوي الفنان ! وهي اما رمزية وإما ميثولوجية وإما تصويرية

ففي بعض لوحاته يطوح بك في تيه لا حدود له فيقودك الى مجاهل التاريخ حيث الانسان في حالته البدائية وقد صوره في لوحة « رقصة الكهف » وهو في حالة من النشوة الوحشية (Primitive) ينقر على نغمات دف ساذج مستقيم الاضلاع (اذ لم يكن قد توصل الانسان بعد الى الدف المستدير !) ورفيقته تشاركه نشوته وهما يرقصان امام باب كهفهما المظلم الرهيب وكأن الاثنين اشباح تبدو في ظلام القرون ! . وتارة يدخل بك الى هياكل الفراعنة كلوحتيه « السائل المقدس » و « حارسة المقبرة » فتستشعر تلك الروعة الرهيبة التي خلعها الفراعين على معابدهم ومقابرهم وهي المنبعثة من اعماق روح مصر المفعمة بالقداسة وجلال الايمان . فترى في اللوحة الاولى « السائل المقدس » فتى المعبد في وقار وروعة وهو يصب لفتاة من الشعب الماء المقدس فتتلقاه في إنائها بلهفة وخشوع تستشف خلالها لذة ذلك الايمان العجيب !

وأما « حارسة المقبرة » فتبدو في الظلام وقد أنهكها عناء الوقوف فارتكزت برأسها فوق يديها المجتمعتين على قمة عصاها وأسندت ظهرها واحدى رجليها المنهكتين الى احد الاعمدة الضخمة المحتضنة المقبرة وسط ظلام مخيم . في هذا الجو الرهيب يملأ الاعتقاد نفسك ان هناك مقبرة حقّاً وان بها ميتاً مدفوناً حقّاً وان هذه حارسة منهكة حقّاً

والطابع الرمزي الفريد بلغ القمة في لوحتيه « ليلتهما الاخيرة » و « الامومة » والأولى اقتناها فخري باشا . ولوحات بدوي تبين لنا ناحية الغموض في نفسه ونزوعه الى مجاهل التطور في حياة البشرية وارتياد حقب التاريخ وكأن بدوي لا يعبّر عن عواطفه ومشاعره المشتجرة في محيط عقله الباطن فحسب بل عن مشاعر شعب بأسره بل الانسانية جميعاً ! وهنا يحق لنا ان نقول ان بدوي صاحب مذهب رمزي في الفن وهذا أمرٌ طبيعي في هذه الفترة التي نجتازها من

سلسلة تطورنا الاجتماعي والثقافي وانهُ بعد ان لاحت هذه الظاهرة الرمزية والميثولوجية في انتاجنا الادبي الرفيع من شعر ونثر « أنظر مفرق الطريق لبشر فارس وشهر زاد وأهل الكهف لتوفيق الحكيم وعلى هامش السيرة لطه حسين وشعر بعض شعراء المدرسة الحديثة » نعم كان من الطبيعي حينئذٍ ان يظهر صاحب هذه الطريقة في الفن ومن يرَ لوحات بدوي يحكم انهُ صاحبها

وبدوي حين يفكر في محاكاة الطبيعة سواء الحية او الصامتة يحاول دائماً أن يتحداها فينفخ فيها من روحه ما يهبها النبض والحياة فترى اللوحة وقد خرجت من بين يديهِ تحمل من خصائص بدوي ما يزاحم خصائص الاصل الذي تعبر عنهُ وكأن هنالك تنافساً بين شخصيتين قويتين : بدوي والطبيعة . ولـكنهُ في النهاية لا يخضع الاّ لنفسهِ ! فترى طيف رمزيته يلوح على درجات مختلفة من الوضوح والتّستر حسب قابلية الموضوع الذي يعرض لهُ . ومن هنا كانت طبيعة بدوي لا تتفق « والپورتريه » أي تصوير الاشخاص وقد أخبرني انهُ لا يميل اليهِ كثيراً وان كان أحياناً يلجأ اليهِ ليسكب عليهِ من روحهِ وفنهِ وفي هذه الحالة يبلغ الغاية من الاجادة ومن ذلك لوحة « بنت الجيران » اقتناها سري باشا ولوحة فذة تسمى « عديلة » أطلقت عليها صالونات القاهرة « الجيوكوندا المصرية » وهي لدى مدام سامي باشا

﴿ طريقة التعبير ﴾ — لعل طريقة التعبير في فن بدوي هي أنسب أسلوب للتعبير عن أفكاره . أو قل ان هذا الاسلوب وليد تلكم الافكار، وبدوي في طريقته هذه لا يتأثر بأي مدرسة من مدارس الفنون أو أية شخصية من رجال الفن فكما ان فكرته وليدة طبعه وخصائص نفسه فكذلك أسلوبه ليس الاّ نتيجة طبيعية للجو النفساني الذي يحيا فيهِ بل هو النتيجة الحتمية لإرهاصات روحه وهواجس فؤاده. على انك واجد بينهُ وبين رامبراندت شبهاً غير قليل في ظلاله وعنفه ! فهو إما عابس كالطبيعة الغاضبة وإما كئيب كأحزان الغروب. ويبدو أسلوب بدوي كانهُ ثوب مفصّل تبعاً لأدق المقاييس ملاءمةً للفكرة وابرازاً لما فيها من جمال وسحر! كل شيء فيهِ جديد مبتكر وكل ذرّة فيها حية نابضة ومجموعه الكلي يتميز بطابع الاستقلال والطرافة وكأنهُ يقول في كل ذرّة من أجزائهِ « أنا شيء جديد » وهذه الظاهرة لاحظها ناقدو الفن الفرنسيين فأشاروا اليها في جرائدهم

فاذا اراد ان يعبر لك عن « العودة » مثلاً كانت فتاة ريفية تعود حاملة على رأسها أناء كبيراً وهي في ثوبها ومشيتها وحزمات الضوء المتساقطة على اللوحة هنا وهناك باحكام عجيب وقد شمرت الفتاة عن ساقيها تخوض في ارض تغطيها المياه فتكاد تلمس ما تعانيه وهي تنقل خطواتها في جهد واعياء وتحس اللهفة والشوق في اندفاع الفتاة والحركة التي تكاد تهز اللوحة هزًّا ... كل هذه التعبيرات تملك عليك نفسك فلا تمالك الاّ ان تهتف « حقًّا انها العودة ! »

ولبدوي طابع في تعبيره يتناسب ورمزيته فهو لا يبرز لك تفاصيل الاشخاص بدقائقها

واضحة جلية بل على قدر ما تعبر بهِ عن المعاني والانفعالات في الجو الذي يخلعهُ على اللوحة كأنما ينقلك من عالم الحسّ الى عالم التخيُّلات والاسرار فتشارك الفنان في احساسه وشعوره بل كأنك تعيش معه في عالمه

﴿ طريقته المبتكرة ﴾ — توصل بدوي الى ان يخط على لوحة « الاكواريل » الماء المثبت ظلالاً واضواءً هي غاية في الاتقان بأسلحة مدببة الاسنة فترى الظلال والاضواء تموج امامك في اللوحة وكأَنها ظلال من الطبيعة نفسها تبدو مهيبة رائعة !

هذه الطريقة تتطلب صبراً طويلاً واناة ومهارة لا يطيقها الاّ من وهب نفسه للفن ! ولاشك ان الكثيرين سيحتذون هذه الطريقة الجديدة والاستعانة بها مع « الفرشاة » على رسم الظلال والاضواء. على انني اشك في ان احداً يستطيع البلوغ بها مبلغ بدوي من القدرة والاعجاب. وذلك لانها لا تصلح الاّ لفنان له طابع بدوي ذلك الطابع القاتم في اغلب لوحاته. فترى الاشخاص والمرئيات تنبعث امامك رهيبة لانها تنبعث من الظلام وتخطو في الظلام توضحها حزمات من الضوء يسقطها الفنان من كوّة روحه البعيدة الاغوار فلا ينجلي الظلام تماماً. ولكن تستطيع ان تتبين ما فيهِ من اشباح واشخاص. ففي مثل هذه اللوحات القاتمة يمكن استعمال الاسلحة المدببة اي طريقة بدوي في كشف الاضواء والاظلال على اللوحة بشرط ان يكون الفنان متمكناً من طريقتهِ حاذقاً لها

﴿ اللون ﴾ هذه اسهل النواحي في فن بدوي على ان هذه السهولة نتيجة البساطة والاقتصار غالباً على لون واحد. ولكن المهارة والقدرة على تحليل اللون الى درجات عدة تجعلك حائراً امام تلك المجموعة العجيبة المتناسقة من الالوان، وما هي في الواقع الاّ لون واحد تناولتهُ يد بدوي ومقدرته فكان ما تراه

هذه القدرة على تحليل اللون تضفي على لوحاته طابعاً من البساطة والتعقيد معاً ولكنها البساطة المغرية والتعقيد اللذيذ ثم هي تهيء له ان يحوّم بأشباحه واشخاصه في عوالمها المجهولة او المعلومة في غير ما جلبة ولا صخب من تطاحن الالوان وتضاربها. وبذلك يستطيع ان يخلق الجو الملائم كل الملاءمة للانفعالات والمشاعر التي يريد التعبير عنها فتنطق بها وجوه أشخاصه

وكأن كل قسمة من قسمات الوجه تتحدث عما يشتجر في حنايا الصدر وآفاق الفؤاد من أحاسيس وعواطف. وقد كنت أود ان أتناول مجموعة من لوحات هذا الفنان بالتحليل والشرح ولكنني حينما أردت ان أعرض لهذا وجدت ان المجال لا يتسع الآن. وأملي ان يتاح لي تحقيق هذه الرغبة او يتقدم بها غيري ممن تذوقوا فن بدوي ولمسوا روحه في انتاجه الفني وهذه خدمة غير قليلة للفن الجميل

مؤتمر المستشرقين

العشرون

اهم ما تلي فيه من المحاضرات

انعقد مؤتمر المستشرقين العشرون في مدينة بروكسيل عاصمة البلجيك من الخامس الى العاشر من شهر سبتمبر ١٩٣٨ . وكان المؤتمر على تسعة أقسام : مصريات وافريقيات -- آشوريات -- آسيا الوسطى -- الهند -- الشرق الاقصى -- الشعوب واللغات السامية -- العهد القديم ويهوديات -- الاسلام -- الشرق المسيحي . وقد زادت المحاضرات التي ألقيت على ثلاثمائة واليك أتمها فائدة :

القسم الاول -- « هوموروس ومصر » للاستاذ جلبرت (من البلجيك) -- « فكرة النقد المالي في مصر الفرعونية » للاستاذ دميل (من فينا) -- « ترتيب اللهجات السائرة في السودان الاوسط » للاستاذ لوقاس (من المانيا) -- « المكتشفات الاخيرة لحفريات الجامعة المصرية في قرية هرموبوليس » للدكتور سامي جبره (من مصر)

القسم الثاني -- « النصوص الأكدية في رأس شمرا » للاستاذ فيرولو (من فرنسا) -- « حمورابي بحسب رسائل مطوية » للاستاذ جان (من باريس) -- « التقويم الاشوري » للاستاذ ولي (من امريكا الشمالية)

القسم الثالث -- « اللغة التركية في بغداد في القرن الحادي عشر للمسيح » للاستاذ عيني (من تركيا) -- « في الشعر التركي -- الغربي لعهد السلجوقيين » للاستاذ رُسّ (من انجلترا) -- « مواد تركية في اللغة الفارسية الحديثة » للاستاذ كوبرولو (من تركيا)

القسم الرابع -- « أصل كلمة كلكتّه » للاستاذ شاترجي (من الهند) -- « الرقص الهندي التقليدي نظريًّا وعمليًّا » للاستاذ دفي (من انجلترا)

القسم الخامس -- « ملاحظات على رحلة ماركو بولو » للاستاذ بليوت (من فرنسا) -- « المناقضات الفلسفية بين الذهنيتين : اليابانية والصينية » للاستاذ ماك نير (من أميركا الشمالية) -- « مصادر جديدة للعلاقات الثقافية الخاصة بالحكم المغولي في الصين » للاستاذ هينيش (من المانيا)

القسم السادس — « في تاريخ فلسطين وشرق الاردن في القرن الثاني قبل المسيح وأصل بني اسرائيل » للاستاذ دي ڤو (من أورشليم) — « راس شمرا وبنو اسرائيل » للاستاذ جاستر (من انجلترا) — « في التعاقب التاريخي للشعر الجاهلي » للاستاذ جرونبوم (من فينا) — « الالفاظ العربية الجنوبية الجارية في اللهجة اليمانية لهذا الزمان » للاستاذ رُسّي (من ايطاليا)

القسم السابع — « الجناس اللفظي في اللغة العبرية » للاستاذ سيدن (من مالطة) — « الحديث والتدوين في أقدم تاريخ للاسرائيليين » للاستاذ نوت (من المانيا) — « معنى لفظة الضحايا في المزامير » — الاستاذ ريش (من انجلترا)

القسم الثامن — « القيمة الاستقبالية لسورة أهل الكهف عند المسلمين » للاستاذ ماسينيون (من فرنسا) . (ذكر المحاضر كيف فسَّرت فرق المسلمين سورة أهل الكهف على اهوائهم ومنازعهم ناظرة الى ما وقع في الاسلام بعد تدوين القرآن) — « مشروع تيسير قواعد اللغة العربية » و « كتاب الغايات والفصول لابي العلاء المعري » للاستاذ الدكتور طه حسين (من مصر) . (قال المحاضر في الشطر الثاني من محاضرته إن أبا العلاء لم يخرج على التقاليد الاسلامية ولم يرغب في معارضة القرآن وان بين كتاب الغايات والفصول واللزوميات وجوه شبه) — « في نشر كتب علماء الجغرافيا من العرب » للاستاذ كراموس (من هولاندا) — « أصل القصص الاخلاقي والنقد الاجتماعي في الشرق العربي مختتمَ القرن التاسع عشر » للاستاذ بيريس (من الجزائر) . (تكلم المحاضر على أحمد فارس الشدياق وأديب اسحق والمويلحي والمنفلوطي وفتحي زغلول وناظر بين « حديث عيسى بن هشام » و « ليالي سطيح ») — « مسألة المبنى في الشعر العربي الحديث » للاستاذ بروكلن صاحب « كتاب تاريخ الآداب العربية » (من المانيا) . (عرض المحاضر للقيود التي توثق النظم العربي على الطريقة التقليدية وأشار الى نشأة الموشَّح الذي خفف من ثقل تلك القيود ثم ذكر ان خليل مطران هو الذي فك من القيود وقد حذا حذو الفريد دي موسيه الشاعر الفرنسي الرومنتيكي . وقال ان لخليل مطران مدرسة تجري على منهاجه في النظم فمثّل بأحمد زكي ابي شادي المتأثر بالادب الانجليزي . ثم انتقل المحاضر الى الجيل الحديث من الشعراء فقال ان فيهم من يذهب في تجديد الصياغة الشعرية مذهباً ابعد من مذهب خليل مطران ومدرسته جرأةً واستقلالاً ، وكان مثله هنا (شعر بشر فارس) — « بعض نظرات في مذهب السنة في الخلافة » للاستاذ جب (من انجلترا) — « الناحية اللغوية من الشعوبية » للاستاذ ايل (من بلجيكا) . (ذكر المحاضر ما وقع بين العرب والشعوبية من مناظرات ومساجلات حول غنى اللغة العربية عن اللغات السامية واليونانية وغيرها او حاجتها اليها)

[البقية في آخر باب المكتبة]

حديقة المقتطف

صديقي !...

للكاتب الالماني الشهير آرثر شنيتزلر

Arthur Schnitzler

نقلها : ايزاك شموش

شهوة الموت

من ديوان (أفاعي الفردوس)

صديقي أ . . .

للكاتب الالماني الشهير ارثر شنيتزلر Arthur Schnitzler

نقلها ايزاك شموش استاذ اللغة والآداب العربية في الجامعة العبرية بالقدس

صديقي أ... (واسمهُ الحقيقي مارتن براند) الطالب في معهد دراسة اللغات ، كان شاعراً شابًّا ، لم يشجعهُ النقَّاد قط ، ولم يستطع ابداً أن يقنعني بقيمة الاقاصيص التي كان ينشرها في صحف الملحقات ، ومع ذلك ، فقد كان كالكثيرين من اضرابه لا يعبأ بما اذا كنا نجده أو لا نجده على شيء من الأهلية والفن ، وكان يعبر هذه الحياة مع رفيقة غير منظورة ، مع الهة الشعر ، ويقع منها على ساعات متعة حقيقية

الاَّ انهُ كانت تنتابهُ في بعض الاحيان ازمات سوداوية ، تسببها ليس معاكسات الدهر العادية . ولا الهموم البغيضة التي يذوقها كل انسان ، ولكن ... عند ما يكون صديقي أ... حزيناً ، فلانهُ يكون منهمكاً في وضع قصة محزنة يميت فيها من شدة الحب اميرة بعيدة ، او يقتل بسيف احد الخونة فارساً مقداماً . أو يبتدع قصة تحول فيها جنية شريرة دون سعادة شخصين طيبين طاهرين

وعلى نقيض ذلك . كان أ... يطير فرحاً عند ما ينشد الربيع ، او ينشد ليلة سكر يقوم فيها وجه مستعار بتقبيل ثغر رسام شاب متخفٍ في ثوب نوبي سري . وهو يهمس في أذنه : « اني لك ولن يقوى احد على سلبي منك ! »

وا أسفاه ! ان الامر لا يحتمل الجدل ، لقد كانت هذه الدلائل الاولى على جنون صديقي أ... وكثيراً ما كنت اوبخهُ ، وكثيراً ما كنت اعظهُ بصورة رضية ، اذ ان صداقتهُ الوثيقة مع الاشباح كانت مشؤومة في رأيي . ألم يكن من الافضل ان يتعرف على الحياة ، وان يختار له رفيقات سمراوات او شقراوات أمتع وألذّ بما لا حدّ له من تلك المخلوقات الخيالية الشاردة التي يبتدعها تصوره ؟

وذات مرة ، اتبع نصيحتي ، واتخذ لنفسه خليلة .... كانت مغنية طبعاً .. بل اني لمبالغ بعض المبالغة ، اذ انها اذا كانت أصبحت خليلته ، فلأنها ارتمت في

احد الاماسي، عند الخروج من دار التمثيل ، بين ذراعيه ... انهُ لمبدأ حزين لمغامرة كانت نهايتها حزينة ايضاً ، ولم ادرك حقيقة ذلك الاّ عندما كان كل شيء قد انتهى

٭٭٭

كنت الى جانب أُرْغُني ذات يوم بعد الغداء أُهوم في كرسيي الواسع واذا بصديقة أ... الشابة تقبل عليَّ : وكنت أرهف السمع واحدى يديَّ على الارغن ، للحن متنافر يحتضر شيئاً فشيئاً ، وأسائل زائرتي بالنظرات وقد عراني ذهول غريب : لقد كانت وحدها ، ولم يسبق لها قط ان جاءَت اليَّ بدون أ .. فأخذت احدق النظر في الباب لعلي أشاهده يتبعها ، ففهمت سؤالي الصامت وأجابتني بصوت تخنقهُ العبرات

— هو في البيت ... انهُ يشتغل

— وهل أنت قادمة من عنده ؟

ورجوتها ان تتخذ لها مقعداً على الديوان ، وجلست على كرسي بالقرب منها

— وما كاد يستقر بها الجلوس حتى أجهشت بالبكاء

— ماذا حدث يا صديقتي الصغيرة ؟

لم تجب ... انتظرت جوابها بصبر ، ثم استطردت :

— اذن ؟

قلت لها ذلك بهدوء عظيم فأخرجت منديلها وكفكفت عبراتها

— اضرب لحناً مفرحاً جدًّا ، لحن (ڤالس)... حينئذٍ استطيع ان أفضي اليك بكل شيء ، فاتجهت الى الارغن وضربت اول لحن خطر لي ، واذ ذاك أخذت تتمتم :

— انهُ عادة لا يحبني

فتوقفت عن العزف واتخذت هيأة الدَهِش ، مع ان دهشتي كانت مصطنعة ، اذ اني كنت انتظر شيئاً من هذا النوع ، فقالت لي في حزن :

— استمر في العزف فاحتججت :

— ليس هنا موضع لحن (ڤالس)

وطفقت اعزف لحناً حزيناً لأُبدد بهذه المازحة الارتباك الذي كان يسود بيننا .. وكم آسف لاني عزفت ذلك اللحن ! لقد اصبحت اعلق على ذلك شأناً مبعثهُ الوسواس

فاستأنفت الفتاة :

— لا بدَّ انهُ أصبح يحب امرأة أخرى، اذ سمعته يصرخ هذا الصباح مرات عديدة : « أنت لست مثلها . . . آه . . . أنت لست مثلها ! » وكنت أحاول بعد ذلك ان أعانقهُ ، فكان ينظر اليَّ كأنهُ عائد من بعيد ويقول لي « اذهبي ! . . . انك تزعجينني . . . كان عليك ان تشعري بذلك » فجمدت في مكاني . . أما هو فقد استمرَّ يكتب ، ووجههُ يشتعل ، وعيناه تلمعان ، وبعد برهة التفت اليَّ وعند ما تحقق انني لم أتحرك ، صرخ : « ألا تزالين هنا ؟ » . . . حينئذٍ ذهبت . . . فسألتها :

— وماذا تظنين فهزَّت أكتافها . . .

— أما أنا فسأحاول ان أقول لك ذلك وان كان يتعذر إفهامك : ليس لك مزاحمة من لحم ودم ، ان من تتحدثين عنها لا وجود ولا حياة لها الاَّ في مخيلة صديقنا أ . . . فحدقت في وجهي بصمت ، فاستأنفت :

— أنا أعرف حق المعرفة . . . ان فيهِ مسًّا جنونيًّا !

وقد بدا عليها شيء من الدهشة للهدوء الذي عبرت فيهِ عن تلك الحقيقة فصرخت :

— اذن . . . هو يفزعني !

— كلاَّ ! لا ينبغي ان تفزعي ، لقد ظننت انك تستطيعين ان تسعري حبه بقولك له ذات يوم : أ . . . العزيز ! أنا لا وجود لي ، ما أنا الاَّ بطلة هاربة من احدى أقاصيص الجان . وهـذه السعادة التي تذوقها بين ذراعي ان هي الاَّ حلم من الاحلام

— اذن هو نصف مجنون ؟

— بل هو نصف شاعر ، أي مجنون كامل ! ولـكن هدِّئي روعك . . . لا تبكي . . . وشرعت أعزف لحن (الفالس) الذي كانت قد طلبته مني ، فنهضتُ بهدوء واتجهت نحو الباب ، ولما حاولت مرافقتها منعتني باشارة من يدها

— كلاَّ ! اني سأعود

وفي اليوم التالي ذهبت لأرى صديقي أ . . . ، وكان النهار قد أضحى ، ومع ذلك فقد رأيت أربع شمعات حمر تحترق على منضدتهِ ، اذ انهُ لم يكن يستطيع العمل الاَّ على ضوء الشمع الاحمر ، وكان ينظر بعين كامدة الى الورق الذي تنزلق عليهِ

براعته بدون توقف . فأخذت أطفىء الشمعات الواحدة تلو الاخرى ، ولم يشعر بوجودي الاَّ عندما أطفأت الشمعة الرابعة ، فابتدرني :

— أهذا أنت ؟ فصرخت بلهجة حازمة :

— أ .. دع كل هذا وقم حالاً لنتغذى معاً والاَّ سعيت لسجنك في دار المجانين

فحدجني بعينيه الواسعتين ، العديمتي البريق

— لقد أنت صديقتك اليَّ البارحة ، فماذا فعلت معها ؟ أخذ يبتسم :

— لا تحدثني عن هذه المخلوقة البشرية المسكينة ، اني لا أريد ان أسمع شيئاً عن الجنس اللطيف بعد الآن !

— طبعاً انت لا تحب النساء الحقيقات، لانهنَّ يقترفنَ جريمة سائر المخلوقات البشرية فيأكلنَ ، ويشربنَ ، ويحببنَ ، ويعبرنَ الحياة بما فيها من تفاصيل وفصول الا̃انه قاطعني :

— امرأة واحدة كائنة في نظري ، وان تقوى على انتزاعي منها ، اسمع . . . كانت ذات مرَّة . . .

وأنشأ يقص عليَّ قصة فتاة رائعة الجمال كانت تحيا في جزيرة من جزائر المحيط الهادىء ، وكان اسمها « تركيز » ، وكانت على نصيب عظيم من الجمال الى درجة ان انساناً او الهاً لم تقع أنظاره على مثلها وكان أ . . . يشعر بقصوره وعجزه عن ايراد الاوصاف اللازمة ليصف الجمال المنبعث منها ، وأخبرني وقد غارت عيناه انهُ منذ اليوم الذي تسلطت فيهِ « تركيز » على قلبه وعقله ، لم يعد يشعر بأقل عاطفة نحو اي امرأة ، فسألتهُ

— وهل تحبها ؟

— بل أعبدها ! . . . ولكن وا أسفاه ! . . . انها لن تلبث ان تموت . . . اذ ينبغي ان تموت !

فأخذت أهز رأسي ، اذ كنت قد ارتعت حقّاً ، فاستطرد

— هنالك امير افريقي احبَّ « تركيز » حبّاً جمّاً مشؤوماً . . .

— وهل أصبحت تغار منه ؟

— وماذا أستطيع ان اعمل ما دامت تحبه ؟

— ولكن ... أيها المجنون ... اجعل الامير الافريقي فريسة لنمر ملكي ، وانزل على ضفاف الجزيرة المقدسة ، شاعراً باسم أ ... حتى اذا رأتهُ ...

— انهُ لا يستطيع !

وكانت تلوح على أ ... ملامح الاقتناع الشديد بهذه الحقيقة

— ولمَ لا ؟ ليس عليك الاَّ ان تريد ذلك ! ان جميع خيوط هذه القصة هي بين يديك ! كل ذلك قد ابتدعهُ جنونك ! ان « تركيز » الاَّ من مبتدعات مخيلتك!

فارتسمت على ثغره ابتسامة صفراء ، وقال بهدوء :

— كلاَّ ! فنهضت أذرع غرفته طولاً وعرضاً لأهدىء روعي

— اذهب . . . انك تزعجني ! فوقفت ، وحدّجتهُ بالنظرات

— سأعود في ساعة الغداء

وبينا انا أقفل الباب ابصرت أ . . . يشعل الشموع من جديد ، مع ان ضوء النهار كان قد غمر الدنيا ، وقد أبصرت الناس في الشوارع يسيرون بخطوات ثابتة ، فعجبت لهذا المقدار من الحيوية في بادىء الامر ، ولا غرو ، فان من يخرج من دار المجانين يعجب لكل شيء سليم

وعند الظهر الفيت باب دار صديقي أ . . . مقفلاً بالمزلاج .

— عد هذا المساء ، قال لي

وعند المساء كان الباب مقفلاً ايضاً ، فصرخت :

— ألم تمت « تركيز » بعد ؟

فسمعت أ . . . يتنهد تنهدات عميقة : لا شك ان « تركيز » كانت تنازع

وعند الصباح عدت اليه ، لم يكن الباب مغلقاً ، ولكن أ . . . كان جالساً الى منضدته وهو على أشد ما يمكن من الشحوب ، فسألته :

— ماذا اصابك ؟ فتمتم :

— انها تحتضر ! فأجبت :

— يا للحظ

فأغرورقت عيناه بالدموع دون ان يفهم ، فقلت له وقد أحسست بشيء من الضيق :

— هيا أ . . . أسرع

— لا أستطيع

— انك مضحك ! أنت تجني على نفسك ! كل هذا لا فائدة فيه . . .

-- لا فائدة فيه ؟ . . . انت لا تستطيع ان تفهم

فتوجهت الى النافذة وفتحتها :

— أتحس بهذا الهواء البارد ؟ أتشعر برقة هذا الهواء الصباحي الذي يبعثر الاوراق على منضدتك ؟ أتبصر وقاحة الشمس التي تهزأ من رأسك المتعب ، والتي تذهب الغبار المتراكم على أرض غرفتك ؟ أترى هذا العالم المتعدد الالوان الذي يسبح في زرقة السماء ؟

فأطل من النافذة ، وأسرع فأغمض عينيه ، كأنما النور يؤذيهما ، ومع ذلك فقد ترك نفسه بين يدي أقودها كما اشاء ، ولكني عبثاً حاولت ان أخلق محادثة لانهُ لم يكن يحري جواباً

— أتريد ان نستقل عربة ؟

— نعم أريد

كانت هذه اول جملة فاه بها ، فتأسيت بها ، وأسرعت فأوقفت عربة مكشوفة ذهبت بنا الى غابة فينا ، فلما توسطنا الحقول ونحن نسلك ذلك الطريق الذي تظللهُ اشجار كبيرة ، مورقة ، لمحت صديقي يبدي حركة دَهش واندهال ، وشعرت انهُ يستعيد حواسه ويتبسم فسألته :

— هذا جميل ، أليس كذلك ؟

ولكن ابتسامته كانت قد غارت ، وكأنما هي كانت تعبر عن لسان حاله :

« ألا تزال تظن ان هنالك شيئاً يقوى على انقاذي ؟ »

وتناولنا طعام الغذاء في أحد الفنادق ، وكنت اشجعهُ على الأكل ، ولكنهُ لم عد يده الى صحن من الصحون ، وانما كان يتنهد ويقول لي :

— انت شهم ، ولكنك لا تستطيع ان تفعل شيئاً في سبيلي ؟

— بل أستطيع كل شيء ، أستطيع ان أعيد كل شيء الى نظامه ، اذا أردت ان تكون عاقلاً . اني أفهمك جيداً ، وأفهم ان روحك المريضة ، هذه الروح

الشاعرة . كان لا بد لها ان تقع في حب «تركيز»

فقاطعني :

— وما دامت «تركيز» تحتضر فينبغي ان اكون شقيًّا !

وأخذت شفاهه ترتجف ، وكانت الشمس قد شرعت تنحدر للمغيب ، والغسق يبسط أجنحته بهدوء على الحقول والغابات الندية ، فسمعته يقول :

— أسرع ! أسرع !

وانطلقت العربة تعدو نحو المدينة ، وكانت الاشباح المتحركة توهمنا ان المنازل الاولية قريبة جدًّا ، واننا سنبلغ المدينة قبل ان يجن الليل ، وكان صديقي أ . . . لا يفتأ يكرر :

اسرع ! اسرع !

فسمعه السائق ، وألهب الجياد ، وكان أ... ينتحب :

— أريد أن أعود ! أريد ان أعود !

— دع عنك كل شيء ... ينبغي عليك ان تجتنب العمل هذا المساء ...

فنظر اليّ دهشاً :

بل ينبغي عليّ ان اشتغل !

وكان تنفسه متهدجاً ، لاهثاً ، بحيث لفت اليه انظار السائق الذي تفرس فيه دهشاً ، ذاهلاً

وكنت ادعوه من حين لآخر أ... أ... ولكنه لم يكن ليسمعني ...

وبينا نحن نجتاز الشوارع المظلمة عرض لمخيلتي مشهد لم استطع ان اتخلص منه ... تخيلت «تركيز» ممددة في تابوت بلوري ، وأمامها شاعري ، يتأكله الحزن وعيناه جامدتان ، يتمشى فيهما ألم عميق يقصر عنهُ الوصف

ولما وقفت العربة عند دار أ ... قفز الى الارض ، وأخذ يصعد السلالم بسرعة عظيمة الى درجة انني عند ما لحقت به كانت شموعه الحمر قد اوقدت ، فجلس الى منضدته دون ان يشعر بوجودي ، وقررت ان امضي الليلة بالقرب منهُ لان حالته كانت تقلقني قلقاً شديداً

كانت يراعته تجري تائهة على صفحات القرطاس ، وكانت النافذة مفتوحة

يضطرب ضوء الشموع من نسمات الهواء التي تهب منها . وكانت الاوراق المبعثرة تدور حول المنضدة ، وكان محياه يزداد تأثراً من دقيقة لاخرى حتى غدا شاحباً كوجوه الاموات

وقد ثبت لديَّ ذات لحظة ان « تركيز » يحتضر ، اذ ابصرت يد أ ... يتنابها التباطؤ ، ونفسه يعروه الاختناق ، فلم يلبث ان ترك قلمه وتهالك على المنضدة ، وهو يجهش في البكاء بمرارة وحزن

فتأسيت بذلك ، وقلت لنفسي : « لقد انتهى الامر ! ان اثر الجمال قد تلاشى والصورة الخيالية الفظيعة التي عاش معها بضعة ايام قد اندثرت ! »

وخيل اليَّ ان الجو قد تغير ، وان الارواح الشريرة تهرب من النافذة ، وان ضوء الشموع قد اخذ يلطف ، وان الهدوء قد عاد الى صديقي المسكين ، اذ كانت نوبة البكاء قد خفت بعض الشيء

فتمددت على الديوان . واستسلمت للرقاد ، ويظهر اني رقدت طويلاً ، اذ لم يكن قد بقي شيء من الشموع عندما استيقظت ، أبصرت أ . . . فاقد الحركة ، منكس الرأس ، فاقتربت منه ، ولمحت في نظراته ما يبعث على الاطمئنان ، فقلت له :

— هيا قم ارقد فأجابني بصوت عادي :

— عُدْ الى منزلك ، ولا تعد تقلق نفسك من اجلي فصرخت فرحاً

— آه أ ... ! هل انتهى كل شيء ؟ فأكبَّ عليَّ يعانقني ويقول :

— نعم ، انتهى كل شيء ! — اذن اسمح لي ان اتم ليلتي على ديوانك

— لك ما تريد

وكانت تبدو في صوته آثار الصداقة الصميمية . . . لم تفارقني نظراته وانا أتمدد على الديوان ، واخذ يتبسم بلطف عندما اشرت عليه بأن يتمدد هو أيضاً .... بل اني أحسست بنظراته ترتقي حتى بعد ان استغرقت في الرقاد

استيقظت مع الفجر : لم يكن صديقي أ... في الغرفة ، فنهضت واقتربت من المنضدة ، فلمحت على ضوء الفجر الضئيل ورقة مطوية أربع طيات ، وقبل ان أفضها ، أسرعت الى سرير صديقي ، فألفيتهُ منظماً لم يمسهُ أحد ، فعراني ارتجاف

مريع،وأحسست اني أصبحت فريسة اضطراب غريب . . .

أول نظرة بدرت مني اتجهت نحو الشموع ، فاذا بها مرمية الى الارض مع الشماعة ، الى جانب المدفأة . . . بحثت بأنظاري عن الاوراق المخطوطة : كانت الاوراق المبعثرة ما تزال على المنضدة . . . حينئذٍ عزمت على ان أفض الورقة ، فاذا بها هذه الكلمات : « ماتت « تركيز » فانتهى كل شيء ! »

فاصطكت أسناني وصرخت : أين هو ؟ . . . رباه ! . . . أين هو ؟ . . .

أسرعت الى مدخل الدار : لم يكن فيهِ أحد ! . . . فتحت الباب : لم يكن قفص السلم مضاء . فعدت الى الغرفة ، ولمحت شمعة من جانب المدفأة ، فأشعلتها وأسرعت الى صحن الدرج ، وانحنيت على الدرابزون ، فأبصرت . . . شيئاً اسود . ممدداً على الارض . فمددت يدي التي تحمل الشمعة لأتبين بوضوح أكثر فسقطت قطرة شمع على الجسم العديم الحراك ، فهرولت أنزل السلالم مسرعاً والشمعة في يدي حتى اذا أدركت أسفله أبصرت جثة هامدة . . . .

كان وقع اقدامي على السلالم قد أيقظ الجيران ، فهرع الناس من كل جانب يتساءل بعضهم : « ماذا جرى ؟ » . . . ويرسل البعض الآخر صرخات مفزعة

وقد رأيت نفسي مضطرًّا الى اعطاء شرح لذلك فقلت :

— لقد كان مجنوناً ! . . .

واذا أحد الحضور يأخذ الشمعة من يدي ، أوظنهُ كان يرتجف ! . . .

***

لقد قرأت القصة الاخيرة التي كتبها صديقي أ . . . انها قصة فاشلة تماماً ، لا يكاد يتبين فيها أثر للفن قط !

ولا شكَّ ان هذه آخرة مؤسفة للقصة ، ولكن حرصي على صحة الرواية يضطرني الى قول الحقيقة . . . ومع ذلك ، فقد كان صديقي أ . . . شاعراً عظيماً اذ أي مخيلة قوية ينبغي ان يكون قد حباه الله بها ، ليستطيع ان يخلق امرأة يحبها الى حد الجنون ؟ حتى لا يعد يستطيع الحياة حين قضت المخيلة على هذه المرأة الاثيرة ؟ ؟ ؟

آه . . . ان لربات الشعر لاهواء غريبة ! ! !

شهوة الموت

«من ديوان (أفاعي الفردوس)
الذي أخرجه الياس أبي شبكة ،
وفي باب مكتبة المقتطف كلمة عنه»

ناقمٌ على السماءْ حاقدٌ على البَشَرْ
ساخط على القضاءْ ثائرٌ على القَدَرْ
غير قطـرة المساءْ لا أحبُّ في السَحَرْ
صرت أمقت الصفاءْ صرتُ أعشق الكَدَرْ
غير مشهد الدماء لا أحبُّ في الصّوَرَ
ناقمٌ على السماءْ والبشر !

***

جمِّلي ليَ الجسدْ واسكبي لي الرحيقْ
لا تفكري بغدْ قد يجي ولا نفيقْ
ما لنا وللأبدْ إن سرّهُ عميقْ
الهوى اذا اتّقَدْ كانَ للبلى طريقْ
فلنَمُتْ يداً بيدْ ولْنُغَيِّبْ البريقْ
بين شهوة الجسد والرحيقْ

سير الزمان

توازن القوى البحرية

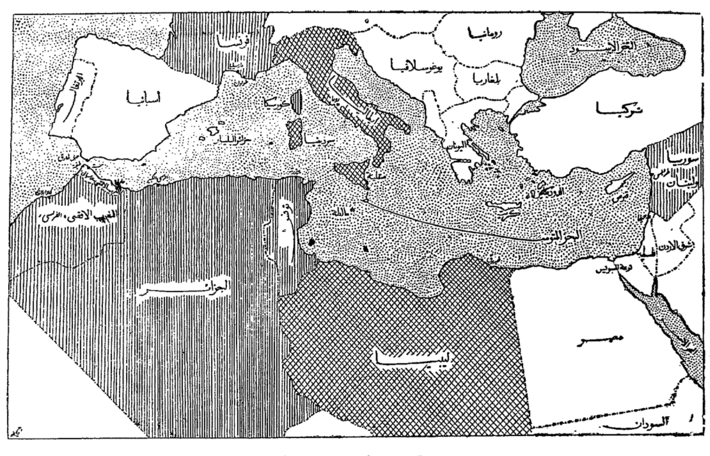
في البحر المتوسط

الوضع الجغرافي

الأهداف الاستراتيجية

الأساطيل وبرامج الإنشاء

الطيران والقواعد البحرية



خريطة للبحر المتوسط وسواحله

توازن القوى البحرية

في البحر المتوسط

الوضع الجغرافي

بعد ان انتهت الازمة التشيكوسلوفاكية ، اتجهت الانظار في مقدمة ما اتجهت اليه الى المشكلة الخاصة بالحرب الاهلية الاسبانية ، لانها لا تزال كالورم السرطاني تسمّ جسم العلاقات الاوربية ولاسيما ما كان منها خاصًّا بسياسة بريطانيا وايطاليا وفرنسا في البحر المتوسط . ونحن المملكة المصرية القائمة على الطرف الشرقي من هذا البحر ، يهمنا بوجه خاص تحوُّل العلاقات بين دوله الكبرى ، لان احدى هذه الدول حليفة لنا ومصيرها في هذا البحر مرتبط بمصيرنا الى حد بعيد . ولذلك نقلنا هذه الدراسة الوافية في توازن القوى البحرية في البحر المتوسط ، لما لهذا الموضوع من شأن كبير بوجه عام . ومن صلة وثيقة بنا بوجه خاص

والبحث في هذا الموضوع ، يقتضي منا اولاً دراسة المواقع الجغرافية للبلدان التي تهمها شؤون هذا البحر . وذلك لان الخطة البحرية لدولة انما هي أثر من آثار موقعها الجغرافي . فهذا الموقع الجغرافي يعين الاهداف التي تتجهُ اليها والقواعد البحرية التي تنشئها وتحصنها وطبيعة السفن الحربية التي تبني منها اسطولها ، واذن فالموضوع يشتمل اولاً على بحث الموقع الجغرافي ، ثم الاهداف العسكرية ثم برامج الانشاء البحري ثم قوى الطيران والقواعد البحرية ، ثم المقابلة بين جميع هذه العناصر

هذه الطريقة في البحث تفضي بنا الى تقسيم دول البحر المتوسط او التي تهمها شؤونه بوجه خاص الى أربع طوائف وهي اولاً طائفة البلدان التي يغمر ماء البحر المتوسط سواحلها ولا منفذ لها الى الخارج الاَّ عن طريقه . وبلدان هذه الطائفة هي ايطاليا واليونان ويوجوسلافيا وتركيا اذا حسبنا ان البحر الاسود ليس الاَّ بحيرة كبيرة لا نهُ لا يفضي الى مسالك المحيطات الحرة

اما الطائفة الثانية فهي البلدان التي لها سواحل على البحر المتوسط واخرى على بحر آخر وهي اسبانيا وفرنسا ومصر . ويدخل في فرنسا ممتلكاتها الافريقية وانتدابها السوري واللبناني

والطائفة الثالثة هي الامبراطورية البريطانية ولها في البحر المتوسط موقف خاص

والطائفة الرابعة هي طائفة البلدان التي موقعها الجغرافي خارج البحر المتوسط ولكن لها بعض

مصالح فيه وتتجه الى الرغبة في ان يكون لها شأن في تصريف اموره وفي طليعتها المانيا وروسيا

ومن الواضح ان اهداف هذه الامم تختلف باختلاف وضعها الجغرافي . فالبلدان التي يمكن ان تحسب اسيرة هذا البحر كايطاليا ويوجوسلافيا واليونان وهي التي تعتمد في استيراد مواد غذائها على المواصلات البحرية فيه ، لا يمكن ان تكون خطتها وأهدافها شبيهة بخطة دولة اخرى كفرنسا تستطيع اذا سدت في وجهها مسالك البحر المتوسط ، ان تستورد ما تحتاج اليه من الغذاء عن طريق المحيط الاطلنطي ، ولا بخطة الامبراطورية البريطانية التي تستطيع ان تعتمد على طريق الكاب البحري في حال الضرورة ، ولا بخطة المانيا او روسيا اللتين لا تستطيعان ان يكون لهما شأن كبير فيه الاَّ اذا كانتا او كانت احداها متحالفة مع احدى دول البحر نفسه

فحرية هذا البحر في نظر بعض هذه الدول — كايطاليا — بمنزلة التنفس اي انها مسألة حياة او موت . وهي في نظر الآخر كفرنسا ذات مقام خطير لعلاقتها بممتلكاتها في افريقيا وانتدابها في الشرق الادنى وسهولة تعبئتها الافريقية في حالة الحرب . وهو شريان عظيم الشأن في الامبراطورية البريطانية ، ولكنه ليس مما لا يستغنى عنه من جهة التغذية . اما الدول الاخرى التي لا يغسل ماء هذا البحر سواحلها ، فلا حاجة حيوية بها اليه

ويضاف الى هذه الاعتبارات العامة اعتبارات خاصة ، ففرنسا مثلاً تحصر عنايتها بالجانب الغربي من هذا البحر ، لاهتمامها بمواصلاتها التي تربطها بالمغرب الاقصى وتونس والجزائر . وهذه المواصلات محصورة في منطقة واقعة بين شبه الجزيرة الايبيرية وشبه الجزيرة الايطالية فهذه الحقيقة لا بد ان تكيف خطتها البحرية وعلاقاتها السياسية بهذين البلدين . وايطاليا . معدَّة من قبل الطبيعة بوضعها الجغرافي لقطع المواصلات بين غرب البحر وشرقه . أما بريطانيا ففي يديها مفتاحان تقفل بهما مدخلي البحر اذا اقتضت الحال وهما جبل طارق وترعة السويس

الاهداف الاستراتيجية

تتباين الاهداف الاستراتيجية طبعاً وفقاً للاعتبارات الجغرافية التي بسطناها في ما تقدم فما هي

(ايطاليا) — فلننظر أولاً في موقف ايطاليا . فقد قلنا ان ايطاليا سجينة هذا البحر وهي لا تستطيع ان تستورد معظم الغذاء اللازم لها الاَّ عن طريقه فأمامها أحد مسالك ثلاثة فإما ان تتفاهم مع الدول الباسطة سؤددها على هذا البحر اي مع انكلترا وفرنسا وإما أن يكون لها أسطول يمكنها من ان تسيطر على البحر وحدها وهو على مدى ما نعلم يتعذر عليها الآن ، واما ان تتفاهم مع إحدى دول القارة الاوربية فتتمكن من ان تحصل منها عند الحاجة على المواد الاولية التي تحتاج اليها صناعتها والغذائية اللازمة لأود شعبها وحينئذٍ يكون في وسعها ان تقف وجهاً لوجه مع قوة الكتلة الفرنسية الانكليزية

وقد وضع كاتبان يدعيان همل Hnmmel وسيورت Siewert كتاباً عنوانه البحر المتوسط، خصا معظم فصوله بموقف ايطاليا . وعندهما انهُ ليس في الوسع إنكار الميل الايطالي الى بسط السيطرة الايطالية على البحر المتوسط . وان هذا الميل ناشيء عن عوامل ثلاثة هي الجغرافي والدمغرافي والاستعماري . فثمانون في المائة من حدود ايطاليا سواحل يغمرها ماء هذا البحر. ولذلك ترى ايطاليا في كل مؤتمر بحري ، تبسط موقعها الجغرافي الخاص في البحر المتوسط وما تلاقيه من الصعوبة في استيراد ما تحتاج اليهِ من مواد الغذاء والصناعة ، ثم تعتمد على هذا الوضع الخاص في طلب الحقوق الخاصة بقوة اساطيلها . ولا يخفى ان ايطاليا من أفقر البلدان الاوربية في المواد الاولية كالفحم والمعادن والنفط والخشب وغيرها فأودها قائم على الاستيراد

كانت ايطاليا سنة ١٨٧١ تعد ٢٧ مليوناً ولكن عدد سكانها اليوم ٤٢ مليوناً . هذه الزيادة الكبيرة في عدد السكان أحدثت موجة من الهجرة حتى ليقدر عدد الايطاليين الذين يقطنون خارج ايطاليا بعشرة ملايين منهم ثمانية ملايين في اميركا

والحالة الناجمة عن الموقف الجغرافي وقلة المواد الاولية وموجة الهجرة افضت الى نشوء الفكرة الفاشستية ، النازعة الى الاستعمار باحياء الامبراطورية الرومانية وجعل البحر المتوسط بحيرة ايطالية ، المتجلية في فتح الحبشة والمنشآت الاستعمارية في لوبيا

فلكي تحقق ايطاليا ما تدعوه « بحرنا » عليها أن تنهض الى مستوى قوة نديها في البحر المتوسط أي فرنسا وانكلترا . الاَّ ان موارد ثروتها تجعل ذلك متعذراً عليها الآن . ان موقعها الاستراتيجي يمكّنها من ان تبلغ مرتبة من القوة لا تستطيع نداها أن تستهينا بها وذلك بانشاء سفن حربية من نوع الغواصات على الاكثر ، وبالسلاح الجوي . فهي تستطيع أن تعرقل مواصلات فرنسا وشمال افريقية بهذه القوة فتعيق تعبئة القوات الفرنسية . ثم انها تستطيع ان تقطع الصلة بين غرب البحر المتوسط وشرقه فتعرقل مواصلات بريطانيا مع الهند ان لم تقطعها بتاتاً

(فرنسا) — فلنلق الآن نظرة على موقف فرنسا . ان مواصلاتها في غرب البحر المتوسط ذات شأن عظيم جدًّا في نظرها لأنها السبيل المباشر من مرسيليا وطولون الى أوران والجزائر وتونس . فاذا شاءت ان تعبيء مليون جندي في ممتلكاتها في شمال افريقية وتنقلها الى فرنسا وكانت مواصلاتها في غرب البحر المتوسط مقطوعة او محفوفة بالخطر ، تحتم عليها ان تنقلهم عن طريق المحيط الاطلنطي ، فتضيع بذلك وقتاً ثميناً . فحرية المواصلات في غرب البحر المتوسط مسألة على أعظم جانب من خطر الشأن في نظر فرنسا . ومما يجب الاعتراف بهِ ان هذه الحرية تغدو معرضة لخطر عظيم في حالة نشوب حرب عامة تكون فيها أسبانيا وايطاليا ضد فرنسا

يقابل هذا ان فرنسا تحتل — في حالة نشوب حرب عامة — مواقع في البحر المتوسط

يمكنها من الهجوم على شبه الجزيرة الايطالية . فثمة أولاً الساحل الفرنسي القريب من ايطاليا ثم جزيرة كورسيكا التي عزّز من موقف فرنسا الحربي ازاء ايطاليا . ان المسافة بين كورسيكا وساحل توسكانا الايطالي ٨٤ كيلومتراً ، وبين كورسيكا وجنوى ١٥٠ كيلومتراً وبين كورسيكا وروما وميلانو وتوران ٢٠٠ كيلو متر . ولذلك يمكن القول بأن كورسيكا أصلح ما يكون مكاناً للشروع في الحملات الجوية التي تبغي فرنسا ان توجهها الى ايطاليا في حالة نشوب حرب . ثم يضاف الى ذلك موقع طولون في جنوب فرنسا وبنزرته في شمال افريقية . ومن هنا نتبين ان فرنسا لا تعوزها قواعد الهجوم على ايطاليا في حرب تكون فيها ايطاليا عدوة لها

ثم ان المسافة بين بنزرته وساحل صقلية الغربي قصيرة ، فاذا شاءت ايطاليا ان تستعمل جزيرة بانتلاريا لقطع المواصلات بين غرب البحر وشرقه في مضيق صقلية استطاعت فرنسا ان تعدل هذا العمل وتبطله من بنزرته وهي قاعدة بحرية وجوية عظيمة. واذا كانت ايطاليا تستطيع في بدء الحرب ان تقطع المواصلات البحرية في المضيق بين صقلية وساحل تونس فان وجود بنزرته يجعل استعمال ايطاليا لهذا المضيق متعذراً كذلك

أما (اسبانيا) فلا نزاع في ما لموقعها من عظيم الشأن . فسواحلها يمتد من الشمال الى الجنوب على حدود البحر الغربية . ثم انها تملك جزائر البليار ومواقع عظيمة الخطر على الساحل الافريقي مثل مليلة وسبتة . فموالاتها لايطاليا والمانيا تتعب انكلترا وفرنسا كثيراً لانها تعرقل مواصلات فرنسا — كما بينا — وتنقص من قيمة جبل طارق كمفتاح لغربي البحر المتوسط . ومن هنا كان للحرب الاهلية الاسبانية ذلك المقام الخاص في دوائر السياسة الاوربية[1]

ثم كلمة عن (بريطانيا) . فالبحر المتوسط في نظرها طريق اقامت على مراحل خاصة منه الحصون لتأمينه . فثمة جبل طارق في الغرب ومالطة في الوسط . ثم انها تحرس مدخل البحر من ناحيته الشرقية من مقامها الخاص في فلسطين ومصر. وقد بالغ الكتّاب كثيراً في ما كتبوه عن مالطه وسقوط قيمتها الحربية . ولكنها اذا كانت قد غدت غير صالحة تماماً مباءة للاسطول البريطاني كما كانت فانها لا تزال تصلح حصناً تثوب الى مرفإه الغواصات والطائرات فالهدف الذي تسعى اليه بريطانيا هو حفظ الطريق البحري بين جبل طارق وترعة السويس حرًّا فاذا حدث ما يقطع عليها هذا الطريق ، فانها تحول سفنها التجارية الى طريق الكاب

ثم ان للسياسة البريطانية هدفاً آخر في البحر المتوسط وهو المحافظة على مصالحها وعلاقاتها السياسية في الشرق الادنى

---

١) راجع « الحرب الاهلية الاسبانية وصداها الدولي » مقتطف نوفمبر ١٩٣٦ صفحة ٤٧٥ — ٤٨٥

أما تركيا فلها شأن كبير في البحر المتوسط لانها تستطيع ان تتحكم الى حدّ بعيد بمخرجهِ الشرقي ، ولأنها تستطيع ان تمنع روسيا من التدخل في شؤونه بامتلاكها الدردنيل والبوسفور . وأما ألمانيا وهي ليست من دول هذا البحر بحصر المعنى فتستطيع ان تبرز مقامها فيهِ اذا تحالفت مع ايطاليا وعندئذٍ فقد تؤيد حليفتها ببعض سفن بحرية من قبيل الغوّاصات او بعمل عسكري في البلقان يتجه الى اسطنبول وسلانيك

بقي أن نقول أن هدف (مصر) هو الاحتفاظ باستقلالها وهي في حاجة الى دولة كبيرة تحالفها فتحالفت مع بريطانيا لان مصالح البلدين من حيث حفظ السلام في البحر المتوسط واحدة

الاساطيل وبرامج الانشاء

ان الشروع في بناء الطراد الايطالي «امبيرو» في جنيف من عهد قريب، يعد خطوة جديدة في تجديد قوة ايطاليا البحرية في البحر المتوسط . وليس في وسع الباحث الاّ الانحناء باحترام أمام الجهد العظيم الذي بذل في تعزيز الاسطول الايطالي منذ تقلدت الحكومة الفاشستية أزمة الحكم، وذلك لتحقيق الهدف الذي ترمي اليهِ وهو المساواة بفرنسا التي ما فتئت تطالب بها ايطاليا في المؤتمرات البحرية ثم حققها موسوليني في الواقع تقريباً . فالطرادات السبعة التي بنتها فرنسا — ومحمول كل منها ١٠ آلاف طن — ردت عليها ايطاليا بصنع سبعة مثلها من المحمول نفسه . إلاّ ان ايطاليا نظرت الى موقعها الجغرافي الحربي فرأت انها لا تحتاج الى سفن حربية تصلح للمدى البعيد ، فاتخذت في بناء سفنها الحربية قاعدة خاصة بها فجعلتها اقل سرعة وأقصر مدى واستعملت فرق الوزن الذي كسبتهُ كذلك لجعل دروعها أكثف وأمتن .

فنشأ عن ذلك انهُ اذا كانت ايطاليا تساوي فرنسا في عدد الطرادات التي محمول كل منها عشرة آلاف طن فالرأي بين الخبراء ان الطرادات الايطالية التي بنيت ردّاً على الطرادات الفرنسية ، متفوقة لان الايطاليين استعانوا في بنائها بالعبرة والاختبار

وقد سعت الاميرالية الايطالية ان تتبع برنامج الانشاء البحري الفرنسي ، حذوك النعل بالنعل ، في جميع الاصناف الاخرى من السفن الحربية ، ولكنها كانت تسعى في كل ما تصنعهُ الى التحسين والاتقان على نحو ما فعلت في الطرادات

فالمدمرات الفرنسية التي محمولها ٢٥٠٠ طن و٣٠٠٠ طن ردت عليها الاميرالية الايطالية بطرادات خفيفة من طراز «الكونديتيري» ومحمول كل منها يتفاوت بين ٥ آلاف طن و٦٧٠٠ طن

أما في الغواصات فتسعى ايطاليا الى مساواة فرنسا بل والى التفوق عليها عدداً . ولكنها أي ايطاليا تصنع غواصات أصغر حجماً وأخف وزناً من الغواصات الفرنسية . وسبب ذلك ان

البحر المتوسط وهو بحر داخلي لا يقتضي غواصات كبيرة تستطيع ان تسافر مسافات طويلة في المحيطات ، فهي في هذا البحر قريبة من قواعدها . ولذلك تفضل ايطاليا ان تزيد عدد ما تبنيه من الغواصات الصغيرة والمتوسطة . ويقابل هذا ان فرنسا تحتاج الى غواصات من الطبقة الاولى حجماً ومدىً لطول مواصلاتها البحرية الاستعمارية

ومع ان ايطاليا عمدت في البدء الى بناء السفن التي توافق خططها البحرية في بحر داخلي — اي السفن الصغيرة الحجم — الاَّ انها عمدت بعد ان شرعت فرنسا في بناء البوارج الكبيرة من طراز الدونكرك والستراسبورج، الى الرد عليها بالشروع في بناء الطرادين الكبيرين فيتوريو فنيتو والليتوريو . وبدلاً من ان يجعل موسوليني محمول كل منهما ٢٦٥٠٠ طن جعل المحمول أقصى ما تسمح بهِ معاهدة وشنطن وهو ٣٥ الف طن . وهو المحمول الذي سيتخذ قاعدة في بناء البارجتين الجديدتين من طراز البارجة « امبيرو » التي تقدم ذكرها

ويمكن ان يقال على وجه من الدقة ان الاسطول الايطالي كان في اول يناير سنة ١٩٣٨ مؤلفاً من اربعة طرادات مجددة مجموع محمولها ٩٠ الف طن و١٩ طراداً منها سبعة محمول كل منها ١٠ آلاف طن و ١١٤ مدمرة وسفينة طوربيد و ٨١ غواصة

أما برنامج الانشاء البحري الذي أُذيع فواسع النطاق وعند تمامه يصبح الاسطول الايطالي في البحر المتوسط قوة تحاذر[(١)]

يقابل القوة البحرية الايطالية في البحر المتوسط أسطولا الكتلة الفرنسية البريطانية ، أو ما تستطيعان ان ترصداه منهما للخدمة في هذا البحر . فعلينا في المقام الاول ان نبين مجموع قوة الاسطولين ، ثم نشير الى القوة التي تستطيعان رصدها للخدمة في البحر المتوسط

كانت فرنسا في بدء سنة ١٩٣٨ متفوقة على ايطاليا في جميع اصناف السفن الحربية فمحمول سفنها التي لا تزال تحت مستوى التعمير وصالحة للقتال كان ٥٠٠ الف طن حالة ان محمول سفن ايطاليا المقابلة لها ٣٨٠ الف طن . ولكن فرنسا مهددة بخسران هذا التفوق

ولسنا في حاجة في مثل هذا الفصل الى التبسط في وصف العناصر التي يتألف منها الاسطول الفرنسي ويكفي القول انه في مجموعه متفوق على الاسطول الايطالي الآن . ولكن برامج الانشاء البحري الفرنسي ليست على سعة كافية ولا سرعة وافية ولذلك ينتظر ان تلحق ايطاليا بفرنسا في سنة ١٩٤١ وتسبقها سنة ١٩٤٢ اذا لم توسع فرنسا نطاق برنامجها البحري وتزيد البناء سرعة

(١) يشمل برنامج الانشاء البحري لسنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨ اثنتي عشرة (١٢) قائدة مدمرات و١٦ قارب طوربيد وعشرين غواصة . ثم أذيع في ٧ يناير اضافة طرادين (حمولة ٣٥ الف طن) واثنتي عشرة كشافة وطائفة من الغواصات الى برنامج الانشاء البحري وسيكون اسم الطرادين « روما » « وامبيرو »

ثم لننظر في الاسطول البريطاني . ان مجموع محمول سفنه يفوق المجموع الخاص بفرنسا وايطاليا معاً اذ يبلغ ١٦٠٠٠ر١ طن وهي متفوقة خاصة في البوارج والطرادات الكبيرة وحاملات الطيارات . وموضع الضعف الوحيد في الاسطول البريطاني هو الغواصات . ولذلك يزعم الخبراء انهُ اذا عمل حساب لاسطول المانيا في البحر الشمالي ، ولمقتضيات الطرق الامبراطورية ، استطاعت بريطانيا وحدها ان ترصد للخدمة في البحر المتوسط اسطولاً يفوق الاسطول الايطالي. فاذا ضم اليه جانب من الاسطول الفرنسي كان التفوق حاسماً لا ريب فيه . اما ضعف الغواصات فهناك وسائل لمكافحتها تقلل من خطرها

ويضاف الى هذا ان برنامج الانشاء البحري البريطاني ضخم جداً وهو يبلغ وحده في مجموع محمول سفنه رقماً[1] اعلى من الرقم الخاص بمجموع محمول الاسطول الايطالي الآن ، ومتى تمَّ بلغ مجموع محمول السفن في الاسطول البريطاني ٧٠٠٠٠٠ر١ طن وهذا عدا ١٢ سفينة مجموع محمولها ٦٣ الف طن أقر بناؤها ولكن لم يشرع فيه بعد

اما الاساطيل التابعة لاسبانيا ويوجوسلافيا واليونان وتركيا فلا شأن كبير لها بل ان شأنها صغير جداً ولا يذكر لان معظم سفنها صغيرة وقديمة . اما اسطولا روسيا والمانيا ، فالاول محصور في البحر الاسود وبحر بلطيق ولا يحتمل ان يكون له شأن اكبر من ارسال بضع غواصات الى البحر المتوسط . واما الاسطول الالماني في البحر الشمالي فجل ما يستطيعه ان يقف امام جانب من الاسطول البريطاني وما يؤيده من الاسطول الفرنسي في البحر الشمالي وليس في وسعه ان يرسل نجدة تذكر الى اسطول دولة حليفة في البحر المتوسط

الطيران والقواعد البحرية

لا يتم البحث في موازنة القوى الحربية في البحر المتوسط الاَّ اذا بينا ما للطائرات الحربية من مقام وتأثير في هذه الموازنة . والطائرات كعامل في تقرير القوى الحربية ينظر الى موضوعها من ناحيتين الاولى عملها في الاستكشاف واطلاق القنابل والثانية القواعد التي تستند اليها

اما الطائرات المستعملة في الاساطيل البحرية او معها فنوعان، نوع تحمله السفن وينطلق من سطحها، وهذه السفن نوعان نوع خاص بحمل الطائرات ولا عمل له الاَّ حملها والنوع الآخر هو السفن الحربية العادية التي تحمل عدداً يسيراً من الطائرات ولكن ليس لها سطح متسع كما

---

(١) يشتمل برنامج الانشاء البحري الانكليزي على ستين سفينة مختلفة بجموع محمولها ٤٢٧ الف طن عدا السفن الاثنتي عشرة الاضافية

ترى في حاملات الطائرات الخاصة ، فتطلقها بالقذف الميكانيكي بجهاز يشبه المنجنيق القديم وقد اتخذ رداء جديداً

ففي هذا النوع من الطائرات نجد التفوق حاسماً للاسطولين البريطاني والفرنسي ولا سيما الاول الذي يعد بين سفنه سبع حاملات للطائرات

ثم هناك القوات الجوية المستقلة عن الاسطول والمستندة الى قواعد على اليابسة وفي هذا النوع يقر الخبراء بان التفوق في البحر المتوسط لايطاليا . وذلك لاسباب في مقدمتها ان سلاحها الجوي كبير وأصنافه كثيرة ثم لان كل سلاحها الجوي مجتمع في شبه الجزيرة الايطالية ، وله قواعد في مواقع غاية في الملاءمة للكر والفر . وقد يكون من الشاق ان توضع موازنة دقيقة بين عدد الطائرات التي تستطيع ايطاليا ان تجردها في حالة نشوب حرب وعدد الطائرات التي تستطيع فرنسا وبريطانيا ان ترصداها للبحر المتوسط ، وذلك لسهولة التنقيل والتبديل في أجهزة تسير بسرعة عظيمة كالطائرات الحربية . وإنما يمكن ان يقال ان ايطاليا متفوقة على فرنسا وبريطانيا في سلاح الطيران من حيث خطط الهجوم والدفاع مما يسهل على اسطولها عمله

هذا في مايتعلق بسلاح الطيران . وقد بقي علينا أن نجمل الكلام في ختام هذا الفصل على القواعد البحرية التابعة لدول البحر المتوسط المختلفة

وأول مايخطر للباحث الميزة التي تتمتع بها ايطاليا من حيث موقعها الجغرافي وهي امتدادها في وسط البحر المتوسط ، وما لها من قواعد بحرية متعددة يثوب اليها الاسطول للتمون والترميم اذا اقتضى الامر ذلك . ثمَّ قرب هذه القواعد من مواقع المعارك البحرية المحتملة . هذه القواعد هي ترانتو عند كعب الحذاء الايطالي وسبيزيا وجنوى ونابولي على الساحل الغربي وتريستا وبولا في البحر الادرياتيكي ، ومسينا في جزيرة صقلية وقد أعد مرفأها اعداداً خاصاً ليكون قاعدة للغواصات تستند اليها الغواصات التي تقوم من نابولي وترانتو وبرنديزي . وفي صقلية قواعد أخرى منها تراباني وكاجلياري ، وهذه تصلح لقطع الطريق البحري بين غرب البحر المتوسط وشرقه

ثم هناك جزيرة بانتلاريا الصخرية الواقعة بين طرف صقلية الغربي وساحل تونس وهي تحصن الآن لتؤيد القواعد التي تقدم ذكرها في قطع الطريق البحري

وعلاوة على القواعد البحرية التي تملكها ايطاليا في وسط البحر المتوسط ، لها قواعد في شرق البحر ولاسيما في جزيرتي رودس وليروس في بحر ايجه . ثم لها طرابلس الغرب وبنغازي على ساحل لوبيا الشمالي ، ولكن ساحل لوبيا الشمالي مما يصعب الدفاع عنهُ وحمايتهُ

والخلاصة ان ايطاليا قوية بقواعدها البحرية في الوسط ، ضعيفة في الجناحين

يقابل هذا ان انكلترا وفرنسا لهما قواعد لا تقل قوة ومنعة وحسن موقع جغرافي عن قواعد

ايطاليا . والميزة الاولى التي تتمتع بها بريطانيا هي قدرتها على ايصاد بابي البحر المتوسط في الغرب والشرق . فتصبح الدول التي تتوسط هذا البحر وكأنها اسيرة فيهِ . نعم ان منعة جبل طارق قد يهددها خطر من ناحية اسبانيا اذا كانت معادية لفرنسا وانكلترا . ولكن وجود فرنسا في المغرب الاقصى وقدرتها على استعمال اوران والمرسى الكبير يعزّز موقف انكلترا وفرنسا المنيع عند مدخل البحر من ناحيته الغربية

اما المدخل الشرقي أو بالحري المخرج فهو محكم الايصاد بوجود ترعة السويس وأعمال التحصين التي تقيمها بريطانيا في الشرق الادنى . وليس لمحالفة انكلترا مع مصر غرض أهم من الاشتراك معها في السيطرة على ترعة السويس عندما تقتضي الحاجة ذلك . ثم ان الاسطول البريطاني يستطيع الاستناد الى قواعد الاسكندرية وبور سعيد ومرسى مطروح ويضاف الى ذلك المرفأ العظيم الذي أنشىء في حيفا ، والمعدات التي تعد في مرفأ فاماجوستا بقبرص حتى يصبح قاعدة تصلح للطائرات والغواصات والمدمرات

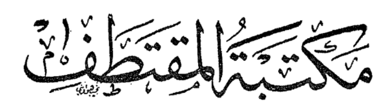
واذا كانت ايطاليا قوية في القلب ضعيفة في الجناحين فانكلترا قوية في الجناحين ضعيفة في القلب . فليس لها في وسط البحر الاّ مرفأ فاليتا في جزيرة مالطة . نعم ان مالطة فقدت بعض قيمتها الحربية لقربها من قواعد الطائرات الايطالية ، ولكن اذا حسبنا ان عمل قاعدة بيزرته الفرنسية في تونس يكمل عمل مالطة كان من الحتم علينا ان نقرر ان فرنسا وانكلترا اقوى في القلب مما كان يظن . ولعل بيزرته نفسها في أبدع موقع لقاعدة بحرية في البحر المتوسط كلهِ . والحكومة الفرنسية تقوم هناك بانشاء حصون عظيمة الشأن ، وهي لقربها من سواحل ايطاليا الغربية تصلح أن تكون مقرًّا تقوم منهُ الحملات الجوية والبحرية على ايطاليا

هذا وان أجاشيو في جزيرة كورسيكا وطولون قاعدتان بحريتان عظيمتا الشأن وتكملان العمل الذي تقوم بهِ بيزرته

ولذلك يمكن ان يقال بوجه عام ان القوات البحرية الانكليزية والفرنسية في البحر المتوسط والقواعد البحرية التي تستند اليها تمكن الدولتين من الاحتفاظ بمكانتهما البحرية المتفوقة فيهِ

والخلاصة ان مشكلة القوة البحرية وتوازنها في البحر المتوسط لا تقوم الاّ في حالة نشوب نزاع بين ايطاليا من جهة وانكلترا وفرنسا من جهة اخرى . فاذا حدث ذلك فالتفوق لدولتي لندن وباريس الاّ أن ايطاليا تستطيع بموقعها الجغرافي وطائراتها من قطع الطريق البحري بين غرب البحر وشرقه ما زالت لم تغلب على امرها

راجع مقال « البحر المتوسط في التاريخ » مقتطف فبراير ١٩٣٧ صفحة ١٦١ ومقال « مشكلة البحر المتوسط » مقتطف اكتوبر ١٩٣٧ صفحة ٣٣٧



كتب قرأتها

صقر قريش

دراسة لحياة الامير عبد الرحمن الاول الملقب بالداخل مؤسس الدولة الاموية بالاندلس تأليف الاستاذ علي أدهم صفحاته ١٢٨ طبع مطبعة المقتطف

ما قرأت كتاباً في سيرة بطل من أبطال التاريخ ، أو عظيم من أصحاب الفتوحات ، الاّ وشعرت بانقباض الصدر من وحشية الانسان ومن تفجر روح الشر وانبثاث أصول الجريمة فيه ، وكثيراً ما قلت في سري ، ان روح الخير انما هو اسم لمسمى لا وجود لهُ البتة في نفوس من تواضعنا على تسميتهم بالابطال والعظماء ، وان العظمة والمجد والخلود التي نضفيها ألقاباً مبجلة انما هي نتيجة ضعف في نفوسنا المريضة ، وصور للخوف والاستسلام والاستكانة للطاغية ، وكثيراً ما أعدت أسباب هذا الانقباض النفساني الى مؤلف سيرة البطل نفسه وقد ساقتهُ همجية الحادثات معها ، ولم يقوَ على صد نفسه عن الانزلاق في وحشية الوقائع ، ولا تحرير عقله من التأثرات العاطفية ، فعرض موضوعه عرضاً أشعر القارىء انهُ يخب في برك من دماء مستنقعة حول القصور والمنازل ، ويموج في مباءات عامرة تتراكم فيها الاشلاء تنبعث منها روائح النتن ، والرمم يعلوها البلى والانحلال ، ومما لاحظت ان أنياب الجريمة والشر تبرز في نفس الطاغية الاديب أكثر مما تظهر في الطاغية الذي لا يحفزه خيال مبدع ولا يدفعهُ الى المغامرات سوى دافع حب المجد ، واشباع الانانية اشباعاً مطلقاً

قلَّ بين كتاب التراجم وسير الابطال من نظر الى روح أعمال الرجل العظيم قبل تدوين وقائعها ، والى ملاحظة نفسيتهِ ودراسة عصره وبيئته دراسة عالم باحث منقب متجرد ، وعمل بحرية وجرأة على اظهار ظروفها وبواعثها ، ملابساتها وخفاياها ، مقدماتها ونتائجها ، وعلى شحذ عقل القارىء ليشترك معهُ في الموازنة والمقارنة ، والمفاضلة والعدل في الحكم على المترجم لهُ او عليهِ كما فعل مؤلف كتاب صقر قريش

لقد تناول صديقنا الفاضل الاستاذ علي أدهم بالبحث والدراسة شخصية من أبرز الشخصيات الاسلامية جمعت بين خيال الاديب الخالق ، والمصلح الاجتماعي ، والطامح الى استرداد ملك كان موطداً في سبطهِ وأرومته انتزعهُ منهم من هم أقوى وأقدر ، شخصية عبد الرحمن ، الملقب بالداخل ، المعروف عند سادة العرب بصقر قريش . وان في اصطفائه هذه الشخصية الشاذة ،

الجامعة بين الاشياء واضدادها ، الدالة على العبقرية بأوفر معانيها ومظاهرها ، ومحاولته الاحاطة بها من جميع جوانبها . وابرازه عناصرها الثمينة والخسيسة ، وخصائصها المكيڤالية البشعة وانسانيتها السمحاء ، وعظيم مقدرتها على القفز من الوفاء الى الغدر ، والانقياد والامتناع ، والكره والرضى وغير ذلك من الاضداد بدون ما ترنح او تذبذب ، وفهمه مثار الانفعالات النفسية فهماً لا تشوبهُ شائبة تشكك ، انما هو تجديد في أدبنا العربي في دراسة الشخصيات البارزة على أضواء أحدث العلوم العصرية

والعلوم الحديثة في الحركات التاريخية ، السائرة عفواً الى غاية مجهولة ، تسعى الى معرفة هذه الغاية والقبض على كل فكرة تتناثر عنها . وقد توسلت العلوم الحديثة باجلاء الغوامض ، وتبديد السحب ، وجعلت تاريخ الانسانية سلسلة من افكار توالت على الدنيا بدون انقطاع

ولظهور الفكرة التي تتناثر عن الغاية الكبرى طرائق عدة منها : « انبعاث الغريزة التاريخية طموح العظيم لتحقيق الفكرة » « والايحاء الى الافراد الذين نسميهم أبطال التاريخ واتخاذهم رواداً للفكرة وطلائع لها » فعبد الرحمن اذن من العظماء لانهُ حقق فكرة عصره ، وقام بأكبر مطالب زمنه ، وكان يخضع لعاطفة قوية مسلطة على الغرض الذي يتطلع اليه العصر ، فعبرة التاريخ ليست في الذرائع التي تذرع البطل بها ، بل في تحقيق الفكرة

« ومما يثير حبنا للابطال العظاء وعطفنا عليهم ، ان نهاية اكثرهم كانت اشبه بالمأساة ، فان الفكرة تنبذهم بعد تحقيقها » فكتابة سيرة البطل اذن ، ليست تأريخ ساعة مولده ويوم وفاته ، ولا معرفة مواقعه الحربية وغزواته جيرانه ، واستلاب الضياع ، وسبي النساء ، وكسب الابل والاتن والسائمة ، والتنكيل بالخصوم ، وذبح الآلاف من الاعداء ، انما هي نبش العلل التي سولت كل هذا ومهدت لتحقيق الفكرة الاصلاحية المرتكزة في ضمير البطل التي اوحتها مطالب العصر

***

كانت اسبانيا في ذلك الوقت مختلة الاحوال ، قد تطاول على اهلها الجور ، وتمادى بهم الشقاء « وكانت هناك اقلية من الاثرياء المستأثرين بالامتيازات والمنافع ، وأكثرية مهملة مطرحة تعاني الفاقة والحرمان ، وكان اشراف الرومان ، وقد صدئت سيوفهم في اغمادها » اخذوا « يعيشون عيشة مترفة مخلدين الى الدعة متهالكين على اللذة »

زحفت قبائل البربر على اسبانيا ، فوجدت الطريق سهلاً معبداً ، فكانت هذه القبائل تسرف في السلب والنهب والتخريب ، فيئس الشعب من الخير والاصلاح ، لا يبالي أحكمهُ الرومان ام ساس اموره البرابرة . ثم توالت نكبات الحاكمين والمجتاحين ، واستحكمت العداوة

بين المغيرين الغاصبين ، فأودت بهم النكايات الى اقتراف الخيانة العظمى بالذهاب الى موسى ابن نصير حاكم افريقيا العربي ، يزين له الاندلس ، يغريه بخيراتها ، ويحفزه على غزوها والاستيلاء عليها

تفيأ الاسبان ظل حكومة عربية أبرّ بهم من سائر الحكومات السابقة ، وكان اكثر الحكام ينتسبون الى احدى الشعبتين الكبيرتين من العرب وهما قيس من اليمنية والمضرية ، وكانت سيوف هؤلاء العرب لا تغمد مرة الاّ لتستل مرات من اقربائها لتروي من دماء العرب انفسهم « ولو ساد التفاهم وتم الوفاق بين القيسية واليمنية ، لامكن اسبانيا ان تحظى بأيام مليئة بالصفاء بعد تلك الخلافات المتأججة والمعارك الحامية »

ظهر عبد الرحمن ، الدمشقي المولد وأمه بربرية في الوقت الذي تمت فيه كلمة العباسيين وأخذوا يتقبون أثر بني امية ويعملون فيهم القتل والتمثيل

فرّ عبد الرحمن الى افريقيا حيث نفوذ العباسيين هناك قليل الامتداد ، وهنا تبدأ رواية مسلسلة ، تامة الوحدة ، منسجمة الحبك ، سلسة السياق ، انضدها فكر الاستاذ علي أدهم واستخلصها من وعورة التاريخ وجفاف روحه ، فمهدها ، فصيّرها لينة المسالك ، مقبولة المحضر ، لا تستكره العين مرأى الدماء المستباحة ، ولا تشفق على شعب عربي فتح الامصار ، ودوّخ الجيوش ، ونشر الدين الاسلامي ، وانتهى نهايتهُ المعروفة « لانهُ لم يكن شعباً قد تمّ امتزاجه ، وكملت وحدته ، وتلاقت اهواءه » وان القارىء قد ينتحل الاعذار المسوّغة لظلم عبد الرحمن الداخل وقسوته « للفارق الكبير بين مزاج البربري النزاع الى عمق العاطفة الدينية ، يأخذ الدين مأخذ الجدّ الصارم ، ويوغل فيه بغير رفق ، وهو شديد الاعتقاد ، كثير التصديق لما وراء الطبيعة ، وبين مزاج العربي الذي لا يطيق الاسراف في الدين ، ولا يأخذه مأخذ الجدّ الشديد العبوس »

أجل ، لقد توفق الاستاذ علي ادهم بما له من مقدرة على تسليط اضواء عقله على كل حادث صعب او سهل ، والنظر اليه نظرة مجردة ، والموازنة بين المسائل المتخذة والنتائج المرتقبة ، واللبانات والاغراض المرتبطة بالفكرة ، المتناثرة من الغاية الكبرى ، أقول قد توفق الى إطفاء حدة النزعة البشرية فينا التي ترى الواقع وتحس أثره في النفس وقلما تأبه الى البواعث والذرائع وتحقيق الغرض ، وجعلنا نقتنع ، بمقتضيات الحرص على النجاح ، وقهر الخصوم والاعداء ، انها هي التي جعلت صقر قريش لا يتعفف عن الغدر والخيانة ، ولا يتورع عن الدسيسة ، ولا يحجم عن الشدة المتناهية ، وهذا — في زعمي — من احسن ما بلغ اليه عقل عصري مستنير في المعرفة ، والتوضيح ، والتبسيط والاقناع . واليك نبذة من ذلك قال : —

« جاء عبد الرحمن الاندلسي طريداً قد شرّده الخوف ، واتعبتهُ المطاردة ، فلم يجد أمة موحدة القصد ، متحدة التقاليد متقاربة الاخلاق ، بل وجد على نقيض ذلك اخلاطاً من الامم ، وانماطاً متباينة من الناس ، فقد كانت اسبانيا عند دخوله خليطاً غريباً من بقايا الرومان والاسبان القدماء والقوط والنورمنديين والعرب والبربر ، لا جامعة قومية تربطهم ، ولا مصلحة مشتركة تعين على إدماجهم ، ولا عقلية متشابهة تسيطر عليهم وتسيرهم ، فكان جل ما يرمي اليهِ ويعمل على تحقيقهِ هو ان يخلق منهم امة واحدة »

***

لم يكتفِ الاستاذ علي أدهم بتطهير حوادث التاريخ من روائح الدماء وتزويق صور الوحشية الآدمية فيها وتحويلها الى قصة سلسة ، تعلو فيها الجوانب الاصلاحية والاجتماعية على جوانب المجد الذاتي والانانية الفردية ، بل استخلص صوراً فنية من جوانب حياة عبد الرحمن الفنان » الجلاد الرهيب ، والسفاح المبيح ، المستطار الوجدان ، والمستفز العاطفة » وفرق بين طراز رجل العمل وطراز الشاعر — وكان عبد الرحمن اديباً شاعراً وخطيباً ومحدثاً — فقال مقالة جيتي شاعر الالمان الذي صوّر الاول رجلاً ماثل الاغراض ، محدود القصد ، متزن الملكات . وصوّر الثاني رجلاً عاجز الارادة ، تلعب به اهواؤه ، وتستعبده عواطفه ، فهو يسير بالحياة على غير هدى ، ليصل بعد استعراض سجاياه وخلائقه انهُ كان رجل عمل دنيوي كقومه الذين كانوا في الجاهلية أصحاب تجارة ، وفي الاسلام انتزعوا الملك بالحيلة والدهاء والعصبية المتماسكة ، وعالجوا صناعة الحكم ، ليقول بلباقة الاديب الحريص على ألاَّ يمس تفنن الاديب وتحيزنه ، إذا توفر الروح الادبي في الرجل الطموح ، فان الادب ، وسعة الخيال ، تدفعان بهِ الى ركوب كل مركب تحقيقاً للغاية المجهولة التي تتناثر عنها « الفكرة » لتستقرَّ في ضمير البطل العظيم فيحققها على أتم وجه وأكمل معرفة

والآن وقد تيسر لي بعض ما أود قوله في هذا الكتاب الذي أحسن صديقي الفاضل رئيس تحرير المقتطف جعله احدى هديتيهِ السنويتين الى قراء مجلتهِ ان أدعو القراء الى الحرص على اقتناء هذه المتعة العلمية والتاريخية والفنية والافادة منها لانها زاخرة بالبحوث الناضجة ، والدراسات المختمرة ، وهي مثال لمن تحدثهم نفسهم في كتابة التراجم والنقد ، واستحثهم بنوع خاص على قراءة فصول فيهِ عنوانها « معيار البطولة ، والايام الاخيرة ، وعبد الرحمن الفنان ، وتقويم وتقدير » لان كل فصل على حدته خليق بأن يكون كتاباً بل فنية يستمد منها المتأدب والاديب

القاهرة — حبيب الزحلاوي

أفاعي الفردوس

ديوان شعر لالياس أبي شبكة — ٩٢ صفحة من قطع المقتطف تقريباً — نشرته دار المكشوف طبع مطبعة الاتحاد في بيروت

كان للحرب العظمى أثرها في الافراد كما كان لها أثرها في الأمم، ولقد هزّت عروش الاخلاق كما هزّت عروش الملوك، فزعزت في النفوس عقائدها، وأطلقت الرغائب من عقالها، وأصابت المُثُل العليا في صميمها. فخرج الناس على كل مألوف، وطغت عليهم موجات الاستهتار فاندفعوا يقوّضون ما في طرائقهم ويحطمون ويغيرون ويبدّلون لا ترهبهم قوة ولا يصدهم خوف

وكما ان الحياة الاجتماعية قد تأثرت بهذه الثورات فقد تأثرت بها آداب الأمم الغربية كل التأثير فنشأ جيلٌ ثائر الذهن حادٌّ الاعصاب صريحٌ كل الصراحة ساخطٌ قلقٌ متشائمٌ حرٌّ النزعة والفكر لا يقف عند حدٍّ ولا يتهيب صعباً ولا يبالي بشيء

ولقد سرى تيار هذه الثورات من الغرب الى الشرق فكان تأثيره أشد وقعاً حيث أصاب الناس في روحانياتهم وجرف في طريقهِ كل ما قدّسوا وما حرصوا في المحافظة عليهِ، فتغيرت الاذهان وتبدلت أساليب الكتابة وتنوعت موضوعاتها، وقامت الصراحة في النفوس مقام النفاق فانطلقت القرائح غير هيابة تطرق ما لم يكن لها أن تطرق وتكشف في جرأة كل ناحية من نواحي الحياة

لقد حالت هذه الخواطر في ذهني وأنا أقرأ ديوان « أَفاعي الفردوس » الذي أخرجهُ للناس حمماً سائلاً شاعرٌ قويّ العاطفة مشبوبها قوي الشاعرية الى أبعد حدودها تحسّ في أحرفهِ النار تلفحك، وتشعر في جوه بالهامات صاعدة هابطة لا تنقطع زمرها. صريحٌ فيما يهاب الناس الصراحة بهِ، مصورٌ للثورة العنيفة التي تجتاح نفوس الشباب أروع تصوير ممزّق للقناع الخادع والمظهر المنافق: ذلك هو الياس أبي شبكة شاعر لبنان أو بودليره بأدق تعبير

قد تناول شعراء العربية تصوير الحياة البوهيمية في احضان الشهوات ولقد ترك لنا ابو نواس على الاخص اكبر أثر لذلك على ان هذا التصوير حسيٌّ محض يندفع من الجسد الى الجسد في انحطاط وزراية ولا يسمو الى الروح أو يشتعل بحرارتها، ولا يعبر عن الثورة في النفس بين عوامل الخير والشر، لا يعنى بالجوهر قدر ما يعنى بالعرض، ولكن « افاعي الفردوس » يعبر عن كل هذا. ففي قصيدة « القاذورة » اروع صورة للحياة المضطربة الحائرة في ظلمة رغباتها اذ يقول:

فطوّفت في غمر من الليل، والخنا يعربد والارجاس ترغي وتزبدُ
وللحإِ الغالي نشيش ورغوة كأنَّ الورى مستنقع يتنهدُ

وأغمدتُ في صلب الدجنة ناظري وفي كل جفن لي من الهدب مبردُ
فأبصرت اطباقاً تُعمّدها يد أصابع من عظم ، وتصبغها يدُ
صباغ يفور الخزي منهُ ملاصقاً اذا علقت فيها النواظر تجمدُ
وشاهدت في الاطباق مفسدة الورى تمور بها الديدان سكرى تعربدُ
هم الناس في الدنيا تهاويل حنّطت بكيتُ عليهم في جحيمي وعيّدوا
وما هذه الدنيا ، يذرّى رمادها لريح الفنا ، الاّ جحيم مرمّدُ
تلاشت بها النيران غير بقية تشبُّ ، لها في شهوة الطين موقدُ
ففي طبق مستنقع في صقيعه نمت حشراتٌ فاجرات توقّدُ
نسالا أقلت في الصدور مراضعاً على فمها الورديّ للاثم موردُ
مراضعها فطساء فهي ضفادع على ما بها من شهوة النار تجلد !

وان قصيدته « سدوم » لمن أروع ما كسب الشعر العربي . وفيها تصوير لظاهر الاتفاق بين الحياة المستهترة في مدنية العصر والحياة المستهترة يوم صب الله على سدوم نار غضبه فأطلقها لهباً وسعيراً . وفيها يهتف ساخراً :

مغناكِ ملتهبٌ وكأسك مترعهْ فاسقي أباك الخمر واضطجعي معه
لم تبق في شفتيك لذات الدما ما تذكرين بهِ حليب المرضعه
قومي ادخلي، يابنت لوط، على الخنا وازني فان أباك مهّد مضجعه
ان ترجعي دمك الشهيّ لنبعه كجدول في الارض راجع منبعه
لا تعبأي بعقاب ربك انهُ جرثومة من نارك المتدفعه
في صدرك المحموم كبريت اذا لعبت بهِ الشهوات فجر أضلعه
في صدرك الدامي مناجم للخنا أورثها نار الذراري المزمعه .

الى ان يقول : —

أسدوم هذا العصر لن تحجبي فبوجه أمك ما برحت مقنعه
كانت منكرة كوجهك عندما هبّت عليها من جهنم زوبعه
قذفتك صحراء الزنى بحضارة ثكلى مشوّهة الوجوه مفجّعه
بوّر مستّرة الفساد بخدعة نكراء بالخزّ الشهيّ مرقّعه

ثم استمع الى التصوير الدقيق للثورة الجامحة أو التطاحن بين الروح والجسم وقد بلغ الشاعر في تصويره هذا الى ابعد حدود الدقة والتعبير تطاوعه الفاظ مصهورة في اتون هذه العاطفة المشبوبة :

اسليلة الفحشاء نارك في دمي فتضرّمي ما شئت ان تتضرمي

أنا لست أخشى من جهنم جذوة ما دام جسمي، يا سدوم، جهنمي
طوّفتِ بي ميتاً بأروقة اللظى فحملتُ تابوتي وسرت بمأتمي
وعصبتِ بالشبق المجمّر جبهتي ورفعتها في عصريَ المتهكم
علمتني لغـــة النبوءة عندما فجرت الغام السموم بمنجمي

وكذلك في قصيدته « الشهوة الحمراء » صورة لهذا النضال وان كانت هادئة النفس محطمة الآمال يائسة يهتف فيها بحسرة ومرارة

لقد تعبتُ من الاحلام في جسدٍ ملّ العفاف بألوان من الألم

أما قصيدتهُ « شمشون » فمن خالدات قصائده ، وفيها يصوّر لنا ثورة شمشون وهو يهتف بدليلة عند ما امسك بأعمدة الهيكل ليقوضهُ :

وارقصي انما البراكين تغلي تحت رجليك كالجحيم النذيرِ
اصبح الليث في يديك اسيراً فاطرحيه سخرية للحمير
واجعلي الغل رمز كل صريع واليواقيت رمز كل غدور
ان اكن سقت في غرامك شرّاً فالبرايا مطيـــة للشرور

اما قصيدة «الصلاة الحمراء» فهي اغنية القلوب التي اثخنتها الجراح وحطمتها الايام بعد ان عصرتها الليالي ، او هي انشودة الروح اذا خلصت من احضان المادة

وكذلك في قصيدة «الدينونة» و «الطرح» تحس التسامي وتحس الوصول الى التحرر كما تحس المرارة التي تلازم الروح بعد حلاوة النشوات الاولى وبعد ان تبلوَ الحياة

ان ديوان « افاعي الفردوس » لجدير بالحياة لانه صوت للحياة لا رياء فيها ولا تزويق ، ولا خداع فيها ولا تهويل . وهل هناك ما هو اصدق من هذا البيت لشاعرنا ابي شبكة في تصوير العالم الدنيوي ، وهو :

طريقه الشك — اني سار — يملكه وحلمه الشهوات الحمر والقرب !

حسن كامل الصيرفي

عصفور من الشرق

حين كتب الاستاذ توفيق الحكيم «عودة الروح» و «اهل الكهف» و«شهرزاد» اطمأن محبو الادب الى ما كتب راجين ان يكون همزة الوصل بين ادب الغرب وأدب العرب . وقد عرض في كتابه الاخير «عصفور من الشرق» لمشكلة «الشرق والغرب» . وأنت لن تعدم في الكتّاب الغربيين انفسهم من قام على نقد النظم الاجتماعية والاقتصادية التي يقوم عليها المجتمع الاوربي الحديث نقداً قويّاً لاذعاً يمهد لقيام الثورات احياناً . أما الاستاذ توفيق الحكيم فانه

اراد ان ينقد هذه النظم الغربية بعين « الشرقي » فصور لنا مصريًّا في عهد الشباب يعيش في قلب العاصمة الفرنسية . يغشى الكنيسة فيؤخذ بروعة الخشوع والصلاة ويعجب كيف يدخل الاوربيون الكنيسة كما يدخلون المقهى دون اعداد خاص . ويغشى المسرح فيعجب برواية «الارلزية» ، وأبهاء الموسيقى فيعجب بسنفونية « بتهوفن» الخامسة اعجاب صديقه الروسي «ايفان» بشراب « الفودكا » وتلستوى او أشد ولكنه يأخذ على الحاضرين وعلى البهو الاغراق في البذخ والاسراف في الترف اسرافاً لا يتفق مع التجرد وروحانية الفن

وقد أحبَّ « محسن » فكان في حبه على أشد ما يكون حياء الشرقي وخياله حتى اذا أُخفق في حبه أو غررت به من يحب أخذ يجتر ألمه وانقلب ساخطاً لا على نفسه وانما على الغرب ومدنيته . ولعلَّ هذا الاخفاق في الحب قد جعل من « محسن » « عدوًّا للمرأة »

وماذا يأخذه محسن على أهل الغرب ؟ ان صديقه أندريه الذي يعمل في المصنع ثماني ساعات في اليوم ويشعر انهُ عبد رق ثم هو يأكل لحم البقر ويختلف الى المقاهي والمسارح ويأكل ابنه « الجاتو » وتتكفل الدولة بتربيته ان لم تستطع أمهُ تعهده في المنزل ، لهو دون شك أسعد حظًّا في حياته من الفلاح المصري أو العامل المصري. وغريب ان يذكر « محسن » من أحوال الشرق في معرض المقابلة جلوس « سليم » الساعات الطوال ليلمح طرف ثوب حبيبته ولا يذكر شقاء الفلاح وبؤس العامل . ويستمع العصفور الى أحاديث صديقه الروسي عن أديان الشرق وأنبيائه ومذاهب الغرب وزعمائه فيخرج من ذلك كلهُ بأن الشرق قد حلَّ مشكلات المجتمع الكبرى حين جعل مملكة السماء من نصيب البؤساء في هذه الارض كأن هذا الشرق الروحاني لا ينوء بمشكلاته التي كادت تذهب بريحه . الاَّ ان الشرق لأجدر بالبكاء اذا جاز للغرب ان يرفع عقيرته بالشكوى

واذا تركنا الموضوع الى الشكل فالكتاب فصول متتالية تجمع بينها هذه الفكرة الغالبة عن روحانية الشرق ومادية الغرب، وهو ليس قصة كاملة لها عقدة تأخذ في سبيل الحل الى خاتمة حاسمة

وبعد فهذا العصفور يردد في براعة ما يسمع من العباد فأنت لا تدري أثائر هو أم قانع ومقلد ام مبتكر ومتفائل أم متشائم . ولو قدر لهذا العصفور ان يتحدث بلسان من ألسنة أهل الغرب لما كان في حديثه جديد على أهل الغرب . ولو انهُ تحدث الينا وفصل الحديث عن هذه الازمة النفسية وألوانها الدقيقة التي يحسها الشرقي المتشبع بشرقيته الروحانية اذا انغمر فجأة في الغرب وحضارته المادية ثم تتبع هذه الازمة الى نهايتها من رجوع الى احضان الشرق ، او احتماء بالتصوف ، او تشكل على غرار الغرب يختلف من حيث سرعته وبطئه او شدته وضعفه — لو انهُ فعل لجاء في حديثه بالجديد الطريف على أهل الشرق والغرب ولعل

الاحتماء بالتصوف هو السبيل الذي يضطر الى سلوكه أدباؤنا اذا خيب المجتمع او الواقع آمالهم. فلم يثبت منهم أحدٌ الى الآن لنقد المجتمع المصري ومهاجمته في كافة نواحيه الخلقية والسياسية والاجتماعية فهم سرعان ما يستولى اليأس على نفوسهم ولا يتمثلون بالابطال من كتَّاب الغرب فينعكفون في عالمهم الداخلي لا يخرجون منهُ الاَّ لماماً . وهو سلوك لا يحمد لأُدبائنا ولا سيما من كان منهم على صلة وثيقة بالحضارة الغربية ولا يتفق مع الرسالة السامية التي يؤديها الكتَّاب للوطن والمجتمع على أننا نحب ان يكون لهذا العصفور من الشرق صِنوٌ «وعصفور من الغرب»

« صقر دمث »

في الفنون الاسلامية

للدكتور زكي محمد حسن — مطبوعات اتحاد أساتذة الرسم قطع متوسط — عدد صفحاته ١٠٨ — مطبعة الاعتماد

لئن كانت الفنون الشرقية قد اسدل عليها ستار من النسيان ردحاً من الزمن الاَّ اننا نراها اليوم تعود سيرتها الاولى من النمو والانتعاش

وردت هذه العبارة في الكلمة التي كتبها رئيس اتحاد اساتذة الرسم صاحب العزة الاستاذ احمد شفيق زاهر بك تصديراً لكتاب «في الفنون الاسلامية» للدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية الذي صدر في صيف هذا العام . فعلى عاتق من يا ترى تعود اليوم الفنون الاسلامية الى سيرتها السابقة الاولى كما كانت في عصور الامويين والعباسيين والفاطميين والسلاطين والماليك

لا شكَّ في ان الفنون الاسلامية بعثت في خلال القرن الماضي على عاتق رجال الفن والاستشراق الالمان والفرنسيين والانجليز . وهي تهب اليوم من مرقدها على عاتق علمائنا الناهبين الذين تذوقوا الفنون الاسلامية وأخذوا في دراستها والبحث عن جمالها الغامض والتنقيب في آثارها . ونحن نرى في طليعة الركب بين هؤلاء العلماء العاملين والمتحمسين لخلق ثقافة للفن الاسلامي في مصر — الدكتور زكي محمد حسن أستاذ الفنون الاسلامية في معهد الآثار الاسلامية بالجامعة المصرية والذي يعرف آثاره العلمية قراء المقتطف والمتصلون بالحركة العلمية في مصر

والحق ان دار الآثار العربية أصبحت على رأس المتاحف التي تقوم برسالتها العلمية خير قيام بفضل عملها على نشر الثقافة الفنية بما تصدره من مؤلفات علمية جعلتها محط رحال المشتغلين بالآثار الاسلامية في الشرق والغرب . ومن حسن الحظ اننا نقرأ بين كل حين وآخر عن كتاب في الآثار والفنون الاسلامية يخرجهُ الدكتور زكي أو محاضرة في الموضوع نفسه يلقيها الدكتور زكي او مقال ينشره هو أو بعض زملائه المتحمسين القليلين . . . .

والكتاب الذي نحن بصدده اليوم صورة لما يجب ان يعرفهُ كل متذوق للفن الاسلامي عن نشأته وتطوره . ففيه يتحدث المؤلف عن نشوء الفن الاسلامي وانتشاره وأساليبه المختلفة في البلدان التي عم الاسلام فيها : — من طراز اموي الى طراز عباسي الى طراز اسباني مغربي الى طراز مصري سوري فطراز فارسي فتركي فهندي ....

وبعد ان تكلم المؤلف عن ميزات كل طراز انتقل الى وصف عناصر الزخرفة الاسلامية واهمها الصور الآدمية والحيوانية والرسوم الهندسية والزخارف النباتية والزخارف الخطية

وذكر المؤلف بعض خواص الفنون الاسلامية كما درسها على ضوء المخلّفات الفنية في المتاحف او الحفريات فذكر من هذه الخواص كراهية الفنان المسلم للفراغ وحبه للزخارف المسطحة وتكرار الموضوعات الفنية . . . الخ. ويشتمل الكتاب على ثلاثة وخمسين لوحة تمثل الفنون الاسلامية في العصور المختلفة كالخزف والنجارة والنسيج المطارز والتجليد والزجاج والقاشاني . . . الخ

وقد طبع هذا السفر النفيس طبعاً متقناً على ورق مصقول مما زاد في رونق الكتاب وبهائه فلا يفوتنا ان نقدم الى اتحاد اساتذة الرسم — وعلى رأسه الاستاذ الجليل احمد شفيق زاهر بك — وافر الشكر على عنايتهِ بالعمل على تشجيع الدراسات الفنية وان نتمنى ان يكون التوفيق حليفه وان تكلل جهوده بالنجاح فيكون هذا الكتاب فاتحة سلسلة طيبة في الفنون

« عبد الرحمن »

ابن سينا الفيلسوف

تأليف الاب بولس سعد — طبع بمطبعة الاتحاد على السور بيروت ١٩٣٧ في ١٣٦ صفحة قطع متوسط

نشر هذه الرسالة الاب المحترم بولس سعد عن « ابن سينا الفيلسوف » وابتدأ الكتابة بحديث عن بيئة ابن سينا وما للبيئة من اثر في تكوين الفرد الى ان قال « ولقد اقر علماء البيولوجية على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ان للبيئة في حياة ابناء آدم اثراً بالغاً ... » وفي هذا الفصل ذكر تنافس الفرس والعرب والاتراك وما لهذا التنافس من أثر في حياة ابن سينا . وفي الفصول التالية ذكر نبذة مفيدة عن حياة ابن سينا من الوجهة العامة والخاصة . ثم ابن سينا العالم ومباحثهُ في المنطق — طبيعيات — النفس — العلة والمعلول — ونبذة عن الوجود الالهي وآراء هذا الفيلسوف العظيم او ارسطو « الاسلام » كما سماه المؤلف الفاضل، في خالق الكون وآرائه عن حدوث الكون وكيف ثبت والعناية الالهية وفي الفصل الاخير اورد نبذة عن سياسة ابن سينا بين السياسيين

لقد تصفحت هذه الرسالة النفيسة فوجدتها سفراً مفيداً كاملاً عن حياة وآراء الفيلسوف الايراني الاكبر في مختلف المباحث الفلسفية والطبيعية والالهية ونحن نشير على قرائنا الافاضل الذين

لم تسمح أوقاتهم بمطالعة ما كتب عن ابن سينا في مختلف الكتب ان يغتنموا هذه الفرصة السعيدة لمطالعة هذه الرسالة التي تبحث أطوار حياة ابن سينا وما أسداه من خدمات للعلم والفلسفة

« زادة »

علم النفس في الحياة

تأليف ماندر ترجمة نظمي خليل ١٤٠ صفحة — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر أخيراً كتاب علم النفس في الحياة الذي نقلهُ الى العربية الاستاذ نظمي خليل وقدم لهُ الدكتور عبد العزيز القوصي فقال :

« كان علم النفس قبل الخمسين السنة الاخيرة فرعاً من فروع الفلسفة ، يتخير الباحث فيه المكان الهادىء فيسند رأسه الى يده ، ويطلق العنان الى فكره يحاول ان يهتدي الى موضع العقل أو يقف على خواصه وصلته بالروح وعلاقته بالجسد ، او بجزء منهُ وهو المخ . وهكذا يترك الباحث عقله يضلّ في شعاب التفكير على غير طائل ، فيدور في دائرة صغيرة مقفلة لا يعرف اولها من آخرها ، وقد يصل الى أشياء يخيل اليه انها صحيحة فيأخذ بها ويطمئن اليها ، حتى اذا ما جاء باحث آخر وسلك بعقله طريقاً مغايراً للطريق الاول ، وصل الى أشياء مخالفة للاولى كل المخالفة

« ظلّ الامر على هذه الحال حتى قرب نهاية القرن الماضي فتغيرت نظرة العلماء الى علم النفس وتبع هذا تغيير كبير في طريقة البحث والاستقصاء . فبعد ان كانوا يبحثون في خواص العقل والنفس بدأوا يبحثون في مظاهر سلوك الانسان في الحياة

« ولقد ظهرت كتب عدة تعالج هذه الناحية التطبيقية الهامة في حياة الانسان من بينها هذا الكتاب الذي شمل على صغر حجمه ميادين واسعة من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، وعالج هذه المشاكل البارزة التي تكتنف حياة جميع الافراد — رجالاً كانوا او نساء — بلغة تجمع بين القوة والجمال ، وطريقة تجمع بين الاسلوب العلمي الهادىء وبين العرض الادبي الاخاذ

« يبدأ الكتاب بالتحدث عن الاسس الاولية التي تتكوّن منها الشخصية ثم طريقة هذا التكوين ، ثم يعرض الى وسائل تنمية العادات الطيبة واستئصال العادات الضارة ، ويتخلل هذا الكثير من التفسيرات الصحيحة لغرائب السلوك عند الكبار والصغار ، فهو يفسر لنا سلوك من نقابل من إخوتنا واطفالنا وأصدقائنا وتلاميذنا وأزواجنا ورؤسائنا ومرءوسينا ، كما يفسر الكثير من سلوكنا الخاص وما يدخل في هذا السلوك من القوى والدوافع ، شعورية كانت او لا شعورية ، فطرية او مكتسبة . ولا ريب ان هذا النوع من المعرفة يجعلنا اقدر على التعامل مع غيرنا ، ويجعل حياتنا اكثر احتمالاً ، وسعادتنا أقرب منالاً

وخلاصة القول ان هذا الكتاب الصغير يفيد كل قارىء رجلاً كان او امرأة ، مهما اختلفت درجة ثقافته . فنقدمهُ الى القراء ، راجين منهُ النفع ، وراجين من مثله العدد الكبير »

مؤتمر المستشرقين

العشرون

أهم ما تلي فيهِ من المحاضرات

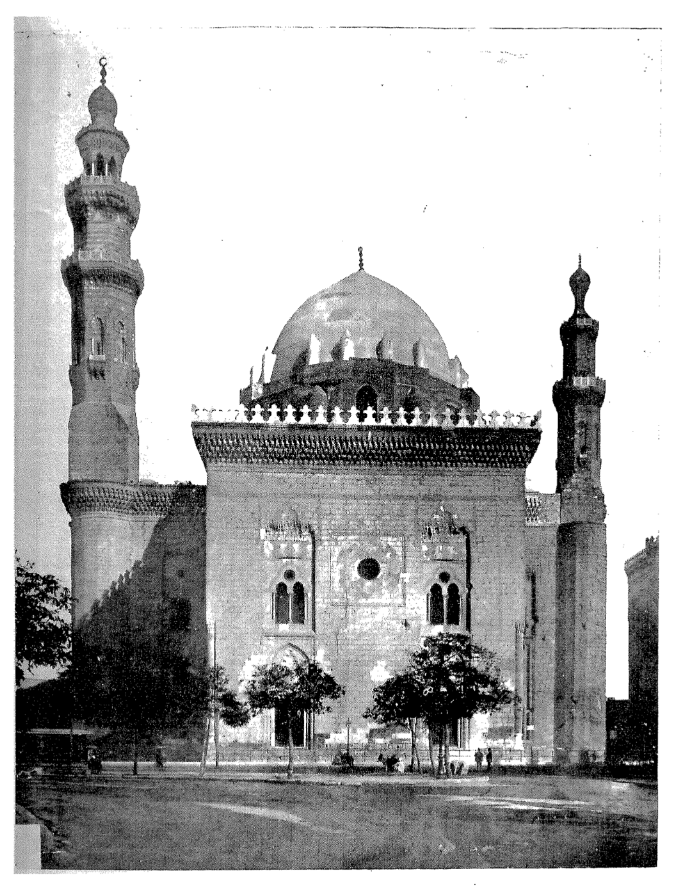
[تابع المنشور على الصفحة ٤٨٤]

« كتاب الامتاع والمؤآنسة » للاستاذ احمد امين (من مصر) . (وصف المحاضر هذا الكتاب وهو مخطوط مخزون في الخزانة الزكية لاحمد زكي باشا وذكر السبب الذي من أجله ألفه ابو حيان التوحيدي وقال ان لجنة النشر والتأليف والترجمة ستخرج الجزء الاول منه بعد اشهر معدودات) — « ثلاث مخطوطات » للاستاذ عزام (من مصر) . وصف المحاضر هذه المخطوطات الثلاث وهي في التاريخ والادب والشعر وترجع الى عهد المماليك) — « تعاون الشرقيين والمستشرقين على دراسة الادب العربي » للاستاذ شاده من (المانيا) . (ذكر المحاضر الشرقيين الذين عضدوا علماء الاستشراق في مباحثهم سواء بالتدريس او تأليف المعاجم وكتب قواعد اللغة أو نشر المؤلفات القديمة أو تدوين فهارس خزانات الكتب) . « مجرى الادب العربي في مصر لسنة ١٩٣٨ » للدكتور بشر فارس (من مصر) — (بسط المحاضر من باب التوطئة للمحاضرة الطريقة التي يجري عليها في نقد التآليف الادبية فقال انهُ ينظر الى هذه التآليف من الجانب الاجتماعي ليلمس مقدار الازمة المعنوية والثقافية والاخلاقية التي يعانيها الآن الشرق العربي وفي طليعتهِ مصر . ثم نقد على هذا الاسلوب ستة كتب ظهرت هذه السنة في مصر وهي « في منزل الوحي » و « على هامش السيرة » و « سارة » و « في الطريق » و « سندباد عصري » و « عصفور من الشرق » — « دراسة تآليف الكندي الصميمة ونشرها » للاستاذ جويدي (من ايطاليا) (أخبر المحاضر ان طائفة من تآليف الكندي تنشر الآن في مجلة علمية في روما مع دراسة وافية لها)

القسم التاسع — « بعض الديارات المصرية بحسب مخطوط الشابُشتي : كتاب الديارات » للاستاذ عطية (من المانيا) — « المظاهر الاولى للحماية الدولية للاقليات الدينية » للاستاذ سِفريادس (من أثينا) — « النصوص الجديدة للأدب القبطي الفيومي » للاب سيمون (من ايطاليا) — « حول التاريخ الأقدم للخط القبطي » للاستاذ جودمان (من المانيا)

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الثالث والتسعين



جامع السلطان حسن : راجع مقال الاستاذ جاستون فييت مدير دار الآثار العربية في وصف
هذا الجامع من النواحي التاريخية والمعمارية والروحية صفحة ٥٢٥ من هذا العدد

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الثالث والتسعين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٨ — ٩ شوال سنة ١٣٥٧

حصاد الصيف

في حقول العلم

١ – أتوار النبات

لحياة النبات صلة وثيقة بحياة الحيوان . بل ان حياة الحيوان بوجهٍ عام تعتمد في آخر الامر على عالم النبات . فنمو النبات موضوع عني بهِ الانسان عناية متغلغلة في الماضي . وقد كانت مباحثهُ تنصرف في الغالب الى دراسة العوامل الخارجية التي تؤثر في النمو كالضوء والحرارة والسماد . فوجد الباحثون لكل نبات درسوه حالة معينة هي مزيج من هذه العوامل تتيح لذلك النبات أقصى النموّ . ولكن اذا أحطنا نباتاً بالعوامل الخارجية المتباينة التي تتيح لهُ أقصى النموّ وجدنا مع ذلك عوامل داخلية تؤثر في ذلك النموّ ، فلا نستطيع ان نسيطر على نمو النبات إلاَّ اذا عرفنا هذه العوامل وكيف تؤثر فيهِ

وقد تقدم هذا البحث تقدماً يذكر في السنوات العشر الاخيرة . فكشف العلماء ان في تركيب النبات مواد كيمياوية تضبط نموَّهُ على نحو ما تؤثر مفرزات الغدد الصم كالنخمية والدرقية والكظرية وغيرها في ضبط نموّ الانسان . والى القارىء جانباً من الاسلوب العلمي التجريبي الذي جرى عليهِ العلماء في دراسة هذه الناحية من نمو النبات . وجلُّ هذه التجارب قام بهِ جماعة من علماء الفسيولوجيا النباتية في معهد كاليفورنيا التكنولوجي

ولعلَّ خير ما نبدأ بهِ البحث في هذا الموضوع هو التدقيق في تمييز كلمة هرمون hormone (تَـوْر) عن كلمة فيتامين vitamin

فمن نحو ستين سنة قام عالم يدعى ساكس Julius Sacks وهو المعروف بلقب (أبي فسيولوجيا النبات) فذهب الى ان تأثير جزءٍ من نبات ما في أجزاءٍ أخرى من ذلك النبات وتنسيق أعمال الاجزاء المختلفة يجب ان يسند الى مواد كيمياوية معينة في النبات نفسهِ . وكان الاساس الذي استند اليهِ في مذهبهِ هذا أساساً نظريًّـا . ومما قاله ان مقادير هذه المواد في النبات صغيرة جدًّا ولـكنها مركزة . وميَّـز بين هذه المواد والمواد الاخرى التي تعتبر غذاءً ومقاديرها في أجسام النباتات كبيرة

وبعد ما انقضى نحو ربع قرنٍ على قول ساكس هذا ثبت لبعض علماء الفسيولوجيا ان هناك مواد كيمياوية معينة تقوم بمهمة الرسل بين اعضاء الجسم فتنسق اعمالها وأطلق عليها العالم ستار لنغ سنة ١٩٠٤ لفظ هرمون وقدوضع لهُ الدكتور محمد شرف لفظ (تـور) ومعناه الرسول بين القوم وانما يسهل تخصيصهُ للمعنى العلمي لندرة استعمالهِ بمعنى الرسول في الـكلام العربي او الـكتابة

فالتوْر اذاً مادة تولد في ناحية من الجسم وتنتقل الى نواحٍ أخرى من الجسم في مقادير يسيرة جدًّا فتحدث تأثيراً فسيولجيًّـا معيناً

اما الفيتامينات، فهي مواد كيمياوية معينة يحتاج اليها جسم الحيوان ولـكنه يعجز عن تركيبها(١) الاَّ ان الحيوانات تستطيع الحصول عليها من النباتات لان في وسعها ان تصنعها نتيجة لفعل التركيب الضوئي Photosynthesis . والفيتامين كالتوْر يحتاج اليهِ الجسم لانهُ يحدث فيهِ افعالاً فسيولوجية معينة . أما التور فتولده اعضاء الجسم . وأما الفيتامين فيجيئه من الخارج عن طريق الطعام الذي يحتوي عليه

والتمييز بين التور والفيتامين ليس حاسماً . فمادة معينة قد تكون توراً لجسم ما وفيتاميناً لآخر . فالحامض الاسوربيك (فيتامين C) لا يتولد في اجسام الحيوانات العليا ولا بد لها في سبيل الحصول عليهِ من تناوله من الخارج . الاَّ ان الجرذ يستطيع أن يركب هذا الحامض في كبده فهو اذاً من اتوار جسم الجرذ حالة انهُ فيتامين بالقياس الى الحيوانات العليا

ولا يخفى ان من مظاهر النمو في النبات ، كانتاش البزرة واستطالة الفرخ وتفتح الزهرة ما سببه كبر حجم الخلايا النباتية . وكبر حجم الخلايا يتأثر بعوامل داخلية متعددة في مقدمتها مادة كيمياوية معينة ، هي في الحقيقة تور يدعى اوكسين Auxin . فلننظر الآن في بعض التجارب

(١) راجع مقال الدكتور جيمز بونر Bonner في المجلة الشهرية العلمية عدد نوفمبر ١٩٣٨ صفحة ٤٣٩ في آخرها وعليه الاعتماد في هذا التلخيص

التي اجريت لاثبات فعل هذه المادة وانهُ شبيه بفعل « التـوتر » في جسم الانسان

عندما ينمو فرخ الزمير (او الشوفان Oats) يحيط بكل ورقة من أوراقهِ غمد مفرغ يدعى Coleoptile . هذا الغمد يستطيل من ملمترٍ واحدٍ او ملمترين الى اربعة ملمترات ولا يحـدث انشطار الخلايا خلال مدة الاستطالة الاَّ قليلاً . فجُلُّ نموّ الغمد هو استطالةٌ في خلاياه

***

فدراسة العوامل التي تؤثر في نمو الغمد واستطالة خلاياهُ تصلح ان تكون مجالاً لتجريب التجارب بغية الوقوف على تأثير الاوكسين فيهما . وغمد ورق الزمّير لا ينمو من طرفهِ ولا من قاعدته بل من الوسط اذ تستطيل المنطقة المتوسطة بين الطرف والقاعدة . فاذا ازيل طرف الغمد اي اذا قطع رأسهُ نقص معدل النمو في المنطقة المتوسطة نقصاً كبيراً . ولـكن اذا اعيد الطرف المقطوع بعيد قطعهِ ووضع على الغمد الذي قطع رأسهُ ظهر ان النقص في معدل النمو لا يكون بيناً . واذن فرأس الغمد يؤثر في معدل نمو المنطقة المتوسطة ، وهذا التأثير يمكن نقله ولو قطع الرأس وأعيد وضعهُ على المقطع . بل اذا وضع غشاءٌ رقيق من الهلام (الجلاتين) بين الرأس المقطوع ومقطع الغمد استطاع الرأس ان يحدث التأثير نفسهُ . واذا اخذ الرأس المقطوع ووضع على جانب الغمد احدث تأثيره المعروف ولـكن التأثير يقتصر على الناحية التي وضع عليها ، فيزداد نمو هذه الناحية ويفوق نمو الناحية الاخرى ، وكذلك ينحني الغمد

ولـكن كيف نعلم ان تأثير الرأس في نمو المنطقة المتوسطة يرجع الى مادة كيماوية هي من قبيل الاتوارالتي تفرزها الغدد الصم في الجسم . هذه الناحية من البحث تعهدها الاستاذ ونت Went بتجربة اصبحت مثالاً يحتذى في مثل هذه البحوث

***

ازال الاستاذ ونت رأس الغمد اي قطعهُ ثم وضعهُ على طبقة من الاجار agar وهي المادة التي تستعمل في المعامل البكتيريولوجية لاستنبات الجراثيم . ثم رفع الرأس المقطوع عن الاجار ونبذه ثم وضع طبقة الاجار على مقطع الغمد فأحدثت أعراض النمو في منتصف الغمد . أي ان العامل الباعث على النمو في رأس الغمد انتقل الى الاجار ومنهُ الى منتصف جسم الخلية النباتية . واذن يصح القول بأن أعراض النمو هذه سببها مادة كيماوية

أما الطريقة الـكمية quantitative لتعيين « عامل النمو » فتقوم على أخذ مكعب من الاجار الذي تطرقت اليهِ المادة الـكيمياوية وإلصاقهِ بجانب الغمد عند منتصفهِ فينمو من هذه الناحية أكثر مما ينمو من الناحية المقابلة فينحني فيقـاس انحناؤه ويتخذ انحناؤه مقياساً لمقدار ما في

المكعب من عامل النمو . فاذا طبق هذا الاسلوب تطبيقاً دقيقاً كان في الوسع قياس تركز مادة النمو هذه في الاجار قياساً لا يحتمل من الخطاء أكثر من ٥ في المائة

والعلماء الباحثون يعلمون الآن ان مقدار هذه المادة في رأس الغمد صغيرة جداً . فاذا قضى عشرون رجلاً ١٢٥ سنة ولا همَّ لهم الاَّ قطع رؤوس الاغماد من ورق أفراخ الزمير لكي يستخلص منها « عامل النمو » هذا لما كفى ما يقطعون الاَّ لاستخلاص ما وزنهُ غرام واحد

الاّ ان الباعث على الاستغراب ان بول البشر يحتوي على مقادير غير يسيرة من هذه المادة وقد بدأ باحثان من علماء الكيمياء العضوية بهولندة اسمهما فرتز كوجل Kögl وهاجن سمت Haagen-Smitt يبذلان ما في طاقتهما من الحيلة العلمية لاستفرادها من البول . وكانا يطبقان طريقة المكعب « الاجاري » في امتحان المادة التي يستخلصانها في كل مرحلة من مراحل البحث وبعد ان ركزا المادة البولية التي شرعا في بحثها مائة الف مرة تمكنا من الحصول على مادة مبلورة اذا وضع منها مقدار يسير جداً (٢ × ١٠ —^{١١} من الغرام) في مكعب اجاري ووضع هذا المكعب ملامساً لمنتصف الغمد (في فرخ الزمير) انحنى الغمد مقدار عشر درجات . وقد استخلص هذا الباحثان مقداراً لا يكاد يبلغ وزنه غراماً ولكنهُ مع ذلك كان كافياً للبحث الكيمياوي فيه بغية معرفة تركيبه الكيمياوي . وقد أطلق كوجل عليه اسم أوكسين Auxin او بالحري أوكسين —(ا) لان هناك مادة أخرى تشبهه وانما يختلف تركيبها الكيمياوي عنهُ بعناصر جزيء من الماء وقد دعي اوكسين — (ب)

***

وبعد استفراد الاوكسين استفردت مادة اخرى تؤثر في نمو الخلية النباتية ضعفي تأثيره وهي تعرف باسم « الحامض إندول — اسيتيك » . الاَّ ان هذه المادة لا تتولد في النباتات العليا ولكنها تتولد بفعل البكتيريا والعفن نتيجة ثانوية لفعل التمثيل فيها . غير ان تركيبه بالتأليف الكيمياوي في المختبر الكيمياوي مستطاع ولذلك مهَّد كشفهُ الى تجربة التجارب بعامل آخر من عوامل النمو الداخلية في النبات

وليست ناحية الاستطالة في خلايا النمو هي الناحية الوحيدة التي يسيطر عليها الاوكسين بل هو يسيطر كذلك على ناحية نموها من حيث اتجاهها الى الشمس او الجاذبية أو انحرافها عنهما Phototropy فالمعروف انهُ اذا وقع ضوء الشمس على النبات كان نموهُ حيث هو متجه الى الشمس أقل منه حيث هو منحرف عنها . وقد ثبت الآن انهُ يمكن تفسير ذلك بتوزيع الاوكسين في النبات نفسه ولذلك تجربة خاصة أشبه بالتجارب السابقة نضرب الآن صفحاً عنها

٢ — الطائرات الطخرورية[١]

رنا الانسان الى الطيور سابحة في الفضاء فطمح الى مجاراتها . فلم يستتبَّ له ذلك الاَّ في القرن العشرين . فلما استقام لهُ الطيران بأجهزة أثقل من الهواء في مستهلّ هذا القرن اتخذه أولاً وسيلة للرياضة ثم طريقاً من طرق المواصلات . ولو لم تكن الطائرات أسرع من القطارات والسفن لما تعرَّض الانسان للمغامرة في ركوب متنها . فالسرعة من أهم البواعث على العناية بالطيران . وقصب السرعة الآن يبلغ نحو ٤٤١ ميلاً في الساعة . او نحو ٦٤٦ قدماً في الثانية وهي سرعة تبلغ نصف سرعة الرصاصة المنطلقة من فوهة مسدّس . واذا القينا بجسمٍ من قمة بناية « الامبير ستيت » بنيويورك البالغ علوها ١١٠٠ قدم تقريباً كان متوسط سرعتهِ بين القمة ورصيف الشارع نصف سرعة أسرع الطائرات ، حتى اذا صرفنا النظر عن مقاومة الهواء لهُ في هبوطهِ . ولا يمكن ان تبلغ سرعة جسم هابطٍ من علٍ سرعة أسرع الطائرات الآ اذا أُلقي من قمة ارتفاعها ٦٤٠٠ قدم

إلاّ ان السرعة العملية للطائرات المستعملة الآن تبلغ نحو ١٦٠ ميلاً في الساعة للطائرات التي تحطُّ على الارض و٢٠٠ ميل في الساعة للطائرات المائية او « السفن الطيارة » . وهي سرعة لا بأس بها بالقياس الى سرعة القطارات والسفن . فهي تفوق أسرع القطارات ضعفين وأسرع السفن نحو سبعة اضعاف . ومن المرجح — في رأي سيكورسكي المشهور بهندسة الطائرات وصنعها وعنهُ نلخص من مقال نشر لهُ في مجلة جنرال اليكتريك — ان الاعتبارات العملية ستجعل سرعة الطائرات التجارية في العقد المقبل تتفاوت بين ٢٠٠ ميل و٣٠٠ ميل في الساعة

***

لا يخفى ان سرعة الطائرات زادت تسعة اضعاف في الثلاثين السنة الاخيرة وعلى هذا القياس زعم بعضهم ان سرعتها ستبلغ خلال ربع القرن المقبل الف ميل في الساعة . إلاَّ أن البحوث الحديثة قد أثبتت ان انسياب الهواء حول أجنحة الطائرات يتغير عندما تبلغ سرعة الطائرة سرعة الصوت أي ٧٦٢ ميلاً في الساعة عند مستوى سطح البحر . والتأثير الضارّ لهذا التغير في انسياب الهواء يبدأ في الظهور عند ما تبلغ سرعة الطائرة ٥٠٠ ميل في الساعة .

(١) الطبقة الطخرورية تقابل stratosphere . والطخارير في لسان العرب من السحاب قطع مستدقة رقاق واحدها طخرور وطخرورة . وهذا الوصف يقابل المراد من لفظ Cirrus في وصف الغيوم. وهو ضرب من الغيوم يكثر في المنطقة العالية من الهواء الموصوفة بلفظة « ستراتوسفير» الاعجمية ادعيناها به

فاذا جمعنا الى ذلك أنهُ اذا زادت سرعة الطائرة على ٤٠٠ ميل في الساعة زادت نسبة ما تحتاج اليهِ من الوقود وأنهُ اذا تعدّت السرعة ٥٠٠ ميل في الساعة نقصت كفاءة المحرّك ، أصبح من المحتم علينا ان نقرّر ان سرعة الطائرة العملية قد لا تتعدّى ٥٠٠ ميل في الساعة زمناً طويلاً

واذا التفتنا من اقصى سرعة الطائرات الى اعلى ما حلّق اليهِ الطيارون ظهر لنا ان قصب السبق في هذا الميدان للبلون لا للطائرة . ذلك ان ضابطين من ضباط الجيش الاميركي حلّقا ببلون الى ارتفاع ٧٢٣٩٥ وذلك في سنة ١٩٣٥ فعند ما بلغا ذلك المرتفع كان ٩٥ في المائة من كتلة الغلاف الغازي الذي يحيط بالارض تحتهما . والخمسة في المائة الباقية فوقهما وهي هواء لطيف الطف كلهُ . اما قصب السبق في التحليق بطائرة اثقل من الهواء فللضابط البريطاني آدم وهو ٥٣٣٩٧ قدماً . ولذلك اتجه نظر المهتمين بشؤون الطيران الى امكان الارتفاع بالطائرات الى ٣٠ او ٣٥ الف قدم فتطير حينئذٍ في جوّ الطف من الجوّ الذي على ارتفاع عشرة آلاف قدم فتزيد سرعتها زيادة كبيرة من غير ان يقابل ذلك زيادة مماثلة في الوقود التي تحرقهُ

وقد كانت الصعوبة من بضع سنوات في صنع طائرات تستطيع الطيران في هذا الجوّ اللطيف ولكن المهندسين والمخترعين تمكنوا من التغلّب على هذه المصاعب الفنية . وغدا الحدّ الذي تستطيع الطائرات التجارية الارتفاع اليهِ للسفر التجاري مقيداً بقدرة الركاب الصحية لا ببناء الطائرات الفني . فمعظم الطائرات الحديثة تستطيع الطيران على ارتفاع عشرين او خمسة وعشرين الف قدم ومع ذلك قلما تراها تتجاوز في تحليقها ارتفاع ١٢ الف قدم الى ١٥ الف قدم . وسبب ذلك ان ضغط الهواء على القدم المربعة عند سطح البحر يبلغ ٢١١٦ رطلاً . والرجل السليم يستطيع ان يتحمل انخفاض الضغط بغير تعب يذكر اذا بلغ الضغط ثلثي الضغط السويّ اي انهُ يستطيع الارتفاع بطائرة الى علو ١٠٥٠٠ قدم حيث يكون الضغط ثلثي الضغط على سطح البحر . ثم اذا ازداد الارتفاع وقلّ الضغط من ثلثي الضغط السوي الى نصفهِ ازدادت المصاعب التي يعرّض لها وفقاً لحالتهِ الصحية . وقلّ من الناس من يستطيع العيش حيث يكون الضغط اقل من نصف الضغط السويّ على سطح البحر . والضغط على سطح البحر ينقص الى النصف عند ما ترتفع الطائرة الى علو ١٨٠٠٠ قدم . فكل طيران يتمُّ فوق مستوى ١٨٠٠٠ قدم يقتضي بناءً خاصًّا في الطائرة يجعل الضغط داخلها اكثر مما هو في الخارج

وعلى الرغم من المصاعب الهندسية التي تعترض صنع طائرات من هذا القبيل يعتقد سيكورسكي ان صنعها أُصبح ممكناً ولكن ذلك يفضي الى زيادة وزن الطائرة ونفقات الطيران . ففي الامكان على ما يقول ان تصنع طائرة ذات حجرة محكمة الاقفال يضغط فيها الهواء باجهزة آلية بحيث

يكون الضغط داخلها مقابلاً للضغط على ارتفاع ٨٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ قدم . وهذا يعني ان الضغط خارج الحجرة يكون ٧٨٥ رطلاً على القدم المربعة اذا كان ارتفاع الطائرة ٢٥ الف قدم حالة ان الضغط داخلها لا يزيد على ١٥٧٢ رطلاً على القدم المكعبة

ولذلك يجب ان تكون هذه الحجرة متينة البناء يصح الاعتماد على متانتها لانهُ اذا اختل فيها ما افضى الى نقص الضغط داخلها كان ذلك سبباً في ازهاق ارواح بريئة لانهُ اذا ندر بين الناس من يستطيع الصبر على الضغط الخفيف على ارتفاع ٢٥ الف قدم فلن يقوى على تحمله أحد اذا كان الارتفاع ٣٥ الف قدم او فوق ذلك

أما الفوائد التي تنشأ عن الطيران في الطبقة الطخرورية من الهواء فأهمها فائدتان زيادة السرعة بغير زيادة ما ينفق من الوقود ، والطيران فوق منطقة الاضطرابات الجوية لان حالة الهواء على هذا الارتفاع مستقرة فيفضي ذلك الى راحة المسافرين والدقة في تنفيذ برامج السفر . وهاتان الفائدتان تجعلان السفر الجوي في الطبقة الطخرورية مستحبًّا والغالب ان يصبح تحقيقهُ ممكناً في المستقبل القريب

ويعتقد المخترع سيكورسكي ان حجم طائرات المستقبل لا حدَّ لهُ من الوجهة الهندسية . ولكن العوامل الاقتصادية وضرورات السفر تقتضي ان لا تكون الطائرات بالغة مبلغاً عظيماً من الضخامة . فالسفر الجوي مطلوب لانهُ سريع . والسرعة تقتضي ان يكثر قيام الطائرات في مواعيد معينة . فالخطاب الذي يرسل بالباخرة من نيويورك الى لندن قد يستغرق خمسة أيام أو ستة . فاذا كانت الطائرات ضخمة ولا تقوم من نيويورك الى لندن الاَّ مرَّة كل ثلاثة أيام — حتى يتم لها وسق كافٍ — استغرقت رحلة الخطاب بين الانتظار ومدة السفر نحو أربعة أيام فتنقص بذلك قيمة البريد الجوي ولكن اذا كانت الطائرات معتدلة الحجم وتقوم كل يوم كان في الوسع ان ينقل الخطاب من نيويورك الى لندن في يوم واحد او أقل

ثم هناك كفاءتها من الناحية الاقتصادية كناقلة للركاب ، فاذا كانت السفينة تنقل ٢٥٠٠ مسافر من نيويورك الى لندن في أسبوع ، فقد يخطر لنا انهُ لا بدَّ من ٢٥ طائرة تقل كل منها ١٠٠ مسافر لتحل محلها وتؤدي الخدمة نفسها . والواقع ان خمس طائرات تكفي لانهُ اذا كانت السفينة تقوم بسفرة واحدة بين المدينتين في أسبوع فالطائرة تستطيع ان تقوم بخمس سفرات في المدة عينها . وانما المهمُّ ان تكون أجرة السفر بحيث يكون وسقها من بريد وركاب كاملاً في كل سفرة تقوم بها والاَّ تعرضت الشركة التي تديرها للخسارة

وهذا يبين ان العوامل الاقتصادية ستكون ذات شأنٍ كبير في تعيين حجم الطائرة وسعتها قبل ان تنفذ حيلة المهندسين في تكبيرها

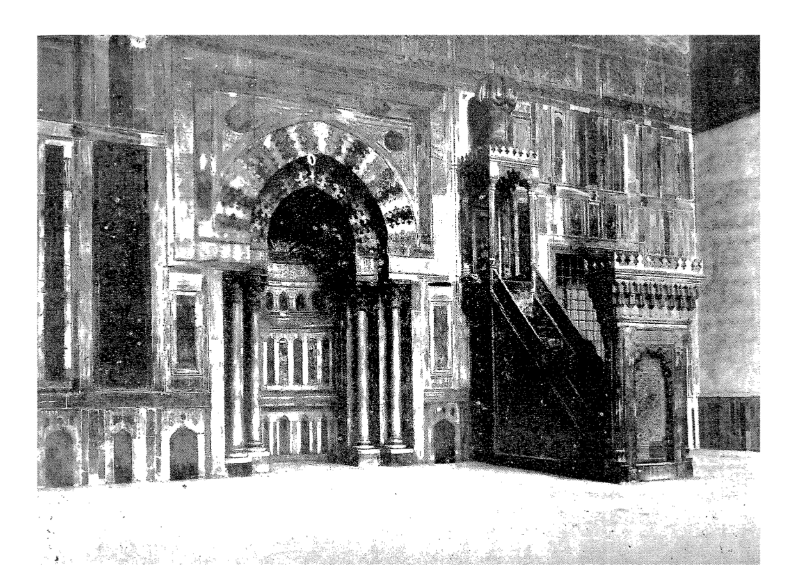
ثم هو يعتقد انهُ في الوسع صنع طائرات او سفنٍ طائرة يكون حملها ٥٠٠ طن أوحتى الف طن وتتسع لالف او أكثر من المسافرين . ولكنهُ يعتقد في الوقت نفسه ان صنع مائة طائرة يكون محمول كل منها ٢٥٠ طنًّا وتكثر مواعيد قيامها وسفرها يسدي الى السفر الجوّي خدمة أعظم من الخدمة التي تسديها بضع طائرات ضخمة وان هذه الطائرات (التي محمولها ٢٥٠ طنًّا) ستبقى عماد السفر الجوّي خلال الخمس والعشرين السنة المقبلة . والراجح عنده ان الطائرات البريدية لا تتعدّى خلال هذه المدة ٥٠ طنًّا الى مائة طن

أما السفينة الجوّية التي محمولها مائة طن فتحقيقها منتظر — في رأيهِ — في المستقبل القريب . فهو يزعم انهُ لا تنقضي سنوات حتى يصبح في الوسع اجتياز المحيط الاطلنطي في عشرين ساعة في طائرات تحتوي كل منها على خمسين حجرة كحجر السفن الفخمة وبهو لتناول الطعام يمكن ان يتحول مرقصاً في الليل وحجر خاصة بالتدخين ومكتبة اي ان السفينة الجوية المرتقبة في المستقبل القريب لا تختلف كثيراً عن يخت فاخر

وتصميم سفينة جوية من هذا الطراز يقتضي ادخال عناصر هندسية مستحدثة . فقوة الطيار العضلية لا تكفي لتحريك الاجهزة المسيطرة على حركة الطائرة ولذلك يجب ان تدار هذه الاجهزة بأساليب ميكانيكية . وبدلاً من ان تكون الاجهزة المولدة للقوة المحركة في مقدمة الطائرة لا بد في ايوائها في الاجنحة في غرف خاصة بها حيث يشرف على مراقبتها ميكانيكيون مختصون . ولا بد كذلك من اجهزة لتغذية المحرك عند الطيران في الطبقة الطخرورية وأخرى لضبط الحرارة في حجر المسافرين ولا سيما لتدفئتها عند ما تمضي الطائرة بسرعة ٢٥٠ ميلاً في الساعة في جو قد تبلغ درجة برده خمسين درجة مئوية تحت الصفر

الاّ ان هذه المسائل الهندسية اصبحت خبز مهندسي الطيران وماءهم وسيكورسكي لا يستبعد مطلقاً ان ينتظم السفر الجوي في الطبقة الطخرورية في سنة ١٩٥٠ فيغدو في مكنتك ايها القارىء الكريم ان تطير من اميركا الى اوربا في ١٥ الى ١٨ ساعة وفي اليوم التالي الى شرق آسيا او استراليا او ان تشترك مع غيرك في رحلة من نيويورك الى القطب الشمالي ، او منها الى مجاهل الامازون ، ذهاباً واياباً فتستغرق من ثلاثة ايام الى أربعة

وقد يكشف شيء جديد في خلال ذلك يحتم على مهندسي الطيران ان يغيروا كثيراً مما يتوقعونهُ . فاذا كشفت طريقة اقتصادية مأمونة الجانب مثلاً لاستعمال الايدروجين السائل وقوداً أفضى ذلك الى تغيير كبير في الطيران التجاري البعيد المدى اذ يصبح في الوسع حينئذٍ ان تطير الطائرة المدفوعة بهذا الوقود حول الارض عند خط الاستواء بغير ان تحط على الارض لتملأ أحواضها بالبنزين ! !



المنبر والمحراب في جامع السلطان حسن

أروع آثار الاسلام المعمارية (١)

جامع السلطان حسن

جلاله الفنيّ ووضعه الهندسي

للاستاذ جاستون فييت
مدير دار الآثار العربية

يعتقد غالب الناس ان عالم الآثار ليس الاَّ معجماً خاصًّا تستمد منهُ التواريخ والمقاييس وأسماء الاعلام في دقة عجيبة . ولكن ثمة بعض المبالغة من غير شك في اعتبار هذه المعلومات أهم ما في جعبة عالم الآثار ، وانما هي أدوات ضرورية لا غنى عنها ومثلها كمثل ستائر المسرح وما اليها . وقد كتب أحد رجال المجمع العلمي الفرنسي المعروفين بنقدهم اللاذع « أن السياح كالبوم لا يلازمون غير الخرائب والبلاد الميتة » . فلنشكره على انهُ لم يقصد علماء الآثار بهذا الكلام . فالواقع ان المستندات الاثرية والجزازات العلمية ليست غرضاً في ذاتها وانما هي تضاعف لنا أسباب الولع بالجمال وتبعثنا على تحبيبه الى قلوب الناس

ان الطريق التي سلكها عالم الآثار وان كانت موازية للطريق التي سار عليها المؤرخ الاَّ اننا نلاحظ أحياناً ان كتب التاريخ لا توقفنا من حياة الامة الاَّ على معلومات مشوَّهة جدًّا بينما المظاهر الفنية تسمح لنا بتكوين فكرة عنها أشد انطباقاً على الواقع وأكثر صدقاً

وكما ان قراءة كتاب نفيس في وصف اقليم ما تبعث في قلوبنا رغبةً شديدة وتغرينا بزيارة ذلك الاقليم لاجتلاء محاسنه ، فكذلك الاعجاب بعمل فني يهيء لنا أُسباب تكوين فكرة صحيحة عن البيئة التاريخية التي ولد فيها ذلك العمل الفني وعن مصدر وحي المبدع الذي صوره وأخرجهُ الى حيز الوجود

وهل ثمة أجمل وأبهى من مسجد السلطان حسن كعمل فني بديع يمكن اجتلاؤه وتأمله ! انهُ لأبدع آثار القاهرة وأكثرها تجانساً وتماسكاً وكمالاً ووحدة ، وأجدرها بأن يقوم بجانب تلك الآثار المدهشة التي خلقتها مدنية الفراعنة . أما الظروف التاريخية المحزنة التي شيد فيها فهي كفيلة بأن تزيد عاطفتنا وتبعث أشواقنا وذلك على الرغم مما فيها من مفارقات تحير الالباب. والحق انهُ ليس من الهين ان نصدر حكماً على عصر سلاطين المماليك اذ لا نستطيع ان نكتسب

(١) نقله الى العربية محمد وهبي احد خريجي معهد الآثار

تاريخهم دون ان يكون للعاطفة دخل في الموضوع . ومرد العيب في ذلك الى المصادر العربية فالمقريزي في العصر الوسيط والجبرتي في العصر الحديث كتبهما مليئة بالمطاعن والمثالب التي لها في بعض الاحيان نصيب من الصحة . والتاريخ لا يمكن ان يكتب مجرداً عن الوقائع كالمسائل الحسابية وانما يجب ان يدرس في علاقته بجماعة او عدة جماعات انسانية . ومن درس المسائل السياسية الداخلية وحدها في مصر في ذلك العصر لا بدَّ واجد فيها من المآخذ والمثالب ما لا بد من وقوعه . فالمماليك كما يقول المقريزي كانوا يخلون بالامن ويهاجمون السكان ويذبحونهم وينهبون أموالهم ويسبون نساءهم وأولادهم دون ان يستطيع كائن من كان ان يقفهم عند حدهم وقد كتب غيره يشرح ما كان في نفوس كبار الضباط من أطماع أساسها المصالح الشخصية وحدها ويدلل على جهلهم وصلفهم وفساد خلقهم وان أولئك الرقيق لم يؤتوا من الطيبة ولا من الرحمة مثقال ذرة

غير ان هذا النقد وان كان صواباً فاننا ننساه حينما نتأمل الاعمال الفنية التي ابتدعها أولئك الحكام الذين أخضعوا مصر لحكم فردي لا يعرف هوادة ولا رحمة . وانك لواجد في القاهرة حقًّا أحجار البناء ناطقة تشدو بعظمة الماضي . واننا لا نفتأ نبحث بأنفسنا في الازقة الضيقة عن مسجد بسيط فنتأمله بأعيننا وكأن جماله قد استحال الى نغمات رقيقة في آذاننا . وعلى طول الطريق بين الجامع الازهر وسور القاهرة الشمالي سلسلة من الجوامع وكأنها نغمات منسجمة متآلفة حتى اذا ما وصلت الى آخرها وجدت أثراً عظيماً . ولكن ما أفخم وما أعظم ذلك النشيد المنبعث من ابراج جامع السلطان حسن التي تتحدى النظر وتحول دون امتداده !

واذا قلبنا الصفحات المجيدة التي سطرها سلاطين مصر في سجل السياسة استوقفنا السلطان حسن وتجلى لنا رمزاً جديراً بالذكر يعبر أصدق تعبير عن نظام المماليك

فالسلطان حسن هو الصورة الحية الملموسة لذلك النظام الامبراطوري الاسلامي في العصور الوسطى . وهي صورة تمثل بقوة عناصرها الارادة الحديدية والشهامة الخالدة التي امتاز بها أكثر سلاطين المماليك

ولقد طعن المؤرخون العرب ذلك النظام من حيث لا يشعرون واللوم في ذلك واقع على طريقة التأليف العزيزة عليهم فهم مغرمون بشطر القرون سنين وتجزيء الكليات تجزيئاً عماده سرد تاريخ الافراد بدون رابطة تربط الجزئيات ولا وحدة تنظمها

وعلى كل حال فان فترة حكم السلطان حسن ، أو على الاصح فترتي حكمه ، اذ انهُ عزل مرة ، لمن أشد فترات التاريخ هياجاً واضطراباً . ففي المدة من شهر يونيو ١٣٤١ الى شهر ديسمبر ١٣٤٧ الذي هو تاريخ تولية السلطان حسن العرش ، تولى أريكة الملك ستة سلاطين

وجد أحدهم ميتاً في فراشه وعزل الثاني لحسن حظه وقتل الاربعة الآخرون . نعم حكم السلطان حسن مرتين من ديسمبر ١٣٤٧ الى أغسطس ١٣٥١ ثم من اكتوبر ١٣٥٤ الى مارس ١٣٦١ ثم قتل ولم يكن قد بلغ السابعة والعشرين وكان زمناً مليئاً بالمؤامرات والثورات التي لا تختلف عما حدث قبل توليته

فأما مدة الحكم الاولى فقد انتشر فيها ذلك الطاعون الاسود المريع من سنة ١٣٤٨ الى ١٣٤٩ وامتد الى اوربا الجنوبية ، وفي غضون الفترة الثانية كان الضباط المماليك لا ينفكون عن اثارة الشغب والاخلال بالنظام . وانا نذكر من الامراء شيخون وصرغتمش المشهورين اذ خلفا من الآثار ما نراه اليوم على مقربة من جامع السلطان حسن . وقد أقر المؤرخون بما كان للسلطان من مزايا خلقية كالشجاعة والعزيمة والورع وفسروا الورع باقباله على كتاب في الدين ينسخهُ وهو في السجن

وعلق ايبرس Ebers على تلك الحوادث قال :

« انا لا نفهم في سهولة ، اذا نظرنا الى تلك الايام العصيبة ، كيف تمكن السلطان حسن من توفير الوسيلة والقوة اللازمة لاقامة جامع يعد بحق أفخم وأكمل بناء في العمارة العربية ، فقد كانت الحقول مجدبة والبيوت من الخدم خالية والظمآن لا يجد ماء ودولاب الصناعة واقفاً وأسعار السلع هابطة »

أمر السلطان حسن في الفترة الثانية من حكمه سنة ١٣٥٦ بالبدء في بناء جامعه الذي لم يكمل الا سنة ١٣٦٣ أعني بعد وفاته بسنتين . وقد تحمس كتّاب العصور الوسطى من العرب في وصف ذلك الاثر الجليل واعجبوا أيما اعجاب بمساحته الهائلة وحدوده المترامية وتخطيطه العجيب ومظهره الأخاذ وعلو ايواناته وقطر قبته وفخامة بابه ، وقالوا ان السلطان كاد يعدل عن العمل لضخامة النفقات ثم قرروا في الختام ان ليس في بلاد العالم ما يضارعه . نشط العمال سبع سنين متوالية وكاد اليأس يستولى على السلطان لولا ان خشي ان يقال ان سلطان مصر غير قادر على اكمال بناء شرع في اقامته ، ولم تكن المصاعب مالية فحسب بل اعتور العمل بعض المصاعب الفنية إذ كان التصميم ان يكون للبناء أربع مآذن فلما كملت المأذنة الثالثة سقطت فاكتفى بالمأذنتين . وقد دهش الكتّاب العرب من عظمة البناء فنسجوا حوله رواية عجيبة إذ قالوا : استدعى السلطان المعاريين من انحاء الدنيا وأمرهم بأن يقيموا بناء منقطع النظير وان يستوحوا فيه أعظم بناء في العالم كله ألا وهو إيوان كسرى بالمدائن فشرعوا في البناء على مثاله . ورفعوا الجامع الى علو شاهق دونه ذلك الايوان فدهش السلطان وبهره العمل العظيم الرائع فأمر بقطع يدي ذلك المعاري الذي

أقامهُ لئلاّ يختط بناء آخر على مثاله . ولا نقف عند هذه الخرافة طويلاً فهي لاصقة بمباني أخرى كجامع قجماس

قال هرتز ان مساحة جامع السلطان حسن عظيمة فأطول الاضلاع ١٥٠ متراً وعرضها ٦٨ متراً والمساحة الكلية لا تقل عن ٧٩٠٦ أمتار مربَّعة وارتفاعه عند بابه ٧٠و٣٧ المتر. وحيطانه الضخمة المكسوة من الخارج بالاحجار المنحوتة قائمة على أرض صخرية تهبط هبوطاً هيناً من القلعة نحو المدينة ولذا فقد اضطروا الى إقامة أسس متينة شيد عليها الجامع ...

وكان هذا الجامع مدرسة دينية وقد نشأ هذا النظام في بلاد ايران على يد الدولة السلجوقية التي عنيت بنوع من التعليم مقصود به محاربة الانقسامات والمذاهب العقلية التي تجاوزت الحدود، فالمدرسة وهي المعهد الرسمي لدين الدولة صارت نظاماً سياسيًّا وحصناً للدين كما أسماها كاتب عربي ووضعت البرامج الجديدة على ضوء المبادىء التي أتى بها الامام الغزالي الشهير فتوطدت بها دعائم السنة الصحيحة . ثم انتشرت المدرسة غرباً من بلاد ايران الى سوريا فمصر وفيها تكونت العقول التي عملت على مقاومة الصليبيين والمغول ومن أثرها السياسي انقاذ الاسلام وتكوين وحدة مدهشة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

***

والى القارىء قصة عجيبة قصها مؤرخ عربي قال : زار السلطان سليم الاول عقب غزوه مصر سنة ١٥١٧ بعض آثار القاهرة فأعجب اعجاباً بجامع المؤيد الجدير بالملوك على حد عبارته ثم دخل جامع الغوري فانتقد البناء وقال في دعابة انهُ يكاد يكون متجراً ولكن لما رأى جامع السلطان حسن أدهشهُ البناء العظيم، وهو العارف بأساليب العمارة فقال انهُ لحصن متين حقًّا . وحسْب مشيد الجامع مكافأة وحسن جزاء هذه العبارة التي تنطق بالحق

والأرض التي اختيرت لاقامة البناء واقعة تجاه القصر الحصين الذي يشرف على مدينة القاهرة وقد عرف المعماري كيف يستوحي من هذا الموقع تصميمه البناء وكأن الفكر كان متجهاً الى تأسيس بناء يتحدى القلعة بأسوارها العدائية في قوة فأقام المعماري بناء مشمخراً . وترى القلعة تستطيل وكأنها تتحفز للهجوم . وأما الجامع فيعلو ويشمخ في هدوء وكبرياء وكأنهُ يريد بالقلعة بطشاً . وهو في مكانه بارز بروزاً بفضل ما بينه وبين القلعة منافسته من ساحة فسيحة

والبناء بما فيه من مدرسة دينية لها تعاليم سياسية متصلة بمذهب الحكومة السني ، يبدو بناء حربيًّا ويدل دلالة واضحة على اعلانه للحرب دون هوادة ولا رحمة على الزندقة والخلافات المذهبية .وأراد المعماري العبقري الذي صممهُ ان يكون بناء ضخماً قائماً أمام قلعة القاهرة ومدرسة حكومية فجمع بين الغرضين جمعاً عجيباً فدل بعمله على العظمة الحربية وما كان للاسلام من قوة

ثقافية وأضاف النبوغ المعماري الى قوة التعاليم السنية قوة أخرى عبر عنها بأسلوب البناء أدق تعبير . وقد يتساءل المرء اذا ما قرأ تفاصيل التاريخ المعاصر أَلَمْ تكن نية الفنان متجهة الى القاء درس خالد في النظام والسلطة . ألسنا نرى فيه نقداً عالياً لسوء النظام والفوضى الاليمة التي كانت منتشرة في شوارع القاهرة وللتقلبات السياسية الشديدة التي تبدو لنا خلال السطور كأنها دوامة شديدة الخطر ؟ يعلو الجامع علوًّا وكأنهُ الرقيب الجبار اليقظ وكأنهُ مثال الرزانة والهدوء ! وليس ثمة اي أثر اسلامي آخر أدل على هـذا الغرض وأبلغ في الدلالة . والفنان في الحقيقة كان صريحاً كل الصراحة بل كان صريحاً الى حد الصرامة فقد ألقى بأسلوب البطولة العظيمة درساً قاسياً في الدأب والمثابرة على ذلك السلطان الذي لم يكن في مكنته ان يثبت على العرش وكان الموت الزؤام مصيره المحتوم بل لا يزال ذلك البناء حتى اليوم يتجلى حكمه على فساد الخلق . وسنرى كيف ظل ثابتاً يقاوم شرور الرجال وآثامهم

وقد اكتسب جامع السلطان حسن خلال الازمات السياسية قيمة لا شك فيها تدعونا الى التفكير في شأنه . وهو ليس كبقية الآثار الاسلامية التي تمتاز بالرشاقة وتغشاها مسحة من الحزن الهادئ وانما هو العمل الفني المثالي للتعبير عن علاقة المسلم بخالقه وكأن الانسان لم يرد ان يلتمس به الرعاية الالهية فلم يشيد بناء متواضعاً بل شيد هذا العمل الجبار للاعلان عن وحدانية الله وجبروته

وتعلو مأذنته علوًّا شاهقاً فضلاً عن ضخامتها وكأنها بهذه الضخامة تؤكد متانتها وان ليس في الامكان ان ينالها الاذى . على ان امكان قيام هذا البناء الضخم البديع في ذلك العصر الحافل بالحروب والقلاقل يذكرنا بالصور الهولندية في القرن السابع عشر وازدهارها على الرغم من الحروب الاهلية . وقد اشار الى ذلك الكاتب فرومنتان فقال « اذا تخيل المرء ما كانت عليه البلاد في ذلك الوقت العصيب لاندهش اءما دهشةٍ إذ لا يجد في تلك الصور ما يعبر عن عصرها أدنى تعبير ولم تكن للحرب في البر والبحر ولا للحرب الاهلية اي صـدى او تأثير في صور الفنانين الذين ينتمون الى تلك المدرسة الكبيرة الهادئة ولم تكن اصوات القنابل المدوية التي لم ينقطع أزيزها ، وقد بلغت حتماً آذان هؤلاء ، بمحدثة اي تأثير فيما صوروه وابتدعوه »

***

كان تصميم المدرسة الدينية في مصر يرمي الى تهيئة المكان ليكون صالحاً من جهة لتعليم المذاهب السنية الاربعة فضلاً عن اقامة شعائر الدين ففي الجزء الاوسط من البناء كان يقوم الجامع للفرائض الدينية وفي الزوايا الاربع كانت تشاد مساكن الاساتذة والطلاب على قدر المال المخصص لها . فترتب على هذا التصميم وجود فراغ حول الصحن الاوسط على هيئة صليب فأمكن

تخصص الايوانات الاربعة لأبهاء الدرس وبهذا التصميم العظيم أراد المعماري ان يحتفظ بشكل المدرسة الصليبي غير انهُ ادخل تجديداً ببنائه في الزوايا الاربع مدرسة مصغرة . ولهذا الابتكار شأن مزدوج فقد رفع من قيمة العمل المعماري بتكوين اصحن صغيرة تحوطها حيطان شامخة يرتد البصر عنها كليلاً

ان تصميم البناء على وجه العموم فيهِ نظام واتساق فقد رأينا كيف أن المعماري رأى ضرورة ابعاد التعليم الديني الحكومي عن الضوضاء باقامة اسوار متينة . كانت ابعاد الارض غير مستقيمة في احدى جهاتها فاقام المعماري الباب في هذه الجهة وليست هذه الحالة فريدة في نوعها وان كان الفنان الاسلامي يتخلص من هذا الانحراف بطرق عمادها التجربة وحدها فتتكون انحرافات في البناء مكشوفة ولكن المعماري في هذا الجامع صمم بناءين مرتبطين بدهليز منحن فاحدث بذلك محورين المحور الاول متجه نحو مكة ويشمل ايوانات تدريس المذاهب الاربعة وايوان القبلة والقبر . وراعى المعماري في المدخل تشييد عدة مبان مصممة على هيئة صليب مصغر جزؤه الاوسط عبارة عن ردهة مفتوحة من احد جانبيها بدلاً من تصميم مدخل تجاه الباب العمومي مباشرة

وكان كثير من المباني الدينية في القرن الرابع عشر مساجد واضرحة في الوقت عينه فكان المسجد يشتمل على قبر مؤسس البناء . على ان اختيار الركن الذي يضم القبر في مسجد السلطان حسن كان اختياراً تجلت فيهِ عبقرية المعماري ، وقد ساعدته الظروف اذ ان توجيه المسجد نحو مكة جعل حائط ايوان القبلة قائماً تجاه القلعة بالضبط وعلى ذلك كان القبر قائماً هناك وكأنَّ القصد ان يرمق السلطان مقر ملكه وهو راقد في قبره رقدته الابدية ، وكأنَّ فكرة المعماري ان يكون السلطان في مماته اقوى منهُ في حياته اذ أكسب تلك الوجهة بروزاً جباراً دونها ابراج القلعة وأضفى على تصميم قواعد المأذنتين اللتين تحيطان بالقبر لوناً كمل بهِ المظهر الحربي

ولكل برج جوانب بين سطوحهِ وكأنها زوايا بارزة ذات حدٍّ عريض وكان الغرض منها صيانة الابراج من فعل المقذوفات الحجرية

وفي سبيل هذا التصميم البديع استعان المعماري باساليب معمارية كثيرة لابراز اهم اجزاء البناء من مدخل وصحن وايوان قبلة ومدرسة وتربة

فاول ما يأخذ العين منهُ حدوده المترامية وحيطانه العالية الضخمة فهو يختلف بذلك عن أبنية مصر الرشيقة في القرن الخامس عشر . ولما لم يكن الغرض الاصلي انشاء حصن فقد دخلت الرقة والجمال في تقدير البناء فهناك اذن عاملان أوحيا الى المعماري بالاسلوب وهما العظمة والوقار ووجه المعماري همه الى ابراز هاتين الميزتين فاكتسب البناء هدوءاً واعتدالاً تراها في الاشكال

الزخرفية التي لا اسراف فيها كما تراها ايضاً في بعض السطوح الخالية من الزخارف . وقد روعي في الوجهة ان تبرز هنا وهناك بروزاً يضفي عليها العظمة

اما الكورنيش الذي يتوج الحيطان فيكوّن من عدة طبقات كخلايا النحل عظيمة المظهر ومن ميزاتها ايضاً ان تخدع البصر فتحسب الحيطان أعلى مما هي على حقيقتها . ولم يكن المعماري يقصد بالواجهة التي تقابل قلعة القاهرة ان تسيطر على الشعور بل كان همه توطيد البناء في الارض وتدعيم اساسه واكتفى بما بينهُ وبين القلعة من ميدان فسيح ولكن في الجهات الاخرى حيث لا ساحة ولا ميدان يستطيع المرء ان يشمل البناء بنظرة واحدة ، كان همّ المعماري ان يحس الناظر احساساً من نوع آخر فابتكر اسلوباً جديداً للوصول الى غرضه اذ أحدث في الحيطان تجاويف عمودية طويلة ضيقة ركب فيها النوافذ للانارة اللازمة فبهر وأدهش. ثم ان الكورنيش الضخم الذي يطل على الناظر وكأنهُ يريد ان ينقض وتلك التجاويف على ما بينها من تباين وتفاوت كل ذلك أحدث الأثر المطلوب في نفس الناظر اذ بدت له الحيطان أعلى مما هي عليهِ في الواقع مرتين

اما المدخل الرئيسي فعليهِ سيماء النبل والفخامة وفتحته التي تتوجها الزخارف المعمارية التي تشبه خلايا النحل تتجلى فيها العظمة وكأن هذا الباب الجبار يقوم بدور الساهر على هذه المدينة التي تبلغ من العمر الف عام ويحدث أثراً هو أثر العزة والكبرياء في هدوء واطمئنان

وتسير حين تدخل المسجد في دهليز يكتنفهُ الغموض وهو بناء كامل في حدود التصميم العام وله قبة ومحلى بزخارف كخلايا النحل غير ظاهرة في الظلام الذي ينتشر فيها . ويزداد الغموض اذ تسير في دهليز آخر ضيق طوله ثلاثون متراً ينحني مرتين وهو مقبو فيهِ فتحات ترى السماء خلالها على بعد بين حائطين مقتربين عاليين ثم تسير في طريقك فلا ترى غير السماء بين حيطان ضخمة شاهقة أسفلها مكون من كتل حجرية عظيمة حتى تصل الى باب صغير فتنفذ منهُ الى الصحن الاوسط فيرتفع الستار فجأة عن منظر ما كان يدور في خلدك فيغمرك النور ويبهرك فلا مكان ينتشر فيهِ الظلام رغم عظم اتساع ايوان القبلة وانك وانت بين حيطان اربعة عالية بيضاء ناصعة لترى السماء الزرقاء وقد اشتدت زرقتها هادئة هدوءاً فكأن السماء خيال. نعم يبهرك النور العظيم ويدهشك علو عقود الصحن فيستولى عليك احساس قوي يعطل فيك لحظة قدرة تحليل العناصر التي يتكوّن منها ما ترى ، وسرعان ما تأخذ عينك رأس منارة ضخمة

في هذا البلد حيث كانت المباني العظيمة في الزمن الماضي البعيد بمنزلة صدى حاجة نفسية لا سبيل الى مقاومتها ، في هذا البلد حيث الاهرامات وآثار الكرنك المتناثرة يبدو جامع السلطان حسن وكأنهُ امر غير مرتقب . نعم وفي ذلك الصحن يحس المرء بالضعف والرهبة امام تلك القوة . فليس الجامع بناء شيدتهُ يد الانسان ورفعتهُ عالياً ليكون بيتاً لله تنبعث منهُ الصلاة

والدعاء الى العزة الالهية وانما هو كتلة عملت فيهِ الايدي واقتطعت احجاره وأفرغتهُ لاخراج تلك الايوانات الاربعة المحيطة بالصحن الاوسط

واذا ما سرت نحو ايوان القبلة ثم اجتزتهُ وصلت الى المحراب والمنبر ووجدت على اليمين واليسار بابين يوصلان الى تربة السلطان ويشملك الظلام في ذلك المكان وكأن الظلام مهيأ لبعث جو ديني هادىء كان مقرراً ان يكتنف الى الابد جثمان السلطان حسن فنتأمل ونتذكر تلك الحياة المضطربة التي عاشها ذلك السلطان البائس . وتغشانا موجة من الحزن اذ نذكر ان القبر خلو من جثمانه فقد افتقدوه بعد ان قتل فلم يجدوه

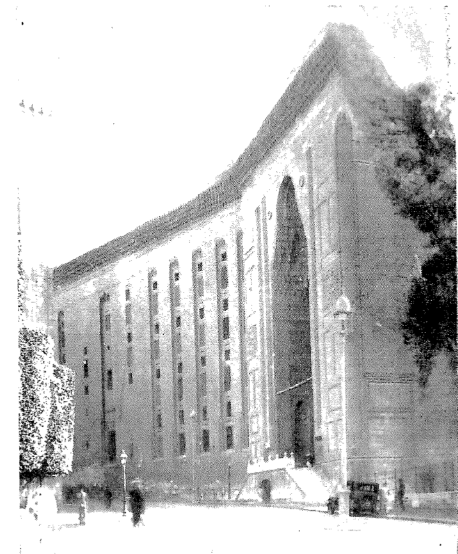
حقًّا ان جامع السلطان حسن أثر اسلامي من القرن الرابع عشر ومن الطراز المعماري الذي انتشر في مصر وسورية ، ولم تكن المدرسة الدينية نظاماً مبتكراً في الحياة الاسلامية في ذلك العصر وهذا الجامع لا يخرج في تصميمه عن الاسلوب العادي خروجاً ظاهراً فاذا حللنا بعض التفاصيل المعمارية تحليلاً دقيقاً وجدنا عناصر اجنبية . ونستطيع في سهولة تتبع الاشكال الزخرفية وقابليتها للتطور. والحق ان المرء ليحس بالضعف اذا ما حاول الوقوف على اصول هذا العمل العظيم فهو مطبوع بالعبقرية التي استطاعت ان تتمثل عدة اساليب معمارية معروفة في ذلك الوقت فصاغتها وصبتها في قالب جديد . نعم وهذا الجامع سيظل قائماً بذاته خارجاً عن دائرة المألوف . ولا يمكن ان نعقد بينه وبين الآثار المعاصرة له مقارنة صحيحة لان الابتكار الذي دمغهُ لقوي جدًّا فهو نسيج وحده وكأن المعماريين الذين اتوا بعده كانوا يخشون ان يستلهموا فنونه . وكان الفن الاسلامي في ذلك العصر قد تحوَّل عن الفن القديم وتشرَّب بقواعد جديدة فنجد اننا معشر الغربيين مضطرين الى بذل الجهد لتفهم الفن الشرقي وتذوقه

***

ان جامع السلطان حسن ليضارع الاعمال العظيمة التي ابتدعتها المدنيات المختلفة وليعد من الاعمال الخارقة للعادة وهو وان كان اقل شهرة من غيره الا انه قد يكون اهم واعظم من قصر الحمراء بغرناطة

والفن الاسلامي وان بدا عليهِ التأثر بالنزعات النفسية تشكلهُ حسبما اتفق غير ان جامع السلطان حسن هو رمز القوة الهادئة المفكرة . وشتان بينهُ وبين تلك التحف العجيبة حقًّا القليلة القيمة فعلاً التي تمثل فخامة الفن الاسباني المراكشي

وفي مصر نفسها عندما اخذ اسلوب فن سلاطين المماليك في الميل ميلاً طبيعيًّا نحو كل ما هو برَّاق جذَّاب شاهدنا تفتح زهرة فن جديد ورأينا تحفاً بديعة رشيقة وقطعاً جصية منحوتة بلغت اعلى مراتب الدقة الفنية ومطبوعة بطابع الفنان المخلص في عمله المقبل على صناعتهِ



جامع السلطان حسن من جانب المدخل العام

الضريح في جامع السلطان حسن

ونحن وان كنا نعجب بالزخارف العربية ذات الاشكال الرقيقة غير اننا نلحظ عليها اسلوب الصنعة العادية المتكررة التي تنتج عدداً عظيماً من التحف تحوز رضاء الشعب وتغمر بها الاسواق ولكننا اذ نشاهد جامع السلطان حسن وما بهِ من الزخارف ندرك ان الفكر قد سيطر على هذا العمل العظيم فأكسبهُ اعتدالاً ورونقاً عظيمين

ولا شك ان العمل العبقري لا يتأتى فجأة وانما هو مرتبط بالماضي مثله كمثل الاعمال العادية وقد يتأثر بالاساليب القائمة بل ان هذا التأثر يحدث في اغلب الاحوال . ويمتاز العمل العبقري بالبساطة الى حدٍ كبير فيحسبها اوساط الناس خالية من كل ابتكار ، وهذا خطأ ويؤيد جامع السلطان حسن صدق قولنا فقد الّف المعماري بين القواعد القديمة ومزجها مزجاً تجلت فيهِ شخصيته وهذا هو عين العبقرية . نعم وبعث المعماري في الاشكال روحاً جديدة وفكرة مبتكرة فبرهن على انهُ قابض على الناصية مسيطر على اسرار المهنة مستخدم أدق الاصول الفنية

ان التوافق لعمل جديد في هذا الجامع العظيم وهو الميزة التي أضفت عليهِ جماله وعظمتهُ . وقد تمّ اللحن الموسيقي وخاص للفنان الذي لم يعتمد على نغمات محدودة فحسب وانما اعتمد على ما للتأليف الموسيقي من سحر فارتفع باللحن فوق المستوى العادي وانك ان تجد فيهِ اي لون صارخ تشمئذ منهُ النفس . بل الالوان كلها متدرجة متآلفة في رفق والعناصر الزخرفية هادئة والجزء خاضع للكل وكأن جمال الزخرفة نشيد لحنهُ الفنان في عناية ودقة وشعور مستلهماً جميع النغمات . وقد وفق آرثر رونيه اذ قال « ان العبقرية هي التي أتاحت لصاحبها السيطرة على الاشكال التقليدية او الهندسية فبثّ فيها روحاً من عنده فلكل زخرفة في جامع السلطان حسن طابع خاص يمتاز بهِ عن سواها من زخارف الابنية الاخرى »

بلغ المعماري القوة الفنية وأدرك معنى الكل ادراكاً كاملاً فاهتم بهِ وابرز معناه وكان اهتمامه بالجزئيات دون ذلك بكثير. فمن الخطأ القول ان الذوق المعماري لم يتكون عند الفنانين المسلمين . وليس يكفي جهلهم بأساليب الفنون القديمة لانكار نبوغهم

والفنان في هذا الجامع لم يوجه همه الى الزخرفة كعامل جوهري في العمارة بل اقتصد فيها وسيطر عليها وأخضعها للكل فأدت اغراضها . وقد يكون هذا الجامع هو الوحيد بين جوامع القاهرة الذي يجمع بين قوة البناء وعظمته ورقة الزخرفة وجمالها . وأثره قوي في نفوسنا اذ له خصائصه التي لا يشترك معهُ فيها غيره . ان جامع السلطان حسن هو العمل العظيم في الاسلام الذي روعي في تشييده متانة البناء فهو كالمعابد القديمة يتحدى الزمن وينطبق عليهِ ما تخيله شاعر عربي من ان الزمن هو الذي يقاوم قوة هذه المباني الضخمة . ولا ريب في ان هذا البناء العالمي الشهرة والعظيم القيمة رمز لمجد الاسلام وقوته . وعظمته مقررة معترف بها فاذا قلنا « السلطان

حسن » فهذا كاف للدلالة على البناء كما نقول « بورج » و « شارتر » للدلالة على الكتدرائيتين الخالدتين. وقد اختفى السلطان حسن وكأنه لم يكن وظل مسجده قائماً . واذا تذكرنا ان حسن تفهُّم العمائر الاسلامية يتطلب ان يكون المرء ملمًّا ببعض القواعد عرفنا فضل جامع السلطان حسن فانهُ لا يتطلب منا تأملاً عميقاً والزوَّار الذين يتأثرون بالفن ليسوا بحاجة الى ترجمان ولا الى لغة اخرى غير لغة المماليك او لغة الاسلام . نعم وليسوا بحاجة الى كلمات يستعينون بها على تفهمه والاحساس بقوته . بل ان السائح الذي تضاءل احساسه بالفن يحس امام مسجد السلطان حسن بقوة العمارة احساساً قويًّا . فهو يتأثر دون شك بعلوه الشاهق تأثراً فجائيًّا ثم تأخذ العين ما بين الابعاد من تناسب عجيب فتنتقل من القوة الى الرقة

وقد استطاع المعماري المشبع بالافكار النبيلة القوية ان ينفذ تصميم البناء تنفيذاً دقيقاً في بساطة وروعة ، فالجامع يطغى بقوته على حواسنا ثم يكشف لنا عن عظمة الاسلام وما ينطوي عليهِ من بأس وقوة. وجمال هذا البناء ينبعث من كون جميع أجزائه خاضعة خضوعاً مناسباً متسقاً لفكرة عامة. هذا البناء القوي الذي تتمثل فيهِ الجرأة والقوة يسوده هدوء عظيم مما يمثل شرف الفكرة الاسلامية الشامخة

***

ونود ان نتفهم الاسباب الدفينة التي حملتنا على التأثر الى هذا الحد :

البناء يتجلى لنا ذا حيوية عميقة هي في غنى عن الناس ولا شأن لها بهم . وكلما أدركنا علو شأنه ورفيع مقامه ازددنا بهِ اعجاباً . ولا غرو فالانسجام من خصائصه وأثره في النفس أجمل ما يكون، على أن خير ما يعين على تفهم قوة هذا المسجد هو التردد عليهِ والائتناس بهِ والنظر اليهِ وحينئذ يكشف لنا عن جمال مدهش وعظمة غالبة ونشيد مبهج . وهو مثال فخم يبهر البصر يدل على روح النظام في وقت كانت الفوضى منتشرة والمعارك دموية . ومن سخرية القدر القاسية ان نجهل اسم خالق هذا العمل العظيم وسنظل له جاهلين بينما الاثر عَلَم على سلطان صغير عزل مرة ثم انتهت حياته نهاية محزنة وظل اسمه المقترن بهذا الاثر خالداً على الازمان

لم يكن يصل الى مرتبة السلطان الاَّ من كان في الاصل من الارقاء الذين كانوا يباعون بأبخس الاثمان فاذا ما نالوا حريتهم على يد أسيادهم الذين كانوا ارقاء من قبلهم تكونت شخصيتهم واتخذوا اسماء جديدة وبذلوا الجهد في العمل على تكوين عظمة المدنية الاسلامية فخلفوا آثاراً فخمة ملؤها الفخار نعرفها تمام المعرفة ولا نعرف اصحابها ولا البواعث الدافعة لهم . وكذلك جامع السلطان حسن فهو عمل عظيم خالد ولكن شخصية الفنان العبقري الذي ابتدعهُ يكتنفها الظلام

ومهما يكن من شيء فما اجدرنا بألاَّ نعرف عن خالق العمل العبقري شيئاً . قد رأينا في عصرنا هذا ميل الكتاب الى تحليل حياة الفنان الشخصية والوقوف على ما فيها من ألوان البؤس والخروج من ذلك بنظرية لا تتفق في شيء والعبقرية التي تتجلى في أعمالهم. وهل نحس بالسرور

حقًّا على ما في ذلك من سوء الخلق وخبث الطوية اذا عرفنا ان المعماري الذي بنى جامع السلطان حسن كان مضطرًّا للحصول على الرزق الى القيام بأعمال عادية ليس فيها أثر للشخصية ، ثم ترتب على هذه المقدمات نتائج قد تكون قاسية كل القسوة . انهُ ليجمل بعظمة الاسلام أن تظل شخصية الفنان العبقري الذي شيد هذا الجامع محوطة بالغموض كالشعر الخالد القديم في الالياذة والاوديسية

وقد يكون في وصف الجامع وصفاً مسهباً ما يدعو الى السآمة والملل بالرغم من ان الجزئيات تشترك في ابراز الكليات . ولكن هذا الاثر بحاجة الى قلم بليغ وأسلوب شاعري حتى يمكن ابراز دقائقه وجزئياته حتى لا يكون ما يراه القارىء قاصراً على هذه الجزئيات فحسب وان كانت بعض هذه الجزئيات غاية في الطرافة والابتكار وكأنها بيوت شعر من قصيدة عصماء

قال ابيرس « ان كل ما تراه في الجامع مركب في مكانه تركيباً هادئاً منسجماً فاذا أنعمت النظر في زخارف أيوان القبلة وقاعة القبر جزءًا جزءًا أحسست احساس الرضى، فهناك ثروة فنية وأشكال رشيقة بارعة تتكرر في انتظام وانك لتحاول ان تفهم مدلول الكلمات والآيات القرآنية المندمجة في الزخارف العربية وهي في حد ذاتها زخرفة ممتازة فتبهر نظرك بجمال زخرفتها وتعلمك وتنصحك بجميل عباراتها . »

ولنا نتخيل ذلك المكان الذي كانت تشغله المصابيح ذات الالوان المتباينة وكأن لهبها المرتعش يزيده نوراً وحيوية ، فنتأمله اليوم في خشوع وتذكر والتأثر يملأ جوانحنا عظمة المكان الذي انطفأ نوره . تلك المصابيح المموهة بالميناء رآها بعض السياح في مكانها قبل ان تنقل الى دار الآثار العربية ولذا نترك الكلمة لهؤلاء الذين شاهدوا الجامع وعلى الخصوص لهؤلاء الذين لم تصطبغ حماستهم بصبغة تجارية. فقد كتب جومار في كتاب وصف مصر ما يأتي : انهُ من أجمل مباني القاهرة والاسلام ويستحق ان يكون في المرتبة الاولى من مراتب العمارة العربية بفضل قبته العالية ، وارتفاع مأذنته وعظم اتساعه وفخامة رخامه وكثرة زخارفه التي تكسو الارضية والحيطان في اوضاع بسيطة خاصة بهذه العمارة كما ان حشوات الخشب والبرونز التي تكسو الابواب الخشبية والحديدية محفورة حفرًا فنيًّا

أما فلوبير فقد اختزل الكتابة عنهُ اختزالاً يقرب من الاشارات البرقية ولا يعطينا فكرة صحيحة عنهُ فقد كتب : « مدخل مستدير . مقرنصات . حبال مدلاة . انا نلبس مراكيب من سعف النخيل »

وكتب فرومنتين في يومياته محدداً موضوعه بأسلوب جاف أيضاً : « أثر عجيب نسيج وحده في القاهرة يستحق ان يعد من أجل مباني العصور الذهبية »

أما المصور لينوار فقد كتب عن مصر كتاباً تختلف أجزاؤه في قوتها وأسلوبها والصفحة التي خصصها للسلطان حسن تستحق ان تذكر : « ان جامع السلطان حسن المملوكي يشرف على القاهرة كلها وأسلوب بنائه من أرق الاساليب المعمارية ، ومساحته عظيمة ولذا يعد أجمل جامع في الشرق كله بلا نزاع . وموقعه تجاه القلعة والدخول اليه من باب عال بارتفاع الاثر كله مفتوح على شارع جانبي يوصل الى الميدان . هناك رخام من جميع الالوان مرتبط بعضه ببعض بحليات على شكل وردات وزخارف من برونز فيبدو هذا الباب الرئيسي رشيقاً . وينتهي اعلاه في شكل تجويف فيه مئات من المقرنصات تأخذ في القلة حتى تختفي عند منتصف ارتفاعه . وهنا تمتد الواح من الخشب امتداداً افقيًّا وتحمل مصابيح من الزجاج المموه بالمينا وعدداً من بيض النعام المحلى بالزخارف . يصعد المرء بضع درجات ثم ينزل درجات أخرى فيجد نفسه في دهليز عظيم مزين بمقاعد حجرية على الجانبين . ان هذا الدهليز الغامض يجعل المنظر العجيب الذي يتكشف امام الناظر فجأة اشد وقعاً في النفس : صحن عظيم على شكل صليب يوناني في وسطه بناء عربي أجمل ما يكون يقوم على أعمدة من الرخام وتغطيه قبة محلاة بزخارف باهرة . وهذا البناء المثمن الاضلاع هو الميضأة . وأمام باب الدخول ايوان عظيم هو إيوان القبلة وترى ثلاثة إيوانات أخرى على جوانب الصحن . وايوان القبلة يعلو درجة واحدة فوق مستوى ارضية الصحن وفي نهايته سلاسل مدلاة معلقة بها آلاف من المصابيح كأنها نازلة من السماء وتبدو من بعيد كأنها قطرات من المطر اوكأنها شبكة معلقة في الفضاء . وفي نهاية ايوان القبلة المحراب المزخرف زخرفة فنية المطعم بأنواع المواد الثمينة والالوان والزخارف العربية . أما المنبر فهو من ابدع التحف الخشبية ذات الزخارف المحفورة »

ويرى جابريل شارم ان أجمل بناء في القاهرة هو جامع السلطان حسن المبني على سفح جبل القلعة فقد كتب « ان قبته العظيمة ومنارته القوية وحيطانه العارية العالية المنتهية بكورنيش فخم وأشكال كخلايا النحل تبهر النظر بشكلها العظيم . ان باب الجامع تحفة فنية من أكمل التحف العربية ، علوه شاهق يتناسب مع اتساعه ويعلوه نصف قبة مقسمة على هيئة مقرنصات في تجويف عميق ينتهي بباب الدخول المصفح بالبرونز ذي الزخارف العجيبة بينما الجوانب وحائط إيوان القبلة عليها زخارف ذات خطوط تخيلية او مزخرفة بتجاويف ذات أعمدة صغيرة رشيقة . وداخل المسجد أعظمُ فالصحن وما فيه من الميضأة محاط بعقود توصل الى ايوان القبلة . كتابات كوفية محفورة في الحائط مكونة من حروف حجمها غير شائع ملتف عليها فروع نباتية . ثم يدخل المرء حجرة القبر وقبته تبدو اكثر ارتفاعاً من قبة البانثيون بباريس وأوسع منها عشر مرات . وكتاباتها منقوشة على ألواح خشبية . ان الاثر الذي يحدثهُ جامع السلطان حسن في النفس هو

من نوع الاثر الذي نحسهُ ونحن في أجمل كاندرائياتنا . ولم تتجلَّ الفكرة الدينية بمثل هذه القوة وهذه العظمة في أي اثر آخر انساني سواه

وانا نورد قول الدوق داركور وهو اقل المعاصرين معرفة بمصر بل اننا لنشعر بأنه لم يكن دائماً منصفاً كل الانصاف . نورد ما كتبهُ عن السلطان حسن لان شعوره هو شعور الآسف الذي ما كان يود ان يرى عملاً فنيًّا جميلاً وكأنه بوصفه يقصد الى تشويه الصورة الجميلة لا الى التحمس في ابراز محاسنها . قال :

« ان جامع السلطان حسن يدهشنا قبل كل شيء بأبعاده العظيمة الجميلة وهو يكاد يكون خالياً من الزخارف والقليل الذي فيهِ لا يبدو منقولاً عن الزخارف اليونانية واللاتينية والفرعونية. ان الفن فيهِ قائم بذاته يلبي حاجات خاصة ويبحث عن الجمال في نواح لم تطرقها آثار قبله . ونجد فيهِ في نفس الوقت أشكالاً كثيرة معقدة وزخارف غريبة والتناسب فيهِ منعدم فمن أبواب قد تبدو ضخمة عظيمة ولكنها ليست كذلك الى أخرى صغيرة واطئة وهذا يدل على مايظهر على شعب هو الى العلم أقرب منهُ الى السذاجة. والفن فيهِ على كل حال فن مبتكر أصيل ولايخلو من المزايا»

وقد كتب جوبينو ان المنافسات الدموية بين المماليك كانت عاملاً على كثرة انتاجهم فجامع السلطان حسن على عظمتهِ قد بني في فترة كانت السلطة العليا مفقودة ، بناه طامع في الحكم مدَّعٍ لهُ يناضل منافسهُ المسيطر على القلعة وهو مع ذلك لم يجد صعوبة في اقامة عمل عظيم وان يبني جامعاً يكاد يكون قلعة حصينة »

ويستمر جوبينو مسوقاً على أجنحة الخيال . ولكن اذا صرفنا النظر عن الحقيقة التاريخية فان ملاحظاته ذات دقة وعمق . وقد دون مؤرخ في مذكراته عن أحد كبار وزراء الدولة الفاطمية في عصرها الاخير انهُ قال في وصيته السياسية ان من بين الغلطات الثلاث التي ارتكبها انهُ بنى جامعاً خارج باب زويلة يمكن ان يكون نقطة ارتكاز لمن يغير على القاهرة او يدافع عنها « والمقصود هو جامع الصالح طلائع المشيد بالقرب من باب المتولي وقد كان يمكن ان يكون هدفاً حربيًّا كما خشي الوزير لو لم تتسع القاهرة وتصير الاسوار الفاطمية عديمة القيمة . وقد ارتكب السلطان حسن نفس هذه الغلطة . ان الحكومات الاسلامية كانت حكومات أوتوقراطية وقد قبلت الشعوب فكرة السلطة هذه . وعلى ذلك فلم نجد في التاريخ الاسلامي ما يمكن ان يقارن على وجه الخصوص بالنزاع بين البرلمان وبين الملكية في فرنسا

ولو كانت الفكرة النيابية او الشعبية موجودة في القاهرة في ذلك الوقت لكان جامع السلطان حسن القائم تجاه مقر الحكومة بمثابة تهديد للحكومة . وعلى كل حال كان وجود مثل هذا البناء بأبراجه البارزة مصدر خطر دائم

وقد كان الرحالة ليون الافريقي أول من نبه الى وجود بناء من الابنية مشهور جدًّا ، هو جامع السلطان حسن الذي رفعهُ بانيهِ الى علو شاهق فصار حصناً يحتمي فيهِ المماليك لصد هجمات بعضهم على بعض

وقد ذكر هذه الحقيقة كذلك شارل تومسون الانجليزي ، قال : ان الجامع الذي يبدو متفوقاً على الابنية الاخرى بمأذنته ومظهره الفخم المدهش ، هو جامع السلطان حسن الواقع على سفح الجبل الذي يقوم عليه حصن القلعة . يرتفع الجامع ارتفاعاً شاهقاً ويعلوه كورنيش جميل بارز بروزاً شديد ومحلى بنقوش غريبة . ومساحته مستطيلة ومدخله محلى بالرخام الثمين المختلف الالوان وكذلك على الباب . والدرج الذي كان موصلاً للباب قد تهدم والباب نفسه مسدود اذ كان ملجأً للساخطين اثناء الثورات »

ان القنصل مايية الذي نقل عنه « فورمون » حرفاً بحرف دون ذمة رأى ذلك ايضاً اذ انه اورد في كتاباته : « بالقاهرة جامع قديم فسيح ومرتفع جدًّا ولا يفصلهُ عن سفح الجبل القائم عليه القصر الآن ميدان مفروش بالرمال اتساعه مائة وخمسون قدماً وطوله الف قدم تقريباً وكان هذا الجامع ضارًّا في زمن الثورات لان الساخطين كان في امكانهم بضربات السهام ان يحولوا في سهولة دون اتصال جناحي القصر احدهما بالآخر وكان يمكن لرجال القصر من ناحيتهم ان يمطروا الثائرين وابلاً من الحجارة من قمة الجبل التي تشرف على الميدان كله . كانت اقامة بناء ضخم تجاه القوات الحربية السلطانية غلطة سياسية . وقد كتب مؤرخ عربي ان هذا الجامع يقوم تجاه القلعة وماكانت تقوم ثورة الاَّ احتمى الثوار في أعلى البناء وأمطروا حماة القلعة وابلاً من المقذوفات وفي غضون سنة ١٣٩٠ لاقى السلطان برقوق صعاباً شديدة في التغلب على الثوار الذين التجأوا الى هذا الجامع ، وكان هذا السلطان قد خصصهُ قبل تلك الثورة بعشر سنين مخزناً للاسلحة ، فلما رأى ما عاناه في اخماد الثورة امر بهدم الدرج الذي يوصل الى المنارتين وقفل الغرف التي كانت مخصصة لسكن الاساتذة وهدم سلم الباب العمومي كما سدَّ الباب الخلفي وبذا صار الوصول الى الجامع عن طريق نافذة صغيرة تجاه القلعة كان من السهل سدها عند الثورات. وصارت تلك النافذة باباً جديداً للجامع يدعو المؤذن منها المؤمنين الى الصلاة

وقد نهب الجامع سنة ١٣٩٩ أثناء ثورة أخرى وبني درج المأذنتين من جديد كما يؤخذ من النصوص . وفي سنة ١٤٠٤ بنيت على سطح الجامع أنابيب لقذف المواد الملتهبة على القلعة . وقامت الحكومة نفسها سنة ١٤١٠ بتحصين الجامع مخافة الاضطرابات ولكن الثوار تمكنوا من الاستيلاء عليه بالقوة بعد معركة شديدة واستعملوه في التو مركزاً للمقاومة ، ثم جدد الدرج كله سنة ١٤٢٢

وفي سنة ١٤٣٨ استولى بعض المماليك على الجامع وحرقوا بابه وتحصنوا على السطح فلما عاد الهدوء كان هم السلطان تهديم درج المآذن ثانية

وكتب مؤرخ عربي انهُ في سنة ١٤٥٤ أمر السلطان المهندسين بفحص المنارة جنوبي الجامع اذ كانت تنذر بالسقوط على ما كانوا يؤكدون . ولكن هذه الاشاعة تلاشت عند التحقيق الدقيق ومع ذلك فقد لاحظ المهندسون ان قمة المنارة قد تهدمت وان الهلال الذي كان يعلوها قد أصابهُ العطب ، وذلك من جراء المقذوفات على الجامع أثناء الاضطرابات . فاكتفى بازالة الهلال . وكان هذا العمل في الحقيقة أسهل بكثير من هدم المنارة وختم هذا المؤرخ حديثه بأن هذا الجامع احدى اعاجيب العالم وبانهُ اجمل بناء في الاسلام

وكان السلطان جانبلاط في نهاية عام ١٥٠٠ مهدداً في سلطته ففكر في الاحتماء بالقلعة وامر بهدم الجامع تجنباً للخطر فشرع العمال ينفذون أمره وظلوا ثلاثة ايام احدثوا فيها بالجامع اضراراً بسيطة وكان الرأي العام قد هاج فاضطر السلطان الى العدول . وهكذا كانت الاوساط البعيدة عن السياسة تهتم دائماً بآثارهم الثمينة . ثم كان ادخال المدفعية ضارًّا بالبناء كل الضرر اذ كتب تيفينو سنة ١٦٥٧ يقول « احتمى طومان باي وهو آخر سلاطين المماليك في هذا الجامع تاركاً القلعة للسلطان سليم الذي امر باطلاق القنابل على الجامع ولا تزال الثقوب تشاهد حتى اليوم خصوصاً في القبة »

ولنلاحظ حالة القبة السيئة دون الوقوف عند الحقيقة التاريخية فقد سقطت بعد تلك الحوادث بثلاث سنين وحلت محلها قبة اخرى هي التي نراها اليوم ، والدعامات التي تستند اليها من الطراز العثماني . وكانت المنارة الشمالية تهدمت قبل ذلك بسنة واحدة فبنيت محلها منارة اخرى ذات حجم أصغر

وحدث في القرن الثاني عشر من الحوادث ما اضر بهذا الجامع كذلك . وقد روى بول لوكاس الذي كان يقوم برحلته الثالثة سنة ١٧١٦ ما يأتي : « هزم امير جرجا عرب الصعيد ثلاث مرات اذ وقفوا في طريقه وهاجموه ثم عاد الى القاهرة . وكان يمكن هزم العرب هزيمة نهائية باطلاق النار اطلاقاً مستمرًّا من القلعة لولا النجدة المؤلفة من اربعمائة رجل التي ارسلها الدفتردار فقوي ساعدهم واستولوا على جامع السلطان حسن القريب من حيهم واحتموا فيه فكانت هذه الحيطة سبباً في استيلائهم على السلطة ثم انهم نصبوا مدفعاً في جامع السلطان حسن وصوبوه نحو امير جرجا واستمر اطلاق النار اطلاقاً شديداً اياماً عدة فلولا جامع السلطان حسن لما عرف العرب اين يحتمون . وكان احمد في قلعته واقعاً تحت ضغط النيران المنصبة من الجامع

ثم في سنة ١٧٣٦ حرق باب الجامع واستولى الثوار على البناء فاخرجوا منهُ بالقوة وهدم الباب الكبير

وكتب سافاري في سنة ١٧٧٨ يقول: من جوامع القاهرة الكثيرة ما يقوم بينها كقلاع. ففيها جامع السلطان حسن الذي كان الثوار يحتمون فيهِ في وقت الاضطرابات ويضربون القلعة بالمدافع من قمته . وهذا البناء الكبير بكورنيشه المنقوش نقشاً غريباً والبارز بروزاً عظيماً ، تعلوه قبة عظيمة ، وواجهته محلاة بالرخام الثمين . والابواب اليوم مسدودة وثمة حرس من الانكشارية يحولون دون الاقتراب منه

وانتهت هذه الحال سنة ١٧٨٦ كما قال الجبرتي:

« استدعي العمال لفتح باب هذا الجامع الذي كان مغلقاً وهدمت الدكاكين التي اقيمت تحت هذا الباب وكذلك الحائط الذي اقيم سداً ثم بني باب من حديد ودرج للوصول اليهِ ومقاعد من الحجر »

وقد نعى آرثر رونيه الذي كان محبًّا للجامع حبًّا كثيراً موقعه المعرض للخطر ومن ثم للتلف ولكننا نقرأ ما كتب عنهُ فنراه يميل كل الميل الى وصف تلك الفترة من الزمن وصفاً جميلاً بعيداً كل البعد عن الحقائق التاريخية إذ يقول كانت السطوح والشرفات ملجأ الساخطين والثوار الذين قاوموا حامية قلعة الجبل منذ خمسة قرون سواء أكان الحاكم سلطاناً من سلاطين المماليك ام والياً من قبل الباب العالي او القائد بونابرت ، ثم يردف هذا بقوله « كان الفزع الاكبر عندما كان نابليون في اشد حالات الغضب وذلك في ثورة ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ، ولا تزال الحيطان تحمل آثار طلقات الفرنسويين »

وكان لهذا القول أثره في كل طبعة من طبعات « دليل جوان Joanne » مع خطأ في التاريخ وكان التراجمة يذكرونه على الدوام بل ان بعض الكتاب لم يجد أية غضاضة في نشره من حين لآخر . ومنهم الكاتب كامي موكلير وهو آخر من كتب ذلك . غير ان الأستاذ جان ماري كاريه صحح هذا الخطأ ومن السهل ان نقرأ حوادث ذلك اليوم المحزن الذي قامت فيه الثورة، وان نرجع على الخصوص الى ما كتبهُ الجبرتي الذي كان ينتهز الفرص للتعبير عما يكنهُ في قلبه من البغضاء للفرنسيين وهو شعور طبيعي جدًّا ، والى القارىء ما كتب : « وجّه الفرنسيون مدافعهم الى الجامع الازهر والى بيوت الاحياء المجاورة » وهذا مما يؤسف له بالطبع ولكننا نريد ان نثبت بهِ ان بونابرت لم يتح لهُ ان يضرب جامع السلطان حسن بالمدافع

وقد اطلق الكاتب ه. دي فوجاني لخياله العنان فوقع في عدة اخطاء وأحسَّ بالحاجة الى ان يضفي على هذا الجامع لوناً روائيًّا فكتب : « كان السلطان يجتمع بشعبه في هذا الصحن

الفسيح الذي يغمره النور ثم يبلغه أوامره . وكان الشعب يضع هامته على الرخام عند نزول السلطان من على المنبر متجهاً نحو الردهات حيث كان الحرس قائماً بالحراسة ، وكان لاصوات سنكات الحرس الثقيلة رنين على الرخام . واحتمى الفرنسيون فيه اثناء ثورة القاهرة في ٢١ اكتوبر ١٧٩٨ »

فالفصل الاول من هذه الرواية كالروايات اليومية التي نقرؤها ومثله كمثل ما جاء في دليل بيديكير الذي رأى محرره رخام الصحن ملوثاً ببقع يقال انها دم المماليك المذبوحين

اما ما كتبهُ جابريل هانوتو فيعتبر بمنزلة خاتمة الموضوع : «ها هو الجامع الذي يفوق كل ما عداه من الجوامع الاخرى ولا مفر من التسليم بتفوقه . نحن في فترة من فترات الفوضى التاريخية ، ولكن ما اعجب التباين بين الفوضى وبين الفن الذي بلغ السماكين فخامة ونظاماً ! فما الذي يحمله من معنى وما الذي يعبر عنهُ من شعور أشكوى لله من نظام قديم قد انطفأ نوره ام نشيد الانتصار لنظام جديد قد انبثق فجره ومهما يكن من امر فان الوحي والفن قد بلغا الذروة . واني لا اعتقد ان الاسلام قد بلغ في مجال انتصاراته القيمة ماهو ابدع من السلطان حسن»

اما القاعة المربعة التي تعلوها القبة فهي من العجائب . اننا لا ندري ما العظمة التي تستولي على هذه القاعة الجامعة بين امرين عظيمين متضادين : الثروة الزخرفية والهدوء الذي يشمل المكان» . إن مطالب الحياة الحديثة قد حكمت على السلطان حسن بالنفي : فهو غير معروف للزائرين الذين تجذبهم الاحياء الاكثر ازدحاماً وضجة . وقد استرعى انتباهنا ذلك الهدوء الذي يبدو كأنهُ مقصود من البداية . وفي مصر التي لا تعد فيها الآثار ولا تحصى كثرة تجد جامع السلطان حسن وحيداً منزوياً وهو رغم هذا كله لا يزال من اجمل المباني الاسلامية طرًّا

***

وليس من العبث ان يتوجه المرء خصيصاً لزيارته والاعجاب به فزيارته مقرونة دائماً بالخشوع والادراك وهو ليس بحاجة الى ترجمان يشرحه ويعبر عن جماله وحسنه الفائق وحسبه ان يشاهد فيدرك معاني الجمال . هذا الحصن المكعب الشكل الذي تغشاه الرزانة والصرامة ليذكرنا من غير شك بفترات من التاريخ فيها من المآسي ما يدمي الفؤاد ولا سيما تلك الايام المضطربة التي كان يرفع فيها هامته نحو السماء فالثورات والانقلابات السياسية في ذلك الوقت كانت تحدث والشعب هادىء يتحمَّل في صبر عامل في سلام وصمت . وليس من العبث ان نتأمل هذا الجامع ونعجب بذلك الزمن الخالي الذي بلغ اقصى درجات الخصب والغنى . ولنحب اولئك الفنانين البسطاء الذين لم يكسبوا المعارك وانما عملوا على بث روح الجمال في الاشياء

في الفلسفة الحديثة

مصادر العلم الحديث

للدكتور ابراهيم ناجي

لي سؤال أوجهه اليك ايها القارىء العزيز : اتعرف معنىً لهذه الانسانية الصاخبة المدوّية . كيف نشأت ؟ وكيف تطورت ؟ لا اقصد ان تعيد اليّ فصول التاريخ والجغرافية . أو ان تعيد اليّ فصولاً في علم الاحياء أو الاجتماع . انما أقصد ان تخبرني على وجه التحقيق ما تراه في تطور العقل البشري ! أتظن ان العقل البشري ، ذلك العقل العجيب الذي فهم بالمنطق التجريدي أعظم حقائق الكون ، وأدرك قوانين الضرورة التي تسيطر عليه ، أتظن هذا العقل يمشي الآن بالانسانية في طريق الخير ؟ واذا كنت لا تعتقد ذلك فهل تعرف لماذا يكون النافع ضاراً والذي تتوسم فيه الخير قد يكون مؤدياً للشر ؟ ثم سؤال آخر . .

انت تدرك ايها القارىء الكريم مما تعلمته في التاريخ أن العلوم قد وثبت وثبتها الكبرى بعد عصر النهضة . وان البشرية كانت تغط في نوم عميق قبل ذلك اجيالاً ؟ ما الذي يجعل البشر ينامون ذلك النوم العجيب ؟ وعلى أي نداء يستيقظون ؟ اذا كنت تريد ان تلمّ بدقائق هذا الموضوع الماماً تامًّا فعليك بكتابين من اعظم كتب العالم . الاول كتاب «العقل في دور التكوين» تأليف روبنسون « Mind in The Making » وكتاب « العلم والعصر الحديث » تأليف هويتهيد « Science and the Modern World » واحب ان اوجز لك في هذا البحث علاقة الفلسفة بالعلم وهل نحن الآن في عصر يصلح للفلسفة أو هي قد دالت دولتها ؟

مما لا ينتهي اليه الشك ان الاغريق هم منابع الفلسفة والعلم . وكل ما جاء بعدهم انما جاء أخذاً عنهم أو نسجاً على غرارهم أو تكملة لما بدأوا به . حقيقةً مضت حقب من الاجيال نسي فيها أثرهم . واهملت البشرية أمرهم . وكان الرأي لغيرهم على هذا الترتيب في التاريخ : الرومان — القسطنطينية (الفن البزنطي) وبغداد . العصور الوسطى أي عصور البابوية . الى القرنين السادس والسابع عشر حين استيقظ العقل البشري من غفوته الطويلة . فأخذ المفكرون والعباقرة يرجعون الى مخلفات أثينا . ويراجعون آراء فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو

من أول الامر كان الاعتقاد ثابتاً بوجود نظام طبيعي ثابت يحكم الاشياء كلها ويتغلغل في صميمها . كان الاعتقاد ثابتاً بوجود قوانين أزلية تسيطر على الوجود ويظهر ان الانسان لاعتقاده الفطري بذلك كان مقلداً لذلك النظام الطبيعي. فما كاد أثر أثينا يزول حتى أخذ الرومان يشرعون قانونهم المشهور وهذا القانون مثل أعلى في شيئين : الاول في استقائه من فلسفة أثينا والثاني في جعل الترتيب الطبيعي الذي يشعر الانسان بوجوده في القوى الخفية المسيطرة ، مسيطراً كذلك على أحوال البشر، ومعايشهم وان كان الفرق ظاهراً بين قوى أزلية وقوى مرتبة بأيدي البشر . وزاد هذا الترتيب الطبيعي غلواً على مدى الاجيال فصار ترتيباً قاسياً لا يلين ولا يناقش (وذلك في العصور الوسطى) ومهما يقل في أثر تلك العصور المظلمة فأنهُ من الثابت انها كانت تدريباً للبشرية على النظام والطاعة . ولكن هذا النظام الصارم الذي قوامهُ رد جميع المظاهر الى قوى مسيطرة حديدية المنطق كان يقابله تفاعل كبير . ففي أواخر القرن السابع عشر أخذ العقل البشري يستيقظ متسائلاً : من العجيب ان كل حقيقة من حقائق الحياة نردها الى تلك القوانين المسيطرة . وجميع الخوارق نردها الى قوى مجهولة لا ندرك كنهها . أليس من الصواب ان نعود فنناقش تلك الحقائق الثابتة المقررة لعلّ في مناقشة الامر العادي من جديد فهم لغير العادي وردها الى مصدرٍ واحد

أخذ العقل البشري يناقش من جديد الحقائق التي مرّت على الاجيال صارمة قاسية المنطق لا تلين . .

هذا هو المنطق العلمي الجديد . أوله إيمان بوجود نظام طبيعي للوجود والثاني مناقشة الحقائق التي تبدو لاغلب الناس عادية مألوفة

ومعنى هذا ايمان بقوة العقل البشري وقدرته بمجرد الفكر التجريدي الوصول الى مفتاح تلك القوانين . كانت هذه النقطة في زمنين متقاربين وفي أمرين متقاربين . جاليليو ونيوتن في العلم . وديكارت في الفلسفة . العلم أخذ يناقش الحقائق المقررة من جديد . والفلسفة على يد ديكارت أخذت تقول « اني أفكر فاذن أنا موجود » . فكما كان نيوتن ينظر الى التفاحة ويفهم منها الجاذبية كان ديكارت يراجع الفلسفة من أولها ويردها الى العقل التجريدي وحده . كان يشك في الماضي بوجهٍ عام ليضع على أساس الحاضر فلسفة جديدة . ومن العجيب أثر الرياضيات في ذلك التفكير . فأغلب هؤلاء العباقرة رياضيون لا يستثنى منهم غير هيوم . وقد يجهل كثير من الناس أثر الرياضيات في تفكير البشرية ولكن الواقع أن معنى الرياضيات الفلسفي هو الاعتماد على التفكير التجريدي البحت . فان قوانين الرياضة ومعادلاتها قوانين عامة . وما هو علم الجبر مثلاً ؟ ما معنى س ، ص ؟ ما معنى تلك المجاهيل ؟ معنى ذلك ان تكون القوانين العامة لا علاقة لها

بشخوص معينة. هذا هو معنى التجريد . وكل قانون من هاته القوانين مفتاح لقانون آخر. حتى يمكن ان يقال ان هاته القوانين سلسلة متناسقة من حلقة كبيرة كقصر كبير متعدد الحجر والسراديب . كل مفتاح يفتح باباً جديداً ويؤدي الى حجرة جديدة . وخلاصة هذه النماذج وتلك المفاتيح التي اهتدى اليها المنطق بغير حاجة الى الشخوص والملموسات، ذلك النظام المتناسق الرياضي الذي نسميه « الوجود ». ولكن مع الاسف قد سيطرت على الاجيال حتى بعد عصر النهضة فكرة كثيبة. هذا النظام ما هو ؟ أنظام مادي غير مسؤول؟ هذه الفكرة المادية التي تجاهلت الفكرة التي وراءها ، وهي فكرة «القوة الحيوية» التي ذكرها أفلاطون وعاد اليها برجسون اليوم — أعطت (اي الفكرة المادية) للعالم معنى الوجود الذي يقود عنانه قوة ميكانيكية غاشمة الى ان وجد الفكر البشري اليوم في مأزق يضطره اضطراراً الى طرح هذه الفكرة المادية . واليك البيان : انتهى المنطق التجريدي البحت الى حقيقة هائلة . بل الى حقيقتين الاولى حقيقة التكرار والثانية حقيقة الاهتزازات . وما الثانية الاّ صدى الاولى . فكل شيء في الحياة يتكرر. هذا التكرار اساس الوجود والحياة ولا يمكن لانسان ان يتذكر شيئاً اذا لم يتكرر . فالفصول تتكرر والقلب يكرر نبضاته والموجة لا ترسم الاّ بتكرار خطوطها. ما هو النور ؟ ما هو الصوت ؟ ما هو اللحن الموسيقي ؟ ما هذه كلها الاّ اهتزازات متكررة . وليس لموجة من موجاتها قيمة في وقت بعينه . وانما قيمتها في التكرار ونحن عندما نحلل عناصر الحياة ننتهي الى الالكترونات والى البروتونات ثم الى ما يسمى الكوانتم اي دقيقة « الطاقة » او الكهرباء التي باهتزازها وانطلاقها تكون البروتونات فالذرات . ولكن هذه الذرات عندما نشاهد مساربها الغيمية نجدها تنتقل ولكنها لا تعبر الفراغ الذي تراه اعيننا: فهل هناك إذن فراغ آخر ؟ ها هي ذي الفلسفة تمدّ يدها لتخرجنا من مأزقنا . وتقول لم َلا . هناك فراغ آخر وراء الطبيعة تعبره تلك الذرات. وهذا الفراغ لا تراه أعيننا ولا تستطيع ان تراه . ولكن العلم يجيء محتجّاً. ويقول. ولماذا ترجعون الى تلك الخوارق. اني أفسر لكم. ألم تهتدوا الى التكرار والاهتزازات ؟ ألم تقولوا ان كل موجة لا معنى لها ولا وجود الاّ بذلك التكرار . ولم لا تكون الحياة أمواجاً من الطاقة . وكل موجة في لحظة معينة لا معنى لها . فاذا تكررت فرسم زمانها بأجمعه هو صورة الموجة وهو مظهرها وكيانها ولذلك ترونها في مكان . ثم تختفي في آخر ثم تعود للظهور في غيره عندما تستكمل اهتزازاتها وزمانها

ما معنى هذا ؟ معنى رائع . ان هذه القوى المتكررة التجريدية البحتة هي التي تكون لُبّ الاشياء الجامدة الملموسة المادية . أو طبقاً لرأي السر جيمز جينز « الوجود فكرة في عقل الله . » ما معنى هذا أيضاً ؟ ان العقل هو كل شيء . وانهُ بمجرد « التجريد » يمكن ان نخلق

من العوالم الجامدة وغير الجامدة ما نشاء . وهناك معنى كبير غـير ذلك . استطاع الفكر ان يستيقظ ليشك ويراجع واعتماداً على قوته أمكن ان يناقش فيصل الى أروع الحقائق . فكثرت المخترعات وازدانت الدنيا بآثار المفكرين ونتاج أدمغتهم . والآن ما حال النفس الانسانية ؟ هل صار الانسان أصفى غرائز وأطهر قلباً وأصفى نفساً ! ! قد لا يكون هـذا فالعقل البشري يثب وثباً . والنفس الانسانية متخلفة في غياهب البهيمية الاولى . وهذا هو للاسف مصدر الشقاء . فأين العبقري الذي يدعو الى مراجعة الاخلاق والمعتقدات ؟ اني قد أتخيله ولـكن لا ألمسه . فهو بعيد بل هو لم يوجد بعد . وعند ما يوجد فقد يشعر العالم بشيء من الايمان الاكبر الذي يتوقف على السعادة التي فكر فيها أفلاطون والتي ينتهي اليها تفكير أصحاب المادة والروح على السواء

فكرة ضائعة

للشاعر الفرنسي سوللي برودوم

فيم أفكر ؟ في هذه الساعة
وفي أيّ حلم جميل قد توارى...

هل أملك دموعاً للبكاء عليه ؟
وقد تركني دهشاً محيّـراً .

هذه السعادة التي لم يكن عمرها الاّ لحظة ،
لا تقدر جهودي على استرجاعها .

لم أتذوّق فرح الوجود الاّ في الحُـلم
وهذا الحلم — وا أسفاه — قد ولّـى . . .

[نقلها خليل هنداوي]

ثورة العرب

ومساعيهم لتأسيس ملك عربي

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

حدث في اثناء الحرب الكبرى حادثان كبيران كان لهما اثر عميق في نفسية العرب وبالتالي في شعرهم ، هما اعدام الشهداء ، والثورة الحجازية . ولسنا في مقام البحث عن الاسباب التي أدت الى كليهما وانما نحن نؤرخ الواقع وأثره في ادبنا العربي الحديث

ومن المعلوم ان الدولة العثمانية لم تكن قبل الحرب عمياء عن الحركات القومية العربية فأخذت تبث عيونها في كل ناحية لتلمّ بكل شيء من امرها . ولم تكن في اول الامر تظهر القسوة والشدة كما يستدل من مفاوضاتها لزعماء الحركة الاصلاحية الذين اجتمعوا في باريس برئاسة عبد الحميد الزهراوي [1] . على انها كظمت ما في نفسها خوفاً من تدخل الاجانب وجعلت تتحين الفرص السانحة

فلما اشتعلت نيران الحرب العامة والغيت الامتيازات الاجنبية اسرعت الدولة الى تفتيش القنصليات المعادية فوقع في يديها بعض الوثائق السرية وبها تمكنت ان تكشف كثيراً من اسرار الجمعيات العربية [2] وحينئذٍ شمرت عن ساعد الجد فقبضت على جماعة من الزعماء ، وتمكن بعضهم من الفرار الى اوربا ومصر

وأحيلت الاوراق الى الديوان الحربي فحكم على نخبة من اعيان الوطنيين بالموت شنقاً . وقد نفذ الحكم في ٦ ايار (مايو) سنة ١٩١٥ في دمشق وبيروت . وحكم بالاعدام غيابيًّا على نحو ستين من الوجهاء ، فضلاً عمن عوقبوا بالنفي او بالسجن [3]

---

(١) راجع صورة الاتفاق بين الطرفين في المنار ١٦ — ٦٣٩ (٢) راجع تفصيل ذلك في كتاب الثورة العربية لامين سعيد ١ — ٦٦ (٣) راجع اسماء الشهداء والمحكوم عليهم غيابيا في كتاب ايضاحات الذي اصدره جمال باشا وكتاب الثورة العربية الجزء الاول

ومن الصعب الآن ان يصف كاتب ما خالج قلوب السكان يومئذ من الهلع والنقمة . وها نحن نعيد ذكرى تلك الايام المؤلمة فيعود الى نفوسنا ما كنا نشعر به من الضغط والرهبة — شعور مخيف كان يخيم على البلاد حتى لم يكن احد يجسر على التكلم او البحث في الشؤون السياسية. او اظهار الاسف على شهداء العربية

على ان ذلك الضغط التركي الرهيب لم يخلُ من فائدة اجتماعية فقد كان من اسباب التقارب بين الطوائف . وذلك لارتباطهم بشعور عام انهم عنصر مظلوم وأثر ذلك بيّن في الشعر العربي لذلك العهد

والى ذلك الضغط وذلك الشعور الاليم بالظلم يرجع السبب في توسيع شقة الخلاف بين العنصرين التركي والعربي ، وبالتالي الى تسهيل مهمة الحلفاء في سوريا والعراق ، ثم الترحيب بهم يوم تمكنوا من الفوز على تركيا وفصل الاقطار العربية عنها . ومما يعكس لنا هذه الحال قصيدة لرضا الشبيبي نظمها على أثر طرد الاتراك من العراق وهي تحمل لنا أسفهُ بل أسف العثمانيين في العراق لسوء السياسة التركية التي أدّت الى التفرقة بين عنصري الدولة الكبيرين . وفيها يقول : [1]

يامن يعزُّ علينا ان نؤنّبهم ... في حيث لا ينفع التأنيب والعذَلُ
جفوتمونا وقلتم نحن ساستكم ... منيً مطيتها الاخفاق والفشلُ
تأبى الحوادث الاّ ان نملّكمُ ... ولا ودين التآخي ما بنا مللُ
أما صفحنا عن الماضي لأعينكم ... أما أديلت لكم أيامنا الاوَلُ

ومنها مشيراً الى حكومة الاتحاديين وسوء إدارتهم : —

قيّضتمُ لحفاظ الملك طائفة ... لغيرها الملك والاجناد والدول
قوم من العرب وخز النحل أريهمُ ... وحظ قوم سوانا الاريُ والعسل
عند المغانم تنسونا ويفدحنا ... من المغارم ثقلٌ ليس يحتمل
أين الرهين بأموالٍ لنا ذهبت ... ومن يقيدُ باخوانٍ لنا قُتلوا
إما شهيدٌ معلّى فوق شاهقةٍ ... او موثق بحبال الأسرِ معتقل

فالشاعر هنا يعيد ذكريات الحرب وما قبلها ويعزو الى الاتحاديين ما أصاب البلاد من شقاء. وما نجم من خلاف أدى الى إوهان قواها ووقوعها في يد الاعداء

***

ومن البديهي ان الشعر العربي في الاقطار العثمانية لم يستطع اثناء الحرب ان يبكي الشهداء كما كان يود . فلما وضعت الحرب اوزارها وخرجت سوريا والعراق والحجاز من المنطقة العثمانية عاد الشعراء الى ذكريات شهدائهم وصاروا يعددون مآثرهم . وقد رفعهم الشعر الى مصافّ

(١) راجع كتاب « العراق في دوري الاحتلال والانتداب » للحسيني ص ٥٥

الابطال فافتنّ في تمجيدهم وتقديس أهدافهم ، كما فعل الزهاوي في قصيدته « النائحة » وهي تقارب المائة والستين بيتاً . ولا نخطيء اذا سمّيناها « معلَّقة الشهداء » . ففيها يصف المشانق وقبور القتلى وأهلهم ، ويذكر أسماء الشهداء واحداً واحداً باكياً شبابهم طالباً الثأر لهم . ثم يذكر ما أصاب الناس من نفي وتشتيت . ويعقب بذكر الثورة ودخول العرب دمشق ويختمها بذم جمال باشا ، والتفاؤل بعهد زاهر ينسي العرب ماضي آلامهم : واليك بعض أبياتها :—[1]

على كلّ عود صاحبٌ وخليـلُ ... وفي كل بيتٍ رنـة وعويلُ
علاها وما غـير الحميَّة سلَّمٌ ... « شبابٌ تسامى للعلى وكهولُ »
لقد ركبوا كور المطايا يحثهم ... الى الموت من وادي الحياة رحيل
رجالٌ عليهم من سنا الفضل رونقٌ ... وللمجـد فيهم غرّةٌ وحجولُ
مشوا في سبيل المجد يحدوهم الردى ... وللحق بين الصالحين سبيلُ

***

قبورٌ ببيروت وأخرى بجلقٍ ... تُجَرّ عليها للرياح ذيولُ
سرتْ روحهم تطوي السماء لربها ... وما غير ضوء الفرقدين دليـلُ

وبعد ان يذكر الشهداء ويعدد أسماءهم وصفاتهم يقول :—

بني يعربٍ لا تأمنوا الترك بعدها ... بني يعربٍ ان الذئاب تصولُ
ولن تسكن الايام عن عصبةٍ جنوا ... ولكن بما كالوا لهم سنكيلُ
وقد سلبوا حرية الناس مذ عتوا ... وتلك مرادٌ للحياة وسُولُ
وصبّوا دماء من شعوب بريئةٍ ... فاخضلّ وهدات بها وتلولُ

ومنها مخاطباً جمال باشا :—

جمالُ لأنت القُبح سموك ضده ... وثوبك اذ أرفلت فيـه ذليلُ
تُريد لمجد العُرب فيما أتيتهُ ... زوالاً ومجد العرب ليس يزولُ
رويدك لا تغترّ بالدهر ان صفا ... ولا تأمن الايام فهي تدولُ
وراءك لا تقرب رواسي يعربٍ ... فقرب رواسيها عليك وبيلُ

***

ولخير الدين الزركلي قصيدة نظمت (كما جاء في ديوانه) « على اثر اعدام الترك فريقاً من

(١) راجعها في ديوانه او في الادب العصريّ (بطي) ١ — ١٠٨ .

شبان العرب بسورية وقيام الثورة بالحجاز » ومنها في الشهداء —[١]

نعى نادب العُرب شبّانَها فجدّد بالنعي احزانَها
بكى كلُّ ذي عزّةٍ تربه فهاج نزاراً وعدنانها
فمن للمدامع ان لا تفيضَ وترسلَ كالسيل هتّانها
فجائعُ هنّ حديث القلوب وهيهات تسطيع سلوانها

ومنها : فأبكى على غرر المسلمين أباة المذلّة قرآنَها
وابكى على آل عيسى المسيح شمّ العرانين صلبانَها
نعتْ لغة العُرب من احكموا لسان قريشٍ وتبيانها
وناحتْ على من بنوا عزّها واعلوا بما اثّلوا شانها

وهناك قصائد لغير هذين الشاعرين فلتراجع في مظانّها

***

وكما نسمع بكاء الابطال في الوطن نسمعهُ في المهاجر . فان المهاجرين لم يكونوا يوماً اقلّ حماسةً من اخوانهم المقيمين . والذي يقرأ دواوين ابي الفضل الوليد ، والشاعر القروي ، وفرحات، والجرّ، وصوايا وسواهم يرى من اتقاد العروبة ما قد لا يراه في البلاد العربية نفسها. واليك انموذجاً من شعرالمهجر في الشهداء وهو من قصيدة موضوعها « ايحيي العرب »[٢]

بلادَ الشام غادرك الكرامُ فعيش الحرّ فيك اذن حرامُ
لقد كثرت من العرب الضحايا ولم يهتزّ في الغمد الحسامُ

ومنها مشيراً الى السفاكين حاضّاً العرب على الثورة —

وحتّام المخافة من علوجٍ لهم ذمٌّ وليس لهم ذمامُ
يرون محبة الاوطان جرماً بهِ تهوي من الاحرار هامُ
لقد قتلوا العواطف والمزايا ففي احشائنا منها سهامُ
أنبقى ساكتين بلا حراكٍ وللثورات حولينا اضطرامُ

ثم يخاطب الشهداء ويصف شجاعتهم لدى الموت

أيا صحبي الكرام ألا فداكم لئامٌ بعد ما قلّ الكرامُ
مشيتم باسلين الى المنايا وكان لكم على النطع ابتسامُ

(١) ديوانه (١٩٢٥) ٦٥ (٢) ديوان الانفاس الملتهبة (للوليد) ٧٢

ليحيَ العرب قد صحتم ومتم فصيحتكم لخطتكم دوامُ
فنحن لدى بسالتكم حيارى وأنتم فوق ذلتنا عظامُ
على أعواد مرقيةٍ رُفعتم منارات بها يهدى الانامُ
وكنتم قدوةً للشعب مثلى فهل يُرجى له يوماً قيامُ

ويتقدّم من هنا الى مخاطبة ارواحهم ثم يختم قوله بالحكمة التالية —

وربّ ضحيةٍ أَحيتْ شعوباً فكان لها انعتاق واقتحامُ
على البلوى اذن صبر جميلٌ لنا آمالنا ولك السلام

وللوليد على هذا النسق عدّة قصائد عربية الروح كصدى الاجيال ، والصرخة الكبرى والدولة العربية وسواها . ومثل ذلك للشاعر القروي . ومن اقواله في الشهداء قصيدة مطلعها (١)

خير المطامع تسليم على الشهدا ازكى الصلاة على ارواحهم ابدا
فلننحن الهام اجلالاً وتكرمةً لكل حرّ عن الاوطان مات فدى
يا انجم الوطن الزهر التي سطعت في جو لبنان للشعب الضليل هدى
قد علقتكم يد الجاني ملطخة فقدست بكم الاعواد والمستدا
بل علقوكم بصدر الافق اوسمة منها الثريا تلظى صدرها حسدا
أكرم بحبل غدا للعرب رابطة وعقدة وحدت للعرب معتقدا

والقصيدة كلها — كا كثر شعر القروي — غيرة وطنية متقدة ، واذكاء لنار الحمية القومية في صدور الشبيبة العربية . وقد اتخذ الوطنيون في سوريا ولبنان يوم ٦ ايار (مايو) عيداً تذكاريًا عامًا . ففي بيروت كما في دمشق يقيمون كل عام مهرجاناً حافلاً يلقون فيه الخطب والقصائد ذاكرين اولئك الوطنيين الذين ضحي بهم على مذبح السياسة والقومية ولو جمع كل ما قيل فيهم منذ انتهاء الحرب الكبرى الى الآن لملأ مجلداً ضخماً . فنقف هنا عند حد الاشارة اليها

***

اما « الثورة الحجازية (او العربية) » فقد اعلنت في مكة سنة ١٩١٦ . والذي يطالع ما نشر من الكتب والرسائل عنها (عربي وغير عربي) يصل الى النتائج التالية —

١ — ان الشعور العربي القومي الذي شهدناه يتأجج عقب اعلان الدستور حتى توصل الى المطالبة باللامركزية خبا في اول الحرب . ولكنه لم يلبث ان تحول الى كراهية الترك ورغبة في التخلص منهم لضغط الاتحاديين في اثناء الحرب

(١) راجع ديوانه الاعاصير ص ٥٥

٢ — ان العلاقة بين الاستانة ومكة كانت على شيء من التوتر وقد زادها توتراً اتصال شريف مكة بالجمعيات العربية

٣ — ان الحلفاء وأخصهم بريطانيا تمكنوا من اجتذاب الشريف حسين بن علي اليهم بوعود خلابة منها انهم يساعدونه على استقلال العرب وتأسيس مملكة عربية

٤ — وبناء على هذه الوعود اعلن الحسين الثورة على الاتحاديين فاشترك العرب فعلاً في الحرب الكبرى

وقد كان لهذه الثورة في البلدان العربية (ما عدا مصر) نتائج معنوية خطيرة اهمها انها اذكت في نفوس الناس العصبية الجنسية ، ووضعت في ايديهم سلاحاً فعالاً للمطالبة باعادة مجدهم التليد فأصبح الملك حسين في الادب العربي (في سوريا والعراق) بطل العرب والمطالب الاكبر بحقوقهم . وانا نلفت النظر هنا الى منشور الثورة [1] الذي اذاعه باسطاً فيه الاسباب التي حفزته الى مقاتلة الاتحاديين ومنها اضطهادهم للغة العربية ، وقتلهم لكثيرين من نوابغ النهضة القومية وما قاموا به في البلاد العربية من نفي أسر وافراد ومصادرة اموال ومتاجر ، وغيرذلك من الاعمال المنكرة

وقد اشترك في هذه الثورة عدد غير قليل من السوريين والعراقيين ، وبينهم نخبة من ضباط الجيش التركي سابقاً . ولا بدع فقد اعلن الشريف « انها عربية تشمل كل عربي كائناً من كان على شرط أن يكون صادقاً لوطنه مخلصاً لقومه » [2]

ولاشك أن الاتراك بذلوا جهدهم لاخماد الثورة . وقد استطاعوا في اثناء الحرب ان يكمّوا افواه الناس في سوريا والعراق عن نشر اخبارها . بل ان يحملوهم على التشنيع بها . على انها كانت في الحجاز قوّة فعّالة . وكان للادب نصيب كبير فيها . ومن حاملي لوائه شاعر الثورة فؤاد الخطيب فقد اوحت اليه بكثير من الشعر الحماسي . كقوله من قصيدة حيّى بها استقلال العرب ونهضة الحسين ومطلعها [3] —

حيّ الشريف وحيّ البيت والحرما وانهض فمثلك يرعى العهد والذّمما
يا صاحب الهمّة الشمّاء انت لها ان كان غيرك يرضى الأين والسّأما

ومنها مخاطباً الاتحاديين —

يا آل جنكيز ان تثقل مظالمكم على الشعوب فقد كانت لهم نِعما

(١) راجع المنشور في الثورة العربية (امين سعيد) ١ — ١٤٩ وفي كتاب الوثائق والمعاهدات لجريدة الايام الدمشقية ص ٢٦

(٢) كتاب ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ٢٣١ (٣) كتاب ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ٢٤٤

فالظلم ايقظ منهم كلّ ذي سِنَةٍ ما كان ينهض لولا انه ظَلما

ومنها مشيراً الى اشتعال الثورة في الحجاز —

فمن يكن عن أباة الضيم في صممٍ فليسمع اليوم صوتاً يحسم الصمما
فقد تكلم صوتُ النار مرتفعاً من الحجاز فشقّ البيد والأكما
يا ابن النبي وانت اليوم ناصره قد عاد متصلاً ما كان منفصما
والتفّ حولك أبطالٌ غطارفة شمٌّ الانوف يرون الموت مغتنما
فاصدمْ بهم حدثان الدهر معترضاً صُدّاً من الترك ان تعرض لهُ انهدما

ثم يلتفت الى العرب مستفزاً حميتهم ومذكراً اياهم بالمجد الغابر

إيه بني العرب الاحرار ان لكم فجراً أطلّ على الاكوان مبتسما
من ذلك البيت ، من تلك البطاح ، على تلك الطريق مشت أجدادكم قدَما
من كل أروع وثّابٍ اذا انتسبت بيض الصوارم كان الصارم الخذِما
لستم بنيهم ولستم من سلالتهم ان لم يكن سعيكم من سعيهم امما
الى الشآم ، الى أرض العراق ، الى أقصى الجزيرة سيروا واحملوا العلما

ومثل الخطيب خير الدين الزركلي . ومن نفثاته في هذا الباب قوله سنة ١٩١٨ من قصيدة عنوانها العرب والترك يصف فيها فظائع الاتراك (١) —

عثا أحفاد جنكيز فساقوا سلائل يعربٍ سوق العبيدِ
فكم قتلوا من الاخيار صيداً وكم ساموا المهانة من عميدِ
وكم حملوا على الاعواد ظلماً وكم سَقَوُا المنيّة من شهيدِ

ثم يشير الى الثورة فيقول : —

الى أمّ القرى عدتِ المذاكي وفي أمّ القرى خفقُ البنودِ
بروقٌ في الحجاز ومضْنَ وهناً فكان بجلّقٍ قصف الرعودِ

ويقول من قصيدته « الشهداء » وقد مرَّ ذكرها : —

أبى السيف الاَّ انتقاماً لها وخاف على الضيم خسرانها
أثار بني هاشمٍ في الحجاز وأنطق في الترب حسّانها
كتائب هبت تلبي الدعاة وتطوي القفار وكثبانها
برمحٍ يرنّ وعضبٍ يئن يُنبّه في التركِ وسنانها
هو الثأر أدركه الثائرون اشجى فروقاً وسلطانها

(١) ديوانه ٨٣

وقصائد هذين الشاعرين نموذج لما نظم في الثورة والقائمين بها

وما نراه في الوطن نراه في المهجر فقد حركت الثورة هناك الشعر العربي فتبارى زعماؤه في وصفها وتعديد حسناتها ، وتمجيد من أوقدوها . كقول رشيد أيوب[1] —

من أقاصي الروم نهديك السلام مع نسيم السَّحَرِ
يا شريفاً كلّما ناح الحمامْ فوق غصن الشجر

—

صاحب السيف الصقيل المستهاب في دياجي المحنِ
انت من قوم لهم تعنو الرقاب من قديم الزمنِ

—

خضتها حرباً على الباغي تدور بكماة أُسُدِ
وتركت الترك اصحاب الفجور عبرة للابدِ

—

فأدر ايها الساقي الكؤوس جاء وقت الطربِ
واسقنا من خمرة تجلو النفوس من ظلام الكُرَبِ

—

واصغ للبلبل ان لاح الصباحْ صاح فوق القُضُبِ
فلتعش للعزّ في تلك البطاح دولة للعَرَبِ

وهذا الشاعر من مهاجري السوريين في الولايات المتحدة وهم عموماً أقل تأثراً بالحركة العربية من مهاجري أميركا الجنوبية كما يشهد بذلك شعرهم المنشور في الدواوين والصحف وقد ألممنا وسنلمّ أيضا بشيء من أقوال هؤلاء « الجنوبيين » الذين كان لهم يد تذكر في إضرام الروح العربية وحفظ الشعلة القومية بين أبناء العرب في تلك الاصقاع

ولما انسحبت الجيوش التركية من الاصقاع العربيـة ودخل العرب الشام بقيادة فيصل ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ أخذت الشعر نشوة الظفر حتى كنت تراه في دمشق وبيروت والقدس وسائر الحواضر تتدفق الحماسة منهُ تدفّق السيل كقول العاملي من قصيدة —[2]

أجل بزغت في الشرق شمس الحقائق برغم العدى والمزعجات الطوارقِ
غداة انتضى العضب المهنّد فيصل بكل كميٍّ رابط الجأش صادقِ
لعمرك ما العرب الكرام يهولها صليل المواضي او دويّ البنادقِ
ولا راعها ما جرعت من مرائر وقد نصبت قدماً حبالُ المشانقِ

(١) الايوبيات ٦٩ (٢) ديوانه حماسيات ٤٧

وقول الزهاوي من قصيدته النائحة (وقد مرّ ذكرها) —

وجاءت خيول العُرب تعدو وراءها بمقربة للانكليز خيولُ
هنالك اهل الشام صاحوا وكبّروا وكبّر اعلامٌ بها وسهول
وكان لاخذ الثأر قد ثار ضيغمٌ له في مغار الغابتين شبول
اغر كريم الاصل من فرع هاشم فطاب له فرع وطاب اصولُ

وقول امين ناصر الدين في «الالهام» من قصيدة موضوعها يوم الصلح : —

فيالك يوماً فيه وثق للورى عرى الصلح رهط صادق العزم حازمُ
فنيلت حقوق واستقلت ممالك وأنصف مظلوم وجوزي ظالمُ
نهضت بهم من وهدة اليأس جملةً فعيشهم غضّ الجوانب ناعمُ
طلعت عليهم والوجوه عوابس ولم تمض الاّ والثغور بواسمُ

وقول اسعد خليل داغر من قصيدته «تاريخ الحرب الكبرى» في فتح سوريا : —

بشراك سوريةُ العزيزةُ فافرحي وتهللي بخلاص شعبك واطربي
فالله سؤلك قد اجاب فبالغي ما شئت في حمد الاله واطنبي
وعلى الأُلى نجوك آيات الثنا صوغي وعن قدر الصنيعة أعربي
اني لمنقذك العظيم لشاكرٌ وبنصره هذا لاكبر معجب

وفي ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٨ احتفل العرب احتفالاً باهراً برفع العَلَم العربي في المكان الذي شنق فيه شهداؤهم ، فكان لرفعه هزّة ادبية عظيمة وهي تتجلّى في عشرات القصائد والخطب التي جاشت بها خواطر الادباء من جميع المذاهب . واليك منها هذه القطعة الحماسية وهي من مخمس للشيخ مصطفى الغلاييني[١]

رايةَ العُرب رايةَ المدنية رايةَ المجد رايةَ الحرية
انت مهوى آمالنا الوطنية ومنارٌ يهدى السبيلَ السوية
دمت فينا مدى الزمان عليّه

بك نحمي الحمى المفدّى ونجني ثمراتٍ تحي القلوبَ وتُغني
ونرجّي الحياة في روض امنٍ وارفٍ ظلّه خصيب اغنّ
في حمى دولة العلى العربية

(١) راجع قصيدته «نشيد الحرية» في ديوانه

ومن هذه الحماسيات قول شاعر مسيحي من موشح[(١)]

ايها الابطال حيوا العلما واحملوه
وانصبوه فوق اسوار الحمى واحرسوه
كن لقومي رمز مجد وعلاء في الامم
وتموّجْ فلك الشعب فداء يا علم

ويعكس شعور المهاجرين قول ابي الفضل الوليد من قصيدة موضوعها نشيد العلم[(٢)]

العُرب حولك جندٌ ايها العَلَم منهم تآلفت الاوطار والهمم
من خضرةٍ وبياض نعمة وهدى وحمرة وسواد نقمة ودمُ
الوانك استكملتْ امجاد مملكةٍ فيها تلاقى النهى والبأس والكرم
اليك نرنو وفي اجفاننا عِبرٌ وفي القلوب شعور بات يحتدم
من الحجاز الى ارض الشآم الى ارض العراق لك الآفاق تبتسم
اذا طلعت تطلّعنا الى شرف وعزة فاطلّت حولنا الامم

وقس على هذه الامثلة القليلة ما لو أثبتناه لما وسعته عشرات الصفحات

***

كان الحزب العربي يأمل تأليف سلطنة عربية تضم الشام والعراق والحجاز وسائر الجزيرة العربية تحت العَلَم الهاشميّ . فتكون هذه الاقطار امارات مستقلة في اداراتها الداخلية ولكنها مرتبطة بعرش واحد يجلس عليه الحسين وأولاده من بعده . وكان هذا الحزب يوالي دولة بريطانيا العظمى ويعتبرها سنداً للدولة العربية وحليفة لها على طوارىء الزمن

فلما انقضى العام الاول على تأسيس حكومتهم في دمشق ظهر لهم ان ثقتهم بوعود الحلفاء لم تكن قائمة على أسّ ركين ، وان ألاعيب السياسة الاستعمارية لا يؤمن شرها ، فأخذ التشاؤم يتسرب الى نفوسهم . وبعد أن كانوا بالأمس يطفرون طرباً لذكر الثورة والعَلَم العربي والسيادة القومية ، وقفوا يتهامسون بما سيؤول اليه أمرهم . وطبيعي في مثل تلك الحال أن يمس زهرة شعرهم القومي شيء من الذبول — مسحة من الشعور بالظلم . وعلى ذلك قول الزركلي سنة ١٩١٩ من قصيدة له مطلعها :—[(٣)]

فيمَ الونى وديار الشآم تُقتَسمُ أين العهود التي لم تُرع والذمم

(١) حليم دموس — ديوانه — ٣٠٧ (٢) الانفاس الملتهبة ١٢٠ (٣) ديوانه ١٥

وهي أكثر من أربعين بيتاً ، وقد يصل فيها شعوره الى درجة الثورة على الظلم فيقول متوعداً —

اليّةً بسماءٍ ظلّلت وطني	وأنبتت عشبه بالغيث ينسجمُ
لئن تولّوا رعينا حسن ودّهم	وصيين منا ومنهم في العروق دمُ

وأشد من ذلك قول الغلاييني في دمشق سنة ١٩٢٠ — (١)

هبّوا فأمتكم أمست على خطرٍ	جارت عليها الاعادي جور مُنتقمِ
حتى تسيل ربوع الشام مُفعمةً	دماً يسيل الردى في سيله العَرِمِ
وذمةِ العُرب والايام شاهدةٌ	لنضرمنَّ الوغى في السهل والعَلَمِ
حتى يخلّوا بلاد العُرب أجمعها	من ساحل الروم حتى ساحل العجمِ

ولم يكن شعراء المهجر أقلّ من شعراء الوطن شعوراً بمكائد الاستعمار وخوفاً من ضياع الآمال . ففي الحفلة الكبرى التي احياها الحزب الوطني السوري في بونس ايرس سنة ١٩٢٠ احتفالاً بتسنم فيصل عرش سوريا القى الدكتور جورج صوايا قصيدة حماسية قال فيها مخاطباً الامة العربية (٢) —

يا امتي جاهري بالحق لا تجمي	ونازعي الخلق بقيا مجدك الهرمِ

ومنها مشيراً الى فيصل والعَلَم العربي —

قد قام فينا صلاح الدين ويحهم	فليقحم الشام من قد قال لم يقمِ
ففيصل العُرب مستلٌّ بساحتها	في حده الحدُّ بين الذل والشممِ
يا ايها الشعب دافع عن كيانك لا	تجبنْ وذدْ بالقنا عن مجد ذا العلمِ

وقد حملت الحماسة شاعراً كبيراً من شعراء المهجر ان يطلب من وطنه لبنان الانضمام الى الدولة العربية في سوريا واليك بعض قوله في ذلك (٣)

فانْ لم ترضَ بالعُرب اتّصالاً	فلا تجعل جزاء الخير شرّا
ولا تطلب لاوربا انتصاراً	على الشعب الذي ولاّك نصرا

ويقول مخاطباً فيصل —

أفَيْصَلُ والمطامع محدقاتٌ	بنا وحوادث الايام تترى
فلا تترك لذي طمع علينا	يداً تخفي وراء الحلو مرّا

ثم يتطرق الى ذكر الاحزاب واختلافها والى آمال الوطنيين الاحرار فيقول متوعداً —

وان نفشل ويغشى الشام ضيمٌ	جعلنا الشام للافرنج قبرا

(١) ديوانه ٦٦ (٢) ديوانه همس الشاعر ص ١٠٥ (٣) الياس فرحات — راجع مجلة الاصلاح (بونس ايرس) مج ٤ عدد ٨

ولهذا الشاعر الوطني كثير مثل ذلك

ومن يراجع الشعر العربي السياسي في السنتين التاليتين للحرب (١٩١٩و١٩٢٠) يجده واحداً في جميع الاوساط السورية والعراقية — نقمة على سياسة اوربا في الشرق ودعوة الى الجهاد في سبيل الاستقلال والمحافظة على كرامة العَـلَم العربي . ولعل اهم ما اثار النفوس في ذلك الوقت واقعة ميسلون وما كان من بسط الانتداب على البلاد السورية — ثم الثورة العراقية والهابها العصبية القومية على ضفاف الرافدين (وستذكر في باب خاص)

اما مصر فكانت مشغولة باحوالها الخاصّة — كان شعرهـا السياسي منصرفاً الى محاربة الاحتلال ، وتوجيه نظر الامة الى الاستقلال . وبرغم ما كنا نراه يومئذ لبعض ادباء المصريين من العطف على القطرين الشقيقين (سوريا والعراق) لا يسعنا الآن ان نقول ان الرأي الادبي العام في وادي النيل لم يكن عربيّ النزعة — بل نذهب الى ابعد من هذا فنقول انه كان ناقماً ثورة الحسين على الخلافة العثمانيّـة ، تلك الثورة التي انتهت بانتصار الحلفاء وتعزيز الاحتلال (عهدئذ) في مصر . ولذا وقف الشعر المصري ازاء القضيّـة العربيّـة وقفة المعرض نافضاً يده من كل ما له علاقة سياسية أو قومية بسائر البلدان العربية

ويؤيد قولنـا هذا ما صرح به مصريٌّ صميم (١) اذ قال في حفلة تكريم الوفد العراقي سنة ١٩٣٦ مشيراً الى هذا الموقف والى تحوّل الشعور المصري (٢) —

«منذ عشرين سنة أو نحوها كان اكثر المصريين اذا ذكر البلدان العربيّـة ذكرها في شيء من الموجدة يشبه الالحاد » . وبعد أن يذكر أن نظرهم الى الاقطار العربية لم يكن يختلف عن نظرهم الى أي قطر شرقي — كاليابان او الصين مثلاً — يقول — « تلك المرحلة الاولى كانت مرحلة الوساوس والشكوك . فلما توالت الخطوب دراكاً على الاخوات المتقاطعات استيقظت روح الايمـان من سباتها العميق فاخذت الالسنة والاقلام العربية كلما ذُكرت العروبة والآلام الشقيقات ذكرتها مصحوبة بشعور من الاخاء لم يكن قبل موفوراً »

***

وقد كان الشعراء في سوريا والعراق حتى في « مرحلة الشكوك والوساوس » التي يشير اليها الاستاذ دياب اعطف على القضية المصرية . على ان تحول الشعور المصري الاخير نحو الشقيقـات العربية قد زادهم حماسة واهتماماً وسنرى بعد كيف يظهر ولاءهم للوطنية المصرية وقدرهم لجهادها

(١) محمد توفيق دياب منشىء جريدة الجهاد(٢) راجع خطابه في صوت الاحرار عدد ٧٦٢

الفيلسوف المهمل

أهم نواحي عبقريته

ترجمة جديدة لاسحق نيوتن

ليس في تاريخ العلم الحديث عبقرية علمية أصفى معدناً وأوسع نطاقاً من عبقرية « أمير الفلاسفة » اسحق نيوتن . ولكن هذا « الفيلسوف الطبيعي » الذي وضع كتاب المبادىء Principia وكشف تركيب الضوء واستنبط حساب التمام والتفاضل Calculus وصنع المرقب الماكس كان يعني كذلك بالفقه والتاريخ والكيمياء القديمة التي غرضها تحويل العناصر الخسيسة الى أخرى رزينة وثمينة، فكان يهمل الناحية العلمية الاصيلة من عبقريته لانه كان يظن ان قيمة المباحث التي من النوع الثاني أهمُّ وأجدى . فنحن في حياة نيوتن أمام « عبقري من الطبقة الاولى في موضوع لم يكن في حسبانه ذا شأن من المقام الاول »

هذا هو السلك الذي ينتظم حبات العقد في سيرة نيوتن كما وضعها صليفن الكاتب الانكليزي ونشرت من أشهر بعيد وفاته (١)

لقد كتبت سيرة نيوتن غير مرَّة ونشرت رسائله أو معظمها فليس في كتاب صليفن شيءٌ جديد كبير الشأن لم يكن معروفاً . وانما العناية بكتاب صليفن تستمد من انهُ أعاد كتابة السيرة النيوتونية من ناحية جديدة . أي أنهُ رسم صورة لفيلسوف الجاذبية بنفس الالوان والخطوط التي رسمت بها صورهُ السابقة . ولكنهُ قدَّم وأخَّر وأخفى وأبرز في ألوانه وخطوطه على وجه يلقي على شخصية الفيلسوف ضوءاً جديداً . ومدار هذه الصورة الجديدة هو أن نيوتن لم يكن يعلق شأناً كبيراً بسرِّ عبقريته في الرياضة والطبيعة والفلك

خذ مذهب الجاذبية . فليس هناك ريب في أن نيوتن بدأ يهتمُّ بظاهرة الجاذبية وهو بين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من عمره . قال في احدى رسائله انهُ بدأ في ذلك السن « يفكر في وصول الجاذبية الى مدار القمر . . . وبذلك قابلت بين القوة اللازمة لحفظ القمر في مداره بقوة الجاذبية على سطح الارض » وكان ذلك في سنتي الطاعون (١٦٦٥ و ١٦٦٦) عندما ترك جامعة كمبردج وعاد الى أهله الى ان تخفّ وطأة الوباء . وليس هناك شك كذلك في

(١) Isaac Newton 1643-1727 by J. W. N. Sullivan. Macmillan. London 1938-8/6

انهُ كان مهتمًّا بالبحث في هذا الموضوع بعد انقضاءِ ثلاث عشرة سنة ثم بعد انقضاء عشرين على ذلك استجاب الى حثّ أصدقائهِ فوضع في سبعة عشر شهراً كتاب «المبادىء»

فالسؤال الذي يستوقف النظر هو هذا: لماذا تأخر نيوتن في نشر مكتشفاتهِ الخطيرة الشأن؟ كان التفسير المقبول حتى الآن — وهو الذي أخذنا به في المقتطف — انهُ عندما أراد القيام بعمل الحسابات الخاصة بمذهبهِ في الجاذبية كان القياس الذي اعتمده لنصف قطر الارض غير دقيق فجاءَ اختلاف بين النظرية والواقع في حسابهِ، فأبى عليهِ ضميرهُ أن ينشر مذهباً جديداً لم يتيقَّن كل التيقُّن من دقتهِ. ولكن مطالعة أقوال نيوتن ورسائله تبين انهُ كان يعتقد ان المطابقة بين النظرية والواقع كانت لا بأس بها. وقد أثبت العلاَّمة كاجوري مؤرخ العلوم الرياضية ان هناك ما يبعث على الاعتقاد بأن القياس الذي اعتمدهُ لنصف قطر الارض كان يصحُّ الاعتماد عليهِ

وقيل كذلك في تفسير اهماله لنشر ما كشف بأنهُ فرض في حساباتهِ ان كتلة الارض مركزة في مركزها وان هذا الرأي لم يثبت لهُ حتى استنبط فرعاً جديداً كاملاً في الرياضة العالية وان ضميرهُ أبى عليهِ النشر قبل ذلك. ولكن نيوتن نفسهُ لم يترك قولاً ما يفيد انهُ كان يعلّق شأناً كبيراً بهذه الصعوبة التي صادفها بل هنالك ما يشير الى انهُ كان يرى — بصرف النظر عن الارقام — ان نظرية الجاذبية كافية لتفسير حركات السيارات ومداراتها

وها هو ذا الآن كتاب صليفن يأتينا بتفسير جديد غاية في البساطة وهو ان نيوتن لم يكن يظن ان الناموس الكوني الذي كشفهُ كان ذا شأن عظيم. بل كان في نظره مسألة فلسفية هامة في ذاتها ولكنها لا تخرج عن كونها حلاًّ لمشكلة تستدعي الاهتمام. ذلك لان عنايتهُ كانت منصرفة على الغالب الى موضوعات فقهية وتاريخية وكيمياوية بالمعنى القديم

وكان موضوع الضوءِ قد استرعى عنايتهُ. فاهتمّ بهِ وكشف فيهِ كشوفاً خطيرة. إلاّ انهُ كان منذ طفولتهِ يحب اللُّعَب الميكانيكية وتفكيكها وتركيبها وبرع براعة عظيمة في ذلك. ومع ان بحوثهُ في الضوءِ كانت دون بحوثهِ في الجاذبية نراهُ يؤثر الانصراف اليها لانها كانت ميداناً لاجراء التجارب بأجهزة تعيد الى الذهن ذكرى اللعب التي آثرها في طفولتهِ

كانت الرسالة الاولى التي قدَّمها الى الجمعية الملكية خاصة بالمرقب العاكس المعروف بالمرقب النيوتوني وهو المرقب الذي تحلُّ فيهِ المرآة لجمع الضوء محلّ العدسة. وقد كان هذا المرقب وليد إبداعهِ الذهني وبراعتهِ اليدوية. ومع ذلك لم يخطر له أن يعرض على الجمعية كشفهُ الخاص بالضوء وهو ان الضوء مركب من الالوان المختلفة مع علمهِ ان هذا الكشف الاساسي مهَّد لهُ السبيل الى صنع المرقب العاكس

وما يصح على موقفهِ من مكتشفاتهِ الفلكية والطبيعية يصح كذلك على موقفهِ من مكتشفاته الرياضية . فقد كان يبدو عليهِ انهُ كان وهو معنيٌّ باستنباط فرع جديد في الرياضة العالية كأَنهُ مكبٌّ على شرّ كبير يمارسهُ في الخفاء لا كأنهُ يسدي خدمة عظيمة لتوسيع آفاق الفكر الانساني. ولذلك لم ينشر ما توصل اليهِ.ولا أبدى اهتماماً ما بأسلوب ندّه الفيلسوف الالماني ليبنتز في الموضوع نفسه . ولا كان يهمهُ ان يذاع ويعلم انهُ السابق الى الكشف . الاَّ ان الامر الذي لم يسعهُ ان يطيقه ويصبر عليهِ ، كان الزعم المروي عن لسان ليبنتز بأن نيوتن اخذ عنه ولم يعترف بما اخذ ولا عمن اخذ . ومع ذلك لم يكن يرغب في الجدال بوجهٍ عام . فقد كان في قدرته ان يناضل وان يثبت اشياء انكرت عليه ويصحح اخرى رويت خاطئة ، ولكنهُ كان يرى ذلك مضيعةً للوقت

كان نيوتن في الثانية والاربعين من العمر عند ما اتم تأليف «المبادىء» الذي قال فيه لابلاس « ان لكتاب المبادىء الذي وضعه نيوتن مقاماً فوق كل ما انتجهُ العقل البشري ». أَلَّفهُ في سبعة عشر شهراً اجابةً لحث اصدقائهِ ولا سيما هالي الفلكي المشهور . وكثيراً ما اشار نيوتن الى كتاب المبادىء بقولهِ « كتاب هالي » . أَلفهُ وكأنهُ خاضع طيلة تلك الشهور لقوة علوية لا قبل له بمقاومتها . فلما انتهى منهُ أُطلق من عقالها وكان انطلاقهُ حاسماً . فقد عاش نيوتن حتى بلغ الخامسة والثمانين ولكنهُ لم يعن في النصف الثاني من حياته عناية جدية بالعلم . ولا يعلم سبب ذلك على وجه صحيح فقد يكون الاعياء الذي اصابه على اثر الانتهاء من المبادىء وقد يكون تأثره بوفاة والدته او غير ذلك من الاسباب ولكنها جميعها غير وافية . الاَّ ان الواقع انهُ اصيب بضعف نفسي وكاد ان يصاب في سنة ١٦٩٣ بخلل عقلي . بل ان الخلل اصابه مدى سنة تقريباً كما يبدو من ضعف التناسق في رسائله الخاصة ولكنه استرد صحته العقلية في آخر السنة وبقي مالكاً لصحته حتى وفاته لم يشعر بحاجة الى النظارات ولم يخلع له الاَّ ضرس واحد مع انهُ وُلد قبيل تمام الحمل وكان ضعيفاً عليلاً في طفولتهِ

قلنا ان نيوتن كان شديد الاهتمام بمسائل الفقه والتاريخ والكيمياء القديمة وهو يبدو عجيباً حقًّا ويدلُّ على تناقض اساسي بين نضوج نظرتهِ العلمية في بحوث الطبيعة والفلك ونظرتهِ التقليدية في بحوث الكيمياء . فالنظرة العلمية الحديثة القائمة على التجرُّد والتجريب ولدت فيهِ كاملة وتجلَّت « في مبادئهِ » و« بصرياتهِ » على أتمها . ولكن الكيمياء استرعت عنايتهُ كما استرعت عناية معاصريهِ هوك وبويل ولوك . ولم يكن في نظرة نيوتن الى المادة ما يتعارض والكيمياء كما كانت مفهومة في عصرهِ . نعم انهُ لم يسلّم بالرأي القائل بان المادة قوامها العناصر الاربعة المأخوذة عن قدماء الاغريق وهي التراب والهواء والماء والنار ولكنهُ كان يسلّم بنظرية ذرية ليس فيها ما يمنع تحوُّل عنصر الى آخر بل انهُ كان يرى التحوُّل من اوضح الصفات التي

تتصف بها الطبيعة . ومن اقواله في هذا الصدد « ان تحوُّل الاجسام الى ضوء والضوء الى اجسام يتسق واسلوب الطبيعة التي يبدو انها تغتبط بالتحوُّلات » . والفصل الذي بسط فيه المؤلف هذه الناحية من حياة نيوتن يثبت بلا ريب ان ما كان يعرفهُ نيوتن في علمي الكيميا والاحياء كان اوليًّا ولكنهُ لم يكن فيه متأخراً عن عصره . فنظرتهُ الصائبة في شؤون الطبيعة والفلك والرياضة العالية هبطت في هذين العلمين الى مستوى النظرة السائدة في عصره . واذا كان هذا غير مثير للعجب لان الرجل لا يمكن ان يكون نافذ البصر في جميع العلوم فان العجيب فيه انهُ لم يدرك هذا فكان ينفق من وقته على هذه البحوث وما يتصل بها اكثر مما ينفق على العلوم التي أسلمت اليه مقاليدها . واذا كان نيوتن قد اشتهر في العلوم الطبيعية والفلكية بتلك البصيرة الخارقة في النفوذ الى سرّ المشكلة ولمس اهم عناصرها ثم وصفها وصفاً كميًّا Quantitative هو محور العلم الحديث فان هذه البصيرة خانتهُ في بحوث الكيمياء فأنفق وقتهُ وجهدهُ في الجري وراء اوهام . ولعل مرد ذلك الى تلك النظرة الصوفية الدينية فيه وقد كانت من أهم النواحي في تركيبه النفسي والفكري

فالتفسير العلمي لظاهرات الطبيعة لم يكن في نظر نيوتن تفسيراً للعلة الاولى التي تسبب تلك الظاهرات . ومعرفة العلة الاولى لا يتأتى في رأيه الاَّ عن طريق الوحي الرباني . والعلم لا يستطيع ذلك الفهم الاَّ اذا كمل . فالمسوّغ الوحيد للعلم هو انهُ يقربنا من ذلك . قال : « لا تسير بنا كل خطوة في الفلسفة الطبيعية توًّا الى معرفة العلة الاولى ولكنها تقربنا منها » والعلة الاولى ليست ميكانيكية ولا يمكن افراغها في قالب العبارات الطبيعية . ان العلة الاولى لحركات الاجسام هي مشيئة الله .... ومن هذا القبيل اسناده الجاذبية الى المشيئة العليا . والواقع ان التفسير الطبيعي والتفسير الالهي عالمان متباينان من عوالم الفكر . فالتفسير الاول يتناول — في نظر نيوتن — ما يمكن ان يحسب تقدماً علميًّا . والثاني خاص بما وراء الطبيعة — بالعلل الاولى . وقد كان نيوتن على خلاف ديكارت يرى العالم الواحد متميزاً عن الآخر . الاَّ ان الفرق بينهما لم يكن مطلقاً يدل على ذلك اعتقاده ان العلم متى كمل استطاع ان يكشف العلة الاولى ، العلة التي من وراء الطبيعة . ومع انهُ لم يكن يرى أنَّ العلم في عهده بلغ تلك المرتبة كان يعتقد انهُ سائر في الطريق نحو هذا الهدف . ومن أشهر أقواله المأثورة في هذا الصدد « عند ما كتبتُ رسالتي عن نظامنا كان همي ان أبسط المبادىء التي قد تؤثر في المعتبر من الناس لبث الايمان بالاله . وليس هناك ما هو أبعث على اغتباطي من ان تكون ذات فائدة في تحقيق هذا »

وما فتىء العلم سائراً . . . نحو ذلك الهدف !

وما فتىء العلماء يعنون بالناحية الفلسفية من علمهم لعلَّ اقتران الاثنين يقرّبهم قليلاً من الحقيقة المطلقة او يمكنهم من اماطة اللثام قليلاً عن محياها !

تولستوی

وأحاديثه

لعلي أدهم

يسود عالم الاخلاق نوعان من الآداب ، آداب الارستقراطية وآداب الديمقراطية ، فالطموح وترامي الآمال وجموح المطامع والكبرياء والجبروت وشدة الاعتداد بالنفس والميل الى العدوان وبسط النفوذ واستعمال القسوة وامثال ذلك من الصفات مردها الى آداب الارستقراطية أما الديمقراطية فمن شمائلها التواضع وخفض الجناح والقناعة والحلم وحب العدالة والرأفة والحنان والميل الى التضحية ونكران الذات، وليست هناك حدود فاصلة بين هذين النوعين من الآداب، فمن الناس من تغلب عليه آداب الارستقراطية ومنهم من لآداب الديمقراطية من نفسه المكان الاكبر والقسط الاوفر ، ومنهم من يلتقي في نفسه النوعان ويجتمع الضدان ، وفي بعض الازمنة تنتصر آداب الارستقراطية وفي أزمنة أخرى تفوز آداب الديمقراطية ، ومن الشعوب شعوبٌ آدابُ الارستقراطية أشد تأصلاً في نفسها مثل العرب خاصة والارومة السامية عامة ، ومنها شعوبٌ آداب الديمقراطية أبين في اخلاقها وأعرق في طباعها مثل الشعب الروسي السلافي

***

وقد ظهر في القرن التاسع عشر — ذلك القرن الذي اشتد فيه الصراع بين المذاهب والمبادىء — مفكران كبيران لهما من صدق السريرة وعمق الروح وقوة الانسياق مع تيار فكرهما ما يسمو بهما عن مرتبة الفنانين والفلاسفة الى مستوى الرسل والانبياء ، ولقد بلغ هذان النبيان الجديدان رسالتهما الى العالم ولم يتلعثم لسانهما في تبليغها ولم يقصر باعهما في نشرها ، فأحدهما — وهو نيتشه — يعد بحق نبي الارستقراطية المطالب بحقوقها ورافع صوتها في العصور الحديثة، والآخر — وهو تولستوى — هو نبي الديمقراطية ومجدد عهد روسو وأقوى المدافعين عن آداب المسيحية عارضة وأجهرهم صوتاً

والاول من نبت المانيا المفكرة الفلسفية ، والثاني درج في روسيا الساذجة المتدينة ، ولم يمنع

الاول وجوده وسط أوربا المسيحية من ان يسدد سهامه الى صميم آداب المسيحية ويرسل عليها صواعق غضبه بلا رحمة وفي غير هوادة ، وكذلك تولستوى لم يمنعه وجوده في روسيا القيصرية من ان يرسل خطاباً الى القيصر نقولا عند تسنمه عرش الروسيا عقب مقتل القيصر اسكندر الثاني يناشده فيه ألاّ يبدأ حكمه بأعدام القتلة وازهاق الارواح ويلتمس العفو عنهم ، وساءه ان أهمل القيصر خطابه ولم يصغ الى رجائه . وقد تغنى نيتشه بأنشودة الانسان الاعلى وملأ بها المسامع ونفض عليها من خياله الخصب أبهج الالوان وأزهى الحلل واستنزف معين شاعريته في تجميلها وترويعها ، واستنفد تولستوى براعته الفنية كلها في رواية « الحرب والسلام » تلك الرواية التاريخية العظيمة والمعجزة الفنية التي يضعها بعض كبار النقاد الى جانب الياذة هوميروس والتي تحمل في مطاويها فكرة ان الجماعات هي التى تلعب أكبر دور في تاريخ الانسانية وأعمالها الجسام لا الابطال والعظماء، وذلك لان الجماعات في رأيه هي التي تمت على يدها مختلف الاحداث في حرب سنة ١٨١٢ لا نابليون ولا غيره من العظماء البارزين في التاريخ

***

وليس من قذفات الصدف وغرائب الاتفاق ان أخرجت روسيا نبي الديمقراطية ورسول الحب والسلام في العصور الحديثة ، فان الادب الروسي معروف بانسانيته العالية وحفوله بكنوز الحب والعطف ، ولقد نبغ الروس النبوغ كلهُ في الادب الروائي وسبقوا في مضماره سائر الامم ، ولم تخرج روسيا شاعراً عامًّا يعبر عن خصائصها ومميزاتها مثل دانتي عند الايطاليين وشكسبير عند الانجليز وهوميروس عند اليونان وانما أخرجت طائفة من عبقري الروائيين ونوابغ القصصيين، ولعل أقرب رجال الادب الروسي جميعاً الى تمثيل النفسية الروسية بمختلف ظلالها ومتنوع ألوانها هو كاتبها الكبير تولستوى ، فان انكبابهُ على المسائل الدينية وشدة تعلقه بالديمقراطية يمثلان فيه أعمق غرائز النفسية الروسية وألزم خصائصها ، فالروسي شديد التدين ولكنهُ بعيد عما يشوب العقائد والنحل من اسباب التعقيد وغريب التخريج وما ينشأ حولها من خفايا الصوفية وغرائب الاسرار ، وهو أميل الى البساطة في تدينه ، وهو بطبيعته نزّاع الى الرحمة والعطف ، وحتى الشيطان في القصص الروسية موضع رحمة لانهُ وان كان عدو الانسان اللدود الذي لا ينفك يعمل على استغوائه وايقاعه في الشرك ولكنهُ لسوء حظه لا يتقن غير هذه المهنة ولا يعرف سواها وهي من اقدم العصور صناعته التي يجيدها ، فهم لاجل ذلك لا يحقدون عليه بل هو في عرفهم شيطان صالح لا بأس به ، والعادات الاشتراكية عميقة الجذور وشيجة الاصول في نفوسهم

وقد قال احد المفكرين « ليست العبقرية سوى التخلص الاتم من تأثيرات الزمن والآداب والوطن » وأرى في هذا الرأي شيئاً من المغالاة ، والاصح في اعتقادي ان في كل عبقري ناحيتين ، ناحية انسانية عالمية وناحية أخرى قومية محلية ، وتولستوي مثال لذلك ، ففيه الجانب الانساني العالمي وهو من ناحية أخرى أنموذج تام للنفسية الروسية تلتقي فيه غرائزها الاصيلة وبواعثها المستخفية العميقة

***

وقد كانت المسائل الدينية ومشكلة الحياة والمبدأ والمصير تساور تولستوي من أوليات حياته الفكرية ، ولكن في بادىء الامر تغلب الفنان في نفسه على النبي والمصلح الديني ، وظل الفن له الاثر الاقوى في حياته حتى انهائه من رواية « حنة كارنينا » فتبدل الحال واشتدت الازمة وغام الجو وتراجع الفنان الى المؤخرة ليفسح المجال للنبي القادم ، قال في اعترافاته يصف ذلك «لما أتممت كتابي « حنة كارنينا » بلغ بي اليأس اقصى حدوده ، وصرت أدمن التفكير وأطيل النظر في الحالة الرهيبة المجتواة التي ألمت بنفسي ، وكانت الاسئلة تنثال عليّ وتتكاثر حولي وتطالبني بالاجابة عليها ، ومثلما تتجه الخطوط كلها الى ناحية واحدة كذلك كانت الاسئلة غير المجاوب عليها تتزاحم وتتدافع متجهة جميعها الى نقطة سوداء ، وبقيت مستمرًّا في تلك النقطة وقد استولى عليّ الخوف واستقل مشاعري الاحساس بالضعف ، وكنت اناهز الخمسين من عمري لما ساقتني هذه الاسئلة الى هذا الموقف الضنك غير المنتظر ، وانتهيت الى هذه النتيجة وهي انني — وأنا رجل سعيد موفور الصحة — لا املك البقاء ولا اقوى على العيش ، وقد كنت من الناحية البدنية استطيع ان اشتغل في حصاد الدريس كما يستطيع اي مزارع ، وكنت من الوجهة العقلية أستطيع ممارسة الاعمال الفكرية اكثر اليوم مما كنت ، دون أن يعتريني كلال أو مرض ، ولكني برغم ذلك كله انتهيت الى هذه النتيجة وهي انني لا أطيق البقاء ولم أر أمامي الاَّ شيئاً واحداً وهو الموت ، وكنت أرى كل شيء آخر ما خلاه باطلا ومحالاً زائلاً »

وأمثال هذه المواقف التي تربدُّ فيها آفاق الفكر ويحلولك ليل النفس وتهون عليها الحياة وتفزع الى فكرة الموت معروفة في حياة الكثيرين من العظماء وأعالي البشرية ، وكأنها جسر قائم بين حياتين ، حياة سابقة وحياة لاحقة ، وسرعان ما عبر تولستوي هذا الجسر ونجا من أخطاره وأهواله ، قال في اعترافاته وقد ظهر له ان المسائل التي أثارت هواجسهُ وهيجت بلابله قد أجابت عليها الانسانية من آلاف السنين اجابة شافية مقنعة « منذ بدأ الناس يعيشون عرفوا

معنى الحياة وحملوا الحياة حتى انتهت اليّ ، وكل ما في نفسي وكل ماحولي من منظور وغيرمنظور هو ثمرة تجاربهم ، وحتى الوسائل التي أحكم بها على الاشياء ورثتها عنهم ، وقد ولدت وربيت وترعرعت بفضلهم ، وقد حفروا ونقبوا على الحديد وراضوا الجمال والخيل ، وعلمونا كيف نفلح الارض وكيف نعيش جماعة وننظم الحياة ، وعلموني كيف أفكر وأعلل ، وجئت أخيراً وأنا ثمرة غرسهم ولم أحصل على قوتي إلاّ بأفكارهم أحاول ان أستعين بما أخذته عنهم من المنطق والدراية لأقيم لهم الدليل على سخافتهم وخلطهم ، من الواضح انني أسخف ما لم أحسن فهمه »

وأخذ يفكر بعد ذلك في معنى الله الذي قضى حياته باحثاً عنهُ ، ففي صباح يوم من أيام الربيع انطلق الى الغابة ليتملّى من جمال الطبيعة ويسمع الاطيار الصادحة على زواهر الاغصان وليفكر في المسائل التي شغلت خواطره واستأثرت بنفسه في السنوات الثلاث الاخيرة وخاصة مسألة الله ، فأشرقت عليه فكرة ان مسألة الله ليست مسألة ليحكم فيها العقل ، وأحس بأن الله هو الحياة وأن نحيا هو ان نعرف الله

***

ومن ذلك الوقت لم يتطرق الى نفسه الشك بالله ، وذهب بعد ذلك الى الكنيسة ولكنهُ لم يطمئن لتعاليمها ولم تعجبهُ مسيحيتها ، فأدار شراع خواطره الى الرياح وطافت سفينته ببحار هدارة ومرت بجزائر عجيبة ورأى من أعاجيب المذاهب الفلسفية وغرائب النحل والعقائد ما هو أبعث على الدهشة وأغرى باثارة الظنون من البحار السبعة التي اجتازها « بلوقيا » على أقدامهِ والاهوال المفزعة التي خاض غمارها « جانشاه » في قصة الف ليلة ، وبعد أن طوف ما طوف رست سفينته في مرفأ المسيحية الخالصة المنقاة من شوائب الكنيسة والخالية من الحشو والزوائد مسيحية تولستوى التى فصّل الكلام عنها في كتبهِ الاخيرة ، ولكن أتظن الرجل بعد ان عاد من هذه الرحلة الشاقة الطويلة هدأت نفسه وقرت ثورته واستمرأ الراحة والصفو ؟ كلاّ وأنّى لمفكر كبير من طراز تولستوى أن يستريح في هذه الحياة التي كتب علينا فيها الجهاد والتعب فهو ان اجتنى مرة ثمرة الفوز نغصتها عليهِ فكرة ان هناك مجاهل لم تعرف ومشكلات عدة لم تحل عقدتها ، فكيف الراحة والطأنينة ونحن نسعى في مناكب المجهول والكمال البعيد أمامنا ؟ والراحة في هذه الحياة سراب لماع يغص الانسانية بريقها وفجر كاذب يخدعها بضوئهِ ويقذف بها في أقاليم أشد ظلاماً ، وليست الراحة غرض الحياة وانما غايتها نشدان الكمال الادبي والفكري

وقد نستريح اذا بلغنا الكمال ، ولكن أين منا الكمال ونحن أفراد زائلون تلقاء عالم سرمدي !

كذلك تولستوى من بعد عودته من سياحته الفكرية أخذ يندلع في نفسه لهيب ثورة داخلية لم تنطفىء نيرانها وتهدأ ثائرتها الاَّ بموته ، وبواعث هذه الثورة العنيفة والمأساة المذيبة للقلوب هي عجزه عن تنفيذ ما كان يبشر به وفشله في ان يعيش في ظلال تعاليمه ويقينه الجديد ، وكان شعوره بهذا التناقض بين أفكاره وأسلوب حياته هو الطير الجارح الذي لا ينفك ينقر وجه هذا « البرومثيوس » المقيد بالاغلال والسلاسل ، ولم يستتر مرة عنهُ الشعور بهذا التناقض الرهيب بل كان على الدوام ماثلاً لناظره كما يتبع القاتلَ خيالُ القتيل ، ولم يذهب وقره عن ضميره الفاحص المتهم وعينه الدخيلة الواعية ، وكان يقض مضجعه في هدأة الليل ويجثم على نفسهِ في أطراف النهار ، وغير تولستوى قد يقنع بالتبشير بما يعتقده حقًّا دون ان تتجاوب حياته مع تعاليمه ، وقد يكون من الصعب ان نتصور آلام هذا الضمير الحي وكمد هذه النفس اليقظة ، وقد كان تولستوى يعيش عيشة زهادة وخشونة لا من دافع طبيعي — فقدكان بفطرته ابيقوري الغرائز شهواني المزاج — ولكن بمجهود غير قليل من ارادته الصارمة ، وكان يخفض جناح الرحمة لمن حوله ويسقيهم من اخلاقهِ الشريفة العذب النمير ، ولكن ضميره لم يقنع بهذا ولم يرتض الوقوف عند هذا الحد لانهُ كان يطالبهُ ويلح عليهِ في ان يعيش عيشة طاهرة الى اقصى حدودها وأبعد نهاياتها ، وكان يعرف الى اي حد قد فشل في تحقيق مثله الاعلى ، وطالما لفحته هذه المعرفة بشواظ من النار وجرته على مثل شوك القتاد ، وكانت فكرة ثروته الضخمة المتراكمة في المصارف وضياعه الواسعة التي تغل عليه الاموال الطائلة وهو الذي يحبذ الفقر ويدعو الى المساواة ويرفع قسطاس العدالة تتبعهُ في كل مكان وتطارده في كل لحظة وتذكره بنصيحة السيد المسيح لاحد تلامذته بأنهُ اذا أراد ان يتبعه وينتظم في سلك تلامذته فعليهِ اولاً أن يبدأ بتوزيع امواله بين الفقراء ، اما تولستوي المكروب الحزين فكان يمشي وراء المسيح مثقلاً بحمول الثروة ويأمر غيره دون ان يبدأ بنفسه ويقف امام الانسانية والتاريخ هذا الموقف المتناقض الغريب وما اشد وقع ذلك على نفس تولستوي النبيلة الحساسة !

وقد نتساءل هنا هل كان تولستوي حقيقة حريصاً على الدنيا متهالكاً على المال يبشر بما يراه حقًّا مع الاحتفاظ بثروتهِ ، ويقول مع صاحبه الفيلسوف شوبنهاور «ان الذي يرسم الصورة الجميلة لا يشترط أن يكون هو أيضاً جميلاً ». ويسلك مسلك المتنبي الشاعر في امتداح الجود والكرم مع شدة الحرص والبخل ؟ والجواب عن هذا التساؤل ان الرجل لم يكن شيئاً من ذلك ، وكان مخلصاً في دعوته اخلاصاً لا تشوبه شائبة ، ولم يمنعهُ من أن يبدأ بنفسهِ في اتباع تعاليمه سوى زوجته

وباقي أفراد أسرته ، وكانت أسرته قانعة بأن ترى اسمهُ قد طبق الارض وان تشاهد الوفود تحج اليه من أقاصي البلاد ولا تود أن تفقد ثروتها وضياعها لأجل ألاّ يقع التناقض بين مذهبه وحياته ، ولم يستطع تولستوي ان يكسر أغلالهُ العائلية وعاش أسيراً لسلطتها ، وكانت أشد أفراد الاسرة قسوة عليه ومقاومة لتنفيذ تعاليمه زوجته ، ولست أحب أن ألوم تولستوي وأعنفهُ لهذا الضعف والتخاذل فكفاه ما لاقاه من وخز الضمير والألم المبرح ، وقد حاول في آخر سني حياتهِ أن يهرب من أسره ولكنه لم ينفذ الفكرة . وكتب الى صديق له ما ينم على السبب الحقيقي لذلك قال : « لقد تركت فكرة الفرار لانه خطر بفكري ان صوفيا اندريفنا (زوجته) لا بد ان تكرهني بعد ذلك ويصير كل شيء اسوأ مما كان » وهنا نقف إمام عاطفة سامية من العواطف الانسانية التي يدنسها الاسهاب في وصفها ويغض من جلالها ، على انه فر من منزله بعد ذلك لحادثة نضرب عن ذكرها وأراد ان يلاقي الموت منفرداً مع خالقه ، ولكن لم تتحقق امنيته اذ لحقته اسرته حيث كان يسلم الروح في غرفة حقيرة باحدى محطات السكة الحديد ويستعد ليتبوأ مكانه في ملكوت الخالدين

***

وسأعرض على القارىء طائفة صغيرة من أحاديثه وهي على قلتها صحيحة الاسناد وقد تكون فحاوى المحادثات أدل على الرجال وأهدى الى نفوسهم من محتويات الاسفار

كان تولستوي يحب من المؤلفين الروس الشاعر بوشكن ولرمنتوف وجوجل وشيكوف ودستوفسكي . قال عن الاخير : « عندما نختبره عن قرب نرى انهُ يكتب بأسلوب رديء وتنقصهُ القوة الفنية ، ولكن ما أغزر مادته وما أكثر ما يقوله لنا » . وقال عن ترجنيف الروائي الروسي الكبير : « أنا مولع بشخصهِ ولوعاً ولكني لا أضعهُ في مكانة عالية بين الكتّاب » ، وكان قليل الاكتراث بالكتّاب المعاصرين لهُ حاشا أناتول فرانس ، وفي وقت ذيوع شهرة مترلنك كان تولستوي صريحاً في نقده والاقلال من قيمته وذلك برغم اعجاب مترلنك الشديد بتولستوي ، وقد قال لهُ مرة أحد أصدقائه « لقد امتدحك مترلنك وقال في مقدمة مؤلفاته التمثيلية « ان رواية « قوة الظلام » هي أعظم دراما في الدنيا » فضحك تولستوي مستهزئاً وقال لهُ « اذا كانت كذلك فلماذا لم يقلدها ويضرب على غرارها ؟ » وسأله مرة أحد الناس « هل قرأت رواية مونافانا ؟ » (من روايات مترلنك) فأجابهُ « ولمَ أقرؤها ؟ هل اقترفت اثماً ؟ »

وكان يمقت الاتجار بالادب أشد المقت ويغلي غضبه إذا ذكر ذلك بحضرتهِ قال مرة « ينبغي للانسان ألاّ يكتب الاّ اذا ترك بضعة من لحمه في الدواة كلما غمس فيها القلم »

وقال عن المرأة « النساء على العموم شريرات الى حد ان الفرق ضئيل بين المرأة الصالحة وامرأة السوء »

وجذب مرة صديقه جولد نواز من ذراعه وهو يودعه — وهو الذي أروي عنهُ هذه الاحاديث — وقال لهُ هذه النصيحة الغالية « إني أريد ان أقول لك انهُ مهما عظمت مواهبك الموسيقية ومهما كان الوقت والمجهود الذي ضحيت بهِ لهذا الفن فلتذكر ان أهم شيء هو ان تكون رجلا ، ومن اللازم ان تجعل دائماً نصب عينك ان الفن ليس كل شيء ، وفي علاقتك بالغير ابذل جهدك في ان تقدم لهم اكثر مما في طوقك وان تأخذ منهم اقل ما يمكن اخذه ، وأرجوك المعذرة لهذا القول »

وقال له مرة ان « الانا » شيء زماني يحد جوهرنا الخالد وأرى ان الاعتقاد بخلود النفس يدل على نقص في الفهم »

وفي بعض الاوقات كانت تغلب عليه السوداء فييأس من الدنيا وصلاحها ، وقال مرة وقد اعترته احدى هذه الحالات « ان خطأ الثائرين الرئيسي هو اعتقادهم اننا نستطيع ان نسيطر على الحياة الانسانية ونخضعها للنظام »

وقال مرة اخرى « تمر بي اوقات يغمر نفسي فيها اليأس من كل ما يحدث في الدنيا وأعجب كيف استطاع الناس ان يحتملوا الحياة مع توالي تلك الكبائر والفظائع ، وطالما هزني وحيرني تقويمنا الانسان بأضأل القيم حتى لو اعتبرناه مجرد حيوان نافع ، والحصان الذي يجر العربة يساوي قيمة معينة في نظرنا ونحن ندفعها عن طيبة خاطر ، ولكن الانسان يستطيع مثلاً ان يصنع احذية وأن يعمل في احد المصانع ويعزف على البيان ، ولكن مع ذلك كله فان خمسين في المائة من البشر يقضون نحبهم دون ان يكون هناك ما يستدعي ذلك ، واتذكر اني عندما كنت اربي الدواجن كنت اغضب واتهم الخدم بالتقصير اذا بلغت نسبة الوفيات خمسة في المائة ولكن خمسين في المائة من البشر تزهق ارواحهم بدون مبرر ولا ضرورة »

***

والمرأة في رأيهِ « تعاكس وتعرقل قانون التقدم ، وهي تقاوم الرجل وتعارضهُ معارضة شديدة اذا حاول أن ينتقل من بين أطلال حياته السالفة وأنقاضها المحطمة الى حياة جديدة أتم وأحفل منها ، وفي المرأة أنانية محزنة ترتكب أكبر الفظائع باسم الحب »

وقال مرة لاحد اصدقائهِ « ان أسعد أيام حياتي هو اليوم الذي أعلم فيهِ أنى فقدت ثروتي وكل ما تملك يدي »

ولم يكن مسيح تولستوي هو آله الشدة والعنف وانما كان آله الحب والعطف ، مسيح عظة الجبل ، ولقد حدث مرة أن شقيقته ماريا نيكوليفنا عارضت فكرة ان رحمة الله تتسع للخير والشرير ، وبعد ان أصغى اليها تولستوي طويلاً في صبر وأناة قال لها في لطف ورقة « التفتي الآن في دورك ، أن الفرق بين حياة أكثر الناس تقوى وصلاحاً وحياة أشدهم شراً وخطيئة فرق طفيف جداً بالنسبة لكمال الله ، وكيف أسلم بان الله وهو ليس سوى الحب يمكن أن يكون منتقماً جباراً وينزل بالناس صارم العقاب وشديد العذاب »

فاجابته « ولكن افرض ان بعض الناس عاش طوال حياته في الخطيئة ومات بدون ندم »

فقال لها تولستوي «اي الرجال يريد ان يكون شريراً لا امل في صلاحه ؟ ان الرجل الذي نحكم عليه بانه شرير شقي منكود الحظ وينبغي ان نحبه ونرثي لآلامه ، وليس هناك احد يود ان يكون شريراً ، فالشرير انما يرثى له لانه لا يبصر الحق »

وكان « اله الحب » هذا يغمر قلب تولستوى بشعور قوي نحو الطبيعة ويوحي له بكلمات من أسطع حكمه وأبهر آياته ، قال في بعض أقواله المبثوث فيها شيء من هذا الشعور « كل ما في الوجود نابض بالحياة وما نراه ميتاً يظهر لنا كذلك لانه إما ان يكون جد كبير على الفهم أو جد صغير عليه ، ونحن لا نرى الميكروبات والجراثيم فنحسبها غير حية وكذلك الكواكب تتراءى لنا مسلوبة الحياة لنفس السبب الذي نبدو فيه نحن للنمال غير احياء ، ولا نزاع في ان الارض خافقة بالحياة وأن الحجر الملقى على الثرى هو بمثابة الظفر من الاصبع ، والماديون يجعلون المادة أساس الحياة ، وكل النظريات عن أصل الانواع والذرات ومادة الحياة لها قيمتها الى الحد الذي تمكننا به من فهم القوانين المسيطرة على الطبيعة وتكشف لنا عن كنهها ولكن علينا ألا ننسى أنها مجرد فروض وليست أكثر من ذلك . والفلكيون يفرضون لاجل ان يتم حسابهم ويتسق تفكيرهم ان الارض ثابتة ، وكذلك الماديون يبدأون من مقدمة غير صحيحة ولكنهم لا يعترفون بذلك ولا يعاودون محاولة حل مشكلاتهم على أساس صادق صحيح ، ومذهبهم في الحقيقة أشد المذاهب امعاناً في الغرابة ، ذلك لانه يفرض مادة عجيبة الشأن تخلق كل شيء من ذاتها وهي أساس كل شيء ومرجعه فهي شيء لا يتيسر لنا ان نبصره كالثالوث نفسه » .

***

وكان في نية تولستوي ان يتبسط في شرح هذه الفكرة ويفصل منها ما أجمله في حديثه بكتاب خاص فأعجله عن ذلك الموت الذي يلهو بالمخلوقات ، ويعصف بالاحياء ، فذهب وفي نفسه منها شيء

مبدأ النسبية

الـكلاسيكية

لاسماعيل احمد ادهم

— ١ —

تقوم مبدأ النسبية الـكلاسيكية على مفهوم أولي في ان الحوادث تقع في عالم الطبيعة وكأنها تحدث في الخلاء بدون ان تتأثر بحركة الاجسام التي تصدر عنها . وهذه الفكرة قائمة على أساس أولي في ان النظم المادية سيان كانت ثابتة بالنسبة لمحاورها الوضعية أم كانت متحركة حركة منظمة مستقيمة فالقوانين التي تتبعها واحدة لانها ترجع لمعادلات التحويل الغاليلية التي تقرر وحدة الاشكال والقوانين في مختلف النظم

ومن المهم ان نلاحظ ان قوانين التحويل قائمة على أساس تستمده من تحويل شكل من الاشكال الى صورة أخرى وفقاً لمبدأ معين ، وهذه التحويلات ترد لوجهين في الهندسة :

الاول : بالنسبة لسطح او منحنٍ ومن هذا الوجه مبادىء الرسم المرقاتوري ، وكذلك تَرِدُ اليها الصور التي يتصورها الجغرافيون من وجهة نظر العين لسقوط شعاع الناظرين على سطح الـكرة الارضية على سطح مستوٍ . وهـذه الصور ليست الاّ النسب والعلاقات بين الصور المرتسمة وسطح الارض الكروي

الثانية : بالنسبة للمتماديات الرياضية على اعتبار ان الاشكال مركبة من المتماديات continu اللامتناهية ، وأكثر المبادىء التي يرجع اليها في هذا الشأن ، تلك التي تعتبر المـكان مكوّناً من عناصر بسيطة تشكل اللبنة منها النقطة ، ويبنى اصول التحويل على هذا الاساس . وبذا يـكون تحويل شكل من الاشكال معناه تحويل النقط التي تكون بهذا الشكل الى صورة أخرى وفقاً لقانون معين . فاذا فرضنا ان شكلاً ما أريد استخلاص صورة جديدة منهُ عن طريق التحويل، فذلك يكون عن طريق تحويل النقط المـكونة لذلك الشكل وفقاً للقانون الذي يراد تحويله تبعاً لهُ . وهذه القواعد تعرف في الاصطلاح الرياضي بقاعدة « تحويل الشكل من صورة الى أخرى عن طريق نقل النقط المـكونة للصورة الاولى وفقاً لقانون معين »

ولنا ان نستفيد من المبادىء التي بثها رينيه ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م) عن نظام المتعامدات في كتابه « الهندسة » عام ١٦٣٧م والتي توسع بها الفيلسوف الرياضي ليبنتز (١٦٤٦ —١٧١٦م) في كتابه Acta Eruditorum lipisisie ص ١٧٠ عام ١٦٩٢م والتي قامت من عليها الهندسة التحليلية في تحديد موضع نقطة على سطح ما محصور بين مستقيمين مثل (ع — عَ) و (س—سَ) قد تقاطعتا في النقطة (م) ، فاذا فرض ان النقطة (ن) واقعة في المستوى المحصور بين الخطين (ع—عَ) و(س—سَ) ورسمنا خطين متوازيين الاول يصل (ن) بالنقطة (نً) المفروضة على المستقيم (ع—عَ) موازية للمستقيم (س—سَ) ، والثانية تصل (ن) بالنقطة (نَ) المفروضة على المستقيم (س — سَ) موازية للمستقيم (ع—عَ) ، فيمكن بذلك تحديد موضع النقطة (ن) بتحديد هذه الابعاد والخطين الموازيين(ن—نَ) و (ن—نً) يعرفان بالكميات الوضعية coordinate للنقطة (ن) . واستناداً الى هذه القواعد يمكن بكل سهولة استخلاص الاصول التي يرجع اليها في تحديد موضع نقطة في الفضاء إذ يكفي تصور خط ثالث من (ص— صَ) المار بالنقطة (م) ليكون معنا ثلاثة متعامدات على المحور (م) ، وتكون كل واحدة من هذه المتعامدات ترتيباً لهذه الكميات الوضعية . واستناداً الى مبدأ التقابل تكون المحاور الثلاثة متحدة في النقطة (ن) ، وهذا النظام الانسجامي يكون معنا المحاور القائمة الزوايا الديكارتية او بتعبير آخر نظام المتعامدات الديكارتي

هذا المبدأ مستعمل في اميركا في الحياة العملية ، فلو أردت أن تعرف عنوان شخص لوجدته مثلاً (مدام إيمي خير : ٢٠ : ٢٥ : ٨) أعني مدام إيمي خير بالشارع ٢٠ بالمنزل ٢٥ بالدور ٨ وبهذا التفسير يتحدد عنوان الشخص تماماً كما هو الحال في تحديد نقطة بنظام المتعامدات الديكارتية. ويكون تحديد العنوان كتحديد النقطة راجعاً لثلاثة خطوط ليست على مسافات محددة من موضع النقطة بل منتظمة بعضها مع بعض في شكل مطرد ordre لتعيين موضع النقطة في الفضاء . ولهذا كان تعامدها بعضها على بعض محدداً لنقطة واقعة بين انفراج زواياها

واستناداً الى هذه القواعد في الهندسة التحليلية يكون الفضاء من حيث يتألف من نقط ، خاضعاً لنظام ثلاثي ، تمتد فيه ثلاثة محاور من كل نقطة كائنة فيه . وهذه بدورها تسوقنا الى أصول المجسمات المستمدة من نظام المتعامدات المنظورة . ويكون بذلك تحويل شكل من الاشكال راجعاً للاصول التي تتبعها النقط المكونة لهذا الشكل في تحولها ، أعني بذلك للقوانين التي توفق تبعاً لها نقطها أثناء التحويل . ولما كان أي شكل تابعاً لمحاور نقطه المكونة له وكان محاور كل نقطة ثلاثة خطوط متعامدة كانت قواعد التحويل متصلة بمحاور النقطة أعني كمياتها الوضعية . فلو فرضنا شكلاً كميات نقطه الوضعية (س) ، (ع) ، (ص) كان لنا بناء على قواعد التحويل

سَ = نا (س ، ع ، ص)
عَ = نع (س ، ع ، ص)
صَ = ني (س ، ع ، ص)

وهنا كل من (نا) و(نع) و(ني) التوابع التي يخضع لها الكميات (س ، ع ، ص) و (سَ ، عَ ، صَ) والتي تعرف علميًّا بالكميات الوضعية او المحاور الوضعية أعني التي تحدد من وضع نقطة في الفضاء . وهذه التوابع (نا) و(نع) و (ني) عبارة عن القوانين التي تتبعها الكميات الوضعية

فنحن لو تصورنا نظامين الاول النظام (ن) والثاني النظام (نَ) وعزمنا على ان نستخلص النسب والعلاقات بين هذين النظامين وان نكيف كل نقطة في النظام (ن) وفقاً لما يماثلها في النظام (نَ) . وفرضنا ان نقطة (ق) في النظام (ن) كمياتها الوضعية اعني التي تحدد من وضعها في ذلك النظام هي (س و ع ، و ص) كان تحويلها وفقاً لوضع النقطة (قَ) في النظام (نَ) والتي يحدد من وضعها في ذلك النظام الكميات الوضعية (سَ ، عَ صَ) يرجع لتناظر وتوازن هذه الكميات والنسب والعلاقات هي التوابع بين هذين النظامين وخط التوابع بعينه سرعة الانتقال ، أعني المدة التي تستغرق الانتقال من وضع النقطة (ق) التي تحددها الكميات الوضعية (س ، ع ، ص) في النظام (ن) الى وضع النقطة (قَ) التي تحددها الكميات الوضعية (سَ ، عَ ، صَ) في النظام (نَ) . فلو رمزنا بالرمز (ت) للزمان وبالرمز (ر) للسرعة كان معنا :

$X = X'$	ص = صَ
$Y = Y'$	ع = عَ
$Z = Z' - t u$	س = سَ — رت

هذا اذا كان خط القانون موازياً لامتداد المحور (س) . وهذه المعادلات تعرف بمعادلات التحويل الغاليلية . وهي تؤدي بالفكر الى ان الحوادث تحدث في الأكوان مطلقة وكأنها بالنسبة للخلاء ، سيان في ذلك أكانت ثابتة بالنسبة لمحاورها الوضعية أم كانت متحركة حركة منتظمة مستقيمة ، وسيان كان الخلاء خلواً من كل مادة أو حيزاً مشغولاً بمادة لطيفة كالأثير

هذه هي قرارة النظر الميكانيكي الكلاسيكي في اطلاق حدوث حوادث الطبيعة . ومن هذه النظرة تستمد قانون الحركة النسبية كل قوتها وهي التي تقرر ان النظم المادية سيان كانت ثابتة بالنسبة لمحاورها الوضعية أم متحركة حركة منتظمة مستقيمة فان القوانين التي تتبعها هذه النظم واحدة ذلك لأن مقدار تعجيل هذه النظم يتبع القيمة المطلقة لحركة هذه النظم نظراً لان القيمة التفاضلية بين هذه السرع المحددة للحركة تتبع القيم التفاضلية بين المحاور الوضعية

صفات الادب

الفارسي الحديث

للدكتور عبد الوهاب عزام

[لا يصدر هذا العدد من المقتطف وتتداوله ايدي قرائه حتى يكون مشتركوه قد تلقوا هديتيه السنويتين واحداها كتاب « في نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية » : ومن فصول هذا الكتاب بحث نفيس وضعه الدكتور عبد الوهاب عزام استاذ الادب الفارسي بكلية الاداب بجامعة فؤاد الاول موضوعه « الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهلية والاسلام » وقد اخترنا الصفحات التالية من ختام هذا البحث الممتع : المحرر]

*

﴿ صفات الادب الفارسي الحديث ﴾ — بعد هذا يحق لنا ان نسأل ما صفات هذا الادب الفارسي الاسلامي شعره ونثره ؟ وما علاقته بالادب العربي ؟

نشأ الادب الفارسي الحديث في رعاية الأدب العربي وتحت سلطانه وطبع على غراره في أكثر الاساليب والموضوعات :

أخذ الأدب الفارسي عن العربي معظم موضوعات الشعر والنثر وكل صور الشعر والنثر وأساليبهما من الوزن والقافية والسجع وانواع البديع الخ . ثم امتاز الادب الفارسي بخصائصه في الاسهاب والقصص وغيرها . وقد اتصل الادبان اتصالاً وثيقاً . وترجم من الفارسية الى العربية شذرات ادبية كما ترجمت الكتب الفهلوية من قبل . نجد في ديوان المعاني للعسكري امثالاً معربة و « جملاً من بلاغات العجم » . وفي اليتيمة امثال معربة كذلك . وفي كتب الادب اخبار عن المنشئين باللغتين والمترجمين شعراً فارسيًّا الى العربية كبديع الزمان الهمذاني

وأما الترجمة من العربية الى الفارسية فكانت أوسع وأنفع . وقد ذكرتُ بعض المترجمين وما ترجموا من الكتب آنفاً

وكان كثير من المؤلفين والكتّاب والادباء والعلماء يكتبون باللغتين . ومعنى هذا ان تكون اللغتان اداتين للابانة عن افكار واخيلة وصور متفقة . وفي هذا من التقريب بين اللغتين ما فيه

وكانت اللغة العربية لغة العلم والادب في ايران منذ الفتح الاسلامي فلما ترعرعت الفارسية

وصارت لغة علم وادب استعان المنشئون في الادب الفارسي بالالفاظ والعبارات الادبية المألوفة في العربية التي تعوّد الناس التعبير بها زمناً طويلاً .

ونفصل هذا القول تفصيلاً قليلاً فيما يلي :

فأما الشعر فيشارك الشعر العربي في موضوعاته من الهجاء والمدح والغزل والفخر والوصف — في ميل الى المبالغة والاطناب — ويمتاز باشياء :

(١) ذكر ملوك الفرس القدماء وابطالهم مثل فريدون، ورستم ، وزال ، وجمشيد ، وقد سرى هذا الى الشعر العربي الذي نظم في بلاد الفرس كشعر بديع الزمان وامثاله

(٢) ويمتاز الشعر الفارسي بميزتين عظيمتين : الشعر القصصي والشعر الصوفي

فاما الشعر القصصي فقد أولع الفرس به في كل عصر ، وقد رأينا أن أبان بن عبدالحميد نظم كتاب كليلة ودمنة بالعربية ،وأن الرودكي اول شعراء الفرس الكبار نظم هذا ايضاً. ومن الادلة على ولع الفرس بالقصص قصة يوسف وزليخا . فهذه القصة مأخوذة من القرآن ،ولكن شعراء العربية لم يهتموا بها . وأما الفرس فقد نظموها مراراً . نظمها من كبارهم الفردوسي وجامي . ونظمها آخرون — ورواية وامق وعذراء التي قيل انها قدمت لعبد الله بن طاهر فأمر بطرحها في الماء نظمها العنصري شاعر محمود الغزنوي ، ثم الفصيحي في رعاية كيكاوس الزياري ، ونظمها اربعة شعراء آخرون . وقصة ليلى والمجنون نظمها كذلك غير واحد من شعرائهم

وحسبنا شاهنامة الفردوسي التي حاكاها شعراء كثيرون فنظمت شاهنامات أخرى لم تنل ما نالته من القبول والصيت . ومن القصص المنظومة رواية خسرو وكل ، وبلبل نامه لفريد الدين العطار وسلامان وأبسال لمولانا جامي ، وغيرها مما لا يتسع المقال لتعديده

وأما الشعر الصوفي فقد بدأه ابو سعيد بن ابي الخير من بلدة مهنا في خراسان وأبوعبدالله الانصاري من هراة . نظما فيه قطعاً ورباعيات ، ولكن لم يكثر فيه التأليف الاَّ بعد نصف قرن اذ نبغ طليعة فرسانه سنائي الغزنوي ثم قفاه العطار ثم تلاه امام الصوفية مولانا جلال الدين الرومي صاحب المثنوي الذي يسمى القرآن في اللغة الفارسية . ويقال لمؤلفه : لم يكن نبيًّا ولكن أوتي كتاباً. ومن بعد غارات التتار نبغ لسان الغيب شمس الدين حافظ الشيرازي والشيخ عبدالرحمن الجامي الذي يعد آخر شعراء الفرس العظام

والحق ان اللغة الفارسية تبذ سائر لغات العالم بهذا النوع من الشعر النفسي الانساني الفلسفي الذي يرتفع عن جدال المذاهب وعصبيات الآراء . وينفذ الى بواطن الاشياء فيصف النفس الانسانية في اسمى منازعها ، ويرى الحقائق الالهية في اجلى مظاهرها

وأما الفاظ الشعر ففيها كثير من الالفاظ العربية وعليها طابع عربي في تركيبها ، ولكن اثر

العربية في الشعر اقل منه في النثر . وأما قوافيه وأوزانه فلا يمكن تفصيلها فيهذا المقال ، وحسبنا ان نقول ان الفرس يكثرون من الشعر المزدوج الذي يسمونه المثنوي وهو شعر القصص كلها . وأكثروا كذلك من الدوبيت أو الرباعي ، وعندهم ما يسمونه تركيب بند ، او ترجيع بند ،وهو قريب من الموشحات العربية — وعندهم الشعر المردف وهو الذي تكرر في آخر ابياته كلمة واحدة ويعتبر الروي والقافية ما قبل هذه الكلمة . وجملة القول انهم لم يسهلوا القوافي العربية وان اخترعوا ضروباً فيها

وأما الوزن فجدير بالتدقيق جداً . فان الفرس حاكوا العرب في اوزانهم اول الامر ولكنهم سرعان ما نبذوا اشهر الاوزان العربية . فالطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل ، وهي أشهر الاوزان في الشعر العربي ، لم ينظم فيها الفرس الا جماعة من المتقدمين ارادوا اظهار براعتهم كما يقول شمس قيس . ونظموا في الرمل والرجز والخفيف والضارع والمجتث والمتقارب (وهو وزن الشاهنامة) وأولعوا بالهزج ولعاً شديداً حتى جعلوه اصلاً فرّعوا منه اصناف الرباعي وخرجوا به عن اصله العربي

ويلاحظ انهم لم يقفوا بالبحور عند المقادير العربية ، فالرمل قد يأتي مثمناً والرجز كذلك وما جاءا كذلك في شعر العرب قط والهزج — مثلاً — الذي هو سداسي الاصل عند العرب ومجزوء وجوباً ينظم منه الفرس مثمناً . ثم تصرف الفرس في الزحاف والعلل تصرفاً كثيراً جداً ، واشتقوا من الدوائر العربية بحوراً أخرى قريبة من البحور الاصلية مثل الغريب والمشاكل والقريب

وقد اراد بعض المستشرقين ان يعلل الخلاف بين الاوزان العربية والفارسية بما بين طبائع الامتين من اختلاف . ويقول شمس قيس ان سبب ثقل الطويل والمديد والبسيط ان أجزاءها غير متناسبة في حركاتها وسكناتها ويطيل في بيان ذلك . ولا يمكن الفصل في هذه المسألة الا بعد بحث مفصل في أوزان الشعر العربي وعلاقتها باللغة العربية ، وفي تطور الاوزان العربية في الشعر الفارسي وتبيين ما بين هذا التطور ولغة الفرس من صلة

وينبغي ان نذكر هنا ان وزن الرباعي نقل الى العربية وسمي الدوبيت . ومهما يقل في علاقته بالهزج يمكن ان يعد وزناً فارسيًّا استعارته العربية

وأما النثر الفارسي فأثر العربية فيه أبين : الالفاظ العربية فيه اكثر ، والتركيب قريب من التركيب العربي ، ولكن لا بد من الفرق بين النثر الادبي — نثر الرسائل والمقامات وبين نثر الكتب . فأما الاول فقريب من الشعر ، وأما الكتب فمع اشتراكها كلها في كثرة الالفاظ العربية ينبغي ان يفرق فيها بين كتب التاريخ التي هي قصص يستعمل فيها الكلام المعتاد غالباً وبين المؤلفات العلمية مثل كتب الفقه والتوحيد والبلاغة والطب وهلم جرًّا . فهذا الصنف الاخير يكاد

يكتب بألفاظ عربية ، وتستعار فيه كل الاصطلاحات العربية ، فاصطلاحات البلاغة وضروب البديع واصطلاحات العروض أخذت برمتها . وما زادوه فيها اشتقوه من العربية ايضاً . ثم المؤلفات كلها علميها وأدبيها يتخللها كثير من المقتبسات العربية ، ففي كتب الدين الآيات والاحاديث ، وفي كتب الادب والتاريخ كثير من الابيات والامثال والمأثورات . وقد نجد من ذلك أسطراً متوالية

وخير ما يفعل لمقارنة النثر العربي والنثر الفارسي ان ننظر الى كتاب عربي وترجمته ، لنرى كيف توافق الترجمة الاصل وكيف تخالفها مراعاة لاسلوب اللغة وذوق اهلها . فاذا قارن الباحث كتاب كليلة ودمنة العربي بالترجمة الفارسية التي كتبها نصر بن عبد الحميد والترجمة الاخرى التي كتبها الكاشفي من بعد وسماها أنوار سهيلي عرف كيف تشترك اللغتان في كثير من الالفاظ والعبارات وضروب البديع وكيف تختلفان في الاطناب والتفصيل والمبالغة

مكان العربية في ايران من الفارسية

قد عرفنا حال اللغة الفارسية في ايران اجمالاً ، كيف بدأت وكيف تطوّرت وكيف شاركت في فنون كثيرة . وقد يتردد في نفس القارىء هذا السؤال : ما ذا أصاب اللغة العربية في هذه البلاد بعد ان صار لها لغة أدبية خاصة ؟ هل استبدت اللغة الفارسية بالآداب والعلوم ولم يبق للعربية فيها مجال ؟

قد تقلبت الغير باللغتين ولكن يمكن ان يقال ان العربية احتفظت بالسيادة في الاطوار كلها فيما عدا الشعر . فأما بيان هذا ففي هذه الكلمة الموجزة :

لا ريب ان المؤلفات العربية التي ألفت في بلاد الفرس ما بين أول القرن الرابع وغارات التتار أكثر جداً من نظائرها الفارسية ، ولكن ينبغي ان نفرق بين الشعر وغيره فان الامر فيهما لا يجري على سنن واحد

فأما العلماء المؤلفون فلا حرج على باحث ان يقول انهم كلهم كانوا يعرفون اللغتين ، وقد ألف بعضهم فيهما ولكن المؤلفين بالعربية أشهر ذكراً وأعظم أثراً . وحسبنا ان نذكر ابن مسكويه وابن سينا والبيروني والعتبي والغزالي والرازي والزوزني والتبريزي والنسفي والبيضاوي والطوسي

وأحسن مقياس في هذا ان نعمد الى جماعة ممن ألفوا باللسانين لنرى أمؤلفاتهم العربية أكثر وأعظم أم الفارسية . ولا أحسب الامر يحتاج الى عناء . فيكفينا ان نذكر الغزالي فنحن نعرف مؤلفاته العربية وليس له في الفارسية الا رسالتان : كيمياء السعادة ونصيحة الملوك .

وقد صرَّح في الاولى انهُ ألفها بالفارسية ليُفهم العامة — ونخر الدين الرازي لهُ زهاء ثلاثة وثلاثين مؤلفاً يعرف منها في الفارسية واحد فقط هو اختيارات علائي . ونصير الدين الطوسي على تأخر زمانه لهُ نحو خمسين مؤلفاً قليل منها الفارسي . والبيضاوي ألف تفسيره بالعربية ولم يمنح الفارسية الا كتاباً صغيراً أسماه نظام التواريخ

وأما الشعر وما يتصل بهِ فلا ريب ان النبوغ كان لشعراء الفارسية ، فليس فيمن شعروا بالعربية ببلاد الفرس كثير أمثال الفردوسي او الانوري أو العنصري ، ولكن أكثر العلماء الذين اتخذوا العربية لغة علم كانوا ينظمون شعراً عربيًّا . وكثير من شعراء الفرس نظموا شعراً عربيًّا كذلك . وحسبنا ان نعرف ان الثعالبي وهو من رجال القرن الرابع ذكر في الجزء الثالث والجزء الرابع من اليتيمة واحداً وخمسين ومائة من معاصريه الذين نظموا الشعر العربي في أرجاء بلاد الفرس . وهم أكثر من كل شعراء الفرس الذين ذكرهم عوفي وهو في القرن السابع ولكنهم لا يبلغون درجتهم في الشعر . وقليل منهم يعدّ شاعراً عظيماً في العربية

ومن الشعراء الذين نظموا باللغتين بديع الزمان الهمذاني وابو الفتح البستي وقد ضاع ديوانه الفارسي . والبديع البلخي الذي مدح أحد الامراء بشعر ملمع . وعطاء بن يعقوب الكاتب وكان لهُ ديوانان عربي وفارسي ، والباخرزي ، وابن سينا والشيخ السعدي ومن الكتّاب رشيد الدين الوطواط صاحب حديقة الشعر ولهُ رسائل عربية نشرت احداها في رسائل البلغاء

ولم يكن حال اللغتين سواء في العصور كلها فقد كانت الفارسية منذ ظهرت في صعود بينما كانت العربية في هبوط — وهذا الهبوط كان أبين في الشعر منهُ في العلم ، فالراوندي مؤلف راحة الصدور ينقل أبياتاً عربية بليغة لاحد وزراء السلاجقة ثم يأسف على ذلك الزمن ويقول : ان وزراء زمنه لا يفهمون مثل هذا — وصاحب المعجم من رجال القرن السابع يقول ان شعراء زمانه يعرفون اللغتين ولكنهُ لما ألّف كتابه في العروض بالعربية نقم عليه أدباء فارس حتى قسم الكتاب قسمين المعجم والمعرب

وعوفي يقول : فان كل مستعرب يعرف الفارسية وليس كل شاعر فارسي يعرف العربية . ومع هذا كلهُ نرى ان اللغة الفارسية نفسها لم تكن قد ضبطت قواعدها وأحكمت كقواعد العربية حتى نجد شمس الدين الرازي في القرن السابع يشكو من هذا ويشرح القواعد شرح المستنبط الذي لم يُسبق

والخلاصة ان العربية فيما عدا الشعر حلت مكانة فوق الفارسية حتى غارات التتار التي عصفت بالحضارة الاسلامية واصابت العلوم والآداب بضربات لم تفق منها حتى اليوم . ويضيق المجال عن الكلام في اطوار اللغتين بعد سقوط بغداد . وعسى ان تتاح له فرصة اخرى ان شاء الله

دراسات

في آثار الاقدمين الروحية

لناشر سيفين

﴿ تمهيد ﴾ — قيل عن قدمائنا انهم كانوا يعبدون الحيوان لما أثر عنهم من تقديس بعض أجناسها . وعرف الى جانب هذا انهم اهتدوا قبل سائر الأمم الى عقيدة البعث والحياة الاخرى

والمرء اذ يرى هذا التناقض في اتجاه الفكر ليتولاه العجب من أمرهم وتتملكهُ الحيرة دون ان يفهم كيف صحَّ عندهم ان يسموا من ناحية في عالم الروح الى غير المنظور وان ينحدروا من الناحية الاخرى في عالم المادة الى عبادة الحيوان

وفي هذه المقالات سأعرض للدرس آثارهم الروحية سواءٌ منها ما انتقل الى الديانات الاخرى وما بقي منها في عاداتنا وتقاليدنا القومية وأرجو أن أوفق الى تفهم روحهم والقاء بصيص من النور على بعض الأركان المظلمة من معتقداتهم تبدد ما غشيها من شبهات انصافاً لهم

وبالنظر الى تردد ذكر توت بمناسبة الكشف في منطقة تونه الجبل عن معابد ومومياءات للطائر أيبس والقرد وهما الحيوانان المقدسان لهُ فقد رأيت ان أبدأ هذه الدراسات بهِ

المعبود توت

توت أو تحوت رب الحكمة والسحر عند الاقدمين وآله العلم ومخترع الكتابة ومستنبط علم الحساب وواضع الاسس لسائر العلوم والمعارف

وكانوا يزعمون ان لهُ كتاباً من صفحتين كتبهما بيده وضمنهما العلوم السحرية كلها . فمن يقرأ الصفحة الاولى يصبح لهُ سلطان على السماء والارض ويفهم لغة الطيور وينظر الاسماك في أعماق البحار ومن يقرأ الصفحة الثانية يمكنهُ ان مات وانتقل الى عالم الارواح ان يرتد الى الارض ويأخذ فيها الهيئة التي كان عليها أولاً . وان يرى الشمس في كبد السماء ومن حولها البدر والنجوم ويعاين الآلهة

وقد لبث هذا الكتاب يشغل حيزاً من تفكير المشتغلين بالمسائل الروحية الى أوائل العصر

المسيحي . وقد وجد البردي الذي فيه خبر هذا الكتاب في قبر راهب قبطي بطيبة

ولا يزال لتوت الى أيامنا هذه ذكر عند المشعوذين فان أحدهم اذ يبتدىء يعرض ألاعيبه على الجمهور يرفع صوته بقوله « توت حاوي » كأنهُ يستنجد رب السحر

وكان أهم مركز لعبادته مدينة الاشمونين وهذا الاسم تحريف خيمنو وهو اسمها باللغة القديمة وأطلق عليها في العصر اليوناني اسم هرموبوليس أي مدينة هرمس وهو الٓـه الحكمة عند اليونان

وقد تردد ذكر هذه المدينة في الايام الاخيرة متصلاً بالابحاث التي تجريها بعثة الجامعة المصرية برآسة الدكتور سامي جبره في هذه المنطقة للكشف عن آثارها . وقد وفقت في هذا العام توفيقاً عظيماً اذ كشفت عن اشياء كثيرة تتصل بعبادة توت من معابد وموميات للطائر أيبس والقرد وهما الحيوانان اللذان كان الاقدمون يقدسونهما لتوت ويتقربون اليه بأهداء مومياء احدهما الى المعبد . وقد عثر من بين مئات منها على مومياء قرد زينت رقبتهُ وصدره بحليّ من الذهب ووجدت على ظهره وقدميه تمائم من الخزف

وهنا يسأل المرء ما علاقة الطائر أيبس او القرد برب الحكمة . واية فضيلة اختص بها هذان الحيوانان واستحقا من أجلها التكريم والتقديس باسم توت.وهذا يتطرق بنا الى موضوع عبادة الحيوان ومن ثمَّ الى دراسة الانسان من الناحية النفسية في حالة الفطرة . ولنقصر بحثنا على مصر منعاً لتشعب الكلام واستفاضته في نواحٍ لا تتسع لها هذه الصحائف

من الامور التي ازعجت الانسان في بداءته توفر الاثمار حيناً وقلتها حيناً آخرواشتداد الحر فترة تعقبها فترة من البرد القارس . واستمرار الجفاف والقيظ زمناً يعقبهُ ارتفاع ماء النهر حتى يغمر الارض جارفاً امامه كل شيءٍ من اكواخ واقوات أدخرت بشق النفس. وقد ظل الانسان أجيالاً في جهالته قبل ان يدرك ان للشتاء نذراً فيستعد له وللجفاف امارات فيأخذ أهبته وللفيضان علامات تنبيء به قبل اغارته فيهرب بأقواته الى حيث لا يدركه الغرق وكان هذا الكشف اول انتصار للانسان على الطبيعة

وكان مفتاح هذا الاكتشاف الظاهرة التي أشار اليها المسيح في سياق احد الامثال التي كان يخاطب بها الشعب وتلاميذه ويضمنها تعاليمهُ لتكون ادنى الى افهامهم اذ قال (انظروا الى شجرة التين وكل الاشجار متى أفرخت تنتظرون وتعلمون في انفسكم ان الصيف قد قرب) فقد عرف الانسان ذلك كما عرف ان الشتاء يسبقهُ اصفرار الاشجار وتساقط أوراقها ولاحظ ايضاً ما يصاحب هذه التقلبات من ظهور بعض انواع الطير او الحيوان ومهاجرة غيرها او انكماشها في جحورها

وفي فصل الفيضان تفد الى مصر طوائف من ايبس وهو طائر مائي من فصيلة ابي قردان واذ لاحظ الاقدمون مع الزمن هذا التلازم اتخذوه علامة على قرب هذا الحادث السنوي العظيم وتوهموا انه اذا لم تجيء طوائف منه لا يكون فيضان . فصاروا يحتفظون في اكواخهم

بأفراد منه ويحيطونها بعنايتهم تيمناً به واستجلاباً للخير الذي يصاحبهُ

وتدرج الناس من ذلك الى النظر في السماء فعرفوا ان تقلب الجو انما يرجع الى اختلاف موقع الشمس من الافق وأصبح في امكانهم ان يعرفوا الفصول بالنظر الى ذلك واهتدوا بمراقبة اختلاف وجوه القمر الى تقسيم الزمن الى اسابيع وشهور. ووفقوا علاوة على ذلك الى كشف نجم له شأن خاص في مصر. فقد لاحظوا انه لا يظهر في نقطة بعينها في الافق مع الشمس الاَّ مرة قبيل الفيضان فاتخذوه مبشراً به وآية من السماء على اقترابه وسموه سوذس وهو كوكب الشعرى. وقد مكن هذا الكشف لمصران تعطي العالم اول تقويم شمسي معروف. وسيجيء الكلام عنه في موضعه بعد

ومضى الانسان في الملاحظة واستقراءِ الاسباب حتى انتهى الى القول في تعليل مشاهداته بأن هنالك روحاً عنده علم كل شيء ومحيط بأسرار الكون. وهو انما يتخذ الطير والشجر والكواكب مما يقع تحت ابصار الناس وسيلة لكشفها لهم لينتفعوا بها في شؤونهم من الرحمة وراحوا في سذاجة الفطرة يصورون لانفسهم ذلك الروح ويلتمسون له في بيئتهم شبيهاً لانهم لم يكونوا قد مارسوا بعد صناعة التماثيل ولا اية صناعة اخرى فشبهوه بالقرد لذكائه وقدرته على توجيه انظار الناس اليه بتقليد حركاتهم على نحو ما يصف احدنا الولد الذكي اليقظ بالقرد

واتخذوه زلفى لذلك الروح الذي عنده علم كل شيء ولا يضن بعلمه عن الناس ووسيلة للتخاطب معه والشكاية اليه

ولما عرف الانسان الزراعة وتركز اعتماده عليها وارتبط بقاؤه باقبالها وكان ذلك رهيناً بعوامل كثيرة لا سيطرة له عليها ولا علم له بأكثرها اشتد شعوره عندئذ بضعفه وانه لا يملك من امره شيئاً وقوي يقينه بعجزه امام قوى قاصرة غير منظورة لا يستطيع بوسائله المادية دفع شرها او استجلاب خيرها. فكان اذا حزبهُ امر او ضاقت به الحيل في شأن من شؤونه او اصابة ضر او نزلت به نازلة كان يجلس وعيناه الى ايبس او القرد مستسلماً الى الهواجس سائلاً الروح الذي لم يتركه في الماضي في ظلمات الجهل وعلمه كثيراً مما لم يكن يعلم ان يأخذ بيده ويكشف كربه. ولما اطمأنَّ الى معونته ورفده التي اعتماده عليه. ولتيسير توجيه الخطاب اليه والاستنجاد به في الملمات أعطاه اسماً وكان هذا الاسم توت

وهكذا أصبح الوهم حقيقة وتطور الروح الذي فرض الانسان في جهالته وجوده فرضاً لتعليل امور غاب عنهُ ادراكها وتفسير ظاهرات أخفي عنهُ تعليلها فصار الهاً. واصبحت الكلمات التي كان يناجي بها نفسه وهو في بحران من الهمّ او يخاطب بها الأيبس او القرد وهو مكتئب النفس حزين يائس — أصبحت هذه الكلمات صلاة

وأضفى هذا التطور على الايبس والقرد حرمةً وتقديساً وصار شأنهما عند الناس كتمثالين او أيقونتين للاله الاَّ انها ليستا من صنع انسان

نوت اول شهور السنة المصرية

اتخذ المصريون منذ القدم الفيضان مبدأً لتقويمهم وقد حسبوا الفترة التي تنقضي بين فيضان والذي يليهِ فوجدوها تستغرق اثنى عشر قمراً . ولما كشفوا سوذس ووجدوا ان شروقه مع الشمس يتوافق مع ارتفاع ماء النيل جعلوه مبدأً لدورة السنة الشمسية . وقد تحققوا ان هذه الدورة تزيد عن اثنى عشر قمراً بضعة ايام وعالجوا ذلك بجعل الشهر ثلاثين يوماً كاملة ثم اضافة خمسة أيام تجيء عقب تمام الاثنىعشر شهراً وهي المعروفة بأيام النسي وبذلك تكون سنتهم ثلثمائة خمسة وستين يوماً . وللاقدمين أسطورة طريفة في سبب اضافةهذه الايام الخمسة : زعموا ان رع منذ الازل دعا على نوت ربة السماء بألاَّ يولد لها ولد في أي يوم من أيام السنة . فاغتمت نوت ومضت الى توت رب السحر والعلم والحكمة وقدكان يحبها ويثبتهُ بثها

ونهض توت للاخذ بنصرتها بالرغم من انهُ يعلم استحالة رد قضاء قضى بهِ رع ونقض حكم نطقت بهِ شفتاه ، وأمكنهُ بحكمته تلطيف القضاء . ذلك بأنهُ تحدىاله القمر ليساجله في لعبة تشبه الشطرنج . وقبل اله القمر تحديه مراهناً علىنوره . وحالف الحظ توت دوراً بعد دور فكفَّ اله القمر عن اللعب مقرًّا بالهزيمة . عندئذٍ أخذ توت ما ربحهُ من نور القمر وبقدرته أنشأ خمسة أيام . ومنذ ذلك الحين لم يعد نور القمر يكفي لظهوره في الافق الشهر بتمامه . لكن يتضاءل نوره يوماً فيوماً ثم ينمحق ولما يتمّ ثلاثين يوماً

وجعل نوت هذه الايام بين السنة المنتهية والتي تليها من غير أن يلحقها بأحداها . وفي تلك الأيام الخمسة وضعت نوت أبناءها أوزيريس وحورس وست وإيزيس ونفتيس على التوالي

وتقديراً لفضل توت في معرفة تقسيم الزمن وانشاء التقويم سمي أول الشهور باسمه

واستمرّ العمل بهذا التقويم أجيالاً الى ان وجد مع توالي السنين ان الاعياد لا تقع في الفصول المقررة لها . فكان فرضاً على الكهنة وهم الحفاظ على الاعياد ضبط أوقاتها وقد عثر على شذرة من رسالة موجهة من أحد رؤساء الكهنة الى مرؤوسيه يعلنهم فيها ان عيد رأس السنة سيوافق اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن ويطلب اليهم اعتبار هذا اليوم أول توت . والرسالة مؤرخة في السنة المائة والعشرين من حكم الأسرة الثانية عشرة وقد وجد ان هذا التاريخ يوافق سنة ١٨٨٠ قبل الميلاد . وعيد رأس السنة الذي تشير اليهِ الرسالة من أهم أعياد مصر القديمة وكان يعيد طبقاً لاحدى الاساطير لهاتور تذكاراً للخلاص

وحكاية ذلك كما روتهُ الاسطورة ان الناس تمرّدوا على رع رب الارباب وخرجوا عن طاعتهِ وعصوا أوامره وأخلوا بنواهيهِ فقرَّ رأيه على تأديب العصاة وردهم الى صراط مستقيم . فأعطى هاتور سيف انتقامه وأرسلها حرباً عاتية على الكفرة المتمرّدين فأثخنت فيهم أيما اثخان

وأهلكت منهم خلقاً كثيراً فسالت الدماء الى النهر فتحوّل أحمر قانياً . ولما رأى رع من عليائه ذلك أخذتهُ الشفقة على جنس الانسان ومال الى الصفح عنهُ وغفران ذنبه . لكن كيف السبيل الى ذلك ورع لن ينقض حكماً بعد ابرامه وهاتور لن تنثني عن عمل وجهت اليه ومهمة نيطت بها حتى تتمها وقد ذلل رع ذلك بوسيلة هي بالحيلة أشبه

أمر رع النساء ليصنعن من الشعير شراباً وأرسل في الوقت نفسه رسلاً الى اسوان ليجلبوا من هناك عنباً من كل ذي لون أرجواني وقرمزي ليتخذ منهُ عصير أحمر هو النبيذ . ثم اشار بمزج الشراب المصنوع من الشعير بالنبيذ فكان مزاجهما شراباً مسكراً أحمر بلون الدم. وعندئذٍ أمر فأريق الشراب في الاماكن التي اجتازتها هاتور للانتقام . ولما جاءت هاتور في الصباح لاستئناف المذبحة تلفتت يمنة ويسرة فلم تجد أحداً من الناس الاّ هذا السائل الاحمر فتملكها الغضب وثارت تعطشاً الى القتل وانحنت على الارض وولغت في ذلك السائل وهي تحسب انهُ دم الخلق الذي سفكت فثقل رأسها من المسكر ونامت فنجا الناس بذلك من فتكها . وتلافاء ما كان لهذا الشراب من فضل في خلاص الناس شرع لهم رع ان يشربوه كلما جاء عيد رأس السنة للذكرى

أما السبب في ان أول توت لم يكن يتوافق مع ظهور سوذس طبقاً للقاعدة التي وضعت لهُ منذ انشاء التقويم بل كان يسبق ظهوره سنة بعد أخرى حتى بلغ الفرق بتعاقب الاجيال المبلغ الذي أشارت اليه الرسالة وهو سبعة شهور ونصف فهو ان السنة بحسبانها ثلثمائة خمسة وستين يوماً تنقص ربع يوم عن المدة التي تستغرقها الارض في دورانها حول الشمس من نقطة اقترانها بسوذس . وبناء على هذا فالسبعة الشهور والنصف هي مقدار ما تجمَّع من أرباع اليوم في سنين عددها يساوي عدد أيامها وهو مائتان خمسة وعشرون مضروباً في اربع أي تسعمائة سنة ولو كان ترك بدون تعديل لتوافق اول توت مع ظهور سوذس بعد تمام الف واربعمائة وستين سنة وهو الحاصل من ضرب عدد ايام السنة في اربعة

فلو فرضنا ان حادثة ضبط التقويم التي نحن بصددها هي الاولى من نوعها وقد حصلت على ما حققه العلماء المختصون في عام ١٨٨٠ ق.م. فيكون عام ٢٧٨٠ ق.م. من الاعوام التي توافق فيها اول توت مع ظهور سوذس ومن حيث ان الاسرة الاولى تولت الحكم حوالي عام ٤٤٠٠ قبل الميلاد فيمكننا القول بأن التقويم أنشىء قبل عام ٢٧٨٠ بدورتين على الاقل اي ٢٩٢٠ سنة وعلى هذا فيكون التقويم أنشىء سنة ٥٧٠٠ قبل الميلاد على أقل تقدير

جرى العمل بهذا التقويم على ما به من نقص اجيالاً ولم يفطن أحد الى الطريقة المثلى لاصلاحه حتى ولي الملك بطلميوس الثالث الملقب بأيفرجت الاول وكان محبّاً للرعية مخلصاً للدين فقرر الكهنة اقراراً بفضله واعترافاً بمآثره ان ينشئوا باسمه عيداً يقام كل سنة أربعة أيام متتابعة

ولكي يقع العيد على مرّ السنين في الموعد المقرر له رأوا اصلاح التقويم بأضافة يوم الى كل سنة رابعة . وكان ذلك قبل الميلاد بمائتين ثماني وثلاثين سنة

ولما دخلت مصر في حكم الرومان بعد البطالسة امر اغسطس قيصر في السنة السادسة والعشرين قبل الميلاد بتعديل التقويم المصري بحيث تتوافق شهوره دائماً مع التقويم اليوناني وبمقتضى هذا التعديل اصبح اول توت يوافق اليوم التاسع والعشرين من شهر اغسطس

وقد اسخط تعديل التقويم على هذه الصورة المصريين وكان من مظاهر احتجاجهم عليه احتفالهم بمهرجان اول توت في موعده القديم وهو يوافق على ما حققهُ الفلكيون ١٩ يوليو وهو وقت اقتران سوذس بالشمس في خط عرض هليوبوليس . ولبثوا على ذلك الى ان دخلت المسيحية مصر فكان في انتشارها القضاء على الدين القديم والقضاء على الاساطير بما فيها من اخبار الآلهة ومآثرهم . وابطلت من ثمّ الاعياد التي انشئت للتنويه بهم والاشادة بذكرهم

ولما لم يكن قد رتب للمسيحية بعد أعياد لتأخذ مكان الاعياد القديمة ، فقد حنّ الشعب الى احياء هذا العيد والاستمتاع بمباهجه ولاسيما انهُ في ظاهره لا يتعارض مع المسيحية اذ كان لذكرى الخلاص وهي العقيدة التي أسس عليها هذا الدين . وفيه تشرب الخمر لذكرى الخلاص وهي بعينها الخمر التي قال عنها المسيح انها دمه الذي يسفك من اجل خلاص العالم واوصى بشربها للتذكار فصار المصريون يحيونهُ كل سنة ولا يرون في ذلك حرجاً او اثماً . ولما أنشأت الكنيسة عيداً للقيامة جعل هذا المهرجان في أثره ولايزال الى الآن وهو عيد شم النسيم

وفي رأيي ان السبب في هذه التسمية ان العيد في الاصل كان يقع في بداءة فصل الفيضان فكان يطلق عليه اسم هذا الفصل باللغة القديمة وهو شمّو فلما تغيّر الدين وتبع ذلك تغيّر اللغة أصبح هذا الاسم لفظاً بلا معنى . ولمقاربته في النطق للفظ العربي شم ّ أضيف اليه لفظ النسيم لانه يطابقهُ ويتم معناه . وبذا اصبح الاسم المصري القديم عربيًّا لفظاً ومعنى

وكثير من العادات المتصلة بهذا العيد ترجع في اصلها اما الى تقليد ديني وإما الى عادة اصطلح عليها الشعب منذ القدم للتنويه بمعنى يستفاد منه . فمن النوع الاول عادة شرب الاشربة المتخذة من الشعير كالبوظة والسوبيا في شم النسيم اذ هي مشتقة من فريضة شرب الخمر الممزوجة من خمر الشعير والنبيذ التي شرعها رع لذكرى الخلاص

ومن النوع الثاني عادة شم البصل في صباح يوم شم النسيم . وهي مأخوذة من عادة تنشيق الاطفال عقب وضعهم البصل لتنبيههم ليصيحوا وتمتلىء رئاتهم بالهواء . ولا تزال هذه العادة عند القرويين الى هذه الايام . وقد أريد بها في مناسبة العيد الاشادة بفضل الاله الذي عفا عنهم واستحياهم وكتب لهم عمراً جديداً أوله ذلك اليوم

﴿ أصل بعض العادات المتصلة بشهر توت ﴾ ومن العادات المستغربة ان كثيراً من نساء القبط يهرعنَ اذا كان اول توت الى سطوح المنازل في الصباح ليرينَ على زعمهنَّ رأس يوحنا المعمدان في السماء

وفي اعتقادي ان هذه العادة ابتدأت لما كان سوذس من كواكب الدين عند الاقدمين اذ كان مطلعهُ في الصباح مع الشمس يحمل التهانيء بأول توت والبشائر بابتداء فصل الفيضان. فكان الناس يترقبون شروقهُ في الاماكن المرتفعة وألسنتهم تلهج بالدعاء ان يكون مطلعه مطلع خير وبشيراً بعام جديد تتحقق فيهِ الآمال. فلما دخلت مصر في المسيحية نسي الناس سوذس لكنهم لم ينسوا العادة التي غرسها في الاجداد استبشارهم بهِ واحتفالهم برؤيتهِ. وكان لا بد لبقائها من صبغها بصبغة الدين الجديد فلما قررت الكنيسة عيداً لذكرى مقتل يوحنا المعمدان وجعلت موعده في اليوم الثاني من شهر توت أضاف الشعب المحافظ على عاداته الموروثة عادة التطلع الى الافق في اول توت الى ذكرى هذا الرسول الذي قتل ووضعت رأسه في طبق

وشهر توت عند اكثر الناس لاسيما من القبط غير موافق للزواج ومن اقوالهم في هذا المعنى «عروس توت لفوت» اي الترك. ولم استطع ان أقف على سر هذا التشاؤم حتى كنت في ذات يوم أقلّب صفحات كتاب لبدج العالم بالآثار المشهور فاستوقفت نظري عبارة في سياق الكلام عن المعبودة أيزيس تفيد انهُ كان للاقدمين ايام سعود وأيام نحوس وتقويم يرجعون اليهِ اذا كانت لاحدهم حاجة يريد قضاءها لمعرفة اليوم الموافق لذلك. وقد جاء فيهِ عن اليوم السادس والعشرين من توت ما يأتي: (لا تعمل عملاً البتة في هذا اليوم ففيهِ احتدم القتال بين حورس وست وحورس ابن اوزيريس الذي علّم المصريين الزراعة وهداهم الى عبادة الآلهة. وست اخوه وكان شريراً فنفس على اخيهِ ما احرزه من نجاح وما صار له من المكانة والسلطان عند الناس فاحتال عليهِ حتى قتله. ولما بلغ حورس اشده أقسم لينتقمنّ لابيه من ست. فناصبهُ العداء وكانت الحرب بينهما سجالاً ومن حوادثها تلك المعركة التي يصفها التقويم. ففي أثنائها قدمت ايزيس وهي ام حورس واخت ست وتدخلت بينهما ليتهادنا فحنق عليها ابنها لذلك وفي ثورة غضبه ضربها ضربة اطاحت رأسها فكان من ذلك تشاؤم الاقدمين من هذا اليوم. ولا يزال لهذا التشاؤم ظلٌّ يخيم على الشهر كلهِ إلى الآن

يخلص لنا من هذه الدراسة أن الحيوانات المقدسة تنقسم من حيث الفكرة في تقديسها الى نوعين: الاول — ما يرجع تقديسه الى التفاؤل ويشمل هذا النوع ما يعرف بالطوطم وهو عند الامم التي على الفطرة ذات مقدسة من الحيوان او النبات ومن هذا القبيل عند قدمائنا الأبيس. ولا يزال التفاؤل عند الناس شأن عظيم فكم من أمرىء يتفاءل بحجر او حلية لا ينفك يحلها كلما خرج في شأن من شؤونه فاذا سها عنها مرة انقبضت نفسه وتوقع السوء من التشاؤم

والنوع الثاني الحيوانات التي يرمز بها الى صفة من صفات المعبود او معنى يستفاد من أخباره. ويشمل هذا النوع سائر الرموز في الديانات القديمة وسأزيد هذا الموضوع بياناً في المقال الثاني

زهرة

« الى التي تعطر طريقي كل صباح »

ابسمي للصباحْ فهو معنى السماحْ
وازدهي بالفواحْ فهو رَوْحٌ وراحْ
للهوى والمِـراحْ

***

عطّـري لي الطريقْ بالشـذي والرحيقْ
ان قلبي الطليقْ مـدمنٌ لا يفيقْ
تحت سحر الاقاح

***

أي روض نماكْ أي نبع رواكْ
أي أرضٍ حماكْ نفحةٌ من شذاكْ
أطلقت لي السراحْ

***

ان فَـوْح الصدور مثل فوح العطورْ
قد نشرتُ الشعور فانشري لي العبـيرْ

في هدوء الصباح
وازدهي بالفواح
فهو روحٌ وراح
للهوى والمِـراح

حسن كامل الصيرفي

الانتخاب الطبيعي

واصلاح النسل

للدكتور شريف عسيران

إن أول من استنبط نظرية الانتخاب الطبيعي وجعلها عاملاً من عوامل تنوع الاحياء ورقيها وتغلبها على غيرها واستمرارها بقوة تنازع البقاء هو العلامة الاشهر دارون مؤلف كتاب «أصل الانواع» وغيره من المؤلفات النفيسة في التاريخ الطبيعي . وقد بين ان الكائنات الحية من أصل واحد تنوعت بعامل الانتخاب الطبيعي وعرّف الانتخاب الطبيعي بأنهُ حفظ التباينات النافعة ونبذ الضارة [1] وقال اذا حصل التباين فمن المؤكد ان يتغلب الافراد الذين يشملهم هذا التباين على غيرهم بعامل تنازع البقاء وتنتقل صفاتهم بحسب ناموس الوراثة الى نسلهم وعزا عدم زيادة النسل وازدحام السكان الى صعوبة الحصول على الغذاء اللازم وتغلب الاعداء وتأثير المناخ [2] وزعم انها من العوامل التي تعيق تكاثر النسل . فالاحياء التي تتغلب على هذه العوامل تنتشر اكثر من غيرها وتخلد نفسها والعكس بالعكس . وتتضمن نظرية الانتخاب الطبيعي ثلاثة أمور :

(١) حصول التباينات الوراثية (٢) تنازع البقاء (٣) بقاء الانسب

وقد حصل تغير كبير في هذه النظرية بدّل أوضاعها فلم يعد الانتخاب الطبيعي العامل الوحيد في اخراج الانواع الجديدة وليست قلة الغذاء سبباً في تقليل النسل وتنازع البقاء [3] وليس بقاء الانسب هو بقاء الاصلح ولا نخوض هذه الموضوعات الزاخرة بل نقتصر منها على ما لهُ علاقة بموضوعنا

يظن البعض ان نظرية الانتخاب الطبيعي انهارت وان تأثيرها اضمحل وقد تمكن البشر من التغلب على محيطهم فتلاشى كثير من الامراض التي كانت تفتك بهم فتكاً ذريعاً كالهيضة والطاعون والجدري والبرداء والدودة الشصية وغيرها ونقص غيرها نقصاً بيناً كالتيفوئيد والسل

---

(١) أصل الانواع : 72 Origin of Species p.

(٢) أصل الانواع : 109 « «

(٣) سنتبسط في تفنيد هذه النظرية في مقالنا الآتي تحديد النسل ومشكلة السكان

الرئوي والزحير وغيرها وغيرها. وقد تلاشى كثير من هذه الامراض في بعض الاقطار التي تعتني بالشؤون الصحية الاعتناء اللازم. وتمكن الانسان أيضاً ان يعيش في مختلف الاقاليم بفضل التدابير الصحية والمستنبطات العصرية كالتدفئة والتبريد وتحسين المناخ وغيرها من الوسائل المعلومة التي تغلب بها الانسان على الطبيعة لحدٍّ ما. وقد استطاع ان يطيل حياة ملايين البشر الذين كان لهم نصيب الموت المحتم كالمسلولين والمصابين بداء الكساح ونقص مفرزات الغدد الصم والسكري والزلال وغير ذلك من العلل والامراض. ورغماً عن هذا النصر المبين لا تزال هناك علل وراثية لم يستطع التغلب عليها. فالمصابون بنزف الدم الوراثي Haemophilia أكثر تعرضاً للموت وأقصر عمراً من غيرهم. وقد ظهر من احصاء ٣٧ وفاة من عائلة مامبل الاميركية ان ١٧ منها ناشئة عن هذا الداء. وضحايا المصابين بالصرع والجنون والبله وغيرها من الامراض العقلية أكثر من ان تعدو وهي عامل كبير في قصر عمر المصابين بها. وقد أحصى Bar ٦٢٥ وفاة من المصابين بالنقص العقلي فوجد ان اكبر عدد يموت بين سن ١٠ — ٢٠ ووجد كلارك وستول ان المتوفين من ناقصي العقول في مستشفيات مدينة نيويورك ومدارسها ضعف وفيات الاولاد الاصحاء. وكثرة وفات اسرتي Jupes & Kallipops (١) من الامور المعروفة في تاريخ هاتين الاسرتين

ان كثرة وفيات الاطفال ملازمة على الاغلب للفقر والجهل والانحطاط العقلي. وقد درس الدكتور Stevenson وفيات انكلترا وويلز بالقياس الى المهن فوجد ارتفاعها وانخفاضها تابعين لارتفاع وانخفاض المهنة فكلما كانت المهنة رفيعة كان معدل الوفيات اقل والعكس بالعكس. وقد وضع جدولاً بذلك لا نرى حاجة الى إثباته

***

هذه ادلة قوية تثبت ان الانتخاب الطبيعي لا يزال مستمراً بعمله لدرجة ما. ومن رأي الدكتور هولمز ان الانتخاب الطبيعي زاد بتقدم المدنية عوضاً عن ان ينقص (٢). ولنأخذ البغاء مثالاً لتأثير الانتخاب الطبيعي وعلاقة ارتفاع الوفاة بوضاعة المهنة. ان البغي معرضة للامراض الزهرية وفيها ضعف لمقاومة المشروبات الكحولية وهي مفرطة بصحتها بحكم عملها فتسهر كثيراً وتأكل في أوقات غير منتظمة وتتعرض لمختلف الامراض السارية غير الزهرية كالسل الرئوي وغيره. فجميع هذه العوامل تؤول الى قصر عمرها. ولكن ضريبة الموت الكبرى تقع على نسل

(١) هما اسرتان اميركيتان يضرب بهما المثل في الانحطاط العقلي الناشيء عن الوراثة
(٢) The Eugenic Predicament p. 107-8

هذه الفئة وهناك عاملان رئيسيان يمنعان تناسل هذه الصنف الاول ارادي فالبغايا يتعمدن منع النسل بطرق مختلفة والثاني عامل اجباري ناشيء عن اصابتهن بالامراض الزهرية التي تصيب الاكثرية الساحقة منهن كالسيلان الذي يسبب العقم والزهري الخلقي الذي يسبب موت أولادهن عاجلاً او آجلاً . ولولا هذه الظروف الملازمة لمهنتهن لكن أخصب الانواع انتاجاً . ويروعنا ان نعلم ان البغاء من صالح تحسين النسل. فقد ثبت أن حاصل ذكاء البغايا واطىء وظهر من تقرير اللجنة التي نيط بها البحث عن المتاجرة بالرقيق الابيض في ماستشوستس ان ٥١ من بين ٣٠٠ بغي درسوهن ضعيفات العقل وذكاء الباقي دون المعدل المطلوب . ويظهر من تقارير Bonfaifer عن ٣٠٠ بغي في سجن برسلون ثلثها كن ناقصات العقل وتوصل غيره الى نفس الملاحظات . وبها اختلفت الآراء فيهن فان نسل مثل هؤلاء غير مرغوب فيه

ومن رأي الدكتور فرتز لنز في كتابه الوراثة البشرية ان للامراض الزهرية تأثيراً حسناً وسيئاً فهي من وجهة تخلص النسل من ضعاف العقول والمجانين وغيرها من الامراض المتولدة من الزهري وتبقي أقوياء الارادة والاذكياء وتحدث عقماً في ضعاف الارادة الذين يستسلمون لشهواتهم ومن وجهة أخرى تفسد النسل بما تحدثه فيه من العاهات (١)

وجد العلماء ان طول العمر وقصره وراثيان لدرجة ما فقد أحصى الكسندر بل مكتشف التلفون عدة أسر في اميركا فوجد طول العمر وقصره وراثيين فيها فكلما طال عمر الآباء كان عمر الابناء طويلاً والعكس بالعكس . وأحصى Plaetz عدة أسر ملكية وهي كما تعلم ممن يتيسر لافرادها المحيط الملائم للحياة وتوصل الى نفس النتيجة كغيره وأثبت ذلك بالارقام الناطقة (٢)

يرث المرء في كثير من الامراض استعداداً وراثياً كالسل والكساح وغيرها ويرث ضعفاً في مناعته ايضاً بحسب رأي Davenport يعرضه لانواع الامراض السارية اكثر من غيره فهذه العوامل تساعد في تنقية النسل بالانتخاب الطبيعي لان الفئة التي فيها استعداد وراثي للامراض معرضة للتلف اكثر من غيرها . ثم ان في بعض اصناف البشر استعداداً لانواع المناخ اكثر من غيرهم فالسود يستطيعون مقاومة المناخ الحار اكثر من البيض والبيض المناخ البارد اكثر من السود وهلم جرا

فالانتخاب الطبيعي لا يزال يؤثر تأثيراً محسوساً في اصلاح النسل

(١) The Eugenic Predicament p. 114

(٢) Applied Eugenics p. 88,9

العلوم المبسطة(١)

العطور والغازات

استخراجها من قطران الفحم

واستعمال الغازات الحربية إبان السلام

١ — العطور الزكية

اذا زعمت لكم ان عطر البنفسج الزكي ، الذي تبتاعونهُ في قوارير نخمة ، بثمن غال ، مستخرج من قطران الفحم الحجري ، فقد تحملون قولي على محمل المبالغة . ولكنهُ قول لامبالغة فيهِ . لان العلم الحديث قد كشف الطريق ، الى استخراج الاصباغ الزاهية ، والعطور الزكية ، من قطران الفحم . وهذا من عجائب العلم والصناعة في هذا العصر

وقبل ان أقصّ عليكم قصة العطور الزكية وكيف تستخرج من أزهار النبات وأوراقهِ وعيدانهِ ولحائهِ ، وكيف جاء الكيمياوي ينافسها ، فاستغنى في كثير منها عن مملكة النبات قاطبة ، وصار يستخرج العطور من قطران الفحم ، بل كيف بذّ العطور الطبيعية بعطورهِ الصناعية وزاد أصنافها ، أريد ان اشير في صدر الكلام ، الى ان الانسان في العهد الماضي من حضارته ، كان يعتمد على الطبيعة ، في استخراج ما يحتاج اليهِ . نعم كان في مكنتهِ قبلاً ، ان يختار ، مفضلاً هذا الزهر على ذاك ، او خشب هذه الشجرة على خشب تلك ، ولكنهُ كان عاجزاً عن الابداع . فكان اذا طلب السكر ، أرسل الى حيث يكثر زرع قصب السكر في جزائر الهند الغربية . واذا طلب الافاويه بعث في سبيلها المراكب الى جزائر الهند الشرقية . واذا احتاج الى النيلة أتى بها من الهند ، واذا وجب عليهِ استعمال السماد استوردهُ من شيلي ، او المطاط بذل شجر المطاط في الكنغو او مالايا وأخذ لبنهُ . كذلك كان اذا طلب عطر الورد ، أتى بهِ من وادي المريج في تركيا ، وهي احدى المناطق التي يزرع هذا الورد ويستقطر . فالانسان كان في العصر الماضي ، الممتد الى أقدم العصور ، غير مسيطر على بيئتهِ

(١) من الاحاديث اللاسلكية التي يذيعها رئيس تحرير المقتطف من محطة مصر الحكومية

ولكنهُ ما كاد يكبُّ على دراسة العلوم الطبيعية ، حتى أخذ يتبين قواعدها واصولها رويداً رويداً ، فنفذ الى أسرار التركيب والبناء، وخاصة بعد كشف أصول الكيمياء ونواميسها الاساسية، فصار في مكنتهِ الآن ان يصنع النيلة والسكر وعطر الورد من قطران الفحم الحجري ، من دون ان يلجأ او يحتاج الى نبات النيلة في الهند او قصب السكر في كوبا او حدائق الورد في تركيا . كذلك استطاع ان يصنع من الهواءِ والامونيا سماداً جيداً فاستغنى عن سماد شيلي الطبيعي ، وقد توصل اخيراً الى صنع نوع لا بأس بهِ من المطاط من غازٍ لا اكثر ولا اقلّ

***

نعود الآن الى حديث العطور الطبيعية والصناعية ، وهو من أفكه الاحاديث العلمية وألذّها لانهُ في ناحيتهِ الطبيعية ، حديث المروج والحدائق ، فيها الازهار على اختلافها منوّعة الالوان زاهيتها ، يخيّم عليها جوٌّ عبق بعطرها الزكي ، فهو حديث الطبيعة على أجملها وأزكاها . ثم هو في ناحيتهِ الصناعية ، حديث العبقرية والابداع ، يبعث في النفس نشوةً ناشئة عن الشعور بالقوة والسيطرة والمقدرة على مباراة الطبيعة ومنافستها في ابداعها

***

لا يخفى عليكم ان حاسّة الشمّ لم ترتقِ بارتقاءِ الانسان . بل على الضد من ذلك انها ضعفت، فكأنها كانت لازمة في البداوة وقبل البداوة ، فعادت غير لازمة في الحضارة . فالكلب يميّز بين الصديق والعدوّ بالشم ، ويستطيع ان يقفو اثر انسانٍ اذا شمَّ رائحة ملابسه . ولذلك يستعملهُ رجال الشرطة في احوال كثيرة في اقتفاء آثار المجرمين ، او في اقتفاء آثار الذين اختفوا نتيجة لعملٍ اجرامي . وهو عمل كثيراً ما نراهُ على لوحة السينما ونقرأ حوادثه في الصحف

اما الانسان فقد فقد دقة حاسّة الشمّ او كاد . نعم انهُ يستطيع ان يميّز الروائح الطيبة، من الروائح الكريهة . ولكن اللغة نفسها اقوى دليل على ضعف هذه الحاسة فيهِ . فليس يحتاج احد ، الى بلاغة نادرة لكي يصف جسماً من الاجسام ، او شيئاً من الاشياء ، وصفاً يمكنك من معرفتهِ اذا رأيتهُ . فالأميُّ يستطيع ان يصف حيواناً غريباً رآهُ بالفاظٍ تمكنك من معرفة ذلك الحيوان اذا رأيتهُ أنت . فينبئك بلونهِ وحجمهِ وشكلهِ وما يمتاز بهِ من ذيلٍ او قرون او أنياب او فراءٍ او اذنين عريضتين او ما اشبه. فاذا رأيتهُ قلت في نفسك ، هذا هو الحيوان الذي وصفهُ فلان. ولكن ذلك متعذّر في وصف الروائح. حاول انت ايها البليغ ، ان تصف رائحة معينة، ولنقل انها رائحة الورد ، من دون ان تستعمل لفظ الورد في وصفها ، بطريقة تمكن صاحبك من معرفة الرائحة التي تقصدها . ان اللغة في الغالب تقصر دون مرامك ، ولو كنت من البلغاء

العطور محلولات من زيوت معينة او مواد عطرة ، في كحول (سپيرتو) مخفف . أما عطور

القدماء فكانت المواد العطرة نفسها غير محلولة في كحول او مادة أخرى

فالزيوت العطرة تستخرج من مصادر نباتية من الازهار او الاوراق او السوق او الجذور او اللحاء (قشرة السوق والعيدان) بأساليب دقيقة كل الدقة . وقد عرفت بالزيوت لانها في الغالب مواد دهنية او زيتية ، أخف من الماء وتطفو على سطحهِ من دون ان تمتزج بهِ . وهي تشبه زيت الزيتون وزيت بزر الكتّان ، في انها تحدث بقعة دهنية اذا وضعت على الورق ، ولكن بقعة زيت الزيتون تبقى هناك ، وأما بقعة الزيت العطري ، فلا تبقى ، لانها في الغالب زيوت طيارة أي سريعة التبخر

فعطر الياسمين والنارنج والورد والبنفسج (الكلام هنا على العطر الطبيعي) يستخرج من أزهار هذه النباتات . وعطر الخزامى والنعناع يؤخذ من الازهار والاوراق . وعطر الصندل يؤخذ من الخشب . وهناك عطر يعرف بعطر حشيشة الملك يستخرج من الجذور . وعطر البرجموت والليمون والبرتقال يؤخذ من الازهار والاوراق والأثمار. وعطر اللوز المر واليانسون وجوز الطيب يؤخذ من البزور وعطر البلسم المعروف بلسم بيرو يؤخذ من الصمغ

وهناك عطور أخرى مصدرها يرتد الى الحيوان . فتعرف بالطيوب . وهي أغلى العطور عامة وأندرها . فالعنبر يستخرج من حيوان بحري ، وهو من قذف الحيتان المريضة . والمسك يستخرج من أحد الايائل وقد أشار المتنبي في مدح أحد الامراء الى ذلك بقولهِ

وان تفق الانام وانت منهم فان المسك بعض دم الغزالِ

والزباد طيب نادر يستخرج من حيوان يعرف باسم سنور الزباد . ومن بواعث الاسف ان أيائل المسك وسنانير الزباد تكاد تنقرض لجدّ الناس في صيدها طلباً لطيبها

***

أما الاساليب المستعملة لاستخراج العطور من مصادرها فبعضها قديم كالتقطير والنقع ، في الادهان والكحول ، وبعضها حديث كاستعمال بخار البترول . ومن النادر ان يكتفى باستعمال طريقة واحدة في استخراج العطر من نوع واحد من الزهر او الخشب بل يستعمل أكثر من أسلوب واحد حتى يثبت ان كل العطر قد تم استخراجهُ

ففي طريقة التقطير، توضع الازهار في انبيق كبير، وتغمر بالماء ، ثم يبدأ عمل التقطير المعروف المستعمل في تقطير ماء الزهر من زهر النارنج او ماء الورد من زهر الورد . أما طريقة النقع في المواد الدهنية ، فيعمد فيها الى وضع الازهار فيها ، حتى تتهرأ وتصير كالروّخ (المرهم) والغالب ان يوضع عدد معين من الازهار في دهن نقي او زيت زيتون نقي ، ثم يوضع الاناء في اناء آخر فيه ماء مغلّى ، وبعد وقت معين تخرج الازهار ويوضع غيرها مكانها ، حتى يتشبع

الدهن او الزيت بعطرها . ثم تمرّث الازهار ، التي نقعت وتضغط في مكابس مائية حتى يعصر منها كل ما تبقى فيها من العطر . ويؤخذ المروَّخ ويغسَل مراراً بالكحول فيذيب الكحول العطر الذي فيه ويمتصه فيصبح بعد التصفية والتبريد ، خلاصة من عطر الزهر المستعمل

او قد تستخرج المادة العطرية باستعمال بخار البترول النقي . وهو من أحدث الاساليب ومن أفضلها وطريقته ان تمرث الازهار اولاً ، فتنمزق الغدد الدهنية التي تحتوي على المادة العطرية ، وتتصل هذه المادة ببخار البترول . وتبقى الازهار الممروثة على هذه الحالة ٤٨ ساعة . ثم يبرد البخار ويستقطر فتبقى منه مادة شمعية ، ذات رائحة عطرة زكية ، ويعاد عمل الاستقطار مراراً فتصبح المادة الشمعية خلاصة العطر التي تباع في الاسواق . وقد رأيت ذلك في « جراس » البلدة المشهورة باستقطار العطور في جنوب فرنسا

هذه الاساليب مما يمكن استعماله في الازهار التي تستخرج رائحتها بسهولة ، اذا مرثت . ولا تزول رائحتها اذا مضى عليها وقت طويل بعد قطفها . ولكن ما كان من الازهار كالياسمين والزنبق ، لا يستخرج عطره الا" بالحيلة لأن مقدار العطر قليل — ولا يستخرج من طن من الزهر الاّ اوقية او اوقيتان من العطر — فلا يصلح التقطير لاستخراجه . ولا يستخرج بالنقع ولا ببخار البترول لانهما يتلفان الازهار . لذلك يستخرج عطرها باستعمال الدهن البارد . وآية ذلك ان الازهار الغضة توضع في اطباق مبطنة بالدهن . وتقام هذه الاطباق بعضها فوق بعض وتبدل الازهار الذاوية بغيرها مرة كل ٤٨ ساعة ، وكذلك يمتص هذا الدهن عطر الزهر الفائح فيصبح كالمروّخ في الطرق السابقة ويعالج كما تعالج لاستخراج العطر منه

***

ولا يخفى ان خلاصات العطور المركزة لا تباع الا" لصناع العطور التجارية . ويختلف سعر الاوقية من جنيه الى عشرات الجنيهات ، وذلك بحسب الصعوبة التي تعانى في استخراج العطر ، ومقدار الزهر الذي ينفق في الاستخراج . وصناع العطور يمزجونها ثم يحلونها في الكحول ويبيعونها في قوارير أنيقة مختلفة الاشكال والالوان بأسعار غالية . والغالب ان لايحتوي المحلول اكثر من ١٠ في المائة عطراً و٩٠ في المائة كحولاً

وسرّ صناعة العطور هو مزج الخلاصات الزيتية بعضها ببعض عند حلّها وبيعها . وهذا المزج فنّ دقيق ، توارثت سرّهُ بعض الاسر القديمة التي اشتهرت بهذه الصناعة . فماء الكولونيا الالماني ، لا يباح سرّ صناعته ، حتى للعلماء . وكان الكيماوي الالماني Piss قد صنع للعطور سلماً كالسلم الموسيقي ، جعل في أسفله العطور الشرقية القديمة ، مثل عطر خشب الصندل ، وفي أعلاهُ العطور الطيارة الخفيفة ، مثل عطار الهليوتروب . فالخبير يستطيع ان يمزج بين درجات

هذا السلم العطري، كما يمزج الموسيقي بين درجات السلم الموسيقي ، فيخرج الاول عطوراً زكية ، كما يخرج الثاني أنغاماً متآلفة شجية . فاذا كان غير خبير في الحالين ، كانت النتيجة عطوراً متنافرة الاجزاء تؤذي حاسة الشم ، وأنغاماً غير متسقة تؤذي حاسة السمع . والخبراء في معامل العطور الذي يشمُّون العطور المركبة ، ويحكمون لها او عليها ، يتناولون مرتبات ضخمة

***

هذا شيءٌ عن العطور الطبيعية واستخراجها والتأليف بينها . وقد نظر الكيمياوي الى ميدان العطور فرآه مجالاً واسعاً للابداع والكسب . رأى مثلاً عطر البنفسج . فهو من اندر العطور وأغلاها ثمناً . فأنت اذا زرعت فداناً كاملاً بزهر البنفسج لم تستطع ان تستخرج من أزهاره الاَّ بضع قطراتٍ من العطر الزيتي البنفسجي المصفى . ومن أشق الامور حفظهُ لانهُ طيار سريع التبخر . فلما حلَّل الكيمياوي هذا الزيت وجد ان عنصره الاساسي مادة تدعى «أيونون» فلما استفردت هذه المادة نقية من الشوائب ، ظهر انها تبلغ من قوة الرائحة ما يشلّ عصب الشمّ ، فلا يستطيع الانسان ان يحسّ رائحة ما لها . فعمد الكيماوي الى محاولة تركيبها تركيباً صناعيًّا في المعمل ، من دون ان يعمد الى زهر البنفسج على الاطلاق ، بل اعتمد على بعض المواد المستخرجة من قطران الفحم الحجري . فأفلح في ما حاول . فأصبحت العطور المحتوية على رائحة البنفسج رخيصة الثمن الآن بفضله . حتى ليتعذر على أحدٍ الآن في الغالب ان يبتاع عطر البنفسجي الطبيعي . لان العطر الطبيعي لا يستطيع ان ينافس العطر الصناعي ، فلا يصنع الاَّ في النادر لانهُ لا يفي بنفقته، وما يصنع منهُ تمزج منهُ مقادير صغيرة جدًّا بالعطر الصناعي

وما تمَّ للكيمياوي في عطر البنفسج تمَّ لهُ مثله في عطور وطيوب مختلفة مثل عطر الورد وعطر الليمون والمسك وغيرها بل ان بعض الازهار كان مما يتعذر استخراج عطر منهُ بأحد الاساليب المعروفة مثل زهر « زنبق الوادي » و « الليلج » فصنع الكيمياويون عطوراً صناعية لها نفحة العطر الطبيعي

ولعلَّ أعظم انتصار أحرزتهُ الكيمياء في ميدان العطور كان في صنع عطر المسك بالتركيب الكيمياوي . فالمسك أهم مادة في صناعة العطور لانهُ مثبت للعطور موحِّد لها . فاذا مزج خبير عطوراً مختلفة بعضها ببعض كان لا بدَّ من استعمال المسك لكي يوحدها ويثبتها وينشىء منها عطراً واحداً منسجماً لا تنافر بين اجزائه . وقد بلغ من اشتداد الطلب على المسك الطبيعي المستخرج من غدد غزال المسك التبتي (نسبة الى بلاد تبت) ان كاد هذا الحيوان ينقرض حتى بلغ ثمن الرطل من المسك غير النقي ١١٢ جنيهاً والنقي الخالص من الشوائب ثمانية آلاف جنيه . فعمد الكيمياوي الى التركيب فتمَّ له ما أراد

٢ — الغازات الحربية واستعمالها

في ابان السلام

أما وحديث الحرب يشغل كل ذهن ، فان موضوع الغازات السامة وما اليها يفوق سائر الاحاديث العلمية في استيقافه للنظر واسترعائه للعناية . وبوجهٍ خاص ما يقال عن بناء الاقبية التي لا تخترقها الغازات ، وصنع الكمامات التي تقي منها ، وتمرين الناس وتعويدهم استعمالها ، حتى اذا نشبت حرب ، وأمطرت الطائرات المدن بقنابل الغاز ، عرف الناس كيف يدرأون اخطارها بعض الشيء

ولكن حديثي الليلة لا يتناول هذا الموضوع من ناحيته الحربية ، بل من ناحيته السلمية . وقد يكون أول سؤال يخطر لكل منكم ، هل ثمة فائدة للغازات السامة والخانقة في ابان السلام . والجواب عن هذا السؤال بالايجاب لا ريب فيه . ولكنني بدلاً من أن أروي لكم طريقة استعمالها ، بوصف خواصها وتركيبها ، سأروي لكم بعض حوادث استعملت فيها هذه الغازات ، تتبينون منها مدى فائدتها ولا يفوتكم في خلال الحديث متعة القصة ورواؤها

فالحادثة الاولى حدثت في بنك . وهي حادثة طراز . أي انها حادثة تمثل مئات الحوادث التي تقع في أميركا . ففي أحد الايام ، هجم فريق من الاشقياء على بنك في مدينة في احدى الولايات الاميركية . ولم يكن الهجوم هجوماً بالمعنى المألوف من ضجة وصياحٍ يصحبانه . بل ان فريقاً من الاشقياء وقف ، على ما تشاهدون أحياناً في الصور المتحركة ، امام بنك ونزل منهم رجلان وبقي اثنان في السيارة ينتظران . ودخل الرجلان ساحة البنك ووقفا أمام الصراف وهو يعد ربطة كبيرة من النقود الورق ، فالتفت اليهما وقال في بساطة هل لكما خدمة ، فعبسا في وجههِ وأبرزا أفواه مسدساتهما وأمراه بأن يتخلى عما أمامهُ من المال ، فما كان منهُ الاَّ ان ضغط برجله على زر صغير تحت منصته ، فلم يحدث ضغطهُ هذا صوتاً ولا صياحاً ولا صفيراً ، كما تحدث الاجراس المنبهة ، ولكن ما لبث ثواني حتى ظهرت في جو الغرفة غمامة من دخان قاتم فسعل الشقيان سعالاً شديداً واغرورقت عيونهما بالدموع ، فألقيا حينئذٍ بمسدساتهما صاغرين وأخذا يمسحان عبراتهما وهما يسعلان ، ولما حاولا الفرار تسكعا في الطريق فما كادا يبلغان الباب حتى كان رجال البوليس قد وصلوا والقوا القبض عليهما . فلما افاقا بعد نصف ساعة مما عراهما ، كان كلُّ ما يشعران بهِ ألماً طفيفاً في عيونهما [1]

(١) يعرف هذا الغاز بغاز الدمع وقد يكون مادة « بروم استيون » او « زيليلبروميد » وهو يهيج أغشية العين فتذرف الدمع ويحدث العطاس فاذا استعمل مخففاً كان تأثيره مؤقتاً واذا استعمل قوياً أحدث عسراً في التنفس وسعالاً تشنجياً والتهاباً في الشعب الرئوية

فالفوز على هؤلاء اللصوص نتيجة مباشرة لاستعمال الغازات التي تعدّ للحرب ، في قضاء اوطار الطمأنينة والسلام

وقد شرع اصحاب البنوك وحوانيت الجوهريين الكبيرة في اميركا يركبون المعدّات اللازمة لاستعمال هذا الغاز او ما كان من قبيله لدرء خطر اللصوص. وتبثّ الانابيب التي تنطلق منها هذه الغازات في الجدران ، ولكن مركبيها يتقنون اخفاءها ، فلا يمكن ان يتبينها المجرم ولو كان خبيراً ، لان اخفاءها في البنك الواحد يختلف عن اخفائها في البنك الآخر

***

ومن هذه الغازات غاز يثير العطاس وقد استنبط في خلال الحرب العالمية ، وهو اذا استعملت منهُ مقادير يسيرة لا يسبب ضرراً ما . ومن فوائد هذا الغاز في اميركا ان الشركات التي توزع الغاز الصناعي المستعمل وقوداً في الحمامات عندنا مثلاً ، شرعت تضيف الى كل الف قدم مكعبة من غاز الوقود مقداراً يسيراً من الغاز الذي يثير العطاس . ولا يخفى انهُ اذا ترك انبوب غاز الوقود مفتوحاً في غرفة مقفلة ، كغرفة الحمام ، او حجرة المطبخ أفضى ذلك الى استنشاقهِ ، وهو سام في انهُ يمنع الاكسجين عن الرئتين فيموت من يستنشقهُ اختناقاً اذا لم يكشف في الحال ويمدّ بالاسعافات اللازمة

فوجود الغاز المثير للعطاس في غاز الوقود ، ينبّه النائم في غرفة فتحت فيها انبوبة الغاز ، او ينبه السيدة التي تطبخ ولكنها تترك انبوبة غاز في موقدها مفتوحة من دون ان تنتبه ، لان الغاز المثير للعطاس يحمل الرجل النائم ، والسيدة المهتمة بطبخها على العطاس عطاساً شديداً ، فيتنبهان للخطر المحدق بهما ، فيفتحان النوافذ اولاً للتهوية ويبحثان ثانية عن حنفيات الغاز المفتوحة فيقفلانها

وثمة بين الحيوانات حيوان يدعى بالظربان . وهو كريه الرائحة . وقد عمدت بعض شركات الغاز الى صنع غاز كريه الرائحة جدًّا ، وبثّت مقادير يسيرة منه في الغاز المستعمل للوقود . فاذا شمت سيدة في مطبخها هذه الرائحة الكريهة ، عرفت ان احدى حنفيات الغاز تنضح بالغاز فتعمل كل ما يجب ان تعمله لدرء الخطر . ولذلك سمي هذا الغاز بالظرباني اي الكريه الرائحة ومن عجائبه انهُ اذا احرق الغاز في موقد المطبخ او في موقد الحمام فقد الرائحة الكريهة التي يتصف بها . فانتشار الرائحة الكريهة لا يكون الاّ اذا كان هناك خطر

ولا يخفى ان هناك بعض ضعاف النفوس يعمدون في أثناءِ ثورة نفسية الى الانتحار باقفال حجرة واطلاق الغاز فيها بفتح حنفياته . فالغاز الذي يحتوي على هذا الغاز الكريه الرائحة يؤثر في انوفهم ، قبل ان يؤثر الغاز في رئاتهم ، فيعجزون في الغالب عن الصبر على رائحتهِ الكريهة

فيقفلون الحنفية ويفتحون النوافذ وينجون كذلك من الموت . وقد تكون هذه النجاة رادعاً لهم في المستقبل عن الاستسلام للضعف والتذرع بالشجاعة والعزيمة في مواجهة مشكلات الحياة

***

وقد تذكرون ان هناك غازاً يدعى غاز الخردل[١]. وهو من أفتك الغازات لانهُ يحرق رئتي من يستنشقهُ بتجفيفهما . وقد استنبط واستعمل في الحرب الكبرى . ولكنّ لهذا الغاز استعمالاً في وقت السلام يفيد الزراعة والزراع. ومن آيات استعماله ، ما روي عن حادثة غريبة في أميركا، ان موجة من الارانب ، اكتسحت منطقة من المناطق فالتهمت أخضرها وعاثت فيها وعجز رجالها عن مقاومتها لكثرتها ولسرعة توليدها ، فعمدوا الى المصلحة الحكومية الخاصة بمقاومة آفات الزراعة ، فاستعمل غاز الخردل الفتّاك برشّهِ في الحقول برشات خاصة . وقد تمَّ الرش باشراف الخبراء الحكوميين . وما سقط الغاز على الارض حتى تحول قطرات صغيرة كقطرات الندى وجاءت طوائف الارانب تسير في الطرق التي طرقتها قبلاً — وكان الغاز قد رُشَّ فيها — فعلقت هذه القطرات بقوائمها فلعقتها بألسنتها ، فهلكت ، وكذلك تغلب رجال العلم بغاز حربي على آفة زراعية فتّاكة وأنقذوا للزراع ما ثمنهُ مبالغ طائلة من المال

ومن الغازات التي استعملت في الحرب العامة للفتك غاز الهيدروسيانيك وهو غاز سام مركب من الهيدروجين والكربون والنتروجين . وقد رأى الكيماويون ان يستفيدوا من استعماله في ابان السلم ، في ابادة الفئران والجرذان وما يعلق بفرائها من البراغيث الناقلة للطاعون وحمى التيفوس وقد نجحوا في ذلك

ولكن من خصائص هذا الغاز ، انك لا تستطيع ان تستدل عليهِ برائحة او لون أو أثر خاص في الانسان . وكذلك يتعرض البحارة للموت بهِ عند استعماله لتطهير السفن الداخلة الى المرافىء من الفئران وما يعلق بها من البراغيث. وفعلاً مات بهِ غير واحد من البحارة على هذا النحو

فما السبيل الى منع هذا الخطر على حياة البحارة ، من دون ان ينقص فعله كمبيد لحملة الطاعون والتيفوس. كل ما تمَّ في هذا الصدد ، ان الغاز الهيدروسيانيك القتال مزج بقليل من غاز الدمع ثم جرب المزيج ، فكان الغاز الاول يفتك بهذه الحيوانات ، والغاز المثير للدموع ينبه على وجوده فيتقي مستعمله شره

---

(١) غاز شفاف يذوب في الكحول والماء وينحل انحلالا متدرجاً في مقادير كبيرة من الماء له رائحة مثل رائحة الخردل الخفيفة او البصل . وهو بطيء الفعل ولكن شديده لا يؤثر في المرء على الفور فلا يحس من يتعرض له بحكة او حرق في جلده الا انه يتخلل الجلد في خلال ثلث ساعة فتظهر بقع حمر لا تلبث ان تتخذ شكل النفاطات الناشئة عن الحرق بالنار . واذا استنشق المرء ١٢ مليغراماً منه في الدقيقة افضى ذلك الى تلف الرئتين . وتتأثر العينان فتتقيحان وتتلف ملتحمتهما وقرنيتهما

وليس يخفى على حضراتكم ان غاز الكلور كان من أول الغازات السامة التي استعملت في الحرب الكبرى . وكان الالمان بادئين باستعماله . ثم جعل بعدئذٍ أساساً لمركبات غازية مختلفة سامة الفعل . والكلور غاز ثقيل أصفر اللون او ضارب الى الصفرة لهُ رائحة خانقة . فاذا استنشقت منهُ مقادير يسيرة أثر في أنساج الحلق والرئتين وشعابهما ، واذا استنشقت منهُ مقادير كبيرة كان سبباً للموت ، ولذلك استعمل في ميادين القتال لابادة الاعداء

على ان لغاز الكلور خواص أخرى مما يجعله من أفيد العناصر الصناعية . فهو من أقوى المطهرات اذا أضيف الى الماء قليل منهُ قتل ما فيهِ من المكروبات المرضية . واذا أضيف الى الماء الذي ترشُّ بهِ الشوارع قتل ما يكون فيها من الجراثيم كذلك

وقد انيح لي من بضع سنوات ان ازور محطة شركة الماء بروض الفرج ، ورأيت فيها الاجهزة الدقيقة التي تخلط بالماء الذي نشربهُ كل يوم ، مقادير يسيرة معينة من غاز الكلور ، فتقضي على ما يكون باقياً فيهِ من المكروبات بعد ترشيحه بالمرشحات الاخرى . ومع ذلك لا تترك اي أثر كريهٍ في طعمهِ . وهذه الخاصة في غاز الكلور قد جعلت الاقبال عليهِ عظيماً جدًّا في تطهير مياه المدن الكبيرة في العالم . ففي اميركا الآن اكثر من ٣ آلاف مدينة تستعملهُ لتطهير مياه الشرب فيها . ومجموع سكان هذه المدن يزيد على خمسين مليوناً من الناس . فقلّت بعد استعمالهِ وفيات التيفود نحو ٧٠ في المائة عما كانت عليهِ قبل استعمالهِ . أما حيث لم يستعمل فلم تقل وفيات التيفود الا عشرة في المائة فقط وهذه القلة ناجمة من استعمال وسائط الوقاية المختلفة

ويستعمل هذا الغاز كذلك في المدابغ فتزال بهِ روائح الجلود الخبيثة . وقد يضاف الى مجاري المدن قبل اطلاقها في نهر او على شاطىء بحر فتؤمن أخطارها، وخاصة على السواحل التي تستعمل أجوانها لاستحمام المستحمين . ولا يخلو أي مستشفى حديث من اسطوانة تحتوي على غاز الكلور مضغوطاً ضغطاً عالياً فيستعمل في تطهير الجروح . وتجرب التجارب الآن لاستعماله في حفظ اللحوم والاثمار بمنع الفساد من التطرُّق اليها

وهناك غازات أخرى تستعمل لمكافحة بعض الآفات الحشرية التي تصيب المزروعات او لوقاية دعائم أحواض السفن من نخر الديدان البحرية او برشّها من الجو لاطفاء الحرائق

وكذلك ترون ان العلم يتفح العالم بمواد جديدة يفضي اليها البحث فتستعمل لتقتيل الناس والفتك بالارواح من ناحية ولابادة الحشرات وتطهير المياه وعرقلة اعمال المجرمين من ناحية اخرى . فالعلم لا يتحمل اللوم في اساءة استعمالها وانما مردُّ ذلك الى اخلاق الناس وتربيتهم الروحية والاجتماعية

السرطان والمرأة

للدكتور فيليب الاشقر
كلية الطب بجامعة بيروت الاميركية

— ١ —

أقدم هذه الصفحات المختصرة إلى طبيب العائلة أولاً والى مرضاه من السيدات ثانياً
أما الطبيب الاختصاصي فله من اختباره وما يجده في المؤلفات المطولة ويطالعه في الجرائد الطبية ما يغنيه عمّا فيها من الحقائق الاولية والعامة . والقصد من تقديمها الى طبيب العائلة تذكيره بما هو معروف لديه وتوجيه نظره إلى كل ما يتعلق بسرطان الرحم في أدواره الاولى كي يدقق في الفحص ويشجع النساء على مراجعته عند ظهور الاعراض الاولى في أعضائهن
وقد بذلت الجهد ان ابسط هذه الاوليات لكي يفهمها غير الاطباء من الناس فيزول الخوف المتسلط على بعض السيدات من هذا الداء موجهاً عنايتهنّ الى أن النجاح في محاربة داء السرطان يتوقف عليهنّ فالجانب الاكبر من هذه الاورام الخبيثة اذا عرف باكراً وعولج علاجاً تامّاً كان الشفاء منهُ تامّاً ولا يمكن أن يتعاون المريض والطبيب في شفاءِ علته ما لم يعلم المريض ولو بعض العلم شيئاً عن المرض وهذا ما حدا بي الى كتابة هذه الصفحات

— ٢ —

لممارسة الطب وجهتان فردية وعمومية . فمن الوجهة الفردية يقصد العليل طبيبه يشكو علة ما فيفحصهُ الطبيب ولا يترك وسيلة الاّ ويستعملها ليصل الى معرفة اصل الداء وحل جميع اسراره ليتمكن من معالجته حسبما يقتضيه الفن وحسبما يوحي اليهِ ضميره واجتهاده
اما الوجهة العمومية فهي درس سبب المرض وطرق انتشاره واستعمال الوسائل الفعالة التي تمنع تفشيه . وفي كل حكومة من حكومات العالم دوائر تعنى بدقائق هذه الامور وبفضل هذه

المعرفة أصبح أكثر مدن العالم المتمدن خالياً من الاوبئة والامراض المعدية

والتعاون بين الطبيب الذي يمارس صناعته من الوجهة الفردية وادارة الصحة العامة ضروري جداً وبفضل هذا التعاون اصبح بعض الامراض نادر الوقوع والبعض الآخر منحصراً في نطاق لا يتعداه والشعب هو الذي يستفيد من هذا التعاون . وقد غدا للرأي العام قيمة كبرى في مكافحة الامراض وهذا حمل الدوائر الصحية المختصة على إنارة الرأي العام بما تنشره بين الناس من المعلومات عن الامراض وعن كيفية الوقاية منها

من الامراض التي يعالجها الطبيب بكثرة وتعنى بدراستها الاوساط العلمية والدوائر الحكومية في العالم اجمع درساً دقيقاً داء السرطان. وذلك لانه كثير الشيوع وعدد الوفيات به تعد كل سنة بالالوف. وهذا الداء لا يزال في منطقة الطبيب المعالج فدوائر الصحة العامة لا تعمل الا في تسهيل وسائط معالجته ومساعدة الاوساط العلمية مساعدة مادية وادبية للوصول الى حقيقة هذا المرض وسببه ووسائل تجنبه وطرق معالجته

وبفضل هذه الجهود قد توصل الخبراء الى حقائق كانت مجهولة مع ان سبب الداء لم يزل سرًّا من الاسرار

***

ومن هذه الحقائق أن السرطان اذا عرف في أوله وعولج علاجاً تامًّا كان الشفاء منه أكيداً فمكافحة السرطان في الوقت الحاضر تنحصر في أمرين: الأول: أن يفحص الفرد فحصاً عامًّا في فترات معينة . والثاني : أن يكون الطبيب ممن يقدر أن يشخص المرض باكراً. وهذا أمر عسير اذا كان السرطان في الأعضاء الداخلية. ولكن اذا أصاب الاعضاء الخارجية فتشخيصه في أدواره الأولى ليس امراً عسيراً . ومن الاعضاء التي تكثر اصابتها بالسرطان الرحم في النساء. ولما كان هذا العضو مما يسهل فحصه فحصاً دقيقاً كان في وسع الطبيب الخبير بالامراض النسائية أن يشخص الداء في بدئه . هذا اذا جاءت اليه المصابة حال شعورها بتغيير في أعضائها

وحبًّا بإنارة الرأي العام عن هذا الداء وحثًّا على استشارة الطبيب عند ظهور الاعراض الاولى أقدم هذه الرسالة على أمل أن يتعاون الطبيب ومرضاه لمعرفة الداء في ابتدائه ومعالجته علاجاً أكيداً وبذلك ينقص عدد الوفيات بداء السرطان العضال

— ٣ —

﴿ ماهو السرطان ﴾ الجسم الانساني مجموع أعضاء مركبة من أنساج مختلفة وهذه مركبة من خلايا تختلف بعضها عن بعض باختلاف الانساج ولهذه الخلايا أعمار تقوم في أثنائها بواجبها ثم

تموت ويعوض عنها بخلايا أخرى وذلك بفضل خاصة الانقسام التي تتعدد بواسطتها الخلايا ويتركب منها النسيج . وهذا الانقسام له قوانينه وأنظمته يسير دائماً بموجبها . غير أن بعض الخلايا في بعض الانساج ينقسم ويتكاثر خارج الحدود الطبيعية

وهذا الانقسام والتكاثر يولدان ورماً يعرف بالسرطان . فالسرطان إذن ، مرض في خلايا الجسم فتتكاثر الخلايا وتنمو نمواً غير سوي فيسبب هذا التكاثر تسمماً عاماً في الجسم أو تترك الخلايا مقرها الاول وتجري في الاوعية الدموية أو الليمفاوية وتستقر في محل آخر حيث تتكاثر وتنمو وهذا ما يجعل الداء إذا لم يعالج في أول الامر صعب الشفاء أو مستحيله ويؤدي حتماً الى موت المصاب به . أما السبب الرئيسي الذي يحمل هذه الخلايا على أن تنمو وتتكاثر فلم يزل مجهولاً غير ان هناك في بعض الاعضاء أسباباً مهيئة تجعل وقوع السرطان فيها اكثر احتمالاً من سواها وهذه الاسباب هي التهيج بأنواعه في الانساج وقد يكون هذا التهيج التهابيًّا او كيماويًّا او رضيًّا . وأكثر الاعضاء عرضة لتأثير هذا التهيج ما كان منها بين نسيجين متقاربين — خلايا النسيج الواحد تتقارب شكلاً كلما قربت من خلايا النسيج الآخر كالغشاء المخاطي القريب من النسيج الجلدي كما في الشفتين ، وغشاء الرحم المخاطي حيث يتصل بغشاء المهبل المخاطي وغشاء المعدة المخاطي حيث يداني غشاء الاثنى عشري المخاطي وهلمَّ جرًّا

***

﴿ معنى كلمة سرطان ﴾ أول من وصف هذا الداء طبيب يوناني وسماه سرطان لان الاوعية الدموية التي كانت منتشرة حول الورم الذي وصفهُ تشبه أطراف هذا الحيوان . وقد قبل أطباء الرومان هذه التسمية غير أنهم أعطوه الاسم الروماني لهذا الحيوان وهو السرطان . وهذا هو الاسم الذي يعرفهُ العامة ويستعمله الاطباء عندما يتكلمون عن هذه الاورام الخبيثة . أما في الاوساط الطبية الخاصة فتستعمل مصطلحات يستدل منها على تركيب الورم الباثولوجي أي نوع الخلايا التي يتألف منها هذا الورم

***

﴿ أنواع السرطان ﴾ يسمي الاطباء السرطان باسم الانساج والخلايا المركب منها . فان كان من الابثليوم سمي « ابثليوما » والابثليوم موجود في الجلد وغشاء الفم والحلق واللوزتين والمريء والمثانة وعنق الرحم . وان كان من الغدد سمي « بالاندوتليوما » كسرطان الثدي والغدة الدرقية والمعدة والامعاء والبانكرياس والكبد والكليتين والبروستات والمبيضين وجسم الرحم . وقد يكون السرطان مركباً من الغدد ومن الابثليوم

أما نوع السرطان المعروف بالساركوما فيصيب العظام والغضاريف والنسيج الدهني والعضلات والنسيج الليفي والليمفاوي وما شاكل

وسرطان الجهاز العصبي معروف باسم كلايوما وفي الاورمة الخبيثة قد يكون السرطان مركباً من عدة أنساج وخلايا

قلنا سابقاً ان السرطان مركب من خلايا تتكاثر وتنمو بصورة غيرطبيعية غير مقيدة بقانون التقاسم متعدية النظام السويّ. وهذا التكاثر ان لم يعالج باكراً ادى الى موت المصاب. وهو درجات فمن الخلايا ما ينمو بسرعة عظيمة ومنها ما ينمو ببطء كلي لايشعر صاحبه بوجوده حتى ولو كان ظاهراً للعيان. ومما يلاحظ في تكاثر هذه الخلايا ان البعض منها بانقسامه يبقى مشابهاً للخلية الاصلية والبعض الآخر يختلف عنها كل الاختلاف . ومن هذا القبيل يمكن ان يقسم السرطان الى اربع درجات او أربعة انواع

القسم الاول ماكانت خلاياه مشابهة للخلية الاصلية وهذه يكون نموها محدوداً وهذا النوع اقل الانواع خبثاً واقلها استعداداً للوصول الى الاعضاء البعيدة بواسطة الدم والاوعية الليمفاوية

الدرجة الرابعة حيث تكون الخلايا المركب منها الورم السرطاني عديمة الشبه بالخلية الاصلية وهي سريعة التكاثر والانقسام والانتشار وكثيراً ما تسير بواسطة الاوعية الدموية واللمفاوية الى الاعضاء المجاورة حتى والبعيدة كذلك

وبين هاتين الدرجتين نوعان النوع الثاني يقارب النوع الاول والنوع الثالث يقارب النوع الرابع. وهذه الانواع او الدرجات لا يعرفها الا الطبيب الخبير المدقق في التشريح الباثولوجي وأهمية معرفة هذه الدرجات هي معرفة انذار الداء وسيره وتأثير العلاج فيه فالنوع الاول مثلاً بطيء النمو قابل للشفاء بعكس النوع الرابع

— ٤ —

سرطان الرحم

ان السرطان في النساء اكثر ما يصيب رحمهنّ وهو سبب وفاة العدد الكبير منهنّ كل عام وقد لوحظ ان معدل الوفيات بالسرطان بين ٤٥ — ٦٥ من عمرهنّ يقارب عشرين بالمائة الثلث منها اصابات في الرحم . والسرطان يصيب عنق الرحم وجسمه بمعدل ٦ الى ١

﴿ علاقة السرطان بالعمر ﴾ سرطان عنق الرحم اكثر ما يصيب النساء في العقد الثالث فما فوق وهذا لا يعني ان من كان منهنّ اصغر سنًّا لا يصبنَ بالسرطان بل وجوده في العقد

الثاني فما دون ليس كثير الحدوث . وسرطان جسم الرحم يصيب المرأة بعد ان يقطعها الطمث اي في العقد الرابع فما فوق

﴿علاقة السرطان بعدد الولادات﴾ من المشاهدات السريرية (الكلينيكية) ان السرطان اكثر ما يصيب النساء اللواتي حملن وولدن اولاداً وكلما ازداد عدد الولادات ازداد الاستعداد لوجود السرطان ولكن ليست الولادات بحد ذاتها هي التي تهيء الاسباب لوقوع السرطان بل التمزق والالتهابات الموضعية التي تحدث على اثر هذه الولادات

﴿ علاقة تمزق والتهاب العنق بالسرطان﴾ ليس هناك براهين قاطعة تمكننا من الجزم بأن السرطان يبتدىء اولاً في ندبة جرح قديم في عنق الرحم فالسرطان عند ما يظهر بوضوح يكون قد مرّ على ابتدائه زمن ما حتى ليصعب على الفاحص ان يعرف اين كانت بدائته . ولكن من الاختبار السريري (الكلينيكي) يمكن الترجيح بان التمزق والالتهاب في عنق الرحم يمهدان للتغيرات الهستولوجية التي تفضي الى نشوء الاورام السرطانية . وهذه المشاهدات شاهدها الكثيرون من الاطباء الذين يعالجون الامراض النسائية فمع ان سبب السرطان الحقيقي لا يزال مجهولاً يمكن القول — اعتماداً على هذه الاختبارات — بان التمزقات والالتهابات الرحمية قد تؤدي الى نموّ غير طبيعي في الخلايا نتيجة تهيجات مستمرة ومزمنة

هذه هي درجات السرطان الاولى والتهيج المستمر والمزمن في اي جزء من اجزاء الجسم قد يؤدي الى ورم سرطاني . هذه الملاحظة قد أيدها معهد السرطان في جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك ومن المهم ان يعرف ان التهيج الموضعي لا يولد سرطاناً بين ليلة وضحاها بل قد تمرّ اعوام قبل ان يصل الى الدرجة التي يصبح فيها الشفاء صعباً فسرطان المعدة او الرحم مثلاً حين يظهر بوضوح يكون قد مرّ على ابتدائه أعوام لا تقل عن العشرة

﴿ علاقة الوراثة بالسرطان ﴾ إذا درسنا السرطان من الوجهة الوراثية درساً علميًّا لم نجد أدلة صريحة على ان السرطان مرض وراثي ولكن عدة احصاءات تدل على ان السرطان كثيراً ما يقع في أفراد العائلة الواحدة فهل يرث الخلف عن السلف الاستعداد للاصابة بالسرطان او يرث التربة التي ينمو عليها السرطان بسهولة كلية

لحد الآن لم يتمكن العلماء من الاجابة عن هذا السؤال ولكن الحقيقة الواقعة لا يمكن انكارها

***

(المقتطف) — وفي الفصل التالي يتناول الكاتب الطبيب اعراض سرطان الرحم وتشخيصهُ وسيرهُ وعلاجهُ

حديقة المقتطف

بعد الشباب

للدكتور ابراهيم ناجي

الغفران

للشاعر القروي رشيد سليم الخوري

مقتل الحصان

للشاعر العبقري الانساني فكتور هوجو

السيد ربيع

بقلم الشاعر الفرنسي المعروف پروسبير بلانشمين

[نقلهما احمد أبوالخضر منسي]

بعد الشباب

للدكتور ابراهيم ناجي

ذهب الشباب فجئتِ بعد ذهابهِ تذكين ما أطفأتهِ بيديكِ

إني لتلفحني النسائم كلما حملتها حُرَق المشوق لديكِ

ألقى لها وهجاً على خديكِ وأرى لها جمراً على شفتيكِ

لا تدمني نظراً اليها فوالذي جعل الهوى قدَراً على كفيكِ

ما تلتقي عيني بعينك لحظة الاَّ رأيتُ صباي في عينيكِ



الغفران

للشاعر القروي رشيد سليم الخوري

قمتُ عند الصباح أشدو حبوراً لا أرى علّةً لفرط حبوري

مؤنساً وحشةَ الفضاء كأنّي نبأٌ طيّبٌ سرى في الأثيرِ

وعلى وجنتيّ للورد ظـــلٌّ عائمٌ فوق موجة من نورِ

أتهادى بين الغصون كغصن وأناغي العصفورَ كالعصفورِ

صحتُ: ربي! أزال عهد شقائي أم أراني في عالم مسحورِ

وإذا وردةٌ كوجنة طفلٍ جنبها شوكةٌ كناب هصورِ

فتذكرت ليلة الامس حلماً منهُ أدركت سرَّ هذا السرورِ

ان كف الرحمن تحت سكون الليل بالعفو غلغلت في سريري

فرمت نفحة من العطر في قلـــبي وعادت بشوكة من ضميري

[عن مجلة « الشرق » البرازيلية]

مقتل الحصان

(للشاعر العبقري الانساني فكتور هوجو)

العجلة الثقيلة من فوقها جلمود [١] حجر عظيم .
والحصان من رأسه الى اخمصه ، عَرَقُهُ راشح يسيل ،
يجر ، والحوذي بسوطه ينهال ضرباً ، والحصباء الملساء
تعلو وتُصعد ، والحصان المكروب دامي الصدر
يجر ، ويَرسف [٢] ، ويئن ، ثم يجر ثم يقف .
والسوط الاسحم [٣] فوق رأسه يعصف
هذا يوم الاثنين ، امس كان الرجل يحسو الخمرة في البورشرون [٤]
خمرة ملأته صخباً واهتياجاً وسباباً .
ياعجباً ! مايكون ليت شعري ذاك القانون الرهيب الذي يُسلم
الحي الى الحي والبهيمة المذعورة الى مخمور من الناس !

***

والحصان المنزعج امسى لايستطيع يخطو بقدم .
يشعر بظلمة الموت قد غشيتهُ فلا يدري ،
تحت هذا الجلمود الذي ارهقه والسوط الذي يهلكه ،

---

(١) حجر كبير ادنى من الصخرة (٢) يمشي مشية المثقل المقيد (٣) الشديد السواد
(٤) اسم حانة معروفة

مايبغي منه الجلمد ، وما عسى يبغي منه الرجلُ

والحوذي ليس سوى وابل من سياط

تنهمر فوق السجين (٤) الذى يسحب مقوده ،

المعذب الذى لا يعرف راحة ولا يوم أحد .

إذا السوط تمزقت خيوطه يضربه بمقبضه ،

وإذا السوط تكسر يركله برجله .

والجواد مرتعداً ، زائغَ البصر رازحاً ،

يخفض عنق حزين ورأس منذهل .

ويُسمع لبطن الحصان الصامت المسكين تحت ضربات نعل الرجل ذات الحديد ،

يُسمع لبطنه العاري رنين شديد .

* * *

يشهق ، ومنذ قليل كان لا يزال يتحرك ،

ولكنه لم يعد يبدي حراكاً وقواه تبددت .

والضربات متساقطة عليه ملهبة . يحاول لدى النزع

آخر جهده . ولكن رجله زلقت

فهوى ، فاذا هو تحت « العريش » هالك

[نقلها احمد أبوالخضر منسي]

---

(٤) شبه الشاعر الحصان بالمحكوم عليه بالاشغال الشاقة لما يقاسيه من شاق الاعمال وسوء المعاملة

السيد ربيع

منظومة بديعة في وصف الربيع

بقلم الشاعر الفرنسي المعروف پروسبير بلانشمين

السيد ربيع شيخ مسن ،
لا يفتأ متبهرجاً مبتهجاً ذا مرح ،
يرتدي ثوباً جميلاً اخضر
ولست تلقاه في راحة ابداً
يطل من النافذة
اذا شهر ابريل اقبل ،
ويقول بصوت مرتفع : « كيف حال الجو ؟
آن ان اظهر ... »

يا سيد ربيع ياسيد ربيع
عد الينا وليطل مكثك بيننا !

***

ها هي لآلىء الندى
تتألق في كل موضع فوق الكلاء ،
في الغابات حيث تغرد الشحارير
والاوراق تفتح سجونها
والعصافير تشدو بالغداة شدوها
وتقول عمي صباحاً ايتها الشمس ،
وهي تصيح : « ها ساعة اليقظة قد حانت .
فلنضحك ، ولنغن ، ايها الرفقاء ... »

يا سيد ربيع ، يا سيد ربيع

عد الينا وأطل مكثك بيننا !

***

والسيد ربيع من حجرته ،
يقول لها : «لا تصحنَ اني خارج .
يا عجباً لكن ! اني آخُذُ زينتي :
بعد هنيهة اكون خارجاً ،
اني البس ثوب الاحد ،
جديداً من يدي الخياط تسلمته
ومطرزاً من كل لون
لدى الطوق وعلى الاكمام »

يا سيد ربيع ، يا سيد ربيع
عد الينا وأطل مكثك بيننا

***

هاهو السيد ربيع يتحرك
ما أشد مرحه ! ما أصفى دخيلته !
لكم تطابق صدرته المخملية الحمراء
ثوبه الاخضر !
يداه مملوءتان بالازاهر
يعلقها في رؤوس الخمائل !
له بيض الاقاحي
بدل المسامير في نعليه .

ياسيد ربيع ، ياسيد ربيع
امكث لدينا ايضا واطل مكثك بيننا !

[نقلها أحمد ابو الخضر منسي]

سير الزمان

يقظة العرب

ألفه بالانكليزية جورج انطونيوس

طلائع اليقظة الفكرية

الجمعية السرية الاولى

مراسلات مكماهون : حسين

الوعود ونقضها

مصير فلسطين

يقظة العرب [1]

ألفهُ بالانكليزية جورج انطونيوس

تنزل مشكلة فلسطين الآن في الصميم من عناية الحكومة البريطانية وتستأثر بعناية الصحافة في الشرق والغرب ، وتتصل عن طريق اضطهاد اليهود في المانيا وأوربا الوسطى بحلبة السياسة العالمية ، ومن ناحية الشعور العربي القومي المتنبه الغيور على كرامته وحقوقه بالبلدان العربية اللسان جميعاً في الجزيرة ومصر وسورية والعراق . والمشكلة الفلسطينية على ما فيها من عُقَد وعلى ما جرَّتهُ فيها السياسة الخاطئة من خسائر في الاموال والرجال ليست الاَّ جزءاً من مسألة أعمّ وأوسع نطاقاً هي مسألة النهضة القومية العربية منذ نشأتها في مستهل القرن التاسع عشر . فقضية العرب ومشكلة الوطن القومي في فلسطين لا يمكن ان تفهم على وجهها الصحيح ولا ان يدبر لها حلٌّ معقول يتفق ومنطق الجغرافية وحقائق الاقتصاد والاجتماع ونوازع النفوس الاَّ اذا ربطت بيقظة العرب من جميع نواحيها

لذلك لا يتردد كاتب هـذه السطور في ان يتمنَّى على المستر مكدونلد وأقطاب هويتهول قراءة هذا الكتاب قبل عقد مؤتمر لندن المرتقب

ان كتاب الاستاذ جورج انطونيوس يعالج موضوع نهضة العرب او يقظة العرب معالجة سداها العلم ولحمتها الانصاف . فهو دقيق في تحرِّي الحقيقة متزن في عرضها صريح في اصدار الحكم محافظ على النظرة الشاملة عند عنايته بتفصيل الشأن الخاص نافذ النظر في الناحية النفسية والاجتماعية التي من وراء العهود والمعاهدات السياسية والعسكرية. وكل ذلك في أسلوب انكليزي جمع بين النقاوة والجزالة والقوَّة حتى ليخيَّل اليَّ ان « يقظة العرب » يجب ان يوضع بين أبلغ ما كتب بالانكليزية عن العرب وبلادهم

أقبل المؤلف على عمله ولهُ من علمه وخبرته وتوقه الشديد الى اعلان الحقيقة أيًّا كانت عدة وافية للاضطلاع بمهمته ، مهمة تأريخ النهضة العربية

فهو أولاً عربيٌّ تتفتح أمامهُ ابواب من العلم موصدة في وجوه كتَّاب الفرنجة . فالصحف العربية والوثائق العربية والاتصال بأقطاب العرب بوصف كونه واحداً منهم يكلمهم بلسانهم ويتبين ما يخالجهم في ثنايا الكلام لانهُ صدى لما يموج في صدره ، مباحٌ لهُ متعذر على غيره من

---

(1) The Arab Awakening. By George Antonius, Hamish Hamilton, London. 15/--

بناء الغرب . وغنيٌّ عن البيان انهُ يستحيل على المؤرخ الانصاف والعدل في وصف رأي العرب الاَّ اذا استطاع ان يعرف كل ما يقولون في تعزيزه والدفاع عنهُ

وهذا ثابت في غير صفحة واحدة من صفحات الكتاب . فالرسائل التي تبادلها السر هنري مكماهون والشريف حسين من الاصول التي لا غنى عنها في دراسة القضية العربية، ولاسيما قضية فلسطين ، من ناحيتها السياسية . ومع ان هذه الرسائل نشرت كلها او جُلها في الصحف العربية الاّ انها ظلّت محجوبة عن كتّاب الغرب لان الحكومة البريطانية أبت ان تذيعها . فكيف يستطيع كاتب ان يقول ان فلسطين لم تكن داخلة في المنطقة التي شملتها تلك المراسلات وهو لم يطلع عليها ؟ وقد ردَّ الاستاذ انطونيوس في كتابهِ هذا الزعم ردًّا لا سبيل الى الطعن فيهِ . ولهذا حديث آخر في ناحية اخرى من هذا المقال

ثم ان المؤلف معاصر لجلَّة حوادث العهد المتأخر من النهضة العربية ، متصل باقطابها من الفريقين — فريق العرب وفريق الانكليز. مشترك في بعض المفاوضات الخطيرة مع الملك حسين والملك عبد العزيز آل السعود بعد انتهاء الحرب الكبرى. فمهَّد له ذلك ان يجيء في كتابهِ باشياء لم تعرف قبلاً او هي لم تعرف معرفة تامَّة فاستوفاها فألقى عليها ضوءًا جديداً او كانت معروفة فلم تنشر مسندة اسناداً لا مطعن فيهِ . مثال ذلك اقوال وآراء للحسين وعلي وفيصل وغيرهم من الاقطاب. ولعلّ اهمها شأناً ذلك التصريح الشفوي الذي ذهب بهِ الكوماندر هوجارث الى الملك حسين بعد ما سمع الملك بمعاهدة سايكس بيكو — وهي تالية لعهود الانكليز له منافية لبعض نصوصها — وطلب تفسيراً لما سمع ، فدوَّنها الملك حسين في مذكراتهِ واذن لمؤلف الكتاب بنقلها فنقلها وترجمها وضمَّها الى ما جمعهُ في الشام والعراق والجزيرة من الحقائق التي مكنتهُ من الوصول الى حكم لا يُردُّ في حقيقة وعود الانكليز وحنثهم بها

ثم انهُ راجع المصادر الرسمية المباحة المؤلفين في مكتب الوثائق بوزارة الخارجية بلندن حيث عثر في جملة ما عثر عليه على ضالةٍ طال نشدانهُ لها ، وهي منشورات الجمعية السرية التي انشئت في بيروت سنة ١٨٧٥ للسعي في سبيل تحرير العرب من نير الترك . ذلك بانهُ عثر في تلك الاضابير على تقارير لقنصل انكلترا في بيروت لذلك العهد وجدها تحتوي على نص منشورين من منشورات تلك الجمعية وعلى منشور اصلي . وقد يقال ان البحث عن نصوص هذه المنشورات امر لا شأن له يطلبهُ المؤرخ ليزين بها ما يقول لا لان له قيمة حقيقية في سبيل ما يؤرخ . الاَّ ان هذه النصوص كانت فعلاً كبيرة القيمة عظيمة الشأن . فالجمعية كانت سرية . وما يعرف عنها كان يسيراً يؤخذ بالتناقل . وأغلب اعضائها ذهبوا الى لقاء ربهم . الاَّ ان الدكتور فارس نمر باشا ، وهو احد اعضائها الاصليين روى للمؤلف قصة نشأتها وبيان اغراضها فلما سئل في نصوص تلك المنشورات

التي كانت تعلّق على جدران المدينة في الليل خانتهُ الذاكرة ولم يشأ ان يقول شيئاً ليس بمستوثقٍ منهُ . ولكن العثور على هذه النصوص لازم لانها تبين مدى الاهداف السياسية التي كان اعضاء تلك الجمعية يتطلعون الى تحقيقها، فوجدها المؤلف في لندن . وقد كان احدها بيتاً من الشعر من بائية الشيخ ابراهيم اليازجي المشهورة وهو : —

لنطلبنَّ بحدّ السيف مأربنا فلن يخيب لنا في جنبهِ طلبُ

والمنشور الآخر يحتوي على برنامج سياسي اساسه استقلال سوريا المتحدة والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية والغاء المراقبة وغيرها من القيود المفروضة على حرية الرأي والاعتماد على المجندين السوريين للخدمة العسكرية المحلية

***

ولم يقتصر المؤلف على تأريخ العهد الحديث من نهضة العرب اي منذ اعلنت الثورة العربية في الجزيرة في يونيو سنة ١٩١٦ . بل ارتد الى نشأة النهضة في مستهل القرن التاسع عشر ، وتتبع الجداول الصغيرة من منبعها الصافي في نفوس المتعلمين الى حيث تغيض في ظل الاستبداد ، ولكن الجداول ما لبثت ان تلاقت وتجمع ماؤها فتحولت غدراناً ثم اصبحت الغدران في اثناء الحرب العالمية أتيًّا متدفقاً يشمل العرب في سوريا والجزيرة والعراق

لكل نهضة من النهضات القومية اصول فكرية ترتد اليها وتنبثق منها. وكذلك نهضة العرب. فمؤرخها الذي يهمل ذلك يضل السبيل ويبني على الرمل . إن الثورة الفرنسية لا تفهم بغير ديدرو وروسو وفولتير . والثورة الارلندية لا تدرك حقيقتها بغير هايد ووليم بطلر ييتس وغيرهما من اقطاب الاحياء الادبي باللغة الارلندية . وكذلك النهضة القومية في بلدان البلقان جميعاً . فقد سبق كلاًّ منها او صاحبها تنبه فكري وبعثٌ ادبيٌّ

وقد عني الاستاذ انطونيوس بهذه الناحية من يقظة العرب عناية خاصة . فاحسن واجاد . هنا تاريخ حقبة من البعث الفكري في لبنان وسوريا ، اصبحت حقائقه غامضة على النشء الجديد لبعده عنها مع أن تيارها القوي لا يزال يجري في عروق حياته اليومية . هنا تباشير النهضة الادبية العلمية في لبنان وسوريا في مستهل القرن التاسع عشر كما تبدو في اعمال المرسلين الاجانب الاول من اميركيين وفرنسيين وفي اعمال الوطنيين وقد خص بالذكر في ذلك العهد ناصيف اليازجي وبطرس البستاني واثرها واثر تلاميذهما في احياء الارث الادبي العربي، وانشاء المدرسة الوطنية وتأليف الكتب المدرسية باللغة العربية وتأليف الجمعيات العلمية والادبية فكان من اثر ذلك كله ايقاظ الضمير القومي العربي

هذه الحركة العلمية الادبية « نبَّهت أذهان القوم الى أهوال جمودهم المعنوي وأشعلت نار الحماسة في نفوس الذين كانوا يرون أن مردّ مصائب البلاد الى البغضاء المذهبية التي ترتع في الجهل فأفضى ذلك الى تجديد السعي لانشاء المدارس وعقد العزم على تحطيم الحواجز حواجز الجدال المذهبي العقيم . وليس أقل نتائجها شأناً ان دفعت جماعة من المفكرين الشبان الى الشروع في تحريك الهمم لتحرير بلادهم من الحكم العثماني . كانوا تلاميذ اليازجي والبستاني ، الجيل الاول الذي ترعرع على التراث الثقافي المستردّ . وفي تأملهم جماله وروعته اقتربت أذهانهم من الروح العربية فأحسُّوا بحرارة شهوتها للحرية . كانت بذرة الوطنية قد بذرت ، فقامت حركة مصدر وحيها عربيّ . واهدافها قومية لامذهبية . كذلك ولدت الحركة القومية العربية ... » وقد ظلَّت خلال الاربعين السنة التالية ضعيفة عاجزة ولكنها كانت « حية سائرة في سبيل النماء الى مصيرها المحتوم على أجنحة الادب المنبعث » .

الاَّ أن معاهد التعليم الاجنبي التي نبَّهت القوم الى العلم فبذرت بذرة القومية العربية ، مالبثت حتى تعدَّدت نزعاتها ومذاهبها ، من روسية وانكليزية وايطالية جنباً إلى جنب مع الاميركية والفرنسية ، فسرى الضعف الى النهضة القومية في مهدها عن طريق الانقسام بين المتعلمين في هذه المدارس ، فانتقل لواء النهضة العربية الى مسلمي البلاد وفي مقدمتهم في ذلك العهد عبد الرحمن الكواكبي صاحب «أم القرى» و«طبائع الاستبداد» وما فتىء في أيديهم يعاونهم في رفعه واعلاء شأنه فريق كبير من المسيحيين

***

يقسم الكتاب بوجه عام ثلاثة أقسام عامة أولها يتناول النهضة العربية منذ نشأتها الى نشوب الحرب الكبرى وحديثها في هذا العهد هو حديث النهضة العلمية والادبية في البلاد والجمعيات السرّية المختلفة التي اشترك فيها المسيحيون والمسلمون والدروز وكيف واجه الضمير العربي القومي المتنبه استبداد عبد الحميد وتحكم رجال تركيا الفتاة — بعد فترة قصيرة لمعت فيها بوارق الامل بامكان التعاون بين العرب والترك على أثر الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ واسقاط عبد الحميد سنة ١٩٠٩ — وفي ماتقدم قليلٌ مما يدلك على طرافة البحث في هذه الفصول

***

أما القسم الثاني فخاص بمقدمات الثورة العربية والمكاتبات التي دارت بين الانكليز واقطاب العرب ثم سيرة الثورة الى ان دخل العرب دمشق في اوائل اكتوبر سنة ١٩١٨

هنا قصة يطربك استهلالها وتفجعك خاتمتها . هنا تحليل الوعود التي قطعها الانكليز للحسين طمعاً بعون العرب العسكري في مؤخرة الترك ثم قصة الحنث بها

تبدأ قصة المفاوضة بين العرب والانكليز في شهر فبراير من سنة ١٩١٤ إذ كان اللورد كتشنر عميداً لبريطانيا في مصر . وكان الامير عبد الله نجل الحسين في القاهرة في طريقهِ الى مكة المكرمة فزار الاميرُ العربي العميدَ البريطاني ، وفي خلال الزيارة — وكان المستر رونالد ستورس السكرتير الشرقي بدار العميد حاضراً — بسط الامير العربي حالة الجفاء بين السلطات التركية ووالده الحسين شريف مكة ومما قاله انهُ علم بأن حكومة الاتحاديين قد عزمت على عزل أبيهِ ولمح الى انهُ اذا نفذت هذا العزم فالغالب ان تشبَّ ثورة في الحجاز . فكان ردُّ كتشنر مبهماً مثبطاً . ومما قالهُ انهُ يرى ان قاعدة الخطة التي جرت عليها تقاليد السياسة البريطانية هي الصداقة لتركيا وانهُ ليس من المحتمل ان تتدخل حكومتهُ اذا نشبت ثورة

الاَّ ان كتشنر أدرك ان عند الامير أشياء أخرى يريد البوح بها فعهد الى ستورس في زيارتهِ بعد يومين ليتيح لهُ التوسع في الكلام . وكذلك كان

ويرى المؤلف ان الشأن الذي يعلق بهذه المحادثات مستمدٌّ من كونها جاءَت عند ما كان كتشنر نفسهُ يفكر في الموضوع . فما لا ريب فيهِ ان واجبهُ الاول كان ينحصر في مصر والسودان . ولكن نظره كان يتعدى حدودها . ذلك ان قيادتهُ لحملة السودان وللجيش البريطاني في الهند وفهمه المشكلات التي تواجهها القوات البريطانية عند حدود الهند الشمالية الغربية كانت قد هيأت له الاتصال بقوة الاسلام المحاربة فأدرك ما للرابطة الدينية الاسلامية من خطر الشأن السياسي . وفي اثناء اقامتهِ في القاهرة كانت عينه متجهة دائماً الى الاستانة مقر الخلافة . فلاحظ استفحال النفوذ الالماني والتقدم الخطير في مد سكة حديد بغداد . فأحس بما في ذلك من تهديدٍ موجهٍ الى مقام بريطانيا في خليج فارس والهند . وكان لا يخفى عن المقربين اليهِ ان السياسة البريطانية كانت قد اخطأت في تسليمها بقيام النفوذ الالماني السياسي العسكري في عاصمة الدولة العلية ، ولذلك كان دائم التفكير في خير السبل الى مقاومة هذا الخطر

وليس المقام هنا مقام تفصيل الموضوع فمن اراد تفصيلاً فليطلبه في مظانهِ ، وصفحات هذا الكتاب على ايجازها من خيرها . ولكن المهم ان محادثات الامير عبد الله مع اللورد كتشنر والمستر ستورس كانت رأس الاسفين — على ما يقول الافرنج — التقت من حواليهِ رغبة العرب في الاستقلال ورغبة الانكليز في صد الخطر الذي يهددهم من ناحية خليج فارس والهند

فلما نشبت الحرب الكبرى تجددت العناية بالموضوع بناء على سؤال وجهه المستر ستورس الى كتشنر (وكان قد عين وزيراً للحربية) مؤداه « أتأذن لي في ان اتحقق من الامير عبد الله الى اية جانب ينضمُّ العرب اذا خاضت تركيا الحرب لاننا اذا صرفنا النظر عن الاعتبارات العامة يكون انضمامهم الينا معززاً لمؤخرتنا »

ومن ثمة ابتدأت المفاوضات بين الانكليز والشريف حسين ، هل يثبت الى جانب الترك في ساعة محنتهم فيكسب للعرب اعترافهم بالجميل او يغتنم فرصة محنتهم لكسب الحرية العربية بحدّ السيف ؟ استشار الحسين ابنيه عبدالله وفيصل فكان رأي عبدالله الثورة على الترك وكان رأي فيصل اولاً الوقوف الى جانبهم . وقد اثبت الاستاذ انطونيوس بناءً على تصريح من فيصل نفسه بان ما قالهُ لورنس في « اعمدة الحكمة » عن انضمامه الى احدى الجمعيات العربية السرية قبل الحرب خطا وأنهُ لم يأخذ بفكرة الثورة العربية الاَّ بعد ذهابه الى دمشق في سنة ١٩١٥ عند ما تبيَّن قوة الحركة واجماع الاقطاب عليها وعندئذٍ انضمَّ الى الجمعيتين السريتين العربيتين جمعية الفتاة وجمعية العهد

دارت المراسلات الرئيسية بين السر هنري مكماهون مندوب بريطانيا السامي في مصر والشريف حسين ممثلاً للقومية العربية ، وفيها نرى النضال بين قوتين ، كلٌّ منهما في حاجة الى الاخرى ، الاَّ ان الواحدة — اي الانكليز — تريد عون الاخرى بلا ثمن واضح والثانية تريده عهداً صريحاً بتأييد استقلال العرب . وتلخص قواعد الاتفاق التي يخرج بها الباحث من مطالعة الرسائل في ان يستعمل الشريف حسين ما لهُ من مكانة ونفوذ وما يستطيع تعبئتهُ من قوة مادية لهزم تركيا. نعم ان شروط التعاون العسكري ليست بمنطوية في نصوص معينة في المراسلات لان المفاوضة بشأنها دارت شفهاً ولكن ما تقدَّم ملخص المفهوم منها والشريف حسين لم يتردَّد قط في قبوله . يقابل هذا ان يمدَّهُ الانكليز بما يسدُّ النقص في قوته المادية من اسلحة ومال. اما في الناحية السياسية فالشريف كان قد تعهَّد باعلان ثورة العرب والتنديد بالاتراك على انهم اعداء الاسلام حالة ان بريطانيا تعهدت مقابل ذلك بأن تعترف بخليفة عربي اذا أُعلنت مبايعتهُ وباستقلال العرب في منطقة معيَّنة

هذه « المنطقة المعيَّنة » غدت مثاراً للجدل بعد الحرب ولاسيما فلسطين . فالرأي العربي على ان فلسطين واقعة فيها . والحكومة البريطانية ترى غير ذلك . والحكم في هذا الخلاف لا يكون الاَّ بالرجوع الى نصوص مراسلات مكماهون والشريف حسين

ومن غريب الامر ان الحكومة البريطانية لم تنشر نصوص هذه المراسلات باللغة الانكليزية فعمد مؤلف الكتاب الى استيفاء نصوصها العربية المعروفة في الشرق العربي ونقلها الى الانكليزية وجعلها ذيلاً لكتابه . وقد اخذ نصوص رسائل الملك حسين من الملك نفسه اذ كان في عمان قبيل وفاته

فالرسائل التي كانت الحكومة الانكليزية تبعثها بواسطة مندوبها السامي في مصر السر هنري مكماهون الى الشريف حسين كانت تترجم في دار المندوب السامي في مصر ترجمة سقيمة جدًّا. ولكنها مع ذلك هي الوثائق التي اعتمدها الشريف حسين اساساً للاتفاق . وقد نشرت

في البلدان العربية . فاحجام الحكومة البريطانية عن نشرها لايفهم ، على رغم المطالبة بهِ في البرلمان الانكليزي ومع ان المطالب به كان رجلاً من مقام السر ادورد غراي (لورد غراي بعدئذ) في ٢٧ مارس سنة ١٩٢٣

وبالرجوع الى نصوص هذه الرسائل لايبقى عند منصف شك بان الرأي العربي من حيث دخول فلسطين في المنطقة التي تعهدت بريطانيا بالاعتراف باستقلال العرب فيها ، هو الرأي الصحيح . ولا يتسع المجال الآن لتفصيل ذلك وسنعود اليهِ في فرصة اخرى

***

اعلنت الثورة العربية وقام العرب بنصيبهم فيها على اتم وجه ولكن السياسة كانت تلعب ألاعيبها وراء ستار . فما كاد الاتفاق يتم بين السر هنري مكماهون ممثلاً بريطانيا والشريف حسين ممثلاً للعرب حتى بدأت مفاوضات بين لندن وباريس أفضت الى معاهدة سايكس بيكو السرية وهي المعاهدة التي في شروطها مناقضة تامة لبعض العهود المقطوعة للشريف حسين . ولكن وزارة الخارجية البريطانية امسكت عن اطلاع الوزارة الفرنسية على شروط اتفاقها مع العرب ولعلها امسكت كذلك عن اطلاعها على ان هناك اتفاقاً . فسارت المفاوضات الفرنسية الانكليزية منذ بدإِها على اساس خاطىء مما كان مجلبة لكثير من الارتباك والخسارة المادية والاضطراب الاجتماعي بعد انتهاء الحرب. وقد وصف المؤلف معاهدة سايكس بيكو بأنها نتيجة للجشع في افظع صوره . ذلك انهُ جشع مقرون بالريبة فأفضى الى السخف ، وهي مثال على المراوغة في المعاملات الدولية ولعلها ابلغ مثال على الحنث بالوعود . فقد تمت المفاوضات وعقدت المعاهدة بغير معرفة الشريف حسين واحتوت على نصوص تناقض مناقضة تامة شروط الاتفاق بين السر هنري مكماهون وبينهُ ولو انهُ عرف بها لكان الغى حتماً محالفتهُ مع بريطانيا . فاخفاؤها عنه يزيد الطين بلة من الناحية الادبية . ولم يعرف بها الشريف حسين الا بعد انقضاء سنة ونصف سنة على عقدها وذلك عن طريق المانيا وتركيا بعد قيام الثورة الشيوعية في روسيا ونشر الوثائق والمعاهدات السرية في بتروغراد . وقد كان الغرض من ابلاغ الشريف حسين انباء هذه المعاهدة عن طريق جمال باشا والي سوريا وقائد الجيش الرابع حمله على عقد الصلح بين العرب والاتراك ولكن الشريف ابى ذلك اولاً ثم طالب الانكليز بتفسير ما انتهى اليهِ . فلم يدر السر رجينالد ونجت (وكان قد خلف السر هنري مكماهون) ما يفعل فأحال المسألة الى وزارة الخارجية البريطانية فأتيحت للوزارة بذلك فرصة نادرة للخروج من مأزق بالاعتماد على وسيلة غاية في البساطة وهي الصراحة في تفسير الموقف ولكنها لم تفعل بل ارسلت الى القاهرة نص ردّ على استفهام الملك حسين اقل ما يقال فيهِ انهُ ينطوي على تضليل مقصود . ذلك ان

الوزارة لم تؤيد ولم تنف صحة ما نشرتهُ حكومة روسيا الشيوعية وانما افرغت الرد في قالب يفهم منهُ ان ما قاله جمال باشا ليس الاَّ ضرباً من ضروب الوقيعة التركية . وأرسل الرد من قبل السر رجينالد ونجيت مع برقية خاصة منهُ

وهنا ايضاً نرى الحاجة ماسة الى الاطلاع على نصوص الرد والبرقية . ولكن الحكومة الانكليزية لم تنشرها فترجمها الاستاذ انطونيوس من العربية وجعلهما احد ذيول كتابهِ لانهما من الوثائق التي لا يستغنى عنها في دراسة الموضوع

ومن قبيل معاهدة سايكس بيكو تصريح بلفور المشهور الخاص بالوطن القومي في فلسطين الصادر في نوفمبر سنة ١٩١٧ والمتعارض مع عهود الانكليز للعرب. اما تاريخ المفاوضات والمساعي التي بذلها الصهيونيون قبل الفوز بهذا التصريح فمسهب لا يتسع له المجال . ولكن يكفي ان نقول ان المستر اسكويث رئيس الوزارة البريطانية في السنتين الاوليين من الحرب الكبرى كان معارضاً فيهِ وكذلك فريق كبير من اقطاب اليهود الانكليز ممثلين في « مجلس ممثلي اليهود الانكليز» و« الجماعة اليهودية الانكليزية » وقد كان المستر منتاجو وزير الهند اسانهما فيها . ويرى مؤلف « يقظة العرب» ان الباعث على هذا التصريح ليس ما يقال عن العون المالي الذي فارت بهِ الحكومة من اليهود اذ ثبت الآن ان اكتتاب اليهود في قروض الحرب كان يسيراً ومعظمه من اليهود المعارضين في الخطة التي تضمنها تصريح بلفور . وهو ينكر كذلك ان هذا التصريح جاء مكافأة للدكتور ويزمن على اختراعه مادة متفجرة في وقت الحاجة اليها . وعندهُ ان الباعث الحقيقي ذو ناحيتين احداهما سياسية وهي اجتذاب يهود المانيا والنمسا الى الاهتمام بنصر الحلفاء لانهم كانوا يفاوضون حينئذ دول الكتلة الالمانية النمسوية للفوز بتصريح من تركيا يماثل التصريح الذي اصدره بلفور بعدئذٍ . وأما الناحية الثانية فعسكرية تستمد شأنها من قرب فلسطين الى مصر وقناة السويس

اذيع تصريح بلفور في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ اي بعد انقضاء سنة ونصف سنة على قيام الثورة العربية استناداً الى عهود بريطانيا بتأييد استقلال العرب في منطقة كان للحسين الحق كل الحق في اعتبار فلسطين جزءاً منها

وقد كان لاذاعة هذا التصريح تأثير عميق في الدوائر العربية فسرت موجة احتجاج قوية من قبل زعماء العرب في القاهرة . فبذلت السلطات البريطانية جهدها لتسكين مخاوف العرب وتطمينهم خشية ان يفضي ذلك الى خمود الثورة ، وانكشاف مؤخرة الحملة البريطانية في فلسطين. فلما بلغ الملك حسين نبأ التصريح اضطرب وقلق وطلب حالاً من الانكليز ان يحددوا معناه ومداه. فأرسل اليه الكوماندر هوجارث احد رؤساء المكتب العربي في القاهرة في الاسبوع الاول من شهر يناير سنة ١٩١٨ فقابل الملك حسين مرتين وأبلغهُ شفويّاً رسالة من قبل الحكومة البريطانية

من شأنها تطمين الملك . وهذا التبليغ ينطوي « على تأكيد صريح بأن نزول اليهود في فلسطين لا يسمح به إلاّ إلى مدى اتفاقه مع حرية السكان العرب من الناحيتين السياسية والاقتصادية »

هذا التصريح لم ينشر قبلاً لانه أُبلغ إلى الملك حسين شفويًّا ولكن الملك العربيّ دوّنه والاستاذ انطونيوس استأذن في نقله فنقله ثم نشره مترجماً في أحد ذيول الكتاب باللغة الانكليزية

يضاف إلى تصريح هوجارت التصريح الرسمي الذى أُبلغ إلى سبعة من أقطاب العرب في القاهرة هم رفيق العظم والشيخ كامل القصّاب ومختار الصلح وعبد الرحمن شهبندر وخالد الحكيم وفوزي البكري وحسن حماده

كان هؤلاء الاقطاب قد أجمعوا الرأي على وضع مذكرة وإرسالها إلى الحكومة البريطانية يستفسرون بها عن نوع الحكومات المنتظر قيامها في سوريا وفلسطين والعراق بعد الحرب علاوة على الاعراب عن رأيهم في مايساورهم من القلق إزاء معـــاهدة سايكس بيكو وتصريح بلفور وتناقضهما مع العهود المقطوعة للعرب .فردت عليهم وزارة الخارجية في ١٦ يونيوسنة ١٩١٨ ببيان رسمي تلي عليهم في مقرّ قيادة الجيش البريطاني في القاهرة وأُرسلت نسخة من هذا البيـــان إلى الملك حسين . تلي هذا التصريح على الاقطاب السبعة بالانكليزية وترجمهُ أحدهم باللغة العربية لاطلاع الذين يجهلون الانكليزية منهم على محتوياته . والنص الذي نشرهُ الاستاذ أنطونيوس هو الترجمة الانكليزية للترجمة العربية . وميزة هذا البيان إنه كان تصريحاً رسميًّا علنيًّا واضح الحدود جدّدت به الحكومة البريطانية عهدها بالمضي في السعي لتحرير البلدان العربية من الحكم العثماني حتى تنال حريتها واستقلالها وأضافت اليه عهداً جديداً بأن لا يقوم في أي منطقة من هذه البلدان نظام للحكم بغير رضى الاهلين

فكان من أثر ذلك التصريح ، عند وصوله إلى الملك حسين والى الامير فيصل في العقبة ، اتقاد الشرر ثانية في قوات الثورة بعد ان استولى عليها الجمود

* * *

أما القسم الثالث من هذا الكتاب النفيس فقد تناول فيه المؤلف التسوية التي تلت الحرب في سوريا وفلسطين والعراق والجزيرة العربية وأدوارها المختلفة وما في هذه التسوية من تناقض مع آمال العرب المشروعة وهو في ثلاثة فصول تشمل ١٤٠ صفحة يصحّ ان تكون كتاباً قائماً بنفسه . استهلّ هذه الفصول ببيان آمال العرب بعد ان اشتركوا في الحرب اشتراكاً فعّالاً وختمها ببحث مشكلة فلسطين . وبين الاستهلال والخاتمة تتعاقب الصور والحوادث — فيصل بين اقطاب القضية العربية في دمشق ورجال السياسة في أوربا . وثورة العراق ومؤتمر سان ريمو

وزحف الفرنسيين على دمشق ثم مؤتمر القاهرة وتغيير الخطة السياسية في العراق واختيار الملك فيصل ملكاً عليها وتقدمها نحو الاستقلال بقيادته ومعاونة أقطاب العراقيين والمخلصين من رجال الانتداب فيها وحال الجزيرة العربية والخلاف الذي نشب بين الحسين وعبد العزيز آل السعود وكيف أفضى الى ثل عرش الاول وامتداد سلطة الثاني وانبساطها على الحجاز . وليس ماتقدم الاّ اشارة الى الحوادث الرئيسية ، أما بحث العوامل السياسية والاجتماعية التي من وراء الحوادث وتعليلها وربطها بعضها ببعض واسنادها الى الادلة العقلية والنقلية فقد أجاد فيها المؤلف هنا كما أجاد في ماتقدم من الفصول

***

وماذا عن فلسطين ؟ ان الذين يتطلعون الى ما وراء الحجاب الكثيف من أقوال الدعاة وأساطيرهم يرى الحلّ واضحاً ولا سبيل اليه الاّ بالرجوع الى الحكم السليم والعدل . فليس هناك مكان لأمة ثانية في بلاد يقطنها شعب قد تنبه ضميره القومي وتربطه بأرضه محبّة لا تغلب . إن العبرة الوحيدة التي يخرج بها الباحث من المساعي التي بذلت حتى الآن لانشاء دولة يهودية في فلسطين هي ان هذه المساعي أفضت الى تخريب البلاد وليس سبب ذلك لنداء أصيل بين اليهود والعرب ولا ضعف عطف العرب عليهم في محنتهم العالمية ولكن لأنّ انشاء دولة يهودية في فلسطين لايمكن ان يتمّ الاّ باخراج فلاحي فلسطين بالقوة من أرض فيها دورهم ومعابدهم ومقابر آبائهم وأجدادهم . ويلوح من تتبع أحوال فلسطين في السنتين الاخيرتين ان هؤلاء الفلاحين يؤثرون مواجهة الموت على التخلي عن أرضهم . ولو لم يكن هناك اعتبار آخر لكان هذا الاعتبار كافياً لحمل أولي الامر على مواجهة الحقيقة الواقعة . أما وهذا الاعتبار تعززه اعتبارات أخرى تستند الى وعود وعهود مقطوعة فقضية العرب في فلسطين تصبح قضية لاتردّ . فوالحالة هذه يجب ألاّ يعجز زعماء الانكليز والعرب واليهود عن الوصول الى حلٍّ معقول. وليس ثمة سببٌ يحول دون انشاء دولة عربية مستقلة في فلسطين يأوى اليها من اليهود عددٌ لايعرّض حقوق العرب السياسية والاقتصادية للخطر ، فيعيش فيها اليهودي متمتعاً بجميع الحقوق ، في امنٍ وكرامةٍ ، وتعقد معاهدة بين الدولة العربية في فلسطين والدولة البريطانية تضمن المصالح البريطانية العسكرية والاقتصادية في البلاد وسلامة الاماكن المقدسة وحقوق الاقليات وتتيح ليهود البلاد أوسع آفاق الحرية في رعرعة مثلهم الثقافية والروحية

***

وليس هناك — في رأي المؤلف بل في رأي كل منصفٍ — حلٌّ عملي غير هذا !

باب المراسلة والمناظرة

مجلة مجمع اللغة العربية الملكي

في دورته الثالثة

للدكتور امين المعلوف

صدر هذا الجزء من المجلة في اكتوبر سنة ١٩٣٨ ولكنهُ مطبوع في سنة ١٩٣٧ فرأيت أن أنظر فيه نظرة عامة ثم أكتب فيه شيئاً. وأول ما أبدأ بهِ أقول أن طبعهُ حسن جدًّا شأن غيره من مطبوعات المطبعة الاميرية ببولاق ثم ان الياء فيهِ غير منقوطة كما هي الحال في المطبوعات المصرية بخلاف السورية والعراقية وهذا لا بأس بهِ لان المصريين مصرون على هذا الخلاف بيننا فعسى أن لا يبقى خلاف غير تنقيط الياء. وللاب انستاس عضو المجمع رسالة صغيرة كثيرة الفائدة في هذا الشأن أي انه يشير الى ضرورة تنقيط الياء لسهولة القراءة

والآن أصف المجلة مختصراً فأولها كلمة اللجنة بعد حمد الله والصلاة والسلام على نبيه المبعوث بهداه ورحمته. ثم يلي ذلك كلمة وفاء للمغفور لهُ صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول مؤسس المجمع. ثم كلمة ولاء لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول وكلاهما لحضرة صاحب المعالي الدكتور محمد توفيق رفعت باشا رئيس المجمع. ثم ذكر المغفور لهُ الاستاذ الجليل الشيخ حسين والي فقيد المجمع. ثم كلمة لرئيس المجمع وقد وجه فيها خطابه الوزير والحضور وهي خطبة مسهبة ونفيسة جدًّا ضمنها أعمال المجمع وقراراته حتى الآن ومما جاء فيه انهُ يطرح كل شيء امام أفاضل العلماء ويقدمه الى الامة العربية جمعاء ويرجو من رجال الفضل في البلاد العربية كافة تعاوناً نشيطاً ماضياً على اذاعة آثار المجمع بين أبناء بلادهم فالمجمع لهم جميعاً لا لمصر وحدها.

ثم كلمة لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ حسين والي فقيد المجمع وكان يومئذٍ لا يزال على قيد الحياة وان كلمته حوت شيئاً كثيراً من معرفة اللغة العربية فلا غرو وقد كان رحمه الله اماماً في اللغة.

ثم كلمة الاستاذ محمد كرد علي بك عضو المجمع. ثم قصيدة علي الجارم بك عضو المجمع. ثم كلمة الاستاذ ا. ه. ر. جب عضو المجمع. ويلي ذلك أعمال المجمع وهي في قسمين القسم الرسمي والقسم غير الرسمي فالقسم الرسمي فيه قرار طبع معجم الاستاذ الدكتور فيشر عضو المجمع وقرار وضع المعجم الاصطلاحي العلمي وقرار وضع المعجم اللغوي الوسيط

ثم أبدأ في نقد مصطلحات العلوم والاحياء دون غيرها وأرجيء الباقي لفرصة أخرى

مصطلحات علوم الاحياء وهي ٣٣ مصطلحاً لم اجدفيها إلاّ الكريّ وانا افضل الكروي كما قال المجمع في العلوم الرياضية والكري جائز لكنني افضل الكروي ثم ان الكلمة الثانية التي اعترض عليها قولهم القصيمة . ولا يخفى ان الكلمة الانكليزية التي ترجمت بالقصيمة ذات معنيين الاول في شبكية العين ذكرها كل من النجاري بك والدكتور شرف بك وسماها العُصية وهذا المعنى نادر جدًّا والمعنى الآخر وهو الشائع جرثوم معروف فلماذا نترك المعنى الشائع ونتمسك بالنادر والمعنى الشائع وضع له اليازجي كلمة انبوبي والانبوب على ما في القاموس ما بين العقدتين من القصب ووضع له اساتذة المعهد الطبي في دمشق كلمة عصية ذكرها الدكتور حسني سبح في معجمه الملحق بالامراض الباطنية . اما الانبوبي فذكره كل من الياس انطون الياس وخليل سعد في مظنته وهذان اللفظان اصلح من القصيمة . فهذه معناها العود السريع الانكسار والعصية خالية من ذلك

وقد يسرني قولهم الكلس فهي احسن كثيراً من الجير الشائعة في مصر وقد يكون الجير تصحيف القير وهذا البحث لا محل له هنا

ثم القسم غير الرسمي وفيه المقالات والاقتراحات ويجب ان لا ينظر الى هذا القسم كانهُ صادر من المجمع وان كان معظم الناس يظنونه كذلك فالقسم الرسمي فقط صادر من المجمع ومما جاء في هذا القسم ص ١٥٦ في اصطلاحات علوم الاحياء ما نصهُ : طائفة مشروحة مما اقره المجمع في دور انعقاده الثالث عني بشرحها الاستاذ احمد العوامري بك عضو المجمع واسماعيل مظهر افندي الموظف به ولما كان هذا القسم غير رسمي والمداعبة تحلو فيه فاني سأداعب السيد اسماعيل بعض المداعبة او المعاتبة وهو الصديق القديم وطالما داعبني وداعبته ولا سيا في علوم الاحياء

في الصفحة ١٦٠ أصلح ما يأتي ، وأما الشحم والدهن فسأعود اليهما في فرصة أخرى بل الفرض هو قولك الدهن وكان يجب ان تقول الشحم وهذا ليس فرضاً عليك بل انت مخير فيه اذا شئت او هو واجب او مستحب . ثم قلت هناك في طائفة من الحيوانات اللبونة انها من الثديية واذكر اني في مقتطف ابريل سنة ١٩٣٦ قلت اللبونة وبينت الاسباب وانت فضلت الثديية . فاللبونة قالها زلزل واخذها عنهُ صاحب المقتطف ثم اخذها عن المقتطف جماعة من الادباء منهم طبيب مشهور في مصر اسمهُ الدكتور محمد عبد الحميد بك فقد قالها في المقطم بالامس وطبيب آخر اسمهُ الدكتور نجيب محمود ذكرها في كتاب اصول الطب البيطري والدكتور حسين زكي في الرسالة قالها عن الاطوم في عدن في العدد ٢٥٣ من مجلة الرسالة واظنك قرأتها لان لك مقالة في العدد عينه وقالها ادباء كثيرون في بيروت ودمشق وبغداد ولست في حاجة الى اثبات شيوعها . ثم انهُ ليس لهذه الطائفة

ائداء منها القنقر والابوسوم وغيرهما فان لم تستحسن ذكر زلزل فانسبها الى المقتطف واحد منشئيه عضو الآن في المجمع واظن رئيس تحرير المقتطف ذكرها لايام مضت . فلا تقل بعد الآن ثديية فهذه من ايام قلاوون او ابن طولون . كذلك طائفة اخرى سميت الزواحف وانا قلت الزحّافات بصيغة المبالغة نقلاً عن الاب انستاس العضو في المجمع . ثم تحول الى الصفحة المقابلة فتجد هناك الزلال وهي عامية او مولدة لم اعثر عليها الاّ في كتاب كامل الصناعتين في الطب البيطري . وقلت ان الصواب الآح او بياض البيض . فغير الزلال اكراماً لي ولصاحب التاج فقد ذكرها في المح وقد كان اماماً في اللغة رحمة الله عليه

ثم انتقل معي ايها الصديق الى ص ١٧٧ فتجد هناك القـصيمة الطيبة الذكر وقد تقـدم انها لا تصلح بتاتاً وان الانبوبي والعُصية اصلح منها كثيراً

أما التصنيف فأنت حرّ في التصنيف الذي يطيب لك . أما أنا فقد ذكرت تصنيفي في معجم الحيوان واني لا أرى التصنيف من شؤون مجمع اللغة فالاعضـاء من جهابذة اللغة ومع شـدة احترامي لك ولهم فانهم ليسوا من الاحيـائيين أو من علماء المواليد ولا أنت منهم بل ربما لا يعرفون عنها شيئاً وانما أقول ان تصنيفي متعوب فيه فكل كلمة فيه مكتوبة بعد البحث الدقيق فلك ان تخالفني فيه أو في بعضـه وما يأتي هو بعض ماخالفتني فيـه وما قلت في معجم الحيوان فالاولى هو ما قلتهُ في معجم الحيوان ص ١٦ وما يليها ثم تصنيفك في أماكن مختلفة من مجلة اللغة أشير اليها بالصفحة

رتبة . مجمع الفصائل المتشابهة (زلزل) Order

هذا ما قلتهُ في معجم الحيوان وقد نسبتهُ الى زلزل لاني وجدت تعريفه أفضل تعريف ولـكنهُ ليس لزلزل بل هو أقدم تصنيف فهو المواليدي المشهور أحمد ندى ذكره في كتاب الآيات البيّنات في علم الحيوانات وأخذه عنهُ بوست وعلي رياض وزلزل وغـيرهم فان علماء تلك الايام كانوا أكثر تساهلاً مما نراه الآن فيأخذ الواحد ما للآخر متى كان الاصطلاح صحيحاً . أما انت أيها الصديق فقد خالفتنا جميعاً لا لسبب بل لتقول انك مخالف فسميت الرتبة قبيلة ص ١٦٤ من المجلة وستأتي القبيلة بعد ذلك . فهل تريد انهُ اذا أنعم عليك جلالة الملك بوسام او رتبة ان يقال أنعم على اسماعيل مظهر بالقبيلة الفلانية من الدرجة الفلانية فانهُ يجب ان يكون تناسباً بين الالفاظ المختلفة باختلاف المعاني

قبيلة Phylum

هي في الاحياء قسم من أقسام المملكة أفرادها من أصل واحد واللفظة يونانية معناها قبيلة

والقبيل بمعناها وجمع القبيل قبل وهو غير مأنوس بهذا المعنى ويحتاج الى اجهاد الفكر وتفسيره في الاستعمال أما القبائل ففي غنى عن ذلك

هذا هو التعريف بنصهِ على ما ورد في معجم الحيوان . ولعلك تذكر في السنة التي قبل الماضية انك قلت في المقتطف قبيلة وجمعتها على قبل فداعبتك مداعبة لا أظنك نسيتها فجئتنا الآن بالامة صفحة ١٧٠ من المجلة ولا أدري من أشار عليك بذلك . وسأبين لك في ما يلي انهُ لا يمكن غير القبيلة فان كلمة قبيلة قديمة في اليونانية وكانوا ينحتون كلمة ثانية منها هي فلارخ ومعناها رئيس القبيلة او زعيمها وكانوا يستعملون هذه الكلمة أي فلارخ على الطريقة الانكلوسكصونية لملك العرب أيًّا كان مثل امرىء القيس وكل ملكٍ من ملوك غسّان . أما الملك عند الروم على ما تعلم فهو باسيليوس لكنهم ما كانوا يستعملون هذه الكلمة الاّ لهم لانهم شعب الله الخاص وكان جميع ملوك العرب فلارخ كما تقدم أي رئيس القبيلة او زعيمها

طائفة Class

جماعة كبيرة من الاحياء دون القبيلة وفوق الرتبة وقالوا أيضاً قسماً والقسم غير ذلك وقد تقدم . وقال أساتذة بيروت صفًّا لان الصف عندهم للتلامذة بمعنى سنة دراسية واحدة . وقال أساتذة الترك صنفاً وهذه لا بأس بها لولا ان المناطقة استعملوها بمعنى آخر سيأتي ذكره . وقال الدكتور زلزل طائفة فاختار المؤلف هذه اللفظة وكنت أود لو قال طبقة ولكن طائفة سابقة لذلك

أما أنت فقلت أولاً في المقتطف الصف ولم تقل ذلك الاّ لمخالفتي ثم عدلت عنهُ الى الشعب ص ١٧٠ من مجلة المجمع ولعلك أو لعل الذي أشار عليك بذلك أحب ان تكون المقولات من الجماعات الواردة في كتب اللغة أو ليست الطائفة من هذه الجماعات ولعلك لما رأيت اسم زلزل واسمي نفرت منها وأنا لا أعهد فيك ذلك أيها العزيز فالطائفة أحسن ولو أن زلزل قالها وأنا اخترتها

باب Category

اصطلح المؤلف على باب كما في بعض الامثلة المتقدمة ولا بأس من قولنا فصل . أما فى المنطق فمقول ومقولة والمقولات العشر أشهر من ان تذكر

قلت وكنت أفضل ان أقول مقول ومقولة كما في المنطق لكن رئيس تحرير المقتطف اعترض على هذه الكلمة لغرابتها فاستعضت عنها بالباب والمقول والمقولة أفضل لانها ترجمة الكلمة المنطقية وقد استعملها زلزل وهو من كبار المواليديين

أما السيد اسماعيل فضرب بهذا عرض الحائط وقال طبقة والكلمة الحقيقية مَقول ومَقولة



صورة رائحة الزنبق — تصوير بريتنباخ

باب الأخبار العلمية

تصوير ما يُشَمّ

من زهر الورد وحب المسك

تضع حبة المسك في غرفة فتشمّ رائحتها في تلك الغرفة يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة وهي لا ينقص ثقلها شيئاً محسوساً . ولا تفوح رائحتها في هواء الغرفة كلّ هذا الزمن الآ اذا خرج شيء منها كل يوم وكل ساعة وانتشر في هواء الغرفة المتجدّد فيصل الى الانف ويؤثر فيه . فما هو هذا الشيء الذي يخرج من حبّة المسك؟ أغاز صادرٌ منها ام اهتزاز في الاثير كاهتزاز الضوء أم حبيبات دقيقة تحمل الرائحة او هي الرائحة نفسها؟ هذا ما لم يتفق عليه العلماء إلى ان جاء العالم الفرنسي « ديڤو » Devaux فأثبت بالبرهان العملي المصوّر صحة الرأي الثالث

ذلك ان زوار المعرض الدولي للجمعية الملكية للتصوير الضوئي بلندن في الصيف الماضي وقفوا امام صور غريبة لا شكل لها ولا قوام ولا صلة بجسم معروف فكأنها خيالات احلام او اوهام حشاشين. وعندما امعنوا النظر فيها رأوا تحتها وصفاً أخذهم دهشة اذ علموا انها صور ضوئية لروائح معينة منها رائحة الورد ورائحة الزنبق وغيرهما وان المصوّر يدعى بريتنباخ وانهُ صوَّر بها تجارب علمية يقوم بها الاستاذ « ديڤو »

والاستاذ ديڤو شيخ وقور سمح الطلعة قضى اربعين سنةً باحثاً عمَّا نشمه عند ما نفتح زجاجة من العطر او عندما نقرب من انفنا قرنفلة او زنبقة او حبة من المسك او قطعة من الكافور أو بيضة نتنة او قبراً مصهوراً . فهو زعيم علم جديد لا يزال في مهدهِ نعني علم الروائح ويعرف باللغات الاعجمية باسم « الاوسميكس » واصله كلمة اوسميل Osmyl التي تطلق على كل جسم لهُ رائحة . وتجاربهُ هذه اثبتت اثباتاً قاطعاً لكل ريب بان ما نشمهُ هو دقائق متناهية في الصغر تنطلق من الجسم ذي الرائحة ، فتؤثر في جهاز الشمّ في باطن الانف وتنتقل رسالتها العصبية على اعصاب الشم الى المركز الخاص بها في الدماغ

فما طريقة الاستاذ ديڤو التي أفضت الى تأييد هذا الرأي ثم أفضت الى هذه الصور العجيبة ؟

هوذا خوان عليهِ وعاء قائم على أربع قوائم. وفي الوعاء طبقة من الزئبق عمقها أربعة

مليمترات . ثم هوذا الاستاذ ينظف سطح الزئبق بامرار حرف زجاجي عليها إمراراً لطيفاً . وبعد ذلك يضع قليلاً من مسحوق الطلق المتناهي في نعومة دقائقهِ . ثم يتجه الى خوانٍ آخر فيأخذ منهُ لوحاً من الزجاج يثبت عليهِ بورق اللصق ورقة منتزعة من زهرة ورد او زهرة ياسمين او زهرة قرنفل ثم يضع اللوح فوق سطح الزئبق على بعد قليل منهُ وورقة الزهرة الى جهة الزئبق

***

أنظر الى دقائق المسحوق الابيض وقد أخذت تتحرك وتنتشر ببطءٍ . ها هي ذي بقعة صغيرة على سطح الزئبق تحت ورق الورد تماماً قد زال منها المسحوق . لا ريب في ان شيئاً منطلقاً من الورقة أخذ يدفع دقائق المسحوق أمامهُ ليحلّ محله . فاذا أحللت قطعة من الكافور أو زهرة الليمون او أي زهرة من أزهار أشجار الفاكهة محل ورقة الورد ، رأيت التحوّل في انتشار المسحوق على سطح الزئبق عنيفاً ، كأن هناك أعصاراً او زوبعة صغيرة . هذا التبدّل في انتشار المسحوق على سطح الزئبق بفعل الدقائق المنبعثة من الجسم ذي الرائحة هو ما تراه مصوراً في هاتين الصورتين . وقد عني بريتنباخ بتصويره بأجهزة التصوير الضوئي العادية ، وأجهزة التصوير السينمي . ولا يخفى ان الدور الذي يقوم بهِ المسحوق الابيض في هذه التجارب انما هو لاظهار الحركة التي تتحركها الدقائق الصغيرة المنبعثة من الاجسام ذات الرائحة

وقد صرَّح الاستاذ ديفو بأنهُ ثبت لهُ من تجاربهِ ان الاجسام ذات الرائحة فقط تدفع مسحوق الطلق بالشكل المتقدم . أما الاوراق والازهار والاجسام التي لا رائحة لها فلا تؤثر هذا التأثير فيهِ . واذا حركت غشاء الزئبق بعد اجراء احدى هذه التجارب انبعثت منهُ الرائحة الخاصة بالزهرة — او غيرها من الاجسام — التي جربت بها التجربة . وفي هذا دليل على ان دقائق مادية انطلقت من الزهرة تحمل رائحتها أو هي الرائحة نفسها . وهذا يعني اننا لا نستطيع ان نشبه الروائح بالالوان . فالالوان لا وجود لها الاّ في شبكيات عيوننا وأدمغتنا فهي التي تفسر ما يؤثر فيها من الامواج فتقول هذا أحمر وذاك أزرق وذلك أخضر

***

* يموت ألوف من المواشي كلّ سنةٍ بابتلاعها الدهان الطريّ الذي على مباني المزارع

* كان قدماء المصريين يصفون مرض الجذام بأنه « الموت قبل الموت »

* تدل التجارب على أن الأسماك تشمّ وتستطيع أن تميز الألوان الزاهية

* يقول أحد أطباء السفن أن الحقن بالأتروبين علاج سريع للدوار وغثيانهِ

* صنع جهاز تلغرافي جديد يجعل من المستطاع نقل ٩٦ رسالة برقية على سلك واحد في جهة واحدة



صورة رائحة الكافور — تصوير بريتنباخ

فوائد النحاس الاحمر والفضة

قتل الميكروب — مقاومة البلهارسيا بمصر

حفظ عصارات الفواكه وطريقة ماتزكا Matzka

النحاس والميكروبات من ٣٠ سنة

كتبت في «مجلة المحيط» لصاحبها المرحوم المأسوف عليه الاستاذ عوض واصف في جزء مايو سنة ١٩٠٧ اي منذ احدى وثلاثين سنة النبذة الآتية وذلك في باب اخبارها العلمية فأردت اعادة نشرها الآن تمهيداً للاكتشاف العلمي الحديث الذي سنصفه فيما بعد. واليك تلك النبذة القديمة الجديدة : —

قال جراح انكليزي في منافع النحاس الاحمر الصحية ما يأتي : —

لمعدن النحاس الاحمر خاصية صحية غريبة وهي اهلاك الميكروبات والوقاية من الامراض ولهذا ننصح الناس بالرجوع الى حفظ الماء في الاواني النحاسية ، وبصنع الاكواز واقداح الشرب منهُ كما كان القدماء يفعلون لكي ينجوا من وباء الحمى التيفودية . واذا أردت ايها القارىء تحقيق ذلك ، خذ فلساً من الفلوس النحاسية وافحصه بالميكروسكوب فتجده خالياً من جراثيم الامراض ثم افحص ايضاً قطعة من من النقود الذهبية وغيرها من الفضية فتجدها مفعمتين بالجراثيم مع ان النقود النحاسية تتداولها غالباً أيدي الفقراء القذرة الملوثة بأدران الجراثيم ولكن الجراثيم لا تعيش على النحاس الاحمر لانهُ يهلكها فاذا تلوّثت تلك النقود بجراثيم الدفثيريا والكوليرا ، ماتت الجراثيم في أقل من ساعتين

النحاس الاحمر والكوليرا

ولا يخفى على القراء أن الكوليرا كثيراً ما تتفشّى في بلاد الصين غير أن عدواها لا تسري في بعض البلدان لان أهاليها يخزنون مياه الشرب في صهاريج من النحاس الاحمر . وقد يطمح السياح الذين يفدون على بلاد الصين الى ابتياع هاتيك الصهاريج من الصينيين لجمال منظرها فلا يرضون لان عندهم خرافة فحواها ان صحتهم وسلامتهم متوقفتان عليها فلا يفرطون فيها

قلنا « ليت الخرافات كلها حقيقة وصحية كهذه » . ومن هذا القبيل ان عمال النحاس الاحمر في منطقة الريفيرا نجوا من الكوليرا التي تفشت في مركزهم على حين أنها تفشت بين اقاربهم واصدقائهم في جميع الاماكن المحيطة بهم فكيف نجوا ؟ ان الاواني النحاسية وفتكها الذريع بالجراثيم كانت الواقية لهم من الامراض . وعمد بعضهم الى القاء عدة جراثيم حية من جراثيم الكوليرا والحمى التيفودية في وعاء من النحاس الاحمر وضع فيه ماء للشرب على سبيل التجربة وشربوا منه بعد مضي سبع ساعات فلم يعترهم ضررٌ لأن الجراثيم ماتت بتأثير النحاس.

(والمقصود بالنحاس هنا المبيض بالقصدير)

الشب الازرق وتطهير الماء

وجاء في احدى المجلات العلمية في أوائل سنة ١٩٠٥ أيضاً ان الماء المطهر بالنحاس يشرب بأمان وسلامة لخلوه من الميكروبات فان جزءا من مليون من كبريتات النحاس «الشب الازرق» يطهر مليون جزء من الماء ويوفر ألوفاً من الجنيهات لتطهير مياه الاحواض والخزانات من أضراع المياه algae

وفي هذا الصدد يرى كاتب هذه السطور أن الاواني النحاسية أنفع في البيوت من سائر الادوات سواء أكانت من الاليومنيوم أم من الصاج المغطى بالمينا أم غيرها ، وهذا نتيجة اختباره الشخصي منذ اربعين سنة . فهلموا أيها القراء الى متاجر «اولاد محمد علي بك الحسيني بشارع النحاسين» المشهورة بالقاهرة حيث تجدون أفخر وأتقن المصنوعات النحاسية بأزهد الاثمان»

أما أخبار الدوائر العلمية العصرية في هذا الصدد فها هي كما يأتي : —

حفظ عصارات الفواكه

كانت الوسيلتان العامتان لحفظ عصارات الفواكه في القناني سليمة من العفن على الدوام قبل اختراع طريقة ماتزكا Matzka التي سنصفها فيما يلي ، هما اولاً : المواد الكيميائية الواقية من الفساد وثانياً التعقيم بطريقة باستير وهي المسماة بالبسترة Pasteurization

والمعروف أن تلك المواد الكيميائية تجعل الشراب الذى تمزج به ذا طعم غير مرغوب فيه . وان بسترة الشراب المراد تعقيمه تعقيماً تامًّا تقضي بغليه غلياناً شديداً بحرارة عظيمة زمناً غير يسير . وهذا مما يغير طعم الشراب ويفسد مايحويه من الفيتامينات فساداً كليًّا او جزئيًّا ولاسيما اذا احدثت البسترة مع وجود الهواء

فلاحظ فون ناجيلي Von Nageli العالم النباتي السويسري في سنة ١٨٩٣ ان الماء الذي يلامس النحاس الاحمر المعدني برهة، يكتسب منهُ خاصية مقاومة العفن فكانت تلك الملاحظة العلمية ، باعثاً على لفت نظره الى المعادن الاخرى عساه ان يكشف فيها ما عرفه في النحاس الاحمر — فتحقق حدسه في معدني الفضة والزئبق اذ تبين له انهما يكسبان الماء تلك الخاصية عينها كسباً اشد كثيراً مما يولده فيه النحاس الاحمر مع ان تلك الفلزات الثلاثة عسيرة الذوبان جدًّا في الماء وكان المظنون اولاً ان دقائق قليلة منها تذوب في الماء ذوباناً فعليًّا فتؤثر فيه ذلك التأثير المطهر

تأثير الفضة في السائل

اما الآن فقد ثبت ثبوتاً حاسماً بأن مفعول الفضة في السائل الذى تلامسه ينشأ من تأكسد سطح ذلك الفلز ثم ذوبان طبقة التأكسد الرقيقة في السائل ، سيان كانت تلك الطبقة اوكسيد الفضة الغروي Colloidal silver oxide اوذريرات فضية مشحونة بالكهربائية وهي المعروفة علميًّا بالمؤيَّنة ionized

فاذا لم تعرض الفضة للهواء ولا للاوكسيجين

أو الحامض الكربونيك ، تجردت من خاصية التعقيم اليسير الذى أشرنا اليه. نعم إن ذوبان أوكسيد الفضة في الماء طفيف جداً ولكنهُ يكفي لاطلاق ذريرات فضية مشحونة شحنة كهربائية (أيونات) ، في ذلك السائل . وقد ذهب العلماء (في تعليل تمكن الفضة من قتل البكتيريا) بعض المذاهب ثم أجمعوا على أن طائفة من الأيونات الفضية تلتصق بكل واحدة من البكتيريا الموجودة في السائل فتحول دون نموها وتقضي عليها

الاسلاك الفضية في التجبير

وقد استعملت خصائص الفلزات لقتل الجراثيم حقبة من الزمن ، وكان ذلك قبلما أدرك العلماء العوامل الحقيقية التي تقوم بذلك التعقيم ، فقام الجراحون في انكلترا واميركا وغيرهما باتخاذ صفائح الفضة واسلاكها لتجبير العظام الكسيرة وعلاج المريضة منها ويؤيد ذلك الحادث الآتي وقد اثبتناه بقلمنا في مجلة المحيط لصاحبها المرحوم الاستاذ عوض واصف في جزء يوليه سنة ١٩٠٦ وها هو : (فتاة ذات جمجمة فضية) اصيبت فتاة اوربية اسمها راشيل روزنبرج عمرها تسعة اعوام في لندن بكسر جمجمتها في اسفل المخ فنقلت الى المستشفى في حالة منذرة بالموت العاجل فعالجها الاطباء بأن استعاضوا عن العظم المحطم بثلاث قطع رقيقة من الفضة حجم كل منها يعادل الشلن فبرئت من سقمها على اثر هذه العملية المدهشة في زمن يسير وعادت الى بيتها صحيحة الرأس ، فتوافد الاقرباء على المنزل لعيادتها وزيارة والديها فصارت راشيل تكشف الضمادات عن رأسها لترى رفيقاتها الصغيرات ما وضعهُ الاطباء في رأسها من الفضة »

وفي عصر السفانة الخشبية كانت صفائح النحاس الاحمر تُثَبَّتُ في الهياكل الخارجية للمراكب وذلك تحت خطوط عومها منعاً لالتصاق النباتات المائية — الاضراع — algae والحيوينات الصدفية الدقيقة بها . (الضريع وجمعه أضراع نبات في الماء الآجن له عروق لا تصل إلى الأرض. عن الفيروزابادي)

طريقة ماتزكا

وأحدث ما تم في هذا الموضوع أن العلماء قد تذرعوا بخصائص الفلزات المهلكة للجراثيم oligodynamic تذرعاً واسع النطاق ، إلى تعقيم المياه وغيرها من السوائل إذ ثبت لهم أن الحرارة المرتفعة إرتفاعاً معتدلاً تزيد تأثير الخصائص المعدنية في إبادة الجراثيم زيادة كبيرة فسموا هذه الطريقة باسم ماتزكا Matzka فاستفادوا من هذه النتيجة نقص الذرات الفضية التى يستعملونها للتعقيم نقصاً كبيراً عما تقتضيه الطرق الأخرى إذ اتخذوا جهازاً يسخنون فيه السائل المراد تعقيمه بحيث يجعلونه يلامس الفضة مباشرة في مساحة كبيرة جداً في باطن الجهاز . وفي هذه الحالة يكون مقدار الفضة الذي يذوب في السائل أقل من جزء واحد في مائة مليون جزء من السائل المرغوب في تطهيره . وعلى حين أن المرء لا يكاد يصدق أن

الفضة المركزة بذلك القدر اليسير ، تؤثر في البكتيريا فتهلكها قد أثبت فوج من الباحثين أن المقادير التي تقل عن ذلك ذات تأثير عظيم محقق في مثل تلك الحالة الملائمة . وأيضاً عند إحداث هذا التخفيف يكون عدد الذرّات الفضية الموجودة في كل سنتيمتر مكعب من السائل كبيراً جدًّا بحيث أن السائل المحتوي على هذا المقدار الضئيل من الفضة إذا اشتمل على مائة ألف بكتيريا في كل سنتيمتر مكعب ، استهدفت كل واحدة منها لتأثير الملايين من أيونات الفضة

كبريتات النحاس ومقاومة البلهارسيا

وجاء في محاضرة ألقاها حضرة النطاسي الدكتور محمد خليل بك عبد الخالق على طلبة طب المناطق الحارة :ـ وكبريتات النحاس من أفيد الطرق المستعملة في مصر الآن لمقاومة البلهارسيا وكان أول من اكتشف تأثيرها الناجع في قتل البكتيريا المستر أندو الصيني Ando ويظهر هذا التأثير وإن كانت الكبريتات النحاسية مخفضة بنسبة $\frac{1}{1000000}$ فتقتل القواقع . وللنحاس الأحمر تأثير شديد في الكائنات الحية الدنيئة من النباتات والحيوانات (كما تقدم القول) وقد استعمل منذ سنين لقتل أضراع الماء الأخضر algae في صهاريج الشرب وحمامات السباحة إذ تمزج كبريتات النحاس بالمياه لتنظيفها وقتل ما عساه يشوبها من الكائنات النباتية . وفي صهاريج من مياه الشرب تجعل الكبريتات النحاسية بنسبة $\frac{1}{1000000}$ فتختفي الكبريتات بعد انقضاء ٢٤ ساعة إذ تتحد بالمواد العضوية التي في المياه وترسب في قعر الصهريج . وقد ثبت بالتجارب العملية في ري حقول الذرة والقطن وغيرها بكبريتات النحاس المخففة بنسبة $\frac{5}{1000000}$ بأنها لا تضر المحصولات . وكذلك البزور التي تنقع عدة أيام في هذا المحلول المخفف بالنسبة عينها تزرع وتروى بالمياه نفسها فتنمو نمواً طبيعيًّا . والقواقع تتأثر تأثراً تامًّا بكبريتات النحاس فاذا وضعت محلول كبريتات النحاس بنسبة أقل من $\frac{1}{1000000}$ في مخبار محتوٍ على القواقع قتلها في ٢٤ ساعة . وعند استعمال ذلك المحلول المخفف في ترع الري يجب أن يكون بنسبة ٥ على مليون فتختفي منها اربعة اجزاء باتحادها بالمواد الاخرى

ويبقى الجزء الخامس لقتل القواقع . وقد جربت هذه الطريقة في بلدة وردان ثلاثة أشهر فأسفرت عن النتيجة نفسها ، غير انها قتلت سمك البياض إذ تبين انه لم يحتمل مفعول الكبريتات النحاسية فنفق ووجد طافياً على سطح الماء

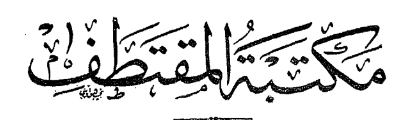
عوض صبري

***

* ليس في عنق الزرافة من الفقرات أكثر مما في عنقك أو عنقي

* يقال ان البرداء (الملاريا) تسبب مليون وفاة في الامبراطورية البريطانية كل سنة

* يختلف البرتقال عن معظم الفواكه في انهُ لا ينضج بعد قطفهِ



تاريخ مديرية خط الاستواء

من فتحها الى ضياعها من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٨٨٩ في ثلاثة اجزاء
تأليف صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون — مطبعة العدل بالاسكندرية

ان سمو الامير عمر طوسون فخور دائماً بتاريخ الجيش المصري خلال القرن التاسع عشر. ذلك الجيش الذي سجل له بين جيوش العالم أنصع الصفحات في اعمال الفتح المجيد. ذلك الجيش الذي ألفهُ محمد علي فأحلَّ به النظام في مصر محل فوضى المماليك. هـذا الجيش الظافر دائماً الذي فتح أعماله العسكرية في بلاد العرب المقدسة ثم في سوريا وآسيا الصغرى وكريت والمكسيك وبلاد البلقان والروسـيا وفي أواسط أفريقية. وهو الذي فتح السودان وعمره وأخيراً أعاده في عام ١٨٩٨

يخرج اليوم سمو الامير كتابه الجديد تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية فيقدم لمواطنيه الذين يجلونه ويقدرون أعماله الخالدة، تراثاً طيباً عن آثار الفتح المصري في قلب أفريقية — التي تسمى بحق قارتنا، فقد أهمل مؤرخونا للأسف التحدث عن هذه النواحي القومية فجهلناها جهلاً تاماً. وإن كان المؤلفون الاجانب قد تحدثوا عنها كل واحد من ناحية مأربه الخاص ومآرب وطنه. فقد تحدث عنها الانجليز صمويل بايكر وكولفيل وجاكسون وستانلي وونجت. وألف عنها الفرنسيون والالمان والايطاليون والأميركيون أمثال شاييه لونج وأمين باشا وشوينفرت وجونكر وبونولا بك وكازاتي وجيسي وغيرهم لكن لم يتقدم لبحث الجهود المصرية أحد من المواطنين

وكأنَّ هذا الأمر قد عزَّ على سمو الأمير العالم فعزم على أن يقوم بنفسه بالعناية بما أهملناه خلال الأجيال السالفة. وحقق لنا أمنية طالما تمنينا تحقيقها وأخرج لنا تاريخ حلقة مفقودة من تاريخ مصر في القارة الافريقية، كانت الى الامس مجهولة ومفقودة باللغة العربية

والجزء الاول من هذا السفر النفيس يشتمل على تاريخ مديرية خط الاستواء من سنة ١٨٦٩ عندما تولى حكمها السير صمويل بايكر باشا بأمر المغفور له الخديو اسماعيل الى عام ١٨٧٣ بمرسوم منحهُ فيه سلطة مطلقة لاخضاع النواحي الواقعة في جنوب غندوكرو ولابطال النخاسة ولانشاء تجارة منظمة

وكانت الحملة التي ذهبت لتحقيق هذه الاغراض تتألف من ١٤٠٠ جندي مشاة وبطاريتين من المدافع وبعض قوات الفرسان (السواري) التي تركها في الخرطوم

ويصف لنا الامير المؤرخ مراحل هـذه الحملة منذ غادرت مصر ووصـولها الى الخرطوم وفاشودة والدبة وما لاقته من الصعاب . ثم انشـاءها محطة التوفيقية لتكون مقرًّا للاسطول . ثم وصول السر صمويل بايكر الى غرضه الاول غنـدوكرو واخضاعه لقبائل تلك الجهات واتصاله بملك اوغنده . وبانتهاء خدمته عاد الى القاهرة وحظي بمقابلة الخديو الذي أنعم عليه بالنيشان العثماني من الدرجة الثانية

وبعد سفر السير صمويل بايكر عين الاميرالاي محمد رؤوف بك مديراً لمديرية خط الاستواء لكونه كان أرقى الضباط الذين كانوا معه . الاَّ انهُ لم يظل طويلاً في منصبه حتى عين عام ١٨٧٤ غردون باشا بعد مصادفة عجيبة . فقـد كان غردون العضو البريطاني في لجنة الدانوب تعمل في الاستانة فتعرَّف به الوزير المصري نوبار باشا وسأله هل يعرف ضـابطاً من فرقة المهندسين العسكريين يقبل أن يخلف السير صمويل . فطلب التفكير في الامر الى أن كتب له بأنه يقبل هذا المنصب اذا رضيت الحكومة البريطانية !

وكان أن وافقت حكومته على هذا الطلب وجاء الى مصر فقابل الخديو وعين في عمله الجديد واختار القائمقام الاميركي شاييه لونج ليكون أركان حربه ورافقه مع الحملة الملازم الاول حسن واصف بصفته ياوراً لغردون وهو الذي شغل مناصب متعددة في الجيش وعين فيها بعد مديراً لاسيوط. وذكر لنا سمو الامير رحلة غردون الى مقر عمله عن طريق سواكن والخرطوم ومنها الى بور وغندوكرو . وبوصوله عاد رؤوف بك الى مصر

ووصف سمو الامير اعمال غردون في خط الاستواء باسهاب واف فذكر التجريدات المختلفة التي قامت بها الجنود السودانية والمصرية واحتلاله لبـلاد نيام نيام ومكراكا ولادو وجميع الجهود التي بذلها في سبيل نشر النفوذ المصرى

و في عام ١٨٧٦ عاد إلى مصر فرحب به الخديو وخلفه البكبـاشي بروت من أفراد البعثة العسكرية الأميركية

وفي عام ١٨٧٧ إستعفى فخلفه على حكمدارية المديرية الاميرالاي ابراهيم فوزى بك . ثم الدكتور امين باشا (١٨٧٨ — ١٨٨٩) وكان ألمانيًّا اعتنق الأسلام وفي الفصول الخاصة به وصف لنا سمو الأمير جميع الادوار التى لعبها هذا الطبيب في مديريتنا المفقودة وكانت مـدته اطول مدة قضاها أجنبي في خدمة الحكومة المصرية في تلك البلاد. وقد شملها سمو الامير الجليل بعناية دقيقة استغرقت كامل الجزء الثاني من مؤلفه النفيس وعدة صفحات من الجزء الثالث فذكر لنا

كيف انتهت خدمته بل وحياته سنة ١٨٩٢ . فهو يصف بتفصيل دقيق اشهر رحلات الأجانب في تلك الفترة وأهمها رحلة الطبيب يونكر الألماني والكابتن كازاتي الايطالي وقد تناولا وصف تلك البقاع وعادات أهلها وحيواناتها وتعد كتبهما عن تلك البلاد مرجعا فاخراً لكتاب العصر الحديث

والجزء الثالث من هذا السفر يشتمل على هم حوادث الأقليم المصري من عام ١٨٩٠ الى ١٨٩٩ لما قامت حملة المستكشف الانجليزي ستانلي وبدأت الخطوات الأولى في سبيل انتزاع مديرية خط الاستواء من المصريين بعد جهود السنين الطوال وما بذل فيها من دماء مصرية والتمهيد لحوادث السودان التي انتهت بنشوب الثورة المهدية وضياع السودان

وضياع السودان هو الفصل الختامي للكتاب

في هذا الفصل يظهر لنا الأمير الجليل كما عرفناه جميعاً المدافع عن حقوق مصر في السودان بجميع الوسائل. فهو يستشهد بأقوال أقطاب رسميين من الانجليز ووثائق حكومية ورسائل ومجادلات برلمانية ... الخ وقد جمع فيه كل ما كتبه سمو الأمير للحكومة البريطانية من خطابات تتعلق بحقوق مصر في وادي النيل وما كتبه لامهات الجرائد الانجليزية وهذا الفصل يعتبر وثيقة نادرة في التاريخ المصري بالسودان . وفي ختام الفصل بين سموه اطماع انجلتره في امتلاك مديرية خط الاستواء المصرية والتي كان باحتلال مصر لها قدتم وضع يدها على وادي النيل برمته من منابعه في منطقة البحيرات الى مصبه في البحر المتوسط

وقد ذيل الكتاب بمراجعه التي عاونته على إخراج هذا السفر النادر من كتب عربية وانجليزية وفرنسية وألمانية . وهي تربي على الخمسين في عددها

ولا يخلو الكتاب ايضاً من فهرست مطول للاعلام التي ورد ذكرها ولا سيما القبائل والجماعات . فيسهل به الرجوع الى محتويات الكتاب

ان قراءة كل صفحة من صفحات هذا الكتاب التي تربي على الالف لتذكر المصريين بما كانت عليه بلادهم في القرن الماضي . فعلينا ان نذكر دائماً تلك الاقاليم الافريقية الشاسعة التي كانت تتألف منها الامبراطورية المصرية والتي كان يرفرف عليها في يوم من أيامنا المجيدة العلم المصري

وعلينا أن لا ننسى كلمة المغفور له الملك فؤاد طيب الله ثراه

« إن الشعب لا يدرك سر مستقبله حتى يرجع بذكراه الى ماضيه فيقدس تاريخ أسلافه ويقدر أعمال أبطاله »

« كولونيل »

المنسوجات القطنية في الشرق الادنى خلال العصور الوسطى

Cotton in Medaevial Textiles of the Near East; Carl Johan Lamm;
Librairie Orientaliste, Paul Geuthner, Paris; 1937

للاستاذ الدكتور كارل جوهان لام استاذ الفنون الاسلامية سابقاً بمعهد الآثار الاسلامية بالقاهرة

يذكر خريجو معهد الآثار الاسلامية وطلبتهُ محاضرات استاذهم القديم الدكتور كارل لام عندما كان يحاضرهم في الفنون الاسلامية منذ عام ١٩٣٣ . كما نذكر له بالاعجاب ابحاثه العميقة في الدراسات الفنية التي ينشرها حيناً بعد آخر في مجلة جمعية الآثار القبطية ومجلة الفنون الاسلامية التي تصدر باميركا Ars Islamica فان الاستاذ لام في طليعة المستشرقين المتضلعين من تاريخ الفن الاسلامي كما أنهُ يعد بين العلماء القلائل الذين أسدوا أجل الخدمات الى الفنون التي تتصل ببلادنا . ومن هؤلاء ڤييت وكريسويل وكونيل والمسز ديفو نشير والدكتور زكي حسن ومحمود احمد ومايرهوف

وليس الكتاب الذي يخرجهُ اليوم الاستاذ لام نتيجة لدراسة دامت عاماً أو عامين بل هو نتيجة موفّقة لابحاث استمرت اعواماً طوالاً قضاها يبحث وينقب عن كل ما ذكره المؤلفون القدماء والمحدثون في الكتب والمخطوطات أو ما شاهده من قطع المنسوجات التي وقع عليها نظره في المتاحف المصرية ومجموعات الهواة في مصر او متاحف البلدان الشرقية باوربا . فان النظرة الاولى التي يلقيها المطلع على صفحات الكتاب تجعله يدرك كيف استطاع الاستاذ لام ان يجمع شتات هذه المعلومات الفياضة الوفيرة ويقدم على عمل الرسوم الدقيقة التي استعان بها على شرح مؤلفه . ولكن الذين اطلعوا على مؤلفات الدكتور لام التي كتبها عن الزجاج الشرقي والخزف الاسلامي والمنسوجات الاسلامية وصناعة الخشب في مصر الاسلامية والتي كتبها في باريز وبرلين واستوكهلم والقاهرة وامستردام يعلمون ان مؤلفه الفخم في المنسوجات القطنية في الشرق الادنى كتبهُ على منوال مؤلفاته السابقة التي تكون جانباً معروفاً في مكتبة الفن الاسلامي . بينما مرجعه المظيم : — "Mittelalterliche Glaser und Steinschnitt arbeiten aus dem Nahen Osten„ المطبوع في جزئين كبيرين عام ١٩٣٠ ببرلين سيظل دائماً عملاً مثاليًّا ينظر اليه الباحث في الفن نظرة تقدير وحب واحترام

***

وأهم نقطة وفق اليها الدكتور لام في كتابه الجديد اثباته ان نبات القطن كان عنصراً

رئيسيًّا شاع استعماله في صناعة المنسوجات بدرجة كبيرة لم يكن أحد يتوقعها قبل اليوم

وفي مقدمة مشتملات كتاب الاستاذ لام الذي أخرجته باتقان مطبعة بول باربيه في القاهرة تلك الفصول الطويلة التي يبحث كل فصل منها عن بلد من البلدان التي استعملت القطن في منسوجاتها. وهذه البلدان التي تناولها الدكتور ، هي الهند وتركستان الغربية وآسيا الصغرى واليونان وبلاد العرب وسوقطرة والصومال وزنجبار والحبشة والسودان ومصر والنوبة وبلاد المغرب واسبانيا

وقد حلي الكتاب بخمس وعشرين لوحة فوتوغرافية جميلة تصور أهم قطع المنسوجات التي فحصها الدكتور لام ، سواء احتوت على نبات القطن أم لم تحتو عليه . ولا يدهش القارىء إذا علم أن هذه القطع النفيسة لا يشتمل عليها متحف واحد من متاحف الفنون بل منها ماوجده في دار الآثار العربية ومنها ماعثر عليه في المتحف الوطني في استوكهلم أو متحف تاريخ الثقافة بمدينة لند (Lund) أو متحف روهس للفنون والخزف في جوتنبرج . أو مما وجده في مجموعة والده المستر كارول روبرت لام ، وقد توفي منذ ثلاثة أشهر بقصره في روزلاج بناسبي ، كان من هواة الفنون المعروفين في العالم

وفضلاً عن تلك اللوحات المذكورة ففي الكتاب عشرات الرسوم التفصيلية للزخارف المنقوشة على قطع المنسوجات. تلك الرسوم من إبداع والدة المؤلف السيدة دورا لام. وهي ابنة أحد مشهوري كتاب الفنون والأمين السابق للمتحف الوطني في استوكهلم . وقد اشتركت السيدة الفاضلة مع ابنها في كثير من أعماله الفنية التي ظهرت في مؤلفاته السابقة

***

ولابد لنا ان نشير الى جهود أحد جنود الفن المجهولين فى مصر وهو الاستاذ مصطفى كامل إبراهيم الذى اشترك مع الدكتور لام فى نقل رسوم المنسوجات بطريقة لايشاركه فيها احد فقد عرفناه كثير التواضع يعطي لاعماله مسحة واضحة ، وأعماله عنوان طيب على روحه الفنية ومهارته الرائعة فى سبيل اعلاء شأن زخارف الفن الاسلامي

لقد أضاف الدكتور لام الى سلسلة أعماله كتاباً وأثراً نفيساً جداً سيزدهي به ثبت الكتب التي ألفت عن الفنون الاسلامية . وسيتحقق القارىء عند إطلاعه على ماورد بذيل كل صفحة من التعليقات والحواشي كيف أخرج الدكتور لام كتابه بطريقة علمية منظمة . والحق ان هذا الكتاب الفريد هو للدكتور لام بمنزلة مرآة مصقولة لعقله وتفكيره . ذلك العقل الذي يعرف كيف يحيط بموضوعه من كل نواحيه

عبد الرحمن

السل وعلاجه

تأليف الدكتور فيليب الشدياق — ٣٥٠ صفحة قطع المقتطف بنط ٢٠ — كثير الصور والرسوم
طبع مصر ويطلب من المؤلف وجميع المكتبات بالقاهرة والاسكندرية — ثمنه ٦٠ قرشاً صاغاً

اذا علمنا ان الاصابات بالسل الرئوي التي بُلّغ عنها في القاهرة بلغت ٢٣٠٠ اصابة وان الوفيات منها بلغت الالف في كل من سنتي ١٩٣٦ و١٩٣٧ ، وان عدد الاصابات التي بُلّغ عنها في الاسكندرية في كلّ من السنتين المذكورتين الف والوفيات خمسمائة ، وان مكاتب الصحة أبلغت سنة ١٩٣٧ انها تقدر المصابين بالسلّ الرئوي بـ ١٠١٤ في المليون اي ما يزيد على ١٦ الف مصاب في البلاد كلّها ، وانهُ اذا اضفنا الى اصابات السل الرئوي غيرها من اصابات سلّ الجلد الذي لا يبلغ عنهُ ابداً وسل الامعاء والعظام والكلى والمثانة وباقي انواع اصابات السل فلا يستبعد ان يبلغ عدد المصابين بها ٣٠ الفاً في القطر المصري والوفيات ١٥ الفاً ، ومعظمهم من الفتيان امل الغد ورجاء المستقبل

اذا عرفنا هذه الحقائق الاحصائية هالنا ماتعانيهِ هذه البلاد من فتك الدرن ونبهنا الى وجوب العناية ببث التعاليم اللازمة للوقاية منهُ وانشاء المعاهد الوافية للوقاية وللعلاج

فالخدمة التي اسداها مؤلف هذا الكتاب الدكتور فيليب الشدياق كبيرة لا تقوّم بمال سواء من الناحيتين العلمية والاجتماعية

فمن الوجهة العلمية ضمن فصول كتابهِ اوفى وأحدث ما يعرف عن مرض الدرن وانواعهِ المختلفة بعد درس مسهب وتخصص دقيق في اشهر معاهد السل في بلدان اوربا . فالكتاب من هذه الناحية يصحّ ان يكون في مكتبة كل طبيب ممارس

وقد طالعهُ صاحب السعادة الدكتور سليمان عزمي باشا استاذ الامراض الباطنية في كلية الطب المصرية فتفضل وكتب الى مؤلفهِ الكلمة التالية : « تصفحت مؤلف الدكتور فيليب الشدياق على مرض السل — الذي يعلم كل فردٍ فتكهُ بالانسان والحيوان — ومما لا شكّ فيهِ ان مثل هذا الكتاب ضروري جداً لقراء اللغة العربية لعدم وجود مثله بها . وهذا المؤلف غنيّ بمواضيعهِ واسناداتهِ وقد ناقش الكاتب كل نقطة في الموضوع واوضح آراء اساطين هذا الفن . واني اشكر الدكتور الشدياق على هذا العمل الشاق لانهُ لم يدخر جهداً في القيام بهِ خدمة للطب العربي »

أما من الوجهة الطبية العلمية فاننا نقف عند شهادة الطبيب الكبير عزمي باشا وهي شهادة لها مكانتها العالية من خبير

أما من الناحية الاجتماعية فقد وصف المؤلف ما يبذل في بلدان أوربا على أيدي الحكومات

والهيئات الأهلية لمكافحة الداء . خذ مثلاً مايقوله في صفحة ٢٥٥ مثالاً على النقد الانشائي :ـ هكذا يسير الداء في القطر المصري سيراً حثيثاً ويتفاقم ويعيث فساداً فما نحن فاعلون ؟ لدينا ٤٠٠ سرير في مصح حلوان . وأهل حلوان يتذمرون من وجودها ويطلبون إعفاءهم منها . وهناك مصح العباسية وسيتم إعداده قريباً (المقتطف : وقد تم فعلاً وافتتح بعيد صدور الكتاب) وحتى تاريخ نشر هذا الكتاب ليس في القطر المصري كله سوى ثمانية مستوصفات للأمراض الصدرية مع أنهُ لو كان فيه مائة مستوصف لما كانت كافية . فالذي عندنا من هذا القبيل ليس سوى نواة لعمل ينبغي أن تتسع دائرتهُ بلا إبطاء . وإذا عدنا في بحثنا إلى أهم نقطة جوهرية في هذه الخدمة الاجتماعية وتساءلنا عما فعلنا لوقاية الاطفال ومساعدتهم في أدوار المرض الأولى ، كان الجواب مع الأسف سلبيًّا . فأننا لم نفعل شيئاً البتة . وعلى الرغم من البرنامج الذي وضعتهُ وزارة الصحة العمومية وطالبت فيه بعمل هذه الانشاءات فليس في هذه الديار مؤسسة واحدة لتدرُّن الأطفال. وكان علينا أن نبدأ بمكافحة السل في الصغار لشدة استعدادهم على نحو ماذكرت قبلاً ، لالتقاط العدوى بأجهزتهم النحيفة وتدرج المرض إلى حالة التعقد الابتدائي . فاذا كانت الاصابة قوية رزح الطفل تحتها ومات . وإذا قلت المقاومة بعد سنين عاد المرض إلى الظهور في سن الشباب . ثم .. هل أنشئت مؤسسة واحدة من المؤسسات المعروفة عند الفرنسيين باسم واقيات Preventoria دفعاً عن الضعفاء من الاطفال عادية المرض أو ايقافاً لهُ عند حدّ ... »

فكتاب الدكتور فيليب الشدياق جامع بين الناحيتين العلمية والاجتماعية في دراسة السل ومكافحته اوفى جمع ويجب أن يذيع في مصر وسائر الاقطار الشرقية لان ذيوعهُ يسدي خدمة عظيمة الى صحة الشعوب العربية

مجلة جمعية الآثار القبطية

الجلد الرابع سنة ١٩٣٨ مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة
في ٢٠٨ صفحة ـ حجم متوسط

الذين يتتبعون تقدم الحركة الفكرية في مصر يستطيعون ان يقدروا الجهود الكبيرة التي يبذلها الاستاذ شارل بشتلي سكرتير جمعية الآثار القبطية حتى اضطرت في العام الماضي ان تتخذ لها اسماً جديداً بدلاً عن (جمعية محبي الفن القبطي) يتفق مع الاعمال العظيمة التي تقوم بها من تنظيم المحاضرات العلمية التي تدعو لالقائها اعلام المشتغلين بالفنون والآثار الى جمع البيانات عن الآثار القبطية والقيم بالرحلات وتنظيم المعارض وتركيز الدراسات الأثرية واللغوية تركيزاً

يسهل الافادة منها ... كل ذلك فضلاً عن إصدار المجلة العلمية السنوية وهي « مجلة جمعية الآثار القبطية »

بين يدينا العدد الرابع وهو يشهد بأن المجلة نمت نموًّا سريعاً حتى أصبحت اليوم من خير المجلات العلمية التي تصدر في العالم وخيرما يصدر في مصر على الاطلاق . وذلك بما فيها من آثار جمهرة الكتاب الاخصائيين

ويشتمل هذا العدد على إثني عشر مقالاً أولها للاستاذ فرانسيس جرافيت من أساتذة جامعة متشيجان تحدث عن « بيرسك والدراسات القبطية في القرن السابع عشر الميلادي » . والمقال الثاني كتبهُ الاستاذ لام الذي كان مدرساً للفنون الاسلامية في معهد الآثار بكلية الآداب . وموضوع هذا البحث دراسة المنسوجات الصوفية المطرزة في العصر القبطي . وقد كتب الاستاذ ديلاسي أوليري بحثاً عن تخريب المعابد المصرية القديمة على يد المسيحيين ذكرنا بما كان بعض علماء الغرب يأخذونه على العرب من تخريب بعض الكنائس أو تجريدها من بعض الاعمدة والتيجان

وكتب الاستاذ هنري مونيه سكرتير الجمعية الجغرافية الملكية مقالاً في نشوء المسيحية في جزيرة فيلة . ومن أطرف ما في هذا العدد مقال الدكتور جورجي صبحي بك عن بعض العادات والطقوس والكلمات الباقية من العصور المصرية القديمة في حياتنا اليومية الى الآن . وكتب الاستاذ الدكتور كونيل مدير المتحف الاسلامي ببرلين مقالة عن الاساليب الفنية القبطية في المنسوجات الاسلامية . ولسنا في حاجة الى ان نشيد بذكر الدكتور كونيل فهو حامل لواء الفنون الاسلامية في العصر الحاضر . وقد عرف عنه في أبحاثه الدقة والخبرة الواسعة وحسن الذوق والاطلاع الواسع

وكتب الاستاذ فييت مدير دار الآثار العربية بالقاهرة بحثاً نفيساً عن العلاقات السياسية بين المصريين والحبش في عصر المماليك . وكلنا نعلم ان الاستاذ فييت من الاخصائيين القلائل في دراسة عصر المماليك والقبط . فلا غرو ان جاء مقاله بحثاً مستفيضاً عن العلاقات المصرية الحبشية يزيح لنا النقاب عن أحداث سياسية هامة

ولا نستطيع ان نلم هنا في هذا العرض القصير بكل ما جاء في العدد الرابع من مباحث . ويكفي أن نذكر أسماء المساهمين في تحريره وهم الاساتذة جراف وتيل ودريل وبورمستر ويونكر ويسّى عبد المسيح عدا من تقدم ذكرهم وتمتاز مقالاتهم بالجدة والطرافة والعمق

فجمعية الآثار القبطية جديرة بالتهنئة على الجهود العظيمة التي تبذلها وعلى النجاح الذي لقيته منذ ظهورها ونحن نهنىء القائمين بها من كل قلبنا ونرجو لها التوفيق والتقدم المضطرد (....)

ديوان الجارم

في جزأين طبع مطبعة المعارف

لأستاذنا وصديقنا علي بك الجارم رأيٌ في الشعر العربي وجماله . سجله في المقدمة البليغة التى كتبها فى الجزء الاول من ديوانه . وهذه المقدمة على ايجازها تعتبر مقياساً جديداً لتذوق الشعر العربي . وان كان هذا المقياس غير محدود الموازين ولا مضبوطها دائماً ، وانما هو مقياس ترجع اغلب الوحدات القياسية فيه الى الحس المرهف والشعور الدقيق

لقد حاول كثير من نقاد الشعر أن يشرِّحوا القصيدة تشريح الأجسام الحية . فاذا استطاعت أن تقف بعد عملية التشريح البشعة أمام مباضعهم الحادة ومشارطهم المرهفة فهي تستحق أن تسمى شعراً والاَّ فهي كلام موزون . ويخيل اليَّ أن هذا النوع من النقد معتسف كل الاعتساف ، ظالم أشد الظلم . فأن الزهرة الجميلة الناضرة تفقد كل معاني الجمال فيها إذا تناولتها يد بالتشريح والتنثير والتجزيء . وما من شك أن هذه الجزيئات الصغيرة هي اللبنات والملاط والجص التي يتكوَّن منها جمال الزهرة وهيكلها الفتان . ولكن هذا الجمال الكلي يضيع إذا جزِّيء . ويفقد الحلاوة (وسر الاعجاب) إذا حلل . فجماله في كليته . وحلاوته في هيكله

ولو تابعنا هؤلاء الناقدين في استعمال مقاييسهم الظالمة لخرج أكثرمن نعدُّ من كبار الشعراء من زمرة الشعر العالي .... فمن السهل أن تمسك فأساً في احدى يديك ومعولاً في الأخرى وتقول : أني ناقد ... والأحرى بالحق أن يقال عنك : أنك هادم ... ولقد مات « شوقي » فاصبح تراثه الشعري في ذمة الزمن . والزمن أعدل الحاكمين

قضيت شطراً من ليلة من ليالي رمضان مع صديق كريم من رجال الطب ، ولهُ شعر ينشر فى الصحف المصرية . ولعل علي بك الجارم يسره أن يعرف انه كان موضع حديثنا فى تلك الليلة . ولم يكن حديثنا عن علي الجارم الاَّ حديثاً عن شعره . ناولني صديقي الطبيب الاديب الجزء الاول من ديوان الجارم . وأراني المآخذ الكثيرة التي يأخذها عليه ... وهو يعلم حبي لشعر الجارم . وبحكم الطبع لم يكن دفاعي عن شعر الجارم الاَّ دفاعاً عن شعري . فأني أخشى أن يعتسف الناقدون في شعري الى حد قد يضيع معه أمل الشاعر في تقدير الناس له . .

ولا يضير علي الجارم كما يقول بعض نقاده ــ أن قوله فى المديح ،، زين الحمى وفخر الحماة من دارج الكلام لامن متخيره، ولايضيره قولهم أن كلمة رنين فى البيت الآتي غيرمناسبة وكان الاولى أن يقال ضجيج أو أنين أو حداء .. والبيت هو

وانحاز للركب الذي من آدم مازال يزعجنا رنينُ حدائه

ولا يضيره قول النحاة منهم أن الباء تزاد فى خبر ليس وما . ولكنها لاتزاد فى خبر لا كما يقول فى مرثيته لسعد زغلول

وجرى يُخبّر لاالمسيرُبخاذل أملاً ولا نيل السهى بمحال

ولا يضيره قولهم أن النعت السببي يجب ان يكون مفرداً دائماً . ويراعى فى تذكيره وتأنيثه مابعده : فتقول الرجال خاشعة ابصارهم . والنساء خاشعةابصارهنَّ لا كما يقول الجارم فى قصيدة دمعة على صديق

يمشي الرعيل نواكساً ابصاره من بعد ماعبث الردى بحماته

وكان الأولى والاصح أن يقول ناكسة ابصارهم

ولا يضيره ان يقولوا ان الجارم مولع باستعمال الكنايات عن الموصوفات . وهو ولوع — كما يقولون — لايدل على شاعرية وانما يدل على صناعة عرف بها شعر الجارم . فهو يقول سليل الطين [1] بدلاً من الانسان ، ويقول ابن الليل بدلاً من القمر ، ويقول بنت [2] عدنان بدلاً من اللغة العربية محاولاً بذلك ان يقلد كنايات القدماء الجميلة المنثورة في كتب الادب والشعر

لا يضير الجارم الفحل شيء من هذا . فعدي بن زيد لم يضره قول الناقدين ان قوله ويلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلب عندكم موثوق

خطأ والصواب موثق . والحارث بن حلزة لم يضره قولهم أن قوله

أجمعوا امرهم بليل فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

خطأ والصواب أصبح لان الضوضاء مذكرة . وأبو تمام لم يضره قولهم ان قوله

ولو كانت الارزاق تجري على الحجا هلكنَ اذاً من جهلهنَّ البهائم

خطأ والصواب هلكت لان الفعل لا يأخذ فاعلين . وبالامس أقاموا الدنيا وأقعدوها على شوقي بك لانهُ أنث الرفات والواجب تذكيره في قوله في رثاء سعد

يا رفاتاً مثل ريحان الضحى كللت عدن بها هام رباها

الجارم شاعر ولكننا لانستطيع أن نفض خاتم السحر في شعره كما يقول هو عن البحتري. وأنا شخصيًّا لا أستطيع أن أفهم لماذا أحب حبًّا جمًّا شعر شوقي وعلي محمود طه واحمد محرم وعلي الجارم

كنت أتحدث مع أديب كبير عالي الثقافة كثير الانتاج ، عن النقد والأدب والشعر فقال أن النقد العربي فوضى غير مضبوط ولا محدود وليست لهُ عند العرب مقاييس محدودة . وأني

(١) ج ٢ ص ٤٦ سطر ٦ (٢) ج ١ ص ١٥٧ سطر ٦

أرى في هذا المقام أن مقاييس الأدب غير مقاييس الشعر . فليس من الهين أن تضع للشعر — وخاصة الشعر العربي — مقاييس محدودة متمايزة . فمثل هذه المقاييس يذهب بالجمال الشعري .

وليس الجارم شاعراً باعتبار المقياس الذي وضعه هو في مقدمته للجزء الأول . وانما هو شاعر باعتبار كل نفس تحس الجمال وتدركه — تحسُّ بهِ في اللفظ المختار ، وفي الكلمة في موضعها ، وفي المعنى في سموه ، وفي الاسلوب في قوته ، فتطرب لكل هذه الامور مجتمعة

وللجارم ميزة ظاهرة في شعرهِ الرصين وهي الانسجام اللفظي او ما يعبر عنهُ بالانجليزية « Rythm » — هذا الانسجام او الموسيقى اللفظية هي بلا شك — كما يقول « Lascelles Abercrombie » في كتابه أصول النقد الادبي — أهم وسائل الانتفاع بالاصوات في الفن الادبي لان هذه الموسيقى هي اكبر أثر فعال في خلق ذلك الجزء من العاطفة او الشعور الذي لا يمكن ان تحيا الاختبارات النفسية بغيره . وهذه الموسيقى هي التي ميزت شعر شوقي ، وشعر علي محمود طه ، وشعر الجارم . وهذه الموسيقى بعينها هي التي ترفع كثيراً من النثر الى مرتبة الشعر مع خلوه من الوزن والقافية

يتهمون علي الجارم بأنه شاعر مناسبات ... وأنا نفسي مكوي بنارهذه التهمة . . وما أبرع النقاد في صب الاتهام ! فالشاعر في عرفهم هوالذي يصور الطبيعة ويصف « الجدول الحالم » أو « الناعورة المذعورة » أو « البلبل المغرد » أو يقول في الحب والعاطفة .. حتى ولو كان قوله هراء وتصويره سخيفاً أو كاذباً .. وغرامه خيالاً

وقد ناقشت أحد هؤلاء النقاد — وهو شاعر أطرب لشعره — وكانت المناقشة أمام حضرة رئيس تحرير المقتطف وبينت له أن شعر المناسبات هو نوع من الشعر لا يحسن كل شاعر الكلام فيه . . . أو أنهُ مثل غيره من ضروب الشعر اعراب عن شعور خاص تثيرهُ المناسبات الخاصة

ولقد كشفت لي السنوات التي قضيتها في انجلترا عن « الشاعر جون مايسفيلد » شاعر العرش فما مرت مناسبة قومية من غير ان يخلدها في شعره . وقصيدته فى الاحتفال بانزال الباخرة الجبارة « كوين ماري » الى البحر لاتزال ترن فى الآذان

*

أن الكلام عن ديوان الجارم أتاح لى فرصة اعبر فيها عن بعض رأيي فى الشعر ومقاييسه أما رأيي كله فسأفصله ان شاء الله فى مجال آخر. وأهلاً وسهلاً بالديوان العربي المتين

محمد عبد الغني حسن

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الثالث والتسعين

